كلية العلوم الانسانية والاجتماعية - تونس

السلسلة : تاريخ 4

المجلّد : XXXII

المدينة والبادية بإفريقيّة في العهد الحفصي



الجزء الأوّل



محمّد حسن

جامعة تونس الأولى - 1999

تمهيد

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

أبو العلاء المعرّي

لئن اقتضى الاهتمام بالتاريخ عموما والتاريخ العربي الاسلامي خصوصا اطلاعا شاسعا على مصادره ومقارباته ، فان اختيار مواضيع البحث احتاج الى خطة متكاملة تتداخلت فيها الادوار وساهمت فيها الفرد والمؤسسات البحثية بطرق متفاوتة.

وبديهي القول إن أسلافنا كان لهم فضل السبق في دراسة عديد الجوانب التاريخية ، و خصوصا المجال السياسي العسكري الذي حظي بعناية كبرى غير أن تاريخ بلاد المغرب الاقتصادي والاجتماعي ظل حلما راود الكثيرين، ومشروعا لم ينجز منه الا القليل. ولم تنقص أهميته، رغم تعدّد المناهج وتجدّد المقاربات التاريخية .

ولا شك أن المؤرّخين العرب عموما والمغاربة خصوصا في حاجة الى رسم خطة واضحة المعالم، لفرز الهامشي من الاساسي، استشرافا للمستقبل.

وفي هذا الصدد، نعتقد أن الاشكالية التي اخترنا دراستها، وهي جدلية العلاقة بين المدينة والبادية، تمكننا من إماطة اللثام عن جوانب غامضة من تاريخ افريقية الاقتصادي والاجتماعي و حضارتها عهد الحفصيين، وتبيّن لنا مظاهر الوهن والتطوّر في الآن نفسه، وصولا الى التطرق الى جذور الركود



والتخلف الذي عرفته البلاد العربية عموما في أخر "العصر الوسيط". تخلو القضية من جدل، وقد حاولنا طيلة البحث التحليل الدقيق والتحري في الاستنتاج تارة وتفنيد بعض المزاعم أو اثبات ما رأيناه صحيحا طورا.

وسعيا الى بلوغ هذا الهدف، فضلنا تشريح المجتمع من الداخل واختراق البنى المكونة له، على الرؤية العامة والتنظيرات. ولم يكن ذلك ممكنا لو اتبعنا المسلك الميسّر واقتصرنا على الرجوع الى بعض المصادر دون غيرها، فجاءت مقاربتنا تاريخية وأثرية في الآن نفسه.

وعموما أنستنا لذّة البحث تعب السنين الطوال (نحو ثلاثة عشر سنة) التي قضيناها متنقلين بين رفوف المكتبات التونسية والعربية والفرنسة والاسبانية والايطالية. والى جانب المصادر والمراجع المعهودة، أفدنا أحيانا من الأعمال التي أنجزت أثناء هذه الفترة، فأحلنا إليها.

وقد ساعدتنا على انجاز هذا العمل أطراف عديدة، نذكر من بينها المؤسّسة الجامعية التي احتضنته منذ بدايته الى حدّ الطباعة والنّشر، والاستاذ المشرف الدكتور هشام جعيط الذي تعهّد البحث برعايته، فله مني كل الامتنان.

أما الاساتذة و الباحثون و الاخوة الذين وفروا لي مصنفا أو مقالا، أو قدموا لي خدمة علمية، فهم كثيرون. و يطول ذكر أسمائهم، وإني لأعترف لهم بالجميل.

ولا يفوتني التنويه بأهلي الذين أحاطوني باهتمامهم ووفروا لي الظروف الملائمة للبحث.

المقدمة

احتاج انجاز العملية التاريخية في مرحلتيها : التفكيك والتألفة، الى عناصر ثابتة ملازمة لهذه الصناعة ملازمة الاكسير للكيميائي، وهي الزمان والمكان والمدلول.

والزمان لدى الجميع، وإن اختلفوا في الأولية، سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي وذهني. ومهما كان امتداده، فان الانتقال من زمان الى أخر يحصل وفق طريقتين مختلفتين: الأولى بكيفية فجئية والثانية تطورية، وحسب المصطلح الخلدوني: **انقلاب الاحوال أوالتدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة.**

وفي كل الاحوال فان التحقيب لم يقتصر على تمثل بسيط لخط بياني في اتجاه أو أخر، أو مقابلة بين فترتين، بين التطور و التراجع، أو اختزال التاريخ في ثنائيات مبسطة : ازدهار وتأخّر.

والمتأمل للحقبة الممتدة بين العهدين الموحدي والعثماني يلحظ أن الغالب عليها هو حركة المد والجزر، التطور و التراجع، وان كان المنحى العام للخط البياني اتجه نحو الاسفل، وانتهى الى الهبوط في مستنقع صعب، تمثل في الركود الحضاري والاحتلال الاجنبي (1).

وهكذا عقب الصحوة التي حصلت مع الموحدين والحفصيين الاوائل ارتداد في فترات عديدة، وخاصة في أواسط القرن الثامن هـ /XIV م. وبعد أن تمكنت البلاد من استرجاع الانفاس داخليا وإعادة بناء الدولة، ابتداء من عصر أبي فارس عبد العزيز في القرن التاسع هـ و من وضع حد لحركات الانفصال، دخلت من جديد في دوامة من الاضطرابات بسبب تدخل القوى الأجنبية المتزايد في شؤونها وضعف السلطة المخزنية. وانتهى حكم بني حفص بفترة تفكك «إقطاعي» للمجتمع والدولة، وظهور الحركة الشابية و الاحتلال الاسباني.

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 47–46. العروي، **مفهوم التاريخ**، ج II. F. Braudel, **Ecrits sur l'Histoire**. (تحدث بروديل عن الزمن القصير والمتوسط والطويل).

وبديهي القول أنه من العسير على الدارس الالمام بمختلف مراحل هذه الفترة التي امتدت نحو ثلاثة قرون ونصف، وأن إشكاليات عديدة في تاريخ المغرب ظلت عالقة رغم الجهد الذي بذله بعض الدارسين المستشرقين والعرب في إماطة اللثام عن جوانب عديدة من تاريخ تلك الحقبة.

امتدت هذه الحقبة سياسيا بين هزيمتين في الاندلس: موقعة العقاب سنة 609هـ/ 1212م، وسقوط غرناطة سنة 897هـ/ 1492م، وبصفة أدق بين حدثين في افريقية يخصّان أسرة أحد مشائخ المصامدة: الاول قدوم أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الانتي الى افريقية وتوليه أمرها سنة 602 هـ / 1205م، والثاني فرار آخر الحفصيين الى صقلية عند انتصاب الحكم العثماني بالبلاد سنة 1574 م. وعلى صعيد آخر، فانّ بدايتها شهدت ظهور مركب الشيطي القادم من «بلاد الروم والفرنجة» الى عرض سواحل افريقية محملا بقماش الملف والكاغذ والتوابل والخشب والحديد وغيرها وأحيانا غازيا القرى والمدن الساحلية، بحثا عن العبيد والذهب أو الصوف والجلود. وعرفت نهايتها دخول السيف والرمح متحف الاسلحة فيما دوى البارود و اشتعلت نيران المدافع. وعلى الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، استهلت الفترة بظهور نمط جديد من الاستغلال الزراعي تجسد في نظام الخماسة. وفي المدن، ظهر أعيان من أصول جديدة، من المصامدة والأندلسيين و قواد علوج، أو من المنتمين الى صنائع ومهن ذات فاعلية في الاقتصاد والمجتمع مثل كبار الحرفيين والتجار والوسطاء في التجارة المتوسطية وأرباب الخطط.

وحصيلة القول، عرفت هذه الحقبة صياغة جديدة للمجتمع والعمران والاقتصاد والذهنيات، و شهدت تحولات جذرية في المجالين البدوي والحضري. وهو ما دعانا الى محاولة رصد هذه التطورات على مختلف الاصعدة.

أ) طرح الباحثين لجدلية المدينة والبادية:

ظلت الدراسات الخاصة بالبادية المغربية نادرة ومتفرقة، و مقاربة العلاقة بينها وبين المدينة عامة و ذلك بشهادة أحد المختصين في التاريخ الاسلامي الذي أقر أن هذا الموضوع يكاد يكون بورا، لقلة الوثائق، وحتى عند توفرها فانه لم يتعرض لمقاربة جدية (1). ولا يخفى علينا في هذا المضمار الصبغة المدينية للحضارة العربية الاسلامية. ولئن عاش أغلب السكان من الانتاج الزراعي، فان

(1) C. Cahen, **Communautés rurales**, Paris 1982, p. 10-11.

المدينة ظلت المقر الرئيسي للمؤسسات، فضلا عن امتلاك أهلها لجزء هام من الأرض. كما أنها ظلت المنتج الاساسي – وان كانت ليست الوحيدة – للثقافة الكتابية التي غالبا ما أهملت الحديث عن المزارع أو البدوي، ولم تذكره الا عرضا وبكيفية منحازة في الغالب عند تناول مسائل تخص المعاش والجباية والريع العقاري.

وقد حظي التاريخ السياسي بالنصيب الأوفر من البحوث، بينما لا نكاد نعثر على دراسة شاملة حول البادية المغربية، وعلاقتها بالمدينة. وإذا ما استثنينا بعض المقالات المتعلقة بالموضوع، فان الكثير من الدراسات جاءت صورة مطابقة للمصادر وتكريسا للرؤية التراثية للبدو، في استنكار حرابتهم وتخريبهم وسلبيتهم(1).

ولئن ندرت الدراسات ذات الصبغة الشمولية للاقتصاد والمجتمع ببلاد المغرب بصفة عامة، وعلاقة البادية بالمدينة خصوصا، فان الجدل الذي انطلق من تأويل التاريخ السياسي لبلاد المغرب، دون رصد دقيق للظاهرات الاقتصادية، لم يكن غائبا منذ بداية الفترة الاستعمارية.

فقد بدأ النقاش حول طبيعة العلاقة بين المدينة والبادية منذ أن قدم «قوتيي» أطروحته حول العصور المظلمة بشمال افريقيا، وطبع هذا العمل لأول مرة سنة 1927م، ثم أعيد طبعه سنة 1937م، تحت عنوان مغاير: «ماضي شمال افريقيا».

و توصل هذا الجغرافي انطلاقا من تأويله لمقدمة ابن خلدون الى أشبه ما يكون بحتمية تاريخية حول العلاقة التناقضية بين البدو والحضر، مركزا على دور البدو الزناتيين والهلاليين التخريبي.

وتحدث « روبار برانشفيك » عن فضاعة الغزو الهلالي الذي أدى الى تحطيم التوازن السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمدة طويلة. وعنون هادي إدريس فصلا من أطروحته الكارثة الهلالية. و نحا آخر منحاه، مبينا أن المستقرين حافظوا على تقاليد الرومنة، وذلك خلافا للبدو(2).

(1) راجع مثلا الأطروحات التالية: G. Marçais, **Les Arabes en Berbérie du XI eme au XIV emes.**, Paris 1913.
R. Brunshvig, **La Berbérie Orientale sous les Hafsides**, Paris 1940.
H. R. Idris, **La Berbérie Orientale sous les Zirides**, Paris 1962.

(2) E. F. Gautier, **Le passé de l'Afrique du nord**, Payot, Paris, pp. 403-419
R. Brunschvig, op. cit., p. 2.
X. De Planhol, **Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam**, Paris.
Idris, op. cit., **TI**, p. 206.

على أن القضية أخذت منعرجا مختلفا بعد استقلال بلدان المغرب ، إذ انبرى عدد هام من الباحثين لاعادة النظر في الكتابات التاريخية السابقة وتخليص الماضي من شوائب الفكر الاستعماري . فتحدّث بونسي عن أسطورة الكارثة الهلالية، فيما حاول آخرون تعديل النظرة الى البدو (1).

و في بداية العقد الحالي، وقع تنشيط هذا الجدل إذ تعرض باحث بالنقد للتفسير الكوارثي للغزو الهلالي، متخلصا الى تواصل التمدن بافريقية بعد القرن الحادي عشر(2).

ومن جهة ثانية فقد تمحورت دراسة العلاقة بين المدينة والريف حول إشكالية الاقطاع الاسلامي. فكيف طرحت هذه المسألة وما هو مدى ارتباطها بالموضوع؟

منذ سنة 1936م ، طرح بولياك مسألة الاقطاع في العالم الاسلامي بكيفية عامة، ملاحظا أن خصوصيات ميّزته عن الاقطاع الأوروبي ، أهمها :

– استقرار الاقطاعيين المسلمين بالمدن، خلافا للتشتت الاقطاعي في الغرب المسيحي في القصور الريفية .

– وجود نظام الحماية في المجتمعات الاسلامية .

– حرية المزارعين في المجال الاسلامي خلافا لارتباط الاقنان بالارض في الغرب الاوروبي (3).

ثم أعاد كلود كاهان طرح المسألة ، معارضا تطبيق الانموذج الاوروبي على المجال الاسلامي . ولاحظ منذ البداية أن القطيعة الاسلامية في خصائصها وجذورها تختلف عن الاقطاع الاوروبي ، إذ أن الدولة تقطعها من أملاكها وتمنحها للمنتفع لاستغلالها ، وليس لامتلاكها أو ممارسة السيادة عليها . وفي دراسة ثانية حول الفيودالية لم يقتصر على نفي استعمال هذا المصطلح في المجال

---

(1) J. Poncet, Le mythe de la catastrophe Hilalienne, **Annales E.S.C.**, 1968, p. 1105-1105.
C. Cahen, Quelques mots sur la Hilaliens, J.E.S.H.O., vol. XI , mars 1969.
Y. Lacoste, **Ibn Khaldoun ,naissance de l'histoire**, Paris 1966.
J. Berque, **L'Intérieur du Maghreb**, Paris 1978 .
راضي دغفوس ، العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال ، **مجلة أوراق**، عدد IV، 1981 .
(2)Y. Thébert, De la cité antique. In **C .T.** , avril 1986 .
(3) A. N . Poliak, La Féodalité Islamique, In **R.E .I**. 1936, N°. 10, pp. 247-265.

الاسلامي ، إنما أبدى احترازا من تطبيقه في الغرب الاوروبي . وتوصل الى ضرورة توفر شروط عديدة للحديث عن الاقطاع ، أهمها :

– هيمنة الضيعات الكبرى : اعتبارا لوجودها في كل أنماط الانتاج ، أقر أن الخط الفاصل بين الفيودالية وغيرها هو إعفاء الاقطاعي من الخضوع للقوانين العامة ، مثل دفع الجباية وتمتعه بسلطة واسعة على المزارعين النازلين بالضيعة ، شملت الادارة والقضاء والجباية والقيادة العسكرية . وقد تمثل أساس الفيودالية في منح الارض مقابل خدمة يؤديها المنتفع الاقطاعي للدولة و أخرى يقدمها القن للاقطاعي .

– علاقة تبعية المزارعين لاطراف أخرى : نظرا الى وجودها في عدة منظومات اقتصادية ، فقد اشترط للحديث عن الفيودالية حيازة المزارعين الأرض .

– التفكك السياسي : لاضفاء صبغة الاقطاع على هذا التفكك، يجب أن يقع في إطار هيكل سياسي موحد ومعترف به ، وهو المملكة الحاكمة ، وأن تكون سلطة الوالي مستمدة من قوته الشخصية وليس من تعيين الامير له.

– نشأة أرستقراطية عسكرية قوية .

وبالتالي فقد أقر أنه لا يمكن أن يعتبر فيوداليا الا النظام الجامع لهذه الخاصيات الاربعة. أما إذا توفرت بعض الشروط دون الاخرى، فانه فضّل الحديث عن التأقطع أو التطور نحو الاقطاع . وقد فرق بين الفيودالية الأوروبية والاقطاع الاسلامي ، الذي ارتبط بالاستغلال أو الجباية للمنتفع ، ولم يخص سوى قسط محدود من الارض، حتى في فترات الذروة لانتشاره (1).

ونحت عديد الدراسات منحى المستشرق الفرنسي . فقد سحب لامبتون هذا الانموذج على المجتمع الفارسي ، مشيرا في الآن نفسه الى قدم مؤسسة الاقطاع الراجعة الى العهد الساساني والى الاختلاف بين الاقطاع والفيودالية التي لم توجد بالمجال المدروس. وقسم الاقطاعات الى خمسة أصناف : ما يمنحه السلطان من عقارات الي أفراد أسرته، الاقطاع الاداري، الاقطاع العسكري، اقطاع الموظفين وأخيرا ما يتحصل عليه السلطان نفسه (2).

---

(1) C. Cahen, L'évolution de l'Iqta' du XIeme au XIIIeme s. , **Annales E.S.C** 1953 , pp. 25 -52.
Reflexions sur l'usage du mot de féodalité, **JESHO**, 1960, n° 3, pp. 2-20
La communauté rurale dans le monde Musulman médiéval, Les Communautés Rurales (II partie), **Recueils de la societé Jean Bodin**, Paris 1982 , pp. 9 -27.
(2) A . S . Lambton, Reflexions on the Iqta', **Arabic and Islamic Studies.**

أما مقاربة الجغرافيين للمسألة ،فقد تبلورت أساسا في أطروحات «بونسي» الذي نفى وجود الفيودالية بالبلاد التونسية قبل الاحتلال الفرنسي، وحاول إثبات وجود اقتصاد مندمج بين المدينة والريف ، نافيا العلاقة الاستغلالية بين الطرف الاول والطرف الثاني . ولاحظ أن الخماسة ليسوا أقنانا لعدم ارتباطهم بالارض و أن الملكية الخاصة والملكية الجماعية للأرض هما المعطى الاساسي في العلاقات الاجتماعية، مقللا من شأن الاحباس والاقطاعات (1).

كما عارض عدد آخر من الباحثين مقولة الاقطاع في العالم الاسلامي عامة، وبلاد المغرب خاصة . وقد انطلق أحدهم من مسألة تبعية الريف للمدينة، مبينا أن المدينة ذات النسبة السكانية المحدودة لا تتجاوز سيطرتها الفحص المحيط بها ومستخلصا أن الاقطاع الاوروبي لا يمكن أن نسحبه على الحضارة الاسلامية (2).

وساند الاطروحة النافية لوجود الفيودالية ببلاد المغرب لاكوست ، معتبرا أن الوحدة الاساسية للمجتمع المغربي هي القبائل ذات الطابع العسكري والصبغة الديموقراطية ،التي كونت نوعا من الجمهوريات المشاعية المستقلة . غير أنه تخلص في آخر المطاف الى القول بأن المجتمع المغربي ليس مجتمعا قبليا صرفا لوجود أرستقراطية تجارية وعسكرية هامة، ولا مجتمعا رقيا لعدم مشاركة الرقيق مشاركة فاعلة في الانتاج . و بينت البحوث، على عكس ذلك، فاعلية الرقيق في الزراعة بافريقية على العهد الاغلبي(3)

ولئن اعتبر ماكسيم رودنسن أن العلاقات الرأسمالوية هي السائدة في المجتمع الاسلامي في القرون الاولي ، فان باحثا آخر ذهب الى أن الماركنتيلية الطفيلية هي الخاصية الاساسية لاقتصاد بلاد المغرب في آخر العصر الوسيط (4).

وتوصلت باحثة أخرى الى أن المجتمع المغربي تميز بوجود تقنيات ضعيفة

(1) J. Poncet, Statut foncier et rapports sociaux dans la Tunisie d'avant 1881.
Idem, Remarques sur les rapports entre villes et campagnes dans l'ancien Maghreb In : **Sur le Féodalisme**, Paris 1974 (Editions Sociales), pp. 189-210, 211-220.

(2)A . Prenant, Le rapport ville - campagne dans l'histoire du Maghreb, Ibid, p. 2171-172, 218-220.
A. Noushi, Reflexions critique sur le dossier : L'Algérie précoloniale, Idem, pp. 181-188

(3)Y. Lacoste, **Ibn Khaldoun : naissance de l'Histoire, passé du tiers monde**, Paris 1966, p. 37.
M. Talbi, Droit et Economie en Ifriqiya au II : IX s. In **Etudes d'Histoire Ifriqiyenne**, Tunis 1982, p.185.

(4) M. F. Vidiassova, Le Maghreb médieval : mercantilisme parasitaire ou societé productrice, In **Anaquel de Estudios Arabes** n°3, 1992.

أقل تطورا مما كانت عليه في العصر القديم، وبالتالي بركود قوى الانتاج وتوزيع «عادل» لوسائله ، وتحدثت عن نمط انتاج عتيق (1).

وانطلق أحد المستشرقين الاسبان من نفس التعريف الذي أقترحه كاهان للفيودالية، موضحا ضرورة الالمام بقضايا الريف والمدينة والتمدن والتجارة والادارة لمقاربة هذا الموضوع . و أستنتج أن المجتمع الاندلسي زراعي في الاساس، وأن جل مصادر ثروة الدولة متأتية من الجباية الداخلية والخارجية. فقد كان المزارعون يدفعون جملة من الجبايات نقدا أو عينا للدولة التي أدخرت نحو ثلث المداخيل ، وهو ما اعتبر فائضا قويا مكنها من تنظيم عملية الانتاج ومراقبتها وتوزيعها . وأطلق عليه نمط الانتاج الاتاوي، مبرزا أن المجتمع الاندلسي تتحكم فيه نواميس القانون والحرية، ولا وجود لمظاهر القوة من غارة وحرب وبنية عسكرية مميزة للمجتمع الاقطاعي (2).

وقد تبنى هذا الطرح النظري مختصان في تاريخ الاندلس : الاول إسباني ميكال برسلو والثاني فرنسي بيار قيشار الذي اتخذه إطارا مرجعيا في أطروحته حول شرق الاندلس، معتبرا أن المنظومة الاتاوية تمحورت حول علاقة الدولة المهيكلة بالمجموعات المحلية المالكة لأغلب الاراضي ، والمتجسدة في نظام الجباية ، وأن هذه الصياغة النظرية تمكن من بلورة صورة بلاد الاندلس اللا– إقطاعية ،

(1) L. Valensi, Archaïsme de la société Maghrébine, Ibid, pp. 223-233. Galissot, Les rapports ville-campagne, Ibid, pp. 233-243, 257-270.
T. Chentouf, Où en est la discussion sur le Mode de Production de l'Algérie précoloniale, In **Revue Alg. des Sc juridiques, éco. , et politiques**, N° 2, Juin 1973, pp. 465-485.

(2) راجع : سمير أمين : **الطبقة والامة والتاريخ في المرحلة الامبريالية** ، بيروت1979 .
نفسه ، **التطور اللا متكافئ**، بيروت1987 (تعرض بالنقد للنمط الآسيوي الذي حاول تطبيقه أحمد صادق سعد على المجتمع المصري في تاليفه ست دراسات في نمط الانتاج الآسيوي ، بيروت 1979، ص 164 ، مقترحا تعديله الى النمط الخراجي الماركنتيلي في مرحلة أولى، ثم تراجع بدوره عن ذلك وتحدث عن النمط الاقطاعي المنحط).
ويتضح أن الاختلافات بين الدارسين مردها في كثير من الاحيان دغمائية مسقطة أو عدم أتفاق على تحديد المفهوم أو معرفة سطحية للحقائق التاريخية، ذات التعقيدات والابعاد المتعددة . ويمكن أن ننطلق في هذا الصدد من المقومات الاربعة التي حددها كلود كاهان للحديث عن الاقطاع ، وهي : هيمنة الضيعات الكبرى وتبعية إقتصادية وشخصية للمزارعين المقطعين وتفكك سياسي ونشأة ارستقراطية قوية .
P. Chalmetta, Le problème de la féodalité hors de l'Europe chrétienne : Le cas de l'Espagne Musulmane **In Actas del II Coloquio Hispano -Tunicino**, Madrid 1973, pp. 91-115.
Idem, Al-Andalus : Société féodale ? In **Le Cuisinier et le philosophe**, Hommage à Maxime Rodinson, Paris 1982 ,pp. 179 -190.

على خلاف المجتمعات الاوروبية الفيودالية ، مبينا أن العلاقة بين الريف والمدينة تظل الاشكالية الاساسية لبحثه (1).

ومهما كانت نوعية المقاربات المعتمدة ونتائج هذا الجدل ، فان مسألة البادية والمدينة ظلت محورا له. وقد سبق أن أقرّ ابن خلدون بأوّليّة البادية في نشأة العمران وبأهميّة جدليّة البدو والحضر في قيام الدول وتطوّرها.

وتطرق الباحثون العرب الى هذه المسألة ، إذ نبّه باحث قدير الى أهمية هذا الموضوع في التاريخ العربي الاسلامي عامة ، والمشرقي خاصة ، في قوله : لقد عاش العالم الشرقي أكثر من كل فضاء آخر جدلية قوية بين التحضير والترحل.

وتظل تلك الحركة الذهابية-إيابية بين المجالين، القاسم المشترك لكل الحضارات وكل الازمنة . وقد يحتد هذا الجدل حينا، أو يتضاءل أحيانا أخرى، لكن لا يمكن أن ننكر في كل الاحوال فاعلية طرف من الاطراف .وبالتالي فان دراسة المدينة والبادية معناه أولا اعتراف مبدئي بالدور الحضاري لكل مجال، إذ وفر كل واحد مادة للحضارة، «فلقد صنعت المدن الظاهرة التاريخية عند العرب مهما كانت هذه المدن منسابة قليلة العدد في خضم عالم البدو. أما الزاد الثقافي، فمصدره المادة البدوية، وهو في آن مقبول ومرفوض، ممجد وممقوت» (2).

وفيما يخص بلاد المغرب ، توصّلت الدّراسات الى توضيح فاعلية الرقيق في التطوّر الاقتصادي الحاصل بافريقيّة في الحقبة الكلاسيكيّة في تاريخ المغرب ، ومدى دورهم في تغيير المشهد الزراعي في الضياع الشاسعة (3).

كما تعرّض مؤرّخ آخر في مقالين عن نظام ملكية الارض في الغرب الاسلامي وعن الجدلية بين المدينة والمجتمع الريفي المغربي في العصر الوسيط الى هذه الاشكالية ، مبينا أنه لا وجود لصيغة واحدة للعلاقة بين المدينة والريف، أو لنمط واحد للانتاج (4).

ولئن عسر حسم مثل هذ القضايا ، و اتضحت في الغالب عدم نجاعة اخضاع المجتمع المغربي الى قوالب نظرية جاهزة (5)، فان الباحثين الأوروبيين والعرب في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد أجمعوا على أن جدلية

(1) P. Guichard, **Les Musulmans de Valence et la Reconquête**, Damas, 1990, T I, pp. 19-24

(2) هشام جعيط ، **الكوفة ، نشأة المدينة العربية الاسلامية** ، الكويت 1986، ص 247،244.

(3) M . Talbi , Droit et Economie en Ifriqiya au II / IX s. In **Etudes d'histoire Ifriqiyenne**, Tunis 1982 .

(4) الحبيب الجنحاني ، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي** ، بيروت 1986، ص 209.

(5) تعرض ابراهيم القادري بوتشيش (**أثر الاقطاع في تاريخ الاندلس السياسي** ، الرباط 1992، ص 37-65) الى الاسباب المفسرة لصعوبة تحديد التشكيلة المغربية .

المدينة والبادية هي المفتاح لمعرفة خصائص المجتمعات الوسيطية ومستواها الحضاري .

2) المقاربة المنهجية المعتمدة :

ان تسليط الأضواء على البادية بمعناها الواسع المتضمن للمزارعين بالريف والبدو الرحل ، وعلاقتها بالمدينة يبدو أمرا ملحّا ومهمة أكيدة للمؤرخ لرصد علاقات الانتاج و آليات التطور الاجتماعي والثقافي ومراحله ، وصولا الى تحديد أسباب الركود الحضاري بالبلاد العربية – الاسلامية عامة وبافريقية على وجه الخصوص .

ومما دفعنا الى تناول هذا الموضوع أن مخلفات هذه العلاقة المتشابكة بين الطرفين لم تمح من الذهنية العربية المعاصرة ، وظلت رواسبها عالقة بالمخيال الجماعي ، تعتمل فيه بايجابياتها وسلبياتها.

ولقد تفطن عبد الرحمان بن خلدون الى خطورة هذه الاشكالية في عصره و بذل جهدا تنظيريا متميزا في تحليل مختلف الجوانب ، تحليل العارف بخبايا المجتمع المغربي ، غير المتقوقع في فئته الاجتماعية . وهي نظرة متقدمة في عصر متأخر سادت فيه الشروح والمختصرات الفقهية و رؤية التعصب للعلماء الرافضين للآخر البدوي والريفي والعامي . وقد مثّلت أفكار هذا المؤرخ الجانب المضيء من حضارة تلك الحقبة ، فجاءت متطورة في صياغتها وأبعادها ، مقارنة مع ما هومتداول وقتذاك . و كان سباقا في دراسة هذا الموضوع ، بآعتباره المؤسس لعلم مبتكر وهوعلم العمران البشري .

ان تناول هذا الموضوع بالدرس لا يعني الاقتصار على ما كتبه صاحب المقدمة حول العمران البدوي والعمران الحضري ، نظرا الى اختلاف المناهج المعرفية والغائيات ، و الى محدودية المادة التاريخية الوارد ذكرها في المقدمة .

وفي الجملة فان تناول هذا الاشكال لا يخلو من صعوبات جمة . فمنها ما هو متعلق بغموض الصورة حول البادية ، لقلة الوثائق ومنها ما هو مرتبط بالمنهج المتبع الذي احتاج الى حركة مد وجزر بين المجالين . وهو أمر يعني المرور بمراحل عديدة في العمل : تجميع المادة المتعلقة بالبادية والمدينة ، ثم صياغتها وفق هذه الاشكالية ، دونما اقتضاب مخل أو إطالة مشطة ، لاننا شعرنا أثناء معالجتنا للموضوع أن عدة جوانب تاريخية خاصة بالفترة يمكن اقحامها ، لكن دون فائدة ترجى . ولذا راعينا في اختيارنا للمعلومة وتبويبها طبيعة الموضوع ومدى ارتباطها به.

وبديهي القول ان دراستنا للعلاقة بين الطرفين لا تنطلق من الرؤية المبسطة

التي وضعت المدينة مع الريف وجها لوجه ، مختزلة للحقيقة ومحرفة لها ، إنما حاولنا تقديم تفسير أكثر شمولية ، فيه مظاهر تداخل المصالح بين الطرفين ، دونما تغافل عن جوانب الصراع الناجم عن وجود ريف « متخلف » ومدينة « متقدمة » . فالصورة لا يمكن أن تكتمل الا بتصفح للوجه والقفا ، وذلك هو معنى الجدلية بين الطرفين.

ولئن كانت الصعوبات المنهجية عديدة في هذا الصنف من المواضيع ، فاننا اقتحمنا هذه الاشكالية معتمدين على مقاربات تاريخية عديدة ، أهمها المقاربة الأثرية و الاجتماعية.

فالتنقيب الأثري وقراءة النقائش ودراسة المعالم والخزف أفادتنا في ضبط قائمة دقيقة للقرى و المدن بالبلاد الشرقية من افريقية ، و مكّنتنا من تحديد عديد المواقع الأثرية التى ظلت مجهولة و من توضيح الصورة للمفاهيم الأساسية المتعلقة بالبادية و القرية و المدينة . و بالتالي قدمت لنا الجغرافية التاريخية الأجوبة الأولى لطبيعة العلاقة بين المجالات الثلاثة المدروسة ، وكيفية تفاعل هذه المجالات وتداخلها أو تباينها ، والمشهد الريفي الخاص بتلك الحقبة (1) .

ولم نهمل المقاربة الانتروبولوجية المتمثلة في ا لمعاينة المباشرة للظاهرات البدوية الأساسية ، واعتماد ثقافة البدو وأمثالهم لتفسير النظرة الى القبيلة أو المدينة. وقد احتجنا أحيانا الى البحث في الرّوايات الشفوية البدوية عما يشفي الغليل .

وحاولنا إبراز صعوبة تطبيق بعض النظريات المستجدة مثل الانقسامية على بلاد افريقية التي لا تتوفر فيها اختلافات كبيرة ونماذج قبلية كفيلة بأن تطبق فيها هذه النظرية ، أو غيرها من النظريات المبسطة التي لا تنطلق من الواقع التاريخي.

ومكنتنا المناهج المعتمدة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من القيام بجداول وخطوط بيانية واحصاء بعض الأصناف الاجتماعية ورصد فاعليتها ، وتناول مسألة الانتاج الزراعي والحرفي ، والتعرف على علاقات الانتاج والسمات الغالبة في اقتصاد افريقية .

كما أننا أخذنا التاريخ الذهني بعين الاعتبار ،لدراسة بعض الفئات الاجتماعية مثل العلماء والصلحاء والتعرف على خصائص الأسرة والظاهرات الاجتماعية الكبرى مثل الجوع والخوف والغربة وغيرها.

(1) فضلنا عدم تناول البلاد الغربية بالدراسة في الجزء الاول الخاص بالجغرافية التاريخية تحاشيا للإطالة .

وفي الجملة حاولنا اخضاع مختلف المناهج لبلورة هذه الاشكالية ، دون تقيد أو محاكاة ، وكان لكل فصل خصوصيته المنهجية .

3) الوثائق المعتمدة :

كنا أشرنا الى تنوع المصادر المعتمدة وتعددها. فقد كانت تاريخية بالدرجة الاولى، فيها المخطوط والمطبوع، في عدد من المكتبات العربية والاوروبية. وفيها المقاربة الاثرية، من دراسة للمعالم وقراءة النقائش واعتماد الخزف، والبعض منها يغوص في فهم كنه تراث شعبنا ومأثوراته وثقافته الشفوية.

وفيما يخص المصنفات التاريخية ، سبقنا الدارسون الى قراءة تحليلية ونقدية دقيقة لهذه المصنفات ومؤلفيها (1)، ولذا رأينا عدم التفصيل في ذكرها والاقتصار على أهمها . على أننا خصصنا حيزا أكبر للوثائق الجديدة ولكيفية دراستها .

1) كتب الحوليات والأخبار : مكنتنا هذه الكتب من تتبع الجانب السياسي لهذه العلاقة بين القبائل البدوية والسلطة ، والخصائص الثقافية للعلماء وبدرجة أقل المعطيات الاقتصادية والتمدن . والحقيقة أننا لم نقتصر على مصنفات هذه الحقبة ، وكثيرا ما رجعنا الى المصادر الأغلبية والفاطمية والزيرية لتحديد موقع أو تتبع تطوره . وقد دققنا في المصادر الموحدية لمعرفة جذور العلاقة بين القبائل والسلطة ، واعتمدنا خاصة على المعجب للمراكشي والبيان المغرب لابن عذاري الذي ألف سنة 712هـ / 1312م ، والرسائل الموحدية ، والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة وغيرها (2).

أما العهد الحفصي ، فقد انطلقنا في داسته بالنسبة الى الفترة الاولى من المقدمة وكتاب العبر لابن خلدون(ت 808 هـ / 1406م)، الذي فصل عديد الاحداث . و كان اعتمادنا عليه أساسيا ، و خاصة في دراسة القبائل ، لما تميّز به من موضوعية وفكر عميق وشمولي يتجاوز المجال المحلي . وإذ نأسف لعدم وجود تحقيق علمي للكتاب ، فاننا احتجنا أحيانا الى الاجتهاد الشخصي لتقويم النص.

على أن التاريخانية المغربية لم تشهد كتابا ثانيا بعد العبر نظر الى التاريخ نظرة مجالية شمولية ، واقتصرت على المصنفات في التاريخ المحلي، وكان من بين

(1) R.Brunschvig, **La Berbérie Orientale sous les Hafsides**, T I, pp. XXV -XLI.
S. Ghrab, Ibn Arafa et le Malikisme en Ifriqiya au VIIIe-XIVe s. , pp. 21-94

(2) حول مصادر الفترة الاولى ، راجع الاعمال التالية :
M . Talbi , L'Emirat Aghlabide. F . Dachraoui , **Le Califat Fatimide au Maghreb**.
H . R . Idris , **La Berbérie Orientale sous les Zirides.**

المؤلفين في هذا المضمار معاصر لابن خلدون، وهو ابن قنفذ (ت 810 هـ / 1407 م) صاحب كتاب الفارسية، الذي تضمن معلومات منفردة خاصة بقسنطينة وبيوتاتها.

كما نحت المصادر المرينية والزيانية هذا المنحى ، ونذكر منها كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع (ت 726هـ / 1325 م) وجني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي (ألف كتابه بعد سنة 766هـ / 1364 م) وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون (ت 780هـ / 1387م) ونظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي (ت 899هـ / 1494م)(1).

أما مصنفات القرن التاسع ، التي لم تخرج عن دائرة التاريخ المحلي ، فقد تمثلت أساسا في كتابين : الأدلة لابي عبد الله محمد بن أحمد الشماع ، وهو مؤرخ رسمي ، و تاريخ الدولتين لمحمد بن ابراهيم الزركشي ،الذي بدا لنا في غاية الأهمية في ضبط أسماء المواقع والاعلام والاحداث ، وهو يحتاج بكل تأكيد الى تحقيق علمي (2).

أما المصادر المشرقية ، فقد تمثلت أساسا في الكامل في التاريخ لعلي بن عبد الواحد المعروف بابن الاثير(630 ت هـ / 1232م) الذي انفرد بذكر وقائع وأحداث خاصة بافريقية في القرن السادس هـ . كما استفدنا أحيانا من تآليف المقريزي وابن تغربردي والسيوطي .

وقد أعتمدنا فيما يخص الفترة الاخيرة من العهد الحفصي ، وتحديدا القرن العاشر هـ / XVIم ، على المؤنس لابن أبي دينار وعديد الوثائق الاسبانية والاجنبية المنشورة (3).

ب) المصنفات الجغرافية :

حظيت كتب المسالك والرحلة وبقية المصنفات الجغرافية الاخرى بأهمية كبيرة في القسم الاول الخاص بالجغرافية التاريخية ، ويطول جرد هذه القائمة، بدءا باليعقوبي ووصولا الى كتاب افريقيا لمارمول وكتب الرحالة الفرنسيين في الفترة

---

(1) خصصنا فصلا لترجمة ابن أبي زرع، راجع : موسوعة الحضارة الاسلامية بالاردن، فصلة تجريبية، ص115-117. وآخر لابن قنفذ ، ومؤلفاته : راجع القسم الثالث من العمل .

Maya Shatzmiller, **L'historiographie mérinide**, Brill 1982 .

(2) علمنا أن الكتاب في طريقه الى التّحقيق بتونس.

(3) De La Primaudaie, Documents Inédits sur l'Histoire de l'occupation Afrique (1506-1574), In Revne. Africaine (R. A), 1968, 1969, 1975 , 1977.

الحديثة. غير أننا خصصنا حيزا مميزا لمصادر الفترة ، لنزهة المشتاق للادريسي في بداية الحقبة ووصف افريقيا للحسن الوزان في أخرها. ومكنتنا المقارنات المختلفة بين كتب الرحلة الاندلسية والمغربية (لابن جبير والعبدري والتجيبي السبتي وابن رشيد وخالد البلوي وابن بطوطة والقلصادي) من رسم المسالك الكبرى لبلاد المغرب والمدن ، فضلا عن رصد الاوضاع الثقافية والفكرية في عصرهم .

غير أن رحلة التجاني (قام بها سنوات 706-708هـ / 1306-1308م) مثلت مصدرا أكثر دقة عن التمدن بافريقية ، وتحديدا عن القصور والقرى . كما قدم مسالك الابصار للعمري الذي نقله من بعده القلقشندي في صبح الاعشى لوحة هامة عن الحياة العمرانية والاجتماعية في النصف الاول من القرن الثامن هـ .

ومكنتنا بعض المصنفات الاجنبية من اثراء معلوماتنا في الجغرافية التاريخية وتحديد بعض المواقع والاماكن (1).

كما اعتمدنا على خرائط المدن والبلدان (Les estampes) التي رسمها الاسبان والايطاليون وغيرهم في أخر العصر الوسيط للتعرف على المواقع والمعالم داخل المدن الافريقية او اثبات بعض المواقع الاثرية.

ج) كتب الطبقات والتراجم والسير والانساب :

لئن ترجمت هذه الكتب لشريحة اجتماعية ضيقة ، تقتصر على العلماء والمشائخ، فانها لا تخلو من مادة ثرية خاصة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والذهني لمختلف فئات المجتمع . فقد قدم كتاب سبك المقال لفك العقال لابن الطواح صورة دقيقة عن الحياة الفكرية والاجتماعية بمدينة تونس في مطلع القرن الثامن هـ ومثل معالم الايمان لابن ناجي وثيقة هامة عن البدو بالقيروان . أما بقية القائمة، فهي طويلة وأهمها : الحلة السيراء وكتاب الصلة لابن الابار (ت 658هـ / 1260م) ،وعنوان الدراية للغبريني (ت 714هـ / 1314 م) والاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (ت 776هـ / 1374م) والذيل والتكملة لمحمد بن محمد المراكشي والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (ت 799 هـ / 1396م) ونيل الابتهاج لاحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ / 1626م) وشجرة النور الزكية لابن مخلوف (ت 1941م).

---

(1) نخص بالذكر منها : S. Soucek, **Tunisia in the Kitab - i - Bahriye**

C. Monchicourt, Essais bibliographiques sur les plans de Tripoli, Djerba et Tunis au XVI s., In **R. A.** , 1925, pp. 387-417.

Lanfreducci et Bosio, Côte et Discours de Barbarie, In **R.A.** , 1925, pp. 483 -549.

واستعملنا في درجة ثانية كتب البرامج والوفايات لضبط أسماء الاعلام وتواريخهم، وقد أفادتنا أحيانا في التعرف على مجالات أخرى، وخصوصا فهرست الرصاع (ت 896هـ / 1489م). ورصدنا المادة الواردة في المصنفات الاباضية، وخاصة كتاب السيرة لابي زكريا وطبقات الدرجيني وسير الشماخي، وقد أفادتنا في التعرف على الواجهة الصحراوية لبلاد المغرب (1).

أما كتب الانساب، فقد احتجنا اليها في تتبع شجرة الانساب الخاصة بالقبائل العربية والبربرية، وأهمها: جمهرة النسب لابن الكلبي (القرن الثاني هـ) وجمهرة أنساب العرب لمحمد بن حزم (ت 456 هـ / 1064م) ومفاخر البربر (ألف سنة 712 هـ / 1312 م) ونهاية الارب لاحمد القلقشندي (ت 821 هـ / 1418 م).

د) كتب الاحكام والوثائق والنوازل والفتاوى:

لئن قدمت كتب الاصول الفقهية منهجا عاما خاليا من الاشارات التاريخية الا في النادر، فان كتب الفروع المتعلقة بكيفية تطبيق التشريع في مجال المعاملات والقانون الجنائي والادارة والعبادات قد اقترنت بالواقع وعبرت عنه. ولذا كان اعتمادنا عليها أساسيا لتجديد المادة التاريخية. وقد تنوعت أصناف هذه التآليف، ومن أهمها:

– كتب الأحكام: تضمنت ملخصات مجردة للأحكام التي استعملها القضاة في عملهم. وقد اشتهر منها بالاندلس منذ القرن الرابع هـ الاحكام الكبرى لابن سهل ومنتخب الاحكام لابن أبي زمنين (2)، كما عرفت بلاد المغرب هذا الصنف من المؤلفات، ومن بينها أحكام القاضي عياض. وفي فترتنا، يمكن أن نذكر خاصة: معين الحكام على القضايا والاحكام لابي إسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع (ت 733 هـ / 1332) وبعض الاسئلة صالحة للقضاة والمفتين لابي عبد الله محمد بن أبي القاسم الغرناطي (القرن التاسع هـ).

ولم تغب عن بالنا المصنفات الاباضية، وقد رجعنا للبعض منها، وخصوصا الدليل والبرهان لابي يعقوب الورجلاني وقواعد الجيطالي وكتاب الوضع للجناوني.

(1) اعتمدنا أساسا على التحقيق الذي قمنا به لكتاب الشماخي في إطار الحصول على شهادة التعمق في البحث سنة 1979م. وقد مكننا ذلك من ضبط الاسماء والاماكن.

(2) أشرفنا على شهادة كفاءة في البحث تتعلق بتحقيق باب البيوع من كتاب المنتخب لابن أبي زمنين، أنجزها الازهري بوعوني سنة 1990. وفي السنة الموالية، أشرف الاستاذ جمعة شيخة على تحقيق جزء آخر من الكتاب، أنجزه محمد موسى بن عمر.

– كتب الوثائق: ارتبط تطور كتابة الوثائق بالتغييرات الحاصلة في التشريع نتيجة اختلاف المذاهب والمعطيات الاجتماعية والسياسية. وقد ازدهرت كتب الوثائق أو علم الشروط بالاندلس، وكان من أشهرها: كتاب الوثائق والسجلات لمحمد بن أحمد الاموي المعروف بابن العطار (ت 399هـ / 1008م) والمقصد المحمود في تلخيص العقود للجزيري (القرن VI هـ / XII م). وقد لجأنا لهذا الصنف من التآليف عديد المرات أثناء تناولنا للجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة لكتاب الفائق في معرفة الوثائق لابن راشد القفصي ومخطوط آخر حول الوثائق والعقود لابي إسحاق ابراهيم بن محمد الغرناطي.

– المختصرات والشروح: مثلت مصدرا أخر، حاولنا استنطاقها بصعوبة، ونخص بالذكر منها شرح حدود ابن عرفة للرصاع، والمختصر الفقهي لابن عرفة. وقد اتضح لنا أنه كان من المصادر الاساسية للبرزلي والأبي والونشريسي. كما مثل شرح الرسالة لاحمد القلشاني واكمال الابي مصدرين هامين بالنسبة الى موضوعنا (1).

– النوازل والفتاوى: أشار بعض الدارسين الى أهمية هذه المؤلفات (2). ولا غرو، فقد مثلت هذه المجلدات الفقهية المصدر الاساسي في عملنا هذا، وخاصة في دراسة البابين الاقتصادي والاجتماعي. وقد التجأنا الى اعتماد تقنيات متنوعة للوصول الى تاريخية النازلة، منها ما تعلق بترجمة الاعلام، ومنها ما ارتبط بالتعرف على الظرفية التاريخية. ويظل العيب الاساسي لهذه الكتب غياب التسلسل الزماني واهمال التواريخ حتى أن النازلة الواحدة جمعت أقاويل مفتين ينتمون الى مجالات وأزمنة مختلفة. على أن حرصها على جمع القضايا وتبويبها وفق مرجعية فقهية معهودة، لا يمكن أن يكون مجرد عملية نقل لمن سبقها، دون ارتباط بمجريات الواقع المعيش. وحسبنا هنا أن نذكر نموذجا على ذلك تمثّل في طرح قضية هجرة المسلمين كلما جد جديد: فقد طرحت المسألة الاولى على المازري عند هجرة المسلمين من صقلية في اتجاه أفريقية، وفي آخر العصر الوسيط أعيد طرح القضية في ارتباط مع الهجرة الاندلسية.

أما عن بنية النازلة أو الفتوى، فقد انقسمت الى قسمين: سؤال يطرح القضية كما وقعت في زمان ومكان محددين وجواب يقدم حكما شرعيا ويحاول التخلص من الخاص الى العام. وهو ما مثل المنهج المعاكس لتمشي المؤرخ الذي ينطلق من العام للوصول الى حالة واقعية مضبوطة.

(1) قام كمال الهرلي تحت إشرافنا بتخريج المادة التاريخية الموجودة في كتاب الابي، في إطار ش ك ب، تونس 1991.

(2) نبهنا الى أهميتها الاستاذ محمد الطالبي منذ عشرين سنة خلت. وقد تعلق موضوع بحثنا لشهادة الكفاءة في البحث بتحقيق نوازل المزارعة من المعيار ودراستها.

وفي الجملة ، كان اعتمادنا على هذا الصنف من الكتب كبيرا، ونخص بالذكر : جامع مسائل الاحكام لابي القاسم البرزلي (ألفه نحوسنة 810 هـ / 1407م، وتوفي سنة 841 هـ / 1437 م) والدرر المكنونة في نوازل مزونة ليحيى المغيلي (ت 883هـ / 1478م) والمعيار المغرب لابي العباس أحمد الونشريسي (ت 914هـ / 1508م).

و خص البعض منها فتاوى دقيقة مثل أسئلة الاسقيا وأجوبة عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/ 1503 م) وأسئلة المواق وأجوبة الرصاع.

وعموما فقد قضينا الوقت الطويل في قراءتها ، واستخراج المادة التاريخية منها، وتبين لنا، رغم بعض التكرار للنوازل بين البرزلي والونشريسي، انها شديدة الارتباط بموضوعنا (1).

واحتجنا أحيانا الى الرجوع الى مسائل محمد بن سحنون (القرن الثالث هـ) والنوادر والزيادات لابن أبي زيد (القرن الرابع هـ) لتتبع المفاهيم المتعلقة بملكية الارض . كما اعتمدنا على المصنفات الاباضية مثل أصول الارضين لابي العباس أحمد بن أبي بكر (القرن الخامس هـ) وكتاب الايضاح لعامر بن علي الشماخي (القرن السابع هـ) .

– الكتب الفقهية و الدينية الاخرى : مثلت كتب المناظرات والجدل بين الفقهاء حول قضايا تخص العبادات والمعاملات وغيرها مصدرا لبحثنا . ولقد اعتمدنا أساسا على مؤلف للشماع الذي يخص مسألة العقوبة بالمال . أما الردود الدينية على النصرانية فهي عديدة ، وأهمها تحفة الاريب لعبد الله الترجمان (بداية القرن التاسع هـ).

هـ) كتب الحسبة والسكة والأموال :

مثلت جانبا أخر من التاريخ الاقتصادي، وقد خصت بعض كتب الحسبة التي ألفت في العهدين الموحدي والحفصي بدءا بمؤلفات ابن عبدون والسقطي وابن المناصف ووصولا الى كتاب العقباني (تحفة الناظر).

وكانت كتب السكة بدورها هامة في استقصاء التطورات النقدية، وفضلا عن المؤلفات ذات الصبغة التقنية البحتة، مثل الدوحة المشتبكة لعلي بن يوسف الحكيم و الأصداف المنفضة عن أحكام علم صنعة الدينار والفضة للجزنائي، فاننا قد استفدنا من مخطوط خاص بالفترة الاخيرة عنوانه : تلخيص القول في الاكيال والأوزان والنصب الشرعية.

---

(1) قام عدد من طلبة الجامعة التونسية بتحقيق أجزاء من كتاب البرزلي تحت إشراف الاستاذ محمد الطالبي (روجي موري وفريد بن سليمان) والاستاذ سعد غراب (عبد الرحمان بالحاج علي ومحمد الهادي العامري وعبد الرزاق الحمامي) وإشرافنا (بلقاسم الطبابي وخالد الجويني) .

أما كتب الاموال، فهي في الغالب ترجع الى الفترة الاسلامية المبكرة، سواء أكانت مشرقية أم مغربية . وقد اعتمدناها في استقصاء أحكام الارض و أنواعها. و على صعيد آخر يعتبر كتاب بيقولوتي الايطالي حول التجارة أهم مصنف يخص الفترة الحفصية (1).

و) كتب المناقب والتصوف :

تزخر هذه المؤلفات الصغيرة بالاشارات النابضة عن المجتمع بمختلف فئاته ، من الفئات الشعبية، وذهنيات العامة، و عن المشائخ والفقهاء والخطباء والسلطان وأعوانه. فهي صورة لذلك المجتمع بمختلف تناقضاته ومكبوتاته وطموحاته. وهي لوحة عن المدينة ونسيجها المعماري وشوارعها وأزقتها، والنازحين فيها من البدو، ومن الجوع والفقر والآفات الاجتماعية. وباختصار فان هذه المؤلفات هامة بالنسبة للمؤرخ المتفطن الذي يستطيع أن يخلص خيوط الواقع من الأسطورة.

و قد استعملنا مناقب الجبنياني (القرن الرابع هـ) للتعرف على عديد القرى والقصور بناحية جبنيانة ، وأفادنا كتاب مناقب الدهماني (ت 621هـ / 1224م) للدباغ (2) في معرفة كيفية توبة الاعراب بناحية القيروان، ومناقب علي النفطي في بداية تعويض المالكية للاباضية بالجريد، ومناقب طاهر المزوغي في نشأة الزاوية الريفية، أما بقية الكتب الاخرى فقد تعلقت بمناقب عدد كبير من الاولياء بمدينة تونس، وأهمها مناقب عائشة المنوبية وأبي الحسن الشاذلي وأبي سعيدالباجي وعلي القرجاني ومحمد الزلاج في القرن السابع هـ، وأحمد بن عروس في القرن التاسع هـ . و قد جاءت مختلف هذه المصادر صورة ناطقة لحياة فئات العامة وتطلعاتها.

ولا غنى في تناول هذا الموضوع عن الرجوع الى جذور الحركة الصوفية بالمغرب الاقصى، وتطورها والتعرف على أعلام التشوف لابن الزيات، وكتاب أنس الفقير لابن قنفذ القسنطيني، وغيرها.

ز) المصنفات الأدبية والعلمية :

عرفت هذه الحقبة انتاجا أدبيا غزيرا ، تمثل في ظهور عديد الدواوين الشعرية أبرزها مقصورة حازم القرطاجني التي مثلت صورة ناطقة للانجازات المعمارية في عهد المستنصر، وديوان ابن الابار، الذي عبر عن المأساة الاندلسية، ورسائل أبي

---

(1) Pegolotti, **La practica della mercatura** .

(2) أشرفنا على تحقيق لهذا الكتاب قام به عبد الكريم الشبلي في اطار شهادة الدراسات المعمقة.

المطرف بن عميرة البليغة، ومراسلات ابن الخطيب وابن خلدون، وشعر الظريف (القرن الثامن هـ) وديوان الخروف (القرن التاسع هـ) وغيره.

وثمة صنف ثان من الكتب تعلق بالطب والاعشاب والطبيخ، وهو قمين بأن يقدم لنا مادة هامة عن الغذاء واللباس، ولعل أهمها مؤلفات الطبيب أحمدالصقلي وتحفة القادم للمغازلي (القرن التاسع هـ). و تطورت هذه المؤلفات في خط مواز للازمة التي اندلعت في أواسط القرن الثامن هـ ، وخاصة منها المتعلقة بالوباء، وقد دققنا الحديث فيها في الفصل الخاص بها.

كما ازدهرت في تلك الفترة التآليف الخاصة بجمالية المرأة، وتتضمن إشارات هامة عن المجتمع ، مثل كتب التيفاشي والتجاني والنفزاوي وغيرهم.

كما أن المؤلفات المرتبطة بعلم الفلك والرياضيات لا تخلو من فائدة. أما عن المصنفات الخاصة بالفلاحة، فانها تكاد تكون غائبة، بآستثناء رزنامة الشرفي المتأخرة (القرن XVI م). ولذا كان اعتمادنا أكثر على المصنفات الاندلسية.

ك) وثائق الارشيف العربية والاوروبية :

استعملنا بعض الوثائق التي لم يسبقنا اليها الباحثون، و قد قمنا بتحقيقها ودراستها، كما يثبت ذلك الباب الخاص بالزراعة.

أما الوثائق الأجنبية، فقد اطلعنا على البعض منها المكتوب بالعربية في أرشيف الارقون، واكتفينا فيما يخص الوثائق المحررة بالقطلانية أو الايطالية بالاطلاع على الدراسات الأوروبية.

ل) المصادر الأثرية والشفوية :

مثلت الآثار مصدرا أساسيا في عملنا سواء الخاص بالجغرافية التاريخية أو بالزراعة. وقد قادتنا رحلات عديدة الى ربوع الجنوب والوسط والشمال ، حاولنا من خلالها البحث عن وثائق جديدة أو قراءة نقيشة أو استنطاق معلم أو تتبع مسلك. وتوصلنا في الاخير الى توضيح بعض المعطيات المتعلقة بالقرى والاسر و نظام الملكية وغيرها.

أما في خصوص التراث الشفوي ، فقد مكنتنا بعض اللقاءات من التعرف على بعض روايات السيرة الهلالية والأمثال المرتبطة بموضوعنا.

وفي نهاية المطاف ، حاولنا التجديد في المنهج وفي المادة التاريخية، بعد مضي نحو نصف قرن على دراسة برانشفيك ، ونترك للقارئ تقييم هذا العمل ونقده .

الجزء الأوّل

التشكل الجديد للمجال العمراني: المدينة والقرية والقبيلة

الفصل الاول : المعطيات الاولية :

I. الجذور التاريخية :

1) إشكالية الهجرة الهلالية وخلفيتها بافريقية :

تحدثت المصادر التاريخية عن الهجرة الهلالية ، فاعتبرتها زحف جراد و كارثة حلت بالبلاد فأتت على الأخضر و اليابس ، وخربت العمران في المنازل والامصار ، ولم تترك مجالا دون أن تكتسحه ، فأجلت الناس عن أوطانهم والجهات البقية إلى معاقل الجبال أو الحل والترحال، وأوقعت بلاد المغرب في هوة سحيقة (1) .

ويستقي هذا الموقف جذوره من أدب المعاصرين للحدث من أمثال شعراء القيروان ومؤرخيها و خاصة الحصري و ابن رشيق و ابن شرف وأبو الصلت فالصورة الشعرية التي فيها تحسّر على القيروان و وصف للهول والجلاء اللذين أصابا أهلها قوية. و رغم اقتضاب المعلومات، فإن رواية كل من ابن شرف و أبي الصلت تعتبران أهم مصدر في تاريخ موقعة حيدران، وقد اقتصر حديثهما من الوضع المتردي بمدينة القيروان وناحيتها (2) .

أما المصادر الأخرى التي تحدثت عن الهجرة و الانتشار الهلالي، فإنها جاءت في الغالب متأخرة : فالإدريسي الذي كتب في بلاط النورمان بصقلية اهتم بتوزيع هذه القبائل وانتشارها ببلاد المغرب ، وعلاقتها مع الحضر .

وفي فترة مثلت فيها هذه القبائل جدار الصد ضد الغزو النورماني ، لا

---

(1) انظر مثلا :

G.Marçais, **Les Arabes** en Bebérie **du XIeme au XIVeme**, Constantine-Paris 1913.

F. Gautier , **Le passé de l'Afrique du Nord** , Paris 1952 .

H. R. Idris , **la Berbérie Orientale sous les Zirides** , Paris 1962 :

(2) راجع :

ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . محمد الحاجرى ،**ابن شرف** ، بيروت 1983 ، ص59–49 .

ومما جاء في ديوان ابن رشيق (المكتبة المغربية ، ص 204–203) :

أهدت لهـا فتنا كليل مظلم .:. وزرادها كالناطح العيدان

بمصائب من فادع وأشاذب .:. ممن تجمع من بني دهمان

فتكوا بامة محمد أتراهم .:. أمنوا عقاب الله في رمضان

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا .:. ذمم الاله ولم يفوا بضمان

وقال الحصري في مرثيته :

لولا رياح رياح لم أكن أمتطي .:. ذا الاخضر الطامي وذاك الاحوصا

انظر : محمد المرزوقي والجيلاني بالحاج يحيى ، **أبو الحسن الحصري** ، مكتبة المنار ، 1963 ص40–39 .

نستغرب مواقف الادريسي المنحازة . وعلى العكس من ذلك ، فإن ابن الأثير الذي طور نظرة تاريخية شاملة للمجال العربي الإسـلامي ، مشرقا ومغربا ، تعرض للأعراب عند مشاركتهم في الصراعات ضد النورمان والموحدين، و قد اتبعه في ذلك من بعد النويري.

كما نوهت المصادر الموحـدية –الحفصية بفروسيـة هذه القبائل وتحدثت عن مدى فاعليتها في حرب الاندلس ، رغم أنها لم تكن مختلفة كثيرا عن سابقاتها في النظرة إلى الأعراب المعارضين للدولة: فقد تحامل أنصار الدولة الموحدية مثل ابن عذاري على هذه القبائل. بيد أن التجاني، الذي عرف بدقة معلوماته ، قدم لنا لوحة أقل تحاملا عن البدو في مطلع القرن الثامن هـ / XIV م (1)

على أن هذه النظرة إلى البدو لم تتضح إلا بعد ثلاثة قرون أو أكثر من تاريخ موقعة حيدران، و تجسّدت في ما كتبه ابن خلدون حولهم، و هو لا يعبر عن الحقيقة كاملة بقدر ما يترجم عن مواقف متباينة لأهل عصره تجاه الأعراب، لا تخلو من الإعجاب تارة ، والإدانة أخرى : ففضلا عن كونه أشاد ببأسهم و سجّيتهم و علوّ أخلاقهم ، فإنّ ابن خلدون تخطّى الحواجز المفروضة على الذهنيّة الحضريّة لّما أولى اهتماما بالسيرة الهلالية و الشعر البدويّ . غير أن ذلك لم يمنعه من وصفهم بوحشية لا مثيل لها ، إذ قال « **سارت قبائل ذياب و عوف و زغب و جميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتّى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين** »(2) .

و ما يثير الـتعليق انطلاقا من موقف صاحب المقدّمـة الذي كتب تحت تأثير الأزمة الخانقة التي كانت تتخبط فيها بلاد المغرب في القرن الثامن هـ/ XIVم ، هو قراءة المؤرّخين المعاصرين لهذا الفصل ، إذ تحدّث البعض عن الكارثة الهلاليّة التي لم تقتـصر فاعليّـتها على الفتـرة التي عقبت هزيمة حـيدران ، سنة 443هـ ،إنّما سحبت على كامل الفترة اللاحقة الممتدّة حتّى الإحتلال العثماني . وأضحى هذا التّاريخ شرخا عميقا في التاريخانيّة المعاصرة ، و حدّا فاصلا بين فترتين متباينتين (3).

وعلى عكس ذلك ذهب مـؤرخون آخـرون الى أن نظرية الحدث الحـاسم أو

---

(1) الإدريسي ، **نزهة المشتاق** . ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**. النويري ، **نهاية الأرب** ، ج XXIV،ص 211.

(2) ، ابن عذارى ، **البيان المغرب** ، الجزء الموحدي . التجاني ، رحلة .

(3) ، ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI، ص31 .

V.Aguilar Sebastien, Aportacion de los Arabes nomades a la organiszacion militar del ejercito Almohade In **Al-Qantara,** XIV,1993,pp.393-441.

الكارثة غير قادرة على تفسـير التحولات الـكبرى التى عرفتـها البلاد العـربية – الإسلامـية عـامة و المغربيـة خاصـة والتي ابتدأت في القـرن الخامس هـ / XI م و تواصلت تفاعلاتها أكثر من قرنين من الزمن .

أ) الاطار العام لحركة التبدي :منذ بدايات القرن الخامس الهـجري ،بدأت القبائل التركـمانيـة السلجوقـية الضاعنة في الـترحال في التـوغل في المجال الحـضري الفارسي ، ونحو سنة 430 هـ/ 1040م ، تمكنت من التغلب على الغزنويين وفتح الباب واسعا لتـسربها الى سائرالبلاد الايرانية، بعـد أن انتشرت في بلاد ما وراء النهر ، واسـتطاع طغرل بك انـتزاعـهـا من يد البـويهيين، ثم دخـول بغـداد سنة 1055م . وهكذا تكوّنت الدولة السلجوقـيّة في المجال العراقيّ الفـارسيّ، انطلاقا من هذه القبائل الظاعنة في الترحال(1).

وفي نفس تلك الفـترة تقـريبا ، بـدأت القبـائل البدوية في الصـحراء المصـرية والمغربية في تطويق بقية الحواضر العربية و السيطرة عليها . ففي العقد الثالث من القرن الخامس هـ / XI م ، تمكن الأميرأبو عبد الله بـن تيفاوت المعروف بتارشنا (المتوفي سنة 430هـ) من رئاسة حلف صـنهاجـة اللثام ، و من السـيطرة على إحدى المحطات التـجارية الهامـة وهي مدينة أودغست . لكن مملكة غـانة سارعت باسـتعادتهـا و تواصلت الحرب بـينهمـا وبين صنهاجـة سجالا، بعـد أن تولى الإمارة يحيى بن إبراهيم الجدالي .

ومن جهـة أخرى كان لهـذا الصراع الدائر حول المراكـز التجارية الصـحراوية انعكاس سلبي على سـير المبادلات بين بلاد السـودان و المغـرب ، و خاصـة على الواحات الصحراوية مثل سجلماسة و وارجلان و الجريد (2).

أما القبائل الهلالية و السليميـة ، فإنها كانت تنتجع بالواحات الغربية ، في خط التماس بين بلاد المغرب ومصر ، منذ أواسط القرن الرابع هـ/ العاشر م .

وكان«**بالواحات من بني هلال عـدة غزيرة وأمة كثـيرة، وهي مصيـفهم وقت الغلة ومـيـرتهم منهـا**». و يرجع تاريخ تواجـد زغبـة بجـهـة طرابلس الى سنة

---

(1) كلود كاهن ، **تاريخ الشعوب الاسلامية**، ص 240–237 .عبد العزيز الدوري ،**مقدمة فـي التاريخ الاقتصـادي**، ص
C. Cahen , Quelques mots sur les Hilaliens , In **JESHO** , vol. XI , mars 1969 , p. 131 , 85–118

(2) البكري ، **المسالك** ص 164 . ابن أبي زرع ، **روض القرطاس** ،ص 121 .
محمد ولد ... ، دور **المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا** 430 – 515 هـ ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1988.
... مصطفى ، **الصحراء من خلال بلاد تكمة** ،الرباط 1988 .
تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن XIX م ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بغداد 1984
Ould Cheikh , **Elements d'Histoire de la Maurétanie** , p . 14-16.

429هـ/1030م. و قد ذكرت وقتذاك عند الحديث عن نزاع بينها و بين أحد رؤساء زناتة (1) .ويفهم هذا الأمرإذا نظرنا الى الوضع الاقتصادي و الاجتماعي بمصر و بلاد المغرب وقتذاك: ففي هذه السنة بلغ ارتفاع النيل 20 , 15 ذراعا ، وهو انحدار كبير لم تصل المياه إلى أقل من مستواه إلى أخر القرن إلا في مناسبتين سنة 472هـ(15,18) و475هـ10 , 15(ذراعا). كما انعكس هذا الوضع سلبا على وزن الدينار الذهبي الذي بلغ أدناه سنة 429هـ، لـلفترة الممتدة بين429 هـ و487 هـ ، فكان9 , 2 غراما(2).

ومما لا شك فيه أن الجوع دفع بهذه القبائل إلى الهجرة نحو بلاد المغرب قبل سنوات الأربعين من القرن الخامس هـ /XIم .و يبدو أن نسقها كان سريعا و حجمها كبيرا إلى حد أن الجموع الأولى بلغت جهة طرابلس(3) .

ومهما كانت أهمية العوامل الاقتصادية ، فإن الدولة الفاطمية حاولت الإستفادة سياسيا من هذه الهجرة وتأطيرها .فقد خضع انتشار القبائل الى خطة مسبقة ، منحت بموجبها البلاد إقطاعات للقبائل ، و قد قال ابن خلدون فى هذا الصدد:« **واقتسمت الأعراب بلاد افريقية سنة 446هـ،وكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرداس بن رياح باجة و ما يليها ، ثم اقتسموا البلاد ثانية : فكان لهلال من تونس الى المغرب و هم رياح و زغبة والمعقل وجشم و قرة والأثبج والخلط و سفيان** » (4) .

كما كلف الخليفة المستنصر أمين الدولة و مكينها حسن بن علي بالتحول الى افريقية سنة 455 هجري للتأليف بين القبائل الرياحية و الزغبية المتنازعة. و بالتالى فان تسرب عرب الهلالية الى بلاد المغرب سبق معركة حيدران(443 هـ/ 1052م). وكان مسارا بطيئا شمل البلاد الليبية منذ بدايات القرن الخامس

(1) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 145 . وفي ص 133 ذكر فيشة بني سليم ، قرية قرب طنطا . التجاني ، **رحلة** ، ص 267 .
M.Brett , Sijil al Mustansir , **In Actes du 1er Congrés d'Histoire du Maghreb** ,Tunis 1975 , pp. 101-102.

(2) المقريزي، **الخطط** ، ص 109-102. ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة** ، ج V ،ص 142-1 .
راضي دغفوس ، العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال ، **مجلة أوراق** ، عددIV ، ص 1981 .
H. Lavoix , **Catalogue des monnaies Musulmanes** , p. 5 ,102 , 152 .

(3) لئن كانت السيرة الهلالية لا تشير الى تاريخ الهجرة ، فانها تعرضت بوضوح الى أسبابها الاقتصادية في أكثر من موضع : ففي إحدى روايات أهل مزونة ، أشير الى الضما والجوع (إشتدت عليهم الزمّة سبعة سنين ما روش المطر). أنظر : سيرة بني هلال ، الندوة الاولى ، ص 32 . وتذكر رواية ثانية "السنين الشحايح" وانه لما عاد أبو زيد من رحلته التي تطلع فيها للمرعى بافريقية، قالت له طفلة من حيّه: " والله يا جدّي لنا سبع سنين ما لاحش بيننا ولا رشنا نقط السّحاب، ذرينا دقيقنا نت رأس عيطورنا وسوّى مكيله بعدما ذرّيناه" . أنظر: **قيقة**، من أقاصيص بني هلال، ص 78، 114 .

(4) **السجلات المستنصرية** ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ، د.ت. ، ص 45-42 . ابن خلدون ، ن.م. ، ج VI ، ص32 .
H. R. Idris , **Zirides** , TI , p. 207 , 210 , 211.

الهجرى / XIم، انطلاقا من الواحات الغربية ، وتزامن مع حركتي البدو الواقعتين في أطراف البلاد العربية، السلاجقة مشرقا و المرابطين مغربا .

فسنة 430 هـ هي بداية لعصر التبدّي في المجال العربي -الإسلامي ، وتراجع التمدن .فهل كان الأمر مقترنا بتغيرات طبيعية هامة ، و بفترة تصحر وجفاف، أم إن تحركات بني هلال، شأنها في ذلك شأن تحركات قبائل الملثمين قد ارتبطت بالرغبة في السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الاوسط والغربي، التي كانت تتحكم فيها القبائل الإباضية من زناتة و مزاتة و غيرها؟ (1).

وحصيلة القول ، إن سنة 430 هـ تعتبر منعرجا هاما في تاريخ الصحراء الكبرى ، الممتدة من البحر الاحمر الى المحيط الاطلنطي ، إذ ألجأت العوامل الطبيعية المتغيرة بدو الصحراء الشرقية والمغربية الى أطرافها ، حيث ضغطوا على ممالك بلاد السودان جنوبا، فحاربت صنهاجة اللثام مملكة غانة ، وتسربت بعض العشائر العربية من مصر الى بلاد كانم، كما اتجهت شمالا الى بلاد زناتة الممتدة من سجلماسة ووارجلان الى جهة طرابلس . ولا يستبعد في هذا الصدد إمكانية التفاعل بين الهلاليين والملثمين، والتقاء مضارب القبيلتين وسط الصحراء الكبرى . فقد غدا هذا المجال منطقة دفع للقبائل وهجرة منها الى مناطق الجذب الواقعة في خطوط العرض الجنوبية والشمالية، وبالخصوص بافريقية والمغرب الاقصى . مما يجعلنا نتساءل عن الاوضاع بافريقية وقتذاك .

ب) الاوضاع بافريقية إبّان الهجرة الهلالية :

ثمّة إشارة هامة وردت في النويري ، و تتعلق بما آلت إليه البلاد من وهن وتفكك عند وصول الهلالية إليها، إذ قال :«**و دخلت العرب ،فوجدوا بلادا خالية طيبة كثيرة المرعى، كانت عمارتها زناتة، فأبادهم المعز** » (2).

والحقيقة أن عوامل عدة ساهمت في هذا التراجع ، نذكر منها :

- النزاعات الداخلية بحواضر إفريقية بين الشيعة و السنة .
- الصراع الصنهاجي مع المحور الأموي -الزناتي .
- خروج المقاطعات الطرفية عن سلطة المركز، مثل جهة طرابلس و الحضنة والجريد.

(1) اعتبر أحد الدارسين أن هذا التحرك يدخل ضمن الصراع التقليدي الذي نشب بين الشيعة والخوارج حول الطرقات التجارية بالظهر.
J. Poncet , Le mythe de la catastrophe Hilalienne , **In Annales E .S.C.** 1968 , p . 1101 , 1108 .
(2) النويري ، **نهاية الارب**، ج 24 ،ص 211 .

– الضغط الخارجي المسلّط على البلاد العربية –الاسـلامية وخصوصاسيطرة النورمان على صقلية .

– تراجع قيمة الدينار و الدرهم الزيريين ، إذ أضاع الدينار الجـديد نسبة كبيرة من قيـمتـه، والدرهم :10/9 ، و ما نجم عنه من أرتفـاع الأسعـار و أزدياد الأزمة الإجتماعية ، خاصة بعد هزيمة حيدران ، لما تمكن الجنود الفارون و رقيق الأرض والبؤساء من الانقضاض على الأثرياء في المـدن و الأرياف و القيام بعمليات سلب ونهب وقطع الطرقات، و هو ما حمل أهالي القيروان على الهجرة (1).

و في الجملة، فإن أنخرام الوضع بإفريقية قبـيل الهجرة الهلالية ساعد الى حد كبير على تدحرج البلاد نحو الهوة .

ففضلا عن الصـراع الدامي بين أهل المالكية و الشيعة ، فإن ضغط مـجموعات البدو والزناتيين عـلى بلاد المزاق قد أضر كـثيرا بالزراعـة و البنية الأساسـية من منشآت مائية و غيرها، و هي عمليـات لا تقل ضراوة عن سياسة الأرض المحروقة التي قامت بها الكاهنة الزناتية في هذه الجهـة و من بعدها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي . وقـد ساعد هذا النزيف الذي تعرض له وسط البـلاد على أنتقال المركز إلى الناحية التلية، و تحديدا مدينة تونس .

وفى المقابل فـان الحملات الصنهاجـية على واحات الجنوب لغـرض السيطرة على التجارة الصحراوية قد فلت في عضد الزناتيين ، و عادة ما تزامنت مع فترات الأزمة الإقتصادية :

– ففى سنة 395 هـ / 1004م ، « **كانت بافريقية شدة عظيمة ، انكشف فيها الستـور . و هلك فيهـا الفقير و ذهب مـال الغني و غلت الأسعار و عـدمت الأقوات وجلى أهل البادية الـى أوطانهم ، وخلت أكثر المنازل : فلم يـبق لها وارث و مع هذه الشدة وباء و طاعـون ، هلك فيها أكـثر الناس من غني و محتـاج ...و جاء خلق من أهل الحاضـرة و البادية إلى جزيرة صقليـة ... وقيل أن أهل البادية أكلوا بعـضهم بعضا**»(2) .

و في نفس تلك السنة ، قام حماد بن بلوغين ، عـامل المعز بن باديس على أشير، بحملة واسعة على زناتة مغراوة و بني يفرن ببلاد المزاب(3).

(1) حول اختلاف تحليل الوضع بافريقية ، انظر :

G.Marçais, les **Arabes en Berbérie**.

H.R.Idris, De la réalité de la Catastrophe Hilalienne,In Annales E.S.C, 1968, pp.390-396.

J.Berque, Du nouveau sur les Beni Hilal,In **Studia Islamica**,1972.

(2) ابن عذاري، **البيان**، ص 254 .

(2) الشماخي، **كتاب السير**، تحقيق محمد حسن (نسخة مرقونة)، ص 294 .

– و سنة 409 هـ / 1018 م أي بعد ثلاث سنوات من استـئصال شأفة الشـيعة بالقـيروان، ظهـر الغلاء مـصحـوبا بالحروب الكثـيرة ، و أصـبح قطاع الطرق ذارعين يمينا وشـمالا بواحـات الجريد و أريغ . و في نفس تلك الحـقبـة ، و منذ سنة 408 هـ ، دار الصـراع بين زناتة و صنهـاجة بناحـية طرابلس ، حـتى أن عددا هاما من السكان أجلي من واحات الجنوب الشرقى و تحول الى وادي أريغ و وارجلان (1)

– وفى سنة 420هـ ، بـلغت زناتة مـشـارف القـيـروان ، وأعـادت الكرة ثانيةبعد خـمس سنوات، و بقيت الحرب سجـالا بين الطرفين إلى حد سنة 428 هـ / 1036م لما تمكن المعز من صد هذا الهجوم ، و التقدم إلى بلاد الزاب .

و إلى جانب المجـاعة الشديدة التي شـهـدتها سنة 425 هـ / 1033 م ، فإن أوجـه الصراع الاجـتمـاعي قد تعددت آنـذاك : بين الشيعـة و السنة ، وزناتة و صنهاجة والجند و العامة .

وفي سنة 430هـ / 1038م ، كـثر الخصـب بافريقيـة ، لكن جهـة طرابلس عرفت آنذاك هول الجوع و التشرد ، فى الجزر المتوسطية و الواحات ، حتى أن هذه الكارثة التي سمـيت « بسنة فراورا»ظلت راسخـة في المخيال الشعـبي ، وأضحت مرجـعيـة تاريخيـة. و فيـها اسـتولى هاجس الخـوف لاسـتيـلاء اللصـوص على الطرقات و كثـرة الغارات ، وخراب العمران، كـما برزت مسحـة من التشاؤم لدى علماء العصر الذين أكثروا من ذم «أهل هذا الزمان»(2) .

و يبدو أن بداية الهـجرة الهلالية سنة 429هـ قـد زادت في أستفحـال المجاعة التي عمت جهة طرابلس و بلاد الواحات ، حـتى أن السكان كانوا يتقلبون من مكان إلى آخر بحـثا عن مـورد للعيش، في خط أفـقي يمتد من جـهة طرابلس إلى جـهة وارجلان و البعض منهم لاذ بالفرار إلى الجزر المتوسطية .

فهل معنى ذلك أن بـاب إفريقية الزيرية (المزاق و بلاد التل) ظل مـغلقا أمام هذا المد القبلي إلى حد موقعة حيدران ؟

إننا نميل إلى هذا الطرح، الذي تدعـمه شـدة تبرم أهل جنـوب إفريقيـة من ذاك الزمن الرديء، ويدعمه بحثهم في سراب الصحراء عن ملاذ أخير ، كما تشهد بذلك أسطورة جـغراف ، التي ظهـرت في الأوسـاط الإباضيـة وقتـذاك ، و مفـادها أن

(1) ابن عذاري، ن.م، ج1، ص 269، أبو زكريا، **كتاب السيرة**، ن.م، ص 254 – 326 .

(2) ابن عذاري ن.م ،ن.م ،ص 274، 375، أبو زكرياء، ن. م، ص 263، 324، 358 .

جغراف هو ملاذهم الأخير الذي يتحولون إليه اضطرارا « لكثرة الزلازل والنوازل و البلابل و شدة الأمور» فيقيمون بواحة فيها الماء تحت إمرة ملك جغراف، و ذلك قبل نهاية الكون بزمن قصير .

ولئن اعتبر أحد الدارسين أن جذور هذا المعتقد ضاربة في القدم ، فانه لا يخفى علينا أن أسسه مرتبطة بالواقع المعيش ، وهو لا يعدو أن يكون مجموعة من الرموز لها دلالات واضحة : فهول المجاعة وكثرة النزاعات بين زناتة الاباضية وصنهاجة ، وما نجم عن ذلك من تخريب لقلعة بني درجين سنة 440 هـ/ 1048 م، تبدو عناصر مفسرة لهذا الهروب المتواصل نحو المجهول ، من بني درجين وقنطرار الى وادي سوف وأريغ ، فوارجلان ومنها الى جغراف . فهذه المجموعات الزناتية تبدو محاصرة من كل جهة : الزيريين في الشمال ، والهلاليين في الشرق و صنهاجة اللثام في الغرب ، و بين هذا وذاك كان الجوع يهددهم . و بالتالي ، فلم يبق لهم من منفذ سوى الهجرة إلى صقلية أو بلاد الصحراء ، وصولا إلى تادمكت و بلاد السودان .

فصورة جغراف هي تجسيد لهذه الحيرة أمام واقع مضن و التخوف من المستقبل، والشوق إلى متنفس، تجسد في واحة واقعة على طريق بلاد السودان ، يتوفر فيها الماء (1).

وشمل هذا الانفصال المجتمعي شتى مظاهر الحياة ، من العلاقات السياسية والمذهبية ، إلى المعاملات الاقتصادية ، فإلى جانب الصراع المذهبي ، بين أهل المالكية و الشيعة ، فإن البلاط الزيري خص بكثرة الدسائس و المؤامرات ، و منها ما ذهب بصاحب الأشغال : ابن أبي الرجال . و لم يكن الصنهاجيون راضين عن اعتماد المعز على جند من العبيد السودان ، الذين لهم مشاركة هامة فى موقعة حيدران .أما فيما يخص المعاملات التجارية و المالية بين اباضية زناتة و أهل السنة ، فقد أفتى علماء كل طرف بعدم التعامل مع الجانب الآخر (2) .

---

(1) ابو زكرياء، ن.م ص 380،377،254.

الشماخي ،ن.م ،ص 323.

في سنة 431هـ ، قام المعز بحملة بحرية على جزيرة جربة انطلاقا من مالطة ، و أباد فيها الكثير من رجالها و أعلامها، وهو ما يفسر وقوف أهل الجزيرة موقف المتشفي من المعز ، عند قدوم الهلاليين الى البلاد . و سنة 440 هـ ، هاجم جند صنهاجة قلعة بني درجين ببلاد الجريد و قاموا بتخريبها ، و قتل نحو 1500 شخص و انجلى أهلها عنها فى إتجاه واحات المزاب، و هي نفس السنة التى أعلن فيها المعز القطيعة مع الفاطميين .

انظر: ابو زكريا ، ن.م ،ص 305، ،الشماخي ،ن.م ، ص 289، 359، 255.

(2) أخذ أبو الخطاب عبد السلام المزاتي على نفسه أن لا يتعامل مع صنهاجي فى بيع و شراء ، لانه لا يجوز بيع الغصب ، و في المقابل أفتى علماء المالكية اللخمي و القابسي و المازري بعدم التعامل مع الوهبية .

و قد اجهضت محاولات التقارب بين الطرفين ، خاصة ما قام به الشيخ الاباضي أبو باديس اليشكني لما أهدى فرسا أصيلا من بين واحدة كان يملكها ، للمعز بن باديس . لكن الضغائن بين الطرفين أدت الى اتخاذ الامير قرار التخلص منه، فاطلق في وجهه أسدا . و قد صورت لنا كتب السير مشهدا رائعا لصراع الفارس مع الوحش .

ومعلوم أن هذا الصراع ، لم يكن مجرد نزاع سياسي و عسكري ، انما كان له بعد اقتصادي تمثل فى رغبة الزيريين في السيطرة على ايرادات التجارة الصحراوية ومراقبتها فيما حرص الزناتيون على الحفاظ على امتيازاتهم القديمة في هذه التجارة التي كان لهم فيها باع كبير منذ القرن الثانى هـ/VIIIم .

وهو جوهر النزاع بين زناتة و الفاطميين من قبل .

وفي ظل هذا التفكك المجتمعي و احتدام الأزمة بافريقية ، عرفت البلاد وهنا عاما وتراجعا خطيرا تبلورا سنة 430 هـ ، كما شهدت بذلك احدى وثائق الجنيزة . (1)

وابتداء من تلك الحقبة ، ازداد الضغط البدوي على وسط البلاد ، بعد أن أصبحت قبائل بني هلال ضاعنة في بلاد برقة و جهة طرابلس ، حتى كانت واقعة حيدران سنة هـ443/ 1052م، إيذانا بتدفق البدو وسط البلاد وشمالها ، و بانتشار نمط العيش الرحلي (2).

فما هو إذن انعكاس هذه الأوضاع على الشبكة المدينية ببلاد المغرب عامة وافريقية خاصة ؟

ج) نظرية الحدث الحاسم و حقيقة التحول البطيء للنسيج الحضري :

يتضح مما سبق أن التحول بدأ منذ مطلع القرن الخامس هـ/XIم ، و تواصل إلى حد نهاية القرن السادس هـ/XIIم ، و تطلب قرنين من الزمن كي يفرز وضعا عمرانيا جديدا وشبكة مدينية مغايرة للأولى . ولم تكن الهجرة الهلالية في ذلك سوى حلقة من الحلقات العديدة التي أسّست لهذا التطور السلبي .

وفي نفس هذا السياق ، فإن إعادة ترتيب الشبكة المسلكية و الحضرية سبقت الهجرة الهلالية ، وكانت مرتبطة بعوامل مغايرة ، منها التفكك السياسي لبلاد المغرب وما تبعه من تراجع في المبادلات التجارية .

ففي مرحلة أولى ، أدى تكون المجال الإقتصادي العربي -الإسلامي إلى تنشيط العلاقات بين بلاد المغرب من جهة و المشرق و بلاد السودان من جهة ثانية ، وبرزت شبكة هامة من المسالك الكبرى الأفقية تربط بين حواضر المشرق : دمشق و بغداد والفسطاط و حواضر المغرب : برقة ـ طرابلس ـ القيروان ـ المسيلة ـ تيهرت ـ تلمسان ـ فاس ـ قرطبة . و إذا ما دققنا النظر في القسم الخاص بإفريقية ، فإننا نجده ينقسم إلى فروع عديدة :

---

(1)M. Goitein, **studies in Islamic History and institutions**, Leiden 1968.

(2)M. Brett, Arabs, Berbers and holymen in Southern Ifriqiya, In **C.T.**,1981,n°.117-118,p.533.

– القيروان – الجهينين – سبيبة – مجانة – مسكيانة – باغاي – نقاوس – المسيلة

وشمـال هذا المسلك بنحو 100كم ، يقع طريق ثان أقل اسـتعمـالا و هوالمسمى طريق الجبال، الذي يمر بالمدن التالية :

– القـيـروان – جلولا – أجر – طمـجنة – أبة – الأربـس – تامديت – مـرمـاجنة – تيفاش – أركو – تيجس – المسيلة – قلعة بني حماد (1).

كما تكونت شـبكة من المسالك العابرة للصحـراء في اتجاه بلاد غانة والتكرور وكانم، وأخرى أفقـية رابطة بين الواحات المغربية التي أضحت تشكل مـراكز عبور هامة، وهي : سجلماسة – وارجلان –الجريد –غدامس – الفزان .

وقد اقـترن تنشـيط المبادلات التـجارية ببـلاد المغرب في الفـترة الكلاسـيكية بازدهار الزراعـات الاحاديـة المعـدة للتسويق، وتـطـور الحرف وتنوعها حتى فاق عـددها الثلاثمـائة (2) .

لكن هذه الخارطة الاقـتصـادية والحضرية شـهدت تطورا تدريجـيا منذ بداية القرن الخامس هـ/XI م ، نتيجة الانقـسامات التي عرفتها البلاد العـربية عامة ، والمغـربيـة على وجه الخـصـوص، حـيث تفرعت الامـارة الزيرية الى مـجـالين : القيـروان وقلعة بني حمـاد، فيمـا تمكنت حركة صنهـاجة اللثام من القـضاء على الامارات الزناتية واقتطاع الجزء الغربي من بلاد المغرب ، فضلا عن الاندلس ، مما أدى الى تأسـيس مـحور تجـاري يربط بين غـانة وقـرطبة ، مـرورا بأودغـست وسجلمـاسة ومراكش وفـاس ، وكان ذلك على حسـاب المسلك الافقي الرابط بين فاس والقيروان الذي أصابه التجزّؤ .

و في خضم هـذا التطور ، كان الانتشـار البدوي عـاملا آخر سـاهم في اندثار سرعة الهياكل الحضرية التقليدية و تطورها نحو نمط جديد . فقد انتشرت القبائل البدوية أساسـا في المناطق شبه الصحراويـة والسباسبية ، و مـثلت بذلك ضغطا

(1) البكري ، **المسالك** ، ص 49، 53.

Y. Thébert , De la cité antique ...In **C . T.** , Avril 1986 , pp. 31-46 .

A. Mahjoubi , De la fin de l'antiquité au Haut moyen âge **In Congrès National des Sociétés Savantes**, Montpellier1985.

(2) عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي .

M. Lombard , **L'Islam dans sa première grandeur** .

M. Goitein , **A Mediterranean Society**: The Jewish Communities of the Arab Word. 3 T.

متواصلا على المدن التـلية التي اعتمدت في حماية نفـسها على مواقعهـا المتميزة مثل بجـاية وقسنطينة و الجبـال المحدقة بهـا . و لم توقف هذه القبائل إلا الجـبال المتنعة مـثل جبل سحاو(البابور حـاليا) و الباب(البيبـان) و جرجرة والأوراس . فاقتصرت على الاستقرار بالسهول المحيطة بها موثقة الخناق على القبائل الجبلية، التي استسلمت لها تارة، وقاومتها طورا آخر . و بالتالي فإن تحوّل الطريق الأفقي الرابط بين مدن المغرب من الوسط إلى التلول الشمـالية بعد سـيطرة البداوة على السباسب ، يعـتبر أهم نتيجـة للانتشار الهلالي : فـالمسلك الجديد الذي ورد ذكره في كـتب الرحلة ابتداء من القـرن XIIIم أصـبح يمر بالمحطات التـالية : فـاس – تلمسان – بجاية – سطيف – قسنطينة – عنابـة – باجة – تونس – سوسة – صفاقس – قابس – طرابلس – برقـــة – الإسكندرية (1).

ومما ينهض دليلا على ذلك انكـفاء العمران الحـضري في السواحل الشمـالية والشرقية، فيما عم النمط الرحلي بقية دواخل البلاد ، وذبلت حركية المدن بها . فقد أنشئت شبكة من الرباطات والقصور الساحليـة للتصدي للغزو البحري ، وتأمين حركة الملاحة مع شمال المتوسط(2) .

وظل اتجاه التطور الحضري و المسلكي هذا قائما في العهد الموحدي ، اذ تراجع نسق العلاقات التجارية القوافلية مع المشرق ، فيما استحوذت السفن الاوربية على توزيع بضائع الشرق الاقـصى على إثر قيام الحروب الصليبيـة . ولم يعد للمسلك الرابط بين القيـروان وفاس شأن يذكـر ، رغم محاولة الدولة السـيطرة على كامل المجال المغربي، حـتى أن عديد المدن الواقعة على طول هذا الطريق ، وخـاصة ببلاد الزاب والسباسب، تلاشى ذكرها واندثرت نتيجة إيقاف تسويق البضائع الزراعية المنتجة بهـذه الاقاليم الى المشـرق ، وهو مـا قامت عليـه نهضـتهـا في العصـور الكلاسيكية .

والحقـيقـة أن الموحدين عجـزوا عن تكوين شبكة طرقـات متـينة داخل المجال المغـربي، لطرفيـة قاعـدة الحكم ، مراكش ، واسـتـفـحال حركـات المعارضـة على عهدهم، وخـاصة حركة بني غانيـة التي كرست القطيعة داخل بلاد المغـرب ، عبر خط عـمودي يمتـد من بجـاية الى بلاد الجـريد وطرابلس ، راسـمة بذلك حـدود افريقية الحفصية .

(1) راجع على التّوالي : رحلات العبدري و البلوي و ابن بطوطة .

(2) لقد كان لاكتساح النورمان لسواحل افريقية الممتدة من بونة الى طرابلس أثر سيء على العمران والزراعة . راجع : الادريسي، نزهة المشتاق، ص 166 – 167.

ولئن لم يصبح هذا الانقسام بين أقطار المغرب واقعا سياسيا الا بعد نحو قرن من الزمن، فان الخارطة المسلكية قد هيأت لهذا الامر منذ العهد الموحدي ، حتى أن المسلك الرابط بين بجاية وقسنطينة من ناحية ، وسائر البلاد المغربية من ناحية ثانية لا يتضمن أي إشارة لوجود طريق يربطهما بالمغرب الاقصى ، بل إنها ارتبطت كلها بمدن واقعة شرقها ، مكرسة بذلك الانفصام بين إفريقية وبقية البلاد المغربية (1) .

2)انتشار القبائل العربية وتكون المجال الرعوي:

أدت الهجرة الهلالية إلى إعادة صياغة العناصر البشرية المكونة للمجتمع المغربي عامة، والافريقي خاصة ، على أن هذه العملية التأسيسية الجديدة لم تتم دون بروز تحالفات، ووقوع تأثيرات متداخلة أهمها تعريب القبائل البربرية وبداية استقرار البدو الهلاليين، وهي في الجملة تحولات ليست ناجمة عن طبيعة العلاقة العرقية بقدر ما هي تعبير عن القوى الاجتماعية المتواجدة (2) .

أ) المرحلة الأولى : الإنتشار التدريجي و التأقطع :

من موقعة حيدران إلى موقعة سبيبة : 443-547 هـ / 1051-1152م :

تسربت القبائل العربية من مصر إلى جنوب إفريقية ، متبعة مسلكين مختلفين، مثلما أشارت إلى ذلك السيرة الهلالية :

– فالأول صحراوي ، يصل من الواحات الغربية إلى الفزان ، و منها إلى غدامس فجنوب إفريقية . وفضلا عن ذكر السيرة لغدامس فإن ابن حوقل تحدث عن هذه القبائل بالواحات الغربية، و أضاف المقريزي أن قبائل بني سليم منتشرة في كامل بلاد إفريقية إلى حد ودّاي .

(1) الادريسي ، **المصدر نفسه** .

(2) ليس من اليسير تحديد العدد الجملي لهذه القبائل التي أثرت سلبا أو إيجابا في تاريخ بلاد المغرب . فالمصادر تبدو متناقضة في هذا الصدد : ففي ما ذكر ابن شرف ثلاثة آلاف شاركوا في معركة حيدران ، فإن الوزان ، حدد عدد المقاتلين بخمسين ألفا ، و عدد الوافدين الجملي بمليون شخصا ، والمبالغة تبدو في كلا العددين .

و مما هو ثابت فإن هذه القبائل ازدادت عددا بحكم التكاثر الديمغرافي و الولاء : فبعد نحو قرن من قدومهم ، و تحديدا سنة 546 هـ ، أثناء موقعة سطيف ، جمعت قبائل زغبة و رياح و الاثبج و قرة ستين ألف مقاتل . وعند موقعة جبل القرن، سنة 556 هـ ، كان عدد،بيوتهم زهاء ثمانين ألفا ، من بينهم نحو عشرة آلاف فارس .

و في نهاية العصور الوسطى ، حدد مارمول عدد المقاتلين العرب بأكثر من مليون ،مما حدا بأحد الدارسين القول أن العدد الجملي للعرب ببلاد المغرب فاق حوالي أربعة ملايين و نصف . وهي مبالغة كبيرة. ابن الاثير ، الكامل ، جIX ، ص 65.

ابن عذاري ، **البيان** ،I ، ص 290. النويري ، **نهاية الارب** ، ج XIV، ص 306-316. الوزان،ن.م، ج اا، ص38.

G.Marçais,**op.cit.**,TII,p.112-113

– أما الثاني ، فهو ساحلي ، إذ يتجه من الفزان إلى السرت و منها إلى طرابلس وإفريقية. ومن المواقع التى مر بها نجع هلال في الرواية الشفوية : تاورغا – مسراطة –ماجر – قصر نباوة من ناحية طرابلس – الأعراض – بئر نقوة – جرجيس – قابس – القيروان – زغوان –فحص مرناق – تونس (1) .

و بعد موقعة حيدران تدافعت قبائل رياح و الأثبج و عدي و زغبة فى اتجاه إفريقية، وكانت الرئاسة فيها للأثبج . و منذ سنة 446 هـ ، اقتسمت البلاد ، فكان لزغبة طرابلس و قابس، ولمرداس بن رياح باجة والقيروان ، و عقد لحسن بن سرحان الدريدي من كرفة على قسنطينة .

ثم اقتسموا البلاد ثانية ، فكان لهلال من تونس الى الغرب ، و هم رياح و زغبة والمعقل و جشم و القرة و الأثبج والخلط و سفيان، فيما نزلت سليم بجهة الشرق (2).

وابتداء من تلك الحقبة ، دخلت هذه القبائل في تحالفات متعددة مع أمراء دويلات الطوائف بالمهدية وصفاقس و القلعة ، مما أفرز ظهور كتلتين متنافستين :

– الأولى تكونها رياح و زغبة متحالفة مع سلطة الزيريين بالمهدية .

– الثانية تضم الأثبج و عدي مع الحماديين .

وقد تعددت المواجهات بين الطرفين بين سنتي 455 هـ و460 هـ ، إذ عمدت السلطة الزيرية الى تأجيج الخلاف بين القبائل (3) .

على أن هذه الاختلافات القبلية لم تمنع تآزرهم لصد العدو المشترك وانتصارهم عليه في موقعة سبيبة سنة 457 هـ التي فتحت الباب واسعا أمام المرحلة الثانية من التغريبة الهلالية .

(1) ابن حوقل ،**صورة الارض** ،ص 145 . المقريزي ، **البيان و الإعراب** .

الطاهر قيقة ، من اقاصيص بنى هلال ،ص96 -98 - 100-102 - 110. **ندوة حول سيرة بني هلال** ، ص 72- 134 .

و كانت اغلب الروايات تجمع على ذكر هذه المواقع ، على أنه هناك أخرى أقل ذكرا في السيرة الهلالية .

(2) النويري ، **نهاية الارب** ، ج XXIV، ص 213. ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI، ص 42-41 35, 33.

(3) في سنة 450 هـ ، ناصرت الاثبج وعدي بلقين بن محمد الصنهاجي ، صاحب القلعة ، في حربه ضد زناتة . ثم انضمت الى صفوف حمو البرغواطي ، ضد تميم وأتباعه ، من زغبة ورياح ، وانهزمت في موقعة سلقطة سنة 455هـ وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ، كانت موقعة الاربس بين الطرفين . وكان تميم بن المعز قد كتب أبياتا يحرض فيها رياح على الاخذ بالثأر من عدي، مطلعها : متى كانت دماؤكم تطل .:. اما فيكم يثار مستقل

انظر : ابن الاثير، الكامل ، ج ٧ ، ص 355.227 . النويري، نهاية ، ج 24 .

G.Marçais, op.cit.,pp134-135,217-222.

و تمكنت هذه القبائل على إثر هذا التغلب من اكتساح البلاد الغربية، والانتشار بها، حتى أن الأمير الحمادي المنصور بن المنتصر صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من حبوب و تمور و غير ذلك . وظلوا منتفعين بالاقطاع الى حد قدوم عبد المؤمن الذى «**أزال ذلك من أيديهم ، و صيرهم جندا له ، وأقطع رؤسائهم بعض تلك البلاد** » (1) .

وأفرز هذا الوضع انفراد رياح بافريقية ، بعد أن تخلص من خطر بني حماد ودحرت الاثبج في اتجاه الغرب، وأطردت زغبة سنة 466هـ و عدي سنة 491 هـ (2) .

و بالتالي فإن الفترة الممتدة بين موقعة حيدران 443 هـ و بداية تقدم الموحدين في اتجاه الشرق 546 هـ شهدت درجة متطورة من التأقطع ، والتشتت القبلي والتفكك السياسي والاجتماعي ، انعكس سلبا على العلاقة بين المدينة و ناحيتها .

ب) المرحلة الثانية :إيقاف الموحدين للمد البدوي و الهجرة القسرية :

تمكن الموحدون من التحكم في عملية الانتشار البدوي ، و تسييرها وفق إرادتهم، و ضبط تحركات القبائل، و بالتالي قاموا بدفع جديد للحركة الحضرية بالبلاد ، و وضعوا حدا لاستقلالية البدو الذين ألفوا وضعا سائبا طيلة قرن من الزمن .

لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين ، إذ أن القبائل تناست اختلافاتها القديمة ، كي تتصدى للمد الموحدي . و ترأست رياح هذه الحركة . غير أن المصامدة استطاعوا هزم الأعراب، و ذلك باستعمال خطة ترتكز على المباغتة و التطويق ، و آلة ثقيلة ومتطورة نسبيا .

وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم معركتي سطيف و القرن :

– معركة سطيف (547 هـ/ 1153م) و سيطرة الموحدين على التلو ل :

بعد أن سيطر عبد المؤمن بن علي على بجاية و قلعة بني حماد تقدم نحو الشرق حتى لامس خط الانتشار البدوي . عندها أحست القبائل العربية بخطورة

(1) المراكشي، **المعجب**، ص 328، ابن خلدون، **تاريخ**، ج IV ، ص 362 .

(2) ابن عذاري ، **ن ، م** ، ج I، ص 300301 _ . النويري ، **ن ، م** ، ج XXIV، ص 236.

و ذكر ابن خلدون (جVI ، ص 355) أن زغبة و الاثبج أخرجا عدي إلى طرابلس و فسر «جورج مارسي » : (المرجع المذكور، ص147–135) هذه النزاعات بين القبائل بنظرية الصف. وهو في الحقيقة لا يعدو أن يكون تفسيرا آليا للصراع الإجتماعي الذي تفسره عوامل اقتصادية واجتماعية عدة. ونشير إلى أن هذا الدارس اقتصر في الغالب على رحلة التجاني وتاريخ ابن خلدون، ولم يستعمل ابن عذاري (الجزء الموحدي) وابن أبي زرع.

الموقف ، وقالت :«**إن جاورنا عبد المؤمن ، أجلانا من بلاد المغرب ، و ليس الرأي إلا القاء معه و أخذه بالجد ، و إخراجه من البلاد قبل أن يتمكن** » ، وتحالفت على التعاون و التعاضد ، رافضة عرض نورمان صقلية في مؤازرتها ، و تناست الضغائن القديمة ، و تجمعت بناحية باجة لتدارس الوضع ، و نزل هناك أكثر من ستين ألف فارس مع عائلاتهم ، من رياح و زغبة و الأثبج و قرة . وكان على رأسهم محرز بن زياد الرياحي ، صاحب المعلقة و جبارة بن كامل و حسن بن ثعلب و عيسى بن حسن .

حاول الموحدون في البداية أخذهم باللين ، فخاطبوا جميع العرب ببلاد إفريقية وما يتصل بها إلى جهات الإسكندرية مخاطبة الاستصراخ و الاستنجاد لإنقاذ الاندلس، لكن ترد د العرب في الاستجابة لذلك من جهة و نية الموحدين في المضي قدما للاستيلاء على إفريقية ، يفسران اندلاع المعركة بين القوتين الأساسيتين في بلاد المغرب .

واستدرج المصامدة البدو إلى ناحية سطيف حيث دارت المعركة طيلة ثلاثة أيام . وقد استعرض العرب فيها ضروبا من الحماسة ، على أنها انتهت بهزيمتهم و فرارهم إلى ناحية تبسة ، تاركين أموالهم و عائلاتهم ، فغنم المصامدة الأموال و نقلوا النساء إلى مراكش ، لمساومة رؤسائهم بهن (1) .

وكان عبد المؤمن راغبا في تطويع هذه القبائل و تهدينها ، لكنه في الآن نفسه حريصا على كسبها إلى صفه ، لاستعمالها في حروب الأندلس : تلك هي الغاية المزدوجة التي تفسر سياسة عبد المؤمن ، و قد تجسدت بوضوح في وصيته لأبنائه سنة 554هـ ، التي قال فيها : «**و أخل إفريقية من العرب و أجلهم إلى بلاد المغرب وادخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك** »(2) .

وأستعمل عبد المؤمن سياسة الشدة و اللين مع عرب بني سليم بناحية قابس وحاول استدناءهم إليه و أستنهاض هممهم بالقصائد الشعرية التي نظمت لهذا الغرض. كما سعى إلى كسب قبيلة رياح و تشريكها في التصدي للقشتاليين بالأندلس و طلب من أمرائها تعبئة عشرة آلاف ، لتحقيق هدفين في أن واحد : التحضير لحرب الأندلس، وترحيلهم من إفريقية . كما تندرج هذه الخطة في سياق بسط الموحدين نفوذهم على البلاد ، فبعد أن دانت لهم البلاد التلية على إثر معركة

(1) **رسائل موحدية** . نشر ليفي بروفنسال . رسالة عدد9 ، ص 36 – 26.
ابن الأثير ، **الكامل** ، ج IX، ص 41. التجاني ، **رحلة** ، ص 347 ، 344.
النويري ، **نهاية** ، ج XXIV، ص 307 – 305.

(2) G. Marçais,op. cit , pp , 149 et 180 -181 . ابن خلدون ، ن ، م ، ج VI، ص 580.

سطيف، وسواحل إفريقية إلى حد طرابلس، احتمى الأعراب وراء خط بلاد المزاق القديم، الذي بقي ممتنعا. وهكذا يمكن أن نفهم توقيت معركة القرن (سنة 556هـ) ومكانها(1).

– سيطرة الموحدين على وسط إفريقية (556هـ/1161م):

تفطن الاعراب لخطة الموحدين في السيطرة على البلاد، فقابلوها بالرفض، وأنسحبوا إلى جهة القيروان حيث نزل حوالي ثمانين ألف بيت بالقرن. و هي نقطة الارتكاز الثانية للقبائل البدوية بعد ناحية باجة.

و أتبع المصامدة نفس الخطة المعتمدة في موقعة سطيف. و هي المباغتة والمداهمة على حين غرة، و قطع الطريق الصحراوي الذي يستعمله الأعراب عند الانسحاب. و بهذا أصبحت هذه القبائل محاصرة من الجهتين: التلية والصحراوية

و قد أدخل التراجع الفجئي للجيش الموحدي الارتباك في صفوف القبائل، وقسمها: فاختار جبارة بن كامل ومسعود بن زمام و من معهما الفرار، و ثبت محرز بن زياد الرياحي، صاحب المعلقة إلى حد مقتله.

وكانت معركة دامية بالقرن، انتهت بانكسار شوكة القبائل البدوية المحاربة، بعد غنم أموالها وتخميسها، و بداية خضوعها للسلطة الموحدية، ونظمها الجديدة (2).

وتابع عبد المؤمن حملته على قبيلة رياح التي التجأت إلى مدينة قفصة، بعد أن تغلب عليها بالقيروان. و نزل بساحة الواحة منشغلا في ترتيب الجند لمحاصرتها، بعد أن رفض أهل المدينة الإذعان، لقوة تحصيناتها و مناعتها(لعلو السور وإحاطته بستارة و خندق)، فضلا عن أحتمائها بغابة نخيل و بناءات متفرقة، تليها جبال وصحار قاسية، تجد فيها الجيوش الغازية مشقة للتحصل على الماء والإمدادات التموينية.

وأستعمل الموحدون في حصارها الأبراج الخشبية و المنجنيق، إلى أن أستسلمت، وخضع أهلها و الأعراب المساندون لهم، و أنتهت الحرب

---

(1) نظم القاضي أبو عمران قصيدة مطلعها: **أسليم دعوة ذي أخاه مرشد / هاد إلى الحق المبين المسعد**

و مذكر ما كان أسلاف لكم / فضلوا به أفعال كل مسدد

بجهاد أعداء الإلاه و نصرهم / لرسول ربهم النبي محمد

ابن عذاري، **ن.م**، ج III، ص 62.

ابن الأثير، **الكامل**، جIX، ص 316(وقد أخطأ في تحديد موضع القرن جنوب القيروان، لا شماله). وتذكرنا سياسة عبد المؤمن بما قام به حسان بن النعمان من تشريك البربر في الفتوحات بعد هزيمة الكاهنة.

باستئصال شأفة «القبيل الرياحي المستولي على أقطارها»، وأستياق عدد كبير من السبايا و الغنائم من بين صفوفهم.

ووصل أعيان الأثبج و زغبة، و بعض بطون رياح مثل بني محمد، يعلنون الطاعة والاستتابة في شهر ربيع الآخر 556هـ / 1161م، و وافق بنو محمد وجشم على الانتقال إلى المغرب الأقصى (1).

وخلاصة القول، نجح عبد المؤمن في تأمين البلاد و تهدين القبائل البدوية، كما كان له ما أراد من تشريكها في حرب الأندلس، متوخيا معها سياسة النقل القسري إلى المغرب الأقصى والأندلس. فحمل ألفا من كل بطن، و أسعف البقية بالرجوع إلى مواطنهم بعد أن بلغوا مشارف وهران (2).

وبعد أن كانت الرسائل الموحدية تتعرض للبدو بالشتم و العدوانية، أطنب الشعراء في مدحهم، والاشادة بفروسيتهم لإثارة حميتهم و إشراكهم في المعركة.

وفعلا، نجح في هذه التعبئة التي أعتمدت الترغيب و الترهيب، و أندفع فرسان زغبة ورياح و جشم وغيرهم إلى الأندلس، و كان بعضهم قد حبذ الإقامة بها، حتى أن عدد الفرسان منهم بلغ خمسين ألفا سنة 621 هـ (3).

وفي الجملة فقد ركز عبد المؤمن بن علي الدعائم الأولى لسياسته تجاه البدو الهلالية، والتي ظلت فاعلة في عهد خلفائه، و هي سياسة تهدين للقبائل، و نقلهم من مجال إلى أخر. ويبدو أن هذه الخطة لم تقتصر على أعراب بني هلال، إنما شملت سائر القبائل البدوية البربرية، من ذلك ما سلكوه إزاء قبيلة فطناسة، التي كانت لها حروث ومزارع، بمعنى أنها شبه مستقرة، فعمد المصامدة إلى ترحيلها قسرا من أرضها (4).

---

(1) ابن الأثير، **ن.م**، جIX، ص 99 – 65. النويري، **ن.م**، ج XXIV، ص 317 – 315.

ابن عذاري، **ن.م**، جIII، ص 68.

و ورد في الزركشي (**تاريخ**، ص 18) ما أنشده قاضي تونس الأبي، لعبد المؤمن بعد انتصاره:

ولي الشباب أمام الشيب منهزما / فذا يصول و ذا يشتد في الهرب.

G.Marçais , op . cit. , p . 182 - 183 .

وصفت الوثائق الموحدية المتصدين للمصامدة بذعار اللصوص وأباق العبيد وأهل الحرابة والشر تارة، **رسائل موحّدية**، عدد 20، ص99–113، رسالة 21، 113–121.

(2) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 199.

و قال ابن عذاري (البيان المغرب، ج III، ص 67) في هذا الصدد: «و استاق من العرب ما لا يحصى» و يفهم مما أورده ابن عذاري أن العدد الجملي للمحولين قسرا كان هاما.

(3) المراكشي، **المعجب**، ص 331 – 330.

و مما ورد في خصوص مشاركتهم: «ظهر فيها من شجاعة العرب ما لا يوصف حتى كان الفارس من العرب يسير بين الصفين و يطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد»: النويري، ن.م، ج XXIV، ص 324.

(4) **مناقب الدهماني**، ج I، ص 41، ب (و يذكر أن أحد علماء القيروان أبو يوسف يعقوب الدهماني تدخل لمنع ذلك.)

وتابع الخليفة الثاني أبو يعقوب يوسف سياسة أبيه في ترحيل العرب إلى المغرب الأقصى وتشريكهم في حروب الأندلس ، فجمع بإفريقية أشياخ العرب وأعيانهم وحضر لهذا اللقاء ممثلون من مختلف التقسيمات القبلية ، من القبيلة إلى العشيرة ، فالأفخاذ والعمائر ، و كان من بينهم رئيس رياح : أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام .

وقد ساهمت هذه السياسة في إفراغ البلاد من عدد كبير من بني هلال . لكن من الواضح أن المجتمع الحضري كان على درجة كبيرة من الوهن ، حتى أنه لم يتمكن من إعادة التوازن بدو ـ حضر بإفريقية ، و لا حتى من غلق باب الهجرة أمام قبائل بني سليم التي كانت إلى حد ذلك التاريخ نازلة **«بجهات طرابلس و ما وراءها مشرقا ومصحرا إلى برقة و الاسكندرية »** (1) .

و هكذا ، بدأت تظهر على إثر إفراغ إفريقية من قبائل بني رياح بوادر التسرب السليمي إلى إفريقية منذ سنة 576 هـ ، كي تحل محل بني هلال . و تواصلت هذه العملية ببطء إلى حد سنة 630 هـ ، تاريخ القرار الحاسم الذي اتخذه أبو زكريا الحفصي في أستجلاب بني سليم و دحر رياح نحو المغرب (2) .

والحقيقة أن بداية تحرك بني دباب يعود الى تاريخ قدوم الموحدين الى افريقية سنة الأخماس، و قد تحول ذلك الى عصيان لما تم التحالف مع أحد المماليك من جيش صلاح الدين المغامرين، و هو قراقوش الغزي الأرمني الذي حل بجنوب افريقية سنة568هـ / 1172 م ، مارا ببلاد الفزان حتى وصل جبل نفوسة .

وانضم اليهم مسعود بن زمام شيخ الدواودة من بنى رياح ، الذي تمكن من النجاة من الجند الموجدي، في معركة القرن ، سنة 556هـ / 1161 م .

وتمكن هذا الحلف بين رياح و دباب من ناحية ، و قراقوش من ناحية ثانية ، من السيطرة على جهة طرابلس ، و جبل نفوسة ، و تحصلت هذه القبائل البدوية على عطاءاتها من القائد الأرمني قراقوش (3) .

---

(1) ابن صاحب الصلاة ، **المن بالإمامة** ، ص 419 – 417 – 415 – 411.
النويري ، **ن م** ، ج XXIV، ص 326.
(2) **رسائل موحدية** ، ص 157 – 146(رسالة عدد 26) .
(3)عبد الله عنان ، **تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس فى عهد المرابطين و الموحدين** ، ج II ، ص 156.
المقري ، نفح الطيب ، ج ٧، ص 205–206 (تحدث عن الاضطرابات الأمنية بصحراء السوس و صعوبة استعمال الطريق الموصل الى بلاد السودان).
ابن عذاري ، **البيان** ، ج III ،ص 154.
المراكشي ، **المعجب** ، ص390 – 391.التجاني ، **رحلة** ،ص111–112.

و شرعت قبائل بني سليم منذ تلك الحقبة تخطط للتوغل شمالا في بلاد إفريقية، وتجاوز خط قابس الاستراتيجى . لكن الموحدين لم يفرطوا في هذا الموقع الجغرافي–السياسي الرابط بين المشرق والمغرب من جهة وبلاد الصحراء وإفريقية من جهة أخرى، وما يعني ذلك من عائدات تجارية هامة .

ج) حركة بني غانية (580–630هـ / 1184 –1234 م) :

– *المرحلة الاولى :*

تكون هذا الحلف القبلي ، من عناصر متعددة لا يجمع بينها سوى الرغبة فى التخلص من السلطة الموحدية ، فإذا كان المغامرون الأغزاز وصلوا الى إفريقية ، بغية تكوين ثروة و ربما تأمين طريق القوافل الصحراوي الرابط بين مصر و بلاد السودان الغربى مرورا بصحراء المغرب، فإن بني غانية الميورقيين ، حاولوا إحداث شرخ ، فى جسم الدولة الموحدية، والسيطرة على محور عمودي يمتد من ميورقة – بجاية – قسنطينة – الزاب (بسكرة) – واحات المزاب، والجريد، وهو أشبه ما يكون بالمحور، الذى أسسه المرابطون، و هو يمتد، من غانة – أودغست – سجلماسة – مراكش – فاس – قرطبة ، و يربط بين المجال الصحراوي و المجال المتوسطي .

غير أن هذه الحركات لم تكن لها فاعلية تذكر لولا مشاركة القبائل العربية التي مثلت أساس هذه الانتفاضات، و ذلك بعد أن حاول المصامدة الحد من سلطتها وامتيازاتها الاقتصادية المتمثلة في التمتع بالإقطاعات الشاسعة و خفارة القوافل والإمتناع عن دفع الجباية .

و بالتالي فقد شكلت عديد المناطق ببلاد إفريقية بؤر توتر : ففي البلاد الغربية، كانت قبائل الأثبج و من حالفها من جشم يأخذون نصف غلة البلاد في عهد بني حماد إلى أن استولى عبد المؤمن بن علي على الإمارة و أزال ذلك من أيديهم وصيّرهم جندا له ، و أقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد . ولا يختلف وضع رياح كثيرا عما سبق : فبعد أن كانت لها الرئاسة و النفوذ الاقتصادي بالمعلقة (قرطاجنة)، تمكن الموّحدون من دحرها تدريجيا من البلاد التلية والسباسب في موقعتين داميتين بسطيف و القرن ، و أصبحت من القبائل المشردة التي تكن عداوة شديدة للمصامدة.

أما بنو سليم ، فقد ظلت قبيلة طرفية بجنوب إفريقية ، و مكنت مساهمتها في هذه الحركة من اكتساح خط قابس .

و بذلك لم يبق من القبائل العربية خارج هذا الحلف سوى قبيلة زغبة التي أصبحت في خدمة الموحدين ، بعد أن دحرتها رياح و أخرجتها من مجال الأوراس والحضنة في اتجاه الغرب حيث زناتة (1) .

و بعد أن فقد علي بن غانية السيطرة على بجاية و قسنطينة تحول إلى بلاد الجريد التي اتخذها نقطة ارتكاز لمداهمة البلاد التلية ، فحاصر جزيرة شريك وخرب مركزها منزل باشو، ووصل إلى مشارف مدينة تونس سنة 582 هـ / 1186م .

وحيال هذا الوضع عجّل الخليفة المنصور بالتحول إلى إفريقية ، و لما حل بمدينة تونس، كلف أحد أحفاد عبد المؤمن بن علي و هو أبو يوسف يعقوب بن أبي حفص ، بشن حملة ضد البدو و بني غانية ، و دارت المعركة بين الطرفين بوطا عمرة ، شمال شرقي قفصة في شهر ربيع الأول عام هـ 583/ ماي 1187م . وكانت هزيمة للجيش الموحدي لما أبداه المصامدة من تخاذل واستياء إزاء العلوج النصارى (2) .

عندئذ نهض الخليفة المنصور بنفسه للتصدي لهذا الحلف البدوي ، و عندما توقف بمدينة القيروان التي ظل الخراب مهيمنا عليها ، شرع في ملاحقة هذه القبائل من وادران إلى نواحي قفصة ، فحامة مطماطة حيث كانت الموقعة بين الطرفين في 10 من شعبان سنة 583 هـ / 1187م . وانتهت المعركة بانهزام بني غانية و بني سليم والأغزاز واستيلاء المنصور على قصبة قابس التي أودع بها قراقوش أمواله(3) .

ثم تحول من قابس إلى البلاد الجريدية متبعا طريقا صحراويا لا عهد للعساكر به ، ففر بنو غانية أمامه تاركين أموالهم بمدينة توزر ، و جاءته الوفود معلنة خضوعها من نفزاوة و الجريد ثم قفصة(4) .

---

(1) المراكشي ، **المعجب** ، ص 329 – 328.الإدريسي ، **نزهة المشتاق** . **رسائل موحدّية**، ص156 (سكنت قبائل بني سليم بجهات طرابلس وما وراثها مشرقا ومصحرا إلى برقة والإسكندرية).

(2) المراكشي ، **المعجب** ، ص 395 – 392. **رسائل موحدية** ، عدد 29.

ابن خلدون ، **ن ،م** ، ج VI، ص 397 – 395.

النويري ، نهاية الارب ، ج XXIV، ص 331 – 330 ..

G . Marçais , **op . cit** , p . 190 .

(3) في المراكشي ، **المعجب** ، ص 393: حمة دحوس .

ابن عذاري ، **ن ،م** ، ج IV، ص 190.

و ورد حول مدينة قابس في الرسائل الموحدية (رسالة عدد 30، ص 191 – 180) : «و هذه المدينة العتيقة روح هذه الجهات الإفريقية و معناها ، و قفلها الذي يحمي حوزتها و يكف عداها . ينفجر خلالها الماء العذب و يلتقي بها الركاب و الركب و تحدق بأرجائها الجنات الالفاف و الحدائق الغلب ، و تجتمع فيها أصناف التمر المتخير و الحب ».

(4) **رسائل موحدية** ، رسالة عدد 31، ص 197 – 191.

وهكذا تمكن من تمهيد جنوب إفريقية بعد موت علي بن غانية متأثرا بجراحه ثم تابع تنظيم علاقته مع الأعراب في جهة المهدية (1) .

وانتهت هذه المرحلة من الصراع الدائر بين البدو ، من أعراب و صنهاجيين ، والموحدين بحركة هجرة قسرية، للقبائل العربية في اتجاه المغرب الاقصى . ولئن تمكنت قبائل بني سليم من الفرار الى الصحراء ، فان قبائل رياح وقرة والاثبج وجشم تعرضت لعملية النقل الى بلاد الهبط وسائر البلاد المغربية (2) .

- المرحلة الثانية لحركة بنى غانية

(584 هـ/ 1188 – 630 /3212 م) :

منذ الحقبة الثانية لحركة بني غانية التي تولّى فيها يحيى بن غانية القيادة، بدأ فك الارتباط بين عناصر الحلف غير المتجانس ، ففي سنة 586 هـ قتل قراقوش الغزي شيوخ بني سليم السبعين بقصر العروسين(3).

و من جهة أخرى ، اصطدم قراقوش ، بعد سيطرته على قابس و طرابلس بين سنتي 586 هـ – 591هـ ببني غانية الذين أوقفوا توسعه في اتجاه بلاد الجريد، و تمكنوا من انتزاع مدينة طرابلس من بين يديه، وذلك بمؤازرة قبيلة دباب السليمية . و لما انهزم، احتمى بجبال طرابلس (جبال نفوسة) فيما دخل ابن غانية المدينة، ثم سيطر على قابس، في شهر ربيع الثانى سنة591 هـ / مارس 1991 م ، و تابع توسعه في اتجاه المهدية (4) .

---

(1) كان المنصور يقطع أثناء الحصار ألف نخلة كل يوم ، حتى أهلك أكثر نخيل قفصة .

انظر : التجاني ، **رحلة** ، ص 138. **رسائل موحدية**، رسالة عدد32، ص210–199.

ابن عذاري ، **ن.م**، ج III، ص 190–197.

ابن خلدون، ن.م، ج VI ، ص 397.

(2) ابن ابي زرع، **روض القرطاس**، ص 218 (ومما ورد فيه أنه جاء على لسان المنصور قبيل موته أنه ندم على ثلاث:« **أولها إدخال العرب من إفريقية الى المغرب لاني أعلم أنهم أصل فساده»**) .

ابن ابي زرع، **الذخيرة السنية**، ص 46. ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 58، 397.

(3) استدعى قراقوش شيوخ بنى سليم من دباب و الكعوب الى قصر العروسين ، و قام بقتلهم جميعا ، و دفنوا به ، الى أن نقلت رفاتهم بعد نحو قرن من الزمن ، سنة682 هـ ، بأمر من الدعي إبن أبى عمارة .أنظر : التجاني ، رحلة ، ص 104. و كذا في ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص398 .

ويفسر جورج مارسى (ن.م، ص 202–204) هذا العمل بكونه إنتقاما من بنى سليم الذين لم يآزروه عند الحرب ، فيما أعانه مسعود البلط الرياحي ، الذي فر من المغرب الاقصى ، من السيطرة على طرابلس .

(4) التجاني ، **ن.م** ، ص105 – 110، 243–245 . ابن خلدون ، **ن.م** ، ج VI ، ص400–399 .

G. Marçais , **op. cit.** , p. 205 .

تمكن يحيى بن غانية من إزاحة آخر عـائق للتقدم في اتجاه بلاد المزاق و التل ،بعد أن سقطت المهدية في يديه . و على إثر معركة قصور لالة بقـفصة ضد محمد بن عبد الكريم الرجراجي ، الذي تدعـمت حركتـه بانضمام بني رياح إليـه الى جانب بني سليم، واصل عملياته العسكرية انطلاقا من المهـدية في اتجاه باجة وبسكرة و تبسة والقيروان و عنابة بين سنتي 597هـ– 599هـ / 1200م – 1203 م .

ولما عزل مـدينة تونس عن ناحيـتها ، أوثق الحـصار حولـها سنة599 هـ برًا وبحرا ، فنزل أولا شمالا بـالجبل الأحمر ثم أحاط بسورها من ناحـية باب سويقة وقرطاجنة ،فـيما عـمل أخوه على غلق المنفـذ البحري للمـدينة ، و هو حلق الوادي ونصب المجانيق والآلة قرب باب الجزيرة .

واستمر حـصار المدينة أربعة أشهر ، إلى أن اسـتسلم الوالي الموحدي أبو زيد بن أبي حفص عـمر فدخل المـيورقي المدينة سنة600 هـ ، بعد أن أمـن أهلها على أنفسـهم و أملاكـهم وأغرمهم مـائة ألف دينار كضـريبة نزول لاقـوا الأمرين في استخلاصـها (1) .

و بالتالي تمكن بنو غانية من السيطرة على كـامل بلاد إفريقية الممتدة من بونة الى بسكرة ، و من تونس الى طرابلس ، واتخذوا قصـبة تونس ، مقرا للحكم، لكن هذا الحلف البدوي بين الملثمين بني هلال وبني سليم لم يعمّر طويلا .

* فشل الحركة البدوية بجنوب إفريقية : موقعة تاجرا :

تفـاقم خطر هذه القـبائل الـبدوية ، فـحـاصرت المدن و سـيطرت على المجـال الزراعي، وكانـت سريعة الحـركة، تنتـقل من بلاد الى أخرى ، حـتى أنها غـشيت مدينة تلمسان، «كالجراد المنتشر» . فارتاع أهل المدينة ، و غلقوا أبواب الأسوار.

و إزاء هذا الوضـع، جهز الخليفة محمد الناصر حملة عسكرية انطلاقا من مدينة فاس سنة602 هـ / 1205 م . و لم يكن لابن غـانية الوقت الكافي لتدعـيم نفوذه بمدينة تونس، ففضـل الانسحاب منها مبكرا، والتـخندق بنقطة الارتكاز الأصلية لهذه الحـركة بجنـوب إفريقيـة، واختـار لذلك حصنا طـبيعـيا ، و نقطة تمـفصل أساسـية بين واحات قابس والجـريد و جهة طرابلس : و هو جبل دمـر الذي كانت تسكنه مـجموعـات إباضية غـير مـساندة له . كمـا بدأت تبرز في جنده عـلامات الانشقاق ، لما لم يكتف ابن غانية بأخذ المواثيق على الأعراب للخدمة معه، إنما أخذ رهائن منهم .

(1) التجاني ، **رحلة**، ص 356،354 . (تمثلت ضريبة النزول سنة600 هـ في إستخلاص الريع العقاري من إملاك سكان مدينة تونس ، و كان من بينهما أملاك بني التجاني ، التي رفع النزول عنها بموجب ظهير كتبه الميورقي).

على أن القائد الموحدي أبو مـحمد عبد الواحد بن أبى حـفص عمر الأنتي تمكن من أقتلاع يحيى الميورقي من مكمنه ، و دارت المعركة بين الطرفين بتاجرا فى ربيع الاول سنة 602هـ / أكـتـوبر1205 م . و عـقل المرابطـون الإبل و جـعلوها كالحـصون يقاتلون دونها، و جـعلوا الراية العباسـية السوداء شـعارا لهم ، لكن الغلبة كانت للموحدين الذين غنـموا « الأموال الفاخرة والأحوال الضخمة الواسعة » . و أفلت أبن غانية بصعوبة و فر في اتجاه الصحراء .

ولئن لم يتجاوز الجيش الموحدي أربعة آلاف،فإن معـركة تاجرا فاقت أهميتها سائر المعارك، إذ مثلت بداية النهاية لحركة البدو (1) .

أما الخليفة محمد الناصر ، فإنه انصرف إلى محاصرة المهدية التي كان يحكمها أحد الملثمين محمد بن الغازي ، و كان في مناصرتة إخلاط من سليم و المرتدين من رياح . و اضطر الوالي المرابطي للإسـتسلام و الإضـعان في 27 جـمادي الأول ، سنة 602 هـ / جانفي 1206 م (2) .

وبالتالي فـإن هاتين الموقعـتين مهدتا لتـهدئة الأوضـاع ببـلاد إفريقيـة بعد فك الإرتباط بين الملثمين والأعراب، و بينهـم و بيـن بعض أهل الحواضر الذين فضلوا الانضمام إلى صفوفهم للدفاع عن المذهب المالكي .

ومـثلت هذه الحقبـة منعرجـا هاما فـي علاقـة الدولة بالقـبائل ، فـقد حـاول الموحدون التخلص مـن قبائل رياح التي كانت تناصبـها العداء منذ موقـعة القرن ، وإزاحتها عن طـريق فتح الباب واسعا أمام بني سليم للتـقدم من جنوب البلاد إلى وسطها و شمالها .

و تزامنت هذه التحولات السياسية –الإجتـماعية الهامة مع بداية انتصاب حكم بني حفص بالبـلاد ، بعد أن عين الخليفـة الموحدي : أبا محـمد عبـد الواحد بن أبي حفص عمر الإنتي واليا عليها سنة 603 هـ .

(1) التجاني ، **رحلة** ، ص 358 – 356. ابن خلدون ، **ن ،م** ، ج VI ، ص 403.
ابن عذاري ، **ن ،م** ، ج III، ص 290 – 252 – 245
(2) المراكشي ، **المعجب** ، ص 452 – 451.
التجاني ، **رحلة** ، ص 360 – 358. ابن أبي زرع ، **روض القرطاس** ، ص 233 – 232.
الذخيرة السنية ، ص 40(ورد ابن غازي : تحت اسم الحاج كافي) .
ابن خلدون ، **ن ،م** ، ج VI ، ص 403. النويري ، **نهاية الارب** ، ج XXIV، ص 242 – 341.
G . Marçais , **op . cit** , p 214 - 215 . R . Brunschvig , **Hafsides** , T I , p 11
(و قد ذكر برانشويك مشاركة مسعود البلط في موقعة تاجرا ، اعتمادا على ابن خلدون (ج VI ، ص 145) و هو أمر مستبعد ، بعد نصف قرن من مشاركته في معركة القرن ، و الارجح أن يكون ابنه) .
انظر : ابن خلدون ، **تاريخ** ،ج VI ، ص 403. الزركشي ، **تاريخ** ، ص 15 – 18 (ذكر مشاركة محمد بن مسعود البلط في معركة شبرو سنة 604 هـ) .

د) الإنتشار السليمي بإفريقية (602-631 هـ / 1205-1233م):

مثلت معركة تاجرا (602 هـ) منعرجا هاما فى العلاقة بين البدو والحضر، وذلك بالإنتقال من « الحقبة الرياحية – الصنهاجية » ، التى سيطر فيها الضاعنون في الترحال، الى أخرى تميزت بالإستقرار النسبي ، و بداية تعايش البدو من بني سليم والحضر ، و انتعاش العملية الإستصلاحية للاراضي الزراعية (1) .

و تعد العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع هـ / XIII م فترة انتقالية في تاريخ البلاد تميّزت بإعادة النظر في الهيكلة البشرية و تسهيل الإنتشار السليمي للتخلص من بني هلال ودحرهم نحو الغرب مثلما اندحرت من قبلهم زناتة .

وثمة عوامل عدة مهدت لهذا التحول الهام في الجغرافيا القبلية للبلاد : فقبيلة الأثبج بدأت التغريبة منذ زمن مبكر ، فاستوطنت بالمغرب الأوسط في رحلة أولى قبل أن ينقل الموحدون مجموعات منها إلى المغرب الأقصى . وطيلة هذه الحقبة الممتدة بين معركتي القرن (هـ 556) و تاجرا (هـ 602) ، استأثرت رياح وخاصة الذواودة بوسط إفريقية و جنوبها ، متحالفة في ذلك مع صنهاجة اللثام .

و انطلاقا من نقطة ارتكاز هامة و هي البلاد التلية و خاصة مدينة تونس ، تمكن الموحدون من بسط نفوذهم على سائر البلاد ، مستعينين في ذلك بقبائل بني سليم الطرفية .

و بدأ التقارب يبرز بينهما عند خضوع بني عوف من بني سليم لوالي تونس ، في نهاية القرن السادس هـ ، لما لاذوا به عند غنم المنتزي محمد بن عبد الكريم الرجراجي لأموالهم . و منذ سنة 586 هـ ، تخلوا عن حليفهم السابق قراقوش بعد أن استأصل شأفة سبعين من شيوخهم ، كما تخلوا في موقعة تاجرا عن بني غانية الذين حاولوا ارغامهم على التحالف معهم و فرضوا عليهم رهائن (2) .

و بالتالي فقد ساند بنو عوف من مرداس و علاق أبا محمد بن أبي حفص في المعركة الواقعة بشبرو قرب تبسة سنة 604 هـ ، و التي انتهت بهزيمة بني غانية وأنصارهم من «ذؤبان العرب من الذواودة وغيرهم » ، الذين فروا إلى الصحراء تاركين وراءهم أموالهم وماشيتهم(3) .

(1) ورد فى إبن عذاري (**البيان** ، ج III ، ص 248) أن الخليفة الناصر ، بعد قضائه على حركة بني غانية، **«أمر بإشاعة الإستقرار بتونس ، و النظر فى إتخاذ المحارث ، و الإتساع فى المزارع ، و أشغل باله في النظر فيمن يولي إفريقية»**

(2) التجاني ، **رحلة** ، ص 358 – 356 – 104. ابن خلدون ، **ن . م** ، ص 403 – 145 – 144.

ابن عذاري ، **ن . م** ، ص 290 – 252 – 245. G . Marçais , **op . cit** , p 231 .

(3) ابن خلدون ، **ن . م** ، ج VI ، ص 403. الزركشي ، **ن . م** ، ص 19 – 18 .

اتبع بنو غانية في انسحابهم مسلكا أفقيا في اتجاه سجلماسة، وهو طريق القوافل الصحراوية بينها وبين الجريد، فهل هي محاولة أخرى فاشلة للسيطرة على هذا المحور التجاري بعد أن انسحب من المحور الشمالي.

اتبع بنو غانية في انسحابهم مسلكا أفقيا في اتجاه سجلماسة ، و هو طريق القوافل الصحراوية بينها و واصل أبو محمد عبد الواحد ملاحقة بني رياح و بني غانية ، بجبل نفوسة ، حيث تجمع حلف مكون من بني غانية ، والدواودة ، و بني دباب وقرة وزغب ، وشريد ، ونفات و زناتة ، و بعض بني عوف . لكن أبا محمد عبد الواحد تمكن من التغلب عليه سنة 606هـ / 1209 م ، و من غنم مبلغ كبير من ثروة البدو ، بلغت نحو 1800 من الدواب وحدها حسب ابن النخيل .

و كانت الخسائر البشرية كبيرة ، حتى أنه هلك في هذه الموقعة و جوه رياح ورؤساؤها وأجوادها ، و فيها أنشد الشاعر مهنئا الخليفة الناصر قصيدة جاء فيها ، ملمحا لقبيلة رياح :

عظمت رياح جنودكم برياحه .:. فهنت جوانحها و خف مطارها(1) .

و بعد أن تمكن أبو محمد عبد الواحد من تهدين البلاد ، و إعادة توحيدها ، انطلاقا من مدينة تونس، اتبع سياسة تحالف مع قبائل بني عوف السليميين للتصدي للقبائل المعارضة للمخزن الموحدي مثل الدواودة و قرة. و كانت قبائل بني سليم النازلة بجهة طرابلس تتأهب للوصول إلى التلول الإفريقية ، بعد أن ضعفت شوكة بني رياح و أحلافهم الميورقيين .

و انفجر هذا النزاع بين القبيلتين : رياح و بني عوف منذ ولاية أبي محمد عبد الواحد، وقد أورد ابن خلدون رواية في هذا الصدد مفادها أن أبة كانت إقطاعا لشيخ الدواودة محمد بن مسعود بن سلطان البلط ، وأقبلت مرداس في بعض السنين لتكتال الحبوب ، فرأت نعمة الدواودة بالتلول ، و شرهت ، وعملت على افتكاكها منهم، وكانت الحرب بينهم ، و تمت الغلبة فيها لبني عوف (2).

تلك هي ضربة البداية للانتشار السلمي، الذي حظي بموافقة السلطة المركزية، غير أن هذا المسار توقف لحين، بعد أن نشطت حركة بني غانية ، على إثر موت أبي محمد عبد الواحد سنة618 هـ ، وبداية تفكك الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى.

وفي تلك المدة ، نشطت تحركات بني غانية من جديد ، انطلاقا من الواحات الصحراوية : درج و غدامس و السودان ، التي لاحق فيها بنو غانية قراقوش وقتلوه.

واتخذ الموحدون مدينة قابس نقطة إرتكاز للتصدي لهذه الحركة ، و تتبع

(1) ابن عذارى ، **ن.م** ، ج III ، ص255 .

ابن خلدون ، **ن.م** ، ج VI ، ص405 – 404 .

G Marcais ,**op. cit.** , p. 217 - 218 .

(2) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص71 ، 146 .

الوالي الموحدي أبو العلاء وإبنه أبو زيد أثر بني غانية في الصحراء ، لكنهم تحولوا الى ناحية بسكرة ، و منها وصلوا إلى مشارف مدينة تونس ، حيث هزموا سنة 621 هـ (1).

وبالتالى فقد أضحى الأمر هينا عند تولي أبى زكرياء الحكم ، إذ ظل ابن غانية وأحلافة من الدواودة مشرّدين في القفار ، الى حد مهلكه نحو سنة 630هـ . وبموته وضع حد لهذه الحركة البدوية التى اكتسحت كامل بلاد المغرب من سجلماسة الى الفزان الى تونس ، و ألحقت ضررا كبيرا بالعمران و الزراعة .

ومثلت نهاية هذه الحركة اضعافا لبني رياح ، و بداية بروز دور بني سليم في تاريخ إفريقية. و يأتي القرار السياسي لأبي زكرياء الحفصي تأكيدا لهذا المسار، إذ حول هذا النزاع بين القبيلتين لصالحه، كي يتخلص من قبيلة معارضة ويعوضها بأخرى مخزنية .

على أن هذه العملية لم تتم الا بعد أن قطع دابر بني غانية نهائيا . و أضعفت قبيلة رياح ، عندها عمل أبو زكرياء على دحرهم نحو الغرب ، بالاعتماد على قبيلة بني عوف ، إذ لم تعد الظرفية مناسبة لاتباع سياسة الخلفاء الموحدين ، و من قبلهم الفاطميين ، و العباسيين في النقل القسري للقبائل .

فقام أبو زكرياء باصطناع بني سليم لمشايعة الدولة **«و إستظهر بهم السلطان على شأنه ، و أنزلهم بساح القيروان ، و أجزل لهم الصلات والعوائد، وزاحموا الدواودة من رياح بمنكب ، بعد أن كانت لهم استطالة على جميع بلاد إفريقية .»**

وهكذا انتشر بنو رياح في البلاد الغربية ، فملكوا ضواحي قسنطينة و بجاية ومجالات الزاب وأريغ و وارجلان و ما وراءها من القفار من بلاد القبلة ، فيما نزل الكعوب ومرداس من بنى سليم بضواحى البلاد الشرقية ، المتدة من قابس ونفطة الى تونس وبونة (2).

---

(1) بدأ التراجع للدولة الموحدية بعد موقعة العقاب سنة 609 هـ ، و فى سنة 610 هـ ، برزت القبائل المرينية فى المغرب الاقصى وشرعت فى حركتها .
انظر : ابن أبى زرع ، **الذخيرة السنية** ، ص25 .
ابن خلدون ، **ن.م** ، ج VI ، ص405 –406 .
(2) ابن خلدون، **ن.م**، ج ، ص 146،71. فضلا عن أطروحة "مارسي" ، انجزت بعض البحوث حول هذا الموضوع ، نذكر منها: مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربيّة في الحياة المغربية ، الدار البيضاء ، 1982. محمد سعيد، **القبائل الهلاليّة والسليمية وعلاقاتها بالدولة الحفصية** (ش.ك.ب) ، تونس 1987.

وفى الأخير ، شهدت هذه الحقبة إعادة ترتيب للبنية البشرية بإفريقية، وتعويض قبائل معارضة بأخرى مخزنية ، و بسط بني حفص نفوذهم على كامل البلاد، بعد القضاء على حركات البدو التي نشطت في الفترة الموحدية.

فإلى أي حد تمكن الحفصيون من التحكم فى هذه القبائل التي عملوا على إستجلابها (بنو سليم) أو طردها إلى البلاد الغربية (بنو رياح)؟

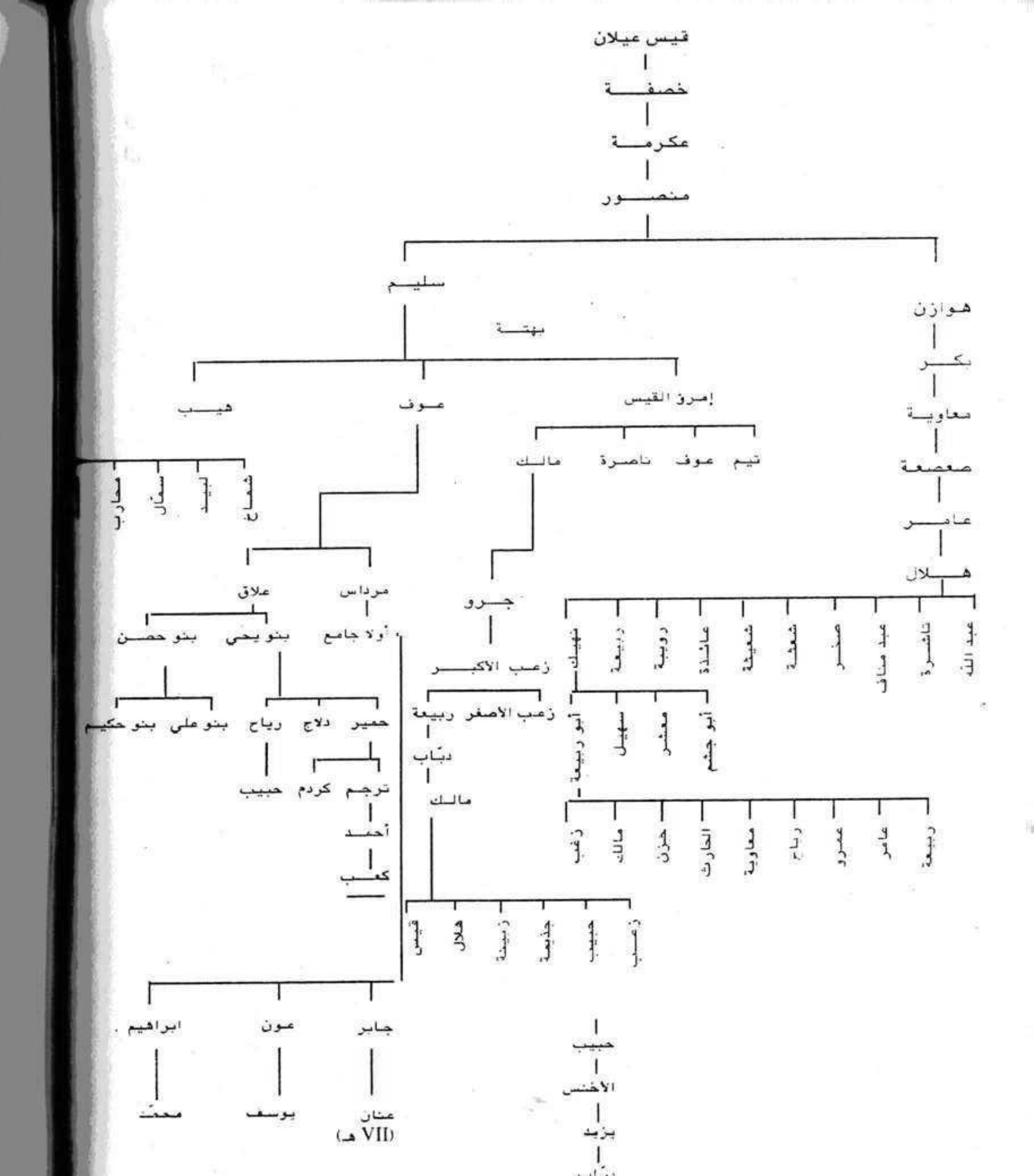
استطاع الحفصيون في مرحلة أولى التحكم في تحركات القبائل العربية ، اعتمادا على الجيش الموحدي الذي ظل قائما بمدينة تونس ، ولم تتمكن هذه القبائل من خرق هذا الحاجز طيلة الحقبة الأولى من عمر الدولة الحفصية الممتدة الى حد سنة 677 هـ . وباءت تحركات بني رياح بالفشل أثناء هذه الفترة .

غير أن الجيش الموحدي لم يتجدد بطريقة متواصلة ، و احتاج الحفصيون شأنهم فى ذلك شأن الزيانيين و المرينيين الى خدمة الأعراب نظرا الى أن هذه الجيوش كانت تعتمد أساسا على الفرسان و لا تولي للمشاة أهمية كبرى.

و بالتالي أصبح للأعراب منذ قيام حركة ابن أبى عمارة فاعلية الى جانب العنصر الأندلسي و شيوخ الموحدين الذين احتكروا الوظائف المخزنية المختلفة و ظلوا مجموعتين متنافستين في المخزن الحفصي ، وإذا كانت الجالية الأندلسية المهاجرة من وطنها الأصلي قد ساعدت على قيام دولة مخزنية قوية ، فإن الأعراب قد عملوا على المحافظة على الإقطاعات التي تحصلوا عليها منذ حلولهم بالبلاد(1).

---

(1) انظر : A.Laroui,**Histoire du Maghreb,Essai de synthèse**



II. تحديد المفاهيم : المدينة والبادية :

1) المدينة :

لئن عرفت أغلب الحضارات الظاهرة المدينية ، ولم تستثن منها الحضارة العربية قبل الإسلام ، فان المدينة أصبحت مقوما أساسيا من مقومات الحضارة العربية الإسلامية ، و قد ترسّخت دعائمها مع تمصير المدن الاولى : الكوفة والبصرة ببلاد الرافدين ، والفسطاط بمصر والقيروان بافريقية(1) .

ويأتي النص القرآني دليلا على أهمية المدينة في حياة الأمة الجديدة ، اذ وردت في صيغ مختلفة (المفرد والمثنى والجمع) ومعان متعددة ، إحدى وثلاثين مرة، فيما ذكرت القرية تسعين مرة (2).

وقد كوّنت المدينة مجالا لتبادل السلع ، منذ أن عرفت مكة رحلتي الشتاء والصيف، اللتين كانت تستقبل فيهما القوافل الوافدة عليها من اليمن والشام ، وترسخ هذا الدور على إثر تكون المجال الاقتصادي العربي الاسلامي المتد من المحيط الهندي الى المحيط الاطلنطي، ومن أسيا الوسطى الى افريقيا الغربية .

كما كانت الامصار الاولى معسكرا لاقامة المقاتلة وانطلاق الحملات منها ، ومجالا اجتماعيا وعقائديا، اذ يمكّن الحمّام من التطهر والمسجد –الجامع من أداء صلاة الجماعة ، واقتصاديا ، وفي هذا الصدد تحدّث الماوردي عن أمصار المزارع والسواد وأمصار الفرضة والتجارة .

ومثلت المدينة موضوعا شاسعا في التراث الثقافي العربي ، باعتبارها الوحدة الاجتماعية والسياسية المفضلة في كتابات الفارابي الذي فرق بين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلية ومدينة الكرامة ومدينة التغلب، معتبرا أن الجماعة المدينية هي جزء من الامة (3).

وانطلاقا من وظائفها الأساسية التي برزت في الامصار الاولى ومن الارث المديني للحضارات القديمة، حددها الجغرافيون العرب بكونها تجمع للحضر محاط برستاق، يجل بجلالته وقائم على وجود مؤسسات ، أهمها السوق والسور

---

(1) حول الامصار الاولى، انظر : Hichem Djait, **Al Koufa , naissance d'une cité islamique**
وحدد ابو عبيد التمصير على ثلاث وجوه : بلد يسلم عليه أهله مثل المدينة والطائف، وأرض يختطها المسلمون وينزلونها مثل الكوفة والبصرة، وكل قرية فتحت عنوة ، ولم ير الامام ردها الى أصحابها : كذا في الونشريسي، المعيار، ج II ، ص 239 .
(2) محمد فواد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم**، بيروت ، د.ت. ، ص 543 –544 662–663 .
(3) راجع طريف الخالدي، **دراسات في تاريخ الفكر العربي الاسلامي**، دار الطليعة 1979 .
ورد في جمهرة ابن دريد أن مدينة هي فعل ممات من قولهم مدن بالمكان إذا أقام به.

والمنبر والحمام .وهي بذلك تتميز عن القرية التي لا تتوفر فيها كل هذه العناصر مكتملة، غير أنه ليس من اليسير التفرقة بين المدن الكبيرة والصغيرة في كتب المسالك والرحلة. (1)

أما الدراسات الحديثة للمدينة، فقد تميزت في مرحلة أولى بالمنهج الوصفي التحليلي للهياكل المادية للمدينة العربية، انطلاقا من مرجعية، ضمنية تارة وواضحة أخرى، وهي المدينة الرومانية. وقد فرق هؤلاء الدارسون بين عدد من المقاييس المقترنة بنشأة المدينة، وأهمها :

– *المقياس الانشائي:* صنفوا المدن الى نوعين :

المدن التلقائية : التي تساعد المعطيات الجغرافية الملائمة مثل الثروة الفلاحية والموقع على بروزها وتطورها، لكنها تظل عرضة للتطور العشوائي.

المدن المستحدثة : يتولى انشاءها أمير أو سلطان بطريقة إرادية، فيختار موقعها ويشرف على تخطيطها، غير أن تطورها شابه المدن التلقائية لغياب الجهاز البلدي، وتنتهي هذه الاطروحات الخاطئة الى عدم إتساق النسيج المعماري للمدينة العربية الاسلامية (2) .

–*المقياس الزماني*: فرقت كتب المسالك بين صنفين من المدن : القديمة أو الازلية أو مدينة للاول التي شهدت مراحل تجديد وتعمير في العصر الوسيط، وانتقلت أحيانا من مجرد قرية الى حاضرة كبرى، مثل مدينة تونس. أما المدن المستحدثة، فهي الامصار التي أنشأها العرب، لأول مرة، مثل مدينة القيروان. غير أن هذه التفرقة ليست دائما واضحة، لأن كثيرا من المدن الممصرة بنيت على أطلال سابقاتها (3).

---

(1) انظر مثلا : المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، طبعة ليدن - وقد حدد بعض الدارسين المغاربة المدينة انطلاقا من عدة معايير منها : اتساع السور واهمية عدد السكان وتعدد الوظائف، من إقتصادية وثقافية وعسكرية وسياسية، وقد أطلقت تسمية المدن الكبيرة على المستقرات التي فاق عدد سكانها عشرة آلاف. وقد ساعد عدد العلماء المنتسبين الى المدينة على معرفة مدى أهميتها. وحدد طراس بلباس مساحة المجال الحضري انطلاقا من عدد السكان في الهكتار الواحد وفي المنزل، وهي على التوالي 348 - 4).

(2) انظر : G.Marçais, La conception des villes dans l'islam In **Revue d'Alger**,154-55
Marçais, L'urbanisme musulman In **Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman.**
E.Pauty, Villes spontanées et viles créées en islam, In **A.I.E.O.**, IX 52-75.

(2) وثمة مقاييس أخرى يمكن ذكرها : – المقياس الوظيفي : اختلفت أهمية المؤسسات الاقتصادية والعسكرية والمدنية والثقافية –الدينية من حاضرة الى أخرى، بارتباط بوظائفها، ويمكن التفرقة بين الاصناف التالية : المراكز الادارية أو الثقافية ، فقد تكون مقرا للسلطان ، أي مدنا أميرية، مثل رقادة والمهدية ، أو مقرا للعامل الذي يتولى جباية الوطن وتجنيد العسكر ، وعادة ما تكثر بها القصور والحمامات، فيما تكثر المساجد والمدارس والزوايا بالمدن ذات الصبغة الدينية . القلاع والثغور العسكرية :تتموضع في مكان استراتيجي، حول قلعة أو قصبة أوسور أمامي وخندق وأبراج وقصبات . أما البلاد الثغرية ، فهي تنفرد بعمارة القصور والاربطة والقلاع .

وعموما فان الدراسات في مرحلة ثانية بينت عدم جدوى هذه الثنائيات المبسطة، المرتبطة بالتلقائي والمستحدث، وبالنظام البلدي وغيابه، ووهمية الفكرة القائلة بعدم اتساق التخطيط في المدينة العربية. وقد تمكنت دراسة هشام جعيط للكوفة من الخروج بالمسألة من التعميمات الى النموذج الدقيق والمثال الواضح الذي دحض حجة عدد من المستشرقين في دعاويهم حول المدينة العربية (1).

واهتمت الدراسات المدينية في مرحلة أخرى بعلاقة المدينة بمجالها الريفي نظرا الى العلاقة الجدلية القائمة بين الطرفين . ولئن اعتبرت الناحية احدى المحددات الاساسية للمدينة، فان اتساع امتدادها ومتانة علاقتها مع المركز يختلفان من واحدة الى أخرى . ويبرز التناغم بين الطرفين جليا في عديد الحالات ، نذكر من ذلك ما قيل في شأن مراكش وناحيتها :« **نفيس جناتها ، وبلاد دكالة فدانها وزمام جبل درن بيد أميرها**» (2).

وتشكل المدينة وناحيتها وحدة ادارية وجبائية واقتصادية كان يطلق عليها في العهد الحفصي العمالة (يغلب عليها الجانب الاداري) أو البلد (الجانب الترابي) أو الوطن الذي اقترنت تسميته تارة بالمدينة المركز في الجهات التي عرفت تحضرا ، مثل أوطان تونس والقيروان وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس والجريد وطرابلس وقسنطينة وبجاية، وأخرى بالقبيلة المهيمنة في المناطق البدوية، مثل وطن هوارة ووشتاتة في شمال بلاد إفريقية. واذا كانت حدود

مدن ذات وظائف متعددة : وهي من خاصيات المدن الكبرى التي عادة ما تكون محاطة بسور ، ومزودة باسواق ودارسكة ومركز إداري ، ومؤسسات تعليمية متعددة .وعادة ما تلعب دار السكة دورا هاما في تحديد المدينة ونشاطها الاقتصادي ومجالها التجاري ، وفي العهد الحفصي ، كانت هذه الدور متواجدة في المراكز الاقتصادية الحساسة ، وخاصة بمدينة تونس ومدن الواحات ، مثل قفصة والجريد وبسكرة وحامة قابس .
المقياس الديموغرافي : استعمل الدارسون مناهج تقديرية عدة لتحديد عدد السكان الحضر ، معتمدين في ذلك على مساحة المجالين المبنيين : العام داخل السور والخاص (المنزل) ، أو على عدد المعالم الاساسية وأهميتها ، مثل الحمامات والمساجد الجامعة والسبل والمدارس وغيرها . وبناء على هذه المعطيات وعلى سائر المصادر التاريخية ، وخاصة كتب الرحلة ، يمكن أن نتبين الملامح العامة لمدن إفريقية ، المتميزة باتساع الهرم المديني في القاعدة حيث تكثر المدن الصغرى ، وأنحساره في الاعلى حيث تقتصر المدن الكبرى على الحواضر ، فيما يكون وسط الهرم مجوفا لندرة المدن المتوسطة بهذا المجال طيلة العهد الحفصي

انظر : Torres Balbas , **Extension y demografia Cuidades**,TI ,pp. 93-104
A . Lezine , **Deux villes d'Ifriqiya** , Tunis - Paris , 1971 .
مسالة المدينة والمدينة العربية ، **مجلة الفكر العربي** ، اكتوبر – نوفمبر 1982، ص 250–265 الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II ، الرباط 1982 .

(1) راجع : هشام جعيط ، **الكوفة** ، الكويت 1986، ص 197–208.

(2) انظر : ابن عذاري ، **البيان المغرب** ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1983 ، ج IV ، ص 19.
مؤلف مجهول ، **الحلل الموشية** ، الدار البيضاء ، 1979 ، ص 16.–15
A . H. Hourani and S. M . Stern , **The Islamic city** , Oxford 1970 .

البعض منها لم تشهد تغيرا كبيرا منذ الحقبة الاسلامية الاولى ، فان كثيرا منها قد عرف صياغة جديدة في العهد الحفصي ، وحسبنا أن نذكر مثالا على ذلك تفكك وحدة المزاق الاغلبي التي كانت تربط مدينة القيروان بناحيتها المتمثلة في بلاد الساحل ، وبروز أوطان بكل من القيروان وسوسة والمهدية وصفاقس . ومهما كان الاختلاف بينها ، فان هذه الاوطان تشكل في الاساس وحدة إدارية ، لا يمكن أن تتطابق كليا مع حدود الناحية الاقتصادية (1).

وتكون بعض المفاهيم القاعدة الأساسية لدراسة ناحية المدينة ، وأهمها: القرية والمنزل والقصر والبلد .

2) ناحية المدينة : القصور والقرى :

تعتبر القرية النواة السكنية في المجال الريفي ، وهي متميزة بأهميتها الديموغرافية ووظائفها الاجتماعية والاقتصادية وتشكلها المورفولوجي ومعالمها وبعلاقتها المزدوجة مع المركز الحضري والمحيط البدوي .

غير أن تعدد مفاهيم الحقل الدلالي عبر الزمان والمكان يقتضي تحليلا أفقيا وعموديا، قصد تحديد تصنيف لا يزال ضبابيا ، وذلك من خلال إبراز الفوارق بين المفاهيم : قرية / منزل / بلد / قصر / قلعة / برج / زاوية ، ومدى تطورها وحقيقة الانزياح المفاهيمي الحاصل وقتذاك.

أ) ما هو مدلول القرية بافريقية ؟

– تحديد *المفهوم* :

* ارتبط تحديدها أولا بطبيعة شبكة التوطين وهيكلته ، إذ كثيرا ما ذكرت القرى في علاقة مع مركز حضري ، قادر على بسط نفوذه على إقليم كامل ، وهكذا ذكر اليعقوبي قرى الكور بكل من قمودة والساحل وباجة وزغوان وغيرها . وبالتالي، تحدد القرية بالمعنى المقابل للمدينة ، على أنها مركز توطين ريفي يفتقر الى مؤسّسات إدارية والى سلطة سياسية هامة . وقد تواجدت في السهول والجبال على حد سواء.

* وهي كذلك وحدة إستغلال زراعي ، قائمة على الزراعات السنوية والغراسات، وفي هذا الصدد، وصف اليعقوبي التعمير بجبل نفوسة بالعبارات التالية : **«ومنازلهم في جبال طرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة »** . أما بلاد الساحل ، فانه قال عنها : **« بلد يقال له الساحل ليس بساحل بحر كثير السواد من**

---

(1) استعملت مرادفات أخرى للوطن ، مثل : من نظر كذا ، عامل على مدينة كذا. البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص1264.

الزيتون والشجر والكروم ، وهي قرى متصلة بعضها في بعض، كثيرة» (1).

وثمة صنفان من القرى : الاولى أراضيها تحت سلطة السكان الذين كانوا يديرون شؤونهم بواسطة مجلس القرية المكوّن من المشائخ ، غير خاضعين لسلطة كبار المالكين العقاريين ، من ذلك قرى جبال نفوسة ودمر ووسلات والاوراس.

أما الثانية ، فهي مقر لعدد كبير من العمال الزراعيين الذين كانوا يفلحون الارض لفائدة كبار الملاكين التغيبيين ، من ذلك ما روته المصادر من امتلاك أحد أعيان القيروان في القرن الثالث هـ / التاسع م ، وهومحمد بن مسروق ، لعدد من القرى بناحية القيروان . وقد كان أهلها يفدون اليه مقدمين له الولاء باعتبارهم عبيدا له . على أنه ابتداء من القرن الخامس هـ ، تحرر أهل هذه القرى ، بتلاشي نظام الرق ، وتعويضه بعلاقات إنتاج قائمة على أساس الخماسة .

وفي الجملة ، فان شبكة القرى بافريقية ، الموجودة في السهول والجبال ، والتي كانت موطنا للمزارعين، هي أبعد من أن تكون متجانسة ديموغرافيا أو مورفولوجيا .

– التباين في بنية القرى الافريقية :

* الاختلاف السكاني : من المعلوم أنه ليس هناك نوع واحد من القرى ، وأن الاختلاف كبير بين النواتات الصغيرة التي تحتوي على بضع عشرات من المنازل والبلد الكبير الذي يتجاوز عدد سكانه أحيانا سكان المدن . وقد وضّح ابن حوقل ذلك في اعتباره أن بعض المدن لا ترتقي الى حجم قرى في إقليم أخر .

وتبعا لذلك ، حرص الجغرافيون على استعمال مصطلحات مميّزة لتحديد الاهمية الديموغرافية والمورفولوجية لقرية ما . ذكر التجاني مصطلح قرية صغيرة أو حقيرة أو قرية بلا معنى (2) .

على أنه ليس بمقدورنا رصد الديموغرافية القروية ، في مستوى المعطيات المرقمة ما لم نلتجئ الى الحفرية الأثرية ، ذلك أنه ، مهما بذلنا الجهد لتجميع النصوص واستنطاقها ، فانها تظل قاصرة عن توضيح هذه الصورة . وفي هذه المرحلة من البحث، نكتفي ببعض الاشارات المتفرقة الخاصة بالقرى الصغيرة والكبيرة .

ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، تعدد ذكر القرى المكونة من بعض العشرات من المساكن ، من ذلك أن منزل قديد بالساحل لم يكن يجمع أكثر من

---

(1) اليعقوبي ، **البلدان** ، ص 346، 350.

(2) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 237. البكري ، **مسالك** ، ص 21. التجاني ،**رحلة** .

ستين رجلا ، وقلْ مثل ذلك فيما يتعلق بالقرى المجاورة لمدينة تونس ، التي كانت تضمّ مابين أربعين وستين أسرة (1) .

وبالتالي ، فان سكان هذا الصنف من القرى المتوسطة لم يكن يتجاوز خمسمائة نفرا، وهو نفس الرقم الذي قدمته الوثائق الوسيطية المتأخرة بالنسبة الى قرى طبلبة والساحلين وهرقلة (2).

ويمثل هذا الرقم بالقياس مع شرق الاندلس نصف عدد سكان القرى المتوسطة التي تحتوي على ألف ساكن ، وضعف عدد سكان القرى الصغيرة التي تحوي ما بين عشرة وخمسة عشر منزلا . وهو اختلاف يفسره عدم تماثل المعطيات المناخية والطبيعية والظروف التاريخية.

وثمة صنف ثان من القرى ، كبيرة الحجم ، وقد أفادت أحيانا من الظرفية العامة في العهد الحفصي، فاستقبلت الفارين من حرابة البدو وعدوانية القراصنة . فقرية جمال، على سبيل المثال ، تجاوز عدد منازلها الخمسمائة في القرن السادس عشر م، وهو ما يفوق أحيانا عدد الكوانين ببعض مدن إفريقية في الفترات الحالكة (3).

وحصيلة القول، فإن عدد المساكن في القرية الحفصية يتراوح بين هذين الرقمين :خمسين وخمسمائة، والبون شاسع بين القرية الصغيرة والقرية الكبيرة.

وعلى سبيل المقارنة نذكر القرية الاندلسية في القرن السادس الهجري ، التي كانت تشكل وحدة سكنية ووحدة إستغلال زراعي ، يتراوح عدد سكانها نحو الالف، وتدير شؤونها بنفسها، عن طريق أهل الجماعة ، ويؤكد أحد الدارسين أنها نادرا ما كانت عرضة لاستغلال الفئات المالكة الحضرية ، وأن أغلب الاراضي كانت «بيد الرعية» ، حسب عبارة ابن الخطيب ، وهو ما تثبته السجلات المسيحية لتقسيم الارض (Repartimiento)، التي تتحدث عن ملكية صغيرة ومتوسطة للارض بيد أهل القرى ، وتأتي كيفية توزيع النظام الجبائي دليلا آخرا على أن المزارعين كانوا في حوار مباشر مع الدولة، عن طريق أوليقارشية ريفية مصغرة ، لها من التجانس والانصهار ما يمكنها من التصدي للضغط الارستقراطي الحضري أو المخزني المحتمل، دونما وجود نظام إقطاعي ، أو سيطرة لكبار الملاكين على الضياع .

---

(1) البرزلي ، **نوازل** ، ج II ، ص 258.

(2)De la Primaudaire, Documents Inédits..,In **R.A.**;1875,n19.

(3) نفس الحالة . الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II ، ص 83 ,87.

فالقرية الاندلسية حينئذ تختلف في جوهرها عن المنية المخصصة لاملاك السلطان، وعن الضيعة التي تعتبر شكلا من أشكال الملكية العقارية داخل قرية ما(1).

على أن هذا الانموذج الاندلسي للقرية لا يتفق تماما مع الحالة بافريقية ، وخصوصا في العهد الحفصي. فلئن كانت القرية الافريقية أساسا مزدرعا ، ووحدة إنتاجية ، مثل القرية الاندلسية ، فالظاهر أن المزارعين كانوا تحت طائلة الهيمنة الرقيّة في العهد الاغلبي، والاقطاعية في العهد الحفصي ، إذ مثّل الرقيق والخماسة على التوالي العنصر الاساسي للانتاج، ولم تكن الملكية الصغيرة ذات أهمية ، إذا اعتمدنا على أقوال المشرعين في هذا الخصوص ، وحسبنا هنا ذكر ما قاله البرزلي من أن « الغالب على قرى إفريقية عدم التملك » (2) .

وتميزت القرية الافريقية في العهد الحفصي بأهمية حركيتها ، إذ غيرت كثيرة منها مواضعها، مفضلة الاماكن المنيعة عن السهول ، واحتمت أخرى بالاسوار والجدران ، وان كانت أقل صلابة من أسوار المدن، خوفا من هجومات النصارى وحرابة البدو، كالأسوار التي أحيطت بها طبلبة و منزل أبي النصر، فهي أسوار من تراب .

وليس نادرا أن يلجأ أهل القرى الى مغادرة ديارهم وترك أملاكهم ، وينزحوا الى أماكن أخرى ، في مأمن من البطش والتعدي ، أو من شبح الجوع والوباء وشتى الكوارث البشرية والطبيعية ، حتى أن القرية لا تعمر طويلا، وتتحول الى خراب، أو أن يعمد جماعات أخرى الى أخذ مكانهم وحوز الملكية (3) .

ونعتقد في هذا الصدد أن العمل الاثري قادر علي حل ألغاز شتى ، وتوضيح الصورة الحقيقية لحياة هذه القرى واندثارها ، وكيفية نهايتها المأساوية ، سواء كان ذلك نتيجة العنف البشري الذي يترك بصماته ، مثل الحرب والحرق والتدمير، أو الآفات الطبيعية مثل الجفاف والزلزال (4) .

---

(1) حول القرية الاندلسية ، انظر
P . Guichard , Les **musulmans de Valence et la Reconquête** , Damas 1990 ,
pp.237 ابن الخطيب ، **اللمحة البدرية** ، ص15 .وحول اختلاف القرية عن الضيعة، انظر : المراكشي، **الذيل والتكملة** ، بيروت د.ت ، ج IV ، ص 70-71 حيث ذكر ان ابن برطلة كان متعيشا من فائدة ضيعة له ، يتصرف في بعلها وسقيها ، وتوفي بقريته بني إشكورته . انظر أيضا : ابن الابار ، **الحلة السيراء** ، ج II ص 197.

(2) البرزلي ، جامع مسائل الاحكام ، ج I، ص 20ب.
Talbi , Droit et Economie en Ifriqiya au III / IX s In **Etudes d'Histoire Ifriqiyenne** , pp. 185 -231

(3) البرزلي، ن. II ، ص 258 ب.م.، مخ 4851، ج الونشريسي ، **المعيار** ، ج I ص 221-222-227-228 . وقد ذكر مثالا عن كيفية بناء قرية ممتدة على طول نحو ميل ، وكانت تتوفر فيها المنشآت الاساسية من فرن ومنازل منحوتة في الجبل وأسوار خوفا من غارات البدو المحدقين بها ، ولهذا السبب فضل بعض سكان هذه القرية الجبلية الناشئة الالتجاء الى بلد آخر الى حين الانتهاء من أشغال البناء (ص 166) .

(4) راجع الدراسات الاثرية المتعلقة بالمواقع المندثرة ، وبالخصوص :
A .Bazzana , **Habitat Médiéval et structures du Peuplement dans l'Espagne Orientale** , Madrid 1992.
P. Courbin, Méthodologie des fouilles des villages disparus en France, In **AESC**, 1965, pp.219-256 .

والقرية بافريقية مختلفة عن المدينة في طبيعة عمرانها وبنيتها ووظائفها، وقد ظل المسجد الجامع، أحد عناصر التمفصل بين الاثنين .

على أن هذا العنصر وحده لا يمكن أن يكون كافيا للتفرقة بين المدينة والقرية ، ذلك أن كثيرا من القرى كانت مزودة بمسجد جامع ، سواء أن اشتركت القرى القريبة من بعضها في بناءه، أو تأسّس داخل القرية الواحدة عدد من الجوامع ، نتيجة النمو السكاني أو لاختلافات عشائرية (1) .

وتأتي الاهمية السكانية عاملا آخر في التفرقة بين الاثنين، وإذا كانت القرية الاندلسية قد قوم سكانها في حدود الالف ، فان نظيرتها الافريقية في أواخر العصر الوسيط لا يتجاوز عدد قاطنيها الثلث، أو على أقصى تقدير النصف .

وفي الجملة، فان امتداد النسيج الحضري وتواصله ، وإحاطته بسور، وتوفر المنشآت الاساسية من مسجد جامع وسوق قارة و مدرسة (إذ ارتبط مفهوم القرية بالجهل)، وعدد السكان وكثافتهم ، كل ذلك يعتبر محور التمفصل بين المدينة والقرية ، وهو ما تنبّه اليه الونشريسي منذ أواخر العصر الوسيط (2)

– المعالم والعمارة في القرية الافريقية : أهمها المسجد الجامع والحمام والفندق ومركز التعليم (كتاب أو زاوية) وبعض المتاجر والسّور والمنشآت المائية. وهي بهذا تنقل النموذج الحضري ، لكن بطريقة جزئية لصعوبة توفرها بالكامل في قرية واحدة .

* العمارة الدينية والثقافية : حدّد الفقهاء شروطا لقيام المسجد الجامع ، أهمها: توفر عدد معين من المنازل والأسر ، عشرين حسب البعض، وخمسين حسب آخرين ، وإقامة المساكن في مجال محدود، ووجود بعض المعالم الاساسية مثل السوق والسور(3) .

ولئن كانت بعض القرى الصغيرة المتجاورة تتقاسم نفس المسجد الجامع ،

(1) البرزلي ، ن.م. ، ج I ، 1264. الونشريسي ، ن.م. ، ج I ، ص 142، 149، 222، 274، 275.

(2) الونشريسي ، ن.م. ، ج I ، ص 275–274 .

وحول نظرة أهل مدينة تونس الى بقية المدن الافريقية التي كانت تحسب في عداد القرى (مثل سوسة) ،انظر : الزركشي ، تاريخ ، ص102 . كما ورد خبر في مناقب بن عروس (ص 275) خبر يفيد إرتباط القرية بالجهل ، وبالمعتقدات الأسطورية .

(3) ذكر الونشريسي القرى البعيدة عن المدن التي يصل عدد سكانها ثلاثين أسرة . وأورد ذكر قرية بقفصة لا يتجاوز عدد سكانها مائة أسرة . راجع : المعيار ، ج X ، ص 145، 148 انظر أيضا : Documents Inédits , In **R . A.** , n 19 , 1875

فالغالب أن لكل قرية مسجدها الخاص ، باعتباره مركز الجماعة المحلية، ومعيارًا للتمييز بين سكان القرية والملكية الزراعية ، من ضياع وهناشير وغيرها (1).

وهكذا فان أغلب قرى بلاد الساحل وجد بها جامع ، أطلق عليه جامع البلد أو جامع القصر . وهو مكون في الاصل من بلاطتين أو ثلاث ، وأسكوبين أو ثلاثة . وثمة قرائن عديدة تجعلنا ننسبه الى العصر الوسيط ، وخاصة الفترة الاخيرة منه ، من بينها مستوى التبليط، والتصميم وتقنيات البناء والمواد المستعملة من سواري وتيجان، فضلا عن النقائش الكتابية والوثائق النصية .

وابتداء من القرن الثالث عشر، برزت الزاوية في بوادي إفريقية وقراها ومدنها، على حد سواء، بسبب وظائفها المتعددة : إيواء الغرباء والبؤساء وإطعامهم، وتأمين الحواضر والارياف، ومراقبة السواحل والتعليم و التعبّد .

و لم تكن بعض القرى التي حملت إسم ولي سوى زوايا ريفية في الاصل. وقد شهد بعضها الآخر نموا سكنيا تحت تأثير هذا العامل فيما بعثت ، أحيانا أخرى، بعض القرى المندثرة ، حاملة إسمًا وطابعًا جديدين، فملول المندثرة في القرن الرابع عشر عوضتها قبة أبي النور ، وأبة التي غاب ذكرها في آخر العصر الوسيط أصبحت تسمى الدهماني وجبل المنار صار ينسب الى أبي سعيد الباجي الخ (2).

* المعالم الاخرى : منذ الحقبة الكلاسيكية ، كانت بهذه القرى حماماتها واسواقها، بل وفنادقها، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها رقّة (أم الاصابع) ومنستير عثمان ومرماجنة ومسكيانة . الا أن التوجه نحو تحصين القرى لم يتجلّ بوضوح الا في آخر العصر الوسيط، على إثر الشعور بانعدام الامن .

مما أجبر بعض القرى على تغيير موضعها ، والاستقرار على مرتفعات منيعة ، مثل القصور والقلاع بالجنوب الشرقي لافريقية ، فيما اختفت قرى أخرى وهجرها أهلها ، بعد أن عجزت عن مقاومة مخلفات الحروب والمجاعات والاوبئة . وفضلت أخرى وخاصة منها الواقعة في السهول والسواحل ، والمعرضة أكثر للتعدي ، بناء أسوار وجدران من الطابية ، أو الاحتماء

(1) P. Guichard , **Les Musulmans de Valence** , T I , p. 235-241 A.Bazzana , **La maison** .. , p 322.

(2) الوزان ،**وصف إفريقيا**، ج II، ص 83، 87.

بتحصينات قديمة أو مستحدثة مثل الرباطات والقصور والابراج وحتى المساجد الجامعة والزوايا(1).

وقد انعكست هذه التحصينات المختلفة على الطوبونوميا القروية ،التي اختلفت باختلاف العمارة العسكرية ، من قصر وقلعة وبرج وحصن وزاوية . وهو ما يفسر ضرورة معالجة التصنيف النوعي للقرى انطلاقا من مقياس الاجهزة الدفاعية .

وفي النهاية ، فان القرية تكرر جزئيا وبصفة مصغرة النموذج الحضري ، وحتى التحصينات ، فانها لا تخلو منها . إلا أن تواجد المعالم الادارية والسياسية بالاولى، وانعدامها في الثانية هو الإستثناء الأساسي الذى يفرق بين الإثنين .

ب) نحو ترتيب نوعي للقرى : التحول من المنزل الى القصر :

– المنزل :

–يرادف في الاصل المسكن والدار ، وقد استعمله الجغرافيون في صيغة الجمع، للدلالة على السكن الريفي ، وخصوصا القرى. فقد جاء في الاستبصار مرادفا لمعنى قرية : « حول قفصة يوجد 18 منزلا وقرية » (2) .

وعندما ارتبط ذكره باسم المكان ، لا يعدو أن يكون قرية صغيرة أو مجشرا فقد ذكرالتجاني منزل بشري، وهو كذلك بلدة ، ومنزل المجزم واحة مكونة من مساكن أكثر أهمية مما يوجد بالبادية ، و منزل تبلبو التي أحيطت مساكنه القليلة بغابة (3).

ونجد نفس المعنى في كتاب الاستبصار ، عند حديثه عن ناحية قفصة ، إذ ورد ما يلي : « ولمدينة قفصة غابة كبيرة قد أحاطت بها من كل ناحية مثل الاكليل ، في تكسير دائرتها نحو عشرة أميال ، فيها من المنازل التي تعرف بالقرى 18 منزلا . وعلى الغابة والمنازل والكل حائط يسمونه سور الغاب » (4).

– كما عني هذا اللفظ المرحلة في المسلك أو الطريق ، قال البكري في حديثه عن مجقة ، التي تبدو الشكل المعرّب لمُزُق القديمة : « وفي الطريق بينها وبين القيروان منزل يقال له مجقة » .

– وفي حالات أخرى ، اقترن مدلول المنزل بأسماء الأشخاص أو القبائل ، وهي صيغة انتشر استعمالها بافريقية في العهد الاغلبي ، وقد رتبط وجودها بأسماء كبار الملاكين العقاريين ، مما يفسر أن استعماله كان شائعا بالبلاد الساحلية

(1) ابن حوقل ، **نفسه** ، ص 84 . البكري ، **نفسه** ، ص 21، 55.
(2) اليعقوبي ، **نفسه** ،ص 346.الادريسي ،**نفسه** ،ص 74.**الاستبصار**، ص153 .
(3) التجاني ، **رحلة** ، ص 142–179.173.143.
(4) **الاستبصار** ، ص 153

القريبة من القيروان ، وأن انقراض الضيعات الكبرى في العهد الحفصي أدّى الى تراجع هذه التسمية، وانحسارها (1) .

وهذه قائمة المنازل الوارد ذكرها في العهد الحفصي :

–منزل سحنون : نسبة الى الفقيه سحنون بن سعيد، لكن الاسم اُندثر ، وأصبح يسمى بني خلاف .

– منزل كامل : ورد ذكره في البكري ، لكننا لا نملك عنه معلومات في العهد الحفصي . وهو الآن آهل بالسكان ، ويبدو أن موقعه القديم يناسب المكان المسمى طرش . وتدل عدة مؤشرات طوبونومية على ملكية العرب بالناحية المحيطة به ، مثل ابن الجارود ودار غالب وقرى بني ربيعة وبني كلثوم .

– منزل قديد : نشأت به زاوية في القرن السابع هـ / الثالث عشر ، بناحية الكنائس . كانت به نحو ستين أسرة. لكنه زال بعد ذلك ، في تاريخ غير محدد.

–منزل قاسم : موقعه قرب قديد ، عرف نفس المصير .

– منزل أبي النصر:كان عامرا في مطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ، ومحاطا بسور . واندثر بعد هذا التاريخ ، نتيجة أزمة أواسط القرن الثامن على ما يبدو.

–منزل بني خيرة : من عمل المهدية ، ولعله يوافق عقلة بني خيرة الحالية . ذكر في القرن السابع هـ، ثم عرف نفس المصير.

– منزل بني معروف : من نفس الوطن ، وعرف المصير نفسه بعد أن كان عامرا في القرن السابع هـ .

وفي النهاية ، فان بعض هذه المنازل قد ذكرت في فترات الاستقرار ، منذ العهد الاغلبي والزيري، وصولا الى بداية الحقبة الحفصية . و عرفت أحيانا مصيرا سيئا، في حقبتين أساسيتين : الاولى في خضم الصراعات المميزة للقرنين الخامس والسادس هـ، وما نجم عنها من التخلي عن البنى الزراعية التقليدية ، واُندثار الملكية الزراعية الكبرى التي كانت سببا في نشأة هذه المنازل الخاصة بالعبيد الاقنان المستغلين للارض . أما الثانية ،فهي تفسر بالازمة الكبرى للقرن الثامن هـ.

– السكن المحصن : القصر / الحصن / الطرش / البرج :

لقد كان مصطلح القصر مستعملا بدوره منذ العهد الاغلبي ، للدلالة على الحصون والاربطة التي كانت قائمة على طول الشريط السّاحلي ، أو على النواتات السكنية المحصنة التي تتسع لبضع عشرات من الاسر ،

(1) حول المنزل ، راجع : المالكي ، **رياض النفوس** ، ج I ، ص 359 .
حسن حسني عبد الوهاب ، **ورقات** ، ج I، II. ص 353.327 .
وقد ذكر في العهد الحفصي بعض المنازل مثل منزل زيد ومنزل أبي النصر ومنزل كامل .
يبدو أن إسم بني خلاف مرتبط بأحد الزهاد : أبي الحسن علي بن عبد الله القطان المعروف ابن خلاف : المالكي ، **رياض** ، ج II، ص 432 ، 433 . ج III ، ص 37.

مثـــل قصور الجريد (أو قسطيلية) (1).

* القصرفي السهل ، قرية مـحصنة : لا تعدو أن تكون تحصينات هذا الصنف من القصور جدارا خارجيا يحيط بمنازل متراصة قائمة حول باحة متوسطة ، لها مدخل وحـيد . وهو أمر نفتـرضـه من خلال ما نعـرفه عن القصور الجـبلية ، وعن العدد الكبير لقصور قفصة في القرن السادس هـ / الثاني عشر م : مائتين حسب الاستـبصار ، من أشـهرها قصـرا شقراطـس ولالة . وفي بلاد المزاب ، ورد ذكر قصور ذات نخل تسمى وارجـلان ، توات وتمنطيت وقصور تيكورارين التي يبلغ عددها ثلاثمائـــة فـــي واد واحد (2).

وقد تواجدت هذه القرى المحصنة المسماة قـصورا في عدة جهات من إفريقية : فقـد ذكر حصن بني بهلول بحـامة الجريد .وتحـدث الادريسي عن« قرى كثـيرة منازل وقصور يسكنها قوم بواد»على مقربة من المهدية (3).

وتكونت كل من الزارات وجـرجيس ، بناحـية قـابس، من ثلاثة قصـور. وفي نفس هذا السياق ، تحـدث التجاني عن قصور السّـاحل قائلا : « واكتنفنا في أثناء هذه الرحلة من اليمين و الشـمال قصـور متفرقـة وقرى كثـيرة قد أخلتهـا العرب وأجلت ناسها» . أما برشـانة ، فانها كانت « قرية صغيرة ذات قصور متفرقة» (4).

ويتضح من خلال هذه النمـاذج أن القصر هو مجال للسكن مـحصن، ظهر منذ بداية العصر الوسـيط ، لكنه عرف انتشارا واسعا ابتـداء من القرن السادس هـ / الثاني عشر م، نتـيجة انخرام الامن بالبادية الافريقـية . وأصبح الشكل الاساسي للاسكان في السهول والجبال ، على حد سواء .

وقد اخترنا القصور ببلاد الساحل نموذجا لهذا الصنف ، اذ ذكر بها عدد كبير من القـصور : قـصر الكنائس و قـصـر الوردانين وقصـر جمـال و قصـر اللجم وغيرها . وفي الجملة، لئن وجدت بعض هذه القـصور منذ بداية العصر الوسيط، فان فاعلية هذه التحصينات لم تتبلور الا في أواخره، على إثر ازدياد الاضطرابات

(1) انظر مثلا : التجاني ، الرحلة ، فهرس البلدان . وجاء في الزبيدي (**تاج العروس** ، ج3 ، ص 494)أن القصر هو المنزل أو كل بيت من حجر ، وورد في القرآن هذا اللفظ (الآية: ويجعل لك قصورا) .
وثمة مصطلحـان آخران قديمان أستعملا في الـعهد الحفصي ، وهما : البرج (بـاللاتينية بورجس) وطرّش (من أصل إغريقي توريس)، وهي منازل ريفية محصّنة.انظر :
M.Talbi, Article Kastiliya In **Encyclopédie de l'Islam** .Trousset, Les bornes du bled segui In **Antiquités Africaines**, N°. 12, 1978, p. 16.
(2) Ernout et Meillet, **Dictionnaire Etymologique de la langue latine**, Paris 1959.
مؤلف مجهول ، **الاستبصار** ، ص 154 . ابن خلدون، **تاريخ** ، ج VI ، ص123، 133، 203.
(3)الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص109 .
(4) الادريسي ، **نفسه** ، ص 128. التجاني ، **رحلة** ، ص 56، 67، 141 .

الاجتماعـية والتعدي . وهو ما يفسر اسـتمراريتها ، وتواصلها ، خـلافا لكثير من المنازل والاسواق التي اندثرت .

* القصــر في الجبل ، مـأوى للسكان ومخـزن للحبوب : تموضـعت أغلب هذه القصور على مرتفعات الجبال جنوب شـرقي إفريقية (جبل دمر وجبل نفوسة) . وشكلت الغرفة الـوحدة الاساسية في القـصور المعدة لخزن الحبـوب ، وقد أخذت في الغالب شكلا مستطيلا ، ذات عمق يصل من أربعـة الى خمسة أمتار ، وارتفاع يبلغ مترين . أما المنازل المعدة للسكن ، فانها جاءت على تصميم مغاير ، فكانت في الغالب منقورة داخل الصخر، في شكل غيـران . ويحتوي المنزل الواحد على غرفة أولى يبلغ عمقـها ثمانية أمتار ، وهي معـدة للسكن، تليها ثانية يبلغ عمـقها حوالي نصف الاولى ، وهي مـخصـصة لوضـع المؤونة . على أنه لا يوجد نموذج واحـد لتصميم المنازل الكاهفية .

ولئن تبقّى عدد كبير من هذه القصور ، فان البعض منها فقط ثبت انتماؤها الى العصر الوسيط ، مـثل قصور تمولست وزناتة وقطوفة . أما البقية فـانها تحتاج الى بحث أثري مدقق . وفي الجملة ، فان هذه القصور الجبلية كانت موطنا للبطون والعشـائر شبه الرحل ، التي تحـتمي بها عند الحـاجة ، وتودع فيـها مؤونتـها ، جاعلة مـنها في كل الاحوال نقـطة التقاء لافـراد القبـيلة . ولذا لا غرابة أن تقـترن تسميتها بعـشائر بربرية ، مثل بني خزر وبني قطوفت وبني دباب وزناتة وأولاد سلطان وأولاد شهيدة ، أو بأعلام بربرية مثل تمولست وماطوس .

* نشأة قـرى حول قصـر الرباط : شـهدت هـذه الحقبـة الأخيرة من العـصـر الوســيط بروز نواتات سكنيـة حـول الحـصـون والرباطات السـاحليـة ، وتطور التمدين بهذه الحصون ، لتوفر المعطيات الاقتصادية والامن بها .ومن الامثلة على ذلك نذكر : قـصور اللوزة وزياد ونقطة و المحـرس وقصـر كتانة الـذي قال عنه التجاني : « قريـة صغيرة ملتفة الشجـر حسنة المنظر كأنّها بسـتـان واحد خضرة ونضرة ، وعامـة شجرها الزيتون، وكـان غرسه بها أيام ولاية الامـير أبي زكريا على قابس سنة أربع وعشرين، ولاهلها قصر كبير يأوون اليه » (1).

وبالتالي ، لئن عرفت إفريقية مؤسســة القصر منذ بداية العصر الوسيط ، فان القرية – القصر لم تتبلور ملامـحـها الا فـي أواخـره ، لما استفحلت الاضطرابات الاجتماعية، وازدادت عدوانية القراصنة الاوروبيين بحرا .

(1) التجاني ، **رحلة** ، ص 119.

– الحصن والطرش والبرج :

* تشابه معنى الحصن في الحقبة الاولى مع القصر ، إذ أستعمل للاحتماء في فترات القلاقل (1) . كما ذكر في العهد الحفصي ، للدلالة على توطين ذي صبغة عسكرية ، من ذلك حصن زرمدين وحصن اللجم . وقد لا يقتصر دوره على حماية القرية الموجودة داخله ، إنما يقوم بدور الحامي لمنطقة كاملة ، على غرار نظام الحصون بالاندلس . وقد ذكر لنا التجاني مثالا ، نورده كاملا لأهميته . قال في هذا الصدد : « **وانتقلنا من البئر المذكورة يوم السبت الى الحصن المعروف بحصن سلمة ، وهو من أرض مسلاتة . فرأيت ملجأ ، يذكر سلمى وأجأ ، وهو على أعلى جبل ، وقد دارت به دور كثيرة ، وتحف بهذا الجبل مغارس زيتون وكرم ومزارع ، وهي كلها في ثنايا وأودية بين جبال وعرة ،و تحت هذه القرية في قاعة مستوية قرية صغيرة تعرف بتاغرمت، وبها مباني ضخمة بالنسبة الى تلك القرى»** (2).

وكثيرا ما أصبحت الحصون نقاط أرتكاز لبناء المنازل وإعادة التعمير ،بعد فترات حرجة، وبعد أن تحول الحصن الى مخزن للمؤونة . وهذا مثال على ذلك : **«وسئل (البرجيني) عن حصن نقطة من عمل صفاقس في المائة الرابعة لسكنى الصالحين فيما يذكر ، ثم لم يبق منهم اليوم أحد ، حتى أن الحصن على حاله قد وجد ليس فيه الا واحد على ما ذكر ، فبنى حوله دور، فصار هو حصن لهم يمنعون فيه ما يخاف عليه من خزين ونحوه ويلجئون اليه عند الخوف من الاعراب وعدو الدين ، ولولا هو ما عمروا ذلك الموضع من الخوف المذكور ، فهل يجوز لهم ذلك حتى يوجد من يعمره على الوجه الذي حبس له ؟أو يبقى خاليا ، مع أنه إذا خلا يخشى عليه الانهراس والسقوط ، وان منعناهم منه أدى ذلك الى أنتهاب الاعراب لهم ، وخارجه أرض محبسة ..»** (3).

وإضافة الى فاعلية الحصون في حماية المسالك البرية ، فانها قد لعبت دور مراقبة السواحل وحماية تجار البحر، من ذلك ما ورد ذكره في إحدى النوازل من أن بعض المرابطين بالحصن المعروف بالركام أخبروا سفينة إفريقية قادمة من صقلية بأن مراكب النصارى قريبة من الموقع، فالتجأ التاجر الذي كان بها الى الحصن حيث أودع بضاعته وسلمها لقائد الحصن(4).

على أن هذه الحصون والأربطة شهدت اهمالا كبيرا في القرنين الخامس والسادس هـ، كما بين ذلك البرجيني الذي أجاب عن النازلة السابقة بقوله :« ما ذكرتم هو شأن المحارس اليوم، فانّا لله وإنا اليه راجعون » . وأصبحت في بعض الحالات لا تقوم بدور الحماية ، بقدر ما تشكل خطرا أمنيا على الجهة ، حتى أن

---

(1) ابن الصغير ، **تاريخ** ، ص 107.
(2) التجاني ، **رحلة** ، ص 318.
(3) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 129ب .الونشريسي ، **المعيار** ، جVII ، ص232–233 .
(4) البرزلي ، **جامع مسائل الاحكام** ، جII ، ص120 ب . الونشريسي ، **المعيار** ، ج V، ص 105.

الشراع بافريقية الحفصية أحل إزالتها ، أسوة بما قام به صلاح الدين من هدم سور عسقلان وبيت المقدس ، حتى لا تكون منعة للعدو . فقد أفتى البرزلي أن تجريد العدو من التحصينات والأسوار يسهل اخراجه ، قائلا بالخصوص: « إن كل حصن يلي بلاد العدو ويخاف عليه منهم ، فانه يهدم » .

وفعلا ، حاول البعض العمل بهذا الامر بالنسبة إلى أسوار المهدية ، لما تكررت الهجومات البحرية عليها في العهدين الزيري والحفصي ، لانه يعسر استرجاعها إذا تمكن العدو من دخولها والتحصن بها .ومعلوم أنه وقع تطبيق ذلك من قبل في خرائب قرطاجنة التي تحصن بها الصليبيون ، ونزلوا بها .

وقد أراد البرزلي سحب هذه النظرية « الانهزامية » على حصون قوصرة ، وتهديمها بعد اخراج ما تبقى بها من المسلمين ، لانها تحولت الى قاعدة « لاهل الحرب » من القراصنة الذين يغيرون على إفريقية وبلاد المغرب . وهكذا أضحى الشعور بالتفوق الاوروبي في البحر واضحا لدى أهل العصر ، حتى باتت هذه الجزر ميؤوسا منها ، «**لا يرجى مصيرها للمسلمين غالبا لاستيلاء النصارى على سائر جزائر البحر وقوتهم** » ، حسب عبارة قاضي إفريقية (1).

* أما الطرش ، فان معلوماتنا حوله في العصر الوسيط لا تكاد تتجاوز مرحلة الفرضية . ذلك أن هذا السكن القديم تواصل ذكره في وثائق العصرين ، الوسيط والحديث . والظاهر أنها كانت عبارة عن تحصينات ريفية ، تشرف على المسالك الهامة . والى أن تتضح هذه الصورة، فاننا نقتصر على ذكر بعض الامثلة المتبقية آثارها الى حد الآن:

– طرة : توجد على تخوم اللِيماس الروماني وهي منذ القديم، واحة من واحات بلاد نفزاوة (2).

– شرس : قصر ذكره الوزان بين تونس وباجة ، على وادي مجردة . وكان يشرف على أراض خصبة ، وحوله غابة كبيرة من الزيتون ، خرّبه البدو (3).

---

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج II،ص 1163.
(2) راجع الفصل الخاص بنفزاوة .
(3) الوزان ، **وصف إفريقيا** ، جII ، ص 68–67 .

– طرش : توجد قرب منزل كامل بالساحل ، ولعلّها الموقع الاصلي لهذا المنزل(1) .

– طرس : موقع ساحلي ، بين المهدية وقصور الساف ، ورد ذكره في وثيقة حبس ترجع الي القرن الثامن عشر م (أرض ترس ، الى جانب أرض رجيش وهنشير الرمانية)(2).

* البرج ، نوع أخرمن السكن المحصن : فضلا عن الابراج التي تدعم الحصن أو السور، يوجد صنف أخر من الابراج المقترنة بالسكن الضحوي المحصن . فلقد ذكرت المصادر الابراج التي يقطنها المزارعون ، حسبما ورد ذلك في إحدى فتاوى البرزلي (3).

فالبرج في هذه الحالة يبدو وحدة للاستغلال الزراعي وللاسكان، و هو شبيه في ذلك بالطرش أو حتى القصر. ولعل المالكي ذهب الى نفس هذا المعنى عندما تحدث عن **«قرية البرج التي تعرف بقصر زياد»** (4).

و أخذ معنى أخر في العهد الحفصي، مقترنا بالسكن المحصن الضحوي القريب من المدن ، وهو ما يذكرنا بنظام الفيلا الرومانية .فقد انتشرت الابراج بناحية مدينة تونس ، على امتداد مسافة تتراوح من ستة الى عشرة كلم .وقد وجد أهمها برأس الطابية وباردو ورياض السناجرة ومنوبة وأريانة والمنشية وغيرها (5).

فقد كان الرحالة أدورن شاهدا على تفشي ظاهرة الأبراج بناحية مدينة تونس ، إذ ذكر أنه يوجد حولها نحو أربعين ألف بستان ملك لاهل المدينة، وتحتوي كل واحدة منها على بناية جميلة ومرتفعة ، تأخذ شكل برج مربع(6) .

ووصف لنا الرحالة المصري المعاصر للسابق ، ابن عبد الباسط أحد هذه الابراج المخصصة لكبير التجار الاندلسيين ، برأس الطابية بمدينة تونس ، وهو عبارة عن قصر فخم تحليه تقطيعات الجص ولوحات الزليج البديعة ، ونافورات الرخام التي يخرج من فوهتها الماء . وهو بهذا بعيد كل البعد عن أبراج الفئات

(1) راجع الخريطة الطوبوغرافية لجمال.

(2) ورد الاسم في وثيقة حبس خاصّة بقصور الساف.

(3) البرزلي ، **جامع مسائل الاحكام**، جII ، ص 1265 : «سئل (اللخمي) عن برج فيه بساتين وزرع ، وهو محصن في بعض الجهات ، ومسرح من أخرى ، حتى أنه يصيب أهل المرج الغارة، فالزمهم الوالي بضرب طابية من الناحية المختصة ... فطلب أهل الاطراف أهل الوسط بنصيبهم من ذلك ، كما فعل بالطابية الاولى، فامتنعوا وقالوا الضرر إنما ينال الذين يلونها »

(4) المالكي ، **رياض النفوس** ، ج I، ص423.

(5) راجع الفصل الخاص بمدينة تونس.

(6) Brunschvig , **Deux Récits de voyage** ... , p. 197.

الحضرية الوسطى، ذات الزخرفة البسيطة ، وعادة ما تتخللها كوة ، حسبما ذكر ذلك ابن الرامي(1) .

و في كل الاحوال ، فان لهذا النمط من السكن الحضر–ريفي وظيفة عسكرية واضحة، وهي الاحتماء من غارات البدو، كما أوضحت ذلك إحدى الوثائق الاسبانية المؤرخة سنة 1535م، إذ أشارت بوضوح الى أن الجدران المرتفعة والابراج الصلبة شيدت للتصدي لغارات البدو (2).

– البلد ، صنف جديد من الاسكان الريفي المحصن : لئن قسمت إفريقية الحفصية إداريا الى عمالات ، على رأس كل واحدة عامل ، فانها ترابيا تفرعت الى عدة بلدان (جمع بلد) : فتونس وأحوازها بلد ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى باجة وناحيتها، والقيروان، والجريد، وطرابلس ، والساحل ، وبلد العناب وقراها ، وقسنطينة ، وبجاية الخ (3).

على أن مصطلح البلد ارتبط أساسا بمعنى السكن الريفي خلال هذه الحقبة، وهو ما يميز المزارعين المستقرين مقارنة مع البدو الرحل وسكان المدن، وبهذا كان البلد عنصر ربط بين البدو والحضر ، ومحرارا لطبيعة هذه العلاقة ، فقد أحيطت بجدار من طابية لصد هجومات البدو أثناء فترات التوتر، وزودت بمسجد جامع وسوق ريفية تؤمها القبائل البدوية ، التي غالبا ما تمكنت من بسط نفوذها عليها ، وابعادها عن دائرة تاثير المدينة ، حتى أن بعض هذه البلدان كانت شبه مستقلة ، وحسب عبارة الفقهاء ، **« لا تنالها الاحكام الشرعية»** (4).

فالبلد مصطلح استعمل بوسط إفريقية خاصة ، للدلالة على هذه المستقرات البدوية المحيطة بالمدينة ، وهي في ذلك لا تختلف كثيرا عن مصطلح أخر كان مستعملا بالمغرب الاقصى في تلك الحقبة ، وهو المجشر ،الذي كان يطلق في الاصل على منازل البدو ، ثم شمل معناه التجمعات السكنية الصغرى أو الكبرى ، التي تشاد فيها منازل قروية ، من طين وجص ، بعيدة عن تنميق الحواضر وزخرفتها (5) .

ويتضح لنا من خلال هذا العرض الاصطلاحي مدى بساطة النظرة المسطحة التي تتحدث فقط عن التناقض بين العوالم الثلاثة : المدينة والقرية والقبيلة ، وأن الترابط وثيق بينها الى درجة أنه لا يمكن فصل الواحدة عن الاخرى ، وهو ما يحدد كيفية تناولنا لهذا الموضوع.

(1) Idem, p. 20 .

(2) Montavez, **Dos Descripciones**, op.cit., p.217-218.

(3) البرزلي ، **جامع مسائل الاحكام** ، جI ، ص 1264.

(4) أنظر مفهوم البلد بوطن القيروان والساحل في: البرزلي ،ن.م. ، ج I ، ص 1277.

(5) الونشريسي ، ن.م. ، ج I ، ص 228–139 .وورد في الزبيدي (**تاج العروس** ، ج 3 ، ص 101)أن المجشر هو المكان الذي يرعى فيه قرب الماء ، ويقال قوم جشّر أي عزاب في إبلهم .

3- تنظيم المشهد الريفي المحيط بالمدن :

أ) الحزام الرّيفي الأوّل : - *السواني والبساتين المحيطة بالمستقرات الحضرية :*

يعتبر اتّساع المجال المخصّص للسّواني مؤشرا لأهميّة النّاحية المحيطة بالمدينة ولمدى حيوية سكان الحضر، وقدرتهم على حماية المجال الزراعي من ظاهرة التبدي.

ولئن كان من الصعب قيس مدى اتساع هذا المجال، فإننا نعتقد أنّ قائمة الأصناف والمشاتل ازدادت تنوعا وثراء، بتأثير تقنيات زراعية وافدة على البلاد من شمال المتوسط، وبخاصة من الأندلس. ممّا أدّى إلى تطور نظام البستنة بإفريقية، بطريقة عملية أكثر منها نظرية، إذ لم تنتج هذه الفترة تآليف في الفلاحة ذات شأن(1).

وتتموضع هذه السواني والبساتين حول المدن، وقريبا من أسوارها في الأراضي الخصبة. فقد كانت البساتين تحف بضفتي الوادي ببجاية، على طول مسافة 12 ميلا، بدون إنقطاع. أمّا وادي قسنطينة، فقد أعجب الوزان بالبساتين الموجودة على ضفتيه، رغم قلة خبرة اليد العاملة بها، وقال عنه ابن عبد الباسط: إنّه **«واد عظيم كثير الخصب والأجنة والبساتين»** (2). وإلى حد القرن الثاني عشر الميلادي، خصّص أهل تونس مجالا للسّواني والبساتين قرب الأسوار وحتى داخلها، حيث ذكرت سواني المرج بباب قرطاجنة. لكن يبدو أن التطور العمراني للمدينة قد أخرجها في فترة لاحقة إلى الناحية القريبة، إذ أصبحت منتشرة بالضاحية الغربية، من باب أبي سعدون إلى رأس الطابية، وباردو ومنوبة وقريانة، وبقرطاجنة وأريانة، حيث الحدائق المليئة ذات الثمار والفواكه والخضر، التي كانت وفّرت الإنتاج لسكان المدينة. وكانت هذه الملكيات الصغيرة للحضر مزودة ببئر وناعورة يحرّكها حيوان لسقي المزروعات، وبأبراج للسكن (3).

ولم تقتصر السواني على المدن الكبرى، إنما ظهرت حيثما توفر الماء ومهارة

---

(1) استعمل ابن رشد السّانية بمعنى البئر (البرزلي، **جامع**، ج I، ص 22 ب).

(2) العمري، **مسالك**، ص 86. الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 58، ابن عبد الباسط، **رحلة**، ص 40.

(3) أدورن، **رحلة**، ص 197–198. الوزان، **ن.م.**، ج II، ص 67، 75. مارمول، **افريقيا**، ج III، ص 21، 23. الابي، الاكمال، جVII، ص 42(كان للزبيدي سانية بقريانة خارج تونس). الأبيّ، **الاكمال**، ج VII، ص42 (ذكرت سانية الشيخ أبي علي حسن الزبيدي بقريانة خارج تونس).

المزارع المستقر والأمن الإجتماعي، حتى إنها ذكرت في مناطق نائية بجنوب شرق إفريقية مثل حصن تليل حيث السواني والمزارع السقوية، وسواني خلف الله وسواني المرابطين بوادي زركين وزروعهم حول وادي مجسر.

وكانت حاضرة بطريقة مستمرة في واحات إفريقية، ببلاد الزاب وورجلان والجريد ونفزاوة وقابس وغدامس وبلاد الفزان، حيث استعملت الفلاحة المتدرجة، في مستويات: النخيل فالبساتين فالبقول والزراعات الصناعية (1).

- *الرياض الاميرية المحيطة بمدينة تونس :*

ظهرت منذ مطلع القرن السابع هـ / XII م، بساتين نموذجية للأمراء الموحدين والحفصيين حول مدينة تونس، فقد شرع الأمير الموحدي أبو زيد عبد الرّحمان بن عبد الواحد بن أبي حفص (618–623هـ/ 1221 م–1226 م) في إنشاء بستان نقل إليه أنواع الغروس من كل مكان، غير أنّه رحل قبل أن ينتهي من هذا العمل (2).

ولم يشهد هذا المسار دفعا جديدا إلاّ بعد استتباب الأمن، وتولّى أبي زكرياء الحكم، سنة 627هـ/ 1229م. وابتداء من تلك الحقبة، كثرت الغراسات، بفعل الهجرة الأندلسية، وازدياد عدد **«الصناع وأصحاب المعارف وأرباب البصر»** (3).

وتعتبر فترة المستنصر أهم حقبة لتطور الرياض والبساتين الأميرية، وفضلا عن رياض أبي فهر ورأس الطابية، اختطّ السلطان رياضا بناحية بنزرت سنة 650 هـ / 1252 م، « **فادار سياجا على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد، بحيث لا يراعى فيه سرب الوحش، فإذا ركب للصيد تخطى ذلك السياج إلى قوره، في لمة من مواليه المتخصصين، وأصحاب بيزرته، بما معهم من الجوارح بزاة وصقورا وكلابا سلوقية وفهودا، فيرسلونها على الوحش في تلك القوراء، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام، فيقضي وطرا من ذلك القنيص سائر يومه، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها** » (4).

وفي عهد الواثق (676هـ–678هـ 1277–1297م)، أزيلت بعض الرسوم

---

(1) راجع الفصل الخاص ببلاد الجريد. التجاني، **رحلة**، ص 132، 34–133، 320،211، ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص 67، الادريسي، نزهة **المشتاق**، ص 104، ابن سعيد، **جغرافية**، ص 127.

(2) ابن قنفد، **الفارسية**، ص 106.

(3) المصدر نفسه، ص 112.

(4) كذا في ابن خلدون، **تاريخ**، جVI، ص 628–629 راجع كذلك: الغرناطي، شرح المقصورة ص 105.

والوظائف على الزراعة ، ورُدَّتْ أجنة الحومة المعروفة باليهودية إلى أهلها ، بعد أن تعرّضت كرومها إلى القطع في عهد المستنصر . غير أنّ العهد لم يكن عهد بناء وتشييد ، إنّما كان فاتحة لحقبة طويلة من الإضطرابات الإجتماعية والسياسية ، لم تهدأ مؤقتا إلاّ في عهد محمد أبي عصيدة (694–709هـ) ، إذ غرست عصر ذاك الغراسات ، وبنيت فيها الأبراج ، ولعل روض السناجرة الواقع غرب مدينة تونس ، والمذكور لأوّل مرّة سنة 718هـ/ 1318م يرجع إلى تلك الحقبة (1) .

وزيادة على جنة أبي فهر ورأس الطابية ، كانت لأبي يحيى أبي بكر (718–748هـ) رياض بظاهر قسنطينة يطلق عليها الدكّان ، كما كان لأعيان الدولة بساتين حول مدينة تونس وخاصة شيوخ الموحدين مثل ابن اللحياني وابن تافراجين (2) .

وقد امتدت حركة البستنة إلى بقية مدن إفريقية ، فقد شيّد بنو جامع بقابس قصر العروسين ، ورياضا غناء ، ظلت اثارها قائمة في مطلع القرن الثامن هـ / XIV م . وكانت لرئيس البلد بتوزر، أبي العباس بن يملول ، روضة بديعة وقد تحوّل إليها السلطان الحفصي أثناء وقوع وباء بتونس (3) .

أمّا شيخ بني مزني ، يعقوب بن علي ، فقد اختطّ بدوره ضيعة بناحية بسكرة . وفي بجاية ، ذُكر بستانان خاصان بالسلطان ، وسط ناحية حضر–ريفية شاسعة، وقد تحدث عن ذلك العمري قائلا : « **ولها نهر جار على نحو ميلين منها، تحتف به البساتين والمناظر على ضفتيه ، طولي الوادي يمتدّ على نحو إثني عشر ميلا، متصلة بعضها ببعض ، لا إنفصال بينها إلاّ ما يسلك عليه البساتين ، ليس إلاّ إلى أن يصب في البحر الشامي، وبضفته بستانان للسلطان متقابلان شرقا وغربا : الشرقي يسمى الرفيع ، ويسمى الغربي البديع ، هما مكان فرجته ومحل نزهته** » (4).

وفي الجملة فإنّ حركة البستنة حول المدن الكبرى شهدت فتورا خلال القرن

---

(1) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 136 ، 83 . ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 141 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 751 . البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 73 ب .

(2) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 163 . **مناقب الشاذلي** ، ص 11 . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 102 .

وكان يعقوب بن علي ، من بني مزني ، قد اختطّ بدوره ضيعة بناحية بسكرة : ابن خلدون ، **ن.م** . ج VII ص 1041 .

(3) التجاني ، **رحلة** ، ص 95 ، 163.320 .

(4) ابن خلدون، تاريخ ، ج VII ، ص 1041 . العمري، المسالك، ص 86 .

الثامن هـ / XIV م ، ولم تعرف تنشيطا جديدا إلاّ عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز والسلطان أبي عمرو عثمان ، ففي تلك الحقبة ظهرت بساتين باردو الأميرية، التي وصفها الوزان بقوله : « **وهناك عدد لا يحصى من البساتين المغروسة بالبرتقال والليمون والورد وغيره من الأزهار الجميلة ، خصوصا في مكان يدعى الباردو ، حيث بساتين الملك وقصوره الفخمة البهية بمختلف النحوت والرسوم الجميلة** » (1) .

كما غرس أبو عمرو عثمان حول زاوية سيجوم جنات كثيرة ، عمرت عمارة قوية وفي عهده ، وتحديدا سنة 875 هـ / 1470م ، كملت السانية المسماة بالمنصورة قرب برج الصخرة ، جوفي جبل الفتح . ويبدو أنّ الضياع الملكية بضاحية المرسى ، التي يقضي فيها السلطان فصل الصيف ترجع إلى تلك الحقبة (2) .

– *رياض أبي فهر :*

في سنة 648 «هـ» / 1250م ، شرع المستنصر في البناء برياض أبي فهر ، وتواصلت الأشغال إلى حد سنة 665 «هـ» / 1266م ، تاريخ الانتهاء من بناء الحنايا ، وصرف الماء إلى جنة أبي فهر . ولئن تعرضت مصادر تلك الفترة إلى ذكر هذه الاجنة ، فإنها لم تفدنا كثيرا في تحديد الموقع ، وبعد أن اعتقد البعض أنّها توجد قرب النقرة ، استقرّ الرّأي على وجودها جنوب أريانة ، خاصّة على إثر الحفريات الأخيرة التي أجريت في هذا الموقع (3) .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذه الرياض كانت بمثابة المخبر لشتّى المزروعات والمغروسات ، والمنشآت المائية المتطوّرة ، وقد لفتت هذه الإنجازات الزراعية والهندسية انتباه المعاصرين والمتأخرين ، وجاءت مقصورة حازم القرطاجني التي

---

(1) الوزان ، **وصف افريقا** ، ج II. ص 77 .

(2) ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 128 . ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 158 . الوزان ، **ن.م.** ، ج II ، ص 82.

(3) ورد الرأي الاول لدى حسن حسني عبد الوهاب ، تحقيق مقتطف من مسالك الابصار للعمري ، بالكراسات التونسية ، سنة 1973 ، ص 234 . أما الرأي الثاني ، فقد اعتمد على أدلة عديدة ، منها :

– وجود جوابي وأجزاء من الحنايا بناحية برج البكوش (باريانة) .

– شهادة ابن أبي دينار في القرن XVII م الذي قال في هذا الشأن : « وجلب (المستنصر) الماء عليها (الحنايا) إلى بساتينه بابي فهر ، ويعبّر عنه اليوم بالبطوم، عجز عن بنائها بالحجر، وجعل أقواسها طابية، وهي أقواس يسيرة، وجلب الماء إلى البركة التي هناك، وهي باقية إلى الآن ، وبقية الحنايا وآثارها باقية إلى يومنا » (**المؤنس**، ص 24–25). واستنتج من ذلك « سولينياك» أنّ بير البطوم الحالي يوافق الموقع الذي ذكره ابن أبي دينار .

– ذكر المسافة بين أبي فهر وتونس : ثلاثة أميال .

وقد جاءت الحفريات الواقعة حاليا لتؤكّد صحّة الموقع .غير أنّه مما بعث على الإحتراز هو أنّ هذه الرياض تبدو امتدادا لراس الطابية، حسبما ورد في نص الزركشي (**تاريخ** ، ص 35) . إذ قال : « بنى الممشى من القصبة إلى راس الطابية وأوصله إلى

أَلَّفها بالمناسبة أحسن تعبير عن ذلك (1) .

وتذكر المصادر أنّ جزءا ضئيلا من ماء الحنايا كان يَنْسَابُ إلى سقاية بجامع الزيتونة ، فيما يصرف الباقي إلى جنة أبي فهر (2) .

وما يهمّنا أكثر في هذا الصدد هو مدى تطور البستنة في هذه الرياض ، وقد جاء وصف ابن خلدون لها أدق وصفا وأبعده ، إذ قال : « **واتّخذ أيضا بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فهر ، يشمل على جنات معروشات وغير معروشات ، اغترس فيها من شجره كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمّان والنخيل والأعناب ، وسائر الفواكه وأصناف الشجر . ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري ، وسمى دوح هذه بالشعراء ، واتّخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائز وشجر النور والنزه من الليم والنارنج والسرو والريحان ، وشجر الياسمين والخيري والنيلوفر وأمثاله . وجعل وسط هذه الرياض روضا فسيح الساحة ، وصنع فيه للماء حائزا من عداد البحور ، جلب إليه الماء في القناة القديمة**» (3) .

– *الأجنّة والأبراج :*

يرجع مصطلح البرج إلى الحقبة القديمة ، وكان يعني القصور أو القرى الثغرية المحصنة . غير أنّه منذ بداية العهد الاسلامي ، قلّ ذكر هذا المصطلح في المصادر العربية ، وذلك لتغير نمط العيش ، واستقرار الأوضاع الأمنية ، وما نجم عنهما من انتشار المنازل والقرى غير المحصنة داخل بلاد إفريقية طيلة الفترة الأغلبية والفاطمية –الزيريه (4) .

رياض أبي فهر » .

(1) ابن قنفد، الفارسية، ص 117، 127–128. ابن الشماع ، الادلة، ص 68،64. حازم القرطاجني، قصائد ومقطعات ، تونس 1972. الغرناطي، رفع الحجب المستورة، ص 147،77 .

وممّا ورد فيها :

وانساب في قصر أبي فهر الذي .. لكل قصر في الجمال قد زرى
قصر تراءى بين بحر سلسل .. وسجسج من الظلال قد ضفا
بحيرة على الاله قدرها .. قد عذب الماء بها وقدرها ...
حاذى بنا قبيبة بن طاهر .. يفري أديم الماء فري من حذا
وانصاع عن دار الأسود مثل ما .. ينصاع سرب الوحش من أسد الشرا
وصف قبلي المصلى لم يقف .. فيه ولا صلى به ولا تلا

(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 38 ، ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 127–128 . ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 135 . ويشير كل من الزركشي (**تاريخ** ، ص 33) والرصاع (**الفهرست** ، ص 125) إلى أنّ المستنصر كان يجلس على القبة التي على الجابية الكبيرة .

(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 630 .انظر أيضا : العمري ، **مسالك الابصار** ، ص 85–86 .

(4) استعمل المصطلح في النصّ القرآني (البروج) بمعناه العسكري . وكان يطلق في العهد الاغلبي على الحصون والاربطة إذ ورد ذكر شرافات برج يقع على البحر ، وقرية البرج التي بقصر زياد . انظر المالكي ، **رياض النفوس** ، ج I ، ص 390،328 .

Art.Burdj In **E.I.**

Diehl, **l'Afrique Byzantine**.

وكان استعماله طيلة هذه الحقبة مقترنا بالعمارة العسكرية ، مثل برج أبي سليمان بقرطاجنة ، الذي كان عبارة عن رباط في القرن الخامس هـ / XIم ، وأبراج الأسوار بكل من مدينة المهدية ، وقفصة والقيروان (البرج الكبير قرب باب تونس المحدث) (1) . ولئن غلب استعمال مفهوم الرّباط والحصن والقصر في اللغة ، فإنّنا نعثر أحيانا على استعمال برج بمعنى قصر .

غير أنّه على إثر تدهور الأوضاع الأمنية بالبلاد ، وتفشي نمط العيش الرحلي بعد أواسط القرن الخامس هـ / XIم ، فاجأتنا المصادر بانتشار نمط جديد من السكن بأرياف إفريقية ، وهو القرى المحصنة أو القصور التي عوضت تدريجيا المنازل ، والأبراج المنعزلة في الحزام الحضر – ريفي المحيط بالمدن الكبرى .

وترجع أقدم إشارة إلى الأبراج السكنيّة إلى سنة 651هـ/ 1253م لمّا بنى المستنصر الممشى الذي يربط بين القصبة ومنتزه رأس الطابية ، الذي كان يتوسطه برج أميري لسكنى السلطان ، وقد ظل منزلا لسلاطين بني حفص ، حتى سنة 735هـ/ 1334م ، تاريخ بناء أبي يحيى أبي بكر للبرج الجديد برأس الطابية الذي أنفق فيه خمسين ألف دينارا من بيت المال (2) .

ولا يفوتنا هنا أن نذكّر بالأهميّة العسكرية للموقع الذي تربّع في مرتفع مشرف على مدينة تونس ، حتى أنّ المستنصر أقام قرب البستان ملعبا ، وأحاطه بطابية ، لتدريب أبنائه على ركوب الخيل والفروسية ، وذلك إلى جانب الملعب الكبير الواقع خارج باب أبي سعدون ، قرب روض السناجرة (3) .

---

(1) البكري ، المسالك ، ص 44.

H.R. Idris, Les Zirides, T I, p.259,397, T II p.425,436,451,453.

ولا ندري هل أنّ برج عريف بالمهدية ترجع تسميته إلى العهد الفاطمي أم لا ، وإن كنا نرجح الإحتمال الأوّل ، لأنّ المعلم فاطمي، وهو عبارة عن حصن مرتفع مقام وسط سهل خصب ، غرب المدينة ، انظر :

G.Marçais, Architecture Musulmane d'Occident, pp.87-89.

(2) ورد ذكر مصطلح الطابية عديد المرات في المصادر الجغرافية والتاريخيّة :فقد كانت أسوار كل من مجانة وأبّة وطبنة وقصر الفلوس والسّرت من الطابية(ابن حوقل،ن.م. ، ص70،84،85،86) .وفي سنة 294هـ، بنى زيادة الله أسوار رقادة بالطوب والطوابي(ابن عناري،ن.م. ، ص143) . وكان جامع بطليوس مبنيّا باللّبن والطابية (الحميري : ن.م. ، ص93) كما كان سورها من طوب وطابية ، أما سور بلنسية بالحجر والطوابي (الحميري ، ص 97) . أما بناء منازل مراكش ، فهي " بالطين والطوب والطوابي المقامة من التّراب (الادريسي، ن.م. ، ص 84) .الزركشي ، تاريخ ، ص 35 ، 71 .

(3) البرزلي ، جامع ، ج II ، ص 73 ب . الزركشي ، ن . م . ، ص 65 .

وفي سنة 711هـ/ 1311م ، لما وصل ابن اللحياني إلى مشارف مدينة تونس، حلّ برأس الطابية ، حيث استعرض جيوشه . ويبدو أنّه للغرض نفسه إختار أبو الحسن المريني الإستقرار بهده الرياض سنة 748هـ/ 1347 م ، وكان يجلس ببرج يشرف على موضع القتال ، حسب رواية ابن بطوطة (1) .

وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد المعارك التي دارت بها سنة 771هـ/ 1369 م، وقد كانت وقتذاك محاطة بأسوار ، فضلا عن المشى الرّابط مع القصبة ، ولعلّ هذه الأسوار البسيطة التي تسلّمها العسكر بسهولة ، لا تعدو أن تكون جدارا محيطا بالرياض السلطانية ، بعد أن كانت في مرحلة أولى محاطة **بطابية** من التراب (2).

وفي الجملة فإنّ البرج الأميري برأس الطابية كان محاطا برياض وبساتين غنّاء للأسرة الحاكمة وكبار الأعيان ، من الأندلسيين وغيرهم ، حتى أنّ أرضا أطلق عليها أصحابها تسمية مالقة ، عربون وفاء وحنين لمسقط رأسهم بدون شك . وكانت وظيفة هذا البرج مزدوجة : الإقامة والنزهة من جهة ، ومراقبة تحركات العساكر من جهة ثانية (3) .

وفي هذا الصدد ، يبدو أنّ الأبراج والرياض الأميرية كانت بمثابة النواتات التي استقطبت نشأة أبراج صغيرة ، منتظمة حولها للفئات العليا والوسطى من أهل الحضر، وكانت شكلا من أشكال التعمير للناحية الحضر–ريفية أثناء فترات السّلم والأمن، لكنّها ظلت عمارة لا تخلو من الطابع الدفاعي ، تحسّبا لغارات البدو التي طالت هذه الناحية المتاخمة للمدينة.

وفي هذا السياق ، شهدت هذه الحركة التعميرية للأرض والعمرانية المتمثلة في تشييد الأبراج دفعا قويا في فترة حكم السلطان أبي عصيدة (694هـ/ 1395م – 709هـ/ 1309م)، المتميّزة بهدوء نسبي ، **« فغرست فيها الغراسات وبنيت فيها الأبراج»** ، على حد قول ابن قنفذ (4).

غير أنّ ما وصلنا من أمثلة عن هذه الظاهرة الحضر–ريفية التي تطوّرت طيلة العهد الحفصي ظلّ محدودًا، ومن ذلك ما ورد ذكره في المصادر النوازلية أنّ أحد الأندلسيين

---

(1) ابن قنفذ ، **الفارسية** ، ص 159–160 . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 85، 87 . الزركشي ، **تاريخ** ، ص 83 . ابن بطوطة، **رحلة** ،ص 430 .
(2) الزركشي ، **ن.م** ، ص 105 .
(3) البرزلي ، ن.م. ، ج II ، ص 73 ب . لعلّ أرض مالقة كانت ملكا للحاجب ابن المالقي (الذي ذكر سنة 771 هـ)انظر : الزركشي ، **ن.م**. 104 .
(4) ابن قنفذ ، **الفارسية** ، ص 83 .

وهو المسمّى بابن البسطي ، كان يمتلك جنانا بأحواز مدينة تونس ، ويبدو أنّ ذلك كان في عهد السلطان أبي عصيدة ، غير أنّه بوصول ابن اللحياني إلى الحكم ، انتقلت ملكية الجنان للقائد ابن يعقوب الذي أضاف بناء برج رفيع ، وعند رحيله آلت ملكيته إلى الفقيه ابن الحباب ، أثناء فترة انتقال الحكم من ابن اللحياني ، إلى أبي يحيى أبي بكر ، ولم ينعم طويلا بهذا الجنان ، إذ ما إن وصل أبو يحيى إلى الحكم حتى قرّب إليه أفراد الجالية الأندلسية ، وأضحت أسرة ابن البسطي **« في عنفوان تمكنها من دولة السلطان أبي يحيى أبي بكر »** ، وبهذا انتزع الجنان من الفقيه المنكوب ، واسترجعه ابن البسطي سنة 726 «هـ» / 1325م لكن الفقيه لم ييأس ، وظل مطالبا بحقه طيلة عشر سنوات كاملة ، على أمل أن ينصفه مجلس الفقهاء الذي عقد بأمر من السلطان لهذا الغرض ، غير أنّ هؤلاء كانوا أكثر واقعية إذ فضّلوا إرضاء السّلطان ، والانضواء إلى أهل المكنة والجاه ، الذين ينتمي إليهم ابن البسطي (1) .

ما نستنتجه من هذا المثال هو مدى هشاشة الملكية الحضر–ريفية ، أو بالأحرى الإقطاع لهذه الأجنة ، الذي يخضع لتطور الفئة المتمكّنة من السّلطة ، وانتقال الحكم من سلطان إلى آخر . وهو ما يفسر تداول الفقيه والقائد وصاحب الجاه الأندلسي عليها .

وثمّة طريقة أخرى لتملك هذه الأبراج تتمثّل في عملية تحبيسها على المشائخ ، مثلما فعل السلطان أبو عمرو عثمان ، الذي حبّس « **جنة عظيمة معتبرة فيها برج عظيم وبنية معتبرة على زاوية أحمد بن عروس»** (2) .

وفي الجملة فإنّ هذه الأجنة والأبراج تمثل الحزام الأوّل المحيط بمدينة تونس ، وبخاصة في ضاحيتها الشمالية ، بدءا من خارج باب أبي سعدون ، وخاصة من رأس الطابية ، إلى حد الجبل الأحمر الذي اعتبر في طرف أجنة تونس ، أي على شعاع لا يتجاوز ثلاثة أميال ، على أن حدود هذا المجال الغربية اختلفت من واحد إلى آخر : ففيما يذهب ابن عرفة عند حديثه عن المسافة اللازمة لتقصير الصلاة ، إلى أن رأس الطابية وما قاربها هي في حكم المصر ، بمعنى أنّها بساتين يرتفق ساكنها بمرافق المصر من أخذ نار وطبخ خبز وشراء ما يحتاج إليه ، فإنّ بعض طلبته يذهبون إلى أنّ الحزام الأوّل المحيط بالمدينة يتجاوز هذه المسافة ، كي يصل

---

(1) ورد هذا النزاع بأكثر جزئيات في : ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 125 ب ، البرزلي ، جامع ، ج II ص 186ب، القلشاني ، **شرح الرسالة** ، ج II ، ص 164 ب (ذكر ابن البسيطي) . الزركشي ، تاريخ ، ص 65 . يبدو أنّ القائد ابن يعقوب هو أبو زكريا بن يعقوب نفسه ، حاجب السّلطان ابن اللحياني وقائد جيشه ، أثناء رحيله إلى طرابلس.
(2) مناقب **ابن عروس** ، ص 389 .

إلى منزل قسّة ، شمال غربي منوبة بنحو كيلومتر ، وأنشأت به قنوات باطنيّة لجلب الماء منذ العهد الحفصي . فهل معنى ذلك أنّ ظاهرتي العمارة والبستنة لم تعودا مقتصرتين على رأس الطابية وناحيتها الشمالية ، بل اتّسعتا في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز حتى بلغتا ضاحية منوبة التي تبعد عن مدينة تونس نحو ستة كلم (1) ؟.

أمّا من الجهة الغربية – الجنوبية ، فإنّ هذا الحزام الحضر – ريفي يمتد ليشمل أساسا أجنة باردو ، ورياض السناجرة القريبة منها ، خارج باب أبي سعدون ، على طول الطريق المتجهة إلى بجاية ، ويوجد بقربها ملعب كبير بكدية أبي علي ، مما يجعلنا نحدّدها في المجال الممتدّ بين السيجومي وباردو ، ويبدو أنّ وجودها يرجع إلى مطلع القرن الثامن هـ ، أو ربما قبله (2) .

وتأخذ هذه الأبراج شكل مكعب عريض ومرتفع ، يتوسطه صحن ، وتتخلل جدرانه كوات تستعمل مناظر للخارج ، للفرجة والترويح عن النفس . وهي تختلف متانة واتساعا حسب الانتماء الاجتماعي لصاحبها ، وإذا كانت ثمة أبراج ضخمة مزودة ببرك ونافورة ، ومغطاة بالرخام والزليج والجص المخرم والخشب المذهب ، من نوع منزل كبير التجار الأندلسيين برأس الطابية ، أبي القاسم البنيولي ، فإنّ الغالب على هذه الأبراج البساطة في المظهر ، والمحدودية في الإتساع ، حتى أنّها لا تعدو أن تكون منزلا عاديا في الحزام الحضري ، يستعمل للترفيه ، وخاصة لاستغلال الأجنة والبساتين ومراقبتها من شتى التعدّيات ، ومما له دلالته في هذا الصدد أنّ المصطلح جنان أصبح مقترنا في نص ابن الرامي بوجود بناء فيه ، وذلك خلافا للكروم التي تطلق على المغروسات غير المزودة بأبراج ، بمعنى غير المحمية والمتعرضة أكثر من غيرها لتعديات البدو .

وبالتالي فإنّ الأجنة المزودة بأبراج تمثّل الحزام الحضر – ريفي الأول ، المتميز باستغلال هام للأرض ، وبغراسة الأشجار المثمرة المتنوعة من برتقال وتفاح وخوخ وتوت وتين الخ .. وإذا ما أخذنا برأي الرحالة أدورن ، فإنّ هذه الأجنة والأبراج بلغ عددها أربعة آلاف ، وهي في كل الأحوال لا تتجاوز مسافة خمسة أميال في بعدها عن وسط المدينة .

---

(1) الابي ، **الاكمال** ، ج II، ص 349 ، ج VI ، ص 165 . ويرى أبو مهدي الغبريني أنّ هذه الناحية تصل الى روض السناجرة على ثلاثة أميال من تونس : ابن ناجي ، **شرح** ، ج ا ، ص 117ب . حول قسه الحالية ، انظر :
J.M. Solignac, Travaux Hydrauliques Hafsides de Tunis,In **Revue Africaine**,30-40 Trimestre,1936, pp.517-580.

(2) حول روض السناجرة ، انظر : ابن خلدون ، تاريخ ، ج VI ص 751 . البرزلي ، **ن.م.** ج II ، ص 73 ب ، ابن ناجي ، شرح ، ج II ، ص117ب. الرصاع ، **فهرست** ، ص 45 .

وبديهي القول أنّ هذا الاستغلال الزراعي ارتبط في حالات عديدة بالاستهلاك الأسري حسبما ذكر ذلك الوزّان(1) .

ويبدو لنا أنّ هذه الأجنة المتلاصقة صغيرة المساحة ، في حدود الهكتار الواحد في المتوسط أو ربما أقل ، حتى أنّ المسألة الأساسية التي طرحت في شأنها هي النظر من كوى الأبراج والتكشف على مواضع الغير من الكروم والجنات ، واختلفت الحلول المقترحة في هذا الشأن .

فالرأي الأوّل ، هو رأي محمد بن الغماز وقاضي الجماعة ابن عبد الرفيع ، ميّز بين عدم التكشف على الأجنة التي بها بناء مسور ، وإمكانية النظر إلى الكروم التي لا بناء فيها . أما الرأي الثاني ، وهو رأي قاضي الأنكحة ، أبي علي بن عبد السيّد ، فإنه لم يفرق بين الأثنين ، داعيا إلى سد كل كوة أحدثت على كرم أو جنان ، وعلّل ذلك بأنّ الكرم الذي ليس فيه بناء يحتاج صاحبه إلى النزهة فيه مع عياله ، والراحة ، ولا يصح الإطلاع عليه .

وفي آخر العصر الوسيط ، أصبحت لهذه الأبراج وظيفة عسكريّة واضحة ، تمثّلت في الاحتماء من الغارات المحليّة ، كما أوضحت ذلك احدى الوثائق الاسبانيّة المؤرّخة سنة 1535هـ (2).

-الغابة :

أطلق هذا المصطلح على المجال الزراعي القريب من المدن ، والمكوّن من الغراسات البعلية والسقوية ، سواء كانت تلك الغراسات من صنف النخيل أو الزيتون والكروم وغيرها . والأمثلة على ذلك عديدة : فقد تطلق على أجنة الزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة مثل غابة تونس ، التي كانت تتخللها الأبراج في الحزام القريب من المدينة ، كما ذكرت غابة الزيتون بالساحل وبصفاقس ، وهذا التجاني يصف احدى هذه الغابات بناحية طرابلس ، فيقول : **« فحللنا زنزور ، فرأيت غابة متسعة الأقطار ، ملتفة الأشجار ، وبها مياه عذبة ، وأكثر شجرها الزيتون ، وأكثره من الغرس القديم على نحو زيتون الساحل ، وليس يعظم شجره**

---

(1) الوزان، **وصف** ، ج اا ، ص 75 .

(2) انظر : ابن الرامي ، **الإعلان في احكام البنيان** ، مجلة الفقه المالكي ، السنة الثانية ، شتنبر 1982 ، الدار البيضاء 1982 ، ص 318-317 .
R.Brunschvig, **Deux Récits de voyage inédits** ...Paris 1936, pp. 20-21, 197-200.
J. Revault, **Espace Comparé des habitations du Caire et de Tunis**, p.308
Montavez, **Dos Descripciones de la Cuidad**...op.cit.

في موضع من المواضع مـا يعظم في هذه القرية ، وبهـا مع ذلك نخل كثيـر ورطبه متناهي الطيب ، وبهـا أيضا من شجر التـفاح والرمّان والعنب والتين كـثير ، وهي كثيـرة القصور ، وقد اسـتولى الرمل على أكثـرها ، وهم الآن يتوقعون اسـتيلاءه على باقيها ، ويقال أنّ طولها الآن نحو من خمسة أميال وعرضها نصف ذلك » تلك هي مساحة الغابة – المزدرع المحيطة بمدينة طرابلس شرقا (1) .

ويطلق المصطلح نفـسه على غـابات النخيل السـقوية ، مـثل غابة قـابس وتوزر وغيـرهما من بلاد النخـيل ، ولعل من أدقّ مـا ذكر في هذا الشأن ، وصـف صاحب الاستبصار لغابة قفصة ، إذ قال : **« ولمدينة قفصة غابة كبـيرة قد أحاطت بها من كل ناحية مثل الإكليل ، في تكسير دائرة نحو عـشرة أميال ، فيها من المنازل التي تعرف بالقرى 18 منزلا ، وعلى الغابة والمنازل والكل حائط يسـمونه سور الغابة، وفي ذلك السور أبواب عـظام عليها أبـراج مسكونة ، يسـمونها تلك الأبـواب : الدروب، وغابة قفصة كثيرة النخل والزيتون وجميع الفواكه التي ليس في بلد مثلها »** (2) .

ويبدو أنّ مـصطلحا آخر ظلّ يطـلق على الغابة المحيطة بالمديـنة ، وهو مصطلح المنشيّـة ، وقد كـانت تتسـمى به غابة طرابلس في العـهد الحفـصي ، كمـا ذكرت الوثائق الأجنبيّة المنشيّة في الضاحية الشمالية من مدينة تونس ، ومازال المصطلح منتشرا حاليا في أكثر من مـوضـع : ببلاد الساحل (قرب حـمام سوسة)، وعلـى طول وادي مجردة ، توجد دار المنشية شمال غرب سيدي ثابت ، كما تسمّت إحدى الواحات بنفزاوة بهذا الإسم (3).

ب– الحزام الريفي الثاني: الأحمية والفحوص والضياع والفدادين والهناشير:

مثل هذا الحزام حلقة الربط بين المجال الزراعي والمجال البدوي ، ويتجسد على

---

(1) انظر : التجاني ، **رحلة** ، ص 66–67 ، 68، 214 . البكري ، **مسالك** ، ص 20 (وصفاقس في وسط ألذّ غابة زيتون) . وقد تحدّث ابن عذاري عن غابة صفاقس في أحداث سنة 454 هـ .

(2) التجاني ، **المصدر نفسه** ، ص 107 ، **كتاب الاستبصار** ، ص 153 ، 155 .

وجاء في التجاني (ص 247) : « يذكر في التاريخ أنّ غابة طرابلس كانت متصلة إلى الجبل بأنواع الفواكه على ختلافها ، وتعدد أصنافها ، فافسدتها العرب ، وأجلت أهلها عنها » .

ذكر التجاني عديد القصور والمساجد بغابة طرابلس. وأمّا "بلاد الغابة" بتونس، فقد كانت تتخلّلها مساجد خاصّة بأهلها، يبنى في طرف الجنّان ويفتح لبعض النّاس دون الآخر: ابن ناجي، **شرح**، ج ا، ص117ب.

(3) انظر : برانشويك ، إفريقية في العهد الحفصي ، ج II ص 395 .

اعتبر برانشويك خطأ أن أصل الكلمة من الإيطالية manscia . على أنّ الاشتقاق يبدو عربيا من نشأ واسم المكان منه : منشَأ أو منشئ – ومؤنثه : منشِئة ، مع التخفيف تتحوّل إلى منشيّة .

أنظر أيضا :

Atlas Archéologique de Tunisie,feuille 13 (Ariana). Carte de la ville de Tunis(en 1535).

مستوى الإسكان فـي التدرج من المنازل والقـصور إلى مداشر أهل الرّيف ، المبنية بالخص والطوب . وهو مـجـال متـحـرك ، يتّـسع كلما تراجـع المجال الرعـوي ، وازدادت أهميّة المستقرات البدوية ، وحركـة استصلاح الأرض . وهي عملية بطيئة في العهد الحفصي ، إذ أنّه من النادر أن يقترن مزدرعان ببعضهما ، دون أن يوجد بينهما فاصل من الشّعْراء والأراضـي المهملة والغابات . فكيف تمثل المشهد الريفي بالبلاد في هذه الحقبة التاريخية ؟

–*الحمى* : لغة هي موضع فيه كـلأ ، يُحْمى من النّاس أن يرعى ، واصلاحا هي مجـال مخصّص للزراعـة ، بشتّى أنواعها، المـغروسات والمزروعات. وقـد ظهرت أهميّة الحصون والأربطة منذ الفـترة الأغلبية ، وألّفت في ذلك كتب لم تصلنا مثل : «كتاب أحميّة الحصون »ليحيى بن عمر (المتوفّى سنة 289 هـ/ 901م) ، «وكتاب الأحمية وما يجب على أهل الحصـون أن يعملوا به» لمحمـد بـن عمر (المتوفّى سنة 310 هـ / 922م) (1) .

وبالتالي فـإنّ الأحمـية تبدو أراضي غـير واضـحة الملكية ، تولى اسـتغـلالها المرابطون وسكّان المدن ، فمدينة المهـدية مثلا كانت محاطة من جـهة الغرب بحمى شاسعة ، لكنّها تقلصت كثيرا ، بعد الإنتشار الهلالي ، حتى أنّ السكّان أصبحوا لا يستطيعون حرث أراضيهم (2).

وممّا يلاحظ أن الأحمية الساحلية آل أمـرها إلى الإنقراض والتلاشي بعد القرن الخـامس هـ /XIم ، وتحوّل بعضها إلى أحـباس وإقطاعات سلطانية ، وذلك بعد أن فرّطـت الأربطة والحصـون فيـها ، لصـالح البداوة ، ولم يقـدر على التـصدي لظاهرة التبدّي إلاّ البعض منها ، مثل قصر المنستير .

– *الضياع* : عرفت تطورا ، ثم تراجعا موازيا لما حصل بالحمى . وهي الأراضي الزراعية الشاسعة ، المخصّصـة لزراعة الحبوب في الغالب ، وكان الرّقيق يعملون بهـا في العصـر الأغلبي، وكانت توفّـر إنتاجـا هاما يقع تسـويقه ، وتعـتمـد على منشآت مائية متطوّرة .

---

(1) انظر : أبو العرب ، **طبقات**. المالكي، **رياض النفوس** . مناقب أبي إسحـاق الجبنياني . وأورد الداودي (كتـاب الاموال ، ص 53–54) ذكر الحمى عند حديثـه عن احياء أرض الموات القريبة من العمران بإذن من السلـطان ، ومما جاء فيه : « وثبت أنّ النبي عليه السلام قـال : لا حمى إلاّ لله ولرسوله ، فكان يحمـي الصحراء التي ليست بملك لأحد لمـال الله .» وعرّف ابن سلاّم (**كتاب الاموال** ، ص 64) الحمى بكونها " أرض" يحتجزها بعضهم دون بعض مثل الاقطاع والاحياء .

(2) الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص 107–109 . الوزان ، وصف **إفريقـيا** ، ج II ، ص 85– 87 . وذكر البكري (**مسالك** ، ص 30) ربض الحمى بالمهدية ، وهو مسكن للاجناد .

وحسب أحد الدارسين ، مـعنى مراكش هو حمى الله ، بارتباط بعهـود الحماية المبرمة بين قبـائل الجبل وأهل السـهل : **أعمال ندوة حول مراكش** ، ص 18 .

غير أنّ تدهور البنية الأساسية للزراعة نجم عنه تلاشي الضياع المحيطة بمدينة القيروان ، وتراجع المجال الزراعي حولها ، ولم تعرف الفترة الحفصية ظاهرة الضياع الشاسعة ، المخصّص إنتاجها للتسويق إلاّ نادرا ، من ذلك الضياع التي اقتناها محمّد الرميمي الأندلسي ، عند استقراره بمدينة تونس (1) .

الفحوص والمروج : الفحص هو ما استوى من الأرض ، وهو مصطلح استعمله العرب منذ الفترة الإسلامية الأولى للدلالة على الناحية الزراعية للمدينة ، وشبيه بهذا ما كان يطلق عليه : البرتيكا (pertica) ، والظاهر أنّ مفهوم الفحص مقترن بزراعة الحبوب أساسا ، ومنذ العهد الأغلبي ، ذكرت النصوص عدّة فحوص : فحص سوفجين قرب طرابلس ، وقد اشتهر بإنتاجه الوافر للحبوب ، وفحص أبي صالح الواقع بناحية المدينة القديمة ، طبربة الكبرى (Thuborbo Majus)، وفحص بلّ الذي لا يعدو أن يكون تعريبًا لبُولاّ ريجيا أو بلاّ الملكيّة (Bulla Regia)، وفحص القيروان وفحص تونس وفحص مرناق الذي كان به 360 قرية في القرن الأوّل هـ ، وقد ظلّت هذه التسمية قائمة في العهد الحفصي (2).

–وتواصل استعمال هذا المصطلح ، للدلالة على الأراضي الزراعية القريبة من المدن ، والمتموضعة في السهول والبسائط الخصبة ، بما فيها أراضي الدّولة ، وفي هذا الصدد ذكرت المصادر فحص تونس وفحص مرناق ، الذي اشتهر بجودة الزيتون ، وكانت توجد به عدّة قرى منها ابيانة وقرجانة وشاذلة وأوذنة ، وفحص طبربة حيث قرية المهرين ، وفحص أبي فهر وأريانة ، الخ .. وقد تحوّلت هذه الفحوص في فترات التوتّر بين البدو والحضر إلى مناطق نزوح في اتجاه مدينة تونس (3) .

–*أمّا الفدّان*، فهو يطلق في الأصل على البقر التي يحرث عليها ، ثم أصبح يعني المزرعة، وهو وحدة قياسية لمساحتها ، كانت مستعملة في عدّة بلدان إسلامية (4).

وخلافا لذلك ، فإنّ الهنشير لا يمثل وحدة معيّنة ، إنّما هو أراض شاسعة يتولّى السلطان إقطاعها ، وتخصّص لزراعة الحبوب ، وعادة ما تتموضع قرب المدن

(1) المالكي، **رياض النفوس**، ص 100 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص616.

(2) البكري ، مسالك ، ص 259 القاضي النعمان ، **افتتاح الدعوة** ، ص 168 ، 167 . المالكي ، **رياض النفوس** ، ص 37 ، ابن ناجي ، **معالم** ، ج I ص 68 ، ج IIص 29 ، ج III ، ص 71 .

وفي الأندلس ، ظلّت مواقع عديدة تحمل اسم الفحص ، مثل فحص المدينة وفحص مجريط ، راجع حول هذا الأمر :

Mikel de Epalza, la dualidad Campello-Fahs en El Espacio Agricola de Al Andulus In **Sharq Al Andalus**, 1987,n°.4, pp. 159-173.

(3) الدبّاغ، **مناقب الدهماني** ، ج I ص124 ، 36ب . مناقب التباسي ، ص111. التجاني، **رحلة** ، ص 5، 10 ، الزركشي، **تاريخ**، ص 46 .

(4) لسان العرب ، ج II ، ص 1063 . جاء على لسان أشياخ المصامدة عند تحديدهم لموقع مراكش : « نفيس جنانها، وبلاد دكالة فدّانها وزمام جبل درن بيد أميرها » (الحلل الموشية ، ص 16) .

الكبرى، والمندثرة . وقد ظهر هذا المصطلح لأوّل مرّة في القرن السابع هـ / XIIIم ، بناحية القيروان ، وكان يطلق على الأراضي الخصبة الواقعة مكان أطلال مدن ، دون أن تكون بالضرورة مدنا قديمة ، كما تدل عليها طوبونوميا الهناشير الوارد ذكرها آنذاك (مثل هنشير الخزازية) (1) .

– *المرج بين الاستغلال الزراعي والإستعمال الرعوي* :

يعتبر المرج في الأصل الأراضي الزراعية شبه المشاعيّة المحيطة بالمستقرّات السكنيّة ، كما أورد ذلك أبو يوسف ، إذ قال : **« انّ أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنّها لهم . فهي لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرّجل في ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلأ ولا الماء ، ولأصحاب المواشي أن يرعوا في تلك المروج ويستقوا من تلك المياه»** (2) .

ويضيف قائلا إنّ لكلّ قرية من قرى السّهل والجبل موضع ممرح ومرعى ومحتطب في أيديهم ، وينسب إليهم وترعى فيه مواشيهم ودوابهم يحتطبون منه وهي المروج ، وقد يأذنون للنّاس في رعي تلك المروج والاحتطاب منها ، ما لم يضروا بهم وبمواشيهم .

وقد حدّد النبي حرم المدينة بإثني عشر ميلا ، وحرم الصّيد بأربعة أميال حولها(3) .

لكن من الواضح أنّ المجال الرّعوي المحيط بالمدينة كان عرضة للإتّساع والتقلّص ، في إتجاه معاكس لحركة التعمير : فكلّما إمتدّت الأراضي الزراعية، كانت على حساب المروج . ولعلّ هذا ما يفسّر تسميات من صنف سواني المرج حول مدينة تونس (4) .

ويبرز هذا الاستغلال المزدوج للمرج : استغلال زراعي ورعوي ، وما يعني ذلك من اختلاف في التعامل مع المجال : حمايته بطابية أو تركه مسرحًا ، ورد في هذا الشأن ، **« وسئل (اللخمي) عن مرج فيه بساتين وزرع وهو محظر من بعض الجهات ومسرح من أخر ، حتى أنّه تصيب أهل المرج الغارة ، فألزمهم الوالي بضرب طابية من الناحية المختصّة ، ثم بعد ذلك أرادوا تزريب هذه الجهة ، فطلب**

(1) من المعلوم أنّ مدناً مغربية عديدة تركت مكانها لاسماء هناشير ، مثل منستير عثمان ومنزل الفلاحين ومنزل صلتان : التجاني، رحلة ، ص 22 ، 23 .

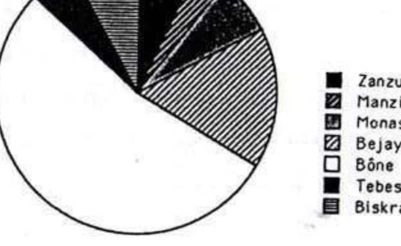
(2) أبو يوسف ، **كتاب الخراج** ، ص 225–226 .وقد ورد لفظ المرج في القرآن : سورة الرّحمان ، الآية 19. سورة الفرقان الآية 53 .

(3) ن.م. ، ص 227 .

(4) البكري ، **مسالك** ، ص 40.

إمتداد ناحية القرى والمدن

ع	التاريخ	الغابة - نوعيتها وامتدادها	المصدر
	بداية القرن VIII هـ/XIV م	غابة زيتون تمتد 5 أميال طولا و2.5 عرضا	التجاني، رحلة، ص120
	النصف الثاني من XII/VI م	بلغت دائرة غابة قلعة 10 أميال	الاستبصار، ص152
	القرن Xهـ/ XVم	ضيعة زيتون كانت لسحنون بمنزل بني خلاف، وقع احيازها- طولها 3 أميال	ابن ناجي، شرح، II، 91ب
	القرن VIIهـ/ XIIIم	حمى قصر الرباط(الزيتون) تمتد نحو 5 كم غرب المدينة	البرزلي، جامع، ج I، 58
	القرن VII هـ/XIV م	تحف البساتين بالوادي على طول 12 ميلا	العمري، مسالك، ص86
	القرن Xهـ / XVIم	تزرع أرضها على مجال يمتدّ 40 ميل طولا و25 عرضا .	ابن الوزّان، وصف، I، 61
	القرن Xهـ/ XIV م	يحيط بها على شعاع 4 أميال غابة من الجوز	نفسه، II، 63-65
		تمتدّ واحتها على طول 6 أميال (نخيل)	نفسه، II، ص134



أهل الأطراف أهل الوسط بنصيبهم من ذلك كما فعل بالطابية الأولى ، فامتنعوا ، وقالوا : الضرر إنما ينال الذين يلونها »(1) .

فالمرج هنا شبيه بمصطلح المزدرع (terroir) الذي يحتوي على الأراضي الزراعية والرّعوية. غير أنّ المصطلح اقتصر في أواخر العصور الوسطى على الدّلالة على الأراضي الرّعوية الموجودة في أطراف الغابة كما يبدو ذلك ممّا ذكرته المصادر من كون عرب حكيم كانوا ينزلون مرج الزّواغين حوالي مدينة تونس في النّصف الأوّل من القرن التّاسع هـ / XVم (2) .

وفي الجملة ، فإنّ تطوّر الخريطة العقارية للمدينة ونـاحيتها قد اقترن بتطوّر المصطلحات والمفاهيم الدّالة عليها : فلئن شهد استـعمال بعض المفاهيم تراجعا ، مثل الضياع (الملكيات الشاسعة) والحمى (الملكيّة شبه المشاعيّة حول الرباطات) ، فإنّ أخرى بدأت في الإنتشار ، مثل الهنشير . ولم يكن كل ذلك في منأى عن نظام ملكيّة الأرض وطرق استغلالها (3) .

4) البادية :

البادية لغة هي إسم للارض التي لا حضر فيها ، وإذا خرج الناس من الحضر الى المراعي في الصحاري، قيل : قد بدَوا، والاسم : البدو، ومنهـا اشتقاقات عدة : تبدّى الرجل أي أقام بالبادية، وتبادي تشبه بأهل البادية ، وقوم بُدّ وبُدّاء أي بادون (4) .

وتعرّض النص القرآني إلـى البدو والبادي، فضلا عـما خص به الاعراب من آيات، وعددها عـشر. كما وردت عـبارة أهل البادية أو البـادية عديد المرات في الاحاديث النبوية، منهـا : «عليه مسحة أهل البادية » و«من سكن الـبادية جفا»، إشارة الى طبيعة البادية القاسية وتأثيرها فى سلوك النفس البشرية، و«لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية»، لجـهله بأحكام الشرع، و«لا بيع حاضر لباد» لجهل البدوي بحوالة الاسواق . وتشير أحـاديث أخرى الى وجود علاقة طيبة بين الحضر والبدو ، فكان الرسول يخرج الى البادية التي يحبها ، وذكر أن « رجلا من أهل البادية كان يهدي للنبي الهدية » إلخ (5).

وفي الحقبة الاسـلامية الاولى ، استمرت هذه النظرة الخـاصة الى البادية ، حتى أن المهاجرين الأوائل كانوا يستـعيذون من التعرّب ، بمعنى سكنى البادية .

---

(1) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VIII ، ص425 . ورد في البرزلي (ن.م، ج II، ص 1265) لفظ البرج عوضا عن المرج، وان ثبتت هذه الرواية، فانّ ذلك يعني مدى قدم الابراج السكنيّة بافريقيّة.

(2) **مناقب ابن عروس** ، ص 210 .

(3) حول مفهوم الهنشير، راجع الفصل الخاص بتحبيس هنشير بن منصور بالمهديّة على رباط المنستير.

(4) ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج I ، ص 178 .

(5) محمد فؤاد عبد الباقي ، **المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم** ، بيروت ، د.ت. ، ص 456 ,116، المعجم المفهرس لالفاظ **الحديث النبوي** ، استنبول -تونس1987، ج I ، ص 156 .

وقال الحجاج بن يوسف لسلمة بن الاكوع لما سكن البادية : ارتددت على عقبيك ، تعربت ! مستنكرا بذلك ترك سكناه بالمدينة ، لوجود حديث مأثور في هذا المعنى . وبالتالي فان المصطلح قد ارتبط في بداية الاسلام بمجال القبائل البدو (1).

غير أن مفهوم أهل البادية أخذ مكانة أخرى في كتابات المؤرخين ومصنفات الفقهاء منذ العهد الاغلبي ، فكان يطلق في كتب الطبقات على المزارعين في الريف أساسا ، إذ جاء في المالكي حديثا عن بادية سوسة ، بمعنى ناحيتها ، كما أورد رواية هامة في شأنها ، وهي التالية : «[أتى رجل يقال له حسان بن شاكر الفقيه سحنون ، فسأله] :**أين غبت يا حسان ؟ فقال : في البادية ، أصلحك الله ، فقال له : إن لله تعالى نبيا في البادية . ثم قال : ما حال مسجدكم ؟ فقال له : كما تعرف البادية . فقال له سحنون : وإني لاظنه تفتل فيه الحبال . فقال له : نعم ، فما أصنع بهم ؟** (2).

ولئن كان مفهوم أهل البادية يشمل في العموم المستوطنين بالريف ، أي المشتغلين بالزراعة في القرى والمجاشر ، والضاعنين والمنتجعين ، فانه يبدو مقترنا في بعض التعريفات بالصنف الثاني أكثر من غيره ، ومن ذلك ما كتبه محمد بن سحنون في النصف الاول من القرن الثالث هـ /التاسع م :

« كل من على ظهر يرتحل وينتجع ، فهو بدوي ، وكل قاطن مقيم مستقر فهو حضري، سواء كان في قرية أو مدينة أو مجشر » (3).

وأصبح هذا المصطلح أكثر اقترانا بالترحال في العصر الوسيط الثاني ، بعد سيطرة الاعراب ، فتعددت مرادفاته مثل أهل الوبر بالمقابلة لسكان المدر ، وأهل العمود نسبة الى الخيام التي تعمد ، أي تنصب ، وأهل الابل والشاوية ، القائمين على الشاء والبقر ، وأهل الغارة ، باعتبار أن طبيعة عيشهم تقتضي منهم الاستناد الى الرماح ، والضواعن الرحالة ،الذين يحطون بالحلة ، أو النزلة ، فينصبون أوتاد الخيام ، ويوقدون النار في الاثافي ، ويتنقلون من نزلة الصيف الى نزلة الشتاء (4).

واعتبارا لتطور العلاقة بين أهل البادية وأهل الحاضرة ، أو البدو والحضر في

(1) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 217 –216 (كان المهاجرون يستعيذون من سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة ، بناء على حديث نبوي :« اللهم أمْض لاصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » .

(2) المالكي، **رياض النفوس**، ج I ، ص 368 . 369 ج II ، ص 224 . يحيى بن عمر ، **أحكام السوق** .

(3) محمد بن سحنون ، **الاجوبة** ، الفصل الاول (الشهادة) .

(4) حول هذه المصطلحات ، انظر : ابن خلدون ، **المقدمة** ، فهرس لغة ابن خلدون . ابن ناجي ، **معالم الايمان** ، ج IV ، ص177 (الشاوية) . البرزلي ، **جامع مسائل الاحكام** ، ج I ، ص 206 (أهل العمود) . القلشاني ، **شرح الرسالة** ، ج II ، ص 125 ب (أهل الابل) . الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 332 (أهل الغارة) .

تلك الحقبة ، برزت هذه الثنائية في مصنفات المؤلفين ، وكانت أحد محاور الفكر الخلدوني التي أثارت تحاليل متباينة ، وظلت حدود مفهوم البادية غير دقيقة ، حتى أنها كانت تطلق في بعض الاحيان على كل المجال الموجود خارج الحواضر ، وفي العموم شملت مجالين أساسين :

– الريف ، وهو مرتبط بالزراعة والخصب في المعاش ، حسب التحديد الخلدوني. وقد عدّ أهله في بعض الاحيان من بين أهل الحضر .

– الفيافي والصحاري ، التي تشكل المجال الحيوي للقبائل البادية والضاعنة في حلّها وترحالها (1).

واقترن هذا المفهوم عصرذاك بآخر ، يعني في جذوره انتماء اثنيا ، وفي معناه الواسع نمط عيش مرادف للبداوة ، وهو مفهوم الاعراب الذي ورد ذكره منذ العهد الاسلامي الاول ، دون أن يحظى بأهمية كبرى وقتذاك لسيطرة العمران الحضري في بلاد المغرب ، لكنه طفح على السطح من جديد ابتداء من القرن الخامس هـ/ XI م ، بعد أن عمّ التبدي .

والاعراب في جوهره مصطلح قديم ، أطلق على البدو من العرب ، وخصه القرآن بعدة آيات تبيّن طبيعة العلاقة القائمة بين الأعراب وبين مدينة يثرب عصرذاك ، وتشير الى مدى تعنت القبائل الطرفية ، ومخالفتها وضعف إيمانها (2) .

وعرف الاعرابي في لسان العرب بكونه بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبّع لمساقط الغيث ، وهو الذي يحضر الماء شهور القيظ لحاجة النعم الى الورد، وان كثرت الامطار والتف العشب ، استغني عن المورد، وقد يكون من العرب أو من مواليهم (3) .

أما الاشتقاقات الاخرى للمصطلح ، فهي بدورها متعددة ، ومن بينها :

العربان ، الذي ورد ذكره في موطأ مالك بن أنس منذ القرن الثاني هـ، غير أنه ظهر في صورة جديدة في العهد الحفصي ، لا تخلو من مسحة تحقيرية .

كما كان مصطلحا العرب والعربي مقتصرين في كثير من الاحيان على الاعراب البدو، ليس في تاريخ ابن خلدون فحسب كما ذهب الى ذلك بعض الدارسين ، انما منذ القديم ، أذ ذكر الاخباريون في حديثهم عن عمر بن الخطاب العرب ، بمعنى

(1) حول مفهوم الريف ، انظر : ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 153،120 . خليل مردم بك ، كتاب الاعرابيات ، ص 4 .

(2) وردت أيات عدة في هذا المعنى ، أهمها : ان الاعراب أشد كفرا ونفاقا (سورة التوبة ، الآية 97) . قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا (سورة الحجرات ، الآية 14) . راجع أيضا : سورة التوبة ، الآية 101، 110 . وسورة الفتح ، الآية 11 .

(3) ابن منظور ، **لسان العرب** ، مادتي إعرابي وعرب .

الأعراب . وكما وقع إحياء مصطلح البدو مع بني هلال ، فان مصطلح العرب برز من جديد في سائر المصنفات التاريخية والفقهية للعهدين الموحدي و الحفصي ، مما ينهض حجة على أن المقصود بالعرب في كل هذه المصنفات هم الأعراب لاغير(1).

ومما له مغزاه أن مصطلح الاعراب لم يعد مقتصرا على البدو من العرب ، إنّما اتسع معناه، وأصبح يطلق على المجموعات البدوية المنتمية الي أصول مختلفة ، من بربر وعجم ، وحسب التعبير الخلدوني « العرب ومن في معناهم » ،وذلك نتيجة تعرّبها لغة وسلوكا وحضارة ، وانصهارها في المجموعات الهلالية والسليمية المتغلبة، حتى أضحت القبائل البربرية الكبري مثل زناتة وهوارة تنتسب الى أصول عربية قديمة، من قحطانية ومضرية ، فتحسب في عداد الاعراب لضعنهم وترحالهم .

كما نسب كثير من المداشر والقرى القديمة الى أصول هلالية وسلمية ، فسوق بدرنة الذي ورد ذكره في مناقب أبي إسحاق الجبنياني على سبيل المثال من بين القرى القريبة من جبنيانة ، امّحت رسومه في العهد الحفصي ، وأصبحت المجموعة المنتسبة اليه، وهي البدارنة ،تنتجع فيما قرب من الرحلة ، شأنها في ذلك شأن سائر البطون السليمية، من بني علي ، النازلة في جوارها ، وهو ما يفسر انتساب البدارنة خطأ الى بني علي حسبما ورد ذلك في تاريخ ابن خلدون(2) .

وبالتالي لا يذهب بنا الظن الى اقتصار مفهوم الاعراب على المجموعات الهلالية النازلة ببلاد المغرب ، إنما اتسع معناه وشمل عدة قبائل ومجموعات بربرية معربة وبذلك عرف مفهومه انزياحا من المستوى العرقي الى آخر مرتبط بنمط العيش. مما يفسر مدى أهمية هذا المصطلح في هذه الحقبة.

– *جدلية البدو والحضر عند ابن خلدون أو نشأة المدينة من الريف:*

فرّق عبد الرحمان بن خلدون بين نوعين من العمران : العمران البدوي **«في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال»**، والعمران الحضري **« بالامصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها »**. ويبدو كلاهما مقترنا بمجال محدد وطرق للعيش مختلفة عن الآخر : فالقائمون على الفلح وعلى الحيوان تدعوهم الضرورة الى البداوة، لتوفر الاطار المناسب للقيام بهذه الانشطة (3) .

---

(1) مالك بن أنس ، **الموطأ** ، بيروت 1983، ص 510. حول مصطلحات : أعراب ، عرب ، عربي ، عربان ، أنظر مثلا ابن عذاري ، **البيان** ، ج III. البرزلي ، جامع **مسائل الاحكام** ، ج III ، ص 139 ، 58ب ، 167.
(2) **مناقب أبي إسحاق الجبنياني** ، نشر الهادي إدريس ، ص36 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 165.
(3) ابن خلدون ، **المقدمة** ، دار الكتاب اللبناني ، ص 67 ، 210 .

وعلاوة على كون البداوة نمط عيش في الاساس ، فانها تستند كذلك الى البنية القبلية، القائمة بدورها على العصبية وعلى شرف النسب ، وتعدّ هذه الأخيرة مرجعية أدبية لم يستغن عنها أهل المدن أنفسهم ، حتى أن **«كثيرا من أهل الامصار الناشئين في بيوت الاعراب أو العجم موسوسون بذلك »** .فقد تطور علم النسب بالبادية المغربية في خط مواز للتطور السياسي والاجتماعي : فقبيلة زناتة ادعت الانتماء الى أصول عربية ، وقالت قبيلة بني توجين ، وهي بطن منها ، إنها من زغبة ، فيما انتسب الدواودة شيوخ رياح الى البرامكة ، وبنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة الى ولد أبي بكر الصديق (1) .

ولكن مهما اختلفت الانتماءات البشرية والاجناس ، فالذي يشتغل في الفلاحة أو ينتحل القيام على الحيوان بأنواعه ، **«تدعوه الضرورة ولا بدّ الى البدو»** . ومن الواضح في هذا الصدد أن مفهوم البدو يشمل في الآن نفسه البدو الرحل والمزارعين المستقرين (2) .

ويتم الانتقال الى مرحلة العمران الحضري إذا توفّر فائض في الانتاج الزراعي بالبادية ، قادر على توفير المعاش للمشتغلين في الصناعة والتجارة والسياسة . فالمجتمع الحضري يلد من رحم البادية ، وهي نظرية أثبتتها الدراسات التاريخية والأثرية المعاصرة ، غير أن ابن خلدون توصل اليها من قبل بطريقة حدسية ، إذ قال : **«ثم اذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة ، واستكثروا من الاقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحضر »**(3) .

وهكذا فانه يتم الانتقال من العمران البدوي الى الحضري بتدرج ، دونماوقوع نزاع ، ومن هذا المنطلق تتضح لنا النظرة الخاطئة لبعض الباحثين الذين ركزوا في دراستهم للنظرية الخلدونية على التناقض بين البدو والحضر ، والحقيقة أنها لا تعدو أن تكون ظاهرة محدودة زمانا ومكانا، مقترنة بالازمات وفترات التوتر (4).

---

(1) المصدر نفسه ، ص 236 ، 223–222 .
(2) المصدر نفسه ، ص 211 .
(3) نفس المصدر والصحيفة ، راجع أيضا : هشام جعيط ، نظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدين ، **الحياة الثقافية** ، 1980 ، ص 239–234 .
(4) ركز بعض الدارسين المستشرقين والعرب على التناقض بين البدو والحضر ، أو بين العمران البدوي والعمران الحضري . انظر مثلا:
R. Brunschvig, **Hafsides**, TI,p.165.
.E.F Gautier, **Le passé de l'Afrique** du Nord, Paris 1952

ومما يأتي شاهدا على هذا التباين التدريجي بين العمران البدوي والعمران الحضري وعدم صحة مقولة التناقض بين الطرفين ، استحالة اختزال البداوة في صنف واحد ، وتفرعها الى أنماط متباينة : سكان القرى والجبال ، والبدو الشاوية والجمالة الضاعنين في الترحال :

«فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح ، كان المقام به أولى من الضعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبل ، وهم عامة البربر والأعاجم ، ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر ، فهم ضعن في الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم ، فالتقلب في الارض أصلح بهم ، ويسمّون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة ، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.

وأما من كان معاشهم في الابل ، فهم أكثر ضعنا وأبعد في القفر مجالا ، لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفاءة هوائه وطلبا لماخض النتاج في رماله ، إذ الابل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا ، وأحوجها في ذلك الى الدفاءة . فاضطروا الى ابعاد النجعة ، وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضا ، فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم ، فكانوا لذلك أشد الناس توحشا»(1).

وبالتالي ، فانه ثمة تدرج من مجال الجبال والقرى ، وهو عنصر الربط بين البدو والحضر، الى مجال الشاوية في المناطق السباسبية وشبه الصحراوية ، الى الصحراء حيث الضاعنون في الرحلة . وتفسّر هذه التراتبية انتقال العلاقة بين البدو والحضر من ثنائية الى علاقة متعددة الأوجه والاطراف ، لا مكان فيها للاختزالات البسيطة.

وتنعكس هذه الرتبية على المستوى الجغرا–سياسي في تنوع العلاقة بين السلطة والقبائل : فاذا كانت القبائل المخزنية تتولى أمر الجباية وعسكرة الاجناد ، وتعبئة الجيوش المحاربة في صفوف الدولة ، فان القبائل الغارمة كانت خاضعة للنظام الضرائبي الذي تشرعه الدولة ، وتسهر على تطبيقه قبائل المخزن ومحلة السلطان ، وهذه القبائل في الغالب من أهل البادية المستقرين والمشتغلين بالفلح ، الذين نعتهم ابن خلدون بالمستضعفين ، باعتبار أن المغرم موجب للمذل (2)

---

(1) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص 213–212 . أنظر أيضا : ناصيف نصار ، **الفكر الواقعي عند ابن خلدون** ، بيروت ، دار الطليعة ، ص 240–238 .

(2) ابن خلدون ، ج I ، ص 249، ج VI ، ص176.

و مما جاء في المقدمة حول هذا الموضوع : **«إن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه ، لان في المغارم والضرائب ضيما و مذلة لا تحتملها النفوس الأبيّة الا اذا استهونته عن القتل و التلف، وان عصبيتها حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية »**(1).

وصفوة القول ، يعتبر استخلاص الضرائب المؤشر الأساسي لامتداد نفوذ الدولة الى بعض البوادي والأرياف، فيما تظل مجالات أخرى خارجة عن نطاقها .

إنها القبائل الموجودة في النطاق ، على حد تعبير صاحب المقدمة ، والقبائل النافرة كما سماها ابن الخطيب ، و هي في مفاهيمنا المعاصرة القبائل النابذة التي ليست بالضرورة قبائل طرفية . و هي في الغالب لا تدفع الجباية و لا تخضع للسلطة المخزنية لقوة شوكتها و لحمة عصبيتها ، التي تبرز و تتقوى عندما تكون القبيلة مستقلة عن المركز ، ولا تدفع المغارم ، من ذلك قبيلة زناتة التي بلغت عصبيتها الى درجة الملك، و صنهاجة اللثام و الأكراد و التركمان . فكلما كانت القبيلة وحشية، قويت عصبيتها، واتسع مجالها ، ويفسر ذلك بكون« **هؤلاء المتوحشين ليس لهم وطن يرتافون منه ، و لا بلد يجنحون اليه ، فنسبة المواطن والاقطار اليهم على السواء . فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلدان ، ولا يقفون عند حدود أفقهم ، بل يظفرون الى الاقاليم البعيدة و يتغلبون على الامم النائية»**(2) .

وهكذا تفضي عصبية القبائل الضاعنة في الترحال الى الملك ، و ينتهي بهم الامر الى الاستقرار بالمدينة التي قامت بدور مركز انتقال الى السلطة .

والعصبية هي اللحمة المتكونة بين القبائل المتجاورة ، «للحماية و المدافعة والمطالبة » .و على حد قول ابن خلدون ، **«القبيل الواحد اذا كانت فيه بيوتات متفرقة و عصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها ، وتتبعها و تلتحم جميع العصبات فيها ، وتصير كانها عصبية واحدة كبرى ، و الا وقع الافتراق المفضى الى الاختلاف و التنازع »**. فالقبيلة الأقوى تكون القطب الجاذب لبقية القبائل والعشائر، التي تنضم اليها في مرحلة أولى، قبل أن تنطلق لغزو بقية العصبيات المجاورة ، ثم الاستظهار على الدولة والتغلب عليها، اذا ما بلغت مرحلة الهرم (3).

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 249 .التاريخ ، جVI ، ص 176.

(2) المصدر نفسه ، ص 251 – 255 . تحدث ابن الخطيب (**الاحاطة** ، ج I ، ص317) عند ذكره لمبايعة الدعي ابن أبي عمارة عن العرب النافرة .

(3) المصدر نفسه ، ص245 –246 . انظر أيضا: محمد عابد الجابري ، **العصبية و الدولة** ، الرباط 1982 .

ولئن انقرضت الدولة العصبوية ، أو العضوية على حد تعبير أحد الدارسين، من بلاد المغرب بعد القرن السابع هـ/ الثالث عشر الميلادى ، فان آلياتها بقيت أنموذجا مفسرا لجدلية البدو والحضر فى الفترة الأخيرة من العصر الوسيط .

فالعلاقة بين هذين الطرفين كانت تتطور فى خط مواز لتطور العصبية القبلية، منتقلة من مرحلة خضوع الأول للثانى في حالة وجود سلطة قوية،الى العكس. فعند وصول العصبية الى الملك ، تتمكن القبيلة من بسط نفوذها على السلطة، وبالتالي على المدينة ، و ينزع رجالها الى ترك البادية و الاستقرار بالمدينة والتحضر، ويُمْحَى تدريجيا ما بقي عالقا بهم من الحنين الى البادية و سلوكياتها وطرق عيشها ، حتى يفقدهم انغماسهم فى ترف الحياة بداوتهم وشجاعتهم .

وكيفما كان الأمر فإن التواصل هو السمة الأساسية في العلاقة الحضرية-البدوية، اذ يستحيل على أي طرف كان الانطواء على نفسه ، و الاكتفاء بانتاجه، بمن فيهم الضاعنين في الرحلة ، البعيدين عن الأمصار .لكن هذه العلاقة لاتخلو من غالب ومغلوب ، فالبوادي من القبائل و العصائب مغلوبون لأهل الأمصار ، لأن حاجتهم الى الأمصار في الضروري من الصنائع والنقود ، فيما تقتصر حاجة الأمصار اليهم في الحاجي و الكمالي ، حسبما أقر ذلك صاحب المقدمة . كما تفسر هذه الهيمنة بكون الحواضر مقرا للسلطة والنفوذ . فكلما كانت الدولة قوية، أحكمت سيطرتها على البوادي والأرياف(1).

و يخضع التحضر و التمدن بدوره الى هذه الرؤية التطورية شأنه فى ذلك شأن البداوة . فالمدينة تنتقل من مرحلة النشأة الى التطور ثم الاندثار، و في المرحلة الأولى، تلد من رحم البادية ، عند تحقيق فائض في الانتاج الزراعي :**«ثم اذا اتسعت أحوال المنتحلين للمعاش حصل لهم ما فوق الحاجة، من الغنى والرفه، دعاهم ذلك الى السكون و الدعة ، و تعاونوا في الزائد على الضرورة ، و استكثروا من الأقوات والملابس و التأنق فيها وتوسعة البيوت و اختطاط المدن و الأمصار للتحضر»** (2)

ويقع تعمير المدينة بواسطة حركة بشرية ذات اتجاه واحد ، من البادية الى الحاضرة، لأن**«التمدن غاية البدوي يجرى اليها»**، بينما لا يتشوف الحضري «لأحوال البادية الا لضرورة تدعوه اليها أو تقصير عن أحوال أهل مدينته»(3) .

(1) المقدمة ،ص 245.
(2) المقدمة ،ص211. هشام جعيط ، نظرة ابن خلدون... **مجلة الحياة الثقافية** (عدد خاص حول المدينة).
(3) نفس المصدر ،ص211 .

ويشمل النزوح البدوي الذي يغذي الديمغرافية الحضرية عبر موجات متتالية كلا من الناحية القريبة من المدينة و البادية البعيدة عنها ، بنسق متفاوت، حسب الظرفية التاريخية . و لعل من أهم خصائص هذا النزوح في الفترة المدروسة أنه كان قسريا في بعض الحالات ، ناجما عن الضغط البدوي.

وسواء وقعت الهجرة نتيجة ازدهار اقتصادي أو خوفا من سكن القرى والمداشر، فان المدينة تبدو قطبا جاذبا للبدو المجاورين لناحيتها، لا النازلين في نطاقها.

وهكذا يقع تجديد متواصل للتركيبة البشرية بالحواضر، عن طريق هذا المعين الذي لا ينضب و الوافد عليها من البادية ، وهو مانلحظه بوضوح في مدينة تونس على عهد بني حفص .

وحصيلة القول ، فان القانون الذي يقود المنحى الاتجاهي لحركة الهجرة ، هو أولوية خشونة البادية على رقة الحضارة ، **«فالبدو أصل للمدن و الحضر وسابق عليهما... و مما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنّا اذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولوية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه »**(1)

أما مرحلة التطور الحضري ، فانها تتجلى في ما تبلغه الحياة اليومية من رقي، فى الملبس و المسكن والغذاء، و في تقدم تقسيم العمل، فلا يقتصر الانتاج على القطاع الزراعي، انما يتخصص عدد من أهل الحضر في الحرف و الصنائع والتجارة . و بهذا تحقق المدينة النقلة من اقتصاد الكفاف الى أخر يعتمد على تبادل السلع والبضائع المصنوعة.قال ابن خلدون فى هذا الصدد:

«ثم تزيد أحوال الرفه و الدعة ، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ و انتقاء الملابس الفاخرة فى أنواعها من الحرير و الديباج وغير ذلك ، ومعالاة البيوت و الصروح واحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها . فيتخذون القصور والمنازل ، ويجرون فيها المياه و يعالون في صرحها ، و يبالغون في تنجيدها ، و يختلفون في استجادة ما يتخذونه من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون .و هؤلاء هم الحضر، و معناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان . ومن هؤلاء من ينتحل فى معاشه الصنائع ، ومنهم من ينتحل التجارة » (2) .

(1) المقدمة ، ص 214.
(2) نفس المصدر ، ص 211 .

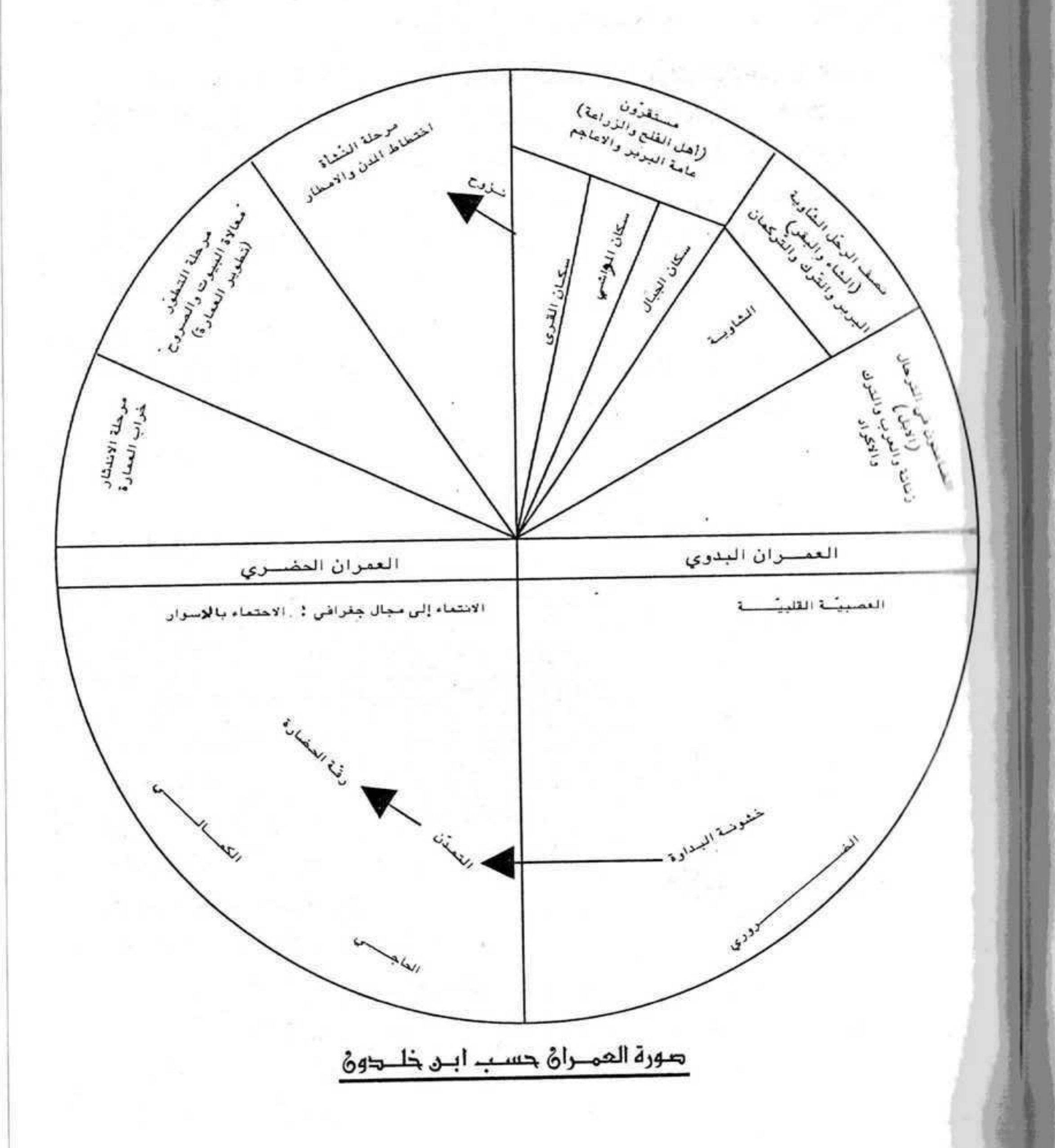
و إذا كان مصير المدينة عند ابن خلدون مأساويا، أسوة بما نال القيروان وبغداد من ضمور ، و اقتداء بما جاء في المصادر من حديث عن خراب المدن والقرى ، فان صلتها مع البادية تبقى قائمة في هذه المرحلة النهائية من وجودها ، ناهيك أن انقراضها يتم عادة على يد البدو المحيطين بها ، بعد أن تصبح عاجزة عن الدفاع عن نفسها (1) .

وهكذا يتضح أن هذه النظرية الخلدونية ذات الصبغة التطورية تعتبر أن المدينة تنشأ من رحم البادية، وذلك خلافا للرؤية الماركنتيلية التي ربطت المدينة المغربية بالتجارة الخارجية، وخاصة تجارة بلاد السودان، و التى تبناها عدد من الباحثين مثل لومبار .

وبالتالي فان جدلية البدو و الحضر قائمة في أكثر من ميدان ،فالبدوي يحتاج إلى البأس « للمدافعة و الحماية » ، فيما يحتمي الحضري بالأسوار و توكل مهمة الدفاع للجند ، كما كان البدو خزانا للأنساب والأخبار ، فيما تختلط الأنساب عند أهل الحواضر ، الذين يعتمدون الحيز الجغرافي المرجعية الأساسية في انتسابهم ،حتى أن عمر بن الخطاب قال : «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد ،اذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا»

وفي الجملة فان هذه الجدلية اصطبغت بسمة التدرج و التواصل، حتى أن التناقض لا يكون الا بين الضاعنين في الترحال و المنغمسين في ترف التمدن . ولئن كان الحضر قد ساهموا في التطور الحضاري والمعرفي، فان البدو كانوا خزانا للمثل و القيم الانسانية . فهذان العنصران متلازمان في تاريخ المغرب، ولا يمكن لاي دراسة جدية وموضوعية الاستغناء عن واحد منهما أو غض الطرف عنه.

(1) راجع الآيات القرآنية التى تتحدث عن خراب القرى .و قال المقدسي (**أحسن التقاسيم** ،ص83) ، مستشعرا المصير المأسوي الذى آلت إليه بعض المدن الاسلامية : « اعلم ان بغداد كانت جليلة فى القديم ، و قد تداعت الآن .»



صورة العمران حسب ابن خلدون

الفصل الثاني : تطور المجال البدوي :جدلية القبائل والمخزن :

تميّزت الخارطة القبلية بالتعقيد وعدم الثبات ، لاقترانها بالتطورات الجغرا- طبيعية والسياسية : فقد شرعت كثير من القبائل في المناطق التلية في الاستقرار، بعد أن توالدت وكثرت بطونها وتفرعت ، وانتقلت الرئاسة فيها من واحدة الى أخرى .لكن كثيرا منها ظل ظاعنا في الترحال ، متنقلا من مجال الى آخر . وقد تبع هذا التطور في نمط العيش وعلاقات الانتاج ، تحول في طبيعة العلاقة مع السلطة : فالصنف الاول أضحى من بين القبائل المخزنية ، التي تعتمد عليها الدولة في الجباية والحرب ، فيما تميز الطرف الثاني بالاستقلالية والحرابة.

وقد اعتمد المخزن الحفصي على صنفين من القبائل لاخضاعها : الاول القبائل القريبة من المدن الكبرى ، والثاني القبائل الطرفية النائية ، التي استعملت لتطويق المعارضين ولايقاف التوسع الزياني ، فكانت بمثابة الثغور المتحركة للدولة .

I. في البلاد الغربية (بنو هلال):

1) القبائل المخزنية في الاطراف : الاثبج وزغبة :

أ) الاثبج : قبيلة غارمة :

تعتبر إحدى القبائل الهلالية الأوفر عددا ، والاكثر بطونا ، النازلة بالمثلث : قسنطينة -الزاب - الحضنة .وانقسمت الى مجموعات ثلاث كبرى : المشرق ودريد وكرفة . ولئن لم تظهر بوادر الانقسام إبان حلولها بافريقية ، ودخولها في نزاع مع صنهاجة ، فان الحرب أضحت سجالا بين دريد من ناحية والحلف المكون من قرّة والمشرق (كرفة وعياض) ،في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر م . وقد تعرضت أنذاك بعض فروعها من المشرق ، وهي عاصم ومقدم شأنها في ذلك شأن قرة وجشم ، الى النقل القسري عهد الموحدين .

وبالتالي ، فان تراجع أهمية هذه القبيلة جعلها تفرط في سهول قسنطينة الخصبة لقبيلة رياح ، وتركن الى الاستقرار بقرى الزاب وجبل أوراس وغيرها.وهو ما يعني انتقالها من طور الى آخر ، من قبيلة محاربة الى قبيلة مخزنية . ويتضح ذلك جليا من خلال معالجة مجهرية لفروع الاثبج :

* كرفة : لقد اعتمدت السلطة الحفصية على قبيلتين في النطاق : بني سليم شرقا، وبقايا الاثبج من كرفة ،غربا ، لدحر القبائل الرياحية ، وتطويقها من الجهتين .

وكان الاقطاع السبيل الكفيل للحفاظ على موالاة هذه القبائل، وكان نصيب كرفة الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية (1)

لكن فترة ضعف الدولة الحفصية التي بدأت منذ نهاية القرن السابع هـ / الثالث عشر م، مكنت رياح من التغلب ثانية على كرفة ، وملك المجالات التي كانت تستعمل لضعنهم، ودحر كرفة الى جبل أوراس ، الذي اتخذته وطنا لها ، حسب التوزيع التالي: فأولاد سرحان(السرحانية) استوطنوا بالقسم الجنوبي الغربي لجبل أوراس ، بناحية تهودا. وكان لاولاد نابت المتمكنين من الرئاسة إقطاعات السلطان شرقي جبل أوراس وبلاد الزاب الشرقية . أما بنو محمد وبنو مروان (المراونة)، فقد بقوا على ضاعنتهم ، يكتالون أقواتهم من أهل الجبل ، ويتولون خفارة القوافل(2) .

وفي الجملة فان هذه القبيلة التي تطورت نحو الاستقرار ظلت في خدمة الامراء المحليين من بني مزني .

* دريد : كانت أشد القبائل بأسا عند دخول العرب لافريقية ، يترأسها الحسن بن سرحان بن وبرة .واستطاعت السيطرة على المجال الاكثر خصوبة ، الممتد من عنابة الى جنوب قسنطينة ، ثم حاولت التقدّم جنوبا الى أراضي الزاب للانتجاع شتاء، فصدها عن ذلك التحالف القائم بين كرفة وعياض وقرة .

وكلما عمدت بعض البطون الى الاستقرار ، تحولت الموازنات القبلية ، وانتقلت الرئاسة من فرع الى أخر أكثر بداوة : فاذا كانت الرئاسة لوبرة في القرن الخامس هـ/ XI م، عهد حسن بن سرحان ، فان أولاد عطية (وخصوصا بني مبارك) قد عوضوها فيما بعد ، ثم تلتها رئاسة عطاف (وخصوصا توبة ، بفرعيها وشاح ومبارك) في القرن الثامن هـ/ XIV م.

وفي الجملة فان قبائل عدة تحولت من الضعن الى الاستقرار، وما يعني ذلك من دفع الجباية والتجنيد، والتفريط في الرئاسة . وقبيلة أولاد عطية تأتي مثالا على ذلك : فقد عجزت عن رحلة القفر، بعد أن انتصبت قبائل كرفة وما والاها حاجزا أمامها في الجنوب، مما هيّأها للتفريط في الرئاسة للفرع المتغلب من دريد : أولاد توبة، وفقدانها لمجالها الواقع، قرب قسنطينة، لصالح نفس القبيل الدريدي : توبة (3) .

ومما يلاحظ أن التوازنات أو الصراعات تتطور داخل القبيلة ، من الأعم الى الأدق : فقد كانت في القرن الخامس هـ بين الاثبج وبقية القبائل الهلالية ، ثم انتقلت داخل

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 49-48 .
(2) **المصدر نفسه** ، ص 50.
(3) **المصدر نفسه** ، ص51-52 .

- الأثبج
  - مشرق
    - الضاحك
      - أبو عطية
      - منيع
        - كلب
    - عياض
      - الزبير
        - مسلم
          - حمّاد
            - سالم
              - جماعة
      - المهاية
        - [أ.ديفل]
        - الزير
        - المرتفع
          - أ.تبان
            - موسى
              - [محمد]
          - أ.حنّاش
            - [بنو السّلام]
          - أ.عبدوس
            - [بنوصالح]
        - الخراج
          - خفير
            - عبّاس
              - [زائدة]
      - أصخر
      - أ.رحمة
    - مقدم
    - العاصم
    - هنتنج
      - سرح
        - لطيف
          - خليفة
            - كسلان
              - اليتامى
                - ذوي طرف
                - أبي الخليل
                - معافي
                  - ذوي جبل
            - لقمان
              - محمد
                - علوان
                  - جرير
                  - جري
                    - محيي
                      - معن
                        - نزار
                      - ديفل
                        - مزنة
                          - علي
                            - حسن
                              - أحمد
                                - علي
                                  - عبد الواحد
                                  - فضل
                                    - منصور
                                      - عبد الواحد
                                      - يوسف
                                        - أحمد
                      - صبر
  - دريد
    - أولاد عطية
      - حبّاس
        - بنو مبارك
    - أولاد سرور
    - عبد الله
      - أولاد جار الله
        - سلاّم
          - عنان
      - عطاف
        - جبر
          - عطاف
            - توبة
              - فرج
                - كمّون
                  - عطية
                    - عطوة
                      - وشاح
                        - جماعة
                          - كثير
                            - سجم
                        - رشاش
                          - خليفة
                            - أحمد
                    - عابد
                      - مبارك
                        - عبيد
                          - منصور
                            - محمد
                              - نجاح
                            - عنان
                              - أحمد
                                - عبد الله
                            - عثمان
                              - راجح
    - وبرة
      - سرحان
        - بدر
        - حسن
  - كرفة
    - قاطن
      - مروان
      - عطيّة
        - كليب
          - محمّد
            - سهيب (الشبه)
            - فاضل
              - أ.صبيح (الصبحة)
              - أ.سرحان (السرحانية)
              - أ.ثابت
                - أ.مساعد
                  - مفتاح
                    - جابر
                      - أ.علي
                - أ.ظافر
                - أ.قطيفة
    - الأحيمر
    - بنو محمّد

الاثبج ، بين دريد من جهة ، وكرفة ومشرق من جهة ثانية ، وفي طور ثالث أصبحت داخل دريد ، بين أولاد عطية وتوبة التي انقسمت بدورهاالى رئاستين : وشاح ومبارك، وكلاهما تفرع الى مجموعات عدة : الاولى تضم سجم واولاد أحمد، والثانية : نجاح وعبد الله وراجح . وهو أمر مرتبط بالتطور السكاني والاقتصادي .

* مشرق : بعد أن قام يعقوب المنصور بنقل بطنين من مشرق ، وهما عاصم والمقدم، الى سهل تامسنا ، ظلت بافريقية ثلاثة بطون من مشرق ، وهي عياض والضحاك ولطيف .

• ـ عياض :نزلت كل من المهاية والزير والمرتفع والخراج وصخر ورحمة بجبل قلعة بني حماد ، في اتجاه خط أفقي شرق- غرب ، باسطة نفوذها على القبائل البربرية . ومنذ قيام الدولة الموحدية ، أصبحت تتولى جباية الاموال . وقد كانت رئاستها في القرن الثامن هـ/ XIV م بيد كل من الخراج والمرتفع ، التي برز من بينها أولاد حناش (أو الحنانشة) ، بعد أن تغلبوا على إخوتهم ، أولاد تبّان .

ـ الضحاك :وضع الموحدون حدا لنجعتهم في اتجاه صحراء سجلماسة ، فانتقلوا من الضعن الى الاستقرار ، نازلين ببلاد الزاب وبمدنها ، وهو ما سهل على الدواودة التغلب عليهم وعلى إخوتهم عياض . وكانت الرئاسة تتنقل داخلها بين فرعين : أبو عطية وكلب بن منيع (1) .

ـ لطيف : بعد أن « **قل جمعهم وافترق ملوكهم**» ، وفتكت بهم النزاعات الداخلية ، تغلبت عليهم رياح , وركنوا الى الاستقرار بمدن الزاب، مثل الدوسن وغربيوا وتهودا وتنومة وبادس، وأصبحوا من جملة القبائل الغارمة لامير بسكرة (2) .

ـ القبائل الملحقة بالاثبج : العمور : إعتبارا لقلة عددهم وفقدان الرئاسة فيهم، ابتعدوا عن الضعن، واستقروا «**بالضواحي والجبال**»، بين جبل أوراس وجبل بني راشد من جهة، والحضنة والصحراء من جهة ثانية. وانحسروا في هذا المجال الذي هو « **أقرب الى موطن القفر والجدب**»، دون تخطيه الى التلول التي أضحت في حوزة الدولة .

(1) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 54.
(2) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 55.

وتطوّر مصير هذا الشتات نحو الانصهار داخل القبائل الكبرى، والاستقرار بالمدن، حتى أنه لم يعد ذكر لبني قرة في القرن الثامن ، واقتصر الامر على بني عبد الله، الذين تفرعوا بدورهم الى أولاد محيي وأولاد زكرير ، ويبدو أن اسم شيخهم، يغمور بن موسى بن بوزير بن زكرير ، ينم عن الاصول الحقيقية البربرية لهذا القبيل ، الذين تعربوا بالمجاورة .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا القبيل الفسيفسائي التركيب انتمى الى الاثبج بالولاء، وأصبح في العهد الحفصي خاضعا لسلطة الدواودة ، وإمارة بسكرة ، فكان يجند في عسكر بني مزني ، ويقوم بخفارة القوافل .واذا كانت الحرب قد قامت بين فرعيها : أولاد شكر و أولاد زكرير ، فان بطنا آخر ، أولاد يحيى ، فضّل الاستقرار ،بعد أن تسرب اليها التصوف عن طريق شيخها (1) .

وحصيلة القول ، فان قبيلة الاثبج التي كانت قوية في القرن الخامس هـ / الحادي عشر ميلادي ، ضعفت عصبيتها في القرن الموالي بفعل السياسة الموحدية ، التي عمدت الى النقل القسري لبعض بطونها ، والاعتماد على بقية القبائل المنافسة ، مثل رياح ، للحد من تنقلاتها بين الصحراء والتلول . وقد انتهى بها المطاف الى النزول بالمثلث : قسنطينة – الزاب– الحضنة ، والتحول الى قبيلة غارمة .

ب) زغبة ، قبيلة مخزنية في أطراف الدولة الحفصية :

وردت في كتب الانساب تحت إسم : زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . وتعتبر من بين القبائل الاولى التي حلت بجهة طرابلس، منذ سنة 429 هـ/ 1030 م (2) .

وقد ظلت منتجعة في المجال الممتد بين طرابلس وقابس ، الى حد سنة 580 هـ/ 1184 م ، بعد أن تغلبت على الزناتيين من مغراوة . وكانت من بين القبائل التي لم تساند حركة بني غانية عند قيامها ، مفضلة بذلك الانحياش الى صفوف الموحدين، الذين رعوا لها هذا الأمر ، إذ كلفوها بالانتقال الى المجال الممتد بين المسيلة وتلمسان لحمايته من الملثمين ، وهناك أقامت عصبية الحلف مع أجوارها الزناتيين في الشمال : بني بادين.

وعندما تملك بنو زيان تلمسان ، دخلت زغبة التلول ، باعتبارها حليفة لزناتة،

(1) ابن خلدون ، **المصدر نفسه** ، ج VI ، ص 56-55.

(2) ابن الكلبي، **جمهرة**، ص 371، ابن حزم، **جمهرة**، ابن خلدون، ن.م.، جVI ، ص85. التجاني، **رحلة** 267 .

واستولت على عديد المجالات التي وضعت عليها أتاوة ، فيما تقدم المعقل المجاورون لها من الغرب ، ليأخذوا مكانها . ولكن ما أن تقوى حكم زناتة بتلمسان، حتى دفعت زغبة عن التلول ، فعادت منتجعة بالصحراء ، ولم تتمكن من التقدم الى التل والتحصل على إقطاعات الا في فترات الضعف (1).

ولئن احتوت زغبة على عدد هام من البطون ، منها : يزيد وعامر وحصين ومالك وعروة ، فان القبيلين الأوّلين فقط يخصان أطراف افريقية .

* بنو يزيد : اعتبارا لاهميتهم وقوتهم ، أقطعتهم الدولة الموحدية المناطق التلية الخصبة ، من أرض حمزة بناحية بجاية . وفي المقابل ، تولت هذه القبيلة المخزنية جمع الضرائب من القبائل البربرية ، مثل صنهاجة وزواوة .

على أن انتصاب السلطة الزيانية بتلمسان قد أدى الى اقتطاع هذه المجالات من وطن بجاية وبسط نفوذها عليها ، لكن ما أن ضعفت الدولة ، حتى تغلب بنو يزيد على هذه الاوطان ، وفرغوا لجبايتها الى حد نهاية القرن الثامن هـ/ XIV م .

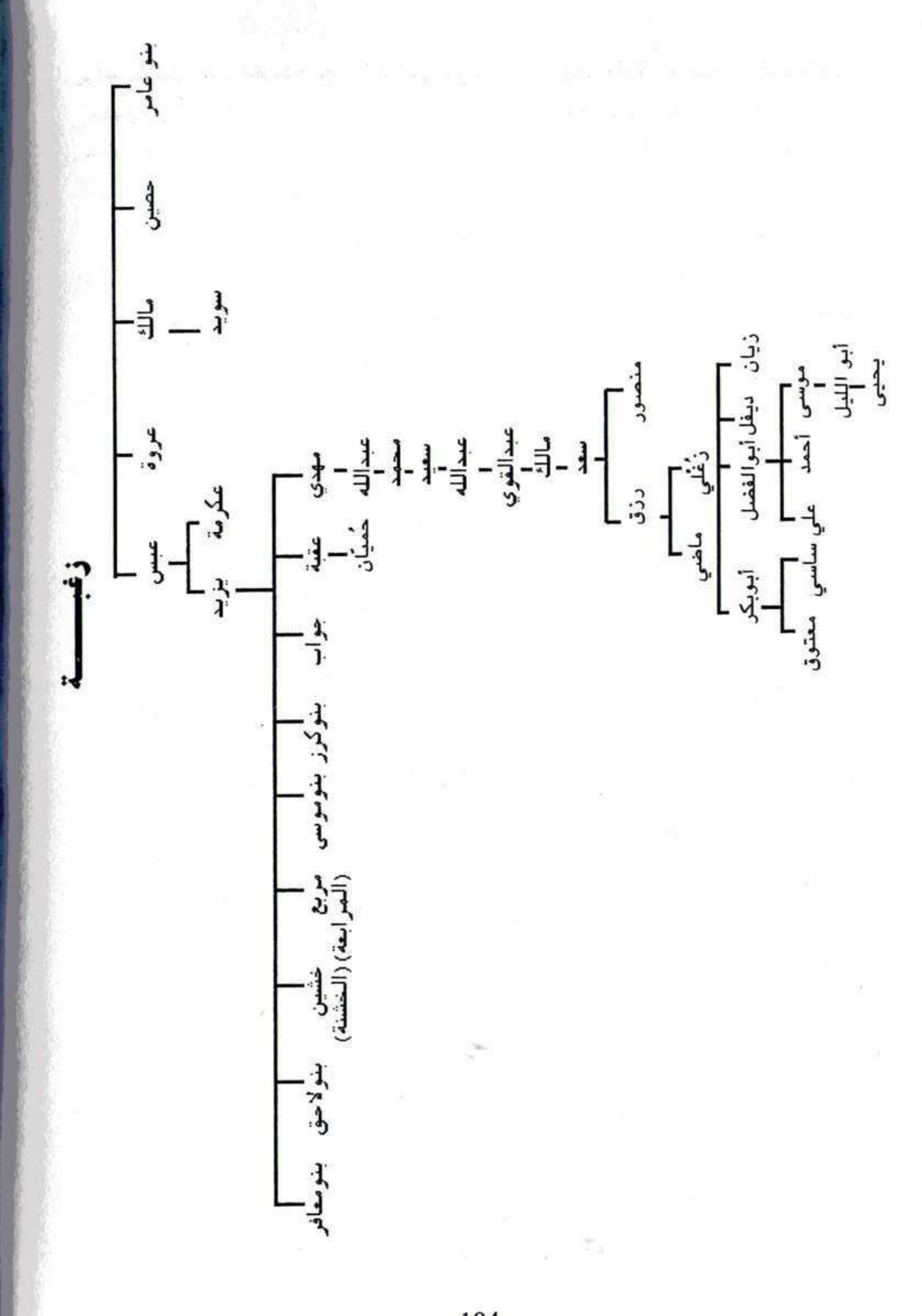
كما تصدت زغبة ، بفرعيها المتحالفين : بني يزيد وبني عامر ، لتحركات قبيلة رياح التي حاولت بسط يدها على وطن حمزة والدهوس في عهد المستنصر الحفصي ، لكن بدون جدوى .

ومن الملاحظ أن أحد بطون بني يزيد ، وهو المرابعة ، كان ينتجع في القرن الثامن هـ/ XIV م بضواحي مدينة تونس (2) .

* بنو عامر بن زغبة : كانت في البداية في حدود إفريقية ، ثم انتقلت جنوب تلمسان. تحالفت مع بني يزيد لمحاربة رياح في عهد المستنصر، على أن يدفعوا لها سنويا وضيعة من الزرع تسمى الغرارة ، وتحوي ألف غرارة ، وهو ما يأتي دليلا على بداية استقرارها. ثم أقطعها أبو زكريا بن السلطان ابي اسحاق إبراهيم ، بعد تغلبه على البلاد الغربية ، وطن الكدارة من بلاد حمزة . وعند قدوم أبي الحسن المريني ، فرت هذه القبيلة المخزنية الى الصحراء ، **«قاطعين العرق الرمل الذي هو سياج على مجالات العرب»** . وخلافا لرياح التي تحالفت مع الزيانيين ضد

(1) ابن خلدون ، ن.م. ، جVI ، ص 87-86.

(2) ابن خلدون ، ن.م. ، ج VI ، ص 90-87 .



أبي العباس أحمد الحفصي ، بعد استيلائه على بجاية ، فان زغبة لم تكن متحمسة لمساندة أبي حمو موسى(1) .

2) مجال قبيلة رياح السياسي :

تنسب الى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. وكانت من أهم قبائل هلال وأكثرها جمعا سنة 443هـ/ 1051م ، وذكر من بين رؤسائها : ذياب بن غانم ومؤنس بن يحيى الصنبري . واستطاعت في هذه الحقبة أن تستولي على المناطق الخصبة لناحية باجة (2) .

وبعد أن تمكنت من دحر القبائل المنافسة نحو الغرب (الاثبج وزغبة سنة 466هـ/ 1073م ، وعدي سنة 499 هـ/ 1105 م)، انفردت برئاسة بني هلال خلال القرن السادس هـ/ الثاني عشر ميلادي ، نازلة بالسهول التلية الخصبة .

وهو ما يفسر تنامي أعدادها : تحدثت إحدى الرسائل الموحدية عن «**اختلاف قبائلها وتعدد عشائرها وأتساع أفخاذها وعمائرها**»(3) .

لكنها لم تستطع أن تصمد طويلا أمام الآلة العسكرية الموحدية ، وعجز الحلف البدوي المكون من رياح وعدي والاثبج ، بقيادة أمير المعلقة محرز بن زياد ، عن التصدي لعبد المؤمن بن علي في موقعة سطيف التي فتحت باب إفريقية أمام الموحدين سنة 547هـ / 1153م . وابتداء من تلك الفترة ، دخلت القبيلة في صراع مع السلطة الموحدية –الحفصية ، في فصول عدة :

– معركة القرن سنة 556 هـ/ 1161 م : كانت القبائل العربية نازلة بالقرن، في زهاء ثمانين ألف بيت ، وعشرة آلاف فارس ، عندما باغتها عبد المؤمن بعد انسحابه الى ناحية قسنطينة ، وطوقها من الجنوب والشمال ، فثبت محرز بن زياد في المعركة ، فيما فر أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام المشهور بالبلط، ثم عاد سنة 576هـ/ 1180م ، كي يعلن الطاعة للخليفة أبي يعقوب يوسف، قابلا التحول معه الى المغرب الاقصى، كما فعل من قبله بنو محمد ، لكن ذلك لم

---

(1) المصدر نفسه ، جVI ، ص 109–107. ولا يستبعد أن تكون هذه القبيلة قد وصلت الى بلاد كانم ، واستقرت بعض فروعها في هذه المجالات. انظر : A. Babaker , **Les Rélations entre le Tchad et l'Ifriqya**, p.148

(2) ابن الكلبي، **جمهرة النسب**، ص371 . ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص 275 . ابن خلدون، **العبر**، جVI، ص 32، 69.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 301–300. ابن الاثير، **الكامل**، ج VIII ، ص195، 278. **رسائل موحدية**، عدد26، ص146–157. اتبع الزيريون سياسة فرق تسد تجاه هذه القبائل، فحرض الامير تميم بن المعز على نزاع رياح وعدي ، الذي انتهى بطرد الثانية من إفريقية . وفي عهد الامير الزيري علي بن يحيى (509–501 هـ/ 1116–1109 م) دار نزاع بين صاحب قابس ، رافع بن مكن الدهماني ، والزيريين حول المثلث :المهدية – القيروان – قابس، وكانت له نتائج وخيمة على التمدن بهذه الجهة .

يدم طويلا ،إذ فضل العودة الى إفريقية، والدخول في تحالف مع بني غانية (1).

– حركة بني غانية : منذ سنة 583–580 هـ / 1187–1184م، تكون حلف بين بني غانية وقراقوش و بني رياح ، وهي قوى مختلفة المنازع ، لا يجمع بينها سوى معاداتها للموحدين. وبعد أن تمكن الخليفة المنصور من التغلب على هذا الحلف، اعترف مسعود بن زمام من جديد بالموحدين، لكن هذا الشيخ ظل على خلافه، متقلبا بين قبائل بني سليم وبني غانية الى حد وفاته سنة 590 هـ / 1194 م (2) .

–وخلفه ابنه محمد بن مسعود على رأس رياح ، التي كانت لها مشاركة في حركة يحيى بن غانية ، بموقعتي تاجرا وتبسة (604–602 هـ / 1207–1205م) ، لكن الوالي الموحدي أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص تمكن من ضبط افريقية الى حد وفاته سنة 618هـ/ 1221 م، وبالتالي لم تستعد رياح نشاطها الا بعد هذا التاريخ، إذا جتمع لمحمد بن مسعود حلف من بعض بطون الاثبج (مثل الضحاك ولطيف)، مكنه من الاستيلاء على بعض البلاد التلية ، ومن إقطاع بلاد أبة (3).

لكن موت يحيى بن غانية سنة 631 هـ / 1233م كان بمثابة الاعلان عن نهاية تحركات هذه القبائل البدوية عامة، وانتشار رياح بالتلول ورئاسة محمد بن مسعود خاصة، وذلك بعد أن استقدم أبو زكريا الحفصي بني سليم من مواطنهم بطرابلس، لدحر الرياحيين غرب المربع الممتد بين بونة – تونس وقابس –نفطة (4) .

وبالتالي فقد ظلت قبيلة رياح في طور المعارضة طيلة العهد الموحدي ، راغبة في النزول بالتلول ثانية وعدم الانقسام والتشتت ، غير أن ذلك الامر لا يحجب عنا الضعف الذي اعتراها من جراء سياسة النقل القسري لبعض فروعها ، وخاصة بني محمد ، الذين استقروا بسهل تامسنا وبلاد الاندلس ، وهو ما أقعدها عن التصدي للآلة العسكرية الموحدية المتطورة ، والاستقرار بالسهول الشمالية ، فبدأت في انزياح

(1) **رسائل موحدية** ، رقم 21، ص 119–117.ابن صاحب الصلاة ، **المن** ، ص 123. ابن الاثير ، **الكامل** ، ج IX ،ص 65،41. التجاني ، رحلة ، ص 343–341. ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 332، 336، 337–44.

(2) تشير الرسائل الموحدية (ص 259) الى تحوله الى المغرب في عهد أبي يعقوب يوسف ، فيما يرجع ابن خلدون (ج VI ، ص 70) ذلك الى سنة 583 هـ.

(3) ابن خلدون ، **ن.م.** ، ج VI ، ص 71–70 .قتل عبد الله بن محمد بن مسعود بن زمام في موقعة سنة 618 هـ التي دارت بحمة الجريد بين أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص وبني غانية . وقد تولى الرئاسة بعد أبيه موسى بن محمد بن مسعود البلط.

(4) ابن خلدون ، **ن.م.** ، ج VI ، ص 72–71.

بطيء في اتجاه قسنطينة والزاب ، حيث الاثبج ، حتى كان استقدام بني سليم بمثابة النهاية لدور رياح السياسي بشرق افريقية (1) .

وبهذا انتقلت حلبة الصراع بافريقية من شرقها الى غربها ، دون تغيير في أطراف النزاع : فقد ظلت رياح من القبائل النافرة ، على حد تعبير ابن الخطيب ، منتجعة في أطراف البلاد الغربية ، ومتسببة في شق الدولة الحفصية في فترات ضعفها الى قسمين : البلاد الغربية و البلاد الشرقية .

والمتأمل في البنية الداخلية للقبيلة يلحظ تطور هيكلتها ، وفي خط مواز لها انتقال الرأسة من فرع الى آخر :

–صنبر بن مرداس : تولت الرئاسة منذ حقبة مؤنس بن يحيى الصنبري الى حد نهاية القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م ، لكن الظاهر أن الحروب المتواصلة مع الاثبج وعدي من جهة ، وبني زيري من جهة ثانية قد أوهنتها .

– بنو علي : انتقلت الرئاسة داخلها من دهمان التي حكمت قابس ، الى فادغ التي أنشأت إمارة بالمعلقة ، على رأسها محرز بن زياد . وتواصلت فاعلية بني علي من بداية القرن السادس الى حد معركة القرن سنة 556 هـ/ 1161م .

– بنو داود بن مرداس أو الدواودة : بدأ بروزهم على إثر هذه المعركة ، بعد أن فضلوا الانسحاب حتى لا يتعرضوا للابادة ، واقترن تاريخهم في هذه الحقبة باسم مسعود بن سلطان بن زمام، الذي ظل رئيسا لهم نحو أربعين سنة (قبل سنة الاخماس الى حد وفاته سنة 590 هـ / 1193م) ، ثم خلفه إبنه محمد الى حد سنة 631 هـ/ 1233م ، وبعدها تولاها حفيده موسى بن محمد .وظلت فاعلية هذا الفرع من رياح الى حد بروز بطن آخر من رياح في نهاية القرن التاسع هـ / XVم ، وهو بنو سعيد .

* الدواودة وبنو حفص : على إثر تغلب أبي محمد عبد الواحد عليهم سنة 602 هـ/ 1205م ، مكثوا بأطراف إفريقية ، ولم يتقدموا من جديد في اتجاه التلول الا بعد موت هذا الوالي ، سنة 618 هـ / 1221 م ، عندها تمكن محمد بن مسعود من إقطاع أبة ، وظل منتفعا به الى حد إندلاع النزاع مع بني سليم (بني

(1) **رسائل موحدية** ، ص 259. المراكشي ، **المعجب** ، ص 328.ابن خلدون ، **ن.م.** ، ج VI ، ص 71، 117، 118 .
تشير الرسائل الى تحول مسعود بن زمام الى المغرب في عهد أبي يعقوب يوسف ، فيما يرجع ذلك ابن خلدون الى سنة 583 هـ.
وقد ذكر ابن ابي زرع (ن.م.، ص 286)ان البطون التي نقلت قسرا دخلت في نزاع مع بني مرين سنة 614 هـ.

مرداس) سنة 630 هـ / 1232م ، والذي انتهى بدحرهم الى البلاد الغربية، إنطلاقا من إتجاهات عدة : باجة وأبة، ووسط إفريقية وجنوبها .وكان ذلك في عهد رئيسهم محمد بن مسعود(1).

ولئن تمكن أبو زكريا الحفصي من ضبط حركتهم ، واعتقال شيخهم بناحية قسنطينة وسجنه بالمهدية سنة 628 هـ / 1230م ، فانه لم يستغن عنهم أثناء تجهيز حملته الى تلمسان في شهر محرم 640هـ / جويلية 1242 م . فقد شارك فيها بنو عساكر من رياح الى جنب بني سليم الذين منحوا رواتب وإقطاعات على المدن (2) .

أضحت رياح في عهد أبي زكريا منتجعة بين الصحراء والزاب شتاء ، وقسنطينة وبجاية صيفا ، وبدأت في الخضوع لسلطة الدولة ، إذ جاء أميرها موسى بن محمد بن مسعود الى أبي زكريا سنة 648هـ / 1259م ، معلنا قبوله الأمر الواقع (3) .

على أن هذا الخضوع لم يكن سوى أمرمؤقت ، مرتبط بقوة الدولة ، لان الاسباب المفسرة له ، والمقترنة أساسا بفقدانها السيطرة على الاراضي التلية ، لم تمح . وبالتالي فقد انفجر النزاع مجددا بينها وبين المستنصر ، في بداية حكمه ، سنة 648 هـ / 1250 م ، لما خرج عليه أخوه أبو إسحاق إبراهيم ، مستعينا في ذلك بالعلج ظافر . وقد وجد هذا الامير الحفصي النصرة لدى الدواودة الذين بايعوه سنة 651 هـ / 1253م ، بناحية نقاوس .على أن هذا الحلف الهش بين الامير المنتزي والقبيلة لم يعمر طويلا ، إذ فر أبو إسحاق ابراهيم الى الاندلس ، وتحولت بعض القبائل الى تلمسان ، أما بنو عساكر من الدواودة فانهم جاؤوا المستنصر راضخين (4).

ولم يمض وقت طويل على هذه الحركة ، حتى شاركت رياح في هبة أخرى للبدو ، متحالفة مع مرداس ودباب ، إنطلاقا من بلاد الزاب . ولئن كنا نجهل حقيقة

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، جVI ، ص72-70. الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص25.
G. Marçais , **Les Arabes en Berbérie** ,p. 411-413 . R. Brunschvig , **Les Hafsides** , T I , p. 29 .
(2) زاد عدد الرماة في الحملة على تلمسان على عشرة آلاف . كذا في ابن عذاري ، **البيان** ، جIII ، ص 361.
(3) ذكر ابن سعيد (**رحلة** ، ص 145 126،) ان رياح كانت تنتجع بنواحي المسيلة وبين قسنطينة وبجاية . انظر كذلك :
G.Marçais , **op.cit.** , p.413-416
(4) الزركشي ، ن.م.، ص 33. ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 64 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 631،72-633.وقد ذكر مارسي خطا أن هذه الاحداث وقعت سنة 660،أي بعد سنة من فرار ظافر : Marçais ,**op.cit,** p 72

أمر قائد هذه الحركة الذي أطلقت المصادر عليه تسمية تشوبها السخرية ، و هي أبو حمارة ، فان مصيره كان القتل ، وسجن أعيان بني سليم ، وولاء رياح وخضوع بسكرة (1) .

وعلى إثر إندلاع الازمة النقدية وضرب نقود نحاسية (الحندوس) سنة 660 هـ / 1261م ، استغل ابن عم السلطان ، أبو القاسم بن أبي زيد ، هذه الظرفية ، كي يحتمي بقبيلة رياح وبرئيسها شبل بن موسى بن محمد بن مسعود الذي سانده وقام بأمره .لكن الحلف تشتت ، ما أن علموا بحركة السلطان اليهم ، وفر الامير الحفصي الى الاندلس . ولما وصل المستنصر سنة 664 هـ / 1265 م ، تمكن من تمهيد المجال الرياحي ، المتد من قسنطينة الى المسيلة، فيما لاذ شيخ الدواودة شبل بن موسى بالصحراء . ولم يكتف المستنصر بتقريب بني توجين اليه وإقطاعهم مقرة حتى يكونوا له عونا ، بل إنه أمر والي بجاية بإعمال الحيلة للقبض على شيوخ رياح (2) .

أخذ المستنصر طريق الزاب من جديد سنة 666 هـ / 1267م ، مع أحلافه من الكعوب ودباب وبعض بني هلال ، لمواجهة الدواودة ، الذين انقسموا على أنفسهم : ففيما أصبحت بنو عساكر قبيلة موالية ، بعد أن عقد المستنصر لشيخها المهدي بن عساكر على إمارة قومه ، فضل بنو مسعود التوغل في الصحراء ، انطلاقا من نقاوس، تحاشيا لمواجهة الجيش الحفصي . لكن والي بجاية أعمل الحيلة لاستئلاف شيوخ رياح ،حتى قدموا على السلطان ، فخدعهم ، وقتل عددا من رؤسائهم ، من بينهم الامير شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وستة آخرون وأحد روساء كرفة من الاثبج .وكان لهذا الحدث وقع متباين لدى دائرة السلطان وبلاطه ، وفي خيام البدو ونجوعهم. ففيما تغنى شعراء البلاط بهذا اليوم ، فر الدواودة الى مفاوز الصحراء ، وصولا الى الحمادة ، والتحقوا ببني زيان ومرين للتحالف معهم (3).

هذه السياسة المتشددة للمستنصر دفعت بالدواودة إلى التحالف مع زناتة ،

(1) ابن خلدون ، **ن.م.** ص 634-633 . ابن قنفذ ، **الفارسية** ، ص 117 .
(2) ابن خلدون ، جVI ، ص 661-72، 658.ابن قنفذ ،ص 127، الزركشي ، ص 38 . ابن الشماع ، ص 68 .
(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 661،73-663. ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 129. حازم القرطاجني ، ديوان.

لاسترجاع مجالهم ببلاد الزاب : فنزل بنو يحيى بن دريد (أولاد سباع)على سلطان تلمسان ، وبنو محمد بن مسعود على سلطان فاس ، وكان لهم ما أرادوا من دعم مكنهم من العودة الى مواطنهم ، والتغلب على وارجلان وأريغ ، والوصول الى بلادالزاب ، فجبل أوراس وبلاد الحضنة. وظلوا متغلبين على هذا المجال الى حد أواسط القرن الثامن هـ / XIVم (1) .

وبالتالي فقد شهدت سنة 666 هـ / 1267 م حركة انتشار ثانية للقبيل الرياحي، انطلاقا من الاطراف الجنوبية -الغربية لافريقية ، متغلبين على وارجلان وواد ريغ ، ومنها تزاحفوا الى المدينة الثغرية التي عين بها الحفصيون عاملا : مقرة ، فاستولوا عليها ، ثم غلبوا على بلاد الزاب ، فجبل أوراس . ولم يستطع التحالف المكون من أولاد عساكر من الدواودة ، وعياض من الاثبج وسدويكش من صد تقدم سائر الدواودة (برئاسة أولاد مسعود البلط) للسيطرة على التلول الشمالية .ولم يكن في وسع الدولة الحفصية التغلب عليهم ، فتلافتهم بالاصطناع والاستمالة ، مقطعة إياهم الاراضي التي استولوا عليها وخراج المدن التي كانت بحوزتهم مثل مقرة ونقاوس والمسيلة ، لانها تعلم جيدا أن مسالك التجارة الصحراوية النشيطة ، والمتصلة بوارجلان -قسنطينة، أصبحت تحت رقابتهم .

ويتضح مما سبق أن قبيلة الدواودة انقسمت منذ بداية العهد الحفصي الى قسمين: فبنو عساكر فضلوا الاستقرار بالتل ، والخضوع للسلطة ، فيما استمر بنو مسعود البلط في انتجاعهم واستقلاليتهم ومحاربتهم للحفصيين، الذين غذوا العداء بين الطرفين ، حتى آل الامر بينهم الى النزاع ، عندما حاول بنو مسعود التوسع في اتجاه التل .وانقسم هذا الفرع الأخير بدوره الى قبيلين متنافسين ، عند عودته الى بلاد الزاب : أولاد محمد بن مسعود البلط ، وأولاد سباع بن يحيى.وهو ما يفسر إضعافهم ، وانتقال الرئاسة في القرن الثامن الى أولاد دريد، بفرعيها أولاد سباع بن يحيى وأولاد محمد بن مسعود (2) .

وقد أفرز هذا التطور المعقد لقبيلة عربية الى تكوينها لامارة طرفية بقاعدة بلاد الزاب : بسكرة ، على رأسها يعقوب بن علي ، من أولاد محمد . وكانوا يتولون

(1) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 662-663،774.

(2) استقرت رأسة الدواودة في عهد ابن خلدون في أولاد محمد بن مسعود ، وشيخهم آنذاك يعقوب بن علي . غير أننا لا نعرف هل أن أولاد محمد الذين ذكرهم صاحب المقدمة هم أ. محمد بن مسعود بن دريد أم محمد بن مسعود البلط ، راجع إبن خلدون ، ن.م.، ج VI ،ص76-74.

حماية هذا الوطن ، مقابل استخلاص الجباية من المزارعين والتجار .وانقسم الزاب على الذواودة : فنزل أولاد محمد وأولاد سباع الجانب الغربي منه (طولقة) ، كما سيطر أولاد محمد ، ورئيسهم آنذاك يعقوب بن علي ، على الجانب الاوسط (بسكرة) ، فيما ظل أولاد نابت ، رؤساء كرفة ، بالجهة الشرقية (بادس وتنومة)، خاضعين لجباية عمال الزاب ولقبيلة رياح (1).

ومن الملاحظ أن بني رياح اضطلعوا بمهمة الحماية والصيانة في وطن القيروان خلال القرن الثامن هـ/ XIV م ، إذ كانوا ينزلون هناك زمن الربيع لحراسة السواني من تعديات البدو الرعاة ، على أن يأخذوا على كل سانية مبلغا ماليا معلوما (2).

وكان للقبائل العربية ميعاد سنوي بالبلاد الغربية تتقابل فيه بفرجيوة ، لترتيب البيت البدوي ، وتنظيم علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتعيين الرؤساء والمشائخ ، وقد يؤول الامر الى نزاع بين مختلف العشائر ، مثلما وقع على إثر اجتماع سنة766 هـ / 1364م .

على أن نفوذ القبيلة الشاسع انحسر في فترة إعادة بناء الدولة الحفصية ، إذ تعرضت الدواودة في عهد السلطان أبي العباس أحمد (1394-1370) لحملات عسكرية متتالية ، الى حد سنة 792 هـ / 1389م ، وقد انحاز ابن خلدون الى جانب رياح، ونزل على يعقوب بن علي ، وفي سنة 780 هـ / 1370م ، احتمى بالقفر ، وشد الرحلة مع عرب الاخضر من رياح الى الدوسن ، بأطراف الز اب (3) .

ومما له مغزاه أن فترة التململ هذه عقبها شبه استقرار للمجال القبلي للدواودة بهذه الناحية الى حد نهاية العصر الوسيط ، كما يبين ذلك التقرير المحرر إبّان انتصاب الاحتلال الاسباني : فقد ذكر من بين قبائل الدواودة النازلين بين قسنطينة وبجاية : أولاد صولة و سباع وعيسى ، وهم قادرون على تعبئة عشرة

(1) ابن خلدون ، **ن.م.**، ج ، VI ، ص 76-74.

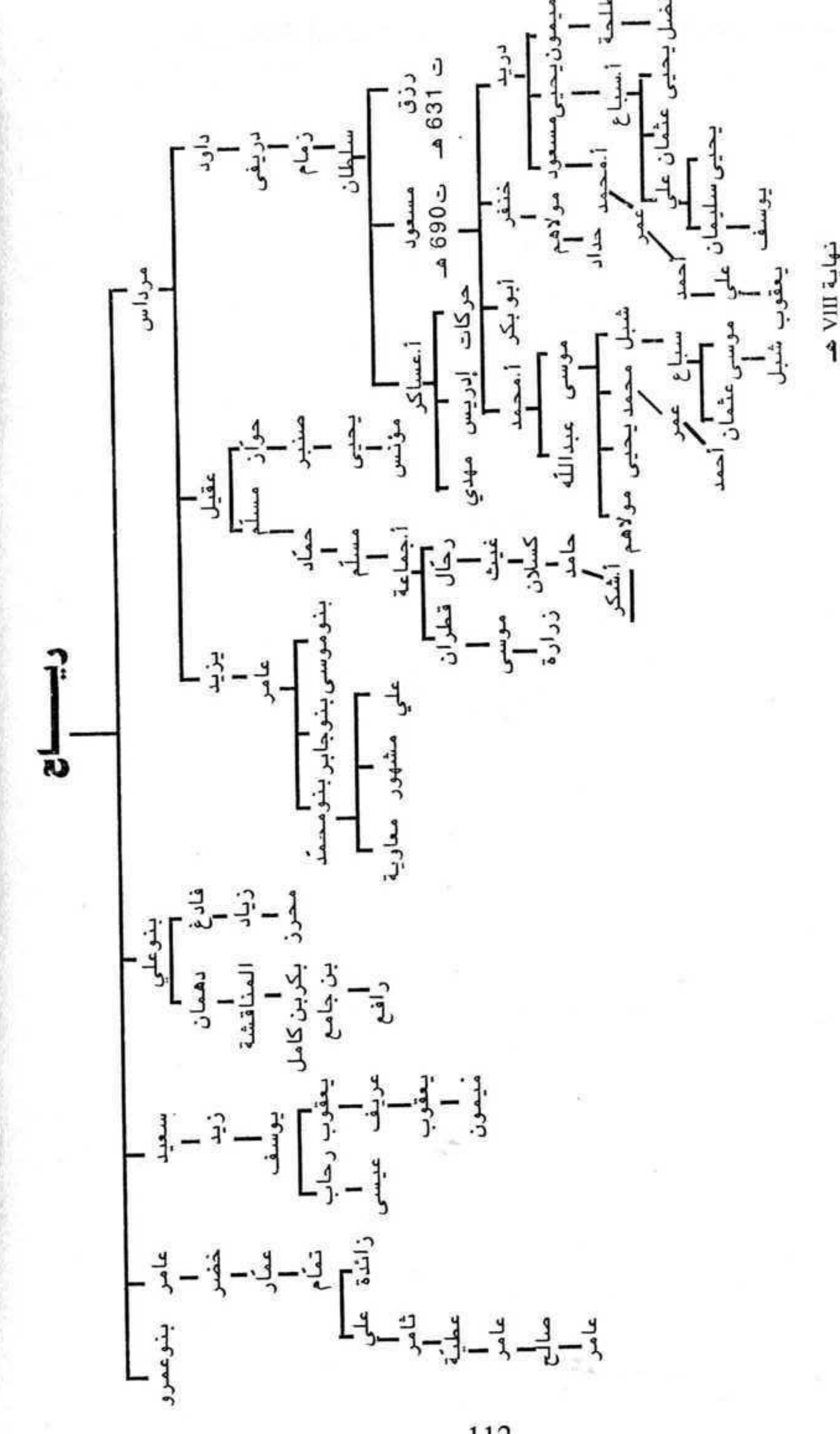
(2) البرزلي ، **جامع مسائل** ، مخ.4581 ، ج II ، ص 145 .

(3) ابن خلدون ، **ن.م.** ، ج VII ، 1026،897 . ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 187 .

وقد أشار خالد البلوي (الرحلة ، ج II، ص 136)الى بداية ركون رياح الى الاستقرار ، ووفودها على السلطان الحفصي سنة 721 هـ ، وقد قال في ذلك الشاعر :

يا قادما وافي فعم خصبنا / لا تنكر العرب التي جاءت اليك

لو لم تواف رحمة ما أرسلت /فينا رياح نشرت بين يديك



* سنة 915 هـ / 1509 م ، انقسمت الدواودة الى أولاد يعقوب بن علي بناحية قسنطينة و أ.محمد

آلاف فارس ، وعدد كبير من المشاة . أما أولاد يعقوب بن علي بن أحمد بن عمر ، من الدواودة ، فانهم انفردوا بقبيل خاص بهم، مقسم الى ثلاث مشيخات ، نازلة بين بسكرة وتوقرت : عبد الله بن مهدي (ألف فارس) ، أحمد بن علات (مائتي) وأحمد بن الحاج سالم (خمسمائة) (1) .

ذلك هو مسار إحدى القبائل البدوية الطرفية ، التي انتهى بها الامر ، بعد حقبة من التململ ، الى شبه الاستقرار بناحية قسنطينة والزاب . وفي خط مواز لذلك ، تضاءلت شوكتها العسكرية ، واستقلاليتها عن السلطة المخزنية .

II. في البلاد الشرقية (بنو سليم):

1) القبائل المخزنية والغارمة :

أ) بنو عوف : هي من قبائل بني سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، ومن الملاحظ أن بني سليم ذكروا لأول مرة بافريقية أثناء معركة سبيبة سنة 457هـ/ 1064 م ، ومنذ سنة الاخماس ، تم جلبهم من قابس الى المهدية (2) .

وأصبحت بنو عوف قبيلة مخزنية ضاعنة بشرقي إفريقية ، من قابس والجريد جنوبا ، الى حد بونة شمالا . وانقسمت الى بطنين : مرداس وعلاق ، وتفرع علاق الى بني يحيى (ومنها الكعوب) وبني حصن (ومنها بنو علي وحكيم) (3).

وقد ظلوا مقيمين بناحية برقة الى حد أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م. ويبدو أنه ابتداء من دخول الموحدين البلاد ، وخاصة بعد قيام حركة بني غانية سنة 580 هـ / 1184 م ، انتشروا من جديد بجهة طرابلس وقابس ، مستغلين في ذلك الاضطرابات الداخلية . لكن قراقوش حال مؤقتا دون تقدمهم ، مستأصلا شأفة عدد هام من الكعوب (ثمانين حسب الروايات) ، مما جعلهم يكرون راجعين الى برقة ، مستصرخين سائر قبائل يحيى بن علاق . وهكذا انحاز بنو عوف الى جانب أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، فيما تحالفت الدواودة مع بني غانية .وخاضت معارك عديدة ضد رياح ، انتهت بالغلبة لها، وانتزاع إقطاع أبة من رئيسها : محمد بن مسعود الرياحي ، والتقدم من جهة طرابلس

---

(1)De Mendoza ,Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique In **Revue Africaine** 1877, p. 219-220 .

(2) ابن الكلبي ، **جمهرة** ، ص 395. ابن حزم ، **جمهرة الانساب** ، الفهرس . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 141. المراكشي ، **المعجب** ، ص 492،412.

(3) ابن الكلبي ، **جمهرة** ، ص 395. وقد قال عنها أنها بطن كبير من بني سليم، وأن عوفا أمه هند بنت مازن بن منصور ، و كان كاهنا .

وقابس الى ساحل القيروان وبلاد الجريد ، فيما دحرت رياح الى تلول قسنطينة وبجاية وبلاد الزاب .

وبالتالي فقد كان بنو عوف من بين القبائل المخزنية ، التي أثبتها السلطان الحفصي أبو زكريا في ديوان العطاء ، دون أن يقطع لها القرى والبلدان (1) .

*بنو مرداس : نحو استقرارها بالواحات :

ظلت مرداس منتجعة في نواحي طرابلس ، دون أن تتخطى قابس ، بين سنتي 630-580هـ / 1232-1184 م.ولما تمكنت قبائل عوف من طرد رياح من إفريقية ، تقدمت الى ناحية القيروان . غير أن أبا زكريا الحفصي اتبع سياسة التفرقة بينها وبين مرداس ، حتى نفر شيخ مرداس ، عنان بن جابر ، من أولاد جامع ، من سلطة الحفصيين ، مفضلا شد طريق الرحلة ، وصولا الى بلاد أزغار ، حيث نزل رياح هناك من قبلهم .ومنها التحق بالخليفة الموحدي السعيد بمراكش ، محرضا إياه على غزو إفريقية ، رافضا دعوة أبي زكريا للعودة الى وطنه .

وبالتالي ، بقيت مرداس طيلة حكم أبي زكريا ، مترددة بين الخضوع للدولة والنفرة منها . ولما تولّى المستنصر الحكم ، ازدادت أهمية الكعوب كقبيلة مخزنية ، وقويت مكانة شيخها عبد الله بن شيحة لدى السلطان ، خاصة بعد أن خطط الحفصيون للتخلصّ من مرداس ، بنفس الكيفية التي اتبعوها مع رياح من قبل ، وهي ضرب قبيلة بأخرى (2).

وفعلا انتهت الحرب الدائرة رحاها بين القبيلين باخراج مرداس من إفريقية في إتجاه الصحراء ، وبقوا منتجعين جنوب واحات الجريد الى حد نهاية القرن الثامن / الرابع عشر ، حسبما أشار الى ذلك ابن خلدون في قوله : **« وهم اليوم من جهة بادية الاعراب أهل الفلاة ينزعون الى الرمل ويمتارون من أطراف التلول تحت أحكام سليم أو رياح ، ويختصون بالتغلب على ضواحي قسنطينة أيام مرابع الكعوب ومصائفهم بالتلول ، فاذا أنحدروا الى مشاتيهم بالقفر ، أجفلت أحياء مرداس الى القفر البعيد ، ويخالطونهم على حلف ، ولهم على توزر ونفطة وبلاد قسطيلية أتاوة يؤدونها اليهم بما هي مواطنهم ومجالاتهم وتصرفهم ، ولأنها في الكثير من أعراضهم»** (3) .

---

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 144-146.
(2) ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVI ، ص 145-147.
(3) المصدر نفسه ، جVI ، ص148 .

والحقيقة أن قبيلة بني مرداس بدأت تتسرب الى بلاد الجريد ، وتستقر بأطرافها منذ مطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ، حسب شهادة التجاني ، إذ قال : **«وأرض توزر في وقتنا هذا من العرب لبني مرداس ، وقد تقدم أن رئاسة بني مرداس في بني جامع منهم »** .

والظاهر أن هذا التسرب تواصل في فترات ضعف السلطة المركزية ، حتى أضحت المدينة في مطلع القرن العاشر هـ/ السادس عشر م ، مقسمة الى شطرين : الاول لمرداس ، والثاني لفطناسة (1) .

وفي الجملة ، فان المجال الحيوي لهذه القبيلة ظل الواحات وبلاد الصحراء طيلة العهد الحفصي ، وهو ما يعني في مرحلة أولى المشاركة في تنشيط التبادل بين الواحات المغربية . غير أن دورها لم يقتصر على ذلك ، بل إنها اتخذت من بلاد الجريد قاعدة لها ، مثلما فعل بنو مزني من رياح ببسكرة ، وتملكت الماء والأرض بالواحة.

* بنو علاق : نحو استقرار قبيلة مخزنية بوسط إفريقية :

- **بنويحيى بن علاق :**
- **دلاج :**

لم تتعرض المصادر الى دلاج الا نادرا ، إذ الظاهر أنها ركنت الى الهدوء والاستقرار بنواحي جزيرة شريك في بداية الحكم الحفصي ، ولم يبرز دورها الا في فترة ضعف الدولة ، إذ تمكنت من التغلب على بعض نواحي الجزيرة القبلية منذ سنة 706 هـ / 1306 م ، وخاصة في فترة حكم أبي يحيى زكريا بن اللحياني (717-711هـ / 1317-1311 م)، واقتطعت مجالا يمتد من سوسة الى الوطن القبلي . ومما لا شك فيه أن اتساع المجال القبلي وقع على حساب المجال الزراعي ، ولم تكن السلطة المركزية تنظر الى هذا التوسع في مجال قريب من ناحية تونس بعين الرضى ، كما أشار الى ذلك التجاني : **« وجور هذه الطائفة المعروفة بدلاج في فعلها وعيثها في البلاد وأهلها أشهر من أن نشير اليه، أو ندل بعبارة مختصرة عليه »** .

---

(1) التجاني ، رحلة ، ص 163. الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج II، ص 143 . وقد ذكر الوزان (ص 61) قبيلة مرداس مستقرة في ناحية عنابة ، تزرع الارض وتملك عددا كبيرا من الماشية التي تبيع منتوجها الى المدن الايطالية ، بعد أن تجمع بالمدينة . ويبدو لنا أنّ مرداس هذه لا تنتمي الى بني سليم ، إنما الى بني هلال .

وهو ما يفسر تعيين المخزن لمحمد بن خلدون الاندلسي واليا على الجزيرة ، وأوكلت له خاصة مهمّة صد حركات دلاج ، وإعادة التوازن المفقود بين الرعاة والمزارعين .والحقيقة أن هذه الحركات لم تكن سوى الانتفاضة الاخيرة التي مهدت لاستقرار دلاج بهذه الربوع ، حتى أنها تحولت سنة 1535 م الى مجرد مشيخة خاضعة لرئاسة أولاد سعيد من رياح ، على رأسها الشيخ أحمد ، وكانت نازلة بين قليبية وبعض القرى المسماة ابن سعد (ولعله يقصد بها قصر سعد) ، وكانت تجمع 300 مقاتلا (1) .

الكعــوب :

بعد أن دحر بنو كعب الرياحيين الى الغرب ، ونزلوا بساحة القيروان والجريد سنة 630هـ / 1232م ، تمكنوا في دور ثان من طرد مرداس الى ناحية الصحراء في عهد المستنصر ، والانفراد بالرئاسة على قبائل عوف . وقد كانت أنذاك بيد فرع شيحة ، فيما كان يرادفهم في ذلك أولاد علي ، الذين ارتبط شيخهم كعب المسمى بالحاج بعلاقات صداقة مع شيخ الموحدين ، أبي سعيد العود الرطب، وولاء للمستنصر الذي أقطع له أربع قرى بناحية صفاقس والجريد وإفريقية (بمعنى البلاد التلية) .

وفي عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم ، استقرت الرئاسة في أبناء كعب ، من أولاد علي ، بعد أن افتكوها من أبناء عمومتهم أولاد شيحة . وكان شيخهم أحمد بن كعب صاهر حكيم و صنهاجة ، وتسرّى بأمة ، وأنجب من نسائه الثلاث ثلاثة عشر ولدا حتى أنه أطلق على هذه الاسرة الكبيرة الأعشاش ، الذين ظلوا في خدمة الدولة الحفصية ، حتى في الفترات الحالكة من تاريخها .

الدور البليلي في مساندة المخزن (679 -749):اذا كان فرع شيحة قد ساند حركة ابن أبي عمارة ، فان أبا الليل بن أحمد بن كعب ساعد أحد أبناء السلطان المقتول أبي إسحاق إبراهيم ، وهو أبو حفص عمر ، على الافلات من قبضة الثائرين ، والالتجاء الى قلعة سنان .ولما تولى أبو حفص الحكم ، رعى له هذا الامر فعينه شيخا على الكعوب ، ولم تفلح محاولات غريمه عبد الرحمان بن شيحة في البحث عن مساندة حاكم بجاية لتولي المشيخة (2) .

على أن هذه العلاقة بين القبائل المخزنية والسلطة لم تكن قارة ، إذ قام

(1) التجاني ، رحلة ، ص 16 ,55 .ابن خلدون ، تاريخ ، ج VII ،ص 15. وقد ظلت بعض بطون دلاج بناحية سليمان بالوطن القبلي . انظر ايضا : R. Brunschvig , **op. cit.** , TI, p 312

(2) Documents Inédits ..op. cit. , **Revue Africaine** , 1877 , p. 21 .

السلطان أبوحفص عمر في مرحلة ثانية بعزل الشيخ أبي الليل ، وذهب السلطان أبو عصيدة الى أكثر من ذلك ، حينما سجن الشيخ أحمد بن أبي الليل حتى موته . ومن الجلي أن المشيخة أضحت مؤسسة مخزنية وقتذاك، تشرف عليها الدولة ، وهو أمر لم يكن واضحا من قبل، ولم يكن يتأتّى للحفصيين لولا اتباعهم سياسة التفرقة بين القبائل : ففي مرحلة أولى ، عملوا على تأليب سليم على هلال ، ثم انتقل النزاع داخل سليم ، بين عوف و مرداس ، وبعدها داخل عوف ، بين كعب وشيحة ، ومنذ مطلع القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م ، تحول الى نزاع بين فرعي كعب : أولاد أبي الليل وأولاد مهلهل . فبعد أن استفرد أبو الليل بالمشيخة ، أصبحت وراثية في أسرته لمدة أربعة أجيال (من أبنه أحمد ، الى حفيده عمر بن أحمد ، ثم محمد بن عمر) ، وهو ما يناسب الفترة الممتدة بين بداية حكم أبي حفص عمر (683 هـ/ 1284م) ومطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر ميلادى ، لما بدأ أبناء عمهم من أولاد مهلهل، وعلى رأسهم هداج بن عبيد فى منافستهم .

لكن هذه المشيخة لم تعمر طويلا عند أولاد بليل بعد مقتل رئيسهم و التنكيل به بمدينة تونس سنة 705هـ / 1305 م ، و قد عرف أخوه كساب و ابن عمه شبل بن منديل نفس المصير . و بالتالى استقرت المشيخة من جديد لدى أبناء عمومتهم أولاد بلّيل (1).

على أن ذلك لا يعني خضوع هذه القبيلة للسلطة المخزنية ، بل على العكس من ذلك هبت منذ سنة 707هـ / 1307 م ، بمشاركة قبائل بنى سليم و صنيعتهم عثمان بن أبي دبوس لتطويق مدينة تونس ثأرا لمقتل هداج . لكن هذه الحركة انتهت بالقبض على أحمد بن أبى الليل واعتقاله بتونس الى حد هلاكه كما ظل إبن أخيه مولاهم بن عمر مسجونا منذ سنة 708 هـ ،الى أن تمكّن أخوه حمزة بن عمر من تخليص سراحه سنة710 هـ / 1310م ، لما قام به من مناصرة أبي البقا خالد، فيما انحاز أولاد مهلهل وطائفة من الاعشاش الى جانب أبي بكر أبي يحيى الشهيد.

وازداد أمر حمزة بن عمر بن أبي الليل قوة في عهد السلطان ابن اللحياني ، الذي رفعه على سائر البدو ، لانه كان من الاوائل الذين بايعوه عند وفوده من الشرق ،وحثوه على دخول مدينة تونس . وظل مواليا للمخزن الحفصي ، مجندا لنصرته ، حتى أنه طلب كسوة ألف فارس ، عند تولي أبي ضربة الحكم سنة 717 هـ/ 1317 م .

على أن أولاد أبي الليل عرفوا المحنة مجددا ، لما تولى السلطان أبو يحيى أبو

(1) حول مقتل هداج بن عبيد الكعبي ومدلول هذا الحدث ، راجع الفصل الخاص بحركات العامة . انظر خاصة : ابن خلدون ، ن م ، ج VI ،ص 150. الزركشي ، تاريخ ، ص 56 . الابي ، الاكمال ، ج II ،ص251 . وفي الجزء الثالث ، ص 28 ، ذكر حادثة متصلة بالاولى تنم على مدى التوتر الاجتماعي ، ومفادها ان رجلا تخطى الناس بالجلوس ، فكادوا الايقاع به .

بكر الحكم ، إنطلاقا من الثغور الغربية ، ورفض شيخهم حمزة بن عمر التعامل معه ، فكان القبض على ابن أخيه مولاهم وابنه ، وإثنين من قرابته ، وقتلهم سنة 722هـ/ 1322م.

والمتأمل في الساعين بحمزة بن عمر لدى السلطان الجديد ، يلحظ أنهم كانوا سبعة: واحدا من هوارة ، والبقية من أبناء عمه أولاد مهلهل ، وهو أمر ينم على مدى تفكك الروابط القبلية القديمة ، لفائدة هياكل جديدة مقترنة بالمجتمعات الزراعية شبه المستقرة (1) .

أما إذا قرأنا هذا الحدث من زاوية ثانية ، فان هذه القبائل المخزنية لم تكن مقيدة بقيد يلزمها مناصرة السلطة في كل الاحوال ، بل على العكس من ذلك نراها تتصرف باستقلالية نسبية وفق مصالحها .فقد رد حمزة بن عمر على هذا العنف السلطاني بأن نصب أحد الحفصيين ، وهو محمد بن اللحياني المعروف بابن أبي ضربة ، سلطانا،وبحث عن الدعم العسكري في مساندة عساكر السلطان الزياني ابن تاشفين ، لكن هذا التحالف مني بالهزيمة بافريقية ، قبل أن يستولي أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737 هـ/ 1336م ، وعلى ضوء هذه المتغيرات ، عدل حمزة من موقفه ثانية وأصبح حليفا للسلطان الحفصي حتى مقتله سنة 740 هـ على يد أحد أبناء عمومته(2).

لكن الرئاسة ظلت منحصرة في هذه الاسرة ، إذ تولاها من بعده ابنه عمر بن حمزة بن عمر، بمساعدة أخيه قتيبة . ومرة أخرى ، انقلب شيخ القبيلة المخزنية على الدولة فنازل تونس، وكانت بينه وبين محلة المخزن مناوشات ، انتهت بالايقاع بهم بجهة القيروان، حتى أجبروا على الرضوخ واعطاء الرهن . واستغل أولاد مهلهل هذه الظرفية ليوغروا صدر الحفصيين عليهم .

ولم تفقد هذه القبيلة أهميتها العسكرية ، إذ ما أن توفي السلطان أبو يحيى أبو بكر وتولى إبنه أبو حفص عمر الحكم سنة 747هـ / 1346م ،حتى تحرك أولاد أبي الليل ثانية لتقديم أخيه أبي العباس أحمد ، والي الجريد ، واختياره سلطانا ، وزحفوا الى تونس ، فخرج أبو حفص عمر مع أنصاره من أولاد مهلهل منها، وتمكّن أخوه من سدة الحكم ، بمساندة القبيل البليلي ، وهو ما يفسر استمرار فاعليتهم السياسية والعسكرية الى حد قدوم أبي الحسن المريني (3).

---

(1) حول التنافس بين أولاد مهلهل وأولاد بالليل ، انظر : ابن خلدون ، ن.م. ، ج VI، ص 91، 95، 96، 103. وفيما يخص تاريخ الكعوب عامة ، انظر : الغبريني ، **عنوان الدراية** ، ص 60،63،65،91،96،103.
ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 85. الزركشي، **تاريخ** ، ص 59 (أحداث سنة 709) . ابن ابي دينار ، **المؤنس** ، ص 146، 153-142.
انظر أيضا : مقالنا : فروع جديدة من شجرة أنساب الحفصيين ، ص 125-124.
(2) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، جVI ، ص 154-153.
(3) الغبريني ، **عنوان الدراية** ، ص 82.

فالواضح إلى حد هذا التاريخ أن أولاد أبي الليل كانوا يترأسون قبائل الكعوب وسائر قبائل بني عوف النازلين بوسط إفريقية ، وكانت من بينهم المشائخ والرؤساء ، الذين يقع في غالب الاحيان تزكيتهم من قبل بني حفص ، مكتفين بذلك ، وفي الحالات النادرة التي حاولت فيها السلطة المخزنية أن تتدخل بقوة ، كان رد الفعل القبلي بنفس الحجم ، بل على العكس من ذلك ، نلحظ ازدياد مشاركة القبيلة في الحياة السياسية ، وخاصة في اختيار السلطان وفرضه .على أن هذه القبائل لم ترتق الى مستوى العصبية الموصلة الى الملك ، وفق الانموذج الخلدوني ، لتواصل النزاعات بين فروعها ، و نفوذ المخزن وغياب المعطيات الموضوعية لتكون العصبية. وزيادة على ذلك ، لم يكن لها برنامج سياسي مغاير ، إذ نراها تعمد الى تكرار الايديولوجية المهيمنة في فترات ثورتها، فتبحث عن أمير حفصي أو دعي لمبايعته .

وكما أن ولاء هذه القبائل للسلطة كان مشروطا وغير ثابت ، فان تنافسها مع فرع أولاد مهلهل لم يكن فصلا متواصلا بدون انقطاع ، حتى نجعل منه قانونا ثابتا كما ينزع الى ذلك أنصار النظرية الانقسامية ، ذلك أن هذا التنافس كثيرا ما حركته أيدي السلطة المخزنية للاستفادة من الاختلاف بين العشيرتين .ويظل تفسيرنا مبتورا إذا لم نشر الى طبيعة اقتصاد هذه القبائل ، القائم على الرعي في مستوى القاعدة وعلى استخلاص ريع الارض المتأتي من الاقطاعات ، في مستوى الاعيان ، وكلاهما مثل جوهر الصراع داخل القبيلة .

ومما يأتي برهانا على ذلك سرعة تلاحم هذه العشائر المتنازعة ، إذا داهمها خطر خارجي وهدد إمتيازاتها المتحصلة عليها ، من إقطاعات ومراع . وهو ما تم فعلا عند حلول أبي الحسن المريني بافريقية .

لما حاول سلطان فاس السيطرة على بلاد إفريقية ، وتدجين قبائلها وانتزاع الاقطاعات من أيديها ، مثلما تم بالنسبة إلى زغبة والمعقل بالمغرب الاقصى ، رأبت الصدوع بين أبي الليل ومهلهل ، واتحدوا مع قبيلة حكيم ، خاصة بعد أن بادر المريني بسجن الوفد القادم عليه من أولاد أبي الليل وحكيم . ومرة أخرى وجدت هذه القبائل المتناصرة في أحد أحفاد بني عبد المؤمن ، أحمد بن عثمان بن إدريس ، ظالتها للقيام في وجه المرينيين . ولما تقدم أبو الحسن الى سهل القيروان في بداية سنة 749 هـ/ 1348م، تركوه يدخل المدينة، ثم انقضوا على جيشه ، فهزموه.

ومهما قيل حول هذا الحدث الخطير ، الذي قوّض أحلام أبي الحسن المريني، في السيطرة على كامل بلاد المغرب ، وتفسيره باندلاع الطاعون الجارف ، فان هذا الفشل جاء برهانا على مدى الطبيعة العسكرية لهذه القبائل ، ومدى فاعلية مجالها الاستراتيجي ، رغم مرور أكثر من قرن على استقرارها ببلاد السباسب . وهو تكريس نهائي لسيطرة الاقطاع العسكري ببلاد إفريقية ، إذ تعززت إمتيازات البدو ، على إثر هذا التاريخ المنعرج ، وقد أوضح إبن خلدون ذلك في قوله :

«وانبسطت أيدي العرب على الضاحية ، وأقطعتهم الدولة حتى الامصار وألقاب الجباية ومختص الملك ، وانتفضت الارض من أطرافها ووسطها ، وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، وقاسموهم في جبايات الامصار بالاقطاع ريفا وصحراء وتلولا وجريدا» (1) .

الدور المهلهلي في مساندة المخزن (749-786هـ)، رغم محاولة أبي إسحاق إبراهيم تنشيط سياسة التفرقة بين الفرعين ، والاعتماد أكثر على أولاد مهلهل ، فانه لم يكن قادرا على الاستغناء عن قوة أولاد أبي الليل ، لما خرج بمحلته من تونس للتصدي لقدوم سلطان المغرب أبي عنان ، الذي انحاز له أولاد مهلهل لغزو قسنطينة سنة 765 هـ / 1364م . واحتاج كذلك خليفته أبو العباس أحمد لدعم أمير البدو منصور بن حمزة البليلي ، للوصول الى الحكم انطلاقا من الثغر الغربي سنة 772 هـ / 1370م (2) .

على أنه أصبح من ثوابت السياسة الحفصية الاعتماد أكثر على القبيلة المنافسة لاولاد أبي الليل ، لاضعافها واقامة توازن لصالح المخزن . وهو ما حاوله مرة أخرى السلطان أبو العباس أحمد ، لما استند على أولاد مهلهل ضد إخوتهم ، فأرجع لهم رئاسة البدو وجعل لهم العطاءات ورفعهم على بقية الاعراب . مما أحدث انشقاقا داخل البليليين : ففيما ساندت أسرة أولاد مولاهم السلطة ، ظل أولاد حمزة بن عمر بن أبي الليل رافضين لهذه السياسة الجديدة ، وحاول رئيسهم رد الفعل ، وتغيير السلطان ، فنصب أميرا حفصيا أخر، وزحف معه على تونس سنة 773 هـ / 1371م ، لكن بدون جدوى .

ولّما قتله ابن أخيه محمد بن أبي الليل سنة 775هـ / 1373 م ، تفكّكت الاسرة البليلية . ولم تفلح سياسة الامير الجديد صولة بن خالد بن حمزة في السعي لخدمة السلطان لرأب الصدع بين الطرفين .

---

(1) ابن خلدون ، **ن.م.**، ج VI، ص156 . M .Kably , **op. cit**, p 141-144 .

(2) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 174 (مشاركة بني مهلهل مع أبي عنان لغزو قسنطينة) . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص103 (إنحياز أ.بليل الى محلة السلطان أبي إسحاق إبراهيم للتصدي لابي عنان) .

فكانت محاولة أخرى قام بها القبيل المتخلى عنه ضد السلطة المركزية ، لّما ساند أولاد حمزة بن عمر بن أبي الليل وأولاد حكيم الاعيان المحليين بالجريد، للتصدي لحملة أبي العباس أحمد سنة 780 هـ / 1378م . لكن فشل هذا الحلف أدى بهم الى التشرد والخروج من أوطانهم في اتجاه الغرب . ويبدو أنه ابتداء من تلك الحقبة ، ركنوا الى الهدوء في عهد أبي فارس عبد العزيز ، وأجبروا على الخضوع للجباية ، فكانوا حسب عبارة ابن خلدون ، « لا يساومون باعطاء الصدقات في هذا العهد الاول» ، واكتفوا بالسيطرة على نواحيهم ، إذ ورد ذكر الشيخ أبي حرب صولة بن حمزة سنة 809 هـ / 1406م ، عند تدخله لحل نزاع بين زوجين في أحد الجبال القريبة من القيروان (1) .

واستمر الدور العسكري لهذه القبيلة في أحداث سنة 838هـ/ 1434 م ، وما بعدها. فمرة أخرى أثار خروج السلطان المنتصر الحفصي الى قفصة لتهدينها حفيظة قبيلة أولاد أبي الليل ، الموجودين على طول الطريق الرابطة بين تونس والقيروان ، وهو أمر كفيل بتفسير هذه الحركات البدوية المرتبطة بنشاط المحلة والجباية . وكان لا بد لمثل هذه الحركات من صنيعة من البيت الحفصي لتعليل قيامهم على المخزن ، وقد وجدوه في شخص الامير أبي يحيى زكريا الذي فرّ من المحلة ، و التحق بهم . وقد التقى « العرب وسلطانهم » ، على حد عبارة الزركشي بأخي السلطان ووالي قسنطينة أبي عمرو عثمان قرب جبل الريحان شمال القيروان . ولما عجز قائد المحلة عن صدهم، التجأ الى الاستعانة بأولاد مهلهل ، فيما سارع الثائرون بالزحف على تونس، ومحاصرتها طويلا، ولم يستطع تخليصها منهم أبو عمرو عثمان الا بعد معركتين (2) .

وظل هاجس البدو قويا في بداية حكم أبي عمرو عثمان ، الذي أمر بتحويل دار صولة – وهي نسبة فيما يبدو لامير العرب البليلي – الى زاوية ومدرسة . فقد أثار فرار عم أبي السلطان الامير أبي عبد الله محمد الحسين بن أحمد الى أولاد أبي الليل خوفا شديدا بمدينة تونس ، وأزمة إقتصادية ظرفية تجسدت في غلاء الاسعار. قال الزركشي : **«ولحق (أبو عبد الله محمد الحسين) بأولاد أبي الليل، وكانوا بقرب من الحضرة ، فوقع بسبب ذلك تشويش بالحضرة وأوطانها ، وغلا السعر وتخوف الناس من إجلاب العرب به على الحضرة » . لكن البدو فضلوا هذه المرة تسليم الامير الهارب الى السلطان** (3) .

---

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 158. الزركشي ، **تاريخ** ، ص109-111. البرزلي، **جامع مسائل الاحكام** ، ج I ، ص 277(أ-ب) .

(2) الزركشي ، **نفسه** ، ص 132-133 .

(3) المصدر، **نفسه** ، ص 136 .

والحقيقة أنهم قاموا بتأجيل هذا الصراع لمدة وجيزة ، إذ اندلعت المعركة بين الطرفين في الشهر الثامن (شعبان) من نفس السنة ، لما تمادوا في الضغط على مدينة تونس ، « وأفسدوا في جميع الاوطان وأخافوا السبل » ، ونزلو ا قرب باب خالد في الشهر الموالي ، ولم يفكوا هذا الحصار الا بعد أن علموا أن أولاد مهلهل عزموا على نصرة السلطان . وعلى إثر انهزامهم ، التحقوا بأمير بجاية وحاصروا قسنطينة بدون جدوى ، ثم اتجهوا صوب تونس بمعية الذواودة ، وقرب تيفاش على وادي سراط ، التقى الجيشان : الاول مكون من فرق من بجاية والذواودة وأبي الليل ، والثاني من محلة السلطان عثمان والحنانشة وقرفة وبني مهلهل وحكيم وبني علي ، وانتهت معركة رمضان سنة 840 هـ / 1436 م ، بهزيمة جيش البلاد الغربية ، والقبض على مشائخ أبي الليل الثلاثة: منصور بن خالد بن صولة بن خالد بن حمزة وطلحة بن محمد بن منصوربن حمزة ومنصور بن ذويب بن أحمد بن حمزة (1) .

وهكذا بدأ دور أولاد أبي الليل السياسي في الافول منذ تلك الحقبة ، ثم عرف أولاد مهلهل المصير نفسه بعد نحو ربع قرن . ففي 10 رجب سنة 867هـ/ 1462م ، انتفضت القبيلة على السلطان ، على إثر أزمة مالية نجم عنها إصلاح نقدي ، أضر بها . ولمّا طالبت السلطان أن يدفع العوائد بالسكة القديمة ، لم يستجب لذلك ، فشنّت الغارات ، لكنها عجزت فيما يبدو عن التصدي لعسكر السلطان ، الذي أصبح مجهزا في تلك الفترة بآلة عسكرية جديدة ، وهي البندقية ، وفضلت الفرار في اتجاه الصحراء . وتمكن السلطان في فترة لاحقة من القبض على مشائخها بعد نحو ثلاثة أشهر (18 ذي القعدة) .

وأصبح الامير أكثر تدخلا في مستوى تعيين المشائخ وعزلهم ، فيما يخص فروع قبيلة أولاد المهلهل التي تعددت آنذاك : أولاد مسكين ويعقوب والشنانفة وأولاد يحيى وسلطان وعون (2).

وبهذا تحولت المشيخة الى مؤسسة خاضعة للسلطة المخزنية ، بعد أن كانت تطورت على هامشها ، وهو ما يؤرخ لمنعرج جديد في طبيعة علاقة هذه القبائل بالسلطة المخزنية.

– الطور الثالث : مشائخ أولاد مهلهل وأولاد أبي الليل في مطلع العصر الحديث (إبان الاحتلال الاسباني): نشأت فروع جديدة من رحم هذه القبائل في

(1) المصدر، **نفسه** ، ص 145–147.
(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 153–154 .

نهاية العصر الوسيط ، وهو أمر ناجم عن انصهار عدة قبائل ، وإعادة صياغة البنية القبلية بوسط إفريقية وتلولها ، كما تبينه لنا القوائم التالية . ومن الواضح أن هذه التركيبة الجديدة ظلت فاعلة طيلة العصر الحديث والمعاصر . لكن دورها العسكري تضاءل ، بعد أن بدأت نار المدفعية تعوض السيف والرمح . ومن حسن حظنا أن التقارير العسكرية الاسبانية سنة 1534م تركت لنا لوحة دقيقة عن وضع هذه القبائل، وتقسيماتها ومشائخها وعدد محاربيها ومجالها الذي استقرت به . وهذه أهم فروعها:

* أولاد شيحة بن يعقوب بن كعب :وهم أبناء عم كعب بن علي بن يعقوب بن كعب جد أولاد أبي الليل ومهلهل .تكونت القبيلة من أربعة مشائخ ، قادرة على تعبئة 1500 فارسا

– أ. عبد الغفار بن القلفي وأخوه ، من أولاد علي ، نزلوا بشرس أم أحمد ، بين باجة والاربس ، وهو ما يوافق إشارة الوزان الى بني علي بشرس ، وجندوا 500 فارسا.

– أ. سلطان ومنصور بن فهد : بناحية عنابة ، وهم حاليا بالسهول الكبرى لوادي مجردة ، يجندون 1000 (1).

* أولاد أبي الليل : انقسمت القبيلة الى مشائخ ستة ، على رأسهم شيخ عبد الملك، على أنه من الواضح أن هذا الاخير وعبد العزيز وأولاد منديل هم إخوة لأبي الليل، حسب ابن خلدون ، ويبدو أنهم انصهروا في مرحلة لاحقة في قبيل واحد . بلغ عدد فرسانهم 1500 . وكانت تنزل كلها في سهل زراعي خصب ، بناحية باجة وماطر .

–عبد الملك : نزلوا الجبال حول باجة ، ولهم 400 فارس .

– عبد العزيز : نفس المجال ، ولهم 200 فارس .

–صولة : ذكر أ. صولة بن خالد بن حمزة منذ القرن الثامن هـ ، نزلوا نفس المجال، وكان لهم 200 فارس .

–علي بوشينة : بناحية باجة ، كان لهم 300 فارس .

– أولاد منديل : نزلوا بناحية ماطر ، وكانوا يجندون 150 فارس .

(1) الوزان ، **وصف إفريقيا** ، ج II ، ص 68 .
Document Inédit sur L'Histoire de L'occupation Espagnole en Afrique (1506-1574) Mémoire sur Les Cheikhs et les Arabes de Tunis (1536), In **Revue Africaine**, 1877, p. 218.
Notes sur Les Tribus de La Régence , **In Revue Tunisienne** , 1902 , p . 4-22.

– منصــور بن طورق : ولعل الاسم الصحـيح منصــور بن خالد بن صــولة ، شيخ أ.بليل في نهاية القرن الثامن هـ ، نزلوا بناحية ماطر ، ولهم 300 فارس (1).

* أولاد مهلهل : تتكون من ستة مشائخ و1400 فارس ، وكان نزولهم جنوب غربي أ. بليل ، بين بـاجة والاربس ، أو باجة والقـيروان .وفي كلتا الحـالتين ، فان انزياحا طفيفا في اتجاه الشمـال خص المجال القبلي للكعوب ، الذي كان في البداية بناحية القيروان ، وذلك بسبب الفراغ الديموغرافي الذي عرفته البلاد التلية ، بفعل تتالي المجـاعات والأوبئـة .ومن الواضـح أن هذه المشائخ المنتـسبة لاولاد مـهلهل كانت تنتمي في الاصل الى قبائل عربية أخرى أوحتى بربرية :

–مشـيخـة ابن أحمد بن مـسكين :وهي من أقوى المشـائخ بهذه القـبيلة ، ولا ندري أي الاسـمين اللذين ذكرهمـا ابن خلدون يناسب : مـسكيانة بن مـهلهل ، أم مـسكين بن عامـر بن يعـقوب ، من بني حكيـم . كانت نازلة بين باجـة والاربس ، وتجند 500 من المحاربين.

–المراغيم وأولاد سـديرة : إذا كان مـرغم حسب ابن خلدون من بني مـهلهل ، فان سديـرة يبدو مقتـرنا باسم بربري (سدرا / سدراتة) .كانوا نازلين بنـاحية الصحراء، بزعفران (طريق قفصة) ، ولها 500 فارس .

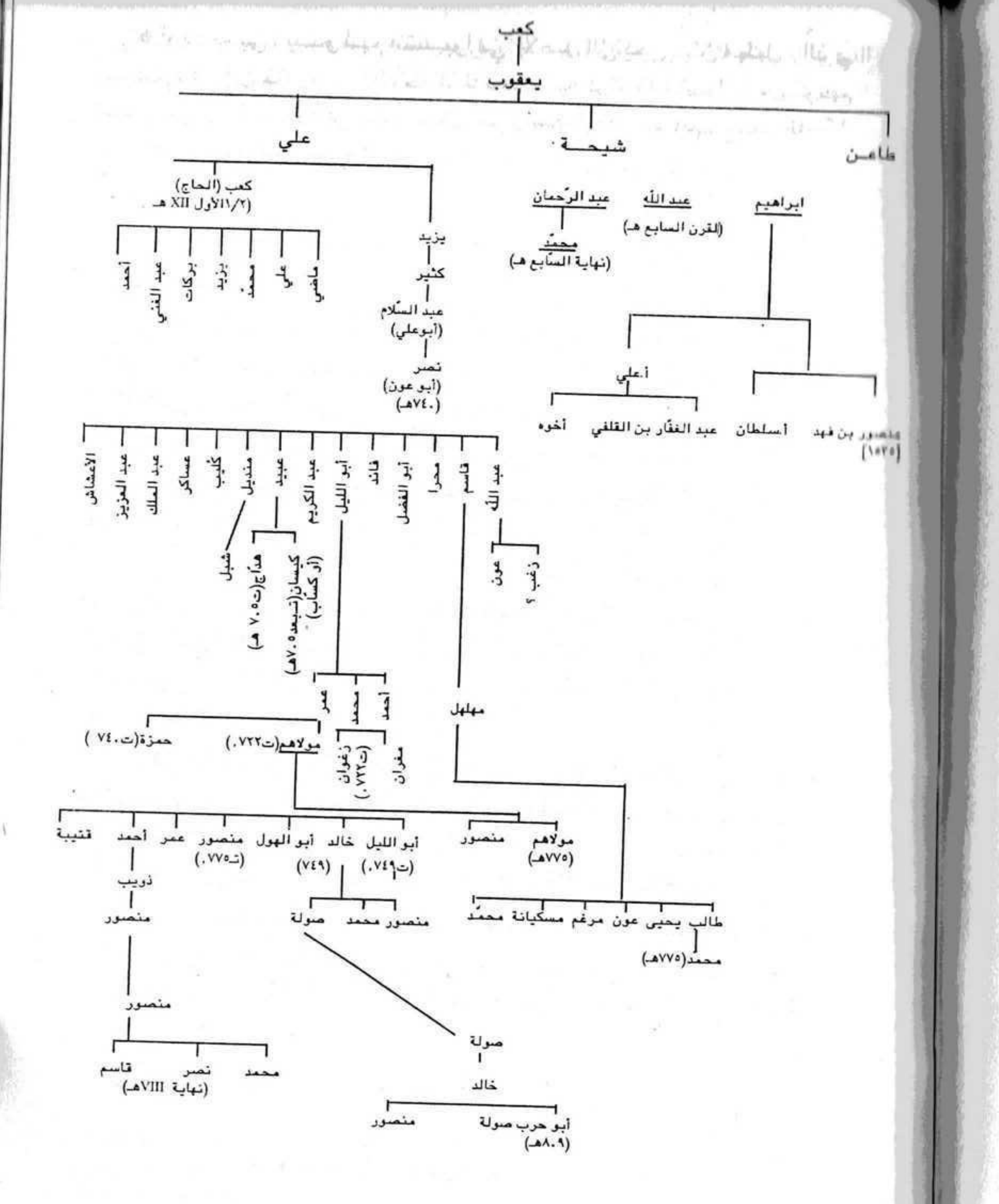
– أ. عون : نسـبة الى عون بن مـهلهل ، الذي ورد ذكره في ابن خلدون، كـما أشار الزركشي الى هذه النسبة . نزلوا بناحـية جبل ، به 200 قرية ، بين القيروان وباجة ، وهو ما يناسب مجالهم الحالي . لهم 200 فارس .

–أحمد بن رقي : نزلت مشيخته بنفس الناحية ، وكانت تجند 100 فارس .

–أحمد بن أحـمد بن إدر : من الجلي أن أصل هذه العشيـرة بربري ، كما يدل عليه هذا الاسم المتداول . أصبحت تنتسب الى أولاد مهلهل ، نتيجة تعربها . ونزلت بنفس الجبل السابق ، لها 100 فارس .

---

(1)الزركشي ، **تاريخ** ، ص 153. أورد مقديش (**نزهة الانظار** ، ج II ، ص 306) ذكر أولاد صولة الذين كفلوا يعقوب الذوادي ، صيد عقارب .أما بطن بني علي من أولاد أبي الليل ، فقد كتب الوزان (**وصف إفريقيا** ، ج II، ص68–67) متحدثا عن حرابتها وتخريبها لقصرشرس الواقع على وادي مجردة ، هنشير الجمل حاليا ،بين قريش الواد و برج العامري ، وقال : « كانوا يثورون دوما على ملك تونس ولايعـيشون الا من النهب والفتك والسلب للفـلاحين المساكين ».وبعد عشر سنـوات من هذا التاريخ ، ذكر مارمول (إفريقيا ، ج III ،ص 96) أن بطونا من أولاد أبي الليل تقطن شرس ، وأخرى ما بين باجة والاربس .



* أولاد يحيى : يبدو أنهم انتسبوا في الاصل الى يحيى بن مهلهل ، الذي ورد ذكره في ابن خلدون ، وذلك خلافا لما ذهبت اليه الوثيقة الاسبانية من كونهم تسموا برياح . انقسموا الى مشيختين على رأسهما علي وسالم وجمعوا 1500 فارس. نازلين بين القيروان وتبرسق (1).

-بنو حصن بن علاق :

بنو حكيم :

نزلوا سنة 630 هـ / 1232م بأطراف بلاد الساحل بين سوسة والجم ، مشكلين بذلك خطا دفاعيا شبيها بالحصون البيزنطية .وكان المنتجعون منهم أحلافا لبني كعب، يتداولون بين أولاد مهلهل وأبي الليل (2).

ذكر من بين فرقهم في بداية القرن السابع هـ / الثالث عشر م : أولاد جابر، ويبدو أنهم كانوا من أصحاب الرئاسة ، حتى أن أعرابيا اشتكى ظلمهم لأحد صلحاء البدو بالقيروان ، أبي يوسف الدهماني (3).

وفي نهاية هذا القرن ، كان بنو وائل أحد بطونهم الاخرى النازلة بناحية القيروان، وقد اشتهر منهم أولاد عبد الرحيم ، وخصوصا ميمون بن كرفاح الوائلي ، الذي أقطعه المستنصر هناشير شاسعة بناحية القيروان ، لمشاركته الفاعله في حرب الصليبيين. كما اشتهر أنذاك من حكيم بطن أخر ، وهم بنو أحمد النازلون شمال الجريد ، على طريق القيروان (4).

أما في مطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ، فقد استقرت رئاستهم في أولاد يعقوب بن عبد السلام بن يعقوب ، الذي وفد على السلطان أبي يحيي أبي بكر بالبلاد الغربية لمساندته في تولي الحكم سنة 718هـ / 1318م . فراعى له ذلك ورأسه على قومه . لكن بني كعب تخلصوا منه قتلا لمنافسته لهم .

وتولى الرئاسة بعده ابن عمه ، محمد بن مسكين بن عامر بن يعقوب بن القوس، الذي ظل على مساندته للحفصيين . وبعد موته ، عوضه ابن أخيه خليفة بن عبد الله بن مسكين ، وهو أحد الاشياخ الذين قبض عليهم أبو الحسن المريني عند وقعة

(1) Documents Inédits .. op. cit. , p. 218-219

(2)التجاني ، **رحلة** ، ص65،55.

(3) **مناقب الدهماني** ، ج I ، ص 153.

(4) ابن ناجي، **معالم** ، ج VI ، ص 164،66. الغبريني ، **عنوان الدراية** ، ص 100 . حول إقطاع الوائلي ،راجع الباب الخاص بالاقطاع ، في الفصل الثاني.

القيروان سنة 749هـ / 1348 م ، ثم أطلق سراحه . وقد مكن تغلب الاعراب على المرينيين من سيطرة بني مسكين على مدينة سوسة ، التي تحولت الى إقطاع لهم ، فكان نجعها ينزل حول المدينة خلال النصف الثاني من القرن الثامن (1).

وشهدت هذه الحقبة انقسام القبيلة الى مشيختين مختلفتين : أولاد يعقوب بن عبد السلام الذين تزعمهم عبد الله بن محمد بن يعقوب ، وانضموا مع أولاد مهلهل الى جانب السلطة ، وأولاد مسكين الذين عينوا أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين ، الملقب بأبي صعنونة ، واختاروا صف المعارضة مع أولاد أبي الليل. مما سهل على السلطان أبي العباس أحمد مهمة انتزاع سوسة من أيديهم ، وتشريد المعارضين الى الصحراء ، فيما منح أولاد يعقوب الرئاسة التي تولاها عبد الله بن محمد الراوي .

على أن أولاد مسكين ، شأنهم في ذلك شان أولاد أبي الليل ، ظلوا قوة لا يستهان بها في القرن الموالي ، وقد ذكروا في إحدى سنين الشدة (839-837 هـ/ 1435-1433م) في ضاحية مدينة تونس بمرج الزواغين ، وكان على رأسهم سعيد بن أحمد بن أبي صعنون الحكيمي ، الذي كانت السلطة راغبة في التخلص منه باعتباره صاحب الكلمة المطاعة في كافة عرب إفريقية (2).

بنو علــــي :

انتشر هذا القبيل السليمي الذي ناصر السلطة الحفصية بساحل إفريقية منذ سنة 630 هـ / 1232م . وفي مطلع القرن الثامن هـ/ الرابع عشر امتد مجاله من الجم الى قصر مباركة شمال قابس ، وكانت بينه وبين حكيم والطرود والكعوب أحلاف (3).

غير أن هذا القرن شهد انتفاضات متتالية لهذه القبيلة على غرار تحركات الكعوب وذلك لأسباب عديدة ، مرتبطة بالأوضاع الجغرافية و السياسية للبلاد، وبإقتطاع أجزاء هامة من مجال بني علي في الأطراف الجنوبية ، قرب مدينة صفاقس و انتصاب زوايا و معمرين غرباء بهذه الأوطان . فكيف تمت هذه العملية؟

على إثر مشاركة هذه القبائل في حركة ابن أبي عمارة سنة 681-679هـ / 1282-1280، وسيطرة الصقليين على جزيرة جربة سنة 684هـ / 1285 م ، سعى المخزن الى توطين مجموعات أكثر ولاء لمراقبة تحركات البدو في منطقة استراتيجية شمال قابس ظلت ملتقى سنويا ومجمعا لميعادهم في وادران ، و ربما

(1) ابن ناجي، **ن.م.**، ج VI ، ص35. ابن خلدون، **تاريخ**، جVI ، ص165-162. لا يستبعد أن تكون تسمية مساكن القريبة من سوسة مقترنة بأولاد مسكين الذين سيطروا على هذا المجال.

(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 138.**مناقب أحمد بن عروس** ، ص 210 . ويبدو أن أولاد يعقوب الذين ذكرتهم الوثيقة الاسبانية ضمن قبائل الكعوب أنهم من أصل حكيمي، وانصهروا نتيجة تحالفهم مع فرع مهلهل.

(3) التجاني، **رحلة**، ص85-65. ابن خلدون، **تاريخ**، جVI ، ص167-165.

كذلك لحماية السواحل من الهجومات النصرانية . و هكذا تم اقتطاع جزء من مجال بني علي وتحبيسه على زاوية مهذب في مطلع القرن الثامن هجرى / الرابع عشر ميلادي (سنة 717هـ / 1317م).

وحسبما ورد فى وثيقة ، فان مهذب بن بلقاسم المكنى بأبي علام الشريف هو أحد الوافدين على البلاد من المغرب الأقصى و الذي منحه أبو زكرياء بن اللحياني «كل الأراضى والزياتين بمنطقة المثاليث بجانب قابس»(1) .

و فعلا أشار الزركشي الى أن ابن اللحياني أقام بقابس مدة سنة 717 هـ ، فى تلك الفترة الحرجة التي بدأ فيها غزو أبى يحيى أبى بكر للبلاد إنطلاقا من بجاية (2) . ولعله عمد إلى هذا التحبيس كسبا للأنصار، غير أننا لا نملك ما يثبت ذلك، و لا نعرف مدى اتساع هذا الحبس .و ما هو ثابت هو أن المجموعات البشرية المذكورة كانت موجودة وقتذ اك ، وهي على التوالي :

– المهاذبة : ذكرت هذه القبيلة في النصف الثاني من القرن الثامن جنوب سفاقص .

– بنوعلي :هو الاسم القديم للقبيلة النازلة بهذه الجهة ، ولم تظهر تسمية المثاليث الا في العصر الحديث .

– نفاث: من بين المجموعات القبلية الضاعنة جنوب إفريقية ، منذ مطلع القرن السابع هـ /الثالث عشر م ، ومن المرجح أن تكون تسميتها مقترنة بالفرقة الاباضية النفاتية ، نسبة الى نفاث بن نصر القنطراري ، من أعلام القرن الثالث هـ بالجريد (3).

وعلى أية حال ، فلئن صح أمر التحبيس وقتذاك ، فان امتداده كان ضئيلا ، وقد تم لصالح المجموعات المستقرة والمنتجعة من هراغة (هوارة) ، وعلى حساب المجال القبلي لبني علي .

(1) ابن خلدون ، **نفسه** ، ج VI ،ص 149(منذ عهد المستنصر ، أقطع بنو حفص شيخ الكعوب أربعة قرى بناحية صفاقس ، بالجريد وبافريقية ، أي البلاد التلية) .الكراي القسنطيني ، الارياف المحلية والرأسمال الاستعماري ، ظهير سفاقص ، تونس 1992 ، ص 154– , 150 123.

J. Despois , **La Tunisie Orientale , Le Sahel et la Basse Steppe** , p, 166, 275 .
H. Gantès , **Le Habous de Sidi Meheddeb et ses occupants** (ms) ,In
Archives des Inspections du Contrôle civil !938 .

(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 65.

(3)بن خلدون ، **نفسه** ، جVI ،ص 586(ذكر تحالف نفات مع رياح وبني غانية في موقعة نفوسة ضد الموحدين ، سنة 606هـ / 1209م) .ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ،ص 164 ،وحول أصول النفاثية ، انظر كتابنا : القبائل والارياف المغربية ، ص 123– 129.

وبديهي القول إن مؤسّسة الزاوية ساهمت أنذاك في استقرار البدو وتوطينهم، وانتقالهم من الانتجاع والحرابة الى زراعة الارض . وقد عرفت إفريقية هذا المسار في فترة بدأ فيها التفكك القبلي وضعفت العصبية .

ولم تكن زاوية مهذب هي الوحيدة التي تربعت بهذه المنطقة ،إنما نشأت زاوية ثانية غر ب مدينة صفاقس ، لابراهيم بن يعقوب الذوادي المسمى بصيد عقارب ، وهي لا تعدو أن تكون نطقا عاميا لكلمة أسد . كانت أسرته من الذواودة المنتجعين بالبلاد الغربية ، حلت بافريقية على إثر مجاعة أصابتهم في النصف الاول من القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م ، لكن أبويه ماتا مبكرا ، فكفلته أسرة عامر بن جامع ، من أولاد صولة من الكعوب ، وشب على الفروسية حتى كانت له مشاركة تذكر في التصدي لقبائل بدوية منافسة للكعوب بوادران ، الذي كان ميعادا سنويا للقبائل عند نزولها الى مشاتيها بالصحراء . ثم أصبح قائدا لمجموعة من الفرسان بها إثنان وستون رجلا ، تتولى الاغارة على القوافل ، وفي إحدى الغزوات التي اعترض فيها قافلة محملة بالجلد والنحاس ، متجهة من القيروان الى المحرس ، التقى بغفير القافلة ، الصالح أبي الحسن العبيدلي . ومثل هذا الحدث ، حسب الرواية المناقبية ، منعطفا في سيرة المحاربين ، الذين تخلوا عن السيف ، وفضلوا الاستقرار، باستثناء إثنين من بني زيد، من قبائل الهلالية النازلة جنوب غربي القيروان بالسواسي.

نزلت هذه المجموعة البدوية غير بعيد عن صفاقس ، بواد أصبح يطلق عليه واد عقارب ، وهنشير أصبح يكني بهنشير الستين ، قرب بئر العرائش ، الذي ذكرته السيرة الهلالية ، مثلما ذكرت من قبل وادران . وهذه الاحداثيات وحدها كفيلة بتحديد الخط الفاصل بين المدينة وناحيتها من جهة ، والمجال البدوي من جهة ثانية.

انتقل دور المحاربين الى حماة للمزارعين ، الذن يقدمون لهم مقابل ذلك إتاوة ، تؤخذ تحت إسم زكاة المواشي والحبوب ، مما شجع على امتداد مجال صفاقس الزراعي. وفي المقابل ، نظرت القبائل المنتشرة هناك الى هذه الزاوية المنتصبة وسط أراضيها والمشرفة على الحركة التعميرية نظرة ريبة ، فكانت قبيلة بني عثمان، من بني علي، تشن الغارات المتتالية عليها في بداية أمرها ، لكن ذلك لم يحد من تدعيم دورها، وامتداد الاراضي المستصلحة ، الذين حظيا بموافقة السلطة وأهل الحضر والمزارعين .

وحصيلة القول، إن انتصاب الزوايا وتعميرالاراضي البور وقع على حساب المجال البدوي لبني علي في أواسط القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م (1).

وقد نجم عن هذا المسار انخرام توازن القبيلة التقليدي ، التي أصبحت مشدودة بين الخضوع للمتطلبات الاقتصادية الجديدة ، من استقرار وارتباط أكثر بمتطلبات السوق التجارية المتوسطية ، بمعنى توفير الصوف والجلود للتصدير ، أو رفض الحل الثاني ومواصلة حركة الانتجاع في مجال متقلص ومايعني ذلك من اغارة على المزارعين والحضر . وتزخر كتب التاريخ بمثل هذه الاعمال التي تدل على مدى اهتزاز البنية القبلية، خاصة على إثر أزمة أواسط القرن الثامن الهجري .

وتوضيحا لهذه الصورة ، اخترنا بعض النماذج الدالة على طبيعة رد الفعل البدوي: ففي هذه الحقبة ، كانت قبيلة الحجري من بني علي متميّزة على غيرها بكثرة غاراتها، فقد شنت الغارات في الأطراف في اتجاه ناحية القيروان وقرى الساحل ، وخصوصا على قبيلة المهاذبة التي توسعت على حساب مجالها (2).

خصت حرابتهم ماشية أهل القرى ببلاد الساحل وهراغة النازلة بالمهاذبة ، وكان يشترط دفع غرامة مالية لارجاعها ، وكذلك الانتاج الزراعي بهراغة وسهل القيروان والهوارية بالجزيرة القبلية .

واستهدفت نوعين من الثروة على مقربة من القيروان : أولا الريع العقاري للحبس المحمول من الجريد الى رباط المنستير ، والاتاوات التي يمنحها أولاد أبي عيسى من بني وشاح بالجنوب الشرقي الى المناري بالقيروان ، و ثانيا أحمال الصوف والجلد والنحاس السالكة طريق القيروان- سوسة أوالمحرس قبيل أواسط القرن الثامن هـ (3).

وحصيلة القول ، عنت هذه العمليات ثلاث قوى أساسية : المزارعين والمستقرين جنوب بني علي وشمالهم ، وخاصة المنتفعين بالاحباس والاقطاعات

---

(1) مقديش ، **نزهة الانظار** ، ج II ،ص 316-306(ابراهيم بن يعقوب الذوادي – صيد عقارب – ثم عقبه على رأس الزاوية ابنه حامد – ثم نصير بن حامد . وأصبحت تسمية العقاربة تعني قبيلة واقعة غرب سفاقص).
R. Brunschvig , **Les Hafsides** , T I , p. 311 .

(2) ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVI ، ص 164 ، 212 ، 213. وقد ذكر بني الحجري تارة من بين قبائل حكيم ، وأخرى بني علي . غير أن بقية المصادر ، وخاصة ابن ناجي اعتبرها علوية النسبة . ولهذا عددناها من بين هذه القبائل ، خلافا لما ذهب اليه برانشويك (ن.م. ، ج I، ص 313-312)، من كونها من حكيم . ومن جهة ثانية خلفت لنا المأثورات الشعبية مقولات عديدة مقترنة بحرابة هذه القبائل ، انظر أيضا : La Primaudaie , **Documents Inédits** ..op. cit. , p . 215-218

(3) ابن ناجي ، ج III،ص 209 ،ج VI، ص 163 ، 164 ، 171 ، 173 ، 182 ، 183 ، 210 ، 211 ، 212 ، 232 ، 141-106 ، 123 ، 140 . راجع أيضا فصل الحرابة .

السلطانية بهنشير المهاذبة وناحية القيروان والجزيرة القبلية ، لما يمثل ذلك من ضغط على امتداد المجال القبلي ، والزوايا المستخلصة للريع العقاري والاتاوات والدافعة لحركة الاستقرار، والمنافسة للقبيلة في سلطتها ، والتجار الوسطاء الذين كانوا يتولون نقل ثروة الماشية من جلود وصوف ، والمواد الاولية مثل النحاس ، الى المواني الساحلية (سوسة والمحرس في اتجاه قابس و جربة) ، لتصديرها الى المدن التجارية، في إطار علاقات غير متكافئة أدت الى نزيف للثروة المنجمية والحيوانية . و تبدو لنا بهذا حركة منظمة، لكنها محدودة الفاعلية على الامد البعيد ، لان هذه الانتفاضة لا تعدو أن تكون الاحتضار الاخير لقبيلة بدأت تتخلى عن انتجاعها ورحلتها، وترغم على الاستقرار .

ولئن مثل بنو حجري النواة النشيطة داخل هذه القبيلة ، منتجعين في مجال ساحلي ممتد من شمال قابس الى مشارف مدينة تونس ، فإنّ سائر أقسام بني علي بدؤوا يركنون الى شبه الاستقرار بين الجم وصفاقس منذ مطلع القرن الثامن هـ.

وقد رسم لنا ابن خلدون خلال النصف الثاني من القرن الثامن هـ / الرابع عشر لوحة مضطربة عن هذه القبيلة . وكانت رئاستها وقتذاك في أولاد صورة (ولعل الصواب صولة) بن مرعي بن حسن بن عوف ، وشيخهم أبي الليل بن أحمد بن سالم بن عقبة بن شبل بن صورة ، وكان يرادفها المراعية في الرئاسة. أما بطونها ، فقد نسب بعضها، مثل آل حسين والجميعات ومقعد تارة الى حكيم ، وأخرى الى بني علي . ولعل مرد هذا الخلط وجودها في المجال الفاصل بين القبيلين . كما كانت الشكوك تحوم حول صحة انتماء الحجري والطرود الى بني سليم (1).

ومن الادلة الاخرى على مدى وهمية النسب القبلي ، وكيفية تشكل شجرة الانساب المكونة من تركيبة فسفسائية نحتت عبر العصور ، بفعل التطور التاريخي وانتقال المجموعات البشرية من البداوة الى التحضر ، أو العكس في فترات التبدي ، ما ذهب اليه ابن خلدون عند ذكره للبدارنة والحاقهم خطأ بنسب بني علي . وهو أمر يستدعي منا تدقيقا ، لان سوق بدرنة كان سوقا فاعلا وسط غابة الزيتون بناحية جبنيانة في القرن الرابع هـ / العاشر م ، لكن تفكك البنى الزراعية والحضرية التقليدية في القرنين الخامس والسادس ، وتلاشي غابة الزيتون والنسيج القروي الناشئ حولها ، أديا بأهل بدرنة الى تغيير في نمط حياتهم ، بل وفي انتسابهم . فقد أصبحوا منذ أن حل بنو علي بربوعهم سنة 630

---

(1) التجاني ، **رحلة** ، ص 65-85. ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ،ص 162-167.

هـ / 1232 م يعـدون من بين بطون القبـيل العـربي ، ويتسـمون على غـرارهم بالبدارنة ، وظلوا كذلك الى حد عصرنا الحالي .

وبديهي القـول إنه ليس المثال الوحـيد في تبـدي الحضـر ، لانه إذا نظرنا في المجموعات المنتسبة في العصر الحديث لهذه القبيلة ، عثرنا على أسماء بربرية عدة مثل المسـاترية (نسبة الى مـستيـرن- مصتـورين من زناتة) والكراوة (إكراو- إكراين) ، ويتضح الامر أكثر إذا ما نظرنا في أسماء الاعلام داخل كل مجموعة (1).

وهو ما يفضـي بنا الى خريطة بشرية وإسكانية شـديدة التعقيـد : حضر من أهل القـرى والاسـواق تبـدّوا ، وبدو من أهل الـوبر من بني علي شـرعـوا في الاستقـرار . وحسبنا دليلا على ذلـك أن أسماء المجموعـات الوارد ذكرها في بداية العهد الحفصي لم تنقرض في عصرنا الحالي من المجال الممتد بين الجم والمحرس ، من ذلك أسمـاء أولاد سليم والمراعية والحـجارة والجمـيعات والحـسينات وأولاد الاحمر والعقاربة والمهاذبة .

وفي الجـملة ، ليس من المسـتبعـد أن يكون القـبـيل العلوي تشكيلة جـديدة تبلورت إبّان الازمة الحادة التي اجتاحت البلاد في أواسط القرن الثامن ، وأدت الى إفراغها من أهلها ، وإعادة صياغة للعناصر البشرية المكونة لها ، إذ أننا لا نعثر على هذا الاسم قبل ذلك التاريخ . ففي رحلة التجـاني ، هناك ذكر لبني حصن في مجال محدد بين الجم وقصور مـباركة ، لكن الحقبة الموالية شهـدت تغيرا للاسم وكذلك للمـجال ، الذي مـا انفك يمتـد ، حتى بلغ في مطلع الـقرن التـاسع ناحيـة .تونس والقيروان ، حيث قامت القبيلة بشن الغارات وقطع الطرقات ومحاصرة المدن(2).

ونشطت فـاعلية هذه القـبـيلة المتاخـمة للـسواحل من جـديد أثناء الاحتـلال الاسباني، إذ امـتد نفوذها على كامل السواحل ، مـن بنزرت الى جنوب صفاقس ، بعد أن توسّـعت على حساب الطرود وبني حكيم ودلاج ، الذين تحوّلـوا الى مجرد فروع تابعـة لها أو لأولاد سعـيد من بني هلال .وكـانوا آنذاك قادرين على تعبـئة 5000 فارس أثناء مقاومة المحتل الاجنبي (3) .

---

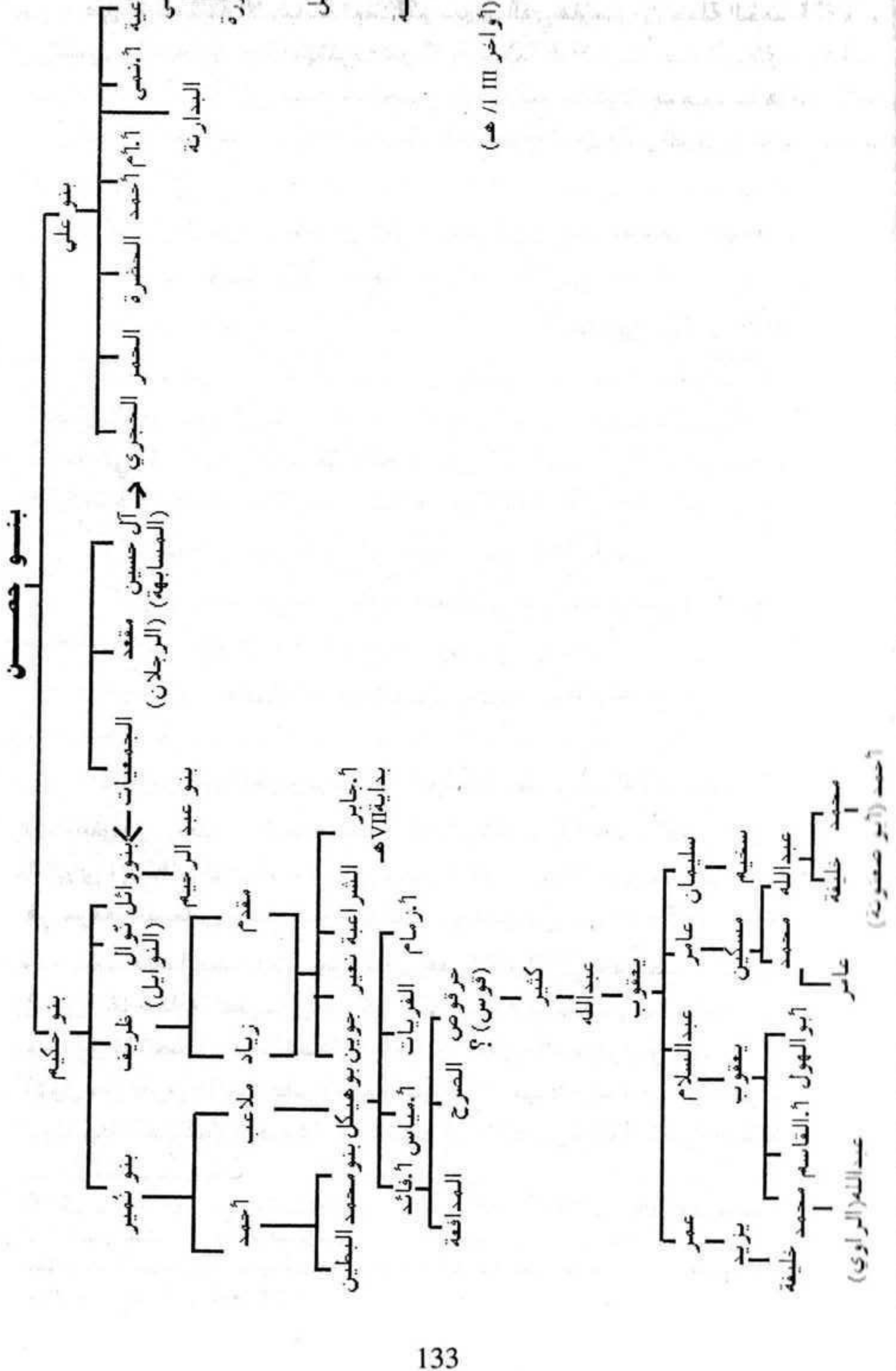
(1) **مناقب أبي إسحاق الجبنياني** ، ص 37. ابن خلدون ، **نفس الاحالة** . الخريطة الطوبوغرافية ، ورقة الجم (ورد ذكر هنشير الحجارة جنوب غربي الجم ، رتبة المراعية ، هنشير الجميعات) ، وفي ورقة جبنيـانة (هنشير بني عوف جنوب غرب المدينة) الخ .حول كراوة ومستورين ، انظر :

A. Bouzid , **Catalogue des Tribus Berbères Butr** , p. 304-306 (Karawa), 267(Masitrin).

(2) **مناقب ابن عروس** ، ص 484 . الزركشي ، **تاريخ** ، ص 138(وقد كانت مواليـة للسلطة المخزنية في أحداث سنة 840 هـ

(3) انظر : R. Brunshvig , **Les Hafsides** , TI , p. 312-313

La Primaudaie , **Documents Inédits** ... op. cit. , p. 215-218



غير أن الوثيقة الاسبانية لم تذكر سوى ألفي فارس من جملة الخمسة آلاف، وثمانية مشائخ من جملة الاثني عشر، لان الثلاثة الباقية خاضعة لسلطة عبد الملك، من أولاد أبي الليل وابن ضياف أحمد بن مرابط من أولاد سعيد، وهذه قائمة المشائخ : – أولاد الحاج (ولعله تحريف للحجري):بين رأس الجبل وبنزرت، عدد فرسانهم : 300.

– أولاد أيدل (ولعل الصواب هذل) : مجاورون للبطن السابق، ولهم نفس العدد.

–أولاد بو رخيص : نفس المجال، لهم 150 فارس.

– إسم غير واضح لبطن ينزل شمال جزيرة جربة بعشرين ميلا، وله 300 فارس.

– أولاد نصر : لهم مائة مقاتل ومجالهم ممتد بين المهدية وصفاقس، وهو المجال الذي خص بني علي منذ مطلع القرن الثامن، وربما منذ سنة 630 هـ، ثم أصبح في آخر العصر الوسيط مقتصرا على أولاد نصر. وقد استمرت هذه التسمية في الفترة المعاصرة، لكن انحسر مجالها بين الشابة –الجم –قصور الساف.

–أولاد شيمة (ولعل الصواب سليم) : لهم 600 فارس.

– المزاية (والصواب المراعية) : ويسمى شيخهم الحسين، نازلون بناحية صفاقس التي كانت خاضعة لسلطتهم، لهم 150 فارس.

–البحير (ونفضل قراءة الحجري) : نازلون بالمرتفعات بين المهدية وسوسة (1).

– قبائل رياحية أخرى بإفريقية التونسية : بنو زيد، أولاد سعيد :

بنو زيد: تعدّ من القبائل الهلالية التي ذكرت بأطراف بلاد الساحل منذ العهد الزيري، إذ كانت لها مشاركة الى جانب قبائل عربية أخرى مثل بني دهمان ورياح في موقعة الديماس، التي وقع فيها التصدي للنورمان سنة 517هـ / 1123م.

ومنذ ذلك العهد، لم يتغير مجال هذه القبيلة الى حد عصرنا الحالي بناحية الجم، رغم عملية الطرد من إفريقية التي خصت الرياحيين سنة 630 هـ / 1232 م. ومن الملاحظ أن هذه المجموعة لم تركن الى الاستقرار و الهدوء في النصف الاول من القرن الثامن، فقد انضم بعض محاربيها الى إبراهيم بن يعقوب الذوادي ورفضوا «التوبة» لما انصرف هذا الاخير الى تأسيس زاوية بناحية صفاقس.

---

(1) نفس الاحالة الاخيرة. وفي وثيقة إيطالية أخرى مؤرخة بسنة 1587 م، (Lanfreducci et Bosio, p 510) ذكر أن المجال القبلي الممتد بين طرابلس والقيروان كان تحت رئاسة شيخ واحد، وهو الحاج أمين، وكان له فرسان أقوياء يصل عددهم ثلاثين ألفا، وكان عدوا للاتراك الذين قتلوا أباه. أما المجال الممتد بين برقة وطرابلس، فقد كان تحت إمرة الشيخ عبد الله، وهو بدوره قوي، ومعاد للاتراك.

أولاد سعيد: نزل بنو سعيد قبل سنة الاخماس بالبلاد التلية، بناحية طبربة، وكان أميرهم آنذاك محمد بن سباع. ومنذ أن سيطر الموحدون على البلاد، دحروا في اتجاه الجنوب، وأصبحوا منتجعين في الصحراء، عاقدة الحلف مع الذواودة، وخصوصا أولاد محمد، فيما تحالف أولاد مسلم والاخضر مع أولاد سباع.

وكانت رئاستهم في القرن الثامن هـ في أولاد يوسف بن زيد، وتحديدا في فرع أولاد عريف بن يعقوب بن يوسف، الذي كان له اتصال بابن خلدون.أما البطن الثاني في هذه القبيلة، فانه أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف، وهم حسب صاحب المقدمة « من رياح بالحلف والموطن ». وقد تضخم عددهم نتيجة أنظمام لفائف عدة اليهم، من قبائل عربية مثل المخادمة والغيوث، وبربرية مثل الفجور (من لواتة وزناتة ونفاث) (1).

وبالتالي، فإن قبيلة أولاد سعيد، كغيرها من القبائل العربية، تبدو غير متجانسة، متعددة الأصول، من بربر وعرب، وهو ما يأتي دليلا على أن حركة التعرب لدى هذه القبائل البربرية لم تقتصر على اللسان، إنما شملت كذلك النسب.

وقد بقي بنو سعيد ضاعنين في أطراف إفريقية، بالمجال الصحراوي، حتى أواسط القرن الثامن هـ. لكنهم بدؤوا في التحرك في أتجاه التلول، على إثر الازمة الكبرى لهذا القرن، مستغلين في ذلك ضعف دول المغرب، حتى أنهم بلغوا المجال الزراعي لبني زيان، الذين عدوهم من بين القبائل المحاربة، الى جانب الديلم وسويد وبني عامر، وبعث علماؤهم الى ابن عرفة سنة هـ 796/ م، يستشيرونه في قتالهم (2).

ويبدو أن محاربتهم بالمغرب الاوسط ألجأتهم الى الانزياح الى ناحية الشرق، والرجوع ثانية الى إفريقية. وبالتالي نزلوا من جديد بناحية وادران، في أواسط القرن التاسع (3).

وادران هي إسم بربري، يوجد في أكثر من مكان، ففي جربة ذكر موقع وادران وجبل وادران، وفي جنوب شرقي البلاد التونسية، توجد قبائل وادين، التي أصبحت تعرف فيما بعد بالودارنة، أما الثالثة فهي تقع بناحية المهاذبة، حيث قبيلة نفاث، في الخط الفاصل بين ناحية صفاقس و قابس، بين وسط إفريقة وجنوبها. وقد مثلت طيلة التاريخ الهلالي محطة هامة، لموقعها الاستراتيجي المتميز، حتى أن الروايات المتداولة تذكر أن دخول بني هلال كان انطلاقا من هذه النقطة.

---

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 67–77، 347–348.

(2) الونشريسي، **المعيار**، ج VI، ص 153–157.

(3) ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 169–170.

و بالتالي ، كانت لوادران أهمية كبرى في تطور المجال القبلي ، طيلة الحقبة الموحدية – الحفصية ، ومما يأتي شاهدا على ذلك أن الأمثلة المتداولة في شأنه(1).

وإلى جانب زخم التراث الشعبي الذي يزخر بالاشارات الى هذا المكان، فان التاريخ الرسمي لم يهمل بدوره هذا المكان ، منذ عهد الخليفة المنصور الموحدي، الذي نهض سنة 583 هـ / 1187م ، للتصدي للحلف البدوي المكون من بني رياح وبني غانية، فلاحق هذه القبائل من وادران الى ناحية قفصة ، فحامة مطماطة (2).

وقد ظل هذا المجال منتجعا للقبائل السليمية ، من الكعوب وبني علي وحكيم وغيرها طيلة العهد الحفصي، وكان ملتقى سنويا لها ولميعادها ، يقع فيه التشاور حول المسائل السياسية الداخلية (مثل اختيار الشيوخ والرؤساء) و الخارجية (التي تخص علاقة القبائل بالسلطة) (3) .

وبرز دور هذا الخط من جديد في أواخر العهد الحفصي ، ففي عهد السلطان أبي عمرو عثمان ، كانت سكنى قبائل بني سعيد بوادران ، في خط لا يتجاوزونه شمالا . ومن الواضح تناسب هذا الخط الفاصل مع الحدود القبلية التي ذكرها التجاني (4).

ومنذ تلك الحقبة ، يبدو أنهم أخذوا ينزعون الى السيطرة على الشمال ، حتى أن المجتمع الحضري بدأ يتحسس هذا الخطر ، وفي هذا السياق أصدر البرزلي فتوى مماثلة لفتوى شيخه ابن عرفة لقتال أولاد سعيد (5).

---

(1) نسب الى أبي زيد الهلالي قوله :« وخطمت على واد كالمهواد ، ودران يردع واد العريش بماه، من فوق ماه ، وقصبه من لوطه ، واسع الحدد، وين يبدد ماه ». ويذكر أنه وقعت به معركة بين الهلالية و سكان البلاد ، حتى قيل أن قبر خليفة الزناتي يوجد بهذه الناحية ، و قد أورد ابن خلدون قصيدة بدوية في هذا الشأن ، تحدد موقع الضريح، جاء فيها :

«يا سائل عن قبر الزناتي خليفة / خذ النعت ، لا تكون هبيل
أراه يعالي وادران وقوفه / من الربط عيساوي بناه طويل
أراه يميل الغور من شارع النقا / به الواد شرقه واليراع دليل

ومن الأمثلة « واد ران ، رتبة الكيالي » ، بمعنى أنه مطمورة للمكتالين للحبوب و«الشاة على وادران ، والناقة على بحيرة القيروان». ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، ص 1128.
أخذت الروايات الشفوية عن شيوخ أهل البحيرة العالية ، بجهة المهدية . انظر أيضا :
Anita Baker , Wadran a Key to an enigma , In **Arabica** , 1983, fasc. 2, T . XXX, p. 190-198 .

(2) راجع الفصل السابق المتعلق بمعارك بني غانية .انظر خاصة : المراكشي ، **المعجب** ، ص 393. ابن عذاري ، **البيان** ، ج III ،ص 190. **رسائل موحدية** ، عدد30 ، ص 197–180.

(3) راجع الفصل الخاص ببني علي .

(4) التجاني ، **رحلة** ، ص 85.

(5) ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص169–170 .

ولئن استطاع السلطان أبو عمرو عثمان أن يحد من تحركهم ، ويشترط عليهم عدم تجاوز خط وادران ، فان انحلال الدولة عهد السلطان حسن مكنهم من التقدم شمالا ، والسيطرة على مجالات شاسعة ، وذلك بعد التغلب على أولاد مدافع والشرخ . ولم يجد السلطان بدًا من مهادنتهم ، ومنحهم مبلغا ماليا (ستون ألف دينارا)(1)

والحقيقة أن هذا الصلح لم يكن الا مناورة من السلطان ، لاتمام الاستعداد المادي والمعنوي لمواجهتهم . وبعد أن تمكن من تجنيد ثلاثة آلاف فارس من الزمازمية ، الذين أطلق عليهم سابقا الموحدية ، حاول تعبئة أهل الحضر ضدهم ، فأفتى البرزلي بقتالهم وقتال غيرهم من المحاربين من عرب إفريقية ، وذلك «لنفاقهم » و معارضتهم للمخزن .أما ابن ناجي ، فانه فضّل ضرب حصار اقتصادي على هذه القبيلة ، فأفتى بتحريم مبايعتهم آلات الحرب ، وحتى الملابس والأحذية مثل الاقمقة والرواحي (2).

لكن هذه التضييقات لم تحد من فاعليتها، اذ تمكنت من الاتساع انطلاقا من وادران ، على حساب القبائل السليمية التي ركنت الى الاستقرار ، حتى بلغ انتشارها مشارف مدينة تونس . وعند بداية الاحتلال الاسباني ، أصبحت تجمع عدة مجموعات أطلق عليها تسمية مشائخ ، وهي تابعة للمشائخ الآتي ذكرهم :

– إبن ضياف ، من أقوى مشائخهم ، قادر على تعبئة 500من الفرسان، ومجاله بين المنستير و جمال .

– أحمد بن مزوار : نازل بالجزيرة القبلية ، و يمكن له تعبئة 300 من المحاربين

–أحمد من بني دلاج : مجاله بين قليبية وقرى بني سعد ، له 300 من الفرسان.

– عبد الله بن أحمد : يوجد بنفس المجال ، وعدد فرسانه 200 .

– أحمد بن مرابط : ينتجع بين نواحي بسكرة شتاء وجبل الرصاص صيفا، له من الفرسان 400 .

– علي المرابط : أخو السابق ، وكان من المناصرين لخير الدين بربروس، ينتجع في نفس المجال ، وله نفس عدد المحاربين .

– أحمد بن ابراهم : ابن عمهما ، ينتجع في نفس المجال ، له مائة من الفرسان، وكان مناصرا لخير الدين (3).

---

(1) المصدر نفسه ، ص163 .

(2) الرصاع ، **الفهرست** ، ص 153. البرزلي ، **جامع مسائل الحكام** ، جII ، ص 123.

(3) De La Primaudaie , **Documents Inédits** . op. cit. , p. 215-216 .

III . المجال القبلي بجنوب شرقي إفريقية :

تعد هذه البلاد البوابة الاساسية لبلاد إفريقية من جهة الشرق منذ العصر القديم. وفي العهد الاسلامي ، كانت منطقة عبور للجند أثناء فترة الفتوحات ، وبعد نحو ثلاثة قرون من هذا التاريخ ، مرّت قوافل بني هلال وبنى سليم من هذه البلاد، ومازالت السيرة الهلالية تذكر أماكن عديدة منها .

وليس مصادفة أن تقع بها المعركة الحاسمة التي فتحت الباب واسعا لتقدم الهلاليين الى سهول الوسط والشمال ، فعلى إثر هزيمة حيدران سنة 443 هـ ، تدفّقت قبائل بني هلال نحو القيروان ، وانتشرت بسرعة في كامل بلاد إفريقية .

وبالتالي فإن خارطة الجنوب الشرقي البشرية تميزت بالتنوع حتى إننا نكاد نعثر على أغلب القبائل البربرية من لواتة وزناتة و هوارة و نفوسة ومطماطة ودمر ومزاتة وغيرها ، التي انتقلت من مجالها الأصلي بجهتي برقة و طرابلس، منذ العهد البيزنطي وعلى إثر تقدم الإنتشار العربي الإسلامى الأول .

لكن ذلك لم يمنع من حدوث أحلاف قبلية كانت فيها الرئاسة على حد التعبير الخلدوني للقبيل الأكثر قوة و الأشد شوكة . فطيلة القرون الخمسة الأول ظلت زواغة ولواتة ودمر القبائل المهيمنة على سهل جفارة ، ثم بدأت سيطرة قبائل بني هلال على هذا المجال بين سنتي 443-630هـ ، قبل أن يقع دحرها نحو الغرب تاركة مكانها لأولاد دباب، وتحديدا للمحاميد والحمارنة والنوايل وبنى يزيد .

غير أنه ابتداء من القرن الثامن هـ/ XIVم، بدأت القبائل البربرية المتبقية والمستقرة بجبل دمر و بمطماطة تجمع شتاتها وتدعم وحدتها بعد أن تعربت وكونت تدريجيا حلف ورغمة حتى استطاعت أن تسيطر على الجبل و السهل معا .

وفي كل الأحوال ، فإن التركيبة البشرية فسيفسائية و متحولة من فترة إلى أخرى، بأعتبار أن هذا المجال كان في الآن نفسه قطبا ديمغرافيا جاذبا لعديد من القبائل القادمة من البلاد الطرابلسية ، و دافعا لأنها كانت خزانا بشريا تموّل بانتظام وسط إفريقية وشمالها بالسكان .

ولا تقتصر أهميتها على كونها توجد على طول الطريق الرابط بين المشرق والمغرب، إنما كذلك باعتبارها إحدى نقاط الوصول لطريق بلاد السودان الغربى والأوسط، و القوافل القادمة من الصحراء المحملة بالتبر و الرقيق .

و بهذا كانت مركز توزيع لهذه التجارة المربحة في إفريقية و بلاد المغرب وكذلك في المدن التجارية الأوروبية ، لكن دورها لم يكن يقتصر على العبور ، إنما تمكنت من أن تتحول إلى قطب إقتصادي ضربت بها الدنانير الحاميّة .

كما استمدت أهميتها من البحر ، حيث ارتبطت بعلاقات تتناوب فيها التجارة والقرصنة مع المدن التجارية الأوروبية (البندقية و برشلونة أساسا) ، و أدخلت ضمن دورة تجارية متوسطية تربط بين مواني المتوسط ، وتوسق انتاجها، وخصوصا الملح والتبر والجلود والصوف والزيت والتمور والرقيق .

I) القبائل البربرية :

أ) زواغة :

كان مجال هذه القبيلة في القرن الخامس هـ / XIم بين طرابلس وصبراطة و حول مدينة قابس . وقد عمرت صبراطة حتى أن اسمها أصبح يطلق عليها ، فبعد أن كانت صبرة بلدا معمورا يسكنه زواغة في القرن الخامس هـ، عوضت قرية زواغة خرائب صبراطة القديمة في مطلع القرن الثامن هـ / XIVم . وقد أطلقت عليها الوثائق الاوروبية طرابلس القديمة (1).

وعرف أهل هذه الواحة بحسن تقبل القوافل ، لكن وضعيتهم ترديت في أواخر القرن السابع هـ ، حتى صاروا يمارسون القطع برا وبحرا .

واستقرت فروع أخرى منها بجربة والاعراض منذ القرن الخامس هـ/XXI م(2).

على أن شأن هذا القبيل ضعف في القرن الثامن هـ، بعد أن أصبح ، على حد التعبير الخلدوني « أوزاعا في القبائل »(3) .

ب) زوارة :

كان البكري أول من أشار إلى وجودها حول مدينة قابس إذ قال : «وحوالي قابس قبائل من البربر من لواتة و لماية و نفوسة و مزاتة وزواغة وزوارة

---

(1) راجع الخرائط والصور الاوروبية (Les estampes) . و تعدحسب المصدر المذكور (Lanfreducci et Bosio , op cit ,p. 503) بمسافة ساكن .

(2) البكري ، مسالك ، ص 18-17. التجاني ، رحلة ، ص 211. العبدري ، رحلة ، ص 76. أبو زكريا ، كتاب السيرة ، ص 140-146. الشماخي ، السير ، ص 48، 115، 181 ، 230، 236. الزواوي ، معجم البلدان الليبية ، ص 175 . ورد ذكر عديد الاعلام الحاملين لنسبة الزواغي ، نذكر من بينهم أبو الخير توزين الزواغي وأبو الخطاب وسيل بن سنتين الزواغي وعمروس بن عبد الله بن سلامة بن قطفة .

(3) ابن خلدون ، تاريخ ، ج VI ، ص 308 264 .,

(4) ابن خلدون، ن.م ، ج VI ، ص 262 ، 308 ، 309 .

كما اعتبرهم ابن خلدون اخوة لزواغة إذ ينتمي كلهم الى بني سمكان .وقد ظل هذا المجال القبلي قائما في أواخر العصر الوسيط و إن كان أهل هذه القبيلة قد فضلوا الإنزياح إلى السواحل، مما يفسر نشأة قريتي : زوارة الصغرى و الكبرى(1).

– فأما الأولى وهي زوارة الصغرى أو وطن بلد المرابطين ، فإنها تقع شرقي رأس المخبز ، حيث الملاحة الشهيرة ، و هي قرية ذات نخيل و ماء عذب ، لكن الخراب استولى عليها فى أواخر القرن XIII و مطلع القرن XIVم ، و ذلك بسبب الهجومات المتتالية للقراصنة الأوروبيين ، الذين يأتون للتزود بالملح من رأس المخبز، ولذلك كان أهلها في ضنك من العيش . وكانت عند زيارة التجانى لها على وشك الإندثار ، ولم تذكر بعد تلك الفترة.

كما أن رباطها الساحلي : قصر وزدر تحول إلى أثر بعد عين و لم يبق به إلا بعض أناس امتهنوا النخاسة مصدرا للرزق واصطياد الناس في القوافل التجارية والحج لبيعهم للمراكب النصرانية حتى أصبحت القوافل تتحاشى المرور من هناك (2).

– زوارة الكبرى أو كوطين : و هي قرية أضخم من الأولى تبعد عنها نحو عشرين ميلا و غابتها أكبر . ذكر بها الإدريسي منذ القرن السادس هـ / XIIم قصر كوطين . و الظاهر أنها توافق مدينة زوارة الحالية . كان أهلها في مطلع القرن الثامن هـ / XIVم متحصنين بأسوار رافضين لسلطة الجواري ، وقد ذكر الوزان ما آلت إليه من تراجع ، فأسوارها متداعية و أهلها فى خوف من هجوم القراصنة النصارى عليهم . كانوا يعيشون من استخراج مواد البناء (الجير والجبس) و بيعها بمدينة طرابلس ، وقد غلب عليهم البؤس. بلغ عددهم في أواخر العصر الوسيط ألفي ساكن (3).

ج) مطماطة : نزلت ناحية قابس وتاهرت وفاس منذ القرن الثاني هـ / الثامن م. وشأنها في ذلك شأن زوارة وزواغة ، استقرت بعض بطونها بالحامة التي تسمت بحامة مطماطة ، فيما التجأت فروع أخرى الى الجبل المسمى بجبل مطماطة ، بعد أن سيطرت قبائل بني هلال على سهل جفارة . وفي الجملة ، آل أمر

(1) البكرى ، **مسالك** ، ص 17 – 18 .

(2) التجانى ، **رحلة** ، 207 – 210 ، العبدري ، **رحلة** ، ص 76 : يبدو أن زواغة الصغرى تقع بين زلطن و بوكماش حاليا.

(3) الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص 174. التجاني ، **رحلة** ، ص 210. الشماخي ، **سير** (الجزء المنشور)، ص 249 (ذكر ولون، وهو على ما يبدو قصر ولول عند الادريسي والتجاني ، وقد آل الى الخراب في مطلع القرن الثامن هـ نتيجة هجومات القراصنة) . Lanfreducci et Bosio , op. cit. , p. 503 . Lewicki , Répartition.. , p. 327

هذه القبيلة في القرن الثامن هـ / الرابع عشر م الى التشتت حتى أصبحت «بقاياهم أوزاعا من القبائل» ، نتيجة تغلب بني يزيد على السهل (1).

د) لماية : تعتبر بدورها في الترتيب الخلدوني أحد بطون ضريسة ، الى جانب مطماطة ومطغرة ومغيلة . وبعد أن ظل موطنها الاصلي بناحية طرابلس حيث ذكرت إحدى القرى الحاملة لاسمها ، تحولت فروع منها الى سهل جفارة ، واستقرت أخرى بجزيرة جربة ، حتى أن ابن خلدون اعتبر جربة بطنا من بطون لماية . غير أن المتمعّن يلحظ أن تسمية جربة أطلقت منذ العهد الروماني على مدينة ، ظلت أطلالها قائمة حتى عصر التجاني . وبالتالي ، فقد عرفت تسمية جربة تطورا مماثلا لتطور سوق بدرنة، وشهدت انتقالا من تسمية مدينة الى قبيلة . وهو ما يأتي شاهدا على مدى انتشار نمط العيش البدوي ، ومدى سيطرة قبيلة لماية على الجزيرة (2).

هـ) لواتة : بعد أن كانت تنتجع بجهة برقة طيلة القرن الاول هـ/ السابع م، تحولت بطون منها إلى الشرق ، فذكرت جنوب قابس منذ القرن الثالث هـ/ التاسع م، كما انتسبت إليها في القرن الثامن هـ أسرة بني مكي . ويبدو أن استقرار بعض بطونها بالجبل، مثل قطوفت ، قد اقترن بالهجرة الهلالية (3) .

أما مزاتة التي عدت من أهم بطون لواتة ، فقد نزلت منذ القرون الاولى بناحية قابس والجريد ، والقيروان وجبل وسلات وتيهرت .ويبدو أن هذه القبيلة الضاعنة انصهرت في بوتقة القبائل العربية على إثر الهجرة الهلالية ، حتى أنه قل ذكرها في العهد الحفصي ، باستثناء إحدى القرى في جزيرة شريك ، وهي قرية المزاتين (4).

ومنذ القرن الرابع ، ظلت لواتة بجبل أوراس من ضمن القبائل المتولية لجباية الاوطان ، وقد كانت خيالتها تناهز الالف ، وذلك الى جانب هوارة وكتامة . لكنها أصبحت تابعة لاولاد محمد من الدواودة ، لما تقلص ظل الدولة الحفصية (5).

(1) المقدسي ، **أحسن التقاسيم**، ص 218 (ذكر مدينة مطماطة بناحية تاهرت). الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص57 ، 70، 85 . ابن خلدون ، تاريخ ، ج VI ، ص 251. الشماخي ، سير ، ص 161.

(2) ابن خلدون ، تاريخ ، جVI ، ص 246–250. ابو زكريا ، **كتاب السيرة** ،الفهرس . الشماخي، السير ، ص294 286 , (ذكر لماية بجبل دمر). وقد ذكرت قرية لماية بناحية طرابلس ، قرب زنزور :
Lewicki , Répartition .. In R . O . , XXI , 1957 Bosio , op. cit. ,p. 503 p 326 .

(3) اليعقوبي ، **البلدان** ، ص 343. ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 103(وطوف) . ابو زكريا ، **ن.م.** ، ص 204. ابن خلدون ، **ن.م.** ، جVI ، ص238 (قطوف) . وكذا الشماخي ، **ن.م.** ، ص283 (بنو قطوف) .

(4). Brunschvig , **Hafsides** , TI ,p.175, 313 . Lewicki , A propos d'une liste .. , p. 132 ابن حوقل ، ن.م. ، ص 93–94 . البكري ، **ن.م.** ، ص 14 ، 18. **مناقب أحمد بن عروس** ، ص192. ظلت بعض عشائر مزاتة مذكورة حاليا ، مثل قطناسة ودجمة وزمرين وأكودة .

(5) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص335–336 .

و) هوارة ونفوسة :انتشرت بطون من هوارة ونفوسة جنوب إفريقية ، فاستقرت نفوسة بالجبل المسمي باسمها ، والتجأ أحد بطون هوارة زنزفة الى جبل زنزفة جنوب تطاوين ، وذلك على إثر قدوم بني هلال (1).

ز) زناتة : تعتبر من أهم القبائل النازلة جنوب إفريقية ، في السهل والجبل وقد تمكنت في القرن الخامس هـ من التصدي لبني هلال ، قبل أن تندمج تدريجيا في إطار البداوة العربية . وقد ذكرت المصادر عدة بطون زناتية منتجعة بهذه البلاد، أهمها :

– زهانة : ذكرت منذ القرن الثاني هـ بجهة طرابلس ، وفي عهد الادريسي، عرفت بركوبها الابل السريعة ، وبشنها الغارات الخاطفة على قبائل بني هلال، واحتمائها بجبل دمر.لكنها لم تلعب دورا يذكر في أواخر العصر الوسيط (2).

– بنو كندل / بنو غيلتن / قلدن : تنتسب الى زناتة حسب ابن حوقل ، وهوارة حسب ابن خلدون . وهي من المجموعات النازلة بقصر تطاوين منذ القرن II هـ (3).

– عكارة : ذكرت هذه القبيلة في قائمة ابن حوقل جنوب افريقية .وقد ظلت نازلة بجهة جرجيس في العصر الحديث (4).

– بنو دمر / ورغمة : تعتبر دمر من بين البطون الزناتية الهامة ، التي ذكرها لاول مرة ابن حزم . وقد انتشرت في كامل بلاد المغرب ، وخاصة جنوب شرقي إفريقية ، حيث تسمى الجبل الواقع جنوب قابس باسمها (5).

أما قبيلة ورغمة، فان قائمة ابن حوقل أشارت اليها تحت تسمية ورجمة . وفي سنة 430هـ ، تحولت بعض عشائرها من جهة طرابلس الى الجريد على إثر مجاعة .

(1) راجع مقالنا : قبيلة نفوسة ، **مجلة كلية الاداب بالرباط**، 1982 ، ص149–167 . انظر أيضا :
Art. Hawwara In **E . I** . Lewicki , **Les Ibadites en Tunisie** , p. 6-7
Idem , Mélange Berbère Ibadite, In **R. E . I** . , 1936 , p; 271-272

(2) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 103. الادريسي ، **نزهة** ، ص 122. الشماخي ، **سير** ، ص 16.
Lewicki , Du nouveau sur la liste des tribus berbères d'Ibn Hawqal, p. 134 .

(3) ابن حوقل ، ن.م. ، ص 103.الدرجيني ، **ن.م.** ، ج I، ص 97(عشيرة من أهل تطاوين وهم رهط بني كندل) . ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVII ، ص 26.

(4) **Lewicki** , Du nouveau .., p.190 .Idem , Répartition, p 340 . ابن حوقل ، نفسه ، ص 106.

(5) ابن حزم ، **جمهرة** ، ص 489. **مفاخر البربر** ، ص 79.ابن خلدون ،**ن.م.** ، ج VII ، ص108 .

نسبها ابن خلدون الى قبيلة دمر ، إذ قال : **« ومن بطون إيدمر هؤلاء بنو ورغمة ، وهم لهذا العهد مع قومهم بجبال طرابلس »** (1).

وفي مطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ، أصبحت إحدى قصور جبل دمر تنتسب اليها ، وهي غمراسن (2).

على أن حلف ورغمة لم يبرز الا في أواخر العصر الوسيط . فمنذ القرن العاشر أصبحت ورغمة تضم ما تبقى من الشتات القبلي (3).

و مما هو ثابت أن العناصر المكونة لحلف ورغمة (بني واردين و بني خزر وبني توزين و عكارة) هم من زناتة في الغالب .

غير أن هذه القبائل ظلت طويلا منكفئة في جبل دمر، لما كانت الرئاسة لقبائل المحاميد، فانحسر وجود هذه البطون الزناتية في الجبال ، حيث سكنوا قصورا منيعة (مثال : قصر زناتة : بني سنة 475 هـ) بعد تغلب بني هلال .و ظل البدو سواء أكانوا عربا أو بربرا مسيطرين على سكان الجبال . و بما أن أغلب البربر انحازوا إلى الجبال والسواحل ، فإن السيطرة كانت في تلك الفترة للمحاميد .

و يبدو أنه إبتداء من القرن XV - XVIم ، تمكنت ورغمة (و خاصة الودارنة) من التغلب على السهل والنزول من الجبل ، لكن بعد أن فرطت في لسانها الأصلي و تخلت عن مذهبها الإباضي.

2) تطور الخارطة البشرية على إثر الانتشار الهلالي بجنوب شرقي افريقية :

بدأت « التغريبة » الهلالية منذ سنة 443 هـ / 1049 م ، وانتشرت هذه القبائل الهلالية في السواحل الجنوبية ، و بدأت مرحلة التلاقح الثقافي والخصوبة التي أفرزها تزاوج ثقافتين مختلفتين : الإرث الثقافي الأصلي و ثقافة البدو الرحل .

و الحقيقة أن هذه العملية ، و إن تمت ببطء ، لم تتمظهر بشكل عدواني، بين السكان الأصليين و بني سليم ، خلافا لأطروحات المنهج التاريخي التقليدي ،الذي

(1) من القبائل المكونة لورغمة في العصر الحديث نذكر : – الخزور : نسبة إلى بنى خزر ، وهم بطن من دمر و يتوزعون في الحوايا و غمراسن و أم التمر . – التوازين : نسبة إلى توزين ، و من الأعلام الذين أخذوا هذا الإسم : أبوالخير توزين الزواغي (القرن XI م) و منهم أولاد بوزيد و صولة و أحمد و مدنين . – الودارنة : نسبة إلى واردين من بني دمر ، و منهم الزرقان و الكراشوة و الدغاغرة و الجليدات . – عكارة : حول جرجيس ، من زناتة . راجع : ابن حوقل ، **ن.م.** ، ص 102. ابن خلدون ، ن.م. ، جVII ، ص 108. الشماخي، **السير** ، ص 289.

(2) التجاني ، **رحلة** ، ص187–188 .

(3) اخطأ A . Louis عندما إعتبر أن ورغمة ظهرت من القرن العاشر هـ /XVIم ، بارتباط بالصلحاء القادمين من المغرب الاقصى . ذكر الشماخي (الجزء المنشور ، ص 379) قصر بنى واردين بناحية وارجلان منذ القرن الرابع هـ / X م .
A. Louis, Le monde Berbère du Sud Tunisien In R.O.M., n°, 11, 1972, p. 115 .

ركز على ثنائيات مبسطة للتاريخ : بربر / عرب ؛ إباضية / سنة ، حضر / بدو ، و ذهب بعيدا في تأويل المعطيات الظرفية التي حولها بعض الدارسين ، من أمثال : A. Louis , Brunschvig , Marçais , Gautier إلى قانون يتحكم في تاريخ بلاد المغرب، مفاده أن سكنى البربر القصور الجبلية و انتقال قبائل أخرى منهم إلى وسط إفريقية وشمالها تما بفعل الإنتشار الهلالي .

وفي عصرنا الحالي ، أعادت المدرسة الإنقسامية هذا الطرح ، مستغلة في ذلك ما يظهر من نزاع وقتي و ظرفي بين القبائل حول المناطق الرعوية ، بغض الطرف عن كونها زناتية و هلالية ، و قد ذهبت بعيدا في تأويل التوازنات القبلية (مثال : قبيلة دباب التي كانت منقسمة إلى بطنين : الجواربة و المحاميد) و تبعية القبائل البربرية إلى بني سليم (1)

وإذا ما تجاوزنا هاتين النظرتين الأحاديتين في تفسير حركة التاريخ ،فإننا نتبين أن عوامل موضوعية عدة ساهمت في تطور الخارطة البشرية بجنوب شرقي البلاد، وأن العامل الهلالي لم يكن دائما معطى سلبيا .

تمتد مجالات الزعبيين عامة ، و تحديدا دباب على طول السهل الساحلي الفاصل بين برقة و قابس ، و ينتجعون شتاء إلى بلاد الصحراء ، في إتجاه زويلة و الودان وغيرها . و تنقسم دباب إلى بطون عدة :

أ – أولاد أحمد : تمتد مواطنهم من غربي قابس و طرابلس إلى برقة .

و أصبحت بطون منها في عصر التجاني منتجعة بين قابس و توزر(2) .

ب – بنو يزيد : نازلون جنوب قابس ، و اعتبارا لنسبهم الغامض ، يبدو أن تسميتهم بيزيد هي دلالة على الحلف الذي تجمعت فيه بطون أربعة :

ـ الصهب : نسبة الى صهب بن جابر .

ـ الحمارنة : نسبة الى حمران بن جابر.

ـ الخرجة : بطن من آل سليمان ، أخرجوا من مواطنهم بمسلاته ، وانضافوا لهذا الشتات القبلي .

ـ الأصابعة : نسبة إلى رجل ذي إصبع زائدة (3) .

---

(1) انظر : . Brett, Arabs , Berbers and Holymen . In C. T , 1981 , pp533-559.
(2) التجاني ، رحلة ، ص 134، 141 .
(3) نفسه، ص 134. ابن خلدون، م، ج VI ، ص 167–174.

ج – النوايل : أولاد نايل بن عمار و هم موجودون حاليا على طول الحدود التونسية الليبية (1).

د – أولاد وشاح : أولاد وشاح بن عامر ، وقد كانت لهم الرئاسة على دباب، وهم فرعان : المحاميد و الجواري ، و قد استقروا في السهول الخصبة لجفارة.

–المحاميد : مواطنهم توجد بين قابس و نفوسة ، وهي كذلك إلى اليوم .

ـ الجواري : استقروا بجهة طرابلس ، بسهول تاجورا و زنزور و هراغة وغريان .

وظلت رئاستهم طيلة القرن الثامن هـ في أبناء مرغم بن صابر .

* أما بقية البطون من بني وشاح مثل الجواربة و العمور وبني حريز ، فهي تابعة للبطنين السابقين (2) .

هـ –بطون أخرى من دباب ناجعة في القفر :

ـ آل سليمان بن هبيب بن رافع بن دباب، وقد كانت مواطنهم قبلة غريان .

ـ آل سالم بن هيب : وهم فرق متعددة ، منها الاحامد والعمائم والعلاونة وأولاد مرزوق الذين كانت لهم الرئاسة . وكانوا نازلين بين مسراتة ولبدة ومسلاتة .

ـ الناصرة : هم من العرب الذين لا تعرف أصولهم ، كانوا مجاورين لآل سليمان وسالم من جهة القبلة ، في بلاد ودان والفزان .

ـ العزة :و كانوا ينتجعون من برقة شمالا الى بلاد النخيل وصولا الى أوجلة وبلاد كانم جنوبا .وقد تحولت بعض بطونهم الى مستقرين في أواخر القرن الثامن هـ (3).

وفي الجملة ، فان جنوب شرقي إفريقية تحول تحت نفوذ الدبابيين في العهد الحفصي، وقد كان مقسما بين بطنين متوازين من قبيلة دباب : المحاميد الممتد تواجدهم من وادي زركين ، جنوب قابس حتى جبل نفوسة ، والجواري النازلين بين جبل نفوسة وزوارة وصبراطة .

وارتبطت القبائل البربرية باحدى هاتين القبيلتين ، توفر لها الحماية مقابل جباية تأخذها منها ، وعلى حد قول التجاني« تجبيها وتحميها » . ومن ذلك ما كانت عليه هوارة وخاصة أهل زنزور مع الجواري (4).

---

(1) التجاني ، نفسه ، ص86، 118، 214 .
(2) التجاني ، نفسه ، ص 212–214. ابن خلدون ، نفسه ، ج VI ، ص168.
(3) ابن سعيد ، جغرافيا ، ص 156. ابن خلدون ، ن.م. ، جVI ، ص 167–174.
(4) التجاني ، رحلة ، ص217 .

ولا يمكن أن نفهم بالضرورة أن نزاعا ما كان قائما بين الطرفين ، كما ذهب الى ذلك أحد الدارسين المعاصرين ، متبعا بذلك النظرية التي ركزت على التعارض بين البربر والعرب ، ذلك أن بني دباب تخصصوا في جباية الاوطان لصالح المخزن الحفصي ، مقابل دور الخفارة . ومما يأتي دليلا على ذلك «المحالفة» القائمة وقتذاك بين المحاميد وورغمة (غمراسن) ، وقد قال التجاني في هذا الصدد :

«والمحالفة بينهم (أي ورغمة) وبين المحاميد ، لان أبا جبارة كاتب المحاميد ورغمي منهم ، ولا يبالون في الاغارة على الجواري باصطلاح المحاميد معهم ..» (1).

وبالتالي ، فقد سيطرت علاقات الحلف بين المحاميد وورغمة فيما كان التنازع قائما بين القبيلتين العربيتين . فالمسألة ليست إذن مرتبطة بالانتماء البشري (بربر– عرب) بقدر ما تتحكم فيها التوازنات القبلية والنزاعات ذات الاساس الاقتصادي (مثل النزاع حول المجال الرعوي والمجال التجاري) .

وفي هذا الاطار يمكن أن نفهم التوازنات بين المحاميد والجواري المتمثلة في تعادل النمو السكاني والشوكة العسكرية للطرفين . وقد عبرالتجاني عن ذلك في قوله: **« ورئاسة الوشاحيين الآن محصورة في قبيلتي الجواري والمحاميد، وما عدا هاتين القبيلتين من بني وشاح ، كالعمور والجواوبة يضاف اليهما. وهما قبيلتان متكافئتان في العدد والقوة ، فمهما نقص من إحدهما فارس بموت أو غيره ، نقص من الاخرى نظيره**(2). »

على أن هذا التوازن لا يمكن أن يكون أمرا قارا ، كما يتصور ذلك أتباع المنهج الاجتماعي الانقسامي ، لتطور تحالفات هذه القبائل مع بقية القوى الاجتماعية والسلطة المخزنية ، وأهمية الحركية الاجتماعية والهجرة داخل هذا المجال البدوي .

ثم إن دراسة هذه القبائل لا تتسنى دون وضعها في إطار أعم ، وهو إطار بلاد إفريقية والمغرب ، وما يعني ذلك من علاقة مع السلطة السياسية .

فقد كانت هذه القبيلة في خدمة المخزن الحفصي . غير أنها بحكم طرفيتها ، كانت تخرج من حين الى أخر عن السلطة المركزية . ففي سنة 652هـ ، تحرك المستنصر في اتجاه الجنوب ، وقبض على رحاب بن محمود الدبابي وأبيه وعلى ثلاثة عشر رجلا من وجوه مرداس من بني سليم ، و سجنهم بالمهدية (3).

---

(1) نفسه ، ص 178–188.
M . Brett , Arabs , Berbers and Holymen .. In **C. T.** , 1981 , op. cit.

(2) التجاني، رحلة، ص 118 .

(3) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 119.

ويبدو أن هذا القبيل ظل يتحين الفرصة للقيام على الحفصيين ، منذ ذلك الوقت ، الى حدّ سنة 679هـ ، ذلك أنها كانت العنصر الفاعل في اندلاع حركة ابن أبي عمارة (1).

وقد مكّنتها هذه الحركة من التقدم الى وسط إفريقية وتلولها ، وظلت تهدد هذه المناطق الزراعية ، كلما هبت ريح الازمة على جنوب شرقي البلاد . ففي النصف الاول من القرن الثامن ، أثناء حقبة جوع ، ولعلها في سنة 748هـ ، وصلت دباب الى وطن القيروان (وتحديدا الى بلادالعلويين) طالبة الامتيار، ففتح لهم الشيخ أبو يعقوب الزعبي المطامير خوفا منهم (2).

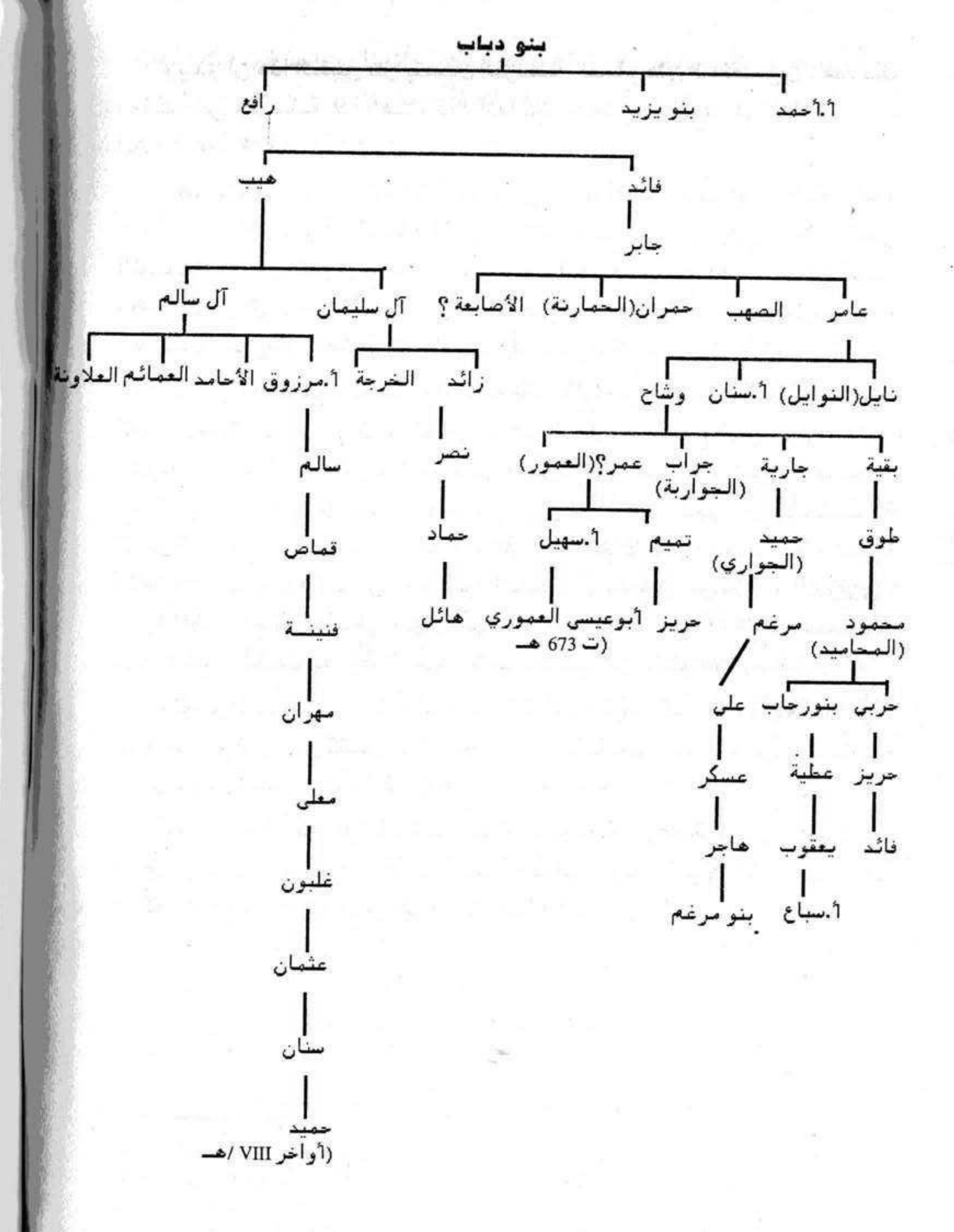
على أن العلاقة بين القبيلة والسلطة ظلت هادئة في الفترات العادية ، بل إنها كانت ودية كما يشير الى ذلك التجاني . فقد وفد كل من شيوخ الجواري والمحاميد لتحيّة ابن اللحياني بغمراسن ، وانتهى الامر الى التنافس بين رئيسي القبيلتين : يعقوب بن عطية رئيس المحاميد وسالم بن مرغم ، رئيس الجواري ، لاستضافة الامير الحفصي . وقد ورد في هذا الشأن : « فوقع الاختيار بعد ملاحاة كثيرة وتنازع شديد بين يعقوب بن عطية أمير المحاميد وسالم بن مرغم أمير الجواري ، على الاقامة مع يعقوب في منزل غمراسن ، فان أهله حلفاء له مع ما هنالك من الامن الذي لا تخاف معه إغارةمغير ولا ضياع كبير من الاشياء ولا صغير » (3) .

وتفسر الخلفية الاقتصادية قوة العلاقة القائمة بين السلطة وقبيلة المحاميد . فقد مكنتهم قوة شوكتهم من التحصل على إقطاعات بموجب ظهير سلطاني ، مقابل خدمة السلطة والولاء لها (4).

وفي الجملة ، فان البنية القبلية بجنوب إفريقية ، رغم طرفيتها ، ليست في منأى عن طبيعة السلطة السياسية بمدينة تونس ، وعن الهياكل الاقتصادية في المنطقة ، بما فيها العلاقات في البحر المتوسط (5).

---

(1) راجع الفصل الخاص بحركة ابن ابي عمارة.
(2) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 169.
(3) التجاني ، **نفسه** ، ص179 .
(4) التجاني ، **نفسه** ، ص 215،197 .
(5) انظر مثلا العلاقات القائمة بين مرغم بن صابر ، رئيس الجواري ، والقطلانيين في أواخر القرن السابع هـ .



الفصل الثالث : مدينة تونس ومجالها التلّي :

I . تونس : مدينة السلطان و سلطان المدينة :

مثلت مدينة تـونس نموذجا للمجال الحضـري الذي امتزجت فيـه عناصر بشرية متنوعة، وافدة مـن داخل بلاد المغرب وخارجها ، نتيـجة لموقعها المتميـز بين بحيرتين، وهو ما جعل منها محطة ضرورية للوافدين من الشمال والجنوب . كما ساعد قربها من البحـر على ربطها بسـائر البلاد المتـوسطية ، عن طريق مـرساها الذي وضـع دعـائمه الاولى حسان بن النعمان ، معوضة بذلك قرطاجنة .

واعتـبارا لاهمية المدينة في العـهد الاغلبي ، فقـد استقرت بهـا جالية عربيـة هامة وساهمت في تمصـيرها، فشـيد المسجـد الجامع (الزيتـونة) سنة 116هـ، وظهرت الحمامات والـقصور والرياض خارج باب السقائين، وتعـددت الابواب حتى بلغ عددها الخمـسة : بابي الجـزيرة وأرطة جنوبا وبابي البحـر و قرطاجنة شـرقا ، والسـقائين شمالا(1) .

على أنها لم تشهـد تطورا نوعيا للسكان والعمارة الا بعد خـراب القيروان المتزامن مع الهجرة الهـلالية وتراجع دور المهدية بفعل الاجتيـاح النورماني ، منذ بدايات القرن السادس هـ ، حتى أضـحت تمثل قطبا كبيـرا في إفريقية خاصـة ، والمجال المتوسطي عامة ، هاجرت اليها الجموع من كل صوب .

1) العمق البشري : المجموعات الحضرية والهجرات المتواصلة اليها من البادية:

شـهـدت المدينة إعادة ترتيب لسكانهـا في الحقبـة الموحدية – الحـفصيـة ، بعد أن استقرت بها مجموعات هـامة من الجند الموحدي ، وتحولت الى قطب جاذب للمهاجرين من المغرب الاقـصى في مرحلة أولى(555هـ– 627هـ) ، والاندلس ثانيـة . ولا غرو، فقـد تبوّأت كثـير من هذه العناصـر مراكز السلطة والجـاه ، مساهمـة بذلك في تغيـير مكونات الهرم السكني .

وفضلا عن الرقـيق السودان ، والعلوج المرتزقة الوافدين مـن أوروبا ، فان البادية الافريقية مثلت معينا لا ينضب، ومموّلا بصفة متواصلة للمدينة .فما هي خاصيات هذه التركيبة البشرية، ومدى انعكاسها على العمران والتنظيم المجالي للمدينة وناحيتها ؟

---

(1) البكري ، **مسالك** ، ص 40 .

Pellegrin, **Le vieux Tunis, Les noms de rues de la ville Arabe**, Tunis 1951-52 , p. 4

Pellissier , **Description de la Régence de Tunis**, Tunis 1980.

أ. الارث السكني بالمدينة : البيوتات القديمة : ليس من اليسير التفرقة بين الاسر العربية المستقرة بالمدينة منذ بداية الاسلام ، ونظيرتها الوافدة من الاندلس على إثر سقوط مدنها، ولكن في كلتا الحالتين ، يمكن التعرف عليها من خلال النسب العربية إلى قبيلة أو مجموعة . كما أنه من الصعب معرفة مدى صحة هذا النسب أو وهميته (1).

وتميّزت هذه البيوتات في العهد الحفصي بامتلاك العلم والثروة ، وراثة ، فضلا عن امتهان بعضها عديد الحرف والصنائع . وقد قمنا في هذا المستوى من البحث بفحص أولي للكتابات الشاهدية ، مكنتنا من مقاربة أدق لاهمية هذة الاسر، التي انتسبت الى أغلب القبائل العربيّة، وخصوصا " تميم وقريش وربيعة والأزد ولخم، وذلك فضلا عن نسبة الأنصاري (2) .

ب) الوافدون من المغرب الاقصى ، ونشاة فئة أعيان جديدة :

تكونت هذه الجالية المغربية من رصيد أولي من الجند الموحدي الذي بدأ في الاستقرار منذ سنة الاخماس ، وخاصة إبان ولاية أبي محمد عبد الواحد الحفصي(603هـ / 1206م – 618هـ / 1221م)، وعناصر أخرى وفدت على البلاد بطرق مختلفة ، جماعية أو فردية، طيلة العهد الحفصي، وخاصة في القرن السابع هـ .

وقد استقرت النواة العسكرية الاولى بالحاميات الاساسية لافريقية ، وخصوصا بمدينة تونس ، مستحوذة على السلطة والثروة ، ومساهمة في تغيير الهرم السياسي للبلاد ، ونقل مقاليد الحكم من الفئات « البرجوازية » التقليدية الى شيوخ الموحدين . وهو ما يفسر تشبثها بأنسابها القبلية ، بعد أن أضحت هذه القبائل مرجعية أساسية للشرف والمجد. وبالتالي فان نسبة التنمالي والكومي والهنتاتي والهرغي والمصمودي ظلت منتشرة في الانساب الحفصية طيلة هذه الحقبة ، وكانت مقترنة بألقاب شرفية مثل الشيخ والشيخ الحافظ والشيخ الاجل والمجاهد (3) .

ولئن ذكرت نسبتا المصمودي والهرغي بطريقة عادية ، لا توحي بتميز إجتماعي أو شرف الانتساب ، فان النسبة الى أبي حفص عمر الانتي قد حظيت بكل اهتمام ، وبقائمة طويلة من الالقاب الشرفية ، الموروثة في الغالب عن الموحدين، وأهمها :

(1) يشكك قيشار في مدى صحة أنتساب الاعلام الاندلسيين الوارد ذكرهم في المصادر الى أصول عربية ، رغم حملهم لانساب عربية . انظر :

P . Guichard , **Les Musulmans de Valence et la Reconquête** , T I p 171-177.

(2) فضلا عن اعتمادنا على نقائش القرجاني (لسليمان زبيس) وعلى قائمة خطيّة لعدد آخر من النّقائش، حاولنا في كثير من الاحيان، الرّجوع الى هذه النقائش وقراءتها مباشرة أو عن طريق الصّور المأخوذة لها.

(3) انظر: سليمان زبيس، نقائش القرجاني، الفهرس .

– الشيخ :هي مرتبة عالية في النظام الموحدي ، يقع اختياره من بين العلماء الصامدة ، كي يتولى] الخطط الادارية والسياسية .

– الامير : أصبح هذا اللقب غالبا على لقب الشيخ الذي تسمى به أبوحفص، بعد أن أعلن أبو زكريا يحيى استقلاليته عن السلطة الموحدية سنة 634 هـ / 1237 م .

– أمير المؤمنين : تسمى به المستنصر ، بعد أن أعلن الخلافة ، على أن السلطان أبا إسحاق إبراهيم (678هـ / 1279م – 683هـ/ 1284م) اكتفى من جديد بلقب الامير ، لانه استمد شرعية حكمه من أبيه أبي زكريا مباشرة ، ولقب بالامير الاجل المجاهد في سبيل الله .

–الامراء الراشدون : أصبحت تطلق على سلالة الاسرة الحفصية ، على غرار تسمية الخلفاء الراشدين بالمشرق .

– المولى :أصبح هذا اللقب مرتبطا بالاسرة الحاكمة ، وقد ورد بأشكال مختلفة : المولى وسيدنا والمولى الخليفة ، ومولانا أو مولاي .

– الاجل : تسمى بها لاول مرة حاكم بجاية (الامير الاجل) ، وهو أحد أبناء الخليفة عبد المؤمن بن علي، وظل مقتصرا على المراتب العليا في المخزن الحفصي.

– المقدس :ورثها الحفصيون عن جدهم أبي حفص عمر ، الذي قاد موقعة سنة 568 هـ ، وسمي سيف الله، واستحق بذلك صفتي المجاهد والمقدس .

– المجاهد في سبيل الله : اقترنت في البداية بالمشاركة في حروب الاندلس بدءا بأبي حفص عمر، ووصولا الى أبي زكريا يحيي وأبي إسحاق إبراهيم ، ثم أصبحت مجرد لقب شرفي .

– الفقيه ، العابد ، المعلم ، سيدنا ، الهمام ، الافضل ، الاكرم ، السعيد ، ناصر الدين، الشهيد الخ : وهي ألقاب وصفات تسمى بها أمراء بني حفص . أما نساء هذه الاسرة ، فقد تسمين بألقاب أخرى مثل : الحرة ، الصالحة ، الطاهرة ، الزكية ، الحاجة، المقدسة ، المكرمة ، العفيفة (1).

ولم تقتصر الهجرة الى إفريقية ، وخصوصا مدينة تونس ، على المصامدة والكوميين ، إنما شملت مجموعات أخرى وفدت بطريقة فردية أو جماعية من قبائل غمارة وأزغار ويزناسن وأزدغة وغيرها .

وقد جاءت لتدعم الاصول المغربية الجديدة للارستقراطية الحاكمة ، رغم أنها اندمجت بسرعة في إطار المعطيات الحضارية لبلاد إفريقية ، وتكيّفت معها ، الامر الذي لم يكن كذلك لدى الاندلسيين المهاجرين .

(1) راجع حول هذه الالقاب الشرفية المتعلقة بقبريات الامراء الحفصيين ،مقالنا : فروع جديدة في شجرة أنساب الحفصيين من خلال الكتابات الجنائزية ، **الكراسات التونسية** ، سنة 1982 ، عدد 121–122 ،ص134–95 .

ج) الوافدون الاندلسيون على مدينة تونس في العهد الحفصي و ترسيخ التمدن:

لئن يسّر الامراء الحفصيون الاوائل ، خاصة أبو زكريا وإبنه المستنصر ، إستقرار أهل البيوتات من اللاجئين الاندلسيين بمدينة تونس ، وخصوصا الوافدين من إشبيلية، لعلاقة أبي زكريا القديمة بأهلها، فان الفئات الأخرى لاقت صعوبات كبرى عندالهجرة، وأثناء الاستقرار، والتجؤوا الى الزاوية في بداية أمرهم . وقد اتسعت القاعدة الاجتماعية للمهاجرين ، ولم تقتصر على العلماء والمتصوفة وأصحاب الخطط السياسية، وضمت الجنود و عديد الحرفيين ، من فران وسنفاج وزلاج ورصاع وكماد وغيرهم (1).

وفي القرن التاسع ، وقبيل سقوط غرناطه ، ازداد نسق الهجرة ، فكان اللاجئون يبادرون بالالتجاء الى زاوية أحمد بن عروس عند حلولهم بمدينة تونس ، حيث وجدت ملجأ ماديا وملاذا روحيا لمن كان تحت وطأة الازمة .ثم انتصبت زاوية أبي القاسم الزليجي في طرف الربض الغربي ، قرب باب خالد، لاستقبال أعداد غفيرة من عامة المهاجرين ، وقد تدعّمت وظيفتها في عهد أبي الغيث القشاش ، على إثر قرار الطرد لسنة 1609م (2).

ومما يأتي دليلا على الاهمية العددية للمهاجرين في القرن السابع هـ ، أن رماة الاندلس كونوا فرقة خاصة بهم في جيش الاندلس قوامها 2000 فارس سنة 1270, . كما تواجد العنصر الاندلسي في قيادة الاسطول ودار الصناعة (3).

ومنذ القرن السابع هـ ، ظهرت أحياء خاصة بهم ، داخل أسوار المدينة بزقاق الاندلس ، وفي الارباض بحي الاندلس المجاور للحلفاوين ، حيث حمام الرميمي حاليا. كما توجد إشارات أخرى إلى تواجدهم بشرف المركاض وقرب باب خالد حيث زاوية الجليزي . كما استقر الاثرياء منهم بضواحي مدينة تونس ، مثل رأس الطابية، وحاولوا أن يعيشوا أجواء الاندلس، في مستوى العمارة والمأكل وليالي الانس (4).

---

(1) مناقب ، مخ رقم 18555 ، ص1167، 168 ب ،1170. كان احد صلحاء مدينة تونس، وهو علي السنفاج ، قد استقر خارج الباب الجديد ، بزنقة الغنم ، لاستقبال المهاجرين الاندلسيين في السبعينات من القرن السابع هـ .وقد كان قدومهم بطريقة فردية أو جماعية ، و بلغ عدد المهاجرين في إحدى المرات أربعين عائلة .

(2) **مناقب ابن عروس** ، ص 506-505 389 , 392 ., ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 170. **نور الارماش في مناقب القشاش** ، مخ 16408،ص5 .

(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVI ، ص668 . العمري ، **مسالك الابصار** ، ص 94. ابن قنفذ، ا **لفارسية** ، ص 132. الزركشي ، **تاريخ** ، ص 65. المنوني ، **ورقات** ، ص 291.

(4) راجع : مناقب علي السنفاج . ابن عبد الباسط ، **رحلة** ، ص 22-20.

ويبدو أن استقرارهم ومهنهم قد وقعت فيها مراعاة الانتماء الجهوي للمهاجرين، حتى أن الوافدين من بعض المدن عرفوا بتخصصهم في مجال محدد ، فالشلوبيون على سبيل المثال اشتهروا بكتابة العقود والوثائق بمدينة تونس ، فيما تخصص آخرون في التدريس والعلم ، أو في الصنائع والحرف والزراعة (1).

وتطالعنا الاخبار العديدة حول أفراد الجالية بصعوبة الاندماج ، والنزاعات التي تنفجر من حين الى أخر بين أهل البلاد والاندلسيين ، وقد كانت تتخذ أشكالا عدة ، سياسية واجتماعية وثقافية وغيرها .

وفي الجملة ، فقد ساهم الاندلسيون الوافدون الى إفريقية منذ القرن السابع هـ في الزيادة في التعمير والتمصير بمدينة تونس، فضلا عن تدعيم جانب المجتمع الحضري .

د) المجموعات الأخرى ذات الاصول الحضرية المستقرة بمدينة تونس في العهد الحفصي:

إستقرت بالمدينة عدة أسر وفدت على مدينة تونس في فترات مختلفة، من مدن إفريقية والمغرب خاصة والعالم الاسلامي والمتوسطي عامة .

– **الهجرة من مدن إفريقية** : لقد عبرت التركيبة البشرية بمدينة تونس عن المناطق التي عرفت هجرة ونزوحا أكثر من غيرها ، لاسباب بشرية أو بيئية . فالقرى الساحلية المتضررة بفعل الانتشار البدوي والاحتلال النورماني قد اندثر العديد منها ، وتفرق أهلها بالمدن الكبرى مثل تونس وبونة وغيرهما . وبالتالي فاننا نعثر من بين الاعلام بتونس ، من ينتسب الى لبيدة وبرشانة ورقة وملول وجمونس الصابون وغيرها . وهي قرى عرفت كلها الاندثار والتلاشي بين القرنين السادس والثامن هـ / الثاني عشر والرابع عشر م .

وفضلا عن الهجرة المرتبطة بالكوارث ، مثل سقوط المدن الاندلسية وسيطرة النورمان على صقلية وقوصرة، فان نوعا أخر من الهجرة من المدن الافريقية ارتبط بدور القطب الجاذب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي الذي لعبته مدينة تونس طيلة العهد الحفصي . ولذا فاننا نعثر على عدد من العلماء والصلحاء ، ومن التجار والحرفيين ومتولي الخطط المخزنية من أصول حضرية ، قدموا من بنزرت ونابل وقرنبالية ، أو من قفصة ونفطة وقابس وغمراسن، ومن البلاد الساحلية مثل بجاية وبونة (عنابة) وصفاقس وجربة وطرابلس ومسراتة .

كما كانت باقي المدن المغربية والاسلامية ممثلة في التركيبة الاثنية لمدينة تونس، حيث نجد الوافدين من المغرب ، من مراكش وفاس والجزائر وطنجة ومليلة أو من المشرق ، من البصرة وغيرها .

---

(1) ابن عرفة ، المختصر ، جIV ، ص 1174. البرزلي ، جامع ، ج II ، باب القضاء .

– *النصارى واليهود :* ❊النصارى :استقرت مجموعات مسيحية هامة بالمدن الافريقية الساحلية ، وخاصة بتونس وبجاية ، في فنادق خاصة بكل جالية . وقد حرص المخزن على حمايتها ، لما توفره التجارة الخارجية من عائدات متمثلة في أخذ العشر والقبالة على الفنادق المتقبلة ومبالغ على كراء صيد المرجان .

وإلى جانب التجار، وجد صنف ثان من النصارى المستقرين بالمدينة ، وهم العلوج، الذين مثلوا الفرقة العسكرية المرتزقة التابعة للسلطان ، ورجع استعمالهم لاول مرة الى العهد المرابطي، في عهد علي بن يوسف ، ثم الموحدي . ولئن ظل البعض على ديانته وإسمه القديم، فان الكثير منهم اعتنق الاسلام و أخذ أسماء عربية جديدة توحي بالتفاؤل والتبرك . وقد تركت لناالقبريات عددا هاما من الاسماء، مثل أبي السرور فارح بن عبد الله، وقد استمر استعمال هذا الاسم من القرن السابع الى حد نهاية الحفصيين :

– عبد الواحد ولد القائد أبي السرور فارح بن عبد الله ، توفي سنة665 هـ/ 1267م.

– أبو السرور فارح بن عبد الله ، توفي بعد سنة700 هـ / 1300 م .

– أبو العباس أحمد بن أبي السرور فارح بن عبد الله شهر ..ت 831هـ/ 1427م

– القائد فارح : عاش في القرن التاسع هـ/ XVم .

– القائد فارح : في عهد مولاي حسن ، سنة 1535م . كان معاديا للاسبان ، حتى أن هؤلاء طلبوا من السلطان التخلص منه(1) .

كما اقترنت الاسماء الجديدة للعلوج بالخصال الخاصة بوظيفتهم الاساسية ، وهي العسكرية، فتسموا بالظافر : فقد ذكرت عتو بنت ظافر بن عبد الله (ت 640هـ / 1243م)، والقائد ظافر في عهد المستنصر سنة 648هـ / 1250م ، وظافرا الكبير وعائشة بنت القائد أبي النصر ظافر (ت 839 هـ / 1435م) الخ (2).

واقترنت أسماء بصفة الفتح ، إذ ذكر القائد مفتاح بن عبد الله المتوفى سنة 663 هـ / 1265م ، أو بصفة الشجاعة ، إذ ذكر إسم شجاع بن عبد الله، المتوفى سنة 660هـ / 1261م .

ومن الاسماء الاخرى للعلوج بمدينة تونس : صابر (القائد صابر بن القائد فرج) ونبيل (القائد نبيل): (3).

---

(1) انظر : زبيس، نفس المرجع، ص34، 128 .
Brunschvig, **Les Hafsides** , T I , p . 246 , 273 . Documents ..In **R . A.** , 1877, N123 .

(2) انظر : زبيس، **ن.م**، ص21.الزركشي، **تاريخ**، ص33،61،83.

(3) انظر : زبيس، **ن.م**.، ص34،56. الزركشي، **ن.م**.، ص95،132.

وترجع أقدم إشارة متعلقة بالعلوج في العهد الحفصي الى سنة 1256م ، إذ ذكر أنذاك قائدهم أبو عبد الله الذي عوضه « دي مونكادا » (De Moncada) .كما أشار ابن خلدون الى وجود الموالي العلوج في عهد أبي زكريا ، الذين تولوا الخطط الهامة. والظاهر أنهم كانوا مختلفين عن العلوج المرتزقة الذين وقع إستخدامهم في الحرس والجند ، وكانوا أحرارا .

ولقد اشترط الملك القطلاني تسمية قواد الميليشيا وتغييرهم حسب رغبته وبلغ عددهم سنة 1281 نحو 2000 علج بمدينة تونس ، وكان ابن أبي عمارة قد أوقف من بينهم 180فارسا . ولئن ظلوا مرتبطين بمملكة الاراقون الى حد سنة 1313 م ، فانهم بدؤوا في الانصهار تدريجيا في المجتمع الافريقي (1).

وفضلا عن حراسة السلطان ، فقد كانت لهم مشاركة في الحروب والصراعات الداخلية، وخاصة أثناء حركة ابن أبي عمارة سنة 679 هـ / 1280م ، وحصار جربة سنة 706هـ / 1306 م، وأثناء النزاع الدائر سنة 748هـ/ 1347 م .وكانوا في عهد السلطان ابن اللحياني يركبون الخيل بالسرج ، خلف الامير ، حتى عاب عليه بعض العلماء ذلك (2).

وفي سنة 750هـ / 1351م ، لما همّ بنو مرين بالرحيل ، حاولوا أخذ العلوج وأسرهم، بدعوى أنه لم يقع تأمينهم . لكن بعض العلماء وقف حيال هذا القرار، ممتنعين عن تسليمهم باعتبارهم أهل ذمة ضربت عليهم الجزية ببلاد إفريقيّة(3) .

وظلت هذه المجموعة محافظة على خصوصيتها بمدينة تونس ، على رأسها قائد يطلق عليه مقدمّ النصارى، ومنذ سنة 1353، أصبح قائدين ، ثم تطور العدد سنة 1391الى ثلاثة، على رأس كل مجموعة واحد، وكان من بينهم أحد الجنويين .

وكانوا يقطنون الربض بباب المنارة ، ويمارسون شعائرهم الدينية في كنائس عدة، على ان بعضهم اختار اعتناق الدين الاسلامي ، والانصهار في المجتمع التونسي، فلبست النساء زي المسلمات بمدينة تونس (4).

---

(1) ورد في برانشويك تاريخ العقد سنة 1256 م ، على أن ماس لاتري ذكر أن عقد بانيسار (Traité de Panissar) المبرم بين أبي حفص عمر وملك الاراقون تم سنة1285 م .
R. Brunschvig , **Hafsides** , T I, p. 440. Mas-Latrie ,**Traités de paix et de commerce**. , p . 286-290

(2) الابي ، **الاكمال** ، جIV ، ص 355. Adorne , op. cit, p. 190-192
وقد اعتبر برانشويك أن موقف الناس تجاه العلوج نابع من التعصب Brunschvig , op. cit , TI , p. 447. الديني ، وهو أمر مستبعد ، لان اغلب فئات المجتمع كانت لا تتحمل هذا الجسم الغريب المنفذ للسياسة السلطانية ، وقد برز ذلك أثناء حركة ابن ابي عمارة ، لما نكل بعدد من العلوج .

(3) البرزلي ، **ن.م**. ، جI ، ص164–160 ب ، 170ب . وقد ذكر أن أول تاريخ وفودهم يرجع الى أبي زكريا وابنه المستنصر .

(4) انظر : مارمول ، **إفريقيا** ، ج III، ص 20.
R. Brunschvig , **Deux voyages d'Ifriqiya , Adorne et Ibn Abdelbasit** , p199 . Ibid , Les Hafsides , TI , p. 447 .

وبلغ عددهم سنة 1535 م 2600ساكن. وفي سنة 1550م، وورد ذكر ثلاثمائة من بينهم. ولم يقع إخراجهم من البلاد الا بعد وصول العثمانيين الى الحكم سنة 1574م(1).

ولم يكن التواجد النصراني بمدينة تونس دون تأثير مباشر على المجتمع الحضري بافريقية، إذ برزت عدة سلوكات وتقاليد متأثرة بحياة هذه الجالية من المستعربين، نذكر من بينها الاحتفال بالاعياد والمواسم الدينية، مثل أعياد ميلاد المسيح والانبداس، التي توافق العنصرة بالاندلس والعطاس بمصر، وعيد النيرية الذي ظل السلطان الحفصي يحتفل به الى حد إزالته في عهد أبي فارس عبد العزيز، وعيد الربيع في شهر مايه، وقد تعود الناس بمدينة تونس تهنئة بعضهم بعضا بهذا الاحتفال، دون معرفة حقيقته، حتى أن أحد أمناء السوق بتونس قام بتهنئة قاضي الجماعة بهذا العيد، فكلفه ذلك سخط القاضي عليه وعزله، لجهله بكونه من أعياد النصارى (2).

والحقيقة أن تشدد الفقهاء ومحاولة الوقوف حيال هذه التأثيرات، لم تمنع من ترسّخ علاقات بين بعض سكان المدينة والمستعربين، الذين كانوا يقدمون الهدايا اليهم عند الاحتفاء بأعيادهم، وخصوصا بالعيد المسمى الفطيرة لدى اليهود(3).

* اليهود: فضلا عن اليهود الذين كانوا مستقرين بمدينة تونس من قبل، فان هذه الجالية شهدت تطعيما بعناصر أخرى وفدت من بلاد الاندلس، بعد القرن السابع هـ / الثالث عشر م. وأستقرت في حي خاص بها، داخل الاسوار. و ألتزمت بلباس ثياب مميزة في عهد أبي يوسف يعقوب، وظلت كذلك في العهد الحفصي. ومما يذكر في هذا الصدد أن السلطان الحفصي ألزم هؤلاء اليهود بلباس زيهم، في نهاية القرن الثامن أو بداية التاسع، على إثر ما أظهروه من شرب الخمر في شهر رمضان.

وكانوا يدفعون الجزية بطريقة جماعية منذ العهدالزيري، ثم توزع فيما بينهم على حسب عددهم. وتفرض عليهم غرامة مالية تسمى الخسارة، عند قيامهم بتجاوز التقاليد والتشريع، وتدفع دراهم في القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م (4).

وأنصرفوا الى العمل في التجارة المتوسطية مع المدن الايطالية والاسبانية، وعمليات الفكاكة والترجمة، محتكرين مهنة الصباغة وتجارة المواد المقترنة بها، مثل

---

(1) ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص199. M. Montavez,Dos Descripciones..p.219,225

(2) البرزلي، **نفسه**، مخ 4851، جII، ص 149. القلشاني، ج II، ص 77ب. ذكرت من بين الأعياد الاخرى خلال هذه الفترة النيروز والمهرجان. والانبداس هو عيد القيامة لدى النصارى..

(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 13ب.

(4) البرزلي، ن.م.، جI، ص1171– ب. ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص1213.

P. Sebag, **Tunis au XVIII** s., p. 53 وقد ذكر أن عدد اليهود في مطلع القرن الثامن عشر بلغ تسعة آلاف.

اللك والارجوان والشب. كما اشتغلوا في الصياغة بسوق الصاغة بمدينة تونس، رغم التضييقات التي قام بها العلماء لمنع أهل الذمة من العمل كصيارفة وجزارين، ورغم ما تعرضوا له أكثر من مرة من اتهام في غشّ النقود، وخاصة أثناء أزمة سنة 660 هـ / 1261 م (1)

وفضلا عن اشتغالهم بالطب و التطبب، فان بعضهم امتهن تجارة الكتب العربية وبيعها الى البلاد الاوروبية، ومن ذلك ما وقع في القرن الثامن هـ، لما اشترى يهودي بعض كتب المنطق وأراد السفر بها « لارض الحرب »، فأفتى ابن عرفة بمنعه من ذلك، حتى يزال ما بها من التسمية والتصلية (2).

وفي الجملة، فان دور هذه الجالية، وخاصة الأثرياء من أفرادها، أصبح مقترنا بالتجارة المتوسطية والقرصنة، وما يعنى ذلك من خدمة لمصالح الرأسمالية التجارية الناشئة بالمدن التجارية.

– *الهجرة من البادية*: مثلت البادية المحيطة بمدينة تونس بدرجة أولى، والبعيدة عنها ثانيا، معينا بشريا لا ينضب، مولّها بالسكان كلما أحتاجت الى ذلك، وخاصة في فترات الصحوة الاقتصادية والاجتماعية للمدينة وما من سبيل لمعرفة أهمية هذه الهجرة الا بتتبع للانتماء القبلي لكل مجموعة من الكتابات الشاهدية، فضلا عن الاعتماد على ما ورد في النصوص. ويبدو جليا أن عددا هاما من سكان المدينة وفد عليها من القبائل النازلة بالبلاد الغربية، حسبما تدل على ذلك النسبة القبلية التي حملتها أسماؤهم.

– الوافدون على تونس من قبائل البلاد الغربية: عثر على سبع قبريات تحمل نسبة الصنهاجي، وكان من بينهم من تقلد الخطط العليا، مثل القائد أبي عبد الله محمد بن الحاج عثمان الصنهاجي المتوفى سنة 739هـ / 1338م، والشيخ الفقيه الامام أبي الغني بن أحمد الصنهاجي المتوفى سنة 720 هـ / 1320م.

---

(1) القباب، **شرح**، ص46 ب. ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص1122. الابي، الاكمال، ج II، ص 132.

(2) الابي، **الاكمال**، ج V، ص 217–216. البرزلي، **نفسه**، ج IV، ص397 ب

وقد انتمى بعضهم الى قبيلة من قبائل الملثمين ، مسوفة ، مثل علي بن بشر المسوفي وزليخ بنت الحسن بن إسحاق بن محمد بن علي المسوفي . كما وفدت أسر أخرى من زواوة وناحية بجاية ، بصفة عامة (1).

وتبدو المجموعة الزناتية هامة بمدينة تونس ، حتى أنها عبأت فرقة عسكرية في نهاية القرن السابع هـ/ الثالث عشر م . وقد ذكرت النقائش أربعة أعلام ، نذكر من بينهم قبرية الولي الصالح أبي هلال عياد المارغني المتوفى سنة 883هـ / 1478 م (2).

أما هجرة الهواريين الى المدينة ، فقد اقترنت بقرب مواطن استقرار هذا القبيل البربري من تونس ، إذ أنها بلغت البلاد التلية والسباسب منذ مطلع القرن الثاني هـ ، إذ ورد ذكر الهواري أثناء حركة الصفرية سنة 122هـ .

وفي العهد الحفصي ، أضحت سيطرة هوارة على التلول الممتدة بين القيروان والاربس وتيفاش واضحة ، حتى كونوا إقليما خاصا بهم ، يطلق عليه وطن هوارة . وقد مثل هذا الاخير العمق الاقتصادي والممول البشري لمدينة تونس . وقد توصل بعضهم الى تولي خطط علمية هامة مثل القاضي ابن عبد السلام و الأبّي . كما ذكرت النقائش عددا هاما من الهواريين بتونس .

أما الوافدون من جنوب إفريقية ، فقد تعددت القبائل المنتمون اليها ، من لواتة ومزاتة ولماية ونفوسة وغريان ونفزة ومسراتة (من هوارة) وغيرها . وقد تخصصت بعض المجموعات في احتراف بعض المهن ، فتميز الوافدون من جبل نفوسة بعمل الافران بمدينة تونس ، كما اقترنت نسبة اللواتي بمهنة القلال (صناعة الفخار) ، واشتغل أخرون بالزراعة ، وكان من بينهم محمد اللواتي ، من أعيان ضاحية منوبة في القرن السابع هـ ، قبل أن يتحول الى سكنى ربض السعود . وكان من بين اللواتين من ذهب إلى التصوّف ، وقد كان ابراهيم اللواتي أحد صلحاء تونس في القرن السابع هـ/ XIII م(3).

---

(1) انظر : ب 170ق 127 (الفقيه احمد بن منصور الزواوي ، ت 873هـ) . ق 32 (منوبية بنت سعيدالبجاوي . ت 695هـ) ق 32 (اخوها) .ولا ندري هل أن نسبة البجاوي مرتبطة ببجاية أم بقبيلة بجاوة الموجودة الى حد الآن بناحية ماطر .

(2) انظر حول الوحدة العسكرية الزناتية ، حركة ابن ابي عمارة . ق 144، ق 78، ص105 ، ص 248.

(3) ق150 (محمد بن علي اللواتي القلال: ت سنة 799هـ) . ب29 (أم السعد بنت علي اللواتي ، 703هـ) . ق 46(أم العزيز بنت سعيد اللواتي ت سنة 782هـ) . ق 49(عبد الله بن علي اللمائي عرف بالرماش ، ت سنة 658هـ) ، ص 89(عثمان بن عبد السلام اللمائي الطرابلسي) . **مناقب المنوبية** ، ص 3ب .

وظلت الجبال بالجنوب الشرقي (دمر ونفوسة وغريان) خزانا بشريا كبيرا لاهمية كثافته السكنية ، وبعده عن انتشار الاوبئة المدمرة . ولذا ، فانه كلما عصفت ريح الازمة ، انتقلت مجموعات هامة من الجبال الى بلاد التل بحثا عن الرزق كما ذكر الوزان، وكثيرا ما تحول هذ النزوح الموسمي الى استقرار نهائي بمدينة تونس (1) .

وقد تبع هذا الاستقرار انتقال من الاشتغال في المهن اليدوية الى الاعمال الفكرية، وفضلا عن أسرة ابن عرفة الورغمي، أصبحت مدينة تونس قبلة لطالبي العلم ، بمن فيهم المنتمين إلى المذهب الاباضي مثل أبي العباس أحمد الشماخي (2).

* المجموعات الهلالية والسلمية بمدينة تونس : إشارات عديدة تدل على أن أعراب الهلالية لم يكونوا غائبين في التركيبة البشرية لسكان المدينة ، وأن العلاقات بينهم وبين الحضر كانت متينة ومستمرة طيلة العهد الحفصي ، حتى أن بعضهم استقر بالمدينة . فقد بلغ بعض الرياحيين مراتب عليا ، واختار أخرون طريق التوبة ومسلك التصوف مثل أبي زيان الداودي وأبي القاسم الدهماني (3) .

وذكرت بعض العناصر الزغبية بمدينة تونس ، منها يعقوب الزغبي ، قاضي الجماعة بتونس، الذي استقر مدة بتونس ، وافدا اليها من بادية القيروان (4).

كما استقر بمدينة تونس أعلام من مرداس ودريد ودلاج والحجري وغيرهم .

وفي الجملة فان هجرة الاعراب الى المدينة لم تقتصر على هجرة كبار المشائخ والاشراف ، الذين أعلنوا توبتهم الى المجتمع الحضري ، أو على صنف الفقراء والصلحاء مثل محمد الحبيبي وأبي زيان الداودي ، من أصحاب أبي الحسن الشاذلي . فقد بدأت تبرز خلال هذه الحقبة هجرة الفئات الشعبية المنتمية إلى الاعراب الى مدينة تونس حيث ظل العنصر البدوي هاما في التركيبة البشرية العامة للمدينة ، وخاصة في الارباض التي يقطنها عدد كبير من النازحين من أهل البادية .

2) المجال الحضري وارتباطه بالبادية :

شهدت مدينة تونس منذ عهد بني خراسان وخاصة في العصر الموحدي – الحفصي إعادة بناء ، وامتدادا لاحيائها، مستقطبة النشاطات المختلفة ، باعتبارها مركزا السلطة و ميناء متوسّطيا نشيطا . ونظرا الى موقعها بين السبخة والبحيرة ، كانت معبرا ضروريا للمسالك الرابطة بين شمال البلاد وجنوبها .

---

(1) الوزان ، **وصف إفريقيا** ، ج II، ص 105.

(2) الشماخي، **السّير** (الجزء المنشور) ، ص 7..

(3) مناقب ، مخطوط رقم 18555، ص 111، 1175.

(4) ابن ناجي ، **معالم الايمان**، ج IV، الفهرس .

وقد اقترن هذا التطور بانزياح شبكة المسالك الاساسية من الوسط الى التلول على إثر فقدان القيروان لفاعليتها وبروز دور مدينة تونس. و استطاعت هذه المدينة أن تهيمن على كامل البلاد التلية التي اعتبرت باديتها أو ريفها، حادة في الآن نفسه من تطور التمدين بهذه الجهة، محولة عدة مدن الى مجرد مراكز تدور في فلكها، مثل الجزيرة القبلية و جهة سطفورة وباجة وفحص بل ووطني هوارة ووشتاتة.

ولئن لم تبرز مدن جديدة بافريقية في الحقبة الاخيرة من العصر الوسيط، فان مجموعة من القرى نشأت حول الحواضر الكبرى، وخصوصا حول مدينة تونس، ممثلة حزاما فاصلا بين المدينة وباديتها. وكانت الجدلية بيّنة بين الامتداد العمراني والتعمير الزراعي للمجال القريب من المدينة، لتوفير الحاجيات الاساسية للاستهلاك. و تجسّد اتساع المجال في تعدد القرى الزراعية حول مدينة تونس، مثل أريانة ومنوبة وقريانة ومنزل قسة وقرطاجنة وجبل المنار وقمرت والمرسى ورياض السناجرة والمحمدية وشاذلة.

وهو ما يفسر بدوره حركة هجرة نشيطة من البادية التي مثلت خزانا بشريا الى هذه الناحية الحضر- ريفية للمدينة.

وبالتالي، فانه يتعين على الدارس للظاهرة المدينية بصفة عامة، ومدينة تونس خصوصا الا يفصلها عن ناحيتها، نظرا الى الجدلية القائمة بين الطرفين. فما هي إذن خاصيات المجال الحضري؟

أ) مكونات المجال الحضري وخصائصه: لقد جاء على لسان أحد العلماء، وهو ابو العطار أن أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد هو الذي **«حضّر مدينة تونس بناء وعلما وزينها بوفادة أهل الامصار، فصار مجموع الاقاليم يوجد فيها، وحسن البلاد كلها مجتمع لها»** (1).

وقد بلغ محيط المدينة وأرباضها الثلاثة عدة أميال (24 ميلا حسب ابن سعيد و12 ميلا حسب وثيقة إيطالية في أواخر السادس عشر)، و تجاوز عدد سكانها الخمسين ألفا، ولم يبلغ أدناه الا سنة 1535م، لما تدحرج العدد كي يصل 35 الف ساكن، على اثر الاجتياح الاسباني للمدينة (2).

وبرز اختلاف في تقدير العدد الجملي لسكان المدينة وأرباضها: فذكر سنة 772هـ / 1370م أن عدد الدور التي وظفت عليها الجباية بلغ 7000 دار. وبعد نحو قرن، أورد أدورن أرقاما مضخمة، إذ بلغ عدد السكان حسب زعمه 800 ألف ساكن، وكان وباء سنة 1468 قد فتك بنحو 260 ألف من بينهم.

---

(1) ابن الطواح، **سبك المقال**، ص 96. وورد في **فهرست الرصاع** (ص 45) أن أباه قال له: ياولدي تلمسان بالنسبة الى تونس قرية لما راى من تزيينها واحكام بنائها في مسجدها.

(2) انظر: ابن سعيد، **جغرافية**، ص 143، 143-95.. p5, **op. cit.** Lanfreducci et Bosio,

وفي نهاية العصر الوسيط، أورد الوزان أن عدد الكوانين بالارباض بلغ 1600 كانون (300 بباب سويقة، و300 بباب البحر و1000 بباب منارة). على أن مارمول ذكر رقما مغايرا: 3300، نتيجة تقدير مضخم لسكان ربض باب سويقة، إذ بلغ عدد الدور بها أزيد من ألفين.

وبرز هذا الاختلاف نفسه في تقدير العدد الجملي لدور المدينة وأرباضها: 10000 كانون حسب الوزان و 20000 دار حسب مارمول. ولا يستبعد أن يكون مرد هذا الامر الاختلاف في تقدير عدد السكان بالكانون والدار، و إن كان يمثل الكانون الذي يخص الاسرة الكبيرة ضعف السكان بالدار (1).

ومما يدعم ما ذهبنا اليه أن كتاب بيري رايس المؤلف سنة 1526م، أورد ذكر رقم 50000 منزل في نسخة أولى، و90000 في نسخة ثانية، مضيفا أن الارباض الشمالية الآمنة كثيرة السكن، وأن الضاحية الجنوبية خالية من السكان لتعرضها لغارات البدو (2).

أما الوثيقة الإسبانية المؤرخة سنة 1535م، فإنها أفادتنا بمعلومات حول المدينة، فعدد السكان تراجع بفعل الاحتلال الى حدود الخمسين ألفا، وكانت بها أرباض ثلاثة، من بينها ربض ضم 1700 ساكن. ويوجد ربض النصارى داخل باب المنارة، وقد بلغ عدد الربضيين المسيحيين الذين يشتغلون حرسا للسلطان: 2600 ساكن (وفي الوثيقة الثانية 2000) أو ما يعادل 300 منزل. أما عدد اليهود، فقد بلغ أنذاك 2500، كان من بينهم 600 تاجر (3).

ونتيجة للاضطرابات السياسية التي شهدتها هذه الحقبة (1534م)، فان عدد السكان قد انحسر في 25000 ساكن، وهو عدد متقارب مع ما ذكره ابن أبي دينار، إذ قال متحدثا عن وقعة سنة 941 هـ / 1534م: «أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث، وسمعت من شيوخ البلد من يقول عدد كل ثلث ستون ألفا». كما أوردت وثائق اسبانية أن عدد السكان بالمدينة سنة 1533 م لا يتجاوز 6000، وبالارباض: 14000. وذكر عدد متقارب في الوثيقة المؤرخة سنة 1587: 25000 ساكنا (4).

---

(1) ابن الشماع، **الادلة**، ص105. الوزان، **رحلة**، ج II، ص 70، 77. مارمول، **إفريقيا** ج III، ص 20.
R. Brunschvig, **Deux récits de voyage**, p. 183 ,185, 191-192.

(2) انظر: S. Soucek, **Tunisia in the Kitab- Bahriye** .., p. 73

(3) انظر: M. Montavez, Dos Descripciones ... **In Revista de la Uni.d de Madrid**, 1970, p. 214-215, 224

(4) ابن ابي دينار، ص 164.
Documents, In **R. A.**, 1875, p. 269, 346. Lanfreducci et Bosio, p. 532.

ب) تطور السور والابواب بالمدينة في علاقة مع الناحية الزراعية:

اقترن تطور الابواب والاسوار بمدى الامتداد العمراني للمدينة والاهمية السكانية لناحيتها.

– ففي حقبة أولى ، والى حد أواسط القرن الخامس هـ / XIم، أحيطت المدينة بسور من لبن وطين، باستثناء الجهة البحرية التي شيدت بالحجارة . وقد أمر زيادة الله بن الاغلب بهدمه أثناء حركة منصور الطنبذي ، ثم أعيد بناؤه من جديد ، وأحيط بخندق ، وكانت أبوابه الخمسة في ارتباط بالناحية الزراعية . ففي الجهة الشرقية ، كان باب البحر يفتح على الميناء ودار الصناعة التي أمر ببنائها حسان بن النعمان برادس . أما باب قرطاجنة ، فانه كان متصلا بقرى عامرة تزود المدينة بالمنتوجات الزراعية ، فضلا عن إنتاج سواني المرج المرويّة بماء الآبار ، والموجودة داخل السور، قرب هذا الباب . وفي الجهة الغربية ، كان باب أرطة يفضي بدوره الى حزام زراعي ضيق ، تحدّه سبخة السيجومي . أما باب الجزيرة ، فانه كان في علاقة وثيقة مع جزيرة شريك العبسي ، التي ينتسب اليها وبلاد الساحل . وقد نشأت خارجه قرى زراعية كثيرة تعتني بانتاج الحبوب وغراسة الأشجار المثمرة والزيتون ، وسط فحص مرناق ، حتى أن المصادر زعمت أنه يحتوي على360 قرية . أما الناحية الشمالية المتصلة بباب السقائين ، فانها تميزت بالبساتين المنتجة لشتى أصناف الثمار والرياحين ، والممتدة حتى جبل خفاجة (الجبل الاحمر) (1).

وفي الجملة ، فان المدينة أحيطت منذ العهدالاغلبي بحزام من السواني ، داخل الاسوار وخارجة ، ومن البساتين المكونة من أشجار مثمرة وزياتين ، ومن مزارع الحبوب الشاسعة . وقد اقترن تطور المدينة بهذا العدد الكبير من القرى الزراعية المحيطة بها .

– على أن هذا التناغم بين المدينة وناحيتها شهد انقطاعا وتغيرا طيلة الفترة الممتدة بين أواسط القرن الخامس هـ / XIم وسنة الاخماس / 1160م : فلئن ظل السور المبني بتراب وثيق (أو طابية)محاطا بخندق من جهة باب الجزيرة الى حد نهاية القرن السادس هـ/ XIIم ، فان تتالي الازمات والمجاعات ، وتفشّي أخطار الاحتلال النورماني أسباب أدت إلى الاستغناء عن بابين من أبواب المدينة : الباب الذي يفتح على البحر وباب أرطة الذي يخشى أن تتسرب منه القبائل المحاربة .

كما ازدادت أهمية الاجنة وزراعة البقول الموجودة داخل الاسوار ، بعد أن انتصبت القبائل البدوية مكان الحزام الزراعي بجهة قرطاجنة ، واتخذ بنو زياد الرياحيين من المعلقة مقرا لهم ، فأنشؤوا بلدا محاطا بسور من تراب ، تخوفا من الغارات البحرية .

---

(1) اليعقوبي، **البلدان** ، ص 101. ابن حوقل، **صورة الارض** ، ص 75.البكري ، **المسالك** ، ص41–45 .

وبعد أن فرطت هذه القبائل في الترحال، اعتنت بزراعة الارض، حتى أضحت المزود الاساسي للمدينة بالمنتوجات الزراعية مثل الحبوب والعسل واللحم والسمن . ومما يفسر اختيارها لهذا الموضع الاستراتيجي لمدينة تونس ، هو دور هذه القبائل في مراقبة السواحل ،وصد هجومات النورمان . لكن ذلك لا يعني بأية حال حصول توافق بينها وبين المجتمع الحضري ، لما سببته من انحسار للمجال الزراعي (1).

– الامتداد العمراني في العهدالحفصي وظهور الارباض كحلقة وصل بين المدينة وناحيتها : عرفت مدينة تونس في العهد الحفصي حركة تمصير وتمدين ، نتيجة عوامل عدة ، أهمها : – هجرة أهل القرى والمدن المتضررة بفعل الاحتلال النورماني والاضطرابات البدوية ، الناجمة خاصة عن حركة بني غانية ، التي أدت الى إخلاء كثير من القرى والمدن من أهلها ، وهجرتهم الى المدن الكبرى ، حاملين معهم نسب البلدان الوافدين منها ، مثل برشانة ولبيدة وملول وأبة، لكن كثيرا منهم لم يسعفهم تخطي أبواب السور ، وأغلقت المدينة أبوابها حيالهم ، مثلما وقع لاهل منزل باشو.

– الاستقرار السياسي الذي تمتعت به إفريقية في عهد أبي زكريا والمستنصر ، وترسيخ دور مدينة تونس كحاضرة للبلاد .

– تدفق المهاجرين الاندلسيين على مدينة تونس منذ النصف الاول من القرن السابع هـ (2).

والنتيجة لكل ذلك هو ظهور الارباض الجنوبية والشمالية بالمدينة ، حتى أن العبدري وصفها سنة 688هـ / 1289م ، بكونها « **من المدن العجيبة الغريبة ، وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان** » . وقد تعددت الابواب في تناغم مع اتساع الارباض ، حتى قدر ابن سعيد أن المحيط العام للمدينة بلغ 24 ميلا (3).

– الحقبة الاولى للامتداد العمراني للمدينة :منذ القرن السابع هـ / XIIIم ، وخاصة في عهدالمستنصر، أوردت المصادر ذكرالارباض التالية :

– ربض باب البحر : كان مخصصا على ما يبدوللتجار الاجانب .

– ربض السعود قبلة الباب المنصور : كثر فيه ذكر المتصوّفة .

– ربض التبانين ، ويسمى كذلك ربض السلطان ، غربي القصبة : ويبدو أنه كان

---

(1)الادريسي ، **نزهة المشتاق**، ص 111.

التجاني ، **رحلة** ، ص 355. ابن خلدون، **تاريخ** ، ج VI ، ص 402–401. وقد تحدّث ابن عذاري (**البيان** ، جI ، ص 314) عن إحدى هبات العامة بمدينة تونس سنة 543 هـ ، على إثر الاجتياح النورماني للبلاد ، متخذين من عبارة « لا طاعة لعربي على غزي » شعارا لهم . . انظر الفصل : حركات العامة بافريقية في العهدالحفصي .

(2) التجاني ، **رحلة** ، ص . G . Marçais , **Les Arabes en Berbérie** , p. 232

(3) العبدري ، **رحلة** ، ص 41–39. ابن سعيد ، **جغرافية** ، ص 143–95.

مخصصا للتبانين ، قبل أن يتحول موضعهم الى الربض الشمالي، بعد أن عمره السلطان .

ـ ربض الاشراف : يقع داخل ربض التبانين ، غربي القصبة .

ـ الشرف والمركاض .

ـ ربض نفات : اقترنت تسميته بهجرة قبيلة نفات من جنوب شرقي البلادالى مدينة تونس . وكان يقع خارج السور ، بين باب التوبة (أو باب عبد الله) وباب الاقواس . وكان يقطنه الاعراب في القرن السابع هـ .

ـ ربض الاقواس : خارج باب سويقة (1).

ومن الملاحظ أن نشأة هذه الارباض قد اقترنت في الغالب بالهجرة من البادية مثل ربض السعود وربض نفات ، أو بالمهن والحرف المقترنة بها ، مثل المركاض والتبانين .وقد كان عدد الارباض هاما بالجهة الجنوبية ، أكثر منه بالناحية الشمالية للمدينة ، حتى أنه نجم عن الامتداد العمراني بها انتقال بعض الاسواق المقترنة بالبادية مثل التبانين من الغرب الى الشمال ، بعد أن حل محله ربض السلطان . وفي الجملة ، ظهرت ثلاثة أرباض في القرن السابع هـ ، تسمت بأسماء الابواب التي تربط بينها وبين المدينة، وهي أرباض باب سويقة وباب الجزيرة وباب المنارة .لكن لم تقع احاطتها بسور وخندق الا سنة 716هـ / 1316م . وقد احتاجت هذه التحصينات ثانية الى الترميم والصيانة عند قدوم أبي الحسن المريني الى تونس سنة 748هـ / 1347 م . ثم بعد بضع سنوات من هذا التاريخ شرع السلطان أبو اسحاق في اعادة بناء السور البراني المحيط بجميع أرباض مدينة تونس ، محبّسا عليه نصف خراج الارض ونصف كراء المعاصر التي توجد داخله (2).

ـ الحقبة الثانية من الاتساع العمراني : القرن التاسع هـ :ولئن شهدت هذه الارباض صيانة وتهيئة عمرانية في النصف الاول من القرن الثامن هـ ، وخاصة في عهد القاضي ابن عبدالرفيع والخبير في العمران ابن الرامي ، فانها لم تعرف توسعا ذا شأن طيلة هذا القرن ، وخاصة بعد أزمة سنة 748هـ . بل على العكس من ذلك، فقد عمّ بعضها الخراب، وتراجع العمران تراجعا كبيرا طيلة هذه الحقبة(3).

ولم تعرف المدينة انتعاشا عمرانيا جديدا الا في القرن التاسع ، خاصة في فترتي حكم أبي فارس عبدالعزيز وأبي عمرو عثمان، وبعد أن ظهرت موجة ثانية من

---

(1)مناقب أبي سعيد الباجي ، ص 12، مناقب ، مخ18555 ، ص 12، 113، 122 ، ب ، مناقب القرجاني ، ص 12 ، 135. الوزان ، وصف افريقيا ، جII ، ص 70 (ارجع هذه الارباض الى عهد المستنصر).

Monchicourt , Plans imprimés .., **In R . A.** , 1925 , p. 406 .

(2) ابن الشماع ، الادلة ، ص 102. العمري ، **مسالك** ، ص 84–86 . الزركشي ، **تاريخ** ، ص 85.

(3) ابن الرامي ، **كتاب البنيان** ،

المهاجرين الاندلسيين الى مدينة تونس . وقد تعددت في هذه الحقبة الانجازات المعمارية من سبالات ومدارس ومساجد وزوايا وتوسيع للسور الشمالي وغيره . وتضاءلت المجالات غير المبنية في الارباض ، حتى اعتقد أحد الرحالة الاجانب خطأ أن السور كان مربعا ، وقد بلغ محيط سور المدينة حسب هذا المصدر أربعة أميال ، والمحيط الجملي بما فيه الارباض 12ميلا ، أي ما يربو عن 20 كم .

أما عن كيفية توزيع هذه الارباض ، فهي كالتالي :

ـ ربض باب سويقة : أصبح يمتد من باب الخضراء وباب أبي سعدون ، محتويا على300 كانون، أو ما يزيد عن ألفي دار حسب مارمول .

ـ ربض باب البحر : ذكر لاول مرة في القرن السابع هـ / XIIIم ، وكان يسكنه في القرن التاسع هـ التجار النصارى المستقرون بفنادق ومنازل خاصة بهم ، وكان يضم نحو300 كانون .

ـ ربض باب المنارة : امتد الى حد باب خالد غربا ومصلى العيدين جنوبا ، حيث كان يعقد سوق لبيع الملابس القديمة ، ونعتقد أن هذه الحارة كان يقطنها عدد كبير من النازحين من البادية القريبة من مدينة تونس . كما سكن الربض عدد كبير من الحرفيين والصيادين ، في منازل يصل عددها الى حد الالف (1).

ـ ربض النصارى أو حي النصارى: يوجد داخل ربض باب منارة ، وقد استقرت به الجالية النصرانية . وخلافا لما ذهب اليه أحد المستشرقين ، فان الرحالة أدورن ليس أول من ذكر هذا الربض، كما أن ظهوره لا يرجع الى عهد أبي عمرو عثمان.

وحسبنا دليلا ذكر ما ورد في البرزلي والأبيّ بخصوص هذا الربض منذ مطلع القرن التاسع هـ . وقد أشارا الى النزاع الذي نشب في أواخر القرن الثامن هـ ، لما قام النصارى ببناء منزل علا على بعض أجزاء مدرسة التوفيق ، وأفتى ابن عرفة بعدم هدمه، لمكانة النصارى لدى السلطان . وأضاف البرزلي أن النصارى زادوا في علو الكنيسة ، وجعلوها بمثابة الحصن الذي يلتجؤون اليه خوفا من ردود فعل العامة . وهذه المعطيات متجمعة تبين لنا وجود هذا الربض منذ القرن الثامن هـ على أقل تقدير (2).

---

(1) الوزان ، **ن.م.** ، جII ، ص 70. مارمول ، **ن.م.** ، جIII ، ص 20 .

Brunschvig , **Deux Récits de voyage** , p . 183 , 191-192 .

(2) اورد البرزلي رواية اخرى تدل على نفوذ هذه الجالية ، ذلك أن التجار النصارى جددوا بناء كنيسة في إحدى فنادقهم ، وبنوا عليها منارة بدعوى أنها تخصص للاضاءة ، ولما طولبوا بالاستظهار بكتاب العهد ، اتضح أن هذا البناء غير وارد في العقد . ويمكن ارجاع بناء هذا الربض الى القرن السابع إذا ما اعتبرنا أن مسجد الربض الذي ذكره ابن الطواح هو نفس المسجد الذي حدده الابي قرب ربض النصارى انظر : الابي ، **الاكمال** ، جII ، ص 189 ، جIVص 355. البرزلي ، **جامع** ، جI ،ص164 ب ج ، ص164 ب.

ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص 112.

Brunschvig , **Hafsides** , T I , p. 447 . Ibid , **Deux voyages** .., p. 190-192 , 215 .

وقد حافظ كثير من النصارى على عاداتهم ولباسهم ومعتقدهم ، فيما فضل أخرون اعتناق الدين الاسلامي ولباس زي أهل البلاد ، وقد كانت النساء يتلحّفن على غرار النساء التونسيات . والى جانب اشتغالهم بحراسة السلطان ، فقد انصرفت مجموعات أخرى من نصارى الربض الى حرف وأعمال اختصوا بها ، مثل الخمارين والبزازين وغيرهم (1).

أما أبواب المدينة المذكورة في الحقبة الاخيرة من العهدالحفصي ، فانها قد بلغت ، حسب وثيقة إسبانية مؤرخة سنة 1535م ، نحو الاربعين ، البعض منها رئيسي والآخر ثانوي ، وأهمها : باب البحر وباب قرطاجنة وباب سويقة وباب الميورقي و باب القصبة وباب إنتجمي(يفتح على المدينة) وباب الغدر(يفتح على الغابة) وباب الجزيرة وباب المنارة وباب الماء(ولعله يوافق باب الاقواس) وباب الفلاق وباب خالد وباب رحمة (ولعلها التوبة ، أو علاوة) ، وباب درب العسال وباب درب الخضراء .

وتتميز هذه القائمة بذكر بابين لاول مرة ، لم يكونا معروفين من قبل ، وهما : باب الخضراء وباب العسال (2).

وبالتالي فقد ضمت الاسوار منذ القرن التاسع كل هذه الارباض الشمالية والجنوبية . لكن هذه الاسوار كانت غير حصينة ، خاصة من جهتي الغرب والجنوب ، إذ كان إرتفاع الجدران لا يتجاوز ثلاث قامات ، أي ماينـاهز 8 , 4م .مما يدل على أنها كانت تستخدم أساسا للتصدي لهجومات الاعراب(3) .

أما خارج الاسوار ، فقد تعددت الابراج والزوايا التي استخدمت لمراقبة حركة الدخول الى المدينة ، وخاصة في الناحية المطلة على ميناء حلق الوادي وقرطاجنة ، خوفا من القراصنة والمحاربين . وتكون حزام ساحلي من الزوايا والمحارس الممتدة على طول خليج تونس ، بين جبل المنار (سيدي أبي سعيد) وجبل قربص ، حيث نشطت حركة القرصنة . وقد رابط فيها المتطوعون والجنود النظاميون الذين بلغ عددهم في فترات التوتر الأمني عدة آلاف . كما شيدت سلسلة من الابراج تصل ساحل البحر بالمدينة ، لنقل المعلومات الخاصة بالمراسي الى مقر السلطان بالقصبة .

على أن مصادرنا لا تسعفنا بمعلومات دقيقة عن هذه التحصينات ، إذ لم يرد ذكر الا بعض الابراج ، مثل برج رأس الطابية ، شمال المدينة ، وبرج بوعبا شرق المركاض

---

(1) الوزان ، **ن.م.** ، جII ، ص 70. مارمول ، **افريقيا** ، جIII ، ص20 .

R. Brunschvig , **Deux voyages** ..p 183 , 191-192 .

(2) ابن ابي دينار ، **المؤنس** ، ص 164. مارمول ، **ن.م.** ، ج III، ص 23. ذكر ابن الشباط (**صلة الصمت** ج IV ، ص117) سنة 651 هـ ، 10 ابواب بمدينة تونس ، و قال التيفاشي (نزهة الالباب ، ص 111) انها ثمانية

(3) انظر: M.Montavez, **Dos descripciones...**, p. 214-215, 224. Monchicourt, **Plans imprimés**,p.405-406

اللذين شيدا منذ القرن السابع هـ ، وبرج قمرت (أو برج قرطيل المحار) الذي أمر ببنائه أبو العباس أحمد ، وبرج الاونقي الراجع الى عهد أبي عمرو عثمان . أما القلاع ، فقد أنشأت قلعة بحلق الوادي في بداية القرن السادس عشر ، وقد تحولت وقتذاك القصبة التي أنشأت في سنة الاخماس الى مخزن للتمويل وللذخيرة والاسلحة (1).

ج) المجال السكني بمدينة تونس : التطور نحو التدريب :

لقد انعكست الاوضاع الأمنية على طبيعة السكن بالمدينة ، إذ لم يقع الاقتصار على الاحتماء بالاسوار الخارجية ، إنما التجأت بعض الفئات الاجتماعية الى العيش في مجال ضيق خاص بها ، يسمى الدرب وهو الزقاق الذي وقع غلقه بباب جماعي ، وتحول الى مجال خاص . وقد شجع على هذا المسار الاثرياء الذين يمتلكون أكثر من منزل في الزقاق الواحد ويخشون التعدّي والسطو عليهم . وبالتالي فقد أضحى الدرب منذ بداية القرن الثامن هـ الوحدة الاساسية للسكن ، ولتقسيم المجال الحضري بمدينة تونس .

جاء في ابن الرامي : **« والدرب جرى العرف به عندنا في الشوارع ، وما رأيت أحدا أنكر ذلك ، الا إذا اجتمع أهل الدور الذين يبنون العرض للدرب مع حيطانهم ، فانه إذا أنكر ذلك أهل الحيطان، فلهم منع من أراد أن يبني في أفنيتهم لما يلحقهم من ضرر الفتح والغلق».**

ومن الثابت أنّ التدريب اقترن في هذه الحقبة بالتجاء شرائح عدة من المجتمع الحضري الى حماية أنفسها وأموالها من التعدي ، ولذا فقد كان ابن الغماز يرى أن صيانة الدروب تلزم هذه الفئات دون غيرها . قال ابن الرامي في هذا الصدد : **«سألت عن ذلك الفقيه أبا عبد الله بن الغماز . فقال : الغرم في ذلك على ذوي الدور لان التحصن إنما هو من السرقة ، والفقير لا يخشى من السرقة »** (2).

وتسعفنا المصادر بذكر عدد من هذه الدروب بمدينة تونس التي تموضعت داخل المجال الحضري الاول، وتبيّن الطوبونوميا اقتران الدروب بأعلام تملكوا هذا المجال ، أو سكنوا به وأشتهروا بأمر ما ، مثل العلم والورع و شتى الخصال الاخرى . وهذه قائمة من الدروب الوارد ذكرها :

- درب أبي زيد : يوجد داخل المجال الحضري القديم .
- درب الشيخ أبي حديد : بناحية نهج الباشا .

---

(1) **الحلل الموشية** ، ص 153 . مارمول ، **إفريقيا** ، جIII ، ص 23.

Brunschvig , **Deux récits de voyage** , p . 184 , 185 , 190

Ibid , art. Tunis , In **E . I**

(2) ابن الرامي ، **كتاب البنيان** ، ص 337-336.

ـ درب النشار : يتموضع بمجال باب سويقة ، وقد اقترن إسمه بحرفة النجارة .
ـ درب ابن عبد السلام : شمال جامع الزيتونة ، حيث ميضاة السلطان .
ـ درب زقاق الزيتون : شرقي جامع الهـواء ، ذكر به باب الدرب . ويبدو من خلال الاسم أن أحد الازقة تحول في مرحلة ثانية الى درب (1).

ومما ارتبط بانغلاق الدروب بفـعل التبدي الذي شمل المدينة ، أن كثـيرا من الأزقة حملت أسماء في علاقة مع الحياة الريفية والزراعية ، مثل :
ـ زنقة الغنم : خارج باب الجديد ، وقرب جامع الهواء .
ـ زقاق الزيتون : شرقي جامع الهواء ، ذكر في القرن السابع هـ .
ـ زقاق الرمانة : ذكر في القرن السابع هـ (2).

كما أن الرحاب والبطائح غلب عليها أحيانا الطابع البدوي ، ففضلا عن كونها مجالا لالتقاء البدو والحضر ، حيث تقام أسواق الماشـية (رحبة الغنم) والحبوب وغيرها من المنتوجات الزراعيـة (رحبة القمح) ، فان البعض الآخـر خصص للترويح عن النفس ، فانعـقدت فـيه حلقات القـصاصين والمغنين الشـعبـيين على النمط البدوي ، ومـشاهد الرقص والضـرب بالسيف ، وحـمل القلال وغـيـرها ، أو التطبب والشعـوذة . ومما له مغـزاه أن تأثير ثقـافة البـادية في المجال الحضـري واضحـة . وهو ما يفـسر أن ابن خلدون نفسه لم يستطع تجاهل السيرة الهلالية وشعر البدو وثقافتهم (3).

ومعلوم أن بني حفص خصصوا منذ القـرن السابع هـ منزلا لاقامة رؤساء البدو الوافـدين على المدينة ، أطلق عليـه «دار لنزول العـربان» ، غيـر أننا لا نعلم مـوقعـه في النسيج العمراني العام للمدينة (4).

---

(1) **مناقب أبي سعيد الباجي** ، ص 328، **مناقب** ، مخ 18555، ص 1198. **مناقب القرجاني**، ص 56 أ.البرزلي ، **جامع** ، ج II، ص 1213. الزركشي ، **تاريخ** ، ص 136.

(2) ورد ذكر عدد آخر من الازقـة مثل : المعر الاعظم حذو جامع الزيتـونة ، وزقاق المر بربض السلطان ، خارج باب المنارة ، وزقاق الاقواس ، وزنقة الساباط بسوق الربع ، وزنقة حمام العـبدي قرب باب الفلاق وزنقة سيدي محرز وزقاق الحـلفارين وعنق الجـمل والقنطرة .انظر : **مناقب** 18555، مخ، ص 199 ، 1147 ، 1166 ، 1185، 190 ب. مناقب المنوبية ، ص 11ب . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 122 . **مناقب القرجاني** ، ص 151.
M. Montavez, **Dos Descripcions**, p.216,225.

(3) توسطت مدينة تونس رحبـة كبرى محاطة بالدكاكين ، وصـفت بكونها كثيرة الحركـة في كل الاوقات . ويبدو أنها تقع شرقي جامع الزيتونة ، بالمعر الاعظم ، كما تدل على ذلك الصور الاجنبية لمدينة تونس سنة 1535م . انظر : ابن خلدون، **المقدمة** . مارمول ، **إفريقيا** ، ج III،ص 21 مناقب ، مخ 18555، ص 177ب (ذكرت بطحاء الشعرية بتونس) . مناقب بن عروس ، ص 491.
Lanfreducci et Bosio, op.cit., **Revue Africaine**,1925. Montavez, Dos **Descripciones**...p.216.

(4) مناقب **أبي الشاذلي**، ص 165 .

د) الاسواق : مجال مشترك بين البدو والحضر :

عرفت أسواق مدينة تونس اتساعا هامـا منذ عهد أبي زكريا الاول ، الذي شيد عدة قيصريات ، « **وكان عنده من الصناع وأصحاب المعـارف وأرباب البصر ما لم يكن عند غيره»** .

وفي عهـد أبي يحيـى أبي بكر ، بلغت المدينة مرحلة هـامة من الاتسـاع ، حتى أن العمري وصفـها بكونها جليلة ، و ذكر ابن الشماع بهـا أكثر من 700حانوت للعطارة ، وما يزيد على 120 طاحونة تقوم بطحن 4000 قفيز من القمح كل يوم (1).

قد خـصص لكل سوق مجال ، و انتظمت وفـق رتبية انطلاقا من المركـز في اتجاه الاطراف ، حيث يزداد التعامل بين أهل البادية والحضر وتعدد الحرف المرتبطة بالريف.
واحتل في هذا الصدد قطاع النسيج المرتبة الاولى في الحـرف والتجارة بأسواق مدينة تونس .

ـ*أسواق النسيج* : تميّزت مـدينة تونس بصنع أنواع عديدة من الثيـاب الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية .

* سوق الحرير : كانت أقمشة الحرير مختـمة وغيرمختمة . وقد ارتدى السلطان الخز ذا اللون المائل الى الخضرة والسواد . أما قـماش السفساري المصنوع من الحرير والقطن أو الصوف ، فقد خصص للباس الأمراء (2).

* سوق القطانين : يقع شـمال جامع الزيتونة ، ولـعله يطابق الموضع الحالي الذي يطلق عليه نهج القطن (3).

* سوق الصـوف : ورد ذكره منذ القـرن السابع هـ . ويستـبعـد أن يكون وجد بسوق الجرابة الذي بناه يوسف داي شمال غـرب جامع الزيتونة . ولعله انتصب خارج النواة العتيـقة ، لعلاقته المتـينة بالبادية . ومعلوم أن مكسا يسمى فـائد الصوف فرض على البدو الوافدين على المدينة بصوفهم (4).

* سوق الـغزل : كـان يباع به غـزل الصوف الذي أعـدته نساء البـادية والمدينة ، اللاتي أشتـهرن باتقـان هذا العمل . ونظرا الى ارتبـاط هذا السوق بالبـادية ، فقـد كان

---

(1) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 112-113 . الشماع ، الادلة . ص91 .ذكر الدولاتلي (تونس في العـهد الحفصي، ص297-298) البعض من هذه الأسواق (27 سوقا).

(2) العمري ، **المسالك** ، ص 98،85. الوزان ، **وصف افريقيا**، جII ، ص 75.

(3) مناقب ، مخ 12544 ، ص 58 ب (مر أبو عبد الله الارياني راكبا على بغلة أعطاها إياه السيد أبو العلاء من هذا السوق) . ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص98 (ذكر حانـوت الامين القطان في نهاية القرن السابع هـ ، قرب سوق الكتبيين) .

(4) الوزان، **نفسه**. مقديش ، **نزهة الانظار** ، جII ، ص 92.

الوحيد ، الى جانب الابارين الذي يتعامل فيه بالفضة ، لا بالذهب . والظاهر أنه أنتصب قرب سوق الأبارين وسوق النساء ، قبل أن يتحول في عهد يوسف داي الى ناحية باب بنات . أما مجمع الغزل المسمى مسحبة ، فقد ذكر موضعها بمقرين(1)

الاسواق والحرف المرتبطة بالاطعمة والاشربة : اقترن وجود هذه الاسواق بما توفّره البادية من حبوب وخضر وغلال ، أو ما يجلب من خارج بلاد إفريقية . وكان في تعدد الاسواق وتنوعها دلالة على مدى ارتباط الحاضرة ببايتها ، ومن أهمها نذكر:

* الطواحين أو الارحية : وجد بمدينة تونس عدد هام من الارحية أو الطواحين ، بلغ في مطلع القرن الثامن هـ نحو 120 ، كانت تقوم بطحن 4000قفيز من القمح يوميا . وقد تطور حسب أدورن الى المائتين في القرن التاسع ، ثم نزل الى النصف عند الاحتلال الاسباني . وذكر الوزان أن الطاحونة لا تطحن أكثر من حمل من القمح ، لانها كانت تحركها الدواب . وانتصب كثير منها خارج المجال الحضري ، لإضرارها بالبنيان والتلوث والضجيج الذي تحدثه من جراء قلي الحبوب ورحيها . ولكن يتضح من خلال ابن الرامي أن عددا هاما منها استحدث داخل مجال السوق والمجال السكني ، ويبدو أن ذلك كان مقترنا بأزمة القرن الثامن هـ ، وتعدد المجالات الفارغة داخل المدينة (2).

واتبع المشرع المديني طرقا متطورة تعتمد على قيس الذبذبات لازالة الارحية المضرة بالبنيان (3).

---

(1) البرزلي ، **ن.م** ، جII ، ص 133ب . ابن عرفة ، **المختصر** ، جIV ، ص88 ب . الزركشي ، **تاريخ** ، ص116-117 .

(2) لم تستعمل الارحية الطاقة المائية لتحريكها ، إنما اقتصرت على الطاقة الحيوانية ، ولذا قل إنتاجها وكثر عددها . انظر حول عددها : ابن الشماع ، الادلة ، ص 91. الوزان ، ن.م. ،جII ، ص 76.

Adorne , **op; cit.** , pp.185-189 , 206 . Dos Descripciones , **op. cit** . , p. 216 , 218 , 225 .

وحول التلوث الذي تحدثه ،قال ابن الرامي (**كتاب البنيان** ، ص 302-301) : « قال المعلم محمد : وكذلك السفاج ضرر ، وكذلك الطواحين التي استنبطت لقلي الشعير في الاسواق والدور ، فانها ضرر . وقد نزلت هذه عندنا بتونس ، فاشتكى بعض الناس الى الفقيه القاضي ابن عبد الرفيع ، فسألنا النظر فيها ، فكتبنا في وثيقة أن دخانها كثير مضر بالجيران ، فأمر بقطعها » .

(3) نورد للقارئ هذه التجربة الهامة التي اعتمدها ابن الرامي (ن. م. ، ص 305) لقيس الضرر المحدث من جراء ضجيج الارحية : « فقال لي(ابن عبد الرفيع لابن الرامي) : تأخذ طبقا من كاغيد وتربط أركانه بأربعة أخياط في كل ركن خيط ، وتجمع أطراف الاخياط وتعلقهم من السقف الذي على الحائط الفاصل بين الدار وبين الرحى من جهة الدار ، وتعمل على الكاغيد حبة من كزبر يابسة ، وتقول لصاحب الرحى : هز رحاك ، فان اهتز الكزبر على الكاغيد قيل لصاحب الرحي ، اقلع رحاك ، فانها تضر بالجار ، وان كان لا يهتز الكزبر على الكاغيد ،قيل لصاحب الدار ، أترك صاحب الرحى يخدم لانها لا تضر بك.

* الافران : عرفت منذ تلك الفترة باسم الكوشة ، التي تحتوي على «بيت نار واحدة» أو أكثر حسبما ورد في ابن الرامي . ولذا فان دخانها وتلوثها أثار قلق السكان . وقد ذكر أن عددا هاما منها كان بيد أهل البادية الوافدين من الجبال بجنوب شرقي البلاد (غريان ونفوسة ودمر) ، كما اشتغل في الافران بعض المهاجرين من الاندلس مثل القرموني (1).

* الخبازون :ذكر بالمدينة سوق الخبازين ، المخصص لتوفير شتى أنواع الخبز . وقد كان الخبز(الكبير والصغير) يستعمل في مقايضة عديد البضائع (2).

* صانعو الفطائر والسفاجون : وهي مهن ملوثة ، ولذا كثيرا ما تموضعت قرب الابواب وبعيدا عن المجال الحيوي للمدينة. ورد ذكرها في القرن الثامن هـ في ناحية باب علاوة ، قريبا من مسجد المشرف بباب الفلاق (3).

* مخزن الطعام أو السماطون : كان مخزنا للحبوب تمتلكه الدولة، وقد استعمل في فترات الشدة، لتوفير الغذاء الى الناس ، مثلما وقع سنة 862 هـ / 1457 م، لما أمر أبوعمرو عثمان بإخراج كل يوم من المخزن ما يصنع منه ألف خبزة .

* رحبة القمح : خصصت لبيع الحبوب الواردة على المدينة من البلاد التلية.

* رحبة مخصصة لبيع طحين الشعير : وهو الذي يصنع منه السويق .

* فندق البقل : يقع خارج باب سويقة ، وقد حوله أبو محمد المرجاني الى جامع الخطبة (4) .

* سوق الفكة أو الفاكهانيون : يبدو أنها تقع في نفس الموضع الحالي ، شرقي جامع الزيتونة (5) .

* العطارون : تقع علي طول « الممر الكبير » الذي يفضي الى باب البحر ، وكانت تقوم ببيع العطور وبعض العقاقير المستعملة في الطبيخ والتداوي ، وقد بلغ عدد الحوانيت المخصصة للعطارة 700، في النصف الاول من القرن الثامن هـ / الرابع

---

(1) جاء في ابن الرامي (ن.م.، ص 302) : « قال المعلم محمد : فاذا قلنا أن الدخان المحدث يمنع ، وأن القديم لا يمنع على ما قدمناه ، فان أراد صاحب الدخان القديم أن يحدث دخانا أو يضيفه الى الدخان القديم . وهذه نزلت عندنا بتونس كانت لرجل كوشة فيها بيت نار واحد ، فاراد صاحب الكوشة أن يحدث بيت نار آخر في كوشته ..

(2) الوزان ، **وصف إفريقيا** ، ج II، ص 75.

(3) نفس الاحالة . وقد ذكر ابن الرامي (**ن.م**.، ص 301) ضرر السفاج الناجم عن قلي الزيت . وقد سمي أحد صلحاء مدينة تونس في القرن السابع هـ السفاج . الرصاع ، فهرست ، ص 122 . وقداخطأ المحقق لما اراد تقويم السفاجين وتحويلها الى سكاجين.

(4) الزركشي ، **ن.م**.، ص150. الوزان، **ن.م**.، ج II،ص75. **مناقب** ، مخ12544، ص113، 731ب. **مناقب الشاذلي**، ص، ص163. مناقب ابن عروس، ص163. وقد ذكر عبد الله السنوسي،(**مسامرات الظريف**) أنه وقع هدم فندق الغلة القديم الخارج باب البحر سنة 1295هـ .

(5) الوزان ، نفس الاحالة .

عشـر م . وكانت من أنشط الاسواق بالمدينة ، لكثـرة ما يردها من النساء الحـضريات ، حتى أنها تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل (1).

* الشرابيون : سوق يبـاع فيها الاشربة والعقاقيـر المحلاة بالسكر ، ولعلها كانت محاذية للعطارين (2).

* اللبانون : كانوا يفدون على المدينة من ناحيتها القريبة (3).

* فندق الخمر : يـقع خارج باب البحر ، وكان يـتقبله أحد النصـارى . وقد تعرض عديـد المـرات الى الازالة ، فـي عـهـد حركـة ابـن ابي عمارة وأبي فـارس عبد العزيز (4).

* سوق الحـواتين : يوجد داخل باب البحـر ، وكان به نحو ثلاثمـائة حوات، لكن الدكاكين وقـعت عليهم في أواسط القرن السـابع هـ، فماتوا ولم يرد ذكر السـوق ثانية في المصادر(5).

– الأسواق الأخرى : حوانيت الشمـاعين : تقع قرب جامع الزيتونة ، وقد بنيت في هذا المجال المدرسة الشماعية في عهد أبي زكريا الاول .

* حوانيت البـلاغيين : ذكرت شـمال المصليّ. ولا ندري هل وجـد سوق ثان مكان سوق البلاغجيّة الحالي.

* سوق الخرازين : تصـنـع فيه الاحذية . يوجد قـرب زاوية بن عروس و ربما في موضع سوق الجلد حاليا(6).

* سوق الربع : كان يعتبر من خاصة السلطان . يقع بزنقة الساباط ، وحاليا يوجد باب الربع في مستوى سوق القمـاش . وقد تهدمت منه 27حانوت في القرن السابع هـ / XIIIم (7).

* القيسارية : سوق مغطاة بباب الفلاق ، كان أحد الاندلسيين تاجرا بها (8) .

* سوق الصاغة : يوجد قرب جامع الزيتونة شمالا ، وكان به عدد من اليهود .

* سوق الكتـب :جنـوب جامع الزيتونـة . و تـباع به الكتب عن طريق الدلالين (9).

---

(1) نفس الاحالة . ابن رشيد ، **رحلة** ، ص 128. ابن ابي دينار ، **المؤنس** ، ص144 . **مناقب القرجاني** ، ص 15
M. Montavez,**Dos Descripciones**, p.225.

(2) ذكر ابن الطواح (**سبك المقال** ، ص 109) مسجد الشرابيين بتونس . وفي الوزان (نفس الاحالة) : بائعي الاشربة .

(3) الوزان ، نفس الاحالة .

(4) مناقب مخ 12544 . أنظر باقي الاحالات في الفصل الخاص بالجباية (قبالة الخمر) .

(5) مناقب ، مخ 18555، ص 186ب . اعتقد الدّولاتلي(ن.م.، ص297)أنّه يقع قرب الحفصيّة.

(6) مناقب ، مخ 12544، ص 57ب . مناقب القرجاني ، ص16.

(7) مناقب المنوبية ، ص 11ب . البرزلي ، ن.م. ، ج II، ص 1133، ج III، ص 169 .

(8) مناقب المنوبية ، ص 3ب . العبدري ، **رحلة** ، ص 265.

(9) الابي ، **الاكمال** ، ج II، ص 198.

* سوق الصفارين : كان قريبا من سوق الفلقة . ويبدو أنه يوجد في الموقع الحالي لسوق النحاس ، جنوب غربي الزيتونة (1).

* سوق الفلقة : كان مخصّصا لبـيع العبيد السّودان. ويقع داخل النوى الحضرية العتيقة ، وقد أحدث به السلطان أبو عمرو عثمان مدرسة (2).

* سوق البلاط : ورد ذكره في عهد الحفصيين.

* السقالين : تصنـع بـه الاسلحة وتصقـل . ويبدو أنـه يقع قرب باب المنارة (3).

* السراجين والسكاجين : خاصتان بصناعة السـروج . وتقعان داخل باب المنارة (4).

– *الاسواق والحـرف المرتبطة بالبادية* : توجد أسـواق أخرى أكثر ارتبـاطا بانتاج البادية المحيطة بمدينة تونس، وقد كان يقوم بها البدو المحيطون بالمدينة . وأهمها :

* سـوق الخيل أو المـركاض : كـان يقع في الربض الغـربي للمـدينة ، منذ القـرن السابع هـ.

* سوق الدواب أو رحبة الغنم : يوجد قـرب جامع الهواء ، منذ القرن السابع هـ ، وكان به عريف (5).

* المسلخ : كـانت تذبح الابقار والاغنـام و تسلخ به ، ويقع خارج باب الجـزيرة ، قرب مقبرة الجلاز ، وهو لا يبعد كثيرا عن الرحبة (6).

* القصابون : غلب به بيع لحم الخـرفان على غيره ، ويفسر ذلك بأهمـية الماشية ، وبالكميات الكبيرة من الصوف والجلد المصدرة الى المدن التجارية .

* الدباغـون : يقع فـي الربـض الجنوبي حيث تجمعت أسواق الدواب والمسلخ (7).

* سوق الغبار : تباع به الاسمدة المستعملة في الاجنة والبساتين (8).

* التبانون : تموضـع في القرن السـابع هـ بالربض الجنوبي ، ثم انتقل بعدها الى الربض الشمالي .

---

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI، ص 695–696. ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 145. الزركشي ، **تاريخ** ، ص 50، 117 . ذهب الدّولاتلي (**ن.م.**، ص298) الى أنّ الصفّارين هم المشتغلون في تسفير الكتب.

(2) الزركشي ، **نفسه** ، ص 132، 136 . الرصاع ، **فهرست** ، ص 71 .

(3) **مناقب بن عروس**، ص 223 . **مناقب الحطاب** ، ص 186.

(4) الزركشي ، نفسـه ، ص 147 120 . (سوق السكاجين) . الرصاع ، فهرست ، ص 123 (الشكاز هو صانع **الاديم الابيض للسروج**) . الوزان ، ن.م. ، ج II ، ص 75–76.

(5) مناقب ، مخ 18555 ، ص12 .**مناقب القرجاني**، ص 13 ، 154 . مناقب ابن عروس، ص491.

(6) مناقب الشادلي ، ص 170. **مناقب**، مخ 18555 ، ص 148ب . البرزلي ، **ن.م.**، ج I، ص 151ب .
P. Sebag, une relation inédite sur le prise de Tunis, In **Cahiers de Tunisie**,1969,p.183.

(7)البرزلي ، **ن.م.** ، ج III، ص 169. الوزان ، **ن.م.** ، ج II، ص 76,75 .

(8) **مناقب المنوبية** ، ص 24ب .

* الحلفاوين : كانت تصنع به من الحلفاء الحصر والحبال والقفاف ، وقد كان موجودا بالربض الشمالي منذ القرن التاسع هـ (1).

* سوق الحطب : كانت مخازن الخشب تقع قرب باب الفلاق ، بالربض الجنوبي .وقد كانت هذه البضاعة ثمينة ، ونادرة لاستعمالها في عدة مآرب(2).

وفضلا عن كل هذه الاسواق ، كانت تعقد ثلاث أسواق حضر-ريفية في الاسبوع ، في نحو 18 موقعا يقع عليها التداول . ويفد عليها القاطنون بالضواحي التي تبعد نحو ستة أميال لبيع منتوجاتهم الفلاحية ، واقتناء ما يحتاجون اليه من إنتاج حرفي وغيره (3).

وفي الجملة ، فان الاسواق الريفية العديدة المحيطة بمدينة تونس توفر لها الانتاج الزراعي والمواد الاولية اللازمة للحرف والصنائع . ويبدو من خلال هذه القائمة التي أكملنا فيها ما سبق من دراسات (4) أن البادية في علاقة جدلية قوية مع المدينة ، **وأنه لا سبيل للحديث عن قطيعة ما أو عن علاقة ضعيفة بين البادية والمدينة ، ولو كان ذلك في فترات التوتر والاضطراب . ولم تكن المدينة قادرة على غلق أبوابها في وجه البضائع والمواد الاساسية الوافدة عليها من الناحية** .

ومما يأتي دليلا إضافيا على أهمية هذه الحرف الزراعية أن عددها يفوق بكثير سائر الحرف الحضرية الاخرى المذكورة بالمدينة .

هـ) المنشآت المائية : مواقع التقاء الحضر بسكان النواحي :

رافق الامتداد العمراني للمدينة ، ازدياد الحاجة الى المنشآت المائية العامة ، من آبار وسبالات .وكان ترميم الحنايا القديمة أهم حدث عرفته الحقبة الحفصية سنة 666هـ / 1267م . لكن النسبة الوافرة من الماء استأثرت بها القصور السلطانية ، في رأس الطابية وأبي فهر والقصبة ، ولم يصل الا قسط ضئيل من ماء زغوان الى جامع الزيتونة ، عبر أنابيب من الرصاص ، تنتهي بسبيل ومصاصة ، شرق الجامع .

و الجدير بالملاحظة أن هذا السبيل العام ذكر منذ أواسط القرن السادس هـ / XIIم ، بهذا الموقع ، ولم يكن انشاء حفصيا ، كما يبيّن ذلك النص التالي : **«وفي شرقي الجامع ، الصحن المفروش بالرخام الابيض مرتفع نحو الخمسة عشر ذراعا ،**

---

(1) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 114 .

(2) المصدر نفسه ، ص 132. الوزان ، ج II ، ص 77. مارمول ، ن.م. ، ج III ، ص 21.
Adorne , op; cit , p. 85 , 189 .

(3) M. Montavez, **Dos descripciones**, p.215.

(4) اكملنا ما ورد في كتاب الدولاتلي، **تونس في العصر الحفصي**(بالفرنسية)، ص. 297

يشرف على شارع البلد وعلى السوق . وتحت هذا الصحن ، سقاية عظيمة البناء ، وهي سبعة أقواس وقوسان فيها أحجار من الرخام محفورة ، وعليها أسود من النحاس ترمي الماء من طلوع الشمس الى غروبها ، يستقي الناس من هذا الماء ، والخمسة أقواس في كل قوس منها خمسة نهود من نحاس ، يأتي الرجل اليها ، فيلقي فمه على النهد ، فيخرج له ماء عظيم ، فيشرب حتى يروى ، فاذا نزل فمه ، جف الماء ولم تنظر منه شيئا ، وهو كذلك أبدا » (1).

ويبدو أن هذا الصرح الجميل لم يندثر كليا عصرذاك ، إنما احتاج الى صيانة وترميم ، وهو ما قام به كل من المستنصر وأبي عمرو عثمان . وهو لا يعدو أن يكون عملا ترميميا ، خلافا لما ذهب اليه الزركشي ، واتبعه في ذلك بعض الدارسين (2).

ومهما يكن من أمر ، فإن اتساع المدينة احتاج الى مزيد من الانشاء في هذا الصدد ، وطبيعي أن يقترن التطور العمراني بظهور سبل جديدة في الارباض . ففي عهد أبي يحيى أبي بكر ، قام صاحب الاشغال ابن طاهر بانشاء سبالة خارج باب الاقواس ، في ملتقى الطرق حسب البرزلي . وقد كثر الواردون عليها حتى نهاية القرن ، وربما بعد . ويمكننا هذا المعلم من تتبع التطور العمراني بالربض الشمالي :

* فقد أنشئت السبالة بعد إحاطة الربض الشمالي بسور سنة 717هـ / 1317م ، ببضع سنوات ، إستجابة لحاجة أهل الربض والوافدين عليه من الناحية الزراعية الشمالية والغربية ، التي شهدت اتساعا في القرن السابع هـ .

- واقترن وجود هذا السبيل بالبئر المسمى بير الاحواض (أوفسقية الاقواس) الذي استخرج منه الماء بالدلو ، وكانت تعلوه أقواس . وهو ما يفسر التسمية التي اتخذها الباب المنشأ لاحقا : باب الاقواس .

---

(1) الزهري ، **كتاب الجغرافيا** ، ص108. العبدري ، **رحلة** ، ص 41-39. العمري ، **مسالك** ، ص86-84. الرصاع ، **الفهرست** ، ص 82 (السبالة التي بالجامع).
Brunschvig , Deux récits de voyage .. , op. cit. , p . 185-189

(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 136. Daoulatli , **Tunis sous les Hafsides** , p. 157

استعمل *الاصطاك* لبناء هذه المنشات المائية من بئر وفسقية وماجل وجابية ، في العهدالحفصي ، وتتمثل في خلط الشهباء ، أي الرمادوالرملة بالجير والتراب .البرزلي ، **ن.م.** ، ج I ، ص 37 ب ، ج IV ، ص1415 (اصطاك) . ابن الرامي ، الاعلان **في أحكام البنيان** .

* وبالتالي ، فالبئر هو أقدم معلم ، ولا يستبعد أن يناسب البئر الذي ذكره البكري خارج باب السقائين (بئر أبي الغفار) ، وأنشئ الباب (باب الاقواس) سنة 716هـ ، وبعده بقليل أضيف السبيل في عهد أبي يحيي أبي بكر(1) .

* على إثر الطاعون الجارف الذي اجتاح البلاد في أواسط القرن الثامن هـ ، وما نجم عنه من خراب وتراجع سكاني ، احتاج وسط المدينة الى إعادة تعمير ، فأنشأ شيخ الموحدين ابن تافراجين مدرسة وسبالة داخل النواة العتيقة ، بناحية باب البنات . كما أضاف أبو العباس أحمد سبالة أخرى داخل المدينة ببطحاء ابن مردوم (2).

ولم يقع الاهتمام من جديد بالارباض الا في عهد أبي فارس عبد العزيز، الذي أنشأ عدة سبالات بالناحيتين الجنوبية والغربية للمدينة ، اللتين ظهرت بهما منذ القرن السابع هـ عدة أرباض مثل ربض السلطان وربض الاشراف وربض النصارى ، وعقدت فيهما أسواق ريفية عديدة مثل سوق الخيل ورحبة الغنم ، وربما كذلك رحبة الصوف ورحبة القمح، مثلما هو الشأن في القرن XVIII م .

وفي الجملة، فان الربض الجنوبي اكتسى صبغة شعبية ، لاقترانه بالبادية، حتى أن أحد الدارسين للقصور لم يعثر به على منازل حضرية هامة .

وهكذا يمكن أن نفهم إنشاء سقايات عدة بهذا الربض في عهد أبي فارس ، منها:

- سقاية خارج باب الجديد، يردها الناس ودوابهم ، لقربها من أسواق الماشية (سوق الغنم وسوق الخيل) ، وقد جعل السلطان أوقافا لصيانتها .
- ماجل بمصلى العيدين : وهو من الابنية الضخمة ، وأخرج منه سبيلان : أحدهما استعمل للشرب ، من جعاب نحاس يجذب منها الماء بالنفس ، والآخر يستخرج منه الماء بقربة أو غيرها (3).

---

(1) البكري ، **مسالك** ، ص 40. الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص 289 (قال أن شرب أهلها من بئرين نهاية في سعة القدر وكثرة الماء) . مناقب ، مخ 12544، ص113 ب ، 165 . الزركشي ، **تاريخ** ، ص 72 66 ، (قال أن محمد بن طاهر كان حاجبا في عهد أبي يحيي أبي بكر) .أما البرزلي ، فإنه اعتبره صاحب أشغال . راجع : مناقب ، مخ 18555، ص 1185. البرزلي ، ن.م. ، ج I، ص 40ب ، 134ب .الونشريسي ، **المعيار** ، ج I، ص 382 (« كان سيدي أبو الحسن المنتصر يمر على سبالة ابن طاهر ، وكان صاحب أشغال تونس ، فيقول : هذا الرجل وقع على دراهم حلال حتى صرفها هنا ليكثر لصاحبها ثوابها ، لما رأى من كثرة الواردين عليها لكونها جاءت بين الطرق ») .

(2) الزركشي ، **نفسه** ، ص 107. البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 124ب .

(3) الزركشي ، **نفسه** ، ص 116.

P . Sebag , **Tunis au XVII s** . , Paris 1989 .
Revault , **Les habitations Tunisoises** .

وتواصلت الجدلية بين الامتداد العمراني والسبل، إذ أن السور الذي أحاط بباب أبي سعدون منذ بداية القرن التاسع هـ ، تبعه بناء سبيل للناس والدواب داخل هذا الباب سنة 838 هـ / 1434 م، في عهد السلطان المنتصر (1).

وشهدت المنشآت المائية دفعا كبيرا في فترة حكم أبي عمرو عثمان ، إذ قام بصيانة الشبكة القديمة وترميم ما اندثر منها من جهة ، وإنشاء أسبلة جديدة من جهة ثانية .

فأمر ببناء السقاية القريبة من دار محرز بن خلف داخل باب سويقة ، والميضاة ذات الزخرفة البديعة الموجودة بدرب ابن عبد السلام شمال الجامع الزيتونة ، وهي المعروفة بميضاة السلطان . وأمر بتسخين الماء فيها زمن الشتاء كما رمم المصاصة شرق جامع الزيتونة ، التي يرجع ذكرها الى القرن السادس هـ ، وشيد سبالة شرقي جامع القصبة لشرب الناس والدواب، وأخرى قرب المارستان الموجود خارج السور من الجهة الشرقية . وجلب الماء عبر قناة باطنية من أم الوطا (بناحية النقرة) الى باب الجبيلة .

وتعتبر هذه القناة أهم إنجاز بالنسبة إلى الأرباض الشمالية الغربية ، وقد تبعها عمل آخر لا يقل أهمية عنه ، يخص الربض الجنوبي ، وهو جلب الماء عبر ساقية من هنشير حمزة (بناحية بير القصعة) الى باب علاوة ، حيث أنشئت فسقية للاستعمال سنة 879هـ / 1474م (2).

وقد كان إيصال الماء عبر قنوات باطنية وسواق دليلا على تواصل الامتداد العمراني للمدينة في النصف الثاني من القرن التاسع هـ / XVم ، في اتجاه المحور : باب علاوة – باب أبي سعدون ، وما نجم عنه من حاجة ملحة الى مصادر مائية جديدة (3).

و أضيف الى هذه المنشآت في القرن الموالي مواجل باردو ورأس الطابية التي أستخرج منها الماء بواسطة أربعة جمال ، ويحمل الى المدينة لتزويدها بالماء الصالح الشراب (4).

وحصيلة القول ، فإن بناء المنشآت المائية من سبالات وفسقيات ومواجل وسواق قد ارتبط بمدى تطور التعمير أو تراجعه بالمدينة وأرباضها . فوافق ظهور الارباض ،

---

(1) الزركشي ، **نفسه** ، ص132 .

(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 158 135-136 .،وقد اختصت المواضع المعدة للطهارة بمدينة تونس بالوضوء ، دون الاستقاء ، وذلك على خلاف ما كان معمولا به في القرى ، حيث كانت الميضاة مفتوحة للعموم للطهارة والشرب والاستقاء . انظر البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 40ب .

(3) ذكر العمري ، **مسالك** ، ص 86–84) أن أغلب المنازل مزودة بصهاريج تتجمع فيها مياه الامطار لغسل الثياب ، فيما تخصص مياه الآبار للشراب ، وكان من بينها بئر الضبيان .

Solignac , Les Installations Hydrauliques dans la région de Tunis ...op.cit.

(4) Montavez, **Dos Descripciones**.op.cit,p.218.

إنشاءات جديدة، فيما تناسبت فترة التراجع العمراني مع إهمال لمسألة الماء. ولم يقتصر دورها على تزويد المدينة بالماء الصالح للشراب، إنما كثيرا ما مثلت نقاط التقاء للحضر والبدو النازلين بالناحية المحيطة بالمدينة، أو القادمين للمدينة لقضاء مآربهم.

—* قنوات صرف المياه والحمامات: لئن لم تكن مدينة تونس مزودة بقنوات من الماء الصالح للشراب، فانها قد استعملت شبكة من القنوات لصرف المياه المستعملة، التي تصب في البحيرة، وذلك خلافا لمدينة القيروان التي حفرت بها المطامير في المنازل. على أن عدم صيانتها المتواصل أدى الى تعطيل تصريف هذه المياه.

ففي أواخر القرن السابع هـ، خربت بعض السواقي، فتسرب منها الماء، وتراكم في الاخرى التراب حتى سدمت، وارتفع ماؤها وأصبح يمر فيها بصعوبة، مثلما وقع ذلك بدرب النشار بباب سويقة، فالتجأ أهل الدرب الى شراء بقعة من الارض ليصب فيها الماء، لكن الضرر ازداد استفحالا، فبادر أحد المتطوعين بردم الساقية (1).

أما حمامات المدينة، فقد انتصبت في مواضع آهلة بالسكان، وعند أبواب المدن، حيث يفد عليها أهل الناحية، كما اقترن وجودها بتوفر الماء، وقربها من الجوامع والمدارس. ولئن كان عددها لا يتجاوز 15 في القرن الخامس هـ / XIم، فانه بلغ المائة في أواخر العهد الحفصي، أي أكثر من ضعف العدد بالقيروان في عهد ازدهارها، حيث ذكر بها ثمانية و أربعون حماما(2).

وتمكننا هذه الحمامات من تدقيق الصورة حول كيفية اتساع المجال الحضري غير أننا لم نتمكن من التعرف الا على النزر القليل منها:

– حمام جامع الهواء: اقترن بالمدرسة والجامع، وتموضع بالقرب من باب خالد (3).

– حمام العبدي: يقع بزنقة العبدي عند باب الفلاق(4).

– حمام ابن حكيم: نسبة الى محمد بن علي اللخمي المعروف بابن حكيم، مؤسس المدرسة الحكيمية، وقد قتله السلطان سنة 744هـ / 1343م و أستولى على عقاراته. و قد قام ابن تافراجين بتحبيسه على مدرسته و سبالته (5).

– حمام زرقون: ذكر منذ القرن السابع هـ، ويبدو أنه ينسب الى علم أندلسي.

(1) البرزلي، ن.م.، مخ 4851، ج II، ص 164، 1271، 1293.
(2) البكري، المسالك، ص 26، 40.
Adorne, **op.cit**. ,p. 185-189, 206. Montavez, **op. cit.** ,p 216,218,225
(3) ابن الشماع، **الادلة**، ص 86. البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 124ب.
(4) **مناقب القرجاني**، ص 135. مناقب مخ 18555، ص 1144.
(5) البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 124ب. راجع المدرسة الحكيمية.

– حمام الرميمي: نسبة الى الوزير الاندلسي المشهور، محمد الرميمي الوافد من المرية في عهد أبي زكريا. ومازال زقاق قرب الحلفاوين يحمل هذا الاسم (1).

– حمام سوق البلاط: ذكر في القرن التاسع هـ، وكان يستعمل الناعورة لاستخراج الماء من البئر(2).

وفي الجملة فان هذه الحمامات التي اقترنت أسماؤها في الغالب بمؤسسيها تموضعت قرب أبواب المدينة لارتباطها بالحزام القروي المحيط بها، أو داخل المدينة النواة، قرب المساجد الجامعة.

و) المساجد بمدينة تونس: ذكر أدورن أن عدد المساجد كان متقاربا مع عدد الحمامات والطواحين بالمدينة، وقد بلغ كل صنف منها نحو المائتين.

وإذا كان هذا الرقم مبالغا فيه، فان رقم المائة الذي ذكر في أواخر العصر الحفصي يبدو أكثر واقعية (3).

واقترن انشاؤها بتطور التعمير بالمدينة، وامتداد الارباض، وتعددت بتعدد الاحياء والدروب، وتخصص كل واحد بصنف من المجتمع أحيانا، وأهمّها:

– مسجد الصفصافة: زود بمنارة مرتفعة في القرن السابع هـ، وتردّد عليه المتصوّفة(4).

– مسجد سوق البلاط: استقر قربه عدد من المتصوّفة في القرن السابع هـ، مثل أبي الحسن الشاذلي وعلي السفاج وغيرهما (5).

– مسجدالقبة (أو مسيدالقبة): يقع قرب زاوية أبي عبد الله المغربي، بنهج تربة الباي. درس فيه الفقيه ابن البراء المهدوي في القرن السابع هـ، ويبدو أن عبدالرحمان بن خلدون تلقى تعليمه فيه. وهو ما زال قائما الآن(6).

– مسجد الشرابيين: يوجد قرب المدرسة التي تحمل نفس هذا الاسم، بالسوق المخصص للاشربة (7)

– مسجد سوق الفلقة: اقترن وجوده بسوق الفلقة المذكور سابقا(8).

(1) مناقب ابن عروس، ص 223.
(2) مناقب ابن عروس، ص223. لعلّ الحمّام الموجود بسوق القرانة كان مستعملا في العهد الحفصي، اذ انّه شيّد سنة 378هـ/ 988م، كما تبيّن ذلك النقيشة. راجع: لطفي عبد الجوّاد، **النقائش المعماريّة**.. (ش.د.م،) ص 195–199.
(3) Brunschvig, **Deux récits**...,p. 158-189,206. **Dos Descripciones**..,p.216,218,225.
(4) مناقب المنوبية، ص10ب، 24ب. مخطوط 18555، ص174ب(ذكر احيانا تحت إسم جامع).
(5) مناقب، مخ12544، ص150.
(6) الابي، **الاكمال**، ج IV، ص90.
(7) ابن الطواح، **سبك المقال**، ص109.
(8) الرصاع، **فهرست**، ص71. ابن مامي، **مدارس مدينة تونس**.

– مسجد الرأس :خارج باب البحر ، دفن به أبو عبد الله الكومي (1).
– مسجد بربض باب البحر أو مسجدالتوتة : ذكر منذالقرن الثامن هـ (2).
– مسجد الدوالي :كان قائما بازاء باب المنصور في القرن السابع هـ/ XIIIم(3).
–مسجد دار محرز بن خلف اعتكف به البرزلي في آخر حياته .
– مسجد الشعابين ، والجامع قبالة المدرسة المنتصرية : ذكرهما الرصاع(4).
– مسجدالربض، أو مسجد قرب ربض النصارى : يطلق على مسجد آخر قرب باب المنارة ، حيث ربض النصارى الذي ذكر منذ القرن الثامن هـ (5).
– مسجد أبي حديد : يقع شمال مدرسة بير الحجار (بنهج الباشا ، عدد 40) ، على بضعة أمتار منها (6).
– مسجد (أو مسيد) المشرف : ذكر منذ القرن السابع بباب الفلاق ، درس فيه البرزلي سنة 836هـ / 1432م ، ونزل به أحدالمصامدة ، من علماء المنطق سنة 842هـ / 1438م . ولئن كان المسجد المذكور في القرن السابع بباب الفلاق ، فلا يستبعد أن يكون المذكور في القرن التاسع في موقع آخر (باب منارة) (7).
– المسجد الذي بإزاء دار البرزلي : ذكر في بداية القرن التاسع هـ (8).
– مسجد بطاهر : يرجع الى القرن السابع هـ (9).
– مسجد عبدالله بن عبد الرفيع : يرجع الى القرن السابع هـ ، وينسب الى إحدى بيوتات تونس (10).
– مسجد أبي عبد الله محمد الانصاري : ذكر في القرن السابع هـ بربض باب الاقواس، خارج باب السوق (الذي أصبح يسمى السويقة) (11).

---

(1) **مناقب**، مخ 12544، ص112أ.
(2) مناقب، مخ 18555، ص194ب. مناقب **أبي سعيد الباجي**، ص5.
(3) **مناقب**، مخ، 18555 ص 191ب.
(4) الرصاع، **الفهرست** ، ص170، 190، 194.
(5) ابن الطواح، ن.م.، ص112 (مسجد الربض). الابي، **الاكمال**، ج اا، ص189 (مسجد قرب ربض النصارى).
(6) **مناقب القرجاني**، ص61. ابن الخوجة، **معالم التوحيد**، ص240.
(7) **مناقب**، مخ 18555، ص144أ. الرصاع، **فهرست** ، ص122، 126 .
(8) الرصاع ، **نفسه** ، ص119.
(9) **مناقب**، مخ 18555، ص 147ب .
(10) **مناقب القرجاني**، ص113.
(11) **مناقب عبد الوهاب المزوغي**، ص122ب. حول أسرة الأنصاري، راجع: زبيس، **نقائش القرجاني**، ص25، 36، 43، 145.

– مسجد ابن حبيش : بربض باب سويقة .
– مسجداللبيدي ، أورد ذكره العبدري في القرن السابع هـ ، عند حديثه عن أبي الحسن علي بن ابراهيم التجاني (1).

وفي الجملة فان المساجد الوارد ذكرها في المصادر قد اقتصرت في الغالب على فئة أو صنف إجتماعي أو مجال حضري محدود (حارة أو درب) ، متفاعلة بذلك مع ظاهرة تدريب المدينة وتوزيعها الى مجالات مختلفة ومتباينة .

ز) المدارس والزوايا بمدينة تونس : وافق إنشاء المدارس تعمير المدينة وأرباضها نتيجة ازدياد سكانها وهجرة عديد المجموعات اليها . وإذا كانت الزوايا قد تموضعت في الغالب عند أبواب المدينة وخارجها ، لاستقبال الغرباء من أهل البادية الوافدين على المدينة ، فان المدارس شيدت داخل الاسوار (المدينة العتيقة والارباض)، وخصصت لفئة ضيقة من الشيوخ والطلبة الوافدين على المدينة من سائر بلاد إفريقية والمغرب . وبالتالي ، فقد تولّت المدرسة تأطير الطلبة الوافدين من البادية – رغم قلة عددهم – ثقافيا، فيما اعتنت الزاوية بالجانب الاجتماعي والتصوّفي .

المدارس الحفصية :يرجع تاريخ عدد كبير من هذه المدارس الى الفترة الممتدة بين أوائل القرن السابع وأواسط الثامن هـ ، وقد بلغت نسبتها أكثر من نصف العدد الجملي ، وهي على التوالي : المدارس الشماعية (تأسست بين سنتي 647-634هـ / 1249 -1236م) والتوفيقية(قبل سنة 651 هـ / 1261م) والعصفورية (بعد وفاة ابن عصفور سنة 669 هـ / 1270م) والمغربية (بعد وفاة محمدالمغربي سنة 689هـ / 1290م) والمرجانية(نسبة الى عبد الله المرجاني المتوفى سنة 699 هـ / 1299م) والجاسوسية (نسبة الى عمر الجاسوس المتوفي سنة 638هـ / 1240م) ومدرسة ابن برطلة (وهو أندلسي من القرن السابع هـ) ومدرسة قرب مسجد الشرابيين والمدرسة المعروفة بالقاضي التوزري (ذكرتا في بداية الثامن) والمدرسة العنقية (أمرت ببنائها أخت السلطان أبي يحيى أبي بكر سنة 742هـ / 1341م) والمعرضية

---

(1) العبدري ، **رحلة** ، ص 265 .

أو مدرسة الكتبيين (أمر ببنائها الامير أبو زكريا يحيى بن أبي إسحاق إبراهيم المتوفى سنة 700هـ/ 1300م) والحكيمية (نسبة الى محمد اللخمي المعروف بابن حكيم، الذي توفي سنة 744هـ / 1343م) ومدرسة الرياض أو الحلفاوين (ذكر مكتب الرياض بزقاق الحلفاوين منذالقرن السابع هـ) ومدرسة يحيي السليماني (نسبة الى المتصوّف المتوفى سنة 749هـ / 1348م). ويأتي هذا العدد الهائل شاهدا على الامتداد العمراني الهام للمدينة في القرن السابع هـ.

على أن النصف الثاني من القرن الثامن لم يعرف الا تأسيس مدرسة أو إثنين، وهما : مدرسة القنطرة أو ابن تافراجين (المتوفى سنة 766هـ / 1364م) ومدرسة ابن اللوز (ذكرت في القرن الثامن هـ، ولعل تأسيسها يرجع الى الحقبة السابقة) (1).

أما القرن التاسع ، فقد شهد من جديد تطورا في بناء المدارس، لكنه لم يرتق الى ما كان عليه في القرن السابع هـ. وقد أضيفت وقتذاك : المدرسة والزاوية بباب البحر (في عهد أبي فارس عبد العزيز)، والمنتصرية (نسبة الى السلطان الذي أمر بتأسيسها سنة 838هـ / 1434م)، والمدرسة الجديدة بباب سويقة (في عهد أبي عمرو عثمان) ، ومدرسة القائد نبيل(التي أمر ببنائها سنة 850هـ/ 1446م)، وربما المدرسة القطانية (التي ذكرها الرصاع في القرن التاسع هـ) (2).

وتبعا لذلك ، فان العدد الاوفر يرجع الى القرن السابع ، وظل بعضها مستعملا حتى القرن التاسع ، مثل الشماعية والتوفيقية . وقد اقترن تأسيسها في الغالب برجال السلطة والعلم ، من أمراء وسلاطين وأميرات وشيوخ موحدين وقواد وعلماء وصلحاء .

ويتموضع أكثر من نصفها داخل المدينة النواة ، بالامكنة التالية : زقاق الشماعين (الشماعية) ودرب ابن عبدالسلام (العصفورية) وتربة الباي (المغربية) ونهج باش حانبه (الجاسوسية) ونهج عنق الجمل (العنقية) ونهج ابراهيم الرياحي (القنطرة)

(1) راجع حول هذه المدارس : الباجي بن مامي ، **مدارس مدينة تونس** .. الرصاع، **الفهرست** .

(2) إعتمدنا في ذكر هذه القائمة على عمل : محمد الباجي بن مامي ، **مدارس مدينة تونس من العهدالحفصي الى العهد الحسيني** ، تونس مارس 1981 ، (نسخة مرقونة) . وقد أظفنا الى القائمة التي ذكرها : مدرسة ابن برطلة (ابن رشيد ، الرحلة ، نسخة مخطوطة ، ترجمة أبي الشمل جماعة الحبلي) ، ومدرسة قرب مسجد الشرابين والمدرسة المعروفة بالقاضي التوزري (ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص 125 109 .) ومدرسة ابن اللوز (تفسير ابن عرفة ، رواية الابي ، مخ ، ص 1ب) والمدرسة القطانية (الرصاع ، **فهرست** ، ص 137–136) ومدرسة الرياض أو الحلفاوين (الزركشي ، تاريخ ، ص 114. مناقب القرجاني ، ص 156) . وذكر البرزلي (ن.م. ،ج III، ص 1246 ، ج IV ، ص35 ب) الاحباس التي أوقفت على مدرسة ابن تافرجين ، كما أورد تسمية ثانية للمعرضية ، وهي مدرسة الكتبيين(ن.م. ، ج I، ص 160ب) .

وقربها (مدرسة القائد نبيل) ونهج الكتبية (المعرضية) وقرب سيدي محرز (المدرسة المسماة به) والقطانية (بسوق القطانين) .

واقتصر نصيب الربض الجنوبي على مدرسة أو إثنتين ، قرب جامع الهواء (التوفيقية) وفي ناحية باب منارة (مدرسة ابن برطلة) . أما الربض الشمالي ، فانه احتوى على ثلاث : بدرب باب الخضراء (المرجانية)، ودرب العسال (مدرسة يحيي السليماني) والحلفاوين (مدرسة الرياض) .

كما ذكرت في القرن التاسع هـ مدرسة خارج السور، في الناحية الغربية ، هي السيجومية (1).

وفي الجملة ، يأتي هذا التوزيع دليلا على مدى تمصير المدينة النواة ، والطابع الريفي الذي ظل مسيطرا على الارباض .

– الزوايا بمدينة تونس : لعبت الزوايا دورالمساعفه الإجتماعيه ، فاحتمى بها الباحثون عن المأوى أو عن الطعام ، والوافدون عليها من البادية ، أو من البلاد النائية مثل المغرب الاقصى والاندلس . وابتداء من القرن السابع هـ ، انتصبت في المدن والبوادي على حد سواء . وتوزعت بمدينة تونس ، في موقعين مختلفين ، داخل المجال الحضري وخارجه ، في علاقة جدلية مع تطور الهجرة الى مدينة تونس .

* الزوايا الموجودة داخل المجال الحضري :

– زاوية أبي عمران موسى بن يحيى الانصاري : انتقل صاحبها الى مصر ، حيث شغل خطة التدريس لدى بعض الاسر الايوبية . ثم عاد الى مدينة تونس في أواخر القرن السادس هـ ، حيث أسس زاوية بها ، قرب قصر الصباغين بباب الجزيرة .وكان يفد عليها البؤساء والجياع ، بحثا عن القوت(2) .

– زاوية علي السفاج : هو علي بن أبي زيد عبدالرحمان بن عبدالواحد الانصاري رحل الى المشرق طلبا للعلم ، وأستقر عند عودته خارج الباب الجديد، بزنقة الغنم ، وهناك كان له أكثر من لقاء مع أفراد الجالية الاندلسية ، وخاصة العامة منهم في السبعينات من القرن السابع هـ(3).

(1)الرصاع ، **الفهرست** ، ص 141–140 .

(2) مناقب، مخ 12544، ص 52.

(3) مناقب ، مخ 18555، ص 1168–ب ، 1170.

– زاوية مبارك العجمي : رحل بدوره الى المشرق ، ثم استقر عند عودته الى تونس بربض السعود قبلة الباب المنصور ، الى حد وفاته سنة 695هـ / 1295م ،وكانت الزاوية ملجأ للجند الفارين من الخدمة العسكرية والجائعين (1).

–الزاوية الجاسوسية : نسبة الى أبي حفص عمر الجاسوس ، المتوفى سنة 638 هـ / 1240م ، تقع شمال مسجد البلاط (نهج باش حانبه). وكان يتردد عليها أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي (2).

– الزاوية المغربية : نسبة الى الشيخ أبي عبد الله محمد المغربي ، من شيوخ المغاربة المتوفى سنة 689هـ / 1290م . لم تذكر زاويته الا في القرن التاسع هـ ، لما نزل بها أبو عثمان سعيد السفريولي . ويبدو أنها تقع حذو مدرسته الكائنة بنهج تربة الباي ، عدد 44 (3).

– الزاوية البغدادية : ذكرت في القرن السابع هـ ، بمدينة تونس (4).

– زاوية محمد بن سليمان أبو الحديد : وفد على تونس من مدينة الجرار قرب المحمدية ، واشتغل مؤدبا ، وعند وفاته سنة 751هـ ، تحول منزله الى زاوية (5).

– زاوية أبي محمد المرجاني : توجد بربض التبانين ، خارج باب سويقة . التجأت اليها إحدى جواري السلطان سنة 681هـ / 1282 م ، وهناك وضعت أبا عبدالله محمد الملقب بأبي عصيدة الذي تولى الحكم بعد أبي حفص عمر.

– زاوية الزبيديين : نسبة الى الزبيدي ، إلتجأ اليها الحاجب الأندلسي الاصل، ابن الدباغ ، على إثر أحداث سنة 710هـ/ 1310م .

– زاوية السقاطين : كانت عامرة في القرن التاسع هـ ، ويبدو أنها تقع بناحية سوق السقاطين .

– زاوية باب البحر : و هي في الآن نفسه مدرسة . انتصبت مكان فندق الخمر ، في عهد أبي فارس عبد العزيز.

– الزاوية القريبة من سيدي محرز : ظهرت داخل الاسوار الاولى ، في عهد أبي عمرو عثمان نزل بها أندلسيون من أهل بسطة.

–زاوية أحمد بن عروس : انتصبت داخل المدينة النواة ، مكان فندق للسكن .وقد كان يفد عليها المهاجرون الاندلسيون ، عند قدومهم ، في القرن التاسع هـ .

– زاوية أحمد القلاعي : توجد قبالتها ، وترجع الى نفس الفترة .

---

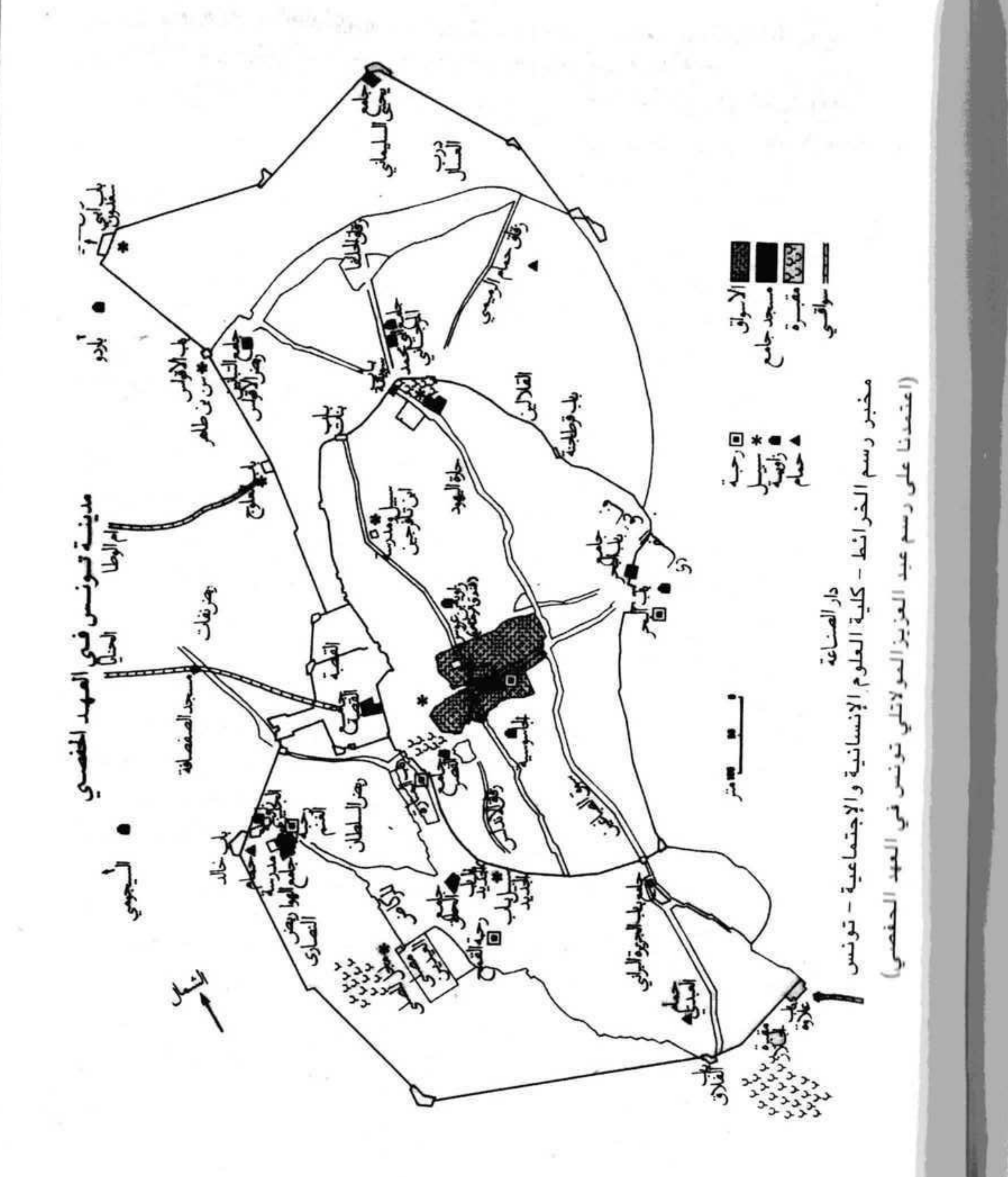
(1) **مناقب** ، مخ 12544، ص 3–12.

(2) الوزير السراج ، **الحلل السندسية** ، ج ،ص (ترجمة أبي الشمل جماعة الحبلي) . الباجي بن مامي ، **مدارس** ، ج II، ص294–288 ..

(3) ابن قنفد، **الفارسية** ، ص 151. الرصاع ، **فهرست** ، ص 194. ابن ناجي ، **المعالم** ، ج IV، ص 108. القشاش، نور الارماش ، مخ . الباجي بن مامي ، **مدارس** ، ج II، ص 287–279.

(4) **مناقب** ، مخ ، ص13 .

(5) **مناقب** ، مخ 18555، ص 1182.



مخبر رسم الخرائط – كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية – تونس

(اعتمدنا على رسم عبد العزيز الدولاتلي تونس في العهد الحفصي)

– زاوية قاسم الجليزي

* أما الزوايا الواقعة بناحية المدينة، فهي بدورها عديدة ، وأهمها :

–زاوية عبد الوهاب المزوغي بالحماري (رادس) ،كانت قبلة للبدو في القرن II هـ.

زاوية علي الحطاب : نشأت في القرن السابع هـ غرب تونس ، علي طريق باجة.

– زاويا سيجوم، خارج باب سعدون بحومة باردو المنيهلة ، بحومة ،الداموس بسيدي فتح الله ، عين زميت، الفندق، قرناطة الخ....(1).

وفي الجملة ، لعبت الزوايا دور المراكز التي التجأ اليها المهاجرون في مرحلة أولى، قبل أن يتم إستقرارهم بأرباض المدينة ، أو داخلها ، موفرة لهم الغذاء والامن. وكانت مؤسسة إجتماعية وسياسية ، تربط بين عالم البادية والغرباء من جهة والمدينة من ناحية ثانية .

3) المجال الزراعي : فحص مدينة تونس :

تجسدت حركة التمصير و التعمير لمدينة تونس في امتداد الناحية المحيطة بها وبروز عدة نواتات زراعية حول المدينة . و قد كان المشهد الريفي في علاقة جدلية مع المدينة منقسما إلى عدة أحزمة : الحزام الأول خصص للزراعات السقوية و الأشجار المثمرة ، و الثاني لغابة الزياتين ، و الثالث لمزارع الحبوب .

أ–الحزام الأول : مجال البستنة : أحيطت المدينة ببساتين و حدائق غناء، مزودة بأبراج ذات شكل مربع وارتفاع كبير نواعير للري و سواقي لتوزيع المياه . فما من حضري إلا و له سانية حول المدينة ، مزودة ببئر و ناعورة ، تحركها إحدى الدواب لري المزروعات من الحبوب و البقول و المغروسات .

و في وثيقة اسبانية ترجع الى سنة 1535م ، فسّر وجود الابراج القوية والأسوار العالية بغابة مدينة تونس بالإحتماء بها خوفا من غارات البدو (2).

و قد تصدرت هذه الأجنة البساتين الأميرية مثل رأس الطابية و جنة أبى فهر منذ القرن السابع هـ/ XIII م ، وسانية باردو في القرن التاسع هـ / XV م ، المزدانة بأشجار البرتقال و الليمون و شتى أنواع الورود و الرياحين ، و قد أنشئت بالجنان العظيم بباردو القصور و المنتزهات . و كان الماء يستخرج من آبار باردو و رأس الطابية بواسطة أربع سوان تديرها جمال لتزويد المدينة بالماء . كما جاء روض السناجرة الواقعة غرب المدينة أنموذجا آخر للبساتين الأميرية التي احتوت على قصر معد لإقامة السلطان و جيوشه ، خاصة عند استعداده للخروج في المحلة (3) .

---

(1) مناقب، مخ 18555، ص 114، 1188، الزركشي ، **تاريخ**، ص 115–117، 136.

(2) الوزان ، **ن.م** ، ج II، ص 67، 75. مارمول ، **ن.م** ، ج III، ص 21،

R. Brunschvig , **Deux récits de voyage** , p. 197-198 .

(3) رحلة ابن عبد الباسط ، ص 35. ابن ناجي ، **شرح** ، ج I ، ص117 ب. الزركشي ، **ن.م** ، ص65 . البرزلي ، **ن.م** ، ج II، ص 73ب . M. Montavez, **Dos descripciones**,op.cit,p.218.

و في أواخر العهد الحفصي ، ورد ذكر قصرين : القديم و الجديد و أربعة بساتين حول المدينة و هي رأس الطابية و باردو و المنشية و برنوسة ، فضلا عن غار الملح الذي كان معدا لاستراحة الأمير . و قد ازدانت هذه البساتين بقصور لا يوجد مثيل لها بالبلاد الأوروبية آنذاك (1).

وبالتالي فقد انتظم مجال متواصل من البساتين و المزروعات المختلفة حول هذه الأجنة الأميرية . واعتمادا على ما ورد في كتاب الأبي فقد امتد هذا الحزام إلى حد الجبل الأحمر الواقع بطرف أجنة تونس شمالا ، أي على مسافة نحو 5 كم (2).

أما غربا، فإن هذه البساتين لم تقتصر على روض السناجرة و رأس الطابية وباردو، إنما شملت قرى زراعية عديدة منها قريانة و منوبة و باجة منوبة و الصائغ وبلغت في مطلع القرن التاسع هـ موقع تقاطع الحنايا المسمى منزل قسة بعد أن كانت لا تتجاوز رأس الطابية قبل ذلك التاريخ بقرنين (3).

وفي الجنوب الغربي ، أعتبرت قرية الحريرية داخل هذا المجال المخصص للبستنة، وفضلا عن ذكر القرية، فقد تحدثت المصادر عن بستان الحريري منذالقرن السابع (4).

أما من جهة الشمال ، فقد تميزت قرية أريانة بالزراعات السقوية ، فيما غطت مرتفعاتها الاشجار المثمرة .و قريبا منها أنشئت جنة أبي الفهر المسقية بالماء المجلوب اليها من الحنايا (5).

على أن هذه البساتين لم تأخذ شكل حزام دائري ، إنما وجدت حيثما توفر الماء الصالح للري و التربة الخصبة ، وامتدت حتى قرى قرطاجنة و جبل المنار. وبعد أن كانت أرض قرطاجنة معطلة العمارة عند سيطرة الرياحيين عليها بقيادة محرز بن زياد، تمكن الموحدون من انتزاعها منهم ، وتحويلها الى أراض حبسية تكترى لمدة مسترسلة تصل نصف القرن . وهكذا عمرت من جديد حتى اتسع مجالها الزراعي في العهد الحفصي .

Ibid , p. 218 . (1)

(2) الأبي ، **الإكمال** ، ج VI، ص 165 ،

(3) مناقب ،مخ 18555 ، ص 19 ب ، 1174 (منوبة و قريانة : قريتان ذكرتا فى القرن السابع هـ) ، البرزلي ، ن م ،ج II ، ص 147. وجاء فى إبن الخطيب (**الإحاطة** ، ج I ، ص 272) إن قريانة قبيلة بالريف المغربى ، ذكر منها احمد بن محمد بن شعيب الكرياني من أهل فاس المتوفى بتونس سنة 794 هـ.

الأبي ، **الإكمال** ، ج II ، ص 349 ، ج VII ، ص 42(ذكر سانية الفقيه حسن الزبيدي بقريانة خارج تونس ، كما اورد الرواية التالية : " كان الشيخ –ابن عرفة– يعتبر البساتين التي في حكم المصر بالبساتين التي يرتفق ساكنها بمرافق المصر من أخذ النار وطبخ وخبز وما يحتاج الى شرائه في الحال. ويمثل ذلك برأس الطابية وما قاربها ، وان خرج من تونس من تلك الجهة ، يقصر – في الصلاة– من رأس الطابية وما قاربها وبعده عن المصر نحو الميل . وقيل له أن بعض الطلبة قال إنما يقصر من منزل قسة فخطاه »).

انظر حول تحديده : M. Solignac , Travaux Hydrauliques Hafsides à Tunis

(4) البرزلي ، **ن.م** ، ج II ، ص 1261 . مناقب، مخ 18555، ص 188ب .

(5) ابن ناجي ، **معالم** ج IV ، ص 26 ، مناقب، مخ 18555 ، ص 128 ب .

وبالتالي ، فقد امتدت البساتين من أريانة و أبي فهر الى قرطاجنة ومرسى ابن عبدون (أو مرسى الروم) و قمرت ، أي على كامل الشريط الساحلي الذي ازدادت أهميته نتيجة فاعلية ميناء حلق الوادي (1).

وإلى جانب قرية المعلقة ، اكتسى جبل المنار (أو المنارة) أهمية فائقة في مراقبة خليج مدينة تونس ، و قد استقر أبو سعيد الباجي مرابطا بهذا الجبل بمسجد الصخرة (2).

وفي الجملة ظلت المدينة محاطة بعدد كبير من البساتين ، التي احتوت منازل مرتفعة وقبابا للاستراحة و بحيرات وبركا و سبلا . وكانت مغروسة بعدد من أشجار القوارص و البرتقال والليمون و العنب .

وقد امتد مجال البستنة على مسافات متفاوتة، تتراوح بين 5 كم و 10 كم، بارتباط بالزراعات السقوية و نوعية التربة ، فمن جهة الشمال الغربي ، مثّل منزل بريد الكبرى إحدى المحطات الواقعة في طريق هذه الأجنة (3) .

ب) الحزام الثاني لمدينة تونس : غابة الزيتون :

جاء في وثيقة إسبانية أن غابة مدينة تونس لا تقل أهمية عن مثيلتها بشرف إشبيلية. وقد مثلت الحزام الثاني المحيط بالمدينة ، و الذي أحتوى قرى عديدة، منها :

– رادس : كان بها رباط في الفترة الكلاسيكية و قد شهدت هذه القرية في العهد الحفصي امتدادا عمرانيا إذ تطور عدد جوامع الخطبة بها من واحد إلى إثنين في مطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر م . وكانت محاطة ببساتين و مزارع متسعة .

– حامة الجزيرة : (حمام الأنف حاليا) :كان الناس يقصدون عيونها الحارة للإستشفاء، وتتموضع قرب مجموعة من الجبال التي ذكرت وقتذاك مثل جبل الرصاص وجبل حمزة وجبل الجلود .

– مقرين : ذكر بها مجمع للصوف و الغزل في العهد الحفصي ، و هو ما يقوم شاهدا على أن هذه الجهة تعتبر مركزا أساسيا لتجميع الصوف و دبغ الجلود .

وقد تكون تسمية جبل الجلود مشتقة من هذه الوظيفة ، و هو أمر يؤكده انتشار القبائل البدوية جنوب مدينة تونس(4) .

---

(1) مناقب ، مخ 18555، ص 190ب . **مناقب بن عروس** ، ص 387.

(2) ابن خلدون. **ن.م**، ج ، ص332، التجاني، **رحلة** ، ص345، 352–355.
حول منارة قرطاجنة أو المنارة أو جبل المنار ، انظر : **مناقب الباجي** ، ص 19، 21. ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص 122.
البرزلي ، **ن.م** ، ج IV ، ص 386 ب ، ج II ، ص 1261 (قرطاجنة) . حول مرسى إبن عبدون ، انظر : إبن الطواح 210، **سبك المقال** ، ص 122 .ابن عبد الباسط ، **رحلة** ، ص 20 . و حول المعلقة ، انظر : **مناقب** ، مخ 18555 ، ص 125 ؛ البرزلي ، **ن.م** ، ج II ، ص 1160 (تحبيس الموحدين لارض المعلقة بعد افتكاكها من بني زياد) .

(3) مناقب ، مخ 12544 ، ص 154. كان يستخرج من العنب صنف من الزبيب يسمى السلطاني. انظر :
Soucek , op. cit , p. 73 .

(4) التجاني **رحلة** ، ص 5، 10. ابن الصباغ ، **مناقب الشاذلي** ، ص 113 ، 169. البرزلي ، **ن.م.** ، ج IV ، ص 1238. **مناقب الدهماني** ، ج I، ص139.

– فحص مرناق : فحص خصب اشتهر بجودة الزيتون و غيره من المغروسات ، وبالهناشير الشاسعة التي أقطعت لقواد العلوج . و يبدو أن العمران شهد بها تراجعا ، إذ لم تذكر بها الا قرية أبر والمحمّدية ومدينة الجرار ، فيما اندثرت إبّيانة وظلت أوذنة غير مسكونة ، وإن كانت وجدت النية في إعادة تعميرها في مطلع القرن السابع هجرى / الثالث عشر ميلادي ، ولعل ذلك تم أثناء ترميم الحنايا . وقد وقع العثور في الحفريات التي خصت الحمامات الشتوية والصيفية على استعمال متأخر لها يبدو جليا من خلال الجدران القائمة على المستوى القديم ، والاواني الخزفية التي وجدت في الموقع (1) .

وتوجد في أطراف هذا الفحص غربا قرى عدة تقوم بتوفير الإنتاج الزراعي لمدينة تونس وخاصة الحطب المستخرج من الزيتون. و من هذه القرى نذكر قرية شاذلة التي نشأ بها علي الحطاب و انتسب إليها أبو الحسن الشاذلي ، وعرفت بغابة الزيتون وقرجانة وهي حاليا هنشير قرجانة على طريق بير مشارقة – تونس، شمال غرب أوذنة ، و كذلك المحمدية التي كانت قرية فلاحية (2).

كما ذكرت غابة الزيتون بقرية صائغ و باجة تونس الواقعتين غرب منوبة، قرب الحنايا (3).

وفي الجملة ، فإن هذا الحزام الجنوبي و الغربي ، الواقع على نحو أربعة إلى ستة أميال عن مدينة تونس، كان يمدها بكميات من الزيت المخصص للاستهلاك المحلي أو للتصدير إلى الإسكندرية ، كما يوفر خشب الزيتون المستعمل للتسخين و الطبخ والحرف التي تحتاج إلى وقود مثل الصباغين والافران و الحمامات . لكن يبدو أن هذه المساحات المغروسة قد تراجعت في أواخر العصر الوسيط ،حتى أضحت كميات الخشب غيركافية في المدينة ، كما لاحظ ذلك الوزان(4)

وكانت حدود هذا الحزام المتناسب مع أطراف غابة مدينة تونس معرّضا أكثر من غيره للضغط البدوي، حتى أنه مثل منطقة ضغط ديموغرافي خفيف، و موطنا للنزوح من القرى إلى المدينة ، كما تدل على ذلك الأمثلة العديدة ، و نقتصر على ذكر ما اشتهر منها :

---

(1) M. Montavez, Dos desripciones , p . 218
ورد في **مناقب الدهماني** (ج I ، ص 36 ب ، 124) ان ابن الحداد فكر في بناء زاوية باوذنة ، إلا ان ابا يوسف يعقوب الدهماني منعه من ذلك . و كان أحد الاعلام يحمل نسبة الاوذني بمدينة تونس. (**مناقب** ، مخ 17945 ، ص 14) . انظر حول مرناق : الزركشي ، **ن.م** ، ص 4 . مناقب ، مخ 18555، ص 179 ب .

(2) مناقب أبي الحسن الشاذلي، ص 5 ، 7 ، 168 . مناقب علي القرجاني ، ص 13. الزركشي ، **ن.م**، ص 46 (شاذلة) . Atlas A . T , Feuille d'Oudna n° 18 , site 19

(3) البرزلي ، **نوازل** ، ج II ، ص 147 (كان لابن عرفة جنان زيتون بصائغ) . **مناقب** ، مخ 18555، ص 1117 (باجة منوبة) .

(4) الوزان ، **ن.م**، ج II ، ص 77 (و مما ورد فيه : « و تحيط بالمدينة على قطر مقداره فرسخان مساحة مغروسة باشجار الزيتون .») مارمول ، **إفريقيا** ، ج III ، ص 23.

–انتقال أبي الحسن الشاذلي من شاذلة ، وهي قرية للحطابين إلى تونس .
– نزوح علي القرجاني مع أمه الى مدينة تونس على إثر طاعون حل بقرجانة .
– تردد علي الحطاب بكثرة على مدينة تونس .
– نزوح بعض الاسر من المحمدية واستقرارهم بالربض الجنوبي قرب باب عليوة.
– سعي أبي عمرو عثمان الى استيطان المزارعين ببلد سيجوم وتعميره ، وذلك بانشائه لزاوية به .
– كما عرف فحص طبربة ، و قراه مثل الحماري و قرية الجبس والمهرين ، عملية نزوح في اتجاه مدينة تونس، و ذلك خلافا لما كان عليه في الفترة الوسيطة الأولى ، حيث شهد ترسيخا للتعمير العربي ، كما تشهد على ذلك الطوبونوميا الحالية مثل جبل الأنصارين والمهرين و الكلبين (1) .

و قد استقر أغلب هؤلاء النازحين بالأرباض الجنوبية و الشمالية للمدينة ، في أحياء شبه ريفية . و كثيرا ما كان التصوف مسكّنا لهذه الفئات الرثة الباحثة عن رزق وميسرا لاستقرارها .

وفي الجملة، مكنّت غابة الزيتون الشبيهة بشرف إشبيلية من تعمير الناحية الغربية الجنوبية للبلاد وتطور العمق البشري فيها و من استيطان يد عاملة زراعية هامة. غير أنّ هذه الفئات تضرّرت كلما عصفت ريح الأزمة ، ففضلت البحث عن قوتها داخل أسوار المدينة .

ج)المجال الثالث : عمق المدينة القبلي :

مثلت المناطق الرعوية الحزام الثالث المحيط بالمدينة و المجاور لفدادين الحبوب التي تبعد في المتوسط بين 15 و 20 كم عن الحاضرة ، على أن استغلال هذه الأراضي لا يمكن أن يتم دون حصول توافق مع البدو. وفي حالة انعدامه اخترق الضغط البدوي هذا المجال، وصولا إلى غابة مدينة تونس و البساتين المسيجة القريبة من الأسوار .

و فضلا عن السهول الغربية والشمالية الشاسعة ، فقد خصّصت للحبوب مساحات ضيقة مجاورة لقرطاجنة، غير أنها لا توفر أكثر من استهلاك بضعة أشهر للسكان(2)

(1) **مناقب** ، مخ 12544، ص 71ب . **مناقب** ، مخ 18555، ص113، 1124 ، 195 ب .
(2) الوزان ، **ن.م.** ،ج II، ص 75،70 .مارمول ، **ن.م.** ، ص 21.وقد ذكر جبل الرصاص الذي يبدو للعيان إنطلاقا من رأس زعفران بالجزيرة . انظر : Lanfreducci et Bosio , op. cit. , p. 15.

وانتشرت القبائل البدوية في أطراف الحزام الثالث ، أي على بعد يتراوح بين عشرين وثلاثين ميلا ، أو أربعين وستين كلم . على أن هذه المسافة لم تكن سوى تقريبية ، فهي تنحسر وتتسع حسب تطور ميزان القوى بين السلطة والقبائل . فقد ذكر أدورن أن هذه القبائل كانت نازلة قرب جبل زغوان في القرن التاسع هـ / XVم . وفي القرن الموالي ، أعتبر فحص أبي صالح الحد الاقصى لامتداد أراضي تونس من جهة الجنوب ، والخط الفاصل بين المجال القبلي والمجال الزراعي . ويفسر الوزان إهمال الزراعة بهذا الفحص بأمرين :
– عجز السلطة الحفصية عن التصدي لتعديات البدو ، وحماية المجال المزروع.
– عدم وجود عمال زراعيين قادرين على زراعة هذه المساحات الشاسعة.

أما من الجهة الغربية ، فقد امتدت ملكيات أهل تونس الى حد زاوية عين زميت التي أنشأها أبو عمرو عثمان ، على طريق باجة ، وقصر شرس ، الواقع على نهر مجردة ، حيث غابة الزيتون والمزارع الخصبة . وقد مثل هذان الموقعان محور تمفصل بين المجال الزراعي والمجال البدوي ، ونقاط نزاع بين الطرفين ، وكانت الغلبة في فترات ضعف السلطة المخزنية لقبائل أولاد بالليل ، الذين حوّلوا هذه المجالات الى أراض رعوية (1).

وهو ما يطرح حركية هذا المجال الزراعي ، وتعرضه للانحسار بفعل ضغط القبائل المحيطة به ، والقادرة على تجنيد بضعة آلاف من المحاربين. وقد يصل الأمر الى تعذّر زراعة الاراضي المجاورة لمدينة تونس ، والاقتصار على المزارع القريبة من الاسوار . ومما ينهض حجة على ذلك أن القرى النائية ثلاثين الى أربعين ميلا عن مدينة تونس اعتبرت في عداد القرى البعيدة التي لا تنالها الاحكام الشرعية (2).

وبالتالي ظل المجال الزراعي المحيط بمدينة تونس غير قادر على توفير الانتاج الضروري للاستهلاك من الحبوب ، واحتاجت الحاضرة الى الانتاج الوارد عليها من باجة والاربس وعنابة (3)

وفي الجملة ، فان المجال الزراعي الحيوي للمدينة قد ازداد تقلصا ابتداء من القرن الثامن هـ ، في خط مواز لاستفحال الازمة الاقتصادية والاجتماعية . ففي النصف الثاني من هذا القرن ، وعلى إثرانتشار الطاعون الجارف و الجوع ، عمد البدو الى التضييق على السكان الحضر والسلطان ، « المسلمين وخليفتهم » على حد عبارة البرزلي . لكن المدينة والسلطان عجزا عن التصدي لهذا الضغط ، لوهن المجتمع وتعدد التناقضات التي تنخره من الداخل ، وضعف الجيش الحفصي . وانبرى بعض العلماء

(1) الوزان ، **ن.م.** ، ج II، ص 75. مارمول ، **ن.م.** ، ج III. ص 21. ويقع شرس (تورس)شرق مجاز الباب ، على الطريق تونس –باجة . ومن بقايا آثاره حصن وحفير ومواجل وبرج مربع .انظر :
Atlas Archéologique de Tunisie , f 27 (Mjez El Bab) , site de Turris .
Brunschvig , **Deux récits de voyage** , p. 196 , 213 ;
(2) البرزلي ، **ن.م.** ، ج I . ص 1264 ، 1278 .
(3) الوزّان ،**ن.م.** ، ج II، ص 75. مارمول، **ن.م.** ، جIII، ص21..

مدافعين عن المدينة ومجتمعها ، وكان على رأسهم ابن عرفة الذي قاد أشبه ما يكون بحركة تصدّ للبدو ، وقد شهد البرزلي على ذلك في هذه الفقرة الهامة : **«فندب شيخنا الامام الناس لقتالهم ، و ذكر لهم قول مالك و ما روي عن قتال المحاربين المخالفين على أهل الاسلام من الفضل ، و أراد أن يستعين بمشيخة الوقت فلم يسعفوه بهذا، محتجين بأن الناس ليس لهم بمدافعتهم طاقة، إذ لم يكن لهم معرفة بالحروب، مع تركب العرب عليهم فى أكثر الأوقات، مع ضعف جيش المسلمين عن مدافعتهم . فأجاب شيخنا الامام بأنهم لو كانوا على قلب واحد لغلبوهم ،واحتج بقتالهم فى المحج وشدتهم فيه، لكن ضعف الايمان حمل الناس على العجز عن قتالهم »** (1).

على أن الموقف من القبائل البدوية المتعدية على غابة مدينة تونس اختلف بآختلاف موقع القبيلة من السلطة : فاذا كانت من أهل الخلاف ، فانها تحسب في عداد القبائل المحاربة . أما إذا كانت من القبائل المخزنية ، « وللسلطان بهم حاجة » «وقصدوا الغابة ، فأخذوا غلتها وكسّروا شجرها وربما أخذوا على ذلك خفارة أو مدوا أيديهم لسلب السلطان» ، فان ابن عرفة أوصى بالتعامل معهم بلين لدفعهم عن هذه الاعمال، فيما اتخذ تلميذه البرزلي موقفا أكثر تشددا إزاءهم ، محرضا على قتالهم ، باعتبارهم سلابة مغتصبين للاموال، ومستعملين في ذلك حد السلاح (2) .

لكن ذلك لا يعدو أن يكون موقفا نظريا ، لا يعبر الا عن تصورات شرائح ضيقة داخل المجتمع الحضري، الذي كان عاجزا في حقيقة الأمر عن صد الضغط البدوي في غابة مدينة تونس . ومما يأتي شاهدا على ذلك التجاء المالكين الى سلطة الصلحاء، وانعدام التضامن بينهم، إذ كان يعمد كل واحد منهم الى إخراج المواشي من بستانه، ودفعها الى ملكية جاره (3).

والأمثلة كثيرة على ذلك . ففي سنة 839-837هـ / 1437-1435م ، أيام حكم المنتصر، استفحل الجوع بالبدو، فنزلت بعض القبائل مثل حكيم ، بمرج الزواغين، وحاصروا مدينة تونس، ولم يقع صدهم . وتكرر هذا الحدث عديد المرات (4).

و في نهاية العصر الوسيط ، ازدادت هجومات البدو من الناحية الجنوبية حتى بلغ الامر الى خروج السلطان مرتين كل سنة، مرة أولى لتأمين الحراثة وزراعة الحبوب وثانية للحصاد في فصل الصيف (5).

---

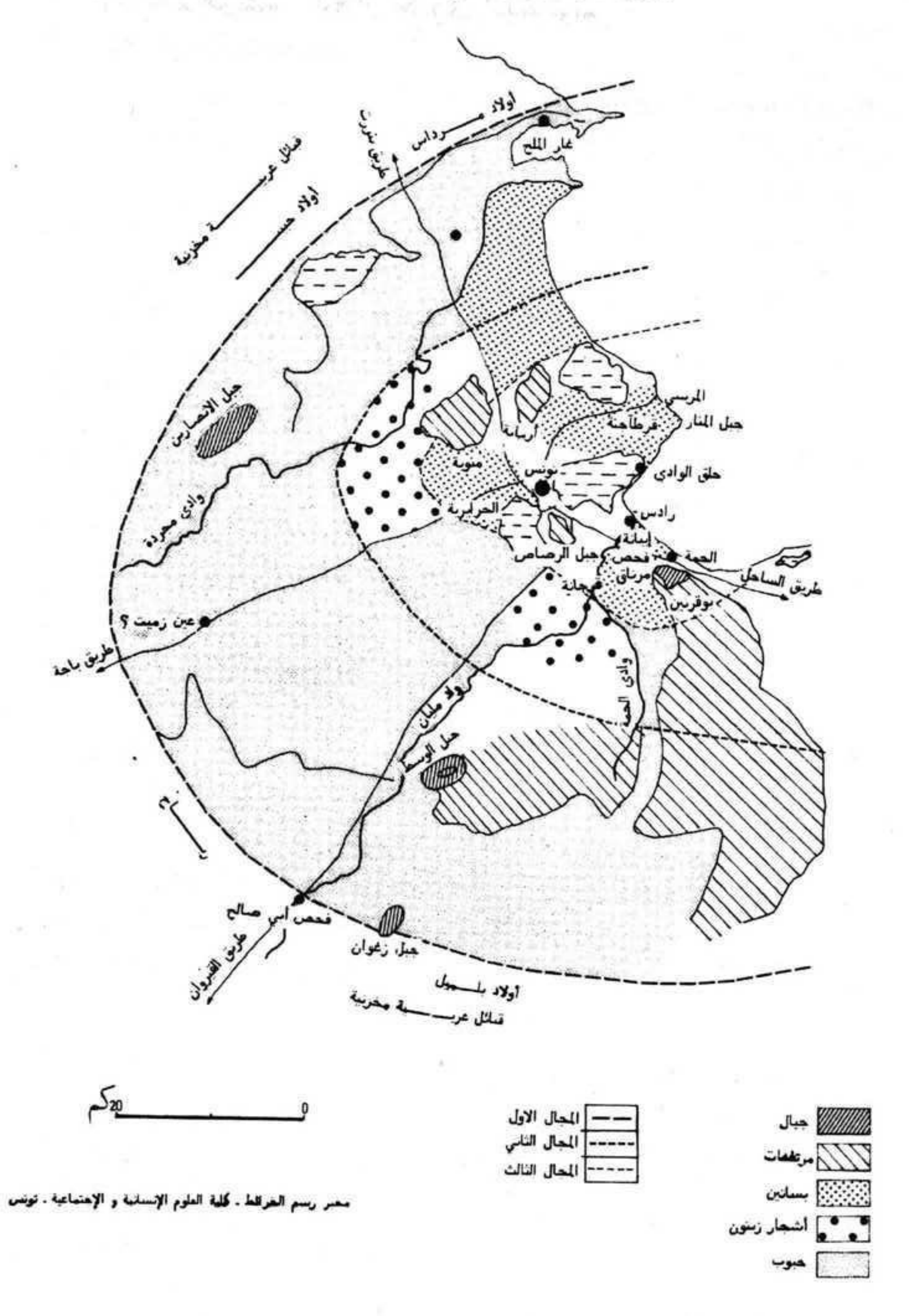
(1) البرزلي ، **نوازل** ، ج IV، ص 240 .

(2) المصدر نفسه ، ج IV، ص 239ب .

(3) المصدر نفسه ، جII ، ص1117. **مناقب بن عروس** ، ص 210.

(4) **مناقب بن عروس** ، ص 210، 484 (ذكر حصار بني علي لمدينتي تونس والقيروان ، وانتهابهم للاملاك وقطعهم للسابلة) .

(5) Soucek , **op. cit.** , p. 73.



II) بلاد إفريقية : المجال الحيوي لمدينة تونس :

1) بنزرت و ناحيتها :

ترجع حيوية بنزرت إلى الخصوبة الفلاحية لناحيتها وكانت منذ الفترة الأغلبية مركزا لمقاطعة سطفورة ، و قد تأسس بها رباط .ويبدو أنه يوافق قلعة بني خليفة الوارد ذكرها في الوثائق الديوانية. وصفها إبن الوراق (ت 336 هـ) فقال **« عليها سور صخر وبها جامع وأسواق وحمامات و بساتين، وهي أرخص البلاد حوتا»** (1) .

ومنذ سنة 1050 إلى حد سنة 1203 ، تكونت بها مقاطعة شبه مستقلة تحت حكم بني الورد . وكان إقليم سطفورة في القرن الثاني عشر يحتوي على ثلاث مدائن أساسية ، أشلونة وتينجة و بنزرت ، و هي مركز هذا الإقليم . و لم يشر الإدريسي خلافا للمدن الأخرى لوجود الأعراب في أحواز المدينة (2).

ومما هو ثابت أن فاعليتها البحرية ازدادت في العهد الحفصي ، نظرا الى وجودها في نقطة تفصل في ساحل إفريقية على بحيرة تنتهي برأس الزبيب الوارد الذكر في الوثائق، وهي تربط بين غرب المتوسط وشرقه .

فقد أصبحت محطا للسفن الواردة من الاندلس ، وللمهاجرين الذين نزل بعضهم بالمدينة قبل أن ينتقل الى تونس ، مثل ابن سعيد وابن سيد الناس . وقد أنشئ بها لهذا السبب حي للأندلسيين في القرن التاسع هـ / XVم .

كما تحولت الى مركز لتعمير السفن للقيام بعمليات حربية والتصدي لقرصنة السفن النصرانية .ففي سنة 1307م، قامت السفن القطلانية بمهاجمتها (3).

وبعد فشل الهجوم الفرنسي – الجنوي على المدينة سنة 1516 م ، تمكن الاسبان من الاستيلاء عليها سنة 1535م ، وبنوا فيها الحصن المسمى ببرج الاندلس (4). ومما لا شك فيه أن هذه الحملات العسكرية المتتالية المنطلقة من بنزرت أو الموجهة اليها قد انعكست على عمران المدينة ، وصبغته بصبغة عسكرية : فابن سعيد ذكر على نهرها منار ، واعتبرها القلقشندي مجرد مرسى لمدينة تونس . أما الوزان ، فقد ذكر المداشر

---

(1)البكري ، **مسالك** ، ص 83،58 . Alarcon ; **Documentos Arabes** ..,p.260 .

(2) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص114–115 .

(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI، ص 654. الزركشي ، تاريخ ، ص116.
De Primaudaie , op. cit , In R .A. , 1877 , n 123 . Alarcon, **Documentos Arabes** .. , p.259-260

(4) Soucek , **op. cit.** , p. 63, 77 .Martinez Montavez, Dos **Descripciones de la cuidad deTunez.** , op. cit.

العديدة لصيادي السمك المحاطة بها ، و سورها المبني من الصخر ، ملمّحا بذلك الى القصبة ، فيما ورد ذكر القصيبة في مناقب ابن عروس (1).

أما البعد الاقتصادي الثاني للجهة ، فهو الزراعة .و قد اشتهرت فى تلك الفترة بوفرة إنتاج الحبوب و خاصة في سهل ماطر، رغم تعرضه لتعديات البدو والسلطان(2).

و فى النهاية فإن قرب بنزرت من تونس جعلها تابعة لمجالها، فهي بوابة بحرية لمينائها ، و منتزه للوكها ومطمورة حبوب لسكانها ، غير أن المدينة كانت لها استقلالية نسبيّة متمثلة في تعيين قاض بها(3).

– *ناحية بنزرت* : تمتد هذه الناحية من سهل ماطرغربا الى قرى رأس الجبل ورفراف و غار الملح شرقا .

* رأس الجبل : كانت قرية رأس الجبل مرسى مأمونا للسفن، ذكر منذ القرن الخامس هـ / الحادي عشر ميلادي .على أن أهميته تزايدت إبتداء من القرن الثاني عشر حتى أضحى في العهد الحفصي مأوى للمراكب المبحرة من مرسى تونس لغرض إصلاحها ، أو الاحتماء بها في فترات القرصنة . وكانت القرية محاطة بسور من تراب في نهاية العصر الوسيط(4).

* رفراف : لقد حظيت هذه القرية باهتمام أبي فارس عبد العزيز الذي قام ببناء محرس بها، و ظلّت الجهة الشمالية منها مبنيّة بحجارة الحرش المتناوبة مع الدبش والحجارة المصقولة.ويبدو أن هذا السور الحفصي رمم في القرن السادس عشر، و قد استعمل في ذلك الطّابية من الجهات الاخرى (5).

*عوسجة : موقع ارتبطت تسميته بقبيلة عوسجة البربرية ، عرف بتربية الماشية في القرن السابع هـ / الثالث عشر ميلادى (6) .

* غار الملح : ذكر لاول مرة منذ أواسط القرن التاسع هـ / الخامس عشر م .

---

(1) ابن سعيد ، **جغرافيا** ، ص143. القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج IV، ص 384. الوزان ، وصف افريقيا ، ج II، ص68. مناقب ابن عروس ، ص 505–506، 195 .

(2) الوزان ، **وصف إفريقيا** ، ج II ، ص68 .

(3) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 116.

(4) البكري ، **نفسه** ، ص 83. ابن سعيد ، **جغرافيا** ، ص143 .
Lanfreducci et Alarcon , **Documentos** ..,p. 259. Bosio , op. cit. ,p. 517 .

(5) تحيط بالسور الحالي الاجنة، التي تتوسطها عينان، يطلق على إحداها عين البلد . حول رفراف ، راجع : الزركشي ، **نفسه**، ص116 .

(6) ورد ذكر منصور العوسجي الذي كان له مائتي شاة في مناقب صلحاء تونس ، مخ .18555 ، ص 123ب

و تميز بمرسـاه الجيد والواسع القـريب من مدينة تونس وبموقعـه الهام في خليج تونس ، وقد شيد فيه برج لمراقبة السواحل (1) .

وفي الجملة ، اقترنت التجهيـزات الساحلية (مراس وأبراج وأسوار) بأهمية العلاقـة مع بلدان المتوسط الشمـالي ، أوقات الحرب والسلم . وقـد انعكس ضغط القرصـنة سلبا على العـمران بهـذه المنطقة ، وجـعلها في ارتبـاط مباشـر بمدينة تونس.

والى جانب البـعد الساحلي ، اكتـسى التوطين بهذه الجـهة عمقـا داخليا ، استند الى زراعـة الحبوب في مسـاحات شاسـعة ، وخاصة بسـهل ماطر الذي كـان يوفّر الانتـاج الضروري لمدينة تونـس .وقد اقـترن التـوطين بهذا السـهل بحركة القبائل العربية وانتـجاع المجموعات البربرية الوافدة من الجنوب ، والتي استقرت تدريجيا في هذه السهـول مثل عوسجة وزهانة ولواتة وزواوة وغيرها (2).

وفي الجـملة ، فان وطن بنزرت لا يعـدو أن يكون تابعـا للحاضـرة ، فهـو الدّرع الذي يحتـمي به خليج تونس، والمخزن الذي يوفـر الحبوب. وحـسبنا أن نذكر في هذا الـصدد أن السلطان اتخذ من بـلاده منتزها : فقـد كان المسـتنصر يتحـوّل الى جبل إشكل لقنص الحيوان البـري ، فيما شـيّد أمراء آخرون قـصرا بغار الملح(3) .

2) بلاد زغوان :

لم تشكل هذه الجهة وحدة اقتصادية أو إدارية في العـهد الحفصي ، فبعد أن تقلصّ عمـرانها ، تحـوّلت إلى مجرد ناحـية لمدينة تونس ، تزودها بـالماء الصالح للشراب ، عن طريق الحنايا ، وبالحبوب وبعض المنتوجات الأخرى.

و اعتـبارا لوجودها على طول طريق الإنتجاع ، تقلص بها العـمران كثـيرا ، وغـابت عـديد المنازل و القـرى و المدن ، باستـثناء القـليل منهـا الواقع على طريق

(1)ذكرت لاول مرة في مناقب ابن عروس ، ص 505-506. انظر أيضا :
Lanfreducci et Bosio , **Ibid** , p. 516 .
Soucek, **Ibid**,p.63,73.

(2) الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II ، ص68 .

(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص620. راجع الفصل الخاص بتنظيم المشهد الريفي (الرياض الأميرية) .

القيـروان – تونس، و التي استطاعت الإحتـماء بأسوارها مثل القـصبة أو نتيـجة موقعها المحصن مثل جبل زغوان(1) .

* سهل سمنجـة: ظلّ هذا السّهل المذكور منذ العهد الفـاطمي ملكا للدّولة عهد بني حفص. وقد ذكرت قريبا منه قرية أبر.

* فحص أبى صالح : حلت هذه المدينة مكان طبربومـاجوس (طبربة الكبرى) في العهد الأغلبي .ثم تـغير اسمها ثـانية ، فأصبحت تسـمى القصبة في العهـد الحفصي، ويبـدو أن ذلك إرتبط بتحـول في الموقع .على أن عـمرانهـا تضاءل في أواخـر العصـر الوسيط ، فأصبحت مخربة و أراضيها مهملة (2).

* جبل زغوان : نظرا إلى أهمّيـته الإستراتيجية لاستـخدامه منارا للمراكب ونقطة مراقبـة لطريق تونس – القيروان ، فضلا عن انطلاق الحنايا مـنه ، فقد استمرّ تعـميره ببعض الفلاحين الذين انصرفوا الى زراعة الحبوب و تربية النحل وبالزهاد و المرابطين الذين كانوا يتولون القيام بمهمة المراقـبة . ويبدو في هذا الصدد أن أبراجا أقيمت على طول الخط قرطاجنة –زغوان ، مرورا بقرطاجنة – أوذنة – جبل الوسط .

و في الجملة ، تحولت هذه الجهة إلى مجال للقبائل العربية (بني كعب و بني رياح) النازلة في أطراف ناحية مدينة تونس التي حددها الوزان عند فحص أبي صالح(3) .

(1) المواقع المندثرة : * الدواميس : كـانت توجد سابقـا على الطريق الرابط بين القيروان و تونس ، و يبـدو أنها توافق موقع أوبنا (Upenna) أي هنشيـر الشقارنيـة . * فندق الريحان : يبـدو أن موقعـه قرب عين الحلوف بهنشـير الفـراديس (Aphrodisium). * فندق شكل : يقع جنـوب تونس بمرحلة قرب فـحص أبى صـالح .* قلمجنة (Villa magna) : يرجع أول ذكر لهذه المدينة القديمة إلى القرن الثانى هـ / VIII م ، إذا ما إعتبرنا أن مزرعة ملمجنة ، لا تعدو أن تكون تصـحيفا لمزرعة قلمجنة ، وأصبحت هذه المزرعة غيـر عامرة ، في العهد الفاطمي حتى ان الخليفة القائم أسكن بها نازحين من قبائل هوارة و نفوسـة ، و منذ تلك الحقبة لم نعد نسمع عنها شيئا . * منستير عثمان : تكونت هذه المدينة حول حصن بيزنطي و استقرت بها مجموعات بشرية ثلاث : بربر و عرب و افارقة ، لكنها اندثرت إبتداء من القرن الثاني عشر ، و لم يبق بها سوى إسم : هنشير المستير (قرب بير الشاوش علي) و منشآتها المائية العديدة التي تـرجع إلى الفترة الكلاسيكية . راجع : البكري ، **نفسه** ، ص 56. 46.الرقيق ، تاريخ ، ص 137 –139، 144ومن الخطأ قبول تحديد «هوبكنز» لها ، عند قصر أبو اجنة، 18 شمال مكثر
Feuille de Jebibina , In **A. A.** T . (n. 48) .
Cambuzat , **Les cités du Haut Tell** , T ll ,p177 .Hopkins, **op. cit.**, In C.T., 1966, p.45.

(2) الوزان ، **نفسه** ، ج II ، ص 67. مناقب رقم 18555 ، ص155ب.

(3) البكري ، **نفسه** ، ص 45–46. الادريسي، **ن.م.** ، ص 157. مناقب رقم18555 ، ص 129. الوزان ، **ن.م.**، ج II ، ص67.

3) الجزيرة القبلية :

تغيرت تسمية شبه الجزيرة الواقعة بين خليجي تونس و الحمامات عديد المرات في العصر الوسيط . فقد كانت في كتب الجغرافيين الأولى (اليعقوبي و البكري) تسمى جزيرة شريك (نسبة إلى شريك العبسي)، و أصبحت جزيرة باشو عند الإدريسي . فيما أطلق عليها ابن ناجي تسمية الرأس الطيب (وهي تسمية ترجع إلى العهد القديم) والدخلة أو دخلة المعاوين، وتحدث ابن الشماع عن الوطن القبلي.

و في الجملة فإن التسمية الغالبة في الفترة الحفصية هي الجزيرة القبلية .و بعد اندثار قاعدة هذا الإقليم ، وهي منزل باشو في أواخر القرن الثاني عشر م ، يبدو أن الحمامات أصبحت قاعدة هذا الوطن (1).

وشمل انهيار العمران في هذا الإقليم القصور الساحلية و المدن الكبرى في الآن نفسه (2). و لم يقع إعادة هيكلة كلية للعمران ، إذ لم تذكر طيلة هذه الحقبة سوى .

(1) تحكّم القاضي ابن عبد الرفيع في قائدها، وفي النصف الثاني من الثامن ، ولى السلطان أبو العباس أحمد عليها القائد بشير من العلوج. أنظر :اليعقوبي ، **نفسه** ، ص 100–101. البكري ، **نفسه** ، ص 45. الادريسي ، نفسه ، ص 118. التجاني ، **رحلة** ، ص 11. الابي ، **الاكمال** ، ج 5،4 ، ص402، 269 . ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 126،14 ، 157 ، 190 . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص109 . ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 186.

(2) المدن التي تغيرت أسماؤها او اندثرت :

* النوبة : إتخذها الأغالبة في بداية الأمر كقاعدة للتوسع في اتجاه صقلية ، قبل أن يفضلوا عليها مدينة سوسة . كما انتقلت قاعدة الجزيرة في الفترة الأغلبية من نوبة إلى منزل باشو . و في العهد الحفصي عرفت النوبة تحولا في الطوبونوميا بعد أن عوضت الزاوية الرباط ، فأصبحت تسمى بسيدي داود نسبة إلى أحد صلحاء القرن الثامن هـ / XIVم الذي أطلق عليه ابن ناجي تسمية صاحب الجزيرة ، كما أطلقت تسمية صاحب النوبة على سيدي مروان .

* منزل باشو : نظرا لموقعها على المسلك تونس – القيروان ، فقد عوضت النوبة منذ العهد الأغلبي ، بعد أن استقرت الملاحة البحرية لصالح إفريقية. و تبين مؤشرات عديدة أن الخرائب الحالية بهنشير الجديدة (أو السوق الخالي) توافق الموقع القديم للمدينة .

و تعود بداية انقراض المدينة إلى القرن السادس هـ / XII م إذ ذكر الإدريسي أنه « لم يبق منها إلا مكانها و فيه قصر معمور » . ولما آستولى علي بن غانية عليها سنة 582 هـ / 1186 م أخرج منها أهلها الذين تحولوا إلى مدينة تونس ، و لم يسعف البعض منهم الدخول إليها ، فمات بردا و جوعا خارج الأسوار . و بعد نحو نصف قرن من هذا الحدث استعملت خرائبها (من أعمدة و تيجان) لبناء جامع القصبة بتونس. قياسات الآجر المتبقى في الركام : الاحمر :14 x 29 x 3 سم . والفاتح : 22 x 11 x 2,5 سم . و لئن كنا لا نعرف مدى العلاقة بين باشو و بجاوة (و هم القاطنون بناحية ماطر في العصر الحديث) ، فالثابت أن انقراض مدينة باشو أدى إلى تريف أكبر للجزيرة القبلية و زيادة تعمير لمدينة تونس.

* قصر لبنة : بني هذا القصر بحجارة مصقولة ، و أخذ شكل مربع قياسه 60 م ، يتوسطه صحن و تحيط به ابراج مستديرة في الزوايا و نصف دائرية وسط كل ضلع . على أن القصر لم يتواصل تعميره بعد أن عوضته زاوية أقل أهمية ، و يبدو أن هذا التطور حدث في غضون العصر الحفصي .

– قصر سعد : يبدو أنه عرف نفس التطور الذي عرفه قصر لبنة . و قد آندثر تاركا المجال لزاوية أقل شأنا . ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص231 . مناقب . مخ.18555 ، ص 1174. ابن حوقل ، ن.م. ، ص 49. ح ح عبد الوهاب ، **ورقات** ، ج III ، ص329–344.

Feuille de Sidi Daoud, IN **A.A.T.** ,n. 9. R. Brunschvig, Nouba, In **R. T.**, 1935. Feuille de Grombalia, In A.A.T. ,n. 139.

بعض القصور الساحلية ذات الأهمية الإستراتيجية بالنسبة إلى مدينة تونس. كماورد ذكر قرى و قصور عديدة بالجزيرة، تعرضت بدورها إلى حركة هجرة هامة في اتجاه مدينة تونس أو إلى عمليات تخريب و غصب نتيجة حركة القرصنة البحرية ، وأهمها:

* بلد المزاتين : ذكرت في بداية القرن السابع / XIII ، و قد عرفت آنذاك حركة هجرة إلى مدينة تونس، وخصوصا لّما حلّ بها أبو عمران موسى الغفاري ، وتبعه كثيرون من أهل المنزل، كما ذكر من بين أهلها النازحين بتونس أبو الحسن القتادي وأحمد بن عروس(1).

* الصمعة : كان من بين الأعلام المنتسبين إليها والمستقرين بمدينة تونس في القرن السابع هـ / XIII م : أبو عبد الله محمد الصمعي (2).

* قرية صلتان : تقع بين منزل باشو و قرية الفلاحين ، ما يناسب حاليا هنشير سلطان، قرب فندق الجديد. ذكرت منذ القرن الرابع هـ / العاشر م ، نسبة إلى بني سلطان من البربر . ويبدو أنها اندثرت أثناء أزمة القرن XIV م ، وكان التجاني أخر من ذكرها (3) .

* منزل زيد : ذكر بناحية الحمامات . تعرض للتخريب سنة 702 هـ أثناء هجوم القراصنة القطلان عليه (4).

* قربص : ذكر أحد أعلامها بمدينة تونس في القرن السابع هـ ، وهو زين الدين القربسي (5).

* قرية الفلاحين : يبدو أنها ترجع إلى العهد الأغلبي . و قد ذكر منزل الفلاحين في نهاية القرن السادس هـ / XII م و بداية السابع هـ / XIII م ، و كان ينتمي إليها : أبو علي سالم و أبو العباس الغماري . و ظلت عامرة في عهد التجاني .و يبدو أنها اندثرت أثناء القرن الثامن هـ / XIV م ، تاركة مكانها إلى هنشير الفلاحين الواقع شمال وادي الرمل (وبرج حفيظ) . و مثّل هذا الوادي الحد الفاصل بين بلاد الساحل و الجزيرة القبلية ، و هو الفحص الواقع بين بوفيشة و الحمامات مكونا وحدة زراعية هامة ، ولعلها كانت من أملاك الدولة الحفصية (6).

أما المنازل والقصور الساحلية الوارد ذكرها في العهد الحفصي ، فأهمها :

* الهوارية : نسبة إلى قبيلة هوارة التي نزلت في الجبال الممتدة من تيفاش والتل

(1) **مناقب الدهماني** ، ج I ، ص 122. **مناقب ابن عروس**، ص192 (تقع المزاتين بوادي الرّمل، على مسافة 50 ميلا عن تونس).

(2) ذكر في القرن السابع . انظر : **مناقب** ، مخ 18555، ص 17. Cambuzat , op. cit. , T II , p. 186 .

(3) التجاني ، **رحلة** ، ص22–23 . انظر ايضا:

(4) Alarcon , **Documentos** ..op. cit. , p. 259 . Feuille Bou Ficha , In **A.A.T.**

(5)**مناقب** ، مخ 18555، ص174 ب .

(6) **مناقب الدهماني** ، ج I ، ص 42ب ، ج II ، ص 1114 (أورد ذكر منزل الفلاحين). التجاني ، **رحلة** ، ص 23 Feuille de Nabeul , n°. 53, In **A.A.T.**

التونسي (جبل برقو – الاربس) الى حد الجزيرة القبلية . وقد كان بها رباط في العهد الأغلبي ، و حوله أحمية . و في العهد الحفصي أصبحت أراضيها ملكا لبعض علماء القيروان ، و قد تولّى بنو علي غفارة هذه الأرض .

ولا ندري هل أن قرية الهواريين التي شهدت هجرة بعض أهلها الى مدينة تونس في القرن التاسع هـ هي الهوارية أو بلد ثان (1).

* جبل ماكوض : من الجبال الساحلية بالجزيرة التي استقر بها الزهاد ، ولعلها قربص التي كانت تقع قبالتها جزر الجامور (زمبرا و زمبرتا حاليا) المعروفة أنذاك بصيد الماعز الوحشي (2).

* إقليبية : حصن قديم عرف بمناعته ، و قد كان به مرسى للسفن الواردة من الأندلس وغيرها من البلاد (3).

* قصر نابل : تحولت المدينة القديمة إلى قصر في القرن XII م . و لم يذكر الا نادرا طيلة العهد الحفصي (4).

* قصر الزيت : كان نقطة عبور للقوافل و المحلة بين تونس و بلاد الساحل (أو القيروان) (5).

* الحمامات : أطلق عليها إسم بلدة أو بليدة . عرفت منذ القرن السادس هـ / XII م بمبانيها البيضاء ومرساها . و نظرا الى تعرضها لهجومات القراصنة القطلانيين ، بادر أبو فارس عبد العزيز بإحاطة المدينة بسور ظل قائما إلى مطلع العصر الحديث .

وقد اشتغل أهلها الذين بلغ عددهم سنة 1526 نحو 500 ساكن (من بينهم 100 مقاتل) في الصيد والزراعة و قصارة الأقمشة و تجارة الخشب لتوفر غابة هامة في ناحيتها (6)

وفي الأخير ، فان الجزيرة القبلية مثلت الناحية الاقتصادية لمدينة تونس ، والعمق الاستراتيجي لها ، ونعتقد أن مهاجمة القراصنة القطلان لسواحلها ، وخاصة لقليبية

---

(1) راجع : ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 211 ،

(2) ابن ناجي ، نفسه ، ج IV ، ص 126. وقد أطلق البرزلي على جبل ماكوض تسمية ثانية : جبل الجوامر ، نسبة الى جزر الجامور . انظر : البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 167ب .وفي مناقب الهواري ، مخ 18555، ص187ب : جبل ماقوط .راجع ايضا : . Brunschvig ,**op.cit.**,TI,p. 306

(3) ظلت البادية المحيطة بالحصن محافظة على أسمائها البربرية إلى حد عصرنا الحالي ، و من ذلك نذكر : جبل تاوسنت و تاهرت و وزدرة وهنشير تامزرات و ازمور ،و في ناحية منزل تميم دار ملول و تازغران . انظر :اليعقوبي ، **ن.م.** ، ص 348. ابن سعيد ، **ن.م.** ، ص 143. ابن الخطيب ، **الاحاطة** .
Alarcon ,op. cit. Soucek , **op. cit.** , ,p. 91

(4) الادريسي ، **ن.م**، ص 118–119. Brunschvig , **Deux Récits de voyage** ., p. 211

(5) ابن ناجي، **نفسه** ، ج IV ، ص 46.

(6) الادريسي ، **ن.م**، ص118 .ابن سعيد ، **نفسه** ، ص 143.العبدري ، **ن.م.** ، ص239. البلوي ، **ن.م.** II، ص 93.ابن ناجي ، **ن.م.** ، ج IV ، ص 189–190. الزركشي ، **ن.م.** ،ص . الوزان ، **ن.م.** II، ص83 .
Soucek ,**op.cit.** ,p. 95 . Alarcon , **op.cit.** ,p. 259 .

والحمامات وقصر زيد المعروف بانتاجه للخشب، معناه محاولة حرمان الحاضرة من مادة الخشب الاساسية لصناعة السفن . ومن جهة أخرى ، تتضح هذه الاهمية في عناية أبي فارس عبد العزيز بسور الحمامات . كما نتبيّن هذه العلاقة في ملكية أعيان الحضر لبساتين بالجزيرة ، وملكيات الدولة الشاسعة بأطرافها خاصة . فقد كان أبو العباس الغساني ، صاحب العلامة في عهد المستنصر ، مولعا بجنة له في الجزيرة القبلية ، كما كان ابن عرفة كثير التحول الى الجزيرة (1).

على أن هذه العلاقات المتينة بين المدينة والجزيرة لم تمنع من تراجع الاستغلال الزراعي واندثار عديد القرى والقصور بفعل القرصنة والعدوان البحري ، وتداول المجاعات والاوبئة . وهو ما مكّن من تغيير خارطة التوطين بالجهة ، وانتصاب قوتين جديدتين بها :

– تسرب القبائل البدوية في الجزيرة ، إذ انتشرت قبائل دلاج ورياح في أطراف الجزيرة ، وسواحلها ، فنزلت بناحية منزل باشو ، حيث ما زالت الخريطة الاثرية تحمل إسم بني وائل . كما نزلت قبائل بناحية الهوارية وسيدي داود ، حيث استطاعوا فرض أتاوة الخفارة على المزارعين، الذين عجزوا عن التصدي لهذه الظاهرة (2).

على أن هيمنة القبائل على أرض الجزيرة ظلت محدودة ، لقربها من مدينة تونس، وغلبة الزراعة الجاهدة فيها .

– نشأة الزوايا في السواحل ، مكان الأربطة والحصون المندثرة . ولا يستبعد أن تكون هذه الزوايا قد هيمنت على حمى الرباطات ، ممثلة بذلك الوحدة الحضرية الجديدة لاستغلال الارض . ففضلا عن سيطرة بعض صلحاء القيروان على جزء من أراضي الهوارية ، تملّكت كل من زاوية داود النوبي ، «صاحب الجزيرة » (سيدي داود حاليا)، ومعاوية الشارف (بناحية قربة) أراضي هامة في الجزيرة .

4) السهول العليا والوسطى لوادي مجردة وعلاقتها بمدينة تونس:

عرفت هذه البلاد تطوّرا عمرانيا مزدوجا، منذ بداية العصر الوسيط ، تمثّل أساسا في:

– تلاشي الشبكة العمرانية القديمة ، و اند ثار معظم المراكز الحضرية ، التي نشأت في ظل علاقات اقتصادية ، تربط بلاد إفريقية بروما ، و تتميز بإنتاج وفير للحبوب و الزيوت .

---

(1) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 125 . الابي ، **الاكمال** ، ج IV ، ص402–401

(2) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV، ص 108، 212 (أورد ذكر أولاد عبد الرحيم من بني وائل ، وحراسة الحجري من بني علي للزرع بالهوارية) .

– بروز مدينة باجة كقطب جاذب لكامل الجهة و انفرادها بهذه الوظيفة . و قد كانت معضودة في ذلك إلى حد القرن الخامس ببعض المراكز الصغرى مثل الأنصارين و بلطة و عندة و زامة و درنة و المغيرية و ممرسة (مجاز الباب) التي رسمت شبكة شعاعية حول باجة ، يتجاوز شعاعها 40 كم . على أن هذا النسيج الحضري الذي ورث النسيج القديم تلاشى ابتداء من القرنين الخامس و السادس هـ ، وظهرت شبكة حضرية أخرى على امتداد الطريق الرابط بين قسنطينة و تونس(1) .

– مدينة باجة : اعتبرت في عداد المدن الكبيرة عهد الاغالبة ، وكان يسكنها العرب والعجم (من الروم والافارق) والبربر من وزداجة . واشتهرت بسورها العتيق الحصين الذي ظل قائما في العهد الحفصي ، وقلعتها البيزنطية الاصل (2).

على أن العمارة تضررت من الاضطرابات الواقعة في القرنين الخامس والسادس هـ ، وخاصة سنة 591هـ / 1194م ، لما نازل يحيى بن غانية باجة ونصب عليها المجانيق وخربها ، فتشرد أهلها وفروا الى الاربس والكاف ، ثم رجعوا اليها بعد أن هدأت الاوضاع (3).

ولئن كنا لا نملك أرقاما عن عدد السكان طيلة العهد الحفصي ، فان الوثائق الاسبانية تحدثت عن 2500 منزل بالمدينة سنة 1535م (4).

وقد عرفت الناحية المحيطة بها انتشار القبائل العربية : فكانت على التوالي مرداس في القرنين الخامس والسادس هـ ، وكانت مالكة لخراجها ، ثم تحوّلت هذه الجهة مجالا لهذيل في القرن السابع هـ ، وهم فرسان محسوبون بافريقية . وفي القرن التاسع هـ ، ذكر القلقشندي قبيلة بني سعد بهذة الجهة (5).

وفي الجملة ، فان سيطرة الحضر على هذه البلاد ظلت ضعيفة ، وخاصة في الحقب المتأزمة . فقد وصل الضغط البدوي الى حد محاصرة أبواب المدينة ، حتى أن

(1) حول هذه المواقع العامرة في الحقبة الوسيطة الاولى، راجع: البكري، **مسالك**، ص46، 54، 57، القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، ص195. البرزلي، ن.م.، جاا، ص120ب. الونشريسي، ن.م.، ج VIII، ص207. عبد الوهاب، **ورقات**، ج III، ص 424. Feuilles de Souk El Khmis, Mateur, Cap Negro.
Idris, op. cit., T II, p438.

(2) اليعقوبي، **ن.م.**، ص 109. ابن حوقل، **ن.م.**، ص50، الادريسي، ن.م.، ص115.

(3) G . Marçais , **Les Arabes Berbérie** .. , p. 604 .

(4) De La Primaudaie , Documents Inédits ..**In R.A.** , 1877 217

(5) العبدري ، **نفسه** ، ص 37. القلقشندي ، **نهاية الارب** ، ص 290 (بنو سعد فرقة بنواحي باجة ، يعسكرون مع جند السلطان).

أهلها ، على حد قول العبدري ، لا يفارقون السور ويعجزون عن دفن موتاهم خارج الابواب ، خوفا من الاعراب (1).

على أن هذه الصورة المبالغ فيها لا يمكن أن تصبح حقيقة لكل العصور . فمن ذلك أن المشكل الاساسي للمدينة وناحيتها في القرن التاسع هـ ليس ضغط البدو ، بقدر ماهو الفراغ السكاني المفزع وانعدام العمال الزراعيين بالجهة . فالبادية شاسعة الاطراف ، وافرة الانتاج .لكن عدد المزارعين لا يكفي لزرع الاراضي التي ظلت بورا، وذلك رغم الالتجاء الى القبائل البدوية (2).

وبالتالي ، فانه يصح الحديث عن مجال شاسع مكون من مدينة واحدة ، ومن بادية غير عامرة ، يقل فيها عدد القرى والمنازل ، حتى أننا لم نتمكن من العثور الا على القرى التالية :

*عين زميت : أسس السلطان الحفصى أبو عمرو عثمان هذه الزاوية على طريق تونس – باجة، لحماية السهول الخصبة المحيطة بالحاضرة من الإجتياج البدوي. غير أن القبائل الضاعنة أفشلت هذا المشروع وحولته إلى خراب (3).

* شرْس : قصر قديم شيد على ضفاف نهر مجردة ، بين باجة وتونس . وقد كان محاطا بأراض زراعية وغابة زيتون . على أنه لم يصمد طويلا أمام الضغط البدوي ، ولم يتم تعمير هذه الجهة من جديد الا سنة 1609 م ، عند استقرار المهاجرين الاندلسيين بقرى زراعية قرب وادي مجردة (4).

* خولان : قرية تقع على وادي مجردة ، غرب باجة بمرحلة ، على طريق عنابة. وقد كانت عامرة في القرن الثامن هـ / XIV م (5).

– السهول العليا لوادي مجردة (وطن وشتاتة؟) :

عرف التوطين بهذه السهول تطورا مماثلا لوطن باجة ، تمّ فيه الانتقال من شبكة عمرانية كثيفة الى أخرى قل فيها عدد المدن والقرى ، وذلك منذ بداية العصر الوسيط . وهو أمر مقترن بتغيير المركز من قرطاجنة الى القيروان ، وبتطور المسالك والوظائف الاقتصادية للجهة ، الواقع في إطار تحول اقتصادي عام لبلاد المغرب .

ولا يمكن بأية حال أن يعزى هذا التطور الى حركة الفتوح أو الهجرة الهلالية ، إذ تم بطريقة بطيئة ، كما يبين ذلك مثال فحص بل .

(1) العبدري ، **نفس الاحالة**

(2) الوزان ، **نفسه** ، ج II ، ص 66 .

(3) الوزان ، **نفسه** ، ج II، ص 67.

(4) **نفس الاحالة** .

(5) العبدري ، **نفسه** ، ص 37. العمري ، **مسالك الابصار** ، ص84 .

* فحص بل : تقع على المسلك القديم قرطاجنة – بونة ، والمسلك الذي ذكره البكري : القيروان – بونة . وقد تواصل تعمير هذه المدينة القديمة طيلة العصر الاسلامي الاول ، ولكنها منذ نهاية القرن الرابع هـ ، بدأت في الأفول التدريجي ، الى حد انقراضها في القرن السادس هـ/ XIIم . وهو ما ينفي المزاعم المفسرة لهذا التطور تفسيرا كوارثيا(1).

وفي العهد الحفصي ، اقتصر الأمر على ذكر أعلام منسوبين الى المدينة المندثرة ، تحت إسم الفحصبلي(2).

وبالتالي ، فان التمدين في هذه الجهة قد انحصر في بعض المراسي الساحلية .

*طبرقة : مثلت هذه المدينة الواقعة في الساحل الشمالي والمحاطة بسلسلة جبلية تفصلها عن سهول مجردة ، أهمية فائقة بالنسبة إلى مدينة تونس ، ذلك أن بحرها كان يستخرج منه المرجان ، ومن الغابات المحيطة بها الخشب والقصب الفارسي . ولذا فانها كانت مطمعا للسفن الجنوية وعرضة لهجومات القراصنة ، الذين حاولوا عديد المرات الاستيلاء على كميات من الخشب . وقد تجسدت هذه الأهمية الموقعيّة في الحصن البيزنطي والقبائل المحيطة التي شكلت درعا واقيا للمدينة (3).

* مرسى الخرز : مدينة صغيرة محصنة ، اشتهرت بصيد المرجان، حتى أنه كان يجمع نحو خمسين قاربا، على كل واحد قرابة عشرين رجلا .وقد اشتغل الجنويون في استخراج المرجان، مقابل كراء يدفع للمخزن الحفصي . وكانت تحيط بها قبائل بدوية تتولى تمويلها بالحبوب (4).

وقد كان الغالب على هذه البلاد القبائل البربرية . فقد ذكر البكري ضريسة ومرنيسة التي يبدو أن وجودها تواصل في العصر الحديث تحت تسمية المراسين (5).

على أنه ابتداء من العصر الموحدي – الحفصي ، برزت أسماء أخرى ، أهمها : نسبة الجندوبي التي كثر استعمالها في المصادر : فقد ورد ذكر جابر الجندوبي في القرن

---

(1) البكري ، **نفسه** ، ص53 ، 54 .
Thébert , De la cité antique à la cité médiévale , **C. T.** , 1986, p.31
Ibid , Bulla Regia In **Encyclopédie Berbère** , Aix 1989 . 46

(2) الدباغ ، **مناقب الدهماني** ، جI ، ص110.ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص149 .

(3) ابن حوقل ، **نفسه** ، ص50 . الادريسي ، **نفسه** ، ص 115. ابن سعيد ، **جغرافية** ، ص 143 .
Feuille de Tabarca , n. 11 , In **A.A.T.**

(4) اليعقوبي ، **نفسه** ، ص 50. الادريسي ، **ن.م.** ، ص 116. ابن سعيد، **ن.م.** ، ص 143.

(5) البكري ، **نفسه** ، ص 89، 94.

السادس هـ. وفي القرن الموالي ، يعقوب بن سعيد الجندوبي ، وأبو يوسف الجندوبي، ولعلهما علم واحد (1).

مما يجعلنا نفترض أن جندوبة هي قبيلة نزلت بهذه الجهة منذ تلك الحقبة ، وقد استقر بعض أفرادها بمدينة تونس . وهي قبيلة بربرية ، تحمل نفس إسم قرية بجبل نفوسة ذكرت منذ القرن الثاني هـ (2).

وهذا التطابق ليس نادرا ، إذ أن قبيلة شارن المعروفة في الشمال الغربي تحمل نفس التسمية لقرية بجبل نفوسة . ومعلوم أن السلطان أبا فارس تزوج إحدى بناتها ، وقبل ذلك نسب ابن راشد إحدى رواياته الى عبد الله بن برمي الشارني (3).

قبيلة بربرية أخرى بجنوب افريقية عرفت امتدادا لها بالسهول العليا لوادي مجردة ، وهي هوارة ، وذلك منذ الحقبة الوسيطة الاولى ، وخاصة بطن وشتاتة ، الذي شكل وطنا خاصا به ، تميز بانتاج وافر للحبوب المخصصة لدعم الاندلسيين في محنتهم مع القشتاليين في القرن التاسع هـ (4).

وقد ازدادت هذه الخارطة القبلية ثراء ، نتيجة انتشار القبائل العربية بهذه السهول، وخاصة منها هذيل ودريد وحكيم وغيرها . وقد حصل منذ تلك الحقبة الامتزاج بين القبائل البربرية المتعربة والعربية ، حتى أضحى من العسير التفرقة بين الاثنين في العهد الحديث (5).

– *بلاد هوارة :بلد القرى الجبلية :*

لم تتمكن عديد المراكز الحضرية من التواصل ، بعد المنعرج التاريخي في القرنين الخامس والسادس هـ ، باستثناء بعض المدن مثل الأربس والكاف و كسرى و تبسة .

ومما له مغزاه أن هذه المقاطعة الادارية (الوطن) لم تتسم باسم مدينة ، إنما ارتبط مصيرها بقبيلة هوارة، شأنها في ذلك شأن وطن وشتاتة .

ويصح القول في هذا الصدد أن الاقليات الحضرية المتبقية كانت عبارة عن قلاع محاطة بالبدو . لكنها ظلت نقاط ارتكاز هامة للدولة الحفصية عامة ، ومدينة تونس

---

(1) **مناقب الدهماني** ، جI ، ص 10. **مناقب صلحاء تونس** ، مخ12544 ، ص73 ب . الصباغ ، **مناقب أبي الحسن الشادلي** ، ص24 .

(2) لا نعتقد أن جندوبة هي قبيلة هلالية كما ذهب الى ذلك ح ح عبد الوهاب ، واتبعه في ذلك الكعاك و عمر السعيدي . انظر : الشماخي، سير (الجزء المطبوع)، ص40 .
O. Saidi, Le peuplement de la Haute vallée de la Medjerda In **R.T.S.S.**,1975, p. 201-206 .

(3) الشماخي ، **نفسه** (الجزء المطبوع)، ص 178. ابن راشد ، **الفائق** ، جIV ، ص17 ب .
وقد ذكرت الوثائق المعاصرة قبائل عدة تحمل أسماء بربرية ، مثل الخزارة وأولاد سدراوورغة وغيرها.

(4) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 116.

(5) ذكرت في العصر الحديث رقبة ولاد حكيم شرقي غارديما ، والاعشاش وأولاد دريد (ونسب اليهم : بنو زريق وأولاد عرفة وجوين) . انظر : Notes sur les Tribus de la Régence In **R.T.**, 1902, p.6-7.

خاصة ، لتوفيرها كميات هامة من الحبوب للحاضرة ولعمقها الاستراتيجي إذ توجد على المسلك الرئيسي المتجه نحو البلاد الغربية ، وقد استقرت حاميات عسكرية وولاة بكل من تبرسق والأربس وكسرى . فما هي إذن أهم هذه النقاط الحضرية؟

* تبرسق: شيد هذا الحصن البيزنطي القديم شرق التلول العليا، على ارتفاع 500 م وبعد أن كان يمسح 1,76 هك ، عرف اتساعا من جهة الشمال في العصر الوسيط ، وتحديدا في الحقبة الموحدية – الحفصية ، إذ لم يذكر هذا الموقع قبل ذلك التاريخ. فقد استقر به الموحدون ، وتدعم تواجدهم به في العهد الحفصي، بعد أن عينوا على رأسه عاملا وقاضيا (1).

وفي الاخير ، فاننا نظل مترددين أمام اعتباره مركزا لبلاد هوارة الشاسعة الارجاء، وذلك لوجود مدينة أخرى ذات عمق استراتيجي هام ، وإن كانت أقل حظا في الاستمرار من الاولى ، وهي الاربس .

* الاربس : هي بدورها مدينة قديمة ، شيد سورها في عهد جستينيان ، وأكمل سنة 544م . وتبلغ قياساته 215 x 200 x 180م، ومساحته : 4,09 هك . وأشير في القرن الرابع هـ / Xم الى هذا السور المبني من حجارة ، غير أن الادريسي تحدث عن «سور تراب جيد» بالاربس، وهو ما يعني بناء سور ثان للربض المحيط بالحصن القديم . و يوجد داخله عينان: عين رباح وعين زياد . وبها جامع ما زالت آثاره قائمة الى الآن وخاصة منارته المبنية بالصخر المنجور(2).

واكتست هذه المدينة أهمية فائقة لوجودها في ملتقى الطرقات الرابطة بين القيروان والحضنة (طريق الجبال) ، وبين تونس وبلاد الزاب . وبالتالي ، فقد عدّت منذ العهد الاغلبي نقطة ارتكاز عسكرية واستراتيجية هامة ، دخل منها جند كتامة للسيطرة على رقادة . وكانت، على حد تعبير ابن الاثير ، باب إفريقية (3).

---

(1)ابن ناجي ، **معالم** ، جIV ، ص 147، 149. ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 598،712.
Brunschvig , **Hafsides** , T I ,p. 302 . Pringle , **op. cit.** , p. 243-244 .

(2)اليعقوبي ، ن.م، ص 349. ابن حوقل ، **ن.م.** ، ص 86. البكري ، **ن.م** ، ص 46. الادريسي ، **ن.م** ، ص 117. قال عنها ابن الشباط (**صلة السمط**، مخ 18565، جII، ص 14 : « وبمدينة الاربس جامع حسن وصومعة قديمة البناء بالصخر المحكم لا قسي لدرجها ، بل درجها صخر كله ، من أصلب الصخر ومرتب بعضه فوق بعض ، فأعنى ذلك عن قسي لدرجها وهذا يدل على إحكام وقوة صنعة » .وقال حول سورها : « وفيها سور بعض أساسه صخر محكم البناء من عمل الاوائل» وبها عمد عظيمة من عمل الاوائل » .
Cambuzat , **op. cit.** ,T II ,p. 240-245 . Pringle , **op. cit.** ,p. 205 -207 .

(3) الطالبي ، **الامارة الاغلبية** ،الفهرس . ابن الاثير ، **الكامل**، جVI ، ص302 .

وهي كذلك بوابة التلول ، إذ أن وصول بني هلال الى أبة والاربس سنة 445هـ / 1053م قد فتح الباب واسعا لانتشارهم في سهول مجردة (1).

ومنذ العهد الموحدي ، أصبحت ترنو ببصرها نحو مدينة تونس والقبائل البدوية في بلاد السباسب والصحراء ، حتى تحولت في العهد الحفصي الى المزود الاساسي بالحبوب للحاضرة وللاعراب الوافدين من الصحراء لوجودها في سهل أفيح ، اشتهر بادخاره للحبوب . وبمناسبة زيارة ابن الشباط لها سنة 651هـ / 1253م ، كتب يقول : « **مدينة الاربس كثيرة الخير وبها أسواق حافلة وحمام، دخلتها عام واحد وخمسين، فعجبت من رخائها ، فسألت بعض شيوخها عن سعر الطعام بها، فذكر أن قفيز القمح بسبعة عشر درهم وقفيز الشعير بسبعة دراهم** » .

وإذا ما أخذنا بقول الوزان ، فان هذه العلاقة المزدوجة مع البدو والحضر ، وما يعني ذلك من تعرضها لعسف ضرائبي من السلطان والبدو قد ساهمت في تراجع عمرانها، واحتضارها البطيء الذي تم في أواخر العصر الوسيط . ومما سارع في ذلك ، تحول المركز الاداري في العهد العثماني الى مدينة الكاف ، بعد أن كانت الأربس مقرا للقضاء ولحامية عسكرية (2).

* أبة : تقع توأمة الاربس في الجنوب الغربي منها ، على بعد 16كم ، وعلى مرتفع يبلغ نحو 620م ، ولئن أصبحت الاولى في العهد الحفصي بوابة تونس ، فان الثانية كانت ممرا للقبائل السليمية نحو الشمال ومطمورة حبوبها .

وقد اشتهر سهل أبة المختلط مع سهل الاربس بخصوبته ، وبانتاجه للزعفران والحبوب . وهو ما يفسر أنها تحولت في بداية العهد الحفصي الى محل نزاع بين رياح وبني سليم ، الذين دفعتهم السلطة للإستيلاء على المنطقة ودحر الرياحيين من إقطاعهم القديم (3).

كانت هذه المدينة محاطة بسور من تراب (الطابية) في القرن IVهـ / Xم . لكنها تضرّرت من الاضطرابات الحاصلة خلال القرنين المواليين ، حتى سيطر عليها الخراب ولم تسترجع أنفاسها الا في العهد الحفصي الأول ، وقد اتخذ التعمير شكل قرى صغيرة محصنة، أشبه ما تكون بضيعات زراعية ، أطلق عليها قصر . وبلغ عدد

---

(1) Idris , **Les Zirides** , TII ,p471.

(2) ابن الشباط، **نفسه** ، ج II، ص 14. العمري ، **مسالك** ، ص 84. الوزان ، **وصف افريقيا** ، جII ، ص 65.

(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص146 . ابن ناجي، **معالم** ، جIV ، ص 196(ذكر المؤلف انه تولى قضاء بلد الاربس ، بعد أن كان قد عين بجربة وقابس وسوسة وباجة ، وقد تحول بعدها الى تبسة) .

القصور التابعة لأبة في بداية القرن الثامن هـ مائة وخمسين . وهو رقم قريب لما قدمته الوثائق سنة 1535 م، حول عدد القرى الواقعة بين باجة والقيروان : مائتين(1).

* شقبانرية : هي مدينة الكاف حاليا . تقع في نقطة التقاء المسلكين المنطلقين من تونس في اتجاه قسنطينة وتبسة ، على شرف يعلو سهول السرس والاربس ووادي ملاق . اعتبرت في العهد الاغلبي إحدى حصون الاربس التي استقرت بها حامية عربية و أثناء اضطرابات القرن الخامس هـ ، تمكن عباد بن نصر الله القلاعي من الانفراد بالسلطة بها والاحتماء من الانتشار الهلالي . على أن قبيلة هوارة استطاعت أن تضع يدها على هذه المدينة في العصر الحفصي .

وظل هذا القصر التابع للأربس ممتنعا عن البدو . وقد جاء وصف ابن الشباط له أدق وصفا عثرنا عليه ، إذ قال : **« أما مدينة شقبانرية فانها مدينة أولية قديمة من بنيان الاول وهي في سند وبها عين ماء ينفجر من صخر وينبعث الى صهريج من حجر محكم البناء من عمل الاول، فاتقن عمل واحصن أحكام ، ويخرج من ذلك الماء ساقية تمشي في صخر وينصب بعضه على صفاح يسمع له دوي ، وحولها البساتين يسلك بينها الى المدينة المذكورة وبها آثار من بنيان الاول عجيبة وباب المدينة عليه سطر مكتوب بالقلم الاول لا يدرى ما هو ..وصخر سورها مع عظمها في غاية الاحكام والالحام ، وبها مجلس على يسار الداخل اليها بحنايا وأقباء عجيبة ، وبقرب باب البلد مسجد هو بين الباب وبين العين المذكور . أما جامعها فهو في أعلى السند يشرف على أقطارها ونواحيها »** (2).

* قلعة سنان : يبدو أنها توافق قرية السكة المذكورة في كتب المسالك الاولى. وهي تقع على مسيرة يوم من أبة ، وتعتبر من بين حصونها الشامخة ، التي شهدت معارك عدة في العهد الحفصيْ. وصفها العمري بما يلي:

« قصر لا يعرف على وجه الارض أحصن منه ، على رأس جبل منقطع من سائر الجبال ، ليس في رأسها ماء الا المطر ، بها خمس مواجل نقر في حجر .. ويرتقى اليها من سلم نقر في حجر، طوله 190درجة ، وبأسفلها قصبة بها عين ماء » (3).

---

(1) الادريسي ، نفسه ، ص 117. العمري ، **مسالك** ، ص84 (ذكر أن لأبة قصور مجتمعة يبلغ عددها 150).
Cambuzat , **Les cités du Haut** Tell ,T II , p. 239-240
De Primaudaie , Documents Inédits .. ,In **R.A.** ,1877 , p. 219 .

(2) ابن الشباط، **نفسه** ، مخ 18565 ، ج IV ، ص3 ب ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 349. العمري ، **مسالك** ، ص 84. ورد ذكر السرس في مدارك عياض ، أنظر : الطالبي ، **تراجم أغلبية** ، ص 74.

(3) Cambuzat , **op.cit.** ,T II,p. 193-196 . البكري ، مسالك ، ص (وصف قلعة السكة و ارتفاعها) . العمري ، مسالك ، ص 84. القلقشندي ، **صبح الاعشى** ، ج V ، ص 108. ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV، ص34 (ذكر أن أبي رحمة غيث ، من بني حكيم أغار على بعض أهل القلعة) .

* جامة : تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من بلاد هوارة ، وعلى الطريق الرابط بين مدينة تونس والبلاد الغربية . وقد ظلت عامرة في العهد الحفصي (1).

*كسرى : هي من قصور هوارة الواقعة بدورها في شرف حصين ، أطلق عليه جبل كسرى . وأكتست بدورها أهمية استراتيجية فائقة ، إذ دارت بها بعض المعارك ، وكان الموحدون قد عينوا بها واليا حافظا في بداية القرن السابع هـ (2).

* تيفاش : مدينة قديمة ، ذات حصن بيزنطي قياسه : 250 x 130م ، ومساحته 2,25 هك . قال عنها الادريسي : **« مدينة أزلية قديمة عليها سور قديم بالحجر والجيار، وبها عين ماء جارية ولها بساتين ورياضات . وأكثر غلاتها الشعير »** (3).

وقد اكتست أهمية بحكم موقعها على طريق الجبال الرابط بين المسيلة والقيروان لكن تراجع أهمية هذا المسلك من جهة ، والنزاعات الدائرة بين قبائل بني هلال وبني سليم حول تملك هذه البلاد في القرن السابع هـ / XIIIم قد أديا الى تضرر هذه المدينة، والى انتقالها في مرحلة لاحقة الى سلطة قبيلة هوارة ، التي جعلت منها مخزنا للحبوب .وفي سنة 915هـ / 1509م ، قام السلطان الحفصي بتخريبها ، بعد أن أظهر أميرها الهواري المسمى النسر فتوة في منازعة العرب وقتل أمير قسنطينة (4).

وبالتالي، استطاعت قبيلة هوارة بمختلف فروعها (وشتاتة ، بنيْ شارن ، ونيفن، الخ) أن تنتشر في هذا المجال، الممتد على طول الظهرية التلية ، من تيفاش الى الهوارية، منافسة في ذلك قبائل بني سليم وبني هلال، وحتى السلطة المخزنية التي احتاجت الى بعث حملات لتأديبها سنة 636 هـ / 1238م ، و915 هـ / 1509م .

ولئن ذكر البكري قبائل مرنيسة وضريسة حول أجّر ، فقد أشار ابن خلدون الى سيطرة هوارة، بمختلف فروعها على التل : إذ نزل القياصرة حول أبة والاربس ، وكانت الرئاسة فيهم لبني زعزاع و حركات فيما انتشر البسوّة ، وعلى رأسهم أولاد سليمان بن جامع ، بين تبرسق وباجة . أما ورغة ، فإنهم اختاروا الاستقرار بالجبل.وقد ذكر البرزلي أن جبال برقو وكسرى والسرج تنتمي الى هوارة (5).

---

(1) العمري ، **مسالك** ، ص 84. عثر في آثار جامة على عدد هامّ من الخزف الإسلامي.

(2) **مناقب الدهماني**، ج I، ص44 ب (ذكر الوالي الحافظ بكسرى) .ابن عذاري ، **البيان** ، ج III ، ص 154. العمري ، مسالك ، ص 84.

(3) ابن حوقل ، ن.م. ، ص 84. الادريسي ، ص 57، 91، 96، 120 .
Pringle , The **Defense of Byzantine Africa from Justinian to the Arab conquest** , PartI , Oxford 1981 ,p. 272 .

(4) الوزان ، **نفسه** ، ج II ، ص 62-63.

(5) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 349. البرزلي ، **نوازل** ، ج I، ص 1277 ، ج II ، ص 1152 (ظهور الدراهم الزيوف ببلاد هوارة) . كذا في الونشريسي، ج III، ص 280 ، ج VI ، ص 75.

و منذ القرن السادس ظهرت بعض النزعات الاستقلالية مثل انفراد عياد بن نصر الله القلاعي بالحكم في الاربس والكاف قبل قدوم الموحدين في سنة الاخماس ، على أن السلطة الحفصية حرصت منذ البداية على السيطرة على هذا المجال القبلي الزراعي، لأهميته الاقتصادية والاستراتيجية ، فتحولت تبرسق الى مقر لعديد الأسر الموحدية من تنمال وغيرها ، حتى أن أحدهم عبد الحق تولّى خطة شيخ الموحدين في عهد السلطان أبي حفص عمر .كما ركزوا حامية عسكرية بالاربس ، لمراقبة تحركات البدو الوافدين على بلاد إفريقية للحصاد والرعي (1).

على أن ذلك لم يمنع من حدوث حركات عصيان لهذه القبيلة : ففي سنة 636 هـ، على إثر رفضهم لدفع الضرائب ، جهز أبو زكريا حملة ضدهم ، ولاحقهم بمقربة من جبل أوراس (2).

وفي نهاية القرن الثامن هـ ، غزت أسواق مدينة تونس الدراهم الهوارية الزيوف، حتى طلب العلماء بقطعها .

و سبق أن ذكرنا حملة السلطان ضد أمير هوارة بتيفاش .

وعند قدوم الاسبان سنة 1535 م ، أصبح فرع الحنانشة مهيمنا على هذا المجال، وكان على رأسهم شيخان :

– مرداس بن نصر بن أحمد : محلته بناحية تبسة ، ويجنّد 1000 فارس .

– عبد الله بن صولة : مجاور للسابق ، وله 500 فارس (3).

وفي الجملة ، فان بلاد هوارة شهدت انتقالا نوعيا من التمدين الى التبدّي طيلة هذه الحقبة ، حتى أصبحت تمثل ناحية مدينة تونس البعيدة التي توفر لها الحبوب والنحاس وغيرها . ولذا حرصت الحاضرة على تثبيت نقاط ارتكاز داخل هذا المجال الهواري ، في كل من تبرسق وكسرى والاربس .

---

(1) الوزان ، **نفسه** ، ج II ، ص 84. مارمول ، **إفريقيا** ، ج III ، ص 23.

(2) الحميري ، الروض **المعطار** ، ص144 .

(3) راجع حول الدراهم الزيوف ، البرزلي ، **مسائل** ، ج II، ص 113. ويبدو أن اقدم ذكر للحنانشة يرجع القرن السابع هـ ، عندما وقع الحديث عن حناش من هوارة الذي حارب بني سليم بابة . راجع : ، ابن خلدون ، **نفسه** ، ج VI ، ص 829 . . De Mendoza , **op. cit.** ,p. 219

I. وسط إفريقية : بين التبدّي وإعادة التعمير :

1) القيروان في محيطها البدوي : الاستفاقة الصعبة :

أ) المدينة :

تعتبر القيروان أقدم مصر أسّسه العرب ببلاد المغرب والاندلس سنة 50 هـ ، في موقع متميز تصل اليه القوافل الوافدة من المشرق وبلاد السودان . وبعد أن تحولت الى مركز لانتاج البضائع وتوزيعها ، تجاوز إشعاعهاإفريقية ، كي يشمل كامل بلاد المغرب.

وقد شهدت المدينة خلال القرون الاربعة الاولى امتدادا كبيرا لاحيائها وظهور مدن أميرية حولها ، مثل العباسية ورقادة وصبرة المنصورية . فاتسعت أسواقها وتعددت المنشآت المائية بها ، فأجرى المعزّ الفاطمي الماء الى المدينة من نهر عين أيوب وفكر في تحويل ماء زغوان اليها، وتركز حولها مجال أول للبستنة وثان للزراعة امتد الى بلاد الساحل (1).

غير أن الفاعلية الاقتصادية للمدينة تراجعت منذ بداية القرن الخامس هـ بفعل عوامل عديدة ، أهمها :

– التطور الحاصل في الاقتصاد العالمي والمحلي ابتداء من تلك الحقبة ، وخاصة على إثر بروز المدن التجارية الاوروبية في القرن السادس هـ .

– صعوبات التجارة الصحراوية ، على إثر النزاع الصنهاجي – الزناتي في القرن الخامس هـ و التضييقات التي قامت بها مملكة مالي على التجار المغاربة في القرن السادس هـ (2).

– تقويض أركان الاقتصاد التقليدي بالقيروان ، وإتلاف البنية الاساسية له ، من طرقات، ومنشآت مائية وضياع وغيرها في القرن الخامس (3).

ونتيجة لكل ذلك ، انتقل مركز الاستقطاب الاقتصادي الى التل الساحلي ، وتحديدا الى مدينة تونس ، وريثة قرطاجنة .

وعلى إثر هجرة عدد كبير من سكانها الى مدن إفريقية والمغرب ، أحيط جزء

---

(1) حول التطور الزراعي في تلك الحقبة ، راجع : طبقات أبي العرب ، المالكي ، **رياض النفوس** . القاضي النعمان ، **المجالس والسايرات** ، ص 60، 331-332، 427 .

(2) القري ، **نفح الطيب** ، ج III ، ص 105-107.

(3) تحدث برانشويك (**الدولة الحفصية** ، ج I ،ص357) عن كارثة وشرخ كبير في تاريخ المدينة مرده الهجرة الهلالية ، وقد سبق أن ناقشنا هذا الرأي .

ضئيل فقط من المدينة بسور من الطابية (« من تراب » حسب عبارة الادريسي) .

وأصبح الحديث عن القيروان المختصرة التي تنكرت حتى لعلمائها ، تاركة منازلهم خارج السور . وكان في ربيع الاول سنة 523 هـ ، مهددا بالاندثار، بعد أن تداعت سقوف الأبراج، فوقع ترميمها بالجص والآجر . كما تعرض في العهد الحفصي عديد المرات للترميم والاصلاح، الذي قام به بعض المتطوعين من مالهم الخاص ، أو مال الاوقاف المحبسة عليه (1) .

ومثّل هذا المجال النواة الجديدة للمدينة التي بدأت تنهض من سباتها بصعوبة إبتداء من مطلع القرن السا بع هـ . لكن هذه النهضة الثانية اقترنت شديد الاقتران بعنصر البدو ، سواء أكانوا من الاعراب أو من هوارة النازلة في الجبال الغربية .

وانطلاقا من هذه المعطيات الجديدة ، بدأت المدينة في رفع أنقاضها وإعادة تنظيم مجالها الزراعي والبدوي ، لكن هذه العملية كانت في بدايتها عند زيارة الخليفة المنصور لها سنة 583 هـ، إذ أبدى تعجبا لما حل بها من طمس وتراجع (2).

وقد ظل زائروها متفجعين مما حل بها : فقال ابن سعيد إنها تصلح لرعي ابل الاعراب، وأضاف العبدري أنها **« وضعت في سبخة قرعاء لا ماء بها ولا مرعى»** ،وأن **« أهلها جفاة الطباع ، مالهم من رقة الحضارة باع ، وعربانها استوى لديهم الصالح والطالح »** . ولم يغير عبد الواحد المراكشي نظرته اليها ، فهي **« خراب الى اليوم فيها عمارة قليلة ، يسكنها الفلاحون وأرباب البادية »** . أما ابن عبد الباسط ، فانه اقتصر على ذكر المقبرة القديمة بها . وفي سنة 922 هـ ، قال الوزان إنها امتلأت بالسكان ، لكن بكيفية بائسة ،وليس فيها سوى صناع فقراء يشتغلون في دباغة الجلود وصناعة الملابس الجلدية التي يبيعونها بمدن الواحات .

على أن وصف بيري رايس سنة 1525م جاء أقل تشاؤما ، إذ اعتبرها مدينة جميلة مبنية بالآجر الأحمر، وهي تقع وسط سهل شاسع يزرع به قصب السكر(3).

ومجمل القول ، ظلت البداوة ملازمة للمدينة في نسيجها العمراني وهيئتها طيلة العهد الحفصي ، وهو ما حدا بنا للبحث عن الاصول البشرية لسكان القيروان.

---

(1) أورد ابن ناجي (**معالم** ، جIII، ص 211) رواية مفادها أن منزل الفقيه السيوري ظل خارج السور المستحدث . انظر كذلك : الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII، ص 230.

(2) الادريسي، **نزهة المشتاق** ، ص 110–111. ابن عذاري ، **البيان** ، جIII ، ص190 .

(3) ابن سعيد ، **جغرافية** ، ص 144. العبدري ، رحلة ، ص 64، . المراكشي ، المعجب ، ص 502. ابن عبد الباسط ، **رحلة** ، ص211 . الوزان ، **وصف إفريقيا** ، ج II، ص 87–91. وذكر بيري رايس خارجها زاوية أبي زمعة البلوي ، وهو ما يأتي دليلا على أنها كانت قائمة قبل بناء حمودة باشا لها ، خلافا لما جاء في رأي براشويك راجع Soucek , **Tunisia**, p. 360:
Brunschvig , **Hafsides** , TI ,p. 360 .

– أهمية العنصر البدوي داخل المدينة : إن الممعن في البنية البشرية للمدينة في العهد الحفصي يخلص إلى أن نسبة كبيرة من أهلها ترجع أصولها الى البادية الزراعية أو القبيلة المحيطة بها . ولقد اخترنا لذلك مقياسا هاما ، وهو نسبة العلماء الذين أورد ابن ناجي ذكرهم بين القرنين السابع والتاسع هـ ، فكانت تتوزع كالآتي :

– الوافدون على المدينة من القبائل العربية

الاصل القبلي	أسماء العلماء
دهمان	– أولاد أبي يوسف يعقوب الدهماني
زعب	– عبد الرحمان بن كامل الزعبي
	– أبو يوسف بن يعقوب الزعبي
حكيم	– أبو رحمة غيث بن قاسم الحكيمي
	– أبو سعيد خلف الله بن إسماعيل الحكيمي
بنو وائل (من حكيم)	– ميمون بن زيد الكرفاح الوائلي
بنو حبيب	– أبو زيد محمد بن ثغر الحبيبي
غير محدد	– أبو الحسن علي بن عبد الله العبيدلي
	– أبو محمد عبد الكريم بن إسماعيل الارنبي
	– أبو محمد عبد الله بن محمد الحجاجي

– الوافدون على المدينة من القبائل البربرية

هوارة	– أبو الحسن علي بن عبد العزيز الهواري
	– أبو يوسف إسماعيل بن محمد الهواري
	– أبو طاهر إسماعيل بن محمد بن جابرالهواري
مسراتة (من هوارة)	– أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي
	– أبو اسحاق ابراهيم بن عبد السلام المسراتي
	– أبو سعيد فرج بن عبد الله المسراتي
لواتة	– أبو سعيد خليفة بن حمزة اللواتي
نفوسة	– أبو الربيع سليمان بن سالم النفوسي
غريان	– أبو سمير عبيد بن يعيش الغرياني

يزليتن	أبو عبد الله محمد اليزليتني
تكودة ؟	علي الشريف عرف التكودي
جبل وسلات	أبو العباس أحمد بن سلامة المرساوي النحالي

- الوافدون من قرى إفريقية

بنو معروف (بالمهدية)	أبو علي عمار المعروفي
منزل قديد (بالساحل)	أبو علي سالم بن أبي عثمان القديدي
صدف	أبو عفيف صالح بن عبد العالي الصدفي
بلاد قمودة	أبو عبد الله محمد بن عبد الله القمودي

- الوافدون من المغرب و الاندلس

دكالة	أبو عبد الله محمد بن سحنون الدكالي
	أبو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد القادر الدكالي
هسكورة	أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز الهسكوري
جيان	أبو الحسن علي بن أحمد البلاغ الجياني (1)

وفي الجملة، فقد كانت نسبة الوافدين الجدد على المدينة من ناحيتها وسائر البلاد الافريقية والمغربية هامة. وكان من أهمهم المجموعات البدوية « المندمجة» (أو التائبة حسب عبارة المصادر)، مثل بني دهمان من رياح النازلين قرب المسروقين (سيدي الهاني) وزعب السليميين المستقرين ببني جرير وصدف (بالناحية الجنوبية الغربية للمدينة) وحكيم، وخاصة بني وائل المنتشرين شرق القيروان بين سوسة والجم ، وبني كعب النازلين بسهل القيروان.

ولم تقتصر الهجرة الى القيروان على الصلحاء والعلماء ، إنما شملت فئات أخرى من الأجراء و التجار والحرفيين. وخصّت كذلك القبائل البربرية القاطنة حوالي المدينة أو بجنوب إفريقية . وقد ذكر من بينها قبيلة هوارة ، التي استقرت بعض فروعها بجبال برقو والسرج وتلول إفريقية ، وقبائل لواتة ونفوسة وغريان ومزاتة بجبل وسلات الذي ظل قلعة ممتنعة .

كما التجأ بعض سكان القرى الساحلية الى الهجرة الى القيروان ، نتيجة

---

(1) راجع هذه الاسماء في : ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV.

الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانوا يعانون منها ، وبخاصة الضغط البدوي و عمليات القرصنة . وقد ذكر من بين أهل هذه القرى منزل بني معروف ومنزل قديد وصدف .

وفي الجملة ، فان كثيرا من القرى قد اندثرت وفق عملية كيميائية بطيئة دون أن تترك شاهدا على ذلك ، باستثناء ما يمكن أن يثبته العمل الاثري . ونتساءل في هذا الصدد ، إلى أي مدى تمكّنت المدن من الانتفاع من هذه العملية ؟

- تطور العمران بالقيروان في العهد الحفصي :

ظل امتداد المدينة وتوسعها بطيئا طيلة هذه الحقبة ، ولم يتجسد الا في ظهور ربض ذي طابع بدوي قطنه بعض المرابطين من أولاد حكيم ، منذ القرن السابع هـ

وقد ظل عامرا الى حد القرن التاسع هـ ، رغم محاولات السلطة المحلية ترحيل هذه العشائر البدوية (1).

أما المدينة « المختصرة » التي شيدت في النصف الثاني من القرن الخامس هـ على أنقاض المصر الممتد سابقا ، فانها ظلت على حالها في أواخر العصر الوسيط : فقد حافظ كل من باب تونس وباب نافع على إسميهما ، على أنهما تحولا من مكانهما الأصلي . وعوض باب الخوخة باب أبي الربيع القديم ، وظهر باب الجلادين الذي أصبح يستقطب أهم نشاط اقتصادي للمدينة ، وهو دباغة الجلود . أما الباب الخامس المسمى بالجديد ، فيبدو أنه يرجع الى العهد الحفصي (2).

وقد ظلت أنقاض السور القديم ماثلة للعيان في العهد الحفصي ، فكان أبو محمد الهسكوري يقف كل يوم متأملا أمام أنقاض السور القديم الذي يصل الى حد ضريح أبي زمعة البلوي. أما السور الجديد، فانه شهد بدوره ترميمات عديدة ، بأموال الحبس أو نتيجة الاعمال الخيرية التي قام بها أبو محمد الرباوي الذي زاد

---

(1) لما خرجت محلة أبي العباس أحمد الى قفصة ، وجدت مساندة من طرف أبناء أبي يوسف الدهماني وغيث الحكيمي والقديديين .راجع ، ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 108 ، 150 ، 190-191 ، 202 ، 221 ، 138 ، 36-37.

(2) ورد ذكر كل من باب الجلادين وباب نافع وباب تونس في الصفحات التالية من : ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 28 ، 44 ، 48 ، 97 ، 13 ، 17 .انظر كذلك : Brunschvig , **op. cit.** ,TII ,p. 360 .

فـي ارتفاع الجدران ، والهسكوري الذي بنى فصيلا بباب نافع (1).

ولم يكن تعدد الزوايا دلالة على الطابع الديني للمدينة فحسب ، إنما ارتبط كذلك بطبيعة الهاجرين اليها والنازلين بها من الغرباء والمعدومين الذين احتاجوا الى مأوى . وقد اقترن انتشار الخرائب داخل المدينة وحولها بظهور عقلية تزهّد وتعبّد ، ساهمت في ترميم عدد من المساجد مثل مسجد الانصارين ومسجد السبت بربض الدمنة (قرب أبي زمعة البلوي) ومسجد الحبليّ وغيره. وقد انتصبت حارة للمرابطين داخل الاسوار نفسها ، وغير بعيد عن النباذين الذين كانوا يمارسون نشاطهم بمكان أطلق عليه النباذية (2).

وعانت المدينة من مشكل الماء ، بعد أن اندثرت الشبكة المائية القديمة التي أسسها الاغالبة والفاطميون باستثناء فسقيتي باب تونس وباب أبي الربيع ،حتى التجأ الناس الى شراء الماء من مواجل المساجد (3).

وارتبطت أسواق المدينة طيلة هذه الفترة بالطابع البدوي للمجال المحيط بها ، حتى أنها كانت تشهد حركية هامة في فصل الصيف ، عند قدوم قوافل البدو من الجنوب، محملة بالتمور وعارضة إنتاج الماشية ، من لحم وصوف وجلد ، على تجار أهل المدينة، لمقايضتها بالحبوب واللباس (4).

وباستثناء سوق العطارين ، فان بقية الاسواق كان لها ارتباط مباشر بالبادية . فقد وجدت داخل الاسوار عديد الرحبات للانتاج الزراعي ، منها : رحبة الزرع ورحبة الحطب الواقعة قرب باب تونس ، وسوق الزياتين الواقع قبالة الرحبة . وخلافا لما ذكره أحد الدارسين ، فان المدينة كان بها فندق للبقل في القرن الثامن هـ . كما انتصب بها سوق للحبوب ملكا للمخزن ولبعض الاعيان ، وقد شهد موقعه الانتقال من مكان الى أخر(5).

ومن المظاهر الدالة على تريّف المدينة أن سوق الحلفاوين انتصب داخل

---

(1) البرزلي، **نفسه،** مخ 4851، ج II ، ص 129ب . ابن ناجي، **ن.م.** ، ج IV، ص 48، 97.

(2) ابن ناجي، **نفسه** ، ج IV ،ص 121،92 . قام أبو الحجاج يوسف بن حسون بتعمير مسجد الانصار بعد خرابه ، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز الهواري بتعمير مسجد السبت ثم أعاد ترميمه البرزلي (البرزلي، ن.م.) .

(3) البرزلي ، **نوازل** ، ج II، ص 81.

(4) الوزان ، **وصف افريقيا**، ج II، ص 90-91.

(5) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 215،186 ، 231، البرزلي، **ن.م.**، ج III، ص 13 ب.
Brunschvig, **op. cit.** ,T I ,p. 365 .

الاسوار، وليس خارجها بالارباض مثلما كان الشأن بمدينة تونس (1).

ومن النشاطات الحرفية ما اقترن بصناعة الصوف ، ونسيجه (من زرابي وأغطية وغيرها) . وقد كان يوظف على منتجيه من البدو ضريبة عند الدخول الى المدينة ، أطلق عليها فائد الصوف ، قيمتها ربع درهم على كل جزة . ولعبت المدينة دور المخزن المجمع للصوف ، لتسويقه فيما بعد الى بلاد الساحل ، ومنها يوسق الى المدن التجارية الاوروبية الى جانب المواد المصنعة بالقيروان مثل النحاس. وقد ذكر في هذا الصدد تعرّض قوافل محملة بالصوف والجلود والنحاس الى القطع في اتجاه سوسة أو المحرس (2).

ومن الاسواق المرتبطة بهذه المادة الأوّلية ، ذكر سوق الحاكة وسوق الشواشين، الذي أخذ في القرن الثامن هـ مكان سوق الرهادرة (إو الرهدارية) المتخصص في بيع الكتان الوافد على المدينة من بلاد الساحل ، قال ابن ناجي في هذا الصدد :

« وسوق الرهادرة عندنا اليوم أصله للمخزن ، وكان خرابا ، وكان سوق الرهادرة للرعية الذي هو الآن للشواشين ومن معهم ، أمر من مضى من السلاطين ممن أدركناه أن يبنى ذلك الخراب حوانيت ، وينقل له أصحاب الرهادرة جبرا ، ونفذ ذلك ومن أراد أن يسكن خارجه ،ولو بقربه، لا يترك » (3).

أما النشاط الحرفي الاساسي الثاني ، فهو دباغة الجلود ، حتى أن بعض الرحالة اعتبرها ميزة أساسية للمدينة . ففضلا عن وجود أسرة هامة حملت إسم الدباغ، وقد تسمّى أحد المساجد باسمها، فإن الاسماء المرتبطة بالجلود كثيرة (4).

وقد وضعت دور الدبغ في فترة أولى داخل الاسوار ، ثم وقع نقلها خارجه لما تحدثه من تلوث . فكيف تم ذلك ؟

انتصبت دور الدبغ داخل الاسوار في القرن الثامن هـ ، رغم ما تؤدي اليه من تلوث وضرر، إذ كانت أوساخ الدباغة ونفاياتها توضع في السواقي المائية التي تصب خارج السور . على أن الامر زاد استفحالا في القرن الثامن هـ ، على إثر سدم السواقي القديمة للمدينة ، وعدم صلوحيتها ، بعد أن ضرب عليها بناء وأغلقت .فأصبحت النفايات تصب في مطامير داخل كل منزل أو حانوت .

---

(1) ابن ناجي، **نفسه** ، ج IV ، ص 150،146 ، 260.

(2) ابن ناجي، **معالم** ،ج IV ، ص 183. مقديش، **نزهة الانظار**، ج II ، ص 312.

(3) ابن ناجي، **نفسه** ، ج II، ص 37 ، ج IV، ص 91 ،185 . كما ورد ذكر الشواشين في وثيقة جامع القيروان بتاريخ 903هـ / 1497م .

(4) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV، ص 199،48–200 (من الاسماء المذكورة الجلاد وغدير الجلادين الواقع بين باب الجلادين وباب سلم وباب الجلادين وحوانيت الجلادين) .

وتبعا لذلك ، التجأ بعض العمال الى إخراج الدور المعدة للدبغ من داخل السور الى خارجه . على أن هذه الاجراءات لم يتقبلها الدباغون بعين الرضى ، فحاول كثير منهم الرجوع الى المدينة ، بعد مرور ثلاثين سنة من خروجهم منها. ورغم معارضة السكان المجاورين ، فان المشرع انطلق من مقاييس مختلفة لاقرار وجودها داخل الاسوار، منها عنصر الاقدمية للغسالة ،حتى أن شكوى الناس باحد الدباغين الموجودين داخل السور، والذي كان يخرج القنوات من سور البلد ، لم تجد نفعا ، لشهادة العرفاء بقدمها (1).

و يبدو أن مسألة تنظيم حرفة الدباغة ازدادت استفحالا في نهاية القرن الثامن هـ، على إثر إحداثات جديدة . وقد وقعت مسألة طرحت على البرزلي : **« وهي أن رجلا أراد أن يحدث غسالة يغسل فيها جلود الافرية بازاء دور الدبغ هذه ، على أن يخلط قناتها بقناة الدور المذكورة .و تضمن شهود أن ماءها يدفع الاتفال من دور الدبغ الى خارج البلد ، والتزم جميع ما يجب عليه معهم، فعملت »** (2).

ولئن قطعت هذه الغسالة على إثر تشكي الاجوار من الضرر ، فان صاحبها تولى القيام بترميم السور ، بعد أن أصبح في حالة متداعية ، أملا منه في الحفاظ على موقع العمل .

وافق ابن عرفة على هذه المقايضة : بناء دار دبغ داخل المدينة على أن يخصص نصف دخلها لترميم السور، دون اعتبار للمصلحة الصحية في منع التلوث .

على أنه من الواضح أن المدينة شهدت تطور التعمير منذ نهاية القرن الثامن هـ، وهو ما يفسر طرح مسألة حوانيت الدباغة من جديد .

وفي الجملة ، فان حركة التعمير كانت بطيئة طيلة العهد الحفصي ، يتخلّلها

---

(1) البرزلي ، **نوازل**،ج II، ص 1271 ، 292ب ، 300 ب، ج IV، ص 119 .

(2) نفسه ، مخ 4851، ج II، ص 1298: طرحت المسألة على ابن عرفة بهذه الصيغة : « سئل شيخنا الامام رحمه الله عن إعادتها ، ونص السؤال : جوابكم في خراب أحدثت فيه جوابي وجعل فيه غسالة لغسل الجلود واللبود ، وأحدثت في الخراب المذكور ساقية تخلط على ساقية دور الدبغ ، ويخرج معها من سور البلد الى مستقرها ، وأذن في ذلك سائر ارباب دور الدبغ الا رجلا إشترى نصيبا من خرائب خربة قاعة من دور الدبغ ،وأبى أن يأذن في إجراء قناة الخراب المذكور . فأراد من أحدث الغسالة المذكورة أن يجعل نصفها لسور البلد المذكور ، لشدة خرابه وأحتياجه الى الاصلاح وخوف الناس من غرره. .فهل يقبل ذلك منه(وترجع) الغسالة المذكورة لان لها خراجا كثيرا ، والناس في غرر من السور » .

من حين الى أخر ارتداد . وقد تولى سكان المدينة ، وعلى رأسهم شيوخها وعلمائها، القيام بهذه العملية . وظل الخراب سمة بارزة في ذهنية ذلك العصر، وسلوكياته. و انعكست على مستوى الملكية في وجود عدد من الاراضي المهملة : فقد ذكر الدباغ أن حفر الآجر الواقعة خارج القيروان هي من الخرائب التي لا يعلم لها ملك . وتحدث البرزلي ، قياسا على أنقاض قرطاجنة والساقية الزغوانية ، عن أنقاض صبرة المنصورية من أموال الشيعة والقيروان التي أعتبرت بمثابة اللقطة التي ضاعت من أصحابها . وقال في موقع أخر من كتابه إن أراضي القيروان التي جلا عنها أهلها بعد الهجرة الهلالية تعتبر ملكا للدولة ،« بمنزلة المال المجهول أربابه، حكمه للامام» (1). وهو ما يطرح تطور العلاقة بين المدينة وناحيتها .

ب) بادية المدينة : «وطن القيروان» :

شمل التراجع العمراني كافة المجال الزراعي الممتد من القيروان الى سوسة، والذي أصبح قفرا ينزله البدو بخيامهم و بماشيتهم . وتحوّلت قرى عديدة الى ركام من الاطلال والمنازل المهجورة ، من ذلك : قلشانة وممّس وزرود والقرن وطنباس والاصنام ورقادة وصبرة المنصورية وغيرها(2).

وبالتالي ، فقد أعيد تنظيم الخريطة العقارية والعمرانية المحيطة بالمدينة ، وتأسست حولها مجموعة جديدة من القرى التي عمل أهلها في الزراعات الكبرى والسقوية ، وفي غراسة الاشجار ، منتصبة حاجزا بين المجالين الحضري والبدوي ، ومحاولة تخفيف الضغط البدوي على المدينة (3).

وقد أطلقت النصوص على هذه المستقرات للمزارعين من البربر والاعراب تسمية بلد، وهي قرى للفلاحين المستقرين محاطة بأسوار من طابية (أو تراب)، ومزودة في الغالب بمسجد للصلاة وبسوق بدوية . وكان البلد الخاضع في كثير من الاحيان لسلطة شيوخ البدو مقرا لتجمع القبائل المحيطة به ، فيما ظل تأثير المدينة به ضعيفا ، حتى أن البعض منها كانت « لا تنالها الاحكام الشرعية»، حسب عبارة الفقهاء (4).

و حاولت المدينة استعادة ما أمكن لها من العقارات عن طريق مؤسسة الاحباس وإقطاعات السلطان الحفصي للقوى المتحالفة معه من علماء وصلحاء

---

(1) الدباغ ، **مناقب الدهماني**، ج I، ص 113. البرزلي ، **نوازل** ، ج III، ص 175 ، 1206.

(2) قارن ما ورد في مسالك البكري حول هذه المدن بما ذكرته بقية المصادر الجغرافية المتأخرة . ممس هي هنشير الدويمس حاليا ، وقد كانت تنطلق منها سواقي لتزود القيروان بالماء .وكانت تقع قربها قرية المستعين . راجع : Solignac , **Les Installations Hydrauliques**...op.cit.

(3) أنظر : البكري ، **مسالك** ، ص 32. Soucek , op. cit. ,p. 97 .

(4) البرزلي ، **نوازل**، ج1 ، ص 1277.

وشيـوخ البدو ورجال سلطة . وهو ما يفـسر ظهور الملكيـة الكبيرة المتـدة حول المدينة من جديد .

– *ففي الناحـية الجنوبية والغـربية* ، وخصـوصا في السهل الفـيضي لوادي مرق الليل وزرود، ذكرت مراكز زراعية عديدة ، أهمها :

* الهـوارب : تقع جنوب وادي مـرق الليل ، غـربي القيـروان .سكن بهـا أبو محمد عبد الله الجذامي في القرن الثامن هـ(1).

* بنو جرير : بلد عـامر في القرنين السابع هـ و الثـامن هـ ، يقع جنوب غرب القيروان، على تسعة أميال منها، قرب وادي مرق الليل وبلد البطمة .

* بلد البطمة :يقع على تسـعة أميال من القيـروان . ذكر به مسجـد النمصان وهنشيـر ضريسة، ومن علمـائه : عمر المديـوني وأبو عفيف صـالح الصدفي (ت 772هـ) (2).

* بلدة أولاد عبـد العالي : يبدو أن تسمـيتها اقـترنت بصالح بن عبـد العالي الصـدفي . وجد ت بهـا زراعة سـقوية ، لكنهـا خلت أثناء الطاعون الجـارف ، ثم عمرت من جديد في القرن التاسع هـ (3).

* هنشير الحلفاوين :يقع في السهل الفيضي لواد مرق الليل.

* بحيـرة لواتة : تقع فـي السهل الفـيضي لوادي مـرق الليل ، وتحمل حـاليا نفس الاسم (4).

* بلد المنية : يقع جنوب وادي زرود وقصر الماء . أطلق عليه منية الخيل ، لأن يزيد بن حاتم جعل به إصطبلات للخيل وحفـر به آبارا. وظل قرية عامرة في العهد الحفصي (5).

* بلد القصـيبة : يـقع في السهل الفيـضي لواد زرود ، ويسمى حـاليا ربطة القصيبة . به آبار عديدة . استقرت به بعض عشائر حكيم في القرن الثامن هـ (6).

---

(1) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV، ص 128 .

(2) نفـسه ، ج IV، ص 24 ، 45، 69 ، 167–184 . ابن رشيق ،**الانموذج** ، ص 189(ذكـر قرية صـدف على خمسة فراسخ من القيروان .وقد حافظت على نفس هذا الاسم : انظر خريطة الشريطة ، جنوب حاجب العيون.

(3) ابن ناجي ، **نفسه** ، جIV، ص 167.

(4) ابن ناجي، **نفـسـه** ، ص 141، 169. J. Despois , **Le Sahel et la Basse Steppe** .., Fig. 18, p.

(5) . 245 الرقيق ، **تاريخ** ، الفهرس . ابن ناجي، نفسه ، جIV ، ص 130،183–186 .
J . Despois , op. cit. , Fig. 18 , p. 245

(6) ابن ناجي، **نفسه** ، ج IV، ص 174

* بلد الجفنة : حـاليا هنشـير الجفنة ، كـانت به مزارع أهل القيـروان ،وكان عرضة لغارات الحجري من بني علي في القرن الثامن هـ (1).

* بلد الحـضـرمين (أو الضـرمين) : اندثـر في أواسط القـرن الثـامن هـ . وكـانت تنزل حوله عـشائر رياح المتـملكة لاقطاعـاتها التي أخـذت عليهـا الاحكار والاعشار(2).

* بلد أبي خلالة : أراض زراعية بناحية القيروان ، ذكر به بئر عجرود .

* بلد المهران : بلد عامر في القرن الثامن هـ ، به عدد كبير من الآبار.

* بلد الشـقـاف : مـجاور لمهـران ، به عيـون كثـيـرة . ولعله يناسب هنشيـر الشّقوف الواقع على وادي زرود، أو الشقافية الواقعة بناحية جلولا (3).

* الطارف : ذكرت قـرية بني الطارف منذ القـرن الرابع هـ. وكانت في العـهد الحفصي من بادية القيروان (4).

* بلد العلوين : يبعد عن القيروان نحـو 18 ميلا ، ويقع على طريق القيروان –المحرس . ويبدو أنه يناسب سيدي عمر بو حجلة . كانت هذه القرية محاطة بسور ، ويقع الوصول اليـها عن طريق باب البلد . استقـرت بها بعض العشائر السليـمية من زعب ، فيما كانت باديتها محاطة ببني رياح ، وقد وقعت بين الطرفين مناوشات . تأسست بها زاوية أبي يوسف يعقوب الزعبي، الذي تولى قضاء الجماعة (5) .

– *الناحية الشماليـة والغربية لوطن القيروان* :تمتد هذه الناحية حتى المناطق الغابية بهبيرة التي كانت تعيش بـها بعض الحيوانات البرية مثل الغزال . وكانت تنزل غربها بعض بطون الكعوب (6) .

وقد عـرف عدد هام من المواقع المذكورة في الحـقبة الوسـيطة المبكرة الاندثار ابتداء من القرن الخامس هـ، وطيلة القرن السادس هـ . وأهمها :

– القرن : تقع حاليا بعـقبة الشرفاء ، غير بعـيد عن طريق القيروان –جلولا . وقد ظل قيروان معاوية بن حديج قائما في القرن الثاني هـ ، وربما بعده . ولعبت القرن دورا فـاعلا في معركـتين حاسمتين : الاولى بين الدولة الامـوية والخوارج

---

(1) . ابن ناجي، جIV ، ص 213، 219 .
Brunschvig , **Hafsides** , TI ,p. 304 . Carte Topo. de Tunisie , Feuille de Kairouan .

(2) ابن ناجي، **نفسه** ، جIV ، ص 117، 168، 244.

(3) ابن ناجي، **نفسه** ، جIV ، ص243–244 . (4) ابن رشيق ، **الانموذج** ، ص 167. ابن ناجي، نفس الاحالة .

(5) ابن ناجي، **نفسه** ، جIV ، ص 166–171. مقديش ، نزهة **الانظار** ، ج II ، ص 313. كانت الزوايا تؤمن خفارة القوافل التجارية ، وكانت زاوية الزعبي لها فاعلية كبيرة في هذه الجهة ، لان الشيخ كان «مسموع الكلام عند عرب افريقية وغيرهم » .

(6) ابن ناجي ، **معالم** ، جIV ، ص60 .

الصفرية سنة 124هـ / م والثانية بين الاعراب الهلاليين و الدولة الموحدية سنة 556هـ (1)

– جلولا : تقع هذه المدينة القديمة على طريق الجبال ، وقد ظل حصنها البيرنطي قائما في العهد الأغلبي . وكانت محاطة بقبائل ضريسة في القرن الخامس هـ ، ثم نزلت حولها قبائل الكعوب . ورغم تراجع عمرانها ابتداء من القرن السادس هـ ، وعدم ذكر النصوص لها ، فالظاهر أن إنتاج قصب السكر الذي عرفت به في العصر الاغلبي تواصل في العصر الحفصي (2).

– أجّر : تقع في نفس الطريق، 7 كلم غرب الوسلاتية . وقد كانت قرية كبيرة في الحقبة الأولى ، وظلت كذلك الى حد أواسط القرن السادس هـ ، تاريخ اندثارها نتيجة النزاعات بين الموحدين وبني غانية ، وتراجع فاعلية القيروان وطريق الجبال(3) .

– مدن *السباسب العليا (قمّودة الغربية)*: لم يبق من المدن السباسبية سوى سبيبة، أما سبيطلة فقد أصبحت خرابا حسبما شهد به ابن الشباط ، إذ قال : **« هي اليوم في عصرنا خالية، و أخبرني من أثق به أن باب المدينة قائم بها إلى الكاف بحنية عظيمة عالية ، فإن أمام الباب نهرا جاريا و إن حولها زيتونا كثيرا باقيا إلى اليوم و إنها لو حولت عمارتها ، لعمرت في أقرب وقت ، و أخبرني غيره أن قصر الملك باق إلى الآن، و إنه مسقف بالصخور العظام الطويلة عوضا عن الخشب و أن المسلمين بنوا قصرا بالطوب بإزاءه و أنه باق إلى الآن أيضا(4) ».**

جبال وسلات ومعروف والسرج وبرقو :

تميز جبل وسلات بكثافة سكانية هامة ، وبتعدّد المراكز الحضرية والحصون ، مثل الجوزات وتيفاف والقيطنة ودار إسماعيل ودار الدواب

(1) خصصنا بحثا مستقلا حول بعض المواقع القيروانية (القرن وطنباس).

(2) ذكرت ضريسة قرب جلولا وبيلد البطمة وأجر .ولعل تسمية جلاص والجريصة لا تعدو أن تكون تحريفا لضريسة . أما الكعوب، فقد ظلت بعض التجمعات النازلة حاليا قرب جلولا تحمل أسماء أعلام الكعوب ، مثل الصعانين ، نسبة الى بوصعنونة ، وهو احد مشائخ هذه القبيلة. راجع : البكري ، مسالك ، ص 32. الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص120.

Cambuzat , **L'évolution des cités** , TII ,p. 85-89
Idris , **Zirides** ,T II ,p. 430-431

(3) البكري ، **نفسه** ، ص54 ، 156. الادريسي ، **نفسه** ، ص120 .
Idris , op. cit. , T II , p. 430, 431 . Cambuzat , T II , p. 13-14 .

(4) ابن الشباط ، **صلة** ، ج IV ، ص 6 ب .

ونحال ودار السرج وغيرها ، حتى أن الادريسي اعتبر أن طول هذا الجبل يبلغ مرحلة (1).

و كانت بلاد النحالة التي ارتبطت تسميتها بتربية النحل قاعدة الجبل في العهد الحفصي . أقيمت على سفح الجبل ، حول أفنية صغيرة وأزقة طويلة منحدرة ، شبيهة التصميم بالقصور الجبلية بالجنوب الشرقي . وتعددت المواجل والسواقي والأرحية والمعاصر المنزلية ذات الشكل الاسطواني . وغرست في منحدراته أشجار الزيتون والكروم والخرنوب واستعملت السدود الحجرية لحماية التربة من الإنجراف(2).

ويبدو أن هذا الجبل، شأنه في ذلك شأن جبال الأوراس ونفوسة، كان ملجئا للمزارعين في الفترات التاريخية الحرجة . وهو ما قد يفسر ازدياد الكثافة السكانية به في آخر العصر الوسيط ، على إثر اندثار عدد هام من المدن المجاورة له مثل أجر وجلولا ومكثر ومجقة (3).

على أن أهم مجموعة سكنت الجبل هي قبيلة مزاتة التي حافظت على مذهبها الإباضي إلى حد القرن السادس هـ(4) . لكنها ظلت غير راضخة كليا لسلطة المدينة في العهد الحفصي، **« لا تناله الاحكام الشرعية »** على حد قول البرزلي، وذلك رغم حرص الهنتاتيين على تعيين قاض مالكي بالجبل منذ القرن السابع هـ/XIIIم. (5).

(1) الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص 119. نفسه ، **أنس المهج** ، ص 81. الصغير بن يوسف ، **المشرع المالكي** . ذكر أن به مائة دشرة) . انظر ايضا : Brunshvig , **Hafsides** , T I ,p. 304
Idris , **Zirides** , T II ,p. 430-431 . Lewicki , Le culte du bélier, In **R.E.I** , 1935, p.198-199.

(2) ما زال المسجد الجامع بالنحّال واضح المعالم ، قياسه : 7 ,5 13,5x م وهو يتكون من ستة بلاطات وثلاثة أساكيب ، وأعمدة وتيجان محلية ذات شكل هرمي . وقد عرفت نساء الجبل بعمل الصوف ، حتى أن الصغير بن يوسف قال أن المرأة من الجبل إن لم تقم الجبة أو الوزرة وتأتي بها الى السوق لبيعها ، فهي غير حرة .

(3) تفرق سكان هذه المدن المندثرة في سائر بلاد إفريقية ، ونعثر الى حد الآن على نسب الجلولي (نسبة الى جلولا) واللمسي (قصر لمسة) والمزوغي (مزوغة أو مجقة) والبرقاوي (جبل برقو) .

(4) ذكرمن بين علماء الجبل في القرن الرابع هـ فتوح بن أبي حاجب الوسلاتي المزاتي . ويبدو إن الاغالبة رغم قوتهم وجدوا صعوبات في السيطرة على الجبل . والى تلك الحقبة تعود آثار هامة : ففضلا عن الفسقيات بدار السرج (دار الباي حاليا) وغيرها التي ورد ذكرها في سولنياك ، فان بقايا معلم بهذه القرية ، بموقع سيدي مسعود حاليا ، تبدو منه مجموعة من الاعمدة الرخامية ، المختمة على المنوال الزيري ، وقد حليت إحداها بزخارف هندسية ونقيشة بالخط الكوفي المورق من النوع الزيري ، كتب فيه : بسم الله الرحمان الرحيم ، لا اله الا الله وحده.

(5) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 128، 177. البرزلي ، **جامع** ، ج I ، ص1277. الونشريسي ، **المعيار** ، ج III، ص 279–280.

أما أهل جبلي برقو والسرج ، فقد انتسبوا الى قبيلة هوارة التى هيمنت على كامل المجال التلي وصولا الى تيفاش ، فيمانزلت قبائل بني عوف (من الكعوب وحكيم خاصة) في السهول القريبة (1).

ولئن تم انصهار نسبي لسكان هذه الجبال ، حتى أن أحد الوسلاتيين ، أحمد بن سلامة المرساوي النحالي المتلمذ على ابن عرفة قد تولّى القضاء بالجبل (بنحّال)، فان أهل وسلات لم يرضخوا في فترات عديدة للجباية ، حسب شهادة ابن سعيد(2).

وهكذا ، فان هذه الجبال الواقعة على مسيرة يوم من القيروان والتابعة إداريا لها قد ظلت ممتنعة على سلطة المدينة . وقد تمكّنت من إعادة تنظيم علاقاتها مع القبائل البدوية المجاورة .

وفي الجملة ، فان المجال المحيط بالقيروان ، وصولا الى بلاد قمودة قد طغى عليه الطابع البدوي ، حتى أنه لم تبق به مدينة ذات شأن طيلة العهد الحفصي ، متحولة الى مراع لقبائل الكعوب وغيرها . وقد كانت القيروان وسط هذا المجال البدوي أشبه حال بجزيرة في بحر من البدو. لكن هذه الجزيرة تمكّنت من شق طريقها نسبيا إذ قامت بتوطين كثير من العشائر البدوية وأعادت تنظيم المشهد الريفي .

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج1 ، ص1277. ابن سعيد ، **جغرافية** ، ص 145.
(2) ابن سعيد ، **نفس الاحالة** . ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV، ص 245.
* اعتمدنا في تحقيق هذه الوثيقة على نسختين : الاولى وردت في الرّزنامة التونسيّة، 1324هـ، ص58-59. والثانية في تأليف: محمّد الهادي العامري، **تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون**، تونس 1974، ص177. وقد أطلقنا على الأولى تسمية ر، والثانية:ج.

ج) نموذج من العلاقة بين المدينة والبادية : إقطاع شيوخ البدو وتوطينهم :

إقطاع أبي غيث الحكيمي الهناشير الواقعة بين القيروان وسبخة سيدي الهاني وإزالة قبالة ملح السبخة

نص الظهير السلطاني :

الحمد لله والشكر لله ، هذه نسخة صدقة كريمة سلطانية متوكّلية (موحديّة)(1) حفصيّة نصّها :

الحمد لله وحده ، تصدّق مولانا أمير المؤمنين المولى الهمام حامي الاسلام ، قاطع أهل الشّرك والجور وعبدة الأصنام ، ذو العطايا الوافرة والصّدقات الزّاخرة والعلم المنشور والجيش المنصور ، الكبير الأشهر مولانا أبو عبد الله (المنتصر) (2) بالله العليّ العظيم القائم بوظائف الاسلام (الرّاجي) (3) رحمة ربنا الكريم الرحمان وشفاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم في يوم الزّحام ،على الشيخ الحاج الصّالح البركة المعتقد الأفلح أبي رحمة غيث القيرواني الحكيمي ، أعاد الله علينا من بركاته وأفاض علينا من سحائب خيراته ،بالموضع المعروف بهنشير الزربية (4) والخزازيّة والعبيد (5) وهنشير حمباز (6) وكيسان وفنزر وقريح (7)، جميعها متلاصقة الحدود. يحدّ جميعها قبلة عيون الربيع (8) وجوفًا مجرى وادي القذام (9) وغربًا طريقا الخضارة (10) وطريق الحاجب وبحيرة الذّيب، وشرقًا سبخة أم الأصنام (11) وبحيرة المسروقين (12) بجميع أعشار ذلك وأحكاره ووظائفه ولوازمه ، صدقة تامّة (13) ما اختلف الملوان وتعاقب الجديدان، وعلى أولاده وأعقابهم وأعقاب أعقابهم كذلك ما تناسلوا وامتدت (14) فروعهم في الاسلام ، إحسانًا اليه وانعامًا عليه لتوثقه بحبل الله المتين وجريه على السّبيل الواضح المستبين . ومرادنا منه قراءة الفاتح (كذا) والدّعاء الصّالح ولنجلنا [الأنعم] (15) رعاه (16) الله .

ورفعنا يدَ سعد (17) الظاهري عن تعاطي (أمور سبخة أم) (18) الأصنام وملحها (19) الرفع التام، وأبحنا الانتفاع بملحها (20) وغيره لجميع المسلمين على مرور الليالي والأيّام الى انقراض (الزمان لا يعارضهم فيه معارض بوجه ولا بحال من الأحوال. وأعطينا في ذلك مالاً) (21) من كسبنا، حين نزول عدوّ الدّين بالحضرة العليّة، دمّرهم الله وخذلهم ، وقصده بذلك جزيل الثّواب والسّلام .

وذلك (....) المشهورة منه الكتائب لجميع العمّال و [القواد] (22) والفقهاء وأهل (....) جميع عمله على الدّوام .

وبطرة ذلك بخط اليد الكريمة المولوية (23) الحفصيّة السّلطانية ، تحت ما وقع به عنّى (24) ، وبخطّه أيضا، يليه ختمه المعلوم : توكّلت على الله .

مؤرخ ذلك بغرّة شهر ذي الحجّة عام سبعة وسبعين وستمائة هجري .

(1) لم ترد في ج . (2) في ج : المصر . (3) ساقطة من ج (4) في ر : الزربيّة . (5) في ج : العبية . (6) في ج . الخبار ، ر : حمباز . وقد أثبتنا الاسم أثناء معاينتنا للموقع الذي ما زال يحمل نفس التسمية . (7) في ج : بنزر ومريح . (8) في ر : المربع . (9) في ج : الغذام . (10) في ج : الحضارة . (11) في ج : سلنجة أم الاصنام . (12) بحيرة السروتين . (13) في ج : ثابتة . (14) في ج : امتدن . (15) في ج : الانعمة وفي ر:الأقعد. (16) في ج : رحمة . (17) . في ج : بوسعه . (18) بياض في ج.(19) في ج : محلها (20) في ج : بمحلها . (21) ساقطة من ج . (22) في ج : بجميع العهود والبلاد . في ر : لجميع العمال والبلاد . (23) ج : المولديّة . (24) في ر : تممتما رقم فيه عنّي .

– *حدود الاقطاع* : شمل هذا الاقطاع سهلا فيضيا ذا تربة رسوبية ثقيلة ، لا يتجاوز ارتفاعه مائة متر ، تصب فيه عدة أودية أهمها وادي زرود ، ويقع بين سبختين : سبخة الشريطة شمالا وسيدي الهاني جنوبا ويتضمن مجموعة من الهناشير ، وهي على التوالي هنشير الزريبة والخزازية والعبيد وحمباز وكيسان وفنزر وقريح . وقد حافظ بعضها على التّسميات القديمة وتمكنّا من تحديدها، وهي على التوالي :

–هنشير الزريبة : يقع جنوب شرقي واد زرود .

–هنشير الخزازية : حاليا قرية واقعة جنوب الطريق القيروان – سوسة .

– هنشير حمباز : ورد خطأ في الوثيقتين ، وقد أصلحنا الكلمة من خلال المعاينة .وهو يقع جنوب شرقي سيدي الهاني حاليا .

– أما هناشير العبيد وكيسان و فنزر وقريح، فاننا لم نتمكن من تحديدها ، رغم اعتمادنا على طريقة المعاينة للمواقع .

على أن هذه المعطيات وحدها تمكننا من مقاربة أولى لمساحة هذه الهناشير، خاصة إذا أضفنا لها الحدود الوارد ذكرها في النص :

– عيون الربيع : يحد هذا المجال قبلة ، و هي على ما يبدو توافق العيون العديدة الواقعة قرب خاجب العيون ، غرب السبخة .

– طريقا الخضارة والحاجب : الحد الغربي للاقطاع ، وهو حاليا الطريق الموازي لذراع الحاجب ، والموصل لحاجب العيون وللخضايرية ، الذي يعبر كل من وادي زرود والمقطع .

– بحيرة الذيب : حد أخر غربي ، ويبدو أنها توافق هنشير الذيب في الخريطة.

– وادي القذام : وهو الحد الشمالي ، لم يرد في الخريطة ، غير أننا تمكنا من التعرف عليه إنطلاقا من المعاينة المباشرة . يقع في الشمال الغربي من الخزازية. ويوجد شمال طريق القيروان –سوسة ، إقطاع ثان منح لميمون بن كرفاح الوائلي من قبيلة حكيم، وهو لا يقل أهمية عن الأوّل.

– سبخة أم الاصنام : وهي الحد الشرقي ، وتتفق كل المعطيات على أنها سبخة سيدي الهاني .

– بحيرة المسروقين : هي السهل الرسوبي أو المسماة حاليا القرعة بسيدي الهاني(1).

(1) راجع :

J. Despois , **Le Sahel et la Basse Steppe**, p. 56 , fig. 10 ,14 .

Carte topographique de Tunisie , Feuilles de De Sidi EL Hani , Oued Cherita.

وهكذا فان طول الهنشير من الغرب إلى الشرق يتجاوز15 كم ، وعرضه : 10كم. وهو ما يعني مساحة تتجاوز 150كم2 أو 15000 هك .

– *المواقع الأثرية الوارد ذكرهافي الوثيقة :*

اقتصرنا على التعرض للمواقع الوارد ذكرها في الوثيقة، وأهمّها:

– الخزازية : ارتبطت هذه التسمية بصناعة الحرير، وهوما يعني أنه كانت لها علاقة من قريب أو بعيد بصناعة الخز في عصر ازدهار القيروان . على أن هذا الموقع الذي لا يبعد عن القيروان أكثر من 12كم ، رغم ثراء تربته ، كان مجرد هنشير في العصر الحفصي . بل إنه تحول أحيانا الى وكر لقطاع الطرق الذين يشنون غارات على القوافل المحملة بالصوف والماشية المحملة الى سوسة ، ومنها الى المدن التجارية الأوروبية .

وتمثل الخزازية بداية العقارات المحيطة بالمدينة والمقطعة للاعيان المحليين، فيما مثلت هبيرة نهاية هذه الأراضي الزراعية المستغلة في العهد الحفصي ، وبداية الغابات والشعاري التي تقطنها الحيوانات البرية(1).

–بحيرة المسروقين : المسروقين هي قرية على الطريق بين سوسة والقيروان، ورد ذكرها منذ العهد الاغلبي ، و كان يقطنها العبيد العاملون في أراضي محمد بن مسروق . ولا يستبعد في هذا الصدد أن تناسب حدود هذا الاقطاع مع حدود القرى الكثيرة التي كان يملكها ابن مسروق قديما .وهو ما يفسر تواصل الملكية الكبرى ، رغم الاضطرابات العديدة التي شهدتها الجهة ، ومحاولة إحيائها عن طريق الاقطاع الممنوح لاحد الصلحاء ، وهو أبو رحمة غيث الحكيمي .

ومنذ الانتشار الهلالي بوسط إفريقية ، تغيرت الخارطة البشرية للجهة، أذ نزل في حقبة أولى بنو دهمان من رياح بالمسروقين ، ومنذ سنة 630هـ ، وفد على هذه الجهة بنو حكيم وبنو كعب . وقد عرفت هذه الفترة هجرة بعض أهلها إلى مدينة تونس واستقرارهم بها (2).

هذه القرية التي أعيد تنظيمها وهيكلتها بشريا ، تغيّر إسمها مرة أخرى في أخر العصر الوسيط ، وأصبحت تسمى بسيدي الهاني ، نسبة الى أحد الصلحاء الذي حبست عليه أراضي القرية في أوائل محرم سنة 932 هـ (3).

(1) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV، ص 60.

(2) الرقيق ، تاريخ ، ص144. ابن ناجي، **معالم** ، ج III، ص215 ، ج IV، ص 183.**مناقب** مخ 18555 .

(3) البهلي النيال ، **الحقيقة التاريخية للتصوّف الاسلامي**، ص 223.

وقد استعمل مصطلح البحيرة للمرة الثانية في هذه الوثيقة (إذ ذكر بحيرة الذيب) للدلالة على الارض الزراعية الشاسعة التي تحيط بها. والبحرة وتصغيرها البحيرة لغة هي الارض والبلدة، وهي الروضة الواسعة. وعموما فقد انتشر استعمال هذا المفهوم منذ العصر الموحدي، ببلاد المغرب وإفريقية للدلالة على نوعية المشهدالريفي المحيط بالقرى والقصور. فذكربناحية القيروان ثلاث مرات على الاقل: بحيرة المسروقين وبحيرة الذيب وبحيرة شعبة، كما ورد ذكره في وثيقة حبس بناحية المهدية: بحيرة هيبون (وهو رباط ساحلي)، وبحيرة العالية (وهي الحمى القديم لقصر العالية الواقع جنوب سلقطة)(1).

– تاريخ الإقطاع وطرق استغلاله: لقد كان للفرسان والصلحاء مشاركة فعالة في التصدي للصليبيين النازلين بضواحي مدينة تونس سنة 668هـ / 1270 م. وكان لاعراب القيروان خصوصا دور هام في المعركة، وقد برز من بينهم الفارس الحكيمي ميمون بن كرفاح الوائلي الذي أبدى شجاعة فائقة لفتت انتباه السلطان (2).

وعلى إثر انتهاء هذه الحرب، كافأ أعيان قبيلة حكيم، من شيوخها وفرسانها، مقطعا إياهم الاراضي الشاسعة. على أن أسئلة عديدة تظل عالقة بالوثيقة: فقد ورد في بدايتها أن الخليفة أبا عبد الله (المنتصر، كذا) أصدر هذا الظهير، على إثر الحرب الصليبية. على أن التاريخ المذكور في آخرها: ذي الحجة سنة 677هـ / 1278م، يرجع الى فترة الواثق. وبالتالي، فان الأمر لا يخلو من احتمالين:

–الأول هو صدور هذا الظهير في عهد المستنصر، بعد الحرب، لكنه احتاج الى تدعيم من جديد في عهد الواثق.

-أما الثاني، فهو إمكانية حصول تصحيف في تاريخ الوثيقة، ولا يستبعد أن يكون التاريخ الصحيح هو سنة 672 هـ.

ومهما يكن من أمر، فان الصدقة تمت بعد سنة 668هـ، تاريخ الحملة الصليبية على تونس. ويبدو أن هذه الاراضي ظلت مهملة منذ بداية الانتشار الهلالي، بعد أن جلا عن القيروان أهلها ونزلوا بمختلف البلاد الاسلامية. ولم يرجع منهم الاالقليل الذي استعاد تملك العقارات، فيما أهملت باقي الاراضي وأصبحت على حد قول البرزلي **«بمنزلة المال المجهول أربابه، حكمه للامام»** (3).

(1) ينظر هذه المواقع في إقطاعات القيروان وأحباس رباط المنستير.
(2) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 25، 106.
(3) البرزلي، **نوازل**، جIII، ص 175.

وهي تأتي دليلا على مدى اعتماد السلطان على القبائل البدوية المحيطة بالمدن، وترغيبها في الاستقرار بمنحه إياها هذه المجالات الشاسعة. ولا يرقى الينا الشك أنها كانت عامرة ببعض المزارعين، رغم تراجع العمران في تلك الحقبة. وقد تولوا الاضطلاع بعملية الانتاج في هذا الفحص الشاسع، الى جانب القبائل البدوية المستقرة حسبما شهد بذلك ابن ناجي، إذ قال:

« خلف (أبو رحمة غيث الحكيمي) لذريته من الربع بظهير السلاطين من الارض والهناشير للحرث ما لا يقدرون على تعميره بالحرث. فجرت العادة أن يحرث الناس معهم ويأخذوا الحكر منهم، ويختص الفقير منهم بالعشر في زماننا اليوم. وذريته اليوم (أي في القرن التاسع هـ) من الرجال البالغين نحو العشرين» (1)

وبالتالي، فان الاستغلال تفرع الى مباشر وغير مباشر، عن طريق صغار المزارعين والعمال الفلاحيين (أو الخماسة) الذين أخذ منهم الريع العقاري في شكل أعشار وأحكار. ولا نعتقد أن الأرض كانت تمثل مشكلا نظرا لاتساع هذا المجال، بقدر ما احتاج الانتاج الى الوسائل الضرورية، من آلة وماشية وزريعة، والى القوى العاملة الكافية.

–*قبالة الملح بسبخة أم الاصنام*: تصب عديد الأودية في سبخة سيدي الهاني مباشرة أو عن طريق سبخة الشريطة. على أن كمية الماء تتضاءل في فصل الحرارة، وترسب بها طبقات هامة من الملح الذي تم استغلاله منذ العصر الوسيط، والى حد القرن التاسع عشر م، لما كانت ملكا للبايات (2).

وفي عهد المستنصر، كانت قبالة الملح المستخرج من سبخة أم الاصنام في يد أحد المكترين لها، وهو سعد الظاهري. ولا يستبعد أن يكون هذا من بين قواد العلوج، حسبما يوحي به الاسم.

على أن نهاية الحرب الصليبية وضعت حدا لهذا الأمر، بعد أن قرر السلطان إزالة القبالة من يد المنتفع وتخصيص جزء من ماله لاستخراج الملح منها، على أن يعود نفعها للأهالي. ويتساءل المرء عن الأسباب الكامنة وراء هذا الاجراء: هل هي الرغبة في التخلص من المحتكرين لهذه المادة الهامة في السوق المتوسطية، وحرص السلطة على الاشراف على توزيعها أم هي طريقة لكسب رضى القبائل النازلة في هذه الجهة من حكيم ودهمان.

(1) نفسه، ج IV، ص 37–38.

(2) E. Pellissier , **Description** .. ,p. 131-132 .
J . Despois , **Le Sahel et la Basse Steppe** , p. 86 .

إقطاعات المستنصر شرق القيروان

—.—.— حدود اقطاع ميمون بن كرفاح الوائلي
- - - - حدود اقطاع ابي رحمة غيث الكعبي
هـ.الذيب: للواقع الوارد ذكرها في المصادر
▲ المواقع الأثرية

- *الاقطاع السلطاني الثاني شرق القيروان :*

تزامن مع الاول ، إذ وقع على إثر الحملة الصليبية على تونس ، واعتبر مكافأة لاحد فرسان حكيم ، وهو ميمون بن كرفاح الوائلي الذي أبلى البلاء الحسن في المعركة ، وانفرد ببسالته وفروسيته . وهو كما أشارت الى ذلك المصادر يقع في الطرف الآخر من الطريق الرابط بين سوسة والقيروان .

ولئن كنا لا نملك نص الاقطاع ، فاننا نعرف حدوده من خلال ما ذكره ابن ناجي ، إذ قال :

« وكان يملك بلادا وهناشر حول القيروان بالظهير ، منه للعوسج وواد الملح وبحيرة شعبة وخشم الكلب وذراع التمار وذراع الاسريف والقرجانية من عمالة سوسة.ولهم اليوم فيه شركاء .وسببه أنه أراد الدخول للبلد ، فأصاب فيها طينا كثيرا ، فرفعه بعض المرابطين من السرج من جماعة حكيم ، فوهب له ربعها ، واشترى الربع الآخر من حفدة الشيخ ميمون .

وبعث حفيده الشيخ الحاج أبو العباس أحمد ظهراوات أكثر الأماكن المذكورة لسلطان وقتها أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز ، وقال له : هي الآن بيد غيرنا من العرب ، فأنت أولى بها من تخليصها لنا . فقال السلطان لمن حضره : الناس يأخذون مني وأنا نأخذ من عند سيدي أحمد ميمون . وقال لمن هي بيده : من كان عنده منكم ظهير أقدم من هذه الظهراوات سلمت له ما بيده ، وإلاّ بيت المال أولى بها» (1).

ويتضح من خلال هذا المثال اتساع حدود هذا الاقطاع الذي يصل الى حد عمالة سوسة ، بمعنى أنه يتجاوز خمسين كلم طولا . وهو يأتي برهانا على ضعف استغلال الارض ، وقلة الساكنين بها . على أن الوضعية تغيرت جزئيا في القرن التاسع هـ ، حيث شهدت افريقية انتعاشة على عهد ابي فارس عبدالعزيز ، تبعتها محاولة لاسترجاع هذه الاقطاعات وضمها لأملاك الدولة .

2) وطن صفاقس : جدلية البر والبحر:

أ) *المدينة* : ظلت طيلة العهد الحفصي بطيئة التطور ، متعرضة لقرصنة المدن التجارية الاوروبية . وخلافا لمدينة تونس ، لم تعرف امتدادا عمرانيا هاما ، إذ حافظت على أسوارها الاغلبية ، ولم تبرز بها ظاهرة الارباض .

ويأخذ السور شكلا مستطيلا ، قياسه : 600 x 400 م ، وهو مكوّن من جداريـن متوازيـن « يمشي الراكب بينهما » ، على حد عبارة التجاني . وشيدت

(1) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV، ص 105.

هذه الاسوار العالية والمتينة بالحجارة ، بعد أن كانت في أول الأمر مبنية بالطوب والطين .وأحيطت بأبراج ، وبنيت بها قصبة في مكان الرباط القديم ، وكانت مقرا للسلطة السياسية والعسكرية طيلة العهد الموحدي – الحفصي (1).

وشهدت أبواب المدينة ترميمات مختلفة في العهد الحفصي ، وخاصة أثناء الحقب التي تميزت بتفاقم الخطر الصقلي والاسباني .فقد رمم باب الديوان (أو البحر) بأمر من أحد شيوخ الموحدين ، أبو عبد الله محمد بن (الشيخ الاجل المقدس) ابراهيم أبي القاسم بن سلام سنة 706هـ / 1306م . وكان ذلك أثناء الفترة التي خرج فيها ابن اللحياني من تونس لمحاولة تخليص جزيرة جربة من الاحتلال الصقلي ، الذي ظل يهدد السواحل الافريقية .

أما الباب الجبلي ، فقد تم ترميمه في عهد أبي فارس عبد العزيز أوائل محرّم سنة 823هـ/ 1420م . واقتصرت بقية الأعمال الاخرى في العهد الحفصي على بناء بعض المعالم الدينية و صيانتها (2).

وظلت الأسواق محافظة على التراتبية التقليدية : فالأسواق ذات الصبغة الحضرية تواجدت وسط المجال الحضري ، قرب المسجد الجامع ، ومن بينها نذكر سوق الربع المغطى الذي تباع فيه المنسوجات الصوفية ، فيما كانت الأسواق الريفية في أطراف المدينة مثل سوق الغنم الواقع على طريق عقارب . وكان أغلب السكان يشتغلون في الاعمال الحرفية والصيد البحري والتجارة البحرية مع الاسكندرية وتركيا(3).

وفي الجملة فان هذا التطور العمراني البطيء لم يكن منعزلا عن طبيعة الاسكان وأهميته .فلئن كانت المدينة تعيش في فترات الأزمة تحت التهديدات القادمة من البر والبحر ، من «العاديين ، الروم والعربا »، فان الاتصال لم ينقطع بينها وبين المدن المتوسطية (الاسكندرية وجنوة وبيشا والبندقية وبرشلونة) ، ولا بينها وبين ناحيتها البدوية . بل عكس ذلك ، اتخذت المدينة ملجئا للمزارعين من أهل القرى المجاورين لها، وتأتي المعطيات التاريخية والطوبونومية برهانا على ذلك :

– فقد انتسب ابو الحسن الفرياني الى قرية فريانة الواقعة بناحية المدينة ، والتي خمل ذكرها في القرن VIIIهـ / XIVم .

(1) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 73. البكري ، **مسالك** ، ص 19. الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص 107.التجاني، **رحلة** ، ص68. ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص 20(زارها سنة 749هـ وذكر بها مصلى) . . مقديش ، نزهة ، ج II، ص 172. الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II، ص87 .

(2) F . Mahfoudh , **La ville de Sfax** , These (Paris IV) , 1988 , p701-717

(3) البكري، **نفسه** ، ص 20 (قال : عمل أهلها في القصارة والكمادة كعمل أهل الاسكندرية) .مقديش ، **نفسه** ، جII ، ص203، 324.

– ويرجع أبو بكر القرقوري الذي استقر بالمدينة في القرن الثامن هـ / XV م الى قرية قرقور الواقعة جنوب غرب صفاقس ، بعد أن خربت ولم تعمر من جديد الا في القرن التاسع هـ / XVم .

– وأثناء الصراع الاسباني – العثماني ، وفي خضم أزمة القرن السادس عشر ، خربت عدة قرى وقصور ساحلية ، من بينها يونقة ومنزل قلمام وأومة ومسعودة وقرية قلوس ، على أن أهالي هذه القرى استقروا داخل أسوار المدينة كما تبين ذلك الأنساب التالية : اليونقي والقلمامي واللومي والمسعودي والقلسي (1).

– وثمّة أسر أخرى نزحت من مدن وقرى نائية ، مثل جلولا وملول التي عصفت بها ريح الأزمة في القرن الثامن هـ ،وانتقل أهلها الى المدينة(2).

ولئن ظلت القرى تمّول باستمرار المدينة بالهجرات المتتالية ، معوضة بذلك الخسائر الناجمة عن المجاعات والأوبئة ، فان عدد السكان داخل المجال الحضري لم يشهد تطورا كبيرا : ففي بداية القرن السادس عشر، ذكر الوزان 300-400كانون بالمدينة، ثم ارتفع هذا العدد نتيجة الاضطرابات الحاصلة في أواخر القرن وما نجم عنها من أحتماء أهل القرى بجدران المدينة، فذكر بها سنة 1587م 1500مقاتل (3).

واستقرت بعض الأسر من بني سليم بالمدينة ، ومن بينها الاعشاش والنواولة (أولاد نوال) الذين أصبحت لهم مكانة هامة بها ، حتى أن مقديش عدّهم من أقدم الاسر المنتسبة الى صفاقس . ولعل وجودهم بها يرجع الى الفترة التي ذكرهم فيها ابن خلدون (4).

أما الفئة الحاكمة من قواد وعمال ، من أصول مصمودية وهنتاتية وعلوج ، فقد أستقرّوا بالقصبة وبمختلف أحياء المدينة (5).

(1) ابن ناجي ، **معالم** ، جIII ، ص 151–155، ج IV ،ص 240–241 . مقديش ، **نفسه** ، ج II، ص 303، 317، 334–344 . ياقوت ، **معجم** ، جIV ، ص 259.

Lanfreducci et Bosio , **Cote et Discours de Barbarie** , p . 508 .

(2) F. Mahfoudh, Aspects de la démographie de la ville de Sfax au moyen-âge (art.ms).

انظر أيضا : مقديش ، **نفسه** ، ج II، ص 300–302 .

(3) الوزان ، نفس الاحالة السابقة . Lanfeducci, ibid .

(4) مقديش ، **نزهة** ، جII ، ص 171 ، 199.

(5) في سنة 852هـ / 1448 م ، رمم سيدي الياس القائد « القائد الاجل المعظم الاكمل أبو عبد الله محمد بن القائد بشر بن المرحوم البشير جاءالخير» .ويتضح من خلال رسمه أنه من العلوج .وفي سنة706 رمم باب البحر (أو الديوان) أحد شيوخ الموحدين، وهو « الشيخ المكرم الانجد أبو عبد الله محمد بن الشيخ الاجل المقدس المرحوم ابراهيم أبي القاسم بن سلام» .

وبالتالي ، فان كل من التركيبة البشرية والنسيج العمراني، يدلأن على انتماء صفاقس الى صنف المدن ، التي استطاعت أن تتطور في علاقة متينة مع البحر والبر ، مع التجارة الخارجية وغابة الزيتون .

– *الحزام الزراعي المحيط بالمدينة* : كانت منذ العهد الأغلبي محاطة بغابة زيتون هامة، وقد عرفت بتصدير الزيت الى سائر البلاد المصرية والمغربية وصقلية وبلاد الروم . وغطت هذه الغابة جل المساحات المزروعة ، حتى التجأ أهلها الى نقل المواشي الى جزر قرقنة للمرعى (1).

لكن تعاقب الأزمات والقلاقل أدت حتما الى تراجع هذه الغابة ، و ذلك منذ أواسط القرن الخامس هـ . وكان لأحداث سنة 474هـ تأثير خاص على هذه الغابة ، كما شهد بذلك ابن عذاري، إذ قال : « **عاث عسكره في أجنتها المعروفة بالغابة ، وأفسدها** » . وزاد الاحتلال النورماني الأمر استفحالا ، لما أصاب المنطقة من الخراب والدمار(2) .

وقد نجم عن هذا الوضع اندثار الغابة جزئيا على الاقل في مطلع القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ، حسب شهادة التجاني على ذلك ، إذ قال : « **وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها ، فأفسدتها العرب، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة ، وفواكهها مجلوبة اليها من قابس** » (3).

على أنه من العسير معرفة حقيقة ما ذهب اليه التجاني، هل يخص الغابة القريبة من الاسوار فقط ، أم أنه يمكن سحب ذلك على كافة ناحية المدينة ؟

ثمة مؤشرات أولى تبين مدى تضرر الغابة اجمالا في تلك الحقبة :

–فقد كان أهل صفاقس يتزودون بالزيت من جزيرة جربة في نهاية القرن السابع .

–ويدل انصراف أهل المدينة الى العمل في البحر والحرف ،وأهل القرى الى زراعة الحبوب على مدى انحسار الغابة .

– أما ما ذكره كل من ياقوت والحميري من كونها وسط غابة زيتون ومتميزة برخص إسعار الزيت ، فهو لا يعدو أن يكون نقلا للمصادر الجغرافية السابقة ، وخاصة البكري (4).

---

(1) ابن حوقل ، **نفسه** ، ص 73. البكري ، **نفسه** ، ص 20.
(2) ابن عذاري ، **البيان** ، ج I ، ص 300. الادريسي، **نزهة** ، ص 107.
(3) التجاني ، **رحلة** ، ص68.
(4) العبدري، **رحلة** ، ص .237 ياقوت ، **البلدان** ، ج III، ص223. الحميري، **الروض المعطار**، ص 365–366.

على أن غابة الزيتون لم تندثر تماما ، بعد أن استقرت القبائل البدوية بناحية المدينة، على مرحلتين : الاثبج وعدي ثم عوضتها بنو علي من بني سليم ، بما فيهم الاعشاش والنواولة ، إذ انصرفت هذه القبائل الى تربية الماشية والزراعة تدريجيا، وبدأت في الإستقرار منذ القرن السابع هـ (1).

أما الناحية القريبة من المدينة ، نعتقد أنها كانت عامرة بنوع من السكن الحضر–ريفي الذي عرفته الجهة منذ القرن الخامس هـ / الحادي عشرم ، وهي ظاهرة الابراج أو المنازل المحصنة التي ساعدت على استغلال الناحية.وتأتي إشارة مقديش الى الزيتون الجالي بغابة سفاقس في عهد علي باي دليلا على وجود غابة تحظى برعاية كافية في العهد الحفصي (2).

ونعتقد أن الموقع المتميز للمدينة ، ووجودها على الجادة العظمى وعلى البحر يفسر حيويتها النسبية في العهد الحفصي ، وإن فقدت كثيرا من ناحيتها القديمة . فبعد أن كانت «وسط ألذ غابة زيتون »و« لها بواد عظيمة وقصور جمة وحصون ورباطات على البحر » حسب عبارة البكري ، فان باديتها شهدت تحولات جذرية في العصر الاخير(3).

ب) *بادية صفاقس* :

امتد وطن صفاقس على طول الساحل الجنوبي والشمالي للمدينة ، وفي داخل البلاد التي كانت مجالا للقبائل السليمية من بني علي . وقد فرقت المصادر الحديثة بين الوطن الشرقي والغربي للمدينة . وتكون هذا المجال من جملة من الحصون والقرى والرباطات القديمة التي اندثر عدد منها .

وبديهي القول أن هذا التوزيع العمراني يناسب الاستغلال الزراعي ومد ى امتداد غابة الزيتون ،وان اندثار هذه القرى يقابله تراجع للغابة ، وتحول بساتين الزيتون الى أراضي جرداء، والعكس بالعكس : فالاحياء تناسب مع تعمير جديد لهذه القرى والقصور. وفي الناحية الشرقية من هذا الوطن ، ذكرت القرى التالية :

– برشانة : قرية صغيرة ذات قصور متفرقة ، واقعة على الطريق الرابط بين الجم– رقة وقصر زياد ، ويبدو أنه يوافق المسلك الروماني القديم .وذكر مقديش أنها قريبة من قرية عيسى بن مسكين ، الواقعة شمال صفاقس بعشرين ميل . مما يجعلنا نميل الى تحديدها بين قرية لواتة الحالية وأولاد بوسمير ، ولعلها كانت بهنشير القصيبة الحالي.

---

(1) التجاني ، **رحلة** ، ص 70. مقديش، **نزهة** ، ج II، ص171 .
(2)مقديش ، **نفسه** ، ج II، ص181. البرزلي ، **نوازل** ، ج II، ص 1265.
(3) البكري، **مسالك** ، ص 20.

أما عن تاريخ اندثارها ، فهو يعود بدون شك الى أواسط القرن الرابع عشر م، إذ إن آخر من ذكرها هو التجاني ، وقد نجم عن ذلك تحوّل بعض الأسر الى صفاقس (1).

–جبنيانة : قرية عامرة في القرن الرابع هـ / العاشر م ، وقد كانت ملكا لأعيان الدولة الأغلبية ، فقد كان لعلي بن سالم ، جد أبي إسحاق ، منازل كثيرة من بينها جبنيانة وغيرها و كان له بها «رباع عجيبة». وهو ما يفسّر أن هذه القرية التي تنتهي بالاحقة يانة قد تكون من أملاك الامبراطور الروماني ، وتواصلت ملكا لرجال الدولة في العهد الاغلبي .

ولئن ظلت قائمة في العهد الحفصي، فاننا لا نعلم عنها الشيء الكثير ، باستثناء أن ضريح أبي اسحاق أصبح مزارا (2).

– بليانة : حاليا قرية جنوب جبنيانة ، وهي ضيعة أخرى تحمل اللاحقة القديمة يانة التي تدل على ملكية الامبراطور الروماني . ويبدو أن وضعيتها العقارية تواصلت بنفس الكيفية في الحقبة الأغلبية ، إذ بنى بها أحد الوزراء الاغالبة قصرا محاطا ببستان . ولعل الدولة لم تفرّط في ملكيتها نهائيا في العهد الحفصي ، بدليل أن ابن بطوطة فضّل النزول بها ، باعتبارها مكان آمن، قبل أن يتابع طريقه تحت خفارة القبائل العربية . وظلت هذه القرية الزراعية عامرة في القرن التاسع هـ ، ثم اندثرت أثناء تفاقم الأزمات والمحن بالبلاد في القرن السادس عشر (3).

–شريانة : قرية تقع قرب سوق بدرنة ، ذكرت في القرن الرابع هـ ، حيث ضريح الصّالح مروان . وظلت عامرة في القرن الثامن هـ ، وقد انتسب اليها أحد أعلام تلك الحقبة : مخلوف الشرياني .

–سوق بدرنة : كان سوقا زراعيا للعاملين بهذه الضيعات الاميرية خلال القرن الرابع هـ ، على أن اندثار هذه الضّيعات من جهة ، وسيطرة بني علي على

(1) التجاني، **رحلة** ، ص67. مقديش ، **نزهة** ، ج II، ص 306،246 . A.A.T : Feuille de Djebeniana

(2) التجاني، **رحلة** ، ص80. ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 159. مقديش، **نزهة** ، ج II، ص248–269.

Brunschvig, **Hafsides,** T I ,p. 310 .

لا يستبعد أن تكون ذكرت في مصادر أخرى تحت إسم زبنة ، باعتبار أن اليانة لاحقة ، وكان قد اشتهر من أمرها الهجاء بين شاعر زبنة وشاعر باجة الزيت .

(3) اللبيدي ، مناقب الجبنياني، ص 54. ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص 429. مقديش ، **نزهة** ، ج II، ص 333 (قرب قصر العالية ، يوجد موقع يسمى دار بليان) .

A.A.T. : Feuille de Djebeniana . Brunschvig , **Hafsides** , TI ,p. 310 . Idris , **Zirides** , TII,p..454 .

المجال من جهة ثانية يفسران النقلة الحاصلة في نمط عيش أهل بدرنة ، الذين تسموا بالبدارنة ، وأصبحوا ينتسبون الى قبيلة بني علي، ويسايرونهم في انتجاعهم ورحلتهم بعد أن تخلوا عن زراعة الزيتون أو كادوا (1).

–المنية : هي الاخرى ضيعة أميرية ، لكنها تبدو مستحدثة في الحقبة الاغلبية. وقد أطلقت هذه التسمية على الضياع السلطانية بكل من الاندلس وإفريقية ، حيث نعثر على منية ثانية قرب القيروان . وقد ظلت عامرة في مطلع القرن السابع هـ ، إذ انتسبت اليها إحدى الصالحات ، أم يحيى المعاصرة لأبي يوسف الدهماني (2).

–لبيدة – لبيدى : قرية أخرى تقع جنوب جبنيانة ، كانت عامرة في القرن الرابع هـ ، وكان من أعلامها صاحب كتاب مناقب الجبنياني ، وهو الفقيه أبو القاسم عبد الرحمان اللبيدي المتوفى سنة 430هـ . وظلت عامرة في مطلع القرن الثامن هـ (3).

–قلوس : قرية من وطن صفاقس الشرقي ، كانت عامرة في أواخر العهد الحفصي (4).

ويتضح من هذه القائمة الأولى العدد الهام للضيعات الأميرية المقترنة بغراسة الزيتون، والتراجع النسبي للعمران الذي لا تفسره البداوة بقدر ما هو مرتبط باهمال استغلال هذه الضيعات وتفريط الدولة فيها . وعلى أي حال ، فان كل المواقع استطاعت أن تصمد في وجه أزمة القرنين الخامس والسادس هـ ، ولم تندثر الابعد ذلك ، ابتداء من أواسط القرن الثامن هـ .

إما القصور والأربطة الساحلية ، فانها تأثرت كذلك بحركات القرصنة والقطع في البحر، كما يتضح من خلال هذه الأمثلة :

– محرس بطرية : انتصب هذا المحرس الاغلبي في مكان المدينة البونية المسماة القلة (Acholla). وقد ظلت فاعليته في العهد الحفصي ، إذ استعملت منارته التي يرقى اليها في166 درجة لنقل الاشارات الى بقية المنارات المجاورة (5).

(1) مناقب الجبنياني ، ص 36. مقديش ، **نزهة** ، جII ، ص 343،257 .

(2) مناقب الدهماني، ج II، ص 117ب . مقديش ، **نزهة** ، ج II، ص 293. النيال ، **الحقيقة التاريخية** ،ص.223

(3) مناقب الجبنياني، ص27 ،45 . التجاني، **رحلة**، ص 83.مقديش ، **نزهة** ، ج II، ص 256 .

Idris , **Zirides** , TII ,p. 454 .

(4) مقديش ، **نزهة** ، ج II، ص 337.

(5) البكري، **مسالك** ، ص 20.الادريسي، **نزهة** ، ص 170(يبدو انه يوافق قصر قناطة الذي يصنع به الفخار المحمل الى المهدية) . ياقوت ، **معجم البلدان**، ج III، ص 223.

Lanfreducci et Bosio , cote .. op. cit. ,p. 509 .

–اللوزة : مرسى وحصن أغلبي مزود بمنارة مرتفـعة، بقيت منتصبة في بداية العهد العثماني. وقد نشأت حول هذا الرباط قرية عامرة في العهد الحفصي (1).

–قصر زياد : تقع خرائبـه الحالية قرب رصفة القديمة وسيـدي مسرّة ، وقد فـرق مقـديش بين أربعة مـواقع مـختلفـة ، حيـث أضرحـة كل من أبي إسحـاق الجبنيـاني وعبد الرحـيم الزاهد (حيث قـصر زياد) ومسـرّة ومروان. ولم يكن مجـرد رباط ساحلي أنشـأه أحد أعيـان القيـروان ، وهو عبد الرحـيم الزاهد سنة 212هـ / 827م ، إنما تحـوّل الى مـرسى هام أسـس به عـبيـد الله المهـدي دار صناعة، ونشأت حوله قرية البرج . وقد ظل عامرا في القرن الثامن هـ ، ومذكورا من بين كبريات مدن افريقية ، رغم تعرضـه للعمليات التخريبية للقراصنة القطلان سنة 701هـ . وبعـد نحو خـمس سنوات من هذه الحـادثة التي استـبسل فـيهـا الاهالي، قـال التجـاني في شـأنه : **«حـصن حصين وفي أهلـه نجدة مـوصوفـة وشجاعة معروفة »** (2).

–مرسى إنشلة –إنكيلة : تسمى قديما أوسيلة (Usilla)، ثم حملت أبتداء من القرن الثامن هـ تسمـية الضريح مخلوف الشرياني . وقد ذكـر في مطلع القرن السادس هـ حصن نكيلة جنوب حصن الركام، وظلت عامرة في القرن الثامن هـ / XIVم (3).

– قرقنة : تقع هذه الجزر قبالة صفاقس ، استـعملت أراضيها لغراسة النخيل ومراعي للماشية الوافدة عليها من ناحية صفاقس . وكان لها دور بحري هام طيلة العصر الوسيط ، واشتهر من بين مرافئـها الرملة . استبسل أهلها في الدفاع عنها أثناء الغارات المتتاليـة، التي قام بها النّورمان سنة 548هـ / 1153م ، ثم روجي دي لوريا سنة 707هـ / 1305م ، والاسبان في القرن السادس عشر م . على أن هذا الضغط البحري قد أثر على عمران الجـزيرة ونشاطات أهلها الاقتصادية ، فقد سكن أهلها الارياف وتحصنوا بالكهوف والغيران، عند تعرضهم للعدوان ، وأجبر بعضهـم على اللحاق بالبر ، حتى أن عـددهم تراجع الى نحو 3000–4000 على إثر غارات الاسبان في القرن السـادس عشر م (4).

---

(1)اللبيدي ، **مناقب الجبنياني** ، ص 51. البكري، **مسالك** ، ص 20. الادريسي ، **نزهة** ، ص 170.
Lanfeducci et Bosio , op. cit. ,p. 508 .

(2) التجاني، رحلة ، ص 67. العمري، **مسالك** ، ص 84، مقديش، **نزهة** ، ج II، ص353 .
Alarcon , **Documentos** , p. 259 . N . Jelloul , **Kasr Zyad** , op. cit .

(3) اللبيدي، مناقب ، ص 35. البرزلي ، نوازل ، مخ 4851، ج II، ص 120ب .الوتشريسي، **المعيار** ، جVIII ، ص 207.مقديش ، نزهة ، ج II، ص 310. . Brunschvig, **op.cit.** ,TI,p.310

(4) الادريسي، **نزهة** ، ص126.ابن سعيد، **جغرافية** ، ص 144. الزركشي، **تاريخ** .
Idris , **Zirides** , TII,p. 456. Lanfreducci et Bosio , **Cote**..,p. 508-510 . Soucek, **Tunisia** , p. 115 .

–قرقور : قرية تقع في الجنوب الغربي من مدينة صفاقس . هاجر بعض أهلها الى المدينة في القـرن الثامن هـ / XIVم ، وكـان من بينهم أبو بكر القرقـوري . لكنها عمرت من جديد في القرن الموالي وأحيطت بأسوار مزودة بباب صغير .على أن ذلك لم يدم طويلا ، إذ اندثرت القرية في أواخر هذه الحقبة (1).

–قصر طينة : قصـر قديم ، كان عامرا في العهد الاغلبي ، وظل مسـتعملا في العهد الحفصي ، لوجوده على الطريق الرابطة ببـلادالمشرق . وغير بعيد عنه ، ذكر منزل قلمام في القرن الثامن هـ ، وهو حاليا آثار لهنشير (2).

–قصر نقطة : ربـاط أغلبي ، تواصل تعميره الى حـد القرن الخامس هـ / XI م، ثم أهمل وأصبح الحبس على المرابطين تالفـا . و ابتداء من القرن السـادس هـ، أعيد تعمـيره وبنيت حوله الدور، وصار حصنا للمرابطين مـزودا ببئر خاص بهم وكان مخزنا، يلجؤون اليه عند الخطر ويودعون فيه مؤونتهم .

وعلى إثر تعـرض القصـر الى عمليات قطع قـام بها النصـارى في أواخر القـرن السابع هـ / XIIIم ، أحيطت القرية الناشئة بسـور، واستوطنت بها بعض الأسـر (3).

– محـرس علي – المحـرس الجديد : يبـعد عن المدينة جنوبا بحـوالي 25كم . أنشئ في العهد الاغلبي ونسب الى علي بن أسلم البكري ، من أصحاب سحنون ، تولى قضاء صـفاقس، وأصبح في العصر الزيرى يسمى المحـرس الجديد ، وكان دوره مراقبة مدخل خليج قابس، وحركة المـلاحة بين جربة وصفاقس . ظل مهملا حقـبة من الزمن ، قبل أن يـقع تعميـره من جديد ويسكنه قوم مـن هوارة أجلتهم الأعراب من قصـور بني خيار بمسلاتة ، واستـمروا يستعملون لغـتهم البربرية، مشـتغلين في نسيج الاقـمشة الصوفـية والصيـد والتجارة مع القيـروان وجربة وغيـرها . و قد أحيطت القـرية التي بنيت حول المحرس الاغلبي بسـور منذ القرن الثامن هـ/ XIVم ، وكان يعقد بها سوق أسبوعي.

– أومة : قرية قريبة من المحرس، عامرة في القرن الثامن هـ / XIVم (4).

---

(1) ابن ناجي، **معالم** ،ج IV، ص199 . مقديش ، **نزهة** ، جII ، ص 334.
Brunschvig, Hafsides, T I,p. 311 . Carte Topo. de la Tunisie , Feuille de Agareb .

(2) التجاني، رحلة ، ص 84. C.T. T . , Feuille de Agareb

(3) العبدري، **رحلة** ، ص 237. البرزلي ، **جامع** ، ج II، ص 113، 154. مقديش ، **نزهة** ، ج II، ص 445 (ذكر بنقطة أسرة محـمد الرقيق بوعكازين الذي دفن بقرية مجاورة وهي مـسعودة الواقعة شمال غـرب نقطة ، حاليا يوجد واد مسعودة وسيدي بو عكازين ،و كانت عامرة في القرن الثامن هـ .

(4) القاضي عياض، **مدارك** ، تراجم مستخرجـة لمحمد الطالبي، ص 320. التجاني، رحلة ، ص 69، 85. الوزان ، **وصف** ، جII ، ص 92–93. مارمول ، **إفريقيا**، ج III، ص 101. مقديش ، نزهة ، جII ، ص 313، .
Lanfreducci et Bosio , **Cote**..,p. 508 . Soucek , **Tunisia** , ..p. 115 .

– قصـر يونقة : يقع هذا القصر القديم (Iunci Sofiana) تسعة كلم جنوب غربي المحرس، بين السخيرة القديمة والجديدة . شيّدت أسواره عهد جستنيان الثاني 579–578 م. كان عامرا في القرن السادس هـ ، ثم تقلص دوره فأصبح مجرد برج في العهد الحفصي ، قبل أن يندثر في أواخر هذه الحقبة، وإن ظلت المنارة قائمة الى يومنا هذا . وقد استقرت بعض الاسر المنتسبة اليه بسفاقس (1).

وبالتالي، فان أغلب هذه القرى اندثرت في الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، نتيجة حركات القرصنة البحرية وتفكك الهياكل الاقتصادية التقليدية والمجاعات والأوبئة التي اجتاحت البلاد . وهو ما يأتي برهانا إضافيا على وهمية الكارثة الهلالية.

---

(1) الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص170. مقديش ، **نزهة الانظار** II، ص 242.

Brunschvig , **Hafsides** , TI ,p. 311. Soucek , **Tunisia** , p. 115 .

Pringle, The **Byzantin fortifications** , T I ,p. 202-203 .

Trousset , Slim , Paskoff et Oueslati , Les Iles Kneis et le monastère de fulgence de Ruspe , In **Antiquités Africaines** , 1992,p.223 .

3) بلاد الساحل : التشكّل الجديد :

مثّل الساحل وحدة جغرافية واقتصادية وإدارية متميّزة عن سائر البلاد ، فهي قرى متصلة بعضها ببعض تمتدّ من شمال سوسة الى ناحية صفاقس ، لا تفصل بين الواحدة والأخرى سوى غابة الزيتون . وتسمّى منذ العهد الاغلبي بساحل القيروان، لامتداد ملكية السكان بمدينة عقبة الى بلاد الساحل، وظهور خط من الحصون والأربطة متصل من أهرقلية الى نقطة ، ممثلا الدرع الحامي للقيروان، وذلك فضلا عن الدور البحري لكل من سوسة والمهدية (1).

وبديهي القول أن غابة الزّيتون شدت الانسان للاستقرار منذ العهد البوني ، وصولا الى الفترة الوسيطة التي شهدت تبرعما لهذه الغابة ، حتى أنها شملت بلاد قمودة وجنوب صفاقس. ومن الملاحظ أن مفهوم بلاد الساحل اقترن في العصر الوسيط بمدى امتداد الغابة ، و أن التناسب جلي بين التعمير والزيتون ، فقد احتوت كورة رصفة على 360 معصرة للزيت ، وعلى عدد كبير من القرى ، وكانت إحداها عنوانا للارتباط بين الزراعة والعمارة : وهي باجة الزيت (2).

على أن هذه الغابة تعرضت الى الاهمال والتلاشي طيلة القرنين الخامس هـ والسادس هـ ، وذلك على إثر تفكك الهياكل الزراعية القديمة ، من انهيار المنشآت المائية وتراجع فاعلية الضيعات الكبرى والزراعات الاحادية المرتبطة بالتسويق ، وانقطاع الطرق . مما أدى الى أنكفاء كل جهة على نفسها وانحسار العمران وظهور مجالات شاسعة غير مستغلة وانتشار البداوة ، حتى أضحى الزيتون «الجالي» ممتدا على مسيرة ثلاثة أيام وعرض يوم ، بين سوسة وصفاقس . ولم تعرف إعادة تعمير الا في العهد الحفصي ، لما وقع إحياء الأجنة المحيطة بالمدن والقرى مثل المنستير وطبلبة والضيعات الكبرى التي امتلكها أعيان القيروان في العهد الأغلبي، من ذلك ضيعة سحنون التي رأى فيها ابن ناجي **« عجبا من حسن أشجاره »** (3).

كما عرفت الشبكة الحضرية خلال القرنين الخامس والسادس هـ تغييرات هامة، أدت الى انفصال بلاد الساحل عن مدينة القيروان التي تراجع دورها الاقتصادي، وتكوينه لوحدة جغرافية واقتصادية ذات علاقة مع البر والبحر، تنتقل من التعاون

---

(1) حول ملكية أهل القيروان للضياع بالساحل ، راجع ملكيات عبد الرحيم الزاهد واسماعيل تاجر الله وسحنون للزيتون ، في : المالكي، **رياض النفوس** .

(2) اليعقوبي، **البلدان** . ابن حوقل ، **صورة الارض** . المقدسي ، **أحسن التقاسيم** ، ص 227،226. البكري ، المسالك ، ص 19–20.

(3) ابن ناجي ، **شرح** ، ج II ، ص 191 .

والتكامل الى القطع والغارة . فقد عرف الخوف من السفن القادمة من البحر منذ أن حل النورمان بهذه الربوع ، رغم الهزيمة القوية التي منوا بها في رأس الديماس . ثم تواصلت الموجات الغازية ، فكانت تارة من الصقليين و أخرى من المدن التجارية من جنويين وبيشانيين وقطلانيين وغيرهم. على أن الساحل اكتسب حصانة نسبية بفعل دور القبائل البدوية والقصور الناشئة . وفي الجملة، تضرر من جراء الغزو الخارجي والتوترات الداخلية الناجمة عن حركة بني غانية وردود الفعل الموحدية وغارات القبائل البدوية . وقد أخذ في الاعتبار هذه المعطيات عند إعادة التعمير لتأمين أهل القرى الذين كانوا يتخذون الخفراء على زروعهم خوفا من البدو المحاربين، ويخشون الهجومات الفجئية لقراصنة البحر .فكان الانطلاق من نموذج مستجد وهو القصر والزاوية (1).

فبعد أن أصاب الاهمال العدد الكبير من الرباطات ، عوضت الزاوية الرباط، وانتشرت هذه الظاهرة بسرعة منذ القرن السابع هـ حتى تسربت الى ما بقي من الحصون، ومن بينها قصر المنستير الذي أصبح يسمى في القرن التاسع هـ زاوية قصر المنستير . وبالتالي ، نشأ خط من الزوايا والقصور على طول الساحل ، وخط ثان غرب بلاد الساحل(2).

وبرز في الخط الاول قصور المنستير وطبلبة وهيبون والشابة ، وفي الخط الثاني : منزل قديد والكنائس وجمال وبوذر وملول والجم وقصور الساف . ولم تكن كل هذه القرى قديمة ، إنما البعض منها نشأ لأول مرة ، أو على الاقل اتخذ في العهد الحفصي مظهرا جديدا ، إذ شيدت حول القصور و الزوايا ، وأحيطت في الغالب بأسوار من الطابية ، وكانت منطلقا لاعادة تعمير الارض ، بعد أن أضفيت الصبغة الحبسية على كثير منها خوفا من الغصب والتعدي .

على أن أطراف بلاد الساحل تعرّض لضغط البدو الذين أصبحوا عنصرا هاما في الخارطة الجغرا–بشرية للجهة ، وتعددت النزاعات في تلك الحقبة ، فكانت تارة بين البدو وأهل القرى في الاطراف ، مثل القلعة والوردانين والزرمدين وهبيرة ، وأخرى بين أهل القرى أنفسهم ، مثل النزاع بين مزاتة ومزغنة قرب سوسة وعروة وملول قرب المكنين(3).

(1) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV، ص 61.
(2) راجع نص الوثيقة التي نشرناها في المقال التالي : وثيقة في التاريخ الريفي ..نفس الاحالة.
(3) راجع حول هذه الاحداث : التجاني، **رحلة** ، ص 56 . ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص63 .

أ) مدن الساحل :

– مدينة المهدية :الانحدار البطيء :

بعد أن كانت مدينة أميرية ، مركزا لكامل إفريقية في العهدين الفاطمي والزيري، تحولت الى مجرد مدينة صغيرة ، تتحكم في الوطن المحيط بها ، والممتد حسب إشارات متفرقة واردة في المصادر الى حد بوذر ومنزل بني خيرة وطبلبة والجم .

وقد تميزت منذ بداية نشأتها بتحصيناتها القوية ، ففضلا عن قصر جمة ، الذي أصبح يعرف في العهد الأغلبي بقصر الرباط ، فان سور المدينة كان غاية في الحصانة، وخاصة باب الفتوح الذي أطنب المؤرخون في وصفه .وكان مزودا بثمانية أبراج حسب البكري، وأربعة حسب ابن الاثير، وستارة بلغ ارتفاعها حسب مارمول 12قدما 42, 3م، وأحيط بخندق يجري فيه الماء عند الحصار (1).

واشتهرت المدينة في العهد الحفصي بسجن المطبق الذي تكون من دواميس تحت الارض يحمل اليها المسجونين من مدينة تونس وغيرها . واستمر الميناء الفاطمي المنحوت في الصخر الذي كان يتسع لنحو ثلاثين مركبا مستعملا في العهد الحفصي، كما ظلت إحدى داري الصناعة ا لفاطميتين فاعلة في تلك الحقبة ، وكان موقعها قرب المسجد الجامع ، وهي بناية مستطيلة محاطة بسور خاص بها حسب خرائط القرن السادس عشر. مما يفسر الدور الحربي الذي لعبته المدينة في المقاومة البحرية ومهاجمة القراصنة (2).

عانت من غدر قراصنة البحر ولصوصه . فقد قام النورمان بتخريب ما تبقى من مدينة زويلة المحاذية لها أثناء فترة الاحتلال الممتدة بين سنتي 543–555هـ/ 1148–1160م (3).

أما أسوار المهدية ، فانها رممت عديد المرات في العهد الحفصي للوقوف في وجه الغزاة ، فكانت على التوالي سنوات : 1205م ، 1306م ، 1317م . وفي سنة 1390م، تمكنت من التصدي لهجوم جنوي – فرنسي رغم ضخامة العتاد المستعمل والعدد الكبير للسفن المهاجمة : 620 سفينة .ودام الحصار شهرا كاملا دون أن تتمكن القوات المعادية من دخول المدينة ، مما أجبرها على الانسحاب .

(1)يتضح من خلال نص المالكي (**رياض النفوس** ، جII، ص 234) أن قصر جمة الذي يعرف الان بقصر الرباط بالمهدية يقع في شبه الجزيرة ، وليس بهيبون .انظر : ابن ناجي ، **ن.م** ، ج IV . ص69 . ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 29–30. البكري، **مسالك** ، ص 29 .
N. Jalloul , Histoire top. de Mahdia , In **Cahiers de Tunisie** , n 162-163.
(2) البكري، نفسه .ابن الطواح ، **سبك المقال**، ص 162. الحميري، **الروض المعطار**، ص .269 القاضي النعمان، **المجالس**، ص 535 (تحدث عن داري صناعة بالمهدية).
(3) Idris , **Les Zirides** , T II,p. 452 .

وقد أثار هذا الغزو نقاشا حادا حول مدى جدوى الأسوار ،إذ ساند بعض العلماء ضرورة هدم الأسوار لتنظيم المقاومة واسترجاع المدينة عند احتلالها من طرف الغزاة فيما عارضه الأغلبية (1) .

وفي سنة 927هـ / 1520 م ، هاجمها الاميرال بيدرو نافارو(P .Navarro) لكن دون جدوى إذ أجبر على التراجع والانسحاب .وبعد أقل من عشرين سنة (946هـ / 1539م) ثارت في وجه الاسبان و أصبحت تابعة لدرغوث الى حد سنة 1550م ، لكنّها سقطت من جديد في يد الاسبان الذين خربوا حصونها وأخلوا عمارتها ، وفر سكانها ثم استرجعها العثمانيون (2).

– مدينة سوسة : *فاعلية التجارة البحرية* : تقع هذه المدينة القديمة على شرف صخري ، قرب البحر . وكان لها منذ العهد البوني دور بحري هام ، و تواصلت هذه الفاعلية طيلة العصر الوسيط ، وذلك رغم التراجع السكاني الذي عرفته في العهد الحفصي : فقد بلغ عدد السكان ثلاثمائة كانون في مطلع القرن السادس عشر ، و1500 ساكن في نهاية القرن(2).

*الميناء : أسس الاغالبة المرسى الذي يفترض أنه مرسى داخلي منحوت في الصخر ، وقد ورد في وثيقة إيطالية أن هذا الميناء الداخلي كان مزودا بمدخلين ،وأخذ شكل مستطيل قياساته 550 x 300 م . على أن الرمال بدأت تترسب فيه منذ القرن التاسع هـ ، حتى أصبحت السفن حسب أدورن تفضل أن تحط في جون غير محمي من الرياح . و يبدو أن الأمر انتهى الى إهمال هذا المرسى في بداية العهد العثماني، إذ قال بيري رايس أن الميناء القديم صار غير مستعمل (3).

*دار الصناعة : تأسست في العهد الاغلبي وظلت فاعلة في العهد الزيري ، على أنه لم تترفر لدينا معلومات حولها في العهد الحفصي ، ويرجح أن يكون دورها قد تضاءل إن لم يكن انقرض (4).

السور : كان بها ثمانية أبواب في القرن الخامس هـ/ XIم ، لكن العدد تراجع الى ثلاثة في العصر الحفصي : باب البحر وباب الغربي وباب القصبة ، واقتصرت الوثيقة

---

(1) انظر : البرزلي ، **جامع** ، ج I، ص 163ب . Brunchvig, **Hafsides**, T I,p.309

(2) مارمول ، **نفسه** ، ج III، ص70–94 .

Brunschvig, Ibid , T I,p. 309 . Soucek, **Tunisia** , op. cit. ,p. 107-109. Lanfreducci et Bosio , **op.cit** . ,p513.

(وقد ذكر بيري رايس أن سكانها كانوا شديدي الكراهية لغير المسلمين ، من جراء أحداث الغزو بدون شك ، وانهم لا يقبلون إيوائهم داخل الاسوار . كما ذكر أن قرية تعد نحو مائة ساكن أعيد بناؤها غرب المدينة بنحو ثلاث كم سنة 1587م) .

(3) الوزان، **وصف افريقيا**، جIII ، ص64–67 Lanfreducci et Bosio , op.cit. ,p. 513

(4) Brunschvig, **Deux récits de voyage** ..,p. 221 . Despois , **Le Sahel et la Basse stepp** p.491. Idris, Les Zirides, T II, p.44

الايطالية على ذكر بابين : باب البحر والباب الجبلي ، وهو مايعني أن بقية الابواب وقع غلقها في آخر العهد الزيري على إثر الاضطرابات الحاصلة. واحتوت كل جهة من السور على عشرة أبراج . أما الجدران فهي من حجارة منذ العهد الاغلبي، على أن بعض الاجزاء التي احتاجت الى الترميم في القرن الثامن هـ أعيد بناؤها باللبن ، وبلغ عرضها 12 قدما ، وطولها 2500م، ممتدا على مساحة 32 هك (1).

وتحول برج خلف الفتى الذي وقع إنشاؤه سنة 245هـ / 859م الى قصبة في العهد الموحدي ، بعد أن رمم سنة 602هـ / 1205م (2).

على أن حصانة المدينة لم تمنع من تعرضها لغزوات القراصنة وضغوطات القبائل البدوية وخاصة حكيم (في أواخر القرن السابع هـ / XIIIم وبداية الثامن هـ XIV/ م)، وذلك رغم قيام عدد من المقاتلين (بلغ عددهم أربعمائة في بداية العصر العثماني) والمرابطين بمراقبة الاسوار . وقد ذكرت الوثيقة الايطالية أن عدد الرقيق من الاوروبيين الموضوعين في مطامير بلغ الخمسين (3).

* الاسواق : اشتهرت أسواقها بصناعة الثياب ، من غزل وحياكة وقصارة وكمادة . فكانت تنسب اليها العمائم السوسية والثياب الرفيعة البيضاء . وتخصصت أسواق الربع السلطانية في تجارة الثياب والمواد الأوّلية ، فبيع مثقال الغزل بمثقالين حسب الحميري. كما ذكرت بها حمامات وفنادق للتجار الاوروبيين ، وخاصة الجنويين الذين منحهم السلطان امتياز صيد التن في القرن التاسع هـ / XVم . وكانت عديد البضائع تصدر انطلاقا من سوسة مثل الصوف والجلد والنحاس والزيت (4).

وحصيلة القول ، فان الفاعلية الاقتصادية للمدينة ودفاعاتها العسكرية مكناها من التحكم في مجال شاسع ، وإن كان متغيرا حسب طبيعة العلاقة القائمة بين القبائل والمدينة . مما يخول لنا الحديث عن ناحية تتجاوز وطن سوسة كي تشمل بلاد السّاحل.

---

(1) البكري، **مسالك**، ص34–35. الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص 125. العمري، **مسالك** ، ص 84. القلقشندي ، صبح الاعشى ، جIV ،ص 389.

Lanfreducci et Bosio , **op.cit.** ,p. 513 . Soucek , **op. cit.** ,p. 97 .

Brunschvig, **Hafsides** , TI,p.308 . Idem , Deux récits de voyage ..p. 22

(2)Brunschvig, **Hafsides** , T I ,p. 307 .

(3) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 35. القلقشندي ، **صبح الاعشى** ، جIV ، ص 381.

Lanfreducci et Bosio , **op.cit.** ,p. 513 .

(4) الادريسي، نزهة، ص125. ابن بطوطة، رحلة، ص20. القلقشندي، **صبح الاعشى**، ج IV، ص381. ياقوت، معجم، دار صادر، ج III، ص281–282. الحميري، **الروض المعطار**، ص330–331 . الونشريسي، **ن.م**. ج X، ص 242.

– *المنستير : الرباط و البلد* : ظهرت في القرون الاولى ثلاثة رباطات لمراقبة الساحل و تأمين الحماية البحرية لمدينتي سوسة والقيروان .وهذه القصور هي المنستير وشقانص وابن الجعد .

– الرباطات : يوجد رباط شقانص في الطرف الشمالي للمنستير ، و كان قبلة للمرابطين منذ العهد الأغلبي . وظل مستعملا في نهاية القرن السادس وبداية السابع هـ/ XIIIم ، غير أنّه صبح ينزل به مجموعة من الشبان المتعاطين للهو والسرقة ، حتى أنهم حملوا للمهدية التي كان يحكمها وال شديد البأس . وهو ما يعني انتماء المنستير الى وطن المهدية في بداية العهد الحفصي(1).

أما الرباط الثاني فهو قصر أبي دويد الاغلبي الموجود قبالة رباط المنستير، وهو أقل قيمة منه إذ أن قياساته تبلغ : 40 x 34 م . ويسمى حاليا زاوية سيدي ذويب.

ومن الاربطة الاخرى يمكن أن نذكر قصر ابن الجعد الذي بناه ابن الجعد في العهد الاغلبي في الجزيرة المقابلة للمنستير . وقد ظل مستعملا في بداية القرن السابع ، أثناء حياة عبد العزيز المهدوي ، ثم أن السلطان أبي فارس عبد العزيز رمّمه (2).

على أن أهم رباط هو قصر المنستير الذي بناه هرثمة بن الأعين سنة 180هـ .وقد شهد اتساعا في حقب عديدة أهمها الحقبة الاغلبية والزيرية . وفي سنة 828هـ / 1424م ، قام السلطان أبو فارس عبد العزيز بتوسعة الرباط القديم ، وبناء مدخل متعرج وصحن كبير لاحتماء أهل المدينة أثناء هجومات القراصنة . ومنذ تلك الحقبة ، ذكر علىٰ رأس القصر مسؤول أطلق عليه تارة صاحب قصر المنستير وأخرى شيخ القصر ، فيما سماه أدورن قائد، أما الرباط ، فانه أصبح يسمى زاوية كما ذكر ذلك بيري رايس ووثيقة حبس (3).

–السور: نجم عن هذه التحصينات الهامة تكون تدريجي لبلد ملاصق لقصر المنستير، أهل بالسكان منذ العهد الزيري ، كما يفهم من نص البكري.

ولم تصبح النصوص صريحة في هذا المضمار الا في النصف الأوّل من القرن السادس هـ ، عندما أحيطت المنستير بسور ، تم ترميمه عهد المستنصر سنة 658هـ / 1260م ، لما أمر ببناء الدرب وباب الخوخة . وقد وافقت هذه الحقبة إعادة غراسة غابة الزيتون المحيطة بها ، وبسط المرابطين إيديهم على حمى القصور وأجنة الزياتين ، رغم معارضة بعض الفقهاء لذلك .

---

(1) الدباغ ، **مناقب الدباغ** ، جI ، ص 39ب– 140.

(2) ابن الطواح ، **سبك المقال** . المالكي ، رياض النفوس، ج II، ص116–117. الزركشي ، **تاريخ** ، ص 116.

(3) ابن ناجي، **معالم الايمان** ، ج IV، ص 173، 234. راجع كذلك مقالنا : وثيقة في التاريخ الريفي ، نفس الاحالة. سمي المسؤول على الرباط في العهد الزيري : امين قصر الرباط (راجع نقائش المنستير) .

وفي القرن التاسع هـ/ XV، كانت المنستير مدينة صغيرة، ذات مساحة متقاربة مع مدينة سوسة. وقد شملت أنذاك الاراضي المحبسة على رباطاتها بلاد الجريد وهنشير ميانش الذي أصبح يسمى هنشير بن منصور.

وظلت الاسوار متواجدة في القرن السادس عشر م ، إذ ذكر لانفردوسي أن جدران السور غير مرتفعة ، تخترقها أبواب ثلاثة : باب شمالي وأخر جنوبي وثالث يفتح على الرباط ويسمى باب الغدر ، وأنها كانت عرضة لحركات القرصنة ، وأخرها غزو الطليان لها غانمين أربعين أسيرا سنة 1586م .مما يفسّر قلّة عدد سكانها أنذاك إذ بلغ أربعمائة في الشتاء وأقل بكثير في الصيف (1).

وفي نهاية العصر الوسيط ، تحدث الوزان عن ناحيتها ، فقال أنه يوجد خارجها عدد كبير من الممتلكات الزراعية المغروسة بأشجار الفواكه ، فضلا عن العدد الكبير من أشجار الزيتون ، غير أن أهلها اشتغلوا أكثر بالصيد والنسيج . وأضاف الحميري أنه توجد قربها ملاحة عظيمة تشحن منها السفن الملح الى البلاد . وقد أتفق مع سائر المصادر على أن الاعراب لا تضرهم في شيء (2).

وفي الختام ، فان عملية الاحياء لأحمية الرباطات وزراعة الزيتون كانت واضحة بالمنستير ، وهو ما يفسر الاتساع العمراني لهذه الحصون وأهميتها العسكرية طيلة تلك الحقبة .

ب) القرى والقصور الساحلية وغابة الزيتون :

– *الحزام الداخلي* : تشكل هذ الحزام الغربي من عديد المنازل والقصور القديمة التي كانت عرضة لغارات البدو وهجومات القراصنة ، حتى أن كثيرا منها اندثر بفعل الاضطرابات الاجتماعية ، ولم تصمد سوى القصور والقلاع والزوايا . وكما انتظمت حول القيروان وتونس شبكة من القرى والبلدان ، فان مدن الساحل كانت محاطة بمجموعة من القرى الزراعية القائمة على غراسة الزيتون ، والتي كانت تفصل بين المجالين البدوي والمديني . ومن أهم القرى العامرة في العهد الحفصي ، نذكر :

* القلعة الصغيرة : اعتبرت إحدى القلاع الحامية لمدينة سوسة من الجهة الغربية على أنها كانت إقطاعا للأعراب، في القرن السابع هـ / XIIIم (3).

---

(1) البكري، **مسالك** ، ص 36 الادريسي، **نزهة المشتاق** ، ص 108، 126. الوزان ، **وصف افريقيا** ، جII ، ص 84–85 .
Idris, **Zirides** , T II,p. 447 . Brunschvig , Deux **récits de voyage** ..,p.211,224.
G . Marçais , Monastir In **E** . I .

(2) الوزان ، نفس الاحالة . الحميري، **الروض المعطار** ، ص 551.البرزلي ، **نوازل** .

(3)ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 106.

* منزل قديد : يقع قرب الكنائس ، بين المرتفع والسهل، إذ كان يطلق عليها تارة حفرة قديد وأخرى الشرف . ويبدو أن آثارها تقع بهنشير القدادة قرب مساكن . **«كانت بلادا عامرة كبيرة »** في القرن السابع هـ / XIIIم ، وقد بلغ سكانها نحو 300 شخصا على أنها كانت عرضة لغارات البدو . مما دفع ببعض أهلها الى الهجرة الى القيروان، وكان من بينهم أبو علي سالم القديدي أحد صلحاء المدينة وقد عرفت أمه بكونها غفيرة الساحل(1).

*منزل قاسم : يقع بمقربة من منزل قديد ، وقد شابه مصيرها سابقتها بعد نهاية القرن السابع هـ / XIIIم (2).

*قصر الكنائس :قرية واقعة على الطريق بين القيروان والمنستير ، ورغم الأزمات المتتالية ، فالظاهر أن حصونها القديمة حمتها من البدو المحدقين بها (3).

*البرجين : يشير الاسم الى وجود تحصينات قديمة بها، من صنف الأبراج .وقد كانت عامرة في العهدالحفصي ، وانتسب اليها الفقية البرجيني (4).

* منزل كامل :يقع هذا المنزل الاغلبي على الطريق الرابطة بين المهدية والقيروان . ويبدو أن مسجد أبي علي الحالي يرجع الى تلك الحقبة إذ احتوى على تيجان أعمدة قديمة تعلوها عقود طولية ، تقسم المعلم الى أسكوبين وبلاطتين ، وذلك قبل أن يشهد اتساعا في حقبة متأخرة . ومن المرجح تواصل التعمير بهذا المنزل في العهد الحفصي ، رغم صمت المصادر (5).

* مسجد غانم : يقع على مقربة من الوردانين التي كانت في تنافس معه في القرن السادس هـ / XIIم . ويشير وجود الأسد بها الى أهمية النباتات المحيطة بها ونهاية غابة الزيتون (6).

---

(1) نفسه ، ج IV، ص 22–23، 42، 54، 81، 84–86. .ومما ذكر أن عدد الرجال بالقرية أثناء الصلاة بلغ ستين ، مما يجعل عدد سكانها في حدود الثلاثمائة .

(2) المصدر نفسه ، ج IV ، ص 54.

(3) المصدر نفسه ، ج III، ص 219، 225، ج IV، ص 44. مناقب الدّهماني ، الجزء الاول، 17ب،132،133،141ب،142.

(4) الدباغ ، **مناقب الدهماني**، ج I ، ص 31ب .كما ورد ذكر الفقيه أبي محمد عبد الله البرجي وكنيسة البرج .

(5) البكري ، نفسه ، ص 29 . وتشير المواقع المحيطة بالمنزل الى قدمه ، إذ يوجد قريبا منها قرى بني كلثوم وبني ربيعة وضياع ابن الجارود .ويبدو أن القبائل البدوية تسربت الى هذا المجال في العهد الحفصي ، وتملكت جزءا منه ، كما تدل عليه الطوبونوميا ، أذ ذكر هنشير الهدادجة جنوبه نسبة الى بني هداج من الكعوب .

(6) الدباغ ، **مناقب الدهماني**، ج I ، ص 135 ، 140.

* مصدور : تقع على طريق سوسة – جمال ، وهو المسمى طريق الوسط أو السلطنية . وتبدو أنها من القرى الناشئة في العهد الموحدي – الحفصي لاقتران اسمها بقبيلة مزدور المصمودية (1) .

*منزل خير : لم يرد ذكر هذا المنزل في المصادر ، ويستبعد أن يناسب منزل بني خيرة ، وهي قرية من عمل المهدية ، عامرة في القرن السابع هـ ، لقربها من مدينة سوسة . وتقع بدورها على الطريق السلطاني .والظاهر أنها من المنازل الاغلبية التي استمر تعميرها في العهد الحفصي . وتأتي المعالم المتبقية منها حجة على ذلك : فالفسقية القديمة ذات الشكل المستطيل وذات المواجل والسواقي المتعددة ، شابهت الفسقيات الاغلبية في الدعامات نصف الاسطوانية المستندة اليها. أما المسجد الجامع، فقد تكون من ثلاثة بلاطات وأسكوبين ، يفصل بينها ركائز وعمودين قديمين ، حمل إحداها نقيشة لاتينية . و قد استندت الاقبية المتقاطعة الى عقود تنتهي بتاجين قديمين (2).

* بوذر :قرية من نظر المهدية، على طريق القيروان –المنستير ، شرق جمال. ينتسب اليها الفقيه أبو الحسن علي بن محمد البوذري الهواري (ت 711هـ / 1311م)، وأبو زكريا البوذري ، وهوأحد رواة يعقوب الدهماني . وتكوّن مسجدها من بلاطات وأساكيب ثلاثة (3).

* جمال :ظهر هذا القصر الواقع على الطريق السلطاني في العهد الحفصي. وقد اكتسب أهمية عمرانيةكما تدل عليه كثرة المعالم الراجعة لتلك الحقبة ،ونذكر من بينها : جامع القصر (أو المراكشية) الذي يعد أقدم معلم بالبلد وجامع ابن عرفة نسبة الى الامام ابن عرفة كما تؤكد ذلك نقيشة كتبت على إحدى أعمدته و جاء فيها: «بسم الله الرحمان الرحيم / كمل جامع ابن / عرفة في عام ثمانماية 819 هـ؟» .أما المعلم الثالث، فهو جامع السراج الذي يبدو أنه يرجع الى تلك الحقبة ، حسبما يدل عليه العدد الكبير من التيجان القديمة ومواد البناء . واعتمادا على هذه الاحداثيات ، يمكن أن نرسم صورة تقريبية لحدود القصر المتدة من باب سوسة شمالا الى جامع القصر جنوبا

---

(1)يوجد غرب مصدور دار غالب ، وهي تسمية مقترنة بالاغالبة .وفي شمالها تقع زاوية أبي عبد الله محمد بن الطاهر المايل التي ترجعها الروايات الشفوية الى القرن السابع هـ. ومما يرجح هذا الأمر طراز مسجد الزاوية المكون من بلاطتين وثلاث أساكيب قائمة على أعمدة وتيجان كورنتية جميلة تعلوها أقواس حدوية .

(2) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 49 . يبدو أن منزل بني خيرة الذي كان من عمل المهدية يناسب عقلة بني خيرة بناحية عميرة .

Beschaouch,op.cit. ,In **Africa** ,1976 .A.A.T. , F euille de Kerker

(3)ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص 122.البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص160 ب (كان البوذري مدرسا بمدرسة الكتبيين بتونس ومقيما بها) .**مناقب الدهماني**، ج I، ص1142–ب .الصيادي ، **المنستير** ، ص269.

الى الباب الغربي غربا . وهي مساحة تبدو كافية لاستيعاب عدد المنازل الذي ذكرته المصادر الاسبانية بالقصر سنة 1535م : 500 منزلا . ويبدو أن عدد سكانها لم يتطور كثيرا منذ تلك الحقبة الى حد القرن السابق ، إذ ذكر أحد الرحالة الفرنسيين أن عدد سكانها بلغ 6000 نسمة (1).

* حصن زرمدين : يقع في أطراف بلاد الساحل ، وكان عرضة للغارات البدوية . غير أن أهله كانوا يلتجؤون الى الحصن المبني بالحجارة والطين . وقد ظلّ بقايا النسيج الحضري قائما ، ويسمى حاليا البلد وسكانها البلدية ، ويطلق على مسجدها جامع البلد الذي احتوى على تيجان أعمدة قديمة . ويوجد خارج هذه المجال مقبرة أبي محمد عبد السيد الزرمديني . و لم تشهد تغييرات هامة الا في أواخر العصر الوسيط عند انتصاب زاوية بها (2).

* بني حسّان : تقع في ملتقى الطرقات الرابطة بين القيروان والمهدية، وسوسة والجم . تموضعت في شرف محاط براقد من وادي الملح من الجهتين الشمالية

---

(1) تكون **جامع القصر** من خمس بلاطات وأربعة أساكيب ، تفصل بينها أعمدة وتيجان موحدية ، مكونة من كتلة أسطوانية سفلى ذات زخرفة هندسية تعلوها أخرى متوازية الخطوط ، ومغطاة بزخرفة نباتية .كما استعمل التاج الحفصي والتاج الاسطواني الشكل ، المقعر في وسطه . وأستعملت الاقبية المتقاطعة في التغطية . وعلى غرار المساجد الموحدية ، أستعمل الصحن الجانبي والابواب الجانبية ،و تموضعت المنارة المكعبة التي لم يبق منها سوى الجزء الاسفل في الزاوية الشمالية الغربية، أما **جامع بن عرفة** ، فهو مكون من سبع بلاطات وخمس أساكيب وسقف خشبي محمول على أعمدة وتيجان من النوع القديم في الاسكوبين الاولين والحفصي ، واحتوى على نقيشتين : الاولى في المدخل ولم يبق منها سوى عبارة :« كمل بناء مسجد ابن عرفة » والثانية في أسفل عمود البلاطة الثالثة من جهة الشرق ، من الاسكوب الاخير، وكتبت بالخط الكوفي ، وقد ذكرنا نصها في المتن .أما **جامع السراج** أو الرمان، فاننا نرجح أنه يعود الى الحقبة الحفصية : فهو مكون من ثلاث بلاطات وثلاثة أساكيب ، مقامة على أعمدة وتيجان قديمة متقنة الصنع ، ويتقدم قاعة الصلاة صحن وتوجد في أحدى زواياه منارة مكعبة .وعلى بعد نحو كم من جمال، توجد زاوية قنطش التي دفن بها فرج الانصاري ، ولا يستبعد ان تكون من الزوايا الحفصية كما أشار الى ذلك ديبوا . ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد عدول المنستير سنة 1186هـ / 1772م يسمى أبو محمد عبد الله القنطيش . راجع مقالنا : وثيقة في التاريخ الريفي ...، ص 224. راجع كذلك :

Despois, Le **Sahel et la Basse Steppe,** p164. Documents Inédits, In **R.A.**, 1877, p.215. Pélissier , **Description de la Régence de Tunis.**

(2)تقسم القرية حاليا الى حومة البلدية وأولاد سيدي اسماعيل الذين وفدوا على القرية في القرن السادس عشر ، حسب الرواية المتداولة . وتشير أسماء أخرى (حومة جندوبة وبلد النفوسيين الواقعة غرب رأس المرج) الى وجود مجموعات وافدة من جبل نفوسة . وفي غرب القرية ، توجد مقبرة سيدي محمد ، التي احتوت على قاعة للدفن وعثرنا فيها على قبرية أخذت شكل قرص ، وهو ما جعلنا ننسب هذه المقبرة الى تلك التي ذكرها التجاني ودفن بها أبو محمد عبد السيد الزرمديني . راجع : التجاني، **رحلة** . ص 55-56.

Lewicki, L'émigration des Nafusa dans la Sahel Tunisien, In **Folia Orientala**,1960, p. 175-191.

والجنوبية ، وأقيم في أعلاه معلم حفصي ،وهو زاوية أبي الطيب ، الذي دفن هناك في القرن السابع هـ / XIIIم (1).

* منزل الفارسي : تقع غرب المكنين . وقد عثرنا هناك على قبرية حفصية، الموقع ، وهو ضريح عبد الحق بن عبد الرحمان بن عبد الحق بن الحداد التنمالي المتوفى نحو سنة سبعمائة هـ (2).

* عروة وملول : قريتان متجاورتان ، ذكرتا في القرن السابع هـ / XIIIم ، عند نشوب نزاع بينهما. الأولى ذات جذور عربية والأخرى بربرية . على أننا لا نعتقد مثل هذه النزاعات العادية التي تقع بين الاجوار قد أدت الى اندثار القريتين كما ذهب الى ذلك برانشويك، إنما المرجح أن ذلك وقع على إثر أزمة القرن الثامن هـ / XIVم .

ونجم عن ذلك انتقال سكان عروة الى مدينتي سوسة والمنستير ،و تحول القرية حاليا الى هنشير رجال عروة والسدرة ،و هو واقع نحو ثلاثة كم غرب ملول.

وعرفت ملول الظاهرة نفسها ، أثناء أواسط القرن الثامن بدليل أن علي بن محمد بن عبد الناظر الحميري تحوّل الى مدينة صفاقس في أواسط القرن الثامن هـ / XIV م ، مع أسر ملولية أخرى، فيما استوطن أخرون بالقيروان .

---

(1) اخطأ ديبوا لما اعتبر أنة ليس من الثابت رجوع القرية الى العهد الحفصي ، إذ أن زاوية أبي الطيب ترجع الى تلك الحقبة . ويتكون المعلم من قاعة أمامية وغرفة دفن ، احتوت الاولى على بلاطتين قائمتين على أعمدة قديمة وتيجان متعددة الاصول (قديمة وحفصية وعثمانية) . أما غرفة الدفن ، فقد علتها قبة ذات حنايا مغطاة من الداخل بلوحات خزفية من القرمود ، وانتصبت في الزاوية الشمالية الغربية قبرية كتب عليها : « ... / ... / ..هذا قبر / العالم أبي الطيب توفي ../ ..وستمائة /..» . وغطت واجهة المعلم ثلاث دعامات هرمية ، شبيهة بدعامات جامع الهوا بتونس ، كما نرجح بناء المسجد الجامع في العهد الحفصي ، فهو مكون من بلاطات ثلاثة وأسكوبين ، تفصل بينها أعمدة وتيجان متنوعة (حفصية ومحلية) ، وتعلوها ثلاثة أقبية طولية . وفي الزاوية الشمالية الشرقية من المعلم ، بنيت منارة مكعبة من النوع الموحدي. راجع :

Despois , Le **Sahel et la Basse Steppe** , p. 152 .A . Mahjoubi , **Belalis Maior** .,p. 44.

(2)وهذا نص النقيشة التي كتبت على لوحة من الرخام الابيض(62 x 32 سم) بخط نسخي بارز، إرتفاع أسطره 5سم :« بسم الله الرحمن (الرحيم) / والصلاة (على) سيدنا محمد / وعلى أله وصحبه أجمعين / الحمد لله رب العالمين / هاذا قبر (أحب من قد يصدق) العبد الفقير الى ربه / الراضي عنه عبد الحق بن عبد الر / حمن بن عبد الحق بن الحداد / التنمالي المهدي.../ التي أشاد..الله / ونعمه عما ذكره / فمن بدله بعد ما سمعه / الذين (يبرون الله ..)سبعما(ية) / الذين طلبوه ..غفر له » تنسب هذه الزاوية حاليا الى سيدي نعيجة ، وقد بنيت سنة 1210هـ ، كما تدل عليه نقيشة الساكف التي جاء فيها بعد التوحيد و التصلية : « وكان الفراغ يوم ..سنة1210 هـ » ،وكتب على ثابوت الضريح : « الحمد لله ، جدد هذا الثابوت لضريح الشيخ الولي الصالح / والزناد القادح سيدي أبي القاسم بن المرحوم سيدي سالم / النعيجة الفارسي ، على يد حفيد الشيخ المرابط المحترم / اليوزباشي سعيد بن الشيخ أحمد ..» .

على أن هذه القرية بعثت من جديد في مكان يبعد عن موقعها الاصلي (هنشير السوق) نحو 500م ، وانطلاقا من زاوية ريفية نسبت لأبي النور . وقد احتوى هذا المعلم على غرفة دفن حفصية ، رممت في العهد العثماني .واعتمادا على ثلاث قبريات وعلى المصادر ، تمكنا من التعرف على أسرة عبد الناظر المتولية لامر هذا المعلم ، ومن تتبع أعلامها طيلة قرنين من الزمن :

وفيما يلي أسماء الاعلام الثلاثة كما ورد ذكرهم في النقائش (1):

– «الشيخ الصالح أبو محمد عبد الناظر» ، توفي سنة 673هـ / 1274م ، وعاش من العمر مائة وعشرة من السنين . عاصر « غفيرة الساحل » أم سلامة المتوفاة سنة 670 هـ / 1271م ، وابنها أبي علي سالم القديدي المتوفى سنة 697هـ / 1297م ،والذي تدخل لحل النزاع الناشب بين القريتين المتجاورتين : عروة وملول .

– «الشيخ الصالح العابد أبى عبد الله محمد بن الشيخ الصالح المرحوم أبي محمد عبد الناظر الحميري» توفي عام 720هـ / 1320م .

–«سيدي سالم بن سيدي أبو النوربن سيدي محمد بن عبد الناظر الحميري» ، توفي أول عام في القرن التاسع هـ (800هـ / 1397م) .

والى جانب ذلك فقد ذكر ابن ناجي أبا محمد بن عبد الناظر الملولي معاصرا لابي علي سالم القديدي ، وتعرض كذلك لوفاة الشيخ أبي الضياء بنورقبيل سنة 772هـ / 1370م ، تاريخ وفاة أبي عفيف صالح الصدفي (2) .

---

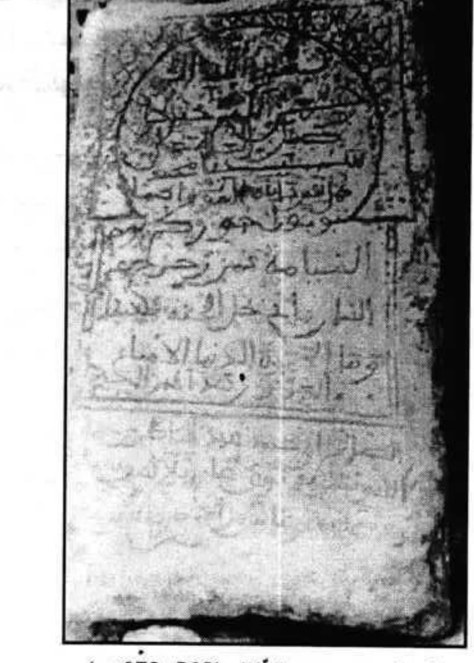
(1) نص النقيشة الاولى ،لوحة من الرخام الابيض (35 x 70 سم) ، كتبت بخط نسخي محفور ، إرتفاع أحرفه : 5, 3 سم :بسم الله الرحـ / من الرحيم و / صلى الله على / سيدنا محمد / كل نفس ذايقة الموت وانما / توفون أجوركم يوم / القيامة فمن زحزح عن / النار وادخل الجنة فقد نجا / وما الحيوة الدنيا الا متاع / الغرور هذا قبر الشيخ / الصالح أبي محمد عبد الناظر رحمه / الله ونفع به توفي عام ثلاثة وسبعين وستماية وعاش من العمر ماية سنة وعشر / سنين » .

النقيشة الثانية ، في شكل عمود ، قياساته : x3681سم ، مكتوب بخط نسخي بارز : لسم الله / الرحمن الرحيم / صلي الله على سيدنا / محمد وعلى اله و / صحبه وسلم تسليما / إنما توفون اجوركم يوم / القيامة ومن زحزح عن النار وأ / دخل الجنة فقد فاز وما الحياة / الدنيا الا متاع الغرور/ هذا قبر الشيخ الصالح / العابد الوفي ؟أبو عبد الله (محمد) /بن الشيخ الصالح (المرحوم) / أبي محمد عبد الناظر الحميري توفي رحمه / الله (ليلة) ثلثا ، الارض القدس ؟ / .. عام عشرين وسبعمائة » .

النقيشة الثالثة ، قرص قاعدته 37سم وارتفاعه 35سم ، وعرضه 37سم ، خط نسخي بارز: « بسم الله الرحمن / الرحيم وصلى الله على سيدنا / محمد قل هو نبو عظيم أنتم عنه معرضون / هذا قبر سيد (ي س)الم بن سيدي؟ أبو النور / بن سيدي محمد بن عبدالناظر الحميري توفي / رحمه الله تعالى (أول) عام في القرن التا/سع رحمه الله ونفعنا به » .

(2)ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 87، 178. مقديش ، **نزهة** ، جII ، ص 300–302. **مناقب** ، مخ،18555 ، (ورد ذكر الفقيه أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي زيان الملولي بالقيروان) . ويأتي هذا الفصل تصحيحا لما ورد في برانشويك .

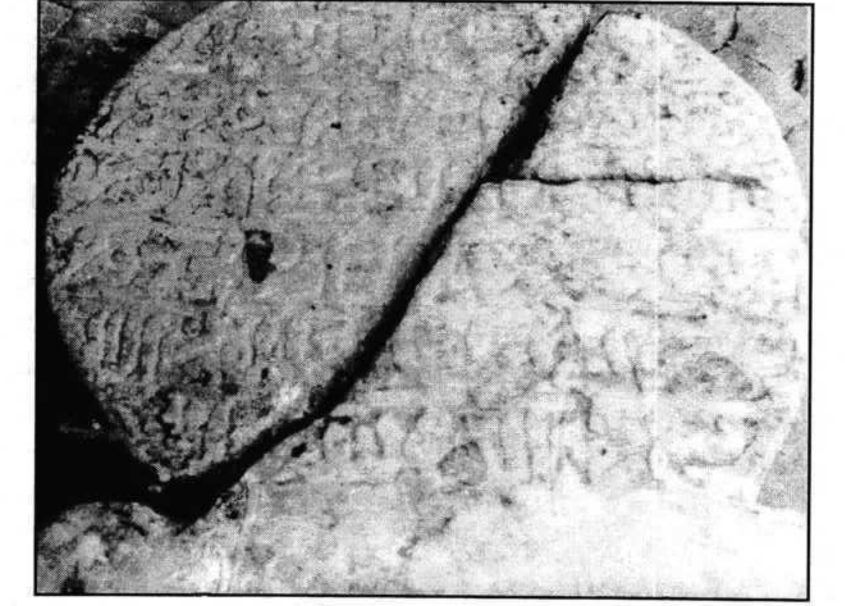
Brunschvig , **Hafsides** , T I, p. 307 .



1 – أبو محمد عبد النّاظر (563–673 هـ)

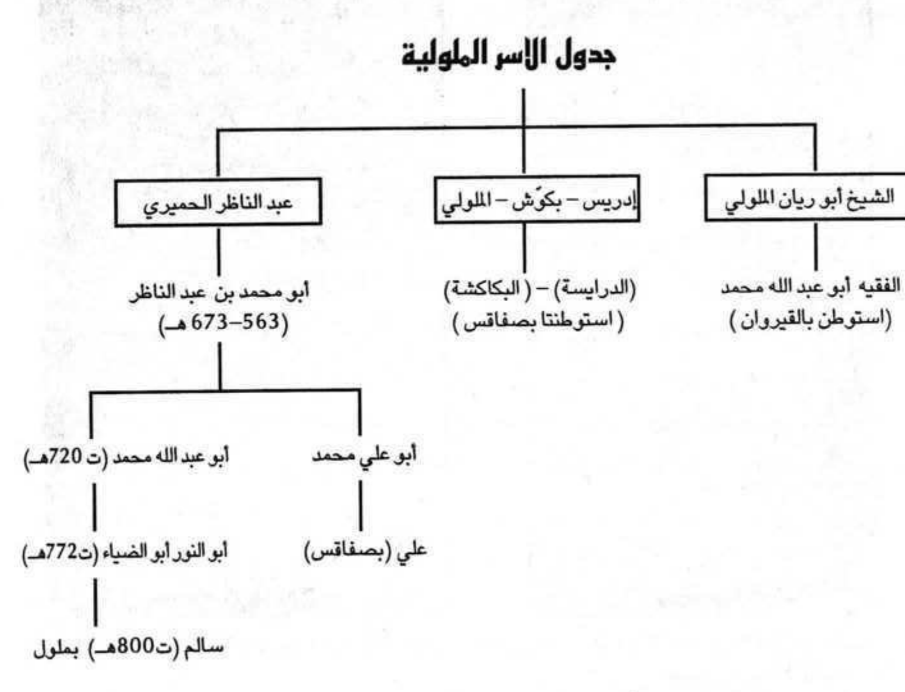


2 – أبو عبد اللّه (محمد) بن أبي محمد عبد الناظر الحميري (تـ 720 هـ)



3 – سالم بن أبي النور بن محمد بن عبد الناظر الحميري (تـ 800 هـ)

واعتمادا على هذه المعلومات ، تمكننا من رسم شجرة الانساب التالية:



ولا يخفى علينا أن أسـرة عبد الناظر الحميـري كانت من الأسر المتبقـية بالقرية ، وخاصة أبي الضيا أبي النور مـؤسّس الزاوية، وأن القرية التي نشأت في أواخر القرن الثامن هـ انطلقت من هذ ه النواة .

وخلاصة القـول ، فان ملول – سيدي بنور حـاليا هي عينة لتلك القرى الـساحلية التي اندثرت جزئيـا ثم وقع إحياؤها من جديد ، انطلاقـا من مؤسسة الزاوية الـريفية. وهناك أمثلة أخرى ذكرتها مصادرنا ، من بينها قصور الساف .

* قصور الساف : يمكن إعادة رسم بعض مـلامح هذا القصر ،انطلاقا من الوثائق المكتوبة والأثرية، و من الروايات الشـفوية . ولئن كنا لا نعرف عنه الشيء الكثـير قبل القرن السابع هـ / XIIIم، فإننا نفترض أن هذه القصور كانت عامرة قبل هذا التاريخ، لكنها شهدت دفـعا جديدا على إثر ازدياد الهجومات النورمـانية على الساحل، وما نجم عنه من ابتعـاد السكان ، وخاصة أهل سلقطة ، عن الشـواطئ . وقد كان موقع قـصور الساف مناسـبا لاحتـماء السكان ، إذ أحاطت بهـا مجموعـة من المرتفعات من جـهتي الجنوب والغرب (1).

(1) سبق الاحتلال النورمـاني للمهدية بقيادة جورجي الانطاكي سنة543 هـ / 1148م ، هجـومات عديدة شنها النصارى على المدينة ، أهمها حملة المدن الايطالية على المهدية سنة 480هـ / 1087 م ، وثانية قام بها أسطول من روما سنة 494 هـ / 1101 م ، ثم عقبتها محاولة روجار الثاني الفاشلة سنة517 هـ / 1122 م .

ولم يبرز الاسم الحالي للقرية الا في الفترة الحديثـة ، إذ نعتها مؤلف كتاب المناقب في القرن الـسابع هـ / XIIIم عند ترجـمتـه للطاهر المزوغي بكونـها «البـادية بقطر سوسـة » . على أن ذلك لا يعني عـدم وجود الاسم في العـصر الحفـصي ، بل نرجح العكس (1).

وبالتالي ، فـقد اقتـرن ذكرها باسـتقرار أحد طلبـة أبي مدين شعـيب بها ، وهو الطاهر المزوغي الذي ينتـمي الى بدو مزوغـة .وقد عـاش بين سنتي 572–647هـ / 1176–1249م ، وانتقـل مع جماعـة ،من بينهم : عبـد العزيز المهـدوي وأبي يوسف يعـقوب الدهمـاني و أبي علي النفطي وابن هناص وأبي علي التـباسـي الى أبي مـدين شعيب .

وقد كان مقره بالمسجد الوارد ذكره في المصادر ، وهو ما يعني وجود نواة قروية سابقة . غـير أن إشعاعـه الثقافي ساهم بطريقـة أو بأخرى في تعميـر القصر وازدياد أهميته .

وظهرت بـه أسرة صلحاء ، الى جـانب النواة الاصليـة لسكانه من البلدية . ومما يلاحظ تواصل فاعليتها طيلة العصر الوسيط والحديث .

وظل القصر مغمورا حوالي قرن ونصف ، أي النصف الثاني من القرن السابع هـ وكـامل القرن الثـامن هـ . ولم يذكـر من جـديد الا في عهـد حفـيـد الطاهر المزوغي : أبوالحـسن علي بن أبي الـقاسم ، المـولود سنة 776هـ / 1374م ، والمتـوفى حـسب نقيشة القبرية : 859هـ / 1454م (2).

و بما أن الطاهر المزوغي دفن بالمسجـد الجامع للقصر ، فان أول قـبرية ترجع الى حفيده أبي القاسم علي ، وهو ما يجعلنا نفترض أن الزاوية لم تنشأ الا في عهد عقبه.

(1) مناقب ، مخ 18441، ص44/ 88 .

(2) القبرية هي لوحة مستطيلة من الرخام،قياسها 6 x 36 x 62 سم ، كتبت بخط نسخي مغربي بارز ، يصل ارتفاع 5أحرفه سم ، هذا نصها :
بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على / سيدنا ومولانا وعلى آله وسلم تسليما /
كل نفس ذائقة الموت وانما / توفون أجوركم يو م القيامة/
فمن زحزح عن النار وأدخل / الجنة فقد فاز وما الحيوة/
الدنيا الا متاع الغرور هذا / قبر الشيخ الصالح الزاهد الورع /
المرحوم أبو الحسن علي بن / الشيخ الصالح المرحوم أبو الفضل /
أبو القاسم المزوغي شهر المحجوب / رحمه الله ونفع به ليلة الخميس من /
سبع لجمادى الثاني عام تسعة وخمسين / وثمانماية غفر الله العظيم لكل/
بنيه ولقاريه ولجميع المسلمين.
وكنا قد نشرنا نص الوثيقة مع تعليقات في كتابنا : **القبائل والارياف** ، نفسه ، ص 203 .

وتواصل تعميرها في عهد حفيده أبو الفضل أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد، كما تبين ذلك النقيشة الحاملة لتاريخ 873هـ / 1467م (1).

وقد كان معاصرا لحقبة ثانية من التطور الصوفي ببلاد إفريقية ، تميزت باتساع هذه الظاهرة ، وببداية الطرقية مع الجديدي بالقيروان . أمّا زاوية المزوغي ، فقد قصدها المريدون من « مشارق البلاد ومغاربها» واحتمى بها أحمد بن مخلوف الشابي (ت . 887 هـ / 1482م)، على إثر نزاع حصل بينه وبين أحد الجنود بمدينة تونس (2).

أما الحقبة الثالثة ، فانها ارتبطت بعلم بقي اسمه معروفا لدى العامة ، وهو أبو الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن أبي القاسم أبي الفضل المحجوب . ولم يكن هذا الاخير مجرد شيخ لزاوية ريفية ، يقوم بالتدريس ويتولى شؤرن المؤسسة ، إنما كان فارسا بارعا في فن الحرب كما تصوره لنا الأخبار المتحدثة عن استبساله في مقاومة الاسبان سنة 957 هـ / 1550م، وموته في هذه المعركة (3)..

كما أشار ابن أبي دينار الى الدور الفاعل الذي قام به أبو الحسن علي المحجوب لما التجأ السلطان الحفصي حسن (932-950هـ / 1526-1543م) الى الاستنجاد بالاسبان، لمحاربة ابنه أحمد . وتحول لمدينة تونس لهذا الغرض ، حيث ذكر بجهة البحيرة – حلق الوادي وهو يقود الناس لمعركة انتهت لصالح الابن.

---

(1) هذه القبرية هي لوحة مستطيلة من الرخام الابيض مأخوذة من خرائب قديمة ، قياسها : 15 x 44 x 60 سم، كتبت بخط نسخي بارز ، وقد بلغ عرض الاسطر6 سم . وانتهت بعض الاحرف بزخارف نباتية (من براعم وجرائد). وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو نبو عظيم /
أنتم عنه معرضون هاذا قبر الشيخ الصا /
لح الفقيه العالم أبو الفضل /
أبو القاسم بن الشيخ الصالح الغوث ... /
المقدس المرحوم أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصا/
لح والاغر العالم القطب المقدس المرحوم أبو الحسن علي/
شهر المحجوب توفي ليلة الثلثةالتاسع عشر من شهر شوال من /
عام ثلاثة وسبعين وثمانماية وهو يشهد أن لا اله الا /
الله وأن محمدا رسول الله . الله ، محمد .

(2)مقديش ، **نزهة الانظار** ، ج II، ص 289-290

Brunschvig , **Hafsides** , T I ,p. 349 .

(3)مقديش ، **المصدر نفسه** . ابن ابي دينار ، **المؤنس** ، ص 166.

أما المعركة الثانية ، فقد جاءت بدورها ابان احتلال الاسبان المهدية في شهر جوان 1550 م ، مؤازرة لدرغوث باشا الذي لم يتمكن من استرجاع المدينة في25 جويلية . وقد انطلقت التعبئة من القصر ، وذكرت الرواية أنه« قاتل قتالا شديدا بنفسه وجواده» .واستشهد في هذه المعركة(1).

والمهم أن هذه الزاوية لعبت دورا فاعلا على المستوى المحلي ، في الدفاع عن البلاد من الغزو الخارجي .وتواصلت أهميتها طيلة العهد العثماني(2).

وفي خط مواز لتطور الزاوية ، عرفت البلدة المحاطة بسور اتساعا عمرانيا في مختلف هذه الحقب ، فتعددت الابواب بها ، وهي على التوالي كما ترويها الذاكرة الجماعية :

–باب القصر : يبدو أنه مثل الباب الاول للقصر .

– الباب الجديد : يفتح على الجامع الجديد الذي دفن به الطاهر المزوغي ، ويبدو أنه يرجع الى القرن السابع هـ ، فترة التطور العمراني بافريقية .

– باب الزاوية : اقترن بنشأة هذا المعلم ، منذ القرن الثامن هـ / XIVم.

– سيدي علوان : انتصبت هذه الزاوية الريفية على الطريق الرابطة بين المهدية والجم ، والفاصلة بين مجال قبيلتي حكيم وبني علي .وتنسب الى علوان بن سعيد ، شيخ علي المحجوب المتوفى سنة 957 هـ / 1550 م . وانطلاقا من هذا المعلم ، تكونت قرية من بعض الاسر التي كانت تقطن باجة الزيت وغيرها من القرى المجاورة (3).

–الجم : سماها البكري سوق الحسيني ، وهي قرية كبيرة أهلة بها جامع وحمام

---

(1) مقديش ، **نفسه** ، ص 290. ابن أبي دينار ، **نفس الاحالة** . ابن مخلوف ،**شجرة النور الزكية** ، فهرس الاعلام .

C. Monchicourt , Episodes de la carrière Tunisienne de Dragut , In **C .T** . , 1972 .

(2) وردت نقيشة ثالثة في نفس قاعة الدفن بالزاوية، وهي عبارة عن لوحة مستطيلة من الرخام، قياسها43 x 45 سم ، ووضعت الكتابة داخل قوس متجاوز ، وتغطي كوشتي العقد زخارف نباتية . وهذا نص النقيشة :

بسم الله الرحمن / الرحيم صلى الله على سيدنا محمد /
قل هو نبو عظيم أنتم عنه معرضون / هذا قبر الشيخ الولي الصالح المرحوم أبي عبد /
الله محمد بن الشيخ الصالح أبي القاسم بن الشيخ /الولي الصالح أبي الحسن علي بن الشيخ الصالح /
أبي (الحسن) عرف السمين بن الشيخ الصالح / أبي محمد (ال..) بن (الشيخ الصالح الولي) /
محمد ... المقدس أبي الحسن / علي بن أبي القاسم الطاهر بن المحجوب بن الطاهر المزوغي /
توفي ليلة الاثنين أوايل شهر رجب (المحرم الاعظم) / عام سبع وعشرين من الالف . (لا اله الا الله).

(3) يقع المسجد في الجهة الشمالية الغربية من قاعة الدفن لعلوان بن سعيد.وقياساته : 7,30 x 7,70م ، وتكون المسجد الاصلي من أسكوبين وبلاطتين .وقد تعرض المعلم الى ترميم في العهدالحديث حسبما ورد في نقيشة الساكف :« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى / الله على سيدنا محمد / شغل أصطى سالم بن / حسن نمو .. سنة». وقد تحولت بعض الاسر الى القرية من باجة الزيت . ابن رشيق، **الانموذج** ، ص 351-352.

حول ترجمة هذا العلم ، راجع : مقديش ، **نفسه** ، ج II، ص290 . النيال ، **الحقيقة التاريخية** ، ص 319.

وأسواق . استعمل حصنها لصد الغارات، حتى أن يحيى بن إسحاق الميورقي عجز عن السيطرة عليه .

أحيطت القرية بسور في القرن السادس هـ / XIIم ، اذ ذكر من أبوابها باب المهدية . ازدادت أهمية هذا السوق البدوي بعد أن نزح اليه قوم من البربر كانوا ساكنين بقصر مليتة من أرض زوارة ، على اثر نزاع مع الاعراب . ومما يدل على أهميتها هو تعيين وال موحدي بها ، بعد أن أضحت نقطة تمفصل في مجالات القبائل البدوية . ذكر عدد من العلماء المنتسبين اليها في القرن السابع هـ ، من بينهم الزواوي وأبو العباس القردموسي (1).

الحصون بالشريط الساحلي :

* منزل أبي النصر : بلدة ذات سور من تراب (طابية) في القرن السابع هـ، كثيرة السكان ، لكنها عدت في حكم البادية . تعقد بها سوق بدوية نشيطة . اندثرت بعد هذه الفترة، وقد ظل موقعها القريب من النفيضة مجهولا (2).

* هرقلة: بني الحصن على شرف مرتفع ، محاط بالسبخة غربا والبحر شرقا.لم يبق أثرللرباط الأغلبي الذي ذكر قبل سنة 210هـ / 825م ، وان كان يرجح أن المسجد الجامع الحالي حل محله . أحيطت بأسوار في العهد الحفصي ، و ذكرت من بين أبوابها الغربية باب البلد . كان بها بين أربعمائة وخمسمائة ساكن ، منهم مائة مقاتل في أواخر العصر الوسيط (3).

* السّاحلين : ذكرت عهد الأغالبة، وكانت لها ملاحة عهد الحفصيين، مازالت قائمة حاليا. بلغ عدد السكان بها في نهاية القرن XVIم: 400نسمة(4).

* خنيس : ذكرت في العهد الزيري ، وكانت ملجأ للصقليين الذين استقروا بها . تحدثت عنها المصادر في آخر العهد الحفصي (5).

---

(1) البكري ، **المسالك** ، ص20–21. ديوان ابن حمديس ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، ص 465. مناقب **الدهماني**، ص 50ب . التجاني ،**رحلة** ، ص 57–59. ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 36 ،80.
ومن النقائش التي تبين إستعمال الحصن ملجأ ، التالية : « دخل هذه الحنايا / فرج بن محمد بالعابد / في شعبان... عام811 هـ »

(2) العبدري ، **رحلة** ، ص 239. المالكي ، **رياض النفوس** ، جII ، ص 116–117(ذكر على طريق الجزيرة سوق إيلان ، ولعله قريب من منزل أبي النصر ، ومعلوم أن هيلانه هي قبيلة مصمودية) .

(3) حول هرقلة في القرون الخمسة الاولى ، راجع : المالكي ، **نفسه** .
Soucek, op. cit. , p. 95 . Lanfreducci et Bosio, **op. cit**. ,p. 514 .

(4) المالكي ، **نفسه** ، جII ، ص 265–268 ، 348(هاجمها الروم في فترة مرابطة محمد بن سحنون في القرن الثالث هـ / التاسع م) . Lanfreducci et Bosio , **op. cit**. , p. 514 .

(5)Lanfreducci , **op. cit**. ,p. 513 .

* لمطة : مدينة قديمة ، أسس رباطها أبو إبراهيم أحمد ، وقد تواصلت فاعليته في آخر العصر الوسيط . تحوّل مرساها القديم الى ملاحة في العهد الزيري، وكانت سفن البندقية تستورد الملح من هناك ، و أحيانا تأتي غازية عهد الحفصيين . والحقيقة أنه منذ القرن السادس ، أضحت القرية عرضة لهجومات النورمان، وقراصنة البحر ، وهو ما أثر حتما في تطور التعمير بها ، رغم مقاومة أهلها (1).

* المكنين : ذكر المقدسي رستاق مكنة بني منصور منذ نهاية القرن الرابع هـ/ العاشر م . ولئن كنا غير متأكدين من تطابق الاسم مع المكنين ، فان وجودها في العهد الحفصي كان ثابتا ، إعتمادا على النقيشة التي تعلو ساكف مسجد أبي عبانة.أحيطت بسور ، حسبما تدل عليه الطوبونوميا المتبقية الآن: باب الزقاق وباب الفصيل . وتأتي بعض الاسماء الآخرى للاراضي المجاورة بارتباط مع الهجرة من جزيرة صقلية (علقمة) وبأصول بربرية ، كثير منها ينتهي بالاحقة – ين ، مثل سكرين والقوبين وزمرين (وهي بطن من مزاتة)(2).

* طبلبة : قرية من عمل المهدية ، تبعد عن ساحل البحر نحو كلمترين . أخذت النواة الاصلية شكل مستطيل يمتد من الجامع البراني والمقبرة القديمة غربا وزاوية شبيل والجامع الشرقي شرقا . وهو ما يوافق السور من تراب الذي أحاط بها في آخر العصر الوسيط ، لما تراجع عدد سكانها، فبلغ قرابة الخمسمائة شخصا.

ولئن ذكرت القرية لأول مرّة في القرن الثامن هـ / XIVم ، فان وجودها يرجع الى العصر القديم ، وقد سبق نشأة زاوية ا بن عياش ، حسبما يتبّين من التركيبة البشرية للقرية : البلدية (حومة السوق) وحومة العيايشة وحومة الشبيلات .

غير أن هذه الزاوية الريفية اكتست أهمية بالغة في تطور القرية ، الذي تجسد في امتداد غابة الزيتون بها . ويرجع تأسيسها الى نهاية القرن الثامن هـ ، لما عين شيخ القيروان محمد الجديدي (ت 786هـ / 1384م) أبا فارس عبدالعزيز بن عياش على كامل المنطقة الممتدة من المنستير الى المهدية . وقد كان لهذا الرجل علاقات متميزة مع

---

(1) ذكر من بين أهلها عدد من الشيوخ مثل ابن هناص وأبو علي حسن اللمطي وأبو محمد عبد الكريم اللمطي وأبو علي رياح بن فرج الخالدي . راجع :الدباغ ، مناقب الدهماني، ج I، ص 17، 35 ، 37.
Brunschvig , **Hafsides** , T I ,p. 308 . Idris , **Zirides** , T II,p. 448 .

(2) المقدسي ، احسن **التقاسيم** ، ص 227. الشماخي، **سير** ، تحقيق محمد حسن ، ص 592. مناقب ، مخ 18555 ، ص 116 (ورد ذكر قاسم المكني ، إمام الخلوة المحرزية في القرن السابع هـ) . وكان عامل صفاقس في نهاية هذه الفترة يسمى المكني (مقديش ، نزهة ، جI ،ص 606) . الصيادي، المنستير ، ص286 . أمدنا الأستاذ أحمد السعداوي مشكورا. بنصّ النفيشة : « بسملة ، تصلية ، الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور . مما أمر به الامير الاجل أبو عبد الله بن الامير الاجل أبي زكريا بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص ، رغبة في الثواب ، جعل الله ذلك من أفضل شمائله والله ..بتاريخ جمادى الاخرى عام خمسين وستمائة » .

مختلف القوى الاجتماعية والسياسية بما فيها المخزن . وهذا نص ابن ناجي شهادة على مدى فاعلية هذه المؤسسة : **« وهو بزاويته بطلبة من عمل المهدية في خير كبير .. وكثيرا ما يعين زاوية شيخه الجديدي بالطعام الكثير ، وخصوصا عندالحاجة . وكل من يرد عليه من جميع الناس يضيفه ويحلف له ، ولو كانت محلة السلطا ن وعربها ، يقوم بها وكل ما يكتب للسلطان ، غالب الحال تقضى فيه الحاجة .وكل من يهرب اليه من قوّاد السلطان وشيوخ العرب ، وصل الامان ويكتب فيهم، فيجيئه الجواب بما يريد».**

وقد شهد هذا المعلم توسيعات عديدة كما يتضح من خلال هندسته فهو **« مسكن كبير على غرار ملجأ يأوي اليه الغرباء »** . وكان من بينهم أحمد بن عروس في فترة شبابه ، اشتغل وقافا بفرن المؤسسة .

وفي الجملة ، فان طبلبة هي مثال أخر للقرى القديمة التي اصطبغت بصبغة الزاوية الريفية، وقد ارتبط هذا الامر بتعمير الارض المحيطة بها وحماية السواحل البحرية (1).

– رأس الديماس– البقالطة : أصبح يطلق على المدينة القديمة تبصة رأس الديماس في نهاية العهد الزيري . وقد اشتهرت برباطها منذ العهد الاغلبي ، لكنه تعرّض لهجومات النورمان ودارت به معركة عنيفة سنة 517هـ / 1136م . ولئن تمكن سكان تلك النواحي، وخاصة بنو رياح و دهمان و زيد ، من الحاق هزيمة نكراء بالعدو،

---

(1) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 172–173، 232،240–241 .**مناقب بن عروس** ، ص195 . الوزان ، نفسه، جII ، ص 85. المختار الناصف، **أضواء حول تاريخ طبلبة** ، تونس 1979، ص 41 (ذكر شجرة النسب لعلي شبيل المؤرخة سنة 972هـ) .

Lanfreducci et Bosio, **Cote** , p. 511 .

ومن أهم معالم القرية ، نذكر : – **الجامع البراني** : يقع في طرف القرية من ناحية الشمال الغربي ، ويبدو أنه يرجع الى تلك الحقبة بناء على طبيعة البناء ومستوى الارض فهو يوجد في مستوى منخفض عن الحالي بنحو70 سم . ومعلوم أن هذه التسمية ورد ذكرها كذلك في قصور الساف ، والقيروان في العصر الحفصي (ابن ناجي ، نفسه ، جIV ، ص 231) .

– **مزارة عياش البكوش** : وهو والد عبد العزيز ، صاحب الزاوية . تقع وسط القرية ، وهي حوطة صغيرة لا يتجاوز أرتفاعها16 ,1سم ، وطولها 10 ,2سم وعرضها2 سم .

– **زاوية عبد العزيز بن عياش** : قياسها الحالي 27م شرقا ، 25 ,28م جنوبا .وتغطي واجهته المكونة من أروقة عديدة الزليج ، ويتوسطها صحن تحيط به غرف عديدة معدة للتدريس . ويفضي هذا الصحن الى باحة صغيرة توجد حولها ميضاة وغرف للزوار وزريبة للذبائح . وفي شرق هذا القسم ، تقع باحة ثالثة تفتح على مسجد مكون من بلاطات وأساكيب ثلاثة وتيجان أعمدة عثمانية ومنارة . وفي جنوبه ، توجد تربة الولي عبد العزيز بن عياش ..

– **زاوية إشبيل** :تنسب الى رجل من أصل اندلسي ، عاش في القرن التاسع هـ ، وهو أبو الحسن علي بن الحسن بن علي الشريف الحسني المعروف بالاشبيلي . لكن الظاهر أنها لم ترتق الى منزلة الاولى ولم تستطع منافستها ، حتى أن الوزان اقتصر على ذكر الاولى فقط . تكونت من تربة ، قائمة على أعمدة وتيجان من النوع الكورنتي والعثماني ، ومن ممر طويل يفضي الى صحن محاط بالغرف المعدة للسكن (عددها 13) وماجل ومسجد مكون من ثلاث بلاطات وأساكيب ، قائمة على أعمدة من كذال وتيجان قديمة وأخرى عثمانية .

فاننا لا نشك أن هذه المعركة أثرت كثيرا على عمران القصر .لكن الحفصيين لم يفرطوا فيه ، لمناعته ولأهمية موقعه ، وأسكنوا به حامية للجند .

على أن القرية التي عوضت تبصة لا تبعد عنها الا بضعة كلمترات ،وهي البقالطة. وظلت مغمورة الى حد نزاع نشب بينها وبين طبلبة في القرن الثامن هـ (1).

* هيبون : موقع قديم (Hippone) ، شمال المهدية ببضعة كلمترات . شهد حصنها نشاطا مكثفا في القرن السادس هـ / XIIم ، على إثر ازدياد هجومات النورمان على المهدية . وقد رابط به أبو يوسف يعقوب الدهماني وأصحابه ،

و ذكر آنذاك عدد من أعلام هيبو ن ، من بينهم : أبو رضوان الهيبوني ، وأبو محمد عبد الباري الهيبوني وسلامة بن أحمد الهيبوني (2).

* منزل الروضة : قرية قريبة من المهدية ذكرت في القرن السادس هـ / XIIم . وقد ظل الاسم متداولا حاليا (3).

*منزل بني معروف : ذكر في القرن السابع هـ ، جنوب المهدية . ينتسب اليه أبو عمار المعروفي الذي توفي أثناء الحرب الصليبية ودفن بأريانة (4).

* ميانش : ارتبط اندثار ميانش بتلاشي القناة المائية الفاطمية ، وبانكماش المهدية العمراني حتى أن أراضي هذه القرية أصبحت في القرن التاسع مجرد هنشير محبس على رباط المنستير (5).

* زويلة : نشأت عهد الفاطميين، قرب المهدية . أحاطها المعز بن باديس بسور عند دخول العرب إفريقية سنة 444هـ ، على أن الزحف النورماني أخلى المدينة من أهلها ، مما ألجأ عبد المؤمن بن علي الى تعميرها مؤقتا بجنده في سنة الاخماس ، عند محاصرته للمدينة .وظلت بعض أجزائها عامرة في نهاية القرن السادس هـ ، حتى أن أبا يوسف الدهماني استقر بها بين سنتي 585–595هـ / 1189–1198م .

---

(1) **ديوان ابن حمديس** ، ص 256. ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 232. القاضي النعمان، **المجالس والمسايرات** ، ص 324(بقلوط) . الشماخي، **السير** ، ص197 (بقلوط) . . Brunschvig , **Hafsides** , TI.p.308 ذكرت منذ القرن الرابع بقلوط ، بناحية الكنائس ،حيث كانت جالية إباضية ، وهو ما يدعونا الى البحث عن العلاقة المحتملة بين الاثنين ، خاصة أن النسبة من البقالطة هي بقلوطي. راجع الخريطة الطوبوغرافية .

(2) الدباغ ، مناقب الدهماني، ج I، ص 117، 195، ج II، ص 192. محمد حسن ، وثيقة في التاريخ الريفي ...**نفس الاحالة** (بحيرة هيبون) .

(3) الدباغ ، **مناقب الدهماني**، ج I، ص57 ب.

(4)ابن ناجي ، **معالم** ، جIV ، ص 49، 52. البرزلي ، **نفسه** ، جI ، ص 1277 (ذكر جبل معروف شمال القيروان بمرحلة) .

(5) البكري ، **مسالك** ، ص 29–30. محمد حسن ، وثيقة في التاريخ الريفي، **نفس الاحالة** .

لكنها اندثرت تماما في مطلع القرن الثامن هـ، لما مر التجاني من هناك ،وتلاشت الحمى التابعة لها (1).

*قصر قراضة : يقع على مشارف المدينة ، جنوبا . يحدده عبد الوهاب قرب ضريح ابن غياضة الحالي(2).

*رجيش : تبعد عن المهدية جنوبا نحو خمسة كم . دارت بها معركة عبدالكريم الرجراجي في مطلع القرن السابع هـ(3).

* سلقطة : أنشأ بها الأغالبة رباطا ، ثم أضحت منتزها للامراء الفاطميين .لكن العمران بهذه الناحية تراجع كثيرا في العهد الحفصي ، حتى أن الوثائق الاجنبية اعتبرت أن المنطقة الممتدة من الشابة الى سلقطة من الصعب النزول بها ، لان فرسانا أشداء يسكنونها (4).

– *القرى والمنازل المندثرة في أطراف الساحل الجنوبي ، بكورة رصفة :*

امتدت كورة رصفة في الحقبة الاولى من العصر الوسيط على كامل الرقعة الموجودة بين الجم وصدف غربا ، ومنازل جبنيانة جنوبا وباجة الزيت وزبنة شمالا ، وكان من منازلها الأخرى سلقطة والعالية و رقة والشابة وبنونش (ملولش) . ويأتي العدد الكبير للمعاصر (360معصرة) دليلا على أهمية العمران بها في العهدين الأغلبي والفاطمي – الزيري ، وان كنا نشك في مدى صحة هذا الرقم ، الذي ذكر كذلك بفحص مرناق (360قرية) (5).

على أن ازدياد الهجمات البحرية للنورمان ، وما يعني ذلك من تراجع لغابة الزيتون، وللقرى والمنازل ، وحلول البداوة محلها تدريجيا أدت الى تفكك وحدة كورة رصفة ، والى صياغة جديدة للعمران ، نتيجة عديد العوامل الخارجية والداخلية ، التي لا يمكن اختزالها في الهجرة الهلالية . وسنقتصر على أخذ عينات داخل هذا المجال ، لمعرفة حقيقة التطور الحاصل .

*قصر العالية : العالية هي موقع بوني قديم، بين الشابة وسلقطة . وفي العهد الاسلامي ، انتصب الرباط في الطرف الشمالي من المدينة ، قريبا من البحر . و لئن ذكر

(1) التجاني، **رحلة** ، ص324 ،336 ، 347.

(2)التجاني، **نفسه**، ص 354. ابن ناجي، **نفسه** ، ج IV، ص 69. اللبيدي ،**ن.م.** ، ص47 . وتذكر الرواية الشفوية أن ابن غياضة سمي كذلك لانه وصل المكان عند نهاية المعركة مع الاسبان ، ولم يشارك فيها .

(3) عرفت هذه القرية بمقاطع الحجارة وبزراعة سقوية جاهدة . وهي على ما يبدو كلمة لاتينية (ريجيوس) مرتبطة بأملاك الامبراطور. ويبدو أن عالمين من العهدالحفصي ،وهما : ـأبو عبد الله محمد الزبيدي وأبو علي حسن الزبيدي ينتميان اليها . انظر : ابن بطوطة ، رحلة ،ص18. ابن خلدون ،**تاريخ**، ج IV ، ص787 ،791 . ابن ناجي، معالم ، ج IV ، ص81.

(4) البكري، مسالك ، ص31 . Lanfreducci et Bosio , **op.cit.**,p. 511. Idris , **Zirides** , TII,p 453

(5) ابن رشيق ، **أنموذج الزمان** ، ص 189 .

لاول مرة في القرن السادس هـ / الثاني عشر م ، فان تاريخه يرجع الى العهد الأغلبي أو ربما قبل ذلك ، كما تدل عليه هندسته واللّقى الأثرية به .

وقد ظلت بقايا أبراجه نصف الدائرية والمنارة الجنوبية الشرقية قائمة الى عهد قريب ، وذلك قبل أن يتعرض للتدمير .

وبالتالي ، فان هذا الرباط الأغلبي تواصل تعميره الى حد القرن السادس هـ / XIIم، على أقل تقدير .ثم شهد انقراضا ، فكيف تم ذلك ؟

أن الاجابة عن هذا السؤال تحتاج بدون شك الى تنقيب أثري دقيق . وتأتي الروايات الشفوية لالقاء بعض الاضواء على اندثار هذا الرباط ، على أن مصداقيتها تظل ضعيفة ، وتتحدث الرواية عن الالتقاء الاول الحاصل بين البدوي والحضري ، وما نجم عنه من انقطاع السبل وتفضيل الهجرة وترك الديار على التعامل مع الواقع الجديد (1).

* باجة الزيت : اندثرت المدينة الواقعة على الطريق القديم الجم – سلقطة ، وظل الواد الذي يمر قبلتها يحمل إسمها (واد باجة) . وآثارها ماثلة للعيان قرب وادي السوق.

ذكرتها المصادر القديمة عند حملة قيصر الرومان على افريقية ، ونشوب معركة أجّر (Aggar) . وظلت في الحقبة الاسلامية مميزة بغابة الزيتون ، حتى أنه أطلق عليها باجة الزيت .

وقد عثرنا على آثار عديدة في الموقع مثل الحصن ، ذي الشكل المستطيل الذي بني بالحجارة الصغيرة والجير والفحم ، على قياسات : 40 x 30م . ويقع في أسفل الشرف ، قرب الطريق القديم الجم – سلقطة . وتوجد بالموقع مواجل وأبار عديدة وبقايا معاصر منزلية وتيجان زيرية ، فضلا عن الحضور الهام للخزف القديم والاسلامي .

.(1)Novak , Sur la nécropole phénicienne d'Al Alia , **B.A.C.** ,1898 ,p. 343-352
Ibid , Légende sur l'ancien domaine d'El Alia In Comptes Rendus de L'Association Française pour l'avancement des sciences , 25 session, Carthage 1896,pp. 789-792.
Ferron , La Byzacène à l'époque punique , **C.T.** , 1963 , p. 31-46 .
Tissot , Géographie comparée de la province Romaine d'Afrique , T II,p. 179 .
Schulten , La centuriation d'El Alia , **In Bulletin Archéologique Com.** , 1902, p.163, (pl. CX).
Saumagne , La centuriation rurale d'Afrique In **C.T.** ,1962 , pp. 207-212 .
(حسب تيسّو ، اكولا هي مستعمرة مالطية وقد عثر على نقيشة مكتوبة بلغتين، وذكر الاسم بطرق مختلفة : Acholla : Aholla / Achilla / Acolitanus
الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص 126 (« ومن المهدية الى قصر سلقطة ستة أميال ، ومنه الى قصر العالية ستة أميال ، الى قبوذية 13ميلا ، وقبوذية قصر حسن ، ويصاد بها من الحوت كل طريفة ، وهو بها رخيص »).
تتحدث هذه الرواية الشفوية عن خراب شمطة و هي منزل قريب من باجة الزيت ، والجم ، في وقت متزامن مع خراب العالية ، نتيجة قدوم البدو الجمالة.والملاحظ أن هذه الرواية تشابهت مع ثانية تخص خراب ماطوس بجنوب إفريقية (المرزوقي ، مع البدو في حلهم وترحالهم)، وهو ما يعني التعامل معها بحذر .

بقي أننا لا نعلم الشيء الكثير عن اندثارها، وان كنا نرجح أن نهايتها وقعت في القرن السادس هـ / XIIم، نتيجة غزوات النورمان (1).

*رقة : أطلق عليها قديما براراس ، وأصبحت تسمى رقة في العصر الوسيط . وهي موقع قريب من الجم ، على طريق الجم – برشانة (جنوب ملولش) . وقد ذكرت نسبة الرقي في عديد الوثائق : ففي القرن الخامس هـ / XIم ، ورد إسم عبد الله بن يوسف الرقي في وثيقة حبس عثر عليها بالقيروان ، وكان أحد تجار وثائق الجنيزة المستقرين بالقاهرة يحمل هذه النسبة ، وهو أبو الفرج نسيم بن سليمان الرقي، كما ذكر البرزلي في عهده أبا بكر المعروف بالرقي .

و رغم أنها تضررت من الأوضاع المستجدة خلال القرنين الخامس والسادس هـ ، فانها لم تندثر ، بل ظلت قرية عامرة في مطلع القرن الثامن هـ / XIVم ، متخذة إسم أم الاصابع ، لبروز أبراج القصر القديم ، الذي تم ترميمه في بداية العهد الحفصي .

وتوجد با لموقع آثارقديمة عديدة مثل القصر والمسرح والمواجل الضخمة، وأخرى إسلامية من بينها بقايا جدران مبنية بالطابية وحضور هام للخزف الاسلامي وضريح أبي عبد الله محمد أبو زيد بن إسماعيل (المسمى حماد). ومما لا شك فيه أن بداية اندثار الغابة اقترن بالتراجع العمراني لرقة ، وصولا الى انقراضها أثناء الازمة الحادة لسنة 748–750هـ / 1347–1349م . فقد كانت في الفترة الوسيطة الأولى محاطة بغابة منتظمة الأسطر ، وفق التقسيم القديم للأرض . غير أن وضعها تغير في العهد الحفصي ، كما شهد بذلك التجاني إذ قال : **« كان مسيرنا منذ فارقنا الجم في الزيتون القديم المتصل المعروف بزيتون الساحل ، وقد أذهب افساد العرب اكثره، وغير بعد الاستواء أسطره ، فكأنه كان مغروسا على حالة معلومة، وأسطر متناسبة منظومة ، فأبطل بالافساد اكثر ذلك، وعلى هذا الزيتون كان مدار غلات افريقية في القديم»**(2).

(1)ابن رشيق ، **أنموذج الزمان** ، ص 138–139 ، 351–354. المالكي ، **رياض النفوس**، ج II، ص 168–170. عبدالوهاب ، ورقات ، جIII ، ص 429–430(اعتبر خطأ أن اندثار باجة الزيت يرجع الى الغزو الهلالي) . من المواقع الاخرى على طريق الجم –سلقطة : هنشير أوزر – باجة الزيت – المصينع – الخ .
A . Mahjoubi , **Recherches** .. p. 43-44

(2) ضريح سيدي حماد : قياسه 7,6 x 7م . استند الى أربعة أعمدة قديمة وتيجان من النوع الحفصي ، وقسم الى ثلاثة بلاطات وثلاث أساكيب . مما يجعلنا نفترض أنه يعود الى تلك الحقبة ، أو ربما بعدها إعتماد ا على نوعية الخط المستعمل .وقد وجدت قبرية في الركن الشمالي الغربي جاءت في شكل لوحة (20 x 40 سم) كتب عليها بخط نسخي محفور : « بسم الله الرحمن/ الرحيم وصلى الله /على سيدنا محمد / هذا قبر(أبي عبد) الله / محمد بن أبو زيد / بن إسماعيل رحمه / الله (و) هو أرحم المسلمين جميعا / وتوفي في ربيع / الاول » .وقد انتصبت أمام الضريح مزارتان ، إحداها للعجامة .
البكري ، **مسالك** ، ص 20. التجاني، **رحلة** ، ص 66–67. البرزلي ، **جامع** ، ج II
Saumagne , La centuriation rurale de l'Afrique , In **C.T.** ,1962 ,p.207-212 .
Idris , **Zirides** , TII,p. 446 . Goitein , **Letters of medieval jewish Traders** ,p.240 .

* هروغة : قرية بساحل المهدية ، كانت بها أراضي دولة في العهد الزيري ، مغروسة زياتين . وقد أقطعت لاحد العلماء الاباضية ، الطاهر بن يوسف . على أن ثقل الضرائب التي كان ملزما بدفعها للزيريين ،وبداية الهجرة الهلالية جعلاه يعدل عن استغلالها ، ويهاجر الى جبل نفوسة . وقد عبر عن ذلك في قوله : **« فرأيت الانتقال ، فاذا إفريقية مثل حوض دم »** . وتذكرنا هذه الرواية بمثيلتها التي تخص قصر العالية وشمطة (باجة الزيت) ، إذ كلاهما يتحدث عن هجرة أهل القرى والتفريط في ممتلكاتهم من الزيتون ، نتيجة طبيعة العلاقة مع السلطة أو مع البدو.

ولئن وقعت الهجرة الأولى على إثر قدوم البدو ، فان الثانية سبقت الحدث ،متوقعة حصوله .ولا يستبعد أن تكون هذه الهجرة هي بداية التخلي عن ضيعة الزيتون التابعة للدولة ، ورحيل أهل هروغة عن منزلهم (1).

*الشابة والصبايا : أصبحت التسمية القديمة قبودية قليلة الاستعمال في العهد الحفصي ، إذ عوضتها أخرى مرتبطة بإمرأة لعبت دورا هاما في القرن الرابع هـ / العاشرم ، وهي الشاعرة خدوج الرصفية التي أطلق اسمها على المنارة القديمة ، فيما أطلق اسم الشابة على كامل الحصن .وقد اكتسبت في العهدالحفصي موقعا بحريا هاما (2).

أما الصبايا ، فهو موقع أثري يبعد عن الأول نحو ستة كم غربا ، ويغطي مساحة شاسعة حتى أن بعض الاثريين حددوا رصفة القديمة بهذا الموقع . ويبدو أن تسمية الصبية (أو الصبايا) معاصرة للأولى ، أي أنها ترجع الى العهد الزيري . ومما يؤكد ذلك النقيشتين المزدوجتين الموجودتين على القبرية المكتوبة بخط كوفي مزهرّ .

(1) الشماخي، **السير** ، (تحقيق محمد حسن) ، ج I، ص 234.ابن ناجي ، معالم ، جIV ، ص 163(تحدث عن هراغة ، بين صفاقس وقابس ، بالمهاذبة) . لكن الذاكرة الشعبية ظلت تخلد الاسم ، وأن كانت لا تذكر الهروغي بخير . فهو ذو طباع سيئة عموما . انظر أيضا : . Idris , **Zirides** , T II,p. 604

(2)يبدو أن ضريح نعمون الذي يتوسط البلد يرجع الى العصر الحفصي .فهو مكون من قاعة مربعة ضلعها 4م ، تعلوها قبة **مغطاة** من الداخل بقطع من الخزف البني اللون .انظر حول قبودية : البكري، **مسالك** ،ص 85. الادريسي، **نزهة** ، ص 126. ابن رشيق ، **الانموذج** ،ص 123. عبد الوهاب ، **شهيرات تونسيات** ، ص 88–89.

وقد ظلت هذه القرية عامرة طيلة العهد الحفصي ، إذ ذكر ابن أبي دينار أن الشابية ترجع في الأصل الى قريتين : الشابة والصبية (1).

– حول قريتين مغمورتين بكورة رصفة : ترشقة وترفش :

*ترفش : على الطريق الرابط بين قصر العالية وجبنيانة ، وغير بعيد عن ترشقة، يوجد عدد من المواقع الاثرية ، متباعدة عن بعضها بعض نحو كلمترين أو ثلاثة، أهمها: خربة الريح ، تمونية ، ترفش (2).

وعلى بعد 3كلم ، نجد ترفش ، وهو يمسح عدة هكتارات ، ويوجد به عدد كبير من المواجل القديمة والفسقيات ، وبقايا لحمام روماني ، أخذ أشكالا نصف دائرية عديدة ، مثل حمام تمونية . ومما يلاحظ أن هذا الموقع يعتبر من أهم المواقع الثرية بالخزف الاسلامي ، بأنواعه العديدة . وقد بين التنقيب الاولي الذي أجريناه وجود مآثر من العصر الاسلامي المبكر . وهو ما يدعونا الى التساؤل عن تاريخ اندثار هذه القرية .

* ترشقة : التاريخ الغامض والمصير المجهول :

– الموقع والموضع : يقع هنشير ترشقة في تقاطع طريقين : الاولى ذات اتجاه غرب –شرق، تربط الجم بسلقطة والثانية شمال – جنوب ، موازية للساحل وعلى بعد عشرة كم منه (3).

---

(1) ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص162 . . Tissot , **Géographie comparée** ..op. cit. ,TII,p.180

زعم بعض الاثريين أن الصبية هي تحريف لرصبية (Ruspae) وهو امر مستبعد لأن تسمية الصبية اقترنت بضريح فتاتين. وبالقرب منها ، يوجد ضريح عمهما : وهو ابن عزاز ، وقد كتب على قبره الاسم . وبالقرب منه ، ضريح علي الخشين . وتذكر الاسطورة أنهم قدموا من المغرب الاقصى ووافاهم الاجل في هذا المكان ، فدفنوا به .تضمنت النقيشة الموجودة على لوحتين متلاصقتين بقبري الصبيتين على كتابة بخط كوفي مزهر و أرضية مورقة، (80 x 50سم)، لم نتمكن من قراءتها كاملة لانها مغطاة بالجير وقد قرأنا منها الاسطر التالية :

النقيشة الاولى على اليمين : بسم الله الرحمن الرحيم / كل نفس ذايقة / الموت ../

النقيشة الثانية على اليسار :بسم الله الرحمن الرحيم / كل (نفس دائقة الموت وإنما توفون أجور)/ كم يوم القيامة فمن زحزح عن النار / (وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) / لا اله الا(الله) / في العام..» .

وبجانبها ضريح العبد الذي كان مصاحبا لهم .و يبلغ قياس قاعة الدفن :5,7 x 5 م . وهي مكونة من قاعة وقاعة أمامية ، يفصل بينهما قوس كبير يرتكز على تيجان قديمة، وتعلو القاعة قبة ذات حنيات داخلية أربعة . ويبدو الثابوت عنصرا أثريا لاحتوائه على كتابة متعلقة بالصبايا .

(2) خربة الريح : تتواجد فيها عناصر عديدة لمعاصر الزيت ، وهي أجزاء أسطوانية من الرخام . ويبدو حضور الخزف الاسلامي هاما .

تمونية : موقع يرجع الى العصر القديم ، كما يبين ذلك الحمام القديم المتبقى أجزاء هامة منه . وقد ورد في قائمة الكنائس بسنة 411م إسم Temunianensis.

(3) يمثل الموقع نقطة التقاء للمسلكين ، وإحدى نقاط الربط العديدة في طريق الجم – الساحل ، وهي على التوالي أوزر – شمطة – شمار – زردة – ترشقة – هنشير خصيب – دار بليان – زرزبة – العالية . وثمة طريق ثان يربطها بباجة الزيت عن طريق المصينع . وفي خصوص هذا الاخير ،توجد بمتحف قرطاج لوحة خزفية قديمة عثر عليها هناك، وهو ما يجعلنا نفترض أن هذا المصنع الصغير كان للخزف المصنوع من الطين الاحمر .

– الطوبونوميا : هي تُرُشْقة ، حسبما ورد في ترجمة عالم من القرن السادس هـ / XII ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الترشقي (وقد شكلت الكلمة بهذه الكيفية) (1).

– الآثار : عثر فيه على عدد من المواجل والآبار التي شيدت في سفح هذه المرتفعات، وأخذت أبوابها شكلا دائريا أومربعا ، لا يتجاوز ضلعه المتر ، لكنه يتسع في الداخل . أما الفسقيات فهي كبيرة ، والبعض منها مغطى بأقبية وقديم. على أن شكل الجوابي المرتبطة ببئر عميق ذي شكل دائري ، يبلغ اتساعه مترين تبين انتماءها الى الفترة الوسيطة . أما الخزف الاسلامي ، فحضوره هام في كل الموقع ، وقد تنوعت الوانه : المائل الى الابيض والاصفر ، وأخضر المانغناز الخ ..

– المقابر : توجد مقبرتان بالموقع ، الاولى قديمة في الشمال الشرقي حيث كشفت الحفريات العشوائية عددا هاما من القبور . وثانية ، في الجنوب الغربي ، أكثر أهمية ، لأنّها تشمل حقبة تمتد من العهد البوني حتى الفترة الاسلامية ، وتحديدا سنة 543هـ / 1148م ،وهو تاريخ القبرية التي عثرنا عليها في الموقع ، وهي التالية : بسم الله الرحمن (الرحيم) / كل نفس ذايقة (الـ)موت / هذا قبر عبد الرحـ / بن يوسف البلتش(ي) تو(في) / سنة ثلاثة وأربعين / وخمسمائة رحمه / الله صلاته (و رضوانه) (2).

– الاندثار الغامض للقرية :تمكننا هذه النقيشة من تحديد تقريبي لاندثار القرية . فهذا التاريخ يتوافق مع اندلاع أزمة إقتصادية واجتماعية خطيرة بافريقية .فقد عمت المجاعة بلاد المغرب منذ سنة 537هـ / 1142م ، وبلغت ذروتها سنة 543هـ / 1148م .مما ألجأ سكان إفريقية الى الهجرة نحو الجزر المتوسطية ، وكانت من بينها صقلية، وإهمال الزراعات والتخلي عن العمارة(3) .

---

(1) توجد في أعلى نقطة بقايا لحمام قديم ، حسبما تبين ذلك طبيعة البناء ، وطرق التغطية (أذ استعملت ملاط اول سمكه 5, 2سم ، ذي شكل وردي وفوقه ثان أبيض سمكه 5, 0سم) . وثمة في الجزء الجنوبي الغربي للموقع عديد العناصر لمعاصر الزيت :أجزاء ذات شكل أسطواني أو دائري (يبلغ قطرها 50سم) . ويأتي العدد الهام للشقاف المتبقى من الجرار الكبيرة المعدة لخزن الزيت دليلا هاما علي أهمية غابة الزيتون .وتتواجد بكثرة أجزاء الخزف القديم (الروماني) . وخاصة ذات النوع الجديد، وقد حمل البعض منها طابع المعمل الذي أصدره.

(2) مرة أخرى فان الحفريات العشوائية كشفت مؤخرا النقاب عن قبر منحوت في الصخر ، يبلغ عمقه أكثر من متر ، ومكون من قبرين متقابلين ، يبلغ فتحة كل واحد منها 7, x10م . وتوجد مقابر أخرى محاذية ترجع الى الفترة الرومانية .وغير بعيد عنها ، انتصبت قبة صغيرة ، لا يتجاوز ضلعها مترين ، تتخلها باب صغير من جهة الشرق قياسه : 6, x0,40م . وبنيت جدرانها التي ترتفع متر واحد بحجارة الدبش ، المغطاة بطبقة من الملاط . وتنتهي بغطاء ذي شكل هرمي . ويصل الارتفاع الجملي للمعلم مترين ونصف .

(3) ابن الاثير ، **الكامل** ، جIX ، ص 18.

وبالتالي ،فان موت عبد الرحمان بن يوسف قد جد في هذه الظرفية ، وهو ما يعني الى حد كبير ارتباطه بها ، فهل وقع موته أثناء حصار النورمان للمهدية أو توغلهم بناحيتها ، أم أنه كان نتيجة المجاعة ؟ وهو ما يدعونا الى الربط بين اندثار القرية وتلك الظرفية ، سيما أن قرى مجاورة مثل باجة الزيت والعالية ذكرت لآخر مرة كذلك في القرن السادس هـ / XIIم .

ولئن كنا نقر بان ذلك لا يمكن أن يتأكد نهائيا الا بالسبر الاثري، فاننا نقدم قرينة ثانية للاستدلال على أهمية هذا المنعطف التاريخي في تحول العمران .

وفي هذه الظرفية ، ندرج ترجمة أحد علماء إفريقية وهو أبو الحسن بن عبد الرحمان الترشقي . أورد في شأنه المراكشي :« **إفريقي ، أبو الحسن الترشقي، بتاء معلو وراء مضمومين وجيم ساكن وقاف معقودين ، منسوبا . ولذلك يكتبه بعضهم الترشكي ، روي فيما أحسب عن أبي عبد الله المازري ، روى عنه أبو الحسين بن زرقون ، وقال فيه : الارجقي ، وهو وهم . وتناول منه أبو القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمجون ، روى عنه بعض شعره** » .

درس على الفقية المازري بالمهدية .ثم فضل مغادرة بلده للاستقرار في مرحلة أولى ببونة ، ثم التحول الى مدينة المنكب ، جنوب الاندلس . وهناك ، التقى بقاضي طنجة أبو القاسم بن سمجون ، الذي أخذ عنه عن طريق المناولة وأجازه . و قد روى ابن سمجون أشعار الترشقي .

وقد وقعت هذه الاحداث أثناء الغزو النورماني ، الذي أدى الى حالة من الهلع وفرار سكان المدن والقرى الساحلية الى الغرب ، في حقبة تميزت ببداية قيام الحركة الموحدية (1).

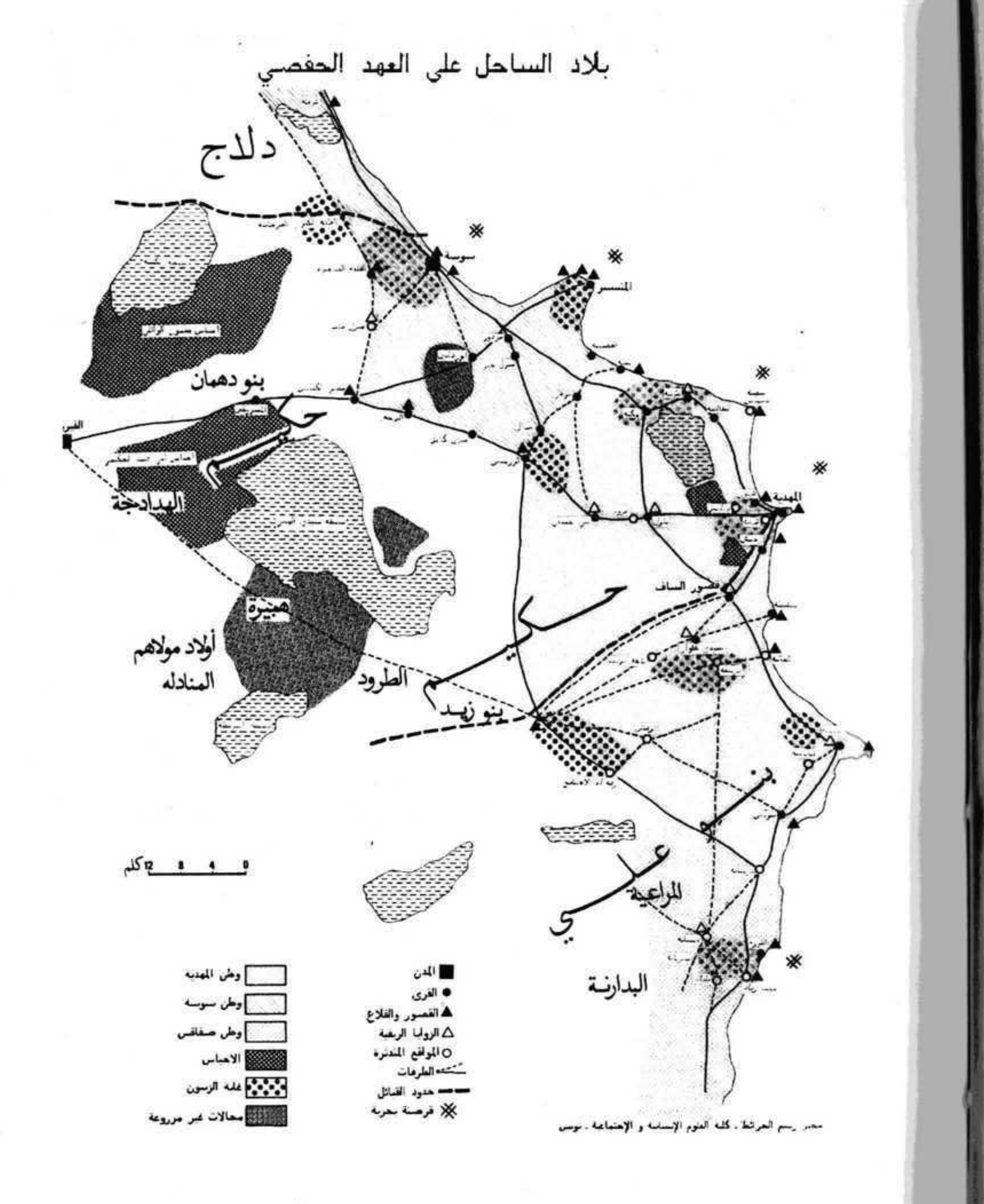
وفي النهاية، فان هذه القرية شهدت حدثين متزامنين : الأول موت أحد أعلامها سنة 543هـ / 1147م ، وهو عبد الرحمان بن يوسف، والثاني تحول أحد شعرائها ، وهوعلي بن عبد الرحمان الى بونة ثم الاندلس ، ولا يستبعد أن توجد قرابة محتملة بين الاثنين . وهو ما يدعونا الى ربط هذه الأحداث على المستوى الفردي بتراجع العمران في

---

(1) المراكشي ، **الذيل والتكملة** ، ج VIII ، ص 160 . ابن الزبير ، **صلة الصلة** ، ج VIII، ص 553. قد اعتبره ابن الزبير من أهل بونة ، وهي لا تعدو أن تكون تصحيفا لباجة ، أو ان الشاعر استقر ردحا من الزمن ببونة حتى عد من أهلها .ومما يأتي دليلا على انتسابه الى ناحية المهدية ، هو أن المراكشي وصفة بافريقي ، وهي صفة مقترنة بافريقية التونسية عادة ، ثم ذكر أنه درس على المازري . ومما قد يلجئ الى هذا الخلط هو وجود تبرشق بناحية بونة .

أما عن حياة القاضي أبو القاسم بن سمجون ،فان كتب الطبقات قد ذكرت ترجمة عم أبيه عبدالله بن علي بن عبد الملك . راجع : **الذيل والتكملة** ، ص 530، ترجمة رقم 1482، وأبيه الذي استقر بغرناطه حتى وفاته سنة 539هـ / 1144 م.

بلاد الساحل على العهد الحفصي



تلك القرية أنذاك، شأنها في ذلك شأن باجة الزيت والعالية . ومرة أخرى، فان أسطورة الكارثة الهلالية لا تحتاج الى أدلة أكثرعلى وهميتها .

وقد أثبتت العينات العديدة للقرى الساحلية أن أغلبها أندثر خلال أزمة القرن السادس هـ / XIIم وخاصة القرن الثامن هـ / XIVم الذي يعتبر أهم منعطف، وكذلك العاشر هـ / XVIم .

II . المدن والقصور بجنوب إفريقية : محاولات تمدين داخل الاطار القبلي :

1) مدينة قابس وناحيتها :

أ) المدينة :

حظيت هذه المدينة ذات البعدين البحري و الصحراوي بأهمية فائقة طيلة العصر الوسيط ، باعتبارها بوابة لطريق المشرق ومسالك الصحراء . وقد شهدت فترات تعمير الى حد القرن السادس هـ / الثاني عشر م .

ففي هذه الحقبة ، أحيطت المدينة القديمة بسور من« **الصخر الجليل من بنيان الاول**» ، وبخندق يجرون فيه الماء عند الحاجة . وتكونت خارجه أرباض واسعة ذات أسواق عديدة (1).

وفي سنة 500 هـ / 1106م ، أكمل أمير بني جامع ، رافع بن مكي بن كامل، بناء قصر العروسين الذي شرع في بنائه الصنهاجيون ، وقد استضاف فيه بعد خمس عشرة سنة ملك صقلية ، رجار الثاني(2) .

لكن هذه العمارة شهدت تراجعا نوعيا في العهد الحفصي . فقد أصبح هذا القصر في عداد المعالم الخربة عند زيارة التجاني له في مطلع القرن الثامن هـ . كما اندثر وقتذاك منارها المنيف الواقع في مصب وادي قابس ، واستولى على قصبة المدينة الخراب ، لكنها رممت فيما بعد ، ولم تنقرض الا في القرن XVII م .

والخلاصة أن قابس شهدت تراجعا عمرانيا هاما في حقب عديدة من العهد الحفصي ، وخاصة في القرن التاسع ، حتى أن ابن عبد الباسط وصفها بالعبارات التالية : **«رأيت مدينة عجيبة ، غير أنها خربة جدا ، وليس بها الا القليل من الناس والعمارة»** (3) .

---

(1) اليعقوبي، **البلدان** ، ص99 (بها قوم من البربر من زناتة ولواتة والافارقة الاول) .ابن حوقل ، **ن.م.** ، ص 72. البكري ، **مسالك** ، ص 17. القلقشندي ، صبح الاعشي ، ج IV، ص 382(هي في إفريقية كدمشق في الشام) . الطالبي ، مادة قابس **بدائرة المعارف الاسلامية** (بالفرنسية) .

(2) التجاني ، رحلة ، ص 95. المرزوقي ، قابس **جنة الدنيا** ، ص 75-172،77 ، 176.

(3) التجاني ، **نفسه** ، ص94-95. العياشي ، **رحلة** ، ص272-273 . ابن عبد الباسط ، **رحلة** ، ص36 . الوزان ، **نفسه** ، جII ، ص91 .

وزيادة على كل ذلك فقد عرفت المدينة بوخومة هوائها (1). والمتأمل في تاريخ قابس يلحظ مدى فاعلية الأحداث التي شهدتها في تراجع تمدنها ، زيادة على حركات القرصنة وغيرها .

كانت غابة النخيل والزيتون والكروم التي يسقيها واد ينبع من عين خرارة من الغرب تحيط بالمدينة ، وتوفر لها الرطب والموز والحنا وغيرها من المنتوجات (2) . على أن الاحداث الدامية التي شهدتها المنطقة عرّضتها للتلف في عديد المرات :

– ففي سنة 583هـ/ 1187م ، تغلّب الخليفة يعقوب المنصور على علي بن غانية بظاهر الحامة ، قبل أن يتحول الى قابس لمحاصرتها برا وبحرا حتى استسلامها (3).

–وبعد ثمان سنوات من هذا التاريخ ، حاصريحيى بن غانية المدينة بعد أن فر عنها قراقوش الغزي واحتمى بجبالها . ولما رفض أهلها الخضوع ، غور مياهها و« **قطع جميع غابتها ، فيقال أنه لم يبق الا نخلة واحدة تركها عبرة لهم** » . و بعد أن رمى أسوارها بالمنجنيق ، وتمكن من دخول المدينة ، أغرم أهلها بمبلغ كبير .وظلت تحت سلطته عشر سنوات ، الى حد وصول الخليفة الناصر سنة 601هـ / 1204 م (4).

– كما تعرضت المدينة سنة 685هـ / 1286م الى تعديات جيش أبي إسحاق إبراهيم ، عند ثورته على السلطان أبي حفص عمر بمعية دباب ، ومحاصرته لقابس . فقد هدم ربضها وأحرقت منازلها وأتلف نخيلها (5).

– وعند زيارة التجاني لها ، سنة 706 هـ / 1306م ، حاصرها الأمير أبو زكريا يحيى بن اللحياني ، راميا أسوارها بالمنجنيق ، وملحقا الضرر بغابتها وخاصة بغابة منزل تبلبو التي قطعها (6).

– وفي سنة 789هـ / 1387م ، قاد السلطان حملة لافتكاك قابس من يد أمرائها بني مكي الذين حكموها أكثر من 170سنة (7).

وخلاصة القول ، يتضح مدى تأثير هذه الاحداث السياسية والعسكرية على العمران والزراعة بهذه الواحة ، حتى أدى ذلك الى تقلص الغابة واندثار زيتونها وتوتها

---

(1) العبدري ، **رحلة** ، ص 74. ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 618.

(2) التجاني، رحلة، ص87-89 (وذكر خصوصا أن بها عينان : عين الامير وعين سلام).ابن سعيد، **جغرافيا** ، ص 144 .

(3) التجاني ، **نفسه** ، ص 137.

(4) نفسه ، ص 105-109 (تحدث عن غوغاء استنفروها من الجبال) . ابن الاثير ، **الكامل** ، جXII ، ص 76. الدرجيني ، **طبقات** ، جII ، ص 403(تحدث عن زريق منذ القرن Vهـ) . Marçais , **Les Arabes** .,p.205.

(5) ابن خلدون ، تاريخ ، جVI ، ص701 .

(6) التجاني ، نفسه ، ص 177-178، 179.

(7) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج ، ص 883. المرزوقي ، **قابس** ، ص 44.

المقترن وجوده بتربية دودة الخز. وقد انقرضت هذه الصناعة التي اشتهرت بها في العصر الاسلامي الاول، ولم يعد لها ذكر في العهدالحفصي. كما أن ميناءها لم يقم بدورفاعل مماثل لمواني جربة (1).

ب) المنازل والقرى المحيطة بقابس:

يوجد عدد هام من الواحات الصغيرة المحيطة بالمدينة ومن القصور الجبلية الواقعة جنوبها. وتبدو المدينة في علاقة وطيدة مع هذه الجبال، رغم الاختلاف المذهبي بين الطرفين، إذ أن سكان الجبال كانوا يهبون لحماية المدينة كلما احتاجت الى ذلك (2). وأهم الواحات المذكورة هي:

– وذرف: واحة صغيرة، بها قصر متسع. وقدكانت عامرة في مطلع القرن VIII هـ / XIVم (3).

– المطوية: واحة عامرة في القرن VIII هـ / XIV م(4).

– غنوش: واحة ذكرت في القرن X هـ / XVIم (5).

– شنني والنحال وبو عبدالله: قرى ذات مساكن متفرقة، يخترقها وادي قابس (6).

– الحامة (أو حمة مطماطة): كانت تسكنها قبائل مطماطة وزناتة، قبل أن تستولي عليها قبائل بني يزيد السليمية. قال التجاني إنها **«مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل .. وكان عليهاسور مرتفع، لكن مواضع منه تهدمت سنة 706 هـ. وبها قصبة لسكنى الوالي، غير أن الخراب استولى عليها».**

وقد ظل هذا السور قائما الى حد نهاية العصر الوسيط، ولم يتعرض للتخريب ثانية الا سنة 1635 م، أثناء هجومات البدو عليها. ومما يؤكد ذلك أنها كانت محطا للقوافل التجارية الصحراوية، ومركزا لضرب العملة الذهبية (7).

---

(1) الادريسي، **ن.م**، ص 106. ابن سعيد، **ن.م**، ص 144. العبدري، ن.م.، ص74. المرزوقي، **ن.م.**، ص52.

(2) من الامثلة على مدى تلاحم البادية بالمدينة الهبة التي قام بها سكان الجبال المحيطة بقابس لحمايتها، عند مهاجمة الخليفة الناصر لها سنة 602هـ. وقال ابن حوقل عن سكان باديتها: (ن.م.، ص 72) «في باديتهم شر شمر ودين قذر، وذلك لانهم لا يخلون من الشراية».

(3) التجاني، **ن.م**، ص 86.

(4) الحميري، **الروض المعطار**، ص543.

(5) Lanfreducci et Bosio , **op. cit.** , p. 507 .

(6) التجاني، **رحلة**، ص 87–88.المرزوقي، **قابس**، ص 33–34.

(7) اليعقوبي، **ن.م**، ص 102. التجاني، **ن.م.**، ص 134–136. ابن عذاري، البيان، ج IV، ص 190–192. ابن ناجي، معالم، ج IV، ص 102،147، 166، 242. ابن خلدون، تاريخ، ج VI، الفهرس (ذكر تسمية حامة مطماطة). الشماخي، **سير**، ص 48. البرزلي، **نوازل**، جI، ص 1229، جII ص 1152 (تحدث عن الدنانير الحمية والذهب الحمي). Brunschvig , **Deux Récits de voyage** ..,p. 210 .

– تبلبو: تقع جنوب قابس، على ساحل البحر، و قد كانت فى مطلع القرن الثامن هـ / XIV م منزلا فيه مبان قليلة، و عليه غابة زيتون متسعة، عوضت غابة النخيل التى قطعها أبو يحيى زكرياء بن اللحياني عند محاصرته لمدينة قابس قبل قيامه بالرحلة إلى الجنوب سنة 706 هـ (1).

–كتانة: قرية ساحلية مصاقبة لقصر يحتمي به الاهالي عند نشوب غارة بحرية أو برية. وتسقي هذه الواحة عين ماء، تصل الى سور القصر من الجهة الغربية، قبل أن تتفرع الى مسارب وسواق في الغابة. وقد شهدت هذه الواحة غراسة الزيتون في عهد ولاية أبي زكريا بن عبد الواحد على قابس، سنة 624هـ (2).

– الزارات: واحة مكونة من ثلاثة قصور، لا تبعد سوى أربعة أميال عن البحر.وقد كانت الحد الفاصل بين المجموعات الاباضية القاطنة جنوبا والمالكية شمالا (3).

– مارث: تعد هذه الواحة الصغيرة بوابة إفريقية من جهة الشرق. وبالتالي، يمكن أعتبارها الحد الفاصل في الناحية التابعة مباشرة لقابس(4).

وابتداء من خط مارث – الزارات، انتصبت مجموعة من الزوايا لتهدين القبائل البربرية والعربية وتوطينها. ومن أهم المنازل والقصور، نذكر:

– زريق: تقع في مكان مدينة تجغت (جغتي) القديمة، قبالة جزيرة جربة. كان أهلها إباضية فى القرن الخامس هـ / XIم و السادس هـ / XII م. و فى سنة 591 هـ، تحولت الى نقطة ارتكاز للميورقيين لمهاجمة مدينة قابس، لوجودها عند التقاء مسلكين: الاول يؤدي الى جبال مطماطة ودمر والثاني الى الساحل الشرقي.

كما كانت مركزا لانتصاب زاوية، قام بتأسيسها رجل يدعى سلام من عوسجة، وقد تمكن من التحكم في حرابة القبائل العربية وتولي خفارة القوافل داخل مجال دباب واستخراج الاموال منها (5).

---

(1) التجاني، **رحلة**، ص179–180.

(2) الادريسي، نفسه، ص127 (يبدو أن قصر زجونة في قائمة الادريسي يوافق قصر كتانة). التجاني، **رحلة**، ص 119.

(3) الادريسي، **ن.م.**، ص 128. التجاني، **ن.م.**، ص119.

(4) التجاني، ن.م.، ص181.

(5) الدرجيني، **طبقات**، جII، ص403. الشماخي، **السير** (الجزء المنشور)، ص 376، 394. ونورد الفقرة التي ذكرها التجاني لاهميتها (**رحلة**، ص180–181): «عوسجي إسمه سلام.، ويعرف بابي غرارة، وهذا الرجل منتم الى الدين وقد حكم على العرب بأنواع الشعوذة، فلا يقدر أحد على مخالفته، وهو يخفر في قبائل دباب وله في استخراج أموالهم منهم اليد القوية، وان امتنع أحد منهم هوّل عليه وأوعده بمصائب يوقعها به، فيخافون منه». وهذا العلم معروف في الروايات الشعبية المتداولة، ويطلق على أتباعه الغرايرية. ويبدو أن زريق البرانية المذكورة في الخرائط تختلف عن زريق (الساحلية) حيث انتصبت زاوية أبي غرارة، قرب تجغت.

وبالتالي، فقد تبيّن أنّ هذه الزاوية الرّيفيّة مثّلت شكلا من أشكال توطين القبائل البدوية واستقرارها ، وذلك باستصلاح الاراضي الواقعة حولها ، حيث انتشرت أجنة النخيل .

والجدير بالملاحظة أن مدينة تجّغت القديمة ظلت عامرة الى نهاية العهد الزيري، ثم بدأت في الانقراض في غضون القرن السادس هـ ، حتى أن التجاني عند زيارته لها وجدها أطلالا دارسة ، ولم يتبق من محارسها العديدة (وخاصة قصري دكومين والهرى) الا ظل باهت ، تمثل في زاوية بوغرارة . وهو ما يفسر أن كامل شبه جزيرة الجرف أصبحت تسمى بلاد بوغرارة ، خلال القرن XVI م (1).

وفي دخلة عكارة ، يوجد موضع بين تجغت وجرجيس يطلق عليه سواني خلف الله، وقد كان في الاصل أرضا مواتا عمرها واستصلحها بعض مرابطي الاعراب ، خلف الله الاحمدي ، من تلامذة الشيخ أبي عيسى العموري. لكن هذه السواني تعرضت لتعديات مواشي البدو ، الباحثة عن الباقل في السهل الممتد بين السواني والبحر.

ومرة أخرى ، تأتي هذه المحاولة التوطينية برهانا عن تخلي بعض الاعراب عن البداوة والغزو ، وبداية استقرارهم . لكن القسم الاوفر من قبيلة دباب لم يتقبل برضى هذه العملية التي حرمته من مجال للرعي . وبالتالي ، فان هذه الحركة الاستصلاحية التي نجحت بوادي زركين (قرب كتانة) فشلت في سواني خلف الله لتغلب البداوة على سهل جفارة (2).

– جزيرة زيزا (أو زيزوا أو ريصوا): أمتدت إسقالة جزيرة زيزا قبالة جزيرة جربة على طول أربعين كلم وعرض نصف ميل . وكان بعضها معمورا بالقصور والنخيل والكروم، والبعض الآخر تحت الماء (3).

---

(1) الادريسي ، **نفسه** ، ص 128. التجاني ، **نفسه** ، ص 133 (ذكر التجاني هذه المحارس ، فقال أنها لا تتسع الا لجلوس رجل واحد). عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس** ، ص 77. ذويب ، جرجيس ، **بدائرة المعارف التونسية** ، عدد ، ص 73 .
Lanfreducci et Bosio ,op.cit. p.507.

(2) التجاني ، **نفسه** ، ص132 . ومما ورد في هذا الشان : « فنزلنا يومنا ذلك بموضع يعرف بسواني خلف الله ، وهي منسوبة الى رجل من مرابطي العرب احمدي ، وهو من تلامذة الشيخ أبي عيسى المعموري ، كان ابتنى هناك مسجدا رسمه الى الآن باق ، وأحيى بمقربته أرضا مواتا ، فمنعه عما أراد من عمارة تلك الارض كثرة فساد مواشي العربان لما يزرع بها . فان العرب كثيرا ما يقصدونها بمواشيهم لانهم يقولون : أمرا باقل ترعى الابل به في تلك الارض وأمرعه ، وحد هذا الباقل عندهم من هذه السواني الى البحر » .

(3) يبدو لنا ان زيزا – زيزوا – ريصوا تطلق على كامل شبه الجزيرة الموجودة قبالة جربة . وهي تطابق على ما يبدو الاسم اللاتيني غير المحدد (بحيرة تريتونيس) . وقد غارت هذه الجزيرة تحت الماء . راجع : الادريسي ، ن.م. ، ص 128–129. ذويب ، نفسه ، ص 74(ذكر أن عكارة نسبة الى صياح العكاري من القرن XVI م ، وأن زيتا (أ زيزا – كذا) تقع على مرتفعات هنشير زيان ، غرب جرجيس 8 كم .

Trousset , Du Lac Triton des anciens au projet de mer saharienne ,In **C.T.** ,1984 ,p 31-49.

Oueslati , Les **Iles de la Tunisie** , Tunis 1985 .

– قصور جرجيس : أضحت جرجيس في القرن السادس هـ / XIIم قصرا صغيرا محاطا بسور ، وبه حصن . لكنها شهدت تطورا نسبيا ، على ما يبدو ، في العهد الحفصي ، نظرا الى أهمية ملاحتها المصدرة للملح الجيد نحو المدن الايطالية (1).

– جزيرة جربة : اكتسبت هذه الجزيرة أهمية فائقة طيلة الحقبة الحفصية بحكم عوامل عدة ، أهمها : – الموقع المتميز في المتوسط الذي جعل منها مرفأ متقدما لافريقية يربطها بشرق المتوسط وشماله ، وترسي به السفن التجارية المتنقلة من ميناء الى آخر مساحلة .

– وفي البر ، كانت القوافل الصحراوية المحمّلة ببضائع بلاد السودان (التبر والرقيق) تحط رحالها بقابس قبل أن ينتقل بعض تجارها الى جزيرة جربة لمواصلة الرحلة بحرا .

– ونتيجة لهذا الموقع المتميز ، تحولت الجزيرة الى مجمع للانتاج الزراعي (زيتون وتمور وتفاح) والحرفي (منسوجات صوفية) لمجال اقتصادي واسع ، يمتد الى سهل جفارة وجبل دمر .

وقد بدأت هذه الفاعلية البحرية تبرز بوضوح على إثر التدخل الزيري البحري بالجزيرة سنة 431هـ / 1040 م ، ثم التدخل الثاني سنة 509هـ / 1115م . ولم يمر سوى عشرين سنة على هذا التاريخ حتى احتل النورمان جربة ، وظلوا بها الى سنة الاخماس(2).

وابتداء من تلك الحقبة ، عرفت الجزيرة التناوب بين القرصنة والتجارة (3).

و تعتبر حملة روجي دي لوريا سنة 683هـ/ 1284م أهم عدوان خارجي تعرضت له في العهد الحفصي ، على أن المقاومة الشديدة لأهل الجهة ، وتدخل الحفصيين في الصراع ودور المدن التجارية (بيزا وجنوة) في إنهاء الحرب ، ساعدت على طرد المحتل سنة 737هـ / 1336م (4).

---

(1) ذويب ، نفس الاحالة . Brunschvig, **Hafsides**, T I, p. 400 . Dufourcq, **L'Espagne Catalane**...p 419, 521 .

(2) الشماخي ، **كتاب السير**(الجزء المنشور) ، ص 343 . ابن عذاري ، **البيان** ، ج I، ص 275. ديوان ابن حمديس، تحقيق إ. عباس ، ص 225 (قصيدة يهنئ به علي بن يحيى الزيري ، عند حصاره جربة بحرا) .الادريسي ، **نزهة المشتاق** . (نشر الحاج صادق) ،ص172 .

(3) نجد صدى لانعكاس الغزو على التجارة في وثائق الجنيزة . ففي رسالة من أبي سعيد بن ابي الحسن الابزاري، ذكر فيها أن السفينة المسيحية التي سافر على متنها اعترضها أسطول روجار الثاني الذي غزا جربة سنة 1135م، فاخذ وأصحابه أسرى ونكل بهم ومما ورد في رسالة مؤرخة سنة1149 م : « بلغني خبر ما جرى بساحل افريقية ، بطرابلس وجربة وقرقنة وسفاقس والمهدية وسوسة . لكن لا أعرف من توفي ومن بقي حيا . اكتب لي تفاصيل الوضع ، وابعث رسائلك مع ثقات الناس لطمانتي » . راجع :
Goitein , **Lettres of medieval jewish traders** , p. 206 , 324 .

(4) حول تفاصيل الاحداث التي هزت الجزيرة في العهد الحفصي ، سنوات 683هـ / 1284م – 735هـ / 1335 م ، أنظر : ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص429 .مارمول ، **افريقيا** ، ج III، ص 103–109.
Dufourcq, L'Espagne Catalane ..,T I,p.265 ,T II,p. 432 .
Alarcon , **Documentos** .. ,p. 259 ,284 . Brunschvig , **Hafsides** ,T II ,p. 200-205 .

وفي الجملة فان الواجهة البحرية تدعمت طيلة هذه الفترة حتى أن مركز الجزيرة شهد انتقالا من الداخل الى الساحل ، من مدينة جربة و سوق الخميس الى حومة السوق. فالأولى ظلت عامرة حتى القرن السابع هـ ، وقد تموضعت وسط الجزيرة في خط فاصل بين النكار والوهبية . و كانت مربعة الشكل ومحاطة بسور ، ذات قصبة موحدية مخصصة لسكنى حافظ البلاد ، غيرأن هذه المدينة استولى عليها الخراب عند زيارة التجاني لها سنة 706هـ / 1306م.

أما المدينة الثانية ، سوق الخميس ، فانها تأسست قرب الحشان منذ أواخر القرن الثالث هـ / التاسع م ، في عهد الشيخ أبي موسى يسجا بن يوجين اليهراسني . وقد ارتبطت هذه الحركية بفاعلية التجارة الصحراوية في تلك المرحلة (1).

على أنه ابتداء من القرن السادس هـ / XIIم ، برز الانزياح العمراني من الداخل الى الساحل ، نتيجة تطور العلاقات التجارية في حوض المتوسط . وقد تجسد ذلك في تعدد الموانى والحصون البحرية ، وفي ظهور حومة السوق .

– حومة السوق : وصفها ابن عبدالباسط بالعبارات التالية : **« والى قرب ميناها حصن منيع ..وليست بمدينة مسورة ، بل متفرقة الابنية أنيسة جدا، مربعة الشكل بوضع غريب »** .

وقد كان هذا الحصن المنيع ، أو القصبة حسب الوزان ، وهو برج الغازي مصطفى حاليا ، مقرا لسكنى الوالي الحفصي (2).

وفضلا عن الأسواق الحضرية التي برزت بحومة السوق ، فانه خصص حي لسكنى الغرباء من مسلمين ونصارى ، على غرار ما كان معمولا به في مدينة تونس . ذلك أنها كانت محطا لسفن الاسكندرية التي تتزود بالزيت وقماش الصوف والزبيب،

---

(1) ذكرت كلمة جربة (Respublica Gerbitaba , Gerbitanae) في نقيشة ترجع الى العصر الروماني . ذكر بشاوش أن جزيرة منكس أصبحت تسمى جربة ، منذ القرن الرابع ق.م. انظر :

A.Beschaouch,op.cit.In **Académie de Inscriptions des Belles Lettres,** Juillet-octobre 1986.

راجع : التجاني ، **رحلة** ، ص 123، 127 (مدينة جربة فاصلة بين أراضيهم النكار والوهبية) . ويبدو أن موقع هذه المدينة يوجد قرب الجامع الكبير وضريحي أبي زكريا فصيل اليهراسني وأبي محمد كموس ، وإن كان لا يوجد في الخط الفاصل بين المجموعتين.

(2) رحلة ابن عبد الباسط ، نشر برانشويك ، ص 36. الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II، ص93-96.

والشواني البرشلونية والجنوية التي ترسي بها في طريقها الى المشرق ، فتتزود بالزيت والتفاح والصوف المنسوب اليها (Gherbusci) والذهب والرقيق (1).

– *القصور الموجودة بالبيبان* : فضلا عن المحارس الصغيرة التي لا تتسع لاكثر من شخص ، حسبما ورد في التجاني ، فانه ثمة عدة قصور ساحلية عامرة ، على طول بحيرة البيبان ، أهمها :

– قصر بنقردان : ورد ذكره في خريطة بيري رايس .

– قصر بني الخطاب : يقع 25 ميلا ، جنوب جرجيس ، في أخر السباخ ، قبالة سقالة جزيرة زيزا . وهو ما يجعلنا نحدده في مدخل بحيرة البيبان (2).

– قصر شماخ : يوجد جنوبه ، بين سبخة فروة والبحر ، قريبا حاليا من الحدود (3).

– قصر صالح : يقع جنوب السابق بعشرة أميال ، على قرطيل طوله خمسة أميال، وهو رأس المخبز الذي عرف مرساه شهرة كبيرة في العهد الحفصي ، نظرا الى جودة ملح سباخه ، الذي صدر الى المدن الايطالية (4).

وفي الجملة ، فان التوطين بالقصور الساحلية اقترن بمراقبة السواحل وخاصة بالنشاط الاقتصادي المتمثل في تصدير الملح والصوف والزيت الى المدن الاوروبية .

ولئن تبعت اداريا قابس ، فان التكامل الاقتصادي بين المدينة ومجالها غير واضح. أما عن العمق الداخلي لهذه الجهة ، فانه تمثل أساسا في القصور الجبلية .

– *القصور الجبلية* : تموضعت أغلب هذه القصور على سفح جبل دمر الممتد من

---

(1) ابن سعيد ، **جغرافيا** ، ص 145. العبدري ، **رحلة** ، ص 237.التجاني ، **رحلة** ، ص122 . القلصادي ، **رحلة** ، ص123 . الوزان ، **نفس الاحالة** . ابن بطوطة ، **رحلة** ، نفس الاحالة (مر بجربة ،أثناء سفره من الاسكندرية الى تونس بحرا، متبعا طريقة المساحلة). الشماخي ، **سير** ، ص 458(ذكر أسواق جربة) .

Mas -Latrie , **Relation et commerce** , p. 375 ,379 . Dufourcq , **L'Espagne Catalane**..,p. 594 . Carrère , **Barcelone , centre économique** , Paris 1967,p.426. Doumerc , **Venise et Tunis** , p. 187.

(2) الادريسي ، **نفسه** ، ص128-129 .

Tissot, **Géographie comparée**,op.cit., carte du Sud Est.

(3) يبدو انه يوجد قرب بوكماش . وقد ذكر التجاني في هذه الجهة المسلك الرابط بين رأس المخبز وبئر الزكرة . ويوجد هذا الموقع الأخير حاليا جنوب بنقردان بنحو 12 كم ، وقد تغير إسمه الى جميلة . ومن الملاحظ أن بنقردان ورد إسمها في خرائط بيري رايس منذ سنة1525 م ، وهي بهذا موضع قديم خلافا لما تتناقله الروايات من كونها ترجع الى الفترة الاستعمارية .

(4) التجاني، ن.م.، ص 206-207 . وقد ذكر سوساك زاوية برأس المخبز .

Brunschvig , **Hafsides** , TII ,p.230. Soucek , **op. cit.**, p. 143

Hocquet , Le **sel et le pouvoir** .

بني خداش الى حد جبل نفوسة . وقد ارتبطت أسماؤها بأسماء لاعلام بربرية (مثل غمراسن وتمولست ومـاطوس) أو لقبائل عربيـة أوبربرية (مثل دباب وأولاد سلطان وأولاد شهيدة وزناتة وقطوفت وبني خزر).

– تطاوين : بفـتح التاء أو كـسرها ، تعني باللغـة البربرية عـيني الماء . وهو نفس الاسم الذي أطلق على مدينة مـغربية أخرى ببلاد الريف . ولئن كـانت تلالت هي المركز الحضري المحـصن بهذه الجهـة في العهد الروماني، فـان تطاوينت قد عوضتـها منذ القرن الثـاني هـ ، لما مر من هناك عـبد الوهاب بن رستم سنة 196هـــ ، في طريقه الى طرابلس . على أن الدور الذي قـام به هذا القـصرعـهد الحـفـصيين ظل مـغمـورا في المصادر(1)

–تلالت : تقع تلالاتي القديمة على خط التـخوم الرومانية، شـمال شرق تطاوين بنحو ثلاثة كم . استمر تعمـيرها في القرن الثاني هـ ، إذ ورد ذكرها آنذاك في المصادر . ويبدو أنه في فتـرة لاحقـة ، وقع بنـاء قصـر لالت ذي الشـكـل الدائـري، لخـزن المؤونـة (2).

– غمراسن : ذكـر القصر لاول مرة سنة 706هـ / 1306م ، عند زيـارة التجاني له. ويبدو أن تسميته اقـترنت باسـم علم بربري . وينقسم هذا القـصر الى قلعـتين جبليتين متقـابلتين: قلعة حمدون و قبالتها نفيق الـتي شيّد في أعلاها ضريح نسب الى محمد بن عرفة (3).

– شنني : من القلاع الجبلية الأخرى بجبل دمر ، تقع على السفح الجنوبي للجبل . على أن الجهة الشمـالية كانت بدورها عامرة ، إذ يوجد بها مغـاور عديدة وجامع قديم . ونرجح أن هذه القلعة كانت عامرة في العهد الحفصي(4) .

– الدويرات :انتصـبت المنازل الكاهفية والمسـجد الجامع في السـفح الاول للجبل، فيـما خصص الجزء الاعلى لمخـازن المؤونة . واعتبارا لوجـود نقيشة باحـدى الغرف مؤرخة بسنة 590 هـ ، فانه من المحتمل أن يكون تعـمير القصر قد سبق الاضطرابات التي تمكن فيها بنو غانية من الاسـتقرار بالجبل والسيطرة عليه الى حد سنة 602هـ / 1205م ، تاريخ قدوم الموحدين الى الجنوب وإحكام السيطرة عليه (5).

(1) الشماخي، **سير** (الجزء المنشور)، ص 66 .

(2) الشماخي ، **السير** (الجزء المنشور) ، ص 67 ، 241. كانت بلد القلعة في الحقـبة الحديثة في علاقة نزاع مع عرب النوايل .

(3) ذكر البكري (نفسه ، ص 76) موقع يغمراسن بين المسيلة وسطيف . التجاني ، **رحلة** ، الفهرس. **الحلل الموشية** ، ص 155. Lewicki , **Du nouveau** ....p. 180 .

(4) راجع : A. Louis , La **Tunisie** du sud.

(5) المرجع نفسه .

–بني خداش : يوجد هذا القـصر على سفح جبل . وقد تبقت آثار العـهد الحفصي بموقع دمر ،شـمال القرية بـنحو 6 كم ، وهي متـمثلة في مسـجد كاهفي ، يـطلق عليه مسـجد علولو ، مكون من ثمـاني بلاطات وأسكوبين ، تعلوها منارة . وترجع النقيـشة التي تمكـنا مـن قراءة جـزئية لها ، والموجودة في مسـتوى الاسكوب الثاني إلى سنة 865 هـ / 1460م (1).

– قصر قطوفت : يعتبر من أهم القصـور السكنية بجبل دمر ، الذي استوطنه فرع من لواتة بنو قطوفت ، الوارد ذكـره في المصادر منذ القـرن الرابع هـ / Xم . ويرجع تعميـر هذا القصر الى القرن الخامس ، على أقل تـقدير ، اعتمادا على النقـائش التي عثر عليها في الغيران المتراكبة ، ذات الهندسة العجيبة . وقد تكون كل واحد منها من غرفتين متتاليتين ، تضمنت رسوما عديدة على جدران الغرف ونقائش (2).

– قصـر العواديد بالمستـورية : يقع هذا القصر المعـد لخزن الحبـوب على ارتفاع 350م، متخـذا شكل مربع ، ضلعه 34م . له مـدخل بارز من جهة الجنوب ، وسقـيفة تضمنت نقيشة احتوت على إسم البناء : المعز بن يعيش .

وتدل النقائش التي عثرنا عليها في الغرف أن القصر كان عامرا بين القرنين XVII و XIXم . على أن الاعلام الوارد ذكـرها بهذا القصر (مـثل بني بركة وبني مسـتيرن ، بطن من زناتة) توحي بانه قد يرجع الى القرن السادس هـ (3).

– قصر زناتة (أو الـقصر القديم) : اتخذ هذا القـصر شكلا مستطيـلا ، يحيط به سور حـصين ، تدعمه في الزوايا إبراج مكعبـة . ويتوسط الجهـة الجنوبية كنة بارزة ، قائمة على عـقد متجاوز ، كتـبت في باطنه نقيشة تؤرخ لبناء القصـر : 475بعد موت النبي / 485هـ / 1091م .

(1) نورد ما تمكنا من قـراءته من هذه النقيشة : « بسـم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسـلام على سيدنا مـحمد ونبينا / هذا المسجدالمبارك (بني) أيام الله ..عام خمس وستين وثمانمائة ..صلى الله عليه وسلم ..رحمه الله » . وفي الطابق العلوي من هذا المسجـد الكاهفي ، توجد نقيشة ، قرانا منها : « رمم هذا السـقف عام ..لا اله الا الله » .

(2) ذكر أ. لويس (نفسـه) جامع العـزابة الذي يرجع الى نحو900 سنة ، ونقـيشة باحـدى الغيران عليـها تاريخ سنة730 هـ / 1329 م ، ونقيشة ثانية كتب عليها سنة 1006هـ/ 1587 م . كما عثرنا على نقيشـة أخرى بغار مطل على الجهة الشرقية كتب فيها :« المعلم علي بن سعيد بن عبد ..وماتوا ..1181 هـ » .

(3) توجد نقيشة في السقـيفة كتب عليها : « هذا بناء المعز/ بن يعيش / ابتغا ربه » .أمـا النقائش التي عثرنا عليها ، فهي ترجع الى سنة 1080 ،1098 ، 1170،1274 هـ.

ومما يدل على قدم القصر أن البركاوي وبني بركة أسماء مـتشابهة مع علم من رجال القرن السادس : أبو عبد الله محمد بن بركين ،كما أن قرية المستورية يمكن ارجاعـها الى بني مستيرن ، بطن من زناتـة . وقد ذكرها ابن حوقل خطأ تحت اسم مستيزين ، ومنه خليفة المستيري الوارد ذكرة في الشماخي (**السير** ، ص 594).

وتحيط بالقصر غرف مقببة ، تحليها زخارف هندسية ، تأخذ أشكالا عديدة مثل المعين والدائرة والنجمة السداسية والمثلث والاشكال الحلزونية . وتتميز بأبوابها الصغيرة التي نجد صدى لها في المصادر (1).

–قصر تمولست :كان جبل تمولست مجاورا لجبل زنزفة حيث قلعة بني علي . وتوجد في سفحه عيون وقصر تمولست . ويعود ذكر هذا القصر الى الفترة التي تبعت الهجرة الهلالية في القرن الخامس هـ ، عند ترجمة أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، لذي درس بتمولست ، قبل مغادرتها سنة 449هـ / 1048م ، على إثر مرور الاعراب من هناك للتحول الى موقع أكثر أمنا ، وهي قلعة بني علي .وفي سنة 462 هـ / 1070م ، عاد اليها من جديد، لكنه لم يبق بها طويلا ، وتحول الى تونين الواقعة شرق تمولست . وقد بقيت حاليا جنوب تطاوين آثار هذا القصر ، الذي كان شاهدا على كيفية تقبل البربر الهجرة الهلالية في بداية أمرها (2).

– قلعة أولاد شهيدة : تقع في أعلى جبل وعر ، على ثلاثة مستويات . وتتكون من منازل كاهفية قديمة ، تكثر فيها قطع الخزف المطلي . وبالتالي لا يستبعد أن تكون عامرة في العهد الحفصي (3).

–قصر ماطوس : تذكر الرواية الشفوية أنه وقع تخريبة عند قدوم الاعراب الهلالية في أواسط القرن الخامس هـ .ولكننا لا ندري مدى مصداقية هذه الرواية المتداولة في بلاد افريقية (4).

– قصر وني : قصر في شكل دائري ، بني على شرف بقرب الذهيبات ،وترجع النقيشة الموجودة بمحراب المسجد الى سنة 549هـ (5).

---

(1) نص النقيشة الموجودة في باطن العقد : (على يمين الداخل) :« **عملت هذه السقيفة في / يوم الجمعة في شهر / الله ربيع الاخر سنة / خمسة وسبعين وأربع/ ماية بعد موت النبي / عليه السلام .. (وعلى يساره) : هذا الكتاب (كذا)..عند ؟ يحيى بن داود ابن / الياس / محمد – الله .»**
وقد ذكر أ. لويس (نفسه،) نقيشة ترجع الى سنة 480هـ باحدى الغرف . وفي غرفة أخرى قرأنا نقيشة تبدو قديمة ، جاء فيها : الحق الحق .

(2) أوردت المصادر الاباضية ذكر اسم تمصولت (بن بكار) منذ القرن الرابع هـ ، ولا يستبعد أن تكون تمولست ترجع الى نفس الجذع،، بل نفس الكلمة التي سبق فيها الصاد اللام : الشماخي، **السير**، ص 297.

(3) سكن هذه القلعة الدغاغرة (أولاد دغري) الذين كانت تربطهم علاقة ولاء باولاد دباب .وقد خربها الفرنسيون أثناء ثورة الرمثة سنة 1911 م .و حافظت الرواية الشفوية على حدث التخريب.

(4) محمد المرزوقي ، **البدو في حلهم وترحالهم** . وقد ذكرت رواية مطابقة لها خاصة بشمطة (بالساحل).

(5) ورد في هذه النقيشة ، حسب قراءة محمد البشير المدني ،من تطاوين : « عمل هذا في 5 شهر المحرم سنة549 هـ . عمل هذا محمد حمو ومعز ابراهيم» .

– وثمة قصور عديدة أخرى ، مثل قصر سقدل الذي احتوى على رسوم جدارية هامة (منها ما يمثل السفن) ، وقصر بني خزر نسبة الى علم بربري متداول ، وقصر أولاد سلطان الذي يزعم أهله أن تاريخه يعود الى القرن الثامن هـ / XIVم . وهو احتمال، لو صحّ ، لتبين أن قبيلة أولاد دباب العربية قد اقتبست مبكرا نمط حياة البربر، في خزن المؤونة والعيش ، وتأثرت بها كما أثرت فيها وعربتها .

2) مدينة طرابلس وناحيتها :

أ) المدينة :

مدينة طرابلس : تقع هذه المدينة القديمة على ساحل البحر ، على الطريق الرابط بين المشرق والمغرب . وقد ظلت طيلة العهد الاسلامي مدينة حصينة ذات شأن .

فمنذ ولاية عبد الرحمان بن حبيب ، وقع تجديد سورها من جهة البر سنة 132هـ / 749م ، بعد أن هدمه عمرو بن العاص .ثم أعاد هرثمة بن الأعين بناءه سنة 179هـ / 795م.

ارتبطت المدينة بناحيتها منذ العهد الاغلبي، بواسطة الأبواب التالية : باب هوارة وباب عبد الله من الجنوب الشرقي، وباب البحر والباب الاخضر من جهة البحر. وظلت هذه التسميات متداولة عهد الحفصيين ، باستثناء أنه ذكر الباب الجديد في القرن XVI م ، وأن باب عبد الله أصبح يسمى كذلك باب الستارة ، لاقامة ستارة أمام الاسوار في عهد أبي محمد عبد الواحد الحفصي سنة 614 هـ / 1217م (1).

كما أحيط السور في مطلع القرن الثامن بخندق متسع يصل الى البحر من كلا جانبي البلد ، وقد تواصل وجوده الى نهاية العصر الوسيط.

ومن المنشآت العسكرية الاخرى بالمدينة ، المنارة والقصبة الموجودة من ناحية البحر ، والتي تعرضت الى الاهمال في القرن الثامن هـ ، ثم تغيرت جزئيا عهد الاحتلال الاسباني (2).

أما المدينة نفسها ، فقد عرفت تطورا شبيها بدمشق ، إذ أنها حافظت الى حد القرن الثامن على تخطيطها الشطرنجي القديم ، حتى أن التجاني قال أن « **الماشي بالمدينة يمشي بها مشي الرخ** » . على أن طبيعة العمارة ووظيفتها تغيرت ، إذ برزت بها منشآت عديدة ، مثل المسجد الجامع ذي المنار المستدير الذي بناه الفاطميون ، والمصلى

---

(1) الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص 121. العبدري ، **رحلة** ، 82 . التجاني ، **رحلة** ، ص 339–340.

(2) التجاني ، نفسه ، ص 244–245.
Lanfreducci et Bosio , Costa e discorsi di Barbaria , **R.A.** ,1925,p.526

المحدث في العهد الحفصي في الجنوب الشرقي ، والمدارس (مثل المدرسة المنتصرية ومدرسة ابن ثابت) والحمامات وغيرها (1).

ونظرا الى بعدها عن مركز حكم الحفصيين ، وتعرضها لمخاطر الغزو البحري ، فقد ترسخت فيها سلطة محلية لعبت فيها العامة دور فاعل ، حتى أن العبدري ذكر بأن أهلها سواسي ، وأضاف التجاني قائلا : « **جميع الخواص من هذه البلدة مقهورون تحت حكم العوام منهم ، لبعد بلدهم عن الحضرة وانقطاعهم عن الاوامر**»(2).

وقد بلغ هذا الوعي الحضري درجة مماثلة لما حصل في تونس زمن النورمان ، حتى أنهم منعوا تصدير الحبوب الى خارج بلادهم ، وعاقبوا المخالف على ذلك .

ودون أن ندخل في تفاصيل التاريخ السياسي للمدينة ، للحافل بالاحداث ، فان أسرة محمد بن ثابت قد انفردت بحكم البلاد بين سنتي 724هـ / 1226م و 793هـ / 1390م ، تاريخ استيلاء أبي فارس عبد العزيز على المدينة . وفي عهد أبي عمرو عثمان ، توصل الحفصيون الى السيطرة على كامل الناحية الممتدة الى تاورغا (3).

ورغم تتالي الازمات ، فان المدينة تمكّنت من الصمود في القرن XVI م، لكن عدد سكانها تراجع الى ستة آلاف (4).

ب) ناحية طرابلس : أحيطت المدينة بغابة من النخيل وبحدائق مزودة بجوابي ومواجل ، ومنتجة للزعفران و أشجار التين والرمان . وعلى بعد نصف ميل ، توجد أجنة المنشية الكثيرة، وسط عين ماء عذبة .

وكانت هذه الغابة « متصلة الى الجبل بأنواع الفواكه على اختلافها ، وتعدد أصنافها » ، وذلك قبل تخريب البدو والغزاة لها (5).

وقد أرجع الادريسي خراب بواديها الى الانتشار الهلالي ثم السليمي حيث أصبحت مجالا لقبيلتي دباب وعوف ، قبل انتقال هذه الاخيرة الى وسط افريقية .

(1) العبدري ، **نفسه** ، ص 82،76. ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص21. القلصادي ، **رحلة** ، ص124 .
(2) العبدري ، **نفس الاحالة** . التجاني ، **ن.م.** ، ص258 .
(3) التجاني ، **نفس الاحالة** .ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVI ، ص 957. الزركشي ، **تاريخ** ، ص94–95 . ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص 435 (ذكر ابن بطوطة أن المدينة تعرضت لهجوم النصارى ، ووقع فديها بخمسين ألف دينار من الذهب العين). كما شهدت في عهد ثابت بن محمد بن ثابت ،و تحديدا سنة756 هـ ، هجوم الاسبان عليها ، بقيادة فيليب دي دوريا ، و لم تزل في يد الفرنج حتى فداها صاحب جربة .
(4) Lanfreducci et Bosio, **Cote,op**.cit.,p.526-527.
(5) نفس الاحالة السابقة ، ص 502 (ذكر المنشية). التجاني ، **رحلة** ، ص247 .

ويبدو أن أحد بطون هوارة ، وهي مجريس ، تمكنت وقتذاك ، والى حد سنة 676هـ / 1277م ، من بسط نفوذها على ناحية طرابلس . وقد اتخذ أفرادها زنزور سوقا لهم ومقرا ، وكانت لهم « **قوة واشتداد بقريتهم ، وامتناع من العرب ، لم يكن أحد من العرب ولا غيرهم يدخل غابتها ولا يتجاوز شجرة واحدة منها الا باذن منهم .وكان بها اذاك أجناد مرسومون في ديوان العطاء كلهم من أهلها ، قد عدوا هنالك جندا لمن يلي طرابلس ، ورسم لهم عطاء يقبضونه من خراج طرابلس ، فكانوا يضيقون الاعراب شرا** » (1).

على أن هذه الوضعية تغيرت سنة 676هـ/ 1277م ، لما تمكّن رئيس الجواري ، مرغم بن صابر ، من التغلب على الهواريين من مجريس ومن افتكاك قرية زنزور من ايديهم وإقطاعها بموجب ظهير سلطاني .

وابتداء من هذا التاريخ ، شهدت المدينة فترات صعبة، حتى أن العبدري وصفها بالقفر والجدب ، واستيلاء عربان البر ونصارى البحر عليها . وقد ظلت ناحيتها غير آمنة في القرن الموالي ، بشهادة ابن بطوطة نفسه الذي احتاج الى خفارة مائة فارس لقطع الطريق (2).

وانتصبت أهم القصور والقرى على طول الجادة الكبرى الرابطة بين المغرب والمشرق، غرب مدينة طرابلس وشرقها ، وأهمها من الجانب الغربي :

– *زوارة الصغرى* ، وتسمى أيضا وطن المرابطين : قرية ساحلية محاطة بسور، ذات نخيل . اشتغل أهلها في استخراج مواد البناء اللازمة للعمارة بمدينة طرابلس ، وفي التجارة مع السفن الايطالية والاسبانية الراسية برأس المخبز لحمل الملح . ولذلك فانها كانت عرضة لهجومات القراصنة من حين الى آخر ، وما يعني ذلك من دمار وتخريب لعمارتها . وقد تصدت زوارة التي يوجد على رأسها مقدم لهذه الغارات(3).

– *زوارة الكبرى* : تسمى كذلك كوطين لوجود قصر بهذا الاسم قربها . ويبدو أنها توافق زوارة الحالية . وهي قرية أكبر حجما من سابقتها ، وغابتها متسعة . تمكن أهلها من الوقوف في وجه الجواري الدبابيين ، و كانت أرض زوارة تصل آنذاك الى حد قصر ولول الذي تقطنه مجموعات اباضية (4).

(1) التجاني ، **رحلة** ، ص 216–217.
(2) الادريسي ، **نفسه** ، ص 121–122. العبدري ، **نفسه** ، ص76 ، 82 . التجاني، **رحلة** ، ص 216–217 . ابن بطوطة ، **نفسه** ، ص21 .
(3) العبدري ، **نفسه** ، ص76 . التجاني ، **نفسه** ، ص 207–209. ياقوت ، **البلدان** ، جII ، ص 153. ابن خلدون ، تاريخ ، ج VI ، ص262 . الوزان ، نفسه ، جII ، ص96 . Lewicki , Répartition ...p. 327
(4) الادريسي ، **نفسه** ، ص 129. التجاني ، **نفسه** ، ص210 . الشماخي ، **سير**(الجزء المنشور) ، ص 249 .

– قصر وزدر : قصر ساحلي محاذ لزوارة الصغرى ، تحول في القرن الثامن هـ الى أثر بعد عين ، بعد أن أصبح عرضة لهجومات القراصنة التي ترسي به لاقتناء الرقيق، حتى أن القوافل أصبحت تتحاشى المرور به (1).

– حصن تليل : من الحصون الواقعة على تلة مشرفة على البحر ، وقد كان محاطا بعدة منازل للنكار ، وفي أسفله سوان ومزارع سقوية (2).

– زواغة : هو إسم لقبيلة بربرية إباضية نازلة بصبراطة منذ القرن الخامس هـ . وأصبح يطلق على القرية التي أقيمت قرب خرائب صبراطة ، والمسماة في الخرائط الاوروبية (les portulans) إسم طرابلس القديمة لا تبعد عن البحر سوى ميل ونصف ، وكانت مزودة بميناء مبني بالصخر ، وبحصن يحتمي به السكان أثناء غارات القراصنة الاوروبيين الذين يقبلون في أوقات السلم على اقتناء الخنازير . بلغ عدد سكانها في نهاية الحقبة خمسمائة نسمة (3) .

– صرمان : قرية على الطريق الموصلة الى طرابلس ، كانت عامرة في القرن الثامن هـ، ويقطنها عدد من اليهود الذين لا يختلف مظهرهم ولباسهم عن بقية السكان . وقد ازدادت أهميتها في القرن XVI م (4).

– زاوية أولاد سهيل : مثّلت هذه الزاوية الشكل الجديد لاستقرار البدو الدباببين، باعتبار أن أولاد سهيل ينتسبون الى عمور بن وشاح ، أخي الجواري (جارية بن وشاح) والمحاميد (محمود بن وشاح) والجواوبة (جواب بن وشاح) . غير أن هذا القبيل الضعيف العدد لم تعد له صولة كما كان في الماضي ، وأضحى تابعا في مطلع القرن الثامن هـ للجواري . وهو ما يفسر الى حد ما انصراف بعض افراده الى تأسيس زاوية للاستقرار.

كتب التجاني مايلي : **« سهيل صاحب هذه الزاوية رجل يعرف بأبي عيسى يذكر عنه صلاح واعتناء باضافة من كان يرد عليه .وتوفي عام 673هـ ، وخلفه في إقامة رسم هذه الزاوية أبناؤه ، وهم ناس صلحاء سكنوا تلك الزاوية رحمة للمجتازين بهم ، فانهم يرفدونهم بما يحتاجون اليه من زاد وغيره ، ويرجعون اليهم ما استلبته العرب . والدباببيون يرعون لهم حق رباطهم وحق مشاركتهم لهم في النسب »** (5).

---

(1) التجاني ، **نفسه** ، ص209–210 .
(2) التجاني،**نفسه** ، ص 211. وقد ذكرت قبيلة بني تليلن قرب عنابة عهد الحفصيين.
(3) البكري ، **مسالك** ، ص 17–18. أبو زكريا ، **كتاب السيرة** ، ص 146–148. العبدري ، **نفسه**، ص 76. التجاني، **نفسه** ، ص 211–212. ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVI ، ص264 .
Soucek , **op. cit** ; ,p. 146 . Lanfreducci et Bosio , **op. cit.** , p. 503 .
(4) التجاني ، **نفسه** ، ص 212. الوزان ، نفسه ، جII ، ص110. البرزلي ، **نوازل** ، ج I، ص 171ب .
(5) التجاني ، **نفسه** ، ص 212–213.

و فضلا عن وظائف هذه المؤسسة المذكورة ، فقد تحولت الى مركز لتعليم البدو الكتابة والقراءة ، حتى حبس عليها عدد من الكتب .

على أن هذا الدور الاجتماعي والثقافي والامني لم يكن ممكنا ما لم تتوفر القاعدة المادية له ، المتمثلة في مدى الفاعلية الزراعية لهذه الزاوية . فهي ، كما رأينا بالنسبة الى بو غرارة ، وحدة زراعية قادرة على تمويل ذاتها في الفترات الحرجة . و تبدو أنموذجا لهذا الصنف من التعمير عهد الحفصيين ، فهي **« رابطة حصينة يحف بها شجر كثير من التين والرمان والخوخ وغير ذلك . ولها أرض متسعة تعرف بالسابرية »** (1).

فقد تولت هذه الرابطة إستغلال الاراضي الشاسعة للسابرية –مع الملاحظ أن قرية الصابرية الحالية تقع 4 كم شرق بوعيسى– وقامت باحيائها وتعميرها ابتداء من القرن السابع هـ . ويبدو أن هذه التسمية ترجع على أقل تقدير الى القرن الرابع هـ ، إذ ذكر القاضي النعمان **«بلاد المهدية وشبان الصابرية »** وأشار البكري الى بني السابري ، موضع غرب طرابلس ، على مسيرة ثلاثة أيام (2).

أما عن جذور هذه الملكية الكبيرة ، فهي على ما يبدو قديمة ، وان اختلف في أصل الكلمة (3).

والسابرية في كلتا الحالتين هي ضيعة شاسعة ، وملكية خاصة لانتاج الزيتون المرتبط بالسوق الايطالية في العصر القديم . و ظلت محافظة على وحدتها الجغرافية في العصر الاسلامي ، وان كنا لا نملك معلومات حول كيفية استغلالها . وفي القرن السابع هـ، أضحت ملكية للرابطة التي هيمنت على المجال الممتد بين زوارة وزواغة، وخارجه، إذ تولى أحد تلامذة أولاد سهيل تعمير الارض واستصلاحها بسواني خلف الله، قرب مدينة قديمة أخرى مندثرة ، وهي تجغت .

فهل معنى ذلك أن الرابطة والزاوية المنتصبتين في مكان مدينة قديمة ، قد أخذت على عاتقهما مشروع إحياء الارض واعادة تعميرها ، وتوطين البدو ؟ لقد سبق أن رأينا في أمثلة أخرى أن القبائل المستضعفة ركنت الى الاستقرار ، وأن الزاوية كانت الشكل الجديد لتوطينهم ، ولاكسابهم سلطة حقيقية ،من ذلك بنو دهمان بوسط إفريقية .

---

(1) التجاني ، **نفس الاحالة** .
(2) القاضي النعمان ، **المجالس والمسايرات** ، ص 254. البكري ، **مسالك** ، ص 7.
(3) الراي الاول هو راي لويسكي ، يعتبر أن السابرية هي ملكية كبيرة لاسرة السفاريين ، وعلى رأسهم الامبراطور سبتيم سيفار : 193–211م ، الذي نشأ في أسرة فينيقية ببلدة الكبرى، وأن بني السابري (Severi)هم أحفاد المزارعين الكولونوس الذين عملوا بهذه الضيعة . أما الراي الثاني وهو تعليق كوتيلا ، فقد ربط بين السابري وسكان صبراطة (Sabratenses). وبالتالي ، فان السابرية تعني الاراضي الواقعة بين صبراطة وطرابلس ، حيث تتكاثر غراسة الزيتون . انظر :
Kotula , Un témoignage d'Al -Bakri ... , In **Antiquités Africaines** , TXXII, 1986 .

– زاوية أولاد سنان : هي مثال آخر اقترن ببداية استقرار البدو . تقع غرب مدينة طرابلس ، وهي أكثر أهيمة من سابقاتها ، من حيث العمارة و عدد الرجال والاراضي المتملكة لها . و قد مثلت سوقا للقبائل البدوية ومركزا لهم . ورجعت بالنظر لشيخ الجواري ورئيسهم : عبد الله بن دباب بن أبي العز بن صابر بن عسكر بن حميد بن جارية الذي اشتهر بشدته تجاه القبائل المجاورة (1).

وبالتالي لم تكن الزاوية ناجمة عن وهن القبيلة وضعفها مثل سابقتها، انما مثلت نقطة ارتكاز لقبيلة قوية .

–زنزور : مثّلت المجال الزراعي الفاصل بين طرابلس وقبيلة الجواري: وهي غابة زيتون كبيرة **« من الغرس القديم مثل غابة الساحل »** ، ممتدة على مسافة خمسة أميال طولا ، ونصف هذا الامتداد عرضا . وقد كانت القصور النمط الاساسي لسكنى المزارعين بها ، وأهمها القصر القديم الذي كان يعقد بجواره سوق الجمعة المخصص لهوارة ، فيما خصص سوق الزاوية للجواري .

كانت هذه الغروس ملكا لاهل طرابلس ، وفي دائرة تصرفهم . وعلى إثر قيام حركة بني غانية في نهاية القرن السادس هـ ، تقلصت ناحية المدينة ، وزهد الملاكون الحضر في أرض زنزور ، فباعوها للمجريسيين ، من هوارة .

وهكذا مثلت قصور هوارة الحاجز الفاصل بين القبائل البدوية والمدينة . على أن ذلك لم يكن أمرا ثابتا ، إذ تمكنت قبيلة الجواري من اكتساح هذا المجال الزراعي ، و من بسط نفوذها عليه ، بموجب إقطاع منحه السلطان الحفصي لرئيس الجواري ، مرغم بن صابر ، سنة 676هـ / 1277م. وابتداء من ذلك التاريخ ، أصبحت مجريس ، بفروعها : القياد وبني سلام وبني حسين والخطابين والابراهيميين وبنو رزق وبنو مدنين تحت سلطة الجواري ، **« منقسمين بين المراغمة من الجواري على رتبهم ، لكل واحد منهم جماعة يجبيها ويحميها ، وربما تبايعوهم ..وليس أهلها في الحقيقة ملاكا لشيء ، وإنما هم أجراء للعرب ناصحون ، واسم الملكية لهم هو النصح في الخدمة »**(2).

– *جبال نفوسة وغريان :*

مثلت هذه الجبال العمق الاقتصادي والاستراتيجي لمدينة طرابلس من الجهة الغربية. وقد اكتسبت أهمية فائقة طيلة العصر الوسيط ، وخاصة في الحقبة الاولى ، حتى أنها أصبحت في واجهة الاحداث الى هزت بلاد المغرب في القرنين الثاني والثالث. وقد ساعدت التجارة الصحراوية على الاضطلاع بهذا الدور ، وتطور التعمير بالجبل ،

---

(1) التجاني، **نفسه** ، ص 213–214. الوزان ، **وصف افريقيا** ، جII ، ص 110(يبدو أن زاوية بني يربوع التي ذكرها الوزان تناسب زاوية أولاد سنان في نص التجاني. والمرجح أنها تناسب مدينة الزاوية الحالية).
(2) نفسه ، ص 214، 218.

كما شهد بذلك اليعقوبي في قوله إن **« منازلهم في جبال طرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة »** .

ويطول تعداد هذه القرى والقصور الجبلية التي تستعمل للسكن وخزن المؤونة ، على غرار مثيلاتها بالجنوب التونسي ، إذ أن عدد القرى بجبل غريان وحده كانت تصل الى 130 حسب الوزان . أما المدن الهامة بالجبل ، فهي نادرة نسبيا ، وأشهرها شروس التي عرفت بعيون الماء ، ولالوت وجادو ويفرن .

وفي العهد الحفصي ، مثل جبل نفوسة مجال المدينة **« منه تمتار طرابلس بأنواع من الخيرات ، حتى الخضر والفواكه وفيه الزيتون والزبيب والتمر»** . أما جبل غريان ، فقد كان يوفر لها المناجم والاعشاب الطبية والزعفران والشعير والتمر والزيت ، الذي صدر إنطلاقا من طرابلس الى الاسكندرية .

على أن هذه الجبال ذات الارتفاع والعرض المحدودين لم تتمكن من المحافظة على استقلاليتها التي تميزت بها في العصر الوسيط الاول ، ولا من الخروج من دائرة النفوذ البدوي لقبائل دباب المسيطرة على سهل جفارة . وهو ما يفسر الى حد ما تضاؤل موارد العيش لسكان الجبل الذين اختاروا أحيانا طريق الهجرة الى وسط افريقية وشمالها ، وخاصة مدينة تونس .

ففضلا عن الأسر النفوسية المستقرة بالساحل وجبل زغوان وسهل الباطن بالقيروان، فان الحقبة الحفصية شهدت نزوح الجبليين أفرادا وجماعات ، طلبا للرزق . ولئن صادف الحظ بعضهم ، فأصبحوا من مشاهير المدن الكبرى ، مثل عبيد الغرياني بالقيروان ، ومحمد بن عرفة الورغمي بتونس ، فان الكثير منهم اشتغل في الحرف البسيطة، وخاصة في الافران لحذقهم صناعة الخبز ومهارتهم فيها (1).

– *القرى الواقعة على الطريق طرابلس – برقة :*

– تاجورا : لا تبعد عن البحر سوى ثلاثة أميال . وكانت محاطة بجدار من التراب. وقد بلغ عدد سكانها نحو العشرة آلاف في نهاية هذه الحقبة . اشتغلوا بالزراعة ، وزودوا مدينة طرابلس بعدة منتوجات ، من الغلال والتمور والزيت والخشب.

–إمسلاتة : تتكون هذه المنطقة من عدة قرى وقصور عامرة تمتد الى حد قصر بني حسن شمالا، منتجة للزيتون والنخيل ، وكان يتولّى أمرها رئيس ، يشرف على عدد كبير من الفرسان (5000 الاف في القرن XVIم) .

---

(1) الادريسي ، **نفسه** ، ص 105. ابن سعيد ، **جغرافيا** ، ص145 . الشماخي ، **سير** ، الفهرست . الوزان ، **نفسه** ، جII ، ص105–106 . ابن ناجي ، **معالم** ، جIV ، ص159 ، 253 . (اتهم أحد علماء القيروان ، من أصل نفوسي ، وهو أبو الربيع سليمان بن سالم النفوسي ، عرف البربري ، بكونه زكراوي المذهب ، خارج عن اعتقاد أهل السنة). Brunschvig , **Deux Récits de voyage** ...p. 209 .
راجع كذلك مقالنا حول قبيلة نفوسة ، مجلة **كلية الاداب بالرباط** ، 1983 .

وقد كانت قبائل هوارة المنتشرة بهذه المنطقة، ابتداء من لبدة، في خفارة دباب.

– زليطن : يبدو أن يزللن الوارد ذكرها في ابن حوقل هي تصحيف ليصليتن، وهي بطن من نفزاوة .وزليطن لا تعدو أن تكون جذورها مقترنة بهذه القبيلة . كانت بها قصور عديدة ، وقرية ساحلية كبيرة ، منتجة للزيت والزعفران والتمور ، وكانت تجارتها نافقة مع الاسكندرية وصقلية وسائر المدن الايطالية ، خاصة تجارة الرقيق المجلوبين من بلاد السودان الأوسط.

– مصراطة : بها قصور وقرى جبلية عامرة في القرن السابع هـ / XIIIم ، تعاطى أهلها التجارة مع الاسكندرية ، وخاصة بيع الخيل ، وقاموا بدور تجارة العبور بين بلادالسودان و مدينة البندقية . وكانوا ينتسبون الى هوارة ، لكنهم ظلوا تحت خفارة دباب.

ويعتبر أحد قصورها ، وهو قصر أحمد ، آخر حد لافريقية حسب ابن سعيد . وقد يصل هذا الحد الى تاورغا ، وهي قصور ثلاثة ذات نخيل واقعة في طرف المجال الطرابلسي (1).

3) بلاد الجريد :

مثل بلاد الجريد وحدة جغرافية متميزة عن غيرها ، فهي مجموعة من الواحات الصحراوية المحاطة بالسباخ ، ترجع في أغلبها الى العهد القديم . فقد ذكرت مدينة توزر منذ العهد الروماني في لوحة بوتنقر (Table de Peutinger) . وفي بداية الفترة الاسلامية ، تمكن عقبة بن نافع من اختراق الخط الدفاعي للقصور بالجريد أوقصطيلية ،وهي التسمية التي أطلقت على هذه البلاد (2).

أ) الخصائص السكانية والاقتصادية :

– الاسكان : نزلت بهذه الواحات عديد القبائل والشعوب، من بينها قبائل زناتة وخاصة بني واسين الذين استقرّوا بتوزر وكنومة ، وبني يفرن بسدادة وبني ويلل

---

(1) ابن حوقل، **صورة الارض** ، ص 44–45.الادريسي ،انس **المهج وروض** الفرج ، ص 82. ابن سعيد ، **جغرافيا** ، ص 146. العبدري ، **رحلة** ، ص 85 ، 236. ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص21. القلقشندي ، **صبح الاعشى** ، جV، ص 383. الوزان ، **وصف افريقيا** ، جII ، ص 107، 111، 146 .

Lewicki , A propos d'une liste de tribus Berbères , In **F.O.** ,1959 , p. 131 .
Lanfreducci et Bosio , **op. cit.** ,p. 501 ; Soucek , **op. cit.** ,p. 161 .

(2) قال اليعقوبي في هذا الصدد : «مدائن قصطيلية وهي أربع مدائن في أرض واسعة ، لها النخل والزيتون . فالمدينة العظمى يقال لها توزر وبها ينزل العمال والثانية يقال لها الحامة والثالثة تقيوس والرابعة نفطة ، وحول هذه المدن أربع سباخ . وأهل هذه المدن قوم عجم من الروم القدم والافارقة والبربر ». اليعقوبي ، **البلدان** ، ص 102. محمد الطالبي ، **دراسات في تاريخ افريقية وحضارتها**، ص 91–164.

ويروتن بقنطرار وبني درجين بالقلعة المسماة باسمهم ، وكزينة بين توزر والحامة وبنو تيجرت بين الحامة وتقيوس . كما نزلت بعض فروع نفوسة ومزاتة بقنطرار منذ القرن الثاني هـ / الثامن م . أما نفزاوة ، وخاصة منها ورفجومة وسماطة ووركول ، فقد استقرت بالجهة الشرقية من بلاد الجريد .

ومما يذكر حول جذور الاسكان بهذه الناحية أن حسان بن النعمان دخلها صلحا سنة 79هـ / 698 م ، وأن كنائس النصارى ظلت مواضعها خرابا الى حد العصر الحفصي (1).

ومنذ القرن الاول هـ / السابع م ، استقرت مجموعات عربية بالجريد. وعلى إثر الهجرة الهلالية ، وخاصة بعد سنة 630هـ / 1232م ، بدأت بعض البطون الهلالية والسليمية، وخصوصا من الشريد وزعب ومرداس ، في النزول بالواحات . وقد تحدث ابن خلدون عن هذا التنوع البشري بالجريد قائلا : **« وأما بقايا بطون نفزاوة ، فلا يعرف لهم لهذا العهد حي ولا موطن الا القرى الظاهرة المقدرة السير ، المنسوبة اليهم ببلاد قسطيلية . وبها معاهدون من الفرنجة أوطنوهم على الجزية واعتقاد الذمة عند عهد الفتح ، وأعقابهم بها لهذا العهد.وقد نزل معهم كثير من بني سليم من الشريد وزغبة وأوطنوها وتملكوا بها العقار والضياع »** (2).

–البنية الاقتصادية : بديهي القول أن ركائز العمران هي البنية الاقتصادية المستندة على الزراعة السقوية بالواحة والتجارة الصحراوية . والحديث عن الزراعة بها مقترن شديد الاقتران بالنخل ، وقد أورد ابن الشباط التوزري فصلا في **« ما جاء من الفضل في النخل »** (3).

وصورة البلاد الجريدية الخصبة لم تتغير منذ القرون الاولى للاسلام . فقد تحدثت كتب المسالك عن النخل الكثير ووفرة التمر، وتعدد أنواعه ورخص أسعاره ، فضلا عن الفواكه الأخرى مثل الأترج وغيرها .

ومما له دلالته أن أزمة القرنين الخامس والسادس ، وخصوصا سيطرة بني غانية على هذ الواحات، لم يكن لها تأثير كبير على الانتاج . فالادريسي تحدث عن كثرة

---

(1)الشماخي، **كتاب السير** ، الفهرس .ابن الشباط ، **صلة السمط** ، مخ ،ص1192 (ذكر الكنائس الخربة في عصر الدلائي ، في القرن الرابع هـ) . التجاني، **رحلة** ، ص 159–160: « وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بافريقية قبل الفتح الاسلامي ، وكذلك أكثر بلاد الجريد لانهم في حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم ، وفيهم قوم من العرب الذين سكنوها بعد الافتتاح ، وفيها أيضا من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان .

(2)ابن خلدون ، **تاريخ** ، جVI ، ص 234. Brunschvig , **Hafsides** , T II,p. 317 .

(3) ومما تضمنه الحوار البديع بين القاضي أبي الفضل البسري و أبي الحسن التقيوسي ، عندما صعدا منار توزر ، قال الاول : « أشرفنا على الجنات ، فقال الفقيه أبو الحسن : أما ترى النخل قد زهرت ذوايبها . فقلت : كالرقاصات لوت أكمامها طربا . فقال الفقيه أبو الحسن : فكأنها البسط من سندس حللا . فقلت : وقار الله في أجيادها ذهبا ابن حوقل، **صورة الارض** ، ص 67. المقدسي ، **أحسن التقاسيم**، ص 230. البكري ، **المسالك** ، ص48 .

البقول والفواكه بها، فضلا عن التمر وذكر صاحب الاستبصار غابة والزيتون، وبعض أنواع التمور. وأورد الزهري بها أكثر من عشرة أجناس من التمر فيما انفرد ابن سعيد بذكر المحمضات والكتان المفضل والنيلة والحلفاء (1).

أما ابن الشباط التوزري، الذي كانت له معرفة أكثر بالواحة، رغم اعتماده على الدلائي الاندلسي (المتوفي سنة 478هـ) والبكري، فقد قال في شأنها: «**وفي بساتينها (أي توزر) جميع الثمار، حاشى قصب السكر. وتميز توزر إفريقية بالتمر، فيخرج منها في أكثر الايام ألف حمل وأكثر**»(2).

أما عن فاعلية التجارة الصحراوية، فان ذلك أضحى أمرا معروفا لدى المؤرخين، باعتبار أن بلاد الجريد منطقة عبور تربط بين التل والصحراء، وبين المغرب والمشرق لوجود مسلك أفقي يصل سجلماسة بوارجلان والجريد ونفزاوة وصولا الى جنوب إفريقية.

فقد أصبح هذا الطريق فاعلا إبتداء من الحقبة التي أصبحت فيها وارجلان ذات أهمية في التجارة مع بلاد السودان، أي نهاية القرن الثاني وبداية الثالث هـ / نهاية الثامن والتاسع م. ومن المحطات الواقعة على هذا المسلك، والتي استعملها أبو نوح سعيد بن زنغيل في القرن الرابع هـ هي: واد سوف- أريغ (تيغورت). وثمة طريق ثان رابط بين المدينتين، ذكره البكري: من تاهودا الى بادس ثم قيطون بياضة (ولعلها زريبة الواد) ومنها نصل الواد وورغلة فبلاد السودان.

واستعمل هذا المسلك تجار من الحامة و قنطرار وتقيوس ونفطة. فاتبعه علي بن يخلف، جد أبي العباس الدرجيني، عندما دخل مالي سنة 1180م.

أما القسم الرابط بين الجريد وجنوب شرقي إفريقية، وهو الذي اتبعه أبو يحيى زكريا بن صالح اليهراسني، عند عودته من سجلماسة الى جربة، فهو يمر من شط الجريد ونفزاوة، ويتفرع الى مسالك ثلاثة: الاول يسمى السويدة يصل نفطة بدوز، مرورا بالقلعة. والثاني هو طريق التوزرية وهي غير مستعملة حاليا، وكانت تربط توزر بقطناسة وقبلي، حيث تتفرع الى إثنين: الاولى تمر جنوب جبل طباقة والثانية شماله، ويصلان الى قابس. ويبدو أن الادريسي الذي ذكر الطريق نفطة - قابس يعنيه

(1) قال ابن حوقل انه «بها نخل كثير والتمر القسْب بها كثير وهي مغوثة افريقية بتمورها». وأضاف المقدسي: «قسطيلية هي نظيرة البصرة في الدنيا، حمل جمل تمر بدرهمين». وقد بلغ هذا الانتاج أوجه في القرن الرابع هـ والخامس حسب شهادة البكري: «توزر كثيرة النخل والبساتين والثمار، الا أن قصب السكر والموز لا يصلحان بها. وحولها سواد عظيم من النخل، ويخرج منها في أكثر الايام الف بعير موقورة تمرا وأزيد» الادريسي، **نزهة**، ص 104. **الاستبصار**، ص 155-158. الزهري، **كتاب الجغرافيا**، ص 200. ابن سعيد، **رحلة**، ص 127.

(2) ابن الشباط، **صلة السمط**، IV، ص 1194. القلقشندي، **صبح الاعشى**، ج IV، ص 385 (تحدث عن كيفية توفير الاسمدة الازمة لاثراء التربة وأستخراجها من المراحيض).

وكذلك التجاني الذي تحدث عن الطريق توزر - بشري - طرة - الحامة - قابس. والثالثة طريق الوديانية أو طريق المحلة وهي تنطلق من تقيوس نحو فطناسة، ومنها تتجه الى الحامة فقابس (1).

وقد وردت إشارات عديدة حول استعمال هذا الطريق قبل القرن السادس هـ، على اننا نعتقد أن فاعليته تدعمت منذ تلك الحقبة، بعد أن استولى الموحدون على المغرب وتراجع دور الطريق اللمتوني الذي كان يصل بلاد السودان بالمغرب الاقصى نتيجة الاضطرابات الحاصلة في الصحراء. وفي حكم أبي يعقوب يوسف، وصلت قافلة أبي يحيي زكريا اليهراسني، من بلاد السودان الى جربة، متبعة هذا المسلك، وفيها 250 الف مثقال من الذهب (2).

وثمة طريق ثان يربط بين الجريد وبلاد السودان، ذكره البكري وأشار اليه الوزان لما تحدث عن نفطة في قوله: «**وكان سكانها عادة من كبار الاغنياء لوجودهم على تخوم ليبيا على الطريق المؤدية الى بلاد السودان**». ويبدو أن وجود هذا المسلك يفسر الى حد كبير نشأة قنطرار في أواخر القرن الثاني هـ / الثامن م (3).

وطبيعي القول أن هذه البنية الاساسية انعكست إيجابا على التجارة طيلة العصر الوسيط (4).

وفي أواسط القرن الخامس هـ، كان أحد تجار الجريد، تملي الوسياني، يقوم بتجارة متواصلة على مدى سنين عديدة مع بلاد السودان، فكان يبعث منها كل سنة 5000 دينارا. أما ابن سدرين الجريدي، فقد تحول وقتذاك الى أغياروا على ضفاف نهر السنغال للتجارة (5).

(1) T. Lewicki , **Etudes Maghrébines et Soudanaises** , Varsovie 1976 , p. 18 ,28.

(2) استعمل هذا الطريق الافقي عديد المرات في الحقبة الاولى: فوالد أبي يزيد مخلد، كيداد، سافر من تقيوس الى تادمكت وقاو، متبعا هذا المسلك. وكذلك فعل أبو يزيد من بعده، ولما خرج أبو نوح سعيد بن زنغيل من السجن، غادر توزر في اتجاه ورغلة. كما ذكر عدد من تجار قنطرار والحامة الذين سافروا في القرنين الخامس والسادس عبر هذا الطريق. ينظر: الشماخي، السير، الفهرس.

(3) البكري، المسالك، ص 47-48 (وقد ذكر البكري في الصفحة الموالية أن جباية بلاد الجريد بلغت مائتي ألف دينار). الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 139.

(4) «لما وصل (عبيد الله المهدي) توزر، حسب أنها هي التي تقوم منها دولته. فنظر الى رجالها وليس معهم زينة الملك، ولا هيئة السلطان، وإنما هم أصحاب حوانيت». وكان من بين تجار بلاد السودان كيداد اليفرني الذي تزوج جارية صفراء، أنجبت له أبا يزيد مخلد. وقد تحدث ابن حوقل عن هذا النشاط قائلا: «وهي على السعة من البيوع والاشرية في الاسواق وكثرة الوارد والصادر ملتمسين للمير والتجارة بما لا تدانيها فيها مدينة مما قاربها، وجهاز الصوف في جميع جهاته من الشقة والاكسية والحنبل الى سائر ما يعملونها، يحمل منها الى جميع الاقطار» أبو زكريا، كتاب السيرة، ص 158. ابن حوقل، صورة الارض، ص 92.

(5) الشماخي، **السير**، نسخة مرقونة، ج II، ص 302، 365.

وفي القرن السادس هـ / الثاني عشر م ، تناقلت المصادر أخبار جد أبي العباس أحمد الدرجيني ،وهو أبو الحسن علي بن يخلف النفطي ، أخبار زيارته لملك غانة سنة 575هـ / 1179م . **« وهو أنه سافر الى دواخل غانة تاجرا، فقام بها وله مكان عند ملكها ، وكان عظيما تحته 12 معدنا ، يستخرج منها التبر ، ووقع القحط ببلادهم ، فاشتكت الرعية الى السلطان ، وذلك بمدينة مالي ، فقربوا لاصنامهم الذبائح واستغاثوا بها . فلم يغاثوا . وكان الشيخ علي على ارتحال ،.فقال له الملك : أدع ربك لعله يغيثنا. فقال :لا يجوز وأنتم تعبدون غيره . قال : كيف صفة الاسلام؟فما زال به حتى وحّد وتكلم بكلمة الحق »** (1) .

وتواصلت فاعلية التجارة بالجريد في العصر الحفصي بنسق أقل من السابق ،غير أنّ ذلك لم يحل دون النزعات الاستقلاليّة لعامل الجريد في فترات ضعف المخزن الحفصي(2).

ب) قصور الجريد :

– توزر :اعتبرت توزر أو قصطيلية حاضرة بلاد الجريد طيلة العصر الوسيط . فقد أحيطت بسور حصين ، كان مبنيا بالحجر والطوب في القرن الرابع هـ / العاشر م ، وظل كذلك في القرن السادس هـ /XII م . وكانت تتخله أربعة أبواب ، انتصبت خارجها أرباض واسعة . وتعددت أسواقها ومن بينها سوق الخزازين الذي بني قربه جامع محكم الصنعة ، مازالت منارته المكعبة التي شيدت سنوات 418–422هـ / 1027–1030 م ومحرابه المرابطي الطراز الذي بناه الملثمون سنة 589هـ / 1193م شاهدا على أهمية هذه العمارة .

وكانت المدينة مقسمة الى شطرين ، يفصل بينهما خندق، منذ أن حل العرب بالبلاد سنة 79هـ / 698م ، وربما قبلها . واستمر هذا الوضع في العهد الزيري ، إذ قسمت المدينة الى مجالين : الاول لسكنى أهل البلاد والثاني للعرب (3).

واعتبارا لفتح البلاد صلحا، فان مواضع الكنائس لم يتصرف فيها وظلت خرابا في العهد الحفصي، في حين أن المسلمين بنوا مسجدا بإزاء كل كنيسة (4).

ويبدو أن موضع هذه المدينة هو بلد الحضر حاليا ، لوجود المسجد الجامع القديم

(1) الشماخي، **نفسه** ، ج II، ص 350.

(2)ابن خلدون ، تاريخ، ج VI ، ص 233(« وكان أمر هذه القرى راجعا الى عامل توزر أيام استبداد الخلافة . فلما تقلص ظل الدولة عنهم وحدثت العصبة في الامصار ، استبدت كل قرية بأمرها وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في إيالته ..»)

(3)ابن حوقل، **صورة الارض** ، ص 92. البكري، **نفسه** ، ص 48. الادريسي ، **نفسه** ، ص 104. الاستبصار، ص155–156 (وقد ذكر أن اهل توزر عرفوا بالتهافت على اقتناء الزبل لتسميد اراضيهم حتى أن الدلال كان يتجول في الازقة بحثا عنها) . ابن الشباط ، **نفسه** ، IVص1194. Idris , **Zirides** , TII,p.468.

(4) ومما ذكره ابن الشباط في شانها قوله :« توزر أم اقاليم بلد قسطيلية كبيرة شريفة ، وبها جامع شريف وأسواق عامرة ، حولها أرباض كثيرة .وهي حصينة منيعة وذلك لقرب النخل من سورها » ابن الشباط، **نفسه** ، ج IV، ص 1194.

بها، وعديد الاضرحة للعلماء المنتسبين اليها . وبعد أقل من قرن ، فقد أضيف للمدينة جامع ثان ، إذ ذكر التجاني بها جامعين ومصلى وحمامًا واحدًا ، وهو ما يناسب الامتداد العمراني بها ،على إثر استقرار قبائل زعب ثم مرداس ،إبتداء من سنة 630 هـ (1) .

وشهدت عصرذاك ازدياد السكن المشتت داخل الواحة ، في قصور أعتبرها التجاني أضخم وأحسن من منازل المدينة . ونعتقد أن هذ ه الظاهرة لا تختلف كثيرا عما حصل بتونس ، فهذه القصور والابراج خصصت لكبار الملاكين ، الذين فضلوا مغادرة المدينة والنزول في سكن محصن .

وبالتالي ، فقد برزت في العهد الحفصي ثنائية أخرى بفعل هذا التغلغل البدوي في الواحة ، وتغيير البنية العمرانية والبشرية داخل المجال الحضري والخارطة العقارية داخل الواحة .

ويبدو أن قبيلة مرداس السيلمية تمكنت من السيطرة على شطر من المجال الحضري، فيما استطاعت قبيلة فطناسة البترية من تعويض بني واسين الزناتيين الذين ذكر لهم درب بني مبدول داخل المدينة النواة والاستقرار في الشطر الثاني حتى أن التقابل أضحى في نهاية العصر الوسيط بين الطرفين .و هذا الحسن الوزان يتحدث عن ذلك ، فيقول : **«وهم (أي أهل توزر) مقسمون الى قسمين، يفصل بينهما النهر الصغير. يسمى القسم الاول فطناسة وينتمي اليه كل شريف ونبيل بالمدينة ، ويسمى ثانيهما مرداس ، ويتكون من أعراب منذ فتحها المسلمون .وهذان القسمان يعيشان في عداء »** (2).

على أن هذا التقسيم لم يعد عمرانيا – طائفيا بين قسمين من المدينة ولا مذهبيا بين أهل السنة والاباضية (وداخل الاباضية بين الوهبية والنكار) كما كان في الحقبة الاولى، إنما تحول الى ثنائية يغلب عليها الطارؤون الجدد من البربر والاعراب ، وما يعني ذلك من تهميش للسكان القدامى.وهو ما يخفي نزاع حول تقسيم الماءواستعماله بالواحة .

وقد استرعت هذه الثنائيات التي نجدها في بقية الواحات : في قابس بين جارة والمنزل ، وفي تقيوس بين كنومة وسدادة ، وداخل درجين السفلى ، اهتمام عديد الدارسين الذين ذهبوا مذاهب شتى في تأويلها ، مركزين على نظرية الصف . على أن الأمر في حقيقته مرتبط بالنزاع الحاصل حول تملك الماء والارض (3).

– نفطة : تقع هذه المدينة التي شبهها البكري بالكوفة الصغرى في طرف

(1)التجاني ، رحلة ، ص 163. على أن بعض سكان الواحة فضلوا الهجرة الى تونس ، عقب تتالي الازمات وعدم انتاج النخيل ، فمن ذلك المرابط أبو زيد عبد الرحمان الشريف في القرن السابع هـ ،الذي كان عنده 160 نخلة بالواحة ، لكنها لم تنتج شيئا من الرطب طيلة سبع سنوات: مناقب ، مخ 18555،ص 1171.

(2) الوزان ، **نفسه** ، ج II، ص 143. الشماخي، **السير** ، ج II، ص 403.

(3) Bédoucha , système hydraulique et société dans une oasis Tunisienne , In **Etudes rurales** , 1976 ,62 , janv. ,pp. 39-72 .

الصحراء الشمالي ، على الطريق المؤدية الى بلاد السودان . وهو ما يفسر أهميتها الاقتصادية، وتنوع الاجناس والطوائف بها حتى أن بعض الاندلسيين الذين خرجوا من وطنهم بعد سقوط غرناطة فضلوا التوجه اليها (1).

وأخذ نسق التعمير بها شكل قصور محصنة ومتباعدة عن بعضها ، و كان عددها في أواخر القرن التاسع هـ / XVم « **ثلاثة قصور عظيمة ، لا سيما القصر الذي توجد به القصبة »** . وهو الحصن الذي وصفه صاحب كتاب الاستبصار بكونه « **مدينة قديمة عليها سور من بناء الأول »** (2).

وقد عرفت كورة نفطة في الحقبة الكلاسيكية تبرعما عمرانيا هاما ، تجسد في ظهور قصور عديدة على الطريق التجاري ، لكنها اندثرت في الحقبة الحفصية :

* فرشانة : قرية من عمل نفطة ، منها أبو الحسن بن إسماعيل الفرشاني ، عالم مالكي أخذ من سحنون . اندثرت في مطلع القرن السّابع هـ ، حسب شهادة ابن الشباط

* قنطرار – قنطرارة – قنطنار : أنشأتها جالية نفوسية قرب نفطة ، على الطريق التجاري المتجه الى بلاد السودان ، أثناء حكم عبد الوهاب بن رستم (168–208هـ / 784–823م) . انتسب اليها نفاث بن نصر ، صاحب فرقة النفاثية في القرن الثالث هـ وظلت عامرة الى حد القرن السادس هـ ، غير أنها تلاشت فيما بعد ، نتيجة الحروب الطاحنة بين بني غانية والموحدين .

وقد قال ابن الشباط في شأن هذين الموقعين : «**وفرشانة التي تقدم ذكرها كانت في القديم من عمل نفطة ، وهي اليوم في عصرنا خراب . وكذلك قنطرار التي كانت أيضا من عمل نفطة وهي اليوم خراب ، ولم يبق الآن من عمل نفطة الا درجين خاصة »** (3).

* درجين : ظلت قلعة بني درجين عامرة الى أن حلت بها كارثة تمثلت في تخريب الجيش الصنهاجي لها سنة 440هـ / 1048م ، وموت عدد كبير من أهلها (ألف وخمسمائة حسب المصادر) وفرار البعض في اتجاه وادي ريغ ووارجلان ، ولم يبق منهم سوى أقلية استوطنت درجين السفلى الجديدة . على أن النزاعات الداخلية لم تنته ، وهذا الدرجيني يحدثنا عن إحداها ، مبينا موضع القرية من مدينة نفطة : «**قال أبو العباس : وقعت فتنة بدرجين السفلى الجديدة ، فأفضت الى خروج الاوطان ،وذهاب الانفس والاخوان . فعظم على أهل المذهب أن أشفى كلا الفريقين على التلاشي واستصعبوا إصلاح ذات بينهم . فحرك الله أبا عبد الله (محمد بن علي السوفي) اليهم**

---

(1) قال الادريسي في شأنها : « مدينة متحضرة عامرة بأهلها لها أسواق وتجارات ونخل وغلات ومياه جارية » ابن حوقل ،نفسه ، ص 67. البكري ،نفسه ، ص 75. الادريسي، نفسه ، ص 105 . مؤلف مجهول، **نبذة العصر** ، ص 48.

(2) **الاستبصار** ، ص 156. ابن الشباط ، **نفسه** ، ج IV ، ص 201ب . الوزان ، **نفسه** ، ج II ،ص 139.

(3) ابن الشباط ، **نفسه** ، ج IV، ص 1200 . راجع حول قنطرار: تأليفنا ، **القبائل والارياف المغربية في العصر الوسيط** .

فلما بلغ درجين ، تمادى الى ربض نفطة ولم يدخل . فخرج اليه من بربض نفطة من الفقهاء . فخرجوا حول مسجد قنطرار العليا .» (1).

ومن الواضح أن قنطرار و درجين السفلى الجديدة لا تبعدان كثيرا عن نفطة ، الى درجة أنها تعد من بين أرباض المدينة . وقد ظلت درجين ، مثل قنطرار ، عامرة الى حد القرن السادس هـ ، حتى أن الادريسي وصفها بكونها مدينة حسنة عامرة تنتج عديد الغلات والبقول والتمور . وأضاف صاحب كتاب الاستبصار أنها أكثر بلاد الجريد زيتونا ، ويصنع فيها الكسى الدرجيني الشبيه بالسجلماسي (2).

وتبعا لذلك ، نعتقد أن القرية اندثرت أثناء النزاع الحاصل بين بني غانية والموحدين.

–الحامة – حامة البهاليل – حامة بني بهلول : نسبة الى الاعيان المحليين بها، بني بهلول الذين ينحدرون من بقايا الروم ، وقد نزلوا بالحصن المسمى القصر، فيما استقر بقية السكان بالارباض . اشتهرت بانتاج التمر الاسود الكبير الحجم المسمى خنفس والزيتون والعنب وفواكه عديدة . قال ابن الشباط في شأنها : «**أما الحمة، فهواؤها معتدل وفيها عين عذبة كان يجلب منها الماء قبل هذا للولاة بتوزر، وفيها دور جليلة عظيمة البناء »** (3).

–تقيوس : هي تيجاس(Tiges) قديما ، ودقاش حاليا .اعتبرها صاحب كتاب الاستبصار أربعة قصور متقاربة عليها أسوار ، وهي أكثر البلاد زيتونا وجباية ، ذات عيون عديدة و غابات نخيل كبيرة. وقد ذكرت المصادر الاباضية كنومة و سدادة أثناء فترات النزاع بينهما . وأضاف ابن الشباط ثالثة وهي كبة التي كان الماء يدخل بعض دورها وجامعها .

وفي الجملة ، فان قلعة سدادة كانت أكثر ذكرا من غيرها ، وهي التي انتسب اليها أبو هلال السدادي المعاصر لابي علي النفطي (نهاية القرن السادس هـ / XIIم) وصاحب الزاوية المسماة باسمه (4).

– من الواحات الجبلية ، تامغزط : كانت تامغزت المثال الوحيد الذي ذكر من بين الواحات الجبلية بالجريد في العهد الحفصي . وقد ذكر ابن الطواح أنه يفصلها عن توزر

---

(1) أبو زكريا ، **نفسه** ، ص 305. الشماخي، **نفسه** ، ج II ، ص 289، 340، 353 .

(2) الادريسي ، **نفس الاحالة** . **الاستبصار** ، ص 159.

(3) **الاستبصار** ، ص 157. ابن الشباط، **ن.م.** ، ج IV ، ص 201ب .

(4) الادريسي ، نفسه ، ص 104. **الاستبصار** ، تفسه ، ص156–157 .ابن الشباط ، **نفسه** ، ص 201ب ابن ناجي، **معالم** ، ج IV ، ص 50، 173، 201 ، 323(ذكر قلعة سدادة وبلاد الحشان بالجريد) . ابن خلدون ،**تاريخ** ، ج VI ، ص702.

Idris , **Zirides** , T II,p. 467 .

مرحلتين ، وكان بها جامع للخطبة . وأضاف الدباغ أن « **قسطيلية قاعدتها توزر وسائر بلاد تقيوس وحمة البهاليل ونفطة وتامغزا والفرى** » (1).

ج) قصور نفزاوة :

كانت المسافة الفاصلة بين قابس والجريد عامرة ببعض القبائل العربية : بنو أحمد في جهة الشرق ، وزعب ابتداء من منزل مجزم ، وهي واحة بها قصور ومنازل ، لكنها أخليت عند مرور محلة الامير الحفصي ابن اللحياني بها سنة 706هـ .

وكانت بنفزاوة عديد القصور العامرة في العهد الحفصي ، من بينها طرة وبشري وتلمين وأضاف التجاني كيكل وبياسك وبني يوسف وغيرها . على أن أهمها ثلاثة قصور كما ذكر ذلك الوزان ، الذي أضاف أنها مسورة بأسوار كثيبة (2).

– طرة : قديما تريس (Turris). وتقع حاليا بين المنصورة والجديدة ، وتوجد حول العين بركة متسعة تمكن من تنظيم الصبيب ورفع مستوى الماء لتيسير جريانه في السواقي . غير أن هذه العين جفت حاليا .

تعرضت طرة الى دمار الحرب ، إذ قام يحيى بن غانية بتخريبها لخذلان أهلها له ، ودخلها الخليفة الناصرعنوة سنة 602هـ / 1204م فخربها وتركها خاوية بعد أن تفرق أهلها . ثم عمرت من جديد ، حتى أصبحت في العهد الحفصي إحدى القاعدتين لقصور نفزاوة الى جانب بشري .

على أنها افتقدت الى معالم الحضارة ، فهي عند التجاني « **بلد بلا إسم وقرية بلا معنى** ». تحولت قصبتها الواقعة قرب العين (ولعلها بنيت على أنقاض الطرس القديم) إلى خراب وقتذاك ولم يبق منها غير سورها المحيط بها وغابة النخيل . اشتهرت بجودة تمرها وبصناعة الزجاج الصافي وبعمل الصوف الذي صدر الى الاسكندرية .

ومن أعلامها في القرن السابع هـ أبو يعقوب الطري ، صاحب المراسلات الشهيرة مع أبي علي النفطي ، وشاعرها أبو بكر بن فتح الغماري الذي نشر نوعا جديدا من الخط (3).

---

(1) ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص148 (رسمها المؤلف : تامغط وهو خطأ بيّن) ابن ناجي، **معالم** ، جII ، ص 317.

(2) التجاني ، نفسه ، ص 153. الوزان ، **نفسه** ، جII ، ص 145.

(3) ا **لاستبصار** ، ص 157 (مدينة مسورة حصينة). التجاني، **رحلة** ، ،ص142–153 . القلقشندي ، **صبح** ، ج V ، ص108 . توزع حاليا بركة الماء الى مقسم (شرشارة) تلمين ومقسم المنصورة . ويتفرع كل قسم الى مصارف وسواقي عديدة، تصل الغابة من انحدار معين . وتفتح السواقي بالتناوب ، وذلك بفتح المصرف الذي يغلقها بالمسحاة ، لمدة معينة من الزمن . وتقسم الاجنة الى وحدة قياسها : 20 x 10 م تسمى دريج ، وتتوزع الدرجة الى أحواض محاطة بجسور (إرتفاعها عشر سم) ، وتحتاج الدرجة للامتلاء من ثلاثة الى عشر دقائق . وتوجد شبكة ثانية مكونة من مصارف المياه ، كي تمنع الماء من الركود والنز . ويتولى القداس الاشراف على دور كل قرية في استعمال الماء ، وهي طرة (الجديدة) وتلمين والمنصورة والرابطة ، وعادة ما يأتي الدور بعد أسبوعين . . Bédoucha , op. cit

– إيتملين : هي تلمين حاليا . قال صاحب الاستبصار أنها مدينة صغيرة حصينة كانت بها أرباض وغابة نخيل وزيتون في نهاية القرن السادس هـ . وهي كما قال في شأنها أحد الادباء خاملة الذكر في العهد الحفصي (1).

– بشري : تقع شمال غربي طرة ، قريبة حاليا من واحة فطناسة . اعتبرت القاعدة الثانية لنفزاوة في العصر الحفصي . وكانت بدورها مدينة مسورة قديمة ، لها غابة كثيرة النخل والزيتون والفواكه . وقد توسطتها عين ماء تسمى تاورغا، أكثر أهمية من عين طرة ، وما زال الاسم معروفا ، وان كانت قد جفت (2).

وفي الجملة، ارتكز الاسكان بهذه الواحات على عمارة القصور، والتحصينات القديمة ، باعتبارها توجد في خط التخوم الروماني . ورغم تسرب البدو الى بعض الواحات ، فان التوازن بين البدو والحضر ظل غالبا ، أذ زود البدو الاعراب هذه الواحات بالمواد الاولية من صوف وجلود وغيرها ، فيما تخصصت هذه المراكز الحضريّة في صناعة النسيج ، وتصدير الفائض من الصوف الى مصر عبر جربة . كما عرفت نفزاوة بصناعة الزجاج ، وبملاحاتها الكبيرة الواقعة على سبخة تاكمرت(3).

4) واحة قفصة : بين محلة السلطان والبدو :

تميزت هذه المدينة القديمة بموقعها المحوري ، في شبكة الطرقات الرابطة بين بلاد السودان والقيروان من جهة ، و المغربين الاوسط والاقصى والمشرق ، مرورا بقابس من جهة ثانية ، وقد لخص الادريسي ذلك في قوله : « **مدينة قفصة مركز، والبلاد بها دائرة** » .

– المدينة وسكانها :لم يكن موضعها أقل قيمة من الموقع ، إذ أحاطت بهذه الواحة الجبال من عدة جهات والصحراء من الجنوب . وزادتها غابة النخيل الدائرة حولها والمزودة بقصور وحصون للمراقبة والتي يصعب اختراقها ، مناعة . أما الحزام الثالث لتحصيناتها ، فقد تكون من السور المرتفع المبني بالصخر ، الذي أحيط بستار، يدور حولها خندق ، ومن القصبة المنيعة الواقعة داخله .

لكن المدينة وواحتها تضررتا من الغزوات المتواصلة لها في العهدين الموحدي والحفصي . فقد حاصرها عبد المؤمن بن علي سنة الاخماس ، ثم حفيده يعقوب المنصور سنة 583هـ / 1187م ، فقطع نخيلها وأعاد السور أثرا بعد عين ، وعاملهم بحكم المساقاة، معتبرا أملاكهم فيئا ، بعد أن نكل بالوافدين على المدينة من الاغزاز

---

(1) P .Penet, **L'hydraulique agricole de la Tunisie méridionale** , Tunis 1913 , p. 41-69

(2) **الاستبصار** ، ص 157. التجاني، **رحلة** ، ص153 .

(3) ابن سعيد ، **رحلة** ، ص127 . القلقشندي ، **صبح الاعشى** ، ج V ، ص 387. التجاني ،**رحلة** ، ص 155 .

والميورقيين والأعراب ، ولم يترك بهـا الآ البلديين . وتكررت هذه الاحداث في العهد الحفصي عديد المرات . وهو ما يفسر الخمول النسبي الذي أضحت عليه ، حتى أن أحد أبنائها ، وهو ابن راشد ، أبى الا هجائها معتبرا إياها بلد الجهل .

وفضلا عن الاشارات الواردة حول السور والقصبة التي ينزل بها الوالي ، والتي كانت مبنية بالحجر المنجور، فان طرقاتها قد فرشت بالبلاط .وكانت أسواقها طيلة العهد الحفصي نشيطة ، إذ صنعت بها الاقمشة وخاصة الاردية والطيالس والعمائم والفخار الجيد وبالخصوص أواني الماء المعروفة بالريحية الشديدة البياض ، والزجاج والاواني المذهبة والنعال القفصية المتخذة من جلد الاروى والمعروفة بليونتها (1).

أما سكان المدينة من البلديين ، فقد ظلوا الى حد القرن السادس هـ يتكلمون اللسان اللاتيني– الافريقي ، الى أن سيطر الهلاليون على هذا المجال ، فتعرّبوا .

– الغابة : فضلا عن التجارة الداخلية والصحراوية ، استند نشاط المدينة على الزراعة . وكانت الواحة أهم عنصر في هذا النشاط .فقد وجدت بها عيون ماء عديدة، ذكر من بينها عين وسط المدينة تسمى الطرميذ .

وهذا صاحب كتاب الاستبصار يحدثنا عن سلطان الماء بالمدينة ، فيقول :

«لأهل قفصة في سقي جناتهم هندسة عظيمة وبرشام شديد ، وتدقيق حساب . ويقول أهل قفصة : إذا رأيت قوما يتخاصمون وقد علا بينهم الكلام ، فلتعلم أنهم في أمر الماء . وكان على أحد أبوابها كتابة منقوشة في حجر من عمل الاول ترجم ، فاذا هو : هذا بلد تحقيق وتدقيق» .

والمتأمل في توزيع الماء من خلال هذا النص ، يلحظ أنه قسم الى نوعين :

– الماء الداخل : وهو مكون من عيون الماء الواقعة داخل المدينة ، وهي إثنان : الاولى عند باب الجامع تسمى بالوادي الكبير وهي عين كبيرة مبنية بالصخر الجليل من بنيان الاول ، سعتها نحو عشرين مترا ،وفوقها عين صغيرة تسمى رأس العين ، تفصل بينهما قنطرة قديمة ، وهي عين القصر حاليا . أما الثانية الواقعة تحت قصر قفصة، فهي عين الطرميد (الترميل حاليا) ، وعليها كذلك بنيان قديم ، وبازائها مسجد، وقد شيد لمنبع العين صهريج عليه أقباء ودكاكين مبنية بالحجارة ، ويوجد فوقه مسجد كبير.

وكان ماء العينين يتجمع في نهر كبير تطحن فيه الارحية الكثيرة ويسقى منه نصف أرضها .

– أما الماء الخارج ، فانه يتمثل في عين كبيرة خارج المدينة تسمى عين المنستير،

---

(1) راجع حول الاحداث العسكرية التي عرفتها المدينة ، الفصل الثاني ، وحول نظرة ابن راشد لها الفصل المتعلق بالنظرة الى الزراعة .الجدميوي ، **رفع الازار** ، ص 109ب . ذكر سوق التجار بها) . **الاستبصار** ، ص 152.

الواقعة في جانب النهر الكبير الذي يشق الغابة ،وهو وادي بايش ، وهي عين عذبة يخرج منها نهر وتسقي النصف الثاني من الواحة . كما توجد عيون أخرى صغيرة قرب المدينة تسقي الجنات .

وقد أنتجت هذه الفلاحة المعتمدة على البستنة أصناف التمور وخاصة الكسبا وضروب من الغلات مثل الزيتون والفستق والليمون والبنفسج والحناء والقطن والكمون وسائر المشمومات والرياحين كالآس والياسمين والنارنج والنرجس والسوسان والبنفسج والورد الابيض (1).

وحسبما جاء في كتاب الاستبصار، فان دائرتها بلغت نحو عشرة أميال ، أي أكثر من 16 كم . وهو ما اعتبر تقلصا عما كانت عليه في العهد الاغلبي والفاطمي – الصنهاجي . ومما يؤكد ذلك أن عدد القصور العامرة المذكورة بها بلغ المائتين ، لكن في نهاية القرن السادس هـ ، لم يذكر من منازلها وقراها سوى18 منزلا . وأحيطت هذه الغابة والقصور بحائط سمي سور الغابة ، وقد زود بأبواب (أو دروب) وأبراج .

وقد اقتصرت المصادر على ذكر البعض من هذه القصور، وأهمها : قصر قديم اندثر عصر ابن الشباط ، يدعى شقراطس ،وانتسب اليه الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى الشقراطسي ، المتوفى سنة 466هـ / 1073م .

ومن القصور الأخرى التي (خمل ذكرها) في القرن السابع هـ : قندادس وقطس (وقال آخر فطس) وأرطس (حاليًا من بين قرى القُطار)، تبدو تعريبا للكلمة اللاتَينَية هرتوس (hortus): الحديقة ، وقد عرفت بزريعة النيل الارطسية، وقلمنتس و قندادس وفي الجملة، فان هذه القصور لا تعدو أن تكون تجمعات سكنية صغيرة محصنة داخل الواحات، مرتبطة باستغلال الارض وريّها . وما تناقص عددها الا دليل آخر على تراجع المساحات المزروعة داخلها .

أما ناحية المدينة ، فقد استقرت بها عديد القبائل البدوية من بني سليم ، وخصوصا مرداس وبني أحمد . وقد كانت القبائل النازلة قرب المدينة تحفر أحساء في واد بايش لاستخراج الماء العذب وتورد فيه إبلها (2).

ويتضح مدى التكامل الحاصل بين القبائل والمدينة ، في مستوى توفير المواد الاولية وخاصة الصوف ، أو مقايضة انتاج الواحات بانتاج البلاد التلية . وبالتالي فقد كان الغالب على هذه العلاقة هو الطابع السّلمي .

---

(1) اليعقوبي ، **البلدان** ، ص 102 . الادريسي ، **ن.م.** ، ص 104. ابن سعيد ، **رحلة** ، ص 126. العبدري ، **رحلة**، 44 العمري ،مسالك ، ص 84. القلقشندي . **صبح الاعشى** ، IVة ، ص 386. ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص203. التجاني ،**رحلة** ، ص 353. الوزان ، **وصف** ، ج II ، ص143– 145 . البرزلي ، **جامع** ، ج I، ص230(اورد ذكر قصور قفصة في نازلة للسيوري ، من القرن الخامس هـ) .

(2) **الاستبصار** ، ص 152. ابن الشباط ، **نفسه**، ج IV ، ص162 ب . العبدري ، **رحلة** ، ص 44 . ابن ناجي ، **معالم** . ج IV. ص 164.

خاتمة :

بديهي القول إن التمدن في هذه الحقبة ورث الاوضاع السابقة له ، بما فيها العهد القديم . فقد مرت شبكة المدن الافريقية بمراحل ثلاث : الاولى تخص النشأة في العهد القديم ، والثانية التطور في العصر الوسيط الاعلى (الى حد القرن الخامس هـ) والثالثة ما آلت اليه الأوضاع في العهد الموحدي-الحفصي .

– مسألة تواصل الشبكة الحضرية القديمة في العصر الوسيط :

ففي الحقبة الوسيطة الاولى شهدت الشبكة المدينية تغييرا جزئيا ناجما عن تطور المسالك والطرقات ، على أن عددا كبيرا من المدن استمر وجوده ، بل إنه تعزز باضافات جديدة : مثل إعادة بناء الأسوار ، وتوسيع المجال الحضري بظهور أرباض خارج الاسوار البيزنطية مخصصة لسكنى العرب والبربر والافارق والروم . ومن الامثلة على ذلك ما وقع بطبنة وباغاي وقاساس وبلزمة والاربس وغيرها .

وقد ارتكز هذا الانموذج التعميري في العهد الاغلبي على النواة الاصلية القديمة من قلاع وحصون بيزنطية ، و ما نشأ حولها من أرباض محيطة بها .مما نجم عنه ظهور مراكز حضرية متعددة النواتات ، لا تمثل فيها المدينة القديمة سوى واحدة من بين المجموع . وقد أطلق على هذه النواتات تسمية القصر أو البلد. على أن ما حصل في العصر الموحدي -الحفصي هو تجاوز لهذا التقسيم والوصول الى مرحلة الانصهار لاهل البلد الواحد ، بعد أن تنوسيت الاختلافات العرقية. وقد حصلت تطورات مختلفة في هذا الصدد : ففي الحالة الاولى ظلت الثنائية المعمارية قائمة ، دونما تعبير حقيقي عن اختلاف عرقي ، مثلما هو الشأن بالاربس ، حيث ذكر الادريسي السور المبني من التراب الى جانب السور البيزنطي (1).

أما الحالة الثانية ، فانها تمثلت في اندثار كلي لهذه المدن الفسيفسائية ، نتيجة الازمات المتعددة التي اجتاحت البلاد في القرنين الخامس والسادس هـ ، أو الصراعات الاثنية مثلما حصل بطبنة ، فقد كان أهلها عربا وبربرا ، ووقع بينهما نزاع في القرن الرابع هـ أدّى الى بداية تراجع عمران المدينة (2).

---

(1) الادريسي ، **نزهة المشتاق** ، ص 117.
(2) ابن حوقل ، **صورة الارض** ، ص 85 .

على أن التواصل لا يعني بأية حال من الاحوال الاستمرارية الكاملة للهياكل القديمة أوالثبات ، للاسباب التالية :

– حصول تغييرات هامة في شبكة الطرقات وبالتالي في الشبكة الحضرية في العصر الاسلامي الاول ، نجم عنها اندثار عدد كبير من المدن القديمة ونشأة عدد آخر من المدن والامصار العربية .

– اعتماد العرب أساليب الري بطريقة مستحدثة ، مقارنة مع الحضارات السابقة ، ومدى تأثيرها على المناخ المصغر للمجال الزراعي ، وبالتالي على التنظيم المجالي للمدينة والبادية .

وفي كل الاحوال فان هذا الارث القديم والوسيط الاعلى قد ساهم في صياغة جديدة للشبكة الحضرية في العصر الموحدي – الحفصي .

– المستجدات العمرانية في العصر الموحدي – الحفصي : سبق هذه الحقبة قرنان من المخاض العسير الذي عرفته المدن ، ومن التحولات البطيئة التي نجم عنها بروز وجه جديد للشبكة الحضرية بافريقية ، وبالتالي للمدينة وناحيتها فالظاهرة الاولى تمثلت في اختفاء عدد هام من المدن والقرى واندثارها كليا ، أثناء أزمة القرنين الخامس والسادس ، و أزمة القرن الثامن هـ . وقد تحولت هذه المواقع الى مجرد هناشير لزراعة الحبوب ، وكثيرا ما بسط المخزن يده على هذه الاراضي المهملة ، وأقطعها للقوى الاجتماعية المساندة له .

أما الثانية ، فانها خصت كيفية تطور القرى والمدن المذكورة في العهد الحفصي : فقد حصل في هذه الحقبة الانصهار لمختلف النواتات الحضرية التي برزت في العهد الاغلبي، وقد شهدت انحسارا في مجال موحد ونشأة نواة جديدة أطلق عليها البلد أو القصر ، حيث المسجد الجامع. وفي الحالات التي عرفت اتساعا ، فكثيرا ما استندت الى مؤسسة الزواية أو تحصينات مستحدثة .

وهكذا ظهرت منذ القرن السابع هـ / XIIIم ثنائية جديدة داخل المدن والقرى الافريقية تمثلت في البلد أو القصرالقديم والحي المحيط بالزاوية . ولنا في بعض قرى الساحل نماذج على ذلك .

وفي حالات أخرى ، شهدت بعض المدن صحوة جديدة ، بعد أن أشرفت على الاندثار ، من ذلك مثلا القيروان ، التي وقعت إعادة تعميرها إنطلاقا من الهجرة الريفية وتوطين البدو ، وبالتالي فقد ظلت البادية خزانا بشريا هاما للمدن .

وفي الجملة ، ثمة عنصران أساسيان تجمّع السكان حولهما في فترات النمو

الديموغـرافي : وهمـا القـصـر والزاوية ، ممثلين النواة الاصليـة لنشـأة القـرى وتطورها. ولنا في القـرى الساحلية المـتكونة حول القصـور مثال عـلى ذلك مثل نقطة وقـصر زياد والمحرس وغـيرها .على أن هـذه القرى الناشـئة في العـهدين الموحـدي والحفـصي لم تتـحول الى مـدن ، وذلك خـلافـا لما حصل في الغـرب المسيحي عصرذاك.

وأصبحت التحصينات في هذه الحقـبة ظاهرة ملازمة للعمران الحضري، في القرى والمدن عـلى حد سواء ، نظرا الـى تعدد المخاطر والتـوترات الاجتـماعـية . وبالتالي فقد فـضلت عديد المدن الابتعاد عن البحر ، ولم تصـمد في وجه الغزوات البحرية سوى المدن ذات المواضـع الحصينة والاسوار القوية .

وقد تجسدت هذه التطورات على المسـتوى الطوبونومي في أولوية مصطلح القصر أو القلعة أو الحصن في الاستعمال ، وبدرجة أقل تعويض الاسماء القديمة بجديدة مـرتبطة بالزاوية ، التي كثيـرا ما قامت على أنقـاض المدن المندثرة ، فأبة تركت مكانها للدهماني وملول لسيدي بنور الخ .

كما عرفت البادية «تطورا طوبونوميا » محدودا ، بفعل استقرار عدد كبير من القـبائل الـبدوية ، التي التـصـقت أسـماؤها بالموقع الـنازلة به . على أن الاسكان البدوي ظل ضعيفا ، والاستغلال للارض جـزئيا، وهو ما يفسر أن عددا كبيرا من المواقع حافظ عـلى الاسماء القـديمة (اللوبية – البـربرية أو البونيـة والاتينية– البيزنطية ، أو العربية في القرون الاولى).

الجزء الثاني

تقسيم العمل بين المدينة والبادية:
التوازن الهش

الفصل الأول: الزراعة بين سلطان المدينة وتعدّيات البدو:

I) نظام الملكية العقارية : المجال الزّراعي والمجال القبلي بين المدّ والجزر :

1– الجذور التاريخيّة لوضعيّة الأرض بافريقيّة والمغرب :

منذ الحقبه التأسيسية للتاريخ الإسلامي ، قسمت ملكية الأرض إلى أنواع مختلفة ، في ارتباط بطبيعة الفتح : عنوة أو صلحا . وأهمّها:

–***أرض العشر*** : كل أرض ، للعرب والعجم ، أسلم عليها أهلها ، فهي ملك لهم، ولا شيء عليهم سوى العشر .

–***أرض فتحت صلحا*** : يؤخذ عليها خراج معلوم ، حسبما صولحوا عليه . قال أبو يوسف : **« كل أرض من أراضي الأعاجم صالح عليها أهلها ، وصاروا ذمة ، فهي أرض خراج »**. وكانت تعتبر فيئا لكل المسلمين ، يؤخذ عليها الخراج ، وتترك لأصحابها (1) .

عرّف يحيى بن آدم أرض الخراج بما مسح ووضع عليه الخراج . وهي ضريبة غير محدّدة، للمشرّع أن يزيد فيها ، وينقص حسبما يحتمل أهلها ، فكان عمر بن الخطاب يأخذ الثلث على خراج النخل المسقي بغرب ، والثلثين على ما كان يسقى سيحا . ويذهب ابن سلام إلى كراهية شراء أرض الخراج ، لأنها فيء للمسلمين (2) .

–***أرض فتحت عنوة*** : وقع فيها الاختلاف : فقال بعضهم انه يسحب عليها قانون الغنيمة ، وهي كل ما يصيب المقاتلة في الحرب من مال ومتاع وسلاح وماشية ، فتخمّس وتقسّم.

وقال آخرون : بل حكمها والنظر فيها إلى الإمام ، إن رأى أن يجعلها غنيمة، فيخمّسها ويقسمها ، كما فعل الرسول بخيبر ، فذلك له ، وإن رأى أن يجعلها فيئا، فلا يخمّسها ولا يقسّمها ، لكي تكون موقوفة على المسلمين عامة ، كما صنع عمر بن الخطاب ببلاد السواد ،ويؤخذ عليها الخراج .وكان مالك يذهب إلى ذلك، ويرى أنها لا تقسم ولا تباع ولا تكون فيها قطائع .

---

(1) أبو يوسف ، **كتاب الخراج** ، ص 182 . ابن سلام ، **كتاب الأموال** ، ص 64 .**قرآن** ، سورة الحشر، الآية 7 .

(2) أبو يوسف ، **ن.م.** ، ص 123–125، 202 . ابن سلام ، **ن.م** . ص 89،64. يحي بن آدم ، **كتاب الخراج** ، ص 403 ، ومما ورد في كتابه (ص 393) : **« الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، والفيء ما صولحوا عليه من الجزية والخراج »**.

–***أرض الموات*** : هي الأراضي المهملة التي لا يمتلكها أحد . وقد كان إحياؤها خاضعا لشروط عديدة (1) .

وعلى ضوء هذه المرجعيات ، عولجت وضعية الأرض القانونية بإفريقية والمغرب والأندلس ، لكنها لم تكن بهذا الوضوح ، لأسباب عديدة منها : اختلاف الفتح من جهة إلى أخرى ، وعدم مسايرة الواقع التاريخي للمعطيات التشريعية ، وتطور هذه الأوضاع بعد قرنين من الزمن ، لما أعيد طرح القضية عهد سحنون. ومما يأتي دليلا على الاختلاف الحاصل بين الواقع والنظرية ما ذكره الدّاودي (المتوفّى سنة 402هـ) في شأن أرض الأندلس **« أنها لم تخمس ولم تقسّم ، غير ان كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع الإمام »**(2) .

وبالتالي فقد اختلف المشرعون في حكم أرض المغرب والأندلس ، هل هي أرض عشرية أم خراجية ، صلحية أم مختلطة . وقيل عن أرض إفريقية إنّها فتحت صلحا تارة ، وعنوة طورا ، كما قيل إنه أسلم عليها أهلها (3) .

سئل سحنون عن ذلك ، فأجاب : **« وأما أرض إفريقية ، فكشفت عن أصلها ، فلم أقع منها على حقيقة أو صلح ، وكاشفت عنها علي بن زياد ، فلم يصح عنده أمرها ، ولكن يقال أن العرب لما فتحوا البلاد قبل للوالي ، أظنه موسى بن نصير : اختر أن تأخذ الخمس من حيث شئت ، فأخذ هذه الصوافي** .

ولئن ذهب ابن أبي زيد إلى أنه توجد بإفريقية أراض ليست بصلحية ولا عنوية ، فإن سحنون أقر بأن التعامل في الأرض يكون حسبما جرت عليه العادة ، فيتصرف أهلها تصرفا كاملا في أموالهم ، بيعا وشراء وصدقة وهبة ورهنا وتحبيسا ، باستثناء بعض الأماكن التي تسمى الأخماس ، وأخرى اغتصبت من أهلها ووقع استصفاؤها ، أو جلا عنها أصحابها ، ونزل بها قوم آخرون ، فكل هذه

---

(1) **القرآن** ، سورة الانفال ، الآية 41 . ابن سلام ، **نفسه** ، ص 64 ، أبو يوسف ، **نفسه** ، ص 180. وقال يحيى بن آدم (**ن.م.** ، ص 394) : **والغنيمة جميع ما أصابوا من شيء قل ذلك أو كثر ، حتى الإبر إلا الأرضين . فإن رأى أن يخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها ، فعل ذلك ، وإن رأى أن يدعها ، فيئا للمسلمين على حالها أبدا ، فعل ذلك كما فعل عمر بالسواد** .

(2) الداودي ، **كتاب الاموال** ،ص70، الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 74 . راجع ايضا : ابراهيم القادري بوتشيش ، **أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي** ، ص 73 .

(3) الداودي، كتاب الأموال ، ص 70 . كذا في المغيلي ، الدرر **المكنونة** ، ج II ، ص 156، 159. الونشريسي ، **المعيار** ، ج VI ، ص 134 .

كانت في حكم الأراضي العنوية . وكانت كلها معروفة لدى أهل إفريقية في عهد سحنون ، وان كان الناس بدؤوا يتناسون وضعيتها الأصلية ، كما تناسوا من قبل أصحابها الأوائل ، لكنها لم تنتقل بعد إلى ملكية كاملة (1) .

وثمة صنف أخر من الأراضي شبه المشاعية التي استحوذت عليها الدولة ، وهي الأراضي المهملة التي لم يعرف لها وارث ، فاعتبرت في حكم الفيء ، لا الصدقة ، يتولّى السلطان التصرف فيها وإقطاعها ، أو يقع استغلالها حسب الأولوية ، وتؤخذ منها الحمى . وكان ابن أبي زيد يرى أن الأرض التي صالح عليها أهلها ، ولم يغلبوا عليها ، على وجهين : فمّا أسلموا عليه ، وهو معمور ، فهو ملك لربه . وأمّا ما كانت مراعي ، فلا تملك حق الملك ، وبهذه الأرض كانت الأحمية والقطائع (2) .

وفي نفس هذا السياق المتعلق بتعمير الأراضي المهملة ، سئل سحنون عن أرض لقوم حلوا فيها ، وصارت شعراء ، وطال زمانها أيجوز لأحد أن يعمرها ، فأجاب : **«لا ، ولكن السلطان ينظر في ذلك»** . وكان إذا سئل عن أحمية حصون إفريقية ، يقول : أخبرني عن البلاد ، أصلح أم عنوة ، حتى أخبرك بحكمها . قيل له إنّ ابن غانم هو الذي حددها ، وذب عنها . وقد كان ابن غانم يقول للمرابطين : لم تضيقوا على أنفسكم الحدود ، ولو أحتجتم من هاهنا إلى موضع كذا ، كنتم أحق به .

وفي الجملة ، فإن سحنون كان كثيرا ما يتوقّف في الحكم ، ولا يتكلم فيها بشيء . ومن باب سد الذريعة ، أجرى هذه الأراضي في حياته الخاصة على حكم الأرض العنوية ، حتى أنه كان يخرج نصف الإنتاج من زيتونه بالساحل للصدقة ، على غرار ما يقع بأرض المساقي (3) .

والمهمّ ، أن هذه المسألة النظرية لم تكن مجردة من كل التطبيقات العملية ، في العهد الحفصي ، وذلك خلافا لما ذهب إليه أحد الدارسين المستشرقين . ففي القرن

---

(1) ابن ابي زيد ، **النوادر والزيادات** ، ج II ، ص 1178. الداودي ، **الأموال** ، ص 70 ، 151 .

(2) الداودي ، **المصدر نفسه** ، ص 152 – 153 . ابن ابي زيد ، **النوادر والزيادات** ، ج II ، ص177 ب. الجزنائي، **زهرة الآس** ، ص 7 . الجنحاني، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي**، ص 105 – 128 .

(3) ابن أبي زيد ، **المصدر نفسه** ، ص 1178. البرزلي ، **نوازل** ، ج III ، ص 39 ب ، 40 ب . وتاتي بعض الأخبار شاهدا على مدى تحكم أهل القيروان في أرض السّاحل، التي تبدو أرضًا عنوية، اقطعها عرب القيروان وتملكوها منذ القرن الأول، ومن هذه الأخبار أنّه نعت بساحل القيروان وأن الملكيات الشاسعة التي يمتلكها سحنون وعبد الرحيم الزاهد وغيره وجدت بالسّاحل، ثم ما ادّعاه ابن شرف أن أهل سوسة والسّاحل كانوا عبيدًا لأهل القيروان ، سكنوا القصور السّاحلية لصد غارات الرّوم (التجاني، **رحلة**، ص 33)

السادس هجري ظل الفقيه المازري متحرّيا في حكم أرض إفريقية : هل هي عنوية أم صلحية . وكان يأخذ فيها بأشد الأحكام وأحوطها ، فإذا كانت صلحا لقوم قد انقرضوا ، فلا يعلم لهم ورثة ، فإنها إما أن تصرف مصارف المجهول أربابه ، أو تترك مهملة ، كما كان الشأن ببلاد الجريد ، التي استوطنها الروم والبربر ، وفتحها المسلمون صلحًا ، وكانوا يؤدّون الجزية ، ويمارسون طقوسهم بكلّ حرية في الكنائس . وقد بقيت هذه الكنائس خرابا إلى مطلع القرن (الثامن هـ/ XIVم) (1) .

لكن الموحدين عمدوا من جديد إلى إعادة طرح هذه القضية ، وإخضاعها إلى المستجدات السياسية ، المتمثلة في كيفية فتحهم لبلاد إفريقية والمغرب ، وتعاملوا مع هذه البلاد من هذه المنطلقات ، فقاموا بإقطاع الأراضي العنويّة تارة ، وأخذ جباية ثقيلة عليها طورًا ، مثلما تمّ ذلك في مكناسة الزيتون وبلاد إفريقية . فقد أجروا نظام المناصفة على أراضي تونس والجريد وقفصة ، وأقطعوا الاراضي المهملة وتصرفوا فيها ، من ذلك ما وقع لأراضي صبرة المنصورية في العهد الحفصي ، فقد كانت في الأصل ملكا للسلطان الزيري ، ثم أضحت مهملة بعد خروج أهل القيروان منها في أواسط القرن الخامس هـ ، فصارت في حكم الفيء ، **« بمنزلة المال المجهول أربابه »** ، يتصرف فيها الإمام إقطاعا واستغلالا ، وهذا ما تم بالفعل ، ففي إطار أحياء هذه الرباع واستصلاحها ، أقطعها السلطان الحفصي للمشائخ والعلماء ، وكان لأبي القاسم البرزلي نصيبٌ منها (2) .

---

(1) البرزلي ، **جامع** ، جII، ص 1312. التجاني ، **رحلة** ، ص 159 – 160، 162، اخطا برانجفيك (ج I ص 430) لما زعم أن المجموعات النصرانية بقيت موجودة بنفزاوة إلى حد القرن السابع هـ / XIV م ، اعتمادا على نص التجاني ، ذلك انّ النصّ يتحدث عن الروم والجزية ببلاد الجريد في صيغة الماضي البعيد ، في عهد الفتح ، وممّا جاء فيه : **«وأهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي ، وكذلك اكثر بلاد الجريد لانهم في حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم، وافتتحت البلاد فـفرّ جميع من فيها إلاّ من أسلم أو أدّى الجزية كأهل الجريد هؤلاء ...وأما ما يدلّ على أنها افتتحت صلحا فبقاء كنائس النصارى بها خرابًا إلى زماننا هذا لم يتصرّف فيها وأنّ المسلمين بنوا بإزاء كلّ كنيسة منها مسجدا»** .

(2) جاء في ابن غازي (**الروض الهتون** ، ص 10) ما يلي : **« وتملك الموحّدون البلاد وصار النّاس عمّارًا في أملاكهم ، يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفيّة وثلثا غلة الزيتون »** – وقد نجم عن هذه السّياسة المجحفة إهمال الأرض " وتركها حتى تبوّرت ".البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II، ص 261 ب، ج III، ص 175.

2- . ملكية الدّولــــة :

اتبع الموحدون سياسة أسلافهم المرابطين في اغتصاب الأراضي التي فتحوها عنوة ، وفي الإستيلاء عليها ، بدءًا بأراضي الدولة الصنهاجية . وعمدوا إلى ضمّها مباشرة إلى بيت المال ، باعتبارها ملكًا للدولة ، أو إلى استخلاص ضريبة ثقيلة عليها ، باعتبارها أرضا خراجية عنوية . ومعلوم أنّ الوضعية القانونية للأرض بافريقية على عهد بني حفص عرفت تطورا بطيئا مقارنة بما كانت عليه في الفترة الموحدية .

أ) أرض المخزن :

لقد اتسعت ملكية أراضي الدولة الموحدية ، نتيجة انتزاع الموحدين للإقطاعات من مستحقيها ، وعدم استقرار قبائلهم بالسهول الزراعية مثل المرابطين ، وكان ديوان المستخلص أو المختص ، وهو المسمّى أيضا بديوان الضياع يشرف على استغلال الأرض مزارعة ومساقاة ، واستخلاص الريع العقاري منها (1) .

وفي العصر الحفصي ، كانت التفرقة واضحة بين أملاك الدولة التي يطلق عليها أرض الظهير أو العنوة ، وأملاك السلطان التي ذكرها ابن خلدون تحت إسم **«خالصة السلطان»** ، ووردت في مصنف آخر تحت عبارة : **«الأملاك السلطانية التي له فيها النظر التام ، والتصرف العام»** كما وردت تحت عبارة **«مختص الملك»** أو **«مختصّ الحضرة»** ، أو **«دار المختصّ»** (2). على أن مدى اتساع كل صنف منها وكيفية توزيعه ، بقيت مسألة غامضة ، لقلة الإشارات الواردة بشأنها في المصادر ، ونعتقد أن تعاقب الحقب التاريخية واختلاف الدول لم يغيّرا جذريا التوزيع الجغرافي لأملاك الدولة ، التي تطوّرت ببطء على العكس من ذلك ، في اتجاه الاتساع أو التقلص ، نتيجة عمليتين متوازيتين : مصادرة أراضي الخواص والقبائل وضمها ، وإحياء الأرض الموات ، أو استصفاء الأراضي وإقطاعها .

وفي الجملة فإن أرض الظهير اقتربت أكثر من مركز المدن الكبرى ، نتيجة تقلص ناحيتها في العصر الوسيط المتأخر ، آخذة مكان القرى والمدن المندثرة ، فأراضي صبرة المنصورية المهملة كانت في حكم الفيء ، وقد سيطرت عليها الدولة

(1) ابن صاحب الصلاة ، **المن بالإمامة** ، ص 117 ، 201 ، 203 . البيدق ، اخبار **المهدي بن تومرت** ، ص 4 . ابن أبي زرع ، **روض القرطاس** ، ص 225 .

(2) ابن خلدون ، **تاريخ**، ج VI ، ص 896–910 . **مناقب** ابن عروس ص 209 . (ابن خلدون ، ن م ، ج VI ، ص 154 (دار مختصّ الملك) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 37 (مختصّ الحضرة) ، 134 (ديوان المختص) ، ص 154 (دار المختصّ) . الترجمان، **تحفة الأريب**، ص 16 (دار المختصّ) .

الحفصية ، وأقطعت البعض منها لأبي القاسم البرزلي (1) . كما تحوّل كامل المجال المحيط بالمدينة من بقية الجهات إلى أرض ظهير ، أقطعها سلاطين بني حفص إلى المشائخ والأمراء (2) . وفي المهدية أصبحت قرية ميانش وغيرها هنشيرا شاسعا حبّسه السلطان على رباط المنستير ، كما تربّعت مكان المعلقة بقرطاجنة أرض ظهير (3) .

ومن أصناف أراضي الظهير الهناشير والضيعات الشاسعة الموجودة في أطراف العمالات والأوطان ، فالأرض الواقعة بين صفاقس وقابس كانت للمخزن ، وقد أقطعها ابن اللحياني لأحد المشائخ. ويبدو أن منطقة وادي الرمل الواقعة في حدود الجزيرة القبلية جنوبا قرب قصر المنار ، كانت وحدة زراعية من أملاك الدولة الحفصية (4) .

ويطلق على أراضي الدولة تسميات عديدة ، يختلف معناها حسب السياق :

- ربع بيت المال .
- أرض العنوة : إشارة إلى كيفية فتحها ، وبالتالي استصفائها .
- أرض الظهير : باعتبار أنها تستغل وتقطع بموجب ظهير سلطاني .
- أرض الشراعة : الشراعة هي كراء الأراضي الزراعية الذي يدفع للمخزن ، وهي أشبه ما يكون بالعشابة بالنّسبة إلى الأراضي الرّعويّة .

وتشترك هذه الأنواع الثلاثة من الأرض في كونها ملكا لبيت المال ، يؤدي المستغل لها الكراء ، المسمى الحكر والعشر ، وهي لا تباع ولا تورث ولا تحاز إلا أن يقطعها السلطان لأحد من الأجناد أو الأعراب أو العلماء والصلحاء ، فتبقى بيده ما لم يزلها منه أو يمُت الخليفة الذي منحها ، فتحتاج عندها إلى تجديد الظهير . ويجوز أن يسلبها لقوم ، ويعطيها لآخرين بحسب اجتهاده (5) .

(1) البرزلي ، **جامع** .. ، ج II، ص 312 .

(2) راجع الفصل الخاص بالإقطاع بجهة القيروان .

(3) البرزلي ، **ن . م** . ، ج II، ص 118 . انظر أيضا : مقالنا : وثيقة في التاريخ الرّيفي.

(4) التجاني، **رحلة** ، ص 23 – 24 ، حول حبس سيدي مهذب ، انظر :
J. Despois, **Le Sahel et la Basse Steppe**, p. 350-351.

(5) البرزلي ، **ن . م** . ج II، ص 1118 (ذكر ابن عبد السلام أن اباه أخذ بعض الأراضي من الاعراب ، ثم التزمها من بيت المال) . الأبي ، **الاكمال**، ج IV، ص 349 .

- ***أرض الحكر*** : يتولىّ صاحبها دفع العشر ، إلى جانب الحكر ، وهي وظيفة ضعيفة ، أقل مما تدفعه أرض الجزاء ، وان كان كل منهما يعتمد الوحدة القياسية : المرجع ، وهو مساحة تتراوح بين 600و1600م 2 حسب الجهات . كما أنها ليست ملكية خاصة ، لا يمكن لكاريها أن يغرس بها أشجارا. وهي لا تباع ولا تشترى ، لكن يستطيع صاحبها أن يرفع يده عنها بعوض . أما إذا أراد نقلها إلى أرض الجزاء ، وبالتالي التصرف فيها بأكثر حرية ، فإنه يستوجب عليه دفع مبلغ إضافي معلوم ، وإلحاق خراجها بخراج إدارة الجزاء ، ولعل هذا الانزياح من أرض ظهير إلى أرض خراجية يأتي شاهدا على مدى تطور أراضي الدولة بعد نحو قرنين من الزمن أو أكثر ، من سنة الأخماس إلى نهاية القرن الثامن هـ ، وبداية تملك المكترين لها بطريقة تدريجية . وهو ما وقع بالنسبة إلى صنف أخر من الأراضي ، وهي الأرض السّقاء .

- ***أرض سقاء*** : تقع قرب المدن ، وهي ليست ملكية حقيقية ، إنما يوجد فيها حوز قوي ، باعتبار أن الوظيف المفروض عليها أكثر من وظيف أرض الحكر . ولهذا يمكن لصاحبها أن يبيعها على ما هي عليه ، ويبين ما عليها من الوظيف وانها أرض سقاء أما إذا أراد اعمارها بالشجر ، فإنّه يدفع لبيت المال بعض الانزال حسبما ذكر بعض أهل المخزن للبرزلي ، ويزاد في الوظيف الذي تدفعه بقدر أرض الجزاء ، وفي الجملة فان هذا الصنف من الأرض تطوّر بنسق أسرع من أرض الحكر من ملكية الدولة إلى الأرض الخراجية (1) .

ويتضح من خلال نازلة ذكرها البرزلي أن مسار الاحياء للأراضي المخصصة للسّقاء حول مدينة تونس كان هاما في العهد الحفصي ، مما أدّى إلى نشوب نزاعات حول قسمة الماء السائح المنحدر من المرتفعات ، وكان يشترط على من يتولى احياء هذه العقارات المخزنية دفع الانزال (2) .

- **أرض كانت عامرة في القديم (الجاهلية) ، ثم خلت وانجلى عنها أهلها بغير قتال** ، فحكمها حكم الكنوز والمعادن الموجودة بها ، بمعنى أن حائزها يؤدي الخمس في الكنوز (أو الرّكاز) والزكاة في المعدن . فعلى سبيل المثال كانت قَبَالَة الملح بالملاحات النائية مثل رأس المخبز ، في جنوب إفريقية ، خاضعة لتصرف

(1) البرزلي ، **نفس المصدر والصحيفة** . كذا في مختصر ابن عرفة ، ج II ، ص 1274. حول مساحة المرجع ، انظر مثلا : M. Legendre, **Survivances des mesures traditionnelles en Tunisie**, Paris 1958, p75-81.

(2) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 1264.

السلطان (1) . وقد رأينا سابقا أن أراضي صبرة المنصورية الخالية تحولت في العهد الحفصي إلى أرض ظهير ، يقطعها السلطان لمن يشاء (2) ، كما تركت أطلالها الدارسة المكان للهنشير ، وهو المصطلح الجديد الذي أصبح رائجا في العهد الحفصي ، وكانت له دلالة فائقة في إعادة تنظيم المشهد الريفي الذي أصبح مميزا بسيطرة حقول الحبوب الشاسعة وقلة الغراسات في عديد المناطق .

- ***الأرض الموات*** : يختلف إحياؤها من جهة إلى أخرى ، بحيث لا يحتاج دائما إلى موافقة السلطان ، مما يجعلها على هامش أراضي الظهير ، خاصة بعد إحيائها، وبالتالي نفضّل تناولها في فقرة مستقلة .

وفي الجملة ، فان الصبغة المخزنيّة لهذه الاراضي ليست دائما واضحة ، بحكم تطور وضعيتها القانونية ، وتحولها تدريجيا إلى ملكيات خاصة . أما عن مدى أهميتها في منظومة العقارات المستغلة ، فهو أمر يعسر تحديده ، بحكم التطور الزمني والاختلاف المكاني ، لكنه من الواضح انها تركزت أساسا حول المناطق الحضرية الكبرى مثل مدينة تونس ، حيث فاقت نسبة الملكية الخاصة ، وكانت وسيلة للحكم بيد السلطان ، وموردا لبيت المال .

كيفية استغلال أرض الظهير : لقد أكد البرزلي أن الاراضي الموجودة بناحية تونس هي « **أرض ظهير لا ملك في رقبتها ، وإنما فيها الانتفاع خاصة ، فلا يجوز بيعها ولا قسمتها الا بإذن الإمام ، فيكون اقطاع تمليك لا شفعة فيها** » (3) .

وبالتالي فإن السلطة المخزنية التي منحت الأرض إقطاع منفعة لا تمليك ، كانت حريصة بذلك على إبقاء التصرف في الملكيات المحيطة بالمدن الكبرى بيدها ، والتحكم في كيفية توزيعها ، وإقطاعها بموجب ظهير سلطاني . على أن الواقع لم يكن دائما مطابقا للنظرية ، فإقطاع الاستغلال قد يتحول إلى تملّك نهائي بطريقة تدريجية .

(1) المغيلي ، **الدرر المكنونة** .. ، ج II ، ص 56 ب .

(2) البرزلي ، **ن . م .** ، ج II ، ص 261 ب .

(3) المغيلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 56 ب – 157 .وأضاف المغيلي موضحا هذا الامر : «**والذي جرى عليه العمل عندنا وافتى به شيخنا الإمام وغيره أن أراضي الظهاير التي ذكرت ووصفت نصها أو أبلغ عنها ،انما تقطع امتاعا لا تمليكا ، ويحكيه عن شيخنا ابن عبد السلام وحكاه الشيخ أبو الربيع المزوغي أنه جرى معه هذا الخبر، وهو انه مات أبوه قبل جده ، ثم مات جده وله مواضع بالظهير ، فجاء عمومته فجدّد لهم الظهير ، فقال : امش واجعل اسمك معهم ، فقلت : ما لي شيء لان أبي مات قبل والده ، فقال لي : ليس لجدك شيء ، وإنما هو بحسب من يعطيه له ، ويجوز أن ياخذ من هذا ويعطيه لهذا ... وكل ما يشترى عندنا من أرض العرب والقواد من هذه البلاد أو الأراضي إنما هو رفع يد ذلك عنه ، ويشتري المنفعة ، فإذا أراد الملك ، استلزمها من بيت المال عن اذن الامام ومن اقامه لذلك . قال : وكذلك جرى لنا اشترينا من العرب ، وقال لي الشيخ ابن عبد السلام : التزمها من المخزن ، والاّ فلا تطيب لك ، فعلى هذا الحوز ، للامام أن ياخذها من قوم ويدفعها لآخرين ، أو لبعض من كانت لهم أو لورثتهم ، وهذا شأنها اليوم عندنا ، وعندنا بتونس أرض [عشر] وأرض سقي وأرض [حكر] وأرض شراعة** » .

وفي كل الأحوال ، فإن المنتفع بالظهير تترك له حرية التصرف في استغلال الأرض وتعميرها ، بعد أن يدفع « حكرها وعشرها » للسلطان . واعتبارا لنوعية المنتفعين (مشائخ وعلماء وأمراء) ، ولمساحات الأرض الشاسعة ، فإن تعميرها عادة ما يقع عن طريق العمال الزراعيينَ ، الذين يستقرون بالهنشير أو السّانية لمدّة قد تطول وقد تقصر ، وممّا هو ثابت أن البعض منهم يقضي كامل حياته في هذه « **المستعمرات العقارية** » حتى أضحى من الصعب اقتلاعه منها عند ما يعجز عن العمل ، وتعويضه بعامل آخر ، لطول مدة حيازته ، وإنْ كان الفقيه المشرع أعطى الحرية كاملة لصاحب الظهير لتعويضه ، ولم يراع طول مدة الحوز ، ولا حقوق العامل .

والحقيقة أن هذه الحالة من التنافس بين العمّال الزراعيين لا تقع إلاّ نادرا ، في فترات الرخاء والنمو الديموغرافي ، أمّا في فترات الأزمة، فإن المشرع كان متساهلا في إعادة تعمير الأراضي التي ذهب عنها أهلها، بعد أن خلت البلاد ،إذ لا يمكن للحائزين الأوائل أن يتعرضوا للمعمّرين الجدد للعقار(1).

وقد طرحت هذه المسألة في عهد ابن عبد السّلام (المتوفّى سنة 749 هـ) بساحل إفريقية ، وكان موقف قاضي الجماعة منحازا للمعمرين الجدد ، رافضا لدعاوي الحائزين القدم الذين تركوا البلاد وتحولوا عنها ، لأنه لم يكن بيدهم ما يستظهرون به من عقود أشرية . وبالتالي فإن الهاجس الأساسي للمشرع ليس هو مراعاة قدم الحوز ، بقدر ما هو تعمير الأرض ، خاصة أن الفترة شهدت حركية اجتماعية إذ انقرضت مجموعات نتيجة الكوارث الطبيعية ، وحلت محلّها أخرى ، ممّا أدّى إلى تحوّل في ملكية الأرض (2) .

ب) *الأرض الخراجية العنوية* :

أبقى الموحدون الأرض التي فتحت عنوة ، على حد اعتبارهم ، في يد أصحابها، وفرضت عليها نسبة ثقيلة من غلتها بلغت النصف بافريقية، فجرت البلاد المفتوحة منها على حكم المساقاة أو المناصفة ، في سنة الأخماس (3) .

---

(1) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 1118.
(2) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 1118.
(3) المراكشي ، **المعجب** ، ص 334 – 336 ، 333، 395 .

وكما وقعت محاصرة مدينة تونس وقطع أشجارها وتغوير مياهها ، فإن الخليفة الموحدي دخل مدينة قفصة عنوة سنة 582 هـ / 1186م (1) .

وبالتالي فقد أجرى الموحدون هذه الأراضي المفتوحة عنوة على حكم أرض الخراج ، وجعلوها مناصفة بافريقية ، كما بين ذلك النويري : « **فنازل (عبد المؤمن تونس) وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى الطاعة ، فامتنعوا وقاتلوا أشد قتال ، فلما جاء الليل خرج إليهم سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها ، وسالوا عبد المؤمن الأمان لأهل بلدهم ، فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة . وأمّا من عداهم من أهل البلد ، فأمنهم في أنفسهم وأهليهم ، ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين ، وان يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر ذلك وتسلم البلد ، *وأرسل أمناء ليقاسموا الناس على أموالهم* »** (2) .

ووقعت هذه العملية بكيفية مشابهة بمدينة قفصة ، إذ بعد أن حاصر المنصور المدينة ، ودخلها سنة 584 هـ/ 1188م استأصل شأفة الحشود الوافدة على المدينة ، وأمن أهل البلد على أنفسهم ، « **وجعل أملاكهم في يدهم على حكم المساقاة** » (3) .

وقد مكنت هذه السياسة الجبائية من استعادة المخزن لملكية الأراضي الشاسعة حول المدن الكبرى ، وخاصة مدينة تونس ، واستغلالها عن طريق الإقطاع والكراء (أرض الجزاء) طيلة العصر الموحدي الحفصي ، وذلك بعد فترة تقلّص شهدتها أراضي الدولة ، على اثر انتشار القبائل الهلالية وتملكها للسهول والبسائط ، فضلا عن اتباع الزيريين وبني حماد سياسة تخلّ عن هذه الأراضي بواسطة الهبات والاقطاعات ، وكذلك فعل المرابطون بالبلاد الغربية (4) .

---

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VII ، ص 494 . راجع الفصل الخاص بالإنتشار الهلالي .
(2)النوري، **نهاية الارب**، ج XXIV ، ص 311 – 312 . ص 345 – 346 . التجاني، **رحلة** ، ص 345–346 يعتبر الخراج المقاسمة من أقدم الطرق المستعملة في عهد النبيّ ، يؤخذ عينًا حسب منتوج الأرض وقد كان مستعملا في العهد العبّاسي إلى جانب الخراج مساحة ومقاطعة .
C.Cahen, Fiscalité, propriété et antagonismes d'après Denys de Tell Mahré, In **Arabica** 1954.
(3) الزركشي ، **تاريخ الدولتين** ، ص 16 .
(4) انظر : عزالدين موسى ، النشاط **الإقتصادي في المغرب الإسلامي** ، بيروت 1983 ، عصمت دندش ، **الأندلس في نهاية المرابطين** .. ، بيروت 1988 ص 156 .

وبالتالي فقد اتسعت رقعة أملاك الدولة الموحدية عن طريق تملك أراضي الأمراء المرابطين وجندهم وأعيانهم ، ومصادرة أملاك الثائرين ومناصفة الأراضي العنوية (1).

أما عن أصناف الأراضي الخراجية ، فقد اعتبر البرزلي أن الأمر كان مقتصرا بمدينة تونس على أراضي أهل الذمة وأرض الجزاء . أمّا الأرض المطبّلة بالأندلس، فخراجها يؤخذ ظلمًا (2) .

– فأرض الطبْل والوظيف هي أن يشتري الأرض بشرط أداء عليها مستمر محدث الوضع ، بعد *إحيائها* وهو أمر موجود بالأندلس ، كما تدل عليه كتب الوثائق ، لكنه غير معروف بمدينة تونس ، ومختلف عن أرض الجزاء التي تدفع الوظيف عند الاحياء، لا بعده (3) .

– *أرض الجزاء* : عرفها البرزلي بما يلي : **« أن أرض الجزاء بتونس كالأرض المطبّلة الموظفة ، لانها في *موضع الامام الذي أذن باحيائها على هذا الشرط، لإقامة* جيوش *المسلمين* ونزلها الأولون على هذا ، فهو بعض ثمنها ، وأجيز، وان كان فيه جهالة لضرورة بيت المال إلى ذلك، فهو من ارتكاب أخف الضررين . وإلى هذا مال شيخنا،»** (4)

(1) ذكر الشماخي (**كتاب السِّير**، ص352) مثالا دقيقا عن المناصفة في العصر الموحدي بواحة تقيوس، وأخذ السلطان للنصف وللعشر من النصف الثاني، انظر كذلك حول الأراضي العنوية، ابن غازي، **الروض الهتون**، ص 10 .

(2) المصدر نفسه ، ج II ، ص 1105. وردت في البرزلي تحت تسمية أرض الطفل ، ويبدو أنّ الصّواب الطبل ، المعنى الخراج . انظر : لسان العرب . وفي الاحباس المطبّلة ، راجع : الونشريسي ، **المعيار** ، ج VIII ، ص 157 .

(3) المصدر نفسه ، ج II ، ص 117 ب . في النصّ مكبّلة، وقد أصلحناها اعتمادا على النصوص الاخرى. وحول الاختلاف بين أرض الجزاء والمطبلة، قال ابن عرفة : أرض الجزاء هي التي عليها قدر معلوم حين احيائها، والأرض المطبلة هي التي وضع عليها قدر معلوم بعد احيائها. قال : والأولى كائنة عندنا بتونس والثانية غير كائنة وهي المعبّر عنها في كتب الوثائق أرض الطبل والوظيف. انظر : الرصاع ، **شرح حدود** ابن عرفة، مخ9 ، ص 1104..

(4) اضاف البرزلي في شأنها : **وحكوه عن أشياخهم أنها أرض مملوكة ويجوز إعطاؤها في مهور النساء. وحكى شيخنا الإمام أنه توقف فيها بعض الشيوخ ، هل تعطى في الانكحة أم لا لكونها ليست بتامة الملك دقيقة ، وكذا دور أرباض تونس التي انعقد عليها الجزاء يقول انها غير مملوكة على الحقيقة ولم يملك منها غير الانقاض ، ولهذا يكتب في عقودهم الاشرية : « اشترى جميع انقاض دار كذا وكذا احباسا لا تملك فيهاالقيع ، إلا أن يكون أمضى ذلك ». ولهذا نزلت مسالة ، وهي أن رجلا اشترى قيعَ دور وجعَلها جنة ، وكان في وسطها قاعة مسجد ، فاحتسب محتسب فيه وطال النزاع ، وآل الامر فيه إلى السكوت عنه وعدم التعرض فيه ، فهو دليل على هذا . والصحيح من مذهب شيخنا ان أرض الجزاء مملوكة اشتراها الذين نزلوها باذن الامام بما يدفعونه لبيت المال حينئذ ، وما يوظف عليها بعد ذلك . وكذلك يختلف الجزاء فيها بحسب ما وقع الاتفاق حينئذ ، وسمعته يقول وعرضته عليه غير ما مرة أن أرض تونس على أربعة اقسام : مملوكة باتفاق ، وهي أرض العشر .. وأرض الجزاء.. وأرض السقاء.. والرابعة أرض الحكر وزاد غيره أرض الشراعة وأرض الظهير وأرض العنوة»**، المصدر نفسه ، ج I ، ص 1263. يوافق الجزا بتونس وظيف الخرص في الجنات بفاس ، وقد كان الناس يلقون منه مضرة عظيمة ، حتى قام كثير من الناس بقطع جنته ليسقط عنه الوظيف ، وقد ازالها أبو الحسن المريني بالمغرب الأقصى (ابن مرزوق ، **المسند** ، ص 282 – 283) .

وفي بداية العصر الموحدي، كانت ضريبة الجزاء تؤخذ على الأملاك العقارية لسكان مدينة تونس وناحيتها، مشتملة في الآن نفسه على منازل الأرباض بالمدينة والأراضي المحيطة بها، والكائنة تحت نفوذ السلطة المخزنية المباشر، وهي بدون شك تجسيد لعملية المقاسمة التي قام بها عبد المؤمن بن علي عند دخوله لمدينة تونس عنوة سنة الاخماس .

ونعتقد أن هذه الأراضي كانت قبل مجيء الموحدين إلى إفريقية مهملة، رغم خصوبتها، لسيطرة النمط الرحلي . وبعد أن تمكن الموحدون من السيّطرة على البلاد، أذنوا بإحيائها لصالح الجيوش المقيمة هناك. بالتالي شهدت الأرياف المحيطة بمدينة تونس منذ أواسط القرن السادس هـ /XIIم عملية استصلاح وتوسيع للمجال المزروع. ولا يستبعد أن تكون بوادر هذا المسار الاحيائي قد ظهرت منذ مطلع القرن السادس، بعد أن تلاشى دور القيروان، وانتصب حكم بني خراسان بتونس، وهو ما عبّر عنه ابن عرفة في قوله : **«وشراء الأرض بشرط أداء قدر معلوم عليها في كل مدة معلومة أن كان بوضعه عليها حين الاحياء جاز، ولا ينبغي أن يختلف فيه، وهو ما استقر عليه العمل العام بتونس منذ نحو ثلاثمائة سنة في الأرض المسماة بالجزاء»** (1) .

ولئن استمرت هذه الأراضي الخراجية على دفع وظيف محدد مقابل استغلالها ، طيلة هذه القرون الثلاثة من الزمن ، فإن وضعيتها القانونية شهدت تطوّرًا بطيئا ، منذ مطلع القرن الثامن ، كما لمح إلى ذلك نص ابن عرفة (2) .

هذا الرأي الذي يناسب المرحلة الأولى من تطور أرض الجزاء يميل إلى حكم الحوز ، محتجا بأن ضريبة الجزاء المأخوذة على الأرض لا يمكن أن تكون كراء ، لعدم وجود أجل محدد ولا بيع لجهل قدره الجملي ، إنما هي بمثابة الخراج على الأرض قبل إحيائها ، لقربها من العمران ، إذ لا يجوز فيها إحياء دون إذن السلطان. ويعلل هذا الرأي وضع الخراج بحاجة الناس لتعمير الأرض وغراستها ، وضرورة سهر السلطة المخزنية على هذه العملية لحماية المزارعين من تعديات المحاربين ، و **« وصونهم من ذوي الفساد من أهل الحرب وغيرهم »** (3) . وبالتالي فإن الخراج أو وظيف الجزاء الذي تتحصل عليه السلطة يأتي مقابل حماية المزارعين من التعديات البدوية .

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج II ، ص 283 ب . كذا في نوازل البرزلي ، ج II ، ص 117 ب .

(2) نفس الاحالة : **« نقل بعض شيوخنا في مجلس تدريسه أن بعض من أدركه من الشيوخ كان يعرض ملكها ، ويضعفه ، إذا كان لا غرس بها ، وإنه كان لا يشهد في نكاح مهره ماهو من هذه الأرض »**

(3) البرزلي ، **نفس المصدر والصحيفة** .

على أنه وقع انزياح تدريجي في الوضعية القانونية لأرض الجزاء منذ مطلع القرن الثامن هـ وتحولت من أرض حوز إلى ملكية ضعيفة ، وقد ذهب علماء القرن الثامن الهجري مثل أبي العبّاس بن عجلان وأبي علي حسن الزبيدي وابن عرفة إلى إمكانية تملكها ، خاصة إذا كانت مغروسة ، بل أفتى البرزلي بعدهم بأن صفة الأرض الخراجية لا تنطبق عليها ، وانه يمكن تملكها وبيعها (1) .

والحقيقة أن هذه الأرض كانت خاضعة لمؤسسة مخزنية تتولى كراءها ، وهي المسماة : « دار الجزاء » ، وليس من الهيّن بيعها أو نقلها ، كما تدل على ذلك احدى مسائل البرزلي: فقد يعمد البائع إلى التفريط فيها ، دون التنصيص على كونها أرض جزاء في العقد ، ثم يكتشف المشتري أن العقد مقترن بآخر ينص على دفع الجزاء ، وفي هذه الحالة لا يخلو الأمر من احتمالين : إمّا أن البائع لم يذكر ذلك ، سهوا أو عمدا ، وإمّا أن الجزاء وقع توظيفه آنذاك من قبل أهل دار الجزاء (2) .

كما تعتني هذه المؤسسة ، دار الجزاء ، بقيسها الأرض من حين الى آخر ، وتصحيح الزائد أو الناقص منها ، وذلك كلما تعرضت حدودها إلى تحويرات وتقسيمات متتالية عبر العصور . وإذا ما وجدت مساحتها ناقصة عن القدر المعين في العقد ، فانه يُصحح الأمر مع المنتفع بها ، ويرجع له ما زاد من قسط الانزال والجزاء في الماضي (3) .

ويحق لنا في هذا المستوى أن نتساءل عن مدى تقدّم عملية مسح الأراضي بإفريقية في العصرين الموحدي والحفصي ، علما بان الموحدين كان لهم إسهام في هذا الشأن . فقد أمر عبد المؤمن بعد رجوعه من المهدية في سنة الأخماس « **بتكسير بلاد افريقية والمغرب ، وكسرها من بلاد افريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الاقصى ، بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ، فاسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والانهار والسباخ والطرقات والحزون ، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق ، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب** » (4) . ويحتاج منا هذا النص إلى بعض الملاحظات :

---

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج II ، ص 117 ب .

(2) **نفس المصدر** ، ج II ، ص 69 ب .

(3) **نفس المصدر** ، ج II ، ص 1252.

(4) ابن أبي زرع ، **روض القرطاس** ، ص 198 – 199 . يعتمد الخراج مساحة على الوحدة المساحيّة ، ممّا يحتاج إلى اقامة مسح منتظم للأرض . ويؤخذ نقدا . وقد كان مستعملا بمصر وسوريا وايران في العصر العبّاسي . أمّا الوحدة المساحيّة فهي الجريب في العراق والشام والفدّان في مصر والمرجع بافريقية. انظر : وقد كانت الوحدة الجبائية في العصر الأغلبي زوج الماشية بمعنى نحو 9–12 هكتارا إذ وظّف الأمير عبد الله بن ابرهيم بن الاغلب على كل زوج تحرث ثمانية دنانير ، أي معدّل دينار على كل هكتار : المالكي ، **رياض النفوس**، ج I ، ص 260 . حول جباية الأرض في العهد الموحدي – الحفصي ، انظر القلقشندي ، **صبح الاعشى**، ج V ، ص 204 .

– تحديد نسبة الأراضي غير المنتجة آنذاك بالثلث ، وهي مكونة من الجبال والشعاري والأودية .

– تعميم الخراج على كامل بلاد افريقية ، دون مراعاة للثنائية : الفتح عنوة أو صلحا ، وهو ما يعني أن ابن أبي زرع استعمل هذا المصطلح بطريقة عامة ، فأطلقه على كل الضرائب ، باستثناء الزكاة ، وكان يشمل كافة الأراضي الزراعية .

– اعتماد القبيلة الوحدة الأساسية لاستخلاص الضرائب ببلاد المغرب ، وهو أمر متناسب مع تنظيمات الموحدين التي قامت على أساس النظام القبلي ، ومع التركيبة البشريّة للمجتمع المغربي .

– أخذ الخراج في شكل عيني ونقدي في الآن نفسه .

وإذا كان مصطلح الخراج يشمل كل أصناف الأراضي في العهد الموحدي ، فان الأمر أصبح أكثر تدقيقا في العصر الحفصي ، إذ تفرعت أصناف الأراضي ، واقتصر مفهوم الأراضي الخراجية على أرض الجزاء .

والجزاء هو بمثابة استئجار يدفعه المستغلّون للأراضي والعقارات التي آلت إلى الدولة ، بسبب سياسة المناقصة التي اتبعها الموحدون أو الجلاء عنها أو غيرها من الأسباب .

كما شهد هذا الصنف من الأراضي بدوره تطورا نحو التملك الخاص ، وتفريط السلطة المخزنية فيه ، والتخلي عنه لأسباب متنوعة ، منها رغبة المستغلين له في تملكه وبيعه ونقله ، لارتفاع كراء الجزاء ، أو كثرة الجوائح التي نزلت بثمرته ، والخوف من الغارات البدوية ، وما يعني ذلك من اهمال هذه الأراضي وتركها بورا (1) .

ويأتي المثال الخاص بتحبيس عقار جزاء بأرباض مدينة تونس – ولعل أصل هذا الجزاء يرجع إلى المناصفة التي فرضها عبد المؤمن بن علي على أرباض تونس – شاهدا على كيفية تطور الأملاك الجزائية ، سواء أكانت منازل أم أراضي ، نحو الاندماج التدريجي في الحياة العامة وعدم دفع الضرائب (2).

---

(1) البرزلي ، ن . م . ، ج II ، ص 1315. ج III ، ص 71 ب . ذكر الجزنائي (**زهرة الآس** ، ص 26) انّ الجزاء هي ضريبة تدفع على الأرض المحيطة بفاس التي وقع فيها البناء ، وكانت بمثابة الاستئجار . انظر أيضًا : هو بكنز، **النظم الاسلامية في المغرب** ، ص 78 .

(2) المصدر نفسه ، ج II ، ص 1255. ومن الامثلة على كيفية تطور عقارات الجزاء ، ما اورده البرزلي حول تحبيس منزل علوي بتونس ، على مسجد ، وقد كان هذا العقار بالربض ، خاضعا للجزاء ، ولما اضحى في حالة رديئة ، مهملا ، اختار البرزلي بين ثلاثة حلول :

– بيعه ، لكن يصعب ذلك لان عليه الجزاء .

– رده إلى صاحبه لقلة منفعته ، وهو رأي ابن عرفة ، لكن القاضي رفض ذلك .

– الابقاء على هذا الحبس إلى أن خرب المنزل وكاد يتلف ، ثم أمر البرزلي باعادة بنائه حوانيت ، وبذلك أصبحت « مسرّحة من المخزن » ، أي أنها تخلصت من دفع الجزاء

وإذا كان المنتفع بأرض الجزاء مطالبًا بدفع الكراء كل سنة ، والتحصل بموجبه على براءة استخلاص من دار الجزاء ، فإن عملية التوثيق لم تكن دوما دقيقة ، بحيث ليس من النادر ضياع عقود الجزاء بعد مرور جيل أو أكثر ، مما يحتاج إلى المراجعة والتثبت عن طريق زمام الأحباس أو البينة (1) .

وفي حالات أخرى ، يلجأ المنتفع إلى التسويف والتملص من دفع ضريبة الجزاء، كأن يقوم بتحبيسها مثلا (2) . ولئن كان البعض يعتبرها في عداد الأموال المغتصبة غير المشروعة ، فإن أغلب الفقهاء ساندوا ممارسات السلطة المخزنية ، معتبرين أنّ كراء الأرض التي يتحصل عليهاالسلطان وبقية الوظائف و **« غير ذلك من شبه الحلال »** الذي يفرضه على المزارعين ، يعد أمرا مشروعا (3) .

– تحبيس أرض الظهير وأرض الجزاء :

كثيرا ما طرحت إشكالية تحبيس أرض الظهير بتونس ، ونظرا إلى أنّها اعطاء منفعة لا تملك فيها ، فقد اعتبر تحبيسها غير تام ، وهو ما قرره ابن عرفة ، جوابا عن مسألة جدّت ببلاد السّاحل (4) .

والحقيقة أن أرض ساحل إفريقية كلها كانت ، حسب رأي الفقهاء ، في عداد أرض الظهير ، التي لا ملك فيها ، انما هي حوزية . وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأراضي المحيطة بمدينة تونس، حتى أن ابن عبد السلام كان يصرح بعدم ملك أرض اشتراها ابن عرفة من المخزن بقرية صائغ ، من أحواز تونس الغربيّة لأنها أرض ظهير (5) .

ولئن كان انتقال الملكية في أرض الظهير وتملكها وتحبيسها ممّا يتعرض إلى كثير من العراقيل ، فإن أرض الجزاء التي كانت تملك وتعطى في المهور قد تم تحبيسها والاعتراف بذلك بيسر (6) .

---

(1) المصدر نفسه ، ج III ، ص 97 ب . الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 44 .

(2) الونشريسي ، **ن.م.** ، ج VII ، ص 53 .

(3) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II، ص 1157. غير أنّه توجد استثناءات لهذا الموقف ، فقد اعتبر بن عرفة أن الوظائف والمكوس التي تدفع للسلاطين هي ظالمة ، تمكن رفض دفعها من استطاع إلى ذلك سبيلا (البرزلي، ن.م.، II ، 116 ب. ابن عرفة ، المختصر ، II ، 1279).

(4) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 147. الونشريسي ، **ن.م.** ، ج VII ، ص 334 ، وهو أن **« رجلا من الصلحاء سكن بعض بلاد الساحل ، وبنى هناك زاوية ، واشتهر بخير في البلد المذكور ، وأخرج ظهيرا فيه اسمه واسم ابن أخيه .. وتوارث أبناء ابن أخيه الظهير مدة ستين سنة، إلى أن اختلفوا في كيفية استغلاله ، واستظهر البعض برسم أن الشيخ الأول حبس هذا البلد وأوقفه ايقافا مؤبدا على ابني أخيه »**

(5) البرزلي ، **نفس الاحالة** .

(6) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 47 ب .

والأمثلة كثيرة في هذا الصدد : (1)

أما استغلال الأراضي المخزنية ، فيتم بطريقتين : إما الاستغلال المباشر ، أو كرائها وأخذ الجزاء عليها ، ولقد تجدّد هذا الكراء لاحباس الأراضي المخزنية كل سنةً بالنسبة إلى الدّور والحوانيت ، وكل أربع سنوات فيما يخص الاراضي ببلاد الاندلس . وقد كان الغرض من هذا التجديد هو إعادة البت في كراء الأحباس ، وهو ما كان معمولا به بمدينة تونس في القرن الثامن الهجري / XIV م . غير انه في حالات أخرى ، يتواصل كراء الاحباس المخزنية بدون انقطاع مدة طويلة ، قال البرزلي في هذا الصدد متحدثا عن أرض المعلقة ، وهي أرض مخزنية : **« جرى العرف اليوم بتونس بكراء أرض الحبس بالمعلقة الأربعين والخمسين سنة ، وكذلك شاهدت اكتراء بقعة اكتريت من الحبس وجعلت دارا ، أظن أن مدتها أربعين أو خمسين سنة ، وكذا وقع في القيروان في دار تهدمت ، وهي حبس للفقراء ، فاكراها قاضي الجماعة ابن باديس الى سنين كثيرة بما تبنى به ، ورآه خيرا من تقويتها بالبيع ، للضرورة الداعية إلى ذلك** (2) .

ج) إقطاع أرض الظهير :

ترجع جذور الاقطاع إلى الفترة الاسلامية التأسيسية ، فقد ذكر الداودي أن النبيّ والخلفاء كانوا يقطعون الأرض التي جلا عنها أهلها بغير قتال أو أراضي الفيء التي أخذ منها الخمس والأراضي التي لم يعمّرها أحد . وكانت الأراضي المخصّصة لرعي الحيوانات وللاحتطاب والمصالح المشتركة مثل الماء والملح لا تقطع. وفي نفس هذا السّياق أشار الى أن الاقطاع يكون في الفيافي لا في المعمور ، باستثناء الأرض العنويّة، على اثر فتوح العراق والشام ومصر(3). وقد طرحت أنذاك مسألة التصرف في الأرض ، ووقف عمر بن الخطاب في وجه التيار الذي يطالب باستصفاء أرض السّواد وإقطاعها ، وأصر على ايقافها على الأمة قاطبة، فيما تتولّى بيت المال دفع العطاء للمقاتلة .غير أن عمر لم يذهب إلى حد

---

(1) البرزلي ، ن . م . ، ج II ، ص 87 ب ، 1255. الونشريسي ، **ن.م.** ، ج VII ، ص 227 . من هذه الأمثلة، نذكر :

– تحبيس أرض الجزاء بتونس في القرن الثامن للهجرة على المساجد.

– رجل حبس على زاوية أرض جزاء ، كان يدفع كراءها إلى المخزن ، فنشأ اختلاف مقدم الزاوية الذي قبلها على أساس أنها حرة .

– رجل أراد تحبيس ثلث ماله على فقراء جامع الزيتونة ، لكنه وقع التحري في قبوله ، لان فيه أرضًا عليها الجزاء «ولا منفعة فيها»..

(2) الونشريسي ، **ن.م.** ، ج VII ، ص 56 ، البرزلي ، **ن.م.** 22 ، ص 1160.

(3) ابن عرفة، **المختصر** ، ج IV ، ص 162 . الدّاودي ، **كتاب الأموال**، ص 52–53 .

تحريم الملكية الخاصة ، إذ منح اشراف الصحابة اقطاعات من الصوافي، فتكونت لهم ضياع ، قاموا بتأجيرها أو باستثمارها بواسطة اعداد كبيرة من الرقيق والموالي والأجراء .

واتسعت دائرة الاقطاعات أيام عثمان ، الذي عمّمها في كافة الأقاليم ، وإذا كان عمر استثمر أرض السواد مباشرة ، ولم يقطعها ، فإن عثمان **« اقطعها لانه رأى اقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها وشرط على من اقطعها اياه أن يأخذ منه الفيء، فكان ذلك منه اقطاع اجارة ، لا اقطاع تمليك »** (1) .

ومما لا يرقى إليه الشك أن الاقطاع العربي-الاسلامي يختلف في مظهره وطرقه عن نظيره الغربي ، فالقطيعة ، وجمعها قطائع تمنح في الفترة الاسلامية الاولى إلى كبار الأعيان بالمدن ، الذين يركنون إلى الدعة ، ويستثمرونها بطريقة غير مباشرة ، عن طريق الكراء والاجارة ، مقتصرين في ذلك على استخلاص الريع العقاري منها ، ولذا تحدث أحد الدارسين عن اقطاعية المدن (2) . ومعلوم أن هذه القطائع التي يمنحها الأمير اقطاع منفعة لا تمليك ، معفاة من الحقوق والواجبات التي عرفتها الاقطاعيات الأوروبية (3) .

وليس غرضنا في هذا المجال استعراض هذه الاشكالية الكبرى في التاريخ المقارن ، بقدر ما هو تتبع لتطوّر الاقطاع العربي – الاسلامي عامة ، والمغربي خاصة ابتداء من فترة الاجتياح البدوي ، مشرقا ومغربا .

مما لا شك فيه أن الانتشار البدوي بإفريقية والمغرب أدى إلى إعادة هيكلة النظام العقاري ، وإعادة توزيع أراضي الظهير المقطعة . ولنا بعض الاشارات في هذا الصدد ، فالحماديون قد صالحوا العرب على نصف غلة بلادهم ، قال المراكشي في هذا الصدد : **« صالحهم (المنصور بن المنتصر، صاحب بجاية) على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرها وغير ذلك ، فاقاموا على ذلك باقي أيامه وأيام ابنه الملقب بالعزيز وأيام يحيى إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن**

---

(1) يكون الاقطاع فيما ليس له مالك، مثل أرض الموات و "عاديّ الأرض" التي كان بها ساكن منذ قديم الزمان (عهد عاد) ، ثم انقرضوا ، فصار حكمها الى الدّولة أشهر : ابن سلام ، كتاب الأموال ، ص 281 . الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 194 . : محمد علي نصر الله ، **تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام** ، بيروت ، 1985 .

(2) انظر : C.Cahen, l'évolution de l'Iqta^c du XIIs, **Annales E.S.C.** 1959, n°.8, pp , 2- 26

Poliak, la fédalité, In **R.E.I.** 1936.

Galissot, **Sur le féodalisme**. op. cit.

حول إقطاع أرض القانون بالمغرب انظر :

M. Kably, **Pouvoir, Societé et réligion**, p.197.

(3) البرزلي ، ن.م.، ج II ، ص 1313.

، فازال ذلك من أيديهم وصيرهم جندا لهم ، وأقطع رؤساهم بعض تلك البلاد » (1) .

ولئن اقطع المرابطون قبائلهم ما فتحوه من أراض حتى انتهى بهم الأمر إلى فقدان نسبة كبيرة من أراضي الدولة ، فإن الموحدين كانوا أكثر حزما في توخي السياسة الاقطاعية ، وان كانت الصيغ الاقطاعية قد تعدّدت لديهم .

–إقطاع الجند : يتحصل الجند على رواتبهم في شكل ريع عقاري أو هبة مالية تعطى في المناسبات ، ويطلق عليها البركة والمواساة والإحسان . وإذا كانت البركة تخرج ثلاث مرات في السنة للموحدين ، فان الخليفة المنصور منحها مشاهرة للاغزاز، بحجة أن هؤلاء غرباء ، وأن الموحدين لهم اقطاعات عقارية . قال المراكشي : **« وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات في كل سنة ، في كل أربعة أشهر مرة ، وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل . وقال : الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشيء لهم في البلاد يرجعون إليه ، سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الاقطاع والأموال المتأصلة ...(2)** .

وقد تواصل توزيع هذه البركة (أو الجامكية حسب المصطلح المشرقي) على الجند في العهد الحفصي ، حسب الصّيغة التالية : تفرق أربع مرات في كل سنة ، في عيد الفطر وشهري رجب وربيع الأول وعيد الاضحى، وتعادل كل تفرقة أربعين دينارا مسماة أو ثلاثمائة درهم عتيقة . أما بركة أكابر الموحدين ، فإنها تمنح لهم في شكل إقطاعات : **« اراض مطلقة تحرث وتزرع لهم أو تحكر ويكون لهم عشر ما يطلع منها » (3)** .

وكان الجند يعمدون إلى كرائها للمزارعين بمعلوم نقدي يدفع زمن الصّيف ، أو يتولّون زراعتها مع شريك ثان. ولئن كان بيع الأجناد لقسطهم من الاقطاع أو الحبس الذي يعطى لهم كمرتّب ممكنا في مصر المماليك، فإنّ ذلك لم يكن معهودًا بافريقية حيث أعتبر الاقطاع استغلال منفعة لا تمليك فيه (4) .

وتختلف إقطاعات الجند حسب الرتبية الاجتماعية وموقع كل واحد في الهرم الاجتماعي الموحدي : من كبار الاشياخ إلى صغارهم ، فالوقّافين ثم عامة الجند : فنصيب كبار الاشياخ ، وهم على رأس الجند ، اقطاع مساحته مقدار حرث عشرة أزواج بقرًا ، وقد فسّر العمري ذلك بقوله : **« والزوج هو محراث أربع من**

---

(1) المراكشي ، **المعجب** ، ص 329 .

(2) المصدر نفسه ، ص 414 .

(3) العمري ، **المسالك** ، ص 95 . القلقشندي ، **صبح الأعشى** : ج IV، ص 438.

(4) البرزلي. **نوازل** ، ج II، ص 112ب ، المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، جII، ص 131. وفي ص 157 ، ذكر النازلة التالية "سئل أحمد بن القبّاب عمّا بأيدي الجند من الاراضي وعادة ما يقطعون الأرض التي لا يعلم لها مالك" .

البقر لأن الزوج بشعبتين ، والشعبة رأسان من البقر . قلت : وهذه الشعبة هي المسماة في بلد دمشق بالفدان ، فيكون جملة ما لكل واحد من أهل هذه الطبقة العالية في كل سنة 120 دينارا مسماة ، عنها 1200 درهم مغربية ، عنها من نقد مصر والشام 675 درهما ، وما يتحصل من مغل عشرين فدّانا لعله لا يكون باكثر من مثلها . فتكون بقدر جملة ما لهذا الرجل الكبير في الدولة في كل سنة 1310 دراهم ، وهذا بمنزلة أحد أمراء الالوف بمصر والشام ، والنوين أمير التومان بايران .قال : والاشياخ الصغار فلهم مع ذلك البركات لكل واحد محراث خمسة أزواج من البقر (1) .

إن الوحدة الزراعية المعتمدة بإفريقية الحفصية خاصّة وبلاد المغرب عامّة ليست الفدان مثل المشرق ، أو المرجع في أرض الجزاء وبقية الأراضي ذات المساحة المحدودة المحيطة بالمدن الكبرى، إنما اعتمدت هذه الضياع الشاسعة المخصصة لزراعة الحبوب، بمعنى لزراعة غير جاهدة، وحدة الزوج . وهي وحدة تقليدية في بلاد المغرب، تعني عادة ماشية للحرث، مكونة من زوج بقر، وهو ما يعادل تقريبا عشرة إلى اثنى عشر هكتارا، غير انها عنت عند العمري محرث أربعة من البقر، أي الضعف، باعتبار أن الشعبة رأسان من البقر ، والزوج شعبتان . ونتيجة لذلك فان كبار المشائخ يتحصلون على عشرين شعبة أو فدان ، أي نحو 240 هكتارا ، فيما يأخذ صغار المشائخ نصف ذلك المبلغ ، أي 120 هكتارا ، وهي مساحات شاسعة(2).

أما الوقافون ، وهم الوكلاء على الأراضي السلطانية ، وبقية الجند ، فإنهم يتحصلون عند الحصاد على عطاءات سلطانية في شكل غلة تفرق عليهم ، وهي المواساة ، ويمنحون سنويا مبلغا نقديا غير محدد ومتفاوت حسب رتبية كل منتفع ، وهو الاحسان ، وقد كان الشرفاء يتمتعون به ، قبل أن يرتبهم السلطان أبو اسحاق ابراهيم في زمام الموحدين (3) .

---

(1) العمري ، **المصدر نفسه** ،ص 238 .

(2) ورد في **نهاية الارب** للنويري (ج 24 ، ص 106) : « امر (صاحب الخراج) ان يجعل على كل زوج يحرث ثمانية دنانير ، اصاب أو لم يصب». انظر أيضا : هو بكنز، ن.م. ، ص 97 . حول مفهومي الفدان والزوج انظر : دوزي ، **معجم** . وقد أصبح زوج الحراثة يطلق على المساحات العقاريّ. ممّا ورد في المغيلي في هذا الشأن: "انعم السّلطان على جماعة من المرابطين بأزواج للحراثة ، وعليها عيون ماء، فأقتسموا الأزواج والعيون. وفي نازلة ثانية، ذكر " ذريّة رجل صالح حرّرهم السلطان عشرة أزواج من أرض المخزن بسبب صلاح أبيهم، ثم انّ الجماعة أقتسموا هذه الأرض الازواج " راجع : المغيلي، **الدرر المكنونة**، ج II ، ص 38ب، 39ب . وقد أخطأ برانشفيك (ن . م ، ج II، ص 158) في تقديراته لمساحة الأرض المقطعة ، وهي على التوالي 120 و 60 هكتارا.

(3) العمري، **المصدر نفسه**، ص 238 – 239 . القلقشندي، **صبح الاعشى**، ج V ، ص.141 ، ابن الشماع ، **الادلة**، 89 .

وثمة صنف من الجند ، من غير الموحدين ، استأثر باقطاعات شاسعة ، وهو صنف العلوج ، وبخاصة منهم قواد الجيش ، ونورد فيما يلي نموذجا من هذه الظهراوات :

« بسم الله الرحمن الرحيم – صلى الله على سيدنا محمد وعلى صحبه وآله وسلم تسليما – الحمد لله والشكر لله .

هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين أبو البقاء بن الأمير أبي زكريا بن الأمراء الراشدين أيدهم / الله بنصره وأمدهم بمعونته للقايد : بيرو فراندس سرغوابه ، اعلى الله مقامهم وشكر انعامهم / الموضع المعروف بابيانة من عمل رادس ، بفايدها وعايدها وحكرها وعشرها ، إحسانا إليه ،/ وانعاما عليه . فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليمض قصده ولا يتعرضه بحول الله وحده / وكتب في ثلاثين لجمدى الاخرى من عام تسعة وسبعماية . عرف بركته » (1) .

انّ المتتبّع لجذور إبيانة يلاحظ أنّها كانت زمن الفتح ملكًا للدّولة ، فقد أقطع العرب أنذاك بلاد مرناق لأحد القوّاد وقد كانت تعدّ نحو 360 قرية (2) .

وفي العهد الأغلبي مثلت هذه القرية مزرعة كبيرة وخصبة ، ممّا رغب الأمير ابراهيم الثاني في أقتنائها ،رغم رفض أهلها لذلك . فآستولى عليها عنوة ،وسلّمها الى عبيده الذين قاموا بتخريبها وبالاعتداء على بناتها ، ولم يجد آستنكار قاضي الجماعة لهذا التصرف الاقطاعي " نفعًا ، وكان جزاؤه العزل والتعذيب سنة 275 هـ/ 888م (3) وقد اشتهر من أعلامها أبو العبّاس أحمد الابياني المتوفّى سنة 352 هـ الذي يوجد ضريحه قرب برج الخلاّدي (4) .

وبعد فترة غموض ، طفحت ابيانة من جديد على سطح الاحداث في العهد الحفصي، لّما أقطعت الى أحد القواد العلوج .

وهو ما يجعلنا نتساءل عن الوضعية القانونيّة لهذه القرية التي وطأها الجند السّودان باقدامهم في العهد الأغلبي، ثم تملكّها العلوج، انّها ظلّت بدون شكّ طيلة الحقبة أرضًا مخزنيّة ولم يحصل في وضعيتها القانونية تطوّرٌ يذكر طيلة هذه الحقبة .

---

(1) وثيقة عثرنا عليها بارشيف الاراقون ببرشلونة .

(2) البكري ، **مسالك** ، ص 37 .

(3) أبو العرب، **طبقات** ، ص 228 . المالكي ، **رياض النفوس**، ج I ، ص 384 .ابن ناجي ، **معالم**، ج II ، ص173، 182 . القاضي عياض ، **مدارك** ، ج II، ص 325 . حـ حـ. عبد الوهاب ، **ورقات** ، ج III، ص344.

(4) راجع : أبي العباس الابياني، **مسائل السماسرة**، تحقيق العروسي المطوي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والشكر لله

إقطاع التسكين والتأليف للبدو : لقد حاول أمراء المغرب كسب ود القبائل العربية وتسكينهم ، فأقطعوهم الهناشير والعقارات ، وذلك منذ القرن السادس الهجري ، وقد سبق أن رأينا أن صاحب بجاية جعل للاعراب نصف الغلة من ثمار البلاد وحبوبها ، لكن قيام الدولة الموحدية وضع حدا لهذه الامتيازات الشاسعة ، وازال من أيديهم هذه الاقطاعات ، مقتصرا على إقطاع رؤسائهم بعض تلك البلاد(1).

أما اقطاع التأليف ، فهو يتمثل في حسن معاملة الأمراء والثوار المتغلب عليهم ، والذين جاؤوا خاضعين ، مثلما تم لأحد افراد بني غانية وهو أبو الحسن علي بن غانية ، على اثر حصار الموحدين للمهدية سنة 601 هـ / 1204م ، فقد قدم إليهم مستسلما ، **« فتلقوه أحسن لقاء ، ووصلوه من الصلات النفسية بما لا قيمة له ولا يصل بمثله الا الخلفاء . وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيى بن غانية ، سير بن اسحاق ، فأكرموا نزله *واقطعوه الأقطاع الواسعة* بعد أن ملئوا أموالا »** (2) . والأمثلة على ذلك كثيرة (3) .

ومما له مغزاه أن الامارات الحاكمة ببلاد المغرب ، من بني حفص وبني عبد الوادي وبني مرين ، قد اتّبعت خُطى الموحدين في اقطاع أولي العصبيات القوية ، في محاولة لكسبهم ، واتقاء شرهم . ولذا فان اشياخ القبائل في المرتبة الأولى ، والمرابطين ثانية قد انتفعوا بهذه القطائع التي منحها أمراء بني حفص لهم . ونذكر فيما يلي أهم الاقطاعات التي منحتها الدولة الحفصيّة لهؤلاء :

فاثناء حرب المستنصر للدواودة من بني رياح سنة 664 هـ / 1265م ، حاول التقرّب من بني توجين أجوارهم ، حتى يكونوا له عونا على محاربة القبيلة النابذة ، فأقطعهم ناحية مقرة (4) .

ولما سيطر الدواودة على المزاب والحضنة والزاب وجبل أوراس والتلول الشمالية ، لم يكن في وسع الدولة أن تتصدى لهم ، فتلافتهم بالاصطناع والاستمالة ، واعترفت بالأمر الواقع ، فاقطعتهم الأراضي التي استولوا عليها ، وخراج المدن التي كانت بحوزتهم مثل مقرة ونقاوس والمسيلة (5) .

---

(1) المراكشي ، **المعجب** ، ص 329 . عزالدين موسى ، **النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي** ، ص 145

(2) المراكشي ، **المصدر نفسه** ، ص 452 .

(3) محمود اسماعيل ، الاقطاع في العالم الاسلامي ، **حوليات كلية الاداب بالكويت** ، 1990 ، ص 46 .

(4) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 127 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 759–661 .

(5) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 73 – 74 .

وفي عهد الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، كانت أيّة اقطاعا لرياح ، لكن ابتداء من سنة 630 هـ ، تمكن بنو عوف بمساندة السلطان الحفصي أبي زكريا ، من الاستيلاء على الشمال الغربي، ودحر رياح إلى تلول قسنطينة وبجاية وبلاد الزاب .وممّا يذكر في هذا الصدد أن أبا زكريا الحفصي أثبتهم في ديوان العطاء ، لكنه لم يقطع لهم أي بلد (1) .

ولقد شرع المستنصر في اقطاع اشياخ القبائل والزوايا ، الموالين للسلطة المخزنية ، فمنح الهناشير اقطاعا لبعض المشائخ بجهة القيروان مثل أبي رحمة غيث الحكيمي وميمون بن كرفاح الوائلي ، كما اقطع أحد مشائخ الكعوب أربع قرى بناحية صفاقس والجريد والشمال (2) .

وفي سنة 676 هـ ، تمكن مرغم بن صابر من أخذ زنزور من البربر بموجب ظهير سلطاني ، كان التيجاني قد اطلع عليه بعد ثلاثين سنة .

غير أن سياسة الاقطاع للقبائل العربية لم تبدأ إلاّ في الحقبة الثانية من تاريخ الدولة الحفصية ، بعد استيلاء أبي اسحاق ابراهيم على الحكم (676 – 683 هـ / 1279 – 1284 م) وبداية فترة الاضطرابات ، ففي عهده ، استولى الأعراب على القرى والمنازل ، وهو ، بشهادة المؤرخين ، **«أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر »** (3) .

وازدادت السلطة الحفصية ضعفا على اثر حركة الدعي ابن أبي عمارة ، حتى أن الأمير أبا حفص عمر لم يستطع الوصول إلى الحكم الا بإعانة القبائل العربية ، ولذا لم يجد بدا من الخضوع لرغباتهم ، واقطاع بقية البلاد الشرّقيّة لهم. وبهذا فتح الباب على مصراعيه لسياسة إقطاعية ، عجز عن كبح جماحها بقية السلاطين، بما فيهم أبو الحسن المريني . قال ابن خلدون في هذا الصدد : **«واقطع البلاد والمغارم للعرب رعيا لذمة قيامهم بأمره ، ولم يكن قبلها إقطاع ، وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ، ولا يفتحون فيه على أنفسهم بابا »** (4) .

إنّ هذه الوضعية تفسّر أن السلطة المخزنية لم تعد تتحكم في توزيع الأراضي وملكيتها ، وخاصة في المناطق الطرفية ، حتى اكتسى الظهير الذي تصدره في كثير من الأحيان صبغة شكلية ، الغاية منه الاعتراف بالأمر الواقع ومحاولة كسب

(1) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 144 – 146 . انظر حول الاقطاع في المغرب :
G.Marçais, les **Arabes en Berbérie**..pp.245-253,727-728.
(2) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ص 149 . ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 37، 105 .
(3) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 139 ، الزركشي ، **تاريخ** ، ص 43 . التجاني ، **رحلة** ، ص 217 .
(4) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 696 .

القبائل التي استولت على الأرض وجعلها إلى صفها . ولنا عدة أمثلة على ذلك :

فقد تلافت الدولة أمر الدواودة بالاصطناع والاستمالة ، واقطعتهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب ، ومدن الحضنة ، وهي نقاوس ومقرة والمسيلة ، وكاد أن يصبح هذا الاقطاع وراثيا ، حتى أن سباع بن شبل بن يحيى اختص بإقطاع المسيلة ، الذي ظل قائما بعد ورثة لأبنائه ، واختص أولاد أحمد ، من الدواودة بنواحي قسنطينة (1) .

كما **« تملكت زغبة سائر البلاد بالاقطاع عن السلطان ، طوعا وكرها ، رعيا لخدمته»** . فقد اقطع السلطان أبو اسحاق ابراهيم شيخ بني عامر ، من زغبة ، وطنا من بلاد حمزة يسمى الكدارة ، غرب بجاية ، مكافأة له على خدماته ، وحتى يكون جدار الصد الأول قبالة زناتة بني عبد الواد ، ولهذا الغرض نفسه ، اقطعت الدولة كثيرا من الأوطان لفرع آخر من زغبة ، وهو بنو يزيد ، فاستصفت معظم أرض حمزة من وطن بجاية ، المحاذية لقبائل غير مخزنية مثل رياح والاثابج ، فضلا عن استظهار الدولة بهم على جباية تلك البلاد ، ولذا لا يستغرب أن تكون هذه القبيلة أول من اقطعت الاراضي من بين بقية القبائل العربية (2) .

وإذا كان ابن اللحياني قد اتبع سياسة « عربية » ، ففرق الأموال على علاق ودباب سنة 718 هـ / 1318م ، وأقطعهم الأراضي ، وقرب إليه قبيلة أولاد بالليل من الكعوب واقطع بعض المواضع من طرابلس للعرب ، فإن خليفته أبا يحيى أبا بكر الذي استولى على السلطة انطلاقا من البلاد الغربية ، بالاعتماد على زناتة ، قد حاول الحد من نفوذ الاعراب ، بل إنه أخضعهم للجباية ، ولم يقطع الا بعض الفئات الحضرية مثل الشرفاء وذوي الحاجات من أهل قفصة الذين أحسن لهم بالاسهام والاقطاع وتجديد ما بأيديهم من الظهروات (3) .

ولم يتمكن السلطان المريني فيما بعد من ازالة هذه الاقطاعات ، بعد أن مضى عليها نحو قرن من الزمن ، إذ لما حاول ذلك ، تألّبت عليه القبائل العربية من حكيم وكعب ، وهزمته في موقعة القيروان سنة 749 هـ، وكانت سببا في انهيار عرشه (4) .

(1) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 74 – 75 ، ص 663 .
(2) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 87 ، 101 ، 107 .
(3) التجاني ، **رحلة** ، ص 237 ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 754 ، 786 ، 790 . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 89 ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 144 .
(4) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 155 – 156 ، 816 . ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 16 ، الزركشي ، **تاريخ** ، ص 83 . ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 147 . راجع أيضا فصل : الانتشار القبلي (بنو علاق) .

وابتداء من تلك الحقبة ، « **انبسطت ايدي العرب على الضاحية ، واقطعتهم الدولة حتى الامصار وألقاب الجباية ومختص الملك ، وانتفضت الأرض من أطرافها ووسطها ، وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية ، وقاسموهم في جبايات الامصار بالاقطاع ريفا وصحراء وتلولا وجريدا** » (1) . فعلى سبيل المثال أضحت مدينة سوسة اقطاعا رسميا لبني مسكين ، من حكيم ، ابتداء من ذلك التاريخ (2) .

وقد اتبع الأمير الحفصي الفضل سياسة مرنة مع الاعراب ، فاقطع الأراضي ومنح الجوائز عند دخوله مدينة قسنطينة سنة 751 هـ/ 1350 م (3) .

على أن أخاه أبا اسحاق ابراهيم الذي حكم بعده (751 – 770 هـ) حاول العودة إلى سياسة الحزم ، فاستخلص قواعد البلاد من أيدي العرب وهي بلاد قرطاجنة والقيروان وسوسة وباجة وتبرسق والاربس ، وانتزع منهم المجابي واستبد بها ، وشرع في بناء السور الذي يحيط بأرباض تونس ، وحبس عليه نصف خراج الأرض ونصف كراء المعاصر .

غير أن هذه السياسة لم تؤت أكلها ، خاصة في البلاد الغربية التي حافظت فيها القبائل العربية على الاقطاعات : فبعد أن استرهن السلطان المريني أبو عنان أبناء الدواودة ، « **أوسعهم حباء واقطاعا ، وأنفذ لهم الصكوك والسجلات** » (4) . أما بنو حمزة من الكعوب ، فقد استطالت أيديهم على البلاد بعد هزيمة أبي الحسن المريني ، « **وتقاسموها أوزاعا ، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمين في جبايتها ، زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصارها ، استئلافا لهم على المظاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور الغربية** (5) . وقد كانت قبيلة مرنجيسة في عداد اقطاعات هذه القبيلة العربية ، أولاد حمزة (6) .

وتابع السلطان أبو العباس أحمد (772 – 796 هـ) سياسة كبح أعنّة الاعراب عن الغلب على الاوطان ، وانتزع ما في ايديهم من « **الامصار والعمالات**

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 156 .
(2) المصدر نفسه ، ج VI ، ص 162 – 165 ، 871 . الغبريني، **عنوان الدراية** ، ص 101 .
وجاء موقف الفقهاء متناسقًا مع موقف السّلطة ، كما ورد في فتوى لابن عرفة الذي اجاز ما ياخذه اعراب إفريقية من بلاد الظهائر إذا كانوا خدمة (قبائل مخزنية وغارمة) ومنعه إذا كانوا من المخالفين . انظر : الونشريسي، **المعيار** ، ج I ، ص 378 .
(3) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 822 .
(4) ابن خلدون، **تاريخ** ، ج VI ، ص 834 .
(5) نفسه، ج VI ، ص 869 .
(6) نفسه، ج VI، ص 878 .

التي كانت من قبل **خالصة للسلطان** » ، وهو ما فل في عضد قبائل كعب وحكيم ، وأهمها ، مما جعلها تستعين بالدواودة لمحاربة السلطان ، (1) .

وفي الجملة ، مثّل الاقطاع وسيلة ناجعة لتحكّم السّلطان في القبائل واحتوائها . فعبارة " توبة الأعراب" تعتبر بداية اندماج القبيلة ، واستقرارها ، وهو ما يعني بدوره حاجتها الى الأرض لزراعتها . ويأتي اقطاع السّلطان مناسبًا لهذا السّياق .

وبالتالي ، يتّضح ان الاقطاع مرتبط بحاجة المزارعين الجدد الى الأرض ، تقابلها غاية مزدوجة للسّلطان : تسكين هذه القبائل والتشجيع على زراعة الأرض وتعميرها .

وتخفي هذه العمليّة إشكالين أساسيين :

– أولهما ثنائية اقطاع التمليك والامتاع (أو الانتفاع) ، ذلك انّ الأساس في اعطاء السلطان الأرض للجند والقبائل هو "اعطاء امتاع" وكان هؤلاء المنتفعون يقومون بجبايتها ، ولذا سمّي كذلك " اقطاع جباية " (2) .

وقد ذكر المغيلي في هذا الصّدد النازلة التالية :

« **سئل حمو الشريف عن أرض المخزن يقطعها السّلطان لبعض أجناده إمتاعًا . فيأتي قوم ويغرسون فيها ويقطعون على الجنان وضيفًا يسمّى بنصف الاثمن والعادة جارية أنّ السّلطان يحبّ من يعمّر بالغراسة ولا ينكر ذلك من يفعله** " (3) .

ولكن كثيرًا ما يتطوّر هذا الاقطاع ويتحوّل الى إقطاع تمليك ، نتيجة طول المدّة ، أو برغبة السّلطان نفسه ، حسبما ورد في نازلة : " **يقطع السلطان الأراضي الخراجيّة التي كان ينتفع بها المزارعون الى شيوخ العرب ويقومون بتمليكها لهم** " (4) .

وفي حالات أخرى ، كان المنتفع بأرض الجزاء (أو أرض القانون في المغربين الأوسط والأقصى) لا يمكن أن يتصرف فيها ببيع ولا شراء إلاّ دفع غرامة معلومة (5) .

(1) نفسه، ج VI ، ص 869 .
(2) المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II ، ص 41 ب ، 55 ب .
(3) نفسه ، ص 155 .
(4) نفسه ، ص 146 . Kably, **Pouvoir, Societé**, op. cit.
(5) المغيلي ، نفسه ، ص 155 . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 162 . الداودي ، **كتاب الأموال** . البرزلي ، ن.م ، ج II ، ص 261 ب .

– وثانيهما ، وهو مرتبط بالأوّل ، نوعيّة الأرض المقطعة واختلاف المشرّعين في ذلك : فمنهم من أجاز للسّلطان أن يقطع في البور والمعمور من الأرض ، سواء كان المعمور عنوة أم لا ، ومنهم من منع الاقطاع في معمور الأرض، مثلما أشار الى ذلك ابن رشد .

ويبدو أنّ الحاجة الى تعمير الأرض القريبة من المدن هي التي تفسّر التبريرات التي التجأ اليها المشرعون في أواخر العصر الوسيط لجواز إقطاع الأراضي المحيطة بالمدن . فالبرزلي على سبيل المثال أقطعهُ السّلطان أرضًا وسط صبرة المنصوريّة الخالية القريبة من القيروان، وقد فضّل تحبيسها على بعض الرّباطات لصعوبة استغلالها .

وبرّر ابن عرفة تصرّف الدّولة الحفصيّة في اقطاع المناطق القريبة من العمران بكون التحديد الذي ذكره ابن رشد خاصًا باقطاع التّمليك، أمّا إقطاع الانتفاع فهو جائز في بقيّة الأراضي القريبة من العمران (1) .

ويأتي هذا الموقف التبريري للسّياسة الاقتصادية المتّبعة من قبل الدّولة برهانا آخر على مدى مواكبه الفقه للظرفيّة التّاريخيّة .

– *الإقطاعات الممنوحة للعلماء والصّلحاء والشّرفاء* :

قلنا إنّ حاجة الطّرفين – السّلطة والمزارعين – الى تعمير الأرض تفسّر تفريط الأوّل في العقارات والأجنّة القريبة من الحزام الحضري ، فالحفصيون منحوا الأراضي القريبة من مدينة تونس، بل والأجنّة المزوّدة بأبراج، اقطاعات لموظّفي الدّولة .وقد أصبحت في بعض الحالات مسرحًا لنزاع بين المنتفع القديم والجديد، مثلما وقع بين ابن الحباب الفقيه وابن يعقوب القائد في النصف الأوّل من القرن الثامن هـ / XIV م(2) .

وكان العلماء قد تعوّدوا على الانتفاع بريع الأرض في العهد الموحّدي فقد كان أحد علماء بجاية هلال بن يونس الغبريني يعيش من مستغلاّت أرض محرّرة بظهائر من قبل الخليفة عبد المؤمن بن علي (3) .

كما استفاد الصّلحاء من الاقطاعات السّلطانية في العهد الحفصي . ومن الأمثلة على ذلك ، نذكر :

كان أبو رحمة غيث الحكيمي المتوفّى سنة 685 هـ . من فرسان حكيم ، ثمّ تخلّى عن السّيف لصالح التعبّد، فأصبح أحد فقراء أبي الزّين محمّد بن غيث

---

(1) ابن عرفة، **نفس الاحالة** .البرزلي ، ن.م.ج II ، ص 261 .
(2) البرزلي ، ن.م.، 4851، جII ، ص 1187.
(3) الغبريني ، **عنوان الدّراية** ، ص 169 .

الحكيمي ، وتمكّن بفعل ظهير سلطاني من الحصول على هناشير كبيرة، وتوارث أبناؤه هذا الاقطاع واستغلّوه عن طريق الكراء أو أخذ الرّيع العقاري في شكل ضريبة الحكر أو العشر بالنّسبة الى الضّعفاء " من العمّال الزّراعيين. وبقيت هذه الأراضي بيد أحفاده بعد قرنين من الزّمن أي خلال القرن التّاسع، واذا ما اعتبرنا انّه « **خلّف لذريّته من الرّبع بظهير السّلاطين من الأرض والهناشير للحرث ما لا يقدرون على تعميره بالحرث فجرت العادة أن يحرث النّاس معهم ويأخذوا (كذا) الحكر منهم ويختصّ الفقير منهم بالعشر في زماننا اليوم وذريّته اليوم من الرّجال البالغين نحو العشرين** " ، فانّ مساحة هذه الهناشير قد بلغت آلاف الهكتارات (1) .

أمّا أبو عبد الله محمّد بن شبل (النّصف الأوّل من القرن الثّامن) فقد كان عمّه من شيوخ رياح النّازلين على بلد الحضرميين في الجنوب الغربي من القيروان ، وكانت لهم " **بلاد وهناشير يأخذون أحكارها وأعشارها بأمر السّلطان** " ورغم ذلك فانّ هذا الصّالح كان يباشر العمل الفلاحي بنفسه وحرث بثوره الذي يودعه زمن الجفاف عند الشّاوية بافريقيّة (أي منطقة الشّمال التّونسي) ، كما انّه لم يكن من صنف الصّلحاء المسالمين الذين يتحدّث عنهم " قلنار" اذ كان يعتبر" سيف" عمّه يذبّ عنه في الأوقات الحرجة (2) .

ويخصّ المثال الثّالث من الاقطاعات السّلطانية ميمون بن كرفاح الوائلي، وهو ايضا من فرسان عرب بني وائل من حكيم إذ كان يغزو البلاد بمائة فارس فيغير على بلاد الحشّان بالجريد ويفرض عليهم الاتاوات مثل حقّ الضّيافة وغيرها، كما تصدّى ببسالة للصّليبيين بقرطاجنّة سنة 668 هـ. حتّى أبهر المستنصر بالله الحفصي بشجاعته، وهو ما يفسّر اقطاعة الهناشير الشّاسعة ، وقد قال ابن ناجي في هذا الصّدد : « **لمّا تاب كبر حاله ، وكان يملك بلادا وهناشر حول القيروان بالظّهير منه للعوسج وواد الملح وبحيرة شعبة وخشم الكلب وذراع التمّار وذراع الاسريف والقرجانيّة من عماله سوسة** » . وقد حاولنا تتبّع حدود هذا الهنشير في الخريطة الطوبوغرافية ، من خلال المواقع المحافظة على نفس الاسم مثل ذراع التمّار وواد الملح والقرجانيّة . وتبيّن لنا أنّها مجالات شاسعة محيطة بمدينة القيروان .

---

(1) ابن ناجي، **معالم**، ج VI ،ص 37–38. راجع نصّ الاقطاع في الفصل الخاص بوطن القيروان.
(2) نفسه، ج IV ، ص 117 .

عمل مدينة تونس على العهد الحفصي

مخبر رسم الخرائط - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - تونس

وواصل أحفاد الوائلي استغلال هذه الأراضي خلال القرن التّاسع ، مع شيء من التطوّر إذ وهب ربعـها لأحد المرابطين مـن بني حكيم الذي اشتـرى في مرحلة ثانية ربعًا آخر من بعض حفدة الشّيخ ميمون .(1) .

وخلاصة القول فـإنّ اقطاع هذه الأراضي قد ساعد على استقـرار المجموعات البدويّة وتحـوّلها تدريجيًـا من الغزو وقطع الطّرق الى الاشـتغال بالزّراعـة. وقد منحت هذه الاقطاعات بطريقة أشبه مـا تكون وراثيّة للحكيمي وابن شبل والوائلي وغيرهم ولأحـفادهم فيمـا بعد ، لا بصفتـهم صلحاء فحسب، وانّمـا خاصّة لانّهم يمتلكون الرّئاسـة في بني حكـيم وبني رياح وبني وائل ، ولهم نفـوذ فـعلي على المجمـوعات البدويّة التي بدأت في الاستـقرار في ربض أولاد غيث الحكيـمي حول القيروان أو في بلد الحضرمين في الجنوب الغربي، من مدينة عقبة.

(1) نفسه، ج IV ، ص 105.

3) الملكية الخاصة :

أطلقت على الملكية الخاصة عدّة تسميات قانونية ، فهي " الملك التام " وكمال التصرف " و الأرض الحرّة التي يمكن التصرف فيها وبيعها بحرية ، والأرض المملوكة باتفاق بخلاف أرض الحوز ، وأرض الصلح إشارة إلى كيفية الفتح وانعكاسه على كيفية جبايتها ، وأرض العشور لأنها لا تدفع إلاّ الزكاة ، على الأقل نظريا (1).

وتتموضع الملكية الخاصة حول المدن الكبرى ، ذلك أن الأراضي المحيطة بمدينة تونس ليست كلها عنوية ، وإذا كانت المعلّقة بقرطاجنة قد اعتبرت أرضا عنوية ، فإن بقية أراضي قرطاجنة وأرض الحريرية ، وهي الضاحية الغربية لمدينة تونس ، قد اعتبرتا صلحية (2).

أما الأراضي المهملة الواقعة قرب المدن المندثرة ، مثل صبرة المنصورية فهي في عداد أرض الفيء لأنها كانت ملكا للأمير الزيري ، وأضحت في العهد الحفصي ملكا للسلطان ، الذي أقطعها لبعض العلماء ، وكان من بينهم البرزلي ، وقد تولّى بدوره تحبيسها على رباطات القيروان . غير أن بقية أراضي القيروان تبدو على غير ذلك ، إذ عدّها المغيلي من صنف الأرض المختلطة ، التي تملك وتباع وتشترى (3).

وفي بلاد الساحل ، كان الوضع متشابها ، حيث كثرت الزياتين المهملة ، واضطربت مسألة الحوز والملكية ، فمنذ النصف الثاني من القرن الخامس هـ/ XI م ، صرح اللخمي (ت 478 هـ) بأن زيتون الساحل الكائن بوطن صفاقس والمهدية لا ملك لأحد عليه ، بل هو جال ، وقد غلب عليه الأعراب في الأعم، وقد كان هذا المجال الممتد على طول مسيرة ثلاثة أيام وعرض يوم مكونا من ضيعات شاسعة، مثل ضيعة سحنون بموضع بني خلاف وزياتين عبد الرحيم الرّبعي الخ ... غير أنها أضحت مهملة مدة طويلة وخاصة طيلة النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الأول من السادس ، وبعد فترة إحياء طيلة القرن السابع ، عرف القرن الثامن تراجعا في هذا الصدد ، حتى أنه وقع الحديث وقتذاك عن الزياتين المهملة بالساحل ، والغابة المنبتّة ، بمعنى المتفرقة ، هل تدفع الزكاة أم

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج II ، ص 1274. البرزلي، **نوازل** ، جII ، ص 1116.
وقد قال ابن عرفة في هذا الصدد : « **وخراج أرض الصلح لا يحل دفعه ، إنما مثل المظالم الموظفة على الأرض مثل ابتياع الثياب في بلد يلزم المبتاع المكس في كل ما يبتاع منه ، فلا يمنع ذلك صحّة التبايع فيها** » .
(2) البرزلي، **نفسه**، ج II ، ص 1118.
(3) المصدر **نفسه** ، ج II ، ص 261 ب ، المغيلي، **الدرر المكنونة**، جII، ص 56 ب .

لا . واختلفت أجوبة ابن عرفة عن هذا السؤال ، فقال تارة إنّه كزيتون الشعراء لا يدفع الجباية ، وأخرى اشترط أن تكون ملكية واحدة وأن يبلغ الإنتاج النصاب ، وقال ثالثة إنه يدفعها على المحصول المستخرج منه (1) .

وكان أحد مشائخ القيروان يتحرّى في استعمال هذا الزيت بسبب الخلاف المتعلّق بفتح إفريقية ، أكان عنوة أم صلحا . ومهما يكن من أمر فإن مسألة إحيائها واستصلاحها كانت مطروحة في القرن الثامن هـ / XIV م ، حتى ولو كان أصلها مملوكا ، لما تمثله من نسبة كبيرة من الأراضي المهملة . فقد شجع ابن عبد السلام (ت 749 هـ) حركة تعمير أراضي الساحل ، من قبل معمرين جدد ، بعد أن خلا البلد وخرج عنه أهله ، ومعلوم أن هذا الوضع ازداد استفحالا بعد حدوث الطاعون الجارف سنة 749 هـ / 1350 م (2) .

وتطور هذا الأمر عهد أبي فارس عبد العزيز ، الذي حاول بسط نفوذ الدولة من جديد على الضيعات الكبيرة المهملة ، أو التي كانت بحوزة الأعراب ، مثل ضيعة سحنون وعبد الرحيم الزاهد ، وأعاد استغلالها وإحياءها ، حتى بلغ الريع المستخرج منها ألوفا شتى في مطلع القرن التاسع ، فيما كان ابن عرفة من قبل يشتكي من عدم دفع أغلب الناس لزكاة الزيتون ، وينصح الولاة بتقديم أمناء المعاش لاستخراجها . ويبدو أن هذه الضّيعات الكبيرة قد انتقلت من وضع الإهمال إلى ملكية الدولة التي بسطت يديها عليها ، مستغلة إياها عن طريق الإقطاع والكراء وغيرهما . فانتعشت غابة الزيتون ، وذلك بشهادة ابن ناجي الذي مر بها ، منتقلا من القيروان إلى قابس، واستحسنها ، إذ قال : « **فرأيتُ عجبًا من حسن أشجاره ، كأن صاحبه – يعني سحنون – حاضر له** » (3) .

وفي الجملة فإن الملكية الخاصة في المثلث الأكثر تعميرا في العهد الحفصي : القيروان – الساحل – تونس ، لم تكن دائما واضحة المعالم ، كما أنّها ليست أكثر أهمية من ملكية الدولة ، وثمة مجال يقع فيه التداخل بين الطرفين ، بين الملك التام وأرض الحوز ، وهو ما يفسر طرح إشكالية أرض الحوز – أرض الملك بالحاح في تلك الفترة .

(1) البرزلي، **ن.م.** ج I ، ص 140 ب . ابن ناجي، **شرح** ، ج II ص 91 ب .
(2) البرزلي، **المصدر نفسه**، ج II ،ص 1118 ، ابن ناجي، **شرح** ، ج II ، ص 91 ب . ابو العرب، **طبقات**، ص131–132 .
(3) ابن ناجي ، **نفس المصدر والصحيفة** .

أ) ثنائية الحوز والملك :

إن نقطة الإنطلاق في هذا الموضوع هي الموقف النظري للعلماء ، والتشريع السائد الذي يرجح الكفة لصالح ملكية الدولة . ولعل أحسن تعبير عن هذا الموقف الموالي للسلطة الحفصية في فترة الإصلاح في مطلع القرن التاسع الهجري ما كتبه فقيه القيروان المناصر لهذا المسار ، إذ قال عن أراضي مدينة تونس وناحيتها : **« في أن أراضي تونس في كتاب الزكاة أرض ظهير لا ملك في رقبتها» وفي قولة ثانية عمم هذا الحكم على بقية البلاد : « إن أراضي قرى إفريقية الغالب عليها عدم الملك »** (1) . فما هي إذن الغاية من هذا القول؟

لقد حرصت السلطة المخزنية على بسط نفوذها الإقتصادي والسياسي على كامل البلاد ، وبالخصوص القسم الحضري منها ، أثناء فترات قوّتها . وكانت ملكية الأرض الرهان الأساسي الذي أعتمدته ، لتحقيق أهداف منها :

– تنظيم عملية استغلال الأرض ، والإشراف عليها ، بتوزيعها وإقطاعها إقطاع منفعة للقوى الإجتماعية المساندة للدولة ، أو ذات الوزن الإجتماعي والسياسي ، مع إمكانية إبطال مفعول الظهير .

– السعي إلى توسيع المجال المزروع، على حساب المجال الرعوي للبدو، وما يعني ذلك من نشوب نزاعات مع البدو الذين انحسر مجالهم، أو انتزعت منهم أراضيهم .

– ازدياد المغارم والوظائف التي تؤخذ على الأرض، مقابل استغلالها، وهو مؤشر لنفوذ المخزن وقوته .

وبالتالي فإن سياسة الدولة الإقتصادية كانت ترمي إلى بسط نفوذها على المجال الزراعي المحيط بالمدن ، ودحر البدو عنه ، أو محاولة انتزاعه منهم ، لإقطاعه لأصحاب الجاه وتحبيسه على المؤسسات والأشخاص ، ولعل هذا المد والجزر بين تعمير الأرض والبداوة هما حجر الزاوية للصراع الإجتماعي الذي شهدته إفريقية خاصة وبلاد المغرب عامة ، طيلة الفترة الأخيرة من العصر الوسيط .

صحيح إن مسألة الأرض لم تكن تطرح بقوة خلال تلك الفترة ، خاصة أثناء أنتشار المجاعات والأوبئة ، وما ينتج عنها من أنهيار سكاني ، وتراجع المساحات المزروعة، حتى أن جهات عدة كانت تشكو قلة المزارعين . ذكر الحسن الوزان في هذا الخصوص : **« أن بادية باجة شاسعة الأطراف ، وافرة الإنتاج ، إلاّ أنّ عدد**

(1) البرزلي، **المصدر نفسه**، ج I ،ص 20، ص 1118. يبدو هذا الموقف مختلفا عمّا جاء في حديث نبوي «من حاز شيئا عشر سنين فهو له (ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص 163 ب) .

الناس فيها لا يكفي لزرع الحقول ، فيعمدون إلى الأعراب لزرع جزء كبير منها ، ومع ذلك تبقى أراض كثيرة بورا » (1) . لكن هذا لم يمنع من وقوع احتكاك على طول خط التماس الفاصل بين المجال الحضري والمجال القبلي الذي كان في حاجة إلى الأرض زراعة ورعيًا ، بخلاف الأول الذي كان يبحث في الغالب عن الريع العقاري . وكلّما تمكّنت الدولة من توسيع ملكيتها ، ومراقبة العملية العقارية والتحكّم فيها ، في المدن الكبرى على الأقل ، ازداد اختناق القبائل البدوية وتفقيرها ، وتحوّلت تدريجيًا من النمط الرحلي إلى الإستقرار والعمل الزراعي، حسبما أكّد ذلك ابن خلدون في أكثر من مرّة ، من أنّ أهل العزّ هم الضاعنون في الترحال ، وأهل الذلّ هم المشتغلون بالفلح (2) .

وفي الجملة فإن احتكار الدولة للملكية العقارية ، مهما كانت مستنداتها التشريعية ، مكّنها من التحكم في مختلف القوى الاجتماعية بالمدينة والبادية ، ومن توزيع الأرض ومنحها حسب مقتضيات مصلحتها ، لكن بقية الفئات الإجتماعية لم تكن تنظر إلى المسألة بنفس الكيفية ، ولم تكن تكتفي بالحوز ، دون التملك التام .

لقد عبرت أراء الفقهاء في الغالب عن التوجّه العام لسياسة المخزن الإقتصادية، وحاولت تبريرها. وفي هذا المضمار ، كان القاضي ابن عبد السلام الهواري يدافع عن أحقية السلطان في انتزاع أرض الحوز المقطعة ، من واحد وإعطائها لآخر ، وعن عدم إمكانية أنتقال أرض الحوز إلى الملك ، ولو مرّ على أستغلالها مدة طويلة ، تصل إلى ستين سنة . ومعلوم أن ابن عبد السلام ، ككثير من القضاة ، عرف بليونة مواقفه، وهو الذي جاء على لسانه عند تعيينه قاضيا للجماعة : **« أنا أعرف العوائد وأمشّيها »** (3) .

(1) الحسن الوزان ، **وصف إفريقيا** ، ج II ، ص 66 . إنّ قولة البرزلي تعني عدم اعتراف للقبائل بملكيّة الأرض ، وحريّة الدولة في التّصرف فيها ، و قد نزعت الدولة إلى تطبيق هذه القولة كلّما تمكّنت من ذلك ، فبعد أحباس سيدي مهذب اقطع الأتراك أحباس عزيزة عثمانة بالسّاحل ، ثمّ في عهد أحمد باي ، أراضي النفيضة حيث أولا سعيد . وقد اعتبر الإستعمار الفرنسي بدوره أراضي القبائل " شكلا من أشكال الأراضي الخراجية " ، أي أنها ملك للدولة . فابقى لها حقّ التصرّف الوقتي ، وربطه بشروط مجحفة منها موافقة أفراد القبيلة والقيام بإحياء الأرض ووجود رسم عقاري ، وهو ما مكّنه من احتواء عدّة عقارات .

(2) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 207–703 (فصل في ان الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو)، **تاريخ** ، ج VI ، ص 175 – 176 .

(3) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 71 .

غير أنه بمرور الزمن ، بدأ هذا الموقف الذي عبّر عنه ابن عبد السلام يفتقر إلى النجاعة والواقعية ، ذلك أن المنتفعين بالظهير السلطاني ، من مشائخ وأعيان وقواد وغيرهم توارثوا استخلاص الريع العقاري للأرض ، التي لا يستغلونها في الغالب مباشرة ، وإنّما كانوا يعمدون إلى كرائها إلى المزارعين ، الذين تداولوا بدورهم على استغلالها جيلاً بعد آخر ، فعمّروا الأرض بالبقول والسواني ، وبنوا المنازل ، حتى بات من الصعب اقتلاعهم من أماكنهم ، وتعويضهم بآخرين ، كما أصبح من العسير على السلطان سحب الظهير من المنتفع به ، ومنحه لآخر (1) .

من هنا نفهم إمكانية الانزياح التدريجي من الحوز إلى الملكية التامة ، وتطور الهياكل العقارية نحو تقسيم الملكيات الكبرى وتمليكها ، عن طريق الهبة والبيع والوراثة والغصب . وقد بلغ الأمر حدّ إقرار السلطة المخزنية لهذه العملية ، وتفضيلها أحيانا التفريط في الأرض المخزنية بالبيع ، على كرائها وتكبيلها بالضرائب والوظائف . وقد أوكلت مهمة التصرف في ملكية المخزن بيعا وشراء إلى الناظر في اشغال المخزن ، الذي يتولّى القيام بالبيع ، دونما مراعاة للنزاعات التي قد تنشب بين المستغل القديم للأرض والمشتري الجديد لها (2) .

ومرة أخرى عكس موقف الفقهاء هذا التطور العقاري ، فالبرزلي مثلا أجاز انتقال الحوز إلى الملك إذا كان العقار لا يعلم أصله ، إذا ما تولّت عائلة واحدة استغلاله ، بصفة مسترسلة مدة طويلة من الزمن . أو إذا ما تم بيعه وتحرير عقود الأشرية فيه ، وإن كان قد أقرّ في موقع آخر من تآليفه أن الوثائق توجب الحوز ، لا الملك ، جوابا على نزاع حول أرض تقع بجزيرة قرقنة (3) .

وفعلا فقد فرق الفقهاء بين الوثيقة والرسم ، فالأولى هي العقد الأصلي للملكية ، بخلاف الرسم الذي يتجدد باستمرار كلما تجدد المالك للعقار ، باعتباره مجرد عقد لانتقال الملكية . وبالتالي ، فإن الملكية لا تثبت بمجرد الإستظهار برسوم الأشرية ، التي تقتصر على إقرار الحوز ، ورفع النزاع بين المتبايعين ، دونما البت في ادعاء خصم آخر .

ونظرا إلى هذا الإشكال الحاصل في تملك الأرض وانتقالها ، فقد اشترط قضاة الحفصيين على المشتري أن يطالب البائع بالنسخة الأصلية ، أو وثيقة العقار ، زيادة على رسم الشراء . وهو أمر ليس متيسرًا في الغالب ، لغياب تخزين الوثائق بطريقة متواصلة ، وسرعة تلاشيها ، بمجرد موت العدول ، أو

(1) البرزلي ، **نوازل** ، ج II ، ص 1118.

(2) **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 215 ب .

(3) **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 1118. 1290. 1261. 309 ب .

انقراض العائلة المتملكة للوثيقة . مما ياتي حجة على كثرة النزاعات الناجمة عن انتقال الملكية ، خاصة إذا عرفنا أنّ وثائق المخزن نفسها كانت تشكو من الإهمال وقلة التنظيم ، حتى أنّ الناظر في أشغال المخزن يتولى بيع العقار ، ثم يخلفه آخر ، ويعيد بيعه ثانية بعد عشرين سنة من التاريخ الأول (1) .

وإذا كانت صناعة التوثيق متطورة في الحضارة العربية الإسلامية عامة ، وإفريقية على وجه الخصوص ، فإن سرعة إتلاف الوثائق والرسوم مردّها طبيعة السكن المتميز بهشاشة مواد البناء ، وسرعة زوال المنزل ، وكذلك الحركية الاجتماعية والأزمات والآفات الطبيعية التي غالبا ما تؤدي إلى انقراض عائلات عديدة ، كما تضيع وثائق الأشرية عند الإيداع والارتهان ، وقد طرحت هذه المسائل مرّات كثيرة في تلك الحقبة ، فقد سئل ابن عرفة عمن أودع وثائق أشرية ، فضاعت ، وذكر البرزلي أن أحدهم ارتهن أصل رسم عند آخر ، فضاع (2) .

ومن جهة أخرى ، لم تكن الوثيقة نفسها كافية للإقرار بصحتها ، لما تتعرض له من تزييف وتحريف ، حتى أن بعض قضاة القرن الثامن هـ/ XIV م كانوا يستريبون في قبول الوثيقة ، إذا كانت مقطوعة الحاشية أو الأسفل ، ويرفضونها إذا كان ينقصها الشهود والعدول ، باعتبار الشهادة ركنا أساسيًا في العقد . ويشترطون الشهادة على الخط ، بعد وفاة صاحبه ، وهو أمر ليس بالهين ، وقد تواصل طرح هذه المسألة في كتب الفقهاء (3) .

ونورد هذا الخبر ، تبيينا لطرق الغش المعتمدة في الوثائق ، في ذلك العصر : قدم رجل على أحد قضاة القرن الثامن ، وسلّم له وثيقة فيها شهادة القاضي المذكور ، الذي تحير من أمره ، لما علم أن الخط كان خطه ، لكنه لم يذكر أنه شهد على هذه الوثيقة . وقلب الأمر على أوجهه ، ثم نظر إلى الوثيقة على ضوء الشمس ، فوقع بصره على شبهة في كاغذ الوثيقة ، فتأمّله ، فوجد محل شهادته في الكاغذ الصق إلصاقا خفيا على النسخة الأصلية ، وبهذا تفطن إلى الحيلة المعتمدة في الوثيقة (4) .

وفي الجملة ، فإنّ الوثيقة تعتبر حدًا فاصلاً بين البدو الرحّل والمزارعين

(1) البرزلي ، **نوازل** ، ج II ، ص 1256 ، 215 ب .

(2) **المصدر نفسه** ، ج III ، ص 76 ب ، 98 ب .

(3) **المصدر نفسه** ، ج IV ، ص 115 ب ، ج II ، ص 190 . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1174. سنعود لتناول مسألة الشهادة على الخط ، في الفصل الخاص بالعدول .

(4) ابن عرفة ، **المصدر نفسه** ، ج IV ص 171 ب .

الحضر وعنصرا أساسيا في حوز الملكية وتمليكها ، وكذلك في أنتقالها بواسطة إقطاع الدولة والوصية والوراثة والصدقة والبيع والشفعة (1) .

ب)طرق إنتقال الملكية :

لم يقتصر انتقال الملكية على استغلال أرض الظهير المقطعة ، أو أرض الموات المهملة ، كما رأينا سابقا ، إنما توجد طرق أخرى متعدّدة ، سنحاول تناولها تباعا .

– *أوّلها البيع والشراء* ، اللّذان يكثران في فترات الازدهار الاقتصادي ، وفي الضواحي القريبة من المدن الكبرى ، أمّا في فترات الأزمة والاضطرابات الاجتماعية ، فإنّ العقارات ترخص ، ويستفيد من ذلك المضاربون ، فيستولون على ملكيات صغار المزارعين ، وعلى حد تعبير ابن خلدون ، « **تتناهى أملاك الكثيرين إلى واحد** » (2).

وقد كان إهمال الأرض وتحولها إلى بور من الأسباب الهامة لبيعها وسهولة التفريط فيها ، إذ يحتاج استصلاحها إلى تكسير بورها ، وقطع أشجارها الغابية ، وهو ما لم يكن متيسرا لصغار المزارعين ، خاصة أثناء احتدام الصراع الاجتماعي، وقيام البدو بالتعدّي على أحواز المدن . ولذا فإنّ القوى الإجتماعيّة المتنفذة هي القادرة أكثر على استصلاح هذه الأراضي ، بواسطة العمال الزراعيين (3) .

وقد تمكن أرباب الدولة وكبار التجار من تكوين ثروات عقارية طائلة ، والسيطرة على ملكيات شاسعة ، من الضيعات الكبيرة والقرى ، على غرار ما كان موجودا في العصر الأغلبي ، حيث امتلك كبار الفقهاء من أمثال سحنون وعبد الرحيم الزاهد على التوالي : 12 ألف و 17 ألف شجرة زيتون . وزيادة على الأمثلة الخاصة بالإقطاع السلطاني، أو تلك المعاوضة التي تمت بالمغرب الأقصى بين أحد الأعيان والسلطان المريني بالمغرب الأقصى ، لقرية بأكملها ،ذكر ابن خلدون أن الوزير أبا عبد الله محمد الرميمي الذي خرج من المرية سنة 643 هـ/ 1236م، والتحق بتونس ، واستوطن بها ، تملّك بها الضياع والقرى وشيّد القصور (4) .

---

(1) ذكر ابن راشد(**الفائق** ، ج II ص 1136) أنّه جرت العادة بإفريقية على التوثيق في العقار بالشهادة .
(2) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 367 .
(3) الغرناطي ، **مسائل**، ص 215 ب .
(4) المالكي ، **رياض النفوس** ، ص 328 ، الونشريسي ، **المعيار** ، ج V ، ص 43 – 44 ، ابن خلدون ، **تاريخ**، ج VI ص 615 .

إن هذا الأمر يأتي حجة على مدى أتساع ثروة الأرستقراطية العقارية ، ذات السمة الإقطاعية بمدينة تونس ، ومدى أهمية الريع العقاري المستخلص من الضياع والقرى، مع الملاحظة أنّه لا يدخل في حساب هذه الأرستقراطية مشائخ الأعراب الذين استولوا على القرى والأراضي ، بموجب ظهير سلطاني (1) .

كما كان كبار قواد الجيش ، من العلوج خاصة ، من بين الفئات التي تمكنت من تجميع الثروة العقارية ، إقطاعا وشراء ، فالقائد هلال (ت 664 هـ) من كبار علوج المستنصر كان يوضع بين يديه يوميا ألف دينار ، مستخلصة من ريع الأراضي والمنازل المعدة للكراء . وبعد نحو قرنين من الزمن ، صودرت أموال القائد نبيل (المتوفى سنة 857 هـ) ، فبلغت ما يزيد على عشرين قنطارا ذهبا من العين ، وما يقارب ذلك قيمة من الجوهر والعقار والأثاث (2) .

والحقيقة أن امتلاك الضيعات الشاسعة وشراءها ظاهرة محدودة بإفريقية في العهد الحفصي ، ذلك أنّ استثمار الأموال في اشتراء العقارات لم يكن أمرا مربحا ، إذا ما لم يتوفر الأمن والإستقرار الاجتماعي والسياسي ، وما لم يوجد عمال زراعيون متخصّصون في العمل في الضياع والبساتين ، وأسواق تجارية كبيرة لاستيعاب المنتوج الفلاحي . وهو ما لم يتوفّر في تلك الحقبة التي تميّزت بكثرة التوتّرات الواقعة بين المدينة وباديتها .

وعلى عكس ذلك فقد انتشرت الملكيات الصغرى والمتوسطة حول المدن الكبرى، وكان لأغلب سكان مدينة تونس بساتين وأجنة صغيرة ، يعتمدون عليها كمصدر ثانوي للرزق ، ويتحوّلون إليها للراحة والنزهة ، وكانوا يحدثون فيها الابراج ، وهي منازل مرتفعة الجدران ، وذات مدخل واحد ومحصّنة ، خوفا من غارات البدو ، ويتّخذون بها الكوى للفرجة (3) .

ولئن تبدو أصول هذه العمارة قديمة ، مرتبطة بفترات عدم استتباب الأمن بإفريقية في القرن الرّابع الميلادي ، فإنّها ذكرت لأوّل مرّة في العهد الحفصي ، أثناء حكم السلطان أبي عصيدة ، الذي « **غرست فيه الغراسات وبنيت فيها الأبراج**» (4). فهي إذن عمارة مرتبطة بتوجه أهل المدينة إلى العمل الزراعي في الحزام المحيط بها .

ونعتقد أنّ الفئات الحضرية العليا والوسطى هي التي أقبلت أكثر من غيرها على شراء الأراضي ، ويبرز من بينهم العلماء وموظفو الدولة ، والأمثلة كثيرة على ذلك :

---

(1) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 43 .
(2) المصدر نفسه ، ص 148 ، ابن قنفذ ، **الفارسية** ، ص 126 .
(3) ابن الرامي ، **الإعلان في أحكام البنيان** ، مجلة الفقه المالكي ، الرباط ، ص 317 .
(4) ابن قنفذ ، **الفارسية** ، ص 83 ، ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 241 .

– فقد كان الفقيه أبو العبّاس الغساني ، صاحب العلامة في عهد المستنصر ، مولعا بجنة له بالجزيرة القبلية ، مما يشير إلى مدى أمتداد الملكية الحضرية ، على شعاع يصل 60 كم .

– وفي مطلع القرن الثامن ، امتلك خطيب جامع قسنطينة ، وهو جد ابن قنفذ ، عددا من الدور والجنات والأرضيَن حول المدينة (1) .

– وفي أواسط هذا القرن ، كان أحد مشائخ مدرسة المعرض بمدينة تونس ، وهو الفقيه ابن عبد الستار ، مقبلا على العمل بجنانه ، ويعيش من محصوله . كما كان لحسن الزبيدي ، شيخ بقريانة (قرب منوبة) سانية يعمل بها (2) .

– ولم يمثل العالمان المتنافسان ، ابن خلدون وابن عرفة ، استثناء ، فكان الأوّل قد أقام مدة ، سنة 783 هـ / 1381م، بضيعة الرياحين من نواحي تبسة ، وهي ملك له.

أمّا ابن عرفة ، فيبدو أنه كان أكثر ولوعا بإقتناء الضياع ، وبيعها ، إذ ما أن وصف له حائط بالحسن حتى أمر بشرائه ، وقد أشترى من المخزن ضيعة بقرية صائغ ، غرب ضاحية منوبة حاليا (3) .

– كما أمتلك التجّار الأجنّة حول المدينة ، وحسبنا التذكير في هذا الصدّد بالبرج الفخم برأس الطابية لكبير التجّار الاندلهسيين في القرن التاسع هـ/XVم (4).

وفي الجملة ، فقد كان شغف هذه الفئات الوسطى كبيرا باقتناء العقارات وشرائها، وقد بلغ بهم الأمر أحيانا إلى نزاعات مطولة وشائكة فيما بينهم ، ولعل أبلغ مثال على هذا التكالب على أقتناء الأرض النزاع الذي دام نحو عشر سنوات ، بين سنتي 726هـ/ 1325م و736هـ/ 1335م ، حول أمتلاك جنان بأحواز مدينة تونس ، وقد دار بين الفقيهين أبي محمد عبد الله محمد بن يحيى بن عمر المعافري المعروف بابن الحباب والأندلسي الطارئ على مدينة تونس ابن البسطي . في بداية الأمر ، امتلك ابن البسطي الجنان ، ثم خرج من يديه ، وأخذه القائد ابن يعقوب ، فبنى به بناء رفيعا . وفي حقبة ثانية ، حازه الفقيه ابن الحباب ، على أن ابن البسطي أصبح متمكنا من الحكم في عهد السلطان أبي يحيى أبي بكر ، فطالب

(1) ابن قنفذ ، **المصدر نفسه** ، ص 125 ، 46 .

(2) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 67 ، الابي ، **الاكمال** ، ج I ص 367 ، ج V ، ص 173 ، VII ، ص 42 (السانية بكريانة) .

(3) ابن خلدون ، **التعريف** ، ص 262 ، الابي ، **الاكمال** ، ج VII ، ص 58 ، البرزلي ، **نوازل** ، ج IIص 241ب .

(4) Brunschvig, **Deux récits de voyage** ,p 20.

من جديد بالجنان ، وكان له ذلك ، بعد أن حكم لفائدته قاضي الجماعة أبو إسحاق بن عبد الرفيع ، على أن يغرّم قيمة البناء .

ولما تولّى ابن عبد السلام القضاء ، طلب ابن الحباب مراجعة الحكم ، بعد عشر سنوات من وقوعه ، أي سنة 736 هـ ، فأمر السلطان أبو يحيى أبو بكر بعقد مجلس للفقهاء ، للنظر في هذا النزاع ، فأجتمع بدويرة جامع الزيتونة كل **« من يطلق عليه إسم فقيه معتبر حقيقة ومجازا»** ورأس المجلس قاضي الجماعة ابن عبد السلام ، الذي تحاشى البت في الحكم ، لما كان بين الطالب ، وهو ابن عبد السلام ، وشيخه ، وهو ابن الحباب ، من خلاف ، ولما وقع بينهما من مناظرات . وأوكلت هذه المهمة الصعبة إلى قاضي الانكحة ، أبي محمد الأجمي ، الذي لم يشأ إغضاب صاحب السلطان ، وهو البسطي ، أو مخالفة حكم ابن عبد الرفيع ، مقرا بذلك الحكم السابق ، مما ولد شعورا بالمرارة لدى ابن الحباب ، وللعلماء المناصرين له ، الذين وقفوا في وجه تكتل من الفقهاء القريبين من السلطان ، وقد كان مكونا من بيوتات الحضر التونسيين مثل ابن عبد الرفيع ، والأندلسيين مثل ابن البسطي والحضر الجدد مثل الأجمي وابن عبد السلام الهواري(1) .

وخلاصة القول ، *فإنّ هذا المثال يأتي دليلا على أن الارستقراطية العقارية تتجدّد كلما طرأ تغيير على النظام السياسي القائم ، وأن حوز الأراضي وامتلاكها مقترنان إلى حد كبير بالجاه والنفوذ ، اللّذين كانا بيد العلماء وقواد الجيش وأرباب السلطة من موحدين وأندلسيين* .

– الطرق الأخرى لانتقال الملكية :

– تعتبر الهبة أو الصدقة من الطرق المتبعة في انتقال الملكية العقارية ، وعادة ما يتولّى الأب قبل وفاته منح إبنه أو إبنته المفضلة جزءا من أملاكه ، وقد يتم ذلك بمناسبة زواج أحدهما ، على أن هذا الصنف من الهبة يثير في الغالب مشاكل بين الورثة بعد وفاة المتصدّق ، إذ يحاولون الطعن في صحة وثيقة الهبة . ومن ذلك ما وقع بقفصة زمن قضاء ابن راشد ، على إثر منح الأب إبنته جنة في عقد صداقها .

وقد تقتصر الهبة على جزء من العقار فقط ، مثلما وقع بتونس سنة 746 هـ/ 1345م ، لما تصدق رجل على عقب ولده الصغير بسبعة أسهم من جنة ،

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 125 ب ، القلشاني ، **شرح الرسالة** ، ج II ، ص 164 ب . وقد ذكر الأول ابن البسطي ، نسبة إلى بسطة ، مدينة بشرق الأندلس ، فيما أورد القلشاني إسم البسيطي ، وبسيط هي بدورها مدينة بشرق الأندلس تقع شمال الأولى .

وباع البقية، بعد سنتيْن من هذا التّاريخ .لكنّه تم التراجع عن البيع والشفعة للعقب المتصدّق عليه في السهام الخمسة (1) .

كما يتعرض العقار المتصدّق به إلى البيع ثانية ، على أساس أنّه ملك لصاحبه الأوّل ، مما ينجم عنه نزاع بين الحائز بالصدقة والمشتري له (2) .

* وثمة وسيلة أخرى لانتقال الملكيّة، وهي انقراض شبه كلّي لقرى زراعيّة بفعل تداول المجاعات والأوبئة بنسق خطير في هذه الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط، حتّى أنّ كثيرًا من العقارات تظل مهملة لمدّة طويلة . من ذلك ماوقع بالمغرب الأوسط سنة 749 هـ ، لّما سحق الوباء عديد القرى الزراعيّة، وانتقلت الأرض إلى أشياخ الوطن أجيالا عديدة . ثمّ طفحت قضيّة ملكيتها من جديد، اذ ظهر من يدّعي أنّها أرضه لما منحت لقاض لاستغلالها (3) .

ويأتي مثال ضبابيّة الملكيّة للأراضي المحيطة بقصر المنستير على اثر أزمة سنة 749 هـ . دليلاً آخر على مدى أهميّة هذه الأزمات في حركيّة الملكيّة، حتى أنّ الفقيه ابن عرفة لما سئل عن الجنّات المحدثة بها ، لم يجرؤ على الحسم فيها لصالح طرف دون آخر، وكان " **يقف على الجواب في أرض المنستير ومغارسها ومحرثها**" (4) .

ولم تكن أراضي الظهير والأحباس في منأى عن الاهمال أو التّطاول لاستغلالها. فتتعرّض في فترات النموّ إلى التّعمير والغراسة، وتنتقل وضعيتها القانونيّة تدريجيًا من الكراء أو اقطاع المنفعة إلى التمليك، دون ردّ فعل حقيقي من قبل السّلطة، لتشجيعها للتّعمير (5) .

* على أنّ الوراثة هي العملية الأكثر شيوعا لانتقال الملكية ، وقسمتها ، مما يؤدّي إلى تفكّك الملكية وتجزئتها إلى أقساط صغيرة ، وقد دأبت عديد المناطق ببلاد المغرب على عدم توريث البنات ، اللاتي قبلن في بعض الأحيان هذا الوضع عن مضض ، حتى لا يقطعن صلة الرحم مع عائلاتهنّ . على أنّ هذا الأمر كان أكثر انتشارا عند أهل البادية ، ممّا هو عليه عند الحضر . ولنا أمثلة عديدة عن محاولة أهل البادية عدم استيفاء حقوق المرأة وعدم توريثها ، وانفراد الإخوة بالملك ،

(1) ابن راشد ، **الفائق** ، ج III ، ص 118. البرزلي ، **نوازل** ، ج III ، ص 1209.

(2) المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II، ص 21 ب .

(3) المغيلي، نفسه ، ج II، ص 19 ب .

(4) الونشريسي، **نفسه** ، ج VII ، ص 179 .

(5) المغيلي، **نفسه** ، ج II، ص 154. وفي ص 157 (سئل أحمد القباب عمّا بأيدي الجند من الاراضي، وعادة ما يقطعون الأرض التي لا يعلم لها مالك) .وفي ص 57 ب (كانت أرض المخزن دارسة ومهملة، فوقع تعميرها والغرس فيها وكراؤها كلّ عام بعد احيائها) .

معتمدين في ذلك على حجج واهية . ومن جانب آخر ، كانت نساء البادية « **لا يطلبن ميراثهنّ من أقاربهنّ ولا يطلبن الغلة خوفا من قطع رحمهنّ، فإن هنّ طلبن قطعن رحمهنّ ، وجفاهنّ ويصرن بذلك كالمقهورات** » (1) .

وخلافا لذلك ، فإنّ المرأة الحضرية قد تعودت على أخذ منابها والمطالبة في الغالب ، ونقتصر لتبيان ذلك على هذا المثال الذي جرى بواحة بسْكَرَة (2)

تعرضت هذه الملكية إلى مراحل متعدّدة ، تخص الوراثة والقسمة والبيع والتحبيس ثم التراجع في مرحلة أخيرة ، وهي تأتي نموذجا للمشاكل الممكنة الوقوع عند توزيع الملكية الحضرية وقسمتها . وزيادة في التوضيح ، فإنّ المراحل التي مرّت بها الملكية هي التالية :

– على إثر وفاة أبيها ، ورثت فاطمة بنت عبد الله ، مع أختها من الأم مريم وعمها نصيبا على الإشاعة من جنة بعين مشيش .

– باعت فاطمة نصيبها ، غير المقسوم ، فطعن زوج أمّها وأبو أختها مريم في البيع. فاتفق رأي الجماعة على إبطال هذا البيع .

– بعد موتها ، ورثها زوجها وأبناؤها عبد الله وعيسى وعائشة ، وبنتها عائشة من زوج ثان . وقد قام أحدهم بتحبيس العقار على مساجد بسكرة وفقرائها، لكن حكم الجماعة تولى فسخ هذا التحبيس .

وفي الجملة فإنّ قسمة الملكية تتعرّض إلى صعوبات إذا كانت على الشياع ، أو مقسمة بطريقة غير نهائية ، أطلق عليها المغيلي قسمة متعة ، بينما أطلق على القسمة النهائية قسمة بت . ففي الحالة الأولى والثانية ، تتعرّض القسمة إلى الشفعة (3) .

وكثيرا ما تساعد الشفعة على المحافظة على الملكية العقارية كاملة ، دون تقسيم ، ولا تفكّك وقد عرفت بكونها استحقاق شريك أخذ مبيع شريكه بثمنه ،

(1) المغيلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 24 ب ، 187، الغرناطي ، **ن.م.** ، ص 1210، 1212. البرزلي ، ن.م. ج II ، ص 251 ب .

(2) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 249 . « **سئل أبو القاسم الغبريني عن محضر نسخته : بعد أن توفيت فاطمة بنت عبد الله بن محمد بن الحسن ، وورثها بعلها يحيى بن فلان وبنوها عبد الله وعيسى وعائشة ، ومن غيره مريم بنت فلان . وكانت المتوفاة باعت نصيبها من جنة تركها والدها المذكور بعين مشيشة ، خارج بسكرة مشهورة هناك ، ونصيبها على الإشاعة مع البائعين معها ورثه عمّها وأختها مريم . فقام أبو مريم في حق محجورته عند أهل الفضل والصلاح ، والدين الناظرين في الحكم الشرعي ببسكرة ، حين التاريخ ، لعدم وجود القاضي بها ، فادّعى أنّ بيعها غير جائز. فاتّفق رأي الجماعة على فسخ البيع ونقضه . وفسخ ما كان عقده الأخير من الأخوين للأخيرين في المبيع من التحبيس عند موته للجامع الأعظم ومسجد أبي سعادة والفقراء . وطولع في ذلك أبو يعقوب الناظر في الأمور السلطانية جملة لا تفصيلا ، بالتفويض له في ذلك كما يجب ببسكرة وعملها**»

(3) المغيلي، **الدرر المكنونة** ، ج II ، ص 35 ب .

وأولويته في اقتناء بقية الملك، وهي لا تتمّ في الملكية الخاصة بالأجوار، أو التي قسمت وأخذ كل واحد نصيبه، إنّما تقتصر على الملكية المشاعة المشتركة.

وإذا كانت الشفعة قد وقعت أحيانا دون علم المشتري، ولنا مثال على ذلك بمدينة تونس 750 هـ / 1351 م، فإنها تصبح ممكنة، إذا كان الخصم قويا، وله نفوذ وجاه، ممّا يحول دون تطبيق القانون، كما وقع بالمغرب الأوسط في القرن IX هـ / XV م، ذلك **«أنّ رجلا استظهر برسم ثابت أن شريكه في الجنة الفلانية باع حظه منها إلى فلان، إلا أنّ المشتري ذو وجاهة، ممن لا يتنزل معه الأحكام الشرعية لينزع ذلك منه إلاّ بالشفعة»** (1). وقد التجأ صاحب الحق أحيانا إلى توثيق الملكية بواسطة الشهود والبينة، متحيّنا الفرصة للمطالبة بالشفعة، وأورد ابن راشد نموذجا لمثل هذه العقود: **«ذكر لشهوده فلان أن جميع الجنة التي بغابة كذا بحومة كذا حدودها كذا مشتركة بينه وبين أخيه فلان على السواء، وأنّ فلان تجهر بحرمته ومقدرته، واشتراها من أخيه، وهو يعلم الشركة المذكورة، وأشهد على نفسه أنّه غير مسلم للمبيع المذكور ولا راض به، وأنّه يخاف على نفسه من فلان المذكور أن قام طالبا حقّه من ذلك، وأنه متى أمن منه فإنه يقوم بالجنة المحدودة بالاستحقاق والشفعة. شهد عليه بذلك»** (2).

* إنّ هذا الوضع يأتي دليلا على قيام الغصب، كوسيلة لتملك الفئات المتنفذة للأرض. ممّا يحتاج منا إلى إبراز تجلياته وتحليل مظاهره.

لقد كثر غصب الأرض واستغلالها ظلما، خاصة أثناء فترات الأزمة السياسية والإجتماعية، وفي الأماكن التي لا تنالها أحكام السلطان، وقد كان صغار المزارعين يجبرون كلّ مرّة على التفريط في أراضيهم للأرستقراطية العقارية بأسعار زهيدة، حتى لا يتركوا أراضيهم عرضة للتعدّي والغصب. وممّا له دلالته في هذا الصدد أنّ الغصب لا يقتصر على «جبابرة الأعراب» كما قد توهمنا بذلك مصادرنا، إنّما يشمل كذلك أهل النفوذ والجاه من أعيان الحضر، الذين يحظون بموافقة السلطان الضمنية، وبالتالي لا يمكن أن تطولهم أقلام الكتاب والمؤلفين.

ويأخذ غصب الأرض والتعدّي على المزارعين أشكالا عديدة وتجليات مختلفة:

– فكثيرا ما كان الأعيان المتجبّرون يرهقون كاهل المزارعين والأرض بغرامات ووظائف متنوعة تؤخذ على الأجنة والأراضي الزراعية، وغرامات على

(1) المصدر نفسه، ج II، ص 136.

(2) ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص 185 ب. وقد أورد المؤلف الوثيقة العادية التي تحرر عند الشفعة، مبدؤها: «استشفع فلان من فلان النصف الذي اشتراه فلان المذكور من الدار التي بموقع كذا..» (ن. م. ج III، ص 118).

الأزواج الحارثة، وذلك فضلا عن خراج الأرض الذي يأخذه أصحاب النفوذ بموجب ظهير سلطاني (1).

– ويتجاسر بعضهم على مقاسمة أهل الجنات المشتركة، وأخذ نصيب من الإنتاج دون مشاركة في الملكية والعمل، وقد استفسر البرزلي على مدى صحة مقاسمة الغاصب، باعتبار أنّها كثيرا ما تقع في الجنات المشتركة، فاقرّ ذلك(2). ممّا يأتي دليلا على مدى انتشار الغصب، إلى حدّ أنّه أصبح أمرا معترفا به من قبل العلماء.

– كما يصل الغصب إلى مرحلة انتزاع الحيوان المستعمل للحرث وخاصة الأرض، والقيام باستغلالها. فقد تعدّدت عصر ذاك الأسئلة الموجهة إلى المفتين حول حرث الأرض على وجه الغصب والتعدّي، أو الجرأة والظلم، وإذا كان هذا الأمر محتملا عند غياب صاحب الأرض، أو عدم ثبات ملكية العقار ووجود الحوز فيها أو فترات الإزمة وانقطاع المدينة عن مجالها، فإنّ صفة الغصب تصبح أكثر بروزا عند وقوعها بحضور صاحب الأرض المملوكة، وقد طرحت هذه المسألة على الفقيه العقباني بالمغرب الأوسط، **«عمّن خرج من أرضه المملوكة لكونه ظلمه فيها أو أخرج منها قهرا، فجاء شخص فبنى في أرضه أو غرس بغير إذن ربها، وانذره ربها مرارا»** (3).

وقد يقع اغتصاب كل من الأرض والزريعة، من ذلك أنّ أحد أعيان القبائل اقطع إقطاع جباية من قبل السلطان ولأهمية هذه المسألة، نوردها كاملة:

«سئل محمد بن مرزوق عن رجل من أعيان القبائل يعطيه السلطان أرضا ينتفع بجباياتها، فيعتمد لمن تحت شياخته في زمن الحرث، فيأخذ منهم زرعا إغتصابا، ويأمرهم أن يحرثوه في أرض اغتصبها لآخر معهم ببقر، ويكلف العمل فيه على الخماس أو على أرباب البقر، ثم إذا حان حصاده كلفهم أيضا، وربما حوش إليهم غيرهم لحصاده ودرسه وذروه وتصفيته وكيله ونقله على دوابهم بمخزنه في أرعيتهم، ويجعل عليهم في ذلك بعض خدامه يحركهم فيه، فيفعلوا (كذا) عن نهر منه لهم. لكنّه لم يقصد بذلك غصب رقبة الأرض، ولا رقاب البقر والدّواب، وإنّما غصب أربابها منافعها، وكذلك استخدامه اياهم، هل هذا الزرع يحكم به للغاصب، ويكون عليه لهم بالملكية والأجرة، ويباح لهم التصرف فيه

(1) المغيلي، **المصدر نفسه**، ج II، ص 141، 144. راجع أيضا الفصل الخاص بالجباية.

(2) المصدر نفسه، ج II، 139.

(3) المصدر نفسه، ج II، ص 21 ب، 147، 149، البرزلي، **نفسه**، II، 258 ب (في فترات انقطاع المدينة عن ظهيرها، وتغيّب المالك العقاري الحضري، يسهل حوز الأراضي واستغلالها).

بالبيع والأكل والإعطاء والصدقة ، وهل على أخذه شراء منه أو صدقة (مغرما) ، فقد كثر وقوع ذلك عندنا وطعن بعض العوام على الأخذ من هذا الزرع من غاصبه، من الطلبة والفقراء » (1) .

إنّ هذه الوثيقة لا تقتصر على تناول الغصب العقاري ، إنّما تقدّم صورة ضافية ودقيقة عن المجتمع الريفي بالمغرب الأوسط ، ولا نعتقد أنّ الوضع يختلف كثيرا في إفريقية ، إذ تتعرّض لكيفية استخلاص الريع العقاري ، وعلاقات الإنتاج ، ومدى التدرّج الهرمي داخل هذا المجتمع الريفي ، المكوّن من أعيان القبائل المغتصبين للأرض والماشية والزريعة ، والمنتفعين بإقطاع الجباية ، ومن مشائخ منفذين لأوامر الأعيان ، ومزارعين وخدّام وخماسة خاضعين للعمل المضني والسخرة ، مع وجود ردود فعل محتشمة ضدّ الظلم ، تتمثّل في دعوة الطلبة والفقراء إلى عدم الأخذ من هذه الحبوب ومقاطعتها . وبالتالي فإنّنا نعتقد أنّ علاقات الإقطاع والتسلّط كانت تخيّم على البادية ، وتعرقل حركتها نحو الإنعتاق ، مثلما أشار إلى ذلك صاحب المقدّمة في قوله : **« ومن أشدّ الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرّعايا بغير حقّ »** (2).

فالمزارع الصغير لم يكن قادرا على استغلال أرضه ، دون الاحتماء بقوى اجتماعية أخرى ذات نفوذ وسلطة ، مثل قواد العسكر والولاة و مشائخ الأعراب والزوايا وغيرهم ، بل ذهب بعضهم إلى تفضيل نظام الحماية الذي عرفته المجتمعات التي ساد فيها الظلم منذ العصر العبّاسي . وقد أطلق عليها في عصر الموحدين مصطلح الإنزال ، وتتمثّل في إنزال أحد مكانه في ملكه ، ليعمر الأرض مقابل دفع كراء . وبما أنّ المنزّل يكون عادة من أصحاب الجاه ، فإنه يمتنع عن الدفع في الغالب ، ويكون بهذا مغتصبا للأرض اغتصابا مقنّعا (3) .

ففي أواسط القرن الثامن الهجري ، لم يقدم مزارعان على حرث هنشير الحلفاوين بالقيروان ، إلاّ بعد أن خصصا للفقيه أبي يعقوب الزعبي ثلث الإنتاج ، مقابل حمايتهم من تعديات الأعراب (4) .

ومن الأمثلة الأخرى عن نظام الحماية ببلاد المغرب في العصر الوسيط المتأخر، أنّ الفقيه الوغليسي سئل **« عن أرض للحراثة ، ويعجز (صاحبها) عن**

---

(1) المغيلي ، المصدر نفسه ، ص 48 ب .
(2) ابن خلدون ، **المقدّمة** ، ص 511 .
(3) عزالدين موسى ، **النشاط الإقتصادي** ، ص 149 . عبدالعزيز الدوري ، **مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي** ، بيروت 1982 ، ص 63 (نظام الالجاء) ص 88 ، 96 .
(4) ابن ناجي ، **معالم الإيمان** ، ج IV ، ص 169 .

دفع المظالم التي ينشئها العمال على الحراثين ، فياتي لذي سطوة وجاه ، فيقول له أشترك معك في حرث أرضي على أن تلتزم في جميع المغارم والملازم ، فيلتزم له ذلك ، ويشتركان على ذلك ، ويخرج كل منهما ما ينوبه من الزريعة وآلة الحراثة ، وتكون الخدمة على صاحب الأرض ، هل تجوز الشركة على هذا الوجه أم لا ، وهل لمن له سطوة وجاه أن يعمل هذا أم لا ، فإن قلتم لا تجوز ، فلمن يكون الزرع منهما .

فأجاب : لا يجوز ذلك ، فإن وقع ذلك فالزرع بينهما على نسبة ما أخرج كل واحد منهما من العمل ، أعني عمل البقر وعمل الخدمة ، وذلك أن يكون مثلا عمل اليد النصف ، وعمل البقر بالتقويم النصف ، فلصاحب الثور الواحد الربع ، ثم يتراجعان في الزريعة على تلك النسبة، وكذلك قيمة كراء الأرض ، لأنّها لم تزل منفعتها على ملك ربّها ، لأنّهما جعلا التخلص من المغارم والمظالم بالجاه ، عوضا لها، وهو من باب الرشوة وأكل المال بالباطل لأنّه من قدر على إنقاذ نفس من الظلم وجب عليه ذلك » (1) .

ج) إحياء الأرض الموات :

لا تقع حيازة الأرض عن طريق الإقطاع السلطاني فحسب ، إنّما تحصل كذلك باستغلال الأرض المهملة أو البور، وتعميرها ، مدّة معيّنة من الزمن ، عشرة أعوام حسب ابن عرفة وأضاف القلشاني أنّ الحيازة تكون بالسكنى والازدراع والقدم(2) .وفي ظل مجتمع معرض لعديد الآفات الطبيعية والبشرية ، فإن مسألة الحوز، وتعمير الأرض كانت متيسرة نسبيا ، ولا تحتاج دائما إلى استشارة السلطان وموافقته . فما هي إذن الأسس القانونية لإحياء الأرض الموات وتعميرها؟

ورد في حديث نبوي : **«من أحيا أرضا مواتا فهي له ، وليس لعرق ظالم »**، وفي حديث ثان : **« من اقتطع شبرا من الأرض بغير حقه طوقه يوم القيامة »** (3) . مما يأتي دليلا على مدى دقّة هذه العملية التي تتجاذبها طرفان : حاجة المزارعين إلى الأرض من جهة ، ورغبة الأمير في مراقبة هذه العملية والتحكّم فيها من جهة ثانية. وقد طرحت هذه الإشكالية منذ العصور الأولى ، ففي رأي محمد بن سحنون، ما قرب من العمران لا يحيى إلاّ بإذن السلطان ، وما يضر بأهل القرى

---

(1) المغيلي ، **ن . م** ، ج II ، ص 132.
(2) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1208– 209 ب . القلشاني ،ن.م.، ج II ، ص 183 .
(3) ابن أبي زيد ، **النوادر والزيادات** ، مخ 5730، ج II ، ص 177 ب .

من مسرح ومرعى ومحتطب ونحوه ، فإنّه يمنع إحياؤه . فالشعراء المحيطة بالمجال الزراعي للقرى هي ملكية جماعية ، لا تقسم وان اجتمع أهلها على ذلك ، بخلاف الأراضي البيضاء الموجودة داخل كل قرية (1) .

ومما له مغزاه أن هذا التنظيم للمشهد الريفي بقي معمولا به في العهد الحفصي ، كما جاء ذلك على لسان ابن عرفة ، الذي فرّق بين صنفين من العقار : الشعراء المجاورة للقرى والموسطة بينها ، والأراضي العفا أو الموات والمهملة .

– فالشعراء هي حق من حقوق أهل القرى ، شأنها في ذلك شأن مساحة الفناء للدور ، لا يحق للسلطان أن يتصرّف فيها أو يقطعها .

– أمّا أرض العفا ، فهي ملكية عامة ، يمكن إحياؤها بموافقة السلطان (2) . لكن ، كيف يمكن التفرقة بين هذين الصنفين من الأراضي المشتركة ؟ تعتبر المسافة المحدّد الأساسي لهذين المصطلحين ، فالشعراء هي الدّائرة الأخيرة المحيطة بالقرية ، والمجال المشترك المخصّص للإحتطاب والرعي ، الذي يحيط عادة بمجالات أخرى متلاحقة لانتاج الخضروات والبقول فالاشجار المثمرة ، ثم زراعة الحبوب . وبهذا فإنّ الشعراء تحدد اتساع الحقل الزراعي لكل قرية ، وتفصل بين واحدة وأخرى . وقد تحتوي داخلها على أرض بيضاء بور ، يتم إحياؤها في فترات النمو الإقتصادي .

على أنّه توجد خارج هذه الدوائر مجالات أخرى غير مستغلة في الغالب ، وهي ما أطلق عليها أرض العفا ، التي وقع تعريفها حسب المرجعية المجالية : البعد عن العمران ، وهو حسب سحنون **« ما كان من العمارة على يوم ، ولا تدركه الماشية في غدوها ورواحها »** ، وذلك بخلاف القريب الذي فيه مرافق لأهل العمارة ، وقال ابن رشد : البعيد من العمران ما لم ينته إليه سرح ماشية العمران واحتطاب المحتطبين إذ رجعوا لمبيتهم من العمران (3) .

ويوجد تعريف آخر لأرض الموات يعتمد أساسا على نظام ملكيتها واستغلالها ، فهي حسب محمد بن سحنون ، كل أرض لم تملك في القديم (الجاهلية) بإحياء أو زرع ، أو لم تعرف بحي من أحياء العرب ، وهي لمن أحياها . وهي بهذا تختلف شيئا ما عن أرض العفا التي كانت مستغلة من قبل ، وعرفت باسماء قوم ، في أوديتها ومراعيها ، ثم أهملت ولم يقع غرسها أو زرعها ، ويحتاج

---

(1) ابن عرفة ، **ن.م.** ، ج IV ، ص 63 ب . ابن أبي زيد ، **النوادر** ، ص 1182.
(2) ابن عرفة ، **المصدر نفسه** ، ج IV ، ص 156.
(3) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 156.

إحياؤها إلى موافقة السلطان وإقطاعها له ، بخلاف أرض الموات ، وكذلك الأراضي الموجودة في فيافي الاعراب ، التي تحاز بمجرد تعميرها (1) .

وقد شملت حركة الإحياء والتعمير في العصر الأغلبي المناطق الساحلية التي تغطيها الشعاري والغياض ، فغيرها الناس ، دون مراعاة كبيرة لوضعها القانوني سابقا ، أكانت عامرة أم خالية ، أهي بعيدة عن العمران أم قريبة ، افتتحت عنوة أم صلحا ، ممّا يفسّر قبول المشرعين بالأمر الواقع ، رغم التحريات الشديدة التي دأبوا عليها في أجوبتهم ومن ذلك ما سئل عنه سحنون حول أرض لقوم حلوا فيها ، ثم صارت شعراء وطال الأمد بذلك ، أيجوز لأحد أن يعمّرها . فأجاب بالنفي ، مشترطا ضرورة موافقة السلطان . وكان إذا استفسر عن أحمية حصون إفريقية ، يجيب: أخبرني عن البلاد أصلح أم عنوة حتى أخبرك بحكمها (2) .

ومن المسائل التي كانت تطرح في تنظيم المشهد الريفي كيفية اقتسام أراضي الشعراء والبور ، الموجودة بين القرى أو القريبة منها ، وقد اختلف الفقهاء في ذلك : قال أصبغ : لا يقسم البور بين القرى ، لأنّ فيه منفعة المارة في الرعي ، وهو كالكلأ في الفيافي ، لا يجوز بيعه ، إلاّ إذا كان البور داخل مجال كل قرية ، فهذا يقسم بين أهل القرية ، إن شاؤوا. وإلى خلاف ذلك ، ذهب أشهب ، ووافقه في ذلك سحنون إلى أنّ أهل القرى يمكن لهم قسمة الشعراء بينهم ، على عدد القرى بالسواء ، لا فضل لقرية كبيرة على صغيرة ، ويكون لكل واحدة ما يقع لها من تلك الشعراء ممّا يليها ، وهي تقع على نحو ثلاثة أميال من القرية ، حسبما ذكره محمد بن سحنون ، ممّا يأتي شاهدا على مدى اتّساع المجال المزروع حول القرية الإفريقية في العهد الوسيط المبكر ، وهو مجال يمتدّ شعاع دائرته نحو ثلاثة أميال أو خمسة كلمترات (3) .

وإذا كان تقاسم الشعراء يفضي في بعض الأحيان إلى نزاعات بين المجموعات القروية في العهد الأغلبي ، فإنّ الأمر يبدو على غير ذلك في العهد الحفصي، إذ تكثر الإشارة إلى المنازل والقرى المندثرة، وتراجع حركية الاحياء والتعمير والإسكان (4) .

---

(1) ابن أبي زيد ، **النوادر والزيادات** ، ج III ، ص 177 ب .
(2) المصدر نفسه ، ص 1178.
(3) المصدر نفسه ، ص 181 ب .
(4) المصدر نفسه ، ص 1183. راجع مثلاً البرزلي، **نوازل** . المغيلي، **نوازل مزونة**. الونشريسي، **المعيار** .

ويبدو أنّ الأراضي الموات اقتربت في العهد الحفصي أكثر من العمران، وأصبحت تشمل جزءًا من المجال الزّراعي نفسه، فضلاً عن الشعراء وأرض العفا. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الشروط التي أوردها البرزلي، اعتمادًا على رأي القاضي عياض، فانّ إحياء هذه الأراضي لم يكن أمرًا هيّنًا، إذ كان يتطلب عملاً كبيرًا لمدّة من الزّمن قبل الانتاج.

أهمّ هذه الشّروط هي:

- التّحجير على الأرض التي يقع احياؤها، بمعنى ضرب حدود حولها.
- قطع شعرائها وغياضها وكسر حجارتها وتعديل أرضيها.
- رعي كلئها وحفر بئر للماشية بها.
- تفجير الماء فيها بحفر أو سقي نهر أو عين.
- استصلاح المستنقعات وتجفيف الماء منها.
- تحريك الأرض بالحفر ونحوه.
- الحرث
- الغرس
- البناء (1)

وبالتّالي يتضح أنّ الاحياء كان في الغالب عمليّة جماعيّة، تقع في مستوى الأسرة أو القرية أو المالك العقاري.

واعتبارًا لما تثيره عمليّة الاحياء من نزاعات واختلافات، فقد حرص المشرّعون في العهد الحفصي على تحديد مستلزماتها وشروطها. ونجد عند ابن راشد تحديدًا دقيقًا لأنواع الأراضي، فهي ثلاثة في نظره:

- المختصّة التي لا يمكن تملّكها بالاحياء – وهي على خمسة أنواع: العمارة من غروس وغيرها، حتى ولو اندرست وحريم العمارة والأراضي المحجّرة (أي المحاطة بحدود) والمقطعة والتي يمنحها السّلطان إلى منتفع، فله التصرّف فيها حتّى لو لم يعمّرها، وأخيرًا الحمى وهي الأراضي التي لا عمارة فيها بغرس أو نباتات، والواقعة في الأطراف بعيدًا عن العمران.
- الأراضي المشتركة: هي الأراضي التي يقع الاشتراك في منافعها مثل المراعي والمحتطب وهي لا تصلح كذلك للاحياء. ولئن اختلفت مساحتها من جهة إلى أخرى، فإنّها تتقلص في المناطق الآهلة بالعمران، مثل مدينة تونس، حتى ان السكّان يلجؤون إلى احتطاب الحطب والبحث عن كلأ لماشيتهم في الأراضي ذات الملكية الخاصة.

(1) البرزلي، **نوازل**، ج II، مخ 4851، ص 1311.

- الأراضي المنفكّة عن الاختصاص والاشتراك: وهي الصّنف الذي يملك بالاحياء ويشترط فيه تفجير الماء والغرس وتحريك الأرض وقطع الشعراء.

وعادة ما يحتاج ذلك إلى إذن السّلطان فيما قرب من العمران خشية الاضرار بمصالح النّاس في المحتطب والمرعى، فيما لا يحتاج إلى إذنه فيما بعد العمران (1).

على أنّ التعمير دون استشارة المخزن قد يؤدّي إلى تعقيدات عديدة في حال نشوب نزاع حول الأرض، فقد يدّعي طرف ثان ملكيّة الأرض، مما ينجم عنه التّحاكم إلى القضاء والحاجة لاقرار من السّلطان.

وليس من اليسير الاقالة من الجباية، إذ يغضّ السلطان الطرف في بداية العمليّة قبل أن يوظف على المنتفعين من احياء الأرض (غير الموات خاصّة) المجابي، التي بلغت نسبتها بالمغرب الأوسط 3/8 من جملة الانتاج (2).

ونلحظ في حالات أخرى أنّ السلطان يعمد، لبسط نفوذه على الأرض، إلى إقطاع الأرض لأحد الأعيان والحثّ على إحيائها. وكان المقطع يشرف على عمليّة التعمير التي يقوم بها المزارعون (3).

ولئن تعدّدت الأساليب، فانّ النتيجة واحدة: وهي محاولة المخزن الاستفادة من عمليّة التّعمير والاحياء.

وفي الجملة، فانّ عمليّة الاحياء في العهد الحفصي شملت خاصّة المجال الأوّل للأراضي الزراعية البور، ونادرًا ما خصّت أراضي الشعراء وأرض العفا.

د) كراء الأرض:

وردت مصطلحات عدّة دالة على طبيعة الملكيّة مثل:

الضيعة (وجمعها الضياع) والشّعبة والجنان (وجمعها أجنّة) والفدّان (للزيتون)، والرّبع والسّانية والبستان والهنشير والوطا وغيرها (4).

وقد كان البعض منها يستعمل للدّلالة على الملكيات الكبرى، مثل الضّيعة والهنشير التي كانت بحوزة كبار الملاكين العقاريين (5).

على أنّ الغالب على الملكيّة هو الحجم الصّغير، حتّى أنّ عددًا كبيرًا من

(1) ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص 140–142. حول تعرض الملكية الخاصّة للتعدّي، راجع البرزلي، ن.م.ج II، ص 311.

(2) المغيلي، **نفسه**، ج II، ص 154 (وممّا ورد في نوازله: " سئل أبو الفضل العقباني عن أقوام جرت عادتهم في وطنهم أنهم يعمدون إلى شعب وغيرها، فيكّسرونها ويمهّدونها من غير إذن الملك .. والموضع ليس بموات".

(3) المغيلي، نفسه، ج II، ص 121.

(4) حول المصطلحات الخمسة الأولى بجبال نفوسة، راجع: الشّماخي، سير، ص 162، 204، 233. البرزلي، ن.م، ج I، ص 22 ب (استعمل ابن رشد مصطلح السّانية بمعنى البئر).

(5) حول كراء الأرض، راجع أيضًا الفصل السّابق الخاص بكيفية استغلال العقارات المحبسة. ابن خلدون

المزارعين كان يفتقر إلى الأرض، ويلتجئ إلى كرائها من كبار المالكين المنتفعين بالرّيع العقاري، سواء أكان ذلك ناجمًا عن ملكية خاصّة أو إقطاع أو حبس.

وأعتبارًا لأهميّة هذا الباب، فقد تحدّث المشرعون عن هذه العمليّة باطناب. وعلى سبيل المثال، حدّدها القلشاني بجملة من الشروط :

– عادة ما تكرى الأرض لزراعة الحبوب . أما كراء الأرض "السّوداء" المغروسة أشجارًا فهو بمثابة المساقاة يدفع الكراء نقدًا، لاعينًا.

– يختلف أمر الكراء حسب طبيعة الأرض (أرض سقويّة أم لا) . وعادة ما يتراوح العقد من سنة إلى عشر سنوات، أو أكثر .

– ويمكن تحديد مبلغ الكراء لأعوام كثيرة بالنّسبة إلى الأرض السّقوية التي لا يتغيّر فيها الانتاج بكثرة، وذلك خلافًا للأرض البعليّة التي لا يمكن دفع كرائها إلاّ بعد حرثها (1) .

وتبدو هذه المعطيات النظريّة مرتبطة بواقع افريقيّة، فيما يخصّ أنواع الأرض المكتراة، ومبلغ الكراء الذي يدفع نقدًا.

وتختلف الدواعي المفسّرة للُجُوء الملاكين إلى الكراء : فاذا كان الغالب هو عدم استغلالهم للأرض مباشرة، فَان البَعض الآخر يلتجئ إلى هذه العمليّة كلّما وجد صعوبات لاستغلالها(2) .

وعادة ما يشترط عند الاكتراء حمل السّماد إلى الأرض وتغبيرها. وكان أصحاب الجاه يعمدون إلى كراء الأرض بأسعار مشطّة، لأنّهم لا يوظفون على الحرّاثين وظائف كثيرة، كما يفعلون مع سائر المزارعين، يوهمونهم بأنّهم ينفعونهم في قضاء شؤونهم، وخاصّة في إزالة المغارم. وبالتالي، فانّ هؤلاء الأعيان لا يجدون في الغالب صعوبة في كراء أراضيهم، أو استخلاص الكراء، خلافًا لصغار الملاكين الذين يعسر عليهم أحيانًا التحصّل على هذا المعلوم (3).

تاريخ ، ج VI ، ص 615 (كان محمد الرميمي يمتلك الضياع والقرى بتونس). وفي نفس السّياق، "سئل ابن عرفة عن مرابطين كانوا جبابرة قبل رباطهم، وبأيديهم أراضي كثيرة أقطعهم السلطان ايّاها" ..: المغيلي، **نفسه** ، ج II، ص 160.

(1) القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 188. البرزلي ،**ن.م**، 4851 ، ج II ، ص 1165.

(2) المغيلي، **نوازل مزونة**، ج II، ص 54 ب (كراء أرض تبلغ زوج ترابيّة، بها أربعة مطامير. لكن المكتري تعرّض لصعوبات عندما منعه غاصب من الحرث) .

(3) البرزلي، **ن.م**، 4851، ج II، ص 1162 (ذكر اشترط تقديم أحمال محدّدة من الغبار) ، 164 ب . المغيلي، **نفسه** ، ج II، ص 55 ب . الغرناطي، **نفسه**، ص 215 ب (تحدّث عن قيام بعض الحراثين بحراثة أرض غيره، دون أن يدفع كراءها) .

4) أرض الحبس : ملكية حضر – ريفية محرار للعلاقة بين المدينة والرّيف :

يعتبر التحبيس وقف مردود الأرض لصالح شخص أو مؤسسة عمومية ، من جوامع ومدارس وزوايا وأسوار وغيرها . وقد أضحت هذه العملية ذات انتشار واسع في العصر الوسيط المتأخّر ، وفقا لتدهور الظروف الأمنية العامة التي اقتضت وقف الأرض حماية لها من التعدّي والغصب . والأحباس خاصة وعامة : الأولى ترجع فائدتها إلى أبناء المحبس ، في بعض الأحيان الأبناء دون البنات ، وتمكن من حماية الأرض من التعديات والتقسيمات . ويشرف على إدارتها ناظر الحبس . أما الثانية فهي تحت إشراف مدير الحبس العمومية بتونس ، الذي يسمى كذلك صاحب الحبس الكبير ، وتصرف أموالها لصيانة المؤسسات العامة ، وصرف مرتّبات موظفيها .

ويتم التحبيس بموجب تحرير وثيقة مكتوبة ، يقع فيها ذكر الأطراف التالية :

– المحبّس : وهو صاحب العقار الذي قام بالوقف .

– المحبّس عليه : وهو المنتفع من هذه العملية ، وقد يكون محددا أو مبهما . ففي الحالة الأولى ، يذكر قبضه للحبس ونزوله فيه وقبوله له مع الإشهاد ، إذا كان مالكا لأمره ، أما إذا كان صغيرا ، فإنّ توليته الحيازة تؤجل إلى أن يبلغ مبلغ القبض.

ويكون المحبّس عليه مبهما إذا لم يقع التنصيص عليه بوضوح ، فيكون صرفها على المؤسسات العامة ، قال البرزلي في هذا الصدد : **« ومثله اليوم عندنا بتونس أحباس القرى إذا جهلت مصارفها ، فإنّ العادة فيها أنها على المساجد التي في تلك القرية وعلى أئمتها »** (1) .

وقد يجعل الحبس أحيانا على وجه معين ، فيكون مثلا على سبيل أو مسجد .

– الحبس : وهو تحديد للعقار ، وموقعه ومساحته ومدة التحبيس التي قد تكون تأبيدا . وقد جرت العادة المعاينة و التطوّف في الأرض حيازة . وهي عمليّة يقوم بها ناظر الحبس وشهوده وكتابه وقباضه .

أمّا الوثيقة المحررة بإفريقية في العهد الحفصي ، فقد أورد ابن راشد نماذج منها ، وهذه عينات من ذلك :

« حبس فلان جميع الأرض البيضاء المزدرعة التي بموضع كذا ، حدودها كذا، بحقوقها ومنافعها الدّاخلة فيها ، والخارجة عنها ، على مسجد كذا ، لحصره وزيت

---

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 125.

وقيده وصلاح ما هي فيه وما لابد منه ، ولأعقابه عنه بعد معرفته بقدر هذا التحبيس ومبلغه » (1).

وإذا كان المحبس عليه صغير السن ، يقدّم القاضي ناظرا على الحبس ، ويشترط فيه الأمانة والكفاءة ، ويتولّى العمارة والاجارة وتحصيل الدفع وصرفه إلى المستحق، واصلاح ما يجب اصلاحه . وعند بلوغ المنتفع بالحبس سن الرشد ، يحرر القاضي عقد حيازة ، ونصه :

« أشهد فلان على نفسه ، شهد أن هذا العقد في صحته وجواز أمره أنه قد كان حبس على ولده فلان كذا، وانه لما بلغ ولده المذكور وملك أمر نفسه، رأى أن يقبضه جميع ما كان حبسه عليه، مما وصفه في هذا الكتاب تصحيحا لحبسه واكمالا له، فدفع إليه ذلك ، فقبضه ابنه فلان » (2).

أ) الاحباس الخاصة :

لقد كان تحبيس الأب لربع أو عقار ما على ابنه الصغير أمرا مألوفا بتونس الحفصية . وعادة ما تلجأ الفئات الحضرية المحظوظة إلى وقف أملاكها «على نفسها» وأبنائها ، لأسباب متعدّدة ، نذكر أهمّها :

– تأمين الملكية من غائلة التعدي والاغتصاب : خوفا من سطوة أصحاب النفوذ، أو ضرر الأجوار ، أو تحسّبًا لمصادرة السّلطة لأملاكه (3).

– تأمين المغتصبين للعقارات (مستغرقو الذمة) لأملاكهم ، خوفا من أن تدور عليهم الدوائر . وفي هذا الصدد سئل فقيه المغرب الأقصى عيسى بن علال سنة 788هـ/ 1386م **«عما عقده هؤلاء العمال وجباة الأموال والمشتغلون بخدمة المخزن والمستغرقون الذمة من التحبيسات في أملاكهم التي اكتسبوها في حال عمالتهم وخدمتهم ، هل ذلك سائغ لهم »** . ويدخل ضمن هذا الباب تحبيس الأمراء والملوك على أبنائهم وأعقابهم العقارات ، لكن بمجرد انقراضهم ، قد يقع التشكيك في صحة هذا الحبس ، مثلما وقع بتلمسان سنة 827هـ/ 1423 م (4).

– توريث الأبناء والأحفاد ، دون البنات ، ولنا مثال على ذلك بالمغرب الأقصى في النازلة ، التي تخص من تصدّق على محاجيره الصغار ومن يولد له من الذّكور.

(1) ابن راشد ، **الفائق** ، ج IV ، ص 59 ب . الونشريسي ، **المعيار**، ج VII ، ص 301 .
(2) ابن راشد ، **ن. م.** ج IV ، ص 63 ب .
(3) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 49 ، 119 ، 339 . البرزلي ، **نفسه**، المسألة 26 من باب الحبس: فرس مرشوم في فخذه، " حبّس لله سبحانه وتعالى " ، وقال صاحبه معللا ذلك : خفت أن أغرم عليه او ينزع منّي ، فرشمت هذا رجاء أن يطلق إليّ .
(4) **المصدر نفسه** ، ج VII ، ص 119 ، 432 .

وفيما يخص المغرب الأوسط ، تحدث المغيلي عن أناس يمنعون نساءهم من الأرث ، واشتهر ذلك منهم خلفا عن سلف ، مضيفا ان نساء البادية لا يطلبن ميراثهن . كما ذكرت أمثلة عن محاولة الورثة بأهل البادية عدم استيفاء حقوق الأنثى بإفريقية . على أنّه توجد مسائل أخرى تذكر توريث الابن والبنت على حدّ سواء (1).

– حماية الملكية من التفكك والعائلة من التشتت : إذ يحافظ الحبس على وحدتها ، وعلى الإستغلال المشترك لها مدة من الزمن ، قبل أن تنشأ الخلافات بين العقب ، عند تعدد فروع الأسرة ، وتشتتها ، مما يؤدي إلى قسمة الحبس بإذن من القاضي ، أو إقراره ، وعدم الأخذ بأقوال المدعين . وحرّر وثيقة في ذلك صورتها :

« حضر مجلس القاضي بموضع كذا فلان الناظر لفلان وفلانة،... وان زوجه فلانة تعترضهم في ذلك وتزعم أنها تثبت ما ينفسخ من الحبس المذكور،... وأمر القاضي بإحضار فلانة وقرئ عليها كتاب الحبس. فكلف القاضي فلانا اثبات عقد الحبس ليسجل عليه، ويثبته في ديوانه من أجل المرجع المذكور فيه، وكلف الزوجة المذكورة اثبات ما زعمته مما انعقد به قولها » (2).

– عجز الفئات الحضرية الميسورة عن الاستغلال المباشر للأرض، وعن حمايتها من تعديات البدو، وتفضيلها التحصل على ريع عقاري قار وثابت، متأتّ من كراء أراضي الحبس وقبالتها، خاصة في فترات الاضطراب الإجتماعي. مما يعني أنّ الأحباس هي في الغالب ملكية حضرية ، يقوم باستغلالها المزارعون المجاورون للمدينة. ويعتبر النّاظر أو المقدم على الحبس في هذا الصدد الواسطة بين المالك والعامل ، بين المدينة والريف . وهو المشرف على استخلاص الريع منها ، وحمايتها من التعديات ، حتى أنّ أحد المزارعين بباجة أخذ بعض تراب من فدان محبس وجعله طابية ، فحكم عليه بردّ قيمة التراب . وكان يمنع المرور من الأراضي المحبسة بقرطاجنة ، وجعلها طريقا (3).

ومن الملاحظ أنّ بعض المتنفذين من العلماء وغيرهم كانوا يحبسون العقارات على أنفسهم ، ويتولون إدارتها بطريقة مباشرة ، أو تكاد ، دون أن يكون لناظر

(1) **المصدر نفسه** ، ج VII ، ص 278 . المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II ، ص 55 ب، 23 ب . الغرناطي، **مسائل**، ص 1206، 1212.
انظر: ابو القاسم الطبابي، تحقيق باب الحبس للبرزلي ، (شهادة كفاءة للبحث) النازلة عدد ، 3 ، 5 (ص 76،79)
(2) ابن راشد ، **الفائق** ، ج IV ، ص 171.
(3) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 151، 154.

الحبس نفوذ حقيقي . وهو ما كان يقوم به ابن عرفة ، إذ كان المقدم يشاوره في الأمور قبل التصرف ، وكان « **يقدم ويعزل (المقدم) حتى في مرضه** » ، وهو ما أنكره عليه خصومه . غير أنّه في آخر حياته ، خصّص جزءا من الأحباس لتوزيعها على الفقراء ، فقد حبس من الرّبع ما يفرّق من أكريته في آخر كلّ شهر نحو 22 دينارا ذهبا كبيرة (1) .

وتأتي وثائق الأحباس شاهدا على تطور الملكية العقارية الحضرية ، وكيفية انتقالها عبر الأجيال ، وعلى تطور بنية الأسرة المغربية ، نحو ازدياد فروع الشجرة ، أو تفكّكها وانفصالها ، وفي حالات أخرى ، انقراضها بالكامل ، وعندها يتحول الحبس إلى وقف عام .

ومن الأمثلة على ذلك ، نذكر مجموعة الوثائق التي أوردها الونشريسي بخصوص أسرة عائلة مغربيّة ، وهي عائلة الفقيه أبي الحسن علي بن عشرين ، وقد تعرضت هذه القضية إلى عدة مراحل ، بلغت 18 رسما :

– الرسم الأوّل يخص وفاة الفقيه أبي الحسن علي بن الشيخ أبي يحيى أبي بكر بن عشرين بمدينة تونس سنة 726هـ/ 1325م ، وورثته إبنته مسعودة منذ سنتين ونصف. وكان ابنا أخيه قاطنين بمدينة فاس ، حيث كانت لإبنة عمهما أملاك.

– الثاني : تقديم قاضي فاس لأبي عبد الله محمد بن عشرين لاسترعاء أملاك ابنة عمه مسعودة بمدينتي تونس وفاس ، « **لينظر لها في جميع أمورها وكافة شؤونها لكون أصولها بمدينة فاس ضائعة** » . وذلك بتاريخ 781هـ/ 1379 م .

– من الرسم الثالث إلى السابع : خمسة رسوم وقع فيها التثبت من شهادة شهود الاسترعاء الخمسة ، « **كيف شهدها وعلى أي وجه أداها** » ، وهم على التوالي محمد القيسي ، وعبد الله الأوسي ، وأحمد بن أملال ، وعبد الله البقال وأبو القاسم بن الحرار ، بتاريخ 790هـ/ 1388م .

– الثامن : تولّى المؤذن محمد بن محمد بن عميرة الأوسي السؤال عن مسعودة بمدينة تونس، فكلف بدوره أحد الأشخاص للبحث عنها بتونس ، وقام بذلك طيلة ستّ سنوات ، من 784هـ/ 1382م إلى 790هـ/ 1388 م ، لكن بدون جدوى (2) .

(1) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 339 ، كذا في البرزلي ، **جامع** ، ج IV ، 119 ب . الابي ، **الاكمال** ، ج IV ، ص 225 .

(2) الونشريسي ، **ن.م.** ، جVII ،ص 488–494 .

التاسع : تقييد عقب الرسم بتاريخ 716هـ/ 1316م بثبوت صحته ، حرره قاضي الجماعة بفاس 720هـ/سنة 1320م .

العاشر : رفع الأخوين أبي زكريا يحيى وأبي عبد الله محمد بن عشرين يديهما عن استغلال الحبس المسمى ابن بشير ، خارج باب الحديد بفاس ، بعد وفاة عمهما أبي الحسن علي ، وذلك سنة 728هـ/ 1327م . ثم أثبت ذلك قاضي الجماعة بفاس سنة 790هـ/ 1388م .

– شهادة أبي الحسن علي على أبيه أبي عبد الله محمد بن عشرين وعمه أبي زكريا يحيى بكونهما من أهل العدالة ، سنة 790هـ/ 1388م .

– الحادي عشر : شهادة محمد بن عميرة الأوسي وأبي الحسين محمد بن عشرين النائب على ابنة عمه مسعودة الغائبة بأن جنان ابن بشير هو بين محمد ومسعودة على حكم الحبس انصافا بينهما ، وان النصف الذي لمسعودة صار تحت يدي أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن عشرين عام 781هـ/ 1379م ،مع شهادة عليهما سنة 783هـ/ 1381 م .

– الرسوم الثالث عشر والرابع العشر والخامس عشر : اطلاع ابن عميرة المؤذن على رسم الموت والموارثة والتقديم الذي بيد أبي الحسن بن عشرين ، وشهادته ببحث ابن عشرين عن ابن عمته ، كما شهد محمد بن الصباغ بذلك ، سنة 790–791هـ/ 1388–1389 م .

– الرسم السادس عشر : تأجيل اليزناسني ، قاضي الجماعة بفاس، لإثبات الرسم الذي ادعاه أبو الحسن بن عشرين في منافع ابنة عمه مسعودة لمدة شهر ، كي يستظهر به، مسقطا رسم الاسترعاء الذي كان يدعيه ، وان لا شيء له في الحبس المذكور ، بتاريخ ذي القعدة 791 هـ .

– الرسم السابع عشر : اعتراف أبي الحسن بن عشرين بأنه لا رسم بيده يستظهر به مسقطا رسم الاسترعاء الذي كان يدعيه، بتاريخ ذي القعدة 791 هـ.

– الرسم الثامن عشر : هو جواب المفتي اليزناسني عن هذا النزاع بين نائب مسعودة ابن عميرة (وأبي الحسين محمد بن عشرين) وابن عمها أبي الحسن علي، وقد افتى ببطلان ما بيد ابن عشرين من رسم الموت والموارثة ورسم التقديم والاقرار، وليس لابن عميرة حق في هذا الحبس ، ولا شيء للبنت ، وذلك بتاريخ 17 في القعدة 791 هـ (1) .

(1) الونشريسي ، **نفسه**، ج VII ، ص 494 – 514 . انظر مثالا آخر عن كيفيّة استغلال هذه الفتاوى في:
D.D.Powers, Fatwàs as sources for legal and social history.. In **Al-Qantara** ,vol XI, Fasc. 2, Madrid 1990, pp. 295-341.

ب) الأحباس العامة :

تكتسي الأحباس المخصصة للمشاريع العمومية أهمية بالغة ، في حياة سكان المدن ، إذ تمكّن من تدعيم مظاهر التضامن الإجتماعي ومن تخفيف وطأة المصاعب التي تعترض الإنسان الوسيطي . وهي تفوق أهمية الأحباس الخاصة ، وعلى سبيل المثال فقد أورد البرزلي 31 مسألة للأحباس العامة، مقابل 25 للخاصة (1)

وتتعدد الدوافع المفسرة لقيام هذه العملية ، منها انتقال الحبس الخاص إلى العام عند انقراض العقب ، وهو أمر وارد في ذلك المجتمع الذي كانت تعصف به الأزمات الاقتصادية والمجاعات والأوبئة ، فتأتي على عائلات بأكملها (2) .

وفي حالات أخرى ، يتبرع المحبس بالعقار لمؤسسة عامة أو عمل اجتماعي ، من تلقاء نفسه ، خاصة إذا لم يوجد من يرثه ، في أخر أيّام حياته ، ويساهم بهذا العمل في تقوية التكافل الاجتماعي.

أما السلطة المخزنية ، فإنها تقدم عادة على تحبيس العقارات على طلبة المدارس وأصحاب الزوايا وغيرهم ، كسبا لهذه الشرائح الاجتماعية .

وتنتفع من هذه الأحباس عدة مؤسسات وأشخاص ، نذكر من بينها :

- ***الأحباس على الأسوار*** : تساهم هذه الأحباس في صيانة أسوار المدن وترميمها ، لكن هذه العائدات قد لا تكفي للقيام بهذه الأعمال الحضرية الكبرى ، في ظل استقالة السلطة المخزنية واقتصارها على الاعتناء بالحضرة تونس . وقد ذكر في هذا الصدد تحبيس أبي اسحاق ابراهيم نصف خراج الأرض لبناء سور الأرباض . وحظيت هذه العملية بموافقة بعض العلماء (مثل ابن عرفة) وأمتناع أخرين (مثل أبي القاسم الغبريني) (3) .

والحقيقة أنّ العقارات المحبسة كانت شبه مهملة في حالات عديدة ، وقد سئل ابن عرفة مرة عن حوانيت ببلد محبسة على سورها ، والحوانيت خالية من السكنى والسور المذكور محتاج إلى الإصلاح ، فهل يسوغ جبر الناس على السكنى بحوانيت السور (4) .

---

(1) الطبابي ، **نفس الاحالة**، ص 45 .

(2) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 133 – 34 ب .

(3) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 303 . ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص 149 . الأبيّ ، **الاكمال** ، ج IV ص 349.

(4) المصدر نفسه ، ج VII ، ص 58 .

وتبين القضية التي طرحها قاضي القيروان على أبي القاسم الغبريني آليات العملية الحبسية وكيفية وقوعها : فقد عين قاضي المدينة مقدما على حبس السور على الا يتولى شيئا من أمور السور دخلا ولا خرجا إلا بشهادة ، وجعل له مرتبا يأخذه من غلة الأراضي المحبسة على السور . غير أنه لم يبق طويلا في خطته ، ولما حاسبه القاضي بحضرة الشهود ، تبين أنّ المداخيل كانت بغير شهادة الشهود ، فيما كانت المصاريف موثقة ، وهي تتمثل في الأعمال التالية :

تكاليف ترميم السور وأجرة البنائين ، وفيها رسم بالعدالة امضاه الشهود.

بناء سجن المدينة واصلاحه ، بأمر من عمّال البلد في الأشغال المخزنية ، لكن تبين حسب رسم محرر سنة 744هـ/ 1343م أنّ هذا العمل يتولى الإنفاق عليه المخزن ، وليس عائدات الحبس (1) .

- ***الأحباس على الحصون والرباطات والمرابطين بها*** : لئن تعددت أشكال العائدات الحبسية على الحصون (عائدات الأرض والمباني وحتى النباتات مثل الحلفاء) ، فإنّ الفقهاء وقفوا في الغالب موقف المحترز من الأحباس التي تمنح للمرابطين والفقراء ، إذ عُدّ **« التحبيس عليهم عونا لهم على ما يرتكبونه مما هو خارج عن الطريق الشرعي »** (2) . على أنّ ذلك لم يمنع من تطور أحباس الحصون والرباطات واتساعها، طيلة العهد الحفصي ، فعلى سبيل المثال حبست الأراضي العديدة على المنستير، فمنها الريع المتأتي من نخيل الجريد ، أو من أشجار الزيتون المحيطة بالمنستير، والتي كانت تخصص لوقيد المساجد بالرباط، ومنها الهناشير المزروعة حبوبا مثل هنشير ابن منصور بالمهدية الخ...(3) .

واعتبارا لقدم هذه القصور والرباطات ، وتعرضها للتلاشي والاندثار في فترات الإضطراب السياسي ، فإنّ أحباسها انقرضت مدّة من الزمن ، قبل إعادة تعميرها في القرن السادس للهجرة ، وخاصة بعد قيام دولة بني حفص . وتأتي المسألة التي أوردها البرزلي مثالا على هذا التطور الذي عرفته الحصون :

« سئل البرجيني (ت 662 هـ / 1264م) عن حصن نقطة من عمل صفاقس

---

(1) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 129 ب . منذ سنة 523 هـ ، طرحت على المازري مسالة ترميم سور القيروان ، وذلك ببيع انقاضه للإنفاق على بناء أبراجه وجدرانه بالآجر والجص لأنه « يخاف الدخيلة على أهل البلد ووصول ذلك الأذى إليهم وتمكن اليد الغالبة » (البرزلي ن.م. ، ج II ، ص 156) .

(2) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 116،37 .

(3) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص . البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 1120. انظر أيضا : مقالنا حول وثيقة في التاريخ الريفي ، **المجلة المغربية** ، عدد 50 .

في المائة الرابعة لسكنى الصالحين ، ثم لم يبق منهم اليوم أحد حتى أنّ الحبس على حالة منقطع فيما يذكر . فبنى حوله دورا ، وصار هو حصنا لهم يضعون فيه ما يخاف عليه من خزين وغيره ، ويلجؤون إليه عند الخوف من الأعراب أو عدو الدين ، ولولاه ما عمروا ذلك الموضع من الخوف المذكور . فهل يجوز لهم ذلك حتى يوجد من يعمره على الوجه الذي حبس له ، أو يبقى خاليا ، مع أنه إذا خلى يخشى عليه الانهدام والسقوط ، وان علم منعهم منه ، أدى ذلك إلى انتهاب العرب لهم ، وخارج الحصن أراض محبسة وأبار وبعض نخيل ، ولا يدري هل حبسه لما يعرض للفقراء من إصلاح ، أو للساكنين به ، لقدم الزمان ، فهل يصلح بقية ذلك أم لا ؟ فأجاب: ما ذكرتم هو شأن أكثر المحارس » (1) .

ويأتي مثال رباط المنستير دليلاً على هذا التطوّر الحاصل في نظام الملكيّة : فبعد الانهيار الكامل للبُنَى الزراعيّة خلال النصف الثاني من القرن الخامس هـ ، بدأت الترتيبات الجديدة تتضح لتملّك الأرض المهملة التي كانت حكرًا على الرّباط، وأصبحت في عداد "أرض السّبيل".

وقد تمّت إعادة توزيعها، وفق معايير محدّدة، اذ أشترط المازري شروطًا عدّة للحصول على " مزرعة " ، أهمّها :

– أن يكون صاحبها في حاجة لمصدر للرزق.

– أن يتولّى غراسة الزيتون ورعايته حتى الاطعام، دون تملك نهائي لها. فهي ملكية للحصن، مع إبقاء الانتفاع له .

– أن يقتصر على أخذ ما يحتاج اليه من ثمرتها، وإنفاق البقيّة على المرابطين بالحصن، مع اعطاء الأولوية للمحتاجين ومن هم أكثر نفعًا في القصر .

أما أثرياء المرابطين، فانه لا يحقّ لهم سوى استغلال مبقلة (تزرع فيها الخضر والبقول) واستعمال الماء والاحتطاب .

وخلاصة القول، عرفت أحمية رباط المنستير عمليّة إحياء للأرض، انطلاقًا من هذا النموذج الذي يتقارب مع شركة المغارسة (2) .

والحقيقة ان هذه الشروط لم يقع أستيفاؤها، اذ سرعان ما حصل انزلاق في كيفيّة الاستغلال، وطبيعة ملكية المرابطين التي لم تعد مقتصرة على المعاشي والضروري انّما أصبحت بأيديهم من الأرض أكثر ممّا بيد غيرهم، فحصلوا على ثروات هامّة .

ثمّ انّ تواصل مدّة الانتفاع بهذه الزياتين جعل من الصّعب على ناظر الحبس

---

(1) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 154.

(2) البرزلي ،**ن.م.**،ج ا ، ص 117 ب – 119 ب .

استرجاعها. وممّا لا يرقى إليه الشكّ أن هذه الجنّات المحيطة بالمنستير التي أفتى في شأنها المازري كانت محدثة في مطلع القرن السّادس هـ / XII م،وهي الفترة التي شهدت انزياحًا سكنيًا خطيرًا من دواخل البلاد في اتجاه السّواحل . فقد التجأ سكّان البوادي والقرى إلى الرباط السّاحلي هروبًا من الاضطرابات الداخلية، ممّا يفسّر ازدياد عدد المرابطين بالمنستير والحاجة إلى إعادة تعمير غابة الزيتون (1).

وممّا شجّع على هذه العمليّة ، أنّ العلاقة بين أهل القصر وعرب البلد كانت علاقة عادية، ولم تتدهور بينهما الآ سنة 760 هـ ، وخاصّة في مدّة حكم أبي فارس عبد العزيز، لما رفض الطرف الثاني (سكان البلد) تحبيس الدّور ببلد المنستير والأراضي على الرّباط، وقد نجم عن هذا الصّراع بين المعمّرين القدم (عرب بلد المنستير) والوافدين الجدد (المرابطين)تلاشي الغروس ورحيل أهل الرّباط عنها، بعد تغلّب أهل البلد عليهم. ولّما طرحت هذه المسألة على ابن عرفة، وسئل عن الجنّات المحدثة بالمنستير، لم يجرؤ على الحسم فيها لصالح طرف، اذ كان " **يقف على الجواب في أرض المنستير ومغارسها ومحرثها** " (2) .

ولم يتخطّ البرزلي هذا الحاجز من بعده مكتفيا بالقول بأنّ هذا السؤال من أصعب ما يتكلّم فيه المفتي لأنّه طالت الأزمان بهم، وهم فيه على غير المنهج الذي يقتضيه الفقه (3) .

على أنّ السلطان الحفصي كان عمليًا أكثر ، اذ أنّ رحيل أهل الرّباط وتلاشي الغروس سهّل عليه الاستحواذ على الأرض، فأمر باعادة ترميم القصر وتعمير الأرض .

ويبدو لنا أنّ هذه الحقبة الجديدة من تاريخ الحبس برباط المنستير قد شهدت هيمنة مؤسّسة الزاوية على الرّباط، الذي أصبح يتسمّى : زاوية رباط المنستير . وقد قام شيخ الرّباط أبو عبد الله محمد بن أبي زيد بدور هام في إعادة صياغة شؤون الرّباط وتنظيمها. فبعد أن كان هذا الرّباط عاجزًا عن إقامة صلاة الجمعة لقلة النّاس وعدم وجود إمام كفء، وأهملت أغلب المساجد به، نشطت الحياة الدينيّة من جديد بعد أن تجاوز عدد المرابطين المائة، وذلك على اثر الاجراءات التي اتخذها أبو زيد، كمنع الصّلاة خارج المساجد وأمام الحصن (4) .

أما ملكيّة القصر، فقد كانت آنذاك تمتدّ إلى أكثر من خمسة كم غرب المدينة

---

(1) البرزلي ، **ن.م.**، ج ا ، ص 56 ب – 157.

(2) الونشريسي ، **ن.م.**،ج VII ، ص 179 .

(3) البرزلي ، **ن.م.**،ج ا ، ص 56 .

(4) البرزلي ،**ن.م.**، ج ا ، ص 117 ب – 119 ب . ابن ناجي ، **معالم** ، ج VI ،ص 240 .

وجنوبها، الى الموضع المسمّى بالقرطين، وهو في الغالب أراضٍ مغروسة زياتين محبسة على الرّباط (1).

كما وقع استغلال الأحباس المتعدّدة من أشجار الزياتين التي تخصّص غلّتها لصيانة مساجد الرّباط وتوفير الوقيد وغيره (2).

هذا فضلاً، عن الاحباس الأخرى في بلاد الجريد وغيره (3).

وفي هذه الظرفيّة، تمّ تحبيس هنشير ابن منصور بناحية المهديّة على الرّباط (4).

وفعلا فإنّ إعادة تعمير الأراضي المحبسة على الرباطات لم يخص هذا المثال فحسب، إنما شمل عديد الحصون والأربطة الساحلية، ولنا مثال دقيق يخصّ رباطات المنستير. وهي تأتي شاهدا على قيام حركة اسكان وتعمير بالسواحل الإفريقية، اعتمدت قاعدتها على نموذج جديد، وهو الصلحاء - المزارعون، كما يدل عليه مثال المنستير ونقطة (5).

- ***الأحباس على المنشآت الثقافية والدينية*** : تمثل العقارات المحبسة على المساجد نسبة كبيرة من الأحباس بالمدن، وتغطي مصاريف هذه المعالم من الموظفين وأجرتهم ووقودهم. وقد كانت مصادر هذه الأحباس متعددة : فالى جانب تبرع الخواص بالعقارات لفائدة هذه المنشآت، فإنّ السلاطين كثيرا ما يلجؤون إلى هذه العملية، لغائيات سياسية واجتماعية، كما ترجع الأحباس الخاصة التي انقطع فيها العقب إلى المساجد، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأحباس المبهمة أو أحباس القرى إذا جهلت مصارفها، فإنّ صاحب الحبس الكبير بتونس يتولى جمعها وصرفها على صيانة المساجد وترميمها (6).

ونتيجة لذلك، فقد كانت مداخيل بعض المساجد الجامعة الكبيرة أكثر من مصاريفها، وأولها جامع الزيتونة، إذ تعددت العقارات الموقوفة عليه، حتى أنّ جزءا منها كان يخصّص لأجرة الموظفين وتوفير الوقود بجامع الموحدين بالقصبة (7).

وفي الجملة فإنّ توفير فائض للحبس، يطلق عليه تسمية الوفر، يطرح

(1) البرزلي، **نفسه**، ج I، ص 58.
(2) نفسه، ج I، ص 1120.
(3) ابن ناجي، **معالم**، ج IV ص 173.
(4) راجع : محمد حسن، وثيقة في التاريخ الريفي.... نفس الاحالة.
(5) راجع مثال حصن المنستير في الفصل الخاص بالملكية الخاصة. راجع أيضا مقالنا حول الصلحاء - المزارعين بوسط إفريقية، حلقات البحث بيت الحكمة.
(6) الونشريسي، **المعيار**، ج VII، ص 335.
(7) البرزلي، **جامع**، ج I، ص 104 ب.

إشكالية صرفه، وقد اختلفت الأجوبة في ذلك : ففي ظرفية مضطربة، كان المغيلي يوصي بالمسارعة بصرف هذه الأوفار في أي مشروع خيري، لأنّ « **في بقائها موقوفة تعريضا لها للتلف من قبل أهل العداء والظلم الذين لهم استطالة تمتد في أوفار الأحباس، وتصرفها في وجوه فاسدة** ».

أمّا الغبريني، فإنه فضل ألاّ يصرف هذا الفائض في غير ما خصّص له، وأنّ يدخّر ويؤمن بيد ثقة، وذلك جوابا عن مسألة تتعلق بأحباس «**مساجد قرية تفضل من غلاتها بعد أجرة مؤذنها، وأئمتها وكسوتها ووقيد قناديلها في العام فضلات، هل تصرف تلك الفضلات لضعفاء ذلك المكان، أو يرتبون في المسجد لقراءة الحزب، أو يعطون ذلك دون قراءة، لوصفهم بالطلب وضعفهم، أو يقف ذلك في ذمم المستقبلين للأوقاف حتى يحتاج إليه** » (1).

على أنّ الغالب على هذه الأوقاف، هو ضعف مردودها، حتى أنّ بعض القضاة في القرن الثامن للهجرة كان يفضل نقض هذه الأحباس وإرجاعها إلى أصحابها، إذا كانت الغلة لا تفي بالمصاريف. فالاهمال كان السمة البارزة لها، من ذلك أنّ الفدّان المحبس على مدرسة القنطرة بتونس تحوّل إلى مقبرة، في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري. مما أدّى إلى عدم صيانة المدرسة، واندثار بعض أجزائها، وقد لجأ المتصرفون في الحبس إلى تخفيض مرتب الطلبة والمدرسين، وإلى بيع أنقاض الدور الخاربة منها، واشتراء « **رسم في الغابة بتونس** » بثمنها.

كما كانت عائدات الحبس عرضة للنهب والغصب، من قبل المشرفين عليها والمنتفعين بها، وقد يصل الأمر بهم إلى الإدعاء بتعطيل الحبس، وعدم وجود عائدات خاصة به (2).

وينعكس تراجع غلات الأحباس سلبا على مرتبات الموظفين والعاملين ومنح الطلبة، فيلجأ المتولي للحبس إلى إجراءات تقشفية عدة، مثل الاستغناء عن بعض العملة والموظفين، أو التنقيص في أجورهم، واتباع نظام المحاصة بينهم،

(1) المغيلي، **الدرر المكنونة**، ج II، ص 66ب، 71 ب.
(2) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 1114، الونشريسي، **المعيار**، ج VII، ص 342،336،334، وكانت الاراضي المحبسة لا تصلح أحيانا للزراعة والغرس فتتحول إلى مسلك لمواشي الناس (المغيلي، ن.م. ج II، ص 156) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 50 ب، 153 (وقال خصوصا : وفعلت ذلك في فضلة من الحبس، فاشتريت بها المدرسة ربعا وذلك باذن الناظر في الحبس، وكذا اشتريت حوانيت في مقابلة العلوّ لأنّ الحوانيت أكثر فائدة).

أو الضغط على المصاريف ، كتحديد عدد القناديل والشموع بالمسجد مثلا . ولذا فإنّ عمليات ترميم المعلم ، أو الزيادة في عدد المشتغلين بالمدرسة أو المسجد الجامع ، من إمام ومؤذن وناظر وبواب ووقاد للشموع والقناديل (التي يصل عددها 120 بجامع القرويين) كما أنّ القيام بمصاريف إضافية ، ينعكس سلبا على أجور المشتغلين بالمؤسسة ومرتباتهم (1) .

وتبعا لذلك ، فإن اقامة الطلبة بالمدرسة قد حددت إلى وقت معلوم ، يتراوح بين عشر سنوات بالمغرب الأقصى ، وخمس بتونس ، وبعد انقضاء هذه المدة ، فإنّ الطالب إذا لم يظهر نجابته ، أخرج من المدرسة جبرا (2) .

– ***الأحباس على المشاريع الإجتماعية*** : في ظل غياب مؤسسات بلديّة قارة ، تتولى الأحباس مهمة التعمير والتهيئة ، فتسهر على صيانة القواديس (السواقي) الجالبة للماء ، كما تنجز المشاريع الإجتماعية ، إذ حبست بعض أراضي إفريقية في القرن الثامن الهجري على المرضى بالجذام ، حتى سمي الموضع بالأحباس (3) .

ومعلوم أنّ الفئات الإجتماعية الرثة من فقراء ومعوزين كانت تنتفع بدورها من الريع المتأتّي من الحبس العام .

ج) كيفية الإستغلال للعقارات المحبسة :

لا تتعرض هذه الملكية الحضرية للقسمة أو البيع ، من الناحية النظرية على الأقل . على أن استغلالها نادرا ما يكون بطريقة مباشرة ، لأنّ المنتفعين بها هم في الغالب من أهل المدينة ، الذين يتولّون كراءها إلى طرف ثان ، أو حراثتها بالشركة ، وهو أمر لا يتوفر بسهولة في فترات الاضطراب الاجتماعي والسياسي ، حيث تزداد أهمية المساحات البور (4) .

ولذا فإنّ عملية **الكراء أو القبالة** هي الشكل الأكثر انتشارا للاستثمار ، وتتم وفق الآليات التالية : يتولى ناظر الحبس اكتراء هذه العقارات ، مقابل دفع مبلغ سنوي معين ، مدة محدودة من الزمن ، لا تزيد على أربع سنوات حسب ابن رشد ، غير أنها زادت على ذلك القدر بكثير بتونس الحفصية ، نتيجة جمود الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ووهنها ، قال البرزلي في هذا الصدد : **« والواقع عندنا اليوم مما جرت به العادة في أحباس قرطاجنة بقاؤه مدة أربعين سنة ، ورأيت كذا**

(1) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 5 ، 17 ، 41 ، 85 ، 170 . 262–263 . ابن خلدون ، **المقدمة** .
(2) الونشريسي، **نفسه** ، ج VII ، ص 7 .
(3) **المصدر نفسه** ، ج VII ، ص 11 ، 38 .
(4) الونشريسي ، **المعيار**، ج VII ، ص 43 .

في قاعدة دار خمسين سنة من الحبس ، ولعلهم لم يجدوا من يتقبلها إلاّ على هذه الهيئة ، فاغتفروا ذلك للضرورة كالتزام الجزاء على أرض الجزاء ، بدأ للضرورة الملجئة إلى بيت مال المسلمين » (1) .

وقد كانت الغاية من قصر مدة القبالة لأراضي الحبس ، التي تصل أحيانا سنتين، عدم إهمال الأحباس بطول مكثها بيد متقبليها ، والزام المكتري بالزيادة في الكراء ، التي قد يقترحها غيره (2) .

لكنّه لا يخفى علينا ، من الناحية العملية ، أنّه من الصعب اخراج المكتري وتعويضه ، إذا لم يرغب في ذلك ، كما أنّ أكرية الأحباس عادة ما تكون أقل ارتفاعا من الأكرية العادية . وزيادة على تملص المزارعين من دفع الكراء في سنين المسبغة ، فإنّ تقويم كراء الأرض عند الجائحة ليس أمرا ميسورا ، بين طرفي النزاع : ناظر الحبس والحرّاثين ، فيتم الالتجاء إلى العدول ذوي الخبرة في الفلاحة ، الذين يطلق عليهم أيضا : أهل العدل أو البصر أو المعرفة ، كما يعتمد على شهادة أهل الفلاحة من أهل البلد (3) .

والعادة في الأحباس ، أن تتم عملية الكراء للأرض بعد إعلام الناس ، بالنداء عليها ، وتقع فيها المزايدة إلى أن يمضي الناظر كراءها ويكتب العقد الموثق من قبل شاهدين معينين للشهادة في الأحباس . ويدفع الكراء نقدا أو عينا (4) .

وإلى جانب الكراء ، فإنّ أرض الحبس تعطى لشريكين أو أكثر مزارعة ، على أنّ المغارسة لم تكن جائزة ، من الناحية النظرية على الأقل ، لأنّ ذلك يؤدّي إلى بيع بعضها ، وإذا ما وقع ذلك ، فإنّ بعض القضاة كان يمضي المغارسة إذا أدرك الغرس ، والبعض الآخر يفضل التمسك بحرف القانون ، فيقوم الغرس ، ويدفع نصف المبلغ إلى المغارس ، على أقساط (5) .

وتعتبر المغارسة شكلا راقيا من أشكال استغلال الأراضي الحبسية ، إذ لا يتأتّى ذلك إلاّ في ظل الاستقرار الاجتماعي ، وبمشاركة جاهدة للمزارعين . ولذا فقد عمد بعض المعمرين للأرض إلى البناء فيها ، رغم معارضة السلطة الحضرية لهذا الشكل من أشكال التعمير (6) .

(1) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 124 . الونشريسي ، **ن.م.** ج VII ، ص 53،44 (يطلق على كراء الأرض المحبسة بالمغرب الأقصى الجزاء) .
(2) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 438 . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 136 ، 88 ب .
(3) الونشريسي ، **المصدر نفسه** ، ج VII ، ص 121 ، 330 .
(4) المصدر نفسه ، ج VII ، ص 46 .
(5) المصدر نفسه ، ج VII ، ص 119 ، 158 ، 437 . البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 91 ب .
(6) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج 4 ص 89 ب قال ابن عرفة : كان بعض أهل وقتنا من أئمة المساجد يأخذون غلته ويدعون بناءه حتى يتوالى عليه الخراب .

وعادة ما تؤدي غراسة الأرض والاستقرار بها طيلة أجيال متعاقبة إلى التملك لأرض الحبس ، مثلما تم في بعض أرض المنستير المحبسة على رباطها ، حتى أصبح من الصعب التثبت في أمرها في القرن السادس الهجري ، وازداد الأمر تعقيدا في القرن الثامن بعد أن أحدثت جنات جديدة بناحية المدينة ، وأضحت ملكا للمرابطين (1) .

وفي الجملة ، فإنّ طرق استغلال الأوقاف ، كراء ومزارعة ومغارسة ، تبين ضعف مردودية هذه الملكية الحضرية التغييبية ، وتعرضها للتعدي والإهمال .

وفي هذا الصّدد تتعدد أطراف التعدي ، فالمكتري لها يتملص من دفع الكراء ، بدعوى ضعف الإنتاج ، والمنتفع بأموالها يزعم أنها غير كافية ، أما المشرفون عليها ، فهم بدورهم لا يظهرون إلاّ النزر القليل من محصولها . هذا فضلا عن محاولات التملك التي تتعرض لها (2) .

ومن النادر أن يحصل فائض في الريع العقاري ، فيقع إما خزنه أو استثماره في شراء الأرض ، كما فعل البرزلي ، الذي اشترى للمدرسة المحبس عليها ربعا وحوانيت . ومما يسترعي الانتباه أنّ هذا الفائض وقع استثماره في التجارة في القرن التاسع الهجري/ XV م ، إذ كان صاحب الأحباس بتونس يشتري بمردود الحبس سلعا تجارية . ومما يؤكد ذلك ما كان يقع بالمغرب الأقصى ، حيث يستثمر أرباب الأموال عائدات الأحباس ويشغلونها في التجارة على أساس السلف (3) .

-ناظر الحبس : الصيانة والتجاوزات :

هي ولا شك وظيفة دقيقة وحساسة ، تعرض صاحبها في كثير من الأحيان إلى المحاسبة ، وعادة مايتولى القاضي تعيينه لإدارة الأحباس ، ويتحصل في

(1) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج I ، ص 117 ب – 119 ب .

(2) من الأمثلة التي تخص تملك الأحباس والبناء فيها ، ما ذكره ابن عرفة من أن أحد كبار التجار الاملياء ابن علال اكترى عرصة ، لأ بناءَ بها في أواسط القرن السابع ، وسط المدينة النواة ، في رائغة غير نافذة حذو سوق الابارين شمالا ، الذي يقع بدوره جبلي جامع الزيتونة . لكنه بنى قسما منها ، إضافة إلى منزله ، ولما اطلع ناظر الأحباس ، وهو قاضي الجماعة بنفسه ، ومعه " من له معه شورى " على الأمر ، قضى بكرائها باضعاف ثمنها ، ومكث على ذلك أربعين سنة . وفي عهد ابن عرفة ، أي بعد نحو قرن ونصف ، بيعت الدار التي بقيت تعرف بدار ابن علال إلى أحد التونسيين ، وتحولت إلى ملكية خاصة ، لا حبس فيها : انظر : ابن عرفة ، **المصدر نفسه** ، ج IV ، ص 88 ب .

(3) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 153. الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ص 236 .

المقابل على ريع عقاري من عائدات الحبس نفسه ، وذلك « **لتعذر الأخذ من بيت المال في هذه الازمنة** » ، وقد تبلغ نسبة كبيرة من المداخيل ، فضلا عن التحيلات العديدة التي يلتجئ إليها لابتزاز هذه العائدات (1) .

ولذا فإننا نرى أنّ كبار القضاة والفقهاء كانوا يتهربون من تحمل هذه المسؤولية ، فالقاضي ابن عبد السلام على سبيل المثال رفض ادارة العقار الذي حبسته أخت السلطان أبي يحيى أبي بكر على إحدى مدارس مدينة تونس ، فنقلته إلى ناظر آخر ، وهو الشيخ ابن سلمة (2) .

وفي الجملة ، فإنّ النظرة إلى مقدم الحبس كانت تشوبها الريبة ، حتى أنّ أحد الفقهاء ، وهو البرزلي ، أوصى قضاة الكور بعدم وضع ثقتهم كاملة في ناظر الحبس ، معتبرا أنّ تصديقه في ما يدعيه حول المصاريف والمداخيل ، دون الاعتماد على شهود ، هو جهل بصناعة القضاء ، واخلال بمتطلبات المهنة (3) .

وفضلا عمّا يتعرض إليه مال الحبس من تعديات مختلفة ، كسلف السلطان منه أو استيلاء أهل العداء والظلم الذين لهم استطالة عليه « **فإنّ المقدم على الحبس لا يدير في الغالب العقار ادارة محكمة ، بحكم عدم ممارسته للنشاط الزراعي مباشرة ، وتولّيه التسيير بطريقة تغييبية ، بواسطة وكلاء وأعوان ، وبالتالي فكثيرا ما يعجز عن تغطية المصاريف ، التي تتجاوز المردود الزراعي ، فيقع تضمينه إذا ثبت لدى القاضي تبذيره للمال وتفريطه فيه** » (4) .

وازاء هذا الوضع ، فإنّ الناظر يتعرض للعزل من قبل القاضي ، مع الملاحظة أن الحبس لا يمكن له المطالبة بعزله ، إذا قام بالوقف على مؤسسة عامة . أمّا صاحب الحبس الخاص ، فإنّه يحق له ذلك ، وقد رأينا ابن عرفة يفعل ذلك في أحباسه .

وتتم في حالات أخرى محاسبته ، وصورة المحاسبة كما أوردها أحد فقهاء المغرب ، وهو العبدوسي ، هي التالية : « **يجلس الناظر والقباض والشهود ، وتنسخ الحوالة كلها من أوّل رجوع الناظر إلى آخر المحاسبة ، وتقابل وتحقق ، ويرفع كل مشاهرة أو مسانهة أو كراء أو صيف ، أو خريف ، و(يجمع) ثم يقسم على المواضع ، لكل حقه ، ويعتبر المرتبات وما قبض وما تخلص** » (5) .

(1) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 123 ، 387 ، 480 (في عهد ابن عرفة ، وقع مثال من هذا التحيل ، وهو أن ناظر الحبس أخفى الزائد في الريع ، مدعيا أنها لم تزل باقية عند سكان ربع الحبس) . وبقدر ما تكون سطوة صاحب الأحباس قويّة ، يكون معرّضا أكثر للمصادرة : فالفقيه اللغوي أبو العبّاس بن يوسف السّلمي الكناني (نهاية القرن السّابع هـ) اشتدّ باسه عند تولّيه الأحباس لكنّه ابتلي في آخر حياته ببيع تركته ومصادرتها .

(2) المصدر نفسه ، ج VII ، ص 456 .

(3) البرزلي ، جامع ، ج II ، ص 13 ب .

(4) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 186 ، 211 ، 217 ، 221 ، 298 .

(5) المصدر نفسه ، ج VII ، ص 100 ، 302 .

وهي عملية كثيرة الوقوع في إفريقية الحفصية ، فإلى جانب المثال الذي رأيناه حول محاسبة الناظر على أحباس السور بالقيروان سنة 744 هـ ، فقد وقعت محاسبة مشابهة لمتولي سور مدينة تونس في نفس السنة :

كتب البرزلي في هذا الشأن : **« سئل شيخنا أبو القاسم الغبريني عمن قدمه القاضي على حبس السور ، واشهد على الناظر أنّه لا يتولى شيئا من السور دخلا ولا خرجا إلاّ بالعدالة ، وجعل له على ذلك مرتبا من غلة ربع السور المذكور ، وتمادى على ذلك مدة ، ثم طلب من القاضي محاسبة على دخله وخرجه ، فحوسب بحضرة العدول ، فوجد دخله أكثره بغير شهادة ، وخرجه بالشهادة ، ووجد في خرجه رسوما بمعاينة الشهود، دفع أجرة البناة والخدمة في السور ، ولم يضمنوا الشهود معرفة الخدمة والوقوف عليها ، فهل تحسب له هذه الرسوم أم لا ، ووجد في خرجه أيضا رسوما أنفقت في سجن هذا البلد ، في بنائه واصلاحه ، وهذا الإنفاق في السجن في مدة لم يكن في البلد قاض ، إنما أنفقه على يدي عمال المدينة ، المذكور على الأشغال المخزنية، أجبر الناظر على السور على بناء السجن من مال السور . ووجد في مودع جامع المدينة رسما فيه جماعة من الشهود ، بأنّ العادة الجارية بها إذا احتاج السجن إلى الإصلاح انما يكون من مال المخزن في عام 744 هـ . وتوفي عدوله على العدالة وثبت الرسم عند القاضي ، فهل يحسب له هذه الرسوم المنفقة في السجن ، لكونه مجبورا عليها أم لا، للرسم المذكور ، ولم يستند لحكم شرعي، فيكون جائحة نزلت به ، وهل يجب له جميع مرتّبه المسمى أم لا ، لتفريطه في كون أكثر دخله بغير شهادته ، ولم يقدمه القاضي إلاّ على ذلك »** (1) .

وبالتّالي ، فقد وقعت هذه المحاسبة لناظر الأحباس بسور القيروان بسبب تجاوز صلاحياته ، لعدم توثيقه المداخيل ، وصرفه للأموال في غير موضعها الخ... وفي حالات أخرى يتعرض هذا المسؤول للمحاسبة عند تسجيل عجز في الميزانية ، وهو ما وقع بتونس في عهد ابن عبد السلام ، وكذلك في عهد ابن عرفة، لما حوسب صاحب حبس ، **« فشط دخله على خرجه بدنانير ، فادعى أنّ بعض الدنانير الشائطة باقية عند سكان الحبس ، فاعترف بعض السكان بذلك ، وبعضهم لم يوجد له معترف »** (2) .

ويظهر جليا أنّ المقدم على الحبس ليس وحده مسؤولا على ضعف مردودية الأراضي المحبسة ، بل كان يشاركه في ذلك الطرف المستغل من المزارعين ، وكذلك

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 61 ب . 162.كذا في الونشريسي، **المعيار** ، ج VII ، ص 221 .
(2) البرزلي ، ن.م. ، ج II ، ص 62 ب – 163.

الطرف المنتفع منها مثل العلماء وغيرهم ، وذلك بشهادة البرزلي الذي أقر بأنّ **« هذا الزمان كثر فيه أكل خراج حبس المساجد من الأئمة ، ويدعون الحبس منهدما ، وربما يتعطل مما يتوالى عليه الخراب »** (1) .

وفي الجملة فإنّ الملكية الحضر– ريفية التي حَبست حماية لها ، لم تسلم من التعديات المختلفة ، وممّا انجرّ عن ذلك سوء استغلال الأرض وضعف مردودها ، وقد كانت من ناحية ثانية محرارا للعلاقة بين المدينة والريف ، بين المالك العقاري والمزارع المنتج .

5) أنموذج من الأحباس : وقف هنشير ابن منصور بالمهدية على رباط المنستير سنة 825هـ . /1422م.

حدثتنا المصادر النوازلية باطناب عن موضوع الحبس ، لكن الرسوم المتعلقة بأمثلة عينية بقيت نادرة بالمقارنة مع الوثائق التي ترجع إلى الفترة اللاحقة ابتداء من القرن XVII ققم . وهو ما يفسر حرصنا على دراسة هذه الوثيقة (2) .وهي عبارة عن رقعة طولها 116 سم . وعرضها 23 سم ، تآكلت بعض أطرافها السفلى ، كتبت بخط نسخي – مغربي ، واحتوت على 136 سطرا . وتتعلق برسم حبس لهنشير ابن منصور بالمهدية ، قام به أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي زيد التميمي ، صاحب الزاوية برباط المنستير ، لفائدة ابنه أحمد (3) وفقراء القصر الكبير والواردين عليه من طلبة ، وذلك سنة 825 هـ / 1422م. واستمر استغلال الأرض بكيفية متواصلة إلى حدود سنة 1186 هـ/ 1772م ، وهو تاريخ ظهور نزاع شديد حول شرعية الحبس ، مما جعل الطرف المستغل يبحث عن اثبات جديد لصحة الوقف .

من هنا تتضح الأبعاد التاريخية المختلفة للوثيقة ، إذ أنها تحتوي على مادة

(1) المصدر نفسه ، ج I ، ص 153.
(2) مازالت الوثيقة بحوزة أصحابها بمدينة المنستير . وقد نشرنا نصّها في المجلّة التاريخيّة المغربيّة ، عدد 50، ص 221–248 .
(3) ذكر الزركشي (**تاريخ** ، ص 155) ان الشيخ أبي العباس أحمد بن الشيخ محمد بن أبي زيد توفي بالمنستير ودفن بها ، في 12 صفر 869 هـ . وما زالت زاوية « أحمد بوزيد» قائمة في مقبرة المنستير ، قرب الرباط . وهي مكونة من قاعة دفن يتقدمها رواق مكون من أربع أقواس نصف دائرة ، تستند إلى أعمدة من الكذال ، تيجانها من النوع الحفصي المحور . وتشير النقيشة فوق ساكف الباب إلى نقل قبره من مكان آخر ، ويبدو أن ذلك وقع نتيجة تقدم البحر ، وجاء يمين النقيشة : بناه الأمين محمد بن محد العويتي ، وفي يسارها : الحمد لله نقل إلى هذا المقام سيدي احمد بن أبي زيد على يد وكيله حفيده السيد علي المبروك في 3 ربيع الأول سنة 1206 هـ .

فقهية وإدارية هامة تتناول بالدرس كيفية كتابة وثيقة الحبس والاشهاد على صحتها والتعقيبات المتتالية عليها وطرق فحص الخط والعلاقة بين القضاء والافتاء وفحوى الفتاوى . كما أنّ مادتها الاقتصادية هامة إذ أنها تتعرض إلى مختلف المراحل التي تمر بها عملية التحبيس ، وإلى طريقة استغلال الهنشير ومسائل الحوز والملك ، والأطراف الإجتماعية المرتبطة بالحبس في البادية والمدينة ،الخ ...

أ) المادة الادارية والتوثيقية :

ثم نسخ الرسم سنة 1186هـ/ 1772م بمدينة تونس ، وذلك من طرف العون في القضاء : عثمان عويج ، بطلب ممن له النظر في ذلك : وهو القاضي أو الناظر في الحبس . وقد نقل هذا الرسم من أصله ، وينقسم إلى جزئين :

-*الرسم العتيق* (س 1- س 33) :

- يحتوي على ديباجة في ثلاثة أسطر بخط مغاير ، وهو اثبات لتطابق النسخة مع أصلها . وقد وضع لذلك الغرض ختم غير واضح .

- أما نص الوثيقة الأصلية فهو يحتوي على اسم المحبس ، وحدود الحبس واسم المحبس عليه ونوعية الحبس وكيفية الاستغلال والمعاينة التي قام بها المنتفع للأرض وحدودها . وتنتهي بتاريخ الرسم (825 هـ) وشهادة على صحّة الرسم قام بها عدلان : أبو اسحاق ابراهيم الصنهاجي وأبو العباس أحمد البناء . وقد ختما في الطرة اليمنى من الرسم ، ثم ختم نائب الاحكام الشرعية بسوسة بدوره في الموضع نفسه ، وتم اثبات كل ذلك عند قاضي الجماعة بتونس. ونلاحظ هنا التدرج في السلطة القضائية : من المدينة الصغيرة إلى المدينة إلى الحاضرة . وهكذا تبدو عناصر الرسم الحفصي مكتملة ، والوثيقة ذات صبغة شرعية تامة .

ومما يلفت الانتباه في كيفية التوثيق هو حرص المحبس على اثبات الرسم عند صاحب الاحكام الشرعية بتونس، وعدم اكتفائه بختم العدول المحليين أو حتى بختم نائب الاحكام الشرعية (وهو قاضي سوسة)، وذلك رغم ما للوظيفتين من طابع رسمي .

فقد كان قاضي الجماعة بتونس ، وهو آنذاك أبو يوسف يعقوب الزعبي الذي تولّى هذه الخطة بين سنتي 813 هـ - 833 هـ يقوم بتعيين القضاة الجهويين والعدول (1) .

(1) الزركشي ، **تاريخ الدّولتين** ، ص 124، 128 .

وكانت وظيفة العدل خطة رسمية تزايدت أهميتها في القرن IX هـ/ XVم، وذلك بتزايد الالتجاء إلى تدوين العقود وكتابتها . وتتمثل خطته في الشهادة والعدالة، أي في تحرير العقود والوثائق وختمها مقابل أجر يدفعه المعني بالأمر، وفي تمثيل القاضي في بعض المهام القضائية . ونظرا إلى أهمّية موقعه الاجتماعي، فقد اكتسب العدل حصانة جعلته في مأمن من التجريح الذي يقوم به القاضي في شهادته (1) . وبالتالي ، فان إثبات قاضي الجماعة للعقد لا يخلو من التفسيرات التالية :

- القيام بهذه العملية لضرورة إدارية الزامية ، تقتضي اثبات الرسوم عند السلطة القضائية المركزية ، وهو أمر مستبعد لأنه يعني ادارة مركزية شديدة التعقيد قادرة على النظر في كل الوثائق القادمة من داخل البلاد .

- تزوير العناصر الواردة في رسم الحبس خلال القرن XII هـ/ XVIIIم ، سنة 1186 هـ وهو أمر يبدو كذلك مستبعدا .

- حرص المحبس على اثبات الرسم في تونس تحسّبا لكل الدعاوي وتخوفا من النزاعات التي قد تطرأ حول هذه الأرض .

وفعلا فان القضية التي طرحت بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف : هي مدى صحة هذا الرسم وشرعيته . وقد قام نزاع حول هذا الأمر بين طرفين : الأول استمر في استغلال أرض الحبس وحوزها إلى تلك المدة ، والثاني غير مذكور ، ونفترض أن يكون من القوى الاجتماعية والسياسية الفاعلة في الجهة أو من العمال الذين كانوا يشتغلون في الهنشير بالحرث والزراعة والغراسة ، كيف تم حينئذ حسم هذا الخلاف ، وما هي الادلة القضائية الشرعية المعتمدة في ذلك ؟

- *التعقيبات على الوثيقة الأصلية* (س 33 - نهاية) :

احتاج إثبات حوز الحبس إلى معاينة خط الوثيقة الأصلية واثبات تواصل استغلالها من نفس الطرف المحبس عليه طيلة هذه المدة ، وقد قام بذلك مجموعة من العدول والقضاة . كما احتاج اثباتها إلى تحليلات فقهية مطولة ، وبالتالي إلى تشريك المفتين في حل القضية (2).

(1) انظر :

R. Brunschvig, **La Berbérie Orientale sous les Hafsides**, Paris 1947, T.II, pp.126,135.

R. Brunschvig,"Justice réligieuse et justice laique dans la Tun. des Deys et des Beys..." In **Studia Islamica**, 1965, pp.27-70.

J. Berque."Les Hilaliens repentis..." In **Annales E.S.C.** Septembre 1970.

(2) راجع التفاصيل في المقال المذكور : وثيقة في التاريخ الريفي... **المجلة التاريخيّة المغربيّة**، عدد 50، ص 221-248 .

ب) وثيقة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي :

– *الظرفية التاريخية : الزّوايا والأرض* : تميّز أواخر القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م ، بظهور حركة زوايا واسعة النطاق بالسواحل الإفريقية ، متزامنة مع حركة المذهب المالكي التي مثلها ابن عرفة وتلامذته . ولئن كانت المالكية ممثلة لفئة الفقهاء والعلماء ، فان حركة الصلحاء استندت على الفئات الاجتماعية الأقل ثراء .

وقد بلغت مع الجديدي (المتوفى سنة 786 هـ/ 1384 م) (1) فترة النضج ، وتمكنت من تنظيم هيكلي وحضور محكم ، خاصة في المناطق الساحلية التي توجد بها شبكة من الرباطات والمحارس . وكان الجديدي المستقر بالقيروان يمشي للمرابطة بالمنستير ، رفقة عدد من أصحابه (2) . وقد أكتسب صلوحيات واسعة مكنته من تعيين تلامذته في المناصب القيادية للحركة الصوفية ، فولى أبا بكر القرقوري على صفاقس وعملها ، وابن أبي زيد على المنستير وعملها وعبد العزيز بن عياش على المهدية وعملها .

فكانت « **جميع تلك الأوطان والعمالات عامرة بفقرائهم وطلبتهم** » . وليس من المستبعد أن تتنزل هذه العملية في اطار مسار تاريخي عام يتميز باعادة تعمير الأرض بوسط افريقية انطلاقا من أنموذج جديد (3): وهو الزوايا الريفية . وقد اكتسبت هذه الظاهرة تدريجيا المكونات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية الخاصّة بها :

اقتصاديا : تمكنت من بسط نفوذها على هناشير شاسعة وضيعات عديدة، توفر لها دخلاً قاراً في شكل ريع عقاري تتحصل عليه نقدا أو عينا ، فقد ذكر ابن ناجي أن خديم قصر المنستير ابراهيم الهواري تولى جمع غلة الأحباس من بلاد الجريد نقدا ، وأوصلها إلى شيخ الفقراء بالقصر : أبي محمد عبد الله الرياحي (4) كما يؤخذ هذا الريع عينا ، ويستعمل لغذاء الشيوخ والفقراء

(1) ابن ناجي ، **معالم الايمان** ، ج IV، ص 240–241 .
(2) ن . م ، ص 231 .
(3) خصت احدى المسائل المطروحة على ابن عرفة زيتون الساحل ونحوه من زيتون افريقية المستنبت . انظر : الونشريسي، المعيار ، ج I، ص 385 .
(4) ابن ناجي، **نفس المصدر** ، ن . م ، ج IV ، ص 173 .

والزوار ، وقد كانت زاوية ابن أبي زيد بالمنستير تضم نحو المائة ، « **وجمع لهم من الربع ما يقوم بهم أو يقارب** » (1) .

– أما اجتماعيا وسياسيا ، فان هذه المؤسسة ، كثيرا ما كانت تقيم علاقات سياسية متميزة مع المخزن وتلعب دور المعين في جمع الضرائب ، فكانت تقوم بحق الضيافة لمحلة السلطان ، وفي المقابل ، فان مطالبهم تحظى بالقبول ، فكان « **كل ما يكتب عبد العزيز بن عياش (شيخ طبلبة) للسلطان غالب الحال تقضى فيه الحاجة** » (2) . كما استعملت هذه الزاوية ملاذا للهاربين والخائفين، « **فكل من يهرب إليه (ابن عياش) من قواد السلطان وشيوخ العرب وصل الأمان، ويكتب فيهم ، فيجيئه الجواب بما يريد** » (3).

وبالتّالي ، يتنزل تحبيس هنشير ابن منصور في هذا الإطار التاريخي المتميز بظرفية ملائمة للزوايا. على أن أسئلة عديدة تطرح في هذا الصدد : كيف كانت ملكية الهنشير قبل تحبيسه سنة 825 هـ ؟ ما هي نوعية الحبس ، وكيف تم استغلاله إلى حدود سنة 1186 هـ ؟ وقبل ذلك ما هي الحدود الجغرافية لهذا الهنشير وأهميته ؟

– *المعطيات الميدانية للمشهد الريفي* : عمارة الهنشير واستغلاله عبر العصور :

يقع هذا الهنشير (4) شمال قرية ميانش ، التي تبعد عن المهدية بنحو 6 كم من الجنوب الغربي . وقد كانت عامرة خلال الفترة الفاطمية – الزيرية ، وكان عبيد الله المهدي قد جلب منها الماء إلى المهدية عبر قناة تصل إلى جامع المهدية . كما « **يستقى أيضا بقرب منانش من الآبار بالدواليب ويصب في محبس يجري منها في تلك القناة** » (5) . ولعل بقايا الفسقية الكبيرة المستديرة هي من الآثار المتبقية من المنشآت المائية العربية بالجهة.

(1) المصدر نفسه ، ص 240 .
(2) ن . م . ص 240 . ونشير إلى أن زاوية عياش ما زالت قائمة إلى حد الآن بطبلبة ، وتعد من المعالم المميّزة بالبلدة وتحتوي اساسا على تربة ومسجد وغرف للتدريس والزوار وزربية .
(3) المصدر نفسه .
(4) الهنشير هو الإسم الذي يطلق على الخرائب الرومانية بافريقية ، واعتبارا أنها توجد في المناطق الخصبة ، فقد أطلق هذا الاسم على الأراضي الفلاحية "البيضاء" غير المغروسة . وقد زعم « برانشفيك» أن هذا المصطلح لم يذكر في العصر الحفصي الا في جهة القيروان .انظر :
Dozy, **Supplément aux Dictionnaires Arabes**, Paris 1927, TII, p. 766-767.
Brunschvig, op.cit, T-II, p198.
(5) البكري ، **مسالك** ، ص 29 . وقد أوردها تحت اسم منانش ، ويطلق عليها السكان الآن : ميانش راجع حول هذه القرية : H. R. Idris, **les Zirides**, T,II, p.450

– ويحد الهنشير من جهة القبلة : وادي رجال شيبة في الجنوب الغربي ، والطريق الفاصلة بين الهنشير وميانش وأبي حرشة . أما شرقا ، فان ظهرة الشعرة ، وهي مرتفع في الجنوب الشرقي ، ينحدر ماؤه إلى بحيرة (1) هيبون ، تعتبر الحد الفاصل بين الهنشير والأراضي الأخرى . **« وينعطف هذا الحد للقبلة بانحراف للشرق»** إلى أن ينتهي للطريق المذكورة سابقا .

كما يعتبر الجسر والشعبة (2) نقاطًا فاصلة بين الهنشير وأبي حرشة في الزاوية الجنوبية – الشرقية . كما تحده ربوة شرقي سيدي جابر ، **« تنعطف للقبلة بانحراف للشرقي »** . أما شمالاً ، فان الطريق الفاصلة بين هنشير ابن منصور وجريج توافق فيما يبدو الطريق الحالية الموازية للطريق المهدية – سوسة . وقد كانت السبخة (سبخة المكنين حاليا) الحد الشمالي للهنشير، كما كان وادى رجال شيبة الحد الغربي له .

ومعنى ذلك أن الحواجز الطبيعية (الوادى والسبخة والمرتفعات) تمثل معظم الحدود ، باستثناء جهة الجنوب حيث الطريق الفاصلة بين الهنشير وميانش. وتبعا لذلك فان الخطين (خط الوادى والخط : هنشير جريج – ظهرة الشّعرة) جاءا متوازيين مع الشريط الساحلي ، ويمثلان زاوية تقترب من 90 درجة مع الحدين المرسومين في مستوى العرض . فهل معنى هذا أن الهنشير يناسب تقسيما قديما للأراضي ؟

– *عملية الإنتاج في الهنشير المحبس* : اكتسى الرسم صبغة الحبس المشترك باعتباره في الآن نفسه : حبسًا خاصًا على ولده أحمد الذي يبدو أنه سيرث أباه في خطة شيخ الرباط ، وحبسًا عامًا على الفقراء والواردين على الرباط من طلبة وغيرهم (3) .

وتبعا لذلك فإنّ تحبيس الهنشير على ولده أحمد وبقية شيوخ الرباط وطلبته

(1) الظهرة هي الرّبوة الصغيرة ، الحمادة او الضهر ، وذكر في النص ضهرة سيدي جابر (10م) وضهرة الشعراء (20م) . أما الشعراء فهي الغابة ، الأرض المغروسة أشجارا . وتعنى البحيرة البستان الكبير ، المنبسط الذي تصب فيه الأدوية. راجع هذا المفهوم في النصوص الموحّدية – وقد اقترن هذا المصطلح ابتداء من العصر الحفصي بالاراضي المحيطة بالرّباطات، فذكرت بحيرة العالية وبحيرة هيبون ، الخ ...: Dozy, op, cit, T II, p.53,763.

Despois, **Le Sahel et la Basse Steppe**, Paris 1955, p.53.

(2) الشعبة تعنى المسلك المنعرج الموجود في المرتفعات .

(3) حول الحبس ،انظر مثلا :

O. Pesle, la **théorie et la pratique du Habous dans le rite Malékite,** Casablanca 1941.

L. Milliot, **Introduction à l'étude du droit Musulman**, Paris 1953.

C. Cahen,"Réflexion sur le Waqf ancien," In.**Studia Islamica**, n°14, pp.37-56.

يعني ضمان خطة شيخ الرباط لابنه ، وتكريس النظام الوراثي انطلاقا من التحكم في مصادر الثروة الاساسية . ويستوجب حرث هذا الهنشير لوحده وحصاده عشرات العمال المزارعين ، وهو أمر له مغزاه يدل على مدى بسط مؤسسة الزاوية نفوذها على جموع المزارعين . على أننا لا ندري موقع الفقراء المائة في عملية الانتاج : هل كانوا يشاركون مباشرة في عملية الانتاج بصفة منتظمة وبهذا يمكن أن نطلق عليهم تسمية فقراء – مزارعين ، أم أنهم كانوا يعملون بصفة وقتية أثناء المواسم الفلاحية ، أم أنه لا دخل لهم في الإنتاج الذي يوكل أمره إلى العمال المزارعين المقيمين بالجهة عن طريق الكراء أو عن طريق الشركات الفلاحية (من مزارعة وخماسة) ؟ (1) .

لئن كانت المعطيات غير واضحة بالنسبة إلى الفقراء برباط المنستير ، فان بعض المؤشرات تدل على أن الشيخ والفقراء لم يكونوا مغيبين في عملية الانتاج(2)، إذ يشير البرزلي إلى وجود مرابطين – مزارعين بالمنستير منذ القرن السادس هـ / XII م ، بل أن صفة المزارع تغلب عليهم ، حتى صاروا يستعملون بيوتهم بالقصر لخزن الحبوب ، ويغلقون مخازنهم ويقيمون خارج الرباط شهرين أو أكثر ، وكانوا يغرسون الزياتين في أرض المنستير حتى اتسعت أملاكهم وصار ما بأيديهم من الأرض أكثر مما بيد غيرهم .

ولم يهتم فقراء الرباط بالحراسة بقدر ما اعتنوا بالغراسة والحرث والتعمير، (3) أما عن تطور استغلال الأرض ، فيبدو أن الهنشير بقي وحدة ترابية ثابتة بين سنتي 825 هـ و1186هـ لكننا نجهل الكثير عن التطور في كيفية استغلال الأرض ، وبالتالي عن جذور الإشكال الذي طرح بعد 360 سنة من تحبيس الأرض وهو مدى شرعية هذه العملية .

الهنشير بين الحوز والملك :

يبدو أن الحجة الأساسية التي استند اليها المنازع هي عدم اثبات المحبس لملكية الهنشير ، وغياب رسم الملكية . فهل يمكن للحوز تعويض رسم الملكية ، وهل يكفي الحوز وحده لاثبات الملكيّة وصحة الحبس ؟

(1) راجع حول الشركات الفلاحية : كتابنا . **القبائل والارياف المغربية في العصر الوسيط** ، تونس 1986 الفصل الثاني .

(2) نفس المصدر ، الفصل الأخير .

(3) راجع جواب المازري في المسالة الواردة في البرزلي، نفسه : (مخطوط رقم 4951)، ص 157. انظر أيضا :

J. Berque "Les Hilaliens reprentis..." In. **Annales E.S.C** , 1970, Septembre Octobre, p.1330

C. Cahen, Réflexions sur le Waqf ancien , op. cit, p.43-48.

إنّ الاجابة عن هذه التساؤلات تعني البحث في صحة ملكية الأرض المنسوبة إلى أبي عبد الله محمد بن أبي زيد التميمي، صاحب رباط المنستير، الذي حبس الأرض على أبنائه وفقراء الرباط وطلبته. ولعل طبيعة هذا الحبس المشترك تشير إلى غياب وثيقة ملكية رسمية للأرض بيد ابن أبي زيد، وإنّ احتمالات عدة تفسر غياب هذه الوثيقة:

– أن يكون بسط نفوذه على الأرض بطريقة غير شرعية باعتبارها من الأراضي المهملة، التي ازدادت أهميتها في ظرفية تاريخية تميزت بكثرة المجاعات (وخاصّة الطاعون الجارف لسنة 749 هـ).

– تملك ابن أبي زيد الأرض عن طريق الوراثة أو الشراء، دون أن تكون له في ذلك وثيقة مكتوبة.

– إمكانية الحوز عن طريق اصدار ظهير سلطاني، يقطع بموجبه الهنشير على المرابطين، وذلك رغبة من المخزن في كسب فئة اجتماعية هامة، ومحاولة منه في تحييدها في الصراعات السياسية. ولذا أغدق عليها مختلف الهبات ومنحها أحباسا واسعة تقتطع من أراضي الظهير والأراضي المصادرة، وقد كان حجم هذه الأراضي المحبسة على الزوايا هامة، فشملت أحيانا قرى بأكملها في جهة الساحل (1).

ونرجّح أنّ الرّباط لم يضع يده على هذه الأراضي إلاّ بعد أن خربت قرية ميانش، وتحولت الأجنّة المحيطة بها إلى هنشير، أو أرض بيضاء، وقد تمّ ذلك في غضون القرن السّادس هـ/XII م، كما يتبيّن من خلال نازلة طرحت على المازري، إذ أشارت إلى اتساع ملكيات الرباط في هذه الحقبة، وتحبيس جنات محدثة على المرابطين، حتّى أصبح «**بأيديهم من الأرض أكثر مما بيد غيرهم**». وبقيت هذه الأحباس محفوظة لأهل الرباط إلى حدود سنة 760 هـ، ثم وقع نزاع فيما بعد بينهم وبين الأعراب الذين تعرضوا لحبس هذه الجنات، باعتباره تملكا فعليّا لم يتوصلوا إليه بحق، ونتج عن ذلك رحيل المرابطين عنها وتلاشي غرسها، وأصبحت الأرض للسّلطان الحفصي (2).

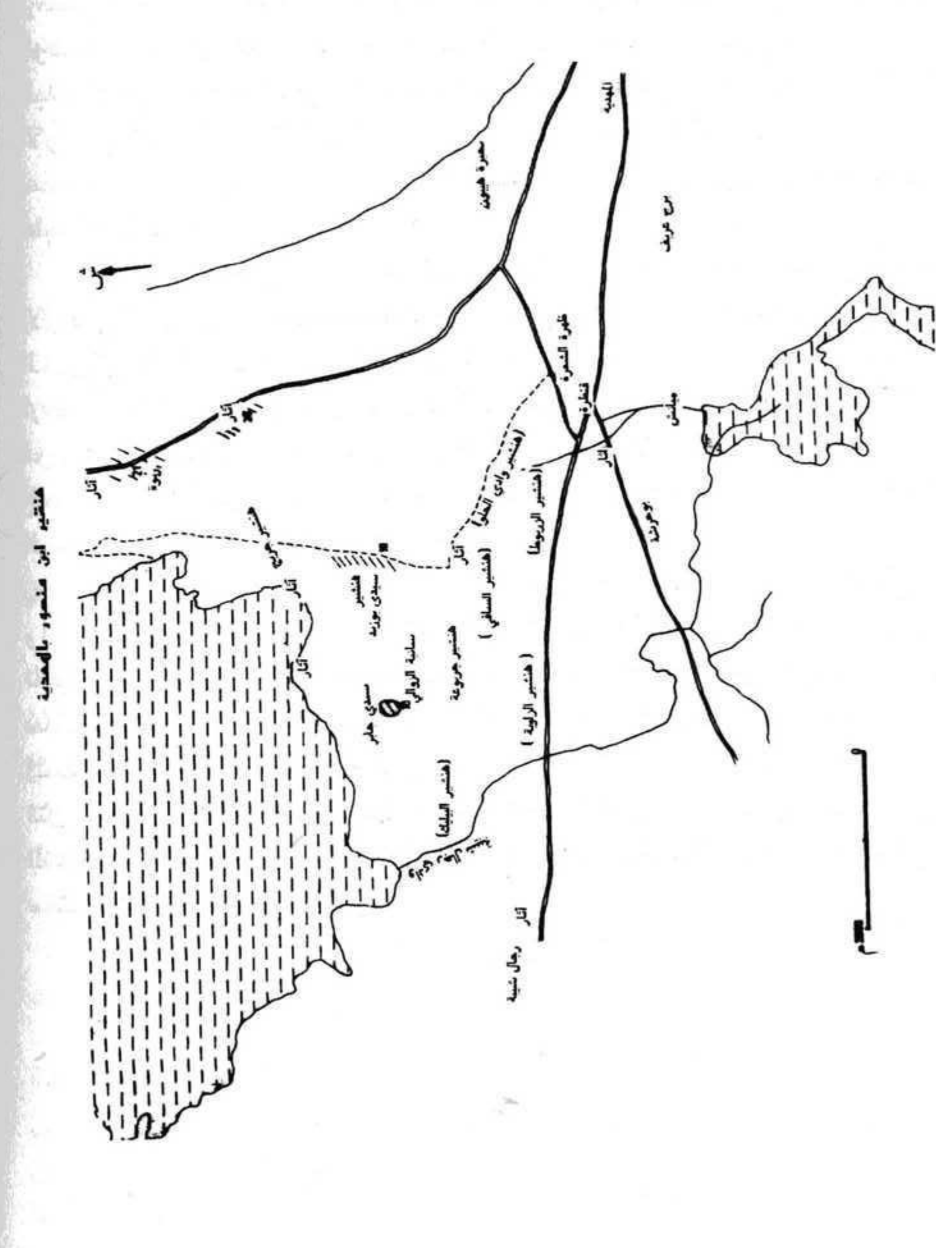
ويبدو أن هذه المعطيات تسلط أضواء هامة على الوثيقة وتبين لنا طبيعة الصراع القائم حول الحبس، باعتبار أن الهنشير وقع تملكه من قبل المرابطين دون وجود وثائق شرعية. ولعل الاستناد إلى قول ابن فرحون الذي يذهب إلى العمل بالحبس دون اشتراط وثيقة ملكية، أمر له مغزاه في هذا الصدد. ومحتمل جدا

(1) راجع باب الحبس من نوازل البرزلي.
(2) البرزلي، **نفس المصدر**.

إذن أن يكون تحبيس هذا الهنشير جاء في إطار تحوله من وضعية الحوز إلى وضعية التملك. وهو مسار شهدته عدة أراض في إفريقية في أواخر العصر الوسيط. ذلك أن المخزن حرص على بسط نفوذه الاقتصادي والسياسي على البلاد الإفريقية عامة، وبالخصوص على القسم الحضري منها، فحاول تملك الأراضي القريبة من المدن والقرى وعدم التفريط فيها لمستحقيها إلاّ بظهير سلطاني. وهو ما يمكن أن نفهمه من قولة البرزلي: «**وأراضي قرى إفريقية الغالب عليها عدم الملك**».

لكن هذا لم يمنع من وقوف السكان موقفا مغايرا، حرصا منهم على تملك الأراضي التي كانوا يستغلونها. وقد كان التحبيس شكلا من أشكال التحول من الحوز إلى التملك. ولئن أخذ ابن عبد السلام موقفا مناصرا للمخزن، مصرحا بأن أرض ساحل إفريقية هي أرض حوز، مؤكدا على أحقية السلطان في انتزاع الأرض من واحد وإعطائها إلى آخر، فإنّ البرزلي اتخذ موقفا أكثر مرونة، وهو أن أرض الحوز يمكن أن تتحول إلى ملك، إذا ما تم استغلالها بصفة مسترسلة مدة طويلة من الزمن، أو بيعها وتحرير عقود الاشرية فيها.

تتنزل الوثيقة إذن في هذا الإطار الموضوعي الخاص بالقرن IX هـ/XV م، والذي تميز بوجود نقلة فعلية من الحوز إلى التملك. ***فالمرابطون بسطوا نفوذهم على ناحية ميانش بعد أن اندثرت القرية وتلاشت الغراسات بها وتحولت أراضيها إلى هنشير، ثم حاولوا تملّكها عن طريق التحبيس*** سنة 825 هـ، لكن يبدو أن المزارعين المتبقين في المنطقة رفضوا ذلك كما رفضه الأعراب من قبلهم سنة 760 هـ. على أنّ القضية لم تثر بحدّة إلا بعد 360 سنة! فهل ساعدت الظرفية التاريخية الجديدة حينئذ على التشكيك في صحة الحبس؟ أسئلة عديدة تبقى مطروحة، ولا يمكن حلها إلا بتعدد مكتشفات الوثائق المرتبطة بالريف.



نص الوثيقة

الحمد لله ، قوبل المقطوع ... بأصلها ، فاتفقا ، وكانا نصا سوا[ء]، وأعلم بثبوت ذلك الفقير لربه ، الغني عبده محمد ... السويسي (؟) المالكي ، غفر الله ذنوبه وكرّمه ، أمين (1) .

الحمد لله ، هذه نسخة رسم حبس نقل هنا من أصله لمن له ، فيبدى (؟) اذن من يجب ، أعزه الله تعـ[ـا]لى ، بتونس ، بواسطة عونه الأمين عثمان عويج .

[الرسم العتيق]

نصه : بسم الله الرحمان الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، أشهد الشيخ ، الفقيه ، المرابط ، العدل ، المعظم ، المرفع ، الاكمل ، أبي عبد الله محمد بن الشيخ الإمام الفقيه العدل المرحوم أبي عبد الله محمد بن الشيخ الأجل الفقيه العدل الصالح المرحوم أبي زيد التميمي ، صاحب زاوية رباط قصر المنستير ، عمرها الله بذكره والصالحين من عباده ، انه حبس جميع الهنشير المعروف بابن منصور من عمل المهدية ، الذي يحده قبلة في طائفة الوادي ، وفي الأخرى طريق فاصلة بينه وبين ميانش وأبي حرشة ، وشرقا ظهرة الشعرة الذي ينسرب ماؤها لبحيرة هيبون ، فما هو منها للشرق فلهيبون ، وما هو منها للغرب فللهنشير المذكور ، تنعطف للقبلة بانحراف للشرق ، إلى أن تنتهي للطريق الفاصلة بينه وبين ميانش ، وفي الأخرى جسر وشعبة فاصلين بينه وبين ميانش ، وفي الأخرى جسر وشعبة فاصلين بينه وبين أبي حرشة ، ومن الطريق المذكورة إلى الوادي المذكور أولا ، وفي الطائفة الأخرى ربوة شرقي ظهرة سيدي جابر ، تنعطف للقبلة بانحراف للشرقي ، فما هو من الظهيرة للشرقي فلجريح ، وما هو منها للغربي فلابن (2) منصور ، تنتهي إلى الربوة الكبرى ، وهي شرقي ابن (3) منصور بانحراف للجوفي . وجوفا ، طريقا فاصلة بينه وبين هنشير جريح ، وهي المؤدية إلى هنشير بني (4) منصور المذكور في طائفة ، وفي الأخرى السبخة ، وغربا واديا ، بجميع حدوده ، وحقوقه ومنافعه ، على ولده الشيخ الفقيه العدل المعتقد البركة ، سيدي أحمد ، وعلى عقبه وعقب عقبه ما تناسلوا وامتدت فروعهم في الاسلام ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ،

---

(1) في أسفل الديباجة طابع مستدير ، كتابته غير واضحة .

(2) في النص : فالابن .

(3) غير واضحة ، يمكن أن تقرأ أبى .

(4) كذا في الوثيقة .

خيـر الوارثين ، وعلى فقرا[ء] القصـر الكبير في بلد الربـاط المنستير المقـيمين به لتعليم القرآن العظيم وسنة نبينا محمد سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وعلى كل من يرد عليه من بلاد الله تعالى للإقامة به ، يريد تعليم ما ذكـر مدة إقامـته به ، فإن انقـرض عقبـه وعقب عقـبه المذكور ، فـيرجع الحبس المذكور على الشيخ الذي له النظر في القصـر المذكور ، والفقرا[ء] المقيمين به والواردين عليه لتعليم ما ذكر مدة إقامتهم به .

حبس ذلك على من ذكر تحبيسا دايما مستـمرا ، وجعله وقفا حراما ما تعاقب الجديدان واختلفت الملوان (1) ، لا يباع ، ولا يوهب ، ولا يورث ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، قصد بذلك ثواب الله والدار الأخيرة ، انه لا يضيع أجـر من أحسن عـملا (2) ، فمن بـدله بعد مـا سمعـه ، فانما إثمـه علـى الذيـن يبدلونه ، ان الله سميع عليم (3) .

وجعل النظـر في ذلك ، وفي صرف غلات الهنـشير المذكـور ، لشيخ القـصر المذكور المقدم فيه ، في عقبه وعقب عقبه إن وجد ، والا فلمن يتولى النظر فيه وفي مصالحـه كائنا ما كان ، وذلك إذا انقطع عـقب الشيخ المذكور وعقب عـقبه إلـى هلـم جرا ، ما دام أحـد من عقبه مقـدما بالقصر المذكـور ، فلا ينظر أحد في ذالك (4) معـه قاض ولا غـيره ، قصـد بذلك ثواب الله تعالى والزلفـا لديه انه ولي ذلك والقادر عليه .

وحضر لذلك الشيخ سـيدي أحمد المذكور ، وقبل من والده المذكور مـا حبسه عليه من جميع الهنشيـر المذكـور عليـه ، وعلـى من ذكر معه، له ولهم ، باذنه له ، حفظه الله ، في القبول للفقراء الموصوفين كما ذكر فيه والعقب المذكور قبولا تاما، وأحاله على ثواب الله تعالى ، وأذن له في حوز ذلك له ولمن ذكر معه بعد من العقب ، والفقراء المذكورين متى شا[ء] وأحب .

وحضر الشيخ سـيدي أحمد المذكور، وحاز عنه الهنشيـر المذكور حوزا تاما، له ولمن ذكر فـيه ، معاينة من يشـهد (5) والوقوف معـه على ذلك من كل الجهات والحدود ، وشهد على اشهادهما بما فيه عنهما ، وهما بالحالة الجائزة .

---

(1) كذا في وثيقة حبس حفصية أخرى ، خاصة بتحبيس هنشير القيروان على أبي رحمـــة غيـث الحكيمي .
(2) سورة الكهف ، الآية 30 : « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .
(3) سورة البقرة ، الآية 181 .
(4) كذا رسمت في كامل الوثيقة .
(5) يشترط المذهب المالكي وجوب المعاينة عند الحوز أو التملك .

وحررها (1) بتا[ريخ] أوايل صفـر الخير عام خمسة وعـشرين وثمانمائة ، منعقـد بشهادة عدلين ممن سلف من عـدول المنستيـر ، ثابتة شـهادتهـما لدى من يجب بتونس الثبوت التام ، بما مثاله : « ثبت لدي بشهادة من ذكر » ، بطرة يمناه ، وبأعـلاه طابعه وطابع نائب الأحكام الـشرعـية بسـوسة ، بما مـثله : « ثبت لدي بواسطة العدول المذكورين » ، بطرة أعلاه ، / تحت كل عقد من العقدين . (2)

---

(1) يمكن أن نقرأ : عرفها .
(2) راجع التعقيبات على الوثيقة الأصليّة في مقالنا : وثيقة في التاريخ الريفي.... **نفس الإحالة**.

II- ملكية الماء وكيفية استغلاله بأرياف إفريقية :

1) الماء ، بين التشريع والتوزيع :

مثل الماء أهمية فائقة ببلاد المغرب منذ العصر القديم ، إذ كتب بلينوس حول واحة توزر قائلا :« حقا تنبع منها عين قوية ، وتتوزع مياهها على السكان في عدد محدد من الساعات ». وشهد العصر الوسيط تطور التقنيات المائية وطرق الري وأساليبه، وما تبعه من تشريعات دقيقة ظهرت بالاندلس والمغرب .

لكن ذلك لم يمنع من نشوب نزاعات طويلة حول الماء ، بين أهل البادية والمدينة، أو بين القرى، وداخل المجال القروي بين المجموعات المتنافسة . وقد شهد أكثر من واحد أن النزاعات كانت كثيرة حول الماء بالواحات . ولعل من أدق العينات النوازلية على ذلك تقسيم مياه وادي جيجو بين مزدغة و أرجان بالمغرب الاقصى،لأن كل طرف أعتمد الماء لسقي المزروعات من حبوب وخضر و بقول وقنب والأشجار المثمرة ، وخاصة الزيتون . و قد أحدث ذلك أختلافا ونزاعا تواصل قرن كامل من الزمن ، نتيجة ما عمد إليه أهل أرجان من قطع للماء عن أهل مزدغة(1).

ونتيجة لذلك ، فقد حرصت جل المجتمعات على تنظيم استعمال الماء وقسمته ، وكانت تعمد تارة الى المكتوب ، وأخرى الى العرف المتداول .

أ) الماء في النصوص التشريعية :

قسم الماوردى المياه المستخرجة إلى ثلاثة أقسام : مياه أبار و عيون وأنهار .

و تفرعت الآبارالتي عين حرمها في حدود الخمسين ذراعا إلى ثلاثة : الأولى أن يقع حفرها للسابلة ، فيكون ماؤها مشتركا ، و الثانية أن يحتفرها للإرتفاق بمائها، كأهل البادية يستعملونها مدة ثم يرحلون ، و عندها تصبح سابلة ، أما الثالثة فإنه يحتفرها لنفسه ملكا .

كما صنف العيون الى ثلاثة :

– إن كانت العين طبيعية ، و لم يقع احتفارها ، يمكن لمن أحيا أرضا بمائها أن يأخذ قدر كفايته .

– و من أستنبطها فهي ملك له ، كما يملك حرمها الذي قدر بخمسمائة ذراع . ويجوز له بيعها .

– إذا أستنبطها الرجل في ملكه ، فهو أحق بمائها لشرب أرضه (1).

---

(1) الونشريسي، **ن.م.**، ج VIII ، ص 5-20 .

أما فيما يخص الأودية ، فقد فرق بين ماء العشر (حيث الأراضى العشرية) وماء الخراج (2).

وأعتبر أن المياه الموجودة فى العيون و الآبار و الأودية غير الممتلكة مشاعة لكل المسلمين ، مع إعطاء الأولوية للأقرب من عين الماء والموجود في العلو ، حسبما ورد في الحديث « يرسل الأعلى على الأسفل » . وعادة ما يكثر التشاح في الماء بين المزارعين في فصل الصيف ، عندما ينقص الماء و تكثر الحاجة إليه للشرب وسقي المزروعات وتشغيل الأرحية (3).

وبالتالى تمتّع الممتلك للماء بحق الانتفاع والتصرف ، بيعا و تحبيسا . على أن ملكيته لم تكن مطلقة، إذ يحق للأجوار التصرف بما زاد عن حاجة صاحب الماء ، بحكم ضرورة التآزر داخل المجتمع (4).

ب) كيفية توزيع المياه المشتركة :

تولت المجموعات الريفية الجبلية و الواحية تنظيم شؤونها الداخلية بنفسها ، فكانت تسهر على توزيع المياه بكامل الحرية ، دون تدخل واضح للمخزن . وأنجزت المنشآت المائية بصفة جماعية ، وفق ترتيب دقيق . وكان من هذه الأعمال إقامة السدود وحفر السواقى و توزيع الماء و غيرها .

و استعملت السدود في المرتفعات لتجميع المياه السائلة من المرتفع إلى المنحدر و صبها في الأودية حتى تحصل الاستفادة من الرشوحات المتسربة وتوزيعها على أصحاب الأراضي .

و قد أمدنا التجاني بوصف دقيق لهذه الزراعة السقوية المتدرجة المعتمدة على السدود ، إذ قال : « **و قوة اعتمادهم في ري الأرض إنما هو على ما ينحدر من سيول تلك الجبال في وقت الأمطار فإنها تجتمع في أبطح ذي حصباء متناسبة وتربة بيضاء كافورية تحدق بمزارعهم أحداق السيول أو السوار و تخترقها مذانب متسربة إليها منه** »(5).

و عادة ما تشارك المجموعة الريفية في إقامة هذه السدود بالحجارة والطين والكلس أو جذوع النخل ، وذلك انطلاقا من قوانين زراعية دقيقة تنظم العلاقات بين أفرادها .

كما تولّى المنتفعون بالماء أعمال كنس مجاري الأودية ، و تنقيتها في فصل

---

(1) ورد حديث نبوى فى هذا الصدد . الماوردي ، **الاحكام السلطانية** ، ص 180 – 184 .

(2) ن.م ، ص 178 .

(3) مالك ، **الموطا** ، ج 2 ، ص 744 .

(4) الماوردي ، **نفسه** ، ص 184 .

(5) ابو العباس احمد ، **أصول الارضين** ، ص 64 – 65 (يبنى الحبس بالحجارة). التجاني ، **رحلة** ، ص 186 .

الصيف، حتى يقوى صبيبها ، وحرص سكان الجبال على اصلاح السواقي في فصل الخريف (1).

على أن عملية الصيانة لم تقع دون نشوب نزاعات بين من يأبى القيام بها من المنتفعين ومن يدعو إلى ذلك ، سيما أنها لم تكن الزامية .و في الجملة فإن بناء السدود و إقامة السواقي و تطهير الأودية ، كانت من الأعمال المشتركة التي تقوم بها المجموعات الزراعية ، وفق خطة معهودة تبدأ بأعلى الوادي وصولا إلى مصبه . و يتولى العبيد القيام بهذه المهام الشاقة في الواحات والبلاد الجبلية (2) وعادة ما تحصل اختلافات بين المساقين لاصلاح قناطر الماء والسواقي عند هدمها ، أو صيانة القواديس التي تجلب الماء ، سواء أكانت من الفخار أو من القصب . كما تحصل نزاعات حول كيفية أستغلال ماء المساقي الواقعة في حدود الملكيتين (3).

ونورد ماذكره الوزان عن كيفية توزيع الماء بالبرج ، وهي واحة بالزاب، وما ينشب عنه من نزاعات : **« نظرا لقلة الماء بها ، فان كل فلاح على انفراد يجلب الماء الى حقله ساعة أو ساعتين من نهار حسب سعة أرضه ، وذلك من القناة التي تمد الحقول .ولهؤلاء الفلاحين ساعات مائية يملؤونها ، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص بهم قد أنتهى، ولا يحق للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ . وكثيرا ما تهيج الخصومات بينهم بسبب ذلك ويسقط القتلى »** (4).

أما عن مؤاجرة العامل المساقي ، فهي تختلف من الأراضى السقوية ذات الإنتاجية الكبيرة الى البعلية (المسماة الماء الصغير) إذ يتحصل على عشر الانتاج في الحالة الاولى ، وخمسه في الحالة الثانية (5) .

على أن الغراسات البعلية نفسها ، احتاجت إلى تهيئة المساقي كي يتجمع فيها ماء المطر وينحدر من أعلى الى أسفل. وفي حالة الاستغلال المكثف للأرض

---

(1) الشماخى ، **السير** ، ص 127 .

(2) ن . م ، ص 312 .

(3) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص1211 ، ص 264 الونشريسي ، **ن.م** ، جVIII ، ص 44 ، 414(سئل البرجيني عن قصرين متقابلين و أرضهما حبس و بينهما طريق واسع فعمد قوم فبنوا ساقية في الطريق تخرج إلى فدان لهم ، فاضرت بالمارة ، فلا يقطعونها إلا تكلفا) ، ج VII ، ص 11 (من بليدة تجلب لها الماء فى قادوس كبير على نحو من اربعة أميال من البلد ...) ج VII ، ص 52 ، 53 ، 55 ، 8 ، 36 . (حفر مقدار خمسة قواديس بصخر الجامع لجلب الماء ...)

(4) الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II، ص 139 . وقد تحدث أبو العباس أحمد (كتاب أبي مسألة ، ص 172) عن موضوع غصب الماء.

(5) البرزلي ، **جامع** ، مخ 4851 ، ج2 ، ص159 ب .

حول المدن ، وعدم ترك مكان للمسقى ، التجأ البعض الى أستعمال الطرقات العامة. مما أثار تدخل القاضي ، عن طريق العرفاء ، لقطع هذا الضرر (1).

وقد لخص ابن راشد مختلف الأعمال اللازمة لصيانة السواقي ومجاري الماء، فقال : **« لا يخلو أن يكون (الاصلاح والكنس) في المجرى أو في أصل البير أو العين .فان كان في نفس المجرى، فلا يخلو أن يكون من أول العين الى أول مغلق ، أو فيما بين البساتين ، أو يكون بعد خروجه من جميعها ، وهو مصلة المياه. فأما أن يكون من أول عين الى أول مغلق ، فعلى جميعهم .**

وان كان السد من أول مغلق الى الثاني ، فعلى الأول ، لان ذلك من سببه ، ومما يحدث عند الفتح والغلق ، فيذهب التراب ، يغرم مع الماء لمن تحته . واختلف إذا تمادى السد الى أخرها ، فقيل : يغرم الاول مع جميعهم ، وكذلك الثاني والثالث : كل واحد يغرم مع من تحته الى أخرهم ...

وان كان السد في المصلة ، وهو خارج عن جميع البساتين مما نزل من العين، فهو على من هو عنده الى من بعده ، ولا شيء على من كان قبله ،ولم يكن عنده سد.

وأما سواقي السقي والمطاحن ، فان أستوت في أولها ، فكنسها على جميعهم.

وان كان ذلك (الكنس) في أصل البير والعين ، فأراد أحدهم الاصلاح وأبى الباقون ، فلا يخلو ذلك الماء أن يكون لا جنات عليه أو عليه جنات . وإن كان عليه جنات ، فان كان مالك الماء غير مالك الجنات ، كان الكنس على أرباب المياه دون أرباب الجنات . والحال عندنا بقفصة بخلاف ذلك إذ الناس بها على ثلاثة فرق :

-فمنهم من له ماء وجنة .

- ومنهم من له ماء دون شيء من الجنات .

- ومنهم من له الجنات وليس له الماء ، وانما يشتري شربها من أرباب الماء.

فربما أحتاجت بعض عيونهم الى تنقية ، فيجعلون ذلك على الجنات ويلزمون الخدمة من ليس له شيء في العين ، ولا يسقي منها شيئا الا بالشراء من أرباب المياه ، وذلك شيء لا يحل ولا يسوغ لأحد إذ يجبر غيره على خدمة ملكه لكونه يشتريه منه عند أحتياجه اليه .

وقد شاهدت في ذلك قاضي الجماعة بحضرة تونس الفقيه أبا القاسم اليمني، فقال : ذلك على أرباب العيون إن أحبوا ، يريد :فان أبى بعضهم ، لم يجبر على الكنس. ويتولى ذلك من أحب من الكنس، ثم يكون أحق . ولم أثبت منه بماذا يكون أحق.

وكتبتُ في ذلك الآن لقاضي الجماعة بحضرة تونس . فأجابني بأنّ الذي يتولى الكنس يكون أحق بجميع الماء . ولم يجعل ذلك على أرباب الجنات ، وما

---

(1) عرف زيتون الساحل إلى عهد قريب ثنائية المسقى–المنقع . انظر : البرزلي ، جامع ، ج II ، ص 1291 . Despois, **Le Sahel et la Basse Steppe** , p.295

ذكره من أنه يكون أحق بجميع الماء فيه نظر ، لان الفرض أن النهر لم يتعطل جريه كتعطيل ماء البير بانهدامها ، بل هو جار على الدوام . غير أن الكنس يزيد في كميته، فينبغي أن يكون أحق بالزائد » (1).

2) قوانين المياه بالاندلس وافريقية :

أ) قوانين المياه المعروفة : لئن ذكرت منذ بداية القرن الخامس هـ خطة وكالة الساقية ببلنسية ، فان أقدم اشارة واضحة لحل النزاعات المائية ترجع الى الوثيقة المكتوبة على الرق والمحفوظة بأرشيف مملكة بلنسية ، وهي حكم حرّره قاضي شقنطة (Sagonte) سنة 1223 لحل نزاع بين قريتين حول تغيير حصل في ساقية الري، ثم الى محكمة المياه ببلنسية (Tratado de aguas y riegos-1939) وقد كانت تعقد كل يوم خميس ، ويبت في القضايا بطريقة شفوية (2) .

و توصّلت الدراسات الأندلسية الى نتائج هامة في مجال المياه في الحقبة العربية ، وذلك اعتمادا على الآثار الريفية والمائية ، وعلى النصوص العربية والمسيحية المتأخرة ، المتمثلة في الوثائق المحفوظة بالأرشيف وفي كتب قسمة الاراضي (los libros de repartimientos) ، وخصوصا كتاب الريبارتيمنت (Re-partiment) بميورقة الذي صنف مباشرة بعد سيطرة القطلان على الجزيرة سنة 1228-1230. غير أن تاريخية هذه الشبكة المائية ، كما بين ذلك أحد الباحثين (بزانا A.Bazzana) ظلت غامضة، مما يفسر التوجه السائد للبحث عن وثائق نصية أخرى .

على أن هذا التراكم للبحوث التاريخية والأثرية يسّر حل اشكالية طبيعة العلاقة القائمة بين نظام الري والسلطة السياسية او الاجتماعية . فقد حاول بعض الباحثين في مرحلة أولى تفسير هذه الشبكة المائية المعقدة بطبيعة المنظومة السياسية المركزية وبدور الخلافة الأموية بالاندلس (من ذلك ريبيرا Ribera) . وهو ما دحضه باحث أخر ، مبينا أن الاندلس لا تدخل في دائرة النظم الشرقية المركزية ، أو المجتمعات المائية ، وأنه يتعين البحث عن سر هذه الشبكة المائية العجيبة في دور المجتمعات الزراعية المحلية ، وبالتالي الانطلاق من البنى الاجتماعية ، عوضا عن السياسية. وقد حظي هذا الرأي بموافقة عدد من الدارسين (3)

---

(1) ابن راشد، الفائق، ج VI ، ص 44 ب- 145.

(2) Bolens , **Agronomes Andalous du moyen -âge** , Paris 1981 ,p140.
Bazzana ... , Irrigation et société, In **L'Eau et les Hommes en Médit.**, Paris 1987 .
ابن عذاري ، **البيان** ، الجزء الثالث ، ص 158. Guichard , **les Musulmans de Valence**... , p. 41

(3) T. F. Glick , **Irrigation and society in medieval Valencia**, Harvard 1970 .
Bazzana , Bertrand , Cressier , Guichard , l'hydraulique agraire dans l'Espagne médiévale, In **l'Eau et les Hommes en Méditerranée** , Paris 1987 .

أما في خصوص القوانين المائية بافريقية ، فقد أشار المهندس الفرنسي بيني (Penet) سنة 1913 الى وجود قانون مياه بواحة توزر يرجع الى ابن الشباط ، غير أن النصوص المصدرية الواضحة تعوزنا في هذا المضمار ، وما هو ثابت فان هذا النظام المعتمد في التوزيع ذكره البكري منذ القرن الخامس هـ ، بل أن المؤرخ الروماني بلين تحدث عن نظام زمني لتوزيع الماء. وهو ما أكده مرسوم بلدي في ناحية لمزبة (Table de Lamasba)(1).

وبالتالي ، فان كتاب القسمة لابي العباس أحمد ، وخصوصا الجزء الخامس منه يمكننا من سد فراغ كبير في المكتبة العربية عموما و المغربية خصوصا ، حول قانون المياه السطحية .

ب) *أهمية كتاب القسمة في الدراسات الهيدرولوجية* : يتميّز جنوب افريقية بمناخ شبه جاف ، لا تتجاوز فيه التساقطات 200 ملمتر . ونظرا الى طبيعة التضاريس الجبلية (جبل دمر ونفوسة) وجبال السند وقفصة ، فان هذه التساقطات تتجمع في سفح الجبال في شكل أودية ذات دفق قوي ، لكنها صغيرة ووقتية ، طولها في حدود عشرين الى خمسين كم ، تنطلق من الجبل وتصب في الفحوص الشاسعة أو السباخ ، وأحيانا في البحر .

وتبعا لذلك ، فقد حاول الانسان منذ زمن قديم التحكم في هذا المخزون من الماء واستغلاله في العمل الزراعي ، بكيفية دقيقة تثير الاعجاب والاهتمام .فقام ببناء منشآت مائية جماعية (من جسور وسواقي ومصارف ومقاسم) متناغمة مع طبيعة المناخ والتضاريس . وظلت هذه التقاليد متوارثة في الجنوب التونسي .

غير أن معرفتنا بهذة المنشآت ظلت مقصورة على ما تبقى منها حاليا ، اذ من العسير أن تصمد هذه المنشآت الهشة أمام الزمن ، وتبقى مآثرها القديمة قائمة . ثم أن النصوص التاريخية المعهودة لم تسعفنا بالحديث عنها ، الى حد أن تفطنا الى وجود مادة تاريخية ثرية في كتاب القسمة لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الفرسطائي، والى احتواء الجزء الخامس منه على قانون للماء فريد من نوعه في تاريخ افريقية الوسيطي .

---

(1) P. Trousset, L'organisation de l'oasis dans l'antiquité (Gabes, Jerid)
In **L'Eau et les Hommes** ,op. cit.

وبالتالي، فاننا ننبه الى دقة القوانين المنظمة لتوزيع الماء وقسمته ،والى تشعبها تشعب الجداول من الأنهار ، والى مدى ارتباطها بمنظومة اجتماعية محلية متجانسة وبسلطة مائية وزراعية قائمة في المجموعات المحلية . ومثالا على ذلك ، فان اقامة جسر جديد في الاسفل ، يحتاج الى موافقة صاحب الجسر العلوي كي يصرف له جزءا من الماء ، كما أن أي عمل يقوم به العلوي (من كنس أو رفع جسر أو خفضه ،) لا بد أن يحظى بموافقة السفلي . وهكذا ، فان هذه الاعمال المائية تتم بموافقة جماعية وبصفة مشتركة ومنظمة . وفي صورة حدوث نزاعات ، فان الجماعة التي تتولى تنظيم توزيع الماء ، تقوم بحل مختلف النزاعات وتكون بمثابة محكمة المياه .

وحصيلة القول ، فانه لا يمكن تصوّر فاعلية هذه المنظومة المائية الا في إطار تنظيم اجتماعي وسياسي للمجتمعات الزراعية المحلية ، يحظى فيه الأعيان المحليون بسلطة فائقة ومتسعة .

– ترجمة *أبي العباس أحمد* : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر من علماء القرن الخامس بجنوب افريقية ، .ترجمت له كتب السير . عاش فيما بين 420 و 504 هـ . ولئن عرف ابوه محمد بن بكر (توفي سنة440) بكثرة تنقلاته ، فاننا نعثر على أخبار ابنه بأماكن شتى من افريقية : تمولست و جبل نفوسة والقيروان والحامة وجربة والجريد ، وكذلك أريغ وتين يسلي ووارجلان وبادية بني مصعب . قضى فترة شبابه بتمولست ، حيث كان أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (توفي سنة 471هـ) يدرس . ويبدو أن هذه الفترة التي قضاها هناك وخصوصا بعد وفاة والده ، كانت هامة في حياته العلمية ، إذ استفاد من المدة التي أقامها في جبل نفوسة في مكتبة الديوان ، حيث ذكر بها ثلاثة وثلاثون ألف مصنف.

ولئن ذهب البعض مذاهب مختلفة في أصله ، فالثابت أنه قضى فترة هامة من حياته في تمولست ، قرب تطاوين التي درس فيها ثم رجع اليها حيث ألف عشرين مصنفا . قال الدرجيني في هذا الصدد : فرجع الى تمولست ، فبلغ فيها مبلغا عظيما وصنف بها عشرين كتابا وكتابين معروضين عليه ..(1).

ثم أنتقل الى أريغ ، ولعل ذلك تم عند وفاة شيخه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ، و ظل متنقلا بين واحات وارجلان الى أن توفي هناك .

ولم يكن أبو العباس مجرد عالم بعيد عن مشاغل المجتمع ، إذ أنه كلف بحل خلاف حول توزيع الماء بواحات المزاب ، فطلب من بني ويلين اجراء ماء عيونهم

(1) الدرجيني ، **طبقات**، ص444 . الشماخي ، **سير**، ص 424 .

الى أجلو . وهو ما يفسر أن مرجعيات كتاب القسمة تراوحت بين النظريات الفقهية و العرف والممارسات العملية (1).

– *كتاب القسمة* : لئن لم يتعرض أحد من الدارسين الى تاريخ تأليف كتاب القسمة ، فاننا نرجح أنه تم في الحقبة الأخيرة من حياته ، حيث نلحظ التوافق التام بين النص وواقع الجبال والواحات التي ترعرع فيها ، والتي شهدت إعادة تنظيم (من بناء القصور وعمارة الأرض)، وذلك على اثر التطوّرات الحاصلة بعد قدوم بني هلال المنطقة ، والتجاء مجموعات زراعية هامة الى الجبال.

وبالتالي ، فان الكتاب وثيقة حية لما ينبغي أن يحصل في هذه الواحات وخصوصا في الجبال التي ألتجأ اليها أهل السهول من البربر من أستغلال محكم للموارد المائية ، وبناء للقصور الجبلية ، وتوزيع للأرض بين الجموعات الريفية .وقد احتوت فصوله على بنود دقيقة فيها مراعاة العادة والعرف ، وعلى أسئلة يطرحها الطلبة وأجوبة عنها .

– *أقدم قانون للمياه مكتوب بافريقية* : احتوى الجزء الخامس على أقدم قانون للمياه مكتوب بافريقية والمغرب ، وهو وثيقة دالة على مدى دقة التشريعات الخاصة بالماء و تشعبها ، كنا نفتقر اليها من قبل ، للابانة عن الدور الافريقي خاصة والمغربي عامة في التحكم في المياه السطحية وتنظيم توزيعها ، وفي الهيدرولوجيا (هندسة المياه) عموما عصرذاك .

وبالتالي فقد مكنتنا من طرح اشكالية الماء بافريقية بطريقة أكثر دقة ، وذلك على ضوء المناهج الجديدة التي تعتني بدراسة المجتمعات الزراعية المصغرة (micro-société rurale) وبيناها المختلفة : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ج) قانون المياه السطحية : بنوده وأهم مقوماته :ان المتأمل في هذه القوانين يلحظ من الوهلة الاولى أنها تلائم مناخا شبه جاف بجبال الجنوب الشرقي للبلاد الافريقية ، وأنها تنظم الأعمال الهيدرو هندسية ، والمتمثلة أساسا في ترويض السيول العارمة ووقف انجراف التربة على المنحدرات والشعاب ،

وذلك باقامة المدرجات والسدود الصغيرة على الشعاب المنحدرة من السفوح والمحدقة بالوادي للاستفادة من ماء المطر وفي توجيه كثير من الروافد والجداول الطبيعية عبر سواقي ومصارف وقنوات وفي القيام بعدد أخر من الاعمال مثل كنس الاودية والاراضي المسقية وغيرها . وعموما ، فان سيول

(1) الدرجيني ، **نفسه** ، ج II، ص 442-445 . الوسياني ، **سير** ، مخ ، ص 55-57 .الشماخي ، **سير** ، تحقيق محمد حسن ، نسخة مرقونة ، ص 313.

الاودية ، وهي مصادر مائية موسمية ، مكنت من اقامة نظام الري الحوضي (bassin d'irrigation) في هذه الجبال الوعرة التي ارتفعت فيها نسبة الانحدار، و أنخفضت فيها نسبة تسرب الماء الى باطن الارض ، مما يؤدي الى دفق قوي لصبيب الماء، كلما نزلت الامطار وخصوصا العاصفية منها – والى سرعة تجمع الماء في شكل سيول وأودية موسمية ، لا يتجاوز مدة نشاطها بعد انكفاء المطر بضع ساعات ، لكنها عارمة وعنيفة ، تحمل معها الاخضر واليابس ، فتكون نسبة الانجراف قوية مالم يقع التحكم فيها واقامة الجسور المتراكبات. وقد يحصل هذا المشهد مرة في السنة أو ربما أكثر أو أقل ، وهو زمن حاسم للمزارع والزراعة ، احتاج الى تقنين وفق العادة (**"الا ما كانت عليه العادة"**) لتفادي النزاعات بين أفراد المجموعة الزراعية ، حتى يأخذ كل طرف حقه . تلك هي العلة في البنود التي ذكرها أبو العباس أحمد في كتابه . ونورد أهمها :

– باب يخص ماء المطر : تناول فيه قوانين تتعلق بالملكية المشتركة لماء المطر وأماكن تجمع الماء في الفدادين والغدران والاحواض وكيفية أستغلاله ، وكيفية التصرف في ماء الماجن (عند الشرب أو السقي أو البيع) .

– عمارة الارض بماء المطر : تعرض فيه للقوانين الخاصة بالتحكم في السيول وبناء المنشآت المائية وكيفية صيانتها وتوزيع الماء وقسمته ، حسب الحجم ، لا الزمن كما هو معهود في الواحات . وقد فصل هذا الحديث الى المحاور التالية :

– أنواع الاودية والسيول : فالوادي الفحل يعرف حسب مكان المصب (البحر أو السباخ أو الارض) أو حجمه (الكبير) أو طوله (إذا تجاوز نحو عشرة كم تقريبا) (1) .

– المساقي : جمع لسقى : وهي المساحات غير المزروعة التي يتجمع فيها الماء، كي ينحدر الى البساتين والمزارع . وهذه الثنائية مسقى – منقع معروفة في مجالات أخرى مثل الساحل . والمساقي ملكية خاصة أو جماعية ، لا يمكن استعمالها دون موافقة أصحابها ، سواء أكان الوادي كبيرا (فحلا) أم صغيرا . وقد فرق المشرع بين قسمة الصبوب (zone de concentration) وقسمة الماء ، وبين ملكية كل واحدة منهما(2)

(1) راجع المصدر المذكور ، ص 241، 257.

(2) **نفسه** ، ص 240-239، 253.

–المصارف(prise d'eau) : هي السواقي التي تنطلق من الوادي نحو المزارع، وتقسم الماء بين المجموعة الزراعية ، اعتبارا أن الماء يمكن أن يكون ملكية خاصة أو عامة كما الارض(1).

وقد حدد القانون نسبة الاستغلال : فكل مصرف لا يمكن أن يتجاوز الخمس أو الثمن أو العشر من صبيب المسقى عند نقطة التقاء المصرف بالوادي ، و يترك البقية لمن هو أسفله كي يأخذ نفس النسبة (الخمس أو أقل) ، وهكذا دواليك . ومن أراد صرف الماء من جانبي الواد ، فله العشر من كل جهة . واذا فضل شيء من الخمس ، فانه يرد الى الوادي ولا يمكن صرفه الى أرض أخرى ما لم تكن عمارتها من ذلك الوادي . وإذا لم يعلموا ما لكل واحد منهم من الماء ، فانهم يسقون بها على التسابق، والتدرج من الأعلى الى الأسفل (2) .

ومما يلاحظ أن هذه المصارف توزع على قدر السهام في الماء ، وإنها تنقسم الى عامة وخاصة ، وأن توسيعها أو إعادة بناءها على إثر الانجراف أو مرورها من أرض ملك للغير مقترن بموافقة المعنيين بالامر، وان بعضها أحتاج الى معالجة على حد عبارة المؤلف (aménagement) لرفع الماء اليها (3) .

– المقاسم (partiteurs): اذا كانت المصارف تزود مجموعة من المزارعين بالماء ، فان المقاسم هي الوحدة الاقل التي تقسم الماء بين هذه المجموعة . وعادة ما تبنى بصفة مشتركة بالحجارة والآجر والجص والجير ، كما تحتاج الى مشاركة المعنيين بالامر في صيانتها المتواصلة نتيجة قوة دفق المياه ، فيتم اصلاحها أو اعادة بنائها أو توسيعها أو تضييقها ، وكذلك كنسها وذلك بموافقة كل أفراد المجموعة ، حتى لا يتضرر أحد من قلة الماء أو كثرته .

فعملية الكنس (curage) مثلا قد تؤدي الى زيادة الصبيب ، كما أن عدم الكنس قد يعطل حركة المياه . ويتم كنس المقاسم المدفونة (acequia souterraine)

(1) المصرف عند بارك هو الوحدة القياسيّة للري لاقل من خمسة مزارعين يوميا ، وتوزع بينهم حسب مكاييل معلومة. وتطلق حاليا بواحات نفزاوة على السد الصغير من التراب الذي يغلق أول الساقية .

راجع: Berque, les Mez'uda, **R. H.**, 1955, pp.223-243. Bédoucha -Albergoni, Système hydraulique et société dans une oasis Tun. ne, **Etudes Rurales**, Av.-Juin 1976, pp. 39-72

(2) نفسه ، ص 240

(3) ذكر الشماخي (**السير** ، ص 144)انكسار ساقية ليتيم على جنان أحد العلماء، مما جعله يمتنع من الاستفادة من المنتوج الزراعي. وفي خبر أخر (ص 127) تحدث عن اصلاح أحد العلماء لساقية اليتيم ومجاري الماء ، وعن اصلاح امراة لساقية عند نزول المطر.

بكيفية معينة . من هنا نفهم هذه المعادلة الصعبة بين مختلف أفراد المجموعة الزراعية في انجازهم للاعمال اللازمة دون اضرار بطرف ما(1) .

أما اذا أنخرقت المقاسم ، وفسدت ، وذلك يحصل كثيرا نتيجة شدة تدفق السيول ، فانه يتعين مراعاة شروط لتحويل المقسم من أعلى الى أسفل . كما أنه يجب المحافظة على مستواها العادي ، وهو مستوى مسيل الوادي ، وكنسها إذا ما أرتفع عن هذا المستوى نتيجة تراكم الطمي ، و اذا ما حصل انجراف ، أو وقعت ثلمة ، فان الاماكن الحفورة تحتاج الى عملية الدفن وذلك عن طريق الجرف(décapage).

ونظرا الى ضرورة تعهد المقاسم بالصيانة المتواصلة ، في بداية كل موسم خاصة ، فان هذا العمل عادة ما يوكل للابناء والوكلاء والعبيد . أما ملكية المقاسم ، فانه يمكن تملك سهم أو أكثر من المقسم ، وتنتقل ملكية المقسم عن طريق الشراء و الهبة والوراثة (2).

– الجسور (culture en terrasses, avec des petits barrages) : تطلق على المنظومة الزراعية الكاملة المكونة من السدود الصغيرة المبنية من الحجارة والتراب ، التي تعترض ماء السيول ، وتحجز قسما منها في المدرجات (culture en terrasses)، قبل أن تصرف البقية عن طريق قناة ومن الاراضي المنتفعة من ترسيب الطمي بها و من مياه السيول . ولذا فقد أطلق لفظ الجسور على هذه السدود الصغيرة التي تتحكم في انجراف التربة والماء، كما أطلق على الفدان (3) .

وعادة ما تستعمل هذه الجسور التراب (جرف التراب) في المنحدرات الضعيفة ، فيما تحتاج الى بناء بالحجارة والجير والجبس والخشب في المنحدرات القوية . و يوضع الزرب فوقها حتى لا يمر عليها المزارعون ، وهوما أكده مصدر أخر، عندما ذكر أن أحد العلماء أستنكر لما أبصر رجلا من شروس يسير بفرسه خارج الطريق ويهدم جسور الناس(4) .

و تستعمل هذه الجسور في المدرجات لحفظ كمية مياه الأمطار المتجمعة في المساقي أو الاودية والسيول، وبالتالي كانت في حاجة متواصلة الى صيانة

---

(1) راجع الونشريسي ، **المعيار** ، الجزء الثامن . تتم عملية الكنس لازالة ما تعلق بمجرى الواد من تراب وأوساخ ، وتيسير جريان الماء ، خصوصا في فصل الصيف عندما ينقص صبيب الماء . وعادة ما تكون هذه العملية جماعية ، يتولى القيام بها كل الاطراف ، من الاعلى في اتجاه الاسفل . وكثيرا ما تثير نزاعات معقدة داخل المجموعات الزراعية والمدن ، راجع مثلا كنس وادي مصمودة بمدينة فاس .وتحدث الشماخي (ص 31) عن كنس العبيد لعين ماء.

(2) **كتاب القسمة** ، ص 62 ، 243-248. 256 .

(3) **نفسه** ، ص 257 .

(4) **نفسه** ، ص259 . الشماخي ، **السير** ، ص 215 . محمد وليد كامل ، تخزين الماء قدر الانسان في الشرق الاوسط **اسهامات العرب في المياه والري**، ص 44-55 .

واصلاح عند انكسارها ، وعادة ما يشترك أهل القرية في العمل (أناس كثيرون حسب عبارة المؤلف) لرفع الجسور عند ما يزداد ترسيب الطمي ، أو كنس الفدادين وتخليصها مما حمله ماء الوادي .

على أن تعويض جسر انكسر بآخر في الاسفل ، أو توسيعه أو خفضه أو رفعه هي أمور مشتركة بين المجموعة ، وتحتاج الى موافقة من هو أسفل . وعند أنكسار جسر ، يجبر الاسفل الاعلى على نزع ما حمل الماء الى أرضه من الاشجار والنبات والخشب والزرب والحجارة ، وبرد ما أنكسر من جسره .وهنا اختلفت الاحكام في رد الجسر الاول إذا كان للخاصة أو للعامة .

أما الماء ، فانه ينتقل من جسر الى أخر عن طريق القناء – وهو المسمى حاليا المفس (déversoir) التي يخرج منها الماء ، بعد أن يرتوي الاعلى ، الى الاسفل .

وقد عبر المؤلف عن هذه المدرجات التي تتحول فيها الشعاب الى مساحات مستوية بالعبارة التالية : **وان عمر أحد على ذلك الماء ، ثم عمر أخر أسفل من ذلك ، ثم عمر أخر أسفل من هذا ، فان كل واحد منهم يمنع من فوقه من صرف هذا الماء ..** (1) .

وبالتالي ، فاذا كان الاعلى يحظى بالاسبقية في استغلال ماء الري ، فان الاسفل له كل الصلوحيات في الانتفاع بنصيبه منه ، ومنع أي ضرر يلحقه من الاعلى .

وخلاصة القول ارتبطت هذه القوانين المنظمة لتوزيع المياه ، وخصوصا المياه السطحية منها ، ببنية اجتماعية فاعلة ، وهي المتمثلة في الجماعة ذات السلطة الساهرة على حسن سير هذه العمليات والتي تبت في النزاعات و في عامة المزارعين والرقيق العاملين في الارض .

وقد خصت هذه القوانين مناطق جبلية طرفية ، في منأى عن التأثيرات الرومانية قديما ، إذ لم يقع العثور هناك على منشآت مائية قديمة .أما في الحقبة الوسيطة ، فقد وجدت باليمن هندسة مائية صغيرة متشابهة مع مثيلتها بافريقية .

وبالتالي فاننا نرجح كونها تقاليد ضاربة في القدم ، تأخذ بعين الاعتبار الاحكام المحلية الشفوية (إذ كثيرا ما تكررت عبارة : اذا لم يكونوا قد عرفوا على ذلك – وكانت عليه العادة) ، ولم تأخذ شكلا مكتوبا الا في القرن الخامس هـ .

غير أن ذلك لا يعني القول بعدم وجود مؤثرات أخرى ، سيما أن الحضارة العربية، وخصوصا اليمن السعيد ، تميزت بمنشأتها المائية المتشابهة . فما هي اذن خصوصيات كل مجال. ان الاجابة عن هذا السؤال ليست سهلة ، وان كنا نميل الى أن الانسان المغربي هو الذي أنشأ هذا النظام المائي البديع في دقته وفاعليته وتطوره كلما أقتضى الامر ، بفعل تفتحه على الحضارات الاخرى .

---

(1) **كتاب القسمة** ، ص 258-261 .

3) التقنيات المائية : المنشآت الصغرى :

أ) الناعورة (Noria) :

– *الناعـورة الكبيـرة* :ظهـرت في مصـر منذ عهـد السـلالات و بداية العصـر الروماني ، كما عـثرعلى طول نهر العاصى (بدمشق) على فسيـفساء روماني تمثل ناعورة . و هي مكونة من عـجلة خشبيـة موضوعة عمـوديا مزودة بأواني لملأ الماء ، يحركها تيار النهر (1).

و في العصر الوسيط انتشر اْستعمالها بالأندلس ، فكانت معروفة في طليطلة وقـرطبة و غـيرهـا من المدن ، حـسبـما ذكـرته المصـادر وبعض الرسوم المـمثلة للناعورة المتبقية في المخطوطات (2).

و لئن لم يرد ذكر الناعـورة الكبيرة التي تحرك بواسطة مـاء نهر أو قنـال في المصادر الخـاصة بافريقيـة ، فإن السانيـة أو الناعورة التي تدار بحيـوان عرفت بهذه البلاد منذ العصر الوسيط الأول، وأزداد اْنتشارها في العهد الحفصي (3).

– *العجلة أو الدولاب الصـغير* : اعتـمدت على جر الحـيوان ووفـرت صبيـبا ضعيفا من الماء . وقد أشار الـبكري منذ القرن الخامس هـ الى النواعير والسواقي التي تسقي البساتين عند حديثه عن الماء المجلوب لقرى قرطاجنة (4).

والى تلك الحقبة ، أي العـهد الزيري ، ترجع إحدى المسائل التي طرحت على ابن الصائغ : **« ساقية بين شريكين و فيـها بئر واحدة ، فهل يعطى كل واحد منهم نصيبه بالقرعة و القيمة ، و يتـرك البئر و الجابية و هو مجتمع الماء و الموضـع الذي تدور فيه الدابة مشتركا بينهم»** (5). وفي نهاية القرن الثامن هـ ، ذكر البرزلى أن الطرق المستـعملة في الري اعتـمدت على القواديس و الآلة التي يـنسكب منها الماء ويصب في الجابية ، وكانت الدواب تستخرجها (6) .

---

(1)Menassa, Laferrière, **La Sequia, technique et vocabulaire de la roue à eau Egyptienne,** Le Caire 1975 .

(2) الادريسي ، **نزهة المشتاق** .حول انتشار الناعورة في المغرب الاقصى والاندلس ، انظر :
G. S. Colin , la noria marocaine et les machines hydrauliques.. **Hespéris** , XIV, 1932, pp. 22-60
Torres Balbas, Las norias fluviales en Espana, In **Andalus**, 40, 5, pp. 195-208
Julio Caro Baroja, **Norias, azudas, acenas**, Consejo superior de investigaciones cientificas V. Lagardère, Moulins d'Occident Musulman au moyen-âge, **Al-Qantara**, XII , 1991, pp. 58 -117 .

(3) الوزان ، **وصف**، جII ، ص 76(قال أنه لا توجد طاحونات يحركـها الماء ، لا داخل تونس ولا خارجها،بل تدار كلها بالدواب) .

(4) البكري، **مسالك** ، ص44 . **الاستبصار** ، ص 122.

(5) الونشريسي ، **المعيار**، جVIII ، ص 415 .

(6) البرزلي ، **جامع** ، مخ 4851، جII ، ص 1107.

وكانت الناعورة في أواخر العصر الوسـيط واسعــة الانتشار في ضواحي مدينة تونس ، لري المزروعات (من خضر وبقول وحبوب و غيرها) . قال الوزان في هذا الصدد : " **الا أن لبـعض أهل المدينة (تونس) ممتلكات صـغيـرة في الضواحي القـريبة يزرعون فـيها قليلا من الشـعير و القـمح . و لما كانت هذه الأراضي مفتقرة إلى السقو فإن لـكل منها بئرا يؤخذ منها الماء في قنوات محكمة البناء ، و يرسل بواسطة آلة مكـونة من عجلة (ناعـورة) يجرها بغل أو جـمل . فتسقي المزروعات . تصوروا مقدار الحبـوب التي يمكن اْستخراجها من حضيرة صغيرة مسورة تتطلب كل هذه العناية و الخدمة ،و في النهاية لا يحصل أي واحد منها على ما يكفيه لنصف السنة** " (1).

– *السانية* (*roue élévatoire*) :و جمعهـا سواني . لغة : هي الغرب وأداته، وهي الناقة التي يستقى عليها ،و هي الناضحة أيضا .

أمااْصطلاحا ، فتطلق على العجلة أو الدولاب الصغير التي تعتمد على جر الحيوان. وكانت مكونة من عجلة أفقية يحركها حيوان في محورها ، و تتخللها عجلة عمودية تحمل مجمـوعة من القواديس التي تملأ بالماء ، ثم يقع صبها في الجدول ، على أن صبيبها كان ضعيفا (2).

و قد كانت مستعـملة ببلاد المغرب منذ زمن مبكر ،إذ تحدث البكري عن الآبار بالدواليب بمدينة المهدية في العـصر الفاطمي و عن البسـاتين الواقعة خارج باب قرطاجنة بتونس و أبار السـواني بها و التي تعرف بسواني المرج (3).

– و في أواسـط القرن الخامس هـ / الحادي عشـــر م ، سئــل السيوري بالقيروان **« عمن له جنات منهـا ما يعمل بالسانية ، و منها ما يعمل بـالماء الكثير أو الصغـير ، ولهما رجال يعـملون بأجارات مختلفة ، فالذي يعمل بالسانية له الخمس و الآخر العشر »** . وهو ما يشير وضوحا الى اْنتشارها بناحيـة القيروان ، كما عرفتها مناطق

---

(1) الوزان ، **وصف افريقيا** ، جII ، ص 75.

(2) الزبيدي ، **تاج العروس** ، ج X ، ص 185. ابن منظور ، لسان العرب ، الدار المصرية للتـأليف والترجمة ، ج XIX ، ص128 . Menassa , Laferrière , **la sequia** ,op. cit

(3) البكري ، **مسالك** ، ص 29 (والماء الجاري بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية ميانش وهي على مقربة من المهدية في أقداس ، ويصب في صهريج داخل المهدية عند جامعها و يرفع من الصهريج الى القصر بالدواليب) ، 40 (وأبار سواني تعرف بسواني المرج).

أخرى مثل الجريد ، بشهادة أحد أبنائها ، وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر (القرن الخامس هـ)، الذي ذكر أن هذه الطريقة من الري تعد مرهقة ، **وعناها أكثر من نفعها »** (1) .

وهكذا يتضح لنا أن أستعمالها في العهدالحفصي لم يكن أمرا طارئا ، ناجما عن الهجرة الاندلسية ، بقدر ما هو تقاليد مشرقية راسخة منذ بداية العصرالوسيط. فقد ذكرها ابن ناجي أكثر من مرة في جهة القيروان ، وشمل أستعمالها بلاد الواحات كما أشار إلى ذلك ابن راشد متحدثا عن «السانية و بئرها و صهريجها وآلتها ».

كما أستعمل السني بآبار الحمامات ، وقد تولى الاعتناء بالدابة لاستخراج الماء عامل مساقي أطلق عليه السواق .كما رأينا أن الناعورة أو السانية كانت واسعة الانتشار في المزارع المحيطة بمدينة تونس (2).

وأتخذت المعنى نفسه بالمغرب والاندلس : فأورد الادريسي ذكرها ببني وازلتن، أذ قال : « هي قرية كبيرة لها كروم وجنات ، ذوات سواني يزرعون عليها البصل والشهادنج والحناء والكمون ولها كروم كثيرة ، ومعظمها على نهر شلف » . مما يعني بوضوح أن هذه الآلة المستعملة قرب الانهار هي الناعورة ، أو دولاب السانية التي تحدث عنه الحميري بالأراضي التي تسقى من وادي مرسية . كما ترك لنا ابن العوام ، نقلا عن ابن الخير ، وصفا دقيقا للسانية بالاندلس . أما بالمغرب الاقصى ، فقد ذكر الونشريسي السانية عديد المرات (3).

ب) آلات أخرى : توجد آلات أخرى لاستخراج الماء ، أهمها :

–الدلو : وهو وعاء كبير من جلد ، يستخرج من البئر عن طريق جر حيوان، ويصب في الجابية . وقد كان معروفا بافريقية منذ العهدالزيري : فقد تحدث ابن الصائغ عن زرع في سانية تشرب بالدلو ، وذكره كذلك أبو العباس أحمد بالجريد ، كما تحدث عنه الونشريسي بالمغرب الاقصى (4).

---

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج II، ص150 ب (سئل عن بير مشتركة تسقى بالقواديس والآلة ، والبير والجابية ومحلّ دوران البهائم مشترك)، 159 ب . كذا في الونشريسي ، **المعيار** ، ج I، ص .365 ابو العباس احمد ، **أصول الارضين** ، ص 74.

(2) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ، ص 122، 165، 213 ، 244 ، ابن راشد، **الفائق**، ج I، ص 203ب . **مناقب بن عروس** ، ص 223–224.

(3) الادريسي ، **نفسه** ، ص 81. الحميري، **الروض المعطار** ، ص 220.
الونشريسي ، **المعيار** ، جI ، ص 412،365 ، ج IX، ص 125.
Lagardère, Droit des eaux et des installations hydrauliques au Maghreb et en Andalousie au XI et XII s. dans le Mi'yar d'Al-Wansharisi,**C. T** . 1988-1989, n.145-148 ,p. 104 .

(4)الونشريسي ، **المعيار** ، ج I، ص 369، جVII ، ص 55. أبو العباس أحمد ، **أصول الارضين** ، ص 73.

– الغرغاز والانجفة : تعود سكان القصور بجنوب شرقي إفريقية ، على أستخراج الماء بالغراغيز ، وهذا التجاني يصف لنا هذه الآلة في قوله : **«بها (غمراسن) أبيار ليست بالكثيرة يستقون منها بالغراغيز ، وأكثر مزارعهم الذرة التي يسمونها القصب »** . كما ذكرت آلة أخرى شبيهة بالناعورة بالواحات ، أطلق عليها أنجفة بالفزان ، وخطارة بالمغرب الاقصى ، وهي تمكن من رفع الماء بواسطة تأرجح خشبة كبيرة (تسمى جباد) ، يوضع في طرفها وعاء مائي (1).

4) التقنيات المائية : المنشآت الكبرى :

1) السواقي والحنايا : استطاع الاغالبة و الفاطميون إنشاء شبكة مائية متطورة في المدن الكبرى ، وخاصة القيروان والمهدية (2).

غير أن هذه المنشآت تلاشت أو كادت في العصر الحفصي، خاصة بعد أن انتقل اهتمام الدولة من المزاق الى شمال البلاد، وتحديدا مدينة تونس . وبالتالي ، فقد

---

(1) الادريسي ، **نفسه** ، ص 35. التجاني، **رحلة** ،، ص 186.
Capot Rey, **Glossaires des principaux termes géo.ques et hydro-géologiques Sahariens**, Alger 1963 , p.153.

(2) منذ سنة 246هـ / 860 م ، حفر أبو ابراهيم أحمد الماجل الذي بباب تونس . وقد قال ابن ناجي في هذا الصدد : «وماجل باب تونس هو الذي يسمى عندنا بالفسقية ، والماء الذي يجلب اليه من الوديان بالسد الذي يعمل حتى يصل الماء اليه. فينتفع به أهل القيروان » .غير أن الساقية التي تجلب الماء الى القيروان لم تذكر الا في العهد الفاطمي ، إذ قال النعمان في هذا الصدد : «واعتزم المعز لدين الله على إجراء نهر عين أيوب الى المنصورية ، وقد كان القائم ابتدأ العمل فيه على أن يجريه الى مدينة القيروان . ثم جاءت الفتنة ، فقطعت ذلك ، وهم المنصور بذلك ، فهول عليه أمره .ثم أعتزم المعز على إجرائه ، وبدأ العمل فيه أول يوم من محرم سنة348 هـ ، وذلك يوم الأحد . وقيس ما بين المكان الذي بلغ به القائم الى المنصورية ، فوجد طوله 73000 ذراع ، فأمر بان يجري قناة تبنى بالجير تأخذ في إسناد جبال وتمر على اودية واوطئة يحتاج فيه الى إزاج يجري الماء من فوقها . وأستهل ذلك بعض من حضر ، فقال المعز : قد هول مثل هذا التهويل على القائم وقيل له : والله لو جعلت في ساقية من زجاج ما جرت » .
ويتضح أن الفاطميين قاموا بصيانة هذا الانجاز الكبير واكماله ، موصلين الماء الى صبرة . وقد وقع الالتجاء عند انطلاق الماء الى نظام القنوات التي تحفر في جوف الارض ، وتتخللها آبار وهي شبيهة بنظام الفقارة بالمغرب الاوسط والاقصى والقناة بفارس .
اما عن المنشآت المائية بالمهدية ، فقد ذكر البكري ما يلي : « فيها من المواجل العظام ثلاثمائة وستون ، غير ما يجري اليها من القناة التي فيها الماء . والماء الجاري بالمهدية جلبه عبيد الله المهدي من قرية منانش وهي على مقربة من المهدية في أقداس، ويصب في صهريج داخل المهدية عند جامعها ويرفع من الصهريج الى القصر بالدواليب ، وكذلك يستقى أيضا بقرب منانش من الابار بالدواليب ويصب في محبس يجري منه في تلك القناة » .انظر :
ابن عذاري، البيان ، ج I ، ص 113. ابن ناجي، **معالم** ، ج II ، ص 147–148، 149. النعمان ، **المجالس والمسايرات**، ص 331 . ابن الخطيب ، **رقم الحلل في نظم الدول**، تونس 1316 ، ص 31. المقدسي ، **أحسن التقاسيم**، ص 225. البكري، **مسالك** 26، 29–30 . Solignac, Les installations hydrauliques.. **op. cit.**, p.65.

سعى الحفصيون لحل مشكلة الماء بالحاضرة ، وذلك عن طريق ترميم الحنايا القديمة أولا ، وانشاء جملة من المعالم المائية ثانيا .

– ترميم الحنايا في عهد المستنصر : أمر السلطان باصلاح الحنايا التي ترجع الى فترة الامبراطور هدريانوس ، (120–138م) ورممها ، مستعملا في ذلك التقنيات الافريقية التي وقع توارثها بالبلاد ، وهي البناء بالطابية . وفي سنة 666هـ / 1267م ، تمت أشغال الترميم، وأضيف لها قسم باردو ، من رأس الطابية الى القصبة ، وقد كانت الساقية غير مغطاة خلافا للقديمة . و منها وصلت الى جامع الزيتونة بواسطة قنوات من الرصاص . ونظرا للالتواءات العديدة ، فان صبيب الحنايا بلغ نسبة العشر من صبيب القناة القديمة (1).

ومما يلاحظ أن سقاية جامع الزيتونة لم تكن إنجازا حفصيا ، بل أنها ذكرت منذ القرن السادس هـ (2).

مما يجعلنا نشك في نسبة هذه القنوات الموجودة بجامع الزيتونة الى العهد الحفصي ، وفي ربطها بترميم الحنايا ، وهو ما يعارض ما ذهب اليه سولنياك ومن أتبعه في دراسته .

وفي الجملة ، يعد هذا الانجاز السلطاني ضخما في تلك الحقبة ، فأشاد به الشعراء وهنأ الادباء والكتاب السلطان . بل أن الحنايا دخلت المخيال الشعبي وصيغت في قالب أسطورة تروى في المجالس ، حتى أنه وقع تأويل عبارة مجمع البحرين الواردة في قصة موسى تأويلا يناسب الوضع المحلي : فمجمع البحرين هو مصب وادي مجردة ، والصخرة هي صخرة أبي الربيع ، والجدار يقع بالمحمدية ، أما السفينة فهي من السفن التي حملت الحجارة للحنايا عند بنائها ، ولم يتخلص كبار العلماء مثل ابن عرفة من تأثير هذه الاسطورة عليهم (3).

أما المنشآت الأخرى المتعلقة بسائر مدن افريقية ، فاننا لا نملك عنها سوى إشارات متفرقة . ففضلا عن السواقي المتفرعة الى جداول التي أستعملت في مدينة

---

(1) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 38. ابن الشماع ، **الادلة** ، ص 68. ابن ابي دينار ، **المؤنس** ، ص 135. ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص660 . أبو القاسم محمد الغرناطي ، **الحجب المستورة في محاسن المقصورة** ، القاهرة 1344 هـ، ص 72، 77.

Brunschvig , **Hafsides** , T I , p. 384-385.

Solignac, Travaux hydrauliques Hafsides de Tunis, **R . A.** , 3e et 4e trimestre 1936, pp. 517-580 .

(2) الزهري، **كتاب الجغرافيا**، ص 108. راجع الفصل الخاص بمدينة تونس.

(3) حازم القرطاجني ، **المقصورة** . الغرناطي، **الحجب المستورة في محاسن المقصورة** ، ص .77 وقد انشا أبوالمطرف بن عميرة في هذا الغرض رسالة جاء فيها : « نشات بحرية لاعظم البحار ، هي برية لانها منسوبة من جانب البر مجلوبة ، تعد كونية عند من يعقل ويحصل، كوثرية لان ماءها الى الكوثر يوصل » .

الأبي ، **الاكمال**، ج VI، ص 171–172.

توزر ومزدرعها ، فان الماء المجلوب الى قسنطينة من الوادي وصل المدينة عبر قناطر متناضدة (1) .

ويتّضح من مسألة خصّت مدينة تازا وباديتها أنّ المدينة المغربية قد عرفت توزيع الماء داخل الاحياء وحتى الازقة والمنازل . غير أن ذلك لم يتم دون حصول اختلافات مع أهل البادية التي جلب منها الماء(2) .

ويصبح الماء موضوعا أكثر حساسية في الواحات التي تحتاج الى عمل شاق لاستخراجه .

ب) **القناة الجوفية** : وهي عبارة عن قناة باطنية لجر الماء من مكان الى أخر ، يجري فيها الماء من العين، من المرتفع الى المنحدر، حتى يبلغ سطح الارض، فيسقي الاجنة والبساتين . وتحفر آبار (أو منافس) بعد كل عشرة أمتار أو اكثر لصيانتها .

وأختلف الدارسون في جذورها : فالبعض يرى أنها ظهرت ببلاد فارس قبل أن تنتقل تدريجيا الى افريقية والمغرب .ويرى أخر الى أنها تقنية أندلسية تسربت في العصر المرابطي الى مراكش (3).

ويبدو أن البكري تحدث عن القناة الباطنية لما ذكر عين أبي السباع ، فقال أنها **«مجلوبة تحت الارض من جبل بني يارون ، يشق منها سوقها ساقية»**. وفضلا عن الوصف الدقيق والثابت لها الوارد ذكره في الادريسي ، والخاص بمدينة مراكش، فان ابن خلدون تحدث عن الفقارة بتمنتيت بالمغرب الاوسط ، كما ذكر ابن الشباط الكظيمة ، وهي الآبار التي تحتفر على طول القناة الباطنية . وقال

---

(1) البكري، **مسالك** ، ص 48–49، 63.

(2) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII، ص 55 ،ج VIII، ص 38–39 .

ومما ورد في هذا الشان :« أصل ماء هذه البلدة مجلوب من موضع بعيد على ما يظهر بعقود قديمة مشترى من اربابه مجلوب الى البلدة المذكورة ليس لاحد فيه حق من أهل البادية حاشا أهل موضع واحد لهم فيه الثلثان من الماء في كل يوم خميس من صلاة الصبح الى صلاة العصر من اليوم المذكور، وقادوس آخر لمسجد هناك مقدار خمسة اصابع منظمة ، وسائر الماء مجلوب للبلد المذكور لمساجدها وحماماتها وسقاياتها وسائر الناس لاجبابهم .وسيق الماء المذكور الى ساقية قرب سور البلد المذكور، وقسم من هناك الى ثلاثة سواقي، ساقية تسمى بجهة الرياض الكبير وما والاه ، وساقية بجهة القصبة وما والاها، وساقية عظمى هي التي تشق البلد يخرج منها الماء الى معد وانقرة، كل يسير الى ما والاه من الجهات. وفي المعد قواديس مثلما ذكر، وقد تقرر هذا على قديم الزمان، وأن أهل كل زقاق لهم ساقية معلومة » .

(3) الحميري، **الروض المعطار** ، ص 208 220.

Capot-Rey, **Glossaire**, op. cit., p.39. Solignac, Les Installations Hydrauliques.. op.cit.

H . Goblot, **Les qanats, une technique d'acquisition de l'eau**, Paris 1979 , p. 27.

Grandguillaume, Régime eco. et structure du pouvoir : Le système de Foggara. **R.O.M.M.** , 1er Trimestre 1973 , n°. 13-14 .

الزركشي أن السّلطان أبي عمرو عثمان جلب الماء الى تونس من أم الوطاء خارج المدينة. كما تحدث الوزان عنها في عيون الحامة (1).

5–توزيع المياه داخل الواحات :

يحتاج نظام الري بالواحات إلى أعمال كبرى لبناء السواقي والقواديس، وصيانتها، وتهيئة المقاسم والمصارف ، ومراقبة التوزيع، ولذا تخصص لها يد عاملة هامة ، من الرقيق والخماسة حتى تكون العملية غير مكلفة .

ولئن كان هذا النظام لا يمكن أن يسير دون وجود سلطة اقتصادية وسياسية قوية تفرض على المجموعة الريفية تقسيم عمل محدد وتوزيع ملكية الماء وفق منظومة متوارثة ومتجددة، فإن هذه السلطة ليست بالضرورة في توافق مع السلطان ، والنفوذ المركز داخل المجتمعات المائية، إذ كثيرا ما يرجع تأسيس النظم المائية وصيانتها وتوزيعها إلى عمل المجموعات الزراعية ذاتها، التي تتميز بالتوازن والاستقرار والحرية في تنظيم المجال الزراعي وادارة شؤونها. غير أن القسط الأوفر من السلطة يرجع إلى أقلية من الشيوخ المتنفذين ، والمالكين للقسط الأوفر من الماء ، الذي يعتبر النفوذ الحقيقي داخل الواحة. ولذا كانت ملكيته الهشة مهددة بالاغتصاب باستمرار ، من قبل المجموعات المتنافسة . وهو الرهان الأساسي للتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. فإذا كانت القبائل البدوية تتنازع حول الكلأ والمرعى ، والمجموعات الريفية حول ملكية الأرض ، فإن الماء هو العنصر الفاعل في الصّراع داخل الواحات .

والمتمعن في المورفولجية الحضرية للواحة يجد ما يؤكد ذلك :

– ففي أواسط القرن الخامس هـ/XIم ، وقع نزاع بين فرقتين من أهل سدادة وأهل كنومة داخل واحة تقيوس ، وانتهى باخراج طرف للآخر، أي النكار للوهبيّة من الواحة، وانتهاب ديارهم، ويبدو لنا أن هذا النزاع المذهبي يخفي أخر، ذا صبغة اقتصادية (2) .

– كما كادت الفتنة التي وقعت بين مجموعتين من درجين السفلى الجديدة أن تؤدي إلى الخروج من الاوطان وذهاب الأنفس ، لولا تدخل أحد أعلام الوهبيّة من وادي سوف .

---

(1) البكري، **مسالك**، ص 64. الادريسي، **نفسه**، ص 67–68، ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص . الوزان، **وصف**، ج II ، ص92. راجع مثال فقارة توات في دراسة قرانقيوم المذكورة سابقا.

(2) الشماخي ، **كتاب السير** ، ج II ، ص 351 مكرر ، 340. انظر التجاني، **رحلة**، ص 157 التجاني، **ن.م.** 919 : كتانة : " وبها عين فوارة بمدينة قد اجتمعت منها بركة ماء متّسعة تلاصق سور القصر من جهة غربية . وتخرج مذانب ومسارب تخرق الغابة فتعمّها بالسّقي " . " الزارات" قرية ذات نخل كثير وماء غزير ينبع من عين حمة وقد اجتمعت لدى منبعها أيضا بركة ماء متّسعة القطر بعيدة القعر " .

– وفيما يخص مدينة توزر ، ذكر ابن الشباط أنّ نسيجها العمراني مقسم إلى مجالين ، يفصل بينهما خندق عند دخول العرب الفاتحين البلاد سنة 79هـ/ 698م، وظل هذا التقسيم طيلة الفترة الكلاسيكية ، وان كانت المجموعات القاطنة قد تغيّرت فالعرب الفاتحون استقروا بناحية ، فيما انتحى أهل البلاد من البربر والأفارقة وبقايا الروم طرفا ثانيا . ويبدو أن الوضع بقي على هذه الحال إلى حد سيطرة اعراب بني مرداس على جزء من الواحة ، فتحولت الثنائية للمرة الثالثة، على النحو الذي ذكره الوزان ، إذ قال : " **وهم مقسمون إلى قسمين يفصل بينهما النهر الصغير ، يسمى القسم الأول فطناسة وينتمي إليه كل شريف ونبيل بالمدينة، ويسمى ثانيهما مرداس ، ويتكون من اعراب منذ فتحها المسلمون، وهذان القسمان يعيشان في عداء ، وقليلاً ما يطيعان ملك تونس** " (1).

وبالتالي فإن هذه التقسيمات المذهبية (بين أهل السنة والاباضية أو بين النكار والوهبية) والعرقية (بين الوافدين الجدد والمستقرين بالبلاد) تتداخل وتتراكب في تناغم مع التنظيم الاقتصادي وتوزيع العمل والماء داخل الواحة (2) .

وقد تأثّر توزيع المياه داخل واحات افريقية، بنظام الريّ الذي انتشر مشرقا ومغربا في الفترة الكلاسيكية ومن البديهي القول انه سابق للقرن السادس. ومما ياتي دليلا على ذلك ما تضمنه كتاب الأرضين لأبي العباس أحمد بن بكر من قوانين وتراتيب دقيقة لتقسيم الماء وتوزيعه داخل الواحات ، حتى أنه ليخيل لنا أن قانون الماء هذا كان متميزا طيلة العصر الوسيط، ولم نعثر على ما يضاهيه في بقية المصنفات (3) .

ويتم التوزيع بواسطة المقسم الذي يقسم الساقية الأساسية إلى عدد من الجداول ذات صبيب متعادل، ويوزع ماء الجدول إلى خطوط متساوية، تغطي مساحة عدة أجنة وبساتين، تصل إليها بواسطة المصارف.

غير أن قلة المياه في فصل الجفاف ، وحاجة المزارعين إلى هذه البضاعة الثمينة، يفسران أستغلاله بالتداول، حسب طريقة معهودة تسمى النوبة أو الدولة (4) .

والحقيقة أن الترتيبات المأخوذة في هذا الشأن لم تمنع من حدوث اختلافات

---

(1) ابن الشباط، **صلة السمط**، مخطوط المكتبة الوطنية، ج II، ص 1194. الوزان، **وصف افريقيا** ، ج II ، . انظر ايضا : . H. R. Idris, **les Zirides**, TII, p. 468

(2) تحدث الشماخي (ن.م.، ص 247) عن نزاع بين فريقين من النكار والوهبية بفحص توزر، وانهزام النكار وخروجهم إلى تقيوس في أواخر القرن الرابع الهجري .

(3) راجع الفصل الخاص بالمقاسم والمصارف من المخطوط .

(4) A. Bazzana, P. Guichard, Irrigation et societé dans l'Espagne au moyen-âge, l'Homme et l'Eau en Médit . et au Proche - Orient, p.129.

ونزاعات حول كيفية وصول الماء إلى البساتين ، وقد أورد ابن راشد أحدَها بواحة قفصة :

" **سئل بعض المفتين في عصرنا عن ثلاث جنات متجاورات : أولى ووسطى وقصوى ، وللوسطى حق في جواز الماء على الأولى في ساقيتين مختلفتين . ثم اشترى من ناب عن رب الجنة القصوى مجرى ماء في الجنة الوسطى يسقي بها جنته من الحقين اللذين هما للجنة الوسطى على الجنة الأولى . فأراد رب الجنة الأولى منع رب الجنة القصوى من اجراء الماء على جنته . فآحتج رب الجنة القصوى بأنه إنما يجري الماء في جنته على الجنة الأولى في الساقيتين ، والوقتين اللذين هما حق الجنة الوسطى ، بحق ما صار له بالشراء ، ورب الجنة الوسطى غير منازع له ، في ذلك . فهل لرب الجنة الأولى منع الجنة القصوى من اجراء الماء على جنته أم لا ؟**

فأجاب : هذا المشتري الذي هو صاحب الجنة القصوى ، ان كان طلب أن يجري ما اشترى من الماء في مجرى ماء صاحب الجنة الوسطى، ويجريه في جنات صاحب الوسطى إلى جنته ، فلا يمنعه صاحب الأولى ، فإنه لا يضره، بل ينتفع النخل والشجر القريبة منه»(1) .

ان هذا المثال يأتي شاهدا على آختلاف علاقة الملكية للأرض والماء ، وكيفية انتقالها وتنظيمها ، وأهمية عنصر المجاري والمصارف في ذلك، ومدى التناسب بين عدد السواقي وأوقات السقي المسماة النوبة أو الدولة . وهي تمثل الجانب الثاني من كيفية توزيع المياه .

ب) نوبة الماء أو الدولة :

عرف ابن العطار دولة الماء بكونها قدره في الليل والنهار حسب اتساع ثقب القلد وضيقه . وكي تتم قسمة الماء بالتساوي ، يقع تعديل ثقب القلد المملوء ماء . فالدولة هي التي تحدّد المدة المخصصة لري أراضي كل واحد بالتناوب ، عندما تنقص كمية الماء في الصيف ، وتتراوح المدة الفاصلة بين نوبة وأخرى من أسبوع إلى ثلاثة ، وإن كان الغالب بواحات افريقية هو أسبوع . وعادة ما يرغب المزارعون في سقي الليل لكثرة الماء فيه ، وسرعة جريه والراحة من معاناة الشمس والحر وقلة التبخر (2) .

(1) ابن راشد ، **الفائق** ، ج III، ص 79 ب . ج IV ، ص 44 ب .

(2) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 47 ب . والقلد في **تاج العروس** للزبيدي (ج II ، ص484) هو الحظ من الماء ، أي سقي الماء كل أسبوع ، وفي حديث نبوي : « اذا أقمت قلدك من الماء فاسق الاقرب فالاقرب " ، ويقال : ما بين القلدين ضمأ .

وقد أورد الشماخي خبر الذي حجر على الماء الحلول بأرضه ، من أهل تاغيارت، من وارجلان . " **وقصته أن نوبته من الماء أكملها ، ولم يجد من يرد الماء ، وكانت نوبة يتيم ، فحجر على الماء أن يدخل أرضه ، فرجع إلى الساقية وتراكم حتى سكّر عليه ، وأصلح مجاري ساقية اليتيم ومجاري الماء . وقال من قال : جمد الماء حتى أصلح الساقية** " (1) .

وهكذا فضلا عن اقتران المقدس بالماء ، فإن العدالة في توزيعه تحتاج إلى حرص صاحب الماء وحضوره عند ما تحل نوبته .

وتقاس نوبة الماء بوحدة زمنية معينة ، تعتمد القادوس، وهو في الأصل حجر يطرح في حوض الابل يقدر عليه الماء ، يقتسمونه بينهم. ثم أصبح يطلق عند العرب على إناء من خزف أصغر من الجرة يخرج به الماء من السواقي (بمعنى النواعير) ، وعلى إناء مشابه وصفه البكري بالعبارات التالية ، عند حديثه عن واحة توزر : " **يعمد التي تكون له دولة السقي إلى قدس في أسفله ثقبة مقدار ما يسدها وتر قوس النداف ، فيملأه بالماء ويعلقه ويسقي حائطه أو بستانه في تلك الجداول حتى ينفذ ماء القدس ، ثم يملؤه ثانيا ، وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو 192 قدسا** " (2) .

واذا اعتبرنا أن يوم العمل يمتد طيلة 16 ساعة في الصّيف ، فإن الوقت المخصص للقادوس بالجريد يساوي : 16 ساعة / 192 = 4 دقائق و 46 ثانية ، أي نحو 5 دقائق . وقد ظل هذا المقدار على حاله ، ولم يتغير كثيرا طيلة العهد الحفصي، كما أشار إلى ذلك ابن راشد ، الذي عرف القادوس بقوله : " **القادوس عبارة عن ثقب منقوب من أسفل ، يجعل فيه الماء ، ثم يسقى بالنهر حتى يفرغ ذلك القدر ، إما مدة أو مدات على قدر ما له من ذلك – والقادوس عندنا يجري مقدار عشر ساعة** " (3) . بمعنى أن مدته بواحة قفصة تبلغ 6 دقائق .

ومعلوم أن ملكية الماء تتفاوت من واحد إلى آخر بتفاوت عدد القواديس المملوكة، ويكون حظ الماء ملكا لصاحبه، له أن يتصرف فيه كيفما اراد ، بيعا

(1) الشماخي ، **كتاب السير** ، ج II ، ص 405 .

(2) الزبيدي ، **تاج العروس** ، ج IV ، ص 213 . البكري ، **المسالك** ، ص 62 (القادوس) 3 = أمداد بمدّ النبي)

(3) ابن راشد ، **الفائق** ، ج II 43 ب . واذا كان الخماس يتولى عملية السقي ، فان الذي يراقب مدة نوبة كل واحد ، ويسهر على توزيع حظ كل واحد من الماء هو القداس، ومن المفروض أن يكون ملما بمعرفة حقوق الماء لكل واحد في الواحة ، وشبكة السواقي المتداخلة، اعتمادا على الذاكرة ، دون أن يحتاج إلى كتابة ذلك ويتولى قداسان العمل بالتناوب ، ليلا نهارا، طيلة أشهر الصيف الخمسة، ويستخلص اجرته حسب عدد الاجنة، لا حسب عدد ماليكها، كما يأخذ بعض التمر من كل مالك، ولذا فهي من المهن المعدة حقيرة، لا يقوم بها الا الرقيق والغرباء وصغار القوم . انظر: Bedoucha-Albergoni, op.cit .

وشراء وكراء وسلفا، دون أن يجبر بالضرورة على بيع الأرض . وعادة ما يعمد إلى البيع والكراء من كانت أرضه بعيدة عن الساقية ، أو من أبقى أرضه بورا لمدة ، أو رغبة في توفير المال من جراء ذلك .

فقد كان البيع لجزء مشاع من العين يسمى ببلاد قفصة والجريد القادوس ، وتحدث ابن راشد عن ذلك فقال : **" تارة يباع أصل ذلك القدر الماء من ذلك العين ... ، وتارة يباع منه عشرة قواديس مثلا يسقيها المبتاع من جنبة ، إمّا مدة واحدة أو حتى يفرغ الدور عندهم . وعلى كلا التقديرين فهو يكفل باعتبار أنه يكال بالقادوس . لكنك إذا نظرت إلى الذي يكال تجده غير ما اشترى، لان المبيع إنما هو جريان الماء أمدًا معلوما . والكيل بالقادوس لمعرفة الزمن لا لمعرفة قدر الماء المشتري، لان ذلك لا يعلم قدره الا الله "** (1) .

وكما يباع الماء ، فإنه يُهدى ويكترى . ففي أواخر القرن السابع هـ/XIIIم، أهدت امرأة بواحة قفصة حفيدتها عند الزواج خمسة قواديس ماء .

أما عن كرائه ، فقد تعود أهل هذه الواحة في العهدين الزيري والحفصي على دفع المكتري الكراء بعد السقي وعند الانتاج (2) .

وبناء على الاختلافات التي قد تنجم من جراء كراء الأرض والماء ، سواء أكان ماء عيون وانهار بالواحات، أو آبار ، فإنها تحرر عقود في هذا الغرض، وقد أورد ابن راشد أحد الأمثلة على ذلك ، وهو التالي :

" ان ذهب المكتري إلى أن يعقد في انفاقه عقدا يستظهر به على المكتري إن خالف ، كتبت : قال من يكتب شهادته بعد : وصلت مع فلان إلى الجنة التي أكتراها مع فلان ، بمحلة كذا ، فالفيت بيرها منهدمة ، قد ذهب ماؤها وتكسرت سانيتها وألفيت ما بأرض الجنة المحدودة من زرع يخاف عليه الهلاك إن تأخر عنه الماء كثيرا ، وكذا في يوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، ثم وصلت معه إلى الجنة المحدودة في تاريخ كذا ، فالفيت بير الجنة المحدودة مبنية وسانيتها قد تجدد ما تكسر منها ، وذكر لهم فلان المذكور انه انفق في حفر البير واخراج ردمها وطيها بالحجارة كذا ، وانه اشترى للسانية من العدّة كذا وانفق في اصلاحها كذا، فرأوا ذلك كله سداد فيما انفقه لا يشكون في شيء منه ، وانها انطلقت بمحضرهم في يوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، لتمام شهرين من شهود البير وانقطاع الماء ، وأنّهم نظروا إلى ما كان بالجنة من زرع ، فرأوه مقحطا ، الا أنهم يرجون بانطلاق الماء إليه أن يحيى ، ويرجع . فإن كان بأرضها مقثاة قد تلفت ، قلت : وانهم نظروا

(1) ابن راشد ، **ن.م.** ، ج II ، ص 43 ب .
(2) المصدر نفسه ، ج I ، ص 91 .

إلى ما كان بالجنة المحدودة من المقثاة والبقل وغير ذلك من الخضر قد هلك جميعه ، وإن الماء لا ينفع فيه ، وتحقق ان هذين الشهرين اللذين انقطع الماء فيهما وبطل انتفاع المكتري بهما بعد، لان في نفاقها ورغبة الناس فيها ثلث العام . شهد بذلك كله من عرفه وتحققه، بتاريخ كذا " (1) .

ج) – توزيع الماء في واحة توزر:

أشار المقدّسي إلى (واحة) الجريد، دون تفصيل، إذ قال **"لهم نهر عظيم قد غاب في النّخيل ولا تسأل عن كثرة البساتين"** (2) .

على أن أقدم وصف دقيق لتقسيم المياه بواحة توزر يرجع إلى أواسط القرن الخامس/XI، إذ قال البكري في هذا الصّدد :

« شربها من ثلاثة أنهار تخرج من رمال كالدّرمك رقّة وبياضًا ، يستمر ذلك الموضع بلسانهم سرش ، وإنّما تنقسم هذه الثلاثة أنهار بعد اجتماع مياه تلك الرّمال بموضع يسمّى وادي الجمال ، يكون قعر النهر هناك نحو 200 ذراع . ثم ينسقم كلّ نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستّة جداول وتتشعّب في تلك الجداول سوّاق لا تحصى كثرة تجري في قنوات مبنيّة بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئًا ، كلّ ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر (كذا) يلزم كلّ من يسقي منها أربعة أقداس مثقال في العام وبحساب ذلك في الأكثر والأقل .» (3).

وبقي العمل مستقرّا على هذا النّظام بعد القرن الخامس. إذ أورد ابن الشبّاط مقطوعة لأحد شعراء توزر، وهو أبو علي ابراهيم، تتناول هذا الموضوع ، وهي التالية :

نهر يقسّم بالسّواء ثلاثة ... في كلّ ثلث ستّة لا أكثر
تلك الجداول تسعة مع مثلها ... كلّ على الحدّ السّواء مقدّر
صاف على صفة المها يجري على رمل ... القضاء عذب قراح كوثر
ومسارح ومزارع ومباقل ... وفواكه من كلّ نوع يذكر

(1) المصدر نفسه ، ج IV ، ص 112.
(2) المقدسي ، **احسن التقاسيم** ، ص 230 .
(3) البكري، **مسالك** ، ص 48 .

وشراء وكراء وسلفا، دون أن يجبر بالضرورة على بيع الأرض. وعادة ما يعمد إلى البيع والكراء من كانت أرضه بعيدة عن الساقية، أو من أبقى أرضه بورا لمدة، أو رغبة في توفير المال من جراء ذلك.

فقد كان البيع لجزء مشاع من العين يسمى ببلاد قفصة والجريد القادوس، وتحدث ابن راشد عن ذلك فقال: **" تارة يباع أصل ذلك القدر الماء من ذلك العين ... ، وتارة يباع منه عشرة قواديس مثلا يسقيها المبتاع من جنبة، إمّا مدة واحدة أو حتى يفرغ الدور عندهم. وعلى كلا التقديرين فهو يكفل باعتبار أنه يكال بالقادوس. لكنك إذا نظرت إلى الذي يكال تجده غير ما اشترى، لان المبيع إنما هو جريان الماء أمدًا معلوما. والكيل بالقادوس لمعرفة الزمن لا لمعرفة قدر الماء المشتري، لان ذلك لا يعلم قدره الا الله "** (1).

وكما يباع الماء، فإنه يُهدى ويكترى. ففي أواخر القرن السابع هـ/XIIIم، أهدت امرأة بواحة قفصة حفيدتها عند الزواج خمسة قواديس ماء.

أما عن كرائه، فقد تعود أهل هذه الواحة في العهدين الزيري والحفصي على دفع المكتري الكراء بعد السقي وعند الانتاج (2).

وبناء على الاختلافات التي قد تنجم من جراء كراء الأرض والماء، سواء أكان ماء عيون وانهار بالواحات، أو آبار، فإنها تحرر عقود في هذا الغرض، وقد أورد ابن راشد أحد الأمثلة على ذلك، وهو التالي:

" ان ذهب المكتري إلى أن يعقد في انفاقه عقدا يستظهر به على المكتري إن خالف، كتبت: قال من يكتب شهادته بعد: وصلت مع فلان إلى الجنة التي أكتراها مع فلان، بمحلة كذا، فالفيت بيرها منهدمة، قد ذهب ماؤها وتكسرت سانيتها والفيت ما بأرض الجنة المحدودة من زرع يخاف عليه الهلاك إن تاخر عنه الماء كثيرا، وكذا في يوم كذا من شهر كذا من عام كذا، ثم وصلت معه إلى الجنة المحدودة في تاريخ كذا، فالفيت بير الجنة المحدودة مبنية وسانيتها قد تجدد ما تكسر منها، وذكر لهم فلان المذكور انه انفق في حفر البير واخراج ردمها وطيها بالحجارة كذا، وانه اشترى للسانية من العدّة كذا وانفق في اصلاحها كذا، فرأوا ذلك كله سداد فيما انفقه لا يشكون في شيء منه، وانها انطلقت بمحضرهم في يوم كذا من شهر كذا من عام كذا، لتمام شهرين من شهود البير وانقطاع الماء، وأنّهم نظروا إلى ما كان بالجنة من زرع، فرأوه مقحطا، الا أنهم يرجون بانطلاق الماء إليه أن يحيى، ويرجع. فإن كان بأرضها مقثاة قد تلفت، قلت: وانهم نظروا

(1) ابن راشد، **ن.م.**، ج II، ص 43 ب.
(2) المصدر نفسه، ج I، ص 91.

إلى ما كان بالجنة المحدودة من المقثاة والبقل وغير ذلك من الخضر قد هلك جميعه، وإن الماء لا ينفع فيه، وتحقق ان هذين الشهرين اللذين انقطع الماء فيهما وبطل انتفاع المكتري بهما بعد، لان في نفاقها ورغبة الناس فيها ثلث العام. شهد بذلك كله من عرفه وتحققه، بتاريخ كذا " (1).

ج) – توزيع الماء في واحة توزر:

أشار المقدّسي إلى (واحة) الجريد، دون تفصيل، إذ قال **"لهم نهر عظيم قد غاب في النّخيل ولا تسأل عن كثرة البساتين"** (2).

على أن أقدم وصف دقيق لتقسيم المياه بواحة توزر يرجع إلى أواسط القرن الخامس/XI، إذ قال البكري في هذا الصّدد:

« شربها من ثلاثة أنهار تخرج من رمال كالدّرمك رقّة وبياضًا، يستمر ذلك الموضع بلسانهم سرش، وإنّما تنقسم هذه الثلاثة أنهار بعد اجتماع مياه تلك الرّمال بموضع يسمّى وادي الجمال، يكون قعر النهر هناك نحو 200 ذراع. ثم ينسقم كلّ نهر من هذه الأنهار الثلاثة على ستّة جداول وتتشعّب في تلك الجداول سوّاق لا تحصى كثرة تجري في قنوات مبنيّة بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئًا، كلّ ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر (كذا) يلزم كلّ من يسقي منها أربعة أقداس مثقال في العام وبحساب ذلك في الأكثر والأقل.» (3).

وبقي العمل مستقرًا على هذا النّظام بعد القرن الخامس. إذ أورد ابن الشبّاط مقطوعة لأحد شعراء توزر، وهو أبو علي ابراهيم، تتناول هذا الموضوع، وهي التالية:

نهـــر يقـسّم بالسّـواء ثلاثـة ... فـي كـلّ ثـلث سـتّـة لا أكـثـر
تلـك الجـداول تسـعـة مع مثلـها ... كـلّ علـى الحـدّ السّـواء مـقدّر
صـاف علـى صفة المها يجري على رمل ... القـضـاء عـذب قـراح كـوثـر
ومـسـارح ومـزارع ومـباقل ... وفـواكـه مـن كـلّ نـوع يذكـر

(1) المصدر نفسه، ج IV، ص 112.
(2) المقدسي، **احسن التقاسيم**، ص 230.
(3) البكري، **مسالك**، ص 48.

أما محمد بن علي بن الشبّاط التوزري (618هـ/1221م-681هـ/1282م)، فإنّه ذكر ستّة جداول، وأضاف متحدثا عن السّواقي التي تزوّد المدينة بالماء الصّالح للشّراب قائلاً « **وأحد أنهارها يدخل المدينة ويجري من مواضع منها، فيدخل أولاً في ربع من أرباع المدينة إلى القصبة، ثم يخرج منها إلى ساقية للرّجال ثم إلى ساقية للنّساء، ثم يخرج فيدخل القصبة أيضًا من موضع ثان، ثم يدخل في دار من دور المدينة متّصلة بالقصبة ثم يخرج فيجري تحت سور المدينة إلى أن ينتهي إلى باب من أبوابها، في ربع ثان، فيدخل أيضًا إلى ساقية للرّجال ثم ساقية للنّساء، ثم يخرج فيجري تحت سور المدينة إلى أن ينتهي إلى باب من أبوابها في ربع ثان. فيدخل أيضا إلى ساقية للرّجال ثم إلى ساقية للنّساء، ثم يخرج فيجري تحت سور المدينة إلى أن ينتهي إلى موضع ينقسم فيه على قسمين قسم يجّري تحت السّور إلى أن ينتهي في ربع ثالث، فيدخل إلى ساقيتين أيضا، ثم يخرج فينبعث إلى موضع ثان يجتمع فيه مع القسم الآخر، ثم إلى موضع ينقسم منه ذلك النّهر يسقي جنّات ذلك الجناب** » (1).

ذلك هو نظام توزيع الماء بالمدينة: يدخل الماء إليها من ثلاثة أبواب، ويتفرّع كلّ مرّة إلى إثنين: ساقية للرّجال و أخرى للنّساء.

وممّا أضافه التجاني في هذا الصّدد، قوله: « **وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متّسع وتتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها أمناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرّر مألوف، وعلى ذلك أرحاء كثيرة منصوبة، ومن العجب أن هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من غثاء أو غيره، فاذا انتهى إلى المقسم افترق هنالك أجزاء بالسويّة على عدد المسارب، فمضى كلّ قسم منها إلى مسرب منها، وهذا مما شاهدته فيها عيانا**»(2).

وهكذا يتّضح أنّ التجهيزات الأساسيّة للماء ظهرت بالواحة منذ العصر الوسيط المبكّر، في ارتباط بازدهار التجارة الصّحراويّة، وما يعني ذلك من توفّر عدد هام من الرّقيق العاملين في حفر القنوات وصيانتها وكنس السّواقي وزراعة النخيل وغيره. وتواصلت فاعلية هذه المنشآت في العهد الحفصي، بل انّها شهدت تطوّرًا بفعل الاصلاحات التي قام بها ابن الشّباط في توزيع المياه (3).

---

(1) ابن الشباط، **صلة السّمط**، مخطوط، ص 1200.

(2) التجاني، **رحلة**، ص 157-158.

(3) ينطلق الماء حاليا من القسم الأساسي برأس العيون في سواقي مكوّنة من جعاب خزفيّة (40 سم طولا X 20 سم قطرًا). وكان صبيبها يقدّر في بداية القرن بنحو 725 لتر/ الثانية بتوزر / و560 بنفطة، انظر:

P. Penet, **L'hydraulique agricole dans la Tunisie méridionale**, Tunis 1913, p.31.

F. Gendre, De Gabès à Nefta (plan de Tozeur), **R.T.**, XV, p.381-421.

III العمل الفلاحي: الخمّاس وأهميّة الريع الذي يتحصّل عليه المالك العقاري بالمدينة

1) الفلاحة وأهل البادية من خلال المصادر العربية:

ظلت البادية طيلة العصر الوسيط مرادفا للعمل والكد من جهة، والشقاء والحرمان من جهة ثانية، وذلك لسيطرة المدينة على الريع العقاري المنتج بها، وكان البؤس ملازما لأهلها، فهم يكدحون لأجل الآخرين (1).

كما ظل موقف السلطة يشوبه التحري والحيطة من التعامل مع أهل البادية، ولم تكن وصية المعز في هذا الشأن مقتصرا أمرها على الفترة الفاطمية، اذ بقيت البادية مكبلة بالجباية الثقيلة التي تنتزعها منها محلة السلطان الحفصي، وهو ما يفسّر كونها بؤرة توتر وقلاقل طيلة هذه الفترة (2).

ومعلوم أن الخطط الكبرى ووظائف المخزن كانت حكرا على أهل البيوتات من المدن الكبرى، حتى أن أهل المدن الصغرى كانوا يحسبون في عداد أهل البادية (3).

أما العلماء فقد اختلفت مواقفهم من البداوة: فلئن قرنوا في الغالب بين البدو الرحل والحرابة، فان موقفهم من أهل الفلح كان أكثر تحريا ودقة. فقد كان الامام سحنون يعيش من عمل الأرض ويشارك بنفسه في حرثها وجني الزيتون، حتى لا يكون عالة على الأمير في رزقه. كما اشتغل المرابطون في الثغور في زراعة الأحمية. أما ابن عبدون فقد شجع على العمل في الزراعة، اذ قال بالخصوص: "**الفلاحة هي العمران، ومنها العيش كله، والصلاح جله، وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال، وبها تملك المدائن والرجال، وببطالتها تفسد الأحوال، وينحل كل نظام**" (4).

على أن الفلاحة أخذت مفهوما سلبيا لدى علماء العصر الحفصي: فقد كان ابن راشد متذمرا من العيش بين ظهراني أهلها، ومعتبرا أن العلم والفلاحة بينهما

---

(1) في نهاية القرن الثاني هـ/8م، بصر أحد علماء القيروان رجلا " من أهل البادية، وأثر البؤس عليه وهو يقضم الشعير كما تقضم الدواب ". انظر: أبو العرب، **طبقات**، ص 142.

وذكر في العهد الحفصي أن جماعة من أهل البادية كانوا يحرثون لزاوية أحمد بن عروس. انظر: **مناقب ابن عروس**، ص 496. كان يطلق على أهل البادية، أهل حرث وحصاد (المالكي، **رياض النفوس**، ص 185).

(2) جاء في وصية المعز (لمّا سلّم الأمر يوسف بلكين سنة 361 هـ) " **ان نسيت ما أوصيناك، فلا تنس ثلاثة أشياء: ايّاك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ولا ترفع السّيف عن البربر ولا تول أحدًا من إخوتك وبني عمّك، فانّهم يرون أنهم أحق بهذا منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرًا** ": المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، ج I، ص101.

(3) حول تولية القضاة، انظر مثلا رفض السلطان تولية ابن القطان هذه الخطة لانه من سوسة، الزركشي، **ن.م.**، ص 102. فيما يقع تولية أهل البيوتات: **ن.م.**، ص 88.

(4) ابن عبدون، **كتاب الحسبة**، ص 195.

برزخ لا يلتقيان وذكر حلوله بوطنه قفصة بعد رحلته إلى الشرق، فقال: " لما حلت، وجدت تلك البضاعة لا تعرف وتلك الطريقة لا تؤلف، وانما داب أهله نخل يأبرونها وغلة يشطرونها، وأرض للزراعة يتبرونها، طالب العلم بينهم كالمصباح في الصباح، وكالقبيحة بين الملاح.. لله در القائل، وان لم يات في وصف الفلاحة بطائل:

بلد الفلاحة لو أتاه جدول ... اعني الحطيئة لاعترى حراثا
تصدى بها الافهام بعد صقالها ... وترد ذكران العقول إناثا (1)

وكانت نظرة ابن خلدون للفلاحة مجسّدة لرؤية أهل عصره، وهي لا تخلو من الاحتقار وعدم الاعتبار. فأهل الفلح هم المستضعفون، والفلاحة ليست من بين مصادر الكسب، مثل التجارة والحرف (2).

على أن نظرة أهل العلم المتعالية للعمل اليدوي لم تكن سائدة في كل البلاد، ففي نفس تلك الفترة، أي النصف الأول من القرن الثامن للهجرة، كان أحدٌ علماء مدينة تونس، وهو المدرس وخطيب جامع الزيتونة، ابن عبد الستار، يلبس جبة خشنة، ويسوق حماره إلى جنانه للعمل الفلاحي الذي يرتزق منه، معللا ذلك بمنام حلمه، وهو في الحج، مفاده أن المرتبة العليا لدى الله حازها الفلاحون، فحفزه ذلك على العمل الفلاحي، كما جاء على لسانه: " **فآليت على إن رجعت إلى بلدي أن نحترف الفلاحة** " (3).

لا شك أن الحدث – الاسطورة لا يهمنا في حد ذاته، انما يجعلنا نستقرئ نظرة حضرية فيها اعادة الاعتبار لهذا القطاع الاقتصادي الهام، رغم الصعوبات والقلاقل التي تعتريه في تلك الظرفية غير الآمنة.

على أنّ الغالب على هذه النظرة الحضريّة الاحتقار والتحرّي، ولكن هذه الصورة لم تتبلور بوضوح إلاّ في أواخر العصر الوسيط، باشتداد أزمة المجتمع المغربي. وظلّت الذّهنية المغربيّة تحمل تبعات هذا الماضي في القرن السّابق، حتّى أن المزارع التونسي حسبما روى ابن أبي الضياف كان يقوم بتكسير محراثه ويقول له: منك أتيت، أي أنّ كل المصائب نزلت عليّ بسببك (4).

(1) ابن راشد، **الفائق**، ج I، ص 1 ب 120 (استعمل فيها مصطلح الفلاح). وفي **كتاب الاموال** لابن سلام (ص28): "كلّ من كان يزرع، فهو عند العرب فلاّح، إن ولي ذلك بيده أو وليه له غيره".
(2) راجع: ابن خلدون، **المقدّمة**.
(3) الزركشي، **تاريخ**، ص 67.
(4) ابن عذاري، ن.م.، ج I، ص 81. ابن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان** ج **IV**، ص. 106.

2) الشركات الفلاحية: علاقات إنتاج غير متكافئة:

تعتبر الشركة الفلاحية الظاهرة الاساسية الدّالة على طبيعة العلاقات الانتاجية وكيفية تقسيم العمل في آخر العصر الوسيط (1). ولم تخصّ الفلاحين بالارياف فحسب، وانما شملت أيضا المالكين العقاريين التغيبيين الذين كانوا يسكنون المدينة.

ومما ساعد على انتشارها قساوة العوامل الطبيعية والأزمات الدّورية وحالة صغار الفلاحين السيّئة التي ولّدت عندهم غريزة الخوف ونمّت فيهم ظاهرة التضامن، فكان عقد الشركات الفلاحية للتأمين على حياتهم وماشيتهم ورأسمالهم، وذلك باضعاف وطأة الخسارة التي تسببها الجوائح الطبيعية أو تعديّات البدو والسلطة المخزنيّة.

على أن هذا التضامن لم يمنع من نشوب النزاعات بين الفلاحين الذين كانوا عرضة لغضب هذا الثّالوث، وتكثر الخلافات حول قيام الشركة أو اقتسامها، حتى أنها تشمل مسائل بسيطة مثل طلب أحد الشريكين كراءه في دق الطوب (2). على أن أساس هذه النزاعات هو الاختلاف في تقويم أحد عناصر الشركة نظرا إلى تنوّع هذه العلاقات الانتاجية ودقتها، كما تبيّن ذلك المسائل الخاصّة بشركات المزارعة (3).

فما هي اذن جذور هذه الشركة وخصائصها ؟

–(أ) شركة المزارعة أكثر الشركات انتشارا في الريف المغربي:

ترجع شركات المزارعة بأصنافها (مزارعة على النصف والثلث والرّبع) ألى أصول مشرقيّة، ذلك أنّه منذ القرن الثاني هـ /VIII م، تعرّض القاضي أبو يوسف للمزارعة بالثلث والرّبع، والى الاختلاف في حكمها (إجارة حسب أبي حنيفة أم شركة)(4).

(1) دائرة المعارف الاسلامية (بالفرنسية)، **مادة شركة**
(2) الونشريسي. **ن.م.**، ص 139، 148.
(3) ن.م.، ص 147–148: " وسئل الفقيه أبو محمد سيدي النور الشريف العمراني عن رجلين اشتركا في الحرث، على أن يتساويا في البقر والآلة والأرض والزريعة، ثم شرعا في العمل وعقدا الشركة على ذلك، ثم بعد عقد الشركة غاب أحد الشريكين وتولى الآخر العمل، بحكم النيابة عن نفسه وعن شريكه. فلما حضر الشريكان عند قسم ما أفاء الله به عليهما حاز أحد الشريكين وهو المتولّي العمل لنفسه شيئا من ذلك الزرع، وقال هذا حرثي لنفسي، بزريعتي لم تعطني فيها شيئا، فهو خاص بي دونك. فقال شريكه: انما جميع ذلك بيني وبينك، لما وقع من العقد الأول بيننا، وكانت الأرض والبقر والآلة مشتركة بيننا، الا أن هذا الذي أردت أن تختص به دوني لكون الزريعة كانت من عندك، انما كانت منك سلفا، لكونك لم تطلبها مني حين الزرع، اذ لو طلبتها، لأعطيتك إياها. أجبنا كيف يكون؟ "ان الاختلاف هنا يخص عنصري الزريعة والعمل في شركة مزارعة.
(4) حول شركة المزارعة، انظر خاصة:
E. Amar, La **pierre de touche des Fetwas** chap II, de la société Rurale.
J.Berque,les **Nawazils**...op,cit,p.180.

كما تحدّث عن الأكار (الفلاح) الذي يعمل في الزراعة ، والبقر والبذر والأرض لغيره فيحصل له السّدس أو السبع ، واعتبر أبو حنيفة أن ذلك لا يمكن أن يكون شركة ، إنّما اجارة ، فيما أجاز ذلك أبو يوسف (1) .

وبالتالي ، فانّ هذا الصّنف من الشركات الزراعية قد برز مبكرًا بافريقيّة ، وعادة ما يتمّ بين أحد سكّان المدينة المالك للأرض وعامل زراعي من البادية القريبة من الأرض . كما تبيّن ذلك هذه الرّواية ، ومفادها أن أحد الحرفيين بمدينة القيروان ، وهو سعدون الصوّاف ، كان يمتلك أرضًا في ناحية هرقلة بالسّاحل، وكان شريكا في ذلك لأحد الزهّاد ، وهو أبو زكريا الهرقلي ، الذي تولّى زراعتها مناصفة (2) .

على أنّ شركات المزارعة عرفت تطوّرا نوعيًا في الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط . ولا غرابة أن تسيطر زراعة الحبوب الشاسعة على بقية المزروعات من أشجار وخضروات وغيرها ، وذلك بناء على ما عرفته بلاد المغرب من محن عديدة مدة القرون الثلاثة الاخيرة : من تفكّك الوحدة السياسية وانتشار الاضطرابات والمجاعات وظهور الوهن الديمغرافي واهمال الفلاحة وسيطرة البداوة والترحال .

وبالتّالي فإنّ التحول الحاصل كان جذريًا (3) ، وهو أمر يفسّر هيمنة شركات المزارعة على غيرها من العقود الفلاحية .

-شروط شركة المزارعة :

كانت بعض هذه الشركات موثّقة ، يتولى العدول كتابة العقد بمحضر الشهود ، ومن الأمثلة على التوثيق في هذا المجال ، عقد المزارعة الذي أورده ابن راشد ، ونصه :

" تشارك فلان وفلان في زراعة الأرض البيضاء التي لهما ، وفي ملكها على السواء بينهما والاشاعة ، بموضع كذا ، حدودها كذا ، فان ابتاعا من أموالها ثورين على السواء ، لون أحدهما وسنه وصفته كذا ، وابتاعا الضامن أموالهما

(1) أبو يوسف ، **كتاب الأموال** ، ص 206–211 .

(2)أبو العرب ، **طبقات** ، ص 152 . المالكي ، **رياض النفوس** ، ج II، ص 322 .

(3) قال ابن خلدون (المقدّمة، ص 32–33):« وأمّا لهذا العهد وهو اخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدّلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرا فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامّة الأوطان، وشاركوها فيما بقي من البلدان لملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدّول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ، فقلّص من ظلالها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتفض عمران الأرض بانتقاض البشر...».

على السواء جميع آلة الحرث ليعملا في الأرض المذكورة بأيديهما وما جرا لهما ، وبالبقر المذكور في القليب والزراعة عملا تواصفاه ، ويخرجان البذر من عند انفسهما على السواء ، حسب اشتراكهما المذكور ، ويخلطانه في وقته ويزرعانه في الأرض المذكورة ، تشاركا صحيحا لم ينظر به شرط ولا خيار لمدة أربعة أعوام ، أوله تاريخ كذا يلزمه التساوي أيضا فيما يحتاجان إليه بعد المزارعة ، من العمل والحرث والحصاد ونقل الزرع إلى الاندر ودراسه فيه وتصفيته إلى تمام ذلك وحصوله حبا ، ثم يقتسمانه حسبما ذلك ، وعليهما فيما اتفقا عليه وتشاركا فيه تقوى الله العظيم في سر أمرها .. ولهما سنة المسلمين في مزارعتهم ومرجع ادراكهم . شهد»(1) .

أمّا من الناحية العمليّة فكثيرًا ما تقام هذه الشركة على مجرد أتفاق شفوي، دون التقيّد بعقد مكتوب، مما يمنح نسبةواسعة من الحرية للشركاء، فيعمدون الى التراخي في الشروع في العمل أوالى فسخ العقد عند عدم نزول المطر أو العجز عن المساهمة بقسط في الشركة(2).

على أنّ هذا الامر يزيد في تفاقم المشاكل، ويلحق الضرر بأحد الطرفين وخاصّة بالملاك العقاريين، ولذا فقد حرص الفقهاء تدعيما لنفوذهم الاجتماعي على ضرورة تقييد الشريكين بعقد يكون التزاما يقضي على التردد والخوف، وبالغوا في أهميته حتى أعطوه الاولوية في قيام الشركة وبجّلوه على الشروع في العمل وقالوا : **الشركة تلزم بالعقد ولا تلزم بالعمل، "إنّ العقد اليوم لازم ...**(3).

كما حرص الفقه على إيجاد مقياس مضبوط ومعيار موحّد لتقويم العناصر المكوّنة للشركة من أرض وزريعة وآلة وبقر وعمل، واعتبره أمرًا ضروريًا لقيام الشركة على أسس صلبة من شأنها القضاء على الخلافات والنزاعات (4). والجدير بالملاحظة أنّ الفقه أعتمد العرف الجاري أساسا لحل هذه المشكلات الدقيقة والصعبة.

أمّا المبدأ الثالث الذي نادى به الفقه المالكي ، فهو ضرورة خلط وسائل الانتاج من زريعة وآلة وماشية وغيرها، وان كان هذا الأمر نظريًا في جوهره، فهو الضّمان المادي للمسؤولية المشتركة ومجابهة الجوائح الطبيعية بطريقة موحدة،

(1) كذا في ابن راشد ، **الفائق** ،ج III، 170 ب . انظر ايضا حول كتابة العقد ، **المغيلي** ، الدرر المكنونة ، ج II ، ص 29 ب .

(2) الونشريسي ، **المعيار**، ص 157 .

(3) ن.م. والصّحيفة .

(4) ن.م.، ص 156، 157، 158.

بناء على أن مسؤولية الشركاء ليست محدودة وأنّ الإسلام لم يعرف الشركات ذات المسؤولية المحدودة على النمط الغربي(1).

وتكون شركة المزارعة صالحة لسنة واحدة، على أنّه يمكن تجديدها والتمديد فيها طيلة سنين متعددة، ولا يصح فسخها قبل انتهاء السنة الزراعية اذا رغب شريك في ذلك نتيجة ظهور مؤشرات طبيعية سيئة أو عقد شركة أخرى أكثر ربحا(2).

على أن هذه العلاقات القائمة بين المنتجين يمكن أن يوضع لها حدٌّ اذا ما ظهر أي خلل في العناصر المكونة للشركة : فرار الخماس بعد القليب، عدم تقديمه لقسط من الزريعة ، عدم اعانة رب الارض للخماس اثناء العمل، اختلاف الشريكين في تقويم وسائل الانتاج ، تراخي أحدهما في تقديم ما عليه من الزريعة وأدوات الانتاج والعمل، الاختلاف في كيفية العمل، حرث الشريكين في بلدين مختلفين الخ ...(3).

وعلى العموم فان انخرام التّوازن بين عناصر الشركة كان غالبا لصالح "الرأسمال العقاري" وعلى حساب قوّة العمل، وذلك لتوفّر يد عاملة جديدة في سوق الشغل نتيجة بداية انهيار النظام الاقتصادي القديم المعتمد على البداوة وتفكك المجموعات القبلية الكبرى مثل زناتة وصنهاجة وبني هلال وسليم وغيرها... وبداية أستقرار البدو المتغلبين سابقا، في الارياف ونواحي المدن، وبآختصار نتيجة تحولات اقتصادية واجتماعية كبرى تجلّت بكلّ وضوح على مستوى تقسيم العمل.

– *تنوّع الشركات وتقسيم العمل داخلها* : تعددت الشركات بتعدد التركيبات الممكنة بين المكونات الخمسة لشركة المزارعة، وهي الأرض والعمل والزريعة والماشية وأدوات العمل. ولئن بقي الفقه حريصا على ربط علاقات دقيقة بين عناصر الانتاج، فإنّه لم يمنع من قيام نزاعات عديدة نظرا لى هشاشة التوازن القائم بين عناصر الانتاج وتنوع الشركات واختلاف الواحدة عن الأخرى :

– شركة حرث متساوية يقدم فيها الشريك الأول البقر والآلة والأرض

---

(1) انظر : M.Rodinson, **Islam et capitalisme**,Paris,1966.

(2) الونشريسي ، **ن.م.**، ص 158–159 .

(3) ن.م.، ص 137، 138، 154، 155، 156، 161، 164، 165. راجع أيضًا فصل في وجوه المزارعة من مسائل البرزلي، **ن.م.** ص 150 ب .

والثاني الزريعة والعمل، وتكون عادة بين فلاحين يمتلكون وسائل الانتاج، لا تفصلهم فوارق اجتماعية شاسعة(1).

– شركة على الثلث أو الربع يقدم فيها أحد الشريكين الأرض والآخر العمل وثلث الزريعة أو ربعها والماشية، وقد تكون الأرض في هذه الحالة مكتراة من المخزن أو غيره (2) .

– شركة على الخمس ، يقدم فيها الخماس العمل وخمس الزريعة ، أو العمل فقط ، وذلك حسب العرف المعمول به . وبديهي القول أنه لا يوجد تكافؤ بين الشريكين، وأن الخمّاس هو مجرد عامل فلاحي ، لا يملك الوسائل الانتاجية (3) .

– شركة تجمع عدة أطراف ، أربعة مثلا: إثنان منهم يشاركان مباشرة في عمليّة الانتاج ، فيقدم أحدهما البقر والآلة والبَذر والآخر العمل والبَذر ، أما الاثنان الباقيان فانهما يملكان على النصف الأرض ، أخذ واحد منهما على عاتقه كراء الارض للفلاحين المذكورين، والآخر لم يتدخل بُدًّا في هذه العملية، ربما لانه يسكن المدينة. والجدير بالملاحظة هو وجود تدرّج اجتماعي بين الشركاء الأربعة : فالظاهر أن الأول فلاح صغير والثاني خماس أما الثالث والرابع فهما مالكان عقاريان (4) .

– شركة مزارعة تغيبيّة ، يتولّى أمرها وكيل فوضه المالك العقاري لاتمام الاجراءات اللأزمة مع الشركة، وقد قدم صاحب الأرض الحيوان للحرث، واشترط على الشريك أن يدفع له في المقابل مبلغا من الحبوب (5) .

وتكون أحيانا شركات المزارعة كبيرة الحجم ، ومثالا لذلك فان أحد الشركاء، قدّم 18 قفيزا من القمح زريعة (6) .

وغالبا ما تكتسي الشركة الكبيرة الحجم طابعًا تغيبيًا بحيث يكون الشريك بعيدا عن عمليّة الانتاج (7) .

ويمكن مقارنتها على سبيل المثال مع شركة أعطى فيها أحد الشريكين أرضه

---

(1) ن.م.، ص 147–148.

(2) ن.م.، ص 154، 158 ، ذكر المغيلي (**الدرر**،ج II، ص 30ب) أن المزارعة تقع في أرض مخزنيّة ، يتولّى المزارع اكتراءها ، ويقدّم الزريعة لشريك له ، حرّاث أو نقاش، على أن يتولّى أمرها من الحرث والنقاء الى الحصاد والدّراس ، وتكون مناصفة .

(3) ن.م.، ص 141، 144–145، 149–154، 160، 165 ...

(4) ن.م.، ص 165 .

(5) ن.م.، ص 166. وردت نفس النّازلة في البرزلي ، ص 1152. وقد صنّف القلشاني ، **شرح**،ج II،ص186) شركات الزّرع على النّحو التّالي : اذا كانت الزريعة من الشريكين والرّبح بينهما ، اذا كانت الارض لأحدهما والعمل على الآخر أو العمل بينهما ، اذا اكتريا الأرض أو كانت بينهما .
من عادة الشركاء الحراثين قسمة القدر اليسير من الفريك (الشعير الأخضر)، والمسامحة في الاستهلاك اليومي له : (المغيلي، **ن.م.**، ج II، ص 132، 38ب) .

(6) الونشريسي، **نفسه** ، ج VIII ، ص 143 .

(7) نفسه ، ص 155 .

مزارعة صحيحة على النصف ، فأخرجت الارض خمسة أوسق من القمح أي ما يعادل قفيز تقريبا ، وهو الحد الأدنى لدفع الزكاة (1) .

وبتالي فان الانتاج في هذه الشركة لا يمكن أن يسد حاجيات العائلة من الاستهلاك طوال سنة كاملة .

ب– شركات المغارسة : محرار لتطوّر الحقل الزّراعي :

أصبحت شركات المغارسة والمساقاة أقل انتشارا من المزارعة نظرا إلى تغلّب البداوة وسيطرة الفلاحة الشاسعة وقلّة التقنيات المتطوّرة في ميدان الرّي والمشاتل وغيرها:

– ويقوم عقد المغارسة بين طرفين : الأول يقدّم الأرض، والثاني، وهو المغارس، يقدّم العمل وغراسة الاشجار، وذلك مقابل نسبة متفق عليها من الأرض والأشجار، ولا تتم القسمة إلاّ في فترة الاطعام، أي عندما تثمر الاشجار، ولا يمكن للمغارس التصرف في نصيبه قبل المدة المعلومة.

ويشترط في صلوحيّة عقد المغارسة عدة شروط منها : صلابة عود المزروعات وطول مدّة بقائها مثل الزيتون والتين واللوز وبقية الأشجار المثمرة وانتماء الأشجار إلى صنف واحد وشمول العقد للأرض والمزروعات معا وذكر نسبة قسط المغارس في العقد (2).

وتنعقد المغارسة عادة على النصف ، باستثناء بعض الحالات التي يطالب فيها المغارس بالثلثين أو بقسط معيّن (3)، باعتبار أنه بذل مجهودات كبيرة لاحياء أرض مهملة أو تلية يصعب فيها الحفر والغرس.

وتكون المغارسة فاسدة قانونيًا في الحالات التالية :

– إذا أعطت الأرض مغارسة وفيها أصول ثابتة وأشجار مغروسة من قبل
– إذا عقدت على أرض لطرف أخر غائب
– اذا أعطت أرض الحبس مغارسة
– اذا زرع المغارس بين الأشجار البقول والمقثاة

وكثيرًا ما تعقد دون الالتجاء إلى التوثيق والعقود، بمجرّد الاتفاق اللفظي بين

---

(1) نفسه ، ص 142–143. البرزلي ، ن.م. ج II ، ص 1152. Emile Amar, **op.cit.**, TI, p.128.

(2) ن.م.ص 145–147. اختلف الفقهاء في مدّة بقاء أصول القطن، سنة أو عشرين سنة وبناء على هذا فقد أعتبره البعض شركة مزارعة والبعض الآخر مغارسة. كما أختلف في المقاثي وقصب السكّر، هل تجوز فيها المغارسة أم لا. انظر أيضا : L.Valensi, **op.cit**.pp.158-165.

(3) الونشريسي، **ن.م**.ص 175 .

الطّرفين. فيتولّى الغارس غرس الأرض البيضاء أشجارًا مثمرة، دون الاتّفاق أحيانًا على حصّته، مما يترتّب عنه نزاعات بين الطّرفين عند القسمة، إذ يطالب الغارس بالنّصف فيما يصرّ صاحب الأرض على إعطائه الرّبع . وعادة ما يحتكم في حل هذه النزاعات إلى العرف المعمول به في البلد (1) .

وقد ينقطع الغارس عن عمله لسبب ما، ثم يعود للمطالبة بحقّه، فينكره بعد أن أهملت الأرض، وأعاد إحياءها من جديد (2) .

ومن أصناف المغارسة الجارية على العرف ما يقع بجبل وسلات : وهو أن يعطي الرّجل شجرة الزيتون أو الخرّوب، على أن يركّبها صنفًا طيّبًا، ويقف عليها حتى تثمر، وتكون الثّمرة بينهما حتّى تبلى الشجرة، ولا يكون له في الأرض شيء، فهي من باب المغارسة حتى تبلى الأصول. وقد أقرّها العرف، وعارضها الفقه(3) .

وتبعًا لذلك، حاول الفقه تقنين هذا الصّنف من الشركات، وذلك بتحرير العقود الكتابيّة في شأنها. وقد قدّم ابن راشد نموذجًا لها، جاء فيه : « **دفع فلان لفلان أرضه البيضاء النقيّة التي بموضع كذا، حدودها كذا... على أن يغرسها كذا ويتعاهد ذلك كلّه بالحفر والسّقي ، فاذا بلغ الاطعام أو اذا علمت الأصول وأرتفعت كلّ شجرة أو كلّ نخلة إلى نحو القامة أو ستّة أشبار بالشّبر الوسطي، فالأرض والشجر بينهما يقتسمانه أو يقرّانه متى شاء أو يكون العمل عند ذلك فيها على قدر حظوظهما معًا مغارسة صحيحة دون شرط ولا شيئا ولا خيار تواصفاها وعرفا قدرها على سنّة المسلمين فيها وقول العامل فلان في الأرض المذكورة ليتولّى غرسها والعمل فيها، وعليه ما خفّ من زرب وثنيّة مجاريها . شهد ...** " (4) .

وفي الجملة، فانّ عقود المغارسة أقلّ أهميّة من المزارعة وقد شملت خاصّة المناطق التي أشتهرت بزراعة الزيتون مثل بلاد السّاحل. وظلّت المغارسة محرارًا يدلّ على مدى تطوّر الحقل الزّراعي بإفريقيّة .

• ج) المساقاة :

تتمّ المساقاة بابرام عقد بين الطرفين : صاحب الأرض والمساقي لمدّة سنة أو

---

(1) الغرناطي ، **نفسه**، ص 1214.

(2) نفس الاحالة .

(3) البرزلي، **نوازل** ، ج II ، ص 19 ب .

(4) ابن راشد ، **الفائق** ، ج III ، ص 160 ب .

أكثر، علـى أن يتـولّى الثاني ريّ المزروعات أو المغروسـات، مقابل قدر يتـحصّل عليه من الانتاج، واشترط المشرّعون ثمانية شروط لانعقادها :

– لا تصحّ إلاّ في أصل يثمر أو في الأزهار والورود
– أن تكون قبل طيب الثّمرة وجواز بيعها
– أن تكون مدّة معلومة
– أن تكون بلفظ المساقاة
– أن يكون بحيز مشاع مقدّرٌ
– أن يكون العمل كلّه على العامل
– الا يشترط أحدهما الثّمرة ولا من غيرها شيئًا معيّنًا لنفسه
– الا يشترط على العامل عملا خارجا من منفعة الثّمرة (1)

أما أعمال المساقاة، فانّها تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

– العمل اللازم بمقتـضى العقد : وهو القيـام بما تفتقر إليه الثّـمرة من السّقي والإبار والتّنقية وإقامة الأدوات من الدّلاء والمساحي والأجراء ونفقتهم.

– العمـل اللازم بمـقتضى الشـرط، وهي الأعـمال الاضافـيّة مـثـل اصلاح الظفيرة (مكان تجمّع الماء).

– العمل الذي لا يجـوز أشتراطه، وتبقى مـنفعته بعـد أمد المساقاة كـالغراس وحفر الآبار وبناء حائط أو بيت، لأنه ليس له علاقة مباشرة بعقد المساقاة. وعادة ما يقع الاتفاق على القيام بالأعمال الفلاحـيّة الكبرى، مثل الحصاد وجمع الزّيتون وعصره، رغم خروجـه عن العقد. وقد تعوّد المزارعون بناحـية مدينة تونس على القيام بهذه الأعمال الاضافيّة.

كما أعتبر زائدا عن عقد الشـركة اشتراط اصلاح، بمعنـى الجابية، أو تنقيـة مناقـع الاشجار وتمهيـدها، ومعلـوم أنّ نظام الريّ : المنقع / المسقى جرى العمل به بافريـقيّة في العـهد الحـفصي، وخاصـة بغابة الزيتـون بالسّاحل، وبناحـية تونس، حيث دأب أهل المسـاقاة العاملون في زراعـة البقول على قسـمة الماء بينهم مجـاراة، على غـرار ما يفـعل أهل القيـروان لماء الأودية : يتعـرضون له بـسدود صغـيرة لشـرب سوانيـهم، على أن يتركـوا جـزءا منه يمرّ إلى جيـرانهم في الأسفل (2).

وفي الجملة، فـانّ المشرّع شدّد على تحديد مـهام المساقي، منعًا للـتجاوزات الواقعة في ذلك العـصر. فالمساقي يقـوم بكامل العمل. لكنّه يقتصـر على المساقاة

---

(1) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 184.
(2) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 84 ب. البرزلي، **نوازل**، ج III، ص 114.

دون غيره، بأستثناء الأعمال الصغـيرة مثل الاصلاحات الصغيرة للسّواقي، دون أن يكون مطالبًا ببنائها. وفي مساقاة النّخيل، يتولّى العامل المساقي بتشغيل أجراء ودفع مقابل لهم، كما يتسنّى له زراعة الأرض اليسيرة، على شرط الاّ تتجاوز ثلث المساحة العامة، وهو شرط أعتبره بعض المشرعين، مـثل ابن عرفـة، داخـلا في شركة المساقاة (1).

ويتّضح من خـلال هذه التشـريعات أنّ صـراعًا خفـيًا كان يدور بـين العامل المساقي والمالك العقاري الذي يحـاول فرض أعمال إضافيّة وشروط تعـسفيّة كلّما تمكّن من ذلك. فـعمله يتجـاوز في أغلب الحالات المسـاقاة كي يشـمل عدّة أعـمال فلاحيّة أخرى مثل الزرع والحصاد وغيرها.

لكننا نلحظ مرّة أخرى مدى أهميّة الـعرف والعادة في تكييف هذه الصّراعات وترويضها، اذ وجب على الطرفين الامتثال لهذا القانون الشّفوي الذي كان معمولاً به بكلّ جهة. ولم تجد نفعًا تنبيهات الفقهاء لفساد هذه الشركات، إذ تعوّدت بعض الجهات على اعتبار اكتراء الأرض المغروسة أشجارا بمثابة المساقاة، وكان آخرون يمارسونها وفق الكيـفيّة التالية : يعطى المالك العـقاري للعامل نصف الأرض على الاشاعة، علـى أن يغرس له النّصف الآخر ويعمّـره له مدّة عشرة أعـوام، بالحرث والغراسة.

وفي نهاية المدّة، يقع الاقتسام على النّصف، بالقرعـة، وهو ما أعتبره البرزلي غير مطابق للتشريع (2).

وإذا كان العامل في المساقاة في العـهد الزيري يتحصّل على 8/1 – 10/1 الانتاج، فانّ نصيـبه في زراعة الخضر والبحـائر بلغ النّصف في القرن التاسـع هـ/ XV م، وكذلك من الأشجار المغروسة، فـضلاً عن الامتيازات الأخرى التي أكتسبها (3).

وقد نصّ القلشاني على أنّ شركة المساقاة تدوم سنة أو سنتين فأكثر، وتكون أجرة المساقي في العام الأوّل على النّصف والثّاني على الثّـلث، وفيما سواها يحدّد له أجر مماثل (4).

وحصيلة القول، فانّ القضيّة الأساسية التي كانت مطروحة آنذاك لا تتمثّل في الاختلاف بين المالك العـقاري والمساقي، أو بين العرف والتشـريع، بقدر ما يشكّل

---

(1) القباب، **مسائل البيوع**، ص 15. القلشاني، **ن.م**. ج II، ص 85 ب.
(2) البرزلي، **ن.م**، مخ 4851، ج II، ص 98 ب، 1165.
(3) وردت هذه في احدى فتاوى السيوري التي ذكرها البرزلي. انظر كذلك : المغيلي، **ن.م**، ج I، ص 153–ب.
(4) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 186.

نقص اليد العاملة القضيّة المركزيّة التـي أنعكست على طبيعة العلاقة بين صاحب الأرض والمساقي لفائدة الثاني، وعلى كيفـيّة أنعقاد هذه الشركات وفق العرف، فيما وقف الفقيه الحضري عاجزًا عن التدخّل وتغيير مجرى الأحداث .

ويمكن أن نستنتج، بناء على عقود الشركات الفلاحيّة، أنّ وضعيّة الفلاحة لم تكن متجانسة في كلّ القطاعات، ذلك أنّ أهميّة عقود المزارعة بالنّسبة إلى المغارسة والمساقاة هو دليل في حدّ ذاته على أولويّة زراعة الحـبوب بالنّسبة إلى الأشجار المثمرة التي أضرّت بها سيطرة البداوة في العصر الوسيط المتأخّر أكثر من غيرها من المزروعات باعتبارها تحتاج إلى أكثر، ولا تتجدّد كل موسم زراعي.

وخلال القرن XV م ، تبدو مؤشـرات جديدة في الأفق مثل تعـمير الأرض واستصـلاحها، ومحاولة تقنين العلاقـات الاجتماعيّة ووضـع أشـبه ما يكون بالقانون الأسـاسي للخمّاسة. وبالتّـالي فإنّ الفكرة القائلة بتردّي الـفلاحة في مسـتنقع لم تخرج منه طوال عـدّة قرون (من XV-XI م) وبأنّ الخط البياني للأرياف بقي في نزول مـتواصل طوال هذه الفتـرة مازالت تحتـاج إلى تدقيق وتعميق وربّما تصحيح، وذلك من خلال قراءات أكثر شمولاً وتنوعًا .

3) الخماسة ببادية افريقية :

أ) جذورها : من المرجح أن نظام الخماسة ظهر منذ العصر الوسيط المبكر، إلى جانب عمل الرقيق في الأرض ، بل أن هذا النمط من العـلاقات الانتاجية قد يرجع إلى العصر القديم (1).

و تأتي عدة إشارات شاهدة على قدم هـذه المؤسسة ببلاد المغرب و الأندلس ولعل أهمهما المسألة التي طرحت على ابن رشد :

« سئل ابن رشد عن رجل إشتـرك في الزرع ، على أن جعل أحدهما الأرض والبـذر و البقر ، والـثاني العـمل ، و يكون الربع للعامل بيـده و ثلاثة الأرباع لصاحبه.

(1) وردت إشارات عديدة في المصادر حـول استعمال الرقيق في عمل الارض منذ عهـد الولاة : فقد كان عدد من العبيد يعمل بضيعة قاضي المدينة الشـهير ، عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المتوفى سنة161 هـ وكان من بينهم « شاب أشقر اللون » ، مما يأتي حجة على تنوع أصول الرقيق ، من سودان وموالي صقالبة وافارقة من أهل البلاد . أما أبو محرز الكتاني المعتزلي ، فقد كانت له « عـبيد كثيرة ومواشي من صنوف المواشي « ، وهم يشتغلون بدون شك في الزراعة . أما الفقيه محمد بن مسروق ، فقد كـان « يمر بالقرية من قرى أبيه ، فيخرج اليه أهلها ومن فيها ، فيقولون : نحن عبيدك وكل ما لنا في هذه القرية فهو لك » .والامثلة عديدة على ذلك . انظر :أبو العرب ، **طبقات** ، ص 98 ، 167 . المالكي ، **رياض النفوس**، جI ، ص .194

فأجاب : لا يخلو الأمر من ثلاثة أوجه : أن يعقداها بلفظ الشركة ، جازت . وإذا كانت بلفظ الإجارة لم تجز . و إن لم يسميا في عقدها شركة و لا إجارة، و إنما قال له : أدفع إليك أرضي و بذري و بقـري، و تتولى أنت العمل و يكون لك ربع الزرع أو خـمســه أو جزء من أجزائـه ، اعتبـره ابن القاسـم إجارة لا تجوز ، فيما حمله ابن سحنون على الشركة ، فأجازه» (1) .

و كما أننا لا نشك أن نظام الخـماسة كان معهودا في الأنـدلس، فإن إنتشاره بإفريقية يرجع إلى العهد الأغلبي وربما قبل ذلك .

و ثمة إشـارة أخرى أوردها البـرزلي ، تأتي دعمـا لما ذهبنا إليـه : فمنذ عـهد سحنون (القرن الثالث هـ) وقع الاختلاف فـي تحديد مهام العامل الفلاحي ، من نقل المحصول إلى الأندر و دراســه ، و الحصاد و مؤونة الحصـادين و غيرها (2). وهو نفس الاخـتلاف الذي تناولتـه المصادر النوازليـة في العهـد الحفـصي حول مهامه ، مما يعني أن جذور هذه المؤسســة بإفريقية و المغرب ترجع بدون شك إلى الفترة الوسـيطة المبكرة ، و إن كان قد سـيطر وقتذاك نمط الإنتاج الرقي مـشرقا ومغربا .

وثمـة مـؤشـرات أخـرى تشـيـرالى أن هذه الظـاهرة برزت منذ العـصـر الكلاسيكي .فـفي أواخر القرن الرابع هـ ، عـلى إثر أزمة سنة 395 هـ ، أورد ابن ناجي رواية تشير ضمنيا إلى شـركة خماسة : **« قال له (الفقيه أبو علي حسن بن خلدون البلوي للفتى) : شاركني . قال لـه :نعم . فأشترى له أبو علي ثورين لم ير احسن منهمـا بإحدى و أربعين مثقـالا ذهبا ، وأعطاه زريعــــة قمح وشعـير ما طلب ، وأوصى عليـه من ينظر في أمور مكانه . فلـما كان حين الفـراغ من الدرس، أتى الفتـى الى أبي علي ، فقال : قد أصبنا مائتي قفـيز ا قمحا وشعيرا ، وكان ذلك بإثر عام 395 هـ ، سنة الشدة العظيمة التي قـدمنا ذكرها . فقال له أبو علي ، بعد أن عرفه بنفسه : الزرع كله لك ، وما جعـلت إسمي مع أسمك في الشركة الا سترا عليك »**(3)

كما ورد في ترجمة أبي جعفرأحمـد بن خيران الحامي ، من الجريد ، ما يفيد وجود الشركات الزراعية مبكرا ، إذ قال أبو زكريا أنه : **« دفع لمشيطر له شعيرا أو زريعة ليـزرعها في حديقـة له ، فكان أبو جعفـر يسأل المشيطر : مـا فعل الزرع . فيقول المشيطر : بخير ياعمي أبا جعـفر . فلما حضر أوان الحصاد ، زار أبو جعفر**

(1) كذا في القلشاني ، **شرح الرسالة** ، ج II، ص 187 (وقد اعتمد المؤلف على شرح ابن عبد السلام) .
(2) البرزلي ، **نفسه** (مخ رقم 4851)، جII ، ص 1109.
(3) ابن ناجي، **معالم** ، جIII ، ص151–152 .

حديقتـه لينظر الى زرعه ، فلم يجد شيئـا .فتلقاه المشيطر بكلام مـغضب . **قال : يا عمي أبا جعفر ، أزرع لك الزرع ويموت أولادي جوعا . فخرج أبو جعفر وهو يقول : سلاما سلاما »** (1).

و يعتـبر أنتقـال المزارعين من نظام الرق إلى الخمـاسة منذ العهـد الإسلامي الأول تطورا هاما في علاقات الإنتاج و حافزا إقتصاديا للعمال الزراعيين . لكن هذا المنحى لم يبرز إلا إبتداء من القرن XII م، بعد أن أعيدت صياغة المجتمع و تضاءل عدد الـرقيق و دورهم في الزراعـة حتى التـجأ كـبار المزارعين إلى عـقد شـركات الخماسة .

و بالتالى فإن الخماسة لم تصبح ظاهرة منتشرة في تاريخ البادية المغربية إلا إبتداء من العهد الحفصي .

ب) حالة الخـماس ، شريك أم أجـير : أختلف الفـقهاء في تحـديد القانون " الأسـاسي للخـماس ، فقد رأى سـحنون أنه شريك بناء على ما قـاله مالك بن أنس من: " **أن الأجيـر لا يستأجـر إلا بشيء مسمى ، لا تجـوز الإجارة إلا بذلك ، وإنما الإجارة بيع من البيوع ، إنما يشترى منه عمله ولا يصلح ذلك إذا دخله الغرر** »(2).

و من هذا المنظور فإنه شريك يقدم العـمل ويتحصل على خمس الإنتاج ، لأنه يشـارك بعنصر واحـد من مكونات الشركـة ، و هو العمل ، بينـما يقدم صـاحب الأرض الأربعة أخماس الباقية : الأرض و الحيوان و الحراثة و البذور .

على أن هذا الأمر يبدو نظريا أكثر منه واقعا إذ أن أجـر الخماس يتغير حسب المعطيـات الطبيعـية و طرق الإسـتثـمار المخـتلفة من الجـبل إلى السهل و أهمـية التسبقة التي يتحصل عليها خلال السنة الزراعية (3).

زد على هذا فإن كان الخماس شريكا وجب عليه دفع قسطه من الزكاة ، بينما يتحمل رب الأرض الزكاة وحده ، إذا كانـت الخماسة لا تجوز إلا بالإجارة ، لأنه لا يصح للأجير أن يدفع على زرع لا يمتلكه (4).

و إن كان الخماس شريكا ، أخذ نصيـبه من التبن خلافا للأجير ، على أنه كان مطالبا بالقيام بعلف الماشية ، وهو ما يمثل مشكلا في سنين المسبغة (5).

---

(1) أبو زكريا ، **كتاب السيرة** ، ص 298.

(2) مالك بن أنس ، **الموطأ** ،القاهرة 1951، جII ، ص 706. **مجموع** 17935 ، ص 105 ب-111 (بداه صاحبه بهذا النظم : وأجرة الخماس أمر مشكل / وللضرورة به تساهل ..ثم تولى شرحها)..

(3) J . Berque , **Etudes d'Histoire rurale Maghrébine**, p. 79 .

(4) البرزلي ، **جامع** ، مخ . 12793، ص 149. كذا في الونشريسي ، **المعيار** ، ج VIII ، ص 150-154.

(5) الونشريسي ، **المعيار** ، جVIII ، ص 153.

و هكذا فقد تحمل العامل الشريك عبئا أثقل من الأجـير ، و لذا فقد أخذ عدة فقهاء بالرأي الثاني ، و هو كون الخماس أجـير ، منهم أبن القاسم (القرن الثاني هـ) وأبن حبيب (القرن الثالث هـ) .

و أعتمد هذا الرأي على حرص الفقه علـى توفـر عناصر الشركـة بالتساوي، و هو أمر غير ممكن بالنسبة إلى الخـماس لأنه لا يصح إعفاوه من الرأسمال المتحول من زوج للقليب أو الحرث و زريعة ، بينما يتولى حصاد أكثر من الخمس.

و مهما يكن من أمر، فإن هذه الاعتبارات الفـقهية بقيت في مستوى التنظير للواقع نابعة منه و ليست محـددة له . و فعلا فلم تكن الأولوية للنظرية المسقطة ، وإنما للعرف الجاري : " **و مسألة عرفنا لاياتي العامل فيها إلا بعمل يده ، و كونه كذلك يصير أجيرا و يمنع كونه شريكا** " (1).

و قد حاول الفقـهاء مجاراة العرف تحاشيا لغـضب المالكين العقارين الذين حرصوا على أستعمال يد عاملة رخيصة ، متمثلة في الخماسة ، كما أن عدم تكافؤ العلاقات القائمة بين الريف و المدينة و الانتماء الاجتـماعي المميز للفقهاء قادران على تفسير موقف هؤلاء من الخماسة (2).

و يدل على ذلك ما أفتاه أحـد الفقهاء بتحمّل الأجير مـسؤولية المصائب التي يمكن أن تحل بالزرع وتعرضه أكثر من غيره لتقلبات الطبيعة : " **و إن أجره على أن يزرع له ناحيـة من أرضه فذهب الزرع ، فالمصـيبة للأجير و يلزمـه العمل للمستأجر** " (3).

ومما لاشك فيـه أن مؤسسـة الخماسة لم تبـرز بوضوح و تتعـرض لها النصـوص إلا أبتداء من القرن الثامن هـ / XIVم ، وذلك على أثر وقوع خلاف كبير في جواز شركة الخماس بين فقهاء القيروان و تونس (4) .

وكان الفقيـه أبو عبد الله محمد الرماح المتـوفّى سنة 749 هـ يفتي بجواز شركة الخـماس بالقيروان للحاجـة الملحة لذلك ، إذ قل عدد الأجراء ، و قد أتخذ خماسا في حرثه ، و كذلك فعل من بعده أحـد تلاميذه : أبو محمد الشبيبي الذي

---

(1) الونشريسي ، **نفسه** ، جVIII ، ص 153.

E . Amar, **La pièrre de touche des fetwas** , Paris 1909 , chap. de la société agricole .

Rabat 1940 ,p. 127 .

(2) J . Berque , **Les Nawazils al-muzara'a du Mi'yar Al -Wansharisisi**,

(3) الونشريسي ، نفسه ، ج VIII، ص165 .

(4)Monchicourt, **La Région du Haut Tell en Tunisie**, Paris 1913. Kolindo, Le colonat en Afrique .

كان يمنح الخماس تسبقة عينية كأن يعطيه قفيزا شعيرا و سباطا ، و قد تبعه في ذلك أبو الفضل البرزلي .

و هكذا أقرت المدرسة الفقهية المالكية بالقيروان جواز شركة الخماس خلافا لفقهاء تونس الذين أفتوا بخلاف ذلك ، و أعتبروه أجيرا لا شريكا . كيف يمكن إذن تفسير هذا الاختلاف ؟ احتمالات عديدة فى هذا الشأن :

– الالتجاء إلى الشركات الفلاحية في سبيل التأمين الاجتماعى ضد الكوارث الطبيعية و تقلبات المناخ و تعدي الأعراب . و هي مسائل أكثر خطورة في الوسط مما هي عليه فى الشمال .

– وجود علاقات إنتاجية أقل تطورا بالوسط حيث انتشار البداوة ، مما يفسر دفع الأجرة عينا و قلة وجود الأجراء في هذا المجتمع الرعوي . و في المقابل فإن أهمية النزوح الريفي إلى مدينة تونس و ناحيتها إبتداء من القرن السادس هـ / الثانى عشر م قد وفّر فائضا هاما من الأجراء المنبتّين عن جذورهم الأصلية والذين شغلوا في الفلاحة .

– حاجة العلماء و الصلحاء للخماس لخدمة الأرض ، إذ أن المصدر الأساسي لثروتهم بالقيروان هي الريع العقاري و إنتاج السواني و الهناشير ، وذلك خلافا للعلماء بتونس الذين غالبا ما كانوا يتقاضون أجرة نقدية .

– حرص المدرسة الفقهية التونسية الممثلة في أبن عرفة على رفض هذا النوع من الاسترقاق الذى عرفته هذه المجتمعات الريفية ، وبذلك كانت ترمي من وراء عملية تحويله إلى أجير أو إلى شريك بالكامل إلى تحريره من ربقة الاستغلال (1).

و يبدو أن السلطان أبا فارس أخذ برأي ابن عرفة ، و أصدر ظهيرا لإزالة نظام الخماسة ، لكنه وجد معارضة شعبية هامة ، أدت إلى عرقلة تطبيقه (2).

– حاجة أهل القيروان إلى عمال زراعيين نتيجة الوهن الديموغرافي الذي

---

(1) S. Ghrab, **IbnArafa,** op. cit., p. 713 .

نورد هذه الفقرة المقتبسة من نوازل البرزلي(ج II، ص 150) نظرا لأهميتها : وقعت هذه المسالة بالقيروان قديما وحديثا وكان شيخنا أبو محمد الشبيبي عن الرمّاح انه إذا استبدّ الخماس بشيء زايد غير داخل في الشركة مثل الثوب والطعام ونحوه ان في المسالة قولين بالجواز والمنع... ثم اباح ذلك شيخنا المذكور ورخّصه وعمل به واشتهر العمل به عندهم جدًا. فلما قلّدت الفتوى بالقيروان، منعته على طريق ابن شعيب واشياخنا بتونس، فضجر عند ذلك الضعفاء وربما سمعتُ انهم دعوا على من منع ذلك. وكان الشيخ قد اجازه لضرورة الزمان لذلك. لكن تقدّم انّه لا ينهض عذرا لما قال ابن شعيب. وأمّا فساد الخماسة بقطر تونس، فسمعت انهم يشترطون على الخماس الأ يأخذ نصيبه من التين وأن يخدم شريكه في حيوانه وحطبه واستقاء ماءه وغير ذلك».

(2) راجع مقالنا : الريف المغربي من خلال نوازل الونشريسي ، **الكراسات التونسية** ، 1985عدد 131–132، ص 5–34 .
J. Berque, **Les Nawazils Al Muzara'a du mi'yar Al-Wansharisi**, Rabat 1940

تشكو منه البلاد . و خلافا لذلك فإن حركة النزوح نحو التلول تفسر أن الخماس لم يكن في موقع المشترط بجهة تونس ، باستثناء الفترات التي شهدت تراجعا ديموغرافيا .

و نعتقد أن السبب الرئيسي المفسر لاعتبار الخماس شريكا من قبل أهل القيروان هو الضرورة الداعية لهذا الأمر ، كما بين ذلك ابن ناجى ، بمعنى حاجة مالكي الأرض إلى العمال الزراعيين ، خلافا لما كان عليه الأمر بجهة تونس (1) .

و معلوم أن الخماس الشريك يتحصل على النسبة المخصصة له في الشركة كاملة ، بما فيها التبن . و قد كان أصحاب هذا الطرح ينفون صفة الإجارة على الخماسة ، لأنه لا يمكن أن يأجر نفسه بشيء مجهول . و لذا فقد أشترط كي تصير الإجارة صحيحة ، " **أن تكون أجرته في الحرث (غير مجهولة) بقدر جزء من الزرع ، و يكون على صاحبه مؤونة الزرع في الحصاد و غيره بقدر الجزء الذي له** " (2) .

و إذا كان فقهاء القيروان ، بدءا بمحمد بن سحنون ، و وصولا إلى الرماح والشبيبي ، قد أقروا بشركة الخماس ، فإن المشرعين بمدينة تونس قالوا بغير ذلك منذ القرن السابع هـ . فقد سئل شيخ شيوخ ابن عرفة ، و هو أبو عبد الله بن شعيب بن عمر الهنتاتي الهسكوري عن مسألة الخماس في الزرع ، هل يجوز أم لا .

فأجاب بأنها إجارة فاسدة ، و ليست شركة لأن الشركة تستدعي الإشتراك في الأصول التي هي مستند الأرباح . ثم أضاف قائلا : " **و غلبة الفساد في ذلك وأمثاله هي من إهمال حملة الشريعة و لو تعرضوا لفسخ عقود ذوي الفساد لما أستمروا على فسادهم ، فإن حاجة الضعيف للقوي أشد** " .

و من الحجج التي ذكرها هذا الفقيه ما يبين ألتجاء الناس أضطرارا لشركة الخماسة ، إذ قال : " **و كون الناس لايجدون من يحرث معهم إلا كذلك ليس بعذر** " (3)

و أقتفى أبن عرفة خطى شيخه ، و أخذ نفس الموقف معتبرا الخماس أجيرا ، لا شريكا . رافضا أن تكون مسألة عرف البلاد هي شركة الخماسة ، متعرضا بالنقد لرأي محمد بن سحنون في هذا المجال ، معللا ذلك بكون العامل لا يأتي في هذه

---

(1) ورد في ابن ناجي ، **شرح** ، ج II ، ص92 ب : « أما الخماس ، فعلى ما به الفتوى بتونس من أنه أجير وليس شريك ، فواضح. وأما على ما به الفتوى بالقيروان لضرورتهم من أنه شريك ، فلا بد من أعتبار النصاب فيه كغيره». ويفسر عدم أستقرار « أجراء الحرث والرعاة» على حال شرعية الراي الذي يريد أن يجعل من الاجير شريكا لالزامه على العمل طيلة سنة كاملة. راجع : ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 29ب .

(2) البرزلي ، **نفسه** ، ج II ، ص 106ب .

(3) القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 87ب . الابي ، **الاكمال**، ج IV ، ص 221.

الشركة إلا بعمل يده فقط ، دون أن يقدم الزريعة ، كما أن شرط الشركة هو الإشتراك في العمل ، لا أن يكون العمل معينا بنفس العامل (1).

ج) وظيفة الخماس : يتم العقد الشفوي في الغالب طيلة سنة زراعية ، من فصل الخريف الى حد الصيف . على أن مهامه لم تكن محددة تحديدا واضحا ، إذ اتسعت مشمولاتها أو تقلصت حسب المعطيات التاريخية العامة ، و ميزان القوى بينه و بين المالك العقاري ، و هو أمر مرتبط بقانون العرض و الطلب . وبالتالي ، فقد تعرضت هذه المسألة لخلافات عديدة كأن :« **يقول صاحب الأرض عليك الحصاد و الحبال و الدرس و التهذيب و النقلان ، والعامل يقول إنما علي الحرث فقط و ليس علي غير ذلك** ». و يبدو الاختلاف جليا بين التحديدين ، ولكن ما هو ثابت أن الخماس كان قادرا في بعض الحالات على التصدي للتجاوزات الصادرة من صاحب الارض ، وعلى تحديد مهامه ورفض تولّي العمل الزراعي كاملا من البذر الى نقل المحصول الزراعي .أما الفتاوى فقد أنحازت بعضها الى الطرف الاول ، حسبما ورد على لسان الفقيه الذي أجاب عن هذه النازلة من تكريس للأمر الواقع و تدعيم لتقسيم العمل المعتاد ، إذ قال : « **إن عليه عمله كله و حصاده و درسه** » . فيما أقرت أخرى هذا الأمر إذا كان شرطا مسبقا ، و إن لم يشترطه المالك ، فليس عليه إلا الزرع (2) .

وبالتالي ، فانّ الوظيفة الأساسية للخماس هي الحرث . ثم وقع ترسيب مهام أخرى إضافية ، كلما سنحت الفرصة لأرباب الأرض في الريف . مما يفسر اختلاف أجوبة الفقهاء في هذا الشأن وصعوبة مسايرتهم للتطورات الحاصلة .

و نظرا إلى الظرفيّة التاريخية المتردّية أواخر العصر الوسيط ، فغالبا ما ترتبط حدود هذه الوظيفة بالنزوات الشخصية للشريك القوي . فيتعرض الخماس الى شروط مشطة ، دون أن يتمكن من التصدي لذلك . و هذه إحدى النوازل الدالة على ذلك : « **و سئل عن رجل اتخذ أجيرا للحرث في الزريعة و كان لصاحب الزرع قليب، و شرط على الأجير أن يرد على القليب في إبانه ، و شرط عليه أيضا نصف العمل في الحصاد و الدرس ،و ليس للأجير من الزرع إلا السدس** » (3).

---

(1) نفس الاحالة السابقة . ويستند هذا الرأي الى ما ذكره عياض من أن الشركة فاسدة إذا أختص أحدهما بالبذر والآخر بالارض ، وأشتركا في غيرها تساويا أو تفاوتا . وبناء على ذلك فقد أقر ابن عرفة بأن الشركة الحقيقية لا ينفرد فيها طرف باخراج المال والآخر بالعمل وهو ما ينطبق على الخماسة . واعتبر ذلك اجارة خلافا لما شاع بين الناس على وجه بعيد عن الصواب : القلشاني، **شرح**، جII ، ص186. وفي القباب (**شرح** ، ص12) راي مخالف مفاده أن شركة الزرع جائزة إذا كانت الزريعة بينهما، والارض لواحد والعمل لآخر أو العمل بينهما .

(2) ن . م ، ص 176 ـ 177 . راجع حول عقد الخماسة :

G. Rectenwald, **Le contrat de Khammassat dans l'Afrique du Nord**, Paris, 1912, p. 73 .

(3) ن . م ، ص 161 .

وبالتالي ، فإن هذا الأجير الذي يقوم بنصف قيمة العمل لا يتحصل إلا على سدس المحصول ، إن كان هناك محصول! و قد تردت أحيانا حالة الخماس حتى أصبح تحت رحمة سيده ، يقوم بأعمال لاعلاقة لها بالعمل الفلاحي ، مثل الاحتطاب والرعي .

و يمكن أن نلخص مهامه في القرن الخامس عشركما يلي : « **الخماس يحرث و ينقي ويرفع الأغمار و يحصد و يدرس و ينقل السنابل إلى الأندر . و إن شرط عليه غير ذلك فلا يجوز . و جرت العادة اليوم بالبادية بأن يشترط عليهم القيام بالبقر و الاحتشاش لها و عمل الحطب و استقاء الماء إن احتاج إليه** » (1).

و هكذا تولى الخماس بالبادية القيام بعديد الاعمال الزراعية وغيرها ، تحت سطوة الخوف والجوع . ولم يقتصر هذا الامر على المغرب الاقصى ، إنما شمل كذلك الجهة الشرقية من بلاد المغرب ، حسب ما ورد في هذه الشهادة : « **و أما فساد الخماسة بقطر تونس ، فسمعت أنهم يشترطون على الخماس أن لا يأخذ نصيبه من التبن ، و أنه يخدم شريكه في حيوانه و حطبه و استقاء مائه و غير ذلك.** كما أشترط عليه في بعض الحالات القيام بالمساقي حتى « **ضجر عند ذلك الضعفاء** » (2) .

وبالتالي فقد تحول الخماس في بعض الحقب الى مجرد أجير بالثوب والطعام ، يكتفي بأخذ أجرة عينية توفرله الحد الأدنى من ضروريات المعاش . وظل في المقابل على ذمة سيده طوال السنة ، مسخرا لكل الخدمات و الأعمال الشاقة سواء أكانت فلاحية أو لم تكن ، شأنه شأن القن الذي يأويه سيده تحت سقفه في النظام الفيودالي . وبالتالي ، فإن الأجرة العينية و أعمال السخرة و عدم تحديد وظيفة الخماس كلها دلالات على نوعية العلاقات الانتاجية السائدة (3) .

---

(1)البرزلي، **ن.م** رقم 4851 ، جII ، ص111 ب. الونشريسى ، **ن.م** ، ص151 . لئن حاول بعض الفقهاء المغاربة تبرير هذه الاعمال الإضافية قياسا على الأعمال الزائدة التي يقوم بها المساقي مثل إصلاح القنوات و غيرها ، فإن ابن عرفة أنكر هذا الأمر و تحدث البرزلي عن « **فساد الخماسة بقطر تونس**».

(2) البرزلي ، ج II، ص 1150. الونشريسي ، ص 149 – 150 .

(3) راجع مسالة الفيودالية والاقطاع في الفصل الخاص بها . وقد ألتجأ العمال الزراعيون ، من خماسة وحصادين الى أستهلاك الحصاد ، في فترات نفاذ المؤونة . قال البرزلي (**نفسه** ، ج II، ص 1154) في هذا الصدد :«**ومثله ما يقع اليوم ياخذون الزرع من الفدان ويعملون منه معيشة الحصادين، فهو جائز**» .

د) علاقة الخماس برب الأرض :

تمتَّع الخماس ببعض المنافع الاجتماعية ، الزائدة على خمس الإنتاج ، الذي لايكفي لسد الرمق طيلة سنة كاملة . ففي جهة القيروان ، كان ، على حد تعبير البرزلي ، " **يستبد بشيء زائد غير داخل في الشركة** " ، من تسبقة و لباس ومأكل وغيره . و كان الفقيه الشبيبي (القرن الثامن هـ) قد أباح هذه المنافع الزائدة ، التي اُشتهر العمل بها كثيرا في مدينة القيروان .

و لما تولّى البرزلي الفتوى بالقيروان ، حاول عبثا تغيير هذا الوضع ، و منع التسبقة ، متبعا في ذلك رأي أشياخ مدينة تونس ، مثل أبي عبد الله بن شعيب الهسكوري و من بعده اُبن عرفة ، الذين اُعتبروا الخماسة إجارة . لكن هذا الموقف قوبل برفض صارم من الخماسة الذين تضرّروا على ما يبدو من هذا " الإصلاح " "**وضجر الضعفاء ، و ربما سمعت أنهم دعوا على من منع ذلك ، و كان الشيخ (الشبيبي) قد أجازه لضرورة الزمان** " . و لئن كنا لا ندري هل أن هذا التململ العمالي تزامن مع نظيره بمدينة تونس ، أم أنه جاء بعده ، فالنتيجة كانت واحدة في المجالين ، إذ عدلت السلطة القضائية و السياسية عن تطبيق هذا القانون . و لم يكن اصرار بعض الفقهاء مثل البرزلي على عدم جواز شرط السلف في أصل العقد، عائقا حقيقيا لتحصل الخماس على السلف أو التسبقة ، باُعتبار إمكانية أخذه بعد إمضاء العقد مباشرة .

و بالتالي فقد كان الخماس بجهة القيروان يأخذ حصته من التبن كاملة . و هو ما لم يكن يقع بجهات أخرى من بلاد المغرب ، مثل جهة تونس حيث اُعتبر الخماس أجيرا ، أو بجاية و المغرب الأقصى حيث لا يعطى من التبن إلا ما خف منه، لجعله في مطمورته عند خزن الحبوب .

و إلى جانب بعض اللباس الذي يتحصل عليه العامل الفلاحي ، شأنه في ذلك شأن الراعي ، فإن من عادة المزارعين منح الخماس الغذاء ، من طعام وشراب(1) .

و الحقيقة أن إيواء الخماس و إطعامه عند الضرورة ، خاصة منحه سلفا ليس منفعة يتمتع بها بقدر ما هي قيود تزيد في تكبيله ، ذلك أنه يشترط عليه استخلاص التسبقة العينية التي يتحصل عليها عند بدء العمل قبل الحصاد إذا ما أراد فسخ عقد الشركة ، و هو شرط صعب من شأنه أن يجمد حالته و يجعله تابعا لصاحب الأرض بصفة مستمرة .

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج II ، ص 106أ. الغرناطي ، **نفسه** ، ص210 ب . المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II، ص133، 49ب .

على أن محاولات الهيمنة هذه لم تكن دائما ناجعة لأن عقد الشركة لا يقضي بأن يبقى العامل مرتبطا بالأرض ، و لا خاضعا للسخرة بلا رحمة كما هو الشأن في النظام الإقطاعي الأوروبي . فهذا العقد هو إذن مجرد اتفاق بين إثنين قابل للفسخ في أي وقت و يفرض على العامل التشبث بالأرض أو الوفاء لصاحبها . فهو يمتلك نسبة من الحرية الشخصية ، وإن كانت تنقصه الحرية الاقتصادية .

ولذلك نراه أحيانا يرفض الحصاد وحده و يملي شروطه على صاحب الأرض ، خاصة إذا كان قانون العرض و الطلب لصالحه . ويتوانى أحيانا أخرى في التزاماته . وقد يأبق الخماس دون أن يفي بواجباته تجاه شريكه . قال الونشريسى في هذا الصدد :

« **و سئل بعض الفقهاء عمن زرع أرضه و نبت زرعها ثم أخذ شريكا بيده يعمل معه بسهم معين ، فخدم معه زمانا ثم فر فاتمها صاحب الأرض بيده أو بإجارة** » .

وفي نازلة أخرى : « **يسافر الخماس إلى موضع بعيد أثناء الحرث** » (1). و في هذه الظروف ، فإن صاحب الأرض لا يتقاعس في البحث عن أجير أخر كلما أمكن ذلك .

و في الحقيقة فإنه لايوجد دائما تباين كبير بين رب الأرض وخماسه خاصة إذا كان الأول من صغار العقاريين يشارك مباشرة في عملية الإنتاج إلى جانب أجيره ، بل إنه أحيانا يقوم بإعانته في عمله راغبا في التحصل على مقابل (2). وفي هذه الحالة فإن العلاقة بين المالك و الخماس هي علاقة مباشرة، إذ يكفي أن تهب ريح الأزمة حتى يستويا في الفقر .

هـ) هل وجدت فئة إجتماعية للخماسة ؟

لئن كان هاجس الفقهاء النظر في ما يجوز ، و ما لا يجوز ، فإن الدارس للتاريخ يطمح إلى رسم صورة دقيقة للوضع الإجتماعي لهذه الجماعة البشرية المستقرة بالبادية .

و مما له مغزاه أن عالم الخماسة لم يكن منعدم التنظيم ، اذ تتحكم فيه من الداخل روابط و علاقات وطيدة من التآزر و التكاتف ، تآزر الضعفاء في السراء

(1) البرزلي، **ن.م** ، ص150ب . الونشريسى ، **ن.م** ، ج VIII ، ص 137 ، 144- 145 .

(2) الونشريسي، ص 141. قياسا على فتوى لإبن رشد أقر فيها أن الأجير إذا راغ ياخذ أجرته في الايام التي عمل فيها ، حكم ابن عرفة بنفس الأمر على أجراء الحرث و الرعاة الذين يعملون لأشهر معينة ثم يروغون ، ويأتون بعد إنقضاء المدة يطلبون مناب ما عملوه من المدة ، فيعطيه أجره بالتقويم. على أن فقهاء أخرين يذهبون إلى عدم منحه أجرة ، باعتباره تجاوزا للعقد . لكن كثرة وقوع هذا الأمر ، و عدم استقرار أجراء الحرث ، و الرعاة على حال كما شهد بذلك ابن عرفة ، يفسر الأخذ بالرأي الاول . و يبدو أن عدم الإستقرار في العمال ، يفسر شرعية الراي الذي يريد أن يجعل من أجراء الحرث و الرعي شركاء ، لالتزامهم للعمل طيلة سنة كاملة (ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 29 ب) .

والضراء . فعلى إثر الاقرار بكونهم أجراء لا شركاء ، بدأوا في التململ في جهة القيروان (و على حد تعبير البرزلي **"ضجر الضعفاء"**) ، و ردّوا الفعل بأكثر قوة بناحية تونس ، حتى أجبروا كل من السّلطة القضائية و السياسية على التراجع.

و ما فتئ السلطان أبو فارس عبد العزيز الذي أخذ على ما يبدو برأي الفقيه ابن عرفة و من سبقه مثل ابن شعيب الهسكوري ، و أصدر ظهيرا لإزالة نظام الخماسة ، أن تراجع أمام المعارضة الهامة لهذا القرار . و هو ما يأتي شاهدا على مدى تطور الوعي الإجتماعي لهذه الجماعة الريفية ، و قدرتها عن الدفاع عن مصالحها ولئن كان ليس من اليسير اختراق هذا العالم من الداخل ، و معرفة كنهه معرفة دقيقة فإننا نعتقد أن التركيبة البشرية له فسيفسائية التكوين، إذ جاءت أصول الخماسة مقترنة إلى حد كبير بحركة النزوح البدوي و انتقال المعدمين من جهة إلى أخرى ، من الجنوب إلى الشمال، و من المناطق المنكوبة بالاضطرابات الاجتماعية و الأوبئة إلى أخرى أكثر أمنا . و لذا فقد كان عدد كبير منهم من الغرباء على البلاد، الوافدين عليها من الجهات المعرّضة لوطأة الازمات أو من شتات العشائر و القبائل البدوية التي بدأت في الإستقرار (1) .

لكن هذا الاختلاف فى الأصول البشرية لم يمنع من وجود تعاون بين الخماسة قائم على أساس شركة الذمم التي تعقد بينهم ، بمعنى تعاون الأجراء على إنجاز عمل (2).

ففي سنوات وفرة الإنتاج ، عقدت الشركات بين خماس و آخر ، لحاجة كل واحد منهما إلى صاحبه زمن الزرع و الحصاد ، فيقول الأول للثاني : **« شاركنى وأشاركك خماستك »** (3) .

كما بادر الخماس بتشغيل العمال الفلاحين الوقتيين و بدفع أجرتهم، خاصة سنين الإنتاج الوفير ، فمنهم من أتخذ معينا له ، أو مقاطع في الزرع ، يتولّى تنقية الزرع و الحصاد و الدراس مع الخماس ، مقابل أخذ جزء من الإنتاج (4) .

وفي حالات أخرى ، وقع الاشتراك بين الخماس و العبد (المسمّى في بعض المصادر الخديم) للقيام بعمل ما ، و من الأمثلة على ذلك ماسئل عنه عبد الله التاجري : **« عمن اشترك مع رجل بالخمس كما جرت العادة لكنه لا يعطي الزريعة أو يشارك في المصاريف التي انفقت على السكة و المحراث ، و يتولى القيام بالعمل (الحراثة بالزوج) مع خديم لصاحب الأرض ».**

---

(1) الغرناطي ، **المصدر نفسه** ، ص 1215
(2) القلشاني، **شرح** ، ج 2 ، ص 81 ب .
(3) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VIII ، ص 142 .
(4) المغيلي، **المصدر نفسه** ، ج II، ص 153.

و قد أشتركا في العمل ، و شابهت وضعية الخماس الرق ، إذ كان ممن [...] في جميع الأشياء . على أنه رفض أن يتولى حصاد كل الزرع ، و دخل في [...]زاع مع صاحب الأرض وخديمه حول تقسيم العمل(1) .

و يبدو أن وفرة العمال الزراعيين في بعض البلاد التلية يفسر أن أصحاب الأرض يعمدون إلى اتخاذ « شريكين بالخمس بينهما » على أن يتقاسما خمس الإنتاج بينهما ، و كذلك العمل ، فيتولى واحد الحرث ، فيما يقوم الآخر بإزالة الأعشاب الطفيلية و بتدبر علف الزوج (2) .

و على العكس من ذلك ، عندما يندر العثور على الخماس ، لا يجد الشركاء المزارعين بدا من العمل بأنفسهم . و إذا ما عثروا على خماس فإنه لا يقبل العمل إلا بشروط مشطة (3) .

و قد يشترط في هذه الحالة الحصول على عطاءات ثانوية ، غير معهودة في شركة الخماس ، كما ورد في مسئلة أخرى ، إذ قال الخماس لصاحب الزوج :

« زدنى جرة سمن و دراهم مسماة أو جزءا أخر من الزوج و سبب هذا قلة الخماس و الالتجاء إليهم ، فزاده ما طلب » (4).

و في السنين الخصبة ، قد يتحول هذا الكادح إلى صاحب نفوذ على الحصادين، الذين يتقاضون يوميا أجرتهم من الحبوب ، بنسبة معينة من الحصاد، العشر أو غيره . وكانوا في الغالب من الوافدين على البلاد التلية ، أي إفريقية كما تطلق عليها المصادر أبتداء من تلك الحقبة. فطريق الرحلة من الجنوب إلى الشمال هو طريق تقليدي ، عرفته إفريقية منذ العهد الأغلبي(5).

---

(1) الغرناطي ، **المصدر نفسه** ، ص 210 ب . و قد وردت مسئلة مشابهة عند المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II ، ص 21 ب . و في هذه الحالة ، تشبث الخماس بالعمل في الخمس ، فيما كان عليه خدمة النصف .
الشماخي ، **نفسه** ، ص 352 (كان الخدام غالبين في العمل بواحات إفريقية في العصر الموحدى ، كما ذكر ذلك أبو العباس أحمد (أصول الارضين) .
(2) المغيلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 32 ب . و في حالات أخرى يتقاضى الخماس عشر الإنتاج ، على أن يقتصر عمله على الحرث في فصل الشتاء : كذا في الغرناطي ، المصدر نفسه ، ص 1215 .
(3) المغيلي، المصدر نفسه، ج II ، ص 31 . **« سئل العقباني عن قوم اشتركوا في حراثة زوج ، فطلبوا خماسا يحرث ببقرهم، فلم يجدوه ، فصاروا يتداولون على الحراثة بأنفسهم أياما حتى وجدوا خماسا ، فقال لهم : لا احبس زوجكم إلا أن ادخل معكم فيما حرثتموه و تقولوا (كذا) تصدقنا عليك بما سبقناك به »**
(4) المصدر نفسه ، ج II، ص133.
(5) في طبقات أبي العرب ، ص 69 : **" أبصر عالم القيروان ، أسماعيل بن رباح الجزري (المتوفى سنة 212 هـ) رجلا من أهل الساحل و معه ولده و أهله، و هم بحالة رثة . فناوله غذاء يسد الرمق، ثم سأله عن وجهته ، فاجابه الساحلي : " بلغني أن بصطفورة زرعا بمنزل فلان ، فاحببت أن أبلغ إليها لعلي أعيش أنا و أهلي و صبياني فيها .**
وتذكرنا ظاهرة العمال الزراعيين والحصادين المتنقلين بحركة الدوارين في العهد القديم (circoncillions) التي أدّت الى تكوين عصابات قوية من العمال الزراعيين بدون أرض وقيام تمردات ضد الملاك العقاريين ، كما تتشابه مع ظاهرة الهطاية خلال الفترة ما بين الحربين . حول مفهوم افريقية ، راجع الفصل الخاص بتونس وافريقية .

و الجديد في العهد الحفصي أن هؤلاء العمال الموسميين انحدروا في الغالب من البدو الرحل ، و كان عددا كبيرا منهم من القبائل العربية التي تنتجع صيفا إلى التلول للحصول على نصيبها من الحبوب .

و قد تولى الخماس و شريكه توفير مؤونة الحصاد للوافدين عليهم ، و هو غذاء بسيط في محتواه ، يعتمد أساسا عنصر الدقيق و الزيت و اللبن و نادرا اللحم. وأخذ الدقيق في الغالب من زرع الفدان . و قد جرت العادة بجهة القيروان في القرن الثامن هـ أن يتولّى توفير الطعام للحصادين كل من المالك العقاري والخماس بالتداول بينهما (1).

و ثمة صنف أخر من العمال الموسميين الذين أكملوا عمل الخماس ، و هم اللقاطون الذين وقع أستثناؤهم من دفع الزكاة ، لأن السنابل المجمعة تعتبر شيئا متروكا . و كانت من العادات المتبعة في بعض قرى إفريقية هو ترك أخر فدان الزرع إلى اللقاطين ويسمون ذلك : عروس الفدان(2) .

ومجمل القول ، فقد كان نظام الرق فاعلا في علاقات الانتاج الزراعي بين القرنين الثاني والخامس هـ / الثامن والحادي عشر م . لكن أزمة القرنين الخامس والسادس أدت الى تحرر عدد كبير منهم ، حتى أن البعض منهم الذين أطلقت عليهم المصادر «أباق العبيد » شارك في أنتفاضة البدو ، من بني هلال وبني غانية ضد الموحدين . كما أن تراجع التجارة الصحراوية نتيجة ظهور صحوة محلية ببلاد السودان الغربي (بممالك غانة ومالي وسونغاي) وأزدياد حاجة أوروبا الى العبيد الذين يسوّقون لها إنطلاقا من ناحية برقة وطرابلس وجربة وغيرها ، قد أدى الى تضاءل مشاركة الرقيق السودان في العمل الزراعي .

وفي خط مواز ، تبلور انطلاقا من القرن السابع هـ / الثالث عشر م نمط جديد من علاقات الانتاج مرتكز على الخماس ، وان كنا نقر بانه وجد منذ العهد الاغلبي بافريقية . وبديهي القول أن خماس العهد الحفصي اختلفت وضعيته حسب المكان والزمان . فهو بناحية القيروان شريك ، فيما كان الى الاجير أقرب بناحية تونس، حيث تطورت علاقات الانتاج ، وتبلور نمط من الاقتصاد السلعي التابع للمدن التجارية . ولئن كان الثابت في مهنته تقديم ساعده للعمل ، فانه تارة

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج II، ص 1110. وكانت عادة غذاء الحصادين متداولة منذ العهد الاغلبي وعهد الولاة ، إذ ذكر المالكي (**رياض** ، ج I، ص 215) أن رباح بن يزيد (ت. سنة 172هـ) عمل غذاء للاجراء الحصادين
(2) البرزلي، **نفسه** ، جI، ص 132ب ، ج III، ص 1205 . ابن ناجي، **شرح** ، ج II، ص 191. الونشريسي ، **المعيار** ، ج I، ص 384.الشماخي، **سير**، تحقيق المؤلف ، ج I، ص 64.

عانى المهانة ، وأخرى كان سيد الموقف في الهنشير ، خاصة عندما تهب الازمات والاوبئة ، ويتضاءل عدد العمال (1).

وعموما ، فإنّ نظام الخماسة ، بما فيه من أجرة عينيّة وعلاقات هيمنة ، هو تعبير عن سيطرة العلاقات شبه الاقطاعيّة في المجتمع المغربي عامّة ، والافريقي خاصة ، في نهاية العصر الوسيط ونظرا الى عدم نشأة صناعة متطوّرة وتجارة ذات صادرات وواردات متوازنة ، فقد ظلّ الرّيع العقاري المصدر الثابت للثروة لدى السّلطان وأهل الحضر.

V- تنوع الانتاج الزّراعي ومردوديته :

يتميز الإنتاج الزراعي بافريقية بتنوّع أصنافه التي فاقت على ما يبدو ما كانت عليه في العصر الوسيط المبكر، وذلك رغم الظروف الانتاجية غير الملائمة . فقد شهدت الارياف خلال الفترة الحفصية اضطرابات عدة، أدت إلى انحسار المساحات المزروعة وتراجعها، حتى أضحت مقتصرة على النواحي القريبة من المدن والمناطق الآمنة .

على أننا ننبّه في هذا المضمار لخطورة القراءة الأحادية، التي تنطلق من وصف المصادر الادبية لجهة ما في فترة محددة، وهو وصف لا يخلو من المبالغة، لتعميمه على كامل البلاد طيلة ثلاثة قرون أو أزيد. كما يلجأ كثير من المؤرخين إلى الحل السهل في تحميل مسؤولية ما حدث إلى الاعراب، والبداوة بصفة عامة. وهي في اعتقادنا نظرة تبسيطية للوضع، الذي تداخلت فيه العوامل الاجتماعية والديموغرافية والسياسية، فضلا عن الجغرا–سياسية والاقتصادية المفسرة لهذا الوضع الزراعي الصعب.

وبالتالي يتعينّ على الدارس الفطن أن يعطي المعلومات الواردة في رحلات العبدري والتجاني وابن بطوطة وغيرهم حجمها الحقيقي، دون مبالغة أو استنقاص . وقد ركز هؤلاء على ظاهرة عدم استتباب الأمن (2).

(1) **مناقب** ، مخ 18555، ص185 ب . وفي القرن السابع لخص هذا الخبر المعاناة التي يتكبدها المزارع من نقص في اليد العاملة : فقد جاء « رجل كبير من الفلاحة »الى أحد المرابطين ، وهو جالس على ذروة الجبل الاخضر ، بناحية مدينة تونس ، وقال له باكيا : « عندي ولد يقوم علي ويعاوني وقد عييت وكبرت ، فاراد أن يمشي مع الركب ويسافر »
(2) العبدري، **رحلة** ، ص 37–38 قال العبدري" أن المسافر عندما يخرج من مدينة فاس لا يزال إلى الاسكندرية في خوض ظلماء... لا يامن على ماله ولا على نفسه، ولا يؤمل راحة في غده" . وأضاف متحدثا عن بعض المدن التي مر بها: " ثم وصلنا إلى مدينة باجة، وهي مدينة جرعها الدهر أجاجه، قد هتكتها الايدي العادية وفتكت فيها الخطوب المتمادية حتّى صارت وهي حاضرة بادية، فخشوعها لائح وضراعتها بادية، وقد حدثت بها أن أهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان، وأنهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعدون ليوم الضراب والطعان ... "

ويعزي التجاني انحسار المساحات المغروسة إلى نفس العامل، فيقول عن غابة الساحل، إنّ زيتونها " **أذهب إفساد العرب أكثره، وغير بعد الاستواء أسطره** "، وكذلك الأمر بالنسبة إلى غابة صفاقس، " **كانت قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها، فافسدها العرب، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة** " (1).

غير أن فترات عدم الاستقرار لا يمكن أن تخفي حقبات أخرى عرفت فيها الزراعة انتعاشا وتطورا، وان كان الخط البياني العام أخذ منحى الانحدار منذ مطلع القرن الخامس للهجرة، لأسباب عديدة، ولم يكن الانتشار البدوي الا أحد العوامل التي سارعت في تطور حتمي للأوضاع (2).

1) شجرة الزيتون والعلاقات الحضر-بدوية :

كان الزيت من أهم منتوجات البلاد منذ العصر القديم، وقد ظلّ رمزا للثروة والرخاء عند العرب بالبلاد في القرن الأول الهجري، حسبما جاء في الرواية الشهيرة التي أوردتها كتب التاريخ (3).

وقد عادت شجرة الزيتون إلى مجدها السابق، بعد انقضاء فترة الاضطرابات السياسية، وأصبحت في العهد الأغلبي تغطي مساحات شاسعة ببلاد الساحل، ممتدة جنوبا إلى نحو مرحلة من قابس، وغربا إلى بلاد قمودة، وقد كانت صفاقس أنذاك "**وسط ألذّ غابة زيتون**"، ويكفي أن نستدل على وفرة الانتاج بالعدد الهائل للمعاصر في هذه البلاد، إذ بلغ في رستاق رصفه وحدها 360 معصرة للزيت في نهاية القرن الرابع الهجري (4). وأرتبط امتداد غابة الزيتون بالعمران الحضري، حتى أن تحديد بلاد الساحل اقترن بتطوّر ها ومدى اشعاعها وتقلصها.

ولا يفوتنا في هذا المضمار التذكير بالملكيات الكبرى بالساحل، التي كانت بيد الخاصة من أهل القيروان، إذ بلغ عدد الزياتين ببعض الضيعات عشرين ألفا (5).

---

(1) التجاني، **رحلة**، ص 75. انظر ايضا: ابن بطوطة، **رحلة**، ص 5-6.

(2) قال برنسي: " يجب ان ننهي الحديث عن اسطوره الغزو الهلالي، لا لكي نجعل من العامل البدوي امرا ايجابيا، انما لان هذا التفسير ناقص " انظر: J. Poncet, prospérité et décadence Ifriqiyenne. In **C.T.**, 1961, N°: 33-35.

(3) ابن عبد الحكم، **فتوح**، ص 57-58. R. Brunschvig, **Les Hafsides**, TI, p.57-58.

(4) البكري، **المسالك**، ص 19، 20. المقدسي، **احسن التقاسيم**، ص 226-227.

(5) المالكي، رياض النفوس. ابن ناجي، **معالم**، ج III، ص 183.

على أن هذه الغابة شهدت انحسارا ابتداء من القرن الخامس الهجري، وبدأت غابة الزيتون الموجودة بالسباسب وببلاد قمودة في التلاشي، تاركة المجال المرعى ولزراعة الحبوب. لكنها لم تندثر كليا وظلت قائمة الى حدّ القرن السّابع هـ/ XIIIم حسب شهادة ابن الشباط (1). وفضلت الزيتونة الاحتماء بالعمران الحضري، مقتصرة على السواحل وبعض الواحات والقرى الجبلية، حتى وجد تلازم كبير بين الاثنين، بين الاستقرار وشجرة الزيتون، وهو ما تبينه خريطة التوزيع الجغرافي لها.

- *التوزيع الجغرافي لغابات الزيتون ببلاد افريقية في العهد الحفصي:* نمت هذه الشجرة في تربات متعددة، وحيثما ازدهر العمران الحضري. فكانت بجهة القيروان في العهد الأغلبي، يحتطب منها باستمرار، وبعد أن تحولت حاضرة افريقية من القيروان إلى تونس ابتداء من القرن الثاني عشر، بدأت تظهر حول هذه المدينة غابة زيتون، على مسافة أربعة إلى ستة أميال منها، وهو المجال الزراعي الثاني المحيط بالمدينة، فيما خصّص الأول للخضراوات ولبقية الأشجار المثمرة. وقد كانت هذه الغابة لا تقتصر على تزويد أهل الحضرة بمنتوجها من الزيت والزيتون والحطب المستعمل للتسخين والطهي، إنما يخصص جانب من الزيت للتصدير إلى عدة بلدان متوسطية مثل مصر وجنوة وبيزا (2).

على أنه لا يخفى علينا أن بلاد الساحل التي اشتهرت منذ العصر القرطاجني بغراسة الزيتون، ظلت وفيّة لهذه الشجرة طيلة العهد الوسيط، حتى أن حدوده تغيرت في خط مواز لاتساع هذه الغابة أو تقلّصها، كما أشار إلى ذلك اليعقوبي في قوله: " **ومما يلي القبلة من القيروان بلد يقال له الساحل، ليس بساحل بحر، كثير السواد من الزيتون والشجرة والكروم** " .. **وهي قرى متصلة بعضها ببعض كثيرة** ". وقد أتسعت هذه الغابة حتى بلغت جنوب صفاقس، وغربا إلى حدود بلاد قمودة. ويبدو أن انتقال العاصمة إلى المهدية مع الفاطميين، أدّى إلى تدعيم المجال الفلاحي المحيط بها، وإلى تميّز رستاق رصفة القريب منها بغراسة الزيتون(3).

وفي الجملة، فان حدود الساحل أتسعت جنوبا وغربا، كلما اتسعت غابة الزيتون نحو هذه المجالات، باعتبارها قد حددت إلى درجة كبرى طبيعة الانتاج والسكن. غير أن هذه الغابة قد أصابها ما أصاب العمران من ضرر.

---

(1) ابن الشباط، **صلة السمط**، ج IV، ص 6ب.

(2) البكري، **المصدر نفسه**، ص 26. الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 77.

(3) اليعقوبي: **البلدان**، ص 102. المقدسي، ن.م.، ص 227. **البكري**، ن.م. ص 19-20.

ففي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/XI م، كان طول غابة الساحل المشتملة على وطن المهدية وصفاقس مسيرة ثلاثة أيام، وعرضه يوماً، غير أن أهله فرّوا عنه في كثير من الأحيان، واحتموا بأسوار المدن، بعد أن غلب عليه الأعراب، وأصبح جاليا(1).

لكن العامل البدوي ليس المسؤول الوحيد عن بداية انقراض هذه الغابة، إذ من الواضح أن أحداث سنة 474 هـ/ 1081م، عند محاصرة تميم بن المعز لمدينة صفاقس، قد أثّرت سلبا على زيتون صفاقس، نتيجة عوث عسكره في أجنتها المعروفة بالغابة وافسادها (2).

وإذا كان الادريسي قد ذكرها في أواسط القرن السادس، فقال ان **"جل غلاتها الزيتون والزيت، وبها منها ما ليس يوجد بغيرها مثله"**، فإنها شهدت تراجعا كبيرا في نهاية القرن السابع، ومطلع القرن الثامن الهجري، غير أننا لا نعتقد أنها اندثرت تماما خلال تلك الفترة، بل تواصل وجودها وامتدادها على مسافة ثلاثة أيام، من نقطة جنوب صفاقس إلى سوسة شمالا، والجم غربا، كما يفهم من سياق نص العبدري: **"ثم منها (أي نقطة)، على الطريق الوسطى بين طريق القيروان وطريق الساحل على غابة افريقية، وهي غابة عظيمة من زيتون البعل، يحمل كثيرا ويعصر زيتا طيبا كالحال في زيتون الشام سواء، ولكنه ليس في الشام منه غابة متصلة كاتصال هذه مع عظمها، وقد قطعناها في ثلاثة أيام، ولكنها الان معطلة لفساد البلاد واستيلاء العربان عليها، فانقطعت منفعتها رأسا حتى صار الزيت بافريقية مجلوبا من جزيرة جربة، وهي جزيرة منقطعة في البحر فيها زيتون وثمار"** (3).

ولا يخفى على الدارس المتفطن أن تعطل انتاج هذه الغابة لم يكن الا ظرفيا، مرتبطا بالقلاقل السياسية والاجتماعية التي عرفتها البلاد في نهاية القرن السابع ومطلع الثامن. ومن الصعب أن نتصور أن هذه الغابة التي كانت معطلة سنة 689 هـ، عند مرور العبدري بها، قد اندثرت بالكامل بعد سبع عشرة سنة فقط، كما أقر بذلك التجاني في قوله: **"كانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها، فافسدتها العرب، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة"** (4). والحقيقة أنّ التجاني اقتصر على

---

(1) ابن ناجي، **شرح**، ج IIص 91 ب.
(2) ابن عذاري، **البيان**، جI، ص 330.
(3) الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص 107. العبدري، **رحلة**، ص 237، 238.
يؤكّد العارفون بالزيتون أنّه لا يندثر، حتّى لو اكلته الماشية و أهمل.
(4) التجاني، **رحلة**، ص 68. يبدو أنّ صاحب الرحلة يقصد الغابة الملاصقة للأسوار القريبة منها، دون أن يعني ذلك اندثار كلّي للغابة الموجودة في ناحيتها. وممّا يؤكّد ذلك أنّ الغابة كانت موجودة في العصر الحديث، إذ تحدّث مقديش عن بساتينها وجنّاتها، وعن غلّة الزيتون الجالي بغابة صفاقس.
(مقديش، **نزهة الانظار**، ج I، ص 109، ج II، ص 181).

ذكر جزء ضئيل من غابة الساحل، ممتد بين الجم وأم الاصابع (أوْرقة)، وهي مسافة لا تتجاوز نحو عشر كلموترات، ولم تسلم هذه الغابة بدورها من الإهمال والتلف(1).

غير أننا لا نكاد نصدق هذه المزاعم القائلة بانقراض شبه كلي لغابة الزيتون بالساحل، أمام تقدم الانتشار البدوي بهذه الجهة. صحيح أن الغابة تضررت من ذلك، وأن المناطق الطّرفيّة لبلاد الساحل مثل جهة رصفة قد تضررت أكثر من غيرها، لكن ذلك لم يؤد بكل تأكيد إلى اندثار كلي لها ببلاد الساحل، وعوضا عن هذه الاحكام القاطعة التي تبنّاها بعض الدارسين، فلنقل أنها شهدت حركة مد وجزر طيلة الفترة المتأخرة من العصر الوسيط.

فقد عرفت رباطات الساحل حركة تعمير وغراسة للغابة المحيطة بها، في غضون القرن السابع الهجري XIII م، وتمكّن المرابطون من بسط أيديهم على حمى القصور وأجنة الزياتين المحيطة بها (2).

وبعد موت المستنصر، شهدت حركة الاحياء فتورا، ان لم نقل تراجعا، تواصل بصفة متقطعة في بداية القرن الثامن الهجري، وقد بلغ ذروته عند حدوث الطاعون الجارف سنة 749 هـ، حتّى أصبحت الزياتين المهملة بعد هذا التاريخ تمثل نسبة هامة من الغابة، إذ طرحت في عهد ابن عرفة مسألة غابة الزيتون ببلاد الساحل، المنبثة، أي المتفرقة، والمهملة، هل تخضع لقانون الجباية أم لا، كما وقع التعرض لكيفية احيائها واستصلاحها. ولئن كانت الحلول متضاربة وغير دقيقة في الجانب الأول، فان التشجيع على الاحياء كان واضحا وجليا، إلى درجة التساهل في إحياء العقارات التي كان أصلها مملوكا (3).

وفعلا فقد أتت سياسة الاحياء أكلَها في مطلع القرن التاسع، عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز، وأصبحت الزيتونة موردًا هاما لجباية الدولة، كما أقرّ بذلك البرزلي، إذ قال: **"وفي وقتنا هذا غلب أمير افريقية، نصره الله تعالى، الاعراب عنه وعن غيره، فجمع منه لبيت المال الوفا شتّى، ومن جملته زيتون سحنون بن سعيد بموضع يسمى بني خلاف، مررت به لمّا وليت قابس، فرأيت عجبا من حسن أشجاره، كأن صاحبه حاضر له، وكان يملك منه اثني عشر ألف زيتونة، وكان لصاحبه عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي الزاهد 17000 زيتونة"** (4).

---

(1) المصدر نفسه، ص 65.
(2) البرزلي، **جامع مسائل الاحكام**، ج I، ص 56 ب – 157.
(3) المصدر نفسه، 1، ص 140 ب، وفي الونشريسي (**المعيار**، ج 1، ص 385) سئل ابن عرفة عن زيتون السّاحل ونحوه من زيتون افريقية المستنبت.
(4) ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 91 ب.

وهكذا شهدت غابة الزيتون بالساحل انتعاشا، بعد أن تم التحكم في تحركات البدو، وبعد أن كان مـهملا لا توظف عليه الجباية الا نادرا، أضـحى يدفع جباية هامة للمخزن، وان كان بعض المزارعين يتهربون من دفعها، حتى ان ابن عرفة قال في هذا الصدد : **" لو لا أن الولاة لا يضعون الزكـاة موضعهـا، لاشرت عليهم بتقديم الامناء في المعاش، لاني تحققت أن أكـثر الناس لا يخرجون زكاة الزيتون، ولو انصفوا باخراجها لا يكاد ما يبقى فقير يسأل "** (1).

وقد ظلت هذه الغابة قائمة في مطلع القرن السادس عشر، ذكر الوزان بعض نواحيها بجهة المنستير(طبلبة) وخـاصة في ناحية سوسة، حيث يستخرج منه كمية وافرة من الزيت (2).

أما المجال الثـالث لانتاج الزيت بافريقيـة، فهو يخص المرتفعـات الجبلية والواحات وسواحل جنوب افريقية. وتصدرت هذه القائمة جزيرة جربة التي ظلت طيلة العصر الحفـصي مركزا لانتاج الزيت بكميات وافـرة لبعدها عن النزاعات البدو-حضرية التي ابتليت بها السواحل، مثل صفاقس التي انقطعت عن ظهيرها في أواخر القـرن السابع هـ/ XIII م،حتى أنها ألـتـجأت إلى التزود بالزيت من جزيرة جربة. على ان هذه الاخيرة لم يقتصر دورها على توزيع هذه البضـاعة في السوق الداخلية، إنما تـحـولت بحق الى مركز تجمـيع لها من ناحيتهـا المنتجة للزيتون، ومرفأ تصدير له نحو المدن الاوروبيـة والاسكندرية، فقد ذكر ابن عبد الباسط على سبيل المثال أن التـجّار أوسقوا منها سنة 867 هـ/ 1463م، الزيت الكثير وأنواع الاكسية (3).

ولئن أغفلت مصادرنا الحديث عن غابة الزيتـون بشبه جزيرة عكارة القريبة من جربة، فإن واحة قابس كان بها **" زيتون كثير، يستـعـمل منها زيت كثير يتجهز به الى سائر النواحي "** (4). كما أنتجت الواحات القريبة منها الزيت، فمنزل تبلبو الذي يوجد على نحو ميلين منها، كانت به غـابة زيتون متسعة، وكانت قبل هذا غابة نخل، فقطعت أيام محاصرة ابن اللـحياني لقابس في بداية القرن الثامن هـ/ 14م. وقريبا منها توجد كـتانة، وهي قرية صغيرة **"ملتفة الشجر حسنة**

---

(1) ابن ناجي، **شرح** ، ج II، ص 91 ب.

(2) الوزان، **وصف افريقيا**، جII، ص 83،85 .

(3) التجاني، **رحلة**، ص 122، ابن سعيد، **جغرافيا**، ص 145، العبدري، **رحلة**، ص 237، ابن ابن عبد الباسط، **رحلة**، ص 36، انظر ايضا :

Dufourcq, **L'Espagne Catalane et le Maghrib**.., TI, p.264.

Brunschvig, op.cit., TI, pp.93,318, TII, pp.232,265.

(4) الادريسي، **ن.م.**،ص 106.

المنظر ، كانها بستان واحد خضرة ونضرة، وعامة شجرها الزيتون، وكان غرسه بها أيام ولاية الأمير أبي زكريا على قابس سنة 624 هـ وقـد أجتمعت منها بركة ماء متسعـة تلاصق سور القصر من جهة غربية وتخـرج مذانب ومسارب تخرق الغابة، فتعم السقي " (1) ويبدو أنّ جزءا من انتاج هذه الغابات، فضلا عن غابات جبل دمر ومطماطة، كان ينقل إلى جزيرة جربة، ويصدر خارج البلاد.

وقامت مديـنة طرابلس بنفس الدور الذي قامت به جزيرة جربة، فـي تجميع انتـاج الزيت من الناحيـة المجـاورة لها ، وتصـديره في مـرحلة ثانية نحـو المدن الايطاليـة والاسكندرية. وتأتي غابة زنزور في المرتبـة الأولى، لأهميـتهـا ووفرة انتاجهـا، فهي **"غابة مـتسعة الاقطار ملتـفة الاشجار ، وبهـا مياه عذبة، وأكـثر شجـرها الزيتون، وأكـثره من الغـرس القديم على نحـو زيتون السـاحل ، وليس يعظم شجـره في موضـع من المواضـع ما يعظم في هذه القـرية، وبها مع ذلك نخل كثير ورطبه متناهي الطيب"** (2) .

وفضلا عن زيتـون المناطق الساحلية الأخرى، مثل تاجـورا، فان زيت الجبل الغربي، أي نفـوسة وغـريان، كان يصل إلى مـدينة طرابلس ويصدر بعـضه إلى المدن المجاورة والاسكندرية (3).

أمـا في مـا يخص بقـيـة المناطق المنتـجـة للزيتـون، فـقـد برزت من بينهـا بالخصـوص الجبال الواقعـة شمال قـسنطينة وغربيها، حـيث يكثر في سهـولها الداخلية التين والزيتون، الذي يزود المدن المجاورة مثل قسنطينة والقالة وجيجل، وكذلك القبـائل البدوية المجاورة (4). كما عـرفت واحات نفزاوة وخاصة قـفصة بهذا الانتاج، حيث كانت الجنات مختلطة، ذات نخل وزيتون متداخل. وكان يصنع بقفصة زيت جيد المذاق واللون، حتى أنها اشتهرت بأربعة أشياء : التمر والزيتون والقماش والفخار، وكان قسطا منه يزود مدينة القيروان (5) .

على أنّ غابات أخـرى عرفت طريقهـا الى الاندثار، وخاصّة الغـابة الموجودة بالسّباسب العليا في العهد الروماني، حول سـبيطلة وسبيبة والقصرين وتلابت. ولم يبق منهـا في القرن السـابع هـ/ XIIIم، الاّ شـواهد ضئيلة على أهميـتهـا حسبما أقرّ بذلك ابن الشباط، اذ قال متحدثا عن سبيطلة : **« وهي اليوم في عصرنا**

---

(1) التجاني، **رحلة**، ص 119،.179

(2) التجاني، **رحلة** ،ص 214.

(3) الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 106،.111

(4) المصدر نفسه، جII،ص 103.

(5) المصدر نفسه، جII، ص 145. ابن راشد ، **الفائق** ، جII، ص 137. ابن ناجي ، **معالم الايمان**، جIII، ص209 (تزويد القيروان بزيت قفصة)، ج IV، ص 203.

خالية، وأخبرني من أثق به ان باب المدينة قائم بهـا الى الكاف بحنيّة عظيمة عالية، فانّ أمام الباب نهرًا جاريًا وانّ حولها زيتونا كثيرًا باقيًا الى اليوم، وانّها لو حوّلت عمارتها لعمّرت في أقرب وقت. وأخبرني غيره أن قصر الملك باق بها الى الآن وانّه مسـقّف بالصّخور والعظام الطويلة عـوضًا عن الخشب وانّ المسلمين بنوا قـصرًا بالطوب بازائه وأنّه باق الى الآن (1).

تلك هي أهم المناطق التي انتـشرت فيهـا زراعة الزيتون بافـريقية في العـهد الحفصي، وهي في الغالب المجالات الساحليـة والجبلية والواحات التي استطاعت أن تقف، ولو كـان ذلك بصعـوبة، في وجـه الانتشـار البـدوي. ومما سـاعـد على صمـود هذه الغابة ضـرورة ايجاد توازن بدو – حـضري لتـوفير الانـتاج اللآزم للطرفين وحاجـة السوق الخارجيـة (الأوروبية والمشرقـية) للزيت. ويحق لنا في هذا المستوى التساؤل عن كيفيـة تنظيم هذه العملية خارج البلاد، ومدى حجم هذا التوزيع.

– *انتاج الزيـت وتوزيعه* : تعـود المزارعون على تكليف بعض البـدوبصيـانة محصـول الزيتون وحراستـه، وذلك منذ العهد الزيري، وقد تـصل أجرة الحراس زمن الخوف إلى نسب كبيرة. أما جنيه، فقد كان خاضعا في العهد الحفصي لوقت محدد، وتعقـد لهذا الغرض الشركة في الزيتون مع الأجـراء، الذين يتولون العمل بأجنة الزيتون جنيا وحملا وتجميعا، إلى حد نقله إلى المعصرة (2).

ولئن أقر ابن عبد السـلام بصعوبة هذا العمل، فانه اعتبـر قطفه وعصره لا يمكن أن يتـولى القيـام به العامل المسـاقي، لأنه يخرج عن بنود عـقد المسـاقاة. ويبدو أن الصـعوبات العدة التي يواجهـها القطاع في مستـوى الانتاج، من قلة توفر العمال الزراعيين وندرة المعاصـر، قد ألجأت الناس إلى مثل هذه الشـركات في الزيتون المشار اليـها ، لضمان أجـراء قارّين، كما ألجأتهم إلى جـمع حبوب الزيتون لأناس شتى، بعد معرفة قدر كل واحـد منهم، وعصرها جماعيا. غير أن هذه الممارسـة وقع ابطالها في أواخر القـرن الثامن الهجري، بعـد أن ازداد عدد المعاصر بالبلاد، وقد رأينا سابقا أن هذه الفترة شـهدت صحوة في قطاع غراسة الزيتون وانتاجه(3).

أمّا صناعـة الزيت وجودته فانهـا لم تكن موحدة ببـلاد افريقيـة، إذ اختلفت حسب معايير عدة، أهمها :

(1) ابن الشباط، **نفسه**، ج IV، ص 6ب.

(2) البرزلي، **جامع**، جI، ص 1217، ج II(4851) ، جII، ص 246 ب.

(3) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 84 ب. ابن عرفة، **المختصر**، ج II، ص 1238.

– الجودة التي تتـجلى في الصفاء والخضـرة، وقد وقعت التفـرقة بين الزيت الطيب وزيت عطش.

– القدم أو الجدة، ويختلف قدم الزيت من سنة إلى سنتين فما أكثر.

– صنف الزيتون : يختلف من الجبل إلى السهل ، ومن الجنوب إلى الشمال.

– صناعة الزيت وعـصره : وهي مخـتلفة بدورها من زيت **"ضرب ماء"**، أو زيت اليد إلى المعصري. فقد كان سائدا ببلاد الساحل انتاج زيت ضرب الماء، بينما اضحى المعـصري نادرا، بعد أن كـان موجودا في العـهد الزيري . أما في ناحـية مديـنة تونس في القرن الثـامن هـ / 14م، فقـد كان المعـصري هو الغـالب، وهو متشـابه في نوعيتـه، ولا يشترط داخله التفـرقة بين أصنافه، وهو أقل قيـمة من **"ضرب ماء"** (1).

ومما لا شك فيه أن هذا الاختلاف في التـقنيات يأتي دليلا على تقدم الصناعة المعتمدة بتـونس على نظيرتها ببلاد الساحل، ولعل عامل التصـدير قد ساعد على انشاء المعاصر وتطويرها .

أما عن مردودية الزيتـون، فهي هامة مقارنة مع العهـد الزيري : 5 أقفزة من زيتون تعطي قفيـز زيت واحد. وقد كانت نسبة من الزيتون تتلف نتـيجة السيول، أو تدفع إجارة وأتاوة وضرائب (2).

على أن الوثائق التـجـارية الأجنبيـة تمكننا من مـقـارنة أدق لمسألة الانتـاج والانتـاجيـة، ومـا يعني ذلك من مـدى انتشـار غـراسة الزيتـون بالبـلاد . ومن المؤشرات على أهمـية الانتاج أن الـزيت يباع بافريقـية كيـلا، لا وزنا، فيمـا يقوم المصريون بوزنه (3) .

غير أن أهـمية القطاع تبرز بأكـثر وضوحًا وجـلاءً في الكميات الضخـمة من الزيت المصدر إلى المدن الايطالية وغيرها حسبما يبيّنه الجدول التالي :

(1) ابن ناجي، **شرح**، جII،ص 193، ابن راشد، **الفائق**، جII، ص 246ب البرزلي، **جامع**، II، ص1128. وقد ورد في مختصر ابن عرفة (جII،ص 1252) ذكر زيت الجلجلان والفجل بافريقية.

(2) البرزلي، نفس المصدر والصحيفة، جIII، ص 6ب الشماخي. **السير**، ص 321 . راجع الفقرة الخاصة بالجباية Idris.**op.cit.**,T II,p.628-629.

(3) ابن راشد، **الفائق**، ج I، ص 226 ب.

التاريخ	مصدر البضاعة	وجهتها	قيمتها	الأطراف التجارية المعنيّة
(قبل سنة 1285)	برشلونة	تونس	= 3402 بيزا 680 دينارا	
1289/2/4 (عقد رقم 12) مارس 1289	تونس	جنوة	7305 متر زيت = 4718 بيزا 2000 جرة زيت = 20393 بيزا	شيبو وفرّاريو فراريو اسيديموري وشيبو ودي سان امبقريو وشركاؤه دي سان امبقريو
28 مارس 1289	تونس	جنوة	500 جرة زيت (استخلاص جباية 110 جرة)	
3/25 و 4/3 1289	تونس	جنوة		عدم استخلاص الضرائب الموظفة على الزيت. قيام الفقيه أبو طاهر الرقادي بمصادرة الزيت الموجود بفندق الجنويين لعدم دفعهم الضرائب (1)
1316	بلنسية	بجاية	6000 سوردي بلنسي = 333 دينار	
1315	جربة		160 جرة زيت = 300 بيزا أو 40 دينار	عملية قطع قام بها البرشلونيون في البحر (2)
بداية القرن 14 م	تونس	البندقية	4000 بطة = 28 الف هكل	
1506	مودون (رومانيا)	طرابلس	2000 متر = 1000 جرة = 1000 دوقا	باع فوسكاري إلى شيخ طرابلس.
1395	تونس	المشرق	85 جرة زيت	قام بحجزها أمير مودون 12 برميل زيتون ردًا على مهاجمة البجائيين لسفينة من البندقية (3).

(1) انظر على التوالي العقود : 12 – 38 – 40 – 56 – 94 – 97 من كتاب :
G. Pistarino, Notai Genovesi in olte mare, Atti Rogati a Tunisie. de Pietro Battifolio (1288-1289). Genova 1986.

(2) انظر : المتر : 20 – 40 لتر والجرّة 50 لتر : ولعلّ المتر : هي الغرب، وهو اقل من الجرّة :
M. Legendre, Survivances des mesures traditionnelles en Tunisie, **Cahiers de Tunisie**, 1977, N°. 90-100, pp. 69-137.

(3) البطة = 750 لتر (ن.م.، ص 187) : هي المسمّاة : بتيّة من الخشب وتسع 75 ديقة حاليا. انظر : Ch. E. Dufourcq, **l'Espagne Catalane**... T II, pp. 591, 592, 594.

2) الاشجار المثمرة :

إنّ المتأمل في قائمة الأشجار المثـمرة آنذاك يكاد يجزم انها ألمت بأغلب الغلال والفواكه المعروفـة لدينا حاليا، وان كانت تختلف انتشارا ورواجـا حسب أنواعها. فشجر التين يعتبر من أكثر الثـمار المعروفة بشتى مناطق البـلاد، بجبال الجنوب وسهول الـشمال على حد سـواء. على أن بعض الجهات اشتـهرت بانتاجهـا، مثل نقاوس، حيث ينتج أجود تين بافريقية، يحـمل البعض منها إلى قسنطينة. كما كان يحف برابطة أولاد سـهيل القـريبة من صـبراطة شـجر كثـير من التـين والرمّان والخوخ. ومـعلوم أن التين أنواع كثيـرة، ذكر منها في العـهد الحفـصي نوعان : السلطاني الأخضر والقصري (1).

وفي الجملة فان هذه الشجرة لا تحتاج إلى عناية كبيرة، وبالتالي ليست حكرا على المجتمعات الحضرية دون غـيرها، بل إنّ أهل القرى والجبال والبادية يتولون غراستـها، ويستعملون ثمارها كـغذاء مكمل، خاصة المجفـفـة منــها التي تدخر مؤونة في فصل الشتاء.

وقد كان العنب واسع الانتشار، رغم التـخوف الذي كان سائدا في الأوساط الدينية من تحـويله إلى خمر مسكر. فزيـادة على كونها تستعـمل عرائش للرياض والبسـاتين الأميـرية، فان أهل الحـضر قـد أقبلوا على زراعـته، بمختلـف أنواعه المذكورة وقـتذاك : الأبيض والأسود، الصـيفي والشتـوي، أو الباكور والمتـأخر، وكان يستخرج منه الزبيب المجفف بنوعـيه : الشمسي والدخاني. ولم يكن انتاجه منحسـرا في المناطق الشمـالية الخـصبة، إنمـا ذكر كذلك بالجنوب، بـجربة وفي ناحية مدينة طرابلس، وجبل نفوسة وغيرها (2).

ويكثر التفاح والاجاص بميلة حتى قـيل إنّ اسم المدينة مشتق من كلمة لاتينية تعني التفاح، غير أن تفاح جربة تميّز عن غيره، صفاء وجفافا وطيب مذاق وعطارة استنشـاق، كما أقر بذلك التـجاني. حتى أن النصـارى كانوا يتحفـون به ملوكهم وأمراءهم عند احـتلالهم للجزيـرة، مما دعا بأهلها إلى إزالتـه وتعويضه بغـراسة أخرى (3).

(1) الوزان، **ن.م.** ج II، ص 53. التجاني، **رحلة**، ص 212. ابن راشد، **الفائق**، ج I، ص 195. **مناقب** أبي سعيد الباجي، ص 17.

(2) التجاني، **رحلة**، ص 122، 215. ابن راشد، **الفائق**، ج I، ص 246ب، ج III، ص 321ب. ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 58 ب.

(3) الوزان، **ن.م.**، ج II، 60. ابن سعيد، **رحلة**، ص 145. التجاني، ص 122. **مناقب** ابن عروس، 458 (ذكر التفاح المسكي بتونس). ابن راشد، ن.م.، ج II، ص 37 ب.

كما ذكر الخوخ بأنواعه، منه الفرسك، وهو نوع أملس، وكان ينتج بقرطاجنة بأعداد كثيرة، وقرب مدينة صبراطة القديمة (1).

والرمّان بافريقية الحفصية أصناف : الحلو والمر والحامض . وكذلك التوت : الأبيض والأسود المسمى بالفرصاد، كما ذكر السفرجل والكمثري والمشمش والعين والقراصيا (2).

ومن القوارص، ذكر الليمون والليم والبرتقال والنارنج والاترج، وقد كان الليم يؤكل طريا ومصبّرا، عوض الادام، فيما يستعمل النارنج في الغالب للصناعات. وكان ينتج في الواحات مثل الجريد وقفصة، وخاصة في السهول التلية مثل جزيرة شريك (3).

أما الثمار الجافة، فهي بدورها متنوعة : فالى جانب اللوز والجلوز، فان الجوز كان نادارا في أواسط القرن الثامن الهجري، لكن الوزان ذكر فيما بعد أكثر من بلاد منتجة له، مثل جبال بجاية، جيجل ونقاوس وخاصة تبسة، حيث أن القادم اليها، يمرّ مسافة أربعة أو خمسة أميال يخالها واقعة في غابة من الجوز. وكان جوز جيجل وتينها يحمل إلى مدينة تونس في سفن صغيرة (4) .

وذكر العمري المصغ، وهو أقل من الجوز المقشور وأكبر من البندقة، له نوى، يجنى زمن الشتاء، لونه بين الحمرة والصفرة وطعمه بين الحموضة والقبض مثل السفرجل. أما الفستق والبندق والموز التي قال عنها أنها غير موجودة بافريقية، فان أحد القفصيين الذين ألّفوا في نفس تلك الفترة (النصف الأول من القرن الثامن الهجري) تحدث ببلده عن الفستق والقصطل وغيرها من الفواكه الجافة. كما ذكر الشرفي في رزنامته في أواسط القرن العاشر الهجري / 16م الفستق والموز. مما يجعلنا نرجح أن هذه الثمار لم تندثر من افريقية بالكامل، لكن تراجع انتاجها عما كان عليه في الفترة السابقة (5) .

وثمة عدة ثمار غابية لا تحتاج أشجارها إلى رعاية كبيرة، مثل العناب، الذي

(1) العمري، **ن.م.** ،ص 82-83 . ابن راشد، جII، ص 37ب . التجاني ، ص 153،213،212. الوزان ج II، **مناقب ابن عروس**، ص 470 .

(2) العمري، **مسالك** ، ص 82-83 . **مناقب ابن عروس**، ص 210(ذكر السفرجل) .

(3) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 142(وكان السواك يستخرج من قشور النارنج).

(4) الوزان ، **وصف** ، جII، ص 52-53-63-64-102. وكان السواك يستخرج من قشوره.

(5) العمري ، ن.م.، ص 83. ابن راشد ، **الفائق**، ج I، ص 246 . علي بن محمد الشرفي، **ذكر الشهور العجمية وفصولها وما يزرع ويحصد فيها وما يحدث ان وقع رعد في أولها أو آخرها**، مخطوط.

كان متواجدًا بكثرة ببونة حتى أنها تسمت : بلد العناب. وكان يجفف ويؤكل في الشتاء . كما وجد الزعرور أو النبق وقلوب الصنوبر (زقوقو) حيثما كثرت الغابات، التي كانت تحتل مساحات هامة في العصر الوسيط. كما نبت الخروب الجالي في عديد البلدان، وقد ذكر بصفة خاصة بجبل وسلات (1) .

– النخيل : يقتصر انتاجه على المجال الصحراوي الذي يتوفر فيه الماء ، وبالتالي فان توزيع الواحات لا يكاد يختلف عن التوزيع الحالي، فبلاد بكسرة وناحيتها تمثل القسم الغربي من هذه الواحات، وتحيط بالمدينة واحة تمتد على طول ستة أميال، وتنتج أنواع من التمور مثل الكسبا والصيحاني واللياري وهو تمر أبيض أملس ، وكانت تزود مدينتي تونس وبجاية بتمورها، وتتوسط المحور التجاري : الصحراء–التل. كما عرفت كل من وادي سوف ووادي ريغ وخاصة وارجلان بانتاج ضروب من التمور، وبمقايضتها مع منتوجات التلول وبلاد السودان (2).

أما بلاد الجريد، فيخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا، على حد قول البكري. وقد بقيت كذلك طيلة العهد الحفصي، الا أنها تضررت من حملات السلطان المتتالية عليها ، وتراجع التجارة الصحراوية وانتشار البدو بها. وكذلك كان الشأن بالنسبة إلى واحة قفصة، غير أن تمورها ظلت أجود ما وجد بافريقية، وقد ذكر ابن راشد القفصي البعض من أنواعه مثل الكسبا والصيحاني والبرقي والحمرون، مضيفا أن من خصائص تمرها لا ينضج في رؤوس النخل، ويبقى بسرا لشدة البرودة، ولذا فقد تعوّدوا على تعليقه في عراجينه بعد جنيه وكان أهلها إذا قطعوا التمر، قسموا ما تناثر منه كيلا، وما بقي في عراجينه، قسموه بالتحري واقترعوا عليه (3).

واشتهرت طرّة بنفزاوة بانتاج التمر المفضل على جميع البلاد، حسبما ذكر ذلك التجاني . فيما تميزت الواحات الساحلية مثل قابس بانتاج الرطب، الذي قال عنه الادريسي : **"لا يعدله شيئا في نهاية الطيب، وذلك أن أهل قابس يجنونها**

(1) الوزان ، **ن.م.**جII، ص 61 . ابن راشد ، **الفائق**، جI، ص 240ب.البرزلي، **جامع**، ج II، ص 19ب . يبدو ان التازغة كانت من الأغذية المتداولة ، اذ ذكرت كمية هامة منها بمدينة المهدية (10 أقفزة) معدّة للتسويق في العهد الزيري . انظر: البرزلي ، **جامع**، ج II، ص 1133– ذكر في مناقب بن عروس (ص458 : العناب بسانية قرب تونس) .

(2) راجع الفصل الخاص بهذه المدن.

(3) البكري، **المسالك**، ص 48، ابن الشباط، **صلة السمط.** الوازن، **وصف**، ج II،ص 145.ابن راشد ، **الفائق**، ج I، ص 1133،195، جIII، ص 32ب ، 137. ذكر أبو اسحاق الاشيري أن تمر قفصة لا يطيب في رؤوس النخل في الغالب ويجدونه بسرا لبرد البلد : الونشريسي، **المعيار**، ج I، ص 383.

طرية، ثم يودعونها في دنانات، فاذا كان بعد مـدة من ذلك خرجت لها عسلية تعلو وجهـها بكثير، ولا يقدر على التناول منهـا الا بعد زوال العسل عنهـا من اعلاها، وليس في جميـع البلاد المشهورة بالتـمر شيء من التمر يـشبهه ولا يحـاكيه ولا يطابقه فـي علوكتـــه وطيب مذاقه " (1).

وفي الجملة، فـقد تعـرضت هذه الواحات إلى الإتلاف والقطع في مناسـبات عديدة: فزيادة عن قطع واحة قفصة أثناء محاصرة يعقوب المنصور لها، وحملات الحفـصيين المتكررة عليهـا وعلى بلاد الجريد، فان واحـات قابس وطبلبو وكـتانة تعرضت اثناء الحصار لقطع نخيلها (2).

أمّا عن تجارة التّـمور ، فانّها كانت رائـجة في الدّاخل عبر المحاور الأسـاسية الرّابطة بين الواحات والبلاد التليّة، مرورًا بمراكز الوسط مثل القيروان وقسنطينة التي بلغ فيها سعر 10 أرطال من التّمر ما يناهز الرّبع دينار .

ومما يلاحظ أن التمور أصبحت بضـاعة تصدر خارج بلاد المغرب، في اتجاه المدن الاوروبيـة طيلة العصـر الحفـصي، وكانت توسق بالقنطـار الافريقي عـبر الموانى الكبرى مـثل طرابلـس وجربـة وقـابس وتونس في أتجـاه جنوة وبيـزا وبرشلونة وغيرها (3).

النـــوع	الصّفـة	المكـان	التاريخ	المصدر
الكســبا (الصيحاني)	في حـجم الـبيض، ذات لون صــاف وبشرة رقيقة	قفصة	القرن السادس هـ/XIIم	الاستبصار، ص 153
الخنفس	أسود كبير الحجم	حامة الجريد	القرن السادس هـ/XIIم	نفسه، ص 156
البهر	يستعمل	الجريد	القرن السادس هـ/XIIم	نفسه، ص 160
اللّيَاري	ابيض والمس	بسكرة	القرن السادس هـ/XIIم	نفسه، ص 173
الرّطب	انواع عـديدة – ينتج في الصيّف	قابس	القرن السادس هـ/XIIم	نفسه، ص 113
البرقي والحمرون		قفصة	القرن الثامن هـ/ XIVم	ابن راشـد، III، 32، 37

(1) التجاني، **ن.م**. ص 142.الادريسي ، **ن.م**. ص 106.

(2) انظر: التجاني، **رحلة**. راجع ايضا الفصل الخاص بهذه المدن.

(3) انظر : G. Pistarino, **Notai**... op, cit, acte n°:7.

Dufourcq, l'Espagne Catalane.., T II, pp.136 (2), 264, 447, 544 ,546, 594.

(سنة 1303م. وقع القطع على سفينة في ميـاه بنزرت محملة بالخشب والقطن والتمور بما قيـمته 20 الف بيزا او 4000 دينار).

3) **البقول والزراعات الصناعية:**

إنّ المتـأمل في قائمـة هذه المزروعات يعـجب من كثـرة الاصناف وتنوعـها ، ومهارة العاملين في هذا القطاع، فـي الواحات وحول المدن، مما يأتي دليلا على أن البداوة لم تفل في ســاعد المزارعين بالقدر الكبيـر، إذ ظلوا أوفياء لتقنـيات الزراعة والبستنة التي توارثوها عبر الأجيال. ويتوزع هذا الانتاج حسب القائمة التالية :

– **البقول والخضر** : يبدو أن المجتمعات الحضـرية كانت تستعمل في غذائها الخضر وشـتى الأعشاب بكثرة كـاللّفت والباذنجان والقرنبـيط والكرنب والجزر والمصلة والرجلة والخص والـهندباء والملوخيا ، رغم ندرتهـا، والبصل والكراث والثوم الخ (1).

اما البقـول ، فقد ذكر : الفـول بنوعيه : المالطي والأسود، والحـمص بأصنافه (الأبيض واليابس والأسود)، واللوبيا والجلبان والعدس والذرة والدخن والترفس والكرسنة، وهي الجلبان الصـغير الحب المسمّى بتـونس البسّيلة المستـعلمة لعلف البقر، وحـب الفجل أو البسلة المسمـاة بافريقية البـسيم، والاسقاليـة، وهي حبة مـستطيلة شـبيـهة بالـسلت والقمح تسـتعـمل خـبزا، وكـان يطلق على كل هذه المنتوجات القطنية أو القطنيات (2).

ونضيف إلى هذه القـائمة منتوجـات الصيف مثل الخـيار والقثاء والشـمام، وخـاصـة البطيخ الذي يقـسم إلـى نوعين : الاخـضـر المسـمى دلاع، وهو نادر، والاصفر الاكثر انتشارا، ومنه القابسي والمعلقي (نسبة إلى المعلقة بتونس) (3).

وكانت الـتوابل بدورها مسـتعـملة في الغذاء اليـومي وشتى الاسـتعـمالات الاخرى، وقد ذكر البسباس والكمون والكزبرة والقرنباد وهو الكرويا والانيسون وهو حبـة الحلاو، كما عـرفـت تلك المجتـمعات اسـتعـمال الفلفـل والزعـفران والكركب في الطبيخ (4).

–الزراعات الصناعية :

لم يكن هذا الصنف من الزراعات غائبا بافريقيـة، فالبعض منها كان يتخذ في الصنائع والحرف للدباغة والصباغة مـثل الزعفران والنارنج. أو للغذاء مثل قصب السكر، الذي كان يوجـد بقلة ولا يعتـصر . وذكر الكتّـان برادس وجيجل وجـبال

(1) العمري، **مسـالك**، ص 83. ابن راشد ، **الفائق** ، ج I، ص 193ب،195. لم يرد ذكر الطماطم. : **مناقب** بن عروس، ص393 .

(2) العمري، نفسه– ابن راشد، ن.م،ج I، ص 246ب . القباب، **شرح** ، ص12 . القلشاني **شرح**، ج II، ص 193 . ابن ناجي ، **شرح** ، ج II، ص 195. وقد اعتبر الارز من القطنية، وذكره القباب بتونس بينما قال العمري انه مجلوب اليه.

(3) العمري، **ن.م**. ، ص 83. ابن راشد ، **ن.م**. ،ج I، ص 195. القباب ، **ن.م**.، 142.

(4) العمري، **نفسه**. ابن عرفة ، **المختصر**، ج II، ص 247ب، القلشاني، **ن.م**.،ج II، ص 44.

بجاية، والقطن بقفصة كما عرفت البلاد العلف الاصطناعي المغذي للحيوان مثل القرط والقصيل والكرسنة التي تتخذ أحيانا للعلف (1).

4) أسس الانتاج الفلاحي :

أ- خصائص الهياكل العقارية :

عرف بلاد المغرب منذ بداية العصر الوسيط ازدواجيّة في الملكية العقارية: المشاعات الجماعية والملكية الخاصّة التي أنتشرت على حد سواء في السهول الثرية أو الجبال ذات الكثافة السكنيّة المرتفعة مثل جبال وسلات ونفوسة وأوراس (2).

وقد تميّزت الملكيّة بمجموعة من الخصائص نذكر البعض منها :

– تفكك الملكية وتجزئتها إلى أقساط صغيرة نتيجة البيوع والمعاوضات(3) أو نتيجة أقتسام الشركات الفلاحية مثل المغارسة أو أرض الميراث، وفي هذا المجال يمكن أن يصل قسط الوارث الواحد إلى نسبة ضئيلة(4) .

ونظرا الى صغر حجم الملكيّة، فليس عجبا أن تنتج الأرض نسبة ضئيلة أقلّ من الحدّ الأدنى لدفع الزكاة (5).

– سُوء توزيع هذه الملكية ومركزتها في أيدي أقلية من ولاة وفقهاء وشيوخ زوايا وتجار وأعيان القرى والقبائل وقد تكون تغييبية لا يقوم صاحبها بآستثمارها مباشرة، وإنّما يسلّمها بنفسه أو عن طريق وكيل إلى العمّال الفلاحين لخدمتها، كما يمكن أن يكتريها بمعلوم مسبق إلى صغار الفلاحين (6) .

ونظرًا إلى صعوبة استغلال الأرض ، فلا غرابة أن يهمل البعض منهم استثمارها هذه الأراضي ، ويتنازل عنها بمقابل ضئيل، مثل ذلك " **الذي أعطى**

---

(1) العمري، ص 83. ابن راشد،**ن.م.**، ج I، ص 195–240،ج II، ص 153–ب. القلشاني، **شرح** ،ج II، ص 193،195،240. قائمة الشرفي ص 1 . خلافاً لما ذكره برانشويك (**ن.م.**،ج II، ص 223) ، فان القطن لم يندثر إذ ذكر في القرنين XI و XVI بافريقية، راجع : الوزان ، **ن.م.** ، ج II، ص 82 .

(2) الحبيب الجنحاني، نظام ملكية الأرض في المغرب الاسلامي، **مجلّة المؤرّخ العربي**، 1982 عدد 23، ص 26–41.

(3) الونشريسي : ن.م.ج VIII، ص 176 . وجاء في لسان العرب (ج II، ص 300): يُقال شريك وأشراك" ومن المستبعد أن تعني كلمة أشراك في نصّ الونشريسي قطعة الارض ، أي معنى الشّراك والشرك باللّغة العاميّة .

(4) انظر : L.Valensi, **Fellahs Tunisiens**,Paris 1977,p.95.

(5) الونشريسي ، ص 143، 148 .

(6) ن.م.، ص 141.

ارضه على العشر على أن يجعل الزارع الزريعة كلها" (1). وبدون شك فان قناعة المالك بنسبة زهيدة من الانتاج ورفضه المخاطرة برأس المال من الزريعة يمكن تفسيره بعامل الاضطرابات الاجتماعية أو الجوائح الطبيعية (2) .

– طرق الاستثمار : كانت الأرض تحرث السّنة تلو الأخرى دون استعمال نظام المناوبة الزراعية بطريقة منتظمة. مما يفسر افتقارها إلى المواد الكيمياوية وضعف انتاجيتها (3).

وعلى وجه العموم فقد سيطرت الفلاحة الشّاسعة التي تجهل نظام المناوبة الزراعية، ولا تحتاج إلى استثمارات طائلة أو جهود كبيرة .

وقد أدت الظرفية السياسية والاجتماعية المضطربة في أواخر العصر الوسيط إلى تفاقم الصعوبات التي لحقت بالفلاحة، فأتلفت المزروعات وأهلكت الغروس وأهملت السدود وأزدادت نسبة الأراضي البور وبات من الصعب استثمارها من جديد، وفي حالات أخرى ، عمد الفلاّحون إلى اغتصاب الأراضي بالقوّة (4).

وفي الجملة فان طرق استثمار الأرض قد تغيرت من القرن الثالث هـ/ التاسع م إلى العهد الحفصي، وقد أزداد خلال الفترة الثانية افتقار التربة إلى المواد الكيمياوية وانجرافها نتيجة عوامل جغرافية مرتبطة بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة(5).

إنّ هذا التحول الجذري في الفترة الثانية من العصر الوسيط قد سجله ابن خلدون في الفصل الخاص بالفلاحة " **وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة، وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته** ...(6). ويكفي أن نرجع إلى كتب الجغرافيين العرب حتى نتبين هذا التطور الحاصل ابتداء من القرن الحادي عشر .

– ومن جهة أخرى فإنّ هذه الأراضي المحبسة بقيت مهملة نظرا إلى الصبغة التغييبية للإدارة الخاصة بها، ذلك أن مهمّة الناظر تتمثل في تفقدها من حين لآخر

---

(1) ن.م.، ص 160.

(2) R.Brunschvig, **Les Hafsides**,T II, pp.178-189.

(3) الونشريسي ، **نفسه** ، ص 174 . انظر أيضا: Valensi, **op.cit**,p.206

(4) البرزلي، **نوازل**، مخطوط رقم 12793، ص 1152 : " ومن اغتصب ارضا وزرعها. فالزرع لزراعه وعليه الكراء، قلت : اذا لم ينظر في ذلك حتّى فات الابان، وقيل : مالم يسبّل فهو لصاحب الأصل ، قال: ولو اغتصب اصولا، فاغتلّها، فالثّمرة لصاحب الأصل " .

(5) انظر :

J. Poncet, **les rapports entre le modes d'exploitation agricole et l'érosion des sols en Tunisie**, Tunis (édit. Saliba), pp.115-132.

(6) ابن خلدون، **المقدّمة** ، ص 494 .

وجمع انتاجها أو أخذ الكراء من الفلاحين، دون الاهتمام بها مباشرة. مما يفسّر تعدّي الفلاحين عليها، إلى درجة أنهم لا يتردّدون في رفض دفع أجرة الكراء، محاولين تدعيم مواقفهم بشهود ومعلّلين ذلك بشتى الأعذار (1).

وصفوة القول فان قسمًا كبيرا من الأراضي الزراعية بقي على هامش الدورة الاقتصادية النشيطة، متأرجحًا بين حالتي الاستغلال والاهمال، رغم حاجة الفلاحين إليه. وبناء على هذه الوضعية، لم يتوان صغار الفلاحين في البحث عن أراض جديدة لاستثمارها.

ب- ثلاثة عناصر أساسية للإنتاج : الطاقة الحيوانية والآلة والبذر :

غالبا ما تقترن ملكية الأرض بملكية بقية وسائل الانتاج، من زريعة وماشية، خاصة إذا كانت الملكية كبيرة ووقع استغلالها بطريقة مباشرة. ولئن حرص صغار الفلاحين على توفيرها كاملة أو المشاركة بجزء منها، فانهم لم يفلحوا دائما في ذلك.

– فبالنسبة إلى عنصر الزريعة، ليس من السهل على صغار الفلاحين توفير هذه المادة نظرا إلى ضعف الانتاجية التي بقيت حتى القرن التاسع عشر لا تتجاوز 5 قنطارات في الهكتار الواحد بالنسبة الى القمح في المناطق الشمالية المعروفة بكثرة أمطارها وخصوبة تربتها (2). وكان الارتباط عضويًا بين هذا العجز والكوارث الطبيعية من جفاف وجليد وجراد وانجراف للأراضي أو البشرية من حروب وعدم استقرار. ولذا حرص المشرّع على ضبط المعاملات الناجمة عن تلف المزروعات من جراء هذه الكوارث (3).

وأعتبرت هذه الوضعية عائقا أساسيا لتطوّر الانتاج الفلاحي، فالتجأ صغار المزارعين إلى عقد الشركات فيما بينهم، للافلات من قبضة كبار المالكين، ...(4).

اعتادت هذه المجتمعات، لتغطية حاجاتها من الحبوب المستهلكة، على الحصاد قبل الأوان، خاصة عند نفاذ الحبوب في فصل الربيع (5). كما حاولت حل هذا النقص عن طريق خزن الحبوب في مطامير أو غرف لمدة طويلة.

وعلاوة على القمح والشّعير، ذكرت المصادر مجموعة أخرى من الحبوب مثل

---

(1) الونشريسي، **ن.م.**، ص 170–171.
(2) انظر : Valensi, op. cit, 198.
(3) الونشريسي، 164–165.
(4) ن.م.، ص 155، 161 قال الونشريسي : " وسئل أبو صالح عن الشريكين يشتركان، فيقول أحدهما لصاحبه: اني أخاف أن تعجزك الزريعة، فيقول لصاحبه : ان عجزت على شيء فان ما تفضلت به علي، لي فيه الربع "
(5) كذا في البرزلي، ص 118.

الذرة والقطاني والدخن، ومن الخطإ اعتبار القطاني مزروعات دخلت المغرب في القرن السّابع عشر عن طريق الاندلسيين المهجّرين (1).

– ملكية الماشية : إنّ المفهوم الأول للماشية هو الآلة أو المحراث والحيوان المعد للانتاج من زوج بقر أو جملين اذا كانت الأرض صلبة، وحيوان واحد بالنسبة للتربة اللينة في المناطق الساحلية. أما المفهوم الثاني فهو يخص مساحة الفدّان التي تستطيع الطاقة الحيوانية حرثها مدة فصل كامل، وقد وقع تقييمها ما بين 8 و9 هكتارا (2).

وكثيرا ما استعملت كلمة زوج للدلالة على نفس المعنى الأول للماشية، وهو المصطلح الأساسي الوارد ذكره منذ العهد الأغلبي، وهو أمر مرتبط بطبيعة الأراضي الجبلية ونوعية المحراث الذي يبدو أنه من النوع الثقيل الذي انتشر خاصة في المغرب الاقصى والشمال الشرقي الجزائري وتونس الداخلية (3). واحتاجت ملكية الماشية إلى عناية فائقة وتوفير العلف لها من شعير وقطانية وكلأ وتبن، وقد سعى المزارعون إلى ادّخار هذه المادة في غرفة خاصة باعتباره المادة الحيوية في العمل الفلاحي. وهكذا فقد قامت شتى النزاعات حول التّبن، كأن يتعدّى المناصف في شركة حرث على تبن صاحبه (4)، أو يطالب الخماس بنصيبه من التّبن من رب الأرض، بل أنّ المزارع يفرّط أحيانا في حيوانه ويشارك مع طرف ثان (5) لقلة العلف.

وخلاصة القول فإنّ كثيرا من الفلاحين الصغار في حاجة ماسة إلى تملك الأرض والزريعة والماشية، وليس لديهم ما يقدمونه في هذه الشركات الفلاحية سوى سواعدهم للعمل.

5) زراعة الحبوب : مجال الالتقاء بين البدو والحضر :

لم تكن زراعة الحبوب التي لا تحتاج إلى عناية فائقة مثل البستنة، كافية لاستقرار البدو، الذين أصبحوا يتعاطون هذا النوع من الزراعة تدريجيا،

---

(1) حول المزروعات الأخرى، راجع الونشريسي : **ن.م.**، جVIII، ص 146، 154، 173، 176.
(2) الونشريسي، ن.م.، ص 167–168.
(3) J. Berque, **Etudes d'histoire Rurale Maghrébine**, Tanger 1938, p.16-18. Valensi, op, cit, 179-180.
(4) Valensi, op, cit, pp.184-189. Bulliet, Botr et Baranès, **Annales E.S.C.**,1980, pp.106-107.
(5) الونشريسي، ن.م.، ص 175. انظر أيضا :
A. Guillaume, **l'évolution économique de la société rurale au maroc**, Paris 1955.

لاستهلاكهم الخاص. غير أن هذا النشاط مثل نقلة نوعية في حياة البدو الرحل، وبداية مسار طويل في اتجاه استقرار البدو بالارض.

فقد سيطرت قبيلة مرداس على الظهير الخصب لعنابة الممتد على مسافة نحو 40 ميلا طولا، و25 ميلا عرضا، وهو أراض صالحة لزراعة القمح، وأصبحوا مزارعين يقبلون على انتاج الحبوب والماشية ومشتقات الحليب، مرتبطين في ذلك بمتطلّبات السوق الذي يعقد كل يوم جمعة خارج الأسوار (1).

وأتخذت قبائل أخرى أماكن تودع فيها حبوبها، فكانت هوارة تخزن بتيفاش، وأختارت قبائل بني سليم أبّة مستودعا. وتشكلت هذه المطامير الجماعية في هندسة مميزة، تختلف من مكان إلى أخر، فقد جاءت أحيانا في شكل القصور الجنوبية، أي مكونة من غرف متناضدة ومتراكبة حولها سور دائر، ذو منفذ واحد، ويبني الطمار في وسطه أو عند مدخله غرفة للمراقبة. ويعمد بعض أهل البادية إلى خزن الحبوب تحت الأرض بطريقة جماعية، حتى يعسر أحيانا التفرقة بين مطمور وأخر، ويجعلون عليه الزرب مثل السور (2).

ولنا مثال أخر على مدى الاندماج الاقتصادي للأعراب ومساهمتهم في زراعة الحبوب بتلول افريقية، فقد كان الأعراب بناحية باجة يعمدون إلى زرع جزء كبير من الأرض، لأن فدادين الحبوب كانت تفتقر إلى المزارعين (3).

الا أن أراضي خصبة أخرى أهملت بفعل البدو، فأراضي فحص أبي صالح أضحت غير مزروعة لسيطرة القبائل البدوية على مجالها، وكذلك الشأن بالنسبة إلى عين زميت. وكان سهل بنزرت مثقلا بالضرائب التي تدفع للسّلطان والاعراب، وكان الأمر كذلك في عديد الأماكن. مما يأتي دليلا على أن الاندماج البدوي بقي مقتصرا على بعض المجموعات التي فضّلت الاستقرار على حياة الترحال، والعمل في الزراعة على الرعي (4).

أما عن أماكن انتاج الحبوب، فهي تتوزع على كامل البلاد، بدرجات متفاوتة، وخاصة في الأراضي التليّة التي عرفت بخصوبتها منذ العهد القديم، ففحص باجة الذي كان مطمورة روما قديما، ظل مزودا أساسيا بالحبوب للقيروان في العصر الوسيط الأول ثم مدينة تونس في العصر الثاني. لكننّا بعيدون كل البعد في العهد الحفصي عن الانتاج الذي كانت عليه في العهد الأغلبي، إذ كان يخرج منها يوميا

(1) الوزان، **وصف**، ج II، ص 62.
(2) المصدر نفسه، ج II، ص 75.36. الغرناطي، **مسائل** ص 1218. المغيلي، **الدرر**، ج II، ص 50.
(3) المصدر نفسه، ج II، ص 66.
(4) المصدر نفسه، ص 68.

الف حملا من الحبوب. وقد شهد الوزان بذلك، وقال أن عدد الناس لا يكفي لزرع الحقول، بمعنى أن الوهن الديموغرافي، وليس الانتشار البدوي، هو العامل المحدد لهذا التراجع (1).

سهل ماطر بدوره كان منتجا للحبوب إلى حد كبير، وكذلك الأمر بالنسبة إلى سهل الاربس الذي اعتبره الوزان " زهرة أقاليم افريقيا كلها، " لخصوبة أرضه وجماله. كما ساهم سهل عنابة ووطن وشتاتة في انتاج كميات كبيرة من الحبوب، حتى بلغ العشر الذي يدفعه أو فاق 2000 قفيز قمحا، بمعنى أن الانتاج الجملي للوطن تجاوز 20.000 قفيزا في مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وكان انتاج كل هذه البلاد المذكورة سابقا يساهم في تزويد مدينة تونس بالحبوب (2).

واشتهر سهل قسنطينة في البلاد الغربية بخصوبته، حتى بلغت مردوديته ثلاثين ضعف ما يزرع فيه، وهي نسبة مرتفعة في تلك الحقبة، لا تفوقها الا النسبة التي ذكرها البكري ومن بعده التجاني بفحص سوفجين بجهة طرابلس، الذي يصيب في بعض السنين للحبة مائة حبة. وقد كان مناخ قسنطينة القاري ملائما لخزن الحبوب مدة طويلة، دون أن يفسد، ولذا كانت المنازل تحتوي على مطمورتين أو أكثر للحبوب، منقورة في الحجر (3).

أما عن أنواع القمح المنتج بإفريقية، فالظاهر أنه لا يقتصر على القمح الصلب، كما أشار الى ذلك برانشفيك، إنما كذلك اللين، بدليل أن خبز تونس كان أبيضا مخبوزا كما يجب، لا يصنع من الدقيق فقط، بل يخلط بالسميد، حسب وصف الوزان له. ومما يثبت ذلك هو الانواع العديدة من القمح التي ذكرها ابن راشد في جهة قفصة، وهي ذات اثمان متفاوتة حسب جودتها، منها القمح السبوعي (السّنبلة فيه 7 صفوف) والشقراء والصيني والأندلسي الذي يتفرع الى صنفين: السّمراء والبيضاء (4).

أما عن انتاج الشعير، فقد كان موجودا بكثرة في وسط البلاد وجنوبها، حيث يستعمل غذاء للناس، وقد ذكره الوزان في أكثر من موقع. خاصة بفحص سوسة

(1) الوزان، المصدر نفسه، ج II، ص 66.
(2) المصدر نفسه، ج II، ص 65، 68. الزركشي، **تاريخ**، ص 116.
(3) البكري، **مسالك**، ص 9. التجاني، **رحلة**، ص 259. الادريسي، **نزهة**، ص 96.
(4) الوزان، نفسه، ج II، ص 75-76. ابن راشد، **الفائق**، ج، ص 245ب، ج II، ص 145، 46 ب، 57. وقد ذكر القمح، الطيب البلدي، (ج I، ص 195)، القلشاني، **شرح**، ج II، ص 41ب (ذكر ان السميد عرف بالجودة بالنسبة القمح).
انظر أيضا: R. Brunschvig, op, cit, p.217
Zouari, **les productions agricoles de l'Ifriqya**, thèse 3écycle, p.119.

والمنستير وجزيرة جربة وجبال غريان وغيرها. وكان يصنع منه الخبز والبازين والسويق الذي خصص له سوق بمدينة تونس (1).

ويتفرع بدوره إلى أصناف عدة، إذ ذكر ابن راشد بقفصة وحدها الشعير البلدي واللآلي، نسبة إلى لالة، والجبلي وهو أقل جودة من النوعين السابقين. وفي الجملة فان سعر الشعير كان معادلاً لنصف سعر القمح، بافريقية في العهد الحفصي (2).

أمّا انتاجيّة الحبوب فقد كانت متغيرة من سنة إلى أخرى، حسب نزوات الطبيعة. إذا ما صدّقنا رواية مناقبيّة، فانّ وكيل أحمد بن عروس والساكن بجنّته: أبا محمد عبد السلام بن عمر اللواتي قد حصل في سنة على ما زرعه، أي 1،5 قفيز من القمح، ونصف قفيز من الفول. لكن السنة الموالية كانت سنة خصب: فحصل على 160 قفيزا من القمح والشعير، أي بارتفاع يصل إلى نسبة أكثر من 100 مرّة(3).

6) تربية الماشية :

مما لا يحتاج إلى استتدلال وبراهين أنّ المجتمع المغربي عامة، والافريقي على وجه الخصوص كانت تغلب عليه سمة البداوة في أواخر العصر الوسيط، وبالتالي هيمن النشاط الرعوي على غيره من الأنشطة الفلاحية، ممثلا بذلك مركز القوة والضعف في الآن نفسه : القوةلأن نتاج الماشية شكل بضاعة التسويق الاساسية، والضعف لتخصيص مساحات شاسعة وأراضي خصبة لهذا القطاع، وذلك على حساب الزراعة في الغالب، فضلا عن المضار التي تلحقها الماشية بالزروع والاشجار.

وفي كل الأحوال فان تربية الماشية بالبادية لا تقع بطريقة مستقلة عن مصالح أهل المدينة، بل تأسست على العكس من ذلك علاقة عضوية بين الطرفين، وزيادة على الاستهلاك اليومي لأهل الحضر، من لحوم وحليب ومشتقاته وجلود وصوف، فان المدينة المغربية أنذاك لعبت دور الوسيط بين المدن التجارية الاوربية والبادية، لتسويق الصوف والجلود. وبالتالي تحكمت في انتاج الماشية وتوزيعه، بكميات كبيرة.

ان هذا الوضع يفسر لنا أن البداوة ليست ظاهرة مسؤول عن انتشارها الاعراب فحسب، بقدر ما هي ظاهرة "حضرية" ساعد على قيامها السلطان والمجتمع الحضري الذي يجني فوائد جمة من دور الوسيط، في ظل عجز أهل

---

(1) الوزان، **وصف**، ج II، ص 76،84،93،106.

(2) الوزان، ن.م، ج II، ص 245ب.

(3) **مناقب** بن عروس، ص 390.

الصنائع عن تحويل الجزء الأوفر من انتاج الماشية. **وبمعنى أوضح فان حاجة الحرفيين بالمدن الايطالية الى الصوف والجلود قد ساعدت الى حد كبير على انتشار الرعي والبداوة والمحافظة على الهياكل التقليدية للمجتمع المقسم الى بدو-حضر، بكيفية تكاد تكون جامدة، دون امكانية اندماج عضوي بين الطرفين** (1).

وبالتالي فقد تحكم في التوازن الهش الذي ظهر بين البدو والحضر منذ القرن السادس هـ/XII م، عامل التجارة الخارجية، الذي كان له تأثير على الهياكل الاجتماعية الداخلية وتشكلها طيلة العهد الحفصي. وبهذا تبدو سطحية التحاليل التي تحمّل الأعراب كامل مسؤولية ما جرى بالعالم الاسلامي عامّة، وبلاد المغرب على وجه الخصوص، دون نظر في العوامل العميقة المفسرة لهذا الوضع التابع الذي تأسس ابتداء من تلك الفترة بين البلاد العربية الاسلامية والغرب المسيحي.

لم تكن هذه الماشية عرضة لتجاوزات السلطان والنهب المقنن لها المتمثل في أخذ المكوس عند البيع وشاة العادة وفائد الصوف فحسب، انما قاست كثيرا من نزوات الطبيعة، وتأثرت بالجفاف والأمراض التي تصيبها دوريا، مما جعل الرعاة في بحث دائم عن المرعى، وفي حركة انتجاع ذهابية-ايابية بين الصحراء والسباسب من جهة والمناطق التلية الخصبة من جهة ثانية. ولم تكن المجالات الشاسعة المخصصة للمرعى قادرة على حل مشكل الماشية سنين الجفاف. ولذا عرفت افريقية بصفة تكاد دورية حركة بشرية كبرى ذات منحى جنوب-شمال، أو جبل سهل أو العكس. وهي في اعتقادنا الفترات الحرجة في تاريخ بلاد المغرب، التي تضع البدو والحضر وجها لوجه، في احتكاك كثيرا ما يؤدي الى نزاع بين المستوطنين والمنتجعين الوافدين عليهم. *وإذا ما أمعنا النظر في فترات الصراع الاجتماعي بافريقية، فاننا نجدها توافق في الغالب حقبات الازمة الاقتصادية والجفاف والجوع* (2).

ومن الثابت أن رحلة البوادي زمن الشدائد وخروجها من ديارها كان أمرا قاسيا، ينتهي بها في بعض الاحيان الى الهلاك والفقدان، فقد كان البرزلي شاهد عيان لمعاناة نجوع برقة وبواديها سنة 800 هجري، وهي سنة شدة وغلاء، فكانوا ينتجعون مع قافلة الحجاج، في اتجاه الغرب، يتغذون من الاعشاب، على أمل العثور على " بلد الحياة" (3).

---

(1) كما كانت الماشية مصدرًا للجباية في الاسواق الدّاخلية، فقد كان الامين ياخذ المكس على كلّ من يشتري الخرفان في عيد الاضحى أو غيره من الفصول : راجع : **مناقب** بن عروس، ص 491.

(2) انظر الفصل المخصّص لتجارة الحاضر والبادي. الامثلة عديدة على النزاعات الدائرة بين المستوطنين القدم والمنتجعين الوافدين عليهم، انظر مثلا النزاع بين جماعة البرابر سكان الخيام الذين حلوا بقبيلة المهرين، غرب تونس، قرب وادي مجردة، وما كانوا يعانون منه من فقر. راجع **مناقب** أبي سالم التباسي.

(3) البرزلي، **جامع**، ج ا، ص 165 ب، 292ب. ابن عرفة، **المختصر**، ج، ص 1176.

ويأخذ الراعي مكانة هامة في ظل هذه المجتمعات الرعوية، اذ مثل عنصرا أساسيا في الانتاج، شأنه في ذلك شأن الخماس بالنسبة للزراعة. ويبدو أنه لم يكن متوفرا دائما، حتى أن بعض أهل البادية كانوا يفضلون حلّ مسألة رعي مواشيهم. عن طريق ما يسمى بالنوبة، وهو أن تجمّع بقر عدة عائلات ، على أن يقع رعيها بالتداول بينهم (1) .

وفي حالات أخرى فضل مربو الماشية التفريط في نصفها بيعا، على أن يتولى المنتفع رعي الماشية مدة معلومة، والحفاظ عليها. واثناء هذه الاجارة بالنصف، تولّى المالك مده بالطعام واللباس، وعقد بينهما العقد التالي : وقد أوردناه كاملا لما له من أهمية في تحديد العلاقة بين الطرفين، والقاء الأضواء على القطاع الرعوي آنذاك :

" باع فلان من فلان نصف جميع الغنم التي له، بقرية كذا ومبلغ عددها بين كبارها وصغارها، ذكرانها واناثها وكذا رأسا من الضان كذا، وسائرها من المعز، بكذا وكذا دينارا سكة كذا منجمة على المبتاع كذا وكذا عاما، أولها كذا، يدفع اليه المبتاع بينهما عقب كل عام كذا . وقبض فلان الغنم، وصارت بيده بعد أن وقف على اسنانها وقلّبها على أن التزم رعاية حظ البائع المذكور منها وحفظها والقيام بمؤونتها ليلا ونهارا المدة المذكورة، وعليه في ذلك تقوى الله، واداء الامانة في سره وجهره بابلغ طاقته، وأقصى مجهوده، وطلب المسارح الخصيبة في جميع فصول الأعوام المذكورة، ويدفع اليه البائع المذكور على رعاية حظه المذكور في كل عام من الأعوام المذكورة كذا دنانير وكذا من الطعام على صفة : نصفه من قمح أشقر نقي ونصفه من شعير فاخر أبيض، وذلك من أجود الطعام وأطيبه بكيل كذا، وسلهامة وجبة من الصوف الوسط البيوتي، على أن يأتي البائع خلف ما نقصه من نصيبه المدة المذكورة بائعا جائزا وإجارة مقبولة لم يتصل بذلك شيء من المفسدات. عرفا معا قدر ذلك كله ومبلغه ومنتهى خطره وما أفاء الله عليهما من الغنم المذكور، من نسل وصوف، فهو بينهما على التجزئة المذكورة. وانه يدفع المبتاع لشريكه كل عام من الأعوام المذكورة كبشا لاضحيته في عيد الاضحى، كل ذلك من سمان الغنم، ولا يحاسبه بشيء من حظه طوعا، عرف قدره، فالتزمه " (2) .

ولم تكن العشابة كفيلة وحدها بحل مشكل المرعى، ولذا فقد لجأ بعض أهل افريقية، خلافا لما يتوقعه كثير من الدارسين، إلى زراعة العلف الاصطناعي المغذي للحيوان، مثل القرط والقصيل والكرسنة، وخاصة في المناطق شبه الصحراوية مثل واحة قفصة. وهو أمر يدل على مدى تقدم تربية الماشية، ومحاولة حل مشكلة المرعى (3).

---

(1) الغرناطي، **مسائل** ص 220ب– 221 ب .

(2) ابن راشد، **الفائق**، ج IV ، ص 1ب– 13 .

(3) ابن راشد ، **الفائق**، ج ا ، ص 195 ، 240 ب .

كما اكتسب الرعاة خبرة عملية في مداواة الماشية، وصيانتها من مختلف الامراض والأوبئة، حتى قيل إنّ **" الاعراب يعرفون ذلك** (أي أغنامهم) **كما يعرفون كناية الناس "** . ولئن كنا نهجل هل أن العصر الحفصي عرف بياطرة كما هو الشأن في العهد الأغلبي، فان عدة مسائل في البيطرة قد ذكرت، منها بعض أمراض الغنم والخيل وكيفيّة تسمين البقر للحرث والعمل(1).

وقد أقبل بعض المزارعين على تربية النحل، مثلما هو الشأن بجبل زغوان ووسلات وغيرها. كما أن تربية دودة الحرير لم تكن مجهولة بافريقية وقتذاك، حسبما جاء في قائمة الشرفي، ففي شهر مارس تتوالد دودة الحرير (2).

وكانت الابل تأخذ مكانة هامة في قائمة المواشي الافريقية، إذ تستعمل لنقل البضائع فضلا عن أستعمال القبائل البدوية لها للانتاج والترحال، والغذاء من لحمها ولبنها، ولا يستبعد أن القبائل المستقرة حديثا كانت تتخذها للحرث، عوضا عن زوج البقر. وفي الجملة فان وجود هذه الدابة قد عم في تلك الفترة كافة بلاد المغرب ولم يعد مقتصرا على الصحراء، فقد أناخت في البوادي وأمام أبواب المدن وحتى في أزقتها، كما تبين ذلك الرسوم القديمة والمصادر التاريخية .

وإذا كان الحمير استعمل لنقل البضائع وركوب الفئات الشعبية والوسطى، فان ركوب الخيل وتربيتها اختص به في الدرجة الأولى القبائل البدوية، وفرسانها الممثّلين لقسم هامّ من الجيش إلى جانب العلوج، الذين كانوا يرافقون السلطان، ممتطين الخيول (3).

---

(1) الغرناطي، ص 1213، 1216–ب . البرزلي، **جامع** ، ج ا ، ص 1151 . من الامراض التي تصيب الخيل، أمراض البطن والقصبة، العذر الذي يعتقد أن سببه هو شم الرائحة الكريهة وعلف الشعير مغبرا وشرب الماء الخويض وأكل الكلا الذابل زمن الربيع. ويبقى سبع سنوات، إلى أن يصل إلى موت الفرس، وقد ألف القاضي ابن القاسم تأليفا حول المرض سماه : " تنبيه القضاة في عيوب الخيل والأمراض ".
وذكرت عدة عيوب في الدواب منها: منع الركوب عليها وعدم السمن والجرب وقعوده على ذنبه وكثرة النهامة عند وقت العلف وقطع الجلال من فوقه ومص الماء في الشرب وهيبته من الاشجار في الطريق والاحجار والانهار والحفر الخ.

(2) الوزان، **ن.م.**، ج II، ص 104، الشرفي، نفس المصدر (شهر مارس من الرزنامة).

(3) حول أهمية الابل والخيول، راجع الفصل الاول الخاص بالقبائل البدوية. وحول ركوب النصارى الخيول، انظر: الابي، **الاكمال**، ج IV، ص 355 . اما عن انتاج الماشية، فقد كان جزء منه مخصصا للتصدير، مثل الزبد والصوف والجلود . فقبيلة مرداس مثلا القاطنة حول عنابة كانت تملك البقر والغنم، وتقوم ببيع كميات كبيرة من الزبد الى السفن القادمة من جنوة وجربة وتونس. كما اشتهرت افريقية بوفرة لحم الضان بها ورخصه، مقارنة مع مصر، وخاصة في زمن الربيع .

الفصل الثاني: الانتاج الحرفي والتبادل التجاري بين المجالين : المدينة سوق للبادية :

I- تنظيم العمل الحرفي داخل المجال الحضري :

1) التنظيم الطوبوغرافي للاسواق :

لئن تعرضت المصنفات التاريخية الى بعض المهن، ومدى علاقتها بالمجال (الزقاق والسوق والرحبة أو الدكان والباب الخ) ، فإن طبيعة هذه المادة لا تمكننا من رسم دقيق للجغرافيا الاقتصادية لمدينة تونس، لصعوبة تحديد المواقع المتغيرة، ونسبية تموضع المهن في أسواق خاصة بها، لأن الأسواق ليست كاملة الترتيب كما أشار إلى ذلك ابن عبدون. على أن المحتسب كان يسعى باستمرار إلى ترتيب الصناع، وجعل كل صنف مع صنفه، حسب مقتضيات المهنة، لتسهيل مهمة الادارة في المراقبة والجباية .

وقد وردت في هذا الصدد اشارات متفرقة عن تنظيم الأسواق وتشكلها المورفولوجي داخل المدينة، فسوق الحواتين بباب البحر يضم نحو ثلاثمائة عامل، أما دكاكين العطارة بمدينة تونس فقد بلغ عددها سبعمائة في النصف الأول من القرن الثامن هـ، فيما بلغ عدد الطواحين وقتذاك : 120 طاحونة . وقد ذكر سوق البلاغين في القرن السابع هـ جوفي جامع الزيتونة، أي في المكان الحالي له ، ويوجد شماله سوق العزافين، ومازال المكان يحمل تسمية زقاق العزافين، وكذلك الشأن بالنسبة إلى سوق المركاض بالربض الغربي للمدينة ، وأسواق أخرى عديدة مثل سوق الكتبيين والقماش والصبّاغين والسرّاجين والحلفاوين والتبّانين والدبّاغين والغزل والجبّة والقشّاشين والقلاّلين الخ (1).

ولئن بقي تنظيم المجال الحضري حيًا في بعض جوانبه إلى حد عصرنا الحالي، فان أهمية كل سوق وعدد الدكاكين به أمر لا يكاد يظهر في وثائقنا الوسيطة، باستثناء المثالين السابقين (الحواتين والعطارة)، وهو أمر مختلف عمّا آل اليه الوضع بمدينة تونس في أواخر القرن السابع عشر (2). وعلى كل حال فإن أهمية الجباية التي تؤخذ على كل سوق أو فندق في أواخر القرن الثامن

(1) ابن عبدون ، **الحسبة**، ص 233. الدولاتلي، **مدينة تونس في العهد الحفصي** (بالفرنسية) ص 84–88، 296–298.

(2) حول اسواق مدينة تونس في نهاية القرن 17م، راجع مقال عبد الحميد هنيه، وثيقة حول مدينة تونس في نهاية القرن 17م، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 39–40، ص 567–577 .

هـ/XIVم تقوم شاهدا على مكانة كل صناعة : فعلى رأسها يأتي سوق العطارين (5000دينار) وسوق الرهادنة (3000دينار) ، وفي أسفل السلم نجد سوق الصفارين (100د.) والقشاشين(100د.)، وذلك اذا استثنينا من هذه الرتبية الرحبات التي تعرض فيها المنتوجات الفلاحية (رحبة الطعام) والماشية (رحبة الماشية) والفنادق التي تخصص لبعض البضائع مثل فندق الخضرة وفندق الزيت وفندق الادام وفندق الفحم الخ...وتبرز في هذه القائمة التي ذكرها لنا عبد الله الترجمان ونقلتها مصادر أخرى (الزركشي خاصّة) أهمية صناعة النسيج والصناعات المرتبطة به مثل الغزل والقشاشين والصباغة وصناعة الحرير وغيرها (1) .

2) أصول الحرفيين وأصنافهم :

إنّ تعدد الحرف والمهن بالمدينة العربية عامة والافريقية خاصة يأتي دليلا على الدرجة المتطورة لتقسيم العمل ، ولقد قام عديد الباحثين باحصاء هذه المهن، وهي تفوق في الجُملة الثلاثمائة ، منها ثلثان مخصصان للاعمال اليدوية ، على أن العدد الحقيقي يتجاوز هذا المعدل ، إذ أنّ مهنا كثيرة أهملت ذكرها المصادر المكتوبة، لغياب العقود والوثائق الكتابية الخاصة بها.

ويزداد هذا التقسيم المهني تعقدا بوجود تقسيم " إثني" للحرف مواز له في بعض الحالات ، فالمدينة العربية متعددة الأجناس، لم تحدّ من نشاط الاقليات من أهل الذمة، بل انهم اُحترفوا أغلب المهن، اذ أحصى أحد الباحثين 250 مهنة احترفها اليهود، مع تخصصهم في بعضها مثل صناعة الحرير التي سيطروا على مختلف مراحلها بمنطقة المتوسط، بدءا بدودة الخز واقتناء المواد الأوّلية، ووصولا الى الصباغة وبيع الحرير وتوزيعه، كما كانت لهم مشاركة في صناعة المعادن وضرب النقود وتحضير الأعشاب الطبية والصيدلية، لأن السلطة التجأت إلى الأقليات في ضرب النقود تحاشيا للغش، لغياب السند الاجتماعي لها (2) .

وعموما فان المدينة العربية لم تكن انتقائية ، فهي متفتحة على بقية الشعوب، متعددة الاجناس، ولم تكن تضع قيودا على انتقال« تكنلوجيا» العصر ولاحصارا

(3) عبد الله الترجمان ، **تحفة الاريب**، تونس 1983، ص 18–21. الزركشي، **تاريخ** ، ص 116– 117.

(4) انظر : Goitein, Artisans en méditerranée au Hant moyen-âge In **Annales E.S.C.**, Aout-Juillet 1964 .

انظر الماثورات الشعبية حول الحرف والصنائع في : الطاهر الخميري ، **الامثال العامية التونسية** ، تونس 1981 .

على التقنيات وتنقل البضائع والمسافرين، باستثناء بعض المواد مثل السلاح والخشب (1).

وفي المقابل فان تأثير الجاليات الأوروبية المستقرة بحواضر المغرب في العصر الوسيط المتأخر كان متعدد الجوانب، في ميدان المهارة الفنية ولاشك، لكن أيضا في المسكن والغذاء والهندام.

وانّنا لنجد في كتب الحسبة تفاصيل عن هذه الحرف ومختلف أنواعها، مرتّبة في أسواق منتظمة وفق مرجعيات اقتصادية- اجتماعية وثقافية- ذهنية، من النفيس الى الخسيس، ولهذا فان خريطة الأسواق الطوبوغرافية لا تختلف كثيرا من مدينة عربية إلى أخرى، من تونس إلى غرناطة إلى دمشق مثلا.

ولئن لم يتمكن الحرفيون من تشكيل طبقة اجتماعية متجانسة، لاختلاف المواد الأوّلية ووسائل الانتاج من صناعة إلى أخرى، فان الصناعة الواحدة بلغت درجة قصوى في تقسيم العمل، فانقسمت إلى حرف صغرى متعددة: فقد اقتضت صناعة الصوف مهن الخلاص واللباد (صنع كباب الغزل) والنّساج (أو الحائكي) والصباغ، وتنقسم الصباغة نفسها إلى تفرعات جزئية، حسب نوع القماش ومواد الصباغة. ويوجد إلى جانب الخياطين، الحشاؤون (حشو القطن) والفراؤون وغيرهم. أما صناعة الجلد، فانها بدورها تتفرع إلى أقسام عدة، فمنها صناعة الاحذية بأنواعها (ويطلق على المشتغلين فيها الحذاؤون والاسكافيون..)، ومنها صناعة الطنافس والقرب (وأصحابها القرّابون).. أما المشتغلون بالخشب، فانهم بدورهم كثيرون: الحطابون والنجارون وصانعو القفل والخزائن والخراطون والخشابون والنقاشون الخ...(2).

3) العمل الحرفي وعلاقات الانتاج:

لم يشكل الحرفيون «طبقة» عمّالية متجانسة لاختلاف المصالح من حرفة إلى أخرى ولم يوجد وعي عمالي مشترك، بين كل الحرف، وحتى داخل كل واحدة، لأن المصالح لم تكن متطابقة بين صاحب الرأسمال، وهو عادة المعلم، والصانع الاجير. وبالتالي فان الخط الفاصل لا يوجد بين الحرفيين من جهة، وأرباب الرّساميل التجارية والمالية من جهة أخرى، انما يخترق الحرفيين أنفسهم، فيفصل بين من يمتلك وسائل الانتاج من شيوخ ومعلمين وبين من يقدم ساعديه

(1) قويتين، الاحالة نفسها .ذكر ان كتان مدينة سوسة بيع بمصر، ووقع تقليده على ما يبدو بروسيا، التي صنع بها في أواخر القرن XIم قماش سوسي روسي

(2) سنخصص دراسة مستقلة لهذه المهن والحرف.

للعمل. ومعلوم أن المعلم لا يستنكف من العمل اليدوي، بل على العكس من ذلك فان حذقه لصناعته يجعل منه قدوة لصناعه، الذين يبقون في علاقة حميمة معه اثناء تعلمهم للحرفة. من هنا نفهم الرتبية الموجودة داخل الحرفيين: ففضلا عن وجود عمال غير مختصّين، مجرد معينين أثناء تأدية بعض الوظائف مثل البناء والنجارة، ويطلق عليهم أحيانا تسمية رقاص أو مناول، فان الصبي أو الغلام هو المبتدئ في تعلم المهنة، ولا يصبح صانعا أو أجيرا الا إذا حذق الصناعة نسبيا، أما رتبة المعلم فهي المرحلة الثالثة، وتقتضي الالمام بأسرار المهنة، وهو أمر يخول المعلّم أن يمتلك مصنعا إذا ما كانت بحوزته وسائل الانتاج (1).

أ) **الصانع**: يعتبر الصانع أساس الانتاج الحرفي، ولذا فقد خصصت له كتب الفقه فصولا مطولة تعريفا به وتحديدا لمهامه. فالصانع عند ابن عرفة هو المنتصب لبيع صنعته لمحله، بمعنى من أقام نفسه لعمل الصنعة التي أستعمل فيها، سواء أكان ذلك بالسوق أم بالدار، بخلاف غير المنتصب الذي لم يقم نفسه لها ولا منها معاشه.

وبالتالي فان العنصر الاساسي المميز للصانع هو تخصصه في مهنة ما، والعمل فيها، دون اعتبار لمكان العمل، وهو يتوسّط هرم المنتجين، بين المعلم المالك لوسائل الانتاج والأجير الوقتي، الذي يبدو أقلّ مكانة منه (2).

وقد طرحت مسألة تضمين الصناع، واختلف في أمرها الفقهاء، فلئن وقع ائتمان الاجراء الذين حصل التعاقد معهم لصناعة شيء وإصلاحه، وعدم تضمينهم من الناحية النظرية، فان العلماء أخرجوا الصناع من حكم الاجراء، وميّزوهم عنهم، وضمّنوهم حتى لا يسارع الصناع في الاجتراء على أكل أموال الناس، ولا يباشر المهنة متطفل لا يحسنها.

وشمل التضمين عديد المهن، فالقصار يضمن الثوب اذا أفسده، والصباغ اذا أخطأ، فصبغ غير ما أمر به، وكذلك الخياط اذا أضاع الثوب أو أفسده، كما ضمن الطحان اذا نقصت الحبوب، والفران اذا أضاع ضرف القمح، أو طبق الخبز، واللؤلؤي اذا كسر اللؤلؤة عند ثقبها، والحمّامي اذا أضاع الثياب، وحتى الناسخ فإنّه لم يسلم من ذلك، اذا اضاع الكتاب. وفي الجملة، فقد ذكر القلشاني نحو

(1) انظر: Goitein, the working people of the medit. area In **Islamic history**, Leiden 1968. وقد ورد ذكر الرقاص في الغبريني، **عنوان الدراية**، ص271. وابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 153.

(2) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 179، ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 4ب، 29 ب. البرزلي، **جامع**، ج II، ص 1143. وجاء في ابن راشد (**الفائق**، ج IV، ص 25 ب): " اذا أصاب المصنوع حرق أو كسر أو قطع وكان ربه قاعدا مع الصانع وعمله في حانوته، فان الصانع يضمن كما تقدم، الا فيما تقرر من الاعمال مثل ثقب اللؤلؤ ونقش الفصوص وتقديم السيوف واحتراق الخبز عند الفران أو الثوب في قدر الصباغ، فلا ضمان عليهم.

ست عشرة حالة، كان فيها النصيب الأوفر لقطاع النسيج : ثمان مسائل، تتوزع حسب الكيفية التالية : أربع للخياطة، وثلاث للصباغة، واثنان للكمادة وواحدة للقصارة.

وهكذا تبدو ثقل مسؤولية الصانع، إذْ كان الرأي السائد في كتب الاحكام هو تضمين الصناع، لانه أصلح للعامة ، يحميهم من المتطفلين، والمتلهفين على الربح.

على أن هذا الحكم الذي يضمن جودة البضاعة، ولو كان ذلك على حساب تطور الحرفة، شهد تطورا محتشما في أواخر العصر الوسيط، ذلك أن بعض الصناع جاهروا برفضهم لهذه الوضعية، وأصبحوا يشترطون في بداية عملهم عدم تضمينهم، كما بدأ بعض العلماء يسايرونهم في هذا المنحى، فالقلشاني مثلا ذكر أن الاصل في الصناع هو عدم الضمان، لانهم أجراء مؤتمنون (1) .

ويحق لنا أن *نتساءل في هذا المستوى عن مدى ارتباط هذا الموقف بتطور الوعي الاجتماعي، لدى العمّال الحرفيين، ومطالبتهم بالتحرر من هذا القيد ، سيما أن صاحب المصنع في حل من التضمين، الذي يخضع له الصناع* .

– الأجير : يعتبر أقل منزلة من الصّانع لأن عمله محدّد لمدّة معيّنة من الزّمن. وقد شملت الاجارة في تلك الحقبة التي شهدت تطوّر الاقتصاد السّلعي عديد القطاعات، منها : نسيج الغزل بنصف المبلغ المتحصّل عليه والخياطة والقصارة والبناء وحراسة الأسواق ليلاً وتعليم عبد صنعة وطحن الحبوب وصناعة الجلود إلخ(2).

ولئن غلب على الاجارة الفلاحية (جني الزيتون ولقطه وصنع الفحم وحراسة الاجنة ورعي الغنم) العين، فانّ الاجارة ذات الصبغة الحرفيّة أو التجاريّة قد أخذت أحيانا طابعا نقديًا، وأزدادت ارتفاعا في فترات انعدام الامن وقلّة العثور على الاجراء، من جرّاء الوهن السكاني.

وبديهي القول أنّ البادية مثّلت المموّل الاساسي للاجراء والعمل داخل المجال الحضري، وقد عانوا من شظف العيش وقسوة المعاملة أحيانا.

وبالتالي ، فقد كانت ظاهرة الانقطاع عن العمل أمرا شائعا لدى الأجراء، باعتباره متنفّس وحيد لديهم. وهو أحد العوامل المؤدّية الى فسخ عقد الاجارة،

---

(1) القلشاني ، نفس المصدر والصحيفة . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج III ، ص 33ب ، ج IV ، ص 29 ب . البرزلي، **جامع**، ج III،ص 1143. ابن راشد، **الفائق**،ج IV ، ص 25ب(قال في هذا الصّدد: إذا أصاب المصنوع حرق أو كسر أو قطع وكان ربّه قاعدا مع الصّانع وعمله في حانوته، فانّ الصّانع يضمن كما تقدّم الاّ فيما تقرّر من الاعمال مثل ثقب اللؤلؤ ونقش الفصوص وتقويم السّيوف واحتراق الخبز عند الفرّان أو الثوب في قدر الصبّاغ فلا ضمان عليهم.

(2) البرزلي ، **ن.م.**، ج ا ، ص 163 ب.
(دأب أهل الاسواق بمدينتي تونس والقيروان على تأجير العسّاسين الذين أتخذوا الكلاب للعسس).

فضلا عن العوامل الأخرى مثل المرض والسّرقة وعدم تقديم عمل كاف والموانع الطبيعيّة مثل كثرة المطر والبشريّة كالخوف .

وحصيلة القول، تميّزت هذه الشريحة الاجتماعيّة بعدم الاستقرار والتذبذب، رغم ازدياد أهميتها في ظلّ تطوّر الاقتصاد السّلعي بافريقيّة (1).

ب) الشركات الحرفية : تنتظم العلاقة بين صاحب الرأسمال والاجير الصانع في اطار الشركات الحرفية التي تنعقد بين شخصين أو أكثر ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الشركات التجارية. وقد فرقت كتب الاحكام بين ثلاثة أنواع :

– *الشركة بالأموال* : يشترط فيها أولا خلطة الرأسمال، وعادة ما يتساوى الشّريكان في ذلك ، ويكون العمل بينهما بقدر ما شرطا من الربح لكل واحد . فقد يشتركان مثلا في صناعة عمل، دون الحاجة إلى رأسمال، على أن يتعهّد أحدهما بثلث العمل ويكون له ثلث الكسب، وعليه ثلث الصناع، وعلى صاحبه الثلثان(2).

– *شركة الأبدان* : هي الاشتراك في إنجاز عمل ما، على أن يكون عملا واحدا أو متقاربا في موضع واحد، وتنقسم بدورها إلى ثلاثة أنواع :

* شركة تخص العمل فقط، بغير آلة أو رأسمال .

* شركة بآلة ليست ذات أهمية، مثل الخياطة والبناء وحمل البضائع، ومن شروطها التقارب في القدر والمعرفة بالعمل، الذي يجب أن يكون عملا واحدا. وكان يطلق عليها شركة أعمال، كأنْ يشترك حائكان بأموالهما، فيتولّى أحدهما العمل، والآخر الخدمة والشراء والبيع (3) .

* شركة تحتاج إلى آلة، مثل آلة النسج والكمد والحمل على الدواب، ويجب أن يكون الاشتراك فيها بالملك أو بالاجارة .وقد تكون على الثلث أو الثلثين أو الربع أو غيره .

وتعقد شركة الأبدان بالصورة التالية : **" اشترك فلان وفلان الخياطان أو الخرّازان أو النجّاران أو الحدادان أو القصاران ليحملا صناعتهما على السواء في حانوت واحد ، ببلد كذا . وأشتركا تعاونا فيه وتعاقداه بينهما صحيحا دون شرط.. وما أصابت صناعتهما هذه من رأسمال في الآلات والمواعن وغير ذلك ، فهو بينهما ، انصافا على السواء ، وكذلك ما أفاء الله عليهما فيما اقتسماه "** .

---

(1) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV ، ص 135، 1211، القلشاني، **شرح**، ج II ، ص 176–ب، 215ب– الأبي، **الاكمال**، ج II ، ص 60 .

(2) كان يطلق على هؤلاء الأجراء في العهد الاغلبي تسمية غلمان، وكانوا في الغالب من العجم الموالي ومن الرقيق، حسبما تدل على ذلك اسماؤهم (مثال : سعيد حسن حال ، وكان يطلق عليهم اسم فلان غلام فلان . انظر : **طبقات** ابي العرب ، ص 121– 122 .

(3) ابن عرفة ، **المختصر**، ج IV، ص135، 1211، القلشاني، **شرح**، ج II ، ص 146.

- شركة *الذمم* : عرفت بكونها الشركة في شراء شيء بعينه، فقد يشترك الطرفان في شراء وسيلة انتاج أو تاجر أجير بطريقة مشتركة ، أو يتعاونان على إنجاز عمل جماعيا ، انطلاقا من مبدإ : " **تحمل عني وأتحمّل عنك** " . وبالتالي فإن هذا الصّنف من الشركات لا يخص الا الشركات الصغرى في الزراعة أو الحرف (1).

وإلى جانب الشركات التي تعقد بين طرفين متساويين في الرأسمال والعمل ووسائل الانتاج، وبالتالي في الربح والخسارة، توجد أخرى بين أطراف غير متكافئة: بين حرفي يعوزه المال، وآخر يمتلك الآلة والرأسمال. وفي كلتا الحالتين فان العقود المبرمة بينهما لا يعترض تحريرها أي مانع قانوني، ويمكن صياغتها بكل حرية، وهي لا تقتصر في الغالب على صناعة البضاعة، انما تنصّ أيضا على تسويقها، إذا ما تمت بين صغار الحرفيين. أمّا كبارهم فانهم لا يمارسون العمل اليدوي مباشرة، وعادة ما يوكلون مهمة التوزيع إلى الوكلاء(2) .

وتشمل هذه الشركات أغلب المهن، وتختلف مدة عملها من ستة أشهر إلى فترة غير محددة، لكن الغالب عليها انها لا تتجاوز السنة، (بين فصل الربيع والشتاء) بالنسبة الى الشركات التجارية، أما الحرفية فانها عادة ما تتواصل على مدى سنوات عدة لتحقيق فائض قادر على تغطية مصاريف الانتاج، ويمكن نعتها بالشركات الهامّة اذا ما ضمت أكثر من خمسة عمّال .

وفي الجملة فان عقود الشركات هذه تدل على سيطرة الانتاج البضاعي الصغير بافريقية في الفترة الاخيرة من العصر الوسيط .

4) التنظيم الحرفي بافريقية :

يفسر تعدد الصنائع وتنوعها داخل المدينة العربية المحاولات التصنيفية لها التي قام بها القدماء انطلاقا من معايير مختلفة: فإخوان الصفاء قسموها الى صنائع روحانية وأخرى جسمانية ، اما الغزالي فقد صنفها حسب اهميتها الى ضرورية وكمالية، وحسب قيمتها الى نفيسة وخسيسة، واعتبرت هذه الثنائية : الضروري والكمالي مرجعية أساسية في الترتيب الخلدوني للحرف (3) .

ولئن اتفقت المصادر على أهمية الاسواق في المدينة العربية وتموضعها في المجال الحيوي لها وفق نظام ورتبية معينة ، فان اشكالية الرابطات الحرفية بقيت مطروحة.فالتنظيم الحرفي هو مؤسسة حضرية تنم عن مدى الفصل بين المدينة

---

(1) القلقشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 215ب . الابي ، **الاكمال**، ج II ، ص 60 .

(2) القلقشاني ، شرح ، جII ، ص 81 ب . ابن راشد، **الفائق** ، ج III ، ص 1245– 1160. الرصاع، **كتاب حدود ابن عرفة** ، ص 322–325 .

(3) انظر : صباح الشيخلي، **الاصناف في العصر العباسي** ، بغداد 976، الفصل الأول .

والريف في تقسيم العمل، واقترن ظهوره بالدفاع عن مصالح الحرفيين وحمايتهم من شتى التجاوزات. ولم تكن الحسبة في هذا المضمار تهتم بشؤونهم وتسهر على تنظيمهم الداخلي، انما هي مؤسسة حكومية تشرف على الانتاج وتراقب وسائله وقواه وعلاقاته.

كما ان وظيفة الامين وأمين الامناء التي تتحدث عنها المصادر الحفصية تتمثل اساسا في مراقبة جودة البضاعة دون أن تكون مدافعة بالضرورة عن مصالح الحرفيين أو السلطة (1) .ونتساءل في هذا الصّدد هل عرف الحرفيون بالمدينة العربية عامة والافريقية خاصة تنظيما مستقلا عن السلطة السياسية، وهل كانت لهم سياسة معينة ومساهمة في الحركات الاجتماعية .

تناول كثير من الدارسين هذا الموضوع، دون حسم نهائي له ، فالمستشرق «ماسنيون» أكّد وجود الاصناف بالمشرق منذ القرن الثالث هـ / التاسع م، معتبرا أن القرامطة قاموا بانشائها لاستخدامها أداة دعاية ضد الخلافة العباسية (2) . وقد عثر « قويتين» في وثائق الجنيزة على عدة مصطلحات مرتبطة بتنظيم الاسواق مثل رحبة العطارين وزقاق الصوف الخ.. كما أن الرتبية داخل الحرفيين واضحة اذ يقع التدرج من الرقاص الى الصبي أو الغلام فالاجير أو الصانع وأخيرا المعلم، على أنه نفى وجود التنظيم الحرفي ببلدان البحر المتوسط خلال القرنين XIم – XIIم بدليل أن الشركات الصناعية كانت تقوم دون وجود معارضة الأصناف ، ويعتبر أنّ ظهورها أصبح جليّا خلال القرن XIVم، بعد أن تأثرت بطقوس المتصوفة وممارساتهم. وفي كل الاحوال فانه يرى أن الحرفيين لا يشكلون طبقة عاملة متجانسة متعارضة مع الرأسمال التجاري والمالي ، اذ الخط الفاصل يوجد بين المشائخ وكبار المعلمين الذين يملكون وسائل الانتاج والرأسمال ويتولون تسويق البضائع، وبقية الصنّاع (3).

---

(1) حول الامين، انظر : مادتي أمين وعريف **بدائرة المعارف الاسلامية** (بالفرنسية). وقد طرح في المقال الثاني السؤال التالي : ماهي مدى تمثيلية العريف (أو الامين) للرابطات المهنية المستقلة، باعتباره واسطة بينها وبين الادارة ، وهل هو بالاحرى مجرد عون يتولى مراقبة الحرفة وفق أوامر صادرة من فوق ، أي أنه معين للمحتسب يحظى بثقة أصحاب المهنة؟ ان الاجابة عن هذه الاشكالية مرتبطة بتغير المعطيات الظرفية واختلاف ميزان القوى . وحول ذكر الامين في المصادر الحفصية، انظر: ابن ناجي، **معالم الايمان** ، ج IV ص 138، 151، 184، 186، 210، 228 . كما ورد ذكر أمين الامناء في تحفة الأريب ، ص 17 ، انظر برانشويك ، **ن.م**، ج II. ص 150 ، 202 .

(2) Massignon, les corps de métier et la cité islamique **Opera Minora,** TI, p.369-383.

(3) Goitein, the working people of the medit. area during the middle ages **Studies** in **islamic history**, Leiden1968,
A.Hourani and S.M.Stern,The **islamic city**,Oxford 1970,pp.25-63.
ومن الملاحظ أن مهنة الرقّاص ذكرت أيضا بافريقية في القرن السّابع هـ (الغبريني، ن.م. ص 271) .

وذهب كل من « كلود كاهن " و " هنري ستارن " الى نفي وجود الأصناف، انطلاقا من النّموذج الأوروبي لها في العصر الوسيط. وقال محمد الطالبي انه لا وجود لها بافريقية قبل العصر الحفصي (1).

ويتميز رأي الدوري في هذا الصدد بالقول إنّ الرابطات الحرفية وجدت منذ القرن الثاني هـ/VIII م، قبل أن تظهر الحركة الاسماعيلية نفسها، والى هذا الرأي الاخير يذهب محمود اسماعيل، وان كان يرجع ظهورها الى القرن الثالث هـ/IXم (2).

وفي خصوص افريقية ، فان ما ذكره "برانشويك "من كون المهن المدينية كانت خاضعة لتنظيم طوبوغرافي واداري وتفردت بمصطلحات خاصة بها مثل سوق وصناعة ، لا يكفي للدلالة على وجود رابطات مهنية بأسواق افريقية (3) .

وثمة مؤشرات عديدة توصّلنا إلى جمعها، تبين مدى تنظيم الحرفيين والصناع بأسواق افريقية.

فهؤلاء لا ينتمون إلى أصحاب الجاه وانما إلى الفئات الشعبية التي سعت إلى قيام أشكال تنظيمية معيّنة تدافع عن مصالحها المشتركة وتقف في وجه العسف والتعدي، حتى بات الوعي الاجتماعي واضحا في بعض الحالات ، وبخاصة في أحد الاسواق الهامة ببجاية في القرن السابع هـ، وهو الخاص بالصوافين، الذين كانوا يتولّون جمع الضرائب من أرباب المهنة حسب خطة معينة، يشترط فيها **«الانتظام في سلكهم»** ، على حد تعبير الغبريني، وقد كان هذا الشعور بالإنتماء المهني قويا الى حد أن أحد العلماء العاملين في الصوف أبى الا أن يؤدي ما عليه من جباية، رافضا الامتياز الذي كان يعامل به من قبل أصحابه، سعيا للانخراط في سلكهم، بعد أن تراءى له أن الاداءات التي يدفعها أهل السوق تجعلهم أفضل منزلة من أصحاب النفوذ (4).

---

(1) انظر: C. Cahen, art .Futuwwa, Arif in **E.I** (2)

.M. Talbi, **Etudes d'Histoire Ifriqiyenne,** Tunis,1982, pp.253-254.

(2) انظر : الشيخلي ، **ن.م.**، الفصل الاول . الدوري ، **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي** ، بيروت 1982، ص 67-68، 128-129 . وقال بالخصوص : "ويدخل اصحاب الحرف في غمار العامة، وهم في مرتبة دنيا في المخطط الاجتماعي ، ويصدق عليهم القول المأثور : الحرفة امان من الفقر وامان من الغنى، ويعطي الحريري فكرة واضحة عن وضعهم المعاشي حين يقول : وأما حرف أهل الصناعات فغير فاضلة عن الاقوات ومعظمها معصوم بشبيبة الحياة. ولعل ابرز مظاهر المدن ازدياد أهمية العامة، وبروز دورها في الحياة العامة منذ أوائل القرن الثالث الهجري فما بعد، وهذا يصدق بصورة خاصة على العيارين والشطار»...

وقد يقوم الصنف بدوره في أوقات الازمات لحماية أعضائه، ولدينا اشارات الى وقوف الاصناف ضد السلطة لحماية اصحابها من التعسّف ، ومن امثلة ذلك ثورة صناع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد عام 374 هـ...(الشيخلي،ص 67-68) .

(3) انظر : برانشفيك ، **ن.م**، ج II ص 150 ، 202 .

(4) الغبريني ، **عنوان الدراية** ، بيروت 1979 ، ص 195- 196 .

وإذا كان العسف الضرائبي قد ساعد إلى حد كبير على بروز وعي حرفي، فان فعاليات الجمعيات والرابطات المهنية أمر مازال يحتاج إلى تدقيق، نظرا الى قلة الامثلة المتعلقة بالموضوع. والظاهر أن التضامن بين أهل الحرفة الواحدة كان قويا الى حد أنه يمنع كل متطفل أو محتال من الانخراطّ فيها، وهو ما يفسر الحادثة التي وقعت بتونس في أواخر القرن الثامن هـ.وتمثلت في اشتكاء الصباغين للقاضي عندما حاول أحد المعلمين الحاذقين للصنعة في المغرب الاقصى التجديد في المواد المستعملة في الصباغة وتعويض اللاك المستورد من الشرق بمادة أخرى لا يحسن صناعتها غيره من الحرفيين، وقد قضت السلطة بقطع هذا الامر (1) .

على أنّ المثال الأكثر وضوحا على ظهور الأصناف ببلاد المغرب عامة وافريقية خاصة لا يخص العاملين في أسواق الصوف والصباغة، وانما في قطاعات أقل حظا من غيرها ، لا تحتاج إلى توفر الرأسمال والمواد الأوّلية، وتقتصر على الطاقة البشرية والحيوانية لنقل البضائع وحملها. اشارة صغيرة في النصوص إلى عريف الحمالين للزيت بمدينة تونس في القرن التاسع تمكننا من الاقرار بأهمية هذا الصنف، الذي يوجد على رأسه عريف قوي البنية **«آية وقته في حمل الاثقال»** (2) .

ويتضح من خلال نازلة طرحت على ابن عرفة أنّ أجرة الحمالين كانت مشتركة (3).

واذ نعتقد أن الامر لا يختلف عما هو عليه في المغرب الأقصى ، فاننا نورد الوثيقة التالية عن نقابة الحمالين بفاس : **« مجمع الحمالين، يبلغ عددهم 300حمال، ولهم أمين أي رئيس، يختار كل أسبوع من يجب عليهم أن يشتغلوا ويكونوا رهن اشارة الجمهور طوال الاسبوع، يجمع هؤلاء الرجال ما ربحوه من مال في صندوق له عدة مفاتيح محفوظة عند كل رئيس مجموعة. ويقسم المال بين الذين اشتغلوا عندما ينتهي الاسبوع. ويحب هؤلاء الحمالون بعضهم بعضا كالاخوة، فاذا مات أحدهم وترك طفلا صغيرا ، تكفلوا جميعا بالمرأة إلى أن تتزوج مرة ثانية اذا رغبت في ذلك، وأهتموا بعطف وحنان بالاولاد إلى أن يبلغوا السن الذي يمكنهم من القيام ببعض الاعمال. واذا تزوج أحد الحمالين أو ولد له دعا جميع أصحابه إلى وليمة، وأعطاه كل واحد منهم هدية مقابل ذلك .**

---

(1) البرزلي ، **جامع مسائل الاحكام** ، ج V ، ص 420 ب .(2) **مناقب** ابن عروس ، ص 199 .

(3) الونشريسي، المعيار، جVIII ، ص 184. وممّا ورد فيها : " سئل ابن عرفة عن حمالين اشتركوا في أجرة ما يحملونه، فوقع بين أحدهم وبين رجل كلام ومشاجرة بسبب مطله ونقصه في الاجارة، فحلف بالطلاق الا يحمل له أبدا، ثم ان بعض شركائه حمل له وحمل هو لغيره" . ثم " اقتسموا الاجارة"

ولا يمكن لاحد أن يمارس مهنة حمال قبل أن يدعو جميع أصحابه الى وليمة، وإذا لم يفعل فلن يتقاضى، عندما يشتغل، أكثر من نصف حصة الآخرين. وقد حصل هؤلاء الحمالون من الملوك على أمتياز اعفائهم من أية ضريبة أو تكليف، ولا يؤدون شيئا لاصحاب الافران مقابل خبز عجينهم، وإذا ارتكب أحدهم جريمة يعاقب عليها بالاعدام، فانه لا ينفذ عليه الحكم أمام الجمهور، ويشتغل هؤلاء الناس وهم لابسون ثيابا قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج أوقات عملهم ما يشاؤون . وبالجملة فانهم أناس يتحلون بالاستقامة والاخلاق الحسنة " (1) .

ان هذا النص يأتي حجة قوية على وجود تنظيم حرفي متطور لدى هذا الصنف، مكّنهم من تطبيق نظام داخلي صارم ومن التحصل على امتيازات من السلطة ، وهي بهذا لا تختلف في شيء عن الاصناف التي ظهرت بالمشرق منذ العصر العباسي، كما أنّها لا تبدو أقل تطورا من النقابات الحرفية الاوروبية وقتذاك (2).

وكما أن هذه الاصناف بالمشرق لم تتمكن من الخروج من دائرة التأثيرات الثقافيّة المختلفة، فانّ الاسواق الافريقية قد أكتسحتها موجة الصّوفيّة . ففي مدينة بجاية كان لأبي علي السلمي (القرن السّابع هـ) " **حانوت يجلس فيه التاجر بسوق قيسارية بجاية مع تمكن علمه وبراعة فهمه** " ، أما حانوت أبي علي حسن المسيلي فانه تحول مجلسا للعلماء حتى تسمى " مدينة العلم " (3) . وبالتالي كان السوق موقعا استراتيجيا هاما تؤمه مختلف الفئات، ومجالا لنشر مختلف الافكار والايديولوجيات ، ففي مدينة تونس، كان المتصوف علي القرجاني يقعد في حوانيت البلاغين، وعلي الحطاب يحرض على التصدي للنصارى في سوق السقالين حيث تصنع ألة الحرب. وفي هذا المضمار نتساءل عن مدى العلاقة بين التصوف والرابطات الحرفية، وخاصة في المستوى التنظيمي (4) .

ويمكن أن نلاحظ تناضد عدة مجالات وتداخلها ، المهنية منها والثقافية والبشرية، اذ تقتصر الجمعيات تارة على صنف الأندلسيين الطارئين على بجاية وتونس، والخاضعين لامرة شيخ الجماعة وكبيرهم (5) ، وأخرى تذوب الاختلافات الثقافية بين الصناع لتترك المجال واسعا لعمل الرابطات الحرفية، التي حاولت الوقوف في وجه شتى ممارسات العسف المخزني. ففضلا عن المكوس

(1) الوزان ، **ن.م** . ج II ، ص 185 . (2) الشيخلي ، نفس الاحالة .
(3) الغبريني ، ن.م، ص 25، 36 .
(4) مناقب القرجاني ، ص 176 ، **مناقب** الحطاب ، ص 186 .
(5) الغبريني ،ن.م. ، ص 287. **رحلة** عبد الباسط ،مخ الفاتيكان .

والضرائب الموظفة على الحرفيين، اقتصرت بعض المهن على السلطان مثل عمل الصابون، وكان جزء من الحوانيت محبّسا أو من خاصة السلطان ، وهو المسمى بسوق الربع، الذي كان موجودا في النصف الاول من القرن السابع بزنقة السابط، واحتوى على أكثر من 27 حانوتا (1) .

وفي الاخير نتساءل عن مكانة هذا القطاع في حضارة البلاد، ووضعيته في منظومة الحرف والصنائع المتوسطية . ولا يخفى علينا في هذا الصدد فاعلية المؤثرات الخارجية في تطوّر هذا القطاع، ومدى انعكاس الاقتصاد السلعي بالمدن التجارية الاوروبية عليه، وتأثير الجاليات التجارية المستقرة بفنادق المدن الساحلية الكبرى . على أن العامل الحقيقي الذي ساعد الحرف على النهوض تمثل أساسا في الهجرة الاندلسية التي حركت السواكن ونشطت التجارة والحرف فتعدّدت الصّنائع ، سواء منها المرتبطة بالبادية أو الصّنائع الحضريّة البحتة .

II- الصّنائع والحرف : بين مواد البادية وأسواق المدينة

انتمى الحرفيون في الغالب إلى الفئات الحضريّة الوسطى ، وكانوا يكدّون كثيراً لكسب معيشتهم، ولم يكن في وسعهم دوما توفير الأموال اللأزمة، باعتبار انّ جزءا من أجرتهم يتقاضونها عينا، لا نقدا. وكانوا يعيشون داخل المدينة في عالم شبه مغلق، لا يمكن اختراقه بسهولة، فابن الحرفي غالبا ما يمتهن نفس الصّناعة، فيما يعسر على الغرباء النّازحين امتلاك دكاكين ووسائل انتاج وحوز مكانة في أسواق المدن الكبرى . وعادة ما يقع تصاهر الحرفيين فيما بينهم . وكثيرا ما كان يكنّى كلّ حرفي بمهنته، فيقال فلان الخياط أو النجّار .على أنّ هذا الوسط لا يخلو من التنافس ، سيّما أنّ وحدة المجال ساعدت على الاحتكاك بين أرباب المهنة الواحدة، حتّى أنّ البرزلي قال : " **إنّ الصنّاع وأهل الحرف شانهم في ذلك شأن أهل القرى والعلماء من أشدّ النّاس تنافسا وتحاسدا** " (2) .

وممّا زاد هذه الخريطة المهنيّة تعقّدا هو تناضد التصنيف المهني مع الاختلافات العرقيّة للحرفيين .فالى جانب العنصر المحلّي ، شكّل الوافدون من الاندلس جالية كبيرة في أسواق مدينة تونس، محتكرين عدّة صناعات مثل

1) **مناقب المنوبية** ، ص5 ب . انظر أيضا : برانشفويك، **افريقية في العهد الحفصي** ، ج II ، ص 150، 202 .
2) البرزلي، **جامع** ، جII ، ص 235 ب. ابن راشد ، **الفائق** ، جI ، ص 90 ب (ذكر زواج بين أهل سوق الرهادرة في القرن الخامس هـ). ذكر الابي (**الاكمال**، ج VII ، ص 37) ان بعض العلماء لم يستسغ تسمية الحرفيين بمهنهم .

الشاشية والزليج. وكان على رأسهم كبير التجّار الذي كان يقطن جوار الأمير الحفصي برأس الطابية في أواسط القرن التاسع هـ/ XVم (1) .

وإضافة الى التجار النصارى المقيمين بالفنادق ، فانّ أهل الذمّة كان لهم حضور يذكر في الحرف والتجارة، رغم بعض التضييقات القانونية التي كانوا يتعرّضون اليها. فلئن أمكن لهم بمصر على العهد المملوكي من ممارسة مهن الطب والصّيدلة وبيع الأشربة، فانّهم منعوا بافريقيّة من العمل في الصّنائع المتعلّقة بالغذاء، مثل عمل الخبز وبيع الزّبيب والخلّ وغيرها من المائعات بالأسواق. على أنّ حضورهم كان هاما في بعض المهن مثل الصّباغة والصّياغة وضرب العملة وكتابة الحروف والتمائم (2).

ومهما اختلفت أصول الحرفيين، فانّ أغلب الصّنائع كان لها ارتباط وثيق بالبادية، وخاصّة قطاع الغزل والنسيج .

1) استخراج المعادن :

– **النّحاس** : لئن احتاجت افريقيّة الى استيراد النّحاس عن طريق المدن التجارية الاوروبية ابتداء من سنة 1200 ، فانّ هذا لا يعني ،كما ذهب الى ذلك أحد الدّارسين، انّ هذه المادّة نفذت بالبلاد.

فثمّة مؤشّرات عديدة تذهب الى عكس ذلك، منها انّ بلاد هوارة عرفت بانتاج النّحاس حتّى أنّ نقودها الفضيّة احتوت على كمّيّة كبيرة منها، ويبدو انّ جزءًا منه كان ينقل الى القيروان التي اشتهرت بصناعة الصّفر منذ العهدين الأغلبي والزّيري، وظلّت كذلك في العهد الحفصي، وكان بعض انتاجها يصدّر الى سائر بلاد افريقيّة وبلاد السّودان .

وفي القرن XIIم، وسق قسط من نحاس افريقيّة الى المدن الايطاليّة. ويبدو أنّ ذلك تواصل في أواسط القرن الرابع عشر م، إذ ورد ذكر قافلة محمّلة بالنحاس والجلد متّجهة من القيروان الى مرسى المحرس (3).

ولا يستبعد أن تتجه القوافل من افريقيّة الى بلاد السودان، محمّلة بالنّحاس،

(1) ابن عبد الباسط ، **رحلة** ، ص 20 .

(2) البرزلي، **نفسه** ، ج II ، ص 1173، ج IV، ص 397 ب :

G.Jehel ,**Les Génois en Méditerraneé Occidentale**,p.351. (3)

Amari, **Diplomi Arabi del Archivo Fiorentino.**

(ذكر أن مناء بن عبد الله اشترى بـ53 دينار نحاسا لفائدة باج البيشاني). مقديش، **نزهة الانظار**، ج II، ص 313 .

على غرار القوافل المتّجهة من أغمات في القرن XIIم، في اتجاه السّودان ، وفيها النحاس الأحمر والملوّن. وقد أثبتت الآثار أهميّة هذه المادة المصدّرة من بلاد المغرب، اذ تمّ العثور على حمولة قافلة لم تهتد الى الطريق في القرن XI م بموريتانيا، وكان من محتوياتها قضبان من النّحاس (1).

– *الحديد* : أورد الادريسي ذكر مناجم الحديد ببجاية وعنابة والأربس. غير ان الوزّان اقتصر على ذكر المنجمين الأوّلين. كما ذكرت وثيقة اسبانية وجود مناجم حديد بالبلاد. ومهما يكن من أمر، فانّ افريقيّة احتاجت الى استيراد الحديد، وخاصّة منه المصنّع، من المدن التجاريّة الاوروبيّة . وقد استقر بتونس عدد من الجنويين الذين اشتغلوا في الحدادة.

– *الرّصاص* : تمّ استخراجه من جبل الرصاص الواقع جنوب مدينة تونس، وقد كان يستعمل في غضار الخزف الأبيض الذي تميّزت بصنعه مدينة تونس منذ القرون الاسلاميّة الأولى . وتولّت استغلاله شركة خاصّة في العهد الزيري، وكان يقع استيجار العمال بأجر عيني معلوم. وقد منحوا عدد من القفاف كلما استخرجوا العدد المطلوب من المنجم .

ويبدو أنّ فندق الرّصاص شهد انتقال موقعه في القرن التاسع هـ/XV م : فبعد أن كان غرب جامع الزيتونة قرب حوانيت العدول وسوق الخرّازين، تحوّل هذا الفندق الى سكنى الفئات الرثّة والمهمشين قبل أن يصبح زاوية أحمد بن عروس. وكان من " **الأملاك السلطانيّة التي له فيها النظر التام والتصرّف العام** " . وقد أصبحت هذه المادة مستعملة في صناعة البارود منذ نهاية القرن VIII هـ/ XIVم، أو ربما قبل ذلك ، وكان يصدّر الى البلاد الاوروبيّة (2) .

– *الزئبق* : يوجد منجم للزئبق قرب باب البحر، وكان مستعملا الى حد سنة 1535 (3).

(1) الادريسي، نزهة ، ص 83.

J.Devisse, Approximatives,quantitatives,qualitatives:Valeurs variables de l'étude des traversées Sahariennes In **Relaciones de la Peninsula Iberica Con El Maghreb (XIII-XVI)**,Madrid 1992,p.195.

(2) **مناقب بن عروس**، ص 209،203. الترجمان، **تحفة الاريب**، ص18. (كان أبو فارس يبعث بالبارود النفيس الى الاندلس)

الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص117،90. الوازان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 81،البرزلي، **ن.م**. مخ 4851، ج II، ص 1352.

R.Brunschvig, **Hafsides**, TII,p.230-231. **Deux Récits de voyage**..p.195.

Martinez Montavez, **Dos Descripciones**...p.219.

Martinez Montavez, **op.cit**...p.219. (3)

– *الفضّة* : ذكرت مناجم الفضّة بجبل غريان في القرنXV م (1).

– الكبريت : شاع استعماله بافريقيّة في القرنXIV م في وقود القناديل وغيرها. غير أنّنا لا نعرف هل هو معدن مستخرج من افريقيّة أم مستورد من البلاد الأوروبيّة(2).

–*الملح* : اعتبر الملح من أهم المناجم الوارد ذكرها في المصادر الحفصيّة، فقد وجدت ملاحات في مناطق عديدة من البلاد، فالى جانب اقتطاعه كالصّخر من جبل قريب من بسكرة منذ العهد الفاطمي وخاصّة من تاغازا وأماكن أخرى بالصحراء الكبرى، فانّ ملاحات عديدة ذكرت بافريقيّة ، وأهمّها:

– ملاحة سبخة تاكمرت بين نفزاوة وتوزر : وهي على حدّ عبارة التجاني **"من غرائب الدّنيا التي أغفلها المؤرخون وأهمل وصفها الاخباريون، فانها أميال في أميال سطحا واحدا كاللجين المسبوك أو المرمر المحكوك، يكاد ينفذه البصر لصفائه..."** (3).

– ملاحة سبخة أم الأصنام : تتضاءل كمية مياه الاودية التي تصب في سبخة سيدي الهاني في فصل الصّيف، وبعد تبخّرها ترسب طبقات هامّة من الملح الذي وقع استغلاله منذ العهد الوسيط والى حدّ القرنXIX م.

وقد كانت قبالة الملح المستخرج من سبخة أم الاصنام يتولاّها أحد المكترين لها، وهو سعد الظاهري، قبل أن يقرّر السلطان الحفصي ازالتها من يده وتخصيص جزء من ماله لاستخراج الملح منها، على أن يعود نفعها للأهالي، وذلك على إثر قيام الحرب الصليبيّة الثامنة (668هـ/1270م) (4).

– رأس المخبز : يقع جنوب شرقي افريقيّة، وقد أشتهرت جودة ملح سباخه، وأقبل عليها الجنويون والبنادقة وغيرهم طيلة العهد الحفصي. قال عنها التجاني : **"وهناك السبخة المفضل ملحها على جميع السّباخ ومنها يمتار أكثر بلاد النصرانيّة"**. وكان هؤلاء يقبلون أكثر على أقتناء الملح من الطبقات السّفلية للملاحة (5).

Brunschvig, Hafsides, **Deux Récits**..op.cit.p.209. (1)

(ذكرت الدراهم الفروريّة آنذاك، ولعلّها نسبة الى فرورا التي أطلقها الاباضيّة على مجاعة سنة 430هـ).

(2) البرزلي،**ن.م**، ج I ، ص1104 (عارض العلماء استعمال الكبريت في وقود القناديل لنتن رائحته، وهو ما يفسّر أن هذه التّقنية مستحدثة آنذاك).عرفت طلميثة بانتاج الكبريت.

(3) البكري، **مسالك**، ص52 ، التجاني ، **رحلة** ، ص155. ابن بطوطة ، رحلة، 240 (مقايضة ملح تغازا بالذّهب).

Pelissier, **Description**..p.131-132.J.Despois,Le **Sahel et la Basse Steppe**.p.86 (4)

راجع وثيقة الاقطاع في الفصل الخاص بوطن القيروان . Mas-Latrie,**Traités de paix**..,p.224

(5) التجاني ، **رحلة**، ص 206-207. Hocquet, Le **Sel et le pouvoir**.

– جرجيس : اشتهرت ملاحتها ، وكان يصدّر منها الملح الى البلاد الأوربيّة في العهد الحفصي (1).

– *الساحلين* : ذكرت ملاحتها منذ العهد الزيري، وظلت مستعملة في العهد الحفصي، ومازالت قائمة حاليًا (2).

– *لمطة* : كانت سفن البندقيّة تفد على الملاحة لاستيراد هذه المادّة . وقد لعب الرباط دور مراقبة حركة الملاحة، التي ذكرت منذ القرن الخامس (3).

– تونس : كانت الملاحة بمدينة تونس من أملاك المخزن الحفصي، الذي تولّى كراءها لقوم مقابل نسبة من الرّبح، وذلك على غرار كراء بحيرة بنزرت للصيّادين(4).

وفي الجملة، فان المخزن الحفصي حاول بسط نفوذه على عدد كبير من المناجم والمقاطع ، غير أنّ البعض ظلّ شركة بين مجموعة من المستغلين أو ملكا لشخص واحد. وقد طرحت كيفيّة استغلال المعادن، على المازري، الذي اعتبر ان ملكيّة الملاحة وطريقة استغلالها مرتبط بحكم الارض، مع اعطاء الأولويّة لمصلحة المجموعة وللفقير على الغني، وهو ما يفسّرأنّ مدارس مدينة تونس تحصّلت على كميات الملح اللاّزمة في العهد الحفصي دون مقابل .

أما البرزلي، فانّه فرّق بين وضعيات مختلفة :

– الحالة الأولى : الملاحة ناجمة عن عملية احياء (عمل وتهيئة) : فإذا كانت قريبة من العمران، احتاجت الى اذن السّلطان، ويكون ملكها للذي أحياها. أما اذا كانت بعيدة عنه، فانَ الذي قام باحَيائها يحقّ له امتلاكها دون استشارة المخزن .

– الحالة الثانية : الملاحة طبيعيّة، دون احياء وعمل، وهي بالتّالي ملك للمجموعة ولا يحقّ للمخزن التدخّل، اذ هي بمثابة المحتطب والبحار والبحائر التي يصطاد منها الحوت (5).

2) قطاع الغزل والنسيج :بلغ هذا القطاع شأوا كبيرا في الحضارة الاسلامية، باعتباره المموّل الأساسي للنشاط التجاري في العصر الوسيط حتّى أنّ البعض نعتها " بحضارة النسيج" . وقد أعتبر الوزان تجّار القماش من أثرى سكّان مدينة تونس . أمّا القلشاني ، فانّه في حديثه عن تضمين الصنّاع خصّص ثمانية مسائل

R.Brunschvig, **Hafsides**, TII,.p.230. (1)

Lanfreducci et Bosio, **Cotes**,op.cit.p.514 (2)

(3) البكري، **مسالك**، ص84(وملاحة لمطة هي ملاحة كبيرة وملحها لا يفوقه ملح ومنها يحمل الى ما جاورها من البلاد).

(4) البرزلي، **ن.م**، ج II ، ص 1312.

(5) **ن.م**، ج II ، ص 112ب، 1312ب .

من جملة إحدى عشر لصناعة الثّياب، وقد تناول فيها قضايا مرتبطة بالخياطة والصباغة والكمادة والقصارة .

ولئن مثّل الصّوف المادّة الأوليّة الأساسيّة في حياكة الملابس ،فانّ موادّ أخرى من أصول حيوانية أو نباتيّة استعملت في هذه الصّناعة ، ومن أهمّها الحرير والكتان والقطن والقنّب (1) .

أ) المواد الأوليّة :

– *الصّوف* : لقد كانت العلاقة قويّة بين انتاج الصّوف وجغرافيّة البداوة ببلاد المغرب، لاقتران هذه المادّة بتربية الماشية في مجالات الانتاج والتّرحال خاصّة . وقد مثّلت الأسواق الريفيّة المجمّع الأوّل لهذه المادّة ، باعتبارها نقاط التقاء بين البدو المنتجين للصّوف والحضر المستعملين له ، تجارة وتصنيعا . أمّا المدن المراسي ، فقد كانت المراكز الأساسيّة لتجميعه، وقد ذكرت من بينها مسحبة مقرين بضاحية تونس وتتمّ في هذه المدن وضواحيها مختلف عمليات الغزل والنسيج .

ومنذ الحقبة الوسيطة الأولى ، تميّزت عديد المدن الافريقية بانتاج المنسوجات الصّوفية ، مثل بلاد الجريد التي كانت تصدّر منسوجاتها الى المشرق وجربة التي أشتهرت بجودة صوفها وجهة طرابلس إلخ...

وفي العهد الحفصي، أقرّ ابن خلدون أنّ أهل المغرب متأخّرون في الصّنائع، بآستثناء صناعة الصّوف ودباغة الجلود، وهما حرفتان لهما صبغة بدويّة. وفعلا، فانّ صناعة الصّوف طيلة هذه الحقبة تعتبر من أهم الصّناعات المتداولة بالبلاد لسيطرة نمط الانتاج الرعوي ووفرة تربية الماشية وجودة الصّوف الذي أشتهرت به عدّة جهات مثل ناحية القيروان وبلاد قمودة وجزيرة جربة، التي قال التجاني في شأنها إنّها اختصّت " **بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بإفريقيّة لما ينسج من أثوابها نظير** ". وأضاف رحالة أخر ممتدحا نوعيّة صوفها قائلا : « **وممّا خصّت به لين الصّوف ورطوبته ، وتصير الشاة من غير الجزيرة فيها بعد إقامة سنة مثل شياهها في رطوبة الصّوف** " (2).

(1) انظر الوزان ،و صف افريقيا ، ج II ، ص 75. القلشاني، **شرح** ، ج II ، ص 179. ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 733-734.
M.Lombard, **les textiles dans le monde Musulman (VII-XIIeme s**).Paris - la Haye - New-York 1978,p.15.
H.Heaton, **Histoire éco. de l'Europe des origines j'usqu'à 1750**, Traduit par R.Grandbois,Paris 1950.

(2) التجاني ، **رحلة** ، ص 122. القلصادي، **رحلة** ، ص 123 ويرى احد الدّارسين ان لفظة (GARBO) كانت تطلق على بلاد الغرب بالمغرب الاقصى، وليست لها آرتباط بجربة :. J.Jehel,**Les Génois**...op.cit.,p.313

على أنّ تصدير صوف افريقية شهد تراجعا في القرن الثامن هـ./ XIVم، بعد فترة من التطوّر في القرن السّابق، وذلك بعد أن تمّ تعويضه بالصّوف الاسباني الذي أطلق عليه تسمية (merinos). ولا ندري مدى آنعكاس هذا الأمر على المراكز المحليّة لصناعة الصّوف التي أنتعشت في العهد الحفصي مثل تونس والسّاحل والجريد ونفزاوة وقفصة وقابس وجربة والقيروان وجبل نفوسة وغيرها . وكانت تنتج أصنافا عديدة من المنسوجات منها الحرام والجبّة الجيّدة أوجبّة الصّوف الوسط البيوتي ... (1) .

الحرير : عرفت الحقبة الوسيطة انتشار صناعة الحرير في العالم الاسلامي، انطلاقا من الصّين . وقد أحتاجت هذه الحرفة إلى شجر التّوت لتربية دودة الحرير، وإلى عدد هامّ من العمّال . وبرزت في الغرب الاسلامي خاصّة في مدينة قابس ، خلال القرن الرّابع هـ / Xم ، والى حدّ القرن السّادس هـ /XIIم، وكذلك في الاندلس (بقرطبة والمريّة وبسطة وغرناطة وجبل البشارات) (2).

ولئن تواصلت هذه الصّناعة بافريقيّة في العهد الحفصي، فالمرجّح أنّ المواد الأوليّة كانت تستورد من الأندلس، مثلما تشير إلى ذلك وثائق الجنيزة خلال القرنين XI–XIIم . وكما عرفت القيروان في الحقبة الأولى سوق الخزّازين ، فانّ مدينة تونس ذكر بها كذلك سوق الخزّازين أو الحريريين ، فضلا عن وجود ضاحية قريبة منها حملت إسم الحريريّة. وبديهي القول إنّ مهنة الحريري –صانع الحرير– تختلف عن مهنة الخزاز الذي يتولّى نسجه وحياكته .

وتميّزت إفريقية وقتذاك بصناعة قماش السفساري من الصّوف والحرير الذي ذكر لأوّل مرّة في القرن السّادس هـ/ XIIم بنول لمطة. وكانت التفرقة واضحة بمدينة تونس بين القماش السّلطاني من السّفساري والوقايات المخصّصة للنساء التي لا تحتوي إلاّ على نسبة ضئيلة من الحرير ، وجاءت شفافة ورقيقة، وهو ما آعتبره أهل الذّكر غشا في صناعة الحرير (3).

وعرف المجتمع الحضري ، وخاصّة الفئات العليا منه، استعمالا متعدّد الأوجه للحرير : فالى جانب الجبّة، والرداء، فانّ اللّحف والمخاد الحريريّة كانت تفرش في القاعات والمنازل بمدينة تونس وتلمسان وغيرها (4).

(1) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IIV، ص ، ص76،137،152،167،185. ابن راشد، **الفائق** ، ج IV، ص 12.
(2) M. Lombard,**op.,cit**.
(3) العمري، **مسالك** ، ص 98. البرزلي ، **نفسه** ، ج III، ص 70 ب (تعوّد النسّاجون على وضع نسبة ضئيلة من الحرير والمبالغة في الغش حتى يرقّ الثوب ويصير مهلهلا ، وهو عكس ما يطلق عليه اليوم " حرير لوحة "). ومن الواضح انّ هذا النّوع من القماش أصبح يطلق على اللحاف النسوى في فترة لاحقة (السّفساري).
Goitein, the main Industries of the mediterranean area., **J.E.S.H.O** 1961, n°4, pp.168-197.

(56) القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 206ب. الأبي، **الاكمال** ، ج V ، ص 370 .

الكتّان : تميّزت بلاد النيل وبلاد الرافدين بانتاج الكتّان بدرجة أولى . كما عرف المغرب هذا الانتاج منذ الحقبة الأولى في مراكز عديدة أهمّها قرطاجنة ورادس وبلاد الجريد وسوسة وشط الحضنة وعنابة وجيجل وبصرى. وقد ظلّت هذه الزّراعة هامّة في ناحية تونس وبلاد الجريد في العهد الحفصي (1).

وٱشتهرت مدينة تونس بصناعة القماش الجزيري ، وكذلك بالقماش الافريقي وهو ثياب رفيع من القطن والكتّان معا . وقد كان الحرفيون "**يصنعون فيها كميّة عظيمة من القماش البالغ حدّ الاتقان ، يباع بافريقية كلّها بأثمان باهضة لأنّه رفيع ومتين**" على انّه يوجد صنف ثان أقلّ جودة وهو غليظ الكتّان المسمّى الزّلفة (2).

كما عرفت مدينة سوسة بالعمائم السّوسيّة وباتقانها لصناعة الكتّان .

القطن : انتشرت هذه الزراعة المداريّة انطلاقا من الهند في اتجاه بلاد المشرق والمغرب ، وصولا الى بلاد التكرور. وأنتج في مجالات ثلاثة : الاطراف الشمالية للصحراء والسّهول السّاحليّة و السّهول العليا بالمغرب الأقصى . فقد ذكر الادريسي أنّ زراعته كانت متداولة بواحة قفصة وبلاد الجريد وببلاد الحضنة وسجلماسة ، وقرب مدينة تونس، بقرطاجنّة وبناحية تادلا والبصرى . كما امتلأت منازل سكان جزيرة قوصرة قطنا، ويظلّ القطن قائما بها مدّة عشر سنين، قبل أن يقع تعويضها (3).

وقد خصّصت مدينة تونس مجالا شمال جامع الزيتونة لسوق القطانين منذ القرن السّابع هـ /XIII، وكان يشرف على حسن سير هذه المهنة الأمين القطان الذي ذكر مقرّه قرب سوق الكتبيين (4) .

-*القنّب* : أصله كذلك من الشرق الأقصى ، وٱنتشر في اتجاه الغرب خلال العصر الوسيط، ولئن كانت صناعته وتحويله شبيهين بعمل الكتّان ، فانّه يعتبر أقلّ جودة وأكثر صلابة من الكتّان، وكان يستعمل لصناعة الحبال وشباك الصيّادين والورق وصناعة الثياب ، وقد ذكر منذ القرن الرّابع هـ/Xم بقرطاجنة وبلاد السّوس، ويبدو أنّه ظلّ مزروعا في هذه الجهات في العهد الحفصي، وذلك فضلا عن ناحية جيجل وجبال بجاية (5).

---

(1) ابن سعيد، رحلة ، ص 127(جريد). **الاستبصار**، ص 119(سوسة) الوزان ، **م.ن**. جII ، ص 52 .

(2) العمري ، **مسالك** ، ص98. الوزان ، **وصف افريقيا**، ج II، ص 74. ابن راشد ، الفائق، ج III، ص 233ب.

(3) الادريسي، **نزهة المشتاق**. التنبكتي، **تحفة الالباب**، ص113. ابن سعيد، **نفسه**،ص 142، 144.

Soucek, **Tunisia In The Kitab-i-Bahriye**,p.93.

(4) **مناقب**، مخ 12544، ص 135. ابن الطواح، **سبك المقال** ، ص 98 .

(5) ابن حوقل، **صورة الارض**، ص75 . الادريسي، ن**زهة المشتاق**، ص 50. الوزان ، **صوف افريقيا** ، ج II، ص 52 . ابن سعيد ، **رحلة** ، ص 145 (وقد ذكر صوف البحر حول ناحية صفاقس وجربة) .

ب) **عمل الغزل** : شملت عمليّة غزل الصّوف ، شأنها في ذلك شأن عمل الطّيب، عددا هاما من الأسر ، حتّى انّ هذه الحرفة لم تكن حكرا على فئة دون أخرى ، باعتبار أنّ "**النّساء أجمع يغزلن**" ، على حدّ تعبير ابن عرفة . وحسبنا أن نذكر شهادة الرحّالة الأجانب على مهارة التونسيات في غزل الصّوف (1).

ولئن كانت الحضريات تقضين وقتا طويلا وراء المنسج لتلبية حاجات الأسرة، فانّ النّساء المنتميات إلى الفئات الشعبيّة يتولّين بيع الغزل في السّوق . وقد تعوّدن على التعاون في انجاز الأعمال الشاقّة، وخاصّة في عمل الغزل، فكنّ يتجمعن في منزل لانجاز عمل ما، على أن ينتقلن من الغد الى منزل ثان ، وهكذا دواليك، وهو ما تطلق عليه المصادر: دولة النّساء (2) وٱلتجأت بعض الأسر إلى تاجير من يغزل لها الصّوف مناصفة (3).

ومن نافلة القول أنّ غزل الصّوف وتنظيفه لم يكن ذا صبغة منزليّة فحسب، انّما كان صناعة رائجة في الدّكاكين والفنادق المخصّصة لهما، وخاصّة فندق الرّماد بتونس. وقد سمّي كذلك لارتباطه بمادّة الرّماد التي ٱستعملت في أغراض شتّى مثل تنظيف الصّوف وصناعة الصّابون وإصلاح السّقوف وتبليط المنازل (4). ولئن استعمل المصريون الجير للتبييض، فانّ الافارقة قد تعوّدوا على تبييض الغزل ، وهي عمليّة تسبق مرحلة النسيج، بٱستعمال الرّماد المستخرج من النباتات.

وكان عمّال السلطان قد ٱستآثروا بقبالة هذا الفندق ، وتولّوا لزمته بأسعار مرتفعة، منافسين في ذلك الحرفيين الذين أجبروا خلال الحقبة الحفصيّة على إخلاء المكان والتزام فندق ثان وقع تحويله لغسل الغزل (5).

وثمّة طريقة ثانية في تهيئة الغزل للنسيج ، وهي سقي الغزل وتتمثل في خلط عجين القمح أو الحريرة بالدّقيق والماء، ثمّ طبخه دون ملح طبخا يسيرا، وبعد أن يعجن سخنا، يحلّ بالماء،وعندها يصبح جاهزا لسقي الغزل المعدّ للنسيج .

ومن الملاحظ أنّ الفقهاء المتأخرين كثر تعرّضهم لهذه التقنية وٱنكبابهم على

---

(1) ابن عرفة ، **المختصر**، ج III، ص 169. الوزان ، **وصف افريقيا**، جII ، ص 145 (وقد ذكر ان وصوف نفزاوة كان يحمل الى الاسكندرية).

(2) الدبّاغ ، **مناقب الدّهماني**، ج II، ص 115ب . ابن ناجي ، **معالم** ،جIV ، ص 203–226(ذكر نساء الشبيبي وراء المنسج) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 3ب.

(3) البرزلي، **نفسه** ، جI ، ص 1217. وقد ذكر في موقع آخر من مصنفه (ج II، ص 1173) ظاهرة لقط الصّوف في الأزقّة والمزابل وتجميعه لبيعه، وهو أمر متداول منذ العهد الأغلبي .

(4) البرزلي ، **نفسه**، ج III، ص 63ب. ابن الرامي، **الاعلان في احكام البنيان** .

(5) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 170 ، 105ب. ج III، ص 63ب .

دراستها، مجيزين استعمالها في الجملة. وهو ما يأتي شاهدا على مدى رواجها في العصر الحفصي ، وان كنّا لا نعلم الشيء الكثير عن جذورها (1) .

والى جانب تصنيع الرّماد لغسل الصوف أو سقي الغزل باستعمال النشا، فان مرحلة الغزل احتاجت الى آلة أساسيّة للعمل : وهي المغزل ويبدو أنّ عصرنا هذا شهد تطوّرا في صناعة هذه الآلة، مثلما عرف بروز ظاهرة الفنادق المخصّصة للحرف . فقد ذكرت لنا مصادرنا مغزلا في القرن الثامن هـ ./ XIVم، اطلقت عليه تسمية القرناس، وكان ينطق بتونس القرنوز (ولعلّ هذه الكلمة تصحيف للقرنون، وهي بدورها تحريف للمغزل المستعمل باسبانيا المسمّى (Cardus) :.ويبدو أنّ التأثير الاسباني (المباشر أو عن طريق الاندلسيين) واضح في رواج هذه المغازل التي يزداد بيعها في فصل الرّبيع، وكان التجار يردّدون أهازيج في شأنها مرتبطة بشقاء الكادحين في عمل الصّوف(2).

ومن الأدلّة الأخرى على تطوّر صناعة الغزل بافريقية ظهور مجمّعات كبرى لهذه المادّة حول الحواضر، من ذلك ما ذكر في شأن مسحبة مقرين للغزل، المنتصبة في الضاحية الجنوبيّة لمدينة تونس. وقد كانت على ما يبدو مستودعا كبيرا معدًا لتجميع الغزل الذي يؤتى به من عدّة مصانع صغيرة ، وذلك لغرض تصنيعه ونسجه. وحرصت السّلطة على حماية هذا المخزن(3) .

كما تميّزت كبريات المدن بوجود سوق الغزل ، من ذلك سوق الغزل بمدينة تونس الذي كانت تؤمّه النّساء بكثرة وتميّز هذا السّوق بالتعامل فيه بالفضّة نقدا (4).

ج)النّسيج والحياكة : لئن كان النسّاجون يحسبون في عداد أصحاب المهن المتواضعة ، طيلة فترات عديدة من التاريخ الاسلامي، بما في ذلك الحقبة الزيريّة ، شأنهم في ذلك شأن الكنّاسة والحجّامين ، فانّهم أصبحوا ذا شأن في العهد الحفصي، نتيجة تطوّر صناعة النسيج في حوض البحر المتوسّط . فقد ارتفعت مكانتهم في المجتمع، حتّى أصبحت صناعتهم من ضمن الصّناعات الرّفيعة المخصّصة " لوجوه الناس " ، وذلك بشهادة أحد كبار العلماء في القرن الثامن هـ / XIVم ، وهو ابن عرفة .

وفي غضون هذه الحقبة، برزت " أرستقراطيّة حرفيّة " من الحاكة والنسّاجين

---

(67) القباب، **شرح كتاب البيوع**، ص 5 ب . القلشاني ، **شرح الرّسالة** ، ج II، ص 42 ب .

(68) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 170من ذلك : « من يشتري بقاطعه ما يتعب اصابعه » .
انظر ايضا : Dozy, **Supplément**,T II,p.340

(69) البرزلي ، **نفسه** ، ج IV، ص 1238.

(70) ابن المناصف،**نفسه**، ص 101 ب. البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 131 .
وكان الصّوف يباع وزنا ، ويختلف جودة . انظر : ابن راشد ، **الفائق** ، ج I، ص 233 ب .

لحواضر المغرب (تونس وتلمسان وفاس) ، وأصبحت الحياكة من الصّناعات المرجوحة عند النّاس **"لايتعاطاها الاّ الافاضل"** . وبالتالي ، فانّ انتماء الحاكة الى المهن "الخسيسة "لم يكن أمرا ثابتا كما ذهب الى ذلك أحد الدّارسين (1) .

وممّا يدعّم ذلك أنّ نساء بعض العلماء بمدينة القيروان كنّ يقضّين أوقاتا طويلة وراء المنسج المنزلي . وقد ذكر الوزّان الحاكة والنساجين في عديد المدن الافريقية مثل نقاوس وقسنطينة (التي عرفت بتصدير الحرير) وباجة وتونس والمحرس وطرابلس وقفصة وغيرها (2) .

والحقيقة أنّ أوضاع الحاكة الاجتماعيّة اختلفت حسب مدى تملّك وسائل الانتاج : فأرباب الدّكاكين والمتملكون للأنوال كانت وضعيتهم حسنة، وذلك على خلاف عدد كبير من الصنّاع الذين يكترون المناسج من أصحابها على عمل معلوم وأجرة معلومة ، والذين كانوا عرضة أكثر من غيرهم لثقل المغارم وارتفاع الاكرية، ممّا عزّز اللحمة بينهم وجعلهم يلتجؤون الى تكوين صندوق مشترك لتجميع المال (3) .

ورغم أنّ المواد الأوليّة يؤتى بها من البادية ، فانّ بعض تجّار القماش، وخصوصا سوق الجبّة ، كانوا يتحرّون في بيع منتوجاتهم الى الأعراب في فترات التوتّر الاجتماعي (4).

كما تحرّى بعض العلماء في استعمال بعض المواد المجلوبة من المدن التجارية مثل قماش الملف لاستعماله شحم الخنزير (5).

على أنّ هذه الموانع لاتخفى علينا عجز هذا القطاع الحيوي على منافسة نظيره بالمدن التجارية في جنوة وبيزة والبندقية وبرشلونة، حتى أصبح تدريجيًا

---

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 1217، 238ب . انظر كذلك .
R.Brunschvig,les métiers vils en Islam,In **Etudes d'Islamologie**, T, p.145-164.
(وقد أعتمد في رؤيته على مقولة معاصرة، وهي : حوكي مزلوط / ربّاط خيوط) . وفي هذا المضمار ، نسب الشّافعي في بعض المجاميع قوله :

تجنّب عشرة الانذال	لتصحبك السّعادة في أولئك
فست ليس يصحبهم لبيت	فان أعددتهم فهموا أولئك
فجزار وبوّاب وعبد	وحجّام واسكاف وحائك

(القاسمي: قاموس الصناعات الشامية :، ج I، ص 80) .

2) ابن ناجي ، معالم ، ج VI، ص203–226. الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II، ص 53، 56، 66 ، 93، 145 ،97.

3) الونشريسي ، **المعيار** ، ج V، ص 223، 297– 298 . (4) الابيّ ، **الاكمال**، ج V، ص 31 .

(5) الونشريسي، **المعيار** ، ج ا ، ص 3 . كما تحرّى بعض العلماء من استعمال كاغذ الروم (**نفسه** ،ج ا ، ص 85.75).

مرتبطا به. وازداد توريد القماش الجنوي الذي أغرق السّوق المغربيّة ، كما تسرّب بعض الحرفيين الطليان (من خيّاطين وفرّائين وحذّائين)، الى المدن الكبرى مثل تونس وبجاية وسبتة. وذلك فضلا على هيمنة على المواد الأوليّة (من مواد صباغة وخياطة ونسيج) .

وقد أحصى أحد الباحثين من مجموع 95 عقدا تعني صادرات جنوة للقماش بأنواعها : (لحاف،كتّان،نسيج قطني) سنتي 1200–1290، النّسب الخاصّة ببلاد المغرب : 42 عقدا، قيمتها 2966 ليرة (من جملة 7459 ليرة)= 39,8٪ من المجموع (1).

3) الحرف الأخرى المرتبطة باعداد الثّياب : القصارة والكمادة والصباغة :

أ) القصارة : لغة ، قصر الثوب قصارة وقصرّه : حوّره ودقّه بالمقصرة التي هي القطعة من الخشب ، ومنه سمّي القصّار. والقصارة اصطلاحا هي تهيئة الثوب بعد نسجه ، وتبييضه وذلك ببلّه ودقّه بالقصر، وهي مهنة شاقّة (2) .

يتولّى القصّار تنضيف المنسوجات قرب عيون الماء والأودية ، وعادة ما يقوم بهذا العمل خارج أبواب المدينة ، ممّا يجعله عرضة لغارات البدو. وقد ذكر القصّارون خارج جلّ المدن الافريقية مثل سوسة وصفاقس وتونس وتوزر والمرسى والحمامات (3) . ففي توزر ، كان القصارون يجتمعون بباب (بوادي توزر) ، " **فينشرون هناك الثياب الملوّنة والأمتعة الموشية** " . أما بمدينة تونس ، فقد خصّصت لهم دكاكين داخل المجال الحضري ، ولكن يبدو أنّ عملهم كان يتمّ بالمرسى، الضاحية الشمالية للمدينة حسبما ذكرالوزان (4) .

وفضلا عن مسألة دين تعلّقت بقصّار بمدينة تونس في القرن السّابع هـ/XIIIم ، فانّ القلشاني أورد ثلاثة أحكام مرتبطة بهذه المهنة (5) .

(1) G. Jehel, **op. cit**, p. 349.

(2) ابن منظور ، **لسان العرب**، ج III، ص 101. القلشاني ، **شرح** ، ج II، ص 179. القاسمي، **قاموس الصناعات الشامية** ، ج II، ص 353–354 .

(3) ابن راشد، الفائق، ج IV، ص 12. مقديش، **نزهة الأنظار**، ج II، ص 299 . الحميري ، الروض المعطار ، ص331، 366 . الوزان ، **نفسه** ، ج II، ص 82–83 .

(4) التجاني ، رحلة ، ص 158. الوزان ، **نفسه** ، ج III، ص 82 . يقع سوق القصارين بتلمسان في أطراف المدينة ، قرب أجادير .

راجع : **المواهب القدسية في المناقب السوسيّة** ، مخ 6253 ، ص 119.

(5) **مناقب القرجاني**، مخ 677 ، ص 141– القلشاني ، **شرح** ، ج II، ص 179. وهي تخصّ :

– ضياع الثوب عند القصّار بعد أن قصّره .

– اذا أخطأ القصّار بدفع ثوبك بعدما قصّره الى غيرك

– ضمان القصّار قرض الثّوب وإفساده

ب) الكمادة :

لغة كمد الثّوب ، دقّه بصقال الكمد. وتأتي مرحلة الكمادة بعد الغسل والقصارة، حسبما أوضح ابن راشد (1)، وكان للكمادين دكاكين خاصة بهم بمدينة تونس، يعملون فيها بالأجرة ، ويضمنون الثّوب اذا أتلفوه أو ضرّوا به . وكان من عادتهم في القرن الثامن هـ / XIV م أن يجعلوا النّشا في الكمد ، ويعمد بعضهم الى تطرية الثوب الملبوس بالقصارة والكماد ، حتّى يظنّ أنّه جديد (2) .

ج) الصباغة :

تعتبر الصباغة المرحلة الأخيرة لتهيئة المنسوجات. وكانت تعتمد على مواد نباتية وأخرى حيوانيّة مستخرجة من الحشرات مثل القرمز واللّك ومواد كيميائيّة مثبّتة للصّباغة مثل الشّب الذي يوضع مع المادّة الملوّنة في الماء السّخن في آنية يطلق عليها خابية الصبّاغ أو قدر الصبّاغ . وينزل فيها الثّوب عديد المرّات ، حسب نوعيّة اللّون . وكان لطبيعة الماء المستعمل دور في فاعليّة الصّباغة ، وقد اشتهرت في هذا الصدد عين ببلاد نفزاوة في اكساب المصبوغات رونقا وطلاوة .

ويعتمد عمل الصباغة على الوقود المكوّن من الحطب، ولعلّ هذا ما يفسّر قرب الصبّاغين بمدينة تونس من مخازن الحطب بباب الفلاق (3) .

وتستعمل مواد عديدة في صباغة الثياب، البعض منها يؤتى بها من خارج بلاد المغرب، وكانت بعض المجموعات اليهوديّة المستقرّة في الموانى المتوسطية والآسيويّة تحتكر تجارة هذه المواد . وأهمّها :

–الشبّ : يستعمل لتثبيت ألوان الصباغة على القماش . وكان يستورد من آسيا الصغرى واليونان عن طريق المدن التجاريّة (4).

–المصطكى : من البطميات التي يستخرج منها علك معروف . وينبت بريّا في سواحل الشام. وكانت من المواد المستوردة في العهد الحفصي (5) .

–الأرجوان : يستورد من الشّرق الاقصى حسبما ذكرت ذلك وثائق الجنيزة (6).

(1) ابن راشد، **الفائق**، ج IV، ص 128 (قال : اذا أمر ربّ الثوب الغسّال أن يدفع الثّوب بعد تمام غسله الى الكمّاد، فادّعى ذلك واكذبه الكمّاد وادّعى ضياعه).

حول مفهوم الكماد، انظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج III . Dozy,**Supplément**, T II, p.488

(2) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 70 ب. القلشاني، **شرح** ، ج II، ص 145، 79 . ابن المناصف ، **نفسه**، ص 1103، ابن القباب ، **شرح** ، ص 115 ب .

(3) ابن قنفد ، **الفارسية** ، ص 167. التجاني، رحلة ، ص 142 .

(4) Carrere, **Barcelone**, p.258,631

(5) البرزلي، نفسه ، ج II ، ص 161 ب.

(6) Goitein, **Letters of medieval Jewish Traders**, p.237

–اللاكّ : انتقلت هذه الكلمة من الهنديّة الى الفارسيّة ، فالعربيّة ومنها إلى الفرنسيّة . وكان اللك والمصطكى يستوردان بدون تصفية. ثم تطرح منها الأوساخ. وينظف اللكّ قبل بيعه بمدينة تونس . على أنّه كان يباع جملة واحدة، خاما بالقيروان وبلاد السّاحل . ويستعمل اللكّ الى جانب الصّباغة في طلي الخزف باللّون الأحمر (1) .

–النّيل : تستورد في شكل قوالب من الشّرق الأوسط وخاصّة الاسكندرية بحرا، منذ العهد الزّيري. وكان الصبّاغون بتونس يقتنون هذه المادّة من كبار التجّار، ويستعملونها في استخراج اللون الازرق (2) .

–النارنج : استعمل في العصر الحفصي في الصّباغة ، الى جانب الزعفران والكركب لاستخراج اللون الأصفر (3) .

– الورشلة أو الورجلة : سمّيت كذلك نسبة الى الشاعر اللاّتيني ورجيلوس (Virigile) ، وهي جنس شجر من القرنيات الفراشيّة . وقد تعوّد الصباغون بتونس استعمال هذه المادّة في الصّباغة (4) .

– الطرطر : هو نبات من فصيلة الطّرفاء ، تستعمل للتزيين وتستورد عن طريق المدن التجاريّة (5) .

– القرمز : مادّة يستخرج منها اللون الأحمر وتنتج بعنّابة ووهران، ويصدّر بعضها الى المدن التجارية الاوروبيّة، وخاصّة برشلونة (6) .

وفي الجملة ، تبدو أنّ أغلب هذه المواد مستوردة من خارج البلاد ، وأنّها كانت خاضعة لشبكة من التجّار في البحر المتوسّط ، المهيمنين على هذا القطاع. ولعلّ هذا ما حدا ببعض الحرفيين بمدينة تونس الى التخلّص من هذا " الاحتكار " ، وذلك بابتكار مواد جديدة تعوّض اللك والورشلة والطرطر وغيرها .

ففي بداية القرن التاسع هـ / XV م، حاول أحد معلّمي الصبّاغين ، ويسمّى مجداد، ادخال بعض العقاقير الجديدة التي تعلّم استعمالها بالمغرب الأقصى ، وأراد تعويض مادّة اللاّك بمواد أخرى ، غير أنّ الصبّاغين، الذين كان وعيهم

---

(1) نفس الاحالة .

(2) Idris, Commerce maritime et Kirad en Berbérie Orientale d'aprés un récit inédit de Fetwas médiévales, **JESHO**,1961,p.225.

(3) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 163ب ، 179أ.

(4) نفسه، ج IV، ص 420ب. الابي، **الاكمال**، ج IV، ص 260.

(5) البرزلي ، نفس الاحالة السّابقة. الونشريسي ، **المعيار** ، ج VI ، ص 314. 631. Carrere, **Barcelone**, p

(6) Carrere, **Barcelone**, p.458 629.

بالانتماء الحرفي قويا، تضرّروا من هذا التّنافس ، فاشتكوا ذلك الى القاضي ابن عرفة الذي أمر بقطعه (1) .

أما عن ثمن الصّباغة ، فانّه لا يتجاوز في العموم 10٪ من سعر الثّوب: فقد ذكر ابن راشد أنّ ثوبا قوم قبل الصّباغة : بـ85 دينارا ، وبعدها بـ: 95 دينارا. أي أنّ ثمن الصّباغة : 10 دنانير (2).

وفي الجملة ، فانّ الصّباغة مرحلة هامّة في صنع المنسوجات، وقد كانت معرّضة أكثر من غيرها لتقلّبات السّوق العالميّة التي أحتكرتها فئات محدودة من كبار التجّار الأوروبيين واليهود. ممّا جعل فئة الصبّاغين في أرتباط وثيق بهذه التجارة الخارجيّة، فضلا عن حاجتها الى مواد الوقود (الحطب) وبعض العقاقير المجلوبة من البادية .

4) الخياطة :ارتبطت الخياطة بمهن أخرى مثل مهنة الأبّارين الذين يتولّون صنع الابر وبيعها والرفائين الذين يرفأون الثياب القديمة ، وقد ذكر سوق الابارين بمدينة تونس شمال جامع الزيتونة، وكان من الأسواق النادرة التي يتعامل فيها بالفضّة، لا بالذّهب (3).

أ) الخياطة وتطوّر الهندام : انتصب الخياطون في نفس هذا المجال ، قرب جامع الزيتونة، اذ كان من عادتهم الجلوس في رواق الجامع الشرقي (4) .

ونظرا الى موقعهم القريب من القصبة، فانّ البعض منهم كان في خدمة أرباب السلطة والمخزن (5) .

ومن الواضح انّه يوجد تفاوت كبير داخل أصناف الخياطين : فالفارق جليّ بين الرفّائين والخيّاطين المخصّصين للسّوقة وبين صنف ثان اقتصر عمله على الطّرز الأميريّة والفئات العليا من المجتمع، حتّى أنّ البعض منهم تمكّن من الوصول الى سدّة الحكم أو كاد، مثل ابن أبي عمارة المسيلي وابن أبي دبوس (6).

---

(1) البرزلي ، **نفس الاحالة السّابقة**. حول الغشّ في الصباغة، راجع : ابن المناصف، **نفسه**، ص 1103. ابن راشد، **نفسه**، ج IV، ص 25 ب.

(2) ابن راشد، نفسه ، ج II، ص 134 ب .

(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 88ب. عبد الله الترجمان، **عنوان الاريب**، ص20. الزركشي، **تاريخ** ، ص 116–117 .

(4) الابي، **الاكمال**، ج II، ص 279–280 . قال الأبيّ في هذا الصّدد : « كان الخياطون والرفاؤون يجلسون بالسّطح الأعلى من شرقي الجامع يعملون اشغالهم هناك ويحرسون . ولم تكن هناك بناءات مرتفعة تمنع النّظر، وعلى أرباب ذلك الربع عقود بأن لا يرفع أحد بناءه رفعا يمنع الجالس هنالك من الحرس ».

(5) **مناقب**، مخ 18555، ص 155ب. حكى عن بعض الخياطين وكان من جيران الشيخ علي الفحّام، قال : نسيت ليلة الحانوت وكان فيها شغل كثير للمخازنية والقصبية ناس أشرار. فخاف عليها من السرقة، وذهب ليلا لتفقدها .

(6) راجع الفصل الخاصّ بحركة ابن أبي عمارة .

ولئن اكتفت فئات العامّة بالمدينة والبادية بلباس بسيط، فانّ الفئات العليا والوسطى من أهل الحضر اهتمّت بالتنميق والتزيين، مولية اعتناء فائقا لمظهرها الخارجي مقبلة على خياطة الملابس والطّرز، واقتناء المستجدّ منها، وخصوصا النّساء.

فالحضر بمدينة تونس استنكفوا من لباس "السّوقي من الخياطة" وتفنّنوا في اقتناء الملابس من خارج البلاد، فقد انتشرت الأقمشة الأجنبية، وخصوصا الملف نسبة إلى "أملفي" منذ العهد الموحدي، وأصبح كثير الرّواج لدى عديد الفئات الحضريّة، بما فيهم العلماء مثل السطّي وابن عبد السّلام الهوّاري، وذلك رغم تحرّيات بعض المحافظين الذين رفضوا لباس الملف لكونه يقع ترطيبه بشحم الخنزير.

كما كانت الطّرز الروميّة ذائعة بتونس في العهد الحفصي، فقد ذكر أنّ تكاليف الخياطة الرّوميّة بدرهم والعربيّة بنصف درهم في أواخر القرن الثامن هـ/ XIVم (1). وقد بيّنت الدراسات الأخيرة وجود عدد هام من الحرفيين المنتسبين الى المدن الايطالية يشتغلون بمدينة تونس: ففي سنة 1289م: ذكر داخل المدينة من بين الجنويين:

- 7 خيّاطين
- 5 حدّادين
- 3 خرّازين (صناعة الاحذية)
- 1 تاجر الخمر
- 3 فرّائين (صانعي الجلود)

وهذه الارقام وحدها كافية للدّلالة على أهميّة التأثيرات الأوروبيّة في مدينة تونس (2).

وحصيلة القول، تميّز أهل الحضر عن البدو باهتمام أكثر بالهندام، خياطة ولباسا. وظل اللّباس دالا على الانتماء الاجتماعي داخل المدينة أو البادية.

5) الدّباغة: بين المجالين الرّعوي والحضري:

كان الارتباط وثيقا بين الدبّاغ ومواد عمله الأوّليّة، من جلود ومواد دباغة، التي يوفّرها من البادية. وقد تعوّد المغاربة على العمل بطرق متعدّدة لصنع جلود الحيوان وحمايتها من الفساد وتصنيعها. ففي جنوب افريقية، استعمل سكّان

1) ابن عرفة، **المختصر**، ج III، ص33، ج IV، ص 2ب. الابيّ، ا **لاكمال**، ج VII، ص 106. البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 172ب. مناقب ابي سعيد الباجي، ص 17.

2) G.Jehel, **Les Génois en Méditerraneé Occidentale (XI-XIVeme s.)**, Paris1992,p.404

جبل نفوسة بعض أصناف العود والملح والتّمر والتّين والزيتون والرمّان للمحافظة على طراوة الجلد، كما استعملت ثمار أخرى من الشجر البرّي وقشر الشّجر من الطّرفاء والجوز والرّتم وأشباهها في هذه العمليّة.

أمّا عن كيفية القيام بها في هذه المناطق، فانّ جلود الجمال والبقر وغيرها تبسط على الأرض، ويجعل فيها الدّباغ الذي وقع خلطه بالماء، ويظلّ كذلك حتى يرشح منها. أمّا الجلود الصّغيرة للغنم والماعز، والتي تصنع منها جلود الرقّ والقربة، فانّها توضع في الماء الذي يخلط مع الدّباغ، داخل آنية يطلق عليها قصريّة.

وأستعملت لتنظيف الصّوف والوبر مواد لا تثبت فيها مثل التّربة البيضاء والجبس والرّمل الذي يخلط بالماء، وقد تعوّد الأهالي على تكرار هذه العمليّة مرّات عديدة، وكانوا يمتنعون من أستعمال تراب السّباخ والرّماد ومدقوق النّبات(1).

والظاهر أنّ المواد المستعملة لم تختلف كثيرا عمّا يقع بجبل نفوسة، باستثناء الشبّ الذي قد يكون معروفا في الدّباغة منذ تلك الحقبة، ففي مدينة تونس كانت مهنة أحد أعلامها، وهو أبو هلال عيّاد (المتوفّى سنة 665هـ) جمع الدّباغ من البريّة وبيعها في السّوق (2).

ولئن تميّزت هذه الحرفة بالبادية (ومنها القرى الجبليّة والسّاحلية) ببساطة تنظيمها، فانّها خضعت الى هيكلة دقيقة داخل المجال الحضري:

ففي مستوى أقتناء المواد الأولية، كانت مواد الدّباغ تجمع من البادية وتباع في الأسواق. أمّا الجلود، فقد كانت مسالك اقتنائها تمرّ بأصحاب المواشي والجلاّبين والقصّابين والجلاّدين.

أ)- القصّابون: خضعت هذه المهنة لتنظيم عمودي قاعدته السّفلى الرّعاة وأعلاه السلطان. ففي العهد الزيري، انفرد تاجر السّلطان باشتراء الماشية من السّوق ثم بتوزيعها على "فقراء" الجزّارين لذبحها مرابحة. وظلّ هذا الاحتكار قائما في العهد الحفصي: فقد أنفرد بعض الجزّارين بأشتراء المواشي برحبة الغنم بتونس، فيما منع بقيّة النّاس. وهي عمليّة كانت تحظى بموافقة ضمنيّة للسّلطان. بل أكثر من ذلك: فقد شارك كلّ من السّلطان والقصّاب في النّهب المنظّم الذي

(1) الشماخي، **كتاب الايضاح**، ج I، ص 369، اسماعيل الجيطالي، **قواعد**، ج I، ص 160.

(2) **مناقب**، مخ 18555، ص 17. يبدو أنّ هذه الطرق لا تختلف كثيرا عمّا يقع الآن وهو ان يضع الجير والماء على الجلد الاخضر، ثم ينزع منه الصّوف. وبعدها يغسل الجلد ويوضع فيه الملح والشب وقشور الرمان للمحافظة على طراوته، ثم ينظّف. وتستعمل طريقة ثانية بقرى الساحل وهي النّشا والشب والماء التي يدهن بها الجلد فيعطي لونا ابيض، فيما تعطي قشور الرمّان وقشور التازغا لونا أحمر للجلد. وقد اختلفت أعشاب الدّبغ من الجنوب إلى الشمال.

تعرّضت له البادية ، وهو أخذ إتاوة من الرّعاة يطلق عليها شاة العادة .وقد قال البرزلي في شأنها : **« ومثله في القيروان يجعل جزّار مشهور يده على شاة أو شياه يقال لها : شاة العادة يلزمها من المخزن أضعاف ما يلزم غيرها، فلا يقدر أحد أن يزيد فيها حتى يأخذها من البدوي بما يشتهي من بخس الثّمن»** (1) .

ومن الطرق الأخرى الدالة على مدى طبيعة هذا الاقتصاد النّهبي هو أنّ الجزّارين يتلقّون الغنم المقبلة من البادية في الطريق لاقتنائها بأسعار غير مرتفعة (2) .

ب)الجلاّدون : تخصّص هؤلاء في اقتناء الجلود بعد ذبحها ، وتجميعها من دواخل البلاد لبيعها في المدن الكبرى أو وسقها الى خارج البلاد، في اتجاه المدن التجاريّة الايطاليّة . وقد ذكر عدد هام من الجلادين بافريقيّة منذ القرن السّادس هـ/ XIIم . وكانت الجلود والشمع بالقلّ تقع مقايضتها بالبضائع الجنوية (3).

وبالتالي ، فانّ اقتناء الجلود يمرّ بمسلك معقّد يشمل البدو الرعاة والقصابين والجلاّدين والسّلطان وغيرهم. أمّا في مستوى تصنيعها داخل المجال الحضري، فهي تخضع بدورها الى نظام دقيق، إذ تموضعت دور الدّبغ في أطراف المجال الحضري، لنسبة درجة التلوّث فيها، وكانت في الغالب دالّة على حدود هذا المجال وتطوّره من حقبة الى أخرى .

وأدّى التراجع العمراني الذي أصاب مدينة القيروان في أواسط القرن الثامن هـ/ XIVم الى انتصاب سوق الدّباغة داخل أسوارها، آخذة مكان الخرائب المندثرة. على أنّ هذه الوضعيّة لم تدم طويلا ، إذ صحب الصّحوة التي عرفتها المدينة في أواخر القرن الثامن هـ وبداية التّاسع هـ أمر الوالي بنقل جلّ دور الدّبغ خارج السور .

ومثّلت بعض الدّور استثناء لهذا الأمر: فقد ظلّت قائمة داخل سور القيروان ، وتصرف نفاياتها في قنوات تخرج من السّور. ولم يجد اشتكاء المتضرّرين من التلوّث نفعا في تغيير مكانها ، نظرا إلى ارتباط هذا الدّباغ بأصحاب الجاه ولشهادة العرفاء بكونها قديمة (4) .

---

1) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 1157.
2) ابن راشد ، **الفائق** ، ج II ، ص 12 ب .
البرزلي، **نفسه** ، ج ، ص 161 ب . العقباني، تحفة الناظر، ص 227،226. وقد ذكر القباب (**شرح** ، ص 41ب) انّه لا يجوز لأهل الذمّة ان يكونوا جزّارين أو صيارفة . وكان القصّابون يعمدون الى طرق مختلفة داخل الاسواق لتحقيق أرباح طائلة : فاذا كان من عادة أهل القرى بيع اللّحم جزافا، اكداسا بدون وزن، فانّ القصابين بالمدينة كانوا يزنون اللّحم، بعد خلطه ببقيّة بطونه، بنسب معيّنة . كما كانوا يعمدون الى النفخ.
3) راجع : الفقرة الخاصّة بالتجّار . الوزان ، **نفسه** ، ج II ، ص 54. Carrere,**Barcelone**,p.629. أو برشلونة. وقد كانت الجلود المصدّرة من جربة (المسمّاة Gerbusci) تقايض لدى تجار برشلونة بالقمح الصقلّي.
4) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 1164، 292 ب ، 300ب . ج IV، ص 119-131 .

وعرفت مدينة تونس نفس الظاهرة: وهي هجرة دور الدّبغ من خارج الأسوار الى داخلها على إثر ازدياد الخرائب في الداخل في نهاية القرن السابع هـ/ XIIIم. على أنّ الضّرر المتأتي من القذرات لقي تصديا من أحد "المحتسبين" الذي تمكّن من قطعه ومن نقل الغسّالة خارج السّور، ورغم محاولات صاحبها العودة الى الموضع الأوّل ، فانه لم يتمكّن من ذلك (1) .

وفي الجملة ، فانّ فترات التراجع العمراني اقترنت بمحاولات الدبّاغين احتلال مكان الخرائب ، وبالتّالي فقد غلب على هجرة أسواق الدباغة الاتجاه من خارج الأسوار إلى داخلها، على الاتجاه المعاكس.وهوما مثل مظهرا هاما من تريّف المدينة و اهمال التهيئة العمرانيّة بها.

على أنّ سوق الدبّاغين ظل محافظا على وحدته بمدينة تونس ، وكان ، مثل غيره من الاسواق ، توظّف عليه قبالة (أو لزمة) من قبل العمال ، وهو ما استنكره بعض علماء العصر، ومن بينهم البرزلي (2) .

وبديهي القول ، انّ هذه الجلود تستعمل لأغراض شتّى من ملابس وأواني منزلية وآلات وسروج وأحذية، ممّا يفسّر مدى ارتباط مهنة الدباغة بحرفيين آخرين مثل الخرّازين والسرّاجين والبلاّغيين.

ج)- المهن المرتبطة بالجلد :الخرازون والبلاّغون :

كان الخرّازون يبسطون جلود البقر بمحجّة الطريق، فتنالها أقدام المارّة حتّى تلين، ثمّ تقطع هذه الجلود على مقدار معيّن لخرزها وتحويلها الى ملابس وأحذية وأواني منزليّة (3).

ويباع هذا الجلد الذي تصنع منه النعال والأخفاف بقفصة وزنا . وقد اشتهرت حوانيت البلاغين شمال مصلّى العيدين بتونس بصناعة البلاغ الجيّدة ومباشرة بيعها بأنفسهم (4) .

على أنّ قائمة الأحذية لم تقتصر على البلاغ، انّما ذكرت أصناف أخرى من الأنعلة مثل الأقراف والمَدَاس والصبّاط. وقد تعوّد الخرّازون في العهد الحفصي على تغرية القرق بالنّشا أو الطين، وهو ما كان يثير حفيظة بعض النّاس الذين أصبحوا يفضّلون تعويضه بالمداس (5).

---

1) **نفسه** ، ج II، ص 292 ب .
2) **نفسه** ، ج III، ص 169 .
3) العقباني، **نزهة الناظر** ، ص 274 . القلشاني ، شرح ، ج II، ص 159.
4) ابن راشد، **الفائق** ، ج I، ص 226ب . **مناقب القرجاني** ، مخ 677، ص 113.
5) ورد في الأبيّ ما يلي : **« انظر ما يصنعه الخرّازون من تغرية الأنعلة المسمّاة الاقراق بالطعام. كان بعضهم لا يلبس القرق المغري بذلك ويامر الصّانع أن يغريه له بالطين وهو حق. وكان الشيخ يقول : لا بأس بشراء القرق المغري، فقيل : لا يتعيّن المشي به حتّى يفتقر ذلك لأنّ المداس عوض عنه. فقال : في القرق من المصلحة للرّجل ما ليس بالمداس »** .

وكان سوق الخرّازين بمدينة تونس الذي يقع قرب فندق الرصاص (بمكان سوق الجلد حاليًا) ملتزما ، مثل غيره من الأسواق، بدفع الجباية للمخزن ، وكانت تجمع كلّ سنة من أصحاب المهنة . ويبدو أنّ ثقل الجباية قد أدّى الى تفقير الخرّازين بما في ذلك خرّازو المدن التي تخصّصت في صناعة الجلود، مثل القيروان التي وصفها الوزّان بالعبارات التّالية : « **ليس في القيروان الآن غير صنّاع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز ، ويبيعونها ملابس جلديّة في مدن الواحات** » (1) .

6) **سوق العزّافين** :كان لانتشار الموسيقى ، وخصوصا الموشّحات الاندلسيّة وأنغام الصّوفية أثر بالغ الأهميّة على صناعة الآلات الموسيقيّة التي خصّص لها سوق شمال غربي جامع الزيتونة حيث يوجد زقاق العزّافين . وكان معرّضا ، كغيره من الاسواق ، الى دفع الجباية السلطانية (2).

وأشتدّ ولع المجتمع الحضري بالموسيقى . فأهل بجاية كانوا ميّالين الى المرح والرّقص والموسيقى . وفي رحبة باب البحر بمدينة تونس، كانت تعقد كلّ مساء حفلات تختلط فيها نغمات العود بايقاع المزمار والطبل ، وشدو الأغاني الشعبيّة(3).

وقد أكسبت المناسبات الدّينية ، وخاصة المولد النّبوي ، طابعا احتفاليا منذ نهاية القرن السابع هـ/ XIII م حيث أستعملت عدّة آلات موسيقيّة مثل الشبابة والطار. لكن العلماء عابوا على المتصوّفة الغناء الجماعي أثناء ذكرهم للمدائح والأذكار (4).

وكان الزّواج فرصة للاستماع الى المغنّين والعازفين على الآلات الموسيقيّة، وكذلك المغنّيات اللأتي يقع أستئجارهن (5) .

على أن فئة المغنّين والعزّافين لم تكن محظوظة القيمة لدى العلماء الذين أستنكروا تكسّبهم بالغناء والموسيقى صناعة وحرفة، وتحريكهم للأشجان والنفوس (6) .

وبالتالي ، فقد نظر الى هذه المهن شزرًا واحتقارا، فأصحابها منعوتون بالخساسة **"ومن سقطت مروءته"** ، لا تقبل شهادته عند القضاة، فيماكان أصحاب المهن المصنّفة خسيسة مثل الكنّاس والدبّاغ والحجّام والحائك مقبولة

1) البرزلي ، **نفسه** ، ج III، ص 169. الوزان ، **نفسه** ، ج III، ص 91 . **مناقب بن عروس**، ص 203.
2) الترجمان ، **عنوان الاريب** ، ص 20.
3) الوزان ، **وصف افريقيا** ، جIII ، ص 51 . Brunschvig, **Deux Récits de voyage**
4) البرزلي ، **نفسه** ، ج II ، ص 76 ب . الونشريسي . المعيار . ج VII ، ص 100، 114 .
5) البرزلي، **نفسه**، ج I، ص 1209.
6) ابن المناصف ، **نفسه** ، ص 100ب .

شهادتهم .

والحقيقة انّ هذه المهنة بمدينة تونس لم تكن مقتصرة على الرّجال ، بل شملت النّساء كذلك: فقد تخصّص بعضهن في الغناء والطرب مستعملات آلات ذات أوتار مثل العود والطنبور والمزمار، فيما عرفت بعض النّساء بالرّقص بالصفّاقتين اللّتين كانت تسمّيان بتونس في القرن الثامن هـ/ XIVم ، " الشيرانة" ، وهي تسمية مشتقة من كلمة لاتينية معناها في الأصل حيوان أسطوري له جسم إمرأة وجزؤه الاسفل حوت، وقد عرف بعذوبة شدوه الذي يجذب الملاحين اليه(1) .

كما أستعملت النساء آلات موسيقية أخرى مثل الدف والدف المغشّى من جهة واحدة (وهو المسمّى حاليا البندير) والكبر والطارة بأوتارها وشناشينها (وهي آلة نحاسية تحدث أصواتا في الدّاخل) والبرابط والمزمار .

ومن الآلات التي عرفت رواجا كبيرا بمدن افريقية نتيجة الهجرة الاندلسية آلة البوق، التي كانت مستعملة بالاندلس في الأعراس والطرب . ومنذ أواسط القرن الثامن هـ / XIV م ، ضربت البوقات بجامع الزيتونة أثناء شهر رمضان لايقاظ النّاس عند السّحور، ثمّ أنتشرت هذه العادة في بقيّة الجوامع والمدن مثل القيروان.

ممّا لفت أنتباه العلماء والمحافظين الذين عملوا على إزالتها ، لكن بدون جدوى ، ففي تلك الحقبة (وتحديدا عهد قضاء ابن عبد السلام المتوفى سنة 749هـ) حاول أحد الشيوخ بالقيروان منع أستعمالها.

وكان رأي ابن عرفة على غير ذلك : فقد أستنكف من الاستماع الى الأصوات المزعجة التي أنبعثت منها، بعد أنّ تردّت صناعة هذه الآلة وأصبحت على غير ما كانت عليه بالأندلس (2) .

أمّا آلة الطبل ، فقد كانت من أكثر الآلات رواجا وشعبية لاستعمالها في كثير من المناسبات الرسمية والعسكرية والدينية والاجتماعية. وقد أشتغل بعض الاندلسيين في ضرب الطبول (3) .

وفي الجملة ، أصبح للهجرة الاندلسية أثر هام في تطوّر سوق العزافين وادخال آلات جديدة مثل الشّيرانة،والبوق وصناعات غير معهودة بافريقية .

7) **الخشب** : مادة نادرة في الدّاخل ومعرضة للقرصنة والحصار بالخارج :

يستخرج الخشب من الشجر، ومنافعه عديدة، اذ يستعمل وقودًا للنيران (في الافران والصباغة والحمامات) وعُمُدًا وأوتادًا لخيام البدو ورماحًا وقسيًا

1) ابن عرفة، المختصر ، ج IV، ص 148 ب . 1150. البرزلي ، نفسه ، ج I، ص 238ب .
2) البرزلي ، نفسه ، ج ، ص 238 ب .
3) مناقب ، مخ 18555، ص 120.

وسهامًا لسلاحهم . ويقوم النجّار بتهيئة القطع من الخشب التي يقع خرطها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدّرة وتلحم بالدساتر، لتصنع منها الكراسي والماعون وسقوف البيوت والأبواب.

كما أستعمل الخشب لانشاء المراكب البحريّة، على انّ ندرة هذه المادة بالبلاد وصعوبة استيرادها من البلاد الاوروبيّة نظرا الى القيود التي وضعتها الكنيسة وتراجع البحريّة العربية الاسلاميّة عامّة والافريقيّة خصوصا، تفسّر التجاء أهل افريقية الى اشتراء المراكب من برشلونة وغيرها أو إبرام عقود عمل مشتركة مع المدن الاوروبيّة لصناعة المراكب (1) .

وكانت البادية المحيطة بمدينة تونس (فحص مرناق وطبربة وأريانة) تزوّد المدينة بالحطب، وكثيرا ما ذكر الحطابون على دوابهم في أزقة المدينة، ورغم أهميّة هذه البضاعة التي قال عنها الوزان انها نادرة بمدينة تونس ، فانّ بيعها كان يتمّ جزافا، وليس وزنا مثلما هو الشأن بمصر (2) .

وقد تخصّص سوق في تخزين الخشب وبيعه: فقرب باب الفلاّق ، توجد دواميس مخصّصة لايداعه(3).

أمّا الخشب المستعمل للنّجارة، فان جزءا منه كان يفد على تونس من غابات بجاية وعنابة والحمامات، وكان عرضة لحركات القرصنة. واستورد البعض الآخر من البلاد الاوروبية (4).

ولئن لم تسعفنا المصادر بالحديث عن النجّارين الاّ نادرا، فانّنا نعتقد أنّ دورهم هام داخل المدن، لتعدّد وظائفهم (صناعة السّقوف والأبواب والنّوافذ والخزائن وأدوات الفلاحة والسّفن) .

كما أستعمل الخشب في تلك الحقبة لصنع بعض ألعاب الأطفال الرّائجة الاستعمال في القرن الثامن هـ / XIV م ،مثل **الدّوامات والزرابط** ، وهي لعب ظلّت متداولة (5).

ولم تكن البضاعة الأجنبية غائبة من السوق الافريقية ، فقد ورد ذكر

1) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 731-732 .
2) **مناقب أبي الحسن الشاذلي** ، ص 7(ذكر حطاب في أهل شاذلة قرب مصلى العيدين). ابن راشد ، **الفائق** ، ج I، ص 226 ب ، الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II، ص 77 .
3) الابي، الاكمال" جII ، ص 132 ، **مناقب بن عروس** ، ص 224(ذكر حمام سوق الفلقة). **مناقب الفرجاني**، مخ 677. ص 139 (طريق باب الفلاق)
4) انظر : Alarcon, **Documentos**
5) ورد ذكر عائشة بنت سعيد النجّار(زبيس،**نقائش القرجاني**، ص 78)، البرزلي، **نفسه**،ج II ، ص 1153.

البناتي (ومفردها بتّيه) من الخشب التي تستعمل لوضع الخمر .

وعموما ، فان الخشّابين كانوا يعتمدون على المواد الأولية المجلوبة من البادية كما كانوا يوزّعون جزءا من انتاجهم في النّواحي القريبة لدى المزارعين والبدو الذين أحتاجوا الى مصنوعات خشبيّة للحراثة والانتجاع.

8) سوق الحدّادين والسقّالين : صناعة سيوف الفرسان ومحاريث المزارعين:

لم تقتصر الحدادة على صناعة حاجيات الحضر، انّما اقترنت بالعمل الزّراعي الى حدّ كبير، إذ دأب الحدادون في المدن والقرى على مؤاجرة أنفسهم من أهل البادية، فيقتني البدوي الحديد اللاّزم للزراعة على أن يسلّم أجرة الحدّاد ابّان المحصول بكيفيّة عينيّة .

وكان مبلغ أجرة سبك الحديد بالمغرب الاقصى التي يطلق عليها العادة في أرتباط مع أهميّة المحصول الزّراعي (1).

كما أرتبط عمل الحدادين بمجتمع الرحّل، في صناعة الرّكب واللجم وقوائم السّيوف المحلاّة أحيانا بالفضّة والذّهب وغيرها (2).

وخصّص سوق السقّاطين الذي يباع فيه سقط المتاع والبضائع الضّائعة (اللقطة) حيزا هاما للآلات الحديدية مثل المفاتيح والمسامير وغيرها. وكان هذا السّوق خاضعا لمراقبة الأمين، وعمل السماسرة، وعادة ما تصرف أمواله في المشاريع الاجتماعية (3) .

9) سوق الصّاغة وضرب النّقود :

تعدّدت الصناعات المعدنيّة المرتبطة بالنحاس والرّصاص والذهب والفضّة . وقد كانت الصّياغة من المهن النفيسة التي تموضعت قرب جامع الزّيتونة .

ولئن وجدت تحفظات عن اشتغال اليهود بالصّيرفة، فانّ أفراد هذه الجالية تواجدوا بكثرة في سوق الصّاغة، وحتّى في ضرب النقود .

وقد شهدت المصادر على تطوّر هذه الصّناعة بافريقيّة في حقبة ظلّت عديد المدن الاوروبيّة ،مثل برشلونة، تجهل هذه الحرفة (4) .

10) المهن الحضريّة المتعلّقة بالنظافة وأثاث المنزل :

أ) الحمام : خصوصيّة حضريّة : اعتبر الحمام مؤشرا هامّا على مدى تحضّر

1) الغرناطي، **نفسه**، ص 212ب . Carrere ,**Barcelone**,p.436
2) ابن الناصف، **نفسه**، ص 102 ب.
3) البرزلي ، **نفسه** ، ج III ، ص 107 ب .
4) ابن ناجي ، شرح ، ج II ، ص 122 .1 الابي ، **الكامل** ، جII ، ص 132 . البرزلي ، **نوازل** ، ج II ، ص 173. القباب ، **شرح** ، ص 46 ب . Carrere, **Barcelone** , p.357

العصر، مقتصرا وجوده على المدن دون البوادي والقرى الصغيرة. وكثيرا ما أرتبط عدد الحمامات بالأهمية السكانية للمدينة، فكان لكل حيّ حمام، كما بيّنا بالنسبة إلى مدينة تونس.

وأحتاج الحمام في تلك الحقبة الى تجهيزات أساسيّة وأجراء عاملين به: فقد اقترن العمل به بالوقود، وهو ما يفسّر تموضع عدد هام من الحمامات قرب مخازن الحطب، إذ ذكر حمام العبدي قرب باب الفلاق وحمام سوق الفلقة داخل المدينة العتيقة وغيره، كما ارتبط وجوده بالآبار التي كان يستخرج منها الماء بالسّني، ويتولّى القيام بهذه العمليّة سوّاق.

أما العاملون بهذه المؤسسة، فالى جانب المعلّم والسوّاق، ثمة أجير يتولّى أمر الوقود، وهو الفرناق، الذي يتحصّل على أجرة شهريّة يأخذها من صاحب الحمّام(1).

ونظرا إلى تلوّث الذي يحدثه الحمّام، روعي في موقعه الابتعاد عن المنازل والسكّان، ومنع إقامته قرب المنزل لضرر الدخّان.

وقد نصح أطبّاء العصر، بأختيار الحمامات القديمة البناء واسعة السّاحة عذبة الماء، وبآرتياد الحمّام تدريجيّا. ومن الواضح وجود تقسيم ثلاثي: البيت البارد / البيت المتوسّط الحرارة/ البيت الحارّ، وذلك على غرار الحمّامات القديمة، وان اختلفت عنها في كّيفيّة التّسخين.

أمّا عن كيفيّة الغسل والادوات المستعملة، فقد أوصى المغازلي الأمراء الغسل بالسّدر والتّرمس المعجون بالعسل، والطّفل، مع التخضيب بالحنّاء. وتنشيف الجسم والرأس بمنشف مخمّل أو من القطن الرّطب الخفيف النّسج.

كما أوصى باطالة الجلوس في محرس الحمام قبل الخروج الى أن يجفّ البدن، ولهذا " **صنع الحكماء المتقدّمون في محارس الحمامات صور الشجعان وكيفيّة الحروب والتّماثيل ليطال النظر اليها الخارج من الحمّام وتقوى نفسه بالنّظر الى تماثيل الشجعان فيتمنّع بذلك من الخروج من الحمام دفعة. فيتضرّر بآنتقاله دفعة من هواء حارّ الى بارد** " (2).

---

1) **مناقب بن عروس**، ص 223–224. مناقب مخ 12544، ابن الرامي، **البنيان**، ص 300–302. ونظرا للإستعمال المتواصل، فقد يصل الأمر الى نزوح البئر، مثلما وقع ببئر سيدي سفيان بحمام سوق الفلقة بتونس، الذي كان ملكا للاحباس، حتى أنّ صاحب الحبس التجأ الى إقالة معلّم الحمّام الجربي.

2) ابن المناصف، **نفسه**، ص 19 – ب – ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 29 ب. المغازلي، **تحفة القادم**، ص69ب. على أنّ دوره لم يقتصر في الحقيقة على نظافة الجسم والطّهارة، وإنّما تحوّل في كثير من الاحيان إلى موقع التقاء العشّاق من الجنسين. كما أنّ سلوكات النّساء داخل الحمّام من لعب ولهو تأتي متنفسا للكبت الاجتماعي الذي تحياه المرأة في تلك العصور. ولذا صدرت الأوامر "من له النظر الشرعي" الى الحمامين بالمحافظة على السّلوك والأخلاق السّائدة.

ب) **سوق العطارين**: اهتمّت هذه السوق بصناعة العطورات وبيعها، وتوزيع عديد المواد المرتبطة بها، كما اتّسع نشاطها الى بيع بعض المواد الغذائية، وهو ما يفسّر العدد الكبير لحوانيت العطارة.

وموقع سوق العطارين بمدينة تونس قرب جامع الزيتونة، على طول الطريق المسمّى في المصادر: طريق العطارين (وهو نهج جامع الزيتونة حاليا). وكان على رأس هذا السوق أمين العطارين الذي أتخذ مقرا له في القرن السابع هـ/ XIII م خارج باب منارة (1).

وتعتبر من الأسواق الحضريّة التي يكثر عليها اقبال النّساء، حسب شهادة الوزان الذي ذكر انّ التونسيات " **لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن، حتى انّ العطارين هم دائما آخر من يغلقون دكاكينهم** " (2).

كما كانت من بين الأسواق التي أرتبطت بالتجارة الخارجية، وممّا يذكر في هذا الصّدد أنّ العطارين يعمدون الى تلقّي السّلع الواردة عليهم من المدن الأوروبيّة، قبل وصولها الى السّوق. فيتحوّلون رأسا الى فنادق النصارى بباب البحر لاقتناء هذه البضائع.

على أنّ الاقبال الشديد على المواد المستوردة قد أضرّ باللّحمة الموجودة داخل السّوق المتجسّدة في شركة أهل الأسواق، وتتمثل في أحقية أخذ الحرفيين نصيبهم من البضاعة التي يشتريها أحد العطارين بالتلقّي، ويبدو أنّ العطارين المتضرّرين من احتكار الأقليّة قد أشتكوا الى قاضي الجماعة، عمر بن عبد الرفيع (749–766هـ/ 1348–1364م) الذي أجبرهم على الامتناع من ذلك، وألزمهم هذا الأمر كتابيا، بشهادة الفقيه ابن عرفة (3).

وفي الجملة، فانّ هذا السّوق الذي كانت تستخرج منه الدولة جباية هامّة، قد أحتاج الى عديد المواد المستوردة بواسطة المدن التجارية الايطالية والاسبانية، وأصبح تدريجيا في ارتباط مع الرأسمال الأوروبي.

ج) **سوق الشمّاعين**: كانت حوانيت الشماعين محاذية للعطارين، قرب جامع الزيتونة. وبنيت فيها أقدم مدرسة بتونس: وهي المدرسة الشماعيّة. وتخصّص هذا السوق في صناعة الشمع للسّوق الدّاخلية والتصدير الخارجي، وكانت شموع بجاية ذائعة الصّيت لدى الاوروبيين في تلك الحقبة، وغالبا ما تولّت ميورقة توزيعها في البلاد الأوروبية.

---

1) ابن الشماع، **الفارسية**، ص91، ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 144. ابن عرفة، **المختصر**، ج III، ص 31ب. الأبي، الاكمال، ج V، ص 31. **مناقب القرجاني**، مخ 677، ص 5 (ذكر من بين المواد التي تباع بها عود القماري)

2) الوزان، **نفسه**، ج II، ص 78.

3) الابي، الاكمال، ج IV، ص 180. **الزكشي، تاريخ**، ص 88–102

ولئن استعملت القناديل الزيت للاضاءة، فانّ الثريّات في المساجد والمنازل احتاجت الى الشموع . وكانت تنفق الاموال الطائلة لاستجلاب الثريّات في المساجد الجامعة ، مثل جامع الزيتونة، وحتى في بعض المساجد الصغرى مثل مسجد أبي عبد الله البطرني، نسبة الى بطرنة بالأندلس. وهو ما يجعلنا نستخلص أنّ هذه التقاليد الاندلسية الطارئة على افريقية قد تعرّضت الى تحفضات بعض الفقهاء، باعتباره إسرافًا في الأموال (1) .

ويبدو أنّ صناعة الوقيد المسمّى الكبريت قد شهدت بدورها أنتشارا خلال القرن الثامن هـ / XIV م، وذلك بفعل التأثيرات الخارجية . وأصبح استعماله شائعا بكامل افريقية ، رغم الاحترازات التي عبّر عنها البعض (2).

11) الحرف المرتبطة بالغذاء والصحّة:

أ) الطواحين و الأرحية : لا نعرف عن صناعة الطّحين بافريقية الاّ النّزر القليل، رغم أهميتها في كامل مدن البلاد وقراها، وتأتي إشارات متفرقة لتبين وجود صنفين من الأرحية :

* الأرحية المستعملة للطاقة المائية : تحتوي على آلات عديدة، وتجهيزات لازمة، نذكر من بينها : عدد من الأحجار والأعمدة والحلق من حديد والسدّ (الخشبي أو المبني بالحجارة) والسّلال والأوتاد والساقية التي يخرج منها الماء والبيت التي تضمّ الرّحى والأصطبل المقام للدواب في ناحية معلومة من الرّحى .

ويقع اكتراء الأرحية بعد معاينة آلتها، ومعرفة مواد بنائها وسعتها وأرتفاعها وعرض الحائط وسقفها. ولئن انتشرت بكثرة بالأندلس ، فانها لم توجد بافريقية الاّ قُرْب الأودية ذات الطاقة القويّة، ففي جنوب افريقية، ذكرت طواحين وأرحاء كثيرة منصوبة على وادي مجسر ووادي توزر، وفي الأربس، يسيل جدول ماء صالح للشراب في قناة ، مارا بين قلعة ومدشرين، ويحرّك طاحونات للقمح(3).

1) البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 1104. Carrere, **Barcelone**,p.359 .مع الملاحظة انّ الثريات (او المشكاوات) لم تكن أمرا جديدا بالبلاد. ففي العهد الزيري وقبله، كانت متداولة بالقيروان. وقد حفظ لنا متحف رقادة مشكاة مصنوعة من صفر، حملت اسم المعز بن باديس.

2) البرزلي ، **نفسه** ، ج I ، ص 1104

3) البرزلي ، **نفسه** ، ج II، ص 1166– التجاني، **رحلة**، ص 132، 157 الوزان ، **نفسه**، ج II، ص 65 . في حديثه عن انتشار الناعورة في العالم، أهمل الحديث عن افريقيّة راجع :

J. Caro Baroja, **Norias, Azudas, Acenas,** Consejo superior de Investigaciones Cientificas.

Torres Balbas, Las Norias fluviales en Espana, In **Andalus**, N°. 40 p.209.

G. S. Colin, La Noria marocaine, **Hesperis**, XIV, 1932, pp.22-60.

V. Lagardère, Moulins d'Occident musulman au moyen-âge **Al-Qantara**, XII, 1991, pp 59-117.

الاّ انّ الغالب على الأرحية المعروفة في العهد الحفصي ، وخصوصا بمدينة تونس هو استعمال الطاقة الحيوانية.

* **الأرحية ذات الطاقة الحيوانية** : لا شك أنّ عددها كان هاما في المدن الكبرى التي احتاجت الى كميات وافرة من الطحين ، ففي مدينة تونس بلغ عددها 120 طاحونة وكان يطحن بها يوميا 4000 قنطارا من الحبوب. وقد شهد كلّ من " أدورن " والوزّان انه لا توجد بها طاحونات يحرّكها الماء، بل تدار كلّها بالدّواب (من جمال وغيرها)، حتّى أنّ الرّحى لا تكاد تطحن أكثر من حمل واحد من القمح في اليوم (1) .

ويبدو أنّ هذه الرّتابة في التطوّر التقني تفسّر ارتفاع أجرة الطحين التي بلغت النصف بمدينة تونس في القرن الثامن هـ/ XIV م. وكان الجمالون يتولّون حمل الطعام داخل المجال الحضري وخارجه (2) . وقد جرت العادة أن يقع اكتراء الأرحية ، المحتوية على الآلة والبيت لمدّة معلومة بأجرة شهرية أو سنوية محدّدة، على أن يسهر المتقبل لها على صيانة معدّاتها وترميم البيت اذا أنهدم وتعويض سدّ الرّحى اذا انخرق (3).

ولئن كانت الأرحية المائيّة بعيدة عن العمران في الجملة، فان البعض من الأرحية ذات الطاقة الحيوانية قد وجدت داخل المجال الحضري، ممثّلة ازعاجا لراحة الناس من جرّاء الاصوات التي تحدثها، ومهدّدة للجدران المصاقبة لها، التي توشك على الانهيار. وتحاشيا لهذا الضّرر، فكّر بعض القضاة في قيس درجة اهتزاز الجدران ، حسبما أورد ذلك ابن الرّامي ، بالكيفية التالية :

« قال المعلم محمّد : وسألتُ القاضي ابن عبد الرفيع عن رجل عمل في داره رحًى ، فآشتكى جاره الضّرر ممّا لحق حيطان داره من هذا الرّحى، فبأيّ صورة يعلم هذا في الحائط، واين تعمل هذه الصورة حتى يعلم بها الهزّ في الارض أو في الحائط ؟ فقال لي : تأخذ طبقا من كاغيد وتربط أركانه بأربعة أخياط، في كلّ ركن خيط، وتجمع أطراف الاخياط وتعلّقهم من السّقف الذي على الحائط الفاصل بين الدّار وبين الرّحى من جهة الدّار، وتعمل على الكاغيد حبّة من كزبر يابس وتقول لصاحب الرّحى : أقلع رحاك لأنّها تضرّ بالجار، وان كان لا يهتزّ الكزبر على الكاغيد، قيل لصاحب الدّار: أترك صاحب الرّحى يخدم لأنّها لا تضرّ بك ..»(4)

1) ابن الشماع، الفارسية، ص91 ، ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 144. الوزان، **نفسه**، ج II، ص 76 . **مناقب**، مخ 18555، ص 1194 (ذكر أرحية تدور بالدواب بجهة تونس في القرن السابع هـ).

2) البرزلي ، **نفسه**، ج I، ص 1217. ابن راشد، **نفسه** ، ج IV ، ص 122.

3) ابن عرفة ، المختصر ، ج II ، ص 29 ب، ابن راشد ، **الفائق** ، ج IV، ص 10 ب .

4) ابن الرامي، **الاعلان** ، ص 305-306 .

ونظرا إلى أهمية هذا القطاع، فقد خصّص ابن الرامي عدّة فصول تتعلّق بالشركات في الأرحية ونصيب كلّ شريك، والمعاملة بين ربّ الرّحى والعامل فيها بأجرة النّصف أوأخذ غلّة يوم في الاسبوع، وتعويض الأرحية القديمة بأخرى يقع احداثها فوقها أو تحتها على الأنهار، وكذلك تعويض الأرحية التي خرجت بأخرى، ومسألة بيع الأرحية والشفعة فيها، الخ (1).

ب) الأفران : فضلا عن أفران الجيّارين (أو فرانق الجيّارين)، فانّ الأفران المعدّة لطهي الخبز كانت عديدة بالمدن الكبرى. وقد استحدثت في مدينة تونس طواحين لقلي الحبوب في الأسواق والدّور، وذلك في النصف الأول من القرن الثامن هـ / XIV م، لكن دخّانها أضرّ بالسكّان، ممّا دعا قاضي الجماعة الى الأمر بقطعها (2). وتخصّص سكّان جبال نفوسة ودمّر في صنع خبز جيّد، بمدينة تونس. وقد تعدّدت أصناف الخبز، وأهمّها :

– الخبز الجيّد المصنوع بالسّميد المستخرج من القمح الصلب.

– الخبز الرديء المصنوع من القمح اللّين وأصناف أخرى من الحبوب المختلطة.

– الخبز الأبيض الذي يصنع بتونس من الدقيق المخلوط بالسميد، ويخبز كما يجب ويخبط بمدقّة.

– الخشكار: وهي كلمة فارسية تعني الخبز الأسمر غير النقيّ.

– الجرداق : وهو صنف من الخبز كان يعمل بتونس في الأفران.

– البشماط : صنف آخر من الخبز (3).

ج) الحرف المرتبطة بالاطعمة والأشربة : تعدّدت هذه الحرف داخل المجال الحضري، ومن بينها حرف الشواء والطبّاخ والهرّاس والزيّات والخضّار والكيّال والسقاء والشرابي وغيرها. على أنّ الطابع الرّيفي كان غالبا على كل هذه المهن التي لم تكن دوما خاضعة للقواعد الصحيّة اللازمة.

– فالشوّاء كان يضع اللّحم ويطبخه دون غسله. وكذلك كان يفعل الهرّاس يلقي اللّحم في القدر دون غسل (4)

– وكان الزيّاتون يتجوّلون على دوابهم في أزقّة المدينة لترويج بضاعتهم،

1) **نفسه**، ص 468–477. الصباغ، **مناقب أبي الحسن**، ص 160. **مناقب**، مخ 12544، ص 111ب.
2) ابن الرامي، **نفسه**، ص 301–302.
3) الوزان **نفسه** II، ص 75–76. البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 163 ب. **مناقب بن عروس**، ص 422، 498. العقباني، **نفسه**، ص 226.
4) البرزلي، **نفسه**، ج III، ص 56ب–157، ج I، ص 135 (ذكر البرزلي لحم ذكر النّعام، النقانق، مشويا).

وذلك زيادة على وجود فندق الزيت المخصّص لبيع هذه المادّة وخزنها. وقد منع القضاة استعمال كيّالي الزّيت للقلال والأزيار الوسخة (1).

ووجدت أسواق ورحبات خاصة بالحبوب، يطلق عليها سوق البرّ. وممّا يذكر انّ هذا السوق انتقل مكانه الى موضع ثان ملك للمخزن بمدينة القيروان في النّصف الثاني من القرن الثامن هـ / XIV م، وقد أجبر تجار سوق البرّ على اخلاء المكان الأوّل عنوة.

ولئن عدّ بعض الكيّالين من الثقاة، فان آخرين لجأوا الى التحيّل في كيل الحبوب، وتحاشيا لهذا الغش، فضل أبو علي القدّاح بيع القمح وزنا (2).

أما عن الأواني المستعملة في البيع، فكانت متعدّدة: فالثمار الجافّة مثل اللّوز والجوز تباع في صوانها والخلّ في القلال وماء الورد في القماقم والزيت في الجرار والورد والزّبد في ظروف معيّنة والعطريات ومواد الصّباغة مثل اللاكّ بعد التصفية والغلال في السلال والقراطل (3).

– ومن الحرف الأخرى، السفّاجون الذين تواجدوا في مختلف أحياء المدن، مشتغلين في احضار الاسفنج بطرق متعدّدة: فقد كان يهيأ في السّمن والعسل، أو يؤكل مع غذاء آخر مستساغ أطلق عليه معذبة (4).

– أمّا السقاؤون، فكانوا يتجوّلون بدوابهم وأوانيهم داخل المدينة، لتوزيع الماء وسقي العطاشى. ومثّلوا لفيفا من العامّة، رغم إقبال بعضهم على العلم مثل سعد اللّه السقاء في القرن السّابع هـ / XIII م (5).

II- تنظيم التّبادل الحضر-ريفي :

1) التجّار والباعة بافريقية في العهد الحفصي :

أ) التجارة والتجار عند ابن خلدون : عرفها ابن خلدون بما يلي : **« أعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء..وذلك القدر النامي يسمى ربحا»** (6). ولئن كان الكسب قيمة للأعمال البشرية، فانه ذو

1) البرزلي، نفسه، ج I، ص 25ب. ابن الطوّاح، سبك المقال، ص 107.
2) ابن عرفة، المختصر، ج III، ص 14. حول طرق التحيّل، انظر الفقرة الخاصّة بالمكاييل. وفي مناقب القرجاني (مخ 677، ص 112) ورد ذكر أحد الصلحاء : وهو عبد الله الكيّال النّحوي. البرزلي، نفسه، ج III، ص 57ب.
3) البرزلي نفسه، ج II، ص 161 ب، 1178. مناقب بن عروس، ص 432، 470، 485.
4) مناقب بن عروس، ص 428، 447.
5) مناقب، مخ 18555، ص 1117.
6) ابن خلدون، المقدمة، ص 703.

وجهين: إمّا أن يقتصر على تحصيل المعاش المتناسب مع الحاجيات، ويسمى حينئذ الرزق، وإما أن تكون المكاسب أكثر من الحاجيات ، فتؤدي إلى تكوين الرياش وظهور المتمول، أي الرأسمال. وبالتالي فان هذه الثنائية تناسب رتبية في أصناف التجار : كبارهم وصغارهم .

إن هذا التعريف للتجارة انطلاقا من تنمية المال الناجم عن الربح وتكوين الرأسمال قد جعل ابن خلدون في صدارة المفكرين المتناولين بالدراسة نظرية الفائض الاقتصادي(1).

أما موقفه من تحديد السعر، فانه لم يكن منقطعا عن مواقف سابقيه من العلماء العرب، الذين أختلفوا في الحل: فأهل السنة وقفوا موقفا سلبيا من التسعير مفضلين حرية الأسعار، وذلك خلافا للمعتزلة الذين نادوا بتدخل السلطة لتحديد السعر، فيما ذهبت كتب الحسبة إلى ضرورة تسعير المواد الأساسية للتغذية ، مع التركيز على هاجس أساسي وهو شرعية العمليات التجارية مثل البيع والكراء والايداع والسلف والصرف. وقد توصّل المازري منذ القرن XIIم إلى الربط بين السعر ومدى توفر البضاعة وعدد المستهلكين وحاجياتهم ، وهو ما يعبر عنه بقانون العرض والطلب الذي نجد له صدى واسعا في وثائق الجنيزة (2).

أمّا ابن خلدون ، فقد أضاف أن تحديد السّعر مرتبط بمعطيات عدة منها :

– *كلفة الانتاج للبضاعة* : تحدد بمجموع تكلفة المواد الأولية والرأسمال والعمل اللازم للانتاج .

الربح : وهو الفائض الزائد عن سعر التكلفة ، ويشترط أن يكون كافيا لتوفير الكسب أي نماء الرأسمال، وفي درجة أقل لتوفير الرزق أو المعاش. وعلى العكس من ذلك فان تواصل الرخص يؤدي إلى فساد النماء وقعود التجار عن السعي وفساد رؤوس أموالهم . مما يؤثر سلبيا على بقية الفئات الاجتماعية : فرخص الزرع مثلا يتضرر منه في ظل اقتصاد سلعي بسيط المحترفون بالزراعة وبتحويل الحبوب إلى غذاء(من طحانين وخبازين) وكذلك المنتفعون من الريع العقاري من موظفين وجند. وفي المقابل فان الغلاء المفرط وبالاحرى التضخم المالي – يؤدي إلى نقص في البيع . وتبعا لذلك قرر ابن خلدون أن معاش الناس وكسبهم في المتوسط (3) .

---

1)انظر : Chalmetta,Au Sujet des théories éco.d'Ibn Khaldoun, In **Revista degli Studi Orientali**,Vol.L II, (1983), Roma 1985, pp.93-120.

2) نفس المقال السابق .انظر ايضا: Goïtein ,**Letters of medieval Jewish Traders**,Prinston University Press,1973.

3) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 709–711 .

– مخاطر النقل ومكان الانتاج : كلما كانت مخاطر الطريق كبيرة، ارتفعت أثمان البضائع وكثر ربحها . (فاذا كانت التجارة المحلية العمل فيها أيسر وفائضها محدود)، فان التجارة العالمية (مع المشرق وبلاد السودان أو البلاد المتوسطية) قد ساهمت في تراكم الثروة لدى كبار التجار المغاربة .

– *الزمان* : يتحدد السّعر حسب المواسم والفصول ، فيشهد ارتفاعا في فترات نفاذ البضاعة أو في ظرفية غير مناسبة، عملا بقانون تحيّن حوالة الاسواق. على أن الامر قد يصل إلى الاحتكار الذي أقره العلماء في الغالب باستثناء المادة الضرورية للمعاش وهي الحبوب (1) .

– *الجباية* : تضاف المجابي إلى سعر التكلفة الجملية للبضاعة ، وهي متعددة من عشر وخفارة ومكوس داخلية وغيرها، ومتنوعة حسب الزمان والمكان.

وفي الجملة فان تحديد السعر حسب الرؤية الخلدونية مرتبط إلى حد ما بقانون العرض والطلب، وبمتغيرات هذا القانون وفق تدخل العوامل المؤثرة في تكلفة الانتاج. أي أن السعر لا يخضع لضغوطات غير اقتصادية أو تدخل السلطة، بقدر ماهو نتيجة لحرية المنافسة في السوق الذي كان يلعب دور موازنة الاسعار ومعادلتها بطريقة تلقائية.

ب) صفة التاجر :

لئن أقر ابن خلدون بأهمية التجار في إنجاز عملية التوزيع والمبادلة في ظل الاقتصاد السلعي ، فانه بقي مقيّدا إلى حد ما بانتمائه الاجتماعي، باعتباره من أرباب السيف والقلم الذين يعيشون من الرواتب السلطانية أو الريع العقاري، مستنكفين من السعي إلى كسب الفائض التجاري .

ولذا فان وصفه للتجارة جاء سلبيا ، دون مراعاة لمصالح عدد كبير من أبناء جلدته من أهل الاندلس الذين امتهنوا التجارة في أرض الغربة .

وفي الجملة فان صاحب المقدمة تحدّث في وصفه للتاجر عن مقومات أساسية لهذه الحرفة ، وهي على التوالي : المال والعلم والسعي إلى كسب الجاه .

– المال : اعتبر أن المال يصبح عرضة للاتلاف إذا لم يتوفر شرط إضافي لازم للنجاح في هذه المهنة : إمّا أن تكون له جرأة على الخصومة ، أو أن يحتمي بأصحاب الجاه والسلطة ويتدرع بهما. وفي الحالتين فان سعي التاجر إلى الربح يفسر طبيعة سلوكه، « **فأهل النصفة على حد تعبير ابن خلدون قليل ، فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل في الاثمان المجحف بالربح** » .

---

1) المصدر نفسه ، 708 .

واذا وجدت أقلية مارست التجارة عن طريق الوكلاء، وأعتمدت على الجاه لتكوين ثروة، فبقيت محافظة على مروءتها، فان الشّرائح العليا من التجّار احتاجت إلى المكايسة في التعامل. أما أصحاب السوق فقد كانوا بعيدين كل البعد عن المروءة ، إذ يصل الأمر بهم إلى المماحكة والغش والخلابة وممارسة الخصومات واللجاج، وهو سلوك مناف لاخلاق أهل الرئاسة الذين « **يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة** » (1).

ولعل ما يشد الانتباه أكثر في هذا التخليل هو الربط بين مقتضيات المهنة والمظهر السلوكي لاصحابها، مع التدرج في الخصائص السلوكية حسب أصناف التجار ، من فوق إلى أسفل. وفي الجملة فان هذا التحليل السيكولوجي يفرق بين صنفين من التجار : من له مال وجاه ، ومن له مال بدون جاه ومروءة ، وهو الصنف الغالب .

والحقيقة أن هذا التحليل لا يختلف كثيرا عما تواتر من رؤى قومت اخلاقيات التجار منذ العصر الكلاسيكي، من ذلك ما ورد في كتابات الجاحظ وما ذكره أبو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة في تمييزه بين أخلاق الخاصة والتجار(2) .

ولئن بدا واضحا التوافق بين أبي حيان التوحيدي وابن خلدون في تحليل سلوك التجار، فان ما توصل اليه أحد الدارسين لفئة التجار في المتوسط يبدو أمرا يحتاج الى المراجعة، لانه اعتبر المروءة ومتعلقاتها من كرم وشهامة وفضل وشرف ميزة أساسية للفئات الوسطى عامة والتجار على وجه الخصوص .

على أنّ تكالبهم المفرط على تكوين الثروة وشغفهم بالربح والكسب، مثلما أقر به هذا الدّارس نفسه، الذي نسب اليهم الفردانية سلوكا، لاينسجمان مع رأيه السّابق(3) .

---

1) المصدر نفسه، ص 711-712. 704.705-706. ويرى قويتين ، على خلاف ذلك، ان المروءة هي من خاصيات الفئات الوسطى، انظر: Goïtein, The rise of Eastern Bourgeoisy in early Islamic times, In: **Studies in Islamie history**.Brill 1968,pp.217-241. The mentality of the middle class In **Arabica** 1989,T36, fasc.2.

2) ابو حيان التوحيدي، **الامتاع والمؤانسة**، بيروت (دار مكتبة الحياة) ، ج III، ص 62-61 . قال في هذا الصّدد « **...لا يوجد الادب إلا عند الخاصة والسلطان ومدبريه، وأما أصحاب السوق فانا لا نعدم من أحدهم خلقا دقيقا ودينا رقيقا، وحرصا مسرفا وأدبا مختلفا ودناءة معلومة ومروءة معدومة ..يبلغ أحدهم غاية المدح والذم في علق واحد في يوم واحد مع رجل واحد، اذا اشتراه منه أو باعه اياه، ان بايعك مرابحة وخبر بالاثمان ، قوى الايمان على البهتان، وان قلدته الوزن اعنت لسان الميزان لياخذ برجحان أو يعطي بنقصان، ...يرضى لك ما لا يرضى لنفسه وياخذ منك بنقد ويعطيك بغيره ، ولا يرى أن عليه من الحق المبايعة مثل ماله، ان استنصحته غشك، وان سالته كذبك .. قد تعاطوا المنكر حتى عرف وتناكروا المعروف حتى نسي** » .

3) انظر : Goïtein, The mentality.. **op. cit.**

– **العلم** : ذكر ابن خلدون أن هذه الصناعة كغيرها تحتاج إلى العلم، « **فعلى قدر جودة التعليم وملكة العلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته** » (1) .

وبالتالي فان الكتابة لم تكن حكرا على فئة العلماء، انما كرع من مناهل العرفان رجال السياسة والتجار أساسا. وعموما فان الشرائح الوسطى كانت شغوفة بالتعلّم، مسايرة للتراث العربي الاسلامي الذي يدعو إلى طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وينص على جدلية العلاقة بين العلم والعمل(2) .

وهو ما نلحظه بوضوح عند التجار المغاربة الذين كانوا في الغالب من أرباب القلم، وقد حمل بعضهم لواء الحضارة العربية الاسلامية إلى افريقيا السوداء وكان لهم دور نشيط في مثاقفة بلاد السودان . واعتبارا ان تقسيم العمل لم يبلغ مرحلة متطورة طيلة العصر الوسيط، فان ازدواجية الوظيفة (التجارة والعلم) تجعلنا نتحدث عن علماء –تجار أو علماء– مزارعين (3).

وقد كان التجار وخصوصًا منهم راكبو البحر يستدلون بعلم الفلك في رحلاتهم ، أما العلماء فقد حبّروا فيه الكتب والرسائل ، وأختص بعضهم به (4) .

– الجاه : إن ما يميز الفئات الوسطى عن غيرها هو ضعف نفوذها السياسي وسعيها إلى كسبه ، فقد تحدث ابن خلدون عن أصحاب الجاه من أمراء وحكام وغيرهم، وهم أصحاب الحظوة الذين يتزلّف الناس لهم ويتولون خدمتهم ، وتناول في درجة ثانية فاقدي الجاه، بما فيهم الأثرياء من التجار. قال في هذا الخصوص : « **وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه، وهؤلاء هم أكثر التجار، ولهذا نجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير** (5)» .

وقد سعت بعض الشرائح إلى التحصل على الجاه والشرف، وإلى اقتناء الألقاب الشرفيّة، حتى تكون لهم حظوة لدى السلطان، ومقدرة على قضاء حوائج الناس. لكن في كل الاحوال لم تتمكن هذه الفئات الوسطى الحضرية من التجار والعلماء الممتلكة للثروة المادية، من الوصول إلى الحكم . ترى ، لماذا لم تكن

---

1) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 712–713 .

2) راجع : **دائرة المعارف الاسلامية** (بالفرنسية) ، مادة علم .

3) الفصل الثالث من بحثنا .

4) لا نجد مبررا مقنعا لما ذهب اليه هذا الباحث من أن علم الفلك كان حكرا على الفئات الشعبية التي تلوذ به في فترات اليأس والشدة، وعلى السلاطين الذين اتخذوه وسيلة لكشف الطالع، أما الفئات الوسطى فانها قلما لجأت اليه .راجع : Goïtein, The mentality..**op.cit**

5) ابن خلدون ، **المصدر نفسه** .

حريصة على تولّي السلطة السياسة بنفسها، تاركة إيّاها في يد الجند؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى معالجة متأنّية لعدة عناصر منها القوى الاجتماعية الموجودة في الحكم، أسس الفكر السياسي العربي الكلاسيكي وغيرها.

وفي كل الاحوال فان فئة التجار، لعبت دورا هاما في الحضارة المغربية الوسيطة، وكانت عامل تقارب بين شعوب البحر المتوسط. لكن انتصاب الاقطاع العسكري بالمشرق والمغرب ابتداء من القرن الخامس هـ/ 11م وتراجع تجارة القوافل مع بلاد السودان والمشرق، وانخرام التوازن الاقتصادي لصالح الغرب الاوروبي ابتداء من تلك الفترة، وازدياد القرصنة بالمتوسط الخ...كل هذه العوامل ساهمت في تفقير الفئات الوسطى الحضرية، وبالتالي في تراجع دورها.

وبعد أن ذكر أكثر من عشرين صنف من التجار في الحقبة الأولى، من بينهم الركّاض والخزان والمجهز والجلاّب تقلّصت هذه القائمة في العهد الحفصي.

ج) كبار التجّار:

– تجّار البحر:

أقيمت مبادلات نشيطة مع المدن التجارية الاوروبية، وخصوصًا بيشا وجنوة والبندقيّة وبرشلونة، حظي فيها التجّار الأجانب بنصيب الأسد، فأغرقوا السّوق المغربيّة بمنتوجاتهم، وخاصّة المنسوجات، مقابل حاجتهم لعديد المواد الأولية والزراعية مثل الصوف والجلد والزيت والملح والتمور (1).

وإلى جانب ذكر البضائع وحجمها وكيفية وسقها، قلّما ذكرت الوثائق التجّار الأفارقة المتعاملين مع الاوروبيين، وقد خصّت الأسماء الواردة أساسا السّفراء المبرمين للمعاهدات والشهود على العقود والمشرف وصاحب الديوان (2).

---

1) من البضائع الاخرى التي تصدّر من البلاد الغربية (طبرقة ومرسى الخرز وعنابة وغيرها)، منذ القرن السابع الهجري/ XIIIم نذكر المرجان الذي كان يباع بالقناطير، بأنواعه المختلفة، عن طريق النداء.
اما عن كيفية استخراجه، فيقول الادريسي: " **والمرجان يوجد بها (مرسى الخرز)كثيرا، وهو اجل جميع المرجان... ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة، فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات، ومعدن هذا الجوهر في هذه المدينة، مخدوم في كل سنة، ويعمل به في كل الأوقات الخمسون قاربا، والزائد، والناقص، وفي كل قارب العشرون رجلا وما زاد ونقص. والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر، بين جبلين عظيمين، ويصاد بآلات ذات ذوائب كثيرة تصنع من القنب، تدار هذه الآلة في أعلى المراكب، فتلتفّ الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان، فيجذبه الرجال الى أنفسهم،ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالاموال الطائلة.**
انظر المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص 326. الادريسي، نفسه، ص 116. البرزلي، **نفسه**، ج، ص 159–160. الغبريني، **عنوان الدراية**، ص287 (راجع المسألة التي طرحت على محمّد بن محرز، رأس الجماعة الاندلسية ببجاية في أواسط القرن السّابع هـ).
2) راجع الفصل الخاص بتنوّع الانتاج الزراعي ومردوديته.

وبناء على ذلك، فانّنا انطلقنا من الفترة الأولى لهذا العهد، أي القرن الثاني عشر وبدايات XIIIم للتعرّف على التجّار الافارقة.

منذ تلك الحقبة، تخصص بعض التجّار في تصدير الصوف والجلود والنحاس، وقد احتكر الطليان هذه التجارة، حتى أنّ عددا كبيرا من التجار التونسيين المذكورين في الوثائق كانوا يتعاملون مع تاجر واحد من مدينة بيشا: وهو باج. وفي الجملة يبدو هؤلاء التجار مزوّدين للسوق بالمواد الأوّلية أساسا، بمعنى مجرد وسطاء بين البوادي حيث تربية الماشية والتجار الطليان الذين يسعون لتوفير الصوف والجلود للصناعات الكبرى ببلادهم. وهو أمر يفسر عدم التكافؤ في هذه المبادلات الخارجية، ويتأكد لدينا ذلك عند النظر إلى حجم البضائع المصدرة، وأثمانها وطرق تسديدها.

فالغالب على هذه العمليات هو البيع لأجل، اذ يقتصر التاجر على دفع مبلغ زهيد (يتراوح بين 5 و 15 دينارا)، وفي حالات أخرى لا يتسلم البائع شيئا. على أن هؤلاء التجار الاجانب يودعون أرصدة بالديوان، فيدفعون ما عليهم من ديون ويتحصّلون على وثيقة تنص على استخلاص الدين من الديوان (رسالة عدد 17) (1).

وقد ارتبطت بهذه الشرائح من التجار مجموعة من الموظفين والعملة، منهم:

* صاحب الديوان: يسمى كذلك المشرف والقابض، أو متولي اشراف البيشانيين (وثيقة عدد 3). وله سلطات ادارية واسعة على التجار الافارقة والاجانب، إذ أنه يدير كل العمليات التجارية والادارية، ويحرص على قبض العشر على البضائع الموردة (2).

---

1)هذه قائمة الافارقة المصدرين للجلود والصوف والنحاس، والمتعاملين مع باج خلال القرن XIIم.
محرز القابسي (وثيقة عدد 14). هلال بن خليفة الجمونسي (عدد 15)، نسبة إلى جمنوس الصابون بقمودة التي اشتهرت بتربية الماشية. عثمان الترجمان، الشيخ أبو بكر وعمران (عدد 16). مناد بن عبد الله (عدد 17).
ابراهيم بن خليفة الجلاد – عثمان المهدوي، تاجر نحاس (عدد 18). الحاج صدقة الجلاد – يوسف الجلاد (عدد 19). عيسى وعبد الله الجلادين (عدد 20) الخ..
يتضح من هذه القائمة تخصص التجار الافارقة في بيع الجلود والصوف أو النحاس، وانتماؤهم إلى عدة جهات من البلاد منتجة للماشية مثل جمونس الصابون بقمودة وقابس، أو جهات ذات موانئ تجارية هامة مثل المهدية.
وفيما يخصّ تجارة الصوف، فانه يباع منظف أو غير منظف، ويحتاج إلى وسيطين: الأول يكون في اتصال مباشر مع البدو المربين للماشية، ويولى تجميعه وبيعه، والثاني يقوم ببيعه إلى التجار الاجانب.
انظر: Amari, **Diplomi Arabi del Archivo Fiorentino**,Firenze 1863.
2) انظر: Amari, **Diplomi**, op,cit

* عدول الديوان وكتبته : يتولون كتابة عقود التجارة بين الطرفين وتامين سلع الاجانب وأموالهم، والشهادة على العقود المشتركة الخ... وهم في الغالب من الافارقة اذ ذكر منهم : الربعي واللخمي والتميمي (عدد 12) وعبد الله الزقاق (عدد 15) (1) .

* التراجمة : إلى جانب ترجمة الوثائق ، فانهم يشرفون أحيانا على عملية البيع، إذ كثيرا ما ترد عبارة : « باع على يد» ..أما أصولهم البشرية ، فهي متنوعة : من عرب افريقية وأوروبا ، ويبدو أن كثيرا منهم من أهل السبي الذين يحسنون اللغتين .

وهذه بعض الاسماء : عثمان الترجمان، علي بن باديس –تميم– الصبي القابسي الترجمان – جيوفاني قطران. أحمد قطري – عصمت دفركا (لعله من أصل تركي) –عبد الكريم الترجمان– سفيان بن هلال .

* الحمّالون : يقومون بانزال البضائع من السفن ونقلها إلى المخازن والفنادق بمدينة تونس. وأعتبارا لعددهم المحدود ، وشدة تنظيمهم الحرفي ، يقودهم في ذلك عريف الحمالين، فان أجرتهم قد ترتفع حتى تصل النصف في حمل الطعام إلى مسافة بعيدة (2) .

وفي الجملة ، فقد أصبح لتجار البحر وصاحب الدّيوان مكانة هامّة في مجتمع افريقية ابتداء من القرن السادس هـ/ XIIم، وخاصّة في العهد الحفصي. وفي بداية تلك الحقبة ، ذكر لنا الدبّاغ خبرا جدّ بمدينة قابس يبيّن مدى فاعليّة المشرف على ديوان البحر في المجتمع والسلطة ، ومفاده انه وقع بينه وبين والي المدينة نزاع ، انتهى بعزل الثاني وابقائه بالمدينة (3) .

وفي عهد المستنصر، بلغ بعض تجّار البحر شأوا عظيما في الجاه، فكان من أمر ابن اللّلياني المهدوي أن تولّى وظيفة صاحب البحر، وكوّن ثروة طائلة جمعها من التجارة البحريّة. لكن مصادرة السّلطة لثرواته وضعت حدّا لتراكم الرأسمال التّجاري.

ومن بين كبار تجّار البحر الذين أشتغلوا كذلك في الفكاكة، التّاجر الأندلسي الذي أستضاف ابن عبد الباسط سنة 866 هـ .وهو على حد تعبير الرحّالة المصري

---

1) المصدر نفسه . وحول كتابة الوثائق ، ذكر لنا ابن عرفة (ا المختصر ، ج IV، ص 171) الخطط التي تولاها ابو عبد الله الذي كانت له دراية بفقه الوثيقة وكتبها، وكان يدرس العربية ثم تولى خطة الشهادة وبعدها تحول إلى المشرق في مناسبتين ، وعند رجوعه أصبح أحد شهود الديوان، ثم ولي قضاء الانكحة .

وحدثنا الجدميوي (**رفع الازار**، ص 90) عن مجلس بديوان البحر بتونس لشاهدين وكاتبين وهو لا يخلو من الطرفة الخفيفة .

2) البرزلي ، **جامع** ،ج ا ، ص 146 ب . 1217. راجع الفصل الخاص بالرابطات الحرفية.

3) الدبّاغ، **مناقب الدهماني** ، جI ، ص 142.

" الخواجا التاجر المعظم المكرم سيدي القاسم البنيولي الغرناطي الاندلسي نزيل تونس وعظيم التجّار بها " الذي تولّى فدي أسرى القراصنة الاوروبيين .

وقد حدثنا الرحالة عن مظهر من الحياة اليومية لهؤلاء التجار. وهو خير دليل عن المستوى الاجتماعي المترف لهذه الفئة ، وتميّز السكن والأكل والمطارحات الفكرية أثناء السمر (1) .

–*تجارة القوافل:* لئن تراجعت التجارة مع المشرق لانعدام الأمن في الطرقات وسيطرة البداوة، فان التجارة الصحراوية بقيت مصدرا هاما للثروة، وقد تخصصت فيها في الفترة الاخيرة المدن الافريقية الموجودة على خط الواحات، وخاصة وارجلان. وتبعا لذلك فان كتب الطبقات والسير حدثتنا عن كثير من العلماء التجار الذين كانوا يسافرون إلى بلاد السودان، ولعل أشهرهم أبا يحيى زكريا بن صالح اليهراسني، الذي اتبع الطريق الرابطة بين جنوب شرقي افريقية وسجلماسة، مرورا بورغلة، وقد بلغت كمية الذهب في احدى المرات 250 الف مثقالا من الذهب ، وذلك عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580–595هـ/ 1184–1199م) (2) .

وتمكنت بعض الأسر من تكوين شركات عائلية كبرى تؤمّن القيام بالتجارة ، وتمتلك رايات خاصة بها وحرسا ووكلاء مستقرين في المدن الواقعة على طول الطريق مثل سجلماسة وايوالاتن وغانة، فضلا عن مدينة تلمسان. ولعل النموذج لهذه الشركات ،الشركة الخاصة بعائلة المقري بتلمسان التي ذكرت منذ القرن الثالث عشر الميلادي(3) .

وقد أكتسب بعض الاندلسيين ثروات طائلة من تجارة بلاد السودان . ففي ترجمة ابراهيم بن محمد الأنصاري المشهور بالطويجن، كتب ابن الخطيب : « جال

---

1) ابن عبد الباسط ، **رحلة** ، باريس 1936، ص 19–21 . قال :« سنة 866 هـ يوم الاحد 27 ذي الحجة جمع التاجر المعظم الخواجا المكرم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الاندلسي نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه والحجاج منهم من أهل الاندلس وغيرهم، وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من أجنة تونس يقال له رأس الطابية من منتزهات ملوك، وأمكنة فرجهم . فرأيت هذا الجنان في غاية الاتقان والحسن وبه مكان كالقصر برسم السلطان طباق عظيم إلى الغاية انيق البناء فرج نزه ، بناء ملوكي على صفة غريبة وهيئة عجيبة ، وبه بركة ماء عظيمة كبيرة جدا وبه شيء يقال له المحنشة برسم جريان الماء... يجول فيها الماء كانه حنش ويتعاكس الجولان عدة معاكسات غريبة الهيئات. ثم هيئوا من جملة هذه الضيافة ماكولا من مآكل أهل الاندلس الضريفة : المجبنة» . وينهي الرحالة هذا الوصف قائلا : « وكان يوما معدودا من الاعمار سالما من الاغيار اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الاندلس وأعيانها من طلبة العلم وتجار كلهم أهل ذكاء ، وحصلت مذاكرات علمية أدبية تاريخية إلى غير ذلك ...»

2) راجع تاليفنا : **القبائل والارياف المغربية في العصر الوسيط** ، تونس 1986، ص 167.

3) المقري، نفح الطيب ، ج III ، ص 105، 111، ج5،ص 205–206. انظر ايضا :

H.Pérès,**Relation entre Tafilelt et le Soudan à Travers le Sahara du XI eme s au XIVeme s.**

في بلاد ثم دخل إلى بلاد السّودان، فاتّصل بملكها واستوطنها زمانا طويلا بالغا فيها أقصى مبالغ المكنة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتضى مالا دثرا ثم آب إلى المغرب وحرّم على وطنه، فصرفه القدر إلى مستقره من بلاد السّودان متزيدا من المال (1).

أمّا عن القوافل، فقد كانت حمولتها عند الذّهاب الى بلاد السّودان ثقيلة، إذ شملت النّحاس والحبوب والأواني الخزفيّة والملح والعطريات وحلي الزّجاج الذي استعمله أهل السودان نقودًا، إلخ. لكنّها خفّت عند العودة، مقتصرة على الذّهب والعاج، وانحدر وزنها بنسبة عشر مرّات حسب أحد الدّارسين.(2)

وهوما طرح مصير بقيّة الجمال، التي عادت من حيث أتت أو على الأرجح بيعت في بلاد السّودان، حيث كانت أسعارها مرتفعة، اذ بلغ ثمنها 37 مثقال، فيما تجاوز ثمن الخيول: مائة مثقال، سنة 754هـ، ووقعت مقايضة الجواد الواحد بخمسة عشر عبدًا في بلاد الفزّان.

وبديهي القول انّه من العسير كذلك تقدير ثروة بلاد افريقيّة من الجمال، وكلّ ما نعرفه أنّ بعض مشائخ البدو امتلك عند انتصاب الاحتلال الاسباني 1500 جملاً، وأنّ ملكيّة أهل الواحات لها كانت هامّة، وذلك على غرار أهل أغمات، حيث قال الادريسي أنّه **" ما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله الاّ وله في قوافلهم المائة جمل والسّبعون والثمانون جملاً كلّها موقورة "** (3).

كما أن تقدير أعداد الرقيق المحمولين من جنوب الصّحراء الى شمالها والتعرّف على كيفيّة توزيعهم داخل بلاد افريقيّة ومهامّهم هي مسألة في غاية الأهميّة. غير أنّه لم تتسرّب الينا الا إشارات متفرّقة.

فقد تحدّث ابن بطوطة عن وجود 600 خادم في قافلة بين تكدا وتوات سنة 754هـ، ثمن الواحدة : 25 مثقال، وكنّا ذكرنا حلول قافلة أخرى بافريقيّة في القرن السّابع هـ محمّلة بألف وستمائة عبدًا (4).

---

1) ابن الخطيب، **الاحاطة**، ج I، ص 329.

2) محمد بن عبد الكريم المغيلي، **أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي**، الجزائر 1974.

A.A.Batran, A Contribution to the biography of Shaikh Al-Maghili, In Journal of African History (**J.A.H**)., 1973, XIV, pp.381-394.

P.Vilar, **Or et monnaie dans l'Histoire,** Paris1974.

M.Bloch, Le problème de l'or au moyen-âge, **A.E.S.C.**, Janv.1933,pp.1-34.

M.Lombard, L'or Musulman du VI au XIe S., **A.E.S.C.**, 1947,pp.143-160.

3) الادريسي، **ن.م.**، ص 83. ابن بطوطة، **رحلة**، ص 454،451،443،441.

J. Devisse, **op.cit.**,pp.172-183.

4) ابن بطوطة، **ن.م**، ص 455. **مناقب المنوبيّة**، ص 124. J.Devisse,**op.cit.**

1) **مناقب بن عروس**، ص 479، 480.

وبالتالي، فانّ نصيب افريقيّة لم يتجاوز بضعة آلاف من الرّقيق سنويًا. ويتّضح من خلال مختلف المصادر أنّ العدد تراجع في العهد الحفصي، ولم يعد يمثّل الاّ نسبة ضئيلة لما كان عليه من قبل إذ بلغ عدد السودان ثلاثين ألف في بلاط الأمير الأغلبي ابراهيم الثاني والصنهاجي المعز بن باديس. ولم يصل الى مدن افريقيّة التليّة الاّ عدد محدود من الرقيق، فيما نقل الكثير منهم بحرًا الى المدن التجاريّة الاوروبيّة، انطلاقًا من برقة وطرابلس وجربة وقابس.

ويتضح من خلال تتبّع العمليات التجاريّة التي قام بها صالح بن خلف التّميمي، وهو أحد نخّاسي القيروان، أنّ أعداد الرّقيق التي كان ينقلها من طرابلس الى القيروان، فتونس ضئيلة، وكذلك الأرباح (1).

وبالتّالي، فقد استعمل هؤلاء الرقيق في خدمة البيوت في الشّمال، ولم تعتن بالأعمال الزّراعيّة في الواحات الاّ نسبة ضئيلة منهم. وهو ما يفسّر الالتجاء الى صنف أخر من العمال، وهم الخماسة (2).

ويمكّننا رصد كميات الذهب المتحوّلة من بلاد السّودان الى بلاد المغرب من معرفة الحجم التقريبي لهذه البضاعة سنويًا :

التاريخ	المبلغ	الوزن	الموضوع	المصدر
340 هـ/ 951 م	42000 دينار	178,50 كغ	صك بين رجل من اوغست وآخر من سجلماسة	ابن حوقل، صورة الأرض، ص 96
النصف الأول من الخامس هـ- XIم	5000 دينار	21,25 كغ	كان تملي الوسياني يبعث من تادمكت الى الجريد 10 اكياسا، لكل واحد فيه 500 د.	الشماخي، سير، ص 302
القرن السّادس هـ / XII م	12 معدن من التّبر		ملك غانة يملك 12 معدن تبر	الشماخي، سير، ص 350 - 351
اواسط VI هـ/ XII م	8000 دينار	34 كغ	التاجر من اغمات : 4000 د يصرفها و 4000 يموّل بها تجارته.	الادريسي، نزهة، ص 83
580 - 595هـ/ 1184 - 1199 م	250 000 مثقال	1062,5 كغ	قافلة اليهراسني من بلاد السودان الى سجلماسة الى جربة	الشماخي، سير ص 342 (3)

---

2) كانت للرقيق مساهمة هامّة في الفلاحة بالوحات، حتى ابن عذاري (ن.م. ص 101) ذكر الف أسود بالجريد ومعهم الفؤوس والمساحي.

3) اعتمدنا وزن دينار عبد الملك بن مروان، او الدينار النّصاب: 4,25غ في معرفة وزن المبالغ المذكورة.

1) J.Devisse,Traverseés Sahariennes... **op.cit.,** pp.172-183.

ويتبيّن من المثال الأخير الذي يخصّ جنوب افـريقيّة في العهد الموحدي، أنّ كميّة الذّهب في قـافلة واحدة تجاوزت الطّن، واذا ما اعتبـرنا أن حمولة الجمل 100–120كغ، فانّ هذا المبلغ احتاج الى عشرة جمال لحمله.

وفي كلّ الاحوال فـانّ الرقم الذي قدّمه أحد المخـتصين في تاريخ افريقـيا السّوداء ثلاثة أطنان ذهب سنويًا مـن بلاد السودان الى شمال الصّـحراء ، يظلّ ضعيفا .وأمّا الرّقم الذي قدّمه (موني)، وهو تسعة أطنان ، فلا يبدو مبالغا فيه، بل على العكس، فانّنا نعتقد أنّ المبلغ لا يقلّ عن عشرة أطنان سنويًا، إذا ما اعتبرنا أنّ عدد المغاربة المسافرين سنويًا الى بلاد السودان : 10–15 ألف (1).

على أن التّجارة الصّحراوية بدأت وقتذاك تعاني من عدّة معوّقات ، أهمّها :

– تطوّر الأوضـاع السياسيّة ببـلاد السّودان وظهور ممالك قويّة بها، بمالي وسونغاي، حاولت أن تفرض جباية على تجارة المقايضة .

– انتقال المحـور التجاري الأساسي في اتجاه تلمـسان، التي ارتبطت ببلاد الصحراء (سجلماسة وايوالاتن) وبلاد الارغون، مرورًا بجزر البليار.

– المعوّقات الدّاخلية من عسف سياسي واضطرابات داخليّة من ذلك تعرض عامل الحامة لاحدى الـقوافل الافريقيّة، وتعرّض قافلة أخرى فـيها 1600 عبد لخطر قطّاع الطريق .

– هيمنة التجارة المتوسطيّة، وما يعني ذلك من نزيف الرّقيق والذّهب انطلاقا من المراسي الافريقيّة، وتحديدًا برقة وطرابلس وجربة وسوسة وتونس وعنابة وبجاية (2) .

ولا شك أنّ قيمة ثروات التجار وأهميتها تقومان دليلا على ذلك، ونكتفي في هذا الصدد بتجميع بعض المعلومات المتفرقة(3).

Mauny, **Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen-âge,** Paris 1961.

T.Lewicki, Quelques extraits Inédits relatifs aux voyages des Commerçants et des missionnaires Ibadhites Nord Africains au pays du Soudan Occidental et Central au moyen-âge, **Folia Orientala**, 1960-1961.

2) P.Vilar, Or **et monnaire dans l'Histoire**, Paris 1974.

M.Bloch , le problème de l'Or au moyen-âge A.E.S.C, Janvier 1933,pp.1-34.

M. Lombard , l'Or Musulman du VIeme s. au XIeme s, Annales E.S.C., 1974, pp.143-160.

3) ابن عرفة، **المختصر** ، ج IV ، ص 88 ب .

– عند وفاة أحد تجار تونس بـبجاية نحو سنة 725هـ/ 1324م، وهو محمد بن الحجـر، ترك 3000 دينارا من الذهب ، وأوصى بهـا لرجل من أهل الجـزائر، ليوصلها إلى ورثته، لكن أمير بجاية محمد بن سيد الناس انتزعها من يده .

– بعد هذا التاريخ ببضعـة سنوات، وقع نزاع بتونس بين طرفين من التجار، حول مبلغ معتبر قدره الف دينار ذهبا أميرية .

– في نهاية القرن الثامن، اشترى أحد تجار تـونس من مطمر كمية كبيرة من الحبوب : 55 قفيزا (1).

ومن الملاحظ أنّ شركة كبار التجّار ظلّت قـائمة في العصر الحفصي، غير أنّ السّلطة استحـوذت على أهم القطاعات وحدّت من فاعليـتهم عن طريق المصادرة . وبديهي القول أنّ المـتهنين لهذا القطاع لا يقـتصر أمـرهم على كبار التجّـار، انّما خصّ أساسا صنفا هاما من الباعة .

د) الباعة :

لعب الباعـة دورا فاعلا في الـربط بين المدينة وباديتها، ومـثّلوا الواسطة بين العالمين. فكانوا يشتـرون البضائع الزراعيّة من البدو والجلاّبين ، كـي يبيعوها في الحواضـر بأسعـار مرتفـعة ، ويفعـلون العكس مع أهل البادية. وتحـاشيـا لهذه المضاربات، فضّل بعض العلماء تسعيـر البضائع، رغم ما عرف عن المذهب المالكي من حريّة التّسعير .

والجـدير بالذّكر أنّ وضع البـاعة العـامّ لم يكن مـيسـورا ، وانّما كـانوا في مخـتلف الحقب الوسـيطيّة من الفـئات التي تعـاني من شضف العـيش والبؤس، لارتباطهـا الوثيق بكبار التجّار، إن لم نقل بتـبعيّتـها لهم، فكثيرا مـا يقتنون منهم بضائعـهم بالدّين لبيعـها، ولكنهم يظلّون عاجـزين عن استيـفاء هذه الديون التي ترتفع قيـمتها كلّمـا تأخّر أجل الدّفع . وبالتالي ، فكـثيرا ما يتـحوّلون إلى تابعين لكبار التجّار، شـأنهم في ذلك شأن الخماسة إزاء مالكي الأرض .

وقد أقـرّ كل من المازري في القرن السـادس هـ وابن خلدون بعد قـرنين منه بهذه الوضعيّة البائسة للباعة ، فـتحدّث الأوّل في نازلة خاصّة بالحوالة عن فقراء الباعة من الكتانين والقطانين والزياتين بالأسواق الذين يعجزون في غالب الأحيان عن دفع ثمن البضـاعة لكبار التجّـار، ويلجؤون إلى الحوالة على الصّيـارفة الذين يقرضونهم مقابل فائض .

وتبعـا لذلك ، فان ابن خلدون اعـتبـر انّ الرّعاع والباعـة يتوثّبـون إلى أموال

1) بن بطوطة ، **رحلة** ، ص 19 . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج 4 ، 131 . البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص160 ب .

التجّار التي تصبح "مأكلة" اذا ما عجز التجّار عن الدّفاع عن أنفسهم ولم يكن لهم جاه يحميهم (1).

2) أسواق المدينة وأسواق البادية :

أ) الأسواق : نقطة التمفصل بين المدينة والبادية :

لم تقتصر الأسواق على تلك التي تعقد داخل المجال الحضري بكيفية متواصلة، في الدّكاكين والفنادق والرّحبات. وإنّما شملت كذلك الأسواق الأسبوعيّة التي تقام عند أبواب المدن. ويؤمّها المزارعون والبدو ببضائعهم الريفيّة التي يبيعونها لاقتناء حاجياتهم بالمدينة، وعادة ما يذبح عدد كبير من الماشية كما كان يقع بأغمات وريكة في العصر الموحدي حيث يذبح أكثر من مائة ثور وألف شاة (2).

فقد كانت تعقد في أطراف مدينة تونس أسواق ثلاث في أماكن مختلفة كل أسبوع، وكان يتوافد عليها البدو من كافة نواحيها، حاملين معهم بضائع الرّيف (3).

أمّا الصّنف الثالث من الأسواق ، فيشمل أسواق البادية الأسبوعيّة التي يقع فيها التّبادل بين منتوجات الحضر والانتاج الزراعي والبدوي، ويتمّ فيها تجميع هذا الانتاج والتقاء الجماعات البدويّة .

ويكشف الاهتمام بهذا الموضوع عن مدى تطوّر الخارطة العامّة للأسواق القرويّة والبدويّة بافريقيّة ابتداء من القرن السابع هـ/ XIIIم. فقد اندثرت أسواق عديدة، في خط مواز لتراجع العمران فيما برزت أخرى حول التجمعات السكنيّة المستحدثة (بلد / قصر / زاوية) وفي نقاط التقاء القبائل .

ويمكن أن ننطلق من عينة دقيقة وهي كورة رصفة التي ذكرت بها عديد الأسماء الحاملة لكلمة سوق في الحقبة الأولى من العصر الوسيط مثل سوق الحسيني وسوق بدرنة. لكن هذه الاسماء انقرضت في العهد الحفصي ، تاركة مكانها لقبائل بني عوف ، حتى تحوّل أهل سوق بدرنة إلى عشيرة سليميّة أطلق عليها البدارنة . ولئن كانت المصادر لا تسعفنا بمعلومات ضافية عن الاسواق

83-84. محمّد الطالبي، **دراسات في تاريخ افريقية**، ص 420-422.

(1) ابن بطوطة ، **رحلة** ، ص 19 . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج 4 ، 131 . البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص160 ب .

2) الادريسي، **نزهة المشتاق** ، 67-66 ص .

3) Montanez, **Descripciones**, op. cit.

الجديدة ، فانّنا نعتقد أنّها انتصبت في القرى والقصور التي تواصل تعميرها، مثل الجم (1) .

وسواء تعلّق الأمر بأسواق المدينة أو البادية ، فانّها كانت مجالا لحركيّة اجتماعية واقتصادية على حد السواء، وموقعا ملائما للتلاقح الثقافي بين عالم المدنية وعالم البادية، فقد كان التجار الحضر يتردّدون على الأسواق الريفية لاقتناء الماشية والمنسوجات الزراعية. أما الأسواق الحضريّة، فانّها كانت مقصدًا لأهل البادية ، لقضاء شؤونهم ، ومجلسا لهم (2) .

ب) تنظيم الأسواق الحضريّة : مركزيّة السلطة :

-المحتسب :تطوّرت وظيفة الحسبة في أواخر العصر الوسيط، ولم تعد ذات قيمة تذكر ، إذ تحوّل النفوذ الحقيقي للقاضي الذي يبتّ في كلّ المسائل المتعلقة بالمحتسب، من تهيئة عمرانية وأحكام السوق (أسعار ومكاييل وموازين) ، واصلاح النقود والتثبّت في وزنها (وهو ما قام به ابن عرفة سنة 760 هـ / 1358م) . فيما أصبح المحتسب في الواجهة الخلفية، ولم تتعرّض له المصادر الحفصيّة طيلة هذه الفترة الطويلة الا نادرا. وقد كان في كل الاحوال تحت سلطة القاضي الذي يقوم بتعيينه بموجب عقد يرد فيه « **أشهد الفقيه القاضي بمدينة كذا فلان انّه قدّم فلانا على النظر في الحسبة بالمدينة المذكورة والقيام بمصالحها وتفقّد مكايلها وموازينها والبحث عمن يغش المسلمين فيها ويمنع من تلقّي السّلع والاضرار بالاحتكار واجراء الغش في المبيعات كلها والاحداث في طرقات المسلمين وأمره بالمعروف وحمل الناس عليه وأمره بالحكم في ذلك كلّه بالحق...** »(3) .

واقتصر دوره على ردع الحرفيين عند غشّهم ، أو عند رفض أحدهم أن يبيع بضاعته للنّاس ، وحلّ النزاعات الحاصلة بين أصحاب الصنائع من قصابين وغيرهم والعامّة، دونما التحكّم في البيع المخصّص للأعيان. فقد كان تجار التفصيل يتعرضون الى ضغوطات أعوان المحتسب والعامل ، فيحملونهم عيوب

وباجة الزيت، وعين مرّة ، راجع الخرائط الطوبوغرافية للمكنين ، المهدية، جلولا...

1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص165 . حملت مواقع أثرية عديدة تسمية السّوق : هنشير السّوق غرب ملول،

2) الابي، **الاكمال**، جIII ، ص 87(تعوّد سكان تونس على نعي الموتى بواسطة المناداة في صحن جامع الزيتونة وفي أسواق المدينة) .

3) انظر : ابن الرامي ، **الاعلان** ، ابن عرفة ، **المختصر** . ابن راشد، **الفائق** ، ج II ، ص 1113

Brunschvig, **Deux Récits**..op.cit.,p.217.

بضاعة لم ينتجوها مثل الخبز، فيما يغضّون الطرف عن أصحاب الأفران لانهم مقرّبون من المخزن يدفعون وظائف للعمال.(1)

فقد صنّف البرزلي المحتسب أو صاحب الحسبة في عداد الخطط السّياسية المعروفة بالجور والظلم مثل حاكم البلد والعامل وحكّام الفحص وأمناء السّوق، ممّا يجعلنا نرجح أنّ ارتباطه بالسلطة المخزنية كان قويا ومباشرا، وان كان من الصّعب الجزم بأنّه يتحصّل عليها بالرّشاوي والمحسوبيّة، كما هو الشأن في عصر المماليك(2).

وبالتالي فقد انفصلت الحسبة عن خطة القضاء ولم تعد تابعة لها وتراجعت مهامها حتى أن المحتسب لم يصبح قادرا على تعيين الأمناء والعرفاء. وقد كان أحد القضاة شاهدا على تدنّي هذه الخطط من قضاء وحسبة في عصره (بداية القرن الثامن هـ)، ومدى استعمال الوسائل غير الشرعية لتولّي هذه الخطط، إذ قال: **« وقد صرنا في زمان لا ينال غالبا الا بالسّعي، ويجعل امّا سلما للشرف أو للسّعي أوّلهما، ومن أراده تحلّى علْية الفقهاء واعتمد في نيله على الجاه ونكب عن طلب العلم. وقد شاهدت أقواما لا يحسنون مسألة في فرض عيونهم فضلا عن معرفة الاحكام قد ولّوا ولايات».** وهو ما قد يفسّر غضّ المصادر الطرف عنها، فإلى جانب فصل ابن خلدون عن الحسبة، تركت لنا الفترة مصدرين إثنين عن الخطة: الأوّل في بداية الفترة والثاني في آخرها.

– محمد بن عيسى بن محمّد بن أصبغ الازدي المشتهر بابن المناصف (563–620هـ/ 1168–1223م): كتاب تنبيه الحكّام في الاحكام (3).

– محمد بن أحمد العقباني(ت.871هـ/ 1467م): تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر.

---

2) البرزلي، **ن.م.** ج II، ص 1187.

3) مخطوط العبدلية (د.ك.و)، رقم 1986 (قديم) / 8892. 107 ورقة (حجم صغير). في الصفحة الاخيرة: **كان الفراغ من اكمال نسخة ضحى يوم الاربعاء 29 من شهر ذي القعدة عام 845هـ. مكتوب بخطوط مختلفة.** ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص109ب. Brockelmann, **G. A. L.**, T, I, p.497, SI, p.910

لقد كان كتابه جامعا ومختزلا في الآن نفسه، فهو بمثابة الدّليل للمحتسب وأعوانه، قال في هذا الغرض:

«انّما أردنا أن نجعله عجالة يلهو بها التارك المقصّر ويستغني عنها الناظر المتبصر، لو نفصّل في كثير ممّا اردناه إلى الاستظهار بالأدلّة الموضّحة والتوجيهات المرجّحة لما في ذلك من استدعاء للتّطويل وترك ما قصد منه التّسهيل، مع كون كتب الفقهاء على ذلك مشتملة ومطولاتها له محتملة».

و قسم الكتاب إلى خمسة أبواب (ص192–106ب): – في سيرة القضاة وتخيّر أعوانهم وكلفتهم. – في قبول الشهادات. – في تلقي كتب القضاء. – في تنفيذ الاحكام. – في الحسبة على تغيير المناكر واقامة وجوه الرّدع لحفظ الشّعائر.

1) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 153ب، 156 ب.

ورغم تحديد مهام المحتسب، فقد بقيت هذه الخطّة تحتضر في العصر الحفصي، بعد أن سلبها قاضي الجماعة أهم مهامها وأصبحت مرتبطة بالسلطة المخزنيّة. وباشر المحتسب مهامه بمقصورة خاصّة به، تقع خارج باب ينتجمي (بالقصبة)، شمال جامع الزيتونة. لكن يبدو انّها كانت قبل ذلك، وتحديدا في سنة 823 هـ/ 1420م، شرقي الجامع كما يدل عليه هذا النّص الذي أورده الأبيّ:

« كان الشيوخ يمنعون أن يصلّى الفجر على الأعلى الصّحن من شرقي الجامع الاعظم بتونس الذي توضع به الاموات، ويقولون أن المقصورة التي يجلس بها المحتسب اليوم من سنة 823 هـ انّما بنيت ليصلّي فيها الفجر من جاء والامام يصلّي» (1).

ومهما يكن من أمر، فقد انتصب المحتسب وسط الأسواق الكبرى لمدينة تونس، على أهبة لحلّ النزاعات وفضّها.

لكن تخلّي صاحب السّوق عن عديد المهام وتراجع أهمية الخطّة وعدد أعوانها شجع كثير من الصّلحاء على الاحتساب بطريقة شبه تلقائية، مثل ذلك الذي قطع دور الدّبغ داخل المدينة في القرنVIIهـ/ XIII م، وحوّلها إلى خارج الاسوار. وقام آخر لازالة مصبّ للمياه المستعملة بدرب النشّار بباب سويقة، بعد أن وافق قاضي الجماعة على ذلك (2).

والحصيلة أنّ خطّة المحتسب أصبحت في كثير من الأحيان من مهام قاضي الجماعة وأعوانه، مثلما كان الأمر في عهد القاضي ابراهيم بن عبد الرفيع، ومعلم البناء محمد بن الرّامي (3).

–أمناء السوق:

كان عمل الحرفيين خاضعا إلى مراقبة أمين الحرفة، وعلى حد قول ابن عبدون، فانه **« يجب أن يكون في كل صناعة أمين»** واشترط ابن المناصف وجود أمين على كلّ سوق، ناصحا أن يقع اختياره من بين ثقاة النّاس ومسنّيهم (4).

ويتولى الأمين فحص البضاعة عند البيع، ومراقبة جودتها، ومنع الغش فيها. وقد ذُكر أمناء لعديد المهن، بطريقة عرضيّة، وفي مصادر متفرقة بمدينة تونس، نذكر منها: أمين العطارين الواقع دكّانه خارج باب منارة، أمين الجزارين،

---

1) الزركشي، **تاريخ**، ص 35. الأبيّ، **الاكمال**، ج II، ص 360.

2) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 292ب، 293 ب.

3) راجع: ابن الرامي، **كتاب البنيان**.

4) ابن عبدون، **كتاب الحسبة**، ص 244. ابن المناصف، **تنبيه الحكّام في الاحكام**، ص 198، 1101.

أمين سوق السقاطين ، أمين سوق الصبّاغين . وكثيرا ما يرد لفظ الأمين ، دون توضيح للمهنة ، وفي مواضع أخرى : أمناء السوق والتجار. ويفهم من السياق أن أغلب المهن كان لها أمين خاص بها (1) .

ويوجد على رأسهم أمين الأمناء ، الذي يرجع إليه النظر الأخير فيما أشكل من المسائل ، شأنه في ذلك شأن قاضي الجماعة بالنسبة الى بقية القضاة (2) .

وجرت العادة أن يختار الأمين من بين الحرفيين الأكثر اتقانا للعمل ، لكن انتماءه يتغيّر، ويصير ممثّلا للسلطة أكثر ممّا هو لأرباب مهنته ، الذين لا يتدخلون في تعيينه أو عزله .ففي سنة 748هـ/ 1377م، كتب أبو الحسن المريني للبلاد بايصاء الامناء على الصنّاع من كلّ صناعة . وذكرت لنا المصادر النوازلية أن السلطة المخزنية الحفصية الممثلة في قاضي الجماعة تتولى تعيينه مباشرة ، وكذلك عزله، كما تبين ذلك هذه الطرفة : صادف أن هنّأ أحد الأمناء قاضي الجماعة بشهر مايه، وهو عيد الربيع ، فعزله القاضي لجهله بطبيعة هذا العيد المخصص للنصارى .

وبالتالي فان السّلطة المخزنيّة تمكنت ، في ظل ضعف الرّابطات الحرفية ، من بسط نفوذها على القطاع الحرفي والتجاري ، ولم تكن لهؤلاء الامناء تمثيلية حقيقيّة لاصنافهم ، ولا استقلالية ما، إنّما كثيرا ما تحولوا إلى مجرد أعوان حكوميين يتولّون مراقبة الحرفة وفق أوامر السلطان وبطانته (3) .

ان هذا الوضع يأتي شاهدا على طبيعة العلاقة القائمة بين الحرفيين والأمناء ، وما عرفت به هذه الخطّة في القرن الثامن الهجري من ظلم وجور ، شأنها في ذلك شأن حاكم البلد والمحتسب وغيرهما (4) .

كما عرف عالم الحرفيين وصغار التجّار ظاهرة التصوّف ، كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعي والثقافي . واذا كانت الامثلة عديدة على انتماء الحرفيين إلى عالم المرابطين ، وانخراطهم في ثقافة التصوف، فان الامناء بالاسواق لم يكونوا بعيدين عن هذه الظاهرة .

---

1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج I ، ص 1219، القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 68 ب ، البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص149 ب، 187 ب ، ج III، ص 107 ب، ابن ناجي، **المعالم**، ج IV ، ص 138، 151، 184، 186، 210، 228 . **مناقب** ، مخ 18555 ، ص155ب ، الجدميوي ، **رفع الازار** ، ص 1109. العقباني ، **تحفة الناظر** ، ص 245 .

2) عبد الله الترجمان ، **تحفة الاريب**، ص 17. برانشويك . **ن.م**.، ج II ، 150، 202 .

3) ابن مرزوق ، **المسند** ، ص 194 . البرزلي ، **ن.م**. ج II ، ص 149 ب، 187 ب. مادة امين ، **بدائرة المعارف الاسلامية** (بالفرنسية) .

4) البرزلي ، **المصدر نفسه** ، ج II ، ص 187ب .

وعلى سبيل المثال ، كان أمين العطارين بتونس في القرن السّابع الهجري ، أبو حميد الرفيع ، تربطه علاقة حميمة مع بعض المرابطين مثل محمد التادلي وعلي الفحام وأحمد السقّاء وقد وصل به الأمر إلى التفريط في مهنته ، و« ترك الحانوت» واشتغاله مؤذنًا بزاوية علي الفحام (1) .

العريف : فضلا عن كون خطة العريف ترجع إلى الفترة الاسلامية التأسيسية، وكانت مرتبطة بالتنظيم العسكري والاجتماعي للمقاتلة العربية، فانها عرفت بالغرب الاسلامي، حيث ذكر عرفاء البنائين بالاندلس منذ القرن السادس XII/م ، كما ورد ذكر : عريف النقادين باحدى وثائق الجنيزة (2) .

ويبدو أن هذه الخطة كانت أقل أهمية من خطة الأمين، وان كانا يخضعان في تعيينهما إلى سلطة القاضي ، أو المحتسب ، لمراقبة الاسواق واعانته، ونادرا ما يقوم باختياره الحرفيون (3) . وكثيرا ما ذكرت مصادرنا خطة العريف بصورة مبهمة ، فيما جاءت الامثلة المرتبطة بمهنة معينة نادرة مثل عريف سوق الدواب وعرفاء البناء ، أو الفلاحة الذين لهم دراية بالمساقي والجسور، أو العرفاء الذين يبتّون في مسائل تخص التهيئة العمرانية للمدينة الخ ... (4).

–*السّماسرة والدلاّلون* : ذكر السماسرة الطوّافون في الأسواق الذين يبيعون للناس منذ العهد الأغلبي . وقد خصّص لهم أبو العباس الابياني مصنفا عنوانه مسائل السّماسرة (5) .

وفي القرن الثامن هـ/ XIVم ، فرّق ابن الخطيب في نصّ واحد بين الدلاّل الذي يفتتح البيع بالمزايدة والسمسار الذي يصيح قام النّدا والشاهد والمشرف (6).

---

(1) مناقب، **مخطوط** ، رقم 18555، ص 155ب . قال صاحب كتاب المناقب في هذا الصدد: « فآجتاز السّلطان ذات يوم، دار الشيخ، فلما رآني ، قال لي : لاش سيّبت الحانوت والامانة ، فخبرته بما عاينت من رؤية سيدي احمد السقا وسيدي علي الفحام ، فكتب لي في الحين أمرًا، وقال : سرحنا لك كراء سوق السرّاجين والعطارين، هؤلاء جيران الشيخ ، وكان مجموعهم في كلّ شهر ستة دنانير نواصر ، وكانوا كذلك راتب أم مولاي عبد الرحمان صاحب قسنطينة (739–784)، فرد راتبها من جزية اليهود ، وكتب لي هنشير [بسمنجة] ، [طبله] وعشره »

Brunschvig,**Hafsides**,TI,pp.160,372.

(2) ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ص 224. Goïtein,**A mediterranean Society**,TI,pp.84,444

جاء على لسان لصحابي طلحة : " كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عريف ، ينزل على عريفه، فان لم يكن بها عريف، نزل على أهل الصفة " (ابن مرزوق ، **المسند**، ص 412).

(3) انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** (بالفرنسية) ، مادة عريف ، أمين .

(4) البرزلي، جامع ، جII ، ص 1281 ، 1291 ، 300 ب . **مناقب القرجاني** ، مخ رقم 677 ، ص 5 .

(5) الابياني، **مسائل السّماسرة** ، تحقيق العروسي المطوي ،

(6) ابن الخطيب، **الاحاطة** ، جII، ص 247 .

ولامراء أنّ السّمسار لعب دور الوسيط بين التّاجر والحريف في كلّ الحقب الوسيطيّة ، مستعملا طرقا مختلفة لبيع البضاعة مثل المزايدة بين النّاس وإشهار السّلعة والمساومة والمرابحة والمراكنة والتلقي الخ ...(1) .

ولئن كان قرار البيع يوكل لصاحب البضاعة (2)، دون غيره ، فانّ السّمسار يقوم بدور فاعل في السّوق، وفق تقاليد وطرق معهودة .

فقد أوردت المصنّفات حديثا عن كيفيّة المناداة على السّلعة في السّوق والمزايدة فيها، وما تنصّ عليه من البيع بآخر سعر تقع فيه المزايدة. وثمّة إشارات دقيقة خاصّة ببعض أسواق مدينة تونس في العهد الحفصي، ففي سوق الكتبيين القريب من جامع الزيتونة، يشرع الدلاّل في النّداء على الكتاب بعد أن يقدّم أحد العارفين بالعلم سعرا أوّلا، ويطلقون على هذه العملية " الاستفتاح " (3) .

على أنّ الدلاّل لم يقتصر عمله على مثل هذه البضائع " النفيسة " ، انّما كثيرا ما يقوم " البرّاح " أو النّداء على بيع البضائع التّافهة، أو الوساطة بين التجّار الغرباء وتجّار المدينة ، مقابل الحصول على نسبة من الارباح (4) .

وبديهي القول انّه لا يعرف تخصّصا في عمله ، اذ هو يتنقّل من سوق إلى أخرى ، بما فيها الأسواق المخصّصة للنّساء مثل سوق الغزل والابّارين والعطّارين وغيرها، رغم احترازات بعض الفقهاء، مثل ابن المناصف الذي أوصى بتقديم أمين من ثقة السّماسرة ومسنّيهم بسوق الغزل(5) .

على أنّ عنصر النّساء لم يكن غائبا عن هذه المهنة ، فقد شاركن وقتذاك في العمل في مهنة الدّلالة، فكان يطلق على المرأة التي تنادي على السّلع بالدّور " السوّاقة " ، وكانت تنتقل من منزل إلى آخر ، شبيهة في ذلك بالمرأة التي تتولّى البحث عن أزواج للفتيات ، وهي مهنة رائجة وقتذاك (6) .

وثمّة أصناف أخرى يمكن إلحاقهم بالسماسرة وهم الطوّافون الذين ينتقلون من بلد إلى آخر للتّجارة والنخّاسون الذين يتاجرون في الرقيق ويتولّون الدّلالة عليهم(7).

ومنذ الحقبة الاغلبيّة، فقد قيّدت هذه المهنة بشروط عديدة. وقد ذكر من بينها تضمين السّمسار رعاية لمصالح النّاس، وكان ابن رشد قد أفتى بذلك في القرن

1) ابن راشد ، **الفائق** ، ج IV، ص 19
2) الابي، **الاكمال** ، ج III، ص 23–24 .
3) الونشريسي، **المعيار**، ج V ، ص 38. البرزلي، **نوازل**، ج II، ص 72. الابي، **الاكمال**، ج ، ص 181 .
4) عزالدين موسى ، **النشاط الاقتصادي** ، ص 283–285 .
5) ابن المناصف، **نفسه**، ص98ب .
6) ابن مرزوق ، **المسند** ، ص 194 .
7) القلشاني ، **شرح** ، جII، ص 150.

الخامس هـ/XIم ،واتّبعه في هذا بعض قضاة الاسكندريّة وفقهاء تونس ، ومن بينهم ابن راشد (1) .

وفي المقابل ، فانّ السّماسرة كانت لهم حقوق اذ يتولّى البائع دفع أجرتهم كما يدفع أجرة كاتب الوثيقة وثمن الرق والمكس عند انجاز العمليّة، سواء أكانت تلك نسبة من الثمن أم مبلغا محددا. ولم يكن عملهم دائما عملا فرديا، انّما تعقد الشركات بين الدلاّلين للقيام بمهمّة، وتتمّ العمليّة وفق عقد ذكر ابن راشد نماذج منه(2) .

3) المعاملات التجارية : تجارة الحاضر والبادي :

أ) أنواع البيوع في التجارة الداخلية :

عرفت الاسواق بمدن افريقية طرقًا متعددةً للمعاملات التجارية ، نذكر منها :

– *المساومة:* تتمثل في وقف سلعة ليسومها من يرغب في شرائها، وكانت أكثر بياعات سوق العطارين بتونس على هذا الوجه . وقد يدخلها الغش والتدليس، إذا وقع ايهام المشتري خطأ أن السّلعة جديدة، أو الإلتجاء إلى بيع النجاشي، وهو أن يقوم أحد بالزيادة في الثمن، دون شرائها ، حتى يقتدي به غيره (3).

– *المزايدة :* يتم تحديد السعر بعد المزايدة الحاصلة بين الرّاغبين في الشراء، وتبدأ العمليّة بالاستفتاح ، وكان بعض أهل السوق يعرض السلعة الموجودة بحانوته للنداء عليها والمزايدة. وقد أعتاد الناس في القرن الثامن هـ التزام المزايد الاخير بالبضاعة ، وقد ألزمهم بعض قضاة تلك الفترة ببيع المزايدة بعد الافتراق ، لانهم كانوا يفترقون على غير الايجاب ، ويتسرب اليها الغش إذا حصل بيع غبن كما وقع لزوجة أبي الحسن البطرني ، التي استدعت سمسارا لبيع زياتين لها، وقامت حلقة من البائعين أمام منزلها ، وبدأت المزايدة في الثمن حتى بلغت سعرا معلوما، فقبلت المرأة البيع ، وقبضت الثمن، ثم جاء من زاد في الثمن زيادة هامة ، فأفتى ابن عرفة بنقض البيع الأول ، واعطائه للثاني ، باعتبار أن المرأة لا تعرف حقيقة سعر السوق ، وانه بيع غبن .

1) ابن راشد ، **الفائق** ، ج IV، ص 19 الونشريسي ، **المعيار** ، جVIII، ص 317 . حول السماسرة، انظر كذلك : المصدر الأخير، ج VIII، ص 339–364.340 .
2) ابن راشد، **نفسه** ، جIII، ص 15ب ، 1160 (ذكر العقد التالي : «تشارك فلان وفلان المتصرفان في بيع اللبن وسائر الأمتعة ببلد كذا والدلالين (كذا) في بيع الرباع والضياع والرقيق والنخاسيان في بيع الدّواب، في دلالة كذا والنّداء عليه وطلب الزيادة في مجتمع ..» .
3) ابن عرفة ، **المختصر**، ج III، ص 31ب . القلشاني، **شرح** ، ج II، ص 146. 169 .

– الاسترسال : يمكن للجاهل بقيمة السلعة وسعر السوق ان يأتي للتاجر، فيقول له : اعطني بهذا الدينار كذا، ويتقي في هذا البيع الغبن والغش وكتمان العيوب(1).

– البيع جزافا : وهو البيع دون تحديد وزن أو كيل ، ولم يقتصر هذا الأمر على أهل البادية الذين يشترون اللّحم جزافا، انّما كانت تباع بأسواق تونس بضائع عدّة مثل الاسفنج والهريسة والودك (أي الدهن) ، وكذلك ركائب الكتان وسلل التين والعنب، دون فتحها ، حتى لا تتضرر . ويتولى أمين المهنة أخذ عينة من المرئي منها وفحصها . وتطلق عبارة البيع مزابنة على كل أنواع البيع جزافا : على بيع الجزاف بالمكيل من جنسه (بيع معلوم بمجهول)، وعلى بيع الجزاف بالجزاف (مجهول بمجهول)(2).

– المراطلة : إن وزن البضاعة ومراطلتها لا يتمّان الا نادرا ، وخاصة في النقود، حتى أنّها عرفت بكونها بيع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة ، وكانت تستعمل في ذلك ميزان العود الذي يطلق عليه القرسطون، فتوضع الصنجة أو المثقال في كفة والنقد في الأخرى ، وتحقق المماثلة بتساوي حركتي النزول للكفتين، كما يُستعمل لهذا الغرض وزن يسمى الرمانة (3) .

وفي الغالب جرت العادة على بيع الدنانير والدراهم بافريقية عددا لا وزنا ، كما تعود أهلها على بيع الديار والحوانيت والفنادق والجنات مزارعة ، أي دون قيس، كما يباع الحطب جزافا ، وعند أهل مصر وزنا ، أما الزيت والتمر فانّهما يُباعان بقفصة كيلا، فيما يباع الزيت بمصر وزنا. ويباع بها الجلد الذي يعمل منه النّعال والاخفاف وزنا (4) .

– المراكنه : عادة ما يقوم صاحب الدكّان بالانفراد بالحريف. ممّا يثير منافسة جاره الذي قد يعمد إلى نشر سلعة نظير لها، حيث يراها المشتري (5).

(1) ابن عرفة ، نفس المصدر والصحيفة. القلشاني،**ن.م.**، ج.II، ص 18 ب، 141، البرزلي ، **ن.م.**،ج.II، ص 143 ب.
(2) القلشاني، ن.م.، ج II ، ص 68 ب 159–ب . الونشريسي ،**ن.م.**ج.V، ص 96 .
(3) الأبي، **الاكمال**، ج IV، ص 273–274 . حول وزن الدراهم بالقرسطون (أو القلسطون) انظر ايضا الونشريسي ، **المعيار** ، ج V ، ص 14–15.
(4) ابن راشد، **الفائق** ، ج I، ص 226 ب .
(5) الأبي ، **الاكمال** ، ج IV ، ص 178 .

– التلقي : تتمثّل في تلقي السلع الواردة لمحل بيعها قبل وصولها إليها، من ذلك ما كان يقوم به العطارون بمدينة تونس ، إذ يعمدون إلى تلقي السلع الواردة عليهم من المدن الأوروبية، قبل وصولها إلى السوق (1) .

ويخص التلقي في التجارة الداخلية البضائع الوافدة على المدينة من البادية ، فيعمد الجزارون وبائعو الطعام إلى اقتناء الغنم والحبوب والزيت وغيرها من المنتوجات الفلاحية قبل الوصول إلى السوق . وهو ما يثير حفيظة بقية الحرفيين والتجار، وكما هو الشأن في المثال السابق، يشتكون إلى القاضي ، وقد أورد ابن راشد منوالا لهذا المحضر (2).

ب)تجارة الحاضر والبادي : النظرية والواقع :

كان المنطلق لهذه النظرية حديث نبوي ورد ذكره في الصحاح : **" لا تلقوا الركبان ولا بيع بعضكم على بعض، ولا تناجسوا، ولا بيع حاضر لباد ..."** وفسر ابن رشد هذا الحديث بقوله : **" لم يختلف أهل العلم في أن النهي انما هو لارادة نفع أهل الحاضرة ليصيبوا من أهل البادية لجهلهم بالاسعار "** . اما عن المعنيين بهذا الحكم من أهل البادية ، فان الامر لا يخلو من احتمالات ثلاثة ، حسب مالك :

– أهل العمود ، دون القرى التي لا يفارقها أهلها .
– أهل العمود وأهل القرى ، دون أهل المدن .
– لا يجوز لحاضر ان يبيع لجالب ، وان كان من أهل المدن والحواضر .

وفي كل الاحوال ، فان الاختلافات في تأويل الحديث تأتي دليلا على صعوبة تطبيقه، لضرورة التعامل بين المجالين، وانتفاع أهل الحاضرة من هذا البيع (3).

غير أن اعادة هذا السؤال بالحاح في أواخر العصر الوسيط لا تفسره

(1) **المصدر نفسه** ، ج IV، ص 180. قال الأبيّ في هذا الصدد :
" وانظر ما يتفق بتونس يضع النصراني سلعة بالفندق خارج باب البحر ، فيذهب اليه بعض العطارين، فيشتريها منه. فيخرج الفتيا أنه ان كانت العادة ان يؤتى بعرض تلك السلع إلى السوق ، فهو من باب التلقّي . وكان قاضي الجماعة عمر بن عبد الرفيع كتب على العطارين عقدا ان لا يفعلوا ذلك ، وشهد في ذلك العقد شيخنا أبو عبد الله [بن عرفة] وغيره، وان كانت العادة ان لا يؤتى بعرضها إلى السوق ، وانما تباع هناك، فليس من التلقي ، الا أنه إذا بدر إلى شرائها بعض أهل السوق، فلبقيّة أهل السوق الدخول معهم فيها ، وهي مسالة شركة أهل الأسواق "
(2) ابن راشد ، **الفائق** ، ج II ، ص 12 ب . قال في هذا لصدد : " حضر مجلس نظر القاضي الآن بموضع كذا فلان وفقه الله في يوم كذا جماعة من الجزارين بالبلد المذكور ، منهم فلان وفلان وفلان، فذكروا له ان فلانا منهم خرج بكرة اليوم المذكور ، لتلقي جملة من الغنم كانت أقبلت من البادية إلى سوقهم لتباع بها على العاده ، فاشتراها فلان المذكور على ميل أو ميلين من البلد المذكور بثمن مبلغه كذا ، وانه قد استقر بجميعها ليبيعها مع الايام وحده وان ذلك مما يضر بهم وبأهل البلد، وسألوه النظر لهم في ذلك بما يجب...
(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج II، ص 279ب – 1280. القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 69 ب. العقباني ، **تحفة الناظر**، ص 252.

الضرورة الفقهية بقدر اقترانه بطبيعة العلاقة المتوترة بين المدينة وباديتها، وعجز الحواضر الكبرى على السيطرة على مجال واسع محيط بها. من هنا نفهم التحري في التعامل مع أهل البادية، والقبائل شبه المستقلة عن المركز، التي كانت تحسب في عداد القبائل المحاربة.

ومنذ العصر الزيري، طرح سؤال على أبي عمران الفاسي حول شراء غنم قبيلة مكلاتة، باعتبارها قبيلة طرفية تقطن نواحي بجاية وقسنطينة. وتوضّح النازلة التي وقعت بافريقية في أعقاب حركة ابن أبي عمارة وقبل تولّي أبي حفص عمر الحكم سنة 681هـ/1282م مدى التوتّر الحاصل بين البدو وأهل القرى، وما نجم عنه في أحكام التعامل التجاري والتبادل. ونظرا إلى أهميتها فانّنا نورد الجزء الأوّل من هذه النازلة:

« وسئل بعض الشيوخ عن نازلة نزلت بافريقية يوم ولاية الأمير أبي حفص بها، وذلك ان أبا حفص لما حصر تونس، تفرّق حينئذ العرب على قراها وحاطوا (كذا) طعامها وقطعوا طرقها. فغلا السّعر في تونس لأجل ذلك. فلما ولي الأمير أبو حفص، جلب العرب الطعام إلى البلد في اليوم الذي ولي فيه وأرادوا بيعه، فتوقّف أكثر الناس عن شرائه. فسئل من بها من العلماء، فأجاب بعضهم بأنّ الشراء منهم لا يجوز وأجاب الشيخ أبو محمد عبد الله بن يحيى الزواوي رحمه الله بجواز الشراء منهم، فأخذ الناس بفتواه ... " (1)

ولئن كان الغالب هو التعامل مع البدو، فانّ هذه المسائل كانت تثير كثيرا من الحوار بين الفقهاء، وتقسّمهم بين مساند للتعامل مع الاعراب ورافض له. وبديهي القول ان هذا الضّغط الذي تتعرض له البادية، ودعمته فتاوى العلماء، قد أضر بدون شك بثروة أهل البادية واستقرارهم، وجعل التبادل التجاري عرضة للانقطاع.

ومما له مغزاه ان صنف العلماء المحافظين دعوا الى هذه القطيعة، وحاولوا تكريسها في حياتهم اليومية: فلم يقتصر ابن عرفة وتلامذته على منع بيع آلة الحرب " **لاعراب افريقية وأهل الخلاف** " انما ذهبوا الى أبعد من ذلك في المقاطعة الاقتصادية، محرضين التجار على عدم بيع الأحذية والأفرية للأعراب(2).

واذا أمعنا النظر في هذه المواقف والسلوكات الحقيقية للعلماء، فاننا نلاحظ انها لا تخلو من تناقض، فالبرزلي الذي أجاز التعامل التجاري مع الاباضية و**«شراء العشر من عند أعراب افريقية أو ما يأخذونه من القرى»**، نراه في موقع

(1) الونشريسي، **المعيار**، ج V، ص 69.
(2) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 1179.

آخر من كتابه يسلك سلوكا متشددا، فيقاطع شراء اللحم المتأتي من البادية، وقد ذكر ذلك قائلا: **« وقد فعلت ذلك، فبقيت أشهرًا لا أشتري لحما من سوق، كلما كان الغالب مواشيهم»** (1). ومن الطريف أن الفقيه ابن قداح كان يدعو علانية إلى عدم التعامل مع الأعراب، لكن سلوكه كان على غير ذلك، اذ كان يشتري من البدو، ولما عيب عليه هذا الامر، وجد مخرجا في الانتماء الى صنفه الاجتماعي، اذ جاء على لسانه: **«الفقيه يعرف وجوه الجواز، بخلاف غيره »** (2).

إن هذا الحظر الاقتصادي الذي حاول فرضه الفقهاء على البادية لم تكن له فاعلية حقيقية، وان الجدلية الاقتصادية بين المدينة وباديتها كانت لا تخضع لمثل هذه التضييقات. فما هي اذن الحقيقة في ذلك؟.

لقد كان جزء من التبادل التجاري بين المدينة والريف يتم مقايضة، فقد دأب الريفيون على اشتراء قوتهم من المدينة زمن الجدب والمجاعة، على ان يقع استرجاعه زمن الحصاد. واذا ما تواصلت المجاعة، فانهم يجبرون على التفريط في ماشيتهم، وعقاراتهم، لصالح أهل الحضر، مما يفسر النزيف المتواصل الذي تتعرض له البادية زمن الشدة (3). وقد أدّى هذا الأمر حتما الى تفقير البادية، وتداين متزايد لأهلها والجائهم إلى المقايضة لاستخلاص الدّيون كما تبيّن ذلك هذه المسألة التي طرحت في العهد الزيري على المازري. (4). كما تحصل المقايضة بين المزارعين الحضر، أصحاب السّواني، والبدو المجاورين لهم (5).

وقد كان السوق الحضري مجالا لهذا التبادل بين الطرفين، سواء أكان سوقا قارا أم أسبوعيا. وعادة ما يعمد التجار إلى تلقّي السلع الوافدة عليهم من البادية، قبل وصولها إلى السوق، وانزالها، رغبة منهم في تحقيق ربح أكثر، والاشتراء بالثمن البخس من البدوي الجاهل لأسعار السوق (6).

(1) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 157 ب.
(2) **المصدر نفسه**، ج II، ص 1179.
(3) **المصدر نفسه**، ج II، ص 1156.
(4) «وسئل عنها الامام أبو عبد الله المازري رحمه الله، فقيل له فيما أضطرّ النّاس اليه في هذا الزّمان، والضّرورات تبيح المحظورات، من معاملة البدويين الفقراء المحتاجين في سنين الجدب، وذلك انّهم محتاجون الى الأقوات من الطعام ويشترونه بالدّين الى الحصاد أو الجذم. فاذا حلّ الأجل، قالوا لغرمائهم: ما عندنا الا الطّعام وما نقدر على ذهب، وربّما كانوا صادقين في ذلك، فيلتجئ أرباب الدّيون إلى أخذه منهم خوفا، ان تركوه في أيديهم أن يذهب منهم بالأكل وغيره لفقرهم ولا خطرا من كان من أرباب الدّيون حضريا من الرّجوع الى حاضرته، ولعدم الحاكم هناك ...» الونشريسي، **المعيار**، ج VI، ص 308. وممّا ورد في هذا الشأن بيع أحد نخاسي القيروان للأعراب بالدّين، رغم صعوبة استخلاصه (مناقب **بن عروس**، ص 476).
(5) المصدر نفسه، ج I، ص 158 ب. ذكر الونشريسي في احدى نوازله (ج V، ص 90) مسألة كثيرة الوقوع بالبوادي المغربية وهو الزيادة في ايفاء كيل الحبوب لدى البدو. وهو ما نلحظه الى يومنا هذا في البوادي التونسيّة.
(6) الغرناطي، **نفسه**، ص 222ب. البرزلي، **جامع**، ج، ص 175ب. يحيى بن عمر، **أحكام السّوق**.

كما لجأ تجار المدينة إلى التحيّل لتحقيق أرباح مشطة ، من ذلك ما كان معمولا به في تونس الحفصية، وهو أن يستلف التاجر البضاعة غير المتوفرة لديه من صاحبه ليبيعها للبدوي، على أن يأخذ لنفسه نصيبا من الربح، كما كلف بعض أعوان التجار بجلب الحريف البدوي إلى الدكان، مقابل جعالة يصيبونها من هذه العملية (1).

وفي ظل هذه العلاقة غير المتكافئة، قد تنشب أحيانا نزاعات بين التاجر والبدوي، ويغلب الحذر على العلاقة بين الطرفين. وفي حالات أخرى ، تسود علاقات الثقة بين الطرفين إذ تعوّد البدو في أسواق مدينة تونس على اشتراء البضائع وايداعها في الدكاكين لدى أهل السوق إلى أن يرجعوا ثانية لتسليمها (2).ومن الجانب الآخر ، كان بعض تجار الحبوب ومدخريها، الذين يطلق عليهم تسمية المطمر، يعمدون إلى خزن كميات كبيرة منها بالبادية، على أن يبيعوها عند حوالة الاسواق(3).

وعموما، كان السوق المجال الأساسي الذي يلتقي فيه البدو والحضر، لا لتبادل المنفعة والبيع والشراء فقط، وانما لتبادل الافكار والاخبار ، ولنقلها من عالم الحضر إلى عالم البدو ، أو العكس . غير أن هذا التبادل لم يكن متوازنا في الغالب ، اذ هو يجسد ويكرس النهب المشرع والمنظم لثروات البدوي، دون أعتبار لأصوله البشرية (عرب أو بربر). وإضافة إلى المضاربات التي يقوم بها التاجر، فان السلطان وأعوانه كانوا عنوانا للغصب والاحتكار .

ويبرز ذلك جليا في هذا المثال الذي يخص الآليات المعتمدة في السوق لاقتناء ماشية البدوي بأبخس الاثمان : فمنذ العصر الزيري ، احتكر تاجر السلطان وذلك فضلاً عن عبيده وجنده، السوق، وانفرد بشراء الماشية ، دون أن يجرأ بقية التجار، بما فيهم الكبار ، على الشراء من الاعراب. ولم تقف هذه المنافسة عند هذا الحد، انما تخطتها إلى مرحلة أخرى : وهي ما يطلق عليه البيع مرابحة ، وصورتها ان يشتري تاجر السلطان وأعوانه الماشية بالجملة، ثم يوزّعونها على « فقراء الجزارين»، لذبحها وبيعها ، على أن يعود أكثر الربح إليهم (4) .

ومعلوم ان هذا العسف الاقتصادي تواصل في العصر الحفصي، ولم يعد النهب المنظم لثروات البادية مقتصرا على الاحتكار الذي يقوم به السلطان

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج II، ص 160 ب .
(2) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج III، ص 61ب . البرزلي ، **ن.م**.ج II، ص 131 . الغرناطي ، **مسائل** ،ص 1211.
(3) البرزلي ،ن.م. ج II ، ص 160 ب (باع مطمر 55 قفيزا لأحد التجار في القرن التاسع هـ).
(4) البرزلي ، **ن.م**. ،ج II، ص 1157 .

وزبانيته، انما شمل كذلك عدد من الجزارين الذين احتكروا العمليات التجارية برحبة الغنم ، كما شهد بذلك البرزلي : **« قلت : مثله اليوم عندنا بتونس بحكر الرحبة في بعض المواشي، فلا يشتريها الا الجزارون ، ويمنع منها كل من يريدها لغير ذلك »** .

وكانت هذه العمليات تتم بموافقة ضمنية للمخزن، كما تشير اليه هذه الممارسة التي تقع بسوق مدينة القيروان في القرن الثامن الهجري ، والمتمثلة في شراء **« شاة العادة»**، بمعنى أن الجزّار يشتري الماشية دون منافس له، بأبخس الاثمان من البدوي ، على أن يدفع إلى السلطان جباية اضافية ، قال البرزلي في هذا الصدد :

« ومثله في القيروان يجعل جزار مشهور يده على شاة أو شياه يقال لها شاة العادة ، يلزمها في المخزن أضعاف ما يلزم غيرها، فلا يقدر أحد أن يزيد فيها حتى يأخذها من البدوي، بما يشتهي من بخس الثمن» (1) .

ونتساءل في هذا الصدد عن مدى ردّ فعل المتظلمين من البدو على هذا العسف الرسمي الذي يمارسه السلطان والفئات الحضرية المرتبطة به، من سماسرة وتجار وحرفيين وغيرهم من المتواطئين معه .

ج) طرق استخلاص الثمن وتسليم البضاعة : التقنيات التجارية:

تعددت طرق استخلاص الثمن، حسب نوعية البضاعة والأطراف الاجتماعية المتعامل معها والظرفية العامة، فضلا عن التقاليد السائدة في السوق . فعلى سبيل المثال ، اعتمد سوق الغزل بتونس الذي تؤمه النساء بكثرة على البيع نقدا ، فيما كان يقبل سوق الربع الذي يتعامل فيه مع البدو والريفيين، البيع بالتقاضي . أمّا في بقية الاسواق ، فتستعمل كلا الطريقتين (2) .

وفي فترات عدم الاستقرار الاجتماعي ، وأنعدام الامن والثقة بين الاطراف الاجتماعية، يصبح البيع بالمعاطاة سيّد الموقف ، بمعنى أن البيع لا يتم حتى يمنح البائع المال قبل تسلم المشتري البضاعة بنفسه (3). وقد ذكر البرزلي في هذا الصدد أن العادة في عهده فيما يخص رسوم البياعات أن تسليم البضاعة لا يكون الا عند قبض أخر الثمن .

على أن البيع بالتقسيط لم يكن غائبا بالكامل آنذاك ، ولنا مثال على ذلك بمدينة

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 1157. وقد ذكر ابن راشد (**الفائق** ، ج II ، ص 12 ب) مثالا لتلقي بعض الجزارين للماشية الوافدة على المدينة من البادية، وتصدي بقية الجزارين لهذا الاحتكار، واشتكائهم إلى القاضي .
(2) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 131 .
(3) القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 159، 158 ب .

صفاقس، وهو أن أراضي بيعت داخل صفاقس وخارجها بـ:135 دينار، تقابضا في الثمن، وبقيت 130 دينار تدفع على أربعة أقساط، لكن مرت خمس سنوات دون أن يستخلص الدّين، ونتيجة لذلك، رفض البائع تسليمه الأرض، وطلب الاقالة(1).

والحقيقة أن التراجع في البيع يتم نتيجة عوامل عدة، منها عدم استخلاص المبلغ كاملا، أو كذلك الشّفعة (2).

-*تسليم البضاعة* : توجد طرق عديدة معتمدة لبيع البضاعة، تختلف حسب نوعيتها، فالبعض منها تباع بظروفها، وعلى سبيل المثال، فان الزبيب يباع في قطع الجرار، والورد والتين والزبد في ظروف معنية، وعادة ما تستعمل السّلال المسماة القراطل لوضع الغلال. أما الثمار الجافة، مثل اللوز والجوز فانها تباع في صوانها، ويباع الخل في قلال، وماء الورد في قماقم، وهي أواني صغيرة من خزف أو نحاس أو فضة يجعل فيها ماء الورد، والزيت في جرار. ويشترط في بيع العطريات ومواد الصباغة مثل اللاك والمصطكى، بمدينة تونس تنظيفه وطرح الأوساخ من الوزن، فيما تباع بالساحل والقيروان جملة، دون تصفية. وكذلك كان يشترط في بيع الكتان زوال حطبه.

ويتسرب الغش إلى البيع، وكانت الحيل تختلف باختلاف البضاعة. فقد تعود بعض أهل السوق وضع الجيد من الغلال في أعلى السلال، وخلط اللحم.

---

(1) البرزلي، **المصدر نفسه**، ج II، ص 146ب. وتكتب وثيقة الاقالة بالصورة التالية: " اقال زيد عمرا في جميع الدار التي بموضع كذا، حدودها كذا التي اشتراها منه، في تاريخ كذا بمائة دينار دراهم سكية عشرية، دفعا له حين الابتياع الموصوف، ثم قبض الان منه مثلها صفة ومقدار، واعاد عليه الدار المحدودة، فعادت إلى ملكه حسبما كانت عليه، لم تتغير ولا حدث فيها عيب". وفي اقالة العبيد، يكتب: " اقال فلان فلانا في العبد المسمى بفلان الذي جنسه ونقد كذا، الذي كان اشتراه منه في تاريخ كذا بمائة دينار دراهم سكية عشرية مؤجلة عليه إلى اجل كذا" (ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص 155 – 157.

(2) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 1110 و1104. ومما يذكر حول صعوبة استخلاص الديون، ما حصل لابن الطواح الذي كان له دين على ابن حيون، من قسنطينة. وفيه عقد مشهود. ولما اراد أستخلاصه اتصل بقاضي في المكان سنة 698هـ. الذي ضرب لابن حيون اجلاً باربعين يومًا. وعلى إثر مماطلته، رفع القاضي المسألة إلى السلطان الذي طالب بان يعقد مجلسا للفقهاء لهذا الغرض. ونظرا لانتساب ابن حيون للموحدين، فانّه حاول الاستعانة بشيوخ الموحدين بتونس، لكن بدون جدوى: ابن الطواح، **سبك المقال**، ص 149. وحول الشّفعة نذكر في هذا الصدد نزاعا مطولا وقع بمدينة تونس بين الشفيع للمنزل والمشتري، وهو أن مالكًا لجزء من منزل اخذ شفعته في بقية المنزل، بشهادة عدلين، دون أن يعلم المشتري. ثم ان الشفيع باع جميع الدار، فقام المشتري بقضيّة لبيعهاثانية، دون موافقة الشفيع، واقر القاضي ذلك. ممّا اثار جدلا بين الفقهاء، بما فيهم ابن عرفة حول شرعية هذه العملية تكتب وثيقة الشفعة كالآتي: " استشفع فلان من فلان النصف الذي اشتراه فلان المذكور من فلان من الدار التي بموضع كذا..في تاريخ كذا بكذا وكذا دينارا من سكة كذا، قبضها البائع فلان من فلان المستشفع، حين انعقاد التبايع بينهما..." (ابن راشد، **الفائق**، ج III، ص 117).

ومن مظاهر التدليس المتبعة أن يكتب على الثوب سعر أكثر من الثمن الحقيقي فيغتر المشتري بذلك، كما يعمد البعض إلى تطرية الثوب القديم بالقصارة والكماد حتى يظن أنه جديد، والى تلطيخ ثوب العبد بالمداد، فيظن انه كاتب، كما يخلط العسل بالماء، والجيد بالرديء(1).

ولم تقتصر طرق استخلاص الثمن على الدفع نقدا أو بالتقاضي، انما عرفت الحضارة العربية الاسلامية تقنيات متطورة منذ في العهد العباسي. و تواصل استعمال بعض هذه التقنيات في الفترات الاخيرة من العصر الوسيط، رغم التراجع الحضاري الذي عرفته هذه الحقبة (2).

– *الصكّ* : ورد ذكره في وثائق ابن راشد.

–*السفتجة* :تستعمل للدفع في بلاد أخرى، وتتمثل في تسليف المسافر إلى بلاد ثانية ماله لآخر،على أن يأخذه من وكيله الموجود بالبلاد المسافر إليها. وتساعد هذه العملية على تأمين المال للطرفين: الدافع والقابض، وحمايته من غرر الطريق ومن مخاطره، ومما له دلالته انها لم تنقرض في العهد الحفصي، وبقيت موجودة إلى حد القرن التاسع هـ / XVم (3).

–*الحوالة* : رغم معارضة بعض الفقهاء الممثلين للتيار المتزمت، فان الحوالة كانت مستعملة طيلة العصر الوسيط، ولم تقتصر على الفترة الأولى منه، بدليل انها ذكرت أكثر من مرة في الفترة الأخيرة.

فقد ذكر القلشاني أنها " **تعقد صرفا وتدفع دينارا، وتقول لقابض الدينار منك : ادفع الدراهم لغريمي هذا، فيما له علي** ". وقد أشترط الفقهاء لجواز هذه العملية ان يتم الدفع للغريم (وهو المحال، أي المنتفع بالمال) بحضور المحيل، باعتبارها بيع دينار بدرهم بقبول الاطراف الثلاثة: المحيل الذي قام بالعملية، والمحال عليه الذي يكون عادة الصيرفي، والمحال، وهو المنتفع بالمال. ومن نافلة القول، ان الصيرفي يحقق فائضا عند الصرف، مقابل عمله، دون ان يسقط في العمليات الربوية. وانّ المحال الذي عادة ما يكون من صغار التجار متضرر من هذا السلف بالفائض الذي يمنحه له الصيرفي، لتسديد ديونه المخلدة بذمته تجاه كبار التجار.

ومما يأتي شاهدا على أستعمال تجار العصر الحفصي لهذه التقنية، العقد الذي أورد ذكره ابن راشد في هذا الغرض: وهو الآتي:

---

(1) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 161ب، 1178. القلشاني، **شرح**، ج II، ص 145.
(2) الدوري، **مقدمة في التاريخ الاقتصادي**، ص 71.
(3) ابن راشد، **الفائق**، ج III، ص 70ب، القلشاني، **شرح**، ج II، ص 45.

« أحال زيد عمر بعشرة دنانير المحالة له عليه من سلف صحيح على بكر في عدد مثلها صفة وقدرا ، ترتب له عليه من معاملة صحيحة حل أجلها ، أو تحل في وقت كذا، حوالة صحيحة ، رضى بها المحيل والمحال . وبرئت بذلك ذمة المحال عليه من دين المحيل براءة صحيحة، وذلك بمحضر المحال عليه واقراره بصحة ترتب العدة الموصوفة قبله من الوجه المذكور إلى الأجل المذكور فيه . شهد على اشهاد المحيل والمحال عليه بما فيه عنهم من اشهدوه به في صحتهم وجواز أمرهم، وعرفهم بتاريخ كذا ».

فاذا انعقد ذلك بينهما ، وأفلس المحال عليه ، لا يمكن للمحال أن يرجع على المحيل ، ويطالبه مجددا بالمال ، الا اذا سبق الافلاس عقد وثيقة الحوالة. ولذا فقد كان كثير من الناس في العصر الحفصي لا يعقد هذه الوثيقة الا بعد التحقق من الوضع المالي للمحال عليه ، أي الصيرفي ، تحاشيا للمشاكل الناجمة عن الافلاس، وبالتالي فان الاشكال يمكن وقتذاك في صعوبة بروز فئة قوية من الصيارفة ، في ظل الاستبداد السياسي والاضطراب الاجتماعي وكثرة المصادرات (1) .

وإذا كانت المبالغة لا تخلو مما كتبه الحسن الوزان في شأن الصرف ، فان دلالته قوية على تردي الأوضاع المالية في مطلع القرن XIV م ، بعد أن اضطربت الاوضاع ، واحتل الاجانب البلاد ، ولا تدل بأي صورة على الوضع السابق ، قال في هذا الشأن :

« ليس لهم (أي الافارقة) أعيان ولا قضاة يتولون شؤونهم أو ينصحونهم في أية مسألة من سياسة أمورهم ، بالاضافة إلى أنهم في غاية التعنت والجهل بالتجارة ، ليست لهم مصارف ولا من يتكفل بشحن البضائع من مدينة إلى أخرى، وانما يلزم على كل تاجر أن يبقى بجانب بضاعته ويذهب معها اين يذهب.. ولا يردون اطلاقا ما اقترضوا من مال...» (2).

(1) ابن راشد، **الفائق** ، ج III ، ص 194–195،ج I، ص 14.

(2) الوزان، **وصف افريقيا** ، ج I ، ص 70 . وهي التالية : « الحمد لله ، حضر شهوده موطنا موطنا تحاسب فيه مردخاي اليهودي مع سلول اليهودي على كل ما كان بينهما من معاملة ومداينة ، قلت أو جلت ، إلى أن أبرزت المحاسبة بينهما انه لم يبق لسلول قبل مردخاي من كل ما ترتب لسلول قبل مردخاي قليل ولا كثير، وانه تخلص من ذلك كله ولم يبق له قبل مردخاي قليل ولا كثير ، لاعترافه بقبض ذلك من مردخاي . واشهد سلول على نفسه أن لمردخاي في ماله وذمته 12 قنطارا من الشمع المسبوك كان لمردخاي اسلم له فيها ودفع له في رأس المال سلعا من لاك وطرطر وعفص وملف قومت حينئذ بـ 128 دينارا لكل قنطار، ولم يقبض سلول سوى ما ذكر . وبقي له من بقية رأس المال 76 دينارا ذهبا ، وامتنع سلول المذكور من دفع القنطار المذكور لمردخاي حتى يواصله بـ76 دينارا المذكورة . وبقي الأمر بينهما على هذا إلى أن كان لمسلم على مردخاي مال، فاحاله مردخاي على سلول وقال له : « أنا اليوم عديم يعرف عدمي الخاص والعام ولا أملك الا مالي في ذمة سلول حسبما تضمنه الرسم اعلاه ، وأنا الآن لا قدرة لي على خلاص ذلك منه، فاني طلبته مرارا فلم يلتفت لي ، وأنا تحاسبت معه احضرت عدولا من المسلمين يشهدون بيننا بما يقع بيننا ، فأبرزت المحاسبة ما تضمنه الرسم اعلاه ، فكتبوا لي الرسم المنقول اعلاه وشهدوا عليه وخطب عليه القاضي، وقلت لسلول : زدني كتابا بخطك تعترف لي فيه بمالي في ذمتك وما قبضت مني ، ويشهد عليك شهودا من اليهود ، فكتب لي بخطه بذلك وشهد عليه فيه الشهود. فان رأيت يا سي (كذا) ان أحيلك على سلول بما يوحيه الحكم عليه، نفعل»

ونفهم في إطار هذا الوضع ما آلت اليه الحوالة من تردّ ، كما ورد ذلك في وثيقة حوالة حررت بتلمسان خلال القرن التاسع، وسئل عنها الفقيه محمد العقباني (1)» .

الشركات التجارية :

أضحت التجارة عملية مخاطرة خلال تلك الفترة، وخصوصًا في الحقبات التي يسود فيها الاضطراب الداخلي أو القطع والقرصنة في البحر. وقد كان الخوف هاجسا كبيرا لدى التجار، المتنقلين من بلد إلى آخر، وتزخر كتب الرحلة بذكر هذه الحالات . ولئن خففت الشركة في التجارة من وطأة الخسائر الناجمة عن عدم استتباب الأمن، فانها لم تمنع من وقوع المحظور الا في القليل النادر. وكانت تنتهي أحيانا نتيجة الاختلافات الحاصلة (2).

والشركة هي اتفاق بين طرفين يلزم بالعقد ، يتم بمقتضاه خلط وسائل الانتاج من رأسمال وغيره، والعمل . ولم تكن التصنيفات الفقهية في هذا الصدد (شركات أموال وأبدان وذمم حسب القاضي عياض، وشركة أعمّية وأخصّية حسب ابن عرفة) الا تعبيرا باهتا عن الواقع الاقتصادي (3). والحقيقة ان الشركات التجارية كانت تتفرع إلى ثلاثة أصناف :

– شركة مفاوضة ، وهي الاشتراك في الرأسمال والعمل، على أن يكون الربح بقدر ما أخرج كل واحد منهما، وقد يسافر طرف ويتولى الثاني التصرف في الاعمال في بلده .

– اشتراك التجار في تكليف أحد الأعوان أو الوكلاء للسفر وجلب البضاعة، وهي المسماة بشركة العنان (من عنّ له الأمر أي كلفه). ويتحصل هذا الأجير (الجلاّب) على أجرته، فضلا عن المصاريف التي تخصص له عند السفر ، للاقامة والطعام واللباس .

– شركة المضاربة ، من الضرب بالمال أي السفر به، وتسمى أيضا القراض، وهو **"إجارة على التجر في المال بجزء من ربحه "** ، حسب تعريفات الفقهاء ،

(1) المغيلي، **نوازل مزونة** ، ج II ، ص 1123.

(2) ابن بطوطة ، **الرحلة** ، ص 20. انظر كذلك : رحلات العبدري، والبلوي وابن رشيد . حول النزاعات بين الشريكين . انظر الونشريسي ، **ن.م.** ج VIII ، ص 217–219.

(3) الرصاع ، **شرح حدود ابن عرفة**، ص 368. القلشاني ، **شرح** ،ج II ، ص 181 : والاعمية هي التي تجمع مالكين فاكثر مثل الارث والغنيمة ، اما الاخصية فهي خلط الملكية بين طرفين فأكثر، مما يؤدي الى محدودية التصرف في الجميع مثل التجارة وشركات الحرث والابدان .

وتتمثل في قرض أحدهم الآخر مالا على أن يسافر به للتجارة ، ويكون الربح بينهما(1) .

ويعتبر هذا العقد أكثر شيوعا من غيره ، لما فيه من فائدة السلف دون الوقوع في الربا، اعتبارا للمخاطر التي تحدق بالقوافل من قطع ولغياب التأمين على الرأسمال. فقد يشترط صاحب الرأسمال على شريكه الا يغامر بالتنقل إلى المواضع غير الآمنة، ويكون الرّبح بينهما مناصفة كما قد يلزمه دفع القراض فضّة على أن يستخلصه ذهبا (2).

وفي حالات أخرى معروفة في العصر الحفصي، يسلم التاجر الكبير البضاعة للتاجر العامل لتوزيعها داخل السلطنة أو خارجها ، مقابل أجرة محددة. ويدلّ هذا التفاوت في الرأسمال على أن هذا العامل، الذي يشترط أن يكون من غير أهل الذمة ، اعتبر بمثابة الأجير، لا الشريك (3) .

وثمة شكل آخر من القراض ، تمثل في تسليم التاجر، أو التجار، أموالا لصاحب مركب، على أن يقتني بها بضاعة من صقلية أو غيرها ، وهي عملية لا تخلو من المخاطر والصعوبات : مخاطر القرصنة ، وصعوبات التعامل مع « دار الحرب » ، على حد تعبير الفقهاء . فقد كان التصلب أمرا واقعا في فترات التوتر، مثلما حصل في القرن السادس هـ/ XII، لما منع السفر إلى صقلية رغم حاجة الناس إلى الأقوات في فترات الشدة .

ومنذ تلك الحقبة تعود أهل افريقية على استيراد الحبوب من الجزيرة ، وفق الكيفية التالية: يسلم مجموعة من التجار الدنانير المختلفة (مرابطية وطرابلسية ومهدوية وغيرها) إلى صاحب المركب، بعد أن يعيد صاحب السكة ضربها، ويزيد عليها وزنا من الفضة . وعند وصول الحمولة، واستيفاء أجرة صاحب المركب، يتم اقتسامها بين التجار، وهي عملية لا تخلو من صعوبات، لاختلاف جودة الحبوب، وقلة الحمالين وغيرها (4) .

ورغم ميل العلماء إلى هذا الصنف من العقود الذي يجنّبهم الربا، ويحقق لهم أرباحا خاصة اذا وقع تضمينها، فان خلافات عديدة قد تنشب بين الشريكين ، بين صاحب الرأسمال الممول للشركة، والعامل المقارض، خاصة أنّ هاجس المموّل

---

(1) القلشاني، **نفس المصدر والصحيفة** ، ابن جماعة ، **مسائل** ، ص 15.

(2) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 116 . الونشريسي ، **المعيار** ، ج VIII، ص 201 .

(3) المصدر نفسه ، ج II ، ص 116 . كذا في الونشريسي ، **المعيار** ، ج ، ص 200–201(وقد طرحت هذه المسألة على أبي القاسم الغبريني)

(4) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VIII، ص 203–204 .

الأساسي هو تحاشي الأسواق غير الآمنة للاطمئنان على أمواله ، والمثل على ذلك ما ذكره البرزلي، قال : تولى المقارض مقايضة البضاعة بالماشية في البادية ، ثم سلم هذه الماشية لمن يرعاها وهو أمر يدلّ على مدى توغّل التجار في البادية . ولما حوسب، ادعى أن الماشية هلكت، ولم يحقق ربحا يذكر. وقد حدث هذا الامر بافريقية في القرن الثامن هـ / XIVم (1) . وكانت شركات القراض تحصل بين صفاقس وتونس وطرابلس ، بمبالغ متفاوتة وكانت عرضة لحركات القطع التي يقوم بها القراصنة الاوروبيون (2).

ومن الامثلة التي تستحق الذكر في شركة القراض ما يرجع إلى القرن السادس هـ / XIIم ، ورغم انه سابق للفترة الحفصية، فانه يعتبر من الأمثلة النادرة التي ذكرتها مصادرنا العربية حول كيفية المحاسبة : وتتلخص في شركة قراض بين تاجر من مدينة تونس، وشريك له سافر إلى الاسكندرية، محملا بالمرجان والحرير . وبعد بيعها بمصر، اقتنى بثمنها الكتان وبعض أنواع الاقمشة والنيل والقرنفل . وعند رجوعه إلى تونس ، باع النيل بسوق الصباغين بتونس ، وكان جزء منه بيع تقاض ، أما شريكه بتونس فانه انصرف الى تجارة الحبوب (شراء 380 قفيزا في مرة واحدة). والوثيقة هي عبارة عن محاسبة للمقارض، بعد موت شريكه ، وانتهاء عقده (3) .

---

(1) **المصدر نفسه** ، ج II ، ص . انظر ايضا :

H.R.Idris, Commerce maritime et kirad en Berbérie Orientale D'aprés un recueil inédit de Fetwas médiévales,.In J.E.S.H.O. 1961,p.225.

(2) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 120 ب.

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج I ، ص 146أ–ب ، ج II ، ص 120ب .

III. نظام الجباية : سخرة أهل البادية وقبالات الأسواق :

ظلت البادية المصدر الاساسي لجباية المخزن الحفصي، الذي لا يمكن أن تعادله عائدات التجارة المتوسطية، رغم أنها كانت أكثر انتظاما. فقد كان أستخلاص الريع العقاري العامل المحدد في نوعية الانتاج الزراعي، وطبيعة علاقة المجموعات البدوية بكل من المدينة والسلطة السياسية. وهو ما يفسّر أهمّية مكانة الجباية في سبر كنه المنظومة الاقتصادية بافريقية والمغرب في أواخر العصر الوسيط.

فقد كان أستخلاص ريع الارض من المزارعين يتمّ لفائدة ثلاث قوى أساسية :

– الأعيان المحليين بالبادية من كبار شيوخ البدو ورؤسائهم، وأصحاب الزوايا الذين يتولون كراء الأرض، أو أخذ نسبة من الانتاج، مقابل حمايتها من التعدّي، بفعل سلطتهم العسكرية (فرسان البدو)والمعنوية (أتباع الزّوايا). وتتولّى القبائل المخزنية جمع الضرائب للدولة(1).

– الملاكين العقاريين التغيبيين بالمدينة، الذين يكترون الارض لصغار المزارعين، مقابل معلوم عيني أو نقدي، ونظرا إلى تطوّر العلاقات الانتاجية،فان هذا الريع كان يدفع نقدا، بناحية مدينة تونس، وذلك بعد أن يقوم المزارع ببيع محصوله بأسعار زهيدة في فصل وفرة الانتاج، ومثّل الوكلاء حلقة الربط بين العاملين في الارض والنتفعين بغلتها في المدينة.

– المخزن الحفصي : وقد مثّلت المحلة الجهاز العسكري الفاعل الذي يتولى أمر الجباية، أثناء حملات موسمية، متناسبة مع رزنامة الانتاج الزراعي، وكان قدومها يثير الرعب لدى المزارعين (2).

وفي الجملة، فان هذه القوى المنتفعة من الجباية لم تقتصر على استيفاء الضرائب القانونية بالريف والمدينة، من زكاة وخراج وجزية، إنما تعددت المجابي في هذا العصر، وتنوعت، مشكّلة بذلك عائقا أمام تطور الزراعة.

---

(1)حول أستعانة السلطان بالأعراب لجمع الضرائب، انظر : البرزلي، **جامع مسائل الاحكام**، ج I، ص 1138. الونشريسي، **المعيار**، ج I، ص384.

(2) حول الظلم والخوف من أهل الجباية، انظر نص الوثيقة المذكورة كاملا في : ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص 54 ب. انظر كذلك : البكري، **المسالك** (الطبعة الجديدة)، ص 681 . الشماخي، السير، ص 352 (خوف المزارعين، كلما حل بالواحة متولو الجباية، لثقلها و العسف المقترن باستخلاصها . وهو ما يفسر لجوء المزارعين، بما فيهم العلماء، الى التهرب من دفعها، و إخفاء الانتاج) . وأشار الونشريسي (ج I، ص 142) الى مثال من عمل السخرة قام به المزارعون لفائدة العمال، إذ وقع أستخدامهم، مع دوابهم، قهرًا في البناء . وحول ثقل الجباية على أهل البادية، راجع وصية المعز الفاطمي لبلكين **(إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : أياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية والسيف عن البربر ولا تول أحدا من إخوتك وبني عمك فانهم يرون أنهم أحق من هذا الامر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرا »** :ابن خلكان، **وفيات**، ج I، ص 286 .

1) المكوس والمغارم :

مثّلت المكوس والمغارم قسطا هاما من الجباية التي يتحصل عليها المخزن الحفصي، وقد دأب أصحاب النفوذ من الولاة والقوّاد والأعراب على أخذ المغارم وأستخلاصها من الفئات الشعبية، في المدن والبوادي، على حد سواء.

وتعددت المكوس خلال هذه الحقبة، وتنوعت أصنافها، فمنها المكوس التي يدفعها التجار والحرفيون في الاسواق، وتؤخذ عند الابواب على البضائع الوافدة من البادية ومن جهات أخرى، مثل فائد الصوف والمكوس عند بيع المواشي، ومنها الوظائف المخزنية التي تسلط على أهل القرى، والخطايا والمغارم التي يدفعونها للسلطة، وصولا الى الغرامة المالية التي يتعين على المسجون دفعها لاطلاق سراحه(1).

أ) كيفية استخلاصها : اعتمدت طرق استخلاص الجباية على حملات المحلة السلطانية في البوادي والقرى والمدن.

وفي إحدى الحملات، أدّى حلول المحلة بواحة قفصة الى إتلاف أكثر من نصف الانتاج، حسبما نتبيّن ذلك من الوثيقة المحرّرة في هذا الغرض، ونصها :

« حضر عند شهوده فلان، فذكر أنه أشترى من فلان..ثمار نخله بعد أن بدا صلاحها بثمن مبلغه كذا، مؤجل عليه الى أنقضاء كذا، وأن خيل المحلة الواصلة من موضع كذا مرت بتلك الجهة، بعد يومين من تاريخ الابتياع، فاذهبت الثمار المذكورة أو جلها باكلها وإفسادها، وسألهم النهوض معه اليها..فراوها مجتاحة بما ذكر حسبما نصه وفسره، وأعلموا أن الجائحة المذكورة قد أذهبت نصف الثمار المذكورة، لمعرفتهم أن حلول المحلة المذكورة حيث ذكر كان أول إجتناء الثمار بها » (2).

وتزداد تعديات المحلة المتولية لجمع الجباية، عندما تقوم بحملات تأديبية على البلاد الرافضة لدفع الجباية، مثل البلاد الغربية و الواحات النائية، فيكثر الغصب و النهب، ويعمد عامة الجند الى أفتكاك أموال الناس عنوة. وكثيرا ما قامت هذه المحلة التي تنتقل ببطء بإتلاف ما يعترضها من زروع ومغروسات ومواش، متخذة الزوايا محطات للاستراحة (3).

---

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج II،ص 251ب . وأورد الغرناطي (ن.م.، ص 219ب) معلومة متشابهة مفادها أن قائد الوطن أخذ غرامة على المساجين مقابل تسريحهم

(2) ابن راشد، **الفائق**، ج 2، ص54ب . الشماخي، **السير**، ص 517.

(3) البرزلي، **جامع**، ج3، ص 163. ابن ناجي، **معالم**، ج، ص 240. الجدميوي، **رفع الازار**، ص 109 ب . يرجع ذكر بعض المصطلحات الى العهد الفاطمي ، إذ ورد آنذاك ذكر الوظيف والمغرم والمحلة ببلاد المغرب . راجع : ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج I، ص 173، 181، 219 . راجع كذلك حول مختلف أنواع الضرائب بالمغرب والاندلس : ابن حوقل، **صورة الارض** .

على أن المحلّة التي تتحرك موسميا ليست الجهاز الأساسي المكلّف بجمع المغارم والمكوس، إذ تواجدت مجموعة من الخطط المخزنية التابعة للسلطان أو لصاحب الاشغال مباشرة، والمتولّية أخذ المغارم، بدءا بصاحب الاشغال، ووصولا الى حاكم البلد وحاكم الفحص والقائد والقبائل المخزنية وعامل الجباية وأعوانه من كتاب وشهود وقباض وأصحاب المكوس المباشرين للعمل، والذين بلغ بهم الامر الى التنكر في زي المتصوفة للتورية.

وخضعت عملية جمع الضرائب الى دقة في التنظيم، فكان عمال الجباية يستعينون بشهود عند قبضهم المال، و بقباض يسلمون البراءات المعلمة التي يتولى تحريرها كتاب. وتحصل المستخلص للجباية على براءة، تختلف نوعيتها حسب طبيعة الضريبة : فمنها براءة أكرية المخزن أو أكرية الحبس، وأخرى تسلم لمكتري إقطاعات الجند من قبل المنتفع بها من قواد الجند أو وكيله، كما تمنح لاهل الذمة بعد دفع الجزية (1).

وتمثل القرية الوحدة الاساسية لجمع الضرائب بالريف، وهي عملية لا يكون فيها التعامل المباشر بين السكان وعمال الجباة الوسيلة الوحيدة لجمعها إنما يتولى أمرها أعيان القرى الذين يقومون بتسجيل أسماء المطالبين بدفع الجباية في أزمة، وجمع الوظائف المخزنية التي تسلط عليهم، وتسليمها الى أعوان السلطان من عمال وغيرهم، وهي طريقة مستساغة من السكان على ما يبدو(2).

غير أن هذا الجهاز الضرائبي المنظّم دخلت عليه البلبلة في فترات الاضطراب الاجتماعي، فتعددت القوى الاجتماعية المطالبة بالجباية، وساد الظلم والغصب : فقد عمد أمراء القرى إلى غصب الأموال عن طريق أعوانهم، وسجن القواد الناس ولم يسرحوهم الا بعد دفع غرامة مالية، فيما لجأ مشائخ الاعراب الى غرم المتشاجرين من أهل الدوار أو القبيلة. والتجأ هؤلاء الاعيان المحليون الى طرق ملتوية للتحصل على المال، فسلّطوا أعوانهم على الناس، وخاطبوهم بكلام ظاهره نصح، وحقيقته ترغيب على الدفع، تحاشيا لبطش الظلمة (3).

وفي الجملة، فان كيفية جمع الضرائب لا تقتصر على تطبيق التشريعات المعمول بها، أو تلتزم بالقوانين والظهراوات الصادرة من المخزن. إنما كثيرا ما يقع الانزلاق نحو العسف، خاصة في فترات الازمة. وهو ما ينهض برهانا على طبيعة العلاقة التي تربط أغلب فئات المجتمع بأهل الجباية.

---

(1) البرزلي، **جامع مسائل الاحكام**، ج III، ص 170، 97ب .

(2) **المصدر نفسه**، ج III، ص 169.

(3) المغيلي، **الدرر المكنونة**، ج II، ص 41ب، 45 ب، 47 ب . وقد ذكر البرزلي أن أصحاب المكوس يتنكرون في لباس المتصوفة حتى لا يفلت الناس من دفع المكوس اليهم (**نوازل**. ج IV، ص 415 ب) .

ب) أهل الجباية والمجتمع : تحدث ابن خلدون عن تطوّر هذه الخطة، فقال : «**ولما استبد بنوأبي حفص بافريقية، وكان شان الجالية من الاندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس، مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسين، فاستكفوا بهم في ذلك، وجعلوا لهم النظر في الاشغال، كما كان لهم بالاندلس، ودالوا فيما بينهم وبين الموحدين. ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحّدين. ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شان من شؤون الدولة، تعطل هذا الرسم، وصار صاحبه مرؤوسا للحاجب، وأصبح من جملة الجباةوذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة**» (1).

اتفقت فئات إجتماعيّة عديدة على تحديد موقفها من خلال الربط بين الجباية وطرق استخَلاصها. فمن الواضح أن عددا هاما من العلماء أنكر سلوكات الجباة، ناعتين إياهم بالظلمة ومستغرقي الذمة.

وقد كانت السلطة المخزنية نفسها تتنكر في كثير من الاحيان لأهل الجباية، عندما تتعاظم ثروتهم. فتقوم بمحاسبتهم واستصفاء أموالهم ومصادرة ثرواتهم، والتنكيل بهم. فأبو العباس أحمد اللياني، صاحب البحر، صودرت ثروته وقتل، ومحمد بن خلدون، جد عبد الرحمان، متولّي خطة صاحب الاشغال، قتلته العامه أثناء حركة ابن أبي عمارة سنة 679 هـ. كما كان عمال الخراج والصدقة يتعرضون للمحاسبة، من ذلك أن أحد عمال الصدقة بالقيروان كان معروفا بالظلم والتسلط، فتمت محاسبته وجلده وأستصفاء بعض ماله، بعد أن شهد عليه عدول من أهل المدينة (2).

أما فئات العامة، فانهم لا يتوانون في توريط قابض المغارم تشفيا، من ذلك أنهم أتهموا أحد القباض الظلمة بمدينة تونس بكونه تعدى المقام السلطاني، وعلى حد تعبير البرزلي،« **وقع بلفظة توجب القتل أو الادب الشديد في حق الجناب العلي** » (3).

ولم يكن الفقهاء أكثر تسامحا من العامة، بل على العكس من ذلك كانت تُحرّكهم دوافع فكرية، ومصالح مختلفة، في موقفهم من أهل الجباية. ومما يروى عن الاحترازات التي يقابل بها « أولاد الظلمة وكتاب دواوين المكوس » ما جرى لاحد أفراد عائلة ابن خلدون بمدينة تونس، لما رفض أحد المدرسين، وهو أبو الحسن العبدلي، قبوله في الدرس لهذا الاعتبار، لولا تدخل والد ابن عرفة لفائدته قائلا : « **هذا الولد متسم بسمات أهل الخير متبع لهم** » (4).

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 434. (2) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VII، ص 806 . الزركشي، **تاريخ**، ص 36،-47، البرزلي، **جامع مسائل الاحكام**، جIII، ص164.

(3) البرزلي، **المصدر نفسه**، مخ رقم 4851، جII، ص 1214.

(4) **المصدر نفسه**، ج II، ص 1153 (ويفهم من هذه الحادثة إحتراز الفقهاء التونسيين من العائلات المخزنية، وبخاصة من الوافدين من الاندلس، كما يشير اليه حدث آخر، وهو طرد عبد الحق بن سبعين من مدينة تونس وتحوله الى المشرق) .

وقد ذكر أبو القاسم البرزلي في شأنهم : **« أن أكثرهم معروفون بالجور والظلم والتسبب في أخذ أموال الناس بغير حق، ولا يحكمون بحق ولا تجري أحكامهم على شرع، بل على فراسة وتأولات واهوية »** . على أن هذا الحكم الاخير يخفي تنافسا بين القاضي الممثل للنظرية الفقهية والحاكم المخزني المجسد للمارسات العملية.

ويفسر البرزلي سيطرة نفوذ الحاكم ومحدودية سلطة القاضي، بكون هذا الاخير لا يوجد الا في المدن الكبرى، في منأى عن أهل البادية، وقد كان محاطا بهيبة كبيرة وأعوان عديدين، يضللون الحقيقة، ويحصلون على الرشاوي، ويمنعون الدخول اليه، حتى أنه لا يتسنى ذلك الا بعد طول وقت ومشقة . مما ينسي صاحب الحق حجته في زحمة الاجراءات وبطء الحكم، بيد أن الحاكم الذي كانت له سلطة فعلية مجسدة في سطوته ونفوذه، أسرع في حل القضايا، حتى أن الفقهاء أنفسهم كانوا يتبعون هذا المسلك القريب، وهو حكم العمال.

فقد كان ابن عرفة يهرع إلى حكام الفحص والمدينة، لكثرة **« أهل الفساد والفسق وسطوة العمال »**، بمعنى عمال الجباية، وأفتى البرزلي في الرعاة الذين يتعدون على أملاك الناس أنه يجب أن يسعى بهم الى الحكام، لشدة سطوتهم، وإجبارهم على دفع غرامة مالية، اعتبرها البرزلي بمثابة الفيء تصرف في مصالح المسلمين، فيما أنكرها الشماع. وقد أدى هذا الاختلاف حول شرعية الغرامة الى جدل بين الاثنين (1).

2) مغارم البادية :

تعرضت الأرياف المغربية عامة والافريقية خاصة الى النهب من الطّرفين : من المحلّة وشيوخ البدو. وتعوّد المزارعون والحراثون على دفع شتى أنواع الجباية والمغارم والخطايا التي فرضها عليهم أصحاب النفوذ من شيوخ القبائل البدوية.

ففضلا عن زكاة الماشية، أغرمت الازواج الحارثة، وأخذت على الاراضي الرعوية إتاوة أطلق عليها بالمغرب الاوسط خراج الجبال. وكثيرا ما أجبر المزارعون على دفع إتاوات للأعراب، مداراة لهم، من ذلك القطيعة أو القطيع، وهي ضريبة تؤخذ على الانتاج الزراعي من حبوب وزيتون وتمور، وقد وجدت منذ القرن الخامس هـ / الحادي عشر م الى حد سنة 749 هـ، تاريخ إزالتها من قبل أبي الحسن المريني(2).

---

(1) البرزلي، **نفسه**، ج II ،ص 1187، ج III،ص 153 . حول النزاع بين البرزلي والشماع، راجع الفقرة الخاصة به. أما عن حاكم الفحص فهي خطة تتولى البت في النزاعات بالبادية، على خلاف حاكم البلد والخليفة بمدينة تونس، الذي كان يبت في الاحكام دون استشارة القاضي، وقد تصل هذه الاحكام الى حد الاعدام، حسبما ورد في رواية البرزلي (**ن.م.**، ج IV، ص1238)

(2) ابن مرزوق، **المسند**، ص 286 .

أ) مظاهر الغصب والسخرة والحماية بالبادية : لفتت ظاهرة الغصب انتباه المصادر النوازلية المعاصرة رغم أنتماء أصحابها لعالم الحضر، فنقلت لنا أحداثا عديدة عنها(1)

ولخص المغيلي الوظائف المعهودة في زمانه بما يلي :

« سلطان ظالم أو عامله أو شيخ على قبيلة يعرض فريضة على بلدة أو على بعض رعيته من أهل قرية أو بادية أو أهل صنعة أو الحراثين على غرامة نقود أو زرع أو تعيين خدمة في بناء أو غيره أوْ حراسة شيء أو طلب عدد من الرماة يسافرون الى بلد، وشبه هذا من الوظائف المعتادة في هذا الزمن » (2).

لا شك أن وجه الشبه بين هذه المغارم ومثيلاتها بالغرب المسيحي الاقطاعي يفرض نفسه، وخاصة في مسأله عمل السخرة المتمثل في خدمات عديدة من بناء وحراسة وحرث وغيرها يقدمّها المزارعون لفائدة المشائخ الاقطاعيين. ومما يؤكد وجود هذا الامر، المسألة التالية :

« رجل من أعيان القبائل يعطيه السلطان أرضا ينتفع بجبايته، فيعتمد على من تحت شياخته في زمن الحرث، فيأخذ منهم زرعا اغتصابا ويأمرهم أن يحرثوه في أرض اغتصبها لآخر معهم ببقرها، ويكلف العمل فيه على الخماس، أو على أرباب البقر، ثم اذا حان حصاده كلفهم وربما حوس اليهم غيرهم لحصاده ودرسه وذروه وتصفيته وكيله ونقله على دوابهم لمخزنه في أوعيتهم، ويجعل عليهم في ذلك بعض خدامه يحركهم فيه..» (3).

ومما له مغزاه أن عمل السخرة هذا كان أمرا معتادا في بعض الارياف المغربية إن لم نقل في جلها في أواخر العصر الوسيط، ويكاد يكون أمرا مشرعا ومقبولا من قبل السلطة القضائية التي لا تستطيع أن تقف في وجه أرباب السلطان وجبابرة القبائل . غير أن بعض الاعيان« ممن له وجاهة من علم وديانة ونخوة دنيوية»كانوا يتدخلون من حين لآخر لتخفيف وطأة هذه المغارم وأعمال السخرة على الضعفاء، حتى أن بعض المزارعين كان يفرط في التقرب الى أصحاب الجاه، فيعمد الى اكتراء أراضيهم بأسعار مرتفعة أملا في ذلك أن «**ينجيه من غرم السلطان** » الذي مثل حملا ثقيلا على أهل البادية (4).

---

(1) المغيلي، **الدرر المكنونة**، ج II، ص 144. ومن بينها : **« سئل أحد الفقهاء المغاربة المتاخرين (عمر بن عثمان) عن رجل تاب الى الله، وكان قبل توبته خبيث المكتسب، كثير التخليط، ممن يتولّى أمور الرعية ويأخذ منهم الخطايا على جناياتهم، ويحدث على من تحت حكمه من الرعية حوادث لا مستند لها الا محض الباطل.. ومكث أعواما كثيرة يتولى من تحت نظره بأنواع المظالم ويغرمهم ما هو بحكم العادة من وظائف الحرث والجنات وما لا يجب..»**

(2) المصدرنفسه، ص 48 ب .

(3) المصدر نفسه، ص 48 ب .

(4) نفس الاحالة . البرزلي، **نوازل**، ج II، ص 164ب، 1122 (وقد ذكر أن التجار كانوا يلجؤون الى إخفاء بضائعهم عند دخول المدينة تهربا من المكوس، وإن كان ذلك لا يخلو من مخاطرة حجز أعوان ديوان البحر أو البر للبضاعة) .

ولم تكن السخرة مجهولة من قبل المجتمع المغربي طيلة هذه الحقبة، حتى أن ابن خلدون تعرض لها أكثر من مرة. ومما أورد في شأنها مستنكرا وقوعها، قوله : « **ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق، وذلك أن الاعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق...فان الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من أعتمالهم ذلك. فاذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم، بطل كسبهم وأغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متمولهم، فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة** » (1).

إن هذا الغصب الذي عرفه ابن خلدون في عصره، من دون شك، قد شمل عديد الفئات الاجتماعية ، وخاصة المزارعين. و تجسّد أحيانا في ارتماء صغار المزارعين في أحضان أصحاب النفوذ من أهل المخزن والعلماء والزوايا ومشائخ الأعراب. وحسبنا هنا أن نضرب مثالا على ذلك، وهو أن المزارعين بهنشير الحلفاوين بناحية القيروان خصصوا ثلث إنتاجهم لأحد الاعيان المحليين : وهو أبو يعقوب يوسف الزعبي، لحمايتهم من تسلط الأعراب (2).

على أن الأمر لا يقتصر على السّخرة والحماية، إنما يصل أحيانا الى درجة اغتصاب الاملاك الخاصة وأستصفائها. وكما كان السّلطان يتعدّى على أصحاب الأموال بالمدينة ويصادرها، فانّه كان يصادر أراضي القبائل ويحاول السيطرة عليها بموجب ظهير يصدره. ولعل أوسع عملية مطاردة للقبائل العربية وإخراجهم من أحيائهم وترحيل المزارعين من قراهم قهرا وأفتكاك أراضيهم قد تمت في بداية العهد الموحدي، أي في النصف الثاني من القرن السادس هـ / XIIم (3).

كما تعددت مظاهر تعدّي القبائل البدوية على الانتاج الزراعي، من زروع وغروس، حتى احتاج المزارعون الى حراسة هذه المجالات الزراعية، لحمايتها من الضغط البدوي، الذي يزداد استفحالا في فترات الأزمة.

ب) حَراسة المجال الزراعي من الضغط البدوي : منذ العهد الزيري، قامت بهذه المهمة بعض عشائر الأعراب، فتولّت الزّرع قبل حصاده أو الزّيتون قبل جنيه، مقابل مبلغ محدد، يدفع بعد جني المحصول بشهر أو شهرين(4).

وكان حارس الزيتون يتقاضى أجرته من الملاك العقاريين، حسب مدى اتساع ملكية كل.واحد منهم.وحتى لا يفتضح أمر كبار الملاكين فيخافون على أموالهم، وقع الالتجاء

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 511–512 .
(2) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 169.
(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج II، ص 1197. **مناقب الدهماني**، ج، ص136–ب، 42 ب. وفي ص 138، أورد خبرا يخص افتكاك جند الموحدين للمنازل و « إنزالها» لبعض الجند .
(4) البرزلي، **المصدر نفسه**، ج I، ص1132. ابن مرزوق، **المسند**، ص 286.

الى وضع الاجارة على جملة الاحمال المنتجة من الزيتون، دون تنصيص على ملاكها. وقد أفتى البرزلي بذلك عندما كان في طريقه الى المشرق، بجهة برقة، فوقع دفع الخفارة تارة على عدد الأحمال وأخرى على عدد الابل، حتى لا يفتضح من كانت بيده بضائع نفيسة لدى الأعراب الذين ألتحقوا بالقافلة (1).

ولئن كنا لا نعلم النسبة التي يتحصل عليها الحارس عصر ذاك، فالظاهر أنها لم تتغير كثيرا عما كانت عليه في العهد الزيري حيث ذكرت في حدود ثمنين شعيرا على كل زوج منتج لما يقارب قفيزين، أي ثمن على كل قفيز.أما الزيتون، فان النسبة كانت ستة زياتين لكل مّائة، بمعنى 6 % (2).

وظلت الأجرة عينية في الغالب، إذ تعود الحراس منذ العهد الزيري أن تكون لهم أزمّة الحرز، يقع فيها تسجيل حصة كل مالك عقاري، وأن يجمعوا هذه الأجرة المحددة مَنذ البداية زمن الحصاد. أما أجرة حراس الأجنة المحيطة بمدينة تونس في القرن الثامن هـ، فانها كانت تؤخذ عينا، على قدر المراجع المزروعة والمغروسة.

على أن الاقتصاد النقدي المتطوربالمدينة قد انعكس على القطاع الزراعي، فبدأت بعض المهن تشملها الأجرة النقدية، من بينها الخماس والحارس.فقد تولت قبيلة رياح النازلة بناحية القيروان في أواسط القرن الثامن هـ حراسة السواني من الربيع الى تمام الحصاد،وفق طريقة معينة : فكانوا يتفرقون على السواني إن كانوا جماعة كثيرة، ويتولون العمل معا إن كانوا أقلية.و يتقاضون مقابل ذلك أجرة نقدية محددة، دينارا على كل سانية، دون أعتبار لمساحتها أو عددالاشجار فيها. وتبدو هذه الحراسة شبه مفروضة على المزارعين لعجزهم عن حماية ممتلكاتهم(3).

أما عن كيفية القيام بهذه المهمة، فان حراس الأجنة كانوا في الغالب يتقاسمون العمل البعض بالنهار والبقية بالليل، متخذين الكلاب للحراسة. وكثيرا ما تولّى حرّاس الزرع والزيتون القيام بأعمال إضافية مثل مساعدة المزارعين في نقل الاحمال وتفريغها (4).

(1) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص1147، ج III، ص 168.
(2) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 144 ب . يظل معنى الثمن غير واضح : فاذا ما أعتبرنا انه يعني ثمن قفيز، فان النسبة تكون 1/8 من الانتاج، أي ما يعادل 12 %، اما اذا كانت تعني الثمنة، فان النسبة تنزل الى حدود 1/32، اي نحو 4 %، وبهذا تكون **متقاربة** مع نسبة الحرازة في الزيتون .
(3) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 1144، 1145. وقد ورد ذكر عدة مهن ذات أجرة عينية مثل أجرة حارس بيوت الطعام وحارس الزرع والكروم والمقاثي وكنس الآبار والسواقي والمراحيض المشتركة، وأجرة القسام والدلالين وكاتب الوثيقة والدية والقسمة والعمل في الحجامة والجزارة والسقا والرعاة الخ . انظر أيضا :
Idris , **Les Zirides** , T II, p. 624
(4) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 1144. القلشاني، **شرح**، ج II، ص 215 ب .

3) المغارم المشتركة بين البادية والمدينة :

أ) التضييف أو النزول : منذالعهد الفاطمي، فرض أعوان الجباية على الأهالي حق الضيافة.وفي العهد الحفصي، ظل هذا المغرم مكروها من قبل فئات المجتمع، الذين كانوا يهابون بطش المتولين لأمرها. وبالتالي فقد بادر جل السلاطين في بداية أمرهم إلى (إزالة) هذه المكوس غير الشعبية، إرضاء لتطلعات المجتمع الحضري خصوصا. وإذا كان أبو محمد عبد الواحد (618-603 هـ / 1221-1207م)قد أنشأ العمل بزمام التضييف، وهي مغارم يتولّى الجباة أخذها أثناء تنقلاتهم من أهل القرى، فانه لم يقع إزالتها الا عهد أبي العباس أحمد (796-772 هـ / 1394-1370م)، وتورد الرسائل الديوانية مطالبة القراصنة القطلانيين أهل المدن بالتضييف (1).

ويرجع تاريخ فرض هذه الضريبة بإفريقية الى بداية العهد الموحدي، إذ ذكر التجاني أن الميورقي لبّى رغبة أهل تونس في إزالة المغرم المسلط عليهم، وقدره خمسة عشر ألف دينار، وقد اطلع صاحب الرحلة على ظهير مؤرخ الثامن من ذي القعدة سنة ستمائة، فيه تخليص أملاك بني التجاني من وظيف النزول. وهو ما يأتي حجة على أن النزول الذي أثقل كاهل المجتمع الحضري طيلة حوالي نصف قرن قد أزيل لأول مرّة من قبل بني غانية . لكن ذلك لم يدم طويلا، إذ سرعان ما أستعاد الموحدون نفوذهم، ورجع العمل بالنزول. وقد ورد في إحدى الكتب المناقبية أن جند الموحدين كانوا يفتكّون المنازل لانزالهاالجند (2).

ومن جديد، بادر القائم على الحفصيين ابن أبي عمارة بازالة النزول عن أهل تونس، سنة 681 هـ / 1282م، **« وكانوا يلقون منه أمرا عظيما »**.ومرة أخرى، فان رجوع الحفصيين الى السلطة أدّى الى العودة بالعمل بالنظام الجبائي القديم، الذي يعتبر سببا أساسيا في قيام هذه الحركة (3).

ولم تقع زعزعة أركان هذا الوظيف إلا عهد أبي الحسن المريني، الذي أزال عديد المغارم، ومن أهمها الانزال، وقد قال صاحب المسند في هذا الشأن : « **فرفع المكوس، وأسقط المغارم المحدثة والمظالم المبتدعة، بادية وحاضرة، وأسقط ربع المجابي ورفع القطيع من بلاد الجريد، فجرى في ميزانه حتى الآن، ولم يستطع أحد نقض عمله في ذلك**».وأضاف قائلا : « **ومما رفعه عن أهل البوادي جملة ألقاب لا تحصى كثرة كالخرص والبرنس والضيافة والانزال والقاعة والخطيئة**». وتأتي الجملة الأخيرة دليلا واضحا

---

(1) ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 136،144 . ابن الشماع، الادلة، ص 51، 78. الزركشي، تاريخ . ص 47.
ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 138. Alarcon , **Documentos**, p . 3
ابن عذاري، **البيان**، ج II، ص (الجزء الخاص بالاندلس) . Dozy, **Supplément..** , T II , p .661
(2) أنظر : التجاني، **رحلة**، ص 356 . الدهماني، **مناقب**، ج I، ص 138.
(3) ابن الشماع، **الادلة**، ص 79. ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 144. الزركشي، **تاريخ**، ص 47. ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 138 . ابن الخوجة، **ذيل معالم التوحيد**، ص 68.

على عمق التطور الذي أحدثه في النظام الجبائي، ولا يستبعد في هذا الصدد أنه لجأ الى التخلص نهائيا من وثائق المخزن الحفصي، وهو ما يفسّر إعادة الترتيب الجبائي الذي قام به السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم (1).

فعلاوة على الاصلاح المالي الذي تم في عهده، وذلك بتحديد جديد للدينار النصاب (دينار الزكاة) الذي قام به ابن عرفة، فان هذا السلطان وظف على أهل تونس كراء شهرين على كل دار، فجاءت الدور نحو سبعة آلاف، وأجتمع له من ذلك ثلاثون ألف دينار، مكنته من أقتناء دار للاضياف. على أن المصدر الذي ذكر هذا الحدث يختتم كلامه بكونَ النزول ارتفع عن مدينة تونس.وهو ما يجعلنا نذهب الى كونها المرة الاخيرة التي قام فيها السلطان الحفصي بأخذ سدس الكراء السنوي، أو 3 , 4 د. على كل منزل ، ثم أزالها بعد ذلك(2) .

ومما يدعم ما ذهبنا اليه إقرار ابن عرفة أنّ دور مدينة تونس كانت معروضة للغصب قبل أواسط القرن الثامن هـ، ولدفع ضريبة يطلق عليها النزول، حتى أن ملاك المنازل كانوا يلجؤون الى التخفيض من الكراء، حتى تسلم دورهم من ثقل هذه الضرائب. ولم تنقرض هذه الضريبة الا في النصف الثاني من القرن الثامن هـ (3).

وفي الجملة، فان هذه الضريبة الخاصة بمدينة تونس وسائر المدن، قد أطلقت عليها النصوص (التجاني و ابن قنفذ و ابن الشماع و ابن عرفة) تسمية النزول، باستثناء الزركشي الذي اعتبرها إنزالا. أما صاحب المسند فانه ربط النزول ببلاد الاندلس، والانزال تارة بالدور المعتبرة بالاندلس، وأخرى بجباية على البادية. مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة التفرقة بين الكلمتين.

و الانزال في معجم فانيان هو ضريبة تؤخذ على الأرض. وهو تعريف متطابق مع ما عثرنا عليه في كتب الفتاوى، وملخصه أنه من أراد الاحتفاظ بأرضه، اتبع طريقة الانزال، أي أنه ينزل أحدا مكانه في ملكه، فيقوم المنزّل بتعمير الأرض مقابلَ دفع كراء، ولكن عادة ما يكون المنزلون ذوي نفوذ وسلطة، فيمتنعون عن دفع الكراء (4).

---

(1) ابن مرزوق، **المسند**، ص 284-283. وقد قال كذلك في شأن هذا المغرم : مما عظم به المصاب النزول المعهود في بلاد الاندلس وغيرها من العدوتين .والانزال في دور المعتبرين بعدوة الاندلس، وهو ضرر عظيم .
(2) ابن الشماع، **الادلة**، ص 105. (3) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص127.
(4) عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي**، ص 149 . وكذا في عصمت دندش، **الاندلس**،ص 162 .
Fagnan , **Addition aux Dictionnares Arabes** , Paris 1923 , article Inzal
ونجد نفس المعنى الوارد في فانيان في مجلة قانون النزول الصادرة بتونس سنة 1932 . انظر :
Henry de Montety , **Code du droit d'occupation** .
وتعرف مجاميع الفقه الاستنزال بكونه عبارة عن دفع ناظر الوقف أرض الحبس لمن يغرسها شجوا لصالحه، على أن يؤدي ضريبة سنوية مقابل انتفاعه بالارض (مخطوط رقم 187) . أما ما ذهب اليه الونشريسي فهو مرتبط بانزال البضاعة عند البيع (ج VI ، ص 223، جVIII، ص 269).

ويتضح من خلال مخطوط جامع مسائل الاحكام أن ضريبة الانزال يدفعها من يتولى إحياء الأراضي المخزنية الموجودة حول مدينة تونس، وهو مسار عرف تنشيطا في مطلع القرن التاسع هـ. ومن بين أصناف هذه الاراضي، ذكرت أرض السقاء، التي لم يكن ملكها حقيقيا، ولذا فان من أراد غرسها، دفع لبيت المال بعض الانزال، حسبما روى المؤلف عن أهل المخزن (1).

وفي مسألة ثانية، فرق بين ضريبة الانزال التي تدفع عند اكتراء أرض الجزاء وضريبة الجزاء، وقد قال في ثنايا حديثه عن قيس أرض الجزاء وتصحيح الزائد أو الناقص : **« فإذا ما وجدت مساحتها ناقصة عن القدر المعين في العقد، فإنه يصحح الامر مع المنتفع بها، ويرجع له ما زاد من قسط الانزال والجزاء في الماضي »**(2).

ب) **ضريبة الفائد** : هي جباية يدفعها الوافدون على المدن من أهل البادية وغيرهم، عند أبواب المدن وفق الكيفية التالية :

الحبوب	درهمان / القفيز (أو 8–9 دراهم / 100صالة (Salma)
الزيت	3 بيزا / الجرة
الغلال	5–5 , 5 دراهم / القنطار
السمك	1/2 دينار / القارب (أي ما يعادل % 15–16)
الصوف	5 , 25 بيزا (أي ما يعادل دينار تقريبا) / القنطار
	1/4 درهم / الجزة
الجلد المدبوغ	4 بيزا / القنطار
الجلد غير المدبوغ	4 بيزا / القنطار
أنواع أخرى	دراهم / القنطار
الحرير	1, 25بيزا / الرطل
أنواع أخرى من الحرير	10 ٪
القطن	2 بيزا / القنطار (3)

وفي الجملة، فان المكوس الموضوعة على المجتمع الافريقي كانت عديدة، وما أن تختفي واحدة، حتى تبرز أخرى في ثوب ثان. ولئن قام أبو فارس عبد العزيز بإزالة البعض منها، فان البعض الآخر ظل قائما، وخاصة مسألة العقوبة بالمال أو الخطايا التي أثارت جدلا عنيفا بين علماء العصر.

---

(1) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 125، 1118، 1264.
(2) المصدر نفسه، مخطوط رقم 4851، ج II، ص 1252.
(3) Pegolotti, **La practica della mercatura** , New York , 1970 , p. 131-132
والبيزا (Besante) يقابل الدينار التونسي الذي يحتوي على 8 دراهم جديدة أو 10 دراهم قديمة.

ج) **العقوبة بالمال أو الخطية** : تعوّد أهل مدينة تونس في القرن الثامن على إغرام الحيوانات التي تدخل الأجنة وترعى بها، وكان أعوان الحكام يتولون إغرام الرعاة. وأعتبارا لان الرعي في الأجنة وإفسادها هي مظلمة، والقائم بها مستغرق الذمة تستحل أمواله. فقد أفتى ابن عرفة وتلميذه البرزلي بالعقوبة بالمال، حسما للفساد (1).

ونتيجة لذلك، نشب نزاع بينه وبين أبي العباس أحمد الشماع، قاضي المحلة ومفتي الحضرة التونسية، سنة 828 هـ / 1424 م، عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز. وقد ألف الشماع رسالة، ردا على المفتي البرزلي، سماها : **« مطالع التمام، ونصائح الانام ومنجاة الخواص والعوام في رد القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والاجرام، زيادة على ما شرع الله من الحدود والاحكام »**.

وفي بداية هذه الرسالة التي كتبت بأسلوب سجعي، يعلل فيها الشماع انكبابه على التأليف بكونه تناول « القضية التي وقعت فيها المنازعة وكثرت فيها المراجعة، هي المغرم المسمى بإفريقية في هذه الأعصر بالخطايا » (2).

ويعرف المؤلف الخطايا بكونها **« عبارة عن أخذ المال من ذوي الجنايات كالقتل والجرح والقطع والسرقة وسائر الفواحش والجنايات »**، وهو ما ينجر عنه تعطيل إقامة الحدود وانحراف عن الشريعة حسب رأي الشماع (3).

وأنطلاقا من هذه النقطة، ظهر الجدل بين الاتجاهين اللذين ينتميان الى مدرسة واحدة : وهي مدرسة ابن عرفة، بين مناصر للعمل بالخطايا، ومعارض لها. وتزامن توقيته مع السياسة الاصلاحية التي توخاها أبو فارس عبد العزيز في مسالة الجباية، وما نجم عنه من إزالة عديد المغارم. وتدعيما لهذه السياسة « الشرعية » التي توخاها السلطان المصلح، طمح هذا الاتجاه الى إعادة النظر كليا في مسألة الخطايا التي كان معمولا بها منذ العهد الموحدي.

وتسلط هذه العقوبة بالمال على كل من أرتكب جرحا أو قطعا أو هروبا بإمرأة أو أخذ مالا سرقة أو خيانة أو بحرابة أو نحو ذلك من التحيل والغصب، ورغم كونه أمرا معمولا به بافريقية منذ فترة طويلة، فان الشماع كان يدعو لازالتها، مفسرا ذلك بغدم توافقها مع النصوص الشرعية.

ويبدو أن السلطان أقدم في مرحلة أولى على محو هذه المغارم، ثم تراجع عن ذلك تحت ضغط مجمع القضاة الذين كانت لهم مصلحة في أخذ المغارم، حسبما بيّن ذلك المصنف للرسالة في قوله : **« وأجمعوا أمرهم على إهمال الرعية وإهمال الشريعة**

---

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 1145– ب، 1266.
(2) الشماع، **مطالع التمام**، ص 1185.
(3) **المصدر نفسه**، ص 185 ب.

وإهمال السياسة الشرعية، وترك حدود الله غير محفوظة ولا مرعية، وأن يبعثوا من كل ناحية شكية ويؤذنوا أن كثرة الفساد قطع الخطية..فالقى اليهم الاباحة، فتمت لهم الامنية »(1).

وبالتالي، فان هذه الرّسالة حرّرت بعد عشر سنوات من اجتماع سنة 828هـ لاقناع السلطان بالعدول عن قراره، ومنع الخطايا من جديد.ويبدأ الشماع بدحض حجة البرزلي المعتمدة على جريان العرف والعادة، وأشتهار العمل بها بالبلاد وكثرتها وسكوت العلماء عنها، فضلا عن كون إسقاطها يؤدي الى كثرة الضرر والفساد.

وكان البرزلي قد طرح هذه المسألة في مجلس السلطان في أوائل محرم، فاتح سنة 828 هـ، مطالبا بإرجاع الخطايا لكثرة الظلم، فعارضه في ذلك قاضي الجماعة بالحضرة، وهو أنذاك أبو عبد الله بن مرزوق، سدًا للذريعة. على أن المناصرين للبرزلي كانوا كثيرين حسبما ذكر ذلك، أذ وافقه في هذا « **الحفل المشهود** » جمع من الفقهاء، سماهم الشماع طلبة، وقد فسر المؤلف ذلك بكبر سن خصمه وسبق معرفته (2).

وقال في هذا الخصوص : « **ما من القوم من يؤاخذه بمثل هذا العلو وسنه وتقادم نظره في مسائل العقد وفنه. وكلهم يوقره توقير الاباء لولا ما ظهر منه في هذه المسألة من الإباء، ولولا أنها تهدم من أصول الشرائع أصلا كبيرا، لم يسمع من أحد منهم قليلا ولا كثيرا، ولبقوا كما كانوا تعزيزا وتوقيرا** »(3).

وبعد أن أعتبر المؤلف أن أستدلال خصمه جاء غير مقنع، وأنه « **طوّل فما أجدى وأفاد** »، يمضي في مجادلة البرزلي، مبينا أن ذلك « **ليس بموضع الاجتهاد البتة لانه لا يصح الاجتهاد مع النص** »، معتبرا أن أكبر الجنايات بعد الكفر هي القتل والحرابة والفساد في الارض والخروج على أئمة العدل. ويستشهد بعديد المصنفات التي عارضت العقوبة بالمال، مثل كتاب الاحكام لابن عربي، وجامع البيان لابن رشد(4).

وإذ يقر بأنّ « **الخطايا الموجودة اليوم على كيفية لا يقبلها الشرع ولا العقل** »، يرى أن السبيل الى حسم الفساد هو تولية ولاة عادلين، لا يأخذون الرشوة ولا يتغافلون عن إقامة الحدود وأخذ حقوق الناس وإنصاف المظلوم من الظالم.على أن حكام تلك الفترة دأبوا على أخذ المال من العصاة مقابل إعطائهم الامان.

ويبرر البرزلي ذلك بالمصالح المرسلة، وبما أجازه المهدي بن تومرت وعمل به في حياته، حسبما ذكر المؤرخون ذلك.

ويرد الشماع على ذلك بالتشكيك في صحة هذه الاخبار المنسوبة الى ابن تومرت، خاصة أن شيخه الغزالي كان يمنعها، كما يرى أن الاحكام الشرعية لا يمكن أن تُبنى على

---

(1) الشماع، **نفسه**، ص 1186.
(2) **نفسه**، ص 1187–ب، 1196.
(3) **نفسه**، ص 1188. (4) **نفسه**، ص 1190، 1192–ب .

آراء المؤرخين، معللا ذلك « **بما علم من أسترسالهم وتساهلهم في تلقي أخبار الدول وعدم الوثوق بأكثرهم** » (1).

وبالتالي، فانه من الواضح أن عادة الغرامة بالمال هي موحدية، أجازها ابن تومرت بأعتبارها من المصالح المرسلة.ولكن رغم ذلك يبدو الشماع مدافعا عن الموحدين، قائلا إنّ قدماء الموحدين لم يعرفوا العمل بالخطايا، وأنه نسب خطأ الى المهدي مخالفته النصوص وتشريعه بهواه، مستدلا على ذلك على ما رواه إبن القصار عن تقشف أبي زكريا الحفصي وعدم تبذيره، فيما ذهب البرزلي الى كون ولاتهم المعروفين بالجور أساؤوا استعمالها(2).

ومن الواضح أن المعرضين أكثر لهذه العقوبة وقتذاك هم أهل البدو، الذين يؤدّون الخطايا في شكل ماشية. وقد ذكر المؤلف في هذا الصدد رواية مفادها أن شيخا كان يقوم بماشية كثيرة خصصها للخطايا التي يدفعها لتخليص أبنائه المحاربين (3).

وقد جاء هذا المعنى واضحا في رسالته، إذ قال : « **إن بوادي إفريقية وأعرابها والبلاد النائية منها عن الحواضر التي هي محل بث الشرع وغلب عليهم الجهل والتعرض للأموال والأخذ بالدماء والهروب بالحريم وأخذ الأموال بالجناية والغش والحرابة والمحاولات الفاسدة** »(4).

وبعد أن لاحظ أستتباب الاوضاع بافريقية في عصره، وان « **الناس اليوم بافريقية في غاية الطّاعة، ما قرب منهم من الحواضر وما بعد، كلهم تنالهم أحكام الخلافة، بل البعيد منهم أتم إذعانا** »، فانه لا مبرر لأخذ الخطايا على البدو الذين استكانوا الى الهدوء والطاعة، ولم يظلوا محاربين، وقد قال في هذا الصدد :« **إنما هي من الرعايا أهل المواشي والعمّال بأنفسهم وأكثر مكاسبهم حلال، بل هي أحل من أرزاق كثير من أهل الحواضر**»(5).

ويتضح أن مستغرقي الذمم حسب عبارة البرزلي كانوا يمارسون عادة الحشمة، وهي أن يختطف الرجل زوجة آخر، يمكن أن يستردها إذا ما عثر عليها، بعد أن يدفع له الأول مالا عوضا (6).

كما ذكر هذا الأخير أن الجناة بالبوادي والقبائل تعودوا على دفع مال يسير الى أهل الهالك،وهو ما أستنكره الشماع، مبينا أن ذلك أصبح مقتصرا على أهل الاموال، أما من تعجز قبيلته عن تأدية الدية عنه، فانه يذهب ضحية هذه الفتوى التي لا تستند الى تشريع، والتي ساندها عدد كبير من طلبة البرزلي، وهو ماحمل الشماع، على حد قوله لتصنيف هذه الرسالة(7)،

---

(1) **المصدرنفسه**، ص1198–ب
(2) **نفسه**، ص198 ب .(3) **نفسه**، ص 1194–ب
(4) **نفسه**، ص1199 (5) **نفسه**، ص199 . (6) **نفسه**، ص 1200 . (7) **نفسه**، ص227 ب، 228ب.

وقد شنع المؤلف على البرزلي، زاعما أن ابن عرفة كان يدعو أن يحفظ الدين من البرزلي، وأورد رواية ثانية في هذا الشأن مفادها أن أحد نبلاء الاعراب، أبا يحيى أبا بكر الضاعني، كان يقول له : **يا سيدي أبي القاسم علم العلماء مثل المسك عند العطار، وعلمك مثل جوالق الحطب** (1).

وفي الجملة، فان البرزلي أحلّ أخذ هذه الخطايا، لا سيما من أموال أهل البوادي، الذين أعتبرهم عامة مستغرقي الذمة، خارجين عن الاحكام الشرعية وأهل غصب، يحل أخذ مالهم. وخلافا لذلك فقد كان موقف الشماع أكثر تدقيقا، مفرقا بين المحاربين الحقيقيين وسائر البدو، وآخذا بعين الاعتبار التطور الحاصل في العلاقة بين المدينة والبادية في أواخر العصر الوسيط، داعيا الى اندماج البدو، والمصالحة المجتمعية، وقد كتب يقول في هذا الصدد : **« قد تقدم أن مكاسب البوادي اليوم أطهر من مكاسب كثير ممن يتعامل بالربا ويأكل الرشا، لا سيما وأكثر كسبهم الماشية والحرث ويؤدون من المغارم ما لا يؤديه غيرهم، وهو أقرب الى أكل الحلال من أهل الحواضر »** (2).

ورغم ما دأب عليه بعض السلاطين الحفصيين من أخذ الاموال (غير الشرعية)، فان عمل أبي فارس اعتبر إصلاحا اقتصاديا هاما، كما ورد في الرواية التالية :

« حدثني الشيخ عبد الكريم البرجيني عن شيخه الشيخ أبي يوسف يعقوب حفيد الشيخ الصالح أبي يوسف يعقوب الشهير بالدهماني أن إفريقية لا تزال على السنة والجماعة ما دامت دولة بني الشيخ المعظم أبي حفص فيها، وإن كان بعض ولاتهم يتعرضون لاخذ الاموال خاصة، ولا يتعرضون لاهل السنة بوجه من الوجوه، وبقي الامر على هذا، حتى جاء الله بهذا الملك الصالح العادل على رأس القرن التاسع وأبتدائه، فأزاح المظالم حتى ذكر أنه أسقط من حضرته العلية تونس نحو94 وظيفة من المظالم، ومنها مظلمة العقوبة بالمال»(3).

نستنتج من هذه القائمة أهمية المكوس والمغارم المأخوذة على الانتاج المرتبط بالبادية، داخل المجال الحضري نفسه، وندرة الصنائع والحرف، وقلة أهميتها ومردودها المالي. ولعل هذا ما يفسر الاجراء السلطاني لتحرير ها من المغارم التي كبلتها، كي يعطيها دفعا جديدا لتنشيطها ، خاصة بعد أن تمكن من تعويض هذه العائدات بالمداخيل المتأتية من عشر الدّيوان وحركة المقاومة البحرية.

أما عن كيفية جباية هذه المكوس، فان النظام المستعمل في الغالب هو نظام القبالة أو اللزمة .فما هو مدى فاعلية هذه المؤسسة في النشاط الاقتصادي ؟

---

(1) **نفسه**، ص1228، 231ب .

(2) **نفسه**، ص 1202.(3) **نفسه**، ص 1228.

– **القبالة أو اللزمة، عائق أمام التراكم الرأسمالي** : لم تكن قبالة الاسواق أمرا مستحدثا في العهد الحفصي، إنما عرفتها المجتمعات العربية –الاسلامية منذ الفترة الكلاسيكية. فقد كانت مستعملة منذ العهد الاغلبي، ممثلة عبءا ثقيلا لم يقع التخلص منه الا في عهد ابراهيم بن أحمد. وفي العهد الفاطمي، شمل نظام القبالة أغلب الاسواق، حتى أدى الى تذمر أهل المالكية من ذلك. كما فرض المرابطون عهد علي بن يوسف هذا النظام على أغلب الاسواق، **« فكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة، عليها مال لازم، مثل سوق الدخان والصابون،الصفر والمغازل، وكانت القبالة على كل شيء يباع، دق أو جل، كل شيء على قدره. فلما ولي المصامدة، وصار الامر اليهم، قطعوا القبالات بكل وجه، وأراحوا منها، وأستحلوا قتل المتقبلين لها، ولا تذكر الان القبالة ذكرا في شيء من بلاد المصامدة »**(1).

غير أن هذا المنع لم يدم طويلا، وعاد من جديد العمل بالقبالة في العهد الحفصي، إذ شملت شتى الحرف والتجارات، وكانت تتمثل في العملية التالية : أن يتولى المتقبل التزام المال الموظف على الأسواق، فيسلّم المبلغ المطلوب للمخزن، على أن يؤخذ من التجار أو الحرفيين مبلغا أكثر أرتفاعا، وعادة ما يقع تكليف أحد الحرفيين أو التجار لجمع المال وتسليمه للمتقبل (2).

وينتمي المتقبلون والمستفيدون من هذا النظام الجبائي الى صنف العمال وأهل المخزن والمقربين منهم، أو الى كبار الحرفيين والتجار والمضاربين من سكان البلاد أو من الاجانب، فقد كانت لزمة فندق باب البحر بتونس تقبلها أحد النصارى بمبلغ قدره 12

---

(1) حول القبالة، انظر : ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 116(رد ابراهيم بن أحمد المظالم وأسقط القبالات وأخذ العشر طعاما وترك لأهل الضياع خراج منه)، **سيرة الامام جوذر** ص 129 ابن حوقل، **صورة الارض**، ص 94 **(«ان جميع بلاد المغرب في أيام آل بني عبيد الله كان يعمل بالامانة من غير ضمان، حتى تقبّلت برقة، وليس بجميع المغرب ضمان غيرها»)** المالكي، **رياض النفوس**، ج II، ص 173 .

(إنكار المالكية على عبيد الله إظهار الخمر والقبالات). الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص 70. الدوري، **مقدمة في التاريخ الاقتصادي**، ص 101 . الجنحاني، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** ، ص 99 عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي**، ص 167 .

اما مصطلح اللزمة فقد ذكر لأول مرة في العهد الحفصي، وليس في العهد العثماني كما يبدو لبعض الدّارسين، وهي القبالة، وتختلف عن اللزوم، بمعنى العشر الذي يدفعه التجار في الديوان، واللازمة (ج لوازم) التي كانت تدفعها القوافل القادمة او الخارجة من بلاد السودان في طرابلس وإجدابية في العهد الفاطمي. ينظر : ابن حوقل، **صورة الارض**، ص 70.

Amari, **Diplomi**, op. cit., p. 71

(2) البرزلي،، **نوازل**، ج II، ص 105ب، ج III، ص169.

ألف دينارا، وذلك قبل أن يأمر السلطان أبو فارس عبد العزيز بإزالتها(1). وكان العمال والولاة يلتزمون جباية البلاد التي كانت تحت سلطتهم، ويقومون تحت غطاء اللزمة بشتى التجاوزات، حتى أستطاعت هذه الفئات المتحالفة مع السلطة المخزنية، من الاثراء على حساب الاكثرية، وخاصة التّجار والحرفيين. وهو ما يفسر عدم شعبية هذه الجباية، و محاولة إزالتها عديد المرات.

فقد قام أبو الحسن المريني بازالة ذلك، حسبما ذكر ابن مرزوق، إذ قال : **« ومما رفعه، وكان شائعا شنيعا، اكتراء الولاة للبلاد، فانهم كانوا يلتزمون مجابي البلاد إلتزاما، وكان سبب هذا تمالؤهم على الخيانة في ولايتهم على سبيل الامانة، فاذا تولوها التزاما امتدت أيديهم، وكثرت عاديتهم وظلمهم. فإذا أجروا، إعتلوا بالالتزام. فأسقط رضي الله عنه هذا اللقب، ولم يبق به أثر في المغرب، فصار يوليهم إياهم أمانة، وترك في ذلك أموالا طائلة »** (2).

ثم عادت من جديد في النصف الثاني من القرن الثامن، طيلة نصف قرن، الى أن أزالها أبو فارس عبد العزيز. غير أن هذا المنع يبدو مؤقتا، إذ ذكر البرزلي أن أغلب الاسواق والفنادق كانت متقبلة، من ذلك قبالة سوقي الدباغين والخرازين بتونس، التي كان تولاها رجل لا ينتمي الى المهنة، وهو ما أنكره البرزلي، كما أنكر في الجملة القبالة، معتبرا إياها **« جباية الحرام»**(3).

واعتمادا على نفس المصدر، فان الفنادق بمدينة تونس عرفت هذا النظام في النصف الاول من القرن التاسع هـ، وقد حاول عمال السلطان الاستئثار بقبالة فندق الرماد بتونس، لما يدره من أرباح طائلة، وتولّوا لزمته بأسعار مرتفعة كي يصرفوا نظر بقية الحرفيين عن كرائه. على أن هذا المبلغ المشط أعجز الحرفيين، وأجبرهم على إخلاء المكان، والتزام فندق أخر، حولوه الى غسل الغزل. ويأتي ذلك برهانا على وقوف القبالة في وجه التطور الحرفي والتراكم الرأسمالي بصفة عامة (4).

ومن القبالات الأخرى المعروفة القبالة عند البنائين، وهي مؤاجرتهم على بناء دار، على أن يقوم البناء بتوفير مواد البناء من جص وأجر وغيره. وهي عملية شبيهة بقبالة أرض الحبس أو الارحية، بمعنى كرائها بمبلغ معلوم (5).

ويخضع استخراج الملح وتصديره الى المدن الايطالية الى نظام القبالة، الذي يفرض على المتولي لأمر الملاحة أو التجار الاجانب (6).

---

(1) الترجمان، **تحفة الاريب**، ص 18. ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص155 .(2) ابن مرزوق، **المسند**، ص 283 .
(3) البرزلي، **جامع**، ج II ص105 ب، ج III،ص 169. (4) **المصدر نفسه**، ج II، ص 170، 105ب .
(5) **المصدر نفسه**، ج II، ص156 ب (كان يطلق على تغطية السقوف وقتذاك الصبة) .حول قبالة الارحية، انظر : ابن عرفة، **المختصر**، ج IV ،ص 29ب . راجع الفصل الخاص بالحبس .
(6) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 1312. Hocquet, **Le sel et le pouvoir** , Paris 1979 , p. 234 .

– *قبالة الملح* : ساهمت الملاحات العديدة الموجودة بمنطقة البحر المتوسط في تمويل المدن التجارية الايطالية، وخصوصا جنوة والبندقية. وهي على التوالي الملاحات الموجودة بيابسة بجزر البليار، وترابانى بصقلية وكاليارى وإفريقية، على طول الساحل الممتد من سوسة الى طرابلس، ومن أهمها ملاحة لطة وأم الاصنام بسبخة القيروان وجرجيس وقصر صالح ورأس المخبز وطرابلس التي يصدر ملحها الى المدن الاوروبية منذ القرن السابع هـ / الثالث عشر م. كما كان الملح يستخرج من السباخ المحيطة بمدينة تونس، ومن سبخة تانكمرت بالجريد(1).

ومنذ القرن السادس هـ / الثاني عشر م، طرحت قضية ملكية هذه المعادن الطبيعية، وكيفية استغلالها، هل هي ملك للسلطان أم للمجموعة أو لمن قام باحيائها وتهيئتها ؟

وقد أعتبر المازري أن كيفية استغلال المعادن أمر مرتبط بنوعية فتح البلاد صلحا أو عنوة، مع إعطاء الاولوية للفقير على الغني، وللمصلحة العامة، ويقع استئجار العمال بأجر معلوم (فالبنسبة الى معدن الرصاص، كان العامل يتحصل على نسبة من القفاف).

أما البرزلي، فانه فرق بين حالتين : الاولى، الملاحة ناجمة عن عمل وتهيئة (إحياء)، فإذا كانت قريبة من العمران، فانها تحتاج الى إذن السلطان، ويكون ملكها للذي أحياها، بمعنى أنها تحتاج الى قبالة ، وهو ما تم بالفعل في القرن الثامن هـ، لما اكترى المخزن ملاحة بتونس لقوم، على أن يدفعوا له قسطا من الربح. أما إذا كانت بعيدة عن العمران، فان أمتلاكها جائز. وتخص الحالة الثانية الملاحة الطبيعية، التي لا تحتاج الى إحياء أو عمل، فهي ملك للمجموعة شأنها في ذلك شأن المحتطب والبحر، دون أن يتدخل السلطان في ذلك (2).

على أن الامر يبدو أكثر تعقيدا من الناحية العملية، إذ تشهد الملاحة الواحدة تطورا في كيفية الاستغلال، من ذلك ما حصل بملاحة أم الاصنام (سبخة سيدي الهاني) التي كانت متقبلة من شخص يدعى مسعود الظاهري. ثم نزعها المستنصر من يده إبان الحرب الصليبية، كي يتولى أستغلالها من ماله الخاص، على أن يعود نفعها للأهالي. وهو يقوم بذلك تقربا من القوى الفاعلة بالقيروان، في ظرفية حرجة (3).

---

(1) التجاني، **رحلة**، ص ،206 ،319 155،
Brunschvig, **Les Hafsides**, T I , p. 400. Dufourcq, **l'Espagne Catalane et le Maghrib**, pp. 419, 521 , 536 .
(2) البرزلي، **نوازل**، مخ. رقم 4851، ج II. ص 112ب، 1312-ب .
(3) راجع نص الظهير السلطاني الممنوح لأبي غيث رحمة الحكيمي (فصل الاقطاع) .

وكانت نسبة هامة من الملح المستخرج من السباخ الافريقية، وخاصة من رأس المخبز تصدر الى البندقية، وكان خاضعا لدفع المكوس للسلطة المخزنية، وبالتالي لابرام معاهدات تجارية بين الطرفين. ومنذ القرن الثامن هـ / الرابع عشر م، أبرمت البندقية معاهدة مع سلطان تونس وكذلك مع أمير طرابلس (1).

وقد نصت الاتفاقية المبرمة بين السلطان الحفصي أبي عصيدة وسفير دوق البندقية سنة 1305، على وضع التجار البنادقة تحت حماية السلطان عند نزولهم في المواني الافريقية، وبصفة خاصة برأس السبيل – ولعلها رأس الزبيب –: Rassazibili، وفي وثيقة سنة 1317، كتبت Rassacibili. على أن المعاهدة المبرمة في التاسع من جوان سنة 1356 بين سفير البندقية جيرالدو (B. Giraldo) وأمير قابس، أحمد بن مكي تنظم العلاقات التجارية والمالية بين البلدين، ولا تشير الى تصدير الملح المستخرج من ملاحات جرجيس ورأس المخبز، الا في البندالرابع. وحفاظا على توازن الميزان التجاري بين الطرفين، قبلت البندقية تصدير المواد الاستراتيجية التي منعتها الكنيسة، مثل الخشب والحديد والاسلحة الى طرابلس. ولما أستعاد أبو فارس عبد العزيز السيطرة عليها، أبرم اتفاقية مع البنادقة سنة 1392، تحتوي على بنود مشابهة مع تنصيصها بصفة مميزة لميناء رأس المخبز، بأعتباره المرسى الاكثراستعمالا في التجارة بين البلدين (2).

وفي الجملة، فإن رأس المخبز يعد من بين المراكز الأساسية لانتاج الملح، والمراسي المرتبطة بعلاقات نشيطة مع البندقية طيلة القرن الرابع عشر، شأنه في ذلك شأن يابسة وكاقلياري وتراباني وقبرص والاسكندرية والقرم. وبدرجة أقل، استعملت ملاحات جرجيس وقصر صالح وطرابلس. ومن الملاحظ أن هذه المراسي مقترنة بالتجارة الصحراوية، وخصوصا تجارة الذهب، وهو ما يفسر أن نسبة هامة من الذهب كان يقع تحويلها من المراسي الصحراوية الى البندقية.

-*قبالة الخمر* : تموضعت فنادق التجار الاوربيين بمدينة تونس بناحية باب البحر، وهناك خصص مكان لبيع الخمر وترويجه، ورغم أنه تعرض الى الازالة في مناسبتين على الاقل، إبان حركة ابن أبي عمارة سنة 679 هـ، وعند تولي أبي فارس عبد العزيز الحكم، فالغالب هو إباحة تجارة الخمر، لما تدره على المخزن الحفصي من عائدات، إذ

(1) Hocquet , **Le sel et le pouvoir** , pp . 186 , 229 , 234 , 335.

(2) Hocquet, **Le sel et la fortune de Venise**, Lille 1982,pp. 76, 98, 99, 164, 209, 218, 219.

لقد أخطأ (هوكي) في قراءة الاسم الوارد في الوثائق الايطالية رأس السبيل أو رأس المخبز، والحقيقة أنه رأس الزبيب، الذي يقع في طرف مدينة بنزرت الشمالي، وهو يراقب حركة الملاحة بين ضفتي المتوسط، ولذا فقد كان من المواضع الاستراتيجية في الملاحة المتوسطية طيلة العهد الحفصي.

مثلت قبالة الخمر دخلا سنويا قارا، يقوم بدفعها ممثل عن الجالية الاوربية، في بداية السنة الميلادية، وكان قد تقبلها على التوالي إيطاليون وقتلانيون.

وقد بلغ مقدار هذه القبالة الكبرى للخمر في26 مارس سنة 1299 م مقدار 18 000 بيزا، أي ما يعادل 3600 دينارا، استوفاها مشرف الديوان الفقيه ابن مروان المسمى ابن مكّين، من فراريو(Ferrario). ومن الملاحظ أن هذا الاخير هو شخص مغاير للذين قاما بآكتراء هذه القبالة من البندقي باودوكو (Bauduco)، وهما البيشاني مارتلو (Martello): ودي يوليانو(De Iulianno)، وذلك في 14مارس من هذه السنة. مما يدل على تعدد الاشخاص المشتغلين في هذه القبالة ذات المداخيل الهامة. وقد ازدادت إيراداتها بعد نحو قرن من هذا التاريخ، إذ بلغت في بداية حكم أبي فارس 10 000 دينارا (1).

لكن كراء هذه القبالة يتعرض أحيانا الى سوء تفاهم بين السلطة المخزنية والمتقبل، مثلما وقع في 20 ديسمبر سنة 1288، لما أشتكى المكلف بالقبالة الكبرى للخمر، فراريو (Ferrario)، الى المشرف على الديوان الفقيه أبي يعقوب الرقادي، سوء معاملة الفقيه أبي عبد الله له، وفرط في مسؤولية القبالة الى رجل الدين المكلف بكنيسة فندق الجنويين القديم .ولكن من الواضح أن فراريو تراجع عن هذا القرار، إذ ظل على رأس القبالة في السنة الموالية(2).

ويبدو أن أهمية هذه الحرفة كان لها تأثير مباشر على عائدات الافارقة وقتذاك، إذ أنتشر أستعمال بعض المفردات الايطالية الخاصة بالخمر، مثل البتاتي المصنوعة من الخشب، ومفردها بتية (botilla) والاقباب، ومفردها قوب (coupe)، والبوقال (boccalo) الخ. وقد كانت بعض الفئات تتعاطى شرب الخمر، خارج باب البحر، بمدينة تونس، دون تعرضهم لمراقبة متشددة، إذ أن أهل إفريقية فضلوا عدم استعمال مهنة الشمام لمعرفة المخمور، وهي طريقة متبعة بالمغرب الاقصى. وتسربت مبيعات الخمر الى المدن الداخلية، حتى أن القيروان عرفت حومة تسمى بالنباذية، كان يباع فيها الخمر « إشهارا جهارا، وشرابها عاكفون عليها ليلا نهارا»، وذلك بعد أن تقبل أحد التجار النصارى الخمر من السلطان بمدينة القيروان، حسبما ذكر ذلك ابن ناجي.

قال في هذا الصدد : « **هو أن رجلا كافرا التزم دفع مال فيه للمخزن، يؤديه كل يوم أو في العام، على أن يبيعه بالقيروان. فخرج له الامر بذلك، فعمد الى دار بالحومة المسماة اليوم بالنباذية، سميت لبيعه الخمر بها**(3).

والى جانب هذه التأثيرات الاجنبية في شرب الخمر، فقد تعود سكان إفريقية على

(1) راجع الفصل الخاص بالمكوس التي أزالها أبو فارس عبد العزيز. Brunschvig , **op.cit.**,TII, p. 71
Pistarino, **Notai Genovesi** in oltremare.., Genova 1986, actes n°44, 26.

(2) Ibid, acte n°1.

(3) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص. 92.

شرب النبيذ، وهو المسمى عند أهل المدن الفقاع، ولدى أعراب إفريقية المريس. ولئن كنا لا ندري كيفية صنعه، فالواضح أن درجة الشـدة الناجمة عن كثرة تخمره كانت تؤدي الى الاسـكار، وهو ما يفسر منع الفقهاء لبيعه طيلة شهر رمضان (1).

وحصيلة القـول، فان قبالة الخـمر تطورت في خط مواز لتطور التجـارة المتوسطية بإفريقـية، حتى أضحت من المداخـيل القارة للمخزن الحـفصي، رغم الموانع التشريـعية الناصة على ذلك، ومعارضة العلماء لها.

– *الفنادق الاخـرى المتقـبلة أو التي كانت حكرا علـى المخزن الحفـصي* : خصصت الفنادق لسكنى الغرباء الوافـدين على المدينة، وخاصة التـجار الاوربيين، كما خـصصت لعمل بعض الحرف أو لايداع البضائع وبيعها، و نظرا إلى تعدّد وظائفها اعتبرت من بين هيـاكل التمـويل الاساسـية بالمدن الكبـرى. وقد حـاولت السلطة المخزنيـة تملك الفنادق الخاصة بالحرف، وكـراءها للحرفيين والتجار. فالفندق الذي تحول فـيما بعد الى زاوية أحمد بن عروس، بعد أن كان وكرا لـلفساد، كان في الاصل فندقا من أملاك السلطان أبي عمرو عثمان (2).

ومن أهم الفنادق والمخازن في العهد الحفصي، نذكر :

– فندق البقل : مـخصص لايداع البـقول والخضـر، يوجد قرب باب سـويقة، وقع تحويله الى جامع الخطبـة بباب سويقة في عهد أبي عبـد الله المرجاني. ويوجد فندق ثان للبقل بالقيروان.

– فندق الرماد : يقع فيه تبييض الغزل وتنظيفه، وقدكان يختص بقبالته أهل المخزن كما بينّا سابقا.

– مخـزن الطعام : ويسمـى كذلك مخـزن السماطين، ذكـر بمدينة تونس منذ بداية القرن السابع هـ، وقد كان به آنذاك شاهد عدل.

– مخزن الفخار : أصبح متداعيا في القرن التاسع، حتى أنهار جزء منه (3).

– دار الصـابون : كانت بدورهـا حكرا على المخزن، وقـد كـان المتولّون لهـذه الدار يتحكمـون في أقتناء المواد اللازمة لصناعة الصـابون، من رماد يأخذونه على أختيارهم بمقابل زهـيد، وجيـر يحملونه بالاكـراه من أربابه بسعـر بخس، بأستـثناء الزيت الذي

---

(1) الابي، **الاكمال**، ج V، ص 316، ج VII، ص 127.

(2) لقد تحولت بعض الفنادق مكانا للفساد كما يبدو من خـلال أمثلة عديدة، ونفهم من مسالة أوردها البرزلي، أنها كانت وكـرا لممارسة الفسـاد، مما اجبر تدخل أحـد قضاة مدينة تونس. ويكثـر سكنى الفنادق والاقبال عليـها أيام المواسم . انظر: ابن راشد، **الفائق**، ج IV، ص 7ب. ابن عرفة، **المختصر**، ج IV،ص 36 ب. البرزلي، **جامع**، ج II، ص 150ب. مناقب **ابن عروس**، ص 209.

(3) حول هذه الفنادق، انظر على التوالي : **مناقب**، مخ، ص 173، ص113 ب ، ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 231 البرزلي، **جامع**، ج III، ص63 ب، ابن عبد الباسط، **رحلة**، ص 17. **مناقب** بن عروس، ص 428.

. . ره بسعـر السوق. وبعد طبخ هذه المواد وتحويلها، يباع الصـابون بأسعار مشطة، حتى لجأ الناس الى اقـتنائه من خارج مدينة تونس، بطريقة سـرية، لأن السلطة تفرض على الناس عدم صناعته وشرائه من دار الصابون (1).

– سوق الربع : يعتـبر كذلك من خاصة السلطان، وأملاكـه التي يقع كراؤها، وكان موضـعه في القرن السابع بزنقة الساباط، وقد أحتوى على أكثر من27 حانوتا(2).

وبالتالي، تتّضح أهمية القبالة أو اللزمة، وشمولها لعدة قطاعات اقتصادية بالمدينة، وذلك خلافـا لما ذكره أحد المسـتشرقين من كـونها ذات أهميـة ثانوية، ولم تخص سوى قبالة الخمر (3).

وخلاصـة القول، فان المغـارم المختلفة المذكـورة ، من نزول وخطايا وقبـالة، كانت تخص بدرجات متـفاوتة أهل الحضر والبدو، وقـد أدت هذه السياسة المالية النهـبية الى زيادة تفقـيرالسكان، وبخاصـة منهم أهل الباديةالذين أثقلهم المخزن، الى جـانب المغارم المذكورة أنفا، بقائمة أخرى من الضرائب.

وتمثل هذه الجبايات نسبة فائقة من مداخيل الدولة. وقد كانت تؤخذ في الغالب نقدا، وما الخطايا الاّ نمـوذج دال على تطور التعامل النقدي. ولا يقـتصر دورالدولة على جباية الأموال وتنظيـم فائض الانتاج ومراقبته، إنما كـانت توزّعه على الفئات المستفـادة مثل الأسرة الحاكـمة والجهاز الاداري والفقـهاء والجيش(وخاصـة فئة العلوج المرتزقة).

---

(1) البرزلي، **جامع**، ج III، ص 63ب.

(2) **مناقب** السيدة المنوبية . انظر أيضا : Brunschvig , **Les Hafsides** , t II , p. 150 , 202 .

(3) أنظر : Brunschvig , op. cit . , T II , p . 71

هوبكنز، **النظم الاسلامية في المغرب**، ترجمة الطيبي، ص 115.

خاتمة :

لقد كانت السّمة الغالبة على الاقتصاد في الدّاخل هي ثقل الجباية المسلّطة على المزارعين والحرفيين واُحتكار السّلطان لعديد النشاطات المدنية والبادية. وهو ما يفسّر قولة ابن خلدون الشهيرة : **« السّلطان هي السّوق الأعظم للمال ».**

ولا مراء أنّ تأثير المدن التجاريّة الاوروبيّة على اقتصاديات افريقيّة كبير، وشامل لمختلف مظاهر الحياة اليوميّة. فقد نعثر عليه في كاغذ العدل وجبّة ملف الفقيه وفي البوقال البيشاني بالمائدة الحضريّة وفي النوافذ والابواب الخشبيّة والحديديّة التي صنعها الحدادون والنجارون الجنويون بتونس، كما نعثر عليها في مغزل النسيج وهندام المرأة ووصفة الطبيب النّصراني بتونس، وحتّى في الاحتفال ببعض الأعياد والمواسم.

وبالتّالي فقد كان التسرّب " الرأسمالي " هامًا في المدن الافريقيّة التي لم تتمكّن من منافسة التطوّر الحرفي الحاصل بجنوة والبندقيّة وبرشلونة وغيرها من المدن التجاريّة. وقد تجسّد ذلك بوضوح في قطاع النسيج حيث هيمنت الصّناعة الايطاليّة والقطلانيّة في مستوى التّصدير، وأغرقت السّوق الافريقيّة بالبضائع المتأتيّة من الجانب الآخر من المتوسّط. كما عجزت البحريّة الافريقيّة عن المنافسة، وهو ما أثّر بدون شك على طبيعة العلاقة بين المدنية وباديتها.

فقد تضرّرت البادية من ظهور هذا الاقتصاد التجاري غير المتوازن، وأضحى دورها مقتصرًا على تجميع المواد الأوليّة من صوف وجلد وبعض الانتاج الزراعي(زيت وتمر وحبوب وغيرها)، وتحويلها الى المدينة لغاية التّصدير. وهو ما أدّى حتمًا الى تفقير ها.

تطور أسواق مدينة تونس وفنادقها

السوق في العهد الحفصي	الموقع	تطوره في العهد العثماني	الموقع (2)	ملاحظات اخرى
سوق الحرير	شمال جامع الزيتونة	سوق الحرارين	من اسواق الرّبع	22 حانوت
سوق القطانين				
سوق الصوّف		سوق الجرابة؟	من اسواق الرّبع	20 حانوت خالية
سوق الغزل	قرب الابارين و سوق النساء؟	سوق الغزل : سوق الحاكة	ناحية باب بنات	19 حانوتًا
سوق القماش أو الرهداريين	حذو جامع الزيتونة غربا			
سوق الابّارين	شمال جامع الزيتونة			
سوق الخياطين	بنفس الناحية			
سوق النّساء	قرب سوق الرّبع			
سوق الجبّة		سوق الجبّة		15 حانوتا
سوق الكمادين				
فندق الرماد				
سوق الصباغين	داخل باب الجزيرة	سوق الصبّاغين	الباب الشرقي	59 حانوتا
سوق الملابس القديمة	بربض باب منارة			
مخزن الطعام أوالسماطون		سوق السماط الكبير	داخل الرّبع	47 حانوتا
سوق الفكة أوالفاكهانيون	شرقي جامع الزيتونة			
العطارون	على طول "الممر الكبير" حذو الزيتونة	سوق العطارين والطيبيين والغرابليين		700 حانوت في العهد الحفصي؟
الشرابيون				
فندق الخمر	خارج باب البحر			

المسلخ	خارج باب الجزيرة			
الدبّاغون	الربض الجنوبي			
التبّانون	في الربض الجنوبي	التبانين		6 حوانيت
	في القرن VII ثم			
	تحوّل الى الشمالي			
الحلفاوين	الربض الشمالي	+		
مخازن الخشب	بباب الفلاق (بدواميسه)			
سوق الفلقة	قرب سوق النحاس حاليا	سوق الفلقة		
حوانيت الشماعين	قرب جامع الزيتونة			
حوانيت البلاغيين	مجاور للسوق السابق	سوق الصبابطيين		22 حانوتا
		والعقبيّة		
سوق الخرازين	قرب زاوية بن عروس			30 حانوتا في القرن VII هـ
سوق الحواتين				تهدّم منه 27
سوق الربّع	بزنقة الساباط سابقا	أسواق الرّبع	نفس الموقع	
		(41 حانوتا)		
القيسارية	باب الفلاق			
سوق الصّاغة	قرب الزيتونة شمالا			
سوق الكتب	جنوب جامع الزيتونة	الكتبيين		
سوق الصفّارين	قرب سوق الفلقة			
	بسوق النحاس حاليا			
سوق السقالين	قرب باب منارة			32 حانوتا
سوق السرّاجين	داخل باب منارة	سوق السرّاجين	داخل باب منارة	
سوق السكاجين	داخل باب منارة	الرّماحيين والسكاجين		
فندق الرّصاص	بزاوية بن عروس			
	حاليا			خراب سنة 1102 هـ
فندق الزيت		حانوت الادام		
فندق الخضرة	خارج باب السويقة الى	فندق الخضرة	خارج باب سويقة	

(أو البقل)	حدّ القرن VII هـ			
فندق الرّماد				خراب سنة 1102
مخزن الفخّار				
دار الصّابون		دار الصّابون	بالقنطرة	تحوّل الى مارستان سنة
حوانيت القصارين				1102
سوق العزافين	زقاق العزافين	فندق العزافين		
-	حاليّا			
سوق الحدادين				
سوق السقاطين				خراب
فندق الزبيب				3 حوانيت
فندق العسل				
سوق غرنوط		خارج باب سويقة +		
سوق القنطرة		+	داخل باب سويقة	
الرصيف		+		36 حانوتا
سوق الوزر				(+ سوق الفلقة) : 24 حانوت
				منها 6 خالية
سوق خارج باب			خارج باب الجديد	50 حانوتا
الجديد				
سوق النّجارين		+		
سوق مسجد			داخل باب الجديد	24 حانوتا
البلاط				
سوق الشوّاشين				
سوق الخلق		+		18 حانوتا
مخزن الجيّار		+	داخل الربع	30 حانوتا
فندق التبن		+	قرب الصباغين	فنادق أخرى
فندق الرخام		+	شرق الزيتونة	
			العطارين	

المهن الخاصة بالنشاط التجاري والحرفي بمدينة تونس

اسم الحرفة	العلـــم	التـــاريخ	المصـــدر
إسكاف			
بائع / باعة/بيّاع			
باقلاني – بقّال			
برّاء	أبو القاسم البرّاء – عمر البرّاء		الزركشي، ص 35، 43، 113
بزّاز			
بلاّغ	عبد الحق البلاغ / مبارك البلاغ	VII هـ	مناقب 18555
بنّاء			نقائش القرجاني، ص 15
بوّاب	محمد البواب	VII هـ	مناقب 18555
بيطري			
جبّاس	أبو الحسن الجباس – محمد الجبّاس		الزركشي، ص 149، 150، مناقب 18555
جزّار	مجمد بن جابر الجزّار		العقباني، نزهة، ص 228–227
جصّاص			نقائش القرجاني، ص 83
جمّال			
جلاّب			العقباني، ن.م، 209، 212
جلاّد			مناقب بن عروس، ص 215
جلاّز	محمّد الجلاّز		الزركشي، ن،م، ص 51، 65
جوهري	أبو العباس أحمد السلمي عرف الجوهري		نقائش حفصيّة، رقم 137 نقائش القرجاني، ص 63
جيار	عبد الكريم الجيار	VII هـ	مناقب 18555
تاجر	التاجر أبو عبد الله محمد بن سلامة		

اسم الحرفة	العلـــم	التـــاريخ	المصـــدر
تبّان			
ترّاب	سوق التراب / عمر التراب	VII هـ	مناقب 18555
ترجمان			
تمّار			
حائك	أمناء الحاكة		العقباني، نزهة، ص 245
حاجب			
حبّال			
حجّام			
حدّاد			
حريري	الحريرية – سوق الحرير		
حصايري / حصري			
حطّاب	علي الحطاب عبد الله	VII هـ	مناقب 18555
حفّار الآبار			
حكّار	أبو الحسن بن الأمين علي الحكّار		ن،م،
حمّال			نقائش القرجاني، ص 32، 40، 44، 119، 131
حمّامي			
حلفاوي	عبد الرحمان الحلفاوي	VII هـ	مناقب 18555
حلواني			
خادم			
خازن			
خبّاز	محمد بن الخبّاز		
خرّاز	سرة الخرّازين / عبد الحميد الخراز	VII	الزركشي، ن، م، ص 38-39، 44-51 العقباني، نفسه ص 274، مناقب 18555
خزّاف			
خرّاط			
خشاب			
خضّار	' فندق الخضرة		الزركشي، ص 116
خلاّل			
خمّار			
خيّاط	تاج الدين الخياط		

دبّاغ	محمد بن الدبّاغ		مناقب 18555
دلاّل			الزركشي، تاريخ، ص 58،
دهّان			60، مناقب مخ 18555 .
رتّاب			
رصاص			
رصاع	محمد الرصاع، أبو محمد الرصّاع	603 هـ	
رفّاء			نقائش القرجاني، ص 13،
رقّاص			الزركشي، ص 135 – 152
رمّاح			
رهدار	سوق الرهادنة		
ريحاني	محمد بن عبد الله بن عثمان شهر بالرّيحاني	987 هـ	الزركشي، نفسه ص 116
زجّاج			نقائش حفصية، رقم 157
زرّاد			
زفّاف	سوق الزفافين		
زكّار	أبو عمر وعثمان الزكّار		الزركشي، نفسه، ص 117
زيّات	عيّاد الزّيات		نقائش الفرجاني، ص 131
سائس			الزركشي، نفسه، ص 34
سبّاك			
سجّان			
سرّاج	عبد الله بن عبد الرحيم السرّاج	770 هـ	
سقاء	قاسم السقا / أحمد السقا	VII هـ	نقائش حفصية، ص 45
سماط			مناقب 18555
سمّاك			
سمان			
سمسار			
سنفاج	علي السنفاج	VII	
شاهد عدل			مناقب 18555
شرابي	سوق الشرابيين		
شكاري	الشكاري		

شمّاع	أحمد الشمّاع		نقائش الفرجاني، ص 69
شوّاء			الزركشي، نفسه، ص 120–123
صابوني	مجبى الصّابون – فندق الصّابون		
			الزركشي، نفسه ص 117
صاحب الرّحا			مناقب 18555
صائغ	ابن الصبّاغ		العقباني، نفسه، ص 222
صبّاغ			الزركشي، نفسه، ص 89
صرّاف / صيرفي	سوق الصفّارين / محمد الصفّار		مناقب 18555
صفّار			الزركشي، نفسه، ص 117
صوّاف			
طبّاخ			
طبّال	أبو الحسن الطبال الاشبيلي	VII	
طبيب			مناقب 18555
طحّان			
فاكهاني	سوق الفاكهانيين		
فحّام	فندق البياض		
فخّار	سوق الفخّارين		الزركشي، ن.م. ص 117
			نفسه، ص 117
فرّاء			العقباني، نفسه، ص 219
فرّان	أبو عبد الله محمد	VII هـ	نفسه ص 223
قباقبي	أحمد القباقبي	VII هـ	مناقب 18555
قدّاح	عمر بن قدّاح		مناقب 18555
قشّاش	سوق القشاشين		الزركشي، نفسه، ص 70
قصّاب	الحاج محمد بن أب بكر عرف بابن القصّاب	ت 747 هـ	نفسه، ص 117
قصّار	ابن القصّار		نقائش حفصيّة، عدد 50
قطّان	عبد الرحمن بن القطان – محمد القطان البلوي		البرزلي، ن.م.، ج I ص 59 ب
	أبو الفضل محمد القطان ابن القطان		الزركشي، ن.م، ص 12،54، 110، 112، 200
قلاّل	القلالين		نقائش القرجاني، ص 83
عزاف	سوق العزّافين		ابن الطواح، سبك المقال، ص 124، مناقب 18555

عسال	أحمد يحيى بن محمد العسال	ت. 725 هـ	نقائش حفصية، عدد 84.
عشاب	محمد بن أيوب العشاب		نقائش القرجاني ص 40
عصار			
عطار	سوق العطارين – ذوي العطر		الزركشي، ن م ص 117
			العقباني، ن م، ص 263.
غزال	سوق الغزل بتونس		العقباني، ن م، ص 263
كتبي	سوق الكتبيين بتونس		الزركشي ن م، ص
كتاني			
كحال			
كسائي			
كماد	ميمون/ محمد/ ابراهيم بن/ أحمد الكماد عبد السلام الكماد		الزركشي، ن م ص 58، 148، 154، 107، 127، 128، 180، مناقب الدهماني، ج II ص 1227.
كوّاش	بوراوي الكواش		مناقب 18555
مرجاني	أبو محمد المرجاني/ ابن عبد الرحيم المرجاني		الزركشي، ن م، ص 53-54 مناقب 18555
مغازلي			
مغربل		1496/901	Mas-latrie, Traités, p198
ملاح	فندق الملح		الزركشي، ن م، ص 127
مكاري	فاطمة بنت محمد بن علي المكاري		نقائش حفصية، عدد 197
نبّاذ	النبانين	ت 761 هـ	ابن ناجي معالم، ج VI
نبال			
نجار	عائشة بنت سعيد النجار		نقاش الفرجاني، ص 78
نحات			
نحاس			
نخاس			
نطاع			مناقب 18555
نعالي			
هراس			ابن الطواح، ن م ص 123
وزان			
وشام			

الصّوف

التاريخ	مصدر البضاعة	وجهتها	قيمتها	سعرها	الأطراف التجارية	المرجع المعتمد
1245	تونس	Pise	9 قناطير صوف	29,5 د	محرز القابسي/باج	Amari Diplomi Doc. n°14 Notai, n°9
			50 قنطار صوف	800 بيزا		
مارس 1289		Genova	(بالقنطار التونسي) غير مغسول			
	سوسة	-	50 قنطار من الصوف بالقنطار السوسي	825 بيزا		n°19
	تونس		400 قنطار صوف 200 قنطار جزّة صوف		الوكيل شيبو	n°35
			400 قنطار صوف 200 جزّة صوف	17 بيزا القنطار		n°36
			9 رزم صوف غير نظيف + 4 رزم صوف			n°59
			رزمة من الصوف المنضف =	قنطاران 50 رطل	Ferrarius	
			16 رزمة من الصوف	52 قنطار 82 رطل		
			6 رزم من الصّوف	13 قنطار 62 رطل	Ricio	
			400 قنطار صوف غير منضف			
			200 جزّة صوف 60 جلد بقر	10890 بيزا		n°60
			150 قنطار صوف مغسول	2550 بيزا		n°73
			117 شكارة قطن = 180 قنطار إفريقي			n°102
			كمية من الجلد والصوف	8107 بيزا (ضمان)		n°131
	تونس		حمولة صوف	30000 بيزا = 6000 د		Dufourcq. p.594

الجلـــود

التاريخ	مصدر البـــظاعـة	وجهتها	قيمتها	سعرها	الأطراف التجارية	المرجع المعتمد
	تونس	Pise	1600 جلد شاة	210 دينار	محرز القابسي/باج	Amari Diplomi
			909	73,5		Doc. n°14
,,	,,		1000	165 د	هلال بن خليفة الجمونسي/ باج	n°15
			650	90د7 دراهم سكية		
			1324	172,16		
		,,	750 جلد ضاينة	56 د	ابراهيم بن خليفة الجلاد	n°18
			1428 ,, ,,	225 د	عثمان المهدوي/ باج وفرسطان	
			650 ,, ,,	106 د		
		,,	1485 خروف	251د6 دراهم سكية	الحاج صدقة الجلاّد يوسف الجلاّد/ فرسطان...	n°19
			500	80د		
			380	36د 6 دراهم	عيسى وعبد الله الجلاّدين	n°20
			125	16د 6 دراهم		
1245	,,	Venise		4000 Besants		Doumerc.. p.188
1282	,,	Genova	8 أوزان من جلد	200 د		Notai, n°34
			الغنم 8366 جلد			
,,		,,	60 قنطار جلود		الوكيل شيبوا	n°35
مارس 1289	,,	,,	60 ,, ,,	11,5		n°36
,, ,,	,,	,,	أوزان جلود ضان	بيزا / القنطار		n°59
			11 رزمة جلد بقر	131 قنطار		
			58 رزمة جلد =			
			8 رزم من جلد ضان=	27قنطار 39رطل	Ferrarius Ricio	
			10 رزم جلد ضان =	39قنطار 62رطل		
			11 رزمة جلد بقر =	46قنطار46 رطل		
			60 جلد بقر			n°60

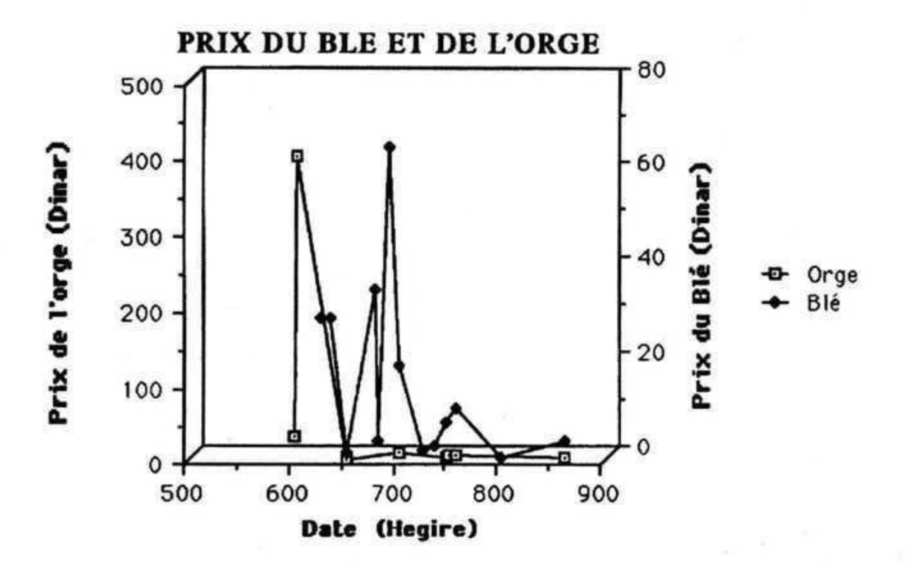
أسعار الرقيق والحيوانات والسفن والعقارات

التاريخ	البضاعة	السّعر	المكان	المصدر
	الرقيق :			
نهايةالقرن هـ	امة خادم	20 دينارًا	القيروان	مناقب الدهماني، ج ا ، ص 139
XIII/VIIم	امة	10 د.	قفصة–تونس	ابن راشد ، الفائق ،ج II ص 51 ب
2/ 1الاول	جارية	20 دينارًا.	قفصة–تونس	ابن راشد ، الفائق ،ج III،ص180ب
منVIII	جارية	30 د.	قفصة–تونس	ابن راشد ، الفائق ،ج II، ص138 ب
/XIVم	عبد	15 دينارًادراهم سكية ثمانية	قفصة–تونس	ابن راشد ، الفائق ،ج II، ص107 ب
	عبد	20 دينار دراهم عشرية	تونس	مناقب، بن عروس، ص479
	عبد	100 دينار دراهم عشرية	قفصة–تونس	ابن راشد، ج II،ص134 ب
				ج II ، ص 105 ب ، 115 ب
XVIم	15 عبد	50 د. مقايضتهم بجواد	الفزان	ابن عقبة، اغتنام الفرصة،مخ 156
	فك اسرا مراة	50 د.		نفسه
	الحيوان :			
VIIIهـ/XIVم	بقرة أو ناقة لبون	10 دراهم سكية عشرية	تونس –قفصة	ابن راشد، الفائق، ج II ، ص 91 ب
VIIهـ/XIIم	فرس شقراء	60د	سوق المركاض(تونس)	مناقب، مخ 18555، ص1180
IXهـ/XVم	جواد	150 د	تونس	المغيلي، نوازل، ج II ، ص 137
VIIهـ/XIVم	جواد	20 د	تونس	مناقب، مخ 18555، ص 1176
	السفن :			
VIIهـ/XIIIم	سفينة	100 د	تونس	ابن راشد ،ج III ،ص 162 ب
XIV/VIIم	جفن قطلالي	1600د	تونس–طرابلس	Alarcon, Documentos p.267
	سفينة قطلانية	من 500–2500د		Dufoucq, l'Espagne, p.531-532
707هـ/	سفينة كبيرة			
1308م	(جفن)	4000 د		
نهاية/XIIIم	سعر عادي	600–1000 د		
1301	للسفينة			
	العقارات			
XIV/VIII م	ارض	1350 د	صفاقس	البرزلي ،ن.م.، ج II ، ص 146 ب
XIV/VIII م	بحيرة	160 د	القيروان	ابن ناجي، معالم ، ج IV ،ص 218
	تفّاح بجنّة	15 د	قفصة	ابن راشد،ن.م.، ج ، ص 53 ب
	كراء الارض	5 د/ العام	قفصة	البرزلي،ن.م، ج II ، ص 146ب
	دار	100 د–دراهم سكية	قفصة–تونس	ابن راشد، ن.م.، ج ،ص 34 ب
بدايةXV/IX	دار معتبرة	200 د.	القيروان	ابن راشد،ن.م.، ج II،ص 60ب،1112
XIV/VIII	دار	80 د	القيروان	ابن ناجي،معالم ،ج ،ص151
	بيت	10 د	القيروان	ن.م.، ص 149
2/ 1الاول	منزل	25 د	تونس	ن.م.، ص 191
VIII/XIVم	منزل	100 د	قفصة –تونس	البرزلي،ن.م.، ج II ، ص 142 ب
"	كراء منزل (عام)	10–20 د	تونس	ابن راشد، ن.م، ج II ، ص 155
"	كراءمنزل(9اشهر)	6 د	تونس	ن،تم، ج ، ص 17 ب
2/ 1الاول XIV/VIIIم	"	10 دراهم / الشهر	تونس	ن.م.، ج ، ص 32 ب مناقب ، ص 170

أسعار بعض المواد المقترنة بالغذاء واللباس والرواتب

التاريخ	البضاعة	السّعر	المكان	المصدر
	الغذاء :			
VII هـ/XIIم	ضيافة (خضر وابزار)	70 د. دراهم	بادية القيروان	ابن ناجي، معالم، جIV، ص 108
"	وجبة فول وخل وزيت وخبز	قيراط	القيروان	مناقب،مخ 12544، ص154
بداية VII	وجبة عشاء	درهم	القيروان	مناقب الدمماني، ج I، ص 14 ب
/VIIIم	وجبة	1/2 درهم	القيروان	مناقب الدمماني، ج I، ص 35 ب
	رطل التّمر	1/2 درهم	القيروان	مناقب الدمماني، ج I، ص 150
	هريسة	1 درهم	القيروان	مناقب الدمماني، ج I، ص 118
	بطيخة	1 درهم	القيروان	ابن راشد ،ن.م. ج ، ص 61 ب
	رطل تين	1 درهم	تونس-قفصة	ابن ناجي، معالم ج ، ص 175
	زيت	1/4 درهم	تونس	ابن عرفة، المختصر، ج II ، ص 259 ب
XV/IX م	رطل الزيت (مجاعة)	1/2 دينار	تونس	مناقب 12441 ، ص 153.
599 هـ	حمل حطب (شبكة)	2 درهم	القيروان	مناقب الدمماني،. ج I ، ص 113
	اللّباس :			
بداية	حوائج من حانوت	10 دنانير	تونس	مناقب الدمماني، ج II ، ص 1106
XIII/VIIم	برنس قديم	دينار	تونس(المركاض)	مناقب، مخ 18555، ص 177 ب
	فوطة	1/4 دينار	القيروان	ابن ناجي ، معالم ، ج ، ص 218
	مرقّعة	5 د.	تونس	مناقب ، مخ 18555 ، ص 1186
بداية	ثوب (قبل الصّباغة)	85 د.	تونس	ابن راشد الفائق، ج ، ص 134ب
XIII/VII	(بعد الصباغة)	95 د.	تونس	ابن راشد الفائق، ج ، ص 134 ب
	خياطة سراويل	قيراط	تونس	مناقب أبي سعيد الباجي ، ص 17
	الكتب والرواتب :			
نهاية VIIهـ	كتاب الشفاء لابن سيناء	500 درهم	تونس	ابن الطواح، سبك المقال ، ص 123
/ XIIIم	مرتب إمام الجامع	3/4 ثمن الدينار/يوميا	القيروان	
	بيت المال(دخل السلطان حسن)	150 الف دينار كبيرة	تونس	
XV/IXم	1533م			ابن ناجي، معالم، ج IV ، ص 25. R.A, n°19
عهد ابي	تدخل لتعيين القائد على طرابلس	100د		مناقب بن عروس 496-497
العباس احمد	رتبة عبد الله الترجمان	1/4 1د./اليوم	تونس	الترجمان، تحفة الأريب، ص 16
1/2 من				
القرن/XVI				
VIII م				

1	Produit	Prix (Dinar)	date (Hegire)	lieu
2	Orge	30	600	Tunis
3	Orge	400	602	Tunis
4	BLé	30	626	Tunis
5	Blé	30	635	Magreb
6	Blé	1,7	651	Lorbus
7	Orge	0,7	651	Lorbus
8	Blé	36	679	Maghreb
9	BLé	4	680	Maghreb
10	BLé	66	693	Maghreb
11	Blé	20	700	Tunis
12	Orge	10	700	Tunis
13	Blé	2	725	Tunis
14	Blé	3	736	Tunis
15	Blé	8	748	Tunis
16	Orge	4	748	Tunis
17	Orge	6	749	Tunis
18	Blé	11	755	Tunis
19	Orge	5,5	755	Tunis
20	Blé	0,5	800	Kairouan
21	Blé	4	862	Tunis
22	Orge	2	862	Tunis



المدن والقرى بإفريقية على العهد الحفصي

المسالك والطرقات الرئيسية

المدن

القرى والقصور

المدن المندثرة

العرق الشرقي

تونس

القيروان

قسنطينة

بجاية

بسكرة

قفصة

قابس

طرابلس

صفاقس

سوسة

المهدية

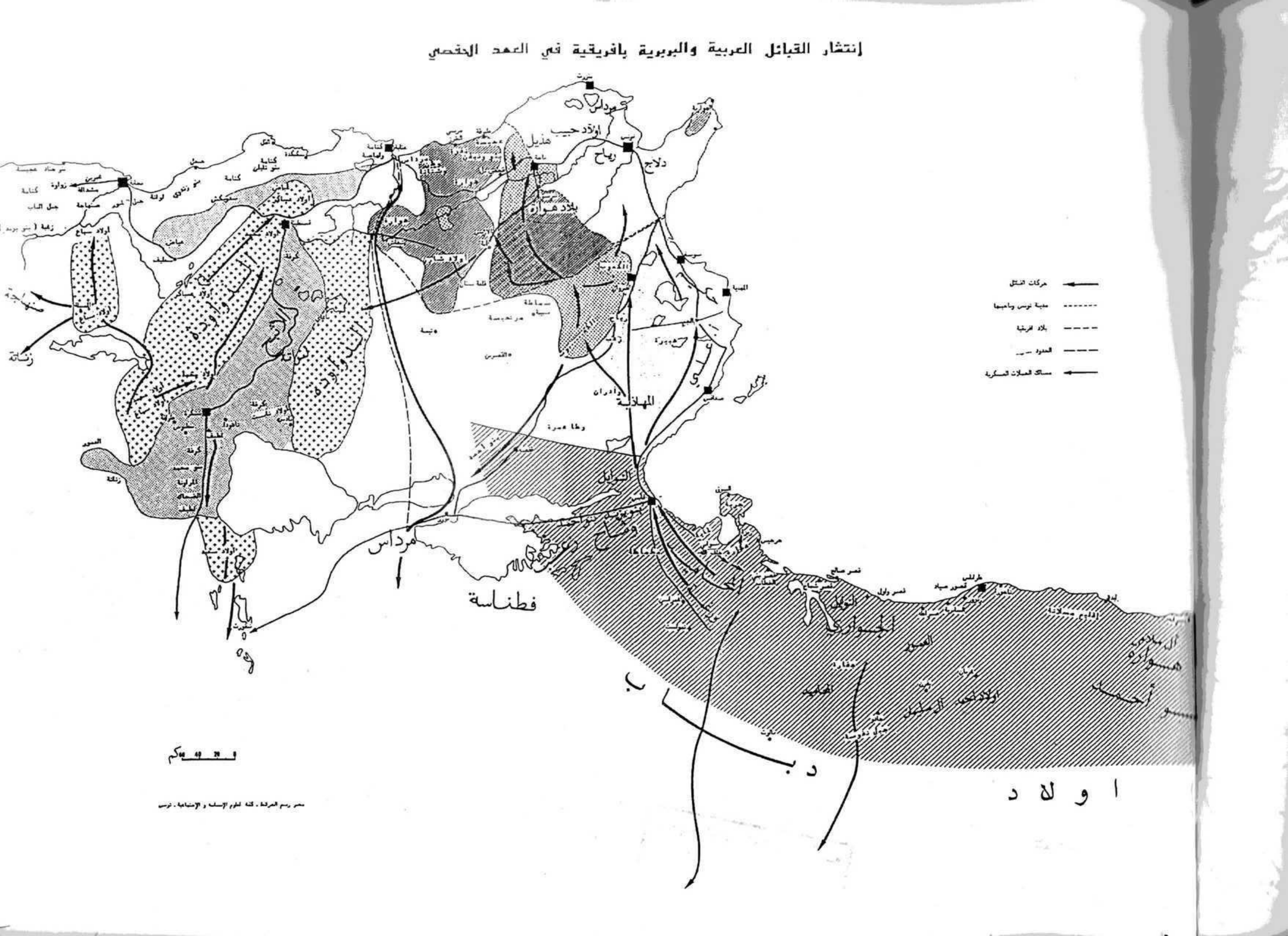
باجة

عنابة

ورجلان

جفارة

إنتشار القبائل العربية والبربرية بإفريقية في العهد الحفصي



الجزء الثالث

جدلية المجتمع والثقافة بالمدن والبوادي

الفصل الأوّل : إعادة تشكّل المجتمع الحضري: عوامل التوازن والتصدّع:

I– زمن الهجرة الأندلسيّة :

ظلت آثار الهجرة الاندلسية لسنة 1609م تحتمل في الذاكرة الشعبية المعاصرة ببلاد المغرب، وتعددت الدلالات الحضارية التي تعكس هذا التواصل الحضاري لدى افراد الجالية، فمنها ما هو خاص بالمواقع والاعلام، ومنها ما أرتبط بالحياة اليومية والارث الثقافي. وفي خط مواز لغزارة المادة التاريخية، تقدمت الدراسات الموريسكية، وتناولت جميع مظاهر الهجرة، فيما ظلت ظاهرة الشتات الاندلسي في العصر الوسيط أقل حظا من سابقاتها، واقتصرت مقاربتها على الجانبين السياسي والثقافي، نظرا إلى طبيعة المصادر المستعملة، التي كانت في الغالب كتب حوليات وطبقات وتراجم .

وقد ساعدت هذه الظلال الداكنة التي تحيط بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية للهجرة على نسبة عديد الانجازات الى الحقبة الثانية خطأ، أو القيام بمقارنات مبسطة بين الاثنين، تتلخص فيما يلي : اقتصرت الحقبة الوسيطة على هجرة الاعيان الذين استقروا داخل مدينة تونس، واشتغلوا بالعلم والسياسة، فيما شملت الحقبة الثانية (لسنة 1609م) فئات العامة الذين سكنوا بضواحي مدينة تونس وناحيتها، وأنصرفوا لأعمال الزراعة والحرف (1) .

واذ ننطلق من هذه المعاينة متسائلين عن مدى تاريخيتها، فاننا نطمح الى إلقاء أضواء جديدة على الهجرة الاندلسية الأولى، معتمدين في ذلك على وثائق متنوعة، لا تقتصر على كتب التاريخ والرحلة والتراجم، وانما تشمل كذلك المصنفات النوازلية والمناقبية والكتابات الشاهدية .

ويتعيّن علينا في هذا الصدد التساؤل عن نسق الهجرة وطبيعتها وكيفية استقرار الوافدين على افريقية، ومدى اندماجهم في صلب المجتمع، وتأثيرهم فيه، وذلك لمعرفة المكانة الحقيقيّة لهذه الظاهرة في تاريخ البلاد، ومدى أنعكاسها على المدن والأرياف.

---

(1) محمد الطالبي، الهجرة الاندلسية الى افريقية أيام الحفصيين، **دراسات في تاريخ افريقية**، تونس 1982، ص 165– 206 . محمد الحبيب بن الخوجة، الهجرة الاندلسية الى افريقية، في القرن السابع هـ/ 13م، **مجلة الكراسات التونسية**، 1970، عدد 69–80، ص 129–136 .

H.H.Abdul-Wahab,Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie, **Cahiers de Tunisie**,1970, N.69-70. pp.151-169.

Latham,Contribition à l'étude des immigrations et leur place dans l'histoire de la , Tunisie, **Etudes sur les moriscos Andalous en Tunisie**, Madrid 1973, pp.21-63

1- خصوصية الهجرة :

أ) المراحل : تاريخان حاسمان في سجل الهجرة الاندلسية إلى بلاد المغرب :

– الأول، هزيمة موقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة 619هـ/ 1212م، التي كانت حدثا منعرجا وقد أدت إلى سقـوط المدن الاندلسية تباعا بشرق الأندلس وغربه : فسقطت قرطبة سنة 633/ 1236م وبلنسية سنة 636هـ/ 1238م، ولم يجد المدد الذي قدمه أبو زكريا الحـفصي نفعا، في فك حصار المدينة، وأجلي المسلـمون من شاطبة سنة 645هـ/ 1238م، ومن اشبـيلية في السنة الموالية، وقـد تحدّثت المصادر الاسبـانيّة عن 400 ألف خرجوا من المدينـة : وهو رقم مبالغ فيه، وعن 50 ألف من بلـنسية، وفي سنة 666هـ/ 1268م، كان دور أهل مرسية(1) .

وازاء هذا الوضع لم يجد سكان هذه البلاد بدا من الاختيـار بين أمرين، أحلاهما مر: العيش في ظل القشتاليين، وما يعنـي ذلك من تدجين، أو حمل ما خف من المتاع والهجرة الى غرناطة أو بر الـعدوة . وهكذا عصـفت ريح الهجرة في أتجـاه الجنوب، كلما فـتحت أبواب مديـنة أندلسيـة. وتكرر النداء الى الخروج: نداء المنهـزم واليائس الذي يدعـو الى الاستسلام، منذ سقوط طليطلة سنة 478هـ/ 1085م، اذ أنشد ابن عسال :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فـــما المقام بـــها الا من الغلط

وردد النداء بعده ابن الدباغ الاشبيلي، على اثر موقعة العقاب، قائلا :

فما فـــي أرض انـــدلس مقــــام وقد دخل البلاء من كل باب(2).

وتحدث عبد الرحمان بن خلدون عن ظاهرة الشتات الأندلسي في هذه الحقبة، فقال: **" وأما أهل الاندلس، فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليـهم أمم النصرانية، فانتـشروا في عدوة المغرب وافـريقية، من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد "** (3) .

(1) حول موقعة العقاب، انظر : ابن عذاري، **البيان المغرب**، الجزء الثالث . ابن أبي زرع، **روض القرطاس. الذخيرة السنية.** وقد جـاء فيه : « ان المغرب قـد باد بأهله ورجاله وفني خيلـه وحماته وابطاله، وقتلـت قبائله وافيـاله وقد استشـهد الجميع في غزوة العقاب " .

وقال صاحب **الروض المعطار** : « أول وهن دخل على الموحدين، فلم تقم بعد ذلك لاهل المغـرب قائمة» .راجع أيضـا : محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس**. المقري، **نفح الطيب**، جIII،ص 446–529 .

(2) المقري، **المصدر نفسه**، ج IV، ص 352،464.

J.Vallvé, La emigracion Andalusi Al Magreb en el siglo XIII, In **Actas del Coloquio editados por Garcia-Arenal et Viguera**,Madrid 1992,pp.110-111.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 750–751 .

ومما له مغزاه أن حركة الجـلاء تجاوزت مرحلة أواسط القرن السابع هـ/ XIII م، لتمتـد الى القرن الثامن هـ/ XIV م، لكن بنسق بطيء. فالضـغط القشتـالي على إمارة غرناطة تواصل طيلة القرن الثامن هـ،والتاسع هـ، الى حد سقوط المدينة.

وفي النصف الأول من القـرن الثامن هـ/ XIV م، ازداد الضـغط القشتـالي على إمارة بني الاحـمر، فحبر ابن الخطـيب الرسائل العديدة لاستنهـاض سلطان بني مرين، ابي الحسن، الذي هب لنجدتهم، فانتصر في معركة جبل طارق سنة 733 هـ/ 1333م، لكن وقع هزيمة جـزيرة طريفه سنة 741هـ/ 1340م أنساه نشـوة الانتصـار السابق، كمـا يتضح ذلك من الرسـالة التي بعث بها الى السلطان المملوكي، اذ ورد عـلى لسانه : " **وفي اثناء ذلك اخـفرنا للحـركة عن حضـرتنا استـصراخ أهل الاندلس وسلطـانها وتواتر الاخبـار بان النصارى اجـمعـوا على خراب أوطانهـا... فحاولنـا امداد تلك البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بمن أمكن من الجند..**" الى أن ينتهي الى حصار الجزيرة مـدة ثلاثة أعـوام ونصف، واتلاف 67 جـفنا من الاسطول المريني، وسـقـوط الجـزيرة في يد القطلانيين، وخروج أهلها منها سنة 743هـ/ 1343م، في اتجاه المغرب الاقصى (1) .

وفي الجملة، كلمـا تقدمت حركة الاسـترداد (Reconquista)، وأزدادت شدة أهل غرناطة ونواحيها، تدفقت جماعات صغيرة وأفراد للاستقرار ببلاد المغرب، والامثلة عديدة على ذلك بافريقـية: فابـراهيم بن عبد الله النّمـيري المسـمّى بابن الحاج الغرناطـي هو نموذج لهذا الاغتراب الذي أفرزته وضعـية عدم الاستقرار : فقد آثر الخـروج من غرناطة أثناء فترة الحرية، سنة 734هـ/ 1334م، والتـحول للمـشرق، رفقـة خالد البلوي، صاحب كـتاب الرحلة .وبعد ثلاث سنوات اسـتقر ببجـاية حيث اضطلع بخطة الكتابة والانشـاء، وتحول بعدها الى خدمة السلطان أبي الحسن المريني، ثم ما لبث أن غـادره للتوجّه للمشرق ثانية، وعند عودته الى افريقيـة، فضل الانقباض لتغير السلطان، وتحـول الى بجاية للخدمة في خطة الكتابة، وأنقطع بعدها للتعبّد في العبّاد بتلمسـان، وهزّه الحنين ثانية الى أرض الوطن، وأسـّر في البحر سنة 768هـ/ 1365م، ففداه أمير غرناطة (2) .

أمثلة أخرى على هجـرة القرن الثامن هـ/ XIV م: تحوّل الشريف الأديـب أبي عبد الله محمد بن فضل الغـرناطي الى تونس سنة 816هـ/ 1413م، واستقراره بها، والى نفس تلك الفترة ترجع هـجرة عالم آخر : وهو عبد الرحمان الاندلسي، الى تونس (3).

(1) ابن الخطيب، **الاحاطة**، جIV، ص 386–391 (الرسالة الى السلطان المملوكي)، ص 411–445 (رسـائل ابن الخطيب) . حول هزيمة طريفة، راجع :

M. Kably, **Société, pouvoir et réligion an Maroc à la fin du moyen-âge,** Paris 1986, p.130.

(2) ابن الخطيب، **الاحاطة**، جI، ص 342.

(3) الجـدميـوي، **رفع الازار**، مـخطوط، ص 1108. البـرزلي، **جامع**،ج IV، ص 414ب (وقـد كـانت للبـرزلي والجريري صحبة مع عبد الرحمان الاندلسي) .

– أما التاريخ الحاسم الثاني، فهو سقوط غرناطة سنة 897هـ/ 1492م، وما تبعها من خروج جماعي الى بر العدوة. والحقيقة ان هذا الفصل الاخير من الصراع الاندلسي الاسباني بدأ منذ سنة 1483م، لما بدأت هجومات فرناندو على حصون الامارة. وقد كان حجم المأساة كبيرا، ولم تفلح استغاثة أهل غرناطة التي وصلت بلادَ المغرب والمشرق، في حين كان الملك القشتالي يحثهم على الرحيل وجواز بر العدوة، على أن تحملهم مراكبه بدون كراء. فاجتاز الامير أبو عبد الله محمد بن علي بن الاحمر، ونزل مليلة ثم أُرتحل الى فاس، وتبعته بقية العرب، الذين رفضوا التدجين تباعا، كما جاء في كتاب نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر، اذ قال :

" فخرج من بقي من أهل مالقة في ثلاثة أيام الى بادس، وخرج أهل المرية في نصف يوم الى تلمسان، وخرج أهل الجزيرة الخضراء في نصف يوم الى طنجة، وخرج أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل الى تطوان وأحوازها، وأهل ترقة خرجوا الى المهدية وخرج أهل منسين الى بلاد الريف، وخرج أهل دانية وأهل جزيرة صقلية في اربعة ايام الى تونس والجزائر والقيروان، وخرج أهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة وأهل مرشانة وأهل البشرة الى قبيلة غمارة بزاوية سيدي أحمد الغزال، وخرج أهل بربرة وبرجة وبولة واندراش الى ما بين طنجة وتطوان، ثم انتقل البعض منهم الى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة، وخرج أهل مرينية في يوم الى مدينة ازيلة وما قرب منها، ثم خرج أهل مدينة بليش وشيطة وقرية شريش الى مدينة سلا، وخرج ما بقي من أهل غرناطة في 15 يوما الى بجاية ووهران وبرشك زوالة ومازونة ونفطة وقابس وصفاقس وسوسة، وخرج أهل طريفة في يوم إلى اسفي وانفة، وخرج أهل القلعة الى أجدير " (1).

ونظرًا إلى الظروف السّيئة التي أجتاحت بلاد المغرب، من مجاعات وأوبئة، فانّ بعض الاندلسيين فضّل الهجرة الى بلاد المشرق وتركيا أو البقاء بالاندلس مع التظاهر بالتّدجين وأختار الأغلبيّة طريق الرّحيل بطريقتين مختلفتين:

– تمثّلت الأولى في الهجرة الشرعيّة، التي احتاجت الى استخلاص معلوم للسلطة القشتاليّة وترخيص منها، وقد بلغ عدد المهاجرين بين شهري جانفي وأكتوبر 1492 من ناحية غرناطة والبشارات : 8000 شخص، وأرتفع هذا العدد الى 40 ألف عند مغادرة السلطان النّصري قصر الحمراء. وقد سعى القشتاليون لتنظيم هذه الحركة انطلاقا من مرسى واحد: وهو مدينة المنكّب، للحصول على الجباية المفروضة عليهم.

– ولهذا أختار أخرون الخروج من البلاد خفية، حتّى لا يدفعوا هذه الاتاوة،

(1) **كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك نصر**، المغرب، 1940، ص 48. وحول سقوط غرناطة والهجرة الاخيرة، انظر : محمد عبد الله عنان، **نهاية الاندلس**، القاهرة 1966. محمد زروق، **الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16–17**، الدار البيضاء، 1989، ص 154–155.

وخاصّة ابتداء من سنة 1500م، لمّا بدأ النصارى في محاولة تنصيرهم. كما تمكّن البعض منهم من العودة خفية الى الاندلس (1).

ب) عددهم : تلك هي مراحل الهجرة، وكان نسقها يقوى ويفتر حسب الظرف. فماذا كان نصيب افريقية منها؟ لئن كان من الصعب تقدير العدد الجملي للمهاجرين لغياب وثائق الارشيف الدقيقة، فان بعض المؤشرات العامة تجعلنا نفترض انه كان في حدود الخمسين الف بالنسبة الى القرن السابع هـ/ الثالث عشر الميلادي، ومائة الف طيلة الفترة المدروسة، ذلك ان عدد المتطوعين من فرسان الاندلس بلغ نحو 4000، أثناء الحرب الصليبية الثامنة على تونس، سنة 668هـ/ 1270م، واذا ضاعفنا هذا العدد عشر مرات، فاننا نصل الى 40، أو ربما 50 ألف اندلسي خلال القرن السابع وحده. اما فيما يخص المصادر الايبيرية فانّ السجلات الاسبانية لتوزيع الملكيات المسماة : Los Libros de Repartimiento، تقدم لنا أرقاما تقريبية عن عدد العائلات المهاجرة والمعمرين الجدد (2).

وتأتي بعض الارقام الخاصة ببعض الفئات الاجتماعية مثل العلماء دليلا على الاهمية العددية لافراد هذه الجالية التي خصص لها داخل مدينة تونس أكثر من مجال للاستقرار: فالى جانب زقاق الاندلس الواقع داخل السور، قرب جامع القصر، استقرت بالأرباض بحي الأندلس، خارج باب سويقة، وقريبا من حمام الرميمي.

ويحق لنا أن نتساءل في هذا المستوى عن كيفية استقرارها، والعوامل المساعدة على ذلك.

ج) كيفية الحلول بافريقية : لقد ساعدت الرحلة الى المشرق على أختيار البلاد المناسبة للهجرة اليها، وقد رأينا مثالا على ذلك تنقّلات ابراهيم بن عبد الله النميري بين المشرق وافريقية والمغرب. وساعدت في حالات أخرى على استيطان بعض أفراد الأسرة الواحدة في أماكن مختلفة، مثلما وقع لاسرة سيد الناس، اذ تحول فرع منها الى المشرق واستقر بالاسكندرية (منهم أبو بكر محمد بن عبد الله المتوفى سنة 617هـ، بالاسكندرية، ومحمد بن أبي بكر محمد بن أحمد المتوفى بالقاهرة سنة 705هـ/ 1305م، فيما فضل فرع أخر الاستقرار بتونس، لما كان من وثيق الصلة بين

(1) J.E.Lopez de Coca Castaner,Granada y El Magreb:La Emigracion Andaluci,In **Actas del Coloquio**, editadas por M.Gracia-Arenal y M.J.Viguera, pp. 418-419, 424, 427.

(2) حدد حسن حسني عبد الوهاب عدد الهاجرين خلال هذه الفترة (645هـ 1016هـ/ 1609م) بعدد لا يقل عن مائة الف (الكراسات التونسية، 1980، ص 162)، وقال محمد الطالبي : انه ليس من المغالاة أن نقدر عدد افرادها ببعض عشرات الالاف (مقاله السابق، ص 188). حول سجلات البلديات باسبانيا، راجع :
C.Segura Graino, Los repartimientos medievales andaluces ,**Anuario de Estudios medievales**, 1982, N°.12, pp. 630-639.
محمد المنوني، **ورقات**، ص 70–74(ذكر أزيد من 2000 من فرسان الاندلس بالمغرب الاقصى، واختصت خيول الاندلسيين بحسن الترتيب والبراقع البديعة، والمشاة الاندلسيون الذين عليهم الاقبية المختلفة الالوان...).

أبي زكريا الحفصي اثناء ولايته لغرب الاندلس وأبي بكر بن سيد الناس، الذي كان محدثا ظاهريا من بيوتات اشبيلية. ولذا، تحول عند سقوط المدينة الى تونس، حيث كرمه السلطان الحفصي، وعيّنه مدرسا بالمدرسة التوفيقية، الى حد وفاته سنة 659هـ/ 1261م. وتولى من بعده، أبناؤه الخطط السلطانية من حجابة وغيرها، وعدلوا عن التدريس. كما أشار الى ذلك ابن خلدون (1).

وفي حالات أخرى، عندما لا تتوفر الصداقة والظروف الملائمة، يعسر على المهاجرين التحول مباشرة الى حضرة البلاد الافريقية، مدينة تونس، ويفضلون حط الرحال مؤقتا في مدينة ساحلية مثل عنابة وبجاية، أو الانتقال إليها من مراكش وغيرها من المدن المغربية. فبالنسبة الى الحالة الأولى، الامثلة كثيرة، نذكر منها مثال أحمد بن سيدمير، الذي ورد على بجاية وقسنطينة، وكتب لولاتها، قبل أن ترقى شهرته الى تونس وينتقل اليها، ليتولى خطة الكتابة عهد أبي زكريا الحفصي(2).

وكان ابن برطلة، من أهل مرسية، قد سكن بجاية بدوره وتولى القضاء بها، قبل أن يحل بتونس سنة 640هـ/ 1142م. أما أبو القاسم بن الشيخ، من دانية، فقد وفد على بجاية حيث اشتغل في بداية امره بالعطارة، ثم استكتبه أحد شيوخ الموحدين واستنبله، وقدمه للسلطان بالحضرة، الذي ولاه خطة الكتابة، ثم تولى الحجابة في فترة حكم الدعي (3).

وفيما يخص الحالة الثانية، أي التحول من المغرب الاقصى الى افريقية، فاننا نكتفي بذكر مثالين: شاعر البلاط الحفصي، حازم القرطاجني (608هـ 684هـ) الذي كان بمراكش أيام الرشيد، ثم دخل افريقية بعد سنة 640هـ. أمّا الثاني، فهو الحاجب أبو القاسم ابن عبد العزيز الغساني الذي انتقل الى مراكش، ثم تحول أبوه الى تونس حيث نشأ أبو القاسم، ثم تدرج في الخطط المخزنية حتى تولى الحجابة وأصبح من خاصة السلطان أبي يحيى أبي بكر (4).

وثمة عوامل عدة ساعدت على استقبال الوافدين على البلاد من الاندلس، وادماجهم في الحياة الاجتماعية، نذكر من بينها:

– *المعطى الديموغرافي*: مزقت البلاد نزاعات طويلة بين الموحدين وبني غانية،

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 683-685. راجع أيضا:
Mounira Remadi Chapoutot, Le Diaspora des Banu Sayyid An-Nas (Article manuscrit).

(2) ابن قنفد، **الفارسية**، ص 114-116.

(3) الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 269. ابن قنفد، **الفارسية**، ص 146-147.

(4) ابن خلدون، **تاريخ**، جVI، ص 792-793. انظر المنوني، **ورقات**، ص 311-352 (الصلات الثقافية بين المغرب وتونس الحفصية).

مايناهز نصف قرن، كما تعددت المجاعات والاوبئة خلال هذه الفترة، آخرها مجاعة اجتاحت البلاد في مطلع القرن السابع هـ/XIIIم. وبالتالي فقد ساعد هذا الوهن السكاني على تحول البلاد الى قطب جاذب للاجئين، وبالخصوص لتعمير مركز الحكم: وهو مدينة تونس وتمصيره.

– *المعطى الاجتماعي – البشري*: فضلا عن حاجة المجتمع الى الخبرات المتطورة للوافدين الجدد، فان نظرته اليهم لا تخلو من تضامن وتعاطف مع من نكب في وطنه وملكيته. وهو ما يجرنا حتما الى تحديد مفهوم الوطن والموطن في تلك الحقبة التاريخية: فلئن ورد المصطلح في النصوص القديمة، فان معناه يختلف عن المفهوم المعاصر، اذ لا يعدو ان يكون البلد الذي اقام فيه داخل اطار اوسع، وهو دار الاسلام. وبالتالي فان التنقل من وطن الى آخر داخل هذا المجال الواسع: دار الاسلام، لا يعدّ غربة في ذهنية الانسان الوسيطي. وقد شرعت هذا الانتقال فتاوي الفقهاء، الذين أوصوا بعدم مساكنة الكفار، والهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام(1).

– *المعطى السياسي*: تمثل في مدى قابلية السلطة المخزنية للهجرة وتفاعلها معها، لاكثر من سبب: كان لعديد الحفصيين مشاركة في ولاية الاندلس وحروبها، بدءا بأبي حفص عمر الانتي، ووصولا الى أبي زكريا يحيى ثم أبي اسحاق ابراهيم، ولذا فقد حرصوا على التسمّي بلقب المجاهد، تدعيما لشرعية الحكم. كما ان معرفتهم للبلاد، ساعدت على ربط علاقات وطيدة مع اعيانها، وقد فضل أبو زكريا جالية غرب الاندلس على غيرها، وقربها. كما كان هؤلاء السلاطين في حاجة لاطارات عدة لتشغل وظائف الكتابة والحجابة والعلامة ورئاسة الدولة والجباية والتدريس، وفي حاجة الى حزب سياسي قادر على الحد من سلطة شيوخ الموحدين، واقامة توازن سياسي (2).

وبالتالي فقد كان الامير أبو زكريا الحفصي متعاطفا مع اللاجئين الاندلسيين، وبخاصة مع أفراد جالية غرب الاندلس، كما بيّن ذلك ابن خلدون في قوله:

" وكانت لاهل اشبيلية من بين الاندلس وصلة بالامير ابي زكريا بن عبد الواحد بن ابي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الاندلس، فلما تكالب الطاغية والتهم

(1) يضيق المجال للتعمّق في الفتاوى التي أصدرت في هذا الشأن. انظر خاصة: " اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر" لاحمد بن يحيى الونشريسي: كتاب المعيار، ج II، ص 119-140. حسين مؤنس، **اسنى المتاجر**.. **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد**، 1957، المجلد الخامس، ص 129-147؛ محمد زروق، **الاندلسيون**..ص 147-149.

(2) حول الالقاب الشرفية لبني حفص، انظر مقالنا: فروع جديدة من شجرة انساب الحفصيين.. **الكراسات التونسية**، 1982، عدد 121-122، ص 95-114.

ثغورها واكتسح بسائطها، وأسف الى قواعدها وأمصارها، أجاز الاعلام وأهل البيوت الى أرض المغربين وافريقية، وكان قصدهم الى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها " (1).

ولئن كانت الهجرة شاملة لكل الفئات الاجتماعية، وخاصة العليا والوسطى منها، فان أعيان القوم وأهل البيوتات كانوا سباقين لمغادرة البلاد، لقدرتهم على دفع تكاليف الرحلة، والاطمئنان على أموالهم التي نقلوها معهم، كما حظوا بحرارة الاستقبال المخزني وتولي الخطط العليا (2).

وواصل المستنصر الحفصي سياسة أبيه، فجعل لاهل الاندلس مكانة بين أهل الشورى، واتخذهم جندا في الحرب الصليبية الثامنة سنة 1270م، وقدمهم في ديوان الكتابة والحجابة والجباية. وأحاط نفسه بجلساء من الجالية الاندلسية، من بينهم الادباء والكتاب، نذكر منهم :رجل السياسة، المعروف بحنكته وذكائه : ابن أبي الحسين العنسي، المتوفى سنة 671هـ، والفقيه المحدث أبا بكر بن سيد الناس، المتوفى سنة 758هـ، والنحوي ابن عصفور، والكاتب البليغ ابن الابار والفقيه أبا المطرف بن عميرة الخ (3).

ونحا بقية سلاطين بني حفص هذا المنحى نفسه، فقربوا أفراد هذه الجالية حتى أن صاحب العلامة أبا الحسن يحيى بن أبي مروان الحميري الغافقي المشهور بالحبّبر سيطر على دواليب الحكم، وانفرد بالسلطة الى حد أن أصبح السلطان رهن اشارته، واذل الموحدين، الذين لم يستريحوا الا بالتخلص منه سنة 677هـ/ 1278م (4).

---

1) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 683-684. وقد قال في موقع آخر من المقدمة : « ولما استبد بنو أبي حفص بافريقية، وكان شأن الجالية من الاندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات، وفيهم من كان يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن، فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس ».

(2) جاء في المقري (**نفح الطيب**، ج IV، ص 456) انه لما انشد ابن الابار قصيدته السينية في حضرة أبي زكريا، بادر السلطان باعانة بلنسية بالمدد، من مال واقوات وكسى، وتأثر بالقصيدة وشغف بها الى حد انه امر شعراء حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غير واحد. وذكرها ابن عرفة محلّلا ابياتها مشيدا بمؤلّفاتها (المختصر، ج IV، ص 147) . كما أورد قصيدة أخرى لاستنهاض أبي زكريا بعد سقوط بلنسية، في 90 بيت مطلعها : نادتك اندلس قلب نداءها واجعل طواغيث الصليب فداءها (نفح الطيب، ج IV، ص479) . وأورد رسالة ابن عميرة الى ابن الابار في سقوط المدينة، وجواب ابن الابار (ج VI، ص 490) .

(3) ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 126،128، 132. وجاء في تاريخ ابن خلدون (ج VI، ص 675-677): لما اجتمع بحضرته (أي المستنصر) من اعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصا من الاندلس من شاعر مفلق، وكاتب بليغ وعالم تحرير وملك أروع ". وقد كان ينظم الشعر بدوره، حتى انه خاطب ذات مرة ابن سيد الناس بقوله : ما حال عينيك يا عين الزمان فقد أورثتني حزنا من أجل عينيك، فاجابه أبو المطرف بن عميرة نيابة عن ابن سيد الناس شعرا، راجع المقري، نفح الطيب، ج IV، ص 110 . ومما ذكر عن أحد جلسائه، ابن عصفور، انه ألف كتابا في النحو سماه الهلالية في النحو، على اسم القائد العلج هلال، وسماه كذلك المقرب في النحو، فانتقده جماعة من أهل قطره منهم حازم القرطاجني، وردوا عليه (المقري، ج IV، ص 147).

(4) ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 135-137.

وفي الجملة فان الأمراء الحفصيين قد يسروا استقرار أهل البيوتات من اللاجئين داخل المدن، فيما لاقت الفئات الاخرى الضنك الاكبر عند الهجرة والاستقرار، والتجأت الى قوى اجتماعية أخرى.

لقد كانت مؤسسة الزاوية مؤهلة في تلك الظرفية التاريخية لاستقبال السواد الاعظم من الوافدين على افريقية، من مدرس وجندي ومتصوف وحرفي، وفران وسنفاج وزلاج ورصاع وكماد وغيرهم، وهي كلها حرف ذكرت أكثر من مرة لدى أفراد هذه الجالية (1).

ولئن كانت المعلومات الخاصة بكيفية استقرار الجالية شحيحة ونادرة، فان ما تسرب الينا ياتي دليلا على الصعوبات الجمة التي يلاقيها المهاجرون لتوفير الأكل والسكن. فكانوا يعمدون الى التضامن فيما بينهم، مثلما كان يفعل الشيخ أبو محمّد عبد الله الخلاسي عند وفوده من الاندلس، مع صاحبين له، اذ اتفقوا على تحضير الغذاء بالتناوب، فياكلون عند كل واحد ليلة، لكن لم يستمر هذا الوضع طويلا بعد أن استقروا بالبلاد، وقد احترف صاحبنا صناعة التّسفير بمنزله، وكان له لقاء مع ابن رشيد سنة 684هـ (2).

وقد مثل السكن بدوره عائقا أمام استقرار الاندلسيين بمدينة تونس، حتى ان بعض المهاجرين فضّلوا التنقل بمفردهم الى مدينة تونس لتوفير المسكن، وترك عائلاتهم بالاندلس، ولا يستقدمونهم الا بعد تهيئة مقر النزول، وازاء هذه المعضلة وغيرها من الصعوبات المادية والاحباط النفسي، تتدخل الزاوية للتخفيف عنهم.

وتجدر الملاحظة أننا عثرنا على أمثلة من هذا التدخل ترجع الى القرن السابع هـ/XIIIم. فقد كان أحد صلحاء مدينة تونس آنذاك، وهو المسمى علي السنفاج، يقوم بهذا الدور، وبعد أن رحل الى المشرق، استقر خارج الباب الجديد، بزنقة الغنم، أي في الربض الجنوبي للمدينة، وهناك كان له أكثر من لقاء مع الضعفاء من أفراد الجالية، ونظرا الى هذا التميّز، فلا يستبعد أن يكون نفسه من أصل اندلسي. ومهما يكن من أمر فان هذا الشيخ قد استضاف احد الاندلسيين لمدة عام وسبعة أشهر، وقد انقطعت اخباره عن عائلته المقيمة بغرناطه، الى أن بعث اليها يستقدمها، فحلت زوجته مع أخيها بعد عشرين يوما، وذلك سنة 674هـ، غير أن مشكل السكن لم يحل بعد، مما أفضى الى

---

(1) ورد في كتاب مناقبي (مخطوط رقم 18555) ذكر عدد كبير من المتصوفة الاندلسيين، ومن بينهم محمد القرطبي وأبو الفضل قاسم القرطبي وسعيد القرطبي وأبو الحسن الطبال عرف الاشبيلي.

(2) الابي، الاكمال، ج I، ص 152 . هو أبو محمد عبد الله بن يوسف الخلاسي، متصوف من بلنسية ولد سنة 610هـ. اورد ابن رشيد ترجمته (**الرحلة**، ج II، ص 321).

تدخل الشيخ علي السّنفاج ولم يلبث طويلا حتى حل بالمكان رجال من غير أهل البلاد ومعهم نساء وأطفال (1).

ذلك هو مشهد من هجرة فئات العامة، وكيفية حلولهم بالبلاد، وهو مشهد كثيرا ما تكرر: ففي خبر آخر كان هذا الشيخ مع صحبة أحد الاندلسيين في استقبال أربعين عائلة أندلسية، بما فيهم النساء،والاولاد، واستيطانهم بمنازل الاندلسيين المستقرين من قبل، وهي تقع على ما يبدو في الارباض الغربية الجنوبية للمدينة، اعتبارا لمكان المقبرة التي خصصت لهم، شمال شرقي باب الفلاق (2).

ولم يقتصر دور هذا الشيخ على المساعفة الاجتماعية للمهاجرين، انما كانت مقرونة في الآن نفسه بمساعدة نفسانية، حتى ولو كانت من قبيل الشعوذة، ومن ذلك ما وقع لرجل أندلسي، جاء لزيارة الشيخ، والتبرك به، وقد خاطبه بقوله: " **جئت قاصدا من وطني، وخلفت ذريتي، فامن علي بدعوة تنفعني، فقال له عند ذلك وجبت علينا ضيافتك، ويقضي الله حاجتك، فبقي نحو 28 يوما في الضيافة وكان يسأله عن بلاده، فيقول مراكش. ولما رغب في السفر من حيث أتى، ناوله الشيخ زاده وودعه باكيا. ثم رجع ثانية الى تونس بعد أربعة أشهر، فوجد السنفاج قد مات، ومات الاندلسي بعده بثلاث سنين، فدفن قربه** " (3). لا شك انه تحول أولا الى مراكش، ومنها فكّر في الانتقال نهائيا الى افريقية، لما عرفته من نهضة في تلك الفترة. واعتبارا لأصوله الاجتماعية المتواضعة، ولمعاناة الرجل، فانه لم يجد بدا من الالتجاء الى هذا الحل.

غير أن الاستقبال لم يكن دائما بنفس هذه الحرارة، خاصة اذا أبدى المهاجر شيئا من الرفعة والكبرياء، ولنا مثال على ذلك في أحد العلماء الوافدين من اشبيلية في القرن السّابع هـ، ومعه كتب كثيرة، وكان يطلب المناظرة، فامتحنه أحد علماء المدينة، بمسجد التوتة بباب البحر، ولما تغلب عليه، قال له: " **ارجع مكروما وعلى عافية لان رجالها فيها** " فرجع من حيث أتى (4).

وقد ظل التشبث بالوهم عالقا بعامة المهاجرين في القرن التاسع هـ/ XVم، فكانوا يلجؤون الى سلطة الزاوية، في غياب مؤسّسة استقبال بديلة. وقد لعب هذا الدور في أواسط القرن التاسع، وقبيل سقوط غرناطة، زاوية أحمد بن عروس بمدينة تونس.

---

(1) **مناقب مدينة تونس**، مخطوط رقم 18555، ص 168أ. اسمه بالكامل: ابن أبي زيد عبد الرحمان عبد الواحد بن عبد الجليل بن شرف الدّين بن براهيم، من الانصار، خاطب الحاضرين قائلا " **اجبروا لاخينا أين يسكن. فقام** رجل من أهل المنزل، وكان من رؤساء الربط وقال: عندي يسكن يا سيدي اكراما لوجهك، وعندي داران، فرغ كل ما يمكن عندك، ابعثني نسكن ونطعم ما داموا عندي "

(2) **المصدر نفسه**، ص 168 ب.

(3) **المصدر نفسه**، ص 170أ.

(4) **المصدر نفسه**، ص 194 ب.

فضلا عن غلبة دورها في الفكاكة، بمعنى فك الاسرى، من القراصنة مقابل دفع فدية مالية، وقد ذكرت في أكثر من ستة مواقع، بادر اللاجئون الاندلسيون بالالتجاء اليها عند حلولهم بالبلاد، أو حتى عندما كانوا بغرناطة اثناء المجاعات. وقد كان أحمد بن عروس بدوره تحت تأثير مجرى الاحداث بالاندلس، اذ ردّد الشعار الرائج في ذلك العصر: " لا غالب الا الله "، ووجه بعض أصحابه للمشاركة في حروب الأندلس الاخيرة (1).

ونقتصر في هذا المجال على ذكر خبر، لما له من دلالة على كيفية الوصول، ومدى اقتران الشعور بالغربة "بكاريزما" الولي: قال أبو عبد الله محمد الاندلسي الغرناطي: " **جئت من الاندلس الى تونس في طرائد النصارى، ومعنا فيها خلق كثير من المسلمين والنصارى، فلما كنا قريبا من مرسى غار الملح القريبة من تونس، اصابتنا تغييرة عظيمة ردتنا مواصفها الى اقاصي البحر** ".

وبعد وصف مطول لهول العاصفة ونجاتهم، نتيجة خوارق وهمية للشيخ، قال: " **ولما وصلنا الى تونس بعد يومين أو ثلاثة أيام من رؤية الشيخ، كانت رؤيته عندنا معاشر الغرباء أهم شيء نطلبه** " (2). وبالتالي فان هذه المساعدة لا تعدو أن تكون وهمية، توفر شيئا من التعويض لهذه الفئات الشعبية التي فقدت الوطن، وعانت من هول السفر، ولم تجد من يقف سندا لها، فرمت بنفسها الى عالم الخوارق والمجهول، وفضلت ظلال السراب.

والظاهر أن دور الزاوية أصبح أكثر فاعلية، مع ازدياد الهجرة، قبيل سقوط غرناطة. فقد انتصبت زاوية أبي القاسم الزليجي، في طرف الربض الغربي، قرب باب خالد، لتستقبل الاعداد الغفيرة من عامة المهاجرين، وأصبحت بمثابة القنصلية لافراد الجالية، ولا نستغرب من ذلك اذا عرفنا أن صاحبها، المشتغل سابقا في صناعة الزليج، مغربي الاصل، وفد على البلاد من مدينة فاس، كما تشير الى ذلك النقيشة الموجودة داخل الزاوية: فهو أبو الفضل قاسم بن أحمد الصدفي الفاسي، غير انه ليس من المستبعد انه تعلم صناعة الجليز من اندلسيين، أو بالاندلس، وساهم في نشر الطراز الاندلسي بافريقية، شأنه في ذلك شأن بقية أفراد الجالية، وهو ما جعل بعض المؤرخين ينسبه خطا الى أصل أندلسي.

---

(1) حول دور الزاوية العروسية في الفكاكة، انظر: **مناقب ابن عروس**، ص 382.397.414.446.4999،493. وفيما يخص التجاء الاندلسيين اليها، راجع: ن.م.، ص 422.505-506. اما اهتمام ابن عروس بحروب الاندلس، راجع: ن.م.، ص 389،392.

(2) **المصدر نفسه**، ص 505-506.

وقد كان الرجل يحظى باحترام السلطان الحفصي، الذي حضر وفاته سنة 902هـ، وفضل بعض الأمراء الدفن الى جواره، بزاويته التي شهدت ترميما وتوسعا في القرن XIم / XIVم، من طرف شيخ الاندلسيين : أبو الغيث القشاش (1) .

2 – مدى مشاركة الجالية الأندلسية واندماجها في الحياة الحضريّة :

أ) المشاركة السياسية :

قال ابن خلدون في هذا الصدد : " **وشاركوا** (أهل الاندلس) **أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة** " (2) .

وقد كانت هذه المشاركة جليّة في حياة الدولة السياسية والادارية، من بداية حكم أبي زكريا الحفصي، الى حد تولي ابي عمرو عثمان السلطة، ومما له مغزاه ان بعض العائلات استمرت في العمل المخزني طيلة هذه القرون الثلاثة، وظلت مكونة للفئات العليا للمجتمع، شأنها في ذلك شأن شيوخ الموحدين والمصامدة جملة، وأهل البيوتات التونسية التقليدية وبعض العلوج. وقد استمر العمل بهذه التركيبة الاجتماعية والسياسية، دون انقطاع، وان كانت وجدت بعض النزاعات والتنافس في ما بينها . واستمرت تمثيلية الجالية الاندلسية في أعلى هرم السلطة، ولدى بعض العائلات المخزنية الوفية : فقد ظل مجد عائلة ابن خلدون قائما طيلة عدّة قرون بالأندلس حيث ذكرهم ابن حزم مدّة قرن وأربعين سنة، منذ سقوط اشبيلية سنة 640هـ/ 1247م، وانتقال الحسن بن محمد بن خلدون الى افريقية حيث أكرم وفادته الأمير، وفرض له الأرزاق وأقطع له الاقطاعات، وتولى ابنه بعده، محمد أبو بكر، خطة صاحب الاشغال في عهد الامير أبي اسحاق ابراهيم، الى أن قتله الدعي ابن أبي عمارة سنة 681هـ. وانتقل ابنه محمد بن محمد أبي بكر في عدة خطط، من الحجابة الى قيادة الجيش، الى ولاية الجزيرة القبلية، حتى اعتزاله الوظائف المخزنية سنة 718هـ، وتوفي سنة 737هـ/ 1336م. وقد تركت لنا القبريات اسم اخت له، وهي أمة العزيز بنت أبي بكر محمد بن محمد بن خلدون، توفيت سنة 737هـ.

(1) ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 160. G. Marçais, **Manuel de L'Art Musulman**, TI, p. 309. تواصل دور الزاوية اثناء هجرة سنة 1019هـ/ 1609م، ومما ورد في كتاب " نور الارماش في مناقب القشاش"، مخطوط 16408، ص 15-ب: " لما أن جاءوا الاندلس لتونس، ضاقت بهم المحاجج والطرقات والاسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانت، وصاروا يأتون للشيخ (القشاش) ولسماطه، وجرا معهم الشيخ كالريح المرسلة في اطعام الطعام وكسوة العريان، حتى أني أحصيت ما يخرج لهم لمؤونتهم 12 مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق والكسكسي وزوج احمال من الخروف، بخلاف اللبن واللحم راسين بقر كل يوم "...

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 751.

على ان ابنه اعتزل السياسة ونزع عن طريقة السيف والخدمة الى طريقة العلم، فكان لغويا بارعا، ومدرسا متمكنا من صناعة العربية، توفي سنة 749هـ، اثناء الطاعون الجارف، وخلفه ابنه عبد الرحمان الذي تقلب في عدة خطط الى حد انتقاله الى المشرق سنة 784هـ/ 1382م (1) .

ومن الأدلة على التواصل الزمني لهذه النّبالة الأندلسية، عائلة ابن عصفور، فقد حظي النحوي الشهير أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي المعروف بابن عصفور بمكانة هامة لدى السلطان الحفصي المستنصر، بعد ان رحل الى تونس، غير أن شعوره بالتفوّق ومفاخرته للسلطان أدّيا به الى الموت غرقا في قاع جابية، سنة 659هـ/ 1260م وانقطع خبر العائلة مدة طويلة، الى حد أواسط القرن التاسع هـ/ XVم، أي بعد قرنين من الزمن، حينذاك تولّى الفقيه أبو البركات محمد بن محمد بن عصفور التدريس بمدرسة بن تافراجين سنة 841 هـ ثمّ كتابة العلامة للسلطان أبي عمرو عثمان، وانتقل سنة 875هـ الى خطة صاحب الاحباس، وفي تلك الفترة كان أبوه، وهو أبو عبد الله محمد بن عصفور شاهدا للتنفيذ، سنة 857هـ، وهي احدى الخطط المالية. ثمّ تولّى خطّة ناظر في الأحباس ابتداء من سنة 858هـ إلى حدّ عزله سنة 861هـ، وتوفي في العام الموالي. وهكذا عاد مجد العائلة من جديد، بعد غياب طويل (2) .

على أن عائلات أندلسية أخرى لم يسعفها الحظ، وسرعان ما أدت النّزاعات الداخلية، بينها وبين شيوخ الموحدين، أو السلطان، والتنافس داخل الجالية الاندلسية نفسها، الى اندثارها، بعد أن بلغت الدرجات العليا للنفوذ، ولنأخذ أمثلة على ذلك :

– عائلة ابن سيد الناس : فقد جاز أبو بكر سيد الناس الى تونس، بعد سقوط اشبيلية، فتلقّاه السّلطان بترحاب، لما كان بينهما من صداقة باشبيلية، وتولى التدريس، غير أن ابنيه نشآ في جو الدولة وكفالتها، وعدلا عن طلب العلم الى مراتب السلطان، فتولّى أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس حجابة السلطان أبي اسحاق ابراهيم، ونافسه أخوه في ذلك، لكن السعاية به أودت بحياته سنة 679هـ/ 1280م. أما أخوه أبو الحسن، فقد تولى الحجابة لدى الأمير أبي زكريا ببجاية، وظل في هذه الخطة الى حد وفاته سنة 690هـ/ 1291م (3) .وتولّى من بعده ابنه : محمد بن ابي الحسن الحجابة لدى السلطان أبي يحيى بكر، ولكن ما تلفظه ذات يوم في شأن السلطان أدى به الى القتل والتنكيل به واستصفاء أمواله، وذلك سنة 733هـ/ 1333م، وبهذا أسدل الستار نهائيا

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VII ، ص 805–809، 1058، زبيس، **نقائش القرجاني**، رقم 91 .

(2) الزركشي، **تاريخ**، ص 39، 135،139، 148،149،150،158. ابن قنفذ **الفارسية**، ص 126–137. ابن مخلوف، **شجرة النور الزكية**، ص 197.

(3) ابن خلدون، **تاريخ**، جVI ، ص 683–685، 704، 707 .

عن الدور السياسي لهذه العائلة في الفترة الحفصية، وكانت بهذا أقل حظا من أسرة ابن عصفور (1).

إن هذه التقلبات السياسية لأفراد الجالية الاندلسية تفضي بنا بالضرورة الى محاولة استكشاف خصائص المشاركة ومحدودية اندماج هذه الجالية في صلب المجتمع الافريقي.

– فالشعور بالغربة وما يقترن به من إحساس بالأنفة والعلو وشرف الانتماء كان يسود افراد البيوتات الاندلسية : وهو ما أودى بحياة ابن عصفور، لما أجاب المستنصر الذي تحدث عما أصبح ملكه من عظمة، متحديا وقائلا : بنا وبأمثالنا. كما كان لدى ابن الابار " **انفة وبأو وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره، مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الاندلس وولايتها عليه** ". وقد انتهى به هذا الشعور بالتفوّق الى كتابة نظم هجا فيه السلطان، فكانت نهايته المأساويه، وحرق كتبه ومصادرتها (2). وحسبنا أن نذكّر في هذا الشأن بالرقيّ الحضاري الذي كانت عليه بلاد الاندلس، كما أشار الى ذلك المقّري، في فصل سماه : فضائل الاندلس (3).

– خاصية أخرى : هي كثرة الدسائس والمؤامرات الخفية التي نشأت فيها النبالة وأهل البيوتات بالاندلس، ونقلتها معها الى بلاد المغرب، فمن أوغر صدر المستنصر ضد ابن الابار هو اندلسي الموطن : وهو ابن ابي الحسين، لحقد قديم بينهما.

لكن ما فتئت أن دارت عليه الدوائر، اذ تمكن مساعده في الكتابة، ابن الحبّبر الاندلسي، من الحلول محله والتخلص منه قتلا سنة 676هـ/ 1277م. واستبد ابن الحبّبر بالسلطة، وأصبح السلطان الواثق كالوصي في يديه، كما اذل الموحدين، وتميز بالدهاء والحنكة، لكن ما ان خلع الواثق، حتى وجد الموحدون الفرصة سانحة للانتقام منه، ومات كغيره موتا شنيعا سنة 676هـ/ 1277م. (4).

---

1) الزركشي، **تاريخ**،ص 19–70. ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 770–772 785،780 ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 157. وسنة 1506–1508، على اثر قطع العلاقات بين تونس والبندقية، بعث السلطان رسولا الى البندقية وهو الفقيه سي محمد بن عصفور: Doumerc, **Venise et Tunis**, op.cit., p.90 (El fachi Si Mamet Ben Asfor)

(2) الزركشي، **تاريخ**، ص 39. ابن خلدون، تاريخ، ج VI، ص 652–655.

(3) المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 150، ومما جاء فيه " وأهل اندلس عرب في الانساب والعزة، والانفه وعلو الهمم. هنديون في افراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها.. بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة اخلاقهم.. يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للباستين بأنواع الخضر وصنوف الزهر. فهم أحكم الناس لاسباب الفلاحة ..وهم أحذق وأصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الاعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع، وأحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب.

(4) ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 126–128، 132، 137.

– وهو ما يفضي بنا الى تناول خاصية ثالثة لهذه المشاركة السياسية للجالية، تمثلت في أهمية الكتلة – أو الحزب – الاندلسي في المنظومة العامة للسّياسة المخزنية الحفصية : فقد استطاع أبو زكريا أن يحقق انقلابا في النظام السياسي الموروث من الموحدين، بدون ضجة ظاهرة، اذ أطرد شيوخ الموحدين من المناصب العليا للدولة، وعوضهم بالاندلسيين. وتدعم هذا النهج السياسي في عهد المستنصر، الذي أصبح محاطا " **بالعلوج والصنائع من بيوت الاندلس** "، على حد تعبير ابن خلدون (1). فسيطروا على الوظائف الحكومية، حتى اقترنت رفاهيتهم بهذه الخطط، فكانوا مناصرين بقوة للسلطة المخزنية، ساعين للسيطرة الكاملة عليها، ودحر شيوخ الموحدين. وبالتالي فقد دارت فصول عديدة طيلة القرنين السابع والثامن بين الطرفين، كانت الغلبة فيها تارة للطرف الاندلسي وأخرى الموحدي. وفي كل الاحوال،اعتمدت السّلطة على الاقليات : شيوخ الموحدين، والعلوج، وأعيان الحضر والاندلسيون الذين لم يكن لهم ارتباط عضوي ببقية فئات المجتمع، وخاصة بالقبائل وأهل البادية. وهو ما يفسر استمرارية فاعلية الدور الاندلسي طيلة العهد الحفصي، وتكوينها لنبالة، متميزة، متمركزة أساسا بالمدن التلية الثرية. وقد ألتقى بمدينة تونس في وقت واحد : الشاعر أبو الحسن حازم القرطاجني من قرطاجنة الاندلس (1208–1285م) وابن سعيد المغربي(من قلعة بني سعيد، توفي سنة 1274–1286م) وابن عميرة، الأديب الشهير. وماتوا بنفس المدينة.

على أن المشاركة السياسية والاجتماعية للأقليات الاندلسية، لا تعني بالضرورة، كما سبق أن رأينا سرعة الاندماج والانصهار داخل المجتمع الجديد.

ب)– الاندلسيون، بين التميّز والاندماج الاجتماعي :

لقد تولى الاندلسيون عديد الخطط، التي توفر الثروة لأصحابها، لكنها لا تخلو من العسف والظلم، مثل خطة جباية الاموال، فقد استعمل أبو عبد الرحمان يعقوب بن عمر السلمي، من أهل شاطبه، لجباية الاموال في الثغور الغربيّة، في القرن السابع هـ/XIIIم. وتولى بدوره أبو بكر محمد بن خلدون خطة صاحب الاشغال، الى حد قيام حركة الدعي ابن أبي عمارة (2).

---

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، جVI، ص 628. انظر أيضا : Brunschvig, **Les Hafsides**..., TI, p.39، سفيتلانا باتسيفا، **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**، ترجمة رضوان ابراهيم، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1978، ص 47–53.

(2) ابن خلدون، **تاريخ**، ج،ص 723–726، 736–740، 755–757. Vallvé, La emigracion Andalusi... op. cit., p.117.

وفضلا عن النهاية الدرامية لجدّ عبد الرحمان بن خلدون الناجمة عن طبيعة وظيفته، فان بعض المصادر المخطوطة تشير الى مدى الاحتراز الذي كان يقابل به افراد هذه العائلة في أوساط الفقهاء الحضر (1).

ومما يأتي دليلا على هذا التميز ان رماة الاندلس وفرسانها كوّنوا فرقة خاصة بهم في جيش المستنصر سنة 1270م، قوامها 2000 فارس، وكانت العساكر خاضعة بصفة عامة للتركيبة البشرية، حيث توجد فرق خاصة بالأعراب والعلوج والأندلسيين (2).

وسيطروا على عدة مراتب في قيادة الاسطول في القرن التاسع هـ/ XVم، وفي دار الصناعة، ويبدو لنا في هذا الصدد أنّ بعض الكلمات المستعملة من القرن الثامن، ذات الصّلة بالبحرية ترجع الى التأثير الأندلسي في هذا القطاع (3).

كما بدا هذا التنظيم واضحا لدى أفراد الجالية في حركة الغزو البحري ببجاية سنة 792هـ/ 1389م، لما كانت تصنع الأساطيل، لمهاجمة السواحل الاوربية، والقرصنة، بايعاز من الأندلسيين المتواجدين بالمدينة (4).

والحقيقة أن تنظيم الجالية الأندلسية ببجاية يرجع الى ما قبل ذلك التاريخ، فمنذ أواسط القرن السابع هـ/ XIIIم، كانت الجالية محكمة الهيكلة، اذ يوجد على رأسها شيخها وكبيرها الفقيه ابن محرز، من أهل بلنسية (توفي سنة 655هـ/ 1258م)، الذي تسمى أيضا برأس الجماعة الأندلسية ببجاية (5).

وتواصل تنظيمهم بالمدينة طيلة العهد الحفصي، وكوّنوا نبالة حضرية قادت حركات الاستقلالية بالمدينة، منذ سنة 761-765هـ/ 1359-1363م، وبرزت في هذه الظرفية خطّة العريف، وهي خطة قيادية للحركة التي تستند الى فئات العامة، أو الغوغاء وأهل الشطارة كما تشير الى ذلك النصوص، وتستهدف الهياكل التقليدية من شيوخ الموحدين، وسلطة بني حفص عامة، وقد استمر دور النواة السياسية الفاعلة للاندلسيين

---

(1) البرزلي، **جامع**، ج IV، ص 1120.

(2) ابن خلدون، ن.م.، ج VI، ص 668. العمري، **مسالك الابصار**، ص 94. ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 132. وقال الزركشي ان ابن اللحياني خرج الى المشرق سنة 717 هـ ومعه 50 فارسا من رماة الاندلس: (**تاريخ**، ج VI، ص 65). انظر أيضا حول عدد الاندلسيين بالمغرب في العهد المريني، وهو 2000: المنوني، **ورقات**، ص 291

(3) طرحت قضية القبطان سنة 784 هـ، بتونس، ووقع تكفيره وقتله. وقبطان هي ترجمة للكلمة اللاتينية: (Capitanuo)، والاسبانية: (Capitan)، انظر: الابي، **الاكمال**، ج III، ص 193، ج ا، ص 171-173. وأورد دي بالزا ذكر القبطان بتونس بين سنتي 1617-1620:

M. De Epalza, R .Petit, **Etudes sur les moriscos Andalous en Tunisie**, p.174.

(4) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 902-903 (فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة، فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر ويصنعون الاسطول، ويتخيرون له الابطال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة. انظر أيضا: الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 270.

(5) الغبريني، **ن.م.**، ص 287. البرزلي، **جامع**، ج II، ص 159-160.

في مطلع القرن التاسع هـ/ XVم، ولما هاجم السلطان المدينة سنة 813هـ، كان كبار البلد بها من الاشبيليين (1).

أما عن تنظيم الجالية بمدينة تونس، فقد كان بدوره محكما، رغم النزاعات التي تطفو من حين الى آخر بين افرادها، فمنذ القرن السّابع هـ/ XIIIم، ظهرت أحياء خاصة بهم داخل أسوار المدينة بزقاق الاندلس، وفي الارباض بحي الاندلس المجاور للحلفاوين، حيث حمام الرميمي حاليا. وتوجد اشارات أخرى تدلّ على تواجدهم بشرف المركاض (والكلمة من أصل قشتالي وتعني السّوق) وقرب باب خالد حيث زاوية الجابذي (2).

ومما له مغزاه في مستوى التنظيم، تخصص بعض الوافدين من مدن معينة في مهنة ما. وقد عثرنا في هذا الصدد على تخصص الجماعة الوافدة من شلوبينة، وهو حصن ساحلي من عمل البيرة، في كتابة الوثائق والعقود بمدينة تونس في القرن السابع هـ، وتميزهم بذلك، حتى أن قاضي الجماعة ابن عبد السلام، في النصف الاول من الثامن هـ/ XIVم، كان يرفض قبول الوثائق غير المعرّفة، باستثناء الخطوط الشائعة والمنتشرة مثل خطوط الشلوبيين وخط ابن عصفور وابن سيد الناس، لتكررها، وشهرتها، رغم مضي قرن عليها (3). واعتبارا لهذا التنظيم ولتقاليد الجالية المتطورة في شتى الميادين، فقد تمكن أفرادها من تسلّق السلم الاجتماعي، واعتلائه والوصول الى المراتب العليا من الثروة، ففي سنة 866هـ، كان كبير التجار بها: الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي، وحوله جماعة من أعيان التجار من الاندلس، وقد مكنته هذه الثروة الطائلة التي تحصل عليها من التجارة الخارجية البحرية والفكاكة من أن يعيش أجواء الاندلس بالكامل بمنزله الفخم المكون من طوابق ثلاثة، والواقع في الضاحية الاميرية برأس الطابية، وقد أحيط بأجنة رائعة، وزود ببركة ماء عظيمة أطلق عليها اسم المحنشة، وأقيمت بالقصر المآدب الفاخرة ذات الطبيخ الأندلسي، والقطائف التي يطلق عليها بالاندلس المجبنة، واستدعى للغرض ظرفاء الأدباء والشعراء الاندلسيين، من بينهم محمد الخير المالقي الذي حل بتونس سنة 864هـ، وقد تولّى خطة الكتابة لدى ابن السلطان، مسعود بن عثمان. وباختصار انها صورة بديعة لحياة أعيان هذه الجالية في المنفى: فالنجاح في حياتهم العامة لم ينسهم زمان الأنس بالأندلس، وبهذا لم يتم الاندماج بسهولة (4).

---

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 854. الزركشي، **تاريخ**، ص 123. وقد كان لهذه الجالية دور فاعل في بروز حركات استقلاليّة بمدن افريقيّة.

(2) راجع **مناقب علي السقاج**. المركاض بالاسبانيّة: El mercado.

(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 1174. البرزلي، **جامع**، باب القضاء.

(4) ابن عبد الباسط، **رحلة**، ص 20-22.

وقد تجسدت هذه المحافظة على الهوية في بلاد الغربة، بنشوب بعض النزاعات بينهم وبين أبناء البلد، والامثلة عديدة على ذلك : فقد كان النزاع بين البسيطي، من بني بسيط بشرق الاندلس، وابن الحباب ناجما عن كون الاول المقرب من السلطان انتزع من الثاني جنانًا، وقد دام هذا النزاع مدة عشر سنوات (726-736هـ) (1).

وفضلا عن الجدل الذي قام بين السكوني، من اشبيلية وابن عرفة، فان التنافر بين هذا الاخير وابن خلدون أشهر من أن يذكر في هذا المقام، وقد انتهى بصاحب المقدمة الى اختيار طريق الغربة ثانية، والرحيل الى مصر (2).

واذا كان زواجْ التونسيات من المهاجرين هو مثال للاندماج، فان طلب الطلاق منهم هو دلالة على الاختلاف في الطبائع والامزجة، ولم يتوان أحد فقهاء مدينة تونس (في القرن السابع هـ) عن نصح زوجة أحد الاندلسيين الذي أساء عشرتها بالادعاء عليه باطلا للتخلص منه (3).

لكن هذا التنافس لم ينف وقوع انصهار تدريجي لهذه الجالية في المجتمع التونسي، فالحوار الثقافي ظل قويا بين النخبة الحضرية والاندلسيين، فقد كان عن طريق الاسئلة التي تبعث من غرناطة الى تونس طيلة العهد الحفصي : وذكرت في هذا الصدد أجوبة لأبي اسحاق بن عبد الرفيع (ت 733هـ) عن أسئلة طرحها من قبل القاضي أبو بكر الطرطوشي (تـ 520 هـ)، كما وردت على ابن عرفة من الاندلس مسائل اندلسية أجاب عنها، وفي النصف الثاني من القرن التاسع هـ/XVم، وردت على الرصاع اسئلة من محمد العبدري الغرناطي المعروف بالموّاق، وقد أجاب عنها في تأليف خاص (4).

وكان الحوار قائما بين أفراد الجالية وأهل افريقية، الذين أخذوا الكثير من الاندلسيين، فكما سمع ابن عرفة من شيوخ أندلسيين مثل البسطي والبطرني والوادآشي وابن برال، وتحاور مع أبي عبد الله بن خليل السكوني، فانه كان شيخ شيوخ الفقيهين الغرناطيين : أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم، وأبي اسحاق ابراهيم بن محمد (5).

وكثيرا ما أعتمد العلماء الأفارقة على أقوال نظرائهم من الاندلس : فالأبي مثلا كان يبدأ أخباره بعبارة : أخبرني من لا أتهم من أهل الأندلس، سمعت بعض طلبة الاندلس يذكر، وكان قدم من الأندلس بعض الطلبة الموثوق بهم فحدثنا، الخ...وكانت للبرزلي

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 1153. القلشاني، **شرح**، ج II، ص 164 ب.
(2) القلشاني، **ن.م.**، ج II، ص 1104. يبدو جليًا أنّ ابن خلدون كان فقيها في بداية أمره، وممّا يوضّح ذلك أنّ البرزلي (ن.م.، ج III، ص 1191) أورد مسألة طرحت على ابن خلدون تخصّ الصّدقة..
(3) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 237 ب.
(4) الزركشي، **تاريخ**، ص 70. البرزلي، **جامع**، ج IV، ص 1377، 399 ب. سعد غراب، مسائل أندلسية، **مجلة دراسات اندلسية**، ديسمبر 1988، عدد1، ص 7-31.
(5) ابن حجر، **انباء الغمر**، ج ا، ص 192. انظر: S. Ghrab, **Ibn Arafa**... op. cit.

اتصالات متينة مع عبد الرحمان الاندلسي، والجدميوي مع الاديب الناظم أبي عبد الله محمد الغرناطي الذي وفد على الحضرة سنة 816هـ/ 1413م (1).

ولم تقتصر هذه العلاقات على الجانب الثقافي، انما شملت الجوانب الاجتماعية الاخرى، ففضلا عن الحالات النادرة التي نعثر عليها حول زواج التونسيات من الاندلسيين، فان التشاور القائم بين أهل مدينة تونس وأهل الاندلس لحل مسائل تخص المرأة لهي دليل آخر على أهمية الزيجات المشتركة بين الطرفين، التي أدت تدريجيا إلى انصهار مهاجري القرن السابع الهجري، ثم القرن الثامن والتاسع، في صلب المجتمع التونسي، وذوبان الخصوصية التي كانت قوية في البداية، ولعلنا لا نجازف اذا تحدثنا في هذا الصدد عن " مغربة " الاندلسيين "، وهي ظاهرة أكثر وضوحا من " أدلسة المغاربة " (2).

3) مظاهر التأثير الأندلسي بالمدن والأرياف :

لخّص أبو فضل الله العمري هذا التأثير بقوله : " **ومنذ أن خلا الاندلس من أهله، وأووا الى جناح ملوكها، مصروا إقليمها – أي مدينة تونس– ونوعوا بها الغرس، فكثرت منتزهاتها، وامتد بسيط بساتينها على بحيرة من البحر الشامي خارجه الى شرقيها من لم ضيق** " (3).

ا) التأثير في المجال الزراعي :

غالبا ما كان هذا المجال موضوعا لشتى المضاربات الفكرية، لقلة الوثائق المعتمدة، ففيما يذهب طرف الى التقليل من شأنه، فان الغالب على الآراء هو نسبة أكثر المستجدات الزراعية الى العنصر الاندلسي، وخاصة موجة الموريسكس، حتى ليخيل للمرء ان بلاد المغرب كانت قبل هذا التاريخ أرضا قاحلة. فماذا اذن عن حقيقة الامر ؟

(1) الابي، **الاكمال**، ج II، ص 313، 412، ج IV، ص 123. البرزلي، **جامع**، ج IV، ص 414 ب. الجدميوي، **رفع الازار**، ص 1108. انظر أيضا : ابن ناجي، **شرح**، ج ا، ص 1110.
(2) البرزلي، ن.م.، ج ا، ص 137ب. الغرناطي، ص 1220.
(3) العمري، **مسالك الابصار**، ص 85. القلقشندي، **صبح الاعشى**، ج V، ص 370. المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 152. وممّا جاء فيه : «ولما نفذ قضاء الله على أهل الاندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الاخيرة المبيرة، افترقوا ببلاد المغرب الاقصى من بر العدوة وبلاد افريقية. فاما أهل البادية، فمالوا في البوادي الى ما اعتادوه، ودخلوا أهلها وشاركوهم فيها، فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار وأحدثوا الارحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها. فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات، فهم أشبه باليونانيين فيما ذكرت..وأما أهل الحواضر، فمالوا الى الحواضر واستوطنوها، فاما أهل الادب فكان منهم، الوزراء والكتاب والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور المملكة، ولا يستعمل بلدي ما وجد اندلسي. وأما أهل الصنائع، فانهم فاقوا أهل البلاد وقطعوا معاشهم، واخملوا أعمالهم، وصيّروهم أتباعا لهم، ومتصرفين في يديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وافرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس اليهم، ويصير الذكر لهم، قال : ولا يدفع هذا عنهم الا جاهل او مبطل».

لقد ظلت الاشارات المصدرية شحيحة في هذا الصدد، منها ما قاله ابن سعيد، من أن " **مدينة تونس انتقلت اليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان افريقية الآن أبي زكريا يحيى، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلد الاندلس، وعرفاء الصناعة من الاندلس .. ووجوه صنائع دولته لا تكاد تجدهم الا من الاندلس** " (1) .

-البستنة وانتقاء المشاتل :

والمتتبع لما ورد في المصادر يلاحظ أن البستنة لم تكن حكرا على الوافدين من البادية، انما شغف بها كذلك أعيان الأندلسيين من الحضر، الذين أقطعهم السلطان الحفصي أجنّة في المجال المحيط بالمدن الكبرى .

فقد منح أبو زكريا الحفصي الاقطاعات للحسن بن محمد بن خلدون، وكان حفيده عبد الرحمان يمتلك ضيعة الرياحين بناحية تبسة. أما الوزير أبو عبد الله محمد الرّميمي الذي خرج من المرية سنة 643هـ/ 1244م، فانه تملك بتونس الضياع والقرى وشيد القصور (2) .

وكان لابن البسطي حظوة لدى السلطان أبي يحيى أبي بكر، مكنته من انتزاع بستان مزود ببرج (سكن حضر-ريفي)، من صاحبه الاصلي، الذي ظل مطالبا بحقه طيلة عشر سنوات (726-736هـ) (3) .

وقد كنّا تعرّضنا إلى وصف الرحالة ابن عبد الباسط لأحد الأجنة الموجود بضاحية تونس سنة 866هـ/ 1461م. للتاجر الغرناطي أبي القاسم البنيولي (4) .

وبالتالي فان الاسهام الاندلسي في البستنة وطرق الريّ كبير، وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد الطوبونوميا (المواقع) الحضر-ريفيّة التي تركت لنا بصمات الماضي، وذكرتنا بهذا الجهد البشري : فقد أطلق على الأجنة الواقعة قرب القصر السلطاني برأس الطابية، اسم : ما لقة (5) .

كما تسمى بستان أميري ثان، معروف في الخرائط الاوروبية منذ القرن XVم، بسانية الباردو، والاسم ظل قائما الى حد الآن يطلق على الضاحية الغربية لمدينة تونس، وهو لا يعدو أن يكون تعريبا للكلمة القشتالية : El prado، بمعنى المرج(6).

---

(1) المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 153 .

(2) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 615، ج VII، ص 805. **التعريف**، ص 262 . والملاحظ ان السلطان المريني كان يكتفي بمنح الاندلسيين والعلوج رواتب، ويخصص الاقطاعات للمرينيين دون غيرهم، راجع :
M. Kably, **Societé, pouvoir et réligion**.. p.197

(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج VI، ص 125ب . القلشاني، شرح، ج II، ص 164 ب .

(4) ابن عبد الباسط، **رحلة**، ص 20-21 . راجع الفصل الخاص بالتجار.

(5) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 73 ب .

(6) الرصاع، **فهرست**، ص 29. الزركشي، **تاريخ**، ص 116،129... R. Brunschvig, **Deux récits de voyage**... p.199

ويبدو لنا أن زاوية قرناطة التي بناها السلطان أبو عمرو عثمان في أواسط القرن IXهـ/ XVم بين قفصة وتوزر، قد اقترن اسمها بغرناطة، وارتبطت نشأتها بتحوّل السلطان مع محلته الى هذه الربوع، رفقة بعض اللاجئين من غرناطة، كما أشار الى ذلك مصدر يرجع الى تلك الفترة . ومما يدعم ذلك أن الاسم يطلق حاليا على قرية أخرى من قرى بنزرت، حيث كان التواجد الاندلسي قويا منذ القرن XIIIم (1) .

-البرك والنافورات:

ونعتقد أن ترتيب جنان أبي فهر السلطاني المجاور لمدينة تونس لا يختلف كثيرا عن مثيله بالاندلس، فقد تأنق صاحب طليطلة، قبل سقوطها سنة 479هـ/ 1086م، في بناء قصر فخم، بنى في وسطه قبة وصنع فيه بحيرة، وساق الماء الى رأس القبة على تدبير محكم، يحيط بها من كل جانب، دون أن يمس مجلس الامير داخلها .

هذه الصورة الاندلسية نقلت الى جنة أبي فهر، حيث البحيرة والقبة والنافورات والجابية . ولعل اصدق وصف وصلنا عنها هو مقصورة حازم القرطاجني(2).

كما تحدثت كتب الحوليات عن جلوس السلطان المستنصر في القبّة التي بنيت سنة 651هـ، وهي واقعة على جابية كبيرة يطلق عليها البركة، والماء حولها ينصاع من فوهات الاسود (3) .

وفي الجملة فان عديد المغروسات والخمائل والورود بالبساتين الاميرية كانت

---

(1) الزركشي، **تاريخ**، ص136. **مناقب ابن عروس**، ص392: ويبدو ان تأسيس الزاوية كان له علاقة بالفقير الذي كان قريب عهد بالاندلس، وشارك في معركتها، ثم رجع الى تونس، وقد وجهه ابن عروس مع محلة السلطان، الى نفطة، فمنع المحلة من اذاية أهل الواحة. ويبدو ان سلوقية بجهة باجة التي اسسها الموريسكوس سنة 1609م هي نسبة الى الشلوقيين.

(2) المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 353 . قصائد ومقتطفات حازم، تونس 1972. أبو القاسم محمد الغرناطي، **رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة**، ص 77-79، 147 (وقد مدحها ابن الابار بشعره، وحبر فيها أبو المطرف بن عميرة رسالة أورد بعض مقتطفاتها الغرناطي)ويمكن المقارنة بين جنّة أبي فهر بتونس وجنّة العريف بغرناطة وبين بركة الاسود بغرناطة ونظيرتها بتونس بأبي فهر) . ومما ورد في المقصورة:

وانساب في قصر أبي فهر الذي	بكل قصر في الجمال قد زرا
قصر تراءى بين بحر سلسل	وسجسج من الظلال قد ضفا
بحيرة أعلى الاله قدرها	قد عذب الماء بها وقدرها
حدائق للماء فيها كوثر	وكوثر للمال مروم من عفا ..
حاذي بنا قبيبة بن طاهر	يفري اديم الارض فري من حذا
وانصاع عن دار الاسود مثل ما	ينصاع سرب الوحش من اسد الشرا

(3) الزركشي، **ن.م.**، ص 33، 38،39 . ابن ابي دينار، **المؤنس**، ص24-25، 135.

تحظى بعناية الاندلسيين، الذين تعودوا على هذه الطبيعة في بلادهم، وحاولوا نقلها الى المنفى، وأطلقوا عليها أسماء تذكرهم بالماضي، مثل الباردو، الذي وصفه الوزان بقوله: **" هناك عدد لا يحصى من البساتين المغروسة بالبرتقال والليمون والورد وغيره من الازهار الجملية، خصوصا في مكان يدعى الباردو، وحيث بساتين الملك وقصوره البهية بمختلف النحوت والرسوم الجملية "** (1).

– ***المشاتل*** : من الواضح ان هذا التأثير لم يقتصر على البساتين الاميرية، بجهة تونس، وبجاية، انما شمل عدة جوانب زراعية أخرى مثل المشاتل، وأصناف الحبوب المزروعة، حتى أن واحة قفصة قد تسربت اليها في القرن XIIIم عدة أصناف من القمح، منها : السبوعي والشقراء والصيني والاندلسي الذي يتفرع الى نوعين : السمراء والبيضاء (2). فهل كان ذلك بفعل الهجرة ؟ تعسر الاجابة في هذا الصدد.

وفي كل الاحوال، فان الامثلة المتعلقة بالتأثير الاندلسي في مجال الزراعة بقيت محدودة في نصوصنا، لانصراف المصادر عن هذا الموضوع. وقد تركزت أساسا بالمناطق التلية الخصبة، وبعض الواحات، ولم تتخط المجال الحضر–ريفي حيث يتوفر الامن، فيما سيطر على بقية البلاد نمط العيش الرحلي. وأينما حطوا اعتنوا بتدعيم الشبكة الهيدروغرافية (المائية) وكان لهم تأثير في هذا المجال.

– ***انتشار التقنيات المائية*** : كان ترميم الحنايا التي توصل الماء الى مدينة تونس والرياض السلطانية (جنة أبي فهر) سنة 665هـ/ 1266م، أهم إنجاز يرجع إلى تلك الفترة. وقد تزامن هذا العمل الضخم مع الهجرة الأولى، واستيطان النخبة الاندلسية من مهندسين وخبراء في البناء، وازدياد **" الصناع وأرباب المعارف وأرباب البصر "** بالحضرة التونسية (3).

واذا أضفنا الى هذا المعطى ما عرف عن الاندلسيين من حذقهم لتقنيات الري، وبمشاركتهم في تشييد السواقي والبرك والنافورات بجنة أبي فهر، حيث وصلت الحنايا، فان مشاركة الاندلسيين في إنجاز هذه الاعمال المائية

(1) الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 77.

(2) ابن راشد، **الفائق**، ج ا، ص 245ب . ج II، ص 145.

(3) ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 112.

الكبرى تبدو مرجحة.

على أن الشك يساورنا في نسبة القنوات المائية التي تم انجازها حوالي مدينة تونس في القرن XVم، الى المهندسين الاندلسيين(1).

– الري بالسانية والناعورة : عرفت إفريقية هذه التقنية منذ زمن مبكر، فمنذ العصر الفاطمي، كانت آبار المهدية تحركها دواليب، ووجدت خارج باب قرطاجنة بمدينة تونس آبار ذات سواني، يطلق عليها سواني المرج (2).

غير أن ذكرها انقطع اثناء العهد الزيري، ولم تشر اليها المصادر من جديد الا في العهد الحفصي، اذ تحدّث ابن راشد عن السانية وبئرها وصهريجها وآلتها في القرن السابع هـ/XIIIم، وأضاف البرزلي في نهاية القرن الثامن هـ/XIVم ذكر القواديس والآلة التي تستخرجها البهائم عند دورانها، ويصب الماء في الجابية (3)، وهو ما يأتي دليلا على سعة انتشارها في البلاد، بالواحات وجهة القيروان، وخاصة بناحية مدينة تونس، كما حدثنا عن ذلك الرحالة أدورن في أواسط القرن التاسع هـ/XVم، اذ قال :

" في أسفل البلاط توجد دواميس كبيرة مقببة (فسقيات)، ملآى ماء مثل الفسقية

(1) تحدث الادريسي عن هذه التقنية قائلا: " وماؤها (أي مراكش) الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس، وسبب ذلك ان ماؤهم ليس ببعيد الغور، موجودا اذا احتفر قريبا من وجه الارض، وذلك ان هذا الرجل المذكور، وهو عبيد الله بن يونس جاء الى مراكش في صدر بنائها، وليس بها الا بستان واحد لابي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره، فقصد الى اعلى الارض مما يلي البستان، فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الارض، ومر يحفر بتدريج من رافع الى اخفض، متدرجا الى اسفله بميزان حتى وصل الماء الى البستان، وهو منسكب على وجه الارض يصب فيه، فهو جار مع الايام لا يفتر " (**نزهة المشتاق**، ص 67–68). وفي القرن السابع، ذكر ابن الشباط الفقي والكظيمة :(الخرق المحتفر من بير الى آخر) ابن الشباط، **صلة السمط**، مخطوط، ج IV، رقم 18565، ص17ب . فيما يرى بعض المستشرقين (سولينياك) انها ظهرت بواحة القطار قرب قفصة في القرن 15م، وكذلك قرب مدينة تونس : الزركشي، **تاريخ**، ص 136.

Solignac, **Les installations hydrauliques..op. cit.**

Brunschvig, **les Hafsides.** Goblot, Les **qanats** ,Paris 1970

Daoulatli, **Tunis sous les Hafsides**, Grandguillaume,Système des Foggaras du Touat, ROMM, 13-14, 1973.

(2) البكري، ن. م.، ص 30، 40.

(3) الادريسي، **نزهة**، ص 101. الحميري، **الروض المعطار**، ص 231. قال الرصافي في دولاب :

وذي حنين يكاد شجوا ... يختلس الانفس اختلاسا
اذا غدا للرياض جارا ... قال لها المحْل لا مساسا
يبتسم الروض حين يبكي ... بادمع ما رأين باسا
من كل جفن يسل سيفا ... صار له عقده رئاسا

المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 159. وقال الحسين بن الوزير ابي جعفر الوشقي في شأن الناعورة:

حننت الى صوت النواعير سحرة ... فاضحي فؤادي لا يقر ولا يهدا.
وفاضت دموعي مثل فيض دموعها ... اطارحها تلك الصبابة والوجدا

(**نفح الطيب**، جIII، ص 139)

الفوقية. ويصل هذا الماء في سـواقي من بئر عميقة بواسطة جـمل معصب العينين، يدور بتواصل. ويرتفع البئـر قليلاً عن سطح الارض، وحينما يستخـرج الماء من البئر بواسطة قواديس قـائمة على عجلة، شـبيهـة بارحية المـاء، يصب في حوض مربع، حـيث تحوله عجلة أخرى في مجرى ثان.. " (1).

ومما أكد هذا الانتـشار الواسع للسانية بجـهة تونس في أواخر العصـر الوسيط ما ذكره الوزان من كونها استعملت لسقي المزروعـات، زيادة على استعمالها في البساتين، وقد قال في هذا الشأن : " **ولما كانت هذه الاراضي مفتقرة إلى السقي، فان لكل منها بئرا يؤخذ منها الماء في قنوات محكمـة البناء، ويرسل بواسطة آلة مكونة من عجلة (ناعورة) يحركها بغل أو جمل، فتسقي المزروعات** " (2).

ب) التأثير في المجالين التجاري والحرفي :

– التجارة : لقد تعود الاندلسيون علـى مخالطة النصارى والرحلة من بلد إلى أخر، وهو عامل اجتماعي وسيكلوجي ساعدهم على تعاطي الـتجارة الخارجية، والنجاح فيها، وما المثال الذي ذكرناه سابقا، المتعلق بابي القاسم البنيولي، في أواسط القرن XVم، الا برهانا على ذلك. فقد كان كبير التجار الاندلسيين بمدينة تونس وقتذاك (3).

ولم تقتـصر مشاركـة تجار الجالية على الـتجارة البحـرية، وانما تمكنوا كذلك من المساهمة بنصيب وافر في التجارة الصحـراوية، كما يتجلى ذلك من خلال سيرة ابراهيم بن محمد الساحلي المشهور بالطويجن، من أهل غرناطة :

دخل بلاد الســودان، واتصل بملكها واسـتوطنها زمـانا طويلا، بالغا فـيهـا أقصى مبـالغ الحظوة والشهـرة، وتمكن من جمع ثروة كبـيرة، فرغب فـي الرجوع إلى وطنه، ووصل المغرب، لكن يبدو أنّ الظروف السيئة التي تمر بهـا امارة بني الاحمر أجبرته على الإلتحاق ثانية ببلاد السودان، حيث اسـتزاد ماله. وعند رجوعه، أهدى ملك المغرب هدية فائقة، واستقر هناك بعد ان تزوج من زنجية، وانجب منها. والظاهر ان الحنين ومتطلبات العمل جـعلاه يرجع من جديد الى تمبـكتو، حيث توفي سنة 739هـ/ 1228م. انه مـثال للتاجر الاندلسي ذي العقلية السندبادية، والارجاء الذهنية الواسعة، اذ نراه يتعامل تارة مع القـراصنة الاوروبيين، ويقوم بـدور الفكاك، مثل البنيـولي، وأخـرى يفضل العـيش

(1) انظر : R. Brunschvig, **Deux Récits de voyage**... p.198

(2) الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 75 .

Latham, contribution à l'étude des immigrations Andalouses et leur place dans l'Histoire de la Tunisie, **Etudes sur les moriscos Andalous en Tunisie**, Madrid 1973, p.49.

(3) ابن عبد الباسط، **رحلة**، ص 20–21 .

بلاد السودان .

ويبدو أن الانصـراف الى التجارة الصـحراوية يفسـر اختيـار بعض الاندلسيين الهـجرة الى واحـة نفطة سنة 1492م، التـي تعـتبـــر محطة هامـة لتجـارة الذهب والرقيق (1).

– ***الحرف والصنائع*** : ذكـر ابن سعـيد أن وجـوه صنائع دولة أبي زكـريا، لا تكاد تجـدهم الا من الاندلس، وقال ابن غـالب : " **هم صـينيون فـي اتقان الصنائـع العمليـة واحكام المهن الصورية** " (2) .

وفعـلا فان تنظيم أسـواق مدينة تونس في العـهد الحفـصي قد وقع تجـديده بفعل الهجرة الاندلسية، ومدى تأثيرها على تطور الحـرف. فالآلة المستعملة في قطاع النسيج والغزل تبـدو مستـقدمة من شبـه الجزيرة الايبيـرية، اذ حافظت على الاسم القشـتالي القديم. ففي أواخـر القرن الثامن هـ/ XIVم، كان يطلق على المغـزل المستعـمل بتونس : القرنوز، وهو تحريف للكـلمة اللاتينية :(Carduus) ومن المحتـمل ان اللفظة انتقلت من الاندلس الى افريقية، بواسطة افراد الجالية (3).

وقد عـرفت صناعة الشاشـية بدورها انتعـاشا بداية العهـد الحفصي، مـتزامنا مع الهجرة الاندلسيـة، ويبدو أنّ أبا زكريّا الحفصي خصّص لهـا سوقا. ممّا أدّى إلى ظهور تقنيات لصناعة الشاشية، كما تبيّنه القرائن التالية :

– كثـرة الحوانيت المخصـصة لصناعة الـصوف، والقصـارة والكمادة والصبـاغة بمدينة تونس انذاك .

– وقد اعتـبرت الشاشية أمـرا مستجدا فـي القرن السابع هـ/ XIIIم، إلى جانب العمامة الواسعة الانتشار، حتى أن أحد مشائخ ناحية تونس (سالم التباسي) كان يفرق الشواشي بقريتـه، وكأنه حدث متفرد، ثم انهـا خصصت للباس الأمراء والحاشـية: فقد ذكر ابن بطوطة ان غلمان المنسـا سليمان كان على رؤوسهم الشواشي البـيض، كما كان

(1) ابن الخطيب، **الاحاطة في اخبـار غرناطة**، ج I، ص329. نبذه العـصر في اخبـار ملوك بني نصر، ص48. ابن بطوطة، **رحلة**، ص 48 (ذكر قبر الشاعر أبي اسحاق السـاحلي الغرناطي بتمبكتو). وقد ورد في مناقب بن عروس (ص392–393) تحول أحد المهاجرين الى نفطة، ومنع المحله من اذايتها .
اما فيما يخص التجارة الداخـلية، فيبدو ان التـأثير كان قائمـا في استعمـال بعض التقنيات من ذلك مـيزان العود المسمى بالقـرسطون، الذي ذكـره أحد فـقـهـاء الاندلس : أبو بكر بن مـحمـد بن مـحـرز البلنسي، المتـوفى سنة 655هـ/ 1257م . ذكر ربض القرسطون بمدينة تونس : Pellegrin, **voyage**, p.70.

(2) المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 151،152 .

(3) ذكرها البرزلي، **جامع**، ج II، ص 170. راجع ايضا : Dozy, **Supplément**..,T II, p.340
يقول دوزي ان القرنون أو القـرنين هو تحـريف للكلمة : Carduus، أو : Cardon d'Espagne على ان المغزل بتونس كان يـسمى قرناس، وينطق قرنوز ولعله خطا في النص، والـصواب قرنون، الوزان، **وصف افريقيا**، ج I، ص 151 .

على رأس ابن السلطان أبي عمرو عثمان (أواسط القرن XVم) : شاشية كست رأسه إلى أن كادت تصل إلى حاجبيه، وكان أحد كبار مشائخ المدينة وصلحائها (ابن عروس) يلبس آنذاك شاشية كبيرة من ملف، وهي نسبة إلى المدينة الايطالية : "أمالفي"، مما يشير الى ان النسيج الذي صنعت منه كان مستوردا (1) .

ورد ذكر : الكبوس الاحمر منذ القرن السابع هـ/ XIIIم، بمدينة تونس، ومعلوم انه كان لباسا شائعا للاندلسيين الوافدين على تونس بعد سنة 1609، فقد كان أبو الغيث القشاش يكسو كل من ورد عليه من الأسرى كساء كاملا، بما فيه الكبوس. فهل معنى ذلك انه خصوصية أندلسية، خاصة ان اسمه تعريب للكلمة اللاتينية : (Capillus) والاسبانية: Capucha(2).

صناعة الجلود بدورها طبعت بظاهرة الهجرة، حتى انه ظهر صنف من الاحذية يطلق عليه تسمية اسبانية : السباط، وذلك منذ القرن السابع هـ/XIIIم والظاهر انه أصبح واسع الانتشار لدى الفئات الشعبية وبدواخل البلاد لدى البدو، والكلمة تعريب للكلمة القشتالية : Los Zapatos (3).

كما بقيت عدة متصورات في صناعة البناء تحمل التأثير الايبيري – الاندلسي، منها :
– الطارمة : بالاسبانية Tarima، ذكرت لاول مرة سنة 717هـ اثناء اقامة ابن اللحياني بطرابلس، مع خمسين من رماة الاندلس، قاموا هؤلاء ببناء موضعا لجلوسه بالجليز والرخام، يقال له الطارمة (4) .
– الزليج : ويقابله بالاسبانية Los Azulejos، غير أن أصل الكلمة ليس بالضرورة قشتاليّة، اذ ورد ذكر جبل من جبال مراكش، تقطع الحجارة الجيدة، ويطلق عليه ايجليز. ومعلوم أن أحد صناع الجليز بتونس في القرن XVم، يرجع أصله إلى مدينة فاس، وهو قاسم بن أحمد الصدفي الفاسي الجليزي، على انه ساهم، شأنه في ذلك شأن الاندلسيين، في نشر الطراز الاندلسي للعمارة والزخرفة، الذي تجلى واضحا في زاويته. فقد صنع الجليز بها في اشكال ذات أطباق منجمة، وأشرطة ذات زخارف مشبكة وفق طريقة معروفة بالاندلس يطلق عليها : الحبل الجاف (5) .

---

(1) حول الشاشية، انظر : M. Annabi, La chechia Tunisienne, **Etudes sur les Moriscos**.. pp.304-307.
مناقب، مخ. رقم 18555، ص194أ. ابن بطوطة، **رحلة**، ص 448 . **مناقب ابن عروس**، ص 223.505.
(2) مناقب، مخ. 18555، ص 28ب . **مناقب القشاش**، مخ. 16408، ص 13ب، 3 ب .
(3) **مناقب**، مخ . 18555، ص 190 ب. ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 214 .
(4) الزركشي، **تاريخ**، ص 65 . احتوت المنازل الموجودة بقصبة غرناطة على عنصر الطارمة (وهو عبارة عن سرير مبنيّ يكون مدفئا من اسفل) .
(5) الادريسي، **نزهة المشتاق**، ص 17 (جبل ايجليز) . حول الزليج الاندلسي، انظر مثلا : زاوية الغرياني بالقيروان والجليزي بتونس. **G. Marçais, Architecture Musulmane d'Occident pp 470-473**

وبرز التأثير الاندلسي في العمارة الافريقية في عدة جوانب ارشيتكتونية (هندسية) وزخرفية، نقتصر على تعداد أهمها : القباب الخشبية المتراكمة والمحلاة بالزخارف المذهبة، والقباب المقرنصة، والتيجان الاندلسية من النوع الكورنتي والمركب، الذي شاع في عهد الخلافة، وموضوعات التوريق بالمجصصات، وعمل القرمود الذي لم يقتصر على العمارة العمومية، انما شمل كذلك المنازل التونسية في القرن XIVم، والعقود الحدوية الرشيقة، والمتجاوزة الكبيرة، والظفائر المسماة المقربص (al mocarabes)، حيث يقع تطعيم الرخام الابيض بالاسود في البلاطات الخ...(1) .

كما ظهر هذا التأثير في مجال التهيئة العمرانية للمدينة المغربية، والتشريع المديني، اذ جاء كتاب الاعلان في احكام البنيان لابن الرامي (النصف الاول من الثامن هـ/XIVم) نسخة مشابهة لمصنّف عيسى بن موسى المعروف بابن الامام التطيلي، " رفع الضرر" ، كتب في أواسط القرن الرابع هـ/Xم، ويرجح أن يكون محمد بن ابراهيم اللخمي، المعروف بالمعلم ابن الرامي، اندلسي الاصل، للاسباب التالية:
– ورد في الورقة الأولى من المخطوط رقم 14884 نسبته : عرف بابن الاندلسي، واشار بعض المؤرخين، وخاصة " ليفي ببروفنسال" الى هذه النسبة، دون ذكر مصادره (2) .
– احتمال أن يكون أبوه من رماة الاندلس الذين كانت لهم مشاركة في الحرب سنة 1270م، وأن يكون ابنه قد ارتقى من خطة معلم للبناء الى مرتبة خبير معماري، وعريف، على غرار عرفاء الاندلسيين بافريقية ومراكش، الذين ورد ذكرهم في المصادر (3) .
– نوعية المصطلحات المستعملة في كتابه، اذ كان كثيرا منها غير معهود في المصنفات الافريقية، مثل: أصطاك (فرش ارضية الغرفة بحجارة صغيرة، وركزها بالمراكز حتى تستوي). برج الحمام، الذي يعتبر خاصية اندلسية، البغلي (خليط من الرمل والكلس، تلبّس به الجدران)، روشن (رف)، شرجب(كلمة اندلسية تعني بناء خارج عن الحائط (4) .

صناعة الكتابة هو مجال أخر تجلت فيه الخاصيّة الاندلسية بأرض الغربة، فكان عدد كبير من الاندلسيين قد تولى خطة الكتابة، بما فيها العلامة الكبرى والصغرى، كما

---

(1) الأبي، الاكمال، ج IV، ص 402-.403 R. Brunschvig, **Deux Récits de voyage**. p.197
G. Marçais, op. cit
(2) انظر : E. Levi-Provençal, **Histoire de l'Espagne Musulmane**, T III, p.30
(3) المقري، نفح الطيب، ج III، ص 153.
(4) ابن الرامي، **الاعلان في احكام البنيان**، تحقيق فريد بن سليمان، تونس 1990(نسخة مرقونة).

كانت لهم مشاركة في كتابة الوثائق والعقود، حتى أن خط جماعة الشلوبيين ظل متميزا ومعروفا طيلة القرن الثامن هـ/XIVم، إلى جانب خط كبار الكتاب، مثل ابن عصفور وابن سيد الناس (1).

وقد شهد ابن سعيد بجمالية الخط بشرق الاندلس، وقال إنه كان له حسن فائق ورونق آخذ بالعقل وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد، وقد فاق في كل ذلك الخط المشرقي. مما يفسر أنّه أصبح خطا رسميا في الدواوين (2).

ونختم هذه التأثيرات بتناول لمجال فني آخر، وهو الموسيقى :فقد عدت من فضائل أهل الجزيرة اختراعهم للموشحات التي استحسنها أهل المشرق والمغرب، وصاروا ينزعون منزعها (3). وقد كان لابي الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلي (توفي سنة 569هـ/ 1134م) الذي استقر بالبلاط الزيري بالمهدية دور فاعل في نشر الموسيقى الذي يطلق عليها الآن المألوف، وما يسمى باسبانيا: الفلامنكو : Flamenco.

وما نروم اضافته في هذا الصدد أن التأثير لم يقتصر على الأوساط الراقية، انما سرى هذا التأثير في الأوساط الشعبية.

فقد صحب هجرة الاندلسيين الى افريقية انتشار آلة البوق، بشكل لفت انتباه كبار العلماء في القرن الثامن هـ/XIVم، مثل ابن عرفة، وقد حاولت الفئات المحافظة محو آثار هذه المستجدات، فلم تقدر على ذلك. وجاء على لسانهم أن البوقات كانت مستعملة بالاندلس في الاعراس لغاية الفرح، لكن منذ أواسط القرن الثامن هـ/XIVم، استعملت بتونس بالجوامع واثناء شهر رمضان، عند السحور، وانتشر أمرها ببقية المدن مثل القيروان (4).

وثمة اشارات أخرى إلى احتراف بعض الاندلسيين بتونس مهنة الطبّال، والى انتشار عدة آلات موسيقية من الصعب معرفة أصولها مثل الدّف المغشى من جهة واحدة،

(1) ابن عرفه، **المختصر**، ج IV، ص 174. البرزلي، **جامع**، باب القضاء.

(2) المقري، **نفح الطيب**، ج III، ص 151. ابن خلدون، **المقدمة**، ص 751. قال ابن خلدون في هذا الصدد : " فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفا عليه، ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما، وصنائعهما، وصارت خطوط أهل أفريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها، لتوفر أهل الاندلس بها، عند الجالية من شرق الاندلس. وبقي منه رسم الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم. انما كانوا يفدون على دار الملك بتونس، فصار خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس "

(3) المقري، **المصدر نفسه**، ج III، ص 151. وقد لاحظ الاستاذ محمد الطالبي (**دراسات**، ص 196): ان المألوف لم يات به الى المغرب وافريقية الموريسك، لسبب بسيط، وهو انهم كانوا يجهلون العربية. المنوني الموسيقى الاندلسية بالمغرب، **مجلة البحث العلمي**، السنة 6 عدد 14-15 مزدوج، سنة 1969، ص 147-177.

(4) كان ابن عرفة يستنكف من الاستماع الى اصواتها، ويشبهها باصوات تنفر الحمير: البرزلي، **جامع**، ج I، ص 78ب، 1280.

الكبر والطارة بأوتارها وشناشنها وضرب البرابط، غير انه لفَتَتْ انتباهنا آلة يطلق عليها : الشيرانة، وهي تتمثل في صفاقتين تستعملان عند رقص النساء في القرن الثامن هـ/XIVم، وتبدو لنا انها كلمة معربة من القشتالية : Sirena. وهي مشتقة من اللاتينية (1).

فقد تسربت عادات أهل الاندلس الى أغلب الفئات الحضرية بسواحل البلاد، حتى عادت طبعا جديدا لهم، وهذا الوزان يقول عن أهل بجاية إنهم **" أناس طيبون ميالون الى المرح والموسيقى والرقص، لا سيما منهم الامراء "**، اما أهل دلس، فانهم ذو بشاشة ومرح، يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيثار (2).

لقد اتضح لنا أن هذه العلاقة لم تكن احادية الجانب، لان البلاد كان لها تقاليد راسخة في الحضارة، ولذا فقد صحب التأثير تأثُّرا، والمثاقفة كانت ذات منحيين، وان صح التعبير فان " أدلسة " المغرب اقترنت " بمغربة " الاندلسيين وانصهارهم في المجتمع الى حد ما. غير أننا نعتقد أن المجتمع وهياكله عجزت في تلك المرحلة عن استيعاب هذه الثقافة والاستفادة منها كليا، فحُرقت مصنفات ابن الابار، وأطرد التيار المحافظ المفكر ابن خلدون من تونس الى مصر الخ ...

كما ان القائمة المطولة للمصطلحات القشتالية التي انتقلت الى أرض افريقيّة بفعل الهجرة تدل على أن هذه العلاقة لم تبق بين طرفين، وفي حدود الذاكرة الجامدة، انما شملت ثلاثة اطراف : الاندلسيون والاسبان والمغاربة، واسّست لقيام علاقات جديدة بين أطراف النزاع السابقة.

(1) ابن عرفة، **المختصر**، ج VI، ص 148 ب، 150أ. البرزلي، **جامع**، ج I، ص 238ب. تعني في الاصل كائن فاتن له جسم امراة، ينتهي بشكل سمكة، بمعنى جنية البحر، كما خلدتها لنا الاساطير القديمة (Ulysse et les Syrènes)، كما تعني صفارة الانذار، ويبدو لنا انها تقابل المعنى الاول.

(2) الوزان، **وصف افريقيا**، ج II، ص 51، 43.

المصطلح بالعربية	مقابلة بالقشتالية	التاريخ	المصدر
– القبطان	Capitan	784 هـ / 1382	الابيّ، الاكمال، III، 193 – I، 171–173، طرحت قضية القبطان بتونس وأورد (De Eplza) القبطان بتونس من بين الجالية الموريسكية بين سنتي 1617 – 1620 De Epalza, Etudes sur les moriscos Andalous en Tunisie. p. 174.
– مالقة		القرن VIIIهـ/XIVم	اطلق على بستان بضاحية تونس (قرب رأس الطابية) : البرزلي، جامع، II ، ص 73 ب.
– سانية الباردو	El prado	القرن 9 هـ15/ م	اطلق على بستان أميري بضاحية تونس. الزركشي، تاريخ. الرصاع، الفهرست.
– قرناطة (زاوية)	غرناطة (Granada)	أواسط IX هـ/ XV م	شيّدها أبو عمر وعثمان بين قفصة وتوزر، وتطلق على قرية بين تونس وبنزرت : الزركشي، تاريخ ص 136 .
– البرتقال	Portugal		الوازن، II، ص 77 : ذكر بسانية باردو
القرنوز بتونس	Carduus (cardon d'Espagne)	القرن VIII هـ/ XIVم	البرزلي، II، 170, Dozy, supplement, II , 340 (المغزل المستعمل بتونس في القرن VIII هـ/ XIVم)
كبّوس	Capillus : (cheveu) Capucha:(capuchon)		مناقب 18555، 28ب. لباس على الرأس.
الزّليج	Azulejos	القرن VIIهـ/XIII م	انظر الفصل السّابق
الطارمة	Tarima	XI هـ/ XVIIم	موضع لجلوس الأمير بالجليز والرّخام، بناه الاندلسيون بطرابلس (الزركشي، تاريخ، ص 65)
البوقال تصغير : بويقلة	Bocal		آنية : ابن ناجي، IV، ص 129 .
الشيرانة	Sirena	717 هـ/ 1317 م VIIIهـ/ XIVم	صفاقتان : المختصر لابن عرفة، IV، 148 ب.
المركاض	El mercado	VIIهـ/ XIIIم	السّوق (ينظر الفصل السّابق)

II- زمن الكوارث والآفات :

اقتصر البدو " على المعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الانعام، على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الاحوال والعوائد. وهم " **الذين يتخذون البيوت من الشّعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير المنجدة،وقد يأوون الى الغيران والكهوف** "، ويأكلون قليلا من الأقوات " **بعلاج أو بغير علاج البتّة الاّ ما مسّته النّار** " .

أما الحضر، فقد تميّزوا " بأحوال الرفه والدّعة، وعوائد الترف البالغة مبالغها في التأنّق في علاج القوت وأستجادة المطابخ وأنتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والدّيباج وغير ذلك ، ومعالاة البيوت والصّروح وأحكام وضعها في تنجيدها " .

إنّ هذا الاختلاف بين الأسلوبين مردّه تباين في نمط الحياة واختلاف بين بساطة العمران وشظف الأحوال وسوء المواطن " والتفنّن في الترف واستجادة أحواله " .

على أنّ الانسان الوسيطي سواء أكان في المدينة أو في البادية ظلّ معرّضا لتأثير الكوارث الطبيعيّة والبيئيّة (1).

1) الجوائح الطبيعيّة:

تحكّمت نزوات الطبيعة وتقلّباتها الى حد كبير في الانتاج الزراعي ، وبالتالي في استقرار الريفيين، أو هجرتهم الى المناطق الخصبة ، وقد كانت هذه الآفات الطبيعية عديدة ومتنوعة، وهي في مصنفات العلماء: الجراد والنار والريح والغرق والبرد والمطر والعفن والطير الغالب والغبار المفسد والدود والحرّ والسموم وكل ما لا يستطاع دفعه . ولا شك أن جائحة المطر تتضمّن في الآن نفسه كثرتها وما ينجر عنها من سيول وفيضانات ، وقلتها وما يعني ذلك من جفاف (2).

ومهما كان نوعها، فان هذه الآفات الطبيعية تؤدي الى تغيير في المعاملات،وفسخ عقود الأشرية ، ولذا فقد فرق المشرع بين الثمار التي تقع فيها الجوائح، وصنفوها الى ثلاثة اقسام :

- ما اتفق على أن فيه الجائحه : وهو ماحتاج الى البقاء في أصوله لانتهاء طيبه مثل التمر والعنب والزيتون.
- ما اتفق على الا جائحة فيه، كالتمر اليابس والزّرع بعد يبسه .

(1) ابن خلدون ، **المقدمة**، ص 212، الجابري، **العصبية والدولة**، ص 402–405 . أحمد السعداوي، **الآفات والكوارث الطبيعية بالمغرب الوسيط (XI–XV)** ، تونس 1982 .

(2) ورد ذكر انواع الجوائح في مدوّنة سحنون، انظر : ابن عرفة ، **المختصر**، ج III ، ص 52 ب . ابن راشد ، **الفائق**، ج II ، ص 49 ب ، البرزلي ، **جامع**، ج II ، ص 102 ب ، القلشاني ، **شرح**، ج II ، ص 88 ب . ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 169 .

– ما اختلف فيه، وهو ما احتاج الى البقاء في أصوله، لحفظ نظارته، كالعنب يشترى بعد تمام صلاحه، والبقول والقصيّل والقرط والأصول المغيبة في الارض مثل الجزر والسلجم والفجل والبصل والثّوم (1).

ويحرّر عند حصول الجائحة عقد، على المنوال الذي أورد ذكره ابن راشد : « **يشهد من يتسمى بعد معرفة فلان المعرفة التامة، وانه ذكر لهم انه اشترى من فلان بتاريخ كذا تفاح جنته التي بموضع كذا، حدودها كذا بخمسة عشر دينارًا دراهم سكية عشرية، وذلك بعد أن بدا صلاحه، وأن المطر النازل أفسد معظمه، وان الطير قد استولى عليه وأكل أجوافه وتركه قشورا فارغة** » (2).

على أن الجفاف كان أكثر خطرا من بقية الآفات، اذ مثّلت المطر حدثا هاما في حياة الناس، حتى أرّخوا بها فقالوا مثلا سنة النوّة. وكثيرا ما تسبب الجفاف في كوارث حقيقية، عندما انعدم المحصول الزراعي، وقد ألتجأ المزارعون الى التسلّف، على أمل ارجاعه في السنة الموالية، مما يفسّر مبادرتهم بالحصاد قبل بلوغ الزرع أوانه، كما وقع بافريقية سنة 679 هـ / 1280م، اذ أجبر الناس على أكل القمح فريكا.

ولا يمكن اعتبار الجفاف جائحة، الا اذا أصاب ثلث الانتاج فأكثر، وعادة ما يوضح في العقد قليل المجاج وكثيره، سواء أكانت الثمار تشرب من ماء المطر أو العيون أو الآبار، وتحدد نسبة التلف، على هذا المنوال :

« **اشترى جميع المقثاة التي بجنته التي بموضع كذا.. وانّ العين التي تشرب منها قد غارت، فاّصفر لذلك ورقها، وفسد لأجله عقدها، وأن الذي فسد منها بالعطش نحو الربع..** » (3).

ومما له مغزاه أن فساد الزرع بجائحة لا يؤدي بالضرورة الى اعفاء المكتري للأرض من دفع الكراء. وعادة ما ينظر الى الصّابة المتوسطه، فما نقص منها نقص من الكراء نسبته (4).

وغالبا ما يؤدي الجفاف الى انتقال القبائل من مجالها، وشد الرحلة بحثا عن الخصب، ففي سنة 800هـ، أجبر بدو برقة على أكل العشب، والخروج من ديارهم، لكن كثيرا منهم فقد من جراء هبوب رياح رملية قوية، قال البرزلي الذي كان شاهد عيان لهذا الحدث :

(1) ابن راشد، **المصدر نفسه**، ج II، ص 150.
(2) المصدر نفسه، ج II، ص 53 ب.
(3) الزركشي، **تاريخ**، ص 45. ابن راشد، **الفائق**، ج II، ص 51 ب. ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص231.
(4) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 88 ب.

« **أخذتنا ريح بالاكرع، فيمشي الرجل، ثم يسقط ميتا من ريح أصابهم، يقال له ريح السديدا، وشاع وذاع أنه فقد من المحمل والتجريدة أزيد من ألف نسمة، وكذا فقد من الركب المغراوي والمغربي بشر كثير أيضا. ولما وردنا على أرض برقة مات من الركب ومرض شيء كثير، ومن فقد منه لم يظهر له خبر البتّة** » (1).

وبديهي القول إنّ صلاة الاستسقاء اقترنت بسنوات الجفاف وضعف الانتاج، وممّا يذكر في هذا الصّدد أنّ بعض العلماء فضّل عدم القيام بها، تحاشيا لردّ فعل العامّة وارتفاع الاسعار.

ب) زمن الطاعون الجارف :

ا) جذوره : ظهر الطاعون على أشده بعد نحو ستة قرون من الاندثار، وذلك انطلاقا من آسيا، لكن نقطة الانطلاق لم يقع تحديدها بصفة مدققة (2).

والارجح أنّ الوباء ظهر ببلاد الصين، وتحديدا حول بحيرة بالكاش، شمال منغوليا، ومنها تسرب عبر الطريق التّجاري الى بحر قزوين، فالقسطنطينية، وصولا الى الموانئ المتوسطية : ففي سنة 1347م كان بمسّينة، ثم أنتقل في السنة الموالية الى الموانئ وبيزا وجنوة ومرسيليا والبندقية والاسكندرية وتونس، وتوغل انطلاقا من المرافئ السّاحلية في دواخل البلاد (3).

وهكذا فقد اكتسح الطاعون المدن الساحلية أولا، ومنها تسرب في كل الاتّجاهات بنسق معتدل انطلاقا من ميناء الاسكندرية، مفضّلا الانتشار في فصل الحرارة، فيما الخافت في الشّتاء. ممّا يجعلنا نتخلّص الى نتيجة أولية، وهي أنّ المدن الساحليّة والتجمعات السهلية الموجودة على طول الطرق التجارية بافريقية كانت أكثر تضرّرا من الجبال المنعزلة والواحات الصحراوية ومجالات القبائل البدوية النائية التي ظلت خزّانا بشريا هاما. بمعنى أن الوباء جرف أساسا المناطق ذات النشاط التجاري الفاعل والكثافة السكانية الكبيرة (4).

(1) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 292 ب.
(2) ابن بطوطة، **رحلة**، ص 120. انظر ايضا : محمد الامين البزّاز، الطّاعون الأسود بالمغرب في القرن XIVم. **مجلة كلية الآداب**، الرّباط، عدد 16، ص 106.
Article la Peste In **Encyclopedia Universalis**. Biraben, **Les Hommes et la peste en France et dans les pays Européens et médit.**, Paris 1975, p.83 et suite.
(3) ذكر ابن خاتمة الاندلسي في مؤلفه : تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، (مخ) ان الوباء تسرّب من بلاد الصين، حسبما اخبره بذلك تاجر نصراني تحول الى سمرقند. انظر : Biraben op. cit., p. 46
(4) ذكر الزركشي (ص 147) وقوع الوباء بتونس سنة 857 هـ، و هروب السلطان الى توزر، ممّا يشير الى انّها كانت في مأمن من هذا الوباء.

ب) هاجس الخوف :

ويتضح لنا عدم دقة التعريفات واختلافها ، فهو ورم عند البعض ، وقرحة أو ذبحة قاتلة ، أو تآكل لأعضاء الجسم كالجذام عند البعض الآخر. ممّا يدلّ أنّها خلطت أحيانا بين الطاعون وبقية الأوبئة ، ولعل ذلك يفسر بكون أصحاب هذه التعريفات عاشوا قبل القرن الثامن الهجري ، أي في فترة لم تعرف انتشاره (1)

ومما لاشك فيه أن الصورة أدق لدى الذين عايشوه، من أمثال ابن خاتمة الاندلسي الذي عرفه بكونه « **مرض عام للناس قتّال غالبا عن سبب مشترك** » (2).

ولم يكن الطاعون الجارف لسنة 1348 م يمر دون أن يلقى اهتمام النخبة المتعلمة، فحبرت فيه الرسائل وكثرت حوله المصنفات، أولها رسالة ابن خاتمة المري الاندلسي ، المسماة : " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد " ألّفها سنة 749 هـ ، وذكر فيها أحكام الطاعون طبا وشرعا، وأشار الى الاجماع حول التداوي بالطب (3).

وروى ابن الخطيب في شرح الرسالة أنّ والده ألّف في الطاعون تأليفا يشتمل على خمسة أبواب ، وذلك عام 750هـ، ومما ذكره أن عدد الموتى بمدينة فاس بلغ 4000 في اليوم الواحد . وكتب ذو الوزارتين نفسه رسالة في هذا الوباء ، وهي « مقنعة السائل عن المرض الهائل » (4) .

وفي سنة 760 هـ ، ألّف أحد المشارقة كتابا في نفس الغرض ، سماه : « دفع النقمة بالصلاة على نبي الرحمة » . وظهر سنة 833 هـ مصنف ابن حجر العسقلاني : " بذل الماعون في فضل الطاعون " (5) .

ومما له دلالته أنّ أسئلة المواق (المتوفى سنة 897 هـ) وأجوبة الرصاع (ت 894 هـ) تضمنت 25 سؤالا ، من بينها سبعة تخص الطاعون ، جاءت في صدارة الرسالة لاهميتها . ولئن كنا لا نروم استعراض كل المصنفات التي ألّفت في هذا الغرض ، فالثابت أنّ هاجس الوباء كان له انعكاس على الانتاج الفكري والثقافي لذلك العصر ، فضلا عن التأثيرات الاجتماعية والسلوكية والديموغرافية والاقتصادية وغيرها .

(1) ابن حجر، **المصدر نفسه**، ص 17–18.
(2) رسالة من غرناطة من ابن المواق الى ابن الرصاع بتونس، مخطوط دار الكتب التونسية ، ص 11 ب .
(3) راجع : محمد البزاز، نفس الإحالة، ص 109 . الرصاع ،ن.م.، ص 123.
(4) الرصاع ، **الاجوبة** ، ص 152. ابن الخطيب ، **مقنعة السائل** . نشره مولر ، بيار 1736.
(5) الرصاع ، **ن.م.**، ص 121. توجد عدة نسخ مخطوطة من كتاب ابن حجر ، وقد اختصره كل من السيوطي (ت 911 هـ) والمناوي (ت 871 هـ) .

ج) أسباب انتشار الوباء :

وفي الجملة فانّ أهل العصر ذهبوا ثلاثة مذاهب : فمنهم من اعتبر انه ناجم عن فساد المياه والاطعمة والاهوئة ، الذي يؤدي الى تعكر الدم وتسمم الجسد . وذهب آخرون الى ربطه بأسباب غيبية ، وهي وخز الجن، بناء على حديث نبوي في هذا الشأن وهو ان « **الطاعون من وخز الشيطان** » ، فيترتب عن ذلك ما يقع بالمصروع. ووفّق رأي ثالث بين التفسيرين ، الطبي والميتافيزيقي ، معتبرا ان الطاعون نوعان : نوع من فساد الدم كما ذكر الاطباء ، وآخر من طعن الجان (1) .

وليس نادرا أن يقع ربطه بقيام الزلازل ونزول الامطار الغزيرة ، مثلما حصل سنة 1147 م . وذهب آخرون الى ربطه بالمجاعة، وارتفاع الاسعار ، وعلى سبيل المثال كتب ابن ابي زرع عن مجاعة ووباء سنة 694 هـ ما يلي : « **وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم** » . غير أنه لا يخفى علينا انه كما توجد مجاعات بدون أوبئة ، فان الأوبئة تقع دون ان تسبقها أو تعقبها مجاعات(2) .

واذا كانت الاسباب لم تقع بلورتها ، وظلت تدور في فلك العوامل الميتافيزيقية، فان الوقاية منه لم تكن أكثر حظا في تلك المجتمعات التي سيطر عليها الاستسلام والخنوع.

د) بين الفرار من الطاعون والاستسلام :

بما أنّ العلاج كان ميئوسا منه، فان السؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هو طرق الوقاية، حتى ان ابن المواّق خصّص القسط الأوفر من أسئلته للوباء ، ففي السؤال الأول استفسر عن كيفية الاحتراز منه، وفي الثالث طرح مسألة الفرار منه، وأعاد الأمر نفسه في شكل آخر في الرابع والخامس ، وخصص السادس لمسألة الدعاء والاجتماع مثل الاستسقاء .

وبناء على ذلك ، فقد عالجت أجوبة الرصاع هذا الامر بدقة، وتناولت الاجراءات الوقائية التي كانت تقتصر على الفرار منه. وكان الطبيب أبو العباس أحمد الصقلي يقول « هذه الامراض لا نستطيع طبها لانها تدخل على الهراقة . كل ما في الامر أن الادوية تبرد » (3) .

وجعل الاطباء العدوى في سبع علل وهي الجذام والجرب والجدري والحصبة والبخر والرمد والامراض الوبائية (4) .

(1) اسئلة ابن المواق .. المصدر المذكور ، ص 11 ب – 14 ب .
(2) ابن ابي زرع ، **روض القرطاس** ، ص 409 . اقترن طاعون سنة 847هـ بالزلزلة بتونس : الزركشي ، تاريخ ، ص 147 . اما المطر ، فليس مستبعدا انها تساعد على سرعة انتشار الوباء. راجع : بيرابان ، المرجع المذكور ، الفصل الثالث حول العوامل .
(3) ابن المواق ، ن.م. ، ص 124.
(4) المصدر نفسه ، ص 130.

على أن مسألة عدوى المرض لم تكن أمـرا محسوما في ذلك العصر، حـتى أن الفقيـ الاندلسي طرح السؤال على فقيه مدينة تونس، ذلك أن المرجعية النصية التي تستند اليـ كانت متضاربة بدورها : فـاذا كان الحديث النبوي الاول يذكر : **« لا عدوى ولا طيرة ولا صفر »** ، فان أحاديث أخرى حثّت على الفرار وعـدم مخالطة الموبوئين وأهمها : **« فر من المجذوم فرارك من الاسد »** ، **«لا يورد ممرض على مصح »** (1).

ولذا أجاب الرصاع : **« أجمعت الامـة على أن الفرار ليس بواجب ، وانما الخلاف هل هو جائز أو مكروه أو حرام »**. وقد كان الاطباء انفسهم يـأمرون بترك مخالطة المجذوم ، ليس تحاشيـا للعدوى ، بل خوفا من أن تسقم الرائحة الخـسيسة من واضبهـا. وتشير الرواية التالية الى التأرجح بين العقلية الاستسلامية والوقاية :

ذكر مـحمد بن مرزوق انه بعث رسـولا الى فاس، وكان الطاعـون في بعض البلاد الموجودة على الطريق ، فنزل القـائد الذي صاحبه بعـيدا عن البلدة، فقال أحـد النصارى بالبلدة : **« ما بال قـسيس المسلمين لم يدخل وأين توكّـلهم وقوة ايمانهم»**. ولما سمع ابن مرزوق ذلك ، قوي عزمه ودخل البلدة مع جماعة ، ولم يمرض أحد منهم (2).

واذا كان صاحب كـتاب المسند قد عاصر الطاعـون الجارف لسنة 749 هـ ، وتوفي سنة 781هـ، فان رواية مشابهة للسّابقة ذكرت سنة 803هـ، وكان بطلها شـخص آخر ، مما يجـعلنا نشك في صـحة الرواية التي أوردها الـرصـاع ، ونرجح الأولى التي جـاءت بأكثر دقة (3).

وثمة أحـاديث تذهب الى مذهب الصبر عـلى تلقي هذا الاذى، اذ ورد في هذا الصدد **"الصابر فيه له مثل أجر الشهيد"** ، **"لا تتمنوا لقاء العدو، واذا (لقيتموهم)، فاصبروا"** . وهو ما يأتي دليـلا على سلبية رد الفعل ، والشـعور بالعجز أمـام هول الكارثة، مما ألجأ الانسان الوسيطي الى البحث عن حلول غيبية ، مـثل الدعاء والتعبد والتصوف. ومما كان

(1) **المصدر نفسه** ، ص 125– 40 ب .

(2) **المصدر نفسه** ، ص 40 ب – 141 ، 144 ، أنظر أجوبة عيسى الغبريني والبرزلي والزركشي حول حكم حاضر بلد الطاعون (**ن.م**.، ص 56 ب – 157) .

(3) ورد في مخطوط اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة (مخ. رقم 15085) الرواية التالية على لسان المؤلف : " بعثني سلطان تلمسان رسولا الى سلطان فاس في عام 803هـ، وكان في العام المذكور وباء عظيم بالمغرب ، فلما انصرفت عن فـاس، بعث معنا رسلا له ، وصـحبهم نصـراني كان عندهم في سـفر، فوصلنا الى حـصن يقال له تاوزيرت، وكنا نحن متـاخرين عن الناس ، وكذا النصـراني وتقدم الخدمـة، فوجدناهم قـد ضربوا الاخبيـة خارج الحصن، والعـادة في المرور به ان يستغني الناس بالنزول فيـه عن ضرب الاخبيـة، وكان قصدهم بذلك الا يـقدموا بدخولهم الحصن على الوباء ، وكان ذلك باختيار منهم، فوافق غرضي ، فسأل النصراني : ما للناس لم يدخلو البلد . فقال له تـرجمانه ،لانه لم يكن يحسن العـربية : انهم فروا من الوباء . فصـدر منه ما قيل لنا انه قال مـا معناه : لا ينجيهم فرار وما قدر الله كائن لا محالة . فلما سمعت ذلك الكلام ، كسرني وتحيرت فيما أصنع ، فان مقتضى العلم على المشهور عدم القدوم ، وأنبت كل الانبة ، أن يظهر لمن لا علم له كـون الكافر أشد تفويضا لامر الله وأكثر ايمانا بالقدر ، فعرفت انها محنة ، فرجحت القدوم ، ودخلت (غير) اني لم آمر بما صنع النّاس ."

معمولا به بمدينة تونس الاعـتقاد أن قراءة صحيح البخاري وختـمة، أمر نافع ، حتى أن السلطان ذهب الى تحبيس كـتاب البخاري على جامع الزيتونة. ولم ينـج من هذا الاعتقاد كبار العلماء ، مثل ابن عرفة الذي كـان يعلم تلامذته الدعاء المعروف لهذا الداء، ويتضمن هذا الدعاء الفاظ أعجـمية غير مفهومـة. وكان ابن حجر العسقلاني قـد أعتمد بدوره على دعاء الشيخ ولي الله الملولي، الذي سماه : " **في جواز الدعاء برفع الوباء**" (1) .

وورد في تأليف بعض المصـريين سنة 760 هـ/ 1358، أن كـثـرة الصـلاة على النبي لدفع الطاعـون ، وكان النـاس قد أقـبلوا على العـبادة والتـذرع الى الله والتـوبة من ذنوبهم، والاكثار من الصدقات ، والذّبائح، في دمشق والقاهرة، اثناء وقوع الطاعون الجارف (2). والى جـانب أصناف التسـبيح والتكبـير التي أنتـشرت ، ذهب بعض الـفقهـاء الى استنباط أدعيـة للغرض، من ذلك مـا كتـبه الرصـاع عند حلول الطاعون بتـونس سنة 781هـ/ 1381م . وهو يأتي نموذجا للعقليّة السائدة في ذلك العصر، التي سيطر عليها الخوف (3).

ونتيجـة لهذه الأزمات المتتاليـة والاوبئة الدورية، كثر التذمـر من الزمان ، وسيطر الشعـور باقتراب نـهاية الكون، وساد الخـوف والرّعب ، مما ساعد علـى انتشار ثقـافة الطرق والزوايا في المجتمع، ولم تعد مقتصرة على بعض الفئات كما كان الامر في القرن السابع، انما شملت عديد الشرائح الاجتماعية، بما فيهم السلطان والفقيه، ولم يسلم كبار الفقهاء من عدواها، فابن قنفـذ الذي كتب في التاريخ والفلك وغيرها من العلوم، خصص تأليفـا لهذه الظاهرة الخطيـرة التي أجتـاحت بلاد المغرب انطلاقا مـن الغرب، ووصلت درجة هامة من التنظيم عصر ذاك، ولم يجد فقـه ابن عرفة الواسع من التخلص نهائيا من هذا التأثير، حتى انه كان يصرح بأعتقاده فـي بعض رموز هذا التيار، كما أن عقلانية ابن خلدون لم تشغلـه أو تصده عن تأليف كتـابه حول التصـوّف (4) .وفي الجملة فان كـتابات

(1) اسئلة ابن المواق ، المصدر المذكور ، ص 40ب ، 48 ب ، 119 ، 122. وكان محـمد بن الضريف قد روى ان أحد الرهبان نجا من الموت (ص 124) .

(2) **المصدر نفسه** ، ص 118. المقريزي ، **كتاب السلوك** ، القاهرة 1958، ج II ، القسم III ، ص 779 ، 781 .

(3) **المصدر نفسه** ، ص 18 ب . «ولما كنت عام ثلاثة وسـبعين بالمحلة المظفـرة وبلغني ما كان بالحـظرة العلية من الوباء، فتسـافرت نفسي، فكنت في كرب شديد، فـالهمني الله تعالى الى النظر في " تحفة الاخـبار في الصلاة على النبي المختار " ، وفي قـراءة : " تذكرة المحبين في أسماء سيـد المرسلين" (وهما) الكتابان اللذان ألفتهـما قبل ذلك، واتخذتهما عدة للشـدائد، فلازمت ذلك اياما، فلما كان في عواشر عيد الاضحـى، الهمني الله تعالى الى جمع خمس مائة صفة من صفات النبي (ص)، وأسمائه ، وكل واحد منها بختم ، بعد ذكره بالصلاة عليه أو البركة أو الرحمة أو التحية أو السلام ، وكل مادة من الصفـة مذكور فيها واحد مما ذكر مع الدعاء بـعد الختم. وبعث بذلك الى الحضرة العالية، لدار الشـيخ سيدي محـرز بن خلف، نفع الله به، يقرأ هنالك في كل جـمعة، فكان في ذلك بركة عظيـمة، لنا ولاهلنا وللمسلمين ...» .

(4) ابن قنفذ ، **انس الفقير وعز الحقير** .

العصر قد تأثرت سلبا بنتائج هذه الأزمات الاجتماعية، حتى انزلق الكثير منها في الشعوذة والدعاء والماورائيات (1).

3)الوهن الديموغرافي :

بدءا بالطاعون الجارف، أصبحت حركة الوباء تجتاح بلاد المغرب بصفة دورية، بعد كل عشرة أو خمسة عشر سنة في المتوسط (2). غير أن هذه الهجومات الوبائية اختلفت قوة وضعفا حسب الظرفية، وقد تفطن المعاصرون لذلك ، حتى أنهم فرقوا بين الوباء الذريع، وهو الذي يذهب بكثير من الناس مثل النصف أو الثلث، والوباء الخفيف ذي الانتشار المحدود (3).

وما أن ظهر الطاعون الجارف، حتى بدت عواقبه الوخيمة جلية وشملت كل مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية والسياسية والثقافية وغيرها ، واعتقادنا أن هذا العامل كانت له فاعلية كبرى في التحولات التي شهدها العالم عامة، وبلاد المغرب على وجه الخصوص، وهو ما سنحاول ابرازه فيما يلي .

– التأثير الديموغرافي : مما لا شك فيه أن طاعون سنة 748هـ شمل كامل بلاد المغرب، بمدنها وأريافها ، " **وعم الموتان أرض افريقية باسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموتى وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها.. وماتت المواشي بأسرها** " (4) . غير أن الجبال والواحات الصحراوية كانت أقل تضررا من المدن الساحلية والبلاد الواقعة على طول المسالك التجارية ، وثمة عدة مؤشرات تبين ذلك:

---

(1) ابن خلدون ، **شفاء السائل** . جاء على لسان ابن عرفة : " ما ادركت مبرزا الا شخصين : سيدي أبو الحسن المنتصر بتونس وسيدي أبو العباس بن عاشر بسلا " (القلشاني، **شرح** ، جII، ص 156 ب) . اسئلة ابن المواق، ص18ب . قال الرصّاع في مقدمة كتابه : "تحفة الاخيار في فضل الصلاة على النبي المختار " :
" كان من منّة مولاي سبحانه علي أن الهمني في هذا الشهر المبارك شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن عام 869 هـ أن أتقرّب الى الله عز وجل بهذا التاليف المبارك، واتشفع به من حصول الخزي والهوان، واتحصن به من آفات الزمان، واصيره عدة وعمدة للشدائد...ولن ياتي آخر هذه الامة بافضل مما اتى به أولها ، ولكن قصدي تلخيص ما في ذلك من أخبار ..سيما في آخر الزمان الذي قلت فيه من مثلي الاعمال ، واقبلت النفوس فيه على جمع حطام الاموال واعرضت عن يوم شديد الاهوال، وقست القلوب وغفلت عن اطلاع علام الغيوب، وقل الاخلاص بالاعمال "
(2) قال الوزان (**وصف افريقيا** ، ج ا ، ص 68) : " ويظهر الوباء في بلاد البربر على راس كل عشر سنوات او خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة. وعندما ياتي يذهب بالعديد من الناس، لانه لا يهتم به احد ... ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة، ولم يظهر في أرض السودان". وأورد المقريزي (**كتاب السلوك** ، ج II ، القسم الثالث ، ص 77) : " ويقال ان هذا الوباء اقام يدور على أهل الارض مدة خمس عشرة سنة " . واحصى بيرابان (بين سنتي 1347 و 1534) : 17 هجمة رئيسية للوباء ، و4 ثانوية ، أي بمعدل واحد كل سنة ، أو كل 9،4 سنة ، يفصل بين الواحدة والاخرى : من 6 الى 33 سنة .
(3) البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 292 ب .
(4) المقريزي ، **السلوك** ، ج II ، القسم 3 ،ص 777 .

– قال الوزان: الوباء يظهر ببلاد البربر كل 10–15 سنة ، بينما لم يظهر بنوميديا (بلاد الواحات) منذ مائة سنة .

– في سنة 758هـ/ 1453م، انتقل السلطان الحفصي الى توزر، حتى يكون في مأمن من الوباء الذي حل بتونس .

– انّ تمرّد بلاد الجريد على السّلطان طيلة النّصف الثاني من القرن الثامن هـ/ XIVم قد يدلّ على أزدياد الاهمية السكانية لهذه الجهة، فيما كانت تشكو بقية البلاد الوهن الديموغرافي (1) .

وبالتالي كانت البلاد الساحلية وخاصة مدينة تونس من الجهات الأكثر تضررا ، نظرا الى قوة الكثافة السكانية بها. وبلغ عدد الموتى بالحضرة يوميا ألف شخص، بمعنى اذا ما سحبنا هذا الرقم طيلة شهر كامل، فاننا نصل الى رقم ثلاثين ألفا، وهو ما نعتبره رقما أدنى في طاعون 748هـ، مقارنة مع ما وقع بالمشرق، ففي القاهرة كان يموت ما بين عشرة وعشرين ألفا يوميا ، حتى بلغت مدة شهرين تسعمائة ألف، وفي دمشق بلغ عدد الموبوئين ألفا ومائتي إنسان في اليوم وفي حلب : خمسمائة انسان، وبلغ عدد الموتى بغزّة 22 ألف شخص. أما في فاس ، فقد بلغ عدد الموتان : أربعة آلاف (2) .

ومن الملاحظ أن رقم ألف بالنسبة إلى مدينة تونس ذكر مرة ثانية سنة 788هـ/ 1468م، طيلة عدة أشهر اذ قال البرزلي : " **في ذي القعدة ابتدأ الوباء بتونس، ولم يزل يتزايد الى شوال من عام 873هـ، حتى بلغ ألفا كل يوم، ثم ارتفع في ذي الحجة مقتبل العام** " . واذا اخذنا بقول ابن ابي دينار، فان عدد الموتى بلغ 14 ألف كل يوم ، حتى وقع احصاء نحو 400 ألف، اضافة الى مائة ألف أخرى لم تدخل الاحصاء، وهو رقم مبالغ فيه بدون شك (3) .

وفي الجملة فان هذين الوبائين يتعادلان في الخطورة، وفي أهمية الموتان، التي تعد بعشرات الآلاف، وبنسبة تتروح بين النصف والربع للعدد الجملي للسكان، وهو ما يمثل مقعرا سحيقا في الخط البياني الديموغرافي للمدينة خاصة وبلاد افريقية على وجه العموم ، وان كانت المعلومات تنقصنا حول تضرر البوادي من هذا الطاعون . ونقتصر في هذا الصدد على بعض الاشارات العامة التي تشير الى خلاء البادية من أهلها ، حتى بقيت أموال الاعراب سائبة لا تجد من يرعاها من جهة ، والى هجرة بعض القبائل العربية

---

(1) الوزان ، ن.م. ، ج ا ، ص 68 (راجع الهامش الاول) . الزركشي ،ن.م. ، ص 147 .
(2) وردرقم الالف بالنسبة لتونس في ابن خلدون ، التعريف، ص 19 . ابن أبي دينار، **المؤنس** ، ص 147 حول الارقام بالمشرق ،انظر : المقريزي ، **السلوك** ، ج II، القسم 3 ، ص 772 ، 775 ، 779 ، 783 ، حول فاس ، راجع : **مسالك اندلسية** ، ص 152
(3) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 158 . ابن دينار ، **المؤنس** ، ص 158 .

الأخرى من افريقية الى الاندلس طمعا في الاموال، لكنه لم ينج منهم الا القليل، ومات أكثرهم وباء (1).

وبالتالي، فان الخطب الجلل عمّ بدرجات متفاوتة، المدن والارياف، وكانت له نتائج وخيمة على عدة مستويات ديموغرافية منها الزواج، والولادة، وانتقال السكان من المناطق الاقل تضررا مثل الجبال والواحات الى المدن، وتعرض بعض الحرف والمهن، فضلا عن انعكاساته على الوصايا والارث وانتقال الملكية وغيرها.

– التأثير العمراني والاجتماعي: أصاب العمران ما حل بالعباد والاقتصاد، فخلت المنازل، وأندثرت عدة قرى، وخاصة بالبلاد الساحلية، ونعتقد في هذا الصدد ان انقطاع الخبر عن عدة قرى مرده هذه المجاعات والأوبئة، التي فتكت بتجمعات سكنية بأكملها، وأجبرت من تبقى منها على شد عصا الترحال والفرار، ولا يستبعد أن يكون هذا العامل هو العامل الأساسي في التراجع الحضري لبلاد افريقية، وحسبنا في ذلك شهادة ابن خلدون (2).

ولم يقتصر الامر على القرى، انما كان المشهد العمراني أكثر تأثرا بالمدن، ويكفي أن نقرأ المصنفات التي كان أصحابها شاهدي عيان حتى نتبين حجم المأساة، فقد أهملت العمائر المخزنية بمدينة تونس وتحولت بعض الأحياء والارباض الى خرائب (3).

أما على المستوى الاجتماعي، فان عددا كبيرا من الحرفيين قد هلك، فانحسرت المهن والصنائع داخل المدن، وأهملت المزارع والغروس، وهو ما يفسر اقتران الطاعون بالجوع، فقد اشتد الغلاء سنة 749هـ، أي بعد سنة من دخول الوباء، حتى بلغ قفيز القمح ثمانية دنانير (4).

وابتداء من تلك الحقبة، أصبحت افريقية تشكو من نقص في عدد المزارعين وعمال الفلاحة، وظل الأمر على هذه الحال الى حد نهاية العصر الوسيط، اذ ذكر الوزان أكثر من مثال على ذلك: فالقصبة (فحص ابي صالح سابقا) أصبحت أراضيها غير مزروعة، كما أضحى عدد الناس ببادية باجة لا يكفي للزراعة، حتى أهملت كثيرا من الاراضي وأصبحت بورا (5).

واذا كانت الفئات الشعبية تبدو أكثر تضررا من غيرها، فان المتفحص في قائمة الوفيات من العلماء والخاصة يلحظ أن الطاعون لم يستثنيهم. ولذا فانه يتعين علينا الانطلاق من هذه القائمات، لرصد مدى تأثير الوباء على هذه الفئة الاجتماعية.

(1) المقريزي، **السلوك**، ج II، القسم الثالث، ص 777.
(2) راجع الفصل الاول، حول العمران الحضري.
(3) انظر مثلا البرزلي، **جامع**، ج II، ص 1264.
(4) ابن أبي دينار، **ن.م.**، ص 147.
(5) الوزان، **ن.م.**، ج II، ص 66، 67.

مقارنة بين الدورة الوبائية بفرنسا وبافريقية

	فرنسا		افريقية	
الرقم	الهجمة الوبائية	التراجع	الهجمة	التراجع
1	1348	1353-57	1348	1352
2	1361	1364-68	1363-64	
3	1369	1370-72		
4	1374	1377-79	1374	
5	1382	1385-86		
6	1390	1396	1393-94	
7	1400	1403	1400-1402	
8	1412	1419	1413	
9	1420 . 26 . 33	1423 .31 .36-38		
10	1439	1444-48	1443	
11	1452	60,1453	1453	
12	1464 . 72	1467-71	1467-68	
13	1482	1487		
14	1494 . 98 . 1502	1496.1500.1504	1493	

عرفت فرنسا بين سنتي 1348 و1504، 14 هجمة وبائية بطريقة دورية متوازنة، أي بمعدّل هجمة كلّ 11,1 سنة. ويتراوح اقصاها بين 6 و13 سنة.
وفي افريقية، بلغ المعدّل: هجمة كلّ 14,5 سنة ويتراوح اقصاها بين 19 سنة و7 سنين. وقد تأخر انتشاره بافريقية عن فرنسا. ولم تصل إليها كلّ الموجات الموجودة بأوروبا.

الكوارث الطبيعية والآفات

التاريخ	مجاعة	ارتفاع اسعار	وبـاء	جفاف	جراد	ريح	برد سيول	ظاهرات أخرى	المصادر	مقتطفـات
537–542 / 1142–1147	+							أدامة	التادلي، التشوّف، ص 183	(طرد الجوع الناس من البادية الذين التجأوا إلى المدينة التي لفظتهم. ظاهرة الادامة)
571 هـ/1175م			+						ابن أبي زرع، روض، ص 171	كان الطاعون الشديد بمراكش وأحوازها
599–600 هـ/ 1202–1203 م	+								مناقب، مخ 12441، ص 153	كان أبو علي سالم التباسي يسير في موضع عامر، وهذا أيّام مجاعة افريقيّة . وصل الزيت فيها نصف دينار الرّطل قبل سنة 600 هـ
602هـ/ 1205 م	+	+			+				ابن أبي أصيبعة، عيون الاطباء، ج III، ص 127	"كنا في تونس مع النّاصر وكان في العسكر غلاء وقل وجود الشعير" وكانت قيمة عشر امداد من الشعير : 50 دينارا.
607–609 هـ/ 1210–1212 م	+	+			+				ابن عذاري، البيان، ج III، ص 259	"تنوّع المسبغة وانتشار المجاعة وتعذّر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه في أسفارهم القاصيات (بالمغرب الاقصى).
614–617 هـ/ 1210–1212م		+			+				ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 54	وفيها (617 هـ) ابتدات المجاعة والغلاء والقحط وكثرت الفتن وعم الجراد جميع بلاد المغرب والاندلس»
616 هـ/ 1219 م									ابن عذاري، ن.م. ج III، ص 266 – 267	«وفي سنة 616 هـ، كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الضاعن والمقيم وتناهى الحال في مزيد السّعر الى مالا نهاية له»
626هـ/ 1228م	+		الطاعون						مناقب 18441، ص 120 / مخ 677، ص 13	«دخلت (أبو الحسن الشاذلي) مدينة تونس وأنا شاب صغير، وجدت فيها مجاعة شديدة ووجدت الناس يموتون في الاسواق/ دخل الطاعون الى قرجانة.
635هـ/ 1237م	+	+	+						ابن أبي زرع، ن.م.، ص 255	«غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد ووصل قفيز القمح 30 دينار»
=	+								ابن ابي دينار، المؤنس ص 127	«وباء وغلاء مفرط بحيث انه بلغ قفيز القمح 80 دينارا»
646هـ/ 1248م	+								مناقب الشاذلي، ص 36–37	رسالة ابي الحسن من مصر إلى أهل المسروقين «واما ما ذكرت من السّعر في البرّ والبحر، فلا تعوّلوا على البرّ شيء من أمرين : الجوع والخوف. فقد بلغت الويبة ببرقة مبلغا شديدا شاقا وقلما يوجد الطعام»

التاريخ	مجاعة	ارتفاع اسعار	وبـاء	جفاف	جراد	ريح	برد سيول	ظاهرات أخرى	المصادر	مقتطفـات
656هـ/ 1258م			مرض						ابن الشماع، الأدلة ص 121	شغل الناس بتونس وغيرها مرض»
669هـ/ 1270م	+	+	+						ابن خلدون، تاريخ، ج VI، ص 211 ابن الشماع، ن.م، ص 67	«غزو النصارى لتونس لما كان فيها من المجاعة والموتان»
679هـ/ 1270م	+	+			+				ابن أبي زرع، الأنيس، ص 405	وفيها كان الجراد ببلاد المغرب، اكل جميع زروعها فلم يترك بها مخضراء
=									البادسي، المقصد، ص 178 الزركشي، تاريخ، ص 45	«تسلط الجراد على بلاد المغرب فألتهم الاشجار والمزروعات، وبلغ ثمن صاع القمح 10 دراهم وأصبح في العام الموالي 4 دنانير». «اكل القمح فريكا ثم عدم في سنبله»
687–690 هـ	+	+				+			ابن أبي زرع، الانيس، ص 408	«وفي اواخر 687، كانت الريح الشرقية المتوالية والقحط الشديد وتوالى ذلك الى آخر عام 690 هـ
693هـ/ 1294م	+	+	الوباء العظيم						ابن أبي زرع، ن.م.، ص 409 ابن الطواح، 71	
694هـ/ 1295م								كسوف شمس	ابن أبي زرع، نفس الاحالة	«كانت المجاعة الشديدة الوباء العظيم بالمغرب وافريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير وبلغ القمح 10 دراهم للمدد الدقيق 6 أواقي بدرهم. ثم دخلت سنة 694 فيها صلح أمر الناس ورخصت الأسعار» "كثرة الوباء بقابس" ... قرية أجاس مستوباة
706هـ/ 1306م	+		+	+				ادامة	التجاني، رحلة 179–181	:ان ركبا فيه نيف على 700 نسمة جاء من برقة (إلى طرابلس) وأنّه لم يخلص منه حاشا مائة أو نحوها، وانّ سبب ذلك انهم لم يجدوا هنالك ما يقتاتون به حاشا لحوم الحيّات فعدا عليهم سمها فاهلكهم. وصحّ لدينا من هؤلاء الذين خلصوا انهم كانوا يمرّون في كثير من أرضها بالاحياء والخيام فيها مضروبة، وجميع من في تلك الخيام موتى من رجال ونساء وأطفال إلى غير ذلك ممّا يحكونه من بيع مائتي في تلك الاحياء من الأحياء للنّاس وأكلهم للحومهم.
723–724هـ/ 1323–24م		+				+	+		ابن القاضي، درة الحجال، ج III ص 324	"كانت أمطار عظيمة ببلاد المغرب وثلوج كثيرة، فعدم فيها البياض والحطب" في هذه السنة (724 هـ) كان غلاء عظيم بالمغرب تمادى ثلاث سنين" (رياح، اعصار، مطر وابل، ببرد كبير الجرم).

748-750هـ/ 1347-49م	+	+	طاعون						ابن بطوطة، رحلة ابن مرزوق، المسند، ص 265 ابن قنفد، أنس، ص 47 ابن خلدون، ن.م.، جI، ص 197	"إيّام الوباء العام"
=									51، 55 التعريف، ص 55،19	"يموت ألف شخص يوميا"
=									المقريزي، السلوك، ج II، ص 777	"عم الموتان أرض افريقية."
=									البرزلي، ن.م، جII، ص 1264 جIV، 1355	الوباء الأوّل
=									ابن ناجي، معالم، ج IV ص 120، 148، 211 الونشريسي، المعيار، ج V، 86-90 السيوطي، شرح الصدور ص 198	الوباء بافريقيّة
=									ابن أبي دينار، المؤنس، ص 147 مسائل أندلسيّة، ص 123، 152	"واشتد الغلاء حتى بيع قفيز القمح بثمانية دنانير وكثر الوباء حتى انتهى عدد الاموات إلى 100 شخص كل يوم" ألّف ابن خاتمة كتابا في الطاعون 749 هـ، وكتب والد ابن الخطيب تأليفا في الطاعون في خمسة أبواب سنة 750 هـ.
755هـ/ 1354م		+							الزركشي، ن.م. ص 95	"ارتفع سعر الطعام بتونس الى ان بلغ سعر القفيز من القمح 11د. ذهبا والشعير الى النصف من ذلك"
765-66 هـ			+						البرزلي، جامع، ج1، ص 251	وقع الوباء بتونس
									أجوبة الرصاع على أسئلة ابن المواق، ص 117	وباء عظيم بالقاهرة سنة 760 هـ. 766 هـ: نزل بابن تافرجين ما نزل بالنّاس من الطاعون»
=				+					نفسه، ص 17ب، 121	تاليف لأحد المصريين حول الطاعون: «دفع النقمة بالصلاة على نبيّ الرحمة»
776هـ/ 1374م	+								ابن الشماع، الادلّة	"المجاعة العظيمة"

796هـ/ 1394م		[illegible]							الأبي، الاكمال، ج 6، ص 34	"وكان وقع الوباء بتونس سنة 796 هـ وأنا ساكن بمدرسة التوفيق ومدرّسها الشيخ، شيخنا أبو عبد الله محمد بن عرفة، أول من مات بها أحد الطلبة السّاكنين بها، وكنا شرعنا في قراءة الصيّف. فأمتنع الشيخ من المجيء، فأرسلني اليه أهلها، وكانوا طلبة خيارا متطلبين متديّنين. وكنت أحدثهم سنّا. فاتيت الشيخ، فعرضت له بالمجيء، فقال: أليس الوباء قد وقع عندكم، وذكر لي أحاديث في النهر عن القدوم وحديث «فرّ من المجذّوم فرارك من الأسد. ثمّ أنّه سخّره الله وأتى وجدّ في الاقراء في ذلك العام»
799-800م	+	+	+			+			البرزلي، ن.م، ص 292 ب	ريح السديد ببرقة، مرض، موت عدد كبير، انتقال الى الغرب.
803هـ/ 1400م			+						اغتنام الفرصة 120	وباء عظيم.
805هـ/ 1402م									ابن قنفد، الفارسية ص 199	"وفي هذه السنة، وقع الوباء بتونس وجهاتها"
812 هـ/ 1409 م			+						البرزلي، جامع، ج III ص 1107	حملت السّيول الزّيتون وألقته في أملاك أخرى، كما حملت بيوت الشعر وغيرها عند فيضان وادي مجردة.
816هـ/ 1413									ابن القاضي، درة الحجال، ج III، ص 15	مجاعة بفاس مات فيها عدد العلماء. وفي عام 833 هـ، ألف ابن حجر العسقلاني بذل الماعون في فضل الطاعون.
847 / 1443م	+								الزركشي، ن.م، ص 141	في أوائل عام 847 هـ، كان الوباء بتونس ونواحيها..
850 / 1446									الزركشي، ن.م، ص 142	يوم الخميس 12 صفر من العام وقعت الزلزلة بتونس قرب الزوال.
857هـ/ 1453م			+					+	الزركشي، ن.م، ص 147	وفي جمادي الأولى المذكور، وقع ابتداء الوباء بتونس، فانتقل المولى السلطان من القصبة الى سانية باردو ثم انتقل منها الى سانية توزر
860هـ/ 1455م							+			فوقع بتونس في الشهر المذكور (رجب) ريح قلع كثيرا من شجر الغابة ثم وقع في أواسط شوّال مطر ببرد قدر بيضة الدجاجة وأكبر من ذلك
862هـ/ 1455م	+	+							الزركشي، ن.م، ص 150	وفي أوائل العام المذكور، أصاب الناس بتونس غلاء في الطعام بلغ قفيز القمح 4 د. ذهبا والشعير على الشّطر من ذلك. فشكى الناس قلة الطعام

										وغلاءه للسطان. فأمر بان يخرج من المخزن في كلّ يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرّق بتونس بباب ينتجمي، فابتدى بتفريقها في 3 ربيع الثاني ودام الى رجب حتى كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه.
866 / 1461م		+								وقع الغلاء الكبير في عسكر السّلطان الحفصي عثمان
871–73هـ/									ابن مريم، البستان، ص 224	كان الطاعون بالمغرب الاوسط سنة 871 هـ.
1467–68م									الزركشي، ص 158	في ذي القعدة عام 872 هـ ابتدأ الوباء بتونس ولم يزل يتزايد الى شوّال من عام 873 هـ حتى بلغ ألفا كلّ يوم ثم ارتفع في ذي الحجة مكمل العام
=									ابن عبد الباسط، ص 136، رحلة ص محمد الملالي، المناهب القدسيّة في مناقب السّنوسية، ص 13 ب	وفني في هذا الوباء جماعة كبيرة من أهل المغرب وخلت الكثير من الدّيار ونجوع العرب
=									الاجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطيّة، ص 18 ب	ولّما كنت (الرصّاع) عام 873 بالمحلّة المظفرة، وبلغني ما كان بالحضرة العليّة من الدّاء، فتصاغرت نفسي فكنت في كرب شديد، فالهمني الله إلى النظر في تحفة الأخيار في الصلاة على النبي المختار" وفي قراءة : "تذكرة المحبين في اسماء سيّد المرسلين" وهما الكتابان اللّذان الفتهما قبل ذلك، واتخذتهما عدّة للشدائد. فلا زمت ذلك أيّامـا. فلما كان في عواشر عيد الاضحى الهمني الله تعالى الى جمع 500 صفة من صفات النبي (ص) واسمائه كل واحد يختم بعد ذكره بالصلاة عليه أو البركة أو الرحمة أو التحنّن أو السّلام... مع الدّعاء بعد الختم. وبعث بذلك للحضرة العليّة لدار الشيخ سيدي محرز بن خلف. نفع الله به يقرأ هنالك في كل جمع، فكان في ذلك بركة عظيمة لنا ولأهلنا المسلمين.
895هـ / 1489م			+						ابن أبي دينار، ن،م، ص 158	وفي سنة 873 هـ عظم الوباء بتونس، قيل أنه بلغ عدد الموتى به الى 14 ألف كلّ يوم، وحصر في الزّمام: 400 ألف عدا من لم يدخل في الزمام نحو المائة ألف.
898–99هـ/ 1492م									السراج، الحلل، ج I ص 1090	وباء عظيم مات فيه خلق كثيرون
نهاية IX									الوزان م، ج I ص 59	زهري لم ينجح منه إلا القليل

III - زمن الشدّة :

1) الهجرة من البادية إلى المدينة :

ساعدت الظروف الاجتماعيّة السيّئة السائدة بالبادية من اضطرابات وأزمات دوريّة على الخروج من القرى والمداشر والاستقرار بالمدن. وبالتّالي فقد كان منحى الهجرة، كما أقرّ ذلك ابن خلدون، في اتجاه واحد من البادية نحو الامصار. قال: **«وممّا يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدّم عليه أنّا إذا فتّشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أوّليّة أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنّهم أيسروا فسكنوا المصر»**.

على أنّ الأمر لم يقتصر على الهجرة من مجال الى آخر، انّما نجم عن هذا المسار إخلاء عديد القرى، وتضخّم عدد البطالين والبؤساء بالمدينة : وفيما يخصّ الظاهرة الاولى، كان ابن الشبّاط شاهدا على هذا التطوّر السّلبي للخارطة الحضريّة بالبلاد، وقد قال في ذلك **«سمعتُ من يقول انّه كان بافريقيّة مائة ألف حصن ومائتا قصر ومدينة، وان ملكها إذا أراد الغزو بعث الى كلّ حصن، فيأتيه منه فارس ودينار، فيجتمع له مائة ألف فارس ومائة ألف دينار، ولا ينقص من بلاده شيئا. ومن تأمّل آثار المدن والقصور الخربة بافريقيّة وتداني بعضها من بعض، رأى من ذلك ما يقضي منه العجب ويستدلّ به على عمارتها في السّالف، وكذلك الشعاري التي بها اذا تأمّل أشجارها رآها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبئ أنّها مغروسة لانباتيّة، ويقال ان ما فيها الآن بطم انّما يكون فستقا، وانّما استحال الى الصّغر والى طعم آخر لطول ما أتى عليه من السّنين، ولا شكّ أنّ من أكل البطم أخضر وجد طعمه كطعم الفستق** " (1).

وبديهي القول، إنّ التمدين (urbanisme) عرف منعطفا خطيرا ابتداء من القرنين الخامس والسادس هـ تمثّل في حركة النزوح من البادية الى المدينة. ولم تكن لسلاطين بني حفص خطة تذكر في هذا المجال. زد على ذلك، فان كتابات العلماء لم يكن هاجسها اقامة توازن بين المدينة والبادية، بل على العكس من ذلك أنبرى كبارهم محرّضين على الهجرة من البادية حيث الأعراب المحاربون الى المدينة، من " دار الكفر " الى " دار الاسلام "، من ذلك أنّ ابن عرفة شجع المرابطين الذين يتعاملون مع البدو على ترك قراهم والاستقرار بالمدينة، حتى يحصل فك الارتباط بينهم وبين البدو (2).

1) ابن الشباط، **صلة السمط**، ج IV، ص 121.
2) ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 209 ب.

وممّا زاد أزمة البادية أستفحالا الاحترازات العديدة التي أبدتها المدينة في التّعامل معها (1).

والحقيقة أنّ الهجرة من الوسط والجنوب في اتّجاه التّلول ظاهرة قديمة، أوردت المَصَادرُ ذكرها منذ العهد الأغلبي. فقد تعوّد المزارعون ببلاد السّاحل على التحوّل الى سهول تونس وسطفورة وباجة في سنين الشدّة (2). كما دأب سكّان جنوب شرقي افريقيّة على الهجرة الى "افريقيّة" أثناء هذه الظرفيات الحرجة (3).

على أنّ الهجرة في العهد الموحدي- الحفصي اختلفت دوافعها وطريقتها، إذ غالبا ما أقترن الجوع بازدياد الاضطرابات الاجتماعيّة وأنعدام الأمن. وهوما دفع عدد كبير من أهل القرى الى التفريط في ملكياتهم والاحتماء بأسوار المدينة.

وقد أدّت سيطرة القبائل البدويّة على السهول الى تضييق الخناق على سكّان الجبال في مواطن نفوسة ودمّر ووسلات وبرقو والسّرج والأوراس، وإجبارهم على الخروج من معاقلهم التي لا تتوفّر فيها لقمة العيش الاّ بصعوبة، خاصّة بعد أن تراجعت التجارة الصّحراوية بالنّسبة لأهل نفوسة ودمر، وازدادت الهجرة الى المدن الكبرى مثل تونس والقيروان وبلاد السّاحل.

---

(1) الونشريسي، **المعيار**، ج XI، ص 436. هذه المسألة التي طرحت على أبي عبد اللّه المازري توضّح ذلك؛
« قيل له فيما اضطرّ النّاسُ اليه في هذا الزمان والضرورات تبيح المحضورات من معاملة البدويين الفقراء المحتاجين في سنين الجدب، وذلك انّهم محتاجون الى الاقوات من الطعام ويشترونه بالدّين الى الحصاد أو الجذاذ، فاذا حل الأجل قالوا لغرمائهم ماعندنا الاّ الطعام، وما نقدر على ذهب، وربّما كانوا صادقين في ذلك، فيلتجئ أرباب الديون الى أخذه منهم خوفا إن تركوه في أيديهم أن يذهب منهم بالأكل وغيره لفقرهم ولاضطرار من كان من أرباب الديون حضريا من الرجوع الى حاضرته ولعدم الحاكم هنالك، مع ما في المذهب في ذلك من الرّخصة ان لم يكن في ذلك شرط ولاعادة، وإباحة كثير فقهاء الأمصار لذلك، وغيره من بيوع الآجال خلافا لما في القول بحماية الذرائع ».

(2) أبو العرب، **طبقات** ص 123.

(3) الشماخي، **السيَر**، ج ا، ص 153،125، تزخر كتب تراجم الخوارج بالاشارات الى هذه الظاهرة منذ الحقبة الأولى: فهذا أبو ميمون " ارتحل من قحط " وشدّة، فنزل بافريقية " وقد أجبر على أكل الميّتة دون أن يمسس مال الوديعة. والآخر خرج أهل منزله الى افريقيّة، على اثر شدّة وقحط، ولكن ما ان نزلت المطر وعمّ الخصب حتى قفل راجعا.

فتحوّلت من جبل نفوسة ودمّر إلى مدينة تونس مجموعات هامّة للعمل بها في الافران والحمامات وغيرها، وشهد الوزان بأنّ أهلها يحذقون صناعة الخبز، متفوّقين في ذلك على بقية البُلدان (1).

وقد ذكر البعض منهم بسهل القيروان منذ القرون الأولى، حيث أستقروا بباطن القرن وبقلوط، بين سوسة والقيروان وفي المدينة نفسها، وتواصل نسق الهجرة في العهد الحفصي، ولم تقتصر على " العامة "، انّما شملت كذلك العلماء. ومحنة الفقيه أبي الربيع سليمان بن سالم النفوسي البربري (المتوفّى سنة 766 هـ/ 1364 م) تقوم حجّة على ذلك: فقد وجد صعوبة في الاستقرار بالمدينة لاتّهامه بكونه زكراوي المذهب مخالفًا لأهل السنّة. فأمتحن في ذلك. على أنّ البعض استطاع التكيّف أكثر وتولّي المهام، من ذلك عبيد بن يعيش الغرياني، الذي تحوّل من الجبل الى رباط المنستير، ثمّ استقرّ بزاوية الجديدي، وأصبح شيخها الى حدّ وفاته سنة 805 هـ (2). كما هاجرت مجموعات نفوسيّة ودمّرية الى سواحل افريقيّة، وخاصّة من اليهود الذين تحوّلوا من الجبل الى صرمان ودرنة حيث أهتموا بالتجارة، والى دخلة عكارة (جرجيس) وجربة حيث ورد ذكرهم منذ القرنVII /XIIIم وخاصّة خلال القرن IX هـ/XV م (3).

وفضلاً عن وجود إشارات عديدة في مستوى الطوبونوميا " مرتبطة بنفوسة ومزاتة بالسّاحل التونسي، مثل النفوسيين (بمنزل كامل) ومنزل المزاتين (بالجزيرة القبليّة)، وهي مرتبطة بهجرة غير محدّدة زمنيا، فانّ هذه الهجرة اتّخذت احيانا طابعا فرديا، مثل تلك المرأة القادمة من جبل نفوسة، والتي استقرّت بصفاقس طيلة سنة ونصف، قبل أن تطالب القاضي بتزويجها (4).

ومن جهة أخرى، مثّلت بلاد هوّارة قطبا نابذا، إذ تحوّل كثير من أهلها الى القيروان وتونس، وقد تعدّدت أسماء الاعلام الحاملة لنسبة الهواري والأبيّ والأربسي، خصوصًا بعد أن أصبحت بلاد هوارة تمثّل العمق الاقتصادي لمدينة تونس(5).

كما شملت الأزمة جبل وسلات، اذ فضلا عن هجرة العلماء الى المدينة، تعدّد ذكر النّساء الفارّات منه للاستقرار بالقيروان، وإعادة بناء حياتها من جديد (6).

---

(1) الوزان، **نفسه**، ج II ص 105.

(2) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 158-- 163، 252-261. حول الزواية الزكراوية، راجع: حليمة فرحات وحامد التريكي، كتب المناقب كمادة تاريخية، **التاريخ وأدب المناقب**، الرباط 1988، ص 60.

(3) البرزلي، **نفسه**، ج ا، ص 171 ب، ابن ناجي، **شرح تهذيب البرادعي**، جII ص 58 ب.
R. Brunschving, **Hafsides**, T. I.p. 397-431

(4) البرزلي، **ن.م**. ج ا، ص 261ب.

(5) ابن ناجي، **معالم** ج VI، ص 28، 33، 75، وذكرت النقائش عددا من الأسماء يحمل هذه النّسبة.

(6) ابن ناجي، **معالم** ج VI ص 245 (من علماء الجبل: أبو العباس أحمد بن سلامة المرساوي عرف النحالي)، البرزلي، **ن.م** ج ا ص 277 أ.

والجدير بالملاحظة أنّ هجرة النّساء الى المدن لم تقتصر على جبال نفوسة ووسلات، وانّما كانت ظاهرة أكثر شموليّة ، استرعت انتباه العلماء ، لوجود عدد كبير من النساء قادمات من النّواحي الى تونس، وظلّ أمرهنّ مجهولا لدى أهل المدينة : نسبتهنّ ومكان قدومهنّ وسببه إلخ... (1) .

ونتيجة لهذه الظرفيّة ، تضخّمت أعداد المدن بالبطالين والمتسوّلين واللّصوص والمكدّين وأهل البغاء وشتّى المهمّشين . وكثيرا ما كانت الزّاوية وكرا لهم ، أوتهم عندما عجزوا عن إيجاد مأوى ووفّرت لهم رمقا من العيش .

وقد عالج الفقهاء مفهوم الفقر الاجتماعي، ففرّقوا بين الفقير والمسكين : فالأوّل هو المعدم الذي لا يملك مالا ولا عقارا بآستثناء الدّار، أو من لا تجب عليه الزّكاة لعدم تملكه النّصاب من المال حسب البعض الآخر، أمّا الثاني ، فهو من بلغ الدّرجة الدّنيا في الفقر، يطلق على المعدم الذي لا يملك شيئا (2) .

والمتتبّع لأصول البؤساء وكيفيّة حلولهم بالمدينة، يحلظ تنوّع الجهات الوافدين منها، اذ لم تقتصر على المناطق النائية ، إنّما خصّت كذلك القرى والبوادي المحيطة بالمدينة، وفضلا عن المهن المقترنة بالزراعة ، فان كثيرا منهم عرف بمهنة أو بحرفة من الحرف داخل المجال الحضري.

وقد رأينا ، لسبر غور هذه الفئة الرثّة ، الانطلاق من أسماء المرابطين وتراجمهم، الواردة ذكرها في المصنّفات المناقبيّة ، وتوصّلنا الى اقامة جدول خاصّ بمشائخ الشرف والاربعين بمدينة تونس في القرن السّابع هـ / XIIIم (3).

(1) البرزلي، ن،م، ج I ص 261
(2) البرزلي، ن،م، جII ص 1157، ج III، ص 208 ب.
(3) مناقب، مع 18555، ص 16،113،17 ب- 21ب.

أصول المرابطين الاجتماعيّة بمدينة تونس في القرن السابع هـ /XIII م

الاسم	النسبة الى المهنة	تاريخ الوفاة	الأصول البشرية: أهل القرى	قبائل بربرية	عرب/أعراب	المدن	صقلية	المغرب	الأندلس	السودان	مشرق
محمد الصابوني	صناعة الصابون	ت 687 هـ									
علي النطاع	صناعة الجلود	ت 663هـ									
أبو عبد الله محمد الجباس	صناعة الجبس	ت 663هـ									
أبو الفضل قاسم الدباغ	الدباغة	ت 666هـ									
أبو القاسم الدباغ	الدباغة										
محمد الحميري بن صباغ	صباغ										
أبو الحسن علي الحطاب	حطاب	671هـ									
عبد الرحمان الحلفاوي	حلفاوي	676هـ									
علي السنفاج	سنفاج										
ابن عبد الرحيم المرجاني	مرجاني										
تاج الدين الخياط الجناوني	خياط		+								
عبد الحق البلاغ	بلاغ										
مبارك البلاغ	بلاغ										
محمد البواب	بواب										
بوراوي الكواش	كواش										
زين الدين القلال	قلال										
علي المؤدب الاصبهاني	مؤدب										
عبد الله	حفار الأبيار										
الشهيد ابو عبد الله محمد	الفران										
ابو هلال الزيتوني											
عبد العزيز الزيتوني											
ابو الفضل قاسم السقا	سقاء										
ابو العباس احمد السقا	سقاء										
ابو حفص عمر التراب	صناعة الطابية										
ابو عبد الله محمد التراب	صناعة الطابية	667هـ									
ابو سعيد التفاز	خطيب بجامع الهواء										
ابو الحسن الطبال الاشبيلي	طبال								+		
محمد الخياط	خياط										
عبد الكريم الجيار	جيار										
عبد الحميد الخراز	خراز										

أصول المرابطين الاجتماعيّة بمدينة تونس في القرن السابع هـ /XIII م

الاسم	النسبة الى المهنة	تاريخ الوفاة	الأصول				البشرية			
			أهل القرى	قبائل بربرية	عرب/ أعراب	المدن	صقلية	الأندلس المغرب	السودان	شرق
سالم بن مخلوف										
عبد المغيث عرف الطنج										
عبد الملك الزعزاع		ت 681								
علي بن مخلوف										
أبو عبد الله محمد الشريف	امام جامع الهوا	ت 666								
أبو عبد الله محمد الحبيبي					بنو حبيب					
محمد الربيعي		ت 661			بنو ربيعة					
أبو زيان الداودي		ت 666			الدواودة					
أبو القاسم الدهماني					بنو دهمان					
عبد الله التميمي					بنو تميم					
فتح الغساني					بنو غسان					
ابن خلف المسروقي		ت 676هـ	المسروقين							
أبو العزائم ماضي بن سلطان			المسروقين							
محمد الصمعي			الصمعة							
محمد أبو عبد الله المسروقي			المسروقين							
هلال المسروقي			المسروقين							
عطية المسروقي			المسروقين							
أبو الحسن علي القرجاني		ت 664هـ	قرجانة							
حسين السيجومي		ت 664هـ	سيجوم							
سفيان الباجي			باجة			باجة؟				
ابن خلف المسروقي			المسروقين			باجة تونس				
ساماالتباسي		664هـ	المهرين							
جوهر الاجمي			الاجم							
عبد اللطيف الجبنياني			جبنيانة							
محمد السوسي						سوسة				
عبد الكريم النوبي		ت 667هـ	نوبة							
عبد الرحمان التنقي		ت 667هـ	طنقة							
أبو زيان الملولي			ملول							
عبد الوهاب الحمري			الحماري							
قاسم الموحد										
أبو عبد الله المكني			المكنين							
قاسم المكني			المكنين							
عثمان الغريب										
عبد الرحمان عرف بابن الطلاع										
محمد عرف العبدلي										
فاطمة بنت عياش										
عبد الله الشريف										

أصول المرابطين الاجتماعيّة بمدينة تونس في القرن السابع هـ /XIII م

الاسم	النسبة الى المهنة	تاريخ الوفاة	الأصول				البشرية				
			أهل القرى	قبائل بربرية	عرب/ أعراب	المدن	صقلية	المغرب	الأندلس	السودان	شرق
أبو عبد الله محمد الغماري			ت 690 هـ		غمارة						
ابراهم المزوغي					مزوغة						
أبو اسحاق ابراهيم الزواري					زوارة						
أبو سالم المزاتي			ت 661 هـ		مزانة			+			
أبو زيد اسماعيل الهنتاتي			ت 663 هـ		هنتاتة						
تاج الدين الصنهاجي			ت 663 هـ		صنهاجة						
أبو العباس أحمد المزوغي			ت 667 هـ		مزوغة						
أبو زكريا يحي الهنتاتي					هنتاتة			+			
سليمان الهنتاتي					هنتاتة			+			
ابراهيم اللواتي					لواتة						
عبد الله المزوغي					مزوغة						
معروف بن ظافر الهواري					هوارة						
أبو زيد عبد الرحمان الصقلي			ت 665 هـ				+				
أبو طاهر الصقلي											
أبو عبد الله القرطبي							+		قرطبة		
أبو الفضل قاسم القرطبي		النحوي	ت 661 هـ						قرطبة		
سعيد القطربي									قرطبة		
عبد الله القرطبي القرشي			ت 667 هـ						قرطبة		
أبو حفص عمر السبتي			ت 687 هـ			+		سبتة			
أبو عبد الله محمد الفاسي			ت 659 هـ			+		فاس			
عبد الحميد الغربي											
سعيد الحبشي										الحبشة	
سعدون الأسمر			ت 666 هـ								
أبو العباس أحمد الطرابلسي			ت 685 هـ								
ايو العباس أحمد اليمني			ت 691 هـ								اليمن
محمد القرافي			ت 666 هـ				+				مصر
يوسف البغدادي							+				العراق

يبيّن هذا السّبر المحدود لبعض المرابطين الوارد ذكرهم في القرن السّابع تنوّع أصولهم البشريّة وتعدّد مهنهم وحرفهم الأصليّة، على أنّهم انتموا في الغالب الى القرى والبوادي التي نزحوا منها الى المدينة، حيث اشتغلوا في بداية أمرهم عدّة مهن وحرف متواضعة، البعض منها مرتبط بالبادية مثل الحطاب والحلفاوي والنطّاع، والآخر بالحرف والصنائع الحضريّة، وخاصة بصناعة البناء (جباس - ترّاب - بوّاب - جيّار - جلاّز - حفّار الابيار - فرّان) أو صناعة الملابس والاحذية (صابوني - مرجاني - صبّاغ - خيّاط - بلاّغ - خرّاز) والدباغة (نطاع-دباغ) والخزف (قلال) والاطعمة والاشربة (زيتوني-سنفاج-كوّاش-فرّان-سقاء) والعزافين (طبال) وغيرها.

ولئن ندر وجود الوافدين على تونس من مدن أخرى، اذا ما استثنينا أهل الأندلس، فانّ الهجرة شملت خاصّة أهل القرى وبعض القبائل العربيّة والبربريّة.

واعتبارا أنّ المجاعة ظاهرة دوريّة في تاريخ بلاد المغرب في أواخر العهد الوسيط، اتّخذت المدينة عدّة اجراءات لمواجهتها والمحافظة على مخزوناتها من المؤونة، وعدم التفريط فيها الى غير أهلها، اذ منحت امتيازات عديدة لأهل الحضر جعلتهم في مأمن من خطر الجوع، على أنّه لا يمكن تطبيقها مالم يتوفّر الحدّ الأدنى من عقليّة الانتماء المشترك الى مجال واحد. ونعتقد أنّ الجوع قد غذّى هذا الشّعور بالتّضامن الحضري، وهو ما يفسّر الاجراءات الممكن اتخاذها حسبما ورد في السؤال المطروح على البرزلي، وهي على التوالي:

1- منع بيع المواد الأساسيّة (من طعام وإدام وفواكه يابسة) أو إخراجها الى بلد آخر.

2- غلق أبواب المدينة في وجه النّازحين اليها من البادية ومن بقيّة الجهات والواردين من الضعفاء والمساكين.

3- امكانيّة منح الأغنياء الأطعمة إلى بقيّة متساكني البلد، حتى لا يهلك بقيّة النّاس، ويتولّى القاضي وأهل الحل والعقد بالمدينة تنظيم هذه العمليّة التضامنيّة داخل أسوار المدينة.

وبالتالي فانّ التضامن ينتفي زمن الجوع بين مجال حضري وآخر، ويصبح مقتصرا على أهل المدينة. وهي في الجملة اجراءات تنمّ على مدى انغلاق الحضر على بقيّة المجالات، وحتى على ناحيتهم، اذ بمنعهم لحركة البضائع وانتقال النّاس، فانّهم كرّسوا الفصل بين العالمين (عالم البادية وعالم المدينة) وحاولوا منح المدينة امتيازات خاصّة بها (1).

(1) المغيلي، **الدرر المكنونة**، ج II، ص 6 ب.

2) حياة البؤساء:

أ) بؤساء البادية:

لقد كان البدو أكثر تعرّضا لانعكاسات المجاعة والقحط من أهل الحواضر، اذ تعرّضوا للانتجاع والتّشرد وشدّ الرحيل من مكان الى آخر بحثا عن الخصب، ممّا ادخلهم أحيانا في نزاعات مع المجموعة البدوية أو القروية المتواجدة في المكان.

وكان البرزلي شاهد عيان لمعاناة نجوع برقة وبواديها سنة 799 -800هـ. وهي سنة شدّة وغلاء، كانوا ينتجعون مع قافلة الحجّاج، ولا يعيشون الاّ بالعشب والرمّ ونحو ذلك، على أمل العثور على "بلد الحياة" (1).

ولا يمكن اعتبار هذا المثال من حكم الشاذّ، بدليل أنّ العلماء تعرّضوا لقائمة طويلة من خشائش الأرض مثل الجراد والحلزون، وأحلّوا أكلها عند الضّرورة. ومن النباتات التي وقع الاقبال عليها هي التازغة التي كانت تجمع بكميات كبيرة منذ العصر الزيري (2). وليس نادرا أن يلتجئ البدو الى بيع محصولهم الزّراعي والتفريط في ماشيتهم لصالح التجّار الحضر، لاقتناء قوتهم زمن المجاعات والكوارث الطبيعيّة، وبخاصة في فصل الشتاء (période de soudure) كما لا يتوانوا في ارتهان أملاكهم، مثل تلك المرأة البدوية التي رهنت بيتا لها في ساحة القصر (ويبدو أنّه من نوع القصور الجبلية المعدّة للخزن) زمن الشدّة (3).

وبالتالي فانّ المتضرّر الأوّل زمن المجاعة هو البدوي الذي لا يجد ما يقتات رغم اشتغاله بالزّراعة فيما تخزن المدينة الطّعام الوافد عليها من الرّيف: ممّا يجعل أهل البادية في تبعيّة للحضر، لا في اقتناء اللّوازم الاساسية من انتاج حرفي وبضاعي كما قرّر ذلك ابن خلدون، انّما أيضا في اقتناء القوت، فيلجأ الى التسلّف من التّاجر بشروط مجحفة وفائض. وهكذا كان البدوي في وضعيّة فقر متواصل، أشبه ماتكون بوضعيّة الخمّاس (4).

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 165 ب، 292 ب.
(2) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 156 ب - 1157، 1158. تحمل عدة خشائش وطيور أسماء شعبيّة مماثلة لما هي عليه اليوم: فالحلزون كان يسمّى الببّوش، والهدهد يسمّى عند العامّة التبّيب، والصرّد يسمّى عند العامّة أبو عميرة وأبو بشير.
(3) البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 1156. 220 ب.
(4) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 710. البرزلي، نفسه، ج II، ص 1156، 110.

وتكثر الاشارات في مصادرنا الى الجوع والصّبر على تحمّل الفاقة ، فليس نادرا أن يبقى المرء اليوم واليومين طاويا من الجوع ، أو أن يسير مسافة مرحلتين دون أن يجد ما يأكله. وقد ذكرت المصادر أن بعض المعوزين يظلّون السّنين العديدة، دون أن يعرف الدرهم والدينار.

وإزاء هذه الآفة ، فقد لجأ الاعراب الى الحرابة، أوتكدسوا حول الزّوايا . على أن الحرابة لم تقتصر على البدو، انّما حرّض بعض صلحاء الزوايا على ممارسة العنف وهو ما يأتي نقيظا للنظريّة الانقسامية فكان أبو مدين شعيب قد تولّى الدّفاع عن " الضعفاء بالبادية " بواسطة أتباعه الموجودين بالاندلس والمغرب، وحسبما ذكر الدبّاغ فقد " **كان يسلّطهم على الظلمة بالبوادي ، فلا يزال الضعفاء ينتصفون منهم** " (1) .

ب) ازدياد البؤساء بالزّوايا :

غالبا ما كان وضع الفقراء الاجتماعي مقترنا بالمدلول الصّوفي لمفهوم الفقير ، اذ سيطر عليهم الفقر المدقع الى حدّ تهميشهم في العلاقات الانتاجية السّائدة ، والظاهر أنّ الكثير منهم كان من المجموعات المهمّشة من البدو التي لا تملك موارد رزق كافية ولم تتمكن من الاستقرار والاشتغال بالفلاحة .

وبلغ عدد فقراء سالم القديدي عند ذهابه الى الجريد لزيارة شيخه أبي هلال السّدادي أربعين ، وقد أنضمّ اليهم في الطريق بقمّودة ثلاثون أخرين . وأثناء هذه الزّيارة قلّده السّدادي «مشيخة الفقراء» ثم كثر أتباعه وتوافد عليه العاطلون عن العمل من ناحية المهديّة، وبالخصوص من منزل بني معروف، وكان يتحوّل بنفسه الى هذه القرى لاختيارهم، وكان من بينهم أبو عمّار المعروفي الذي أصبح المتصرّف في الزّاوية. وهكذا تطوّر تدريجيا حتّى وصل نحو الثلاثمائة بزاوية منزل قديد (2) .

وليس صدفة أن ينتمي أغلب هؤلاء المعوزين الى المناطق الحضريّة الموجودة في أطراف القيروان والسّاحل والتي اضطربت فيها الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وأهمل بها الفلح وأنتشر فيها نمط العيش الرّحلي حتى أصبحت مهدّدة من جرّاء ذلك بالاندثار والتّلاشي، وفعلا فانّ منزل بني معروف وقرى قمّودة لم يعد لها ذكر ابتداء من تلك الفترة، وكذلك الشأن بالنّسبة إلى منزل قديد وعروة وملول وقرقور وغيرها (3).

(1) مناقب الدّهماني ، ج I ، ص 110 ، 14 ب ، 135 . للمقارنة مع العهد الأغلبي، راجع : المالكي ، رياض النفوس، ج I، ص 243 ، 369 .

(2) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 52-53 (يوجد ضريح عمار المعروفي حاليا باريانة) . مناقب ، ج I ، ص 16 ب ، 37 ب (أورد ذكر أبا الحجاج يوسف المعروفي بالقيروان) .

(3) نفسه ، ج IV ، ص 240 .

وعلى أيّة حال أنتموا في جلّهم الى الفئات الرثّة العاجزة عن توفير لقمة العيش والامثلة على ذلك عديدة : كان أحد فقراء القديدي من بلاد هوارة متزوّجا ولا يملك ما يقتات به (1) .أمّا المرابط غريب من بني أحمد فرع من دباب ، فقد كان قبلة الفقراء ، لكنّه " **لا يملك شيئا من الدّنيا " فالتجأ الى شيخه القديدي مشتكيا له وضعه** " (2) .

وكثيرا ما يلتجئ هؤلاء البؤساء الى ظاهرة الاستجداء والطّلب ولم يسلم منها أحد المشائخ وهو أبو عفيف صالح الصّدفي المتوفي سنة 772 هـ / 1370 م(3) ، وكانت الفتوح الشكل المنظم لهذه الظاهرة التي قام بها المهدي بن تومرت لاسباب سياسيّة ثم أبداها المتصوّفة فتولوا جمع هذه الاتاوة من الارياف والمدن سنويّا، وكان بعض المشائخ يستجدي لهؤلاء البؤساء بنفسه (4) . كما توفّر الصدقات الوافدة على الزّاوية موردا هامًا وقد تكون مرتبطة بحدث ما أو عطاء موسمي أو بطريقة غير منتظمة ، فكان أبو عبد الله بن سالم بن عوانة يتصدّق بنصف ما يحرثه وببعض عائدات تجارته على الفقراء(5).

كما ساهم السّلاطين بقسط وافر في تموين الزّوايا خاصة أثناء الحملات العسكريّة بمناسبة مرور محلة السّلطان من المكان، فقد بعث السّلطان أبو فارس عبد العزيز عند ايابه من الجريد بكمية من التّموين الذي كان معدّا في الاصل للجند والخيل الى زاوية القديدي ، وما أن علم بؤساء القيروان بذلك حتّى توافدوا على شيخ الزّاوية الغرياني لأخذ نصيبهم من ذلك (6)

أمّا عن أهميّة البؤساء العدديّة، فلا بدّ هنا أن نفرّق بين الواردين على الزّاوية الدّراسة من جهة والفقراء المخصّصين لخدمة الزّاوية وشيخها من جهة أخرى ، اذ كانوا يتولون القيام بكل الشّؤون الدّاخلية والخارجيّة للزّاوية من كنس وطبخ وتحضير للطعام وجمع للاتاوات وخدمة للشّيخ وغيرها (7) . ويختلف العدد الجملي لهؤلاء حسب أهميّة الزّاوية ومدى تطوّرها ، ومثالا على ذلك فقد تطوّر عددهم بزاوية القديدي من أربعين الى سبعين الى ثلاثمائة، هذا فضلا عن الزّائرين الذين بلغ عددهم في احدى المرّات مائتين، أمّا فقراء العبيدلي المتوفى سنة 748 هـ / 1347 م، فانهم كانوا نحو ستّين أو سبعين

(1) نفسه ، ص 76 . (2) نفسه ، ص 67 . (3) نفسه ، ص 178 .

(4) نفسه ، ص 228 . راجع كذلك :

A.Bel, **La réligion Mus. en Berbérie**, Paris 1948, p.340.

(5) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV ، ص 99 .

(6) ابن ناجي ، **معالم** ، ج III ، ص 209 ، ج IV، ص 99 .

(7) نفس الاحالة ، ج IV، ص 236-237 (ساهمت القبائل الى جانب المخزن في تمويل الزوايا فكان أولاد أبي موسى بشاوية كبيرة يعطون زكاة مواشيهم 90 دينار للمنارى (ص 151) .

وقد مثّلت حارتهم المسمّاة بحارة المرابطين وحدة عمرانيّة متجانسة الى حدّ القرن التّاسع هـ . وكان بزاوية الجديدي (النّصف الثاني من القرن الثامن) حينما تولى عبيد الغرياني أمورها مائة وخمسين صغارا وكبارا بين طلبة يتعلمون وقرّاء للقرآن ومائة رجل يخدمون الزّاوية، وهو عدد الفقراء . وكذلك كان عددهم بزاوية تلميذه ابن أبي زيد برباط المنستير في بداية القرن التّاسع هـ . (1) .

تدلّ الارقام المذكورة على مدى اتّساع نفوذ هذه المؤسّسة ابتداء من النّصف الثّاني من القرن السّابع هـ. ورغم ظهور الطاعون سنة 749 هـ / 1348 م وتطوّر المدرسة المالكيّة بتونس زمن ابن عرفة ، فانّ عددهم ازداد أهميّة بالقيروان أثناء تلك الفترة .

ومن جهة أخرى فانّ هذا العدد الذي يصل الى مائة في كل زاوية يمكن مقارنته مع مجموعات الفرسان الغازية من الأعراب ، ولئن اختلف هذان الصّنفان من المجتمع في موقع كل واحد منهما من الانتاج ، فانّهما تطابقا في الأهميّة العدديّة وفي الانتماء الى جذور بدويّة . وقد لعبت الهبة دورا هاما في توفير الثياب لهؤلاء البؤساء واستعملت عائدات الزّاوية لاقتنائها لهم ، فكانت الزّاوية الجديديّة تضمّ نحو تسعين ، وكان شيخها « **يشتري للفقراء خمسين فروة في كل عام ومثل ذلك عباين ومثل ذلك شمايل واحرام من صوف فالشّمايل للاطفال والاحارم للكبار ومن المدوس والشّواشي كذلك** » (2).

أمّا الوجبة الغذائيّة فقد كانت بسيطة في محتواها ، تتمثّل أساسا في خبز الشّعير (3).

وقد يصل هذا التقشّف حدّه في بعض الحالات إمّا امعانا في مجاهدة النّفس أو اضطرارا بدافع الحاجة اثناء فترات الأزمة والمجاعة، فكان فقراء أبي رحمة غيث الحكيمي يفطرون على خبزة في شهر رمضان، أمّا محمّد الجديدي فانّه كان يوزّع على كل واحد زمن الشّدة قليلا من التّمر، وكان ابن أبي الشّيخ المتوفّى سنة 919 هـ/ 1513 م. " **شديد المبالغة في كتم الفاقة وان فتح له شيء يصرفه للفقراء وكان واحدا منهم** ". وقد شمل سوء التّغذية الطلبة الوافدين على تونس فكان أحد الطلبة يمشي في الأزقة بحثا عن أوراق البقل الملقاة أمام المنازل ليطبخها ويفطر بها، وقد تمادى على هذا الاكل حتّى اصفرّ لونه ولم تتحسّن وضعيته الغذائيّة الا عندما أصبح مدرّسا (4) .

---

(1) **نفس الاحالة** ، ج IV ، ص 79 ، 121 ، 236 ، 229 . انظر مقالنا : وثيقة في التاريخ الريفي ، ص 229 .

(2) **ن.م**...ج IV . ص218، 213 . العبيدي، **الملابس**، .ن.م. ، ص 664 . ويستعمل الفراء لصنع القلنسوة على الرأس أو لباس البدن، أما الشملة فقد كادت في العصر العباسي أشبه ما تكون بالغطاء .

(3) ابن ناجي ، **ن.م.** ، على التوالي : جIII ، ص 205 ، جIV ، 101،102،181،172،227–228. ومن الاكلات المذكورة البازين من الشعير بالمسلي ، الشعير المقلي وهو الزميط ... وكان الرّباوي الزّاهد ياكل من الشّعير ما يسدّ جوعه ، وتقتصر وجبة أبي سعيد فرج المسراتي على خبز شعير وزيتون ، وكان الارنبي يقدّم لكل من يرد عليه من الفقراء والاخوان خبز شعير تعمله زوجته في التنور، ويستعمل طحين الشّعير بازينا بالقيروان والسّاحل ويستعمل أيضا مقليا حتّى انّ الجديدي كان يعطي لقلاء الشعير في كل عام 12 دينارا .

(4) ابن ناجي ، **ن.م.**، ج III ، ص 209 . ج IV ، ص 111،232،106.

ج) حيـــاة البـؤسـاء

قدّمت لنا كتب المناقب صورة دقيقة عن حياة العامّة، وخصوصا الشرائح السّفلى منها، ومعاناتهم اليوميّة . ولئن تداخلت الأسطورة بالواقع في هذه المصنّفات ، فانّ الفاقة تعتبر عنصرا ثابتا فيها، ومرتبطا بالتاريخ الاجتماعي والذّهني لهذه الفئات .

وكما يتّضح من تراجم الشيوخ ، فانّ جلّ المرابطين ، من شيوخ وفقراء ، وفدوا على المدينة من البادية وعانوا الأمرين في بداية أمرهم . وهذه شواهد على ذلك :

فـأبو هلال عيّاد الزّيات (المتوفّى سنة 650 هـ أو 665 هـ / 1252–1266 م حسب رواية ثانية) وفد على مدينة تونس من الجنوب، وقد اشتغل في البداية دبّاغا ، يخرج الى الصّحراء ويجمع الدّباغ ويقطعها بالحجارة ، ثم يحملها الى السّوق على ظهره، ولم يكن قادرا على شراء فأس أو دابة لحملها (1) .

أما أبو عمران موسى بن يحيى الأنصاري (النصف الأول من السّابع هـ/XIIIم)، فقد حطّت بزاويته مجموعات الفقراء الجيّاع، فلم يجدوا ما يقتاتونه . وكان الشيخ نفسه يعيش من عطاءات الوالي الموحّدي وبعض الميسورين ، ويكتفي بأكل رغيف خبز، وأحيانا أخرى يظلّ مدّة طويلة بدون غذاء . ولم يتعلّم أبناؤه " صنعة " يعيشون منها . وحلم أصحابه برغيف سخن أو ثريد ، دون أن يجدوه في الواقع (2) .

وعند قدومه من بادية القيروان الى مدينة تونس استقرّ أبو محمد بن سلطان السروقي بمقربة من فرانق الجيارين، وكذلك فعل أبو عبد الله اليفرني الذي اقتات من كسور وفواضل النّاس ، قبل أن يتكفّل به جيّار من أهل الموضع (3).

ودأب أحد الأعراب " التائبين " ، وهو عبد الله بن سلامة الحبيبي على أكل العشب وورق الدفلى ، وكان قد تحوّل من قرية شاذلة الى مدينة تونس، لكنّه ظلّ محافظا على لباسه البدوي، وهو الاحرام الذي يشتمل به (4) .

وأثناء مجاعة وطاعون سنة 748 هـ/ 1347م ، تحوّل أحد العاملين في الزّليج الى مدينة تونس، وظلّ ملازما لباب علاوة حتى انه اتّهم باخراج الأكفان من القبور. وتحدّث أحد سكّان المدينة عن هذا الجوع فقال، " **أصابني جوع عظيم وكان الغلاء ولانقدر نخدم ولا نطلب وخشيتُ على نفسي من الجوع الذي أصابني ..** " (5)

---

(1) **مناقب** ، مخ 18555، ص 4 ب – 17 .

(2) **مناقب**، مخ 12544، ص 52–57 ب .

(3) **مناقب** ، مخ 12544، ص 110ب ، 1112.

(4) ابن الصباغ ، **مناقب الشاذلي** ، ص 5 . (كان شيخه يخاطبه مازحا : العوالي في الحوالي، دلالة على لباس الحولي) .

(5) **مناقب الزلاج**، مخ 18420 ، ص 14.

وخلال هذه الكوارث ، كثيرا ما وصل الى زوايا مدينة تونس المعوزون من أهل البوادي و"السّعاة" بحثا عن الغذاء (1) .

وتحدّث الهواري ، صاحب كتاب المناقب، عن احدى المجاعات التي عانى منها خلال النصف الثاني من القرن السابع هـ /XIIIم ، بسوق المركاض، فقال : **"أصابها (مدينة تونس) جوع عظيم الى أن بلغ القفيز من القمح 20 دينارا ذهبا والقفيز من الشعير عشرة دنانير ، وأصاب الناس هول عظيم حتى صار الناس يموتون في الأسواق والأزقة»** .

وقد عوّلت السّلطة على الزّوايا للتخفيف من حدّة التوتّر الاجتماعي ، فقدّمت لها الدّعم المادي ومنحتها شتّى الامتيازات، من ذلك أنّ السلطان بعث الى زاوية مبارك العجمي 300 دينار لتوزيعها على الفقراء والمساكين، وأردفها برسالة جاء فيها **" تجي اليّ وكلّ ما تحط عليه يديك فهو لك "** (2) .

أما زاوية عبد الوهاب المزوغي الوافد على ضاحية مدينة تونس من مزوغة ، فقد أنتصبت بالحماري بضاحية تونس، وتحوّلت الى مأوى للبدو والفقراء الفارين من قراهم، خاصّة أنّ شيخها أرتبط بعلاقات متينة مع أعراب ناحية القيروان وزغوان، حيث سخّر نفسه لتعليم سكّان الخيام ، حتى عاب عليه أصحابه ذلك (3) .

وكان علي السفاج يأخذ المال من أرباب السلطان وأصحاب الثروة ويوزّعها على الفقراء ، وقد وفدت عليه ذات مرّة أرملة أضرّ بها وبأبنائها العراء والجوع، فناولها الخمسين درهما التي أخذها من سايس الخليفة مقابل وصفة دواء وهميّة . وقصده البعض الآخر لتعويض ثيابه الرثة بلباس جديد ، كما لعبت زاويته دور المساعفة للمهاجرين الاندلسيين، موفّرا لهم المسكن عند قدومهم (4) .

وفضلا عن ألم الجوع والهجرة ، عانى المجتمع من وباء الطاعون ففتك بالأسر وخاصّة الفقيرة منها وأجبر من ظلّ على قيد الحياة على الرّحيل . ففي النصف الأوّل من القرن السابع هـ /XIII م، تسرّب الطاعون بقرجانة (جنوب غربي تونس بنحو 30 كم) ، فأهلكها حتى أنّ المصادر أحجمت عن ذكرها من ذلك التاريخ . ولم يبق من الأسرة المكوّنة من أرملة وابن وثلاث بنات ، سوى الأم وابنها علي القرجاني، اللذان نزحا الى تونس، حيث أستقرّا بربض السعود بعد أن كابدت الأسرة طويلا من ألم الجوع والفقر والحرمان (5).

---

(1) **مناقب ابي سعيد الباجي** ، ص 24 .

(2) **مناقب** مخ 18555 ، ص1ب ، 13. وورد في ص 15ب من نفس المخطوط حديث عن مجاعة أخرى ، اذ قال المؤلف : "أصابت سنة من السنين قحط شديد حتى مات الناس في الطرقات والأسواق".

(3) **نفس المصدر**، ص 122 ب – 1124. (4) **نفس المصدر** ، ص 167–1168.

(5) **نفسه** ، ص 175 .

إنّ هذا الفقر المدقع يفسّر نهب اللصوص المفلسين كلّ ما يجدونه أمامهم ، مثل ذلك الذي سرق برنوسا مبلّلا منشورا على باب السّقيفة، كي يبيعه بسوق المركاض بدينار، أو الآخر الذي سرق فرسا وجاء لهذا السوق لبيعها (1) .

وأجبرت الفاقة مرابط آخر الى الهجرة مع أمّه من مسقط رأسه مدينة الجرار (قرب المحمديّة) الى تونس. وحدث هذا الأمر كذلك مع أحد سكّان شاذلة، وهو علي الحطاب، الذي أرتزق من التحطيب . وقد قذفت به **"شدّة عظيمة وغلاء"** الى أبواب مدينة تونس على غرار حطاب آخر من قريته، وهو علي الآبري (وآبر قرية من مرناق) لكن استقراره بالمدينة لم ينس الناس مهنته الأولى (2) .

وفي الجملة كانت هذه الفئات البائسة في حاجة ماسّة الى المعونة، الى حدّ انّ ابن عرفة اجاز تقديم الموعد لزكاة الفطر أوّل رمضان، بل ذهب الى إمكانيّة دفعها في أيّ وقت، قبل بداية هذا الشّهر، للضّرورة الى ذلك " وشدّة الحال " .

وفعلا كانت زكاة الفطر تمنح في القرن الثامن هـ /XIVم في بداية شهر رمضان الى المرابطين، الذين يتولّون بدورهم توزيعها على البؤساء الوافدين على زواياهم من أعراب وأبناء سبيل وغيرهم. وهو ما يأتي حجّة على مدى تفكّك البنية القبليّة التقليديّة وتفقير البدو .

على أنّ هذا الاجتهاد لم يحظ بموافقة الجميع. فقد أنكره أبو محمد الشبيبي ، فقيه القيروان، ورأى فيه عمليّة ادّخار الزّوايا لأموال الزّكاة وعدم إخراجها في محلّها(3).وأقبل البؤساء على الصّدقات التي تقدّم الى الزوايا (4) .

بل أنّ البعض منهم كان يتّخذها مقرا له ولعائلته. وممّا يروى في هذا الصّدد أنّه تزايد مولود لفقير بزاوية أبي عبد اللّه الصّفري ، فأكتفى بطلب درهم واحد من شيخه للقيام بأمر المولود. لكن الشيخ كان أكثر كرما اذ منحه خمسة دنانير وقنطارا من السّميد، وآخر من الفحم، وكبشا من كباش السّلطان التي كان يربّيها له (5) .

وكان كبار العلماء بدورهم يتصدّقون على المعوزين بمالهم ، فابن عرفة تصدّق قبل موته على الفقراء بجامع الزّيتونة (6) . أمّا خليفة بن ناجي، عمّ صاحب كتاب معالم الايمان، فانّه آثر استعمال التّورية في اعطاء الصّدقة لأحد المعدمين بالقيروان فكلّف ابن أخيه بأن يفعل ذلك دون أن يعرفه المتصدّق عليه (7).

---

(1) **نفسه** ، ص 177 ب ، 178 ب .

(2) **نفسه** ، ص 179 ب ، 182 ب ، 1185. قال له احدهم : " أنت تركت الحطب وبيعه وصرت مرابط، برّا إخدم "

(3) البرزلي ، **ن.م.**، ج I ، ص 1141. (4) البرزلي ، **ن.م.** ، ج III ، ص 209 ب .

(5) الرصّاع ، **تحفة** ، ص 123.(6) البرزلي ، **ن.م.** ، ج II ، ص 196. (7) ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 67 ب .

معالم الايمان ج IV ، ص 197 .

وساعدت الأحباس على انتشال عدد كبير منهم من المجاعة، حتى أنّ المجذومين والفقراء والمرابطين التجأوا إلى غلال الأحباس(1).

كما عاش المرابطـون بالحصون والقصور وفقراء الزّوايـا من ريع الأرض المحبّسة، التي يتولّون تعميرها وغراستها، من ذلك أرض تنسب الى " للمساكين" (2).

وفي مثـال ثان، قام أحد أصحاب أبـي سعيد الباجـي بغراسة أرض حبسـيّة، في محاولة لتملّكها (3).

والحـقيـقة أن الأمـثلة على ذلك كثـيرة. وهـي دلالة على مدى مـساهمـة هذا الرّيع العـقاري المتـأتّي من الحبس (للارض والدكـاكين) على توفـير الطّعـام للبؤسـاء وأبناء السّبيل والمعدمين.

وفضـلا عن كون الجـباية لا تطول المـعوزين لعـدم امتلاكـهم النّصاب الادنـى المحدد للزكاة، عمد السّلطان من حين الى آخر الى توزيع الصّدقـات والأموال على الفئات الرثّة. فقد لجأ بعضهم الى إعطاء الدّنانير والدّراهم إلى الخواصّ، للتصدّق بها وتوزيعها، وقام آخرون بتسليم المال الى المرابطين كي يتولّوا بدورهم منحه للمعوزين (4).

ومن عادة البـؤساء في العهد الحـفصي التجـمّع أمام الزّوايا والمساجد، وبخـاصّة جامع الزّيتونة، رافعين أصواتهم بالاستجداء.

كما تعـوّدوا على ملازمة المزابل والتقاط مـعاشهم منها من خـرق وملابس وأحذية وخزف وجلود وحطب، وعمـدوا الى جمع فواضل الخضر والـفواكه والنّوى على أبواب الدّور(5).

وثمّـة صنف آخر من بـؤساء المدينة انصـرف الى القـيام بالأعـمـال الخسـيسـة، والتّافـهة، من بينهم الأسـرى بمدينة تونس في القرن الـثامن هـ / XIVم، الذين كانوا يسقون الماء من الصّهاريج ويبيعونه لكسب قوتهم (6).

---

(1) الونشريسي، **المعيار**، جVII، ص 38.

(2) **ن.م.**، ج VII، ص 116، 63.

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج III، ص 208 ب.

(4) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 142 ب. ج III، ص 205أ. ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص140.

(5) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 77 ب، ج II، ص 173أ، ج III، ص 206. ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 107.

(6) ن.م.، ج II، ص 309 ب. تحدّث الوزّان (**وصف افريقيا**، 2، 76) عن السقّائين بمدينة تونس فقال: " وليس في تونس عين ولا نهر ولا بئر، بل تستعمل صهاريج لجمع ماء المطر، غير انه شاهد في ضواحي المدينة بئر صالح للشرب فيه شيء من الملوحة، يأتي اليه السقاؤون بدوابهم وقربهم، فـيملأون هذه القرب ماء وينطلقون لبيعها في المدينة، ويشربون النّاس منه لأنّه أنقى من ماء الصّهريج ...».

د) المهمّشون :

أ) الفساد الاجتماعي :

كثر الفساد في أماكن تجمّع الجنسين المشبوهة، في دار القـمار والخمّار وحلـق الشّعوذة والسـحّارين وعـمدت بعض النّسـاء المعوزات الى التـحيّل والتّسكع لكسب المال(1)، فيما سقطت أخـريات في الرّذيلة، والخناء، وقد تحوّلت بعض الزّوايا إلى وكر اللهو. والأمـثلة عديدة على ذلك. وحـسبنا القـول أن فرقة العـسكرية من أهل الصّوفـية أجـازت الاختـلاط بين الجنسين والأكل والرّقص ومـا الى ذلك (2). ولئن كـان الفسـاد الواقع بالزّوايا ليس مردّه دائما الفقر، فانّ الوزّان شهد على مدى تفشّي الدّعارة وهو ما أقرّه من قبله البرزلي (3)

لامراء أنّ عوامل أخرى عديدة ساعدت على انتشـار الفساد في هذا المجتمع: فالقهر الذي تتعـرّض له المرأة، والفصل بين الجنسين وتعـدّد الزوجات والزواج المبكر للفتـيات دون سنّ الرّشد والفـاقة وتضخّم المدن بالغرباء النازلين بالفنادق، كلّهـا عوامل دعت الى ظهور البغاء. فقد كان فندق الرّصاص وكرا " **للخناء وأنواع الفسوق**" (4).

أمّا الزّوايا، فيبدو أنّها كانت ملجأ اضطراريا أو اختياريا لبعض النّساء: فقد تحدّثت الكتب المناقبيّـة عن دور زاوية أبي سعيد الباجي في فك بعض النّسـاء من أسر النصارى وإيوائهم الزاوية، كما ذكرت ما كان يقوم به بعض شيوخ الزاويا من أعمال " إيروتيكيّة" تحت دعوى التخريب أو التطبّب.

فقد تحوّلت زاوية ابن عروس الى مجمع للجنسين الى حدّ أنه صار يخشى "**الفتنة والمنكر**"، فتـدخل قـاضي الأنكحة والجـماعـة والخليفـة لوضع حدّ لهـذه الممارسـات. ونتساءل فـي هذ الصّدد عن معنى هذه الاباحيّـة التي تميّز بها بعض شيـوخ الزوايا مثل أبي يعزى وأبي العباس السّبتي بالمغرب الاقصى وعـائشة المنوبية والقرمبالي وأحمد بن عروس بافريقـية، هل هـي ظاهرات خاصّة بالمتصـوّفة أم أنّها تعبير عن رواسب لتـقاليد محليّة في الاباحيّة(5).

---

(1) **ن.م.**، ج III، ص 108أ. (2) **ن.م.**، ج IV، ص 230 ب، 355، 364أ.

(3) الوزان، **ن.م.**، ج II، ص 77–78. البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 216 ب.

(4) **مناقب ابن عـروس**، ص 203. الوزان، **ن.م.**، ج II، ص 60، 77–78. التـيفـاشي، **نزهة الالبـاب**، ص 74 (تحدّث عن المسكّن الذي يتـعرّض قـوافل التـجّـار موهمـا، ايّاهم أنّه دلاّل، ثم يـوصلهم الى منزل فـيه الجـواري والغلمان، فيقضون الوقت في المتعة حتّى أن بعضهم ينفق كلّ ماله).
De Primaudaie, Documents Inédits..., **R.A.** 1875, N° 19, p.127.

(5) **مناقب عائشـة المنوبيّة**. البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 355، 364أ. **مناقـب أحمد بن عـروس**، ص 200، 26، 332، 353، 356، 336، 340، 454.

وعلى أيّ، فان أزمة هذا المجتمع الذي عـانى من الفقر والجهل والمرض أدّت الى عدد من النّساء الى الدّعارة والى استشـراء الفساد. ورغم ما قيل عن " مناقب " السلطان أبي فارس عبد العزيز من كونه أجلى المخنثين من بلاده، فـانّ الظاهرة استمرّت فـي عصره بشهـادة البرزلي الذي ألّف كتـابه سنة 810 هـ/ 1407م، وتواصلت في نهاية الحقبة الحفصية(1).

ب) التكدّي والشّعوذة واللصوصيّة : ظهرت هذه السّلوكات منذ الحقبة الوسيطيّة الأولى بالمشرق والمغـرب، اذ روت لنا المصادر أخبـار المكدّين ومقاماتهم. وخـلال القرن الرابع هـ/Xم، أصبحت مشاهدهم مألوفة في سـكك القيروان ورحباتها، حيث يمارس المكدّون بعض الألعـاب كأن يتظاهر أحدهم بـقطع رأس انسان ثم يعيـده حيـا، أو يخرج الدّراهم والدنانير مـن الثّياب أو يقطع السّلسلة الخ.. وقـد تعوّد العلمـاء على هذه الأمور حتّى أجازوها، باعتبارها " خفّة يد وملاعب " لا غير.

على أنّ الأمر تطوّر في العـهد الحفصي، إذ أستـفحلت الظاهرة، ولم تعد مقـتصرة على التّسلية، إنما تعـدّتهـا كي تشمل الشّـعوذة. أمـا العلمـاء، فانّهم منعـوا هذه المرّة الوقوف على هذه الحلق ومخالطتـها لكثرة المفاسد التي تشوبها، مـعتبرين إيّاها من باب السّحر لا التّرويح عن النّفس.

لكن هذا الاحتراز لم يمنع من انعقاد هذه الحلق، عند أبواب المدن وفي أهم الرّحبات، حيث أخـتلط الحابل بالنّابل، البدوي بالحـضري، والتجّار الأوربيين بمتـسكّعي الأزقّة. وبالتّـالي فقـد ذكرت بمدينة تونس خـارج باب البحـر حيث فنادق النّـصارى، بسـاحة كبيرة، وبباب منارة خلال القرن الثامن هـ/XIVم. وهناك في كلّ مساء، جلس الرّواي (الفداوي) القرفـصاء، محرّكـا عصاه زيادة في البيان، والنّاس الـذين قدموا راجلين أو

(1) ذكر التيفاشي(**نزهة الالباب**، ص 144، 199 – 202) الغلام المؤاجر، كما ذكر شيوخ الطريق الموجودين عند أبواب المدينة، وجـماعـة أخرى من نفس الصنف يطلق عليـها الامـشاطيين. وتحدّث البرزلي عن وجـود " بطالين يفـسدون بالدراهم " (ن.م.، ج IV ،ص 216ب)، وقـال الوزان (**ن.م.**، ج 4، ص 77–78) أنهم " أشـد دناءة ورذالة من العاهرات ". انظر كذلك الزركشي، **تاريخ**، ص 117. وورد في مناقب ابن عروس (ص 205) ذكر أحد المخنثين بالفندق الذي آذى ابن عروس. كما تعوّد شيخ الزاوية بالقيروان محمّد الجديدي على الجلوس مع " أطفال السّوق " وبفندق البقل. وهم يتصرّفون تصرّفا سيّئا : ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 231. وتحدّث البرزلي (**ن.م.**، ج IV، ص 216 ب) عن السّحاق.

ممتطين خيولهـم، ينصتون اليه بكلّ انتـباه، وهو يروي حكايات عنترة بن شدّاد ودلهمة والبطال، وكـتب الـطلاسم وغـيـرها، وهي روايات لا تخلو مـن المبـالغـات والأكـاذيب والخوارق التي تقف أمامها العامّة مشدوهة الأفواه.

ولئن كنّا نرجح أنّ السّـيـرة الهلاليّـة تمكّنت من الانتـشار في المجـال الحضـري وقبل ذاك، فانّ تقنيـات الضرب بالسّـيف والطعن بالرّمح، وهي الصّناعـة التي برع فيـها الاعراب، احتلّت حيزا هاما من مجال هذه المشاهد.

وفي مكان آخر من الرّحبة، جلس المغنّي بصـحبة ثنائي يردّد البيت، ويصفق. وهي الطريقة البدويّة في الغناء. ووضعوا أحذيتهـم أمامهم كي تلتقط أرباع الدّراهم وأنصافها التي يجود بها المتفرّجون.

وفي ناحـية أخرى، رقص بـعض النّاس على الطبل والمزمار، مـقابل بعض النـقود الزهيدة التي يتحصّل عليها هؤلاء العزّافين. ولم يغب الصّبيان عن هذه المشاهد حيث عمد بعضهم الـى تقديم عروض متعـدّدة، مثل حمل القلال المتناضـدة فـوق الرأس، الواحدة فوق الأخرى الى أن يبلغ العدد تسعة، مع المحافظة على التّوازن (1).

وفضلا عن هذه العروض الجماعيّة التي تقـوم بها " الفئات الرثّة " من العامّة، فقد عمد بعض النصّابين الى التحيّل وتلفيق الأساطير للحصول على المال. واذا كانت لا تنطلي على الفقهاء، فان شيوخ الزّوايا قد يصدّقونها (2).

ولم تغب مظاهر الفساد الأخرى عن سكك المدينة، اذ عرفت المخدّرات مثل السّيكران والحشيش انتشارا في بعض الأوساط الاجتـماعية منذ القرن السّابع هـ/ XIIIم، حتى أن بعض الأعيان من " أهل الفسوق " على حـد عبارة ابن الطواح تعاطوا هذا المخدّر الذي ازداد رواجه في القرون المواليـة، وأصبح أمرا يتعاطاه البـعض من سكان كبريات المدن، مثل بجاية وقسنطينة. وقد تعوّد تجّار هذه المدينة على مقايضته بانتاج بلاد الصحراء في الواحات (3).

(1) البرزلي، **جامع**، ج I، ص 190، ج IV، ص 264ب. R.Brunschvig **Deux Récits de voyage**.. p.187
(2) الابي، **الاكمال**، ج VI، ص 90 وممّا يروى في هذا الصدد " أن الشيخ الفقيه ابن البـراء كان يقرئ في مسجد القبّة من تونس، فأتاه رجل، فـقال له : رأيتُ النبي (صلعم) وقال لي : قل لفلان يعطيك جبّة فقـال له الفقيه : قال لي انا في اليقظة لا أعطيك شـيئا. فذهب الرّجل فـدخل على الرّجل الصّالح أبي عبد الله المشـتهر بالمغربي في مـوضعه القريب من المسجد المذكور، فأعطاه، فقيل له أنّ الرّجل يتخرّص، فقال الشيخ : لو علمت أنه محقّ أعطيته الدّنيا ".
(3) ابن الطواح، **سبك المقال**، ص 159، الوزان،**ن.م.**، ج II، ص 59–78.

الفصل الثاني : جدليّة التشكّل الاجتماعي :

I -انتفاضات البدو :

تعدّدت الاشـارات المصدريّة الى ذكـر موقف الحضـر من الاعراب والبـدو، فالنص القرآني تناول مسألة الأعراب في عديد الآيـات ، وقد عنى هذا المفهوم أصطلاحا من كان " معاشه في السّائمة " ، وذلك خلافا للبدوي الذي كان معاشه من الزراعة .

وعبّـرت بعض الآيات عن طبـيعة الـصّراع السّيـاسي الحاصل بـين الاعراب وأهل المدينة، ولعل أهـمّهـا الآيات الـتـي تشـجب دورهم السّلبي في نشـر الاسـلام وضـعف اعتقادهم (1) .

ومن الواضح أنّ النبيّ استنكف من حياة البـادية والأعراب ، ودعا الى سكنى القرى والمدن، محرّضا على احياء الأرض والزّراعة والتجارة (2).

1) صورة الأعراب:

أ) في المصادر الموحّدية-الحفصيّة :

الحقيقة أنّ هذه الصّورة المعبّـرة عن نظرة لا تخلو من الاحتقار تطوّرت في العهدين الموحدي -الحفصي ، اذ غذّتها الصّراعات الاجتماعيّة والعسكرية المتأجّجة بين الطرفين ، فتـعدّدت النعـوت التي خصّـوا بها ، وقـد أختـرنا على سبـيل المثال، لا الحصـر، بعض المصادر لاستخراج بعض الأوصاف الخاصّة بالاعراب وقتذاك ، وهذه قائمة النعوت :

- "الأوباش اللئام والكافرون المفسدون" .
- " ذؤبان العرب وذعّار اللصوص وأبّاق العبيد وأهل الحرابة والشرور" .
- " أبّاق العرب وشرّارهم "
- " متعاقدو الظلم والكفر "
- " بؤر الشقاق والطغيان "
- " المتسبّبون في الفتنة "

---

(1) وهي على التوالي : « الاعراب أشد كفرا ونفاقا / وممن حولكم من الاعراب منافقون/ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعـراب ان يتخلفـوا عن رسول الله / قل للأعراب آمنا قـل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ». انظر : عـبد الباقي، **المعجم المفـهرس لالفـاظ القرآن**، ص 456 . ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 216 (التعـرب أو سكن البادية). المختار كريم ، الأعراب في القرآن، **حوليات الجامعة التونسية** ، عدد 31 ، 1990، ص 79 -108 .

(2) **كتاب ابن سلام**، تحقيق شـفارتز وسالم بن يعقوب ، ص 74-75 . وممّا ينسب الى النبيّ في كـتب الاباضيّة أنّه كتب كتـابا في البلاد ، جاء فيه :« الى ورثة الانـبياء يعني العلماء والى النّاس يعني اهل المدائن والقـرى ، وشبه النّاس يعني أهل البادية ..»

- " العـرب لا تنقاد لـقائد ولا تلين في يد قـاهر ذهابا بنفـوسـها وطاعـة لأنفـتهـا واستكبارا على خالقها واباية عما تظنه أنه يضع من شرفها "
- صعاليك سليم وذؤبانهم وكلّ من وافقـهم على ضلالهم من الأعراب وأعانهم من أهل الباطل وأعدائهم " .
- " شرذمة من سليم لصوص وأوباش وكلاب هراش .
- "الأشقياء ، الأوباش ، المرتدون .
- " شرّار هلاله" (بني هلال) (1) .

أمّا رؤساؤهم فقد نعـتوا كذلك بشتّى النعوت : فابن غانية سـمّي بالشقيّ ، ومحرز بن زياد نعت " بالخـبيث المخـبث جـرثومة الضـلالة والعناد الكذوب الطاعـة والانقيـاد المسمّى بمحرز بن زياد" (2) .

كما أوردت هذه المصادر عبارات أخرى فيـها شماتة وتشفّ من هذه القبائل ، منها : «حاق الويل بهلال بن عامر » أو البيت القائل :

عصفت رياح جنودكم برياحه فهفت جوانحها وخفّ مطارها (3)

لكن نفس هذه المصـادر امتـدحتـهم وأثنت عليـهم طويلا ، لمشاركـتهم في حـروب الاندلس . وقد حـبّرت الرّسائل في هذا الغرض ، وألقـى ابن طفيل وغيره قـصائد مطوّلة يشيدون فيها بشجاعة العرب، كما تحدثت الرّسائل عن الموحدين واخوانهم العرب، فيما امتلأت القصائد في وصف خصال بني هلال وسليم (4).

ولئن هدأ هذا التـشنّج شيئـا ما في فتـرات الاستقـرار أثناء الحكم الحفـصي ، فانّ النظرة الى البدو عامّة وإلى الأعراب خاصّة ظلّت مشوبة بالحذر والاحتقار .

فـقد أطلق عليـهم العـبدري تسـمـية العـربان ، وهم الذين حـاصروا المدن (باجـة وطرابلس وغـيرها)، و" **اسـتوى لديهـم الصالح والطالـح واتفق في مذاقـهم لكفـرهم ونفاقـهم كل عذب ومالح... عـلى كلّ مرقب منهم عقـاب، يرقب الضيـفان ليقـريهم أمر عقـاب. فمـا يمرّ بتلك المسـالك سالك ولا يخطر عـلى تلك المعابر عـابر، ولا يرى في تلك المناهل ناهل الا انقضوا عليه انقضاض الصقور على البغاث..**"

---

(1) أنظر على التـوالي : **رسـائل موحـدية**، ص 32، 33، 101، 110، 111، 117، 146، 157، 187، 194، 202، 206، 257 ، 26، 35 . ابن عذاري ، **البيان** ، ج III ، ص 187، 192، 195، 244، 255 .

(2) ابن صاحب الصلاة ، **المن بالامامة**، ص 123. **رسائل موحديّة** ، ص 257.

(3) **رسائل موحديّة** ، رسالة عدد9 ، ص 26-35 - ابن عذاري ، **نفسه** ، ص 255 .

(4) **رسائل** ، ص 160، 220 - راجع الفصل المتعلّق بهذه الحقبة .

أمّا ناحية برقة ، " **فسكانها من الأعراب كل فظ غليظ يحرج بجفائه الاحنف ويغيظ ، حتى تكاد منه النفس تفيظ ، لا جرم أنهم يقرّون النزيل ..** " (1) .

وكما أسلفنا القول في فصل سابق ، فانّ رؤية ابن خلدون تميّزت بالشمولية والاعتدال والاقتراب من الموضوعية ، إذ فتن بخصال الأعراب (أو العرب حسب تعبيره) ، كما تعرّض لهم بالنقد ، وكذلك فعل مع أهل الحضر .

فقد وضّح في الفصل "**في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره . وأنّها مؤذنة بفساده** " ، ما تؤول اليه رقّة الحضارة من مفاسد ، مثل الانهاك في الشهوات لكثرة الترف، متخلّصًا الى القول : « **واذا فسد الانسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه ، فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على الحقيقة** " ، ومشيدًا في الآن نفسه بالخشونة والبداوة في حياة الجند (2) .

كما تعرّض ايجابا الى البدو في الفصل الرّابع الذي جاء تحت عنوان " **في أنّ أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر** " ، والخامس في أنّ **البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر** " ، والسّادس " **في أنّ معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم** " ، والسّادس عشر " **في أنّ الامم الوحشية أقدر على التغلّب ممّن سواها** " .

وذكر كذلك مساوي الأعراب ، في الفصل الخامس والعشرين في قوله : " **في أن العرب لا يتغلّبون الا على البسائط** " ذاكرا بالخصوص انهم " **بطبيعة التوحّش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث** " ، وكذلك في الفصل الموالي : " **في أنّ العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب** " ، مبينا عدم انقيادهم للدولة وأن "**رزقهم في ظلال رماحهم**" ، وانه " **ليست لهم عناية بالأحكام وزجر النّاس عن المفاسد ، ممّا أدّى الى خراب العمران واندثاره** " (3).

وفي طيّات كتاب التاريخ ، كثيرا ما اقتصر على ذكر لفظة العرب ، على أنّه أشار الى بعض قبائلهم في عبارة" زعنفة من الأوغاد" . وهو الذي وصف قدومهم بالعبارة الشهيرة : " **سارت قبائل ذياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال الى افريقية كالجراد المنتشر لا يمرّون بشيء إلا أتوا عليه** " (4) .

وتحدّث الزركشي عن عيث العرب ، ونهبهم للبلاد وإكثارهم للغارات على مدينة تونس وافتتان العربان (5). وقد لخّص ابن ناجي ، على لسان صالح الصدفي، موقف الخوف من الأعراب في هذه الرواية ذات الدّلالة الهامّة : سأل يعقوب الزعبي صالح

(1) العبدري، **رحلة** ، ص 86،83. وذكر العربان في الصّفحات التالية : 239،236،83،77،36.

(2) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 665–666 .

(3) راجع المقدّمة ، الفصول المذكورة . (4) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 735، 31 .

(5) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 47 ، 50، 56، 57 ، 63 .

الصّدفي " **أين القطب اليوم؟ قال : بافريقية . قال : في المصورات أو في القرى ؟ قال : في القرى : ما دليلك ؟ قال : افريقية طريق شمس وجراد وعرب وبرد ، والطعام فيها بعشرين درهما القفيز** " (1) .

فالأعراب عدّوا كارثة لا تختلف عن بقيّة الكوارث الطبيعية ، وهو موقف مرتبط بطبيعة العلاقة بين المدينة وباديتها وخصوصًا أعرابها .

ب) مجتمع الحضر بين مقاطعة الأعراب والتّعامل معهم :

طرحت منذ أواسط القرن الخامس هـ/ XIم، مسألة التعامل مع الأعراب، ومدى مشروعيتها. وكان موقف الفقهاء متصلّبا في الجملة، رغم اختلافات طفيفة مرتبطة بالظرفيّة التاريخيّة .

ففي بداية الانتشار البدوي بافريقية، دعا أبو القاسم السيوري إلى عدم معاملة الأعراب ومخالطتهم، لأنّ جلّ مالهم مغصوب، وقد ذهب به التحرّي الى حد الامتناع عن أكل لحم الحيوان ولباس جلده، فكان لا يتعامل مع الدبّاغين الذين يشترون جلودا قد تكون لحيوانات مغتصبة، ولا يلبس نعلا ولا خفافًا الاّ من جلد وحشي أو شيء يعرف أصله . كما كان يمتنع في الكتابة على الرقّ الاّ اذا كان قديما يرجع إلى قبل " حدوث الفتنة " سنة 449هـ/ 1057، أو معروفا أصله (2) .

ولم يكن اللّخمي أقل تحريًا لما سئل « **عمن شرى بكرا من العرب يستعمله في السّني والحرث وغير ذلك من أنواع الفلاحة ليستعين بذلك على ضرورياته وأداء المغرم** » (3).

وبعد نحو نصف قرن من الزّمن ، طرحت على المازري مسألة شراء اللّحم من القصّابين " مع غلبة الحرام والمغصوب على أهل المواشي" . فأجاب بانّ مبايعه الاعراب أمر لا يجوز لأنّ ما بأيديهم مغصوب ، لكنّ مبايعة من بايع الأعراب، أمر أقلّ ضررا من التعامل معهم مباشرة (4) .

وهكذا بدأت حلول العلماء تتّجه نحو اللّين والقبول بالأمر الواقع ببلاد المغرب .وقد ذهب ابن رشد الى إحلال التعامل مع الأعراب والشّراء والبيع منهم (5). لكن تصلّب

(1) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 169 .

(2) البرزلي، **جامع** ، ج III ، ص 36 ، 41 ب ، 139أ– ب . ورد في نقيشة رومانية عثر عليها بآبر انّ الآفات الأربعة هي البرد والجراد والصّدأ والاعصار . راجع :

N.Ferchiou,A propos d'une inscription magique grecque, **C.T.**, N°.127-128,pp.9-30.

(3) **ن.م.** ، ج III ، ص 176أ.(4) **ن.م.** ، ج III ، ص 173أ.(5) الغرناطي ، **مسائل**، لم تختلف مواقف البربر الاباضيّة من الاعراب عن مثيلاتها في الحواضر السنيّة. راجع : الوسياني، **سير**، ص 1212أ.

الفقهاء في دعوتهم لمقاطعة الأعراب برز من جديد ، في بداية العهد الموحدي وكذلك طيلة القرن الثامن ونهاية التاسع هـ ، بعد أن نشطت حركة القبائل المستقلّة عن السلطة المركزيّة. وقد وصل الأمر بأحد الحرفيين بسوق الجبّة في العصر الموحدي الى الاشتكاء بصاحبه الى القاضي، لأنّه يتعامل مع الأعراب (1) .

ومن نافلة القول أنّ هذه المقاطعة لا تعني الأعراب الخاضعين للدّولة، وأنّها لم تخصّ سوى القبائل النابذة، ولذا فقد أعيدت صياغة السؤال المطروح على ابن عبد السلام (المتوفى سنة 749هـ)بالكيفيّة التالية : " **سئل عن الشراء من الأعراب الذين لا شغل لهم الاّ الغارات وانتهاب أموال النّاس والرّكوبات وغيرهم** " (2) .

وبالتالي ، وقعت التفرقة بين صنفين من الأعراب ، الموالين للمخزن والخارجين عن طاعته. ونلحظ هذا الموقف واضحا في ردّ ابن عرفة على سؤال طرح عليه ، حول دخول العرب غابة مدينة تونس، اذ اعتبرهم غصّابا ومحاربين اذا كانوا من أهل الخلاف. أمّا اذا كانت " **للسّلطان بهم حاجة** " ، وتعدّوا على المزروعات والغروس وسلبوا النّاس، فانّه يقع التعامل معهم بلين لدفعهم، ولا يمكن اعتبارهم محاربين (3). وأضاف البرزلي أنّ السّلطان يحقّ له مصالحة الأعراب والاستعانة بهم اذا كان في حاجة الى إقامة جيش أو أعجزه مجباه (4) .

ولئن دعا قاضي الجماعة ابن القداح الى عدم شراء " عشور الأعراب " وهي الجباية التي تؤخذ منهم ناهيا والد ابن عرفة عن فعل ذلك، فإنّه لم يتردّد في اقتنائه لنفسه، ولما أستفسر عن هذا التضارب في سلوكه، علّل ذلك بحجّة واهية ، قائلا : « **إنّ الفقيه يعرف كيف يتصرّف في الشّراء والبيع** » (5).

فهل معنى ذلك أنّ هذه المقاطعة كانت مجرّد كلام نظريّ، وأن كلّ الشرائح الاجتماعية بما فيها السلطان والعلماء أجبروا على التّعامل مع البدو ؟ على أيّة حال ، فاذا كان فقهاء القرن الخامس هـ يدعون الى مقاطعة كليّة ، فانّ أهل القرن الثامن هـ دقّقوا مواقفهم كما تبيّن هذه التساؤلات المطروحة أنذاك حول مدى شرعيّة شراء الحيوانات والدّواب من أعراب ذلك الزّمان الذين عرفوا بالاغارة: « **هل يجوز اذا ثبت ان الحيوان المباع غير مغصوب أولا يجوز، لانّ غالب ما بأيديهم مغصوب أو نسل مغصوب، وهل شراء الابل منهم أخفّ من غيرها لكون الغالب فيها أنّها أملاكهم. غير أنّه يغصب بعضهم بعضا فيها، وهل ما غصب بعضهم لبعض مثل ما غصبوه للرّعايا، وهل يجوز شراء ما جلبوه من الطّعام المغصوب من موضع بعيد، وهل يجوز أكل ما طبخوه من طعامهم من**

(1) الابي ، **الاكمال** ، ج V ، ص 31 . (2) الغرناطي، **نفسه** ، ص 1212. (3) البرزلي، **ن.م.** ، ج ، ص 239 ب .
(4) البرزلي ،**ن.م.** ، ج ا ، ص 138 (ذكّر البرزلي في هذا الصّدد ما كتب به يوسف بن تاشفين الى أهل المريّة طالبا الاعانة ، فكان له ذلك) .
(5) **ن.م.** ، ج ااا ، ص 58 ب .

لحم وغيره، وهل يجوز مبايعتهم بالدّنانير .. واذا تاب أحد من هؤلاء وبيده أملاك لا يعلم مالكها ولا ورثته ، لمن يكون هذا: للفقراء أو لبيت المال ، وهل يجوز التمسّك بشيء منها إن كان فقيرا ؟ » (1).

ولم تكن الأجوبة أقلّ تفهّما للظرفية الاقتصادية لبلاد المغرب، التي تحتّم ضرورة التّعامل بين البدو والحضر. ولذا فقد أجاز بعض الفقهاء ومنهم البرزلي المعاملة معهم وأخذ أموالهم ، معتبرين أنّ حكمهم هو حكم من أحاط الدّين بما له ولم يفلس، فأباحوا أكل طعامهم ومبايعتهم العروض والبضائع، واشتراء الانتاج الزراعي الذي نقلوه من مكان بعيد، بعد التثبّت من أصحابه. واشترطوا في عدم التّعامل معهم معرفة مالك الشيء المغصوب (2) . وبهذا حصروا المقاطعة في صنف محدّد من البضائع .

ومهما كانت مدى فاعلية هذه الاحكام الفقهية، فقد انعكست سلبًا على المبادلات بين المدينة وباديتها ، ولم تساهم في تنشيطها ، ممثّلة عائقا قانونيا هاما . وقد أزدادت هذه الاحكام شدّة في فترات التوتّر بين المجالين والنزاعات الحاصلة بينهما. وبديهي القول أن العلماء انحازوا في الغالب الى مجتمع الحضر في مختلف مواقفهم (3) .

ولم تسلم الهبة التي قدّمها البدوي من مال أو رقيق من التحرّي في أخذها أو ردّها له أو بيعها، باعتبار أن الغصب هو السّمة البارزة لماله (4) .وعموما ذهب بعض العلماء الى رفض هبة الأعراب للمؤسّسات العامّة، مثلما وقع في مدينة المازونة، لّما تصدّق أحد أمراء العرب على مدرستها " بزوج ترابية" (ربع عقاري لنحو 12 هكتارا). وممّا ورد في هذه النّازلة التي طرحت على كل من علماء بجاية وتونس وتلمسان، وأجاب عنها أبو القاسم البرزلي وعمر القلشاني وغيرهما : « **لا يحلّ لمن ينتسب الى العلم أن يقبل شيئا من ذلك ممّا في يد الأعراب المتغلّبين على الأوطان اذ ذاك كقبول الهبة من غاصب** " (5).

على أنّ هذا الموقف المتصلّب لم يكن معمولا به بافريقية على العهد الحفصي في الغالب ، ومعروف عن فقهاء القيروان انهم كانوا يجالسون الاعراب ويتعاملون معهم تجارة وزراعة ، ويقبلون منهم الأحباس والهبات (6) .

ويتّضح مما سبق أنّ الحرابة تعتبر المعضلة الاساسيّة في طبيعة التعامل بين المدينة والبادية.

واذا كان هذا التّعامل أكثر أهميّة في جهة القيروان لتبدّيها ، فانّه لم يرتق الى مرحلة

(1) **ن.م.** ، ج ااا ، ص 37 ب .(2) البرزلي ، **ن.م.** ،ج ااا ، ص 38 ب – 139. (3) **ن.م.** ، ج اا ، ص 131 ب .هذه الحادثة التي وقعت بين تاجر وبدوي اشترى منه الثياب تبيّن ذلك، وصورتها أنّ الأوّل ادّعى انّه لم يقبض الثمن، والثاني أصرّ على العكس . ورغم أنّ العادة المعمول بها بتونس هي دفع الثّمن عند تسلّم البضاعة، فانّ القاضي أقرّ بقول التاجر، محمّلا البدوي المسؤوليّة . على أنّ البرزلي أنكر هذا الحكم .
(4) **ن.م.** ، ج ا ، ص 1236.(5) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 242–247 .
(6) انظر عديد الامثلة في ابن ناجي ، ج IV ، ترجمة الشبيبي .

متطوّرة في الحواضر الكبري مثل مدينة تونس، حتّى أن تناول العلماء الطعام مع أهل البادية كان يعدّ حراما لدى فئة العلماء. ومما يذكر في هذا الصّدد أنّ ابن الطوّاح استنكر حديث الفقيه أبي علي عمر بن محمد بن علوان الهذلي الصقلي مع أحد الاعراب بمدينة تونس، وطلب منه حمل عسل جيّد مقابل إصدار حكم لصالحه. وبخلاف ذلك فانّ المرابطين كانوا ينزلون بأحياء العرب، ويستضيفونهم، فيقبل المرابطون ذلك على أساس أنّه صدقة، أو تحاشيا للمفسدة التي قد تنجرّ من المقاطعة (1).

والحقيقة أنّ هذا الحكم لا يقتصر على الأعراب فحسب، إنّما شمل كذلك أهل البادية بصفة عامّة، وهو موقف يشوبه احتراز وخوف تارة، واحتقار طورا. فقد شكك أحد العلماء في جوابه عن سؤال طرح عليه سنة 514هـ/ 1120م في شهادة أهل البادية لضعف عقولهم (2).

واتخذ الموقف نفسه علماء العصر الحفصي (وخاصّة طيلة القرنين الثامن والتّاسع هـ)، الذين علّلوا هذا الاحتراز من قبول شهادة أهل البادية بكثرة الفساد بها.

واشترطوا أن يكون من يقوم بها معروفا بعدالته سواء أكان شخصا أم جماعة وهو أمر لا يتيسّر إثباته بسهولة لجهل العالمين بعضهما بعضا: البادية والحاضرة، وضعف إشعاع المدينة على ناحيتها، حتى أنّ سلطة القضاة بالمدن لا تشمل في الغالب القرى التي تبعد عنها نحو 30–40 ميل، الذين يكلّفون بطريقة مستقلّة رجالهم الموسومين بالعدالة للبحث في المسائل الخاصّة بالمعاملات من عقود زواج وديون وانتقال الملكية وغيرها لأنّ قاضي المدينة لا يعرف عدو لهم وثقاتهم (3).

ج) دور المشائخ والجماعات المحليّة داخل المجال الذي " لا تناله الاحكام الشرعيّة ":

حظي شيوخ الأعراب بسلطة قوية داخل المجالات التي سيطروا عليها، إذ كثيرا ما قاموا بدور المؤسسات القضائية المعمول بها في المدينة، نتيجة غيابها في البادية، فعوّضوا العدول الذين حرّروا عقود الزواج والطلاق والبيوع والوصايا. ولم يتعوّد أهل البادية في ذلك العصر التنقّل إلى المدينة المجاورة للتوثيق، انما أعتمدوا في معاملاتهم على العقود الشفويّة والاتفاق اللّفظي بين الأطراف، بشهادة شيوخ القبيلة (4).

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج III، ص 204ب (تناول أحد العلماء طعاما مع رجل من أهل البادية، فاعتبر فضيحة)، الابي، **ن.م.**، ج VI، ص 167.

(2) البرزلي، ج III، ص 1189.

(3) البرزلي، باب القضاء. الغرناطي، مسائل، ص 206 ب.

(4) البرزلي، **جامع**، ج I، ص 283ب. ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 121 (تعوّد أصحاب الشيخ العبيدلي القاطنين بحارة المرابطين بالقيروان على الشهادة في زواجهم وعدم قبول العدول المعينين من السطلة الحفصيّة. على أنّ الفقهاء انكروا هذا التصرّف البدوي داخل المجال الحضري، وكان الرمّاح قد شجب زواج الأعراب بدون عدول).

واُعتبر هذا المجال في نظر العلماء والفقهاء لا تناله "الأحكام الشّرعية"، وهو في الغالب لا يبعد أكثر من مرحلة عن المدينة: فجبل وسلات كان من هذا الصّنف رغم أنّه لا يبعد عن القيروان أكثر من 35 كم، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى بعض القرى المجاورة لمدينة تونس.

وبالتالي فإنّ البدوي الذي ضغطت عليه المجموعة المحليّة لتطبيق قرار ما، التجأ الى السّلطة الثقافية والسّياسية بالمدينة لاشتكاء أمره. واذا عُدّ تطاولا على قانون المجموعة البدوية بالنّسبة إلى المرأة، فانّه يبدو أمرا مستحسنا من قبل علماء المدينة الذين يرون فيه خروج من محل لاتناله الأحكام الشرعيّة والتجاء الى الشّرع والاعتراف به.

وينهض تعدّد هذه المسائل حجّة على الشروخ التي أصابت المجتمع البدوي وقوانينه "العرفيّة" وما يعني ذلك من ضعف سلطة الأعيان المحليين خاصّة في المناطق الجبليّة مثل جبل وسلات وجبل معروف وبلاد هوارة (جبل برقو وجبل السّرج) (1)

وعلى العكس من ذلك، ظلّت سلطة مشائخ الأعراب قويّة طيلة العهد الحفصي، كما تدلّ عليه هذه المسألة التي أوردها البرزلي:

« وكذا وقع في هذا العام الفارط الذي هو عام 809هـ بامرأة هربت من معروف جبل على مسير مرحلة من القيروان اليها، فتسبّب زوجها في اخراجها حتى بلغت الى تونس، فأمر أمير المؤمنين نصره الله ومكّنها من الشّرع. فكان رأى أنّها لا تمكّن منه بوجه الاّ تشاء. فضمّنه على ما سمعت شيخ العرب أبو حرب صولة بن خالد. فخرجت حينئذ معه. وذكر لي زوجها بعد ذلك انّه حسنت العشرة بينهما، وهي قريبته» (2). وقد لعب شيخ الأعراب دور الضّامن في النزاع الشائك الذي بتّ في أمره السلطان، باعانة شيخ الكعوب.

وفاقت أحيانا سلطة مشائخ الأعراب نفوذ قاضي الجماعة بتونس، من ذلك تدخّل بعض مشيخة العرب لدى السّلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر كي يعدل قاضي الجماعة، ابن عبد الرّفيع عن قراره في تعيين أبي عبد اللّه الرمّاح قاضيا على الحامّة، بعد أن أظهر هذا الأخير رفضه للخطّة، فيما أصرّ ابن عبد الرفيع على تطبيق قراره (3).

وإلى جانب دور شيوخ الأعراب على مستوى السّلطنة، واسهامهم في حلّ ما استعصى من قضايا بين البدو، والتدخل كذلك في النزاعات الحضريّة –حضريّة، فانّ سلطتهم داخل قبائلهم وعشائرهم ظلّت قويّة في بعض الأحيان، وخاصّة عندما يداهمهم خطر مشترك.

كما اُستمرّت اللّحمة داخل القبيلة الواحدة، حتى أنهم عرفوا بتواتر شهادتهم من

(1) البرزلي، **نفسه**، ج I، ص 1217– 277 ب.

(2) البرزلي **ن.م.**، ج I، ص 277 ب – 1278.(3) **ن.م.**، ج II، ص 190 ب.

واحد الى آخر وتطابقها ، وبمسـاندة بعضهم في السرّاء والضرّاء ، **« ينتصر الحيّ للحيّ إذْ قوتل ويطلب دمه اذ قتل »** (1) .

لكن هذه العصبيّة بدأ يعتريها الضّعف وتخترقها السّلط المنافسة لها من الخارج نتيجة بسط السّلطان نفوذه على البادية ، أو من الدّاخل نظرا إلى انخرام التّوازن البدوي التّقليدي ، وما يعني ذلك من بداية استقرار المجموعات البدويّة وتقدّم نفوذ المرابطين وأهل الزّوايا في البادية .

2) فتاوى الفقهاء المتعلقة بالحرابة :

عرّف ابن عرفة الحرابة بكونها **« الخروج لاخافة سبيل لأخذ مال محترم بمكا برة قتال أو خوف أو لذهاب عقل أو قتل خفية أو لمجرّد قطع الطّريق لا لإمرة ولا نائرة ولا عداوة»** (2) .

وقال ابن الحاجب : انّها كلّ فعل يقصد أخذ المال على وجه تتعذّر فيه الاستغاثة.

وورد في شرح القلشاني : المحارب هو القاطع للطريق المخيف للسّبيل الشّاهر للسّلاح الطّالب للمال، فان أعطي والا قاتل عليه كان في مصر أو خارجا عنه. و أعتبَر الخنّاقين الذين يسقون النّاس السّيكران ليأخذوا أموالهم محاربين (3) . أما حكم المحارب ، فقد قال مالك في شأنه : **" وحدّ الحرابة أربعة : القتل أو الصّلب أو القطع من خلاف أو النّفي "** . وكان يقول في أعراب قطعوا الطّريق : جهادهم أحبّ إليّ من جهاد الرّوم (4) .وكذلك قال سحنون في المدوّنة إنّ قتال المحاربين جهاد (5) .

وفي رسالة ابن أبي زيد أنّ الجماعة تقتل بالواحد في الحرابة ، بمعنى أنّ المسؤولية جماعية ، تتحمّلها كلّ الجماعة التي ينتمي اليها المحارب .

وخلافا للمشرك فلا يجوز أن يؤمّن المحارب . ولا يقع العفو عن الهارب اذا ظفر به ، على أنّ إقامة الحدّ تسقط بتوبة المحارب قبل القبض عليه، لا بعده (6) .

وقد لخّص ابن الشمّاع أحكام الحرابة في آخر كتابه ، و رأينا إثبات هذا النّص نظرا إلى أهميّته في الابانة عن موقف العلماء من الأعراب المحاربين :

(1) ن.م. ، ج II ، ص 1226، ج IV ، ص 211ب .
(2) الرصّاع، **شرح حدود ابن عرفة** ، تونس 1350 هـ ، ص 508 . القلشاني ، **شرح الرسالة** ، ج I ، ص 136 ب ابن عرفة، **مختصر** ، ج IV، ص 1175. البرزلي ، **جامع** ، ج IV ، ص 1237. ابن راشد، **الفائق**، مخ 12292، ج I، ص 132.
(3) القلشاني ، **شرح رسالة** ، ج II ، ص 136 ب .
(4) القلشاني، **شرح رسالة** ، ج II، 136 ب . ابن عرفة، **مختصر** ، ج IV ، ص 1176.
(5) القلشاني ، ن.م. ، ص 136 ب . **قرآن** : سورة المائدة ، الآية 23 : " إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا » .
(6) القلشاني ،ن.م. ، ص 139 ب – 1137. حول مفهوم الحرابة، راجع أيضا : ابن راشد، **الفائق**، ج IV، ص 1132.

«واذ أخاف المحاربون السبيل، وقطعوا الطريق وجب على المسلمين التعاون على قتالهم من غير ان يدعوهم الامام – ان كان– . ويجب على جميع المسلمين التعاون عليهم ، وكفهم عن اذاية المسلمين، فان انهزموا لم يتبع منهم مدبر الا أن يكونوا قتلوا أو أخذوا مالا، فان كان ذلك اتبع ليؤخذ بما جنى وقوام عليه ما وجب بحرابته لا يدفع من خرج منهم الا أن يكون قد قتل ، فان أخذوا ووجد في أيديهم مال لاحد بعينه رد اليه أو الى ورثته ، وان لم يوجد له صاحب جعل في بيت المال، وما اتلفوه من مال لأحد غرموه ، واجمع أهل العلم على أن السلطان ولي من حارب، فان قتل محارب أخا لا عدوا أو اذاه في حال المحاربة فليس الى طالب الدم من أمر المحارب شيء، ولا يجوز له عفوه في الدم ، والقائم بذلك هو الامام ، جعلوا ذلك بمنزلة حد من حدود الله»(1) .

وبديهي القول أنّ هذه الاحكام النظريّة القاسية عبّرت عن واقع إجتماعي مهتزّ، كثرت فيه عمليات السّطو والقطع ، وخاصّة في المجال البدوي ، إذ كثيرا ما أعتبرت القبائل البدوية في أعداد "البلاد التي لا تنالها الاحكام الشرعية " وعوملت معاملة " المحاربين العصاة " أو المنتمين الى " دار الحرب" . مما يخوّل للسلطان ، متى ظفر بها ، إباحة أموالها وغنم ماشيتها .

و جاء الفقه ليدعّم موقف السّلطة المخزنية ، فأصدرت الفتاوى في هذا الغرض، ومن بينها فتوى ابن عرفة في اباحة أموال البدو. و أورد الونشريسي النازلة التالية في هذا الغرض :

« سئل ابن عرفة عن السّلطان إذا ظفر بفرقة من بوادي افريقية وجلّهم مستغرق الذمّة ، فأجاب « بإباحة أموالهم عملا بالاغلب حتى يتحقق أهل الحلال منهم لأنهم عصاة بمكاثرة المحاربين وتكثير سوادهم» (2). على أنّ فتاوى ابن عرفة لم تقتصر على استباحة أموالهم ، إنّما ذهبت الى حدّ أكثر من ذلك ، وهو استئصال شأفتهم وتكفيرهم واعلان الجهاد ضدّهم . وتأتي القضيّة التي سأل عنها فقيه المغرب الأوسط،

(1) ابن الشماع ، الادلة ، ص 135.
(2) البرزلي ، **جامع** ، ج I ، ص 165 ب . الونشريسي ، **المعيار** ، ج VI ، ص 156 .

الأوسط، أبو العباس أحمد المريض، سنة 796 هـ / 1393م ابن عرفة حجّة على ذلك، وهي تتناول الصّراع الحاصل بين السلطة الزّيانيّة وقبائل الديلم وسعيد ورياح وسويد (1).

ولئن أفتى الفقهاء باستئصال شأفة المحاربين وقطع دابرهم، فانه لم يكن في وسعهم في غالب الأحيان القيام بذلك. بل أنّ السلاّبة كانوا يهجمون على الحضر، دون ردّ فعل حقيقي. وكان الأمير يناولهم الدّراهم من بيت المال مداراة لهم، وذلك للعجز عن دفعهم في كثير من الأوقات، " **لعدم نجابة أهل المدن في الفحص وعدم قدرة شيخهم على دفعهم** " حسب عبارة ابن ناجي.

ومثال على ذلك ما وقع في عهد السلطان أبي العبّاس أحمد، لما حاصر المقاتلة الاعراب جيشه في ناحية باب خالد. واستفسر الأمير الفقهاء في " **إخراج أهل تونس لاعانته** "، فوافقه بعض العلماء في ذلك، فيما عارضه كلّ من أبي عبد الله محمد الضّريف وأبو عبد الله محمّد البطرني، بحجّة " **عدم نجابة أهل تونس في الفحص مع الاعراب** "، بل أنّ خروجهم للحرب وفرارهم منها قد يساعد على هزيمة الجيش.

(1) الونشريسي، **المعيار**، ج VI، ص 152-156. رأينا إثباتها لاهميتها: «سئل الامام أبو عبد الله بن عرفة عن قضيّة قتال الديلم وسعيد و رياح وسويد وبني عامر، أمراء عرب المغرب الأوسط سنة 796 هـ. وكان السّائل له الفقيه أبو العباس أحمد، فكتب اليه بما نصّه بعد اختصار بعض ألفاظه:

جواب سيدنا أمتع الله بكم عن مسألة وهي: جماعة في مغربنا من العرب، تبلغ ما بين فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف أو تزيد، ليس لهم الا الغارات، وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق ويأخذون حرم الاسلام أبكارا وثيبا، قهرا وغلبة. هذا دأب سلفهم وخلفهم، مع أنّ أحكام السّلطان أو نائبه لا تنالهم، بل ضعف عن مقاومتهم، فضلا عن ردعهم. بل انّما يداريهم بالأعطية والإنعام، ببعض بلاد رعيته، ونصب عمالهم فيها، وقطع نظر عمال السلطنة عن النظر في حياتها وفصل أحكامها. ثم هم مع ذلك لا تأمن الرفاق من جانبهم نصبوا الغارات على هذه البلاد التي نحن بها، وقاتلوا من عاجلوه، وقطعوا الطرقات، وطلبوا على قطع رقاب المساكين، وأخذ أموالهم وسبي حريمهم، فأمرناهم بقتالهم وصرّحنا بأنّه جهاد، لما قاله مالك في المدوّنة.

فاجتمع النّاس على قتالهم، فهزمهم الله وقتل منهم خلق كثير. فانكر ذلك علينا بعض المنتمين للعلم بهذه البلاد، بل كلهم. فاستظهرنا عليهم بنصوص أهل المذهب كنصّ المدوّنة وما في آخر الجهاد للجلاب، وبقول الباجي بقتل اللّصوص اذا أتوا للقتال، وطلبوا مالا يجب أن يعطوه، وأنّ مالكا وابن القاسم وأشهب قالوا: جهادهم جهاد. وروى أشعب عنه أنّه أفضل الجهاد وأعظمه أجرا. ويقول مالك في أعراب قطعوا الطريق: جهادهم أحبّ اليّ من جهاد الرّوم وبالحديث: من قتل دون ماله أو دون المسلمين فهو أعظم لأجره.

وأمرتهم أيضا باتّباعهم وقتلهم بعد الهزيمة، اذ لا تكسر شوكتهم بهزيمة واحدة لقوّتهم، كما أشرنا لكثرة عددهم ... وأفتيناهم فيما بأيديهم من الأموال أن تؤخذ، وجعلناه فيئا اذ هم مستغرقو الذمّة، واستظهرنا عليكم بكلام صاحب التقييد والتقسيم في أموال الغصاب ومستغرقي الذمّة. فلم يكن لهؤلاء جواب الأ سمعنا من فلان. وأردنا جوابكم الشافي في المسألة، اذ ليس في مغربنا من يستفتى في المسألة، ولا من يعوّل عليه غيركم.

فأجاب: جميع ما ذكر من قتال هؤلاء وجهادهم والاشارة لثواب مجاهدتهم ورجحانه على جهاد الكفّار، غير مبتدئين قتال المسلمين، صحيح، لا ينبغي لمسلم مخالفته. وكذلك ما ذكر من استباحة أموالهم واتباعهم في هروبهم والإجهاز عليهم، لا يشكّ في ذلك الاّ مغرق في الجهل ومعاند في الحق ...

وأجاب عنه الفقيه القاضي الامام أبو مهدي سيدي عيسى بن أحمد بن محمد الغبريني بما نصّه: ... جميع ما افتيتم به في القضيّة حقّ وصواب»

وذهب ابن ناجي الى تأكيد صحّة هذا الرّاي، مضيفًا الى ذلك مثال هزيمة المعزّ بن باديس في موقعة حيدران، رغم وفرة جيشه. كما استند الى ما يقع بوطن القيروان بكثرة وهو أن يأتي المحاربون لبعض المرابطين السّاكنين في القرى، فيطلبونهم في ما ياكلون وما تعلف به بهائمهم، ثم يغيرون على النّاس بعد انصرافهم من عندهم، وقد كان هؤلاء المرابطون مجبرين على فعل ذلك، وإلاّ فانّ المحاربين يغيرون على ماشيتهم ويفسدون زروعهم.

عموما، ساند فقهاء القيروان وعلماؤها معاملة شيوخ الزوايا المرنة للأعراب، بخلاف فقهاء تونس الذين عابوا هذا التصرّف بدعوى أنّهم قادرون على الخروج من الرّيف وسكنى الحاضرة. أمّا الشبيبي، فقد علّل هذا التصرّف بقوله: " **لولا أنّا [ما] عندنا مرابطون على هذا النظام يطعمون لكلّ من يصل من فقير ومحارب للضرورة وغيرهما، لخربت الأوطان وكان الفساد أكثر** "، بل أنّه ذهب الى تشجيع هذا السّلوك، وذلك بأن أمر بتعمير قرية تسمّى باسمه (1).

إنّ هذا السّلوك الذي اتّبعه الشبيبي قد ارتبط بالوضعيّة التي كان عليها وطن القيروان، والمتمثّلة في سيطرة البدو، وانتشار التبدّي. وبالتالي لا يمكن أن نعتبره تساهلا أو تحالفا مع الأعراب، بل على العكس من ذلك كان الشبيبي يشتكي من كثرة " **ما تأخذه الأعراب منهم على زروعهم في كلّ عام** ". والأمر نفسه أقرّه ابن ناجي، الذي تحدّث عن استفحال ظاهرة النّهب بالقيروان في زمانه (2).

ومن هذا المنظور فانّ السلطان أبا فارس عبد العزيز اعتبر مصلحا لانه " **قطع الزّيغ والفساد من أهل البادية والبلاد، وقاتل المحاربين وأهل الخلاف...وفرّق جمعهم وشرّدهم في الصّحاري والبلاد وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم وألجاهم الى شرّ البقاع** " (3).

وممّا يذكر في هذا الصّدد أنّ الطبيب أبا العباس أحمد الخميري المغازلي اعتبر قتال الاعراب أمرا مستحسنا (4).

ومجمل القول، فإنّ علماء مدينة تونس بمختلف شرائحهم، خلافا لعلماء القيروان، اعتبروا جلّ الأعراب محاربين، يجب القصاص منهم كلّما أمكن ذلك، محرّضين على التشدّد في زجر المعتدين على غيرهم " **لفساد الزمان وكثرة الهرج فيه** " (5).

(1) ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 1226.

(2) ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 205 ب، 1226.

(3) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 179 ب.

(4) أبو العباس أحمد الخميري الشهير بالمغازلي، **تحفة القادم**، ص 112. ممّا جاء في كتابه: «أجمع الأطباء على أن الحركة والرياضة المعتدلة أفضل ما أستعمل الانسان في حفظ الصحّة وأجلّها وأعظمها منفعة للنفس والبدن خصوصا اذا كانت في وجوه التقرب الى الله كالغزو وقتال الاعراب لما هم عليه من الفساد في البلاد ونهب العباد. وقالت العلماء إن سفك دمهم جهاد لأمن الثغور وتقوية بيضة الاسلام وأمن الخائف»

(5) الغرناطي، **نفسه**، ص 220 ب.

3) نموذج من انتفاضات البدو بوسط افريقية :

أ) حرابة البدو :

عرفت الأزمة خلال القرن الثامن هـ ازدياد عمليات السّلب والنهب ، حتى عمّ الخوف في المسالك وأزدادت حيطة المسافرين ، وقد أصبحت عبارة " **ان العرب تستقطع على الناس** " شائعة في المجتمعات القروية والحضرية . وشملت هذه العمليات أغلب المسالك الرابطة بين صفاقس والمهدية والقيروان والجريد أو القيروان وباجة ، فكانت القوافل المحمّلة بالزّيت والقادمة من قفصة في اتجاه القيروان معرّضة للسّلب في نهاية القرن السّادس هـ/XII م . وفي أواسط القرن السّابع هـ/ XIIIم ، أغارت مجموعات من فرسان بني وائل من حكيم مكونة من مائة فارس على بلاد الجريد، كما تعرّضت قبيلة بني أحمد وهي فرع من دباب ، الى القوافل المحمّلة بالتّمر والقادمة من الجريد في اتجاه القيروان في النّصف الأول من القرن الثامن هـ / XIVم .

أمّا طريق القيروان –باجة ،فقد سيطرت عليها القبائل العربية في النصف الثاني من القرن الثامن هـ ، حتى أنّ أحد التجّار لم يسلم من بطشهم الاّ بصعوبة. ولم يعر الفرسان اهتماما كبيرا للمقدّس لدى أهل القرى حتى أنّ الأماكن المخصّصة للتعبّد ، مثل جبل ماكوض قرب ساحل البحر بجزيرة شريك، لم تسلم من هجوماتهم ...

وخلال هذه الحقبة، كثرت الغارات على مشارف القيروان ، فتعرّضت "جريدة من الخيل" خديم قصر المنستير قرب صبرة وهو قادم من الجريد ومعه أموال الحبس ، كما أغارت خيل على قافلة قرب الخزّازيّة بجهة القيروان ، وأخذت الصّوف والخرفان المحمولة على الجمال (1) .

وتعدّدت غزوات الحجري بالوسط والجنوب ، وهم فرع من بني علي بن حصن من بني سليم، وشملت الحضر والشّاوية، فقد كان أولاد أبي عيسى من قبيلة وشّاح بجهة طرابلس يعطون زكاة مواشيهم التي تبلغ نحو 90 دينارا الى المناري ، "**فهاضت عليهم حجري بخيلهم ورجالهم ونجعهم فغلبوهم وسلبوهم وأخذوا مواشيهم**". ومرّة أخرى يتدخّل أحد الصلحاء وهو المناري لردّ الماشية والنجع، لكن الطريقة لم تكن سلميّة كما يصوّره لنا الانموذج الانقسامي ، اذ قتل عدد من المحاربين (2) .

وفي نفس تلك الفترة تقريبا ، كانت ماشية منصور الهراغي في مرعاها بالمهاذبة، فغزاهم الحجري وأخذ الغنم ، ولم يقع استرجاعها الا بعد استنفار الناس وتدخل أحد الصلحاء(3) .

(1) الدباغ ، **مناقب الدهماني** ، ج ا ، ص 11 ب ، 37 ب . ابن ناجي ،**معالم** ، ج III، ص 209 . ج IV ، ص 106 ، 163، 123، 173، 183 .
Brunschvig, **Hafsides,** T II,p.321.333

(2) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV ، ص 140–141 . (3) **نفسه** ، ج IV ، ص 163
Brunschvig,**Hafsides**, T II, p.321 .

كما شملت حرابة الحجري السّاحل ،اذ غارت زمن الجديدي (توفي سنة 786هـ/ 1384م) على إحدى القرى وأخذت بقرهم، ولم يتم تخليصها الا بدفع غرامة قدرها 100 دينار (1) . وهكذا اتسعت عمليات هذا الفرع من بني علي، فطالت الشّريط السّاحلي من طرابلس الى الهواريّة مرورا بجهة صفاقس (المهاذبة) والسّاحل ، وفي العمق وصلت تحرّكاتها الى جهة القيروان . فهي اذن قبيلة مشاغبة كثيرة التحرّك في أواسط القرن الثامن، وذلك بعد أن انهارت بنيتها الأساسية فالتجأت الى الحرابة ثمّ بدأت تدريجيا تتخصّص في الصّيانة والغفر .

ففي أواسط القرن الثامن كان أهل هراغة اذا « **عرّموا عرمة النادر يحضرون عليها خوفا من العرب** » ، وكما رأينا سابقا ، فان هؤلاء البدو لا يعيرون اهتماما بالغا للصلحاء خاصة اذا كانوا من الحضر، ولا يقع استثناؤهم من ضريبة الغفر، فقد قدم عطاء الله الحجري لطلب الغفر على زرع الفقيه الشّبيبي بالهوارية وأخذه في شكل عيني ، كما جاء محمد الحجري الى الارض التي عمّرها أهلها بالحرث ببلد الجفنة بعد أن كانت خالية ، وقد أصبح الشبيبي شريكا لهم مقابل تقديمه الحماية، وشدّد في طلب الغفر على الزرع، وهدّد « **بتحويسه**» ان لم يعطوه ثوبا ، فكان له ذلك ،لكنه لم يبق طويلا حتى قتل في غارة بالسّاحل . وجاء بدوي آخر الى أرض الشبيبي وطلب « صبّاطا » فمكّن من ذلك (2) .

ولم تقتصر عمليات الحجري على ردود الفعل الفرديّة التي اقترنت بحاجة البدو الى اللباس ، انّما اكتست أيضا طابع العمليات الجماعيّة المنظمة والموجّهة ضدّ ملاّك الأرض. ومثال على ذلك المحاربون المائة من الحجري الذين أرادوا حصاد القطانية عنوة، وقد كانت لأحد شركاء الشبيبي ببير عجرود ، ولم يستطع فقيه المدينة ومالك الأرض (الشبيبي) صدّهم عن ذلك ، فالتجأ الى أحد فرسان العرب " التائبين" . وفي خبر آخر وصل جيش من الحجري الى زرع القطانية لغرض « تحويسها» فلم يهتد اليها ليلا . فظاهرة الخوف كانت ملازمة اذن للحضر، وهذا ما يفسّر الالتجاء الى الصلحاء في محاولة التصدي للأعراب (3) .

ويبدو أن الزاوية الريفية جاءت لتهدئة هذه المجموعات البدوية المفقّرة وحماية الحضر من بطشهم ، ولذا فقد اختارت المسالك والممرات الاستراتيجية ، وهذا نجع بني

(1) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV،ص 232 .

(2) **نفسه**، ج IV ، ص 164، 210، 212 . ذكر البرزلي أنّ رياح أصبحت من القبائل الضعيفة في العهد الحفصي، فأخذت تتولى صيانة السّواني بالقيروان بين شهري مارس وجوان مقابل دينار يؤخذ على كلّ سانية .
Brunschvig, **op. cit**, T II p. 202 .

(3) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV ، ص 211 ، 212 ، 182 . جاء جماعة من أهل القيروان الى أحد الصلحاء من أصل بدوي عاش في أواخر القرن الثامن ، وقالوا :« يا سيّدي هذا الزرع قرب طيابه وهؤلاء بنو علي نزلوا الطارف ونخاف انهم يحوسون الزرع ، فاجتاز النجع قرب سور البلد دون أن يقع أيّ ضرر»

علي نفسه، لما مرّ ببلد العلوين بجهة القيروان، " **دخل الزاوية الكبير والصغير وأكلوا وانصرفوا**" (1) .

ويتضح من هذه الوقائع المتعدّدة التي تنتمي الى الزّمن القصير على حدّ تعبير "برودال" أنّ قبيلة بني علي وخصوصا فرع الحجري عرفت تفككا في بنيتها الاساسية في أواسط القرن الثامن ، وجدير بالملاحظة أن ابن خلدون ذكرها بين الجم وصفاقس منتجعة ، وبالتالي فانّ احتمالات عديدة تفسّر هذا التوازن المفقود : الأول هو أن الطاعون الجارف لسنة 749هـ. تضرّرت منه خاصة المناطق الساحلية فيما أزداد عدد السكان بقبيلة بني علي، فاضطرت الى الخروج من مجالها العادي والانتقال الى الشريط الساحلي بحثا عن " الرزق" ، وهناك ، فضلا عن حرابتها، تخصّصت في الصيانة والغفر، وبدأت في التأقلم من جديد مع الوسط الحضري . أمّا الاحتمال الثاني ، دون أن يتناقض مع الأول ، فهو يعتبر ان تحبيس الهنشير الموجود جنوب صفاقس على زاوية مهذب في فترة ابن اللحياني في بداية القرن الثامن هـ. قد أدى الى انحسار هذه القبيلة التي كانت تنتجع في هذه الجهة ، مما جعلها تبحث عن مجالات أخرى وموارد جديدة للعيش . وفي كل الاحوال فان الاتاوات العينية التي كانت تطالب بها هذه المجموعات البدوية المفقرة مقابل صيانتها وغفرها للزروع والغروس ، كانت زهيدة .

ومن البديهي القول أن هذه الحركات كانت وليدة أزمة عميقة ، ناتجة أساسا عن ظاهرة قروسطية خطيرة وهي الجوع ، وهي شبيهة في ذلك بحركة المزارعين في القرن الرابع م (Circoncellions). والأمثلة عديدة على ذلك : ففي احدى سنوات النصف الثاني من القرن الثامن هـ. ارتفع سعر الحبوب حتى بلغ القفيز شعيرًا ستة دنانير ذهبا، وكانت لاحد أمناء القيروان حبوب مخزونة ، « **فدارت العرب على البلد ليأخذوا ما فيها** » . أما يعقوب الزعبي فانه فضّل فتح مطمورته لقبيلة دباب وتسليفهم تحاشيا لغارتهم على القيروان ووطنها (2).

وكما كان المزارعون يخافون البدو ويلتجئون الى الصلحاء للحرث، فانهم يخشونهم زمن الحصاد اذا ما طلبوا بحق الغفر أو اذا ما أضرت حيواناتهم بالزرع ، ومن الجدير بالملاحظة أن البعض منهم شارك في عملية الحصاد. وقد كان الغفر وصيانة الزروع أمرا معمولا به بافريقية خلال هذه الفترة خاصة عند ظهور التوتّرات، حتى أنّ أغلب قرى الساحل ومنازله اتخذت لنفسها خفيرا على الزروع في أواخر القرن السابع هـ./ XIII م .

(1) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج IV، ص 171 .

(2) **نفسه** ، ج IV ، ص 209 ، 244 ، 169 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 141 – 167 .
Despois, **La Tunisie Orientale**, op.cit., pp.145-157.

والحقيقة أن سلطة الزوايا لم تكن دائما قادرة على صد هذه المجموعات البدوية التي داهمت مدينة سوسة أكثر من مرة : ففي نهاية القرن السادس هـ. كان أحد البدو، وهو أبو عتور ، يصول ويجول بالمدينة ، وعندما طلب أهل المدينة من الدهماني اشتكاء أمره الى الوالي ، رفض التدّخل . أما في نهاية القرن السابع هـ. فقد حاصر نجع حكيم الضاعن شمال الجم سوسة وأضرّت جماله بالزرع ، لكن لم يثنه عن ذلك أهلها ولا الشيخ محمد بن سحنون الدكالي الذي رابط بأعلى السور لمراقبة تحركاتهم، على أن أحد شيوخ البدو تمكن من ذلك ، وهو أبو رحمة غيث الحكيمي الذي داهمهم على فرسه، وتمكن من طرد هذا النّجع (1) .

ب) التوتّر بين المجالين الحضري والبدوي : ما من شكّ في أنّ الفئات البدوية التي ظلّت تعيش حسب حافة الفقر ، كانت على حدّ تعبير ابن خلدون " **رزقهم في ظلال رماحهم**". وقد ألتجأت الى السّرقة والنّهب، فكانت المواشي تنتزع حسب الطريقة التالية يقوم أحدهم باخراج الحيوان من المراح فيما يظلّ أصحابه متحفّزين للرد بأسلحتهم ويقع اخفاؤها (تكمينها) في مكان بعيد عن العيون، وفي الحالات الخاصة لا ترجع لصاحبها الا بعد دفع غرامة ، وقد يتمّ هذا الأمر في وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من سكان المدينة (2) .

ولئن لم تذكر لنا المصادر العلاقة العادية بين البدو والحضر ،فانها كثيرا ما توقفت عند الفترات الحالكة المتوترة مشدودة الى الاخبار المتميزة بقوتها أو طرافتها أو المرتبطة بالجانب الكراماتي عموما ، واجمالا لا يعكس سرد هذه الاخبار الدامية الواقع التاريخي بكامله، وهو الوجه الآخر لصورة غامضة عن هذه العلاقات .

إن فترات التوتّر قد تصل الى سفك الدماء عند أبواب المدن والمنازل ، فقد قتل ببلد العلوين بالقيروان أحد الرياحيين ، ولقي أخوه المصير نفسه لما جاء مطالبا بثأره . وكما ذكرنا ، فان الصلحاء كانوا طرفا منحازًا في هذا الصراع ، اذ كثيرا ما نراهم يتضامنون مع الحضر ضد الأعراب على أن نسق هذه العلاقات بجهة القيروان اختلف عما هو عليه بمدينة تونس، وكانت الكفة تميل لصالح البدو بوسط البلاد، ومثال شيخ الكعوب هداج الكعبي الذي انهالت عليه العامة بتونس ضربا وتنكيلا الى حد القتل ، لا يمكن أن يتكرر بالقيروان التي ارتبطت الى حد كبير ، وحكمها البدو عديد المرات ، منها قبيل سنة 749 هـ.

وكثيرا ما تميّز هذا التعامل بين المدينة والبادية بالخوف والحذر ، فيعقوب الزعبي فتح مطاميره لقبيلة دباب تحاشيا لسطوتهم ، أما الفقيه العواني فقد عيب عليه محادثته

(1) ابن ناجي ، **نفسه** ، ج III ، ص 226 ، ج IV ، ص 138 ، 61 ، 35، 165 .

(2) **نفسه** ، ج IV ، ص 71، 141 ، 64 . البرزلي ، **نفسه** ، ج IV ، ص 240 ب .

للاعراب واستقبالهم بزاويته بالقيروان، ومعهم كلبهم، فأجاب: "**أخذنا بالكلب حانوتا للصبغ يكون حبسا على الجامع يريد انه اخذ من عند العرب الذين معه لكون القيروان كانت لهم**". كما شنع على أحد فقهاء القيروان وهو ابن قطانية، لانه افتى بجواز شراء الغنم وبالتالي اللحم من الغاصبين الاعراب، وأجاز شراء طعام الغاصب اذا نقل الطعام المغصوب لبلد، ووافقه في ذلك الفقيه أبو مهدي عيسى الغبريني.

وازدادت هذه العلاقات تنافرا في الفترات التي تقوّى فيها نفوذ البدو، فيما جنح المخزن الى مهادنتهم، فمنحهم إقطاعات وعوائد تفرّق على القبائل، فقد تحصّل الشيخ صولة الليلي من بني كعب من السلطان أبي العباس أحمد (772–796 / 1370–1393) على عادته وعوائد العرب لتفريقها عليهم، وكان لشيخ الزاوية الجديدي قسطه نحو مائة دينارا، وذلك للدور الذي لعبه في تنصيب صولة شيخا على قبيلته وفي مصالحته مع السلطان «**بعد أن نافق عليه**»، وهكذا أصبح شيخ أولاد بالليل يعطي زكاة إبله للزاوية: 90 دينارا ذهبا، وكان موقف الجديدي من هذا العطاء، شأن موقف العواني والزعبي، قد لخصته هذه القولة: "**الواجب أن يعطي ذلك السلطان، ولما لم يفعل أخذناه على يد أشرار الناس**" (1).

وبالتالي مثّل الثالوث: السلطة المخزنية ومشائخ الأعراب ومشائخ الزوايا، أهم القوى الاجتماعية في تلك الفترة، ولئن كان العنصر الثالث طرفا مشاركا، باعتباره ممثلا لمصالح المجتمع الحضري، فانه كثيرا ما أرتبط تطوّره بفترات الأزمة.

أمّا في البلاد السّاحليّة فقد كان رعي الحيوان في أملاك الحضر محضورا في نواحي مدينة تونس، باستثناء أرض البياض. وكذلك كان الأمر بالنّسبة إلى بلاد السّاحل، فانّه لا يسمح بالرّعي في غروس الزّيتون. لكن هذا التحجير لم يمنع كثرة تداول هذه القضايا، خصوصا سنين القحط لحاجة الماشية الى مجالات رعويّة خصبة بالشّمال. وقد أدّى هذا الأمر الى اتلاف الغلال وتضرّر الانتاج، الى حدّ ان هذه الغارات اعتبرها الفقهاء في عداد الجائحة.

ورغم هذه التعدّيات، فانّ المزارعين الحضر لم يتمكّنوا من التصدّي جماعيا لهذه الآفة، انّما اقتصر كلّ واحد منهم على الذبّ على ملكيته وحمايتها من التعديات، دون النظر الى ملكية جاره.

وكانت السّلطة السّياسية عند توفّرها هي الرّادع الوحيد لهذه التّجاوزات، اذ عمد

(1) ابن ناجي، **نفسه**، ج IV (انظر على التوالي الصفحات 170، 173، 150، 151، 242، 234،235.) الزركشي، **تاريخ**، ص 56.

الولاّة الى غرم الرّعاة وأرباب الغنم لما تضرّرت ماشيتهم بالغروس، فيما عجز القضاة عن التصدّي لهذه التعدّيات لغياب نفوذ زجري قويّ لديهم. ولهذا أجاز ابن عرفة الاشتكاء الى حكّام الفحص عوضا عن القضاة، لأنّ "**الحكّام أشدّ في الزّجر في هذا الوقت من القضاة، لعسر الوصول اليهم الاّ بعد جهد. والغالب أنّ من وصل اليهم لابدّ أن يغرم مالا أو يُهان**" (1). وقد دعا فقهاء ذلك الوقت الى شدّة العقاب والحزم في ذلك، لكثرة الفتن في زمانهم وأحتدامها، وعدم جدوى الطرق السلميّة في ردعهم (2).

4) أهل القرى و "أهل الغارة": المزارعون والبدو:

برز حول مدينة تونس نزاع بين المالكين الحضر للأجنّة والكروم وأهل القرى والمزارعين لانصرافهم الى تربية الماشية داخل مجال زراعي ازداد ضيقا بفعل التطوّر العمراني وأتّساع رقعة الملكية الحضرية. على أنّ هيمنة أهل المدينة واضحة، اذ كان أهل القرى في الغالب من بين العمّال الزّراعيين في الضيعات الحضر –الريفية. وبالتالي فان الصراع بين المزارعين والحضر كان أقلّ حدّة ممّا هو عليه الصّراع بين الحضرو المزارعين من جهة والبدو من جهة ثانية. فقد تعرّضت الأراضي المحيطة بالمدن للضغط البدوي في فترات الأزمة، وساد التوتّر الملكيات الحضريّة حتّى عسر استغلالها. فكان أهل المدن والقرى يستعجلون الذهاب الى أراضيهم للحرث والحصاد أو لجني الزيتون، كما يستعجلون الرجوع منها خوفا من البدو. وقد بلغ الأمر في أواخر العهد الحفصي الى خروج السلطان بنفسه لتأمين عمليّة الحراثة في الفحوص المحيطة بمدينة تونس.

وبالتالي، عمد المزارعون في هذه الظروف الى جني الزيتون قبل طيبه بأجرة مرتفعة: الثلث أو النصف. وأستأجروا على حصاد الزّرع نقدا، اذ يعطى لكل حصاد دينار كل سبعة أيّام، فضلا عن طعامه، كما أستأجروا على نقله الى المجال الحضري (ثلث دينار لكلّ حمل)، وهو ما يعني أن جملة مصاريف الحصاد والنقل بلغت نصف قيمة المحصول الزراعي (3).

ولم تقتصر غارات البدو على المواسم الزّراعية، إنّما تحوّلت في فترات الجدب الى ظاهرة مستمرّة تهدّد المغروسات المحيطة بالمدن الكبرى. وهو ما يفسّر التوتّر الحاصل بين المستقرّين و "أهل الغارة" الذين يكتسحون الفحوص الزراعية ويغنمون الماشية من

(1) البرزلي، **ن.م.** ج II، ص 117أ – 253ب، 261 ب، 266أ، 282ب. ج 3، ص 54 ب، 175.
(2) البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 1200. ويبدو أنّ قطع يد السّارق كان أمرا مألوفا في ذلك المجتمع الوسيطي، وانّ الطريقة المتّبعة كانت منتشرة لدى النّاس، وهي تتمثّل في ايقاد النّار وإحضار القطران ومغروس قاطع، لاجراء هذه العمليّة.
(3) الونشريسي، **المعيار**، ج I، ص 374.

المزارعين ومن أهل المدينة على حد سواء . وقد تعمّد أهل الحضر عدم ردّ الفعل إزاء سطو البدو على ماشية المزارعين عقابا لأهلها الذين تركوها ترعى في أجنّة غيرهم (1) .

ويتّضح هذا التوتّر بين البدو والمزارعين من خلال النّزاع الذي حصل في القرن السّابع هـ/XIIIم، بين أهل المهرين وجماعة من البرابر من سكّان الخيام الوافدين على البلاد . وأفضت هذه "الشوشة" على حد تعبير المصادر الى تضرّر أحد البربر، وتدخّل أبو الحسن الشاذلي لكفّ النّزاع ، على أن يأخذ المتضرّر ديّة بخمسمائة دينار.

وانتهى هذا النزاع بين أهل القرية الواقعة بناحية طبربة والبدو الى رحيل هؤلاء ، لكن سرعان ما رجعوا من جديد الى زاوية أبي الحسن علي بن سالم التباسي للاستجداء (2) .

ونعتقد أنّ هذا المثال يلخّص طبيعة العلاقة بين المجموعات البدويّة الضعيفة التي تركن الى الاستقرار والمزارعين ، ودور الزوايا في تخفيف التوتّرات الحاصلة بينهما. على أنّ العلاقة تنتقل لصالح البدوي اذا كانت القبيلة قويّة ، من ذلك ما رواه أحد البربر في بداية القرن السابع هـ/XIII م عند خروجه مع أخيه لطلب ضالّة حتى وصل حيا من أحياء العرب فيه ستّون دوّارا، وكانوا يطالبوهما بقتيل منهما فقبضوا عليهما وكادوا الفتك بهما لولا أنشغالهم بقدوم جيش المصامدة على حين غرّة (3) .

وتعدّدت الاشارات المتحدّثة عن خوف أهل القرى من " العربي " ، والثارات الموجودة بينهم. قال أحد سكان القرى الذي قصد القيروان : " **اعترضني رجل من العرب كان أخي قتل أخاه ، وكان عازما على قتلي متى لقيني** " . ولم يكن الخوف مقتصرا على الأشخاص ، اذ عانت بعض القرى الأمرين من الاعراب الذين كان لهم جاه لدى حكّام النّواحي والسّلطان . ولا تجد هذه القُرى ملاذا الاّ في الزاوية الرّيفيّة التي مثّلت شكلا آخر من الاقطاع المنافس للاقطاع المشيخي (4). وظلّ التباين واضحا بين العالمين ، حتّى أنّ الفقهاء تعرّضوا الى مسألة شهادة البدوي على القروي ومدى جوازها (5) .

وفرض الأعراب الذين نعتوا بالجبابرة ومستغرقي الذمّة على أهل القرى الإتاوات والغرامات الماليّة. ممّا ألجأهم أحيانا الى الفرار وترك منازلهم ، أوالى ايداع

---

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج III ،ص 53 ب اجاز ابن عرفة هذا التصرّف ، حسبما ذكر البرزلي في قوله :« وقد شاهدت فتوى شيخنا الامام إذا كان الحيوان في كروم النّاس أنّه اذا غارت عليهم ويكون الانسان قادرا على أستنقاذها منهم، فانّه لا يفعل ويتركها تمشي بها أهل الغارة تقليلا للمفسدة وردعا لأمثالهم من أهل الفساد »

(2) **مناقب** ، مخ 12544 ، ص 71 ب . (3) الدباغ ، **مناقب الدهماني** ، ج I ،ص 136 .

(4) **نفسه** ، ج I ، ص 37 ب . ذكر أن بلدة أبي محمد سلطان القلالي عانت من كثرة الفساد والاذاية التي كان يقوم بها أحد رجال العرب : أبو عثّور ، لما كان له من الجاه لدى والي سوسة . ولم يجد أهل البلدة من حلّ سوى الاشتكاء الى أبي يوسف الدهماني كي يتدخل لدى الوالي لردع هذه التعديات .

(5) أبو اسحاق الغرناطي ، **نفسه** ، ص 225 ب .

مؤونتهم في أماكن مأمونة لا تطولها أيدي البدو والمحاربين ، مثل القصور بجبال دمر ونفوسة والمطامير الجماعية (1) .

وتزداد حدّة البدو إزاء المزارعين في فترات الاضطراب الاجتماعي وفي المجالات التي " لا حاكم فيها " حسب عبارة المغيلي ، والتي احتاج فيها المزارعون إلى التصدّي للبدو بأنفسهم . وقد طرح سؤال على البرزلي يخصّ رجلا من البدو ومن متغلبيهم عرفت جماعتهم بالبغي والعدوان في بلاد المغرب والتغلّب على الرعيّة "**بحيث لا تنالهم الاحكام** "(2) .

5) نزاعات أهل القرى: حرابة أم نظريّة صف ؟

اعتبر الفقهاء العنف الحاصل بين القرى وأحيائها حرابة وسحبوا عليه التشريعات الخاصّة بهذا الحكم، فيما فسّر علماء الاجتماع والمؤرخون الاستعماريون هذه الظاهرة بنظريّة الصّف أو اللفّ، مقتصرين في الغالب على وصفها دون بحث عن الأسباب العميقة ، كما فسّرها البعض بالنظريّة الانقساميّة (3).

والحقيقة أنّ ذلك مرتبط الى حدّ كبير بملكيّة الأرض أو الماء ، وما ينجم عنها من تنافس داخل أعيان ومجموعات القرية الواحدة، أو بين قرية وأخرى . وكي نتبيّن آليات هذا الصّراع الاجتماعي، فانّنا فضلنا الانطلاق من أمثلة تنتمي الى الزّمن القصير والمحدد:

– في القرن السابع هـ/XIII م ، كان التنافس بين قريتين متجاورتين بناحية الساحل : عروة وملول كبيرا ، وقد أدّى الى استيلاء أهل ملول على حليّ لأهل عروة. ولم يقع حسم هذا النّزاع الا بتدخّل أحد كبار مشائخ بلاد السّاحل ، وهو أبو علي سالم القديدي . لكن الصّراع طفا على السّطح ثانية ، ولم ينته الا باندثار القريتين (4).

– وفي القرن الموالي ، نشب نزاع بين قريتين أخريين من السّاحل ، وهما طبلبة والبقالطة . لكن هذه المرّة لم تفلح زاوية الجديدي بالقيروان في المصالحة بين الطرفين ، إذ احتاج الأمر الى تدخّل عامل خارجي لانهائه، وقد تمثّل في غارة شنّها الحجري (من بني علي) على احدى القريتين (5).

---

(1) المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II ، ص 19 ، 112 ، 14 ب ، 135 .

(2) **نفسه** ، ج II ، ص 143–ب ، 149–ب .

(3) وحول نظرية الصفّ ، راجع : Masqueray,**Formation des cités de l'Aurès...**

انظر حول النظرية الانقسامية الفصل الخاص بالصلحاء . R. Montagne,le **Haut Atlas et le Makhzen**

(4) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 63 . (5) **نفسه** ، ج IV ص، 232 .

– وقد يصل الأمر الى تحالف القريتين المتنازعتين لمواجهة عدو مشترك، وهو البدوي، كما حصل في عـهد أبي القاسم أحمد الغبـريني (بداية القرن الثامن هـ/ XIV م)، ذلك انّه حصلت "فتنة" بين قريتين، وكان لكلّ واحدة منهـا أعراب من قبيلة مغايرة، " **فخاف أهل كل قريـة من عرب الأخرى علـى أنفسهم وأمـوالهم** " حتى انـتهى بهـما الأمر الى الاتـفاق والتفاهم، على أن ترجع كل واحـدة للأخرى ما أخذه البدو التابعون لكـلّ قرية. وبهذا انتقل الصّراع من المجال القروي الى البادية، لكن الأعراب اتفقـوا بدورهم على مواجهة مشتركة لأهل القرية (1).

إنّ هذه النزاعات بين أهل القـرى التي تتحوّل الى تحالف ضـدّ الأعراب تأتي شاهدا مرّة أخرى على ما ذكره ابن خلدون من كـون الخطّ الفاصل يقع بين البدو والحضر (بما فيهم أهل القرى والمدن).

وحـصـل نزاع بين ســدادة وكنومــة، من عــمل تقــيـوس بـالجـريد فـي سنة 786هـ/ 1384م، فقـتل فيـها ابن شـيخ سدادة الذي أصر عـلى الثأر من شيـخ كنومة نفسه. ثم اتسع النّزاع فـأصبح بين الخارجين عن السلطة المخزنيـة والمدعمين لها، وضمّ الطرف الأوّل: سدادة وتقيوس ونفطة، ثم نفزاوة، والطرف الثاني كنومة وتوزر.

وهكذا تطوّر الأمر من نزاع قريتين الى نزاع شامل داخل الجريد ونفزاوة، وهو ما أفضى الى خروج هذه البلاد عن سلطة المخزن الحفصي (2).

– وفي سنة 815 هـ/ 1412م، شبّ نزاع بين مجـموعتين ببـلاد السّاحل، ونظرا إلى قـوّة الدولة وقتـذاك، وقع تحت طائلة قانـون المدينة وتشريعـاتها، خـاصّة بعـد أن أشتكى طرف الى قاضي المدينة. لكن القضية اسـتعصت عليه، فبعث للسلطان الذي عين الأبيّ مفتيـا لها. وفحواها أنّه " **وقعت هوشة بين جماعـتي مارغنة بالراء والغين المعجمة والنون ومزاتة بالزاي والتـاء المثنّاة من فوق، وأنكشف الجميع عن جـرحى من الفريقين فبعـد أيّام جاء رجل من مزاتة الى العدول بسـوسة وادّعى على جماعـة مارغنة وليس به جرح ولا أثر ضرب حسبما ضمن ذلك شهود الرّسم، ثم مات من الغد** » (3).

– وفي جهة صـفاقس، وقعت " نائرة" بين طائفتين، ونجم عنهـا جرح عدد منهم في القرن الثـامن هـ (4). كمـا ذكر ببرشـانة نزاع بين مجـموعتين من أهـل القرية، كلّ واحدة تنتمي الى أسرة مخـتلفة، وعلى رأس كل واحدة رئيس. وقـد استعـمل البرزلي للحديث عن هذا الانـقسام داخل القـرية مصطلح الصفّ، وبلغ النزاع بين الصـفين مبلغ العنف والجرح (5).

---

(1) البرزلي، **نفسه**، ج II، ص 1328. (2) ابن خلدون، **تاريخ**، ج IV، ص 702.
(3) الابي، **الاكمال**، ج IV، ص 397–398. (4) البرزلي، **نفسه**، ج IV، ص 1199.
(5) **نفســه**، ج IV، ص 1200 (تكون الصف الاوّل من محمد بن عبد الحميد وبني عمّه والثاني من أولاد حـرق الأرض).

وحصيلة القول، فان أغلب الأمثلة التي وصلتنا تخصّ بلاد السّاحل، وما يعني ذلك من طبيعة الاسكان المعتمد على القرية، واستغلال مكثّف للمجال الزّراعي. وبالتالي، فان هذه النزاعات تزداد حدّة وكثرة كلما اقتربت الواحـدة من الاخرى وأصبحت الحاجة أكثر للأرض للزراعة والمرعى، حتى أنّ العلماء أقرّوا بقبول شهادة أهل القرى في كلّ شيء، ما عدا شهادة بعضهم على بعض لأنهم "**يتحاسدون كالضرائر**" (1).

ولم يكن مـصدر النزاع الأرض فـحـسب، إنّما مـثّل الماء المصـدر الأساسي لهـذه التـوتّرات التي عرفـها مجـتمع المـزارعين، وكان أهل قـفصة يقـولون "**اذا رأيت قـوما يتخاصمون وقد عـلا بينهم الكلام فتعلّم أنهم في أمر الماء**". وقد رأينا أن توزر منقسمة الى اثنين، وقابس كذلك، وفي تقيـوس نشب النزاع بين كنومة وسدادة، وداخل درجين السفلى بين مجموعتين الخ (2).

ومـجمل القـول، فان الأسـاس لنزاعات المزارعـين بالقرى هي الوسـائل الحيـوية للانتاج من أرض وماء وغيرها، وهو ما يأتي نقيضا للقوالب النظرية الأخرى مثل نظرية الصف أو النظرية الانقسامية.

6) "الحرابة" داخل المدن:

كان حكّام المدينة وأهلها مـتشدّدين مع البدو. فقد قتل هدّاج شـيخ الكعوب ومثّل به لأنّه دخل جامع الزيـتونة بنعليه. كـما ضرب عنق أحـد الأعراب بمجرد أخـذه لقليل من الغزل من مسجبة مقرين، وما أن أشتكى صاحـبها الى الخليفة بباب خالد حتى أمر بقتله "**لعلمه أنّه من أعراب افريقية وكلّهم محاربون**" (3).

وبناء على ذلك، اعـتبـر بعض الفقـهاء أنّ ما يتـحصّل عليـه أعوان السلطـان والعرب بمنزلة الجائحة لا زكاة فـيه، فيما تحرّى كثير منهم في مـعاملة الأعراب. وقد طرح في هذا الصّدد أهل مـدينة سوسـة سؤالا على قاضي الجـماعة ابن عـبد السّلام، مـتعلّقـا بشراء الأنعام من عـرب افريقـية "**الذين لا شغل لـهم الاّ شنّ الغارات**" (4). ومن الأسئلة التي طرحت على البرزلي ما يتعلق بسلب الغاصبين والمحاربين المسافرين ثيابهم وأمتعتهم (5).

---

(1) **نفسه**، ج II، ص 235 ب. حول التعدّي على الارض، راجع أيضا: المغيلي، **نفسه**، ج II، ص 147أ.
(2) الاستبصار، ص 152. راجع الفصل الأوّل الخاص ببلاد الجريد. الونشريسي **المعيار**، ج I، ص 274 (وقد أورد من بين مقومات المصر اتصال البنيان والسور والسوق والمسجد الجامع).
(3) البرزلي، **نفسه**، ج IV، ص 1238. راجع مسألة هداج في الفصل الخاص بحركات العامة.
(4) الونشريسي، **المعيار**، ج I، ص 384. المغيلي، **الدرر المكنونة**، ج II، ص 40 ب.
(5) الغرناطي، **نفسه**، ص 1223.

على أنّ العنف داخل المدن لم ينحصر في البدو، إنّما أصبح ظاهرة متفشيّة في الأوساط الشعبية، حسبما شهد بذلك الغرناطي، اذ تحدّث عن " **كثرة الفساد والهرج في ذلك الزمان** " (1). فقد برزت مجموعات من المهمشين الذين اتخذوا القطع والسّرقة مهنة لهم، عرفوا بتسميات خاصّة مثل :

– الخنّاقون : التجأوا الى الخنق وسقي النّاس السيكران، لغصب أموالهم، حتى أصبحوا يعرفون في مدينة تونس بتسمية الخنّاقين (2).

– الشفّارون : ترجع أصل هذه التّسمية الى ما رواه البرزلي من أنّ الواحد منهم **" يأخذ شفرة قاطعة جدا ويداخل النّاس وينظر الى ذراع الرّجل ووسطه، فمتى ظهر له المال، فيهبط ذلك الموضع بخفية بتلك الشّفرة القاطعة حتى يقطع ذلك المال ويأخذ من ذلك الموضع وربما جرح المأخوذ منه أو قطع عضوا منه بشدّة الضربة ولا شعور له** " (3).

ولم تقتصر الحرابة داخل الاسوار على هذه الأساليب، بل عمد اللّصوص الى طرق أخرى، من بينها : ما وقع في بداية القرن التاسع هـ/ XV م بمدينة تونس، عندما أعترض محارب رجلا فجرا، وضربه غفلة، وأختلس عمامته وهرب، وهو مثال يأتي حجّة على تفاهة المسروق (4). وقد كانت المرأة مشاركة في هذه العمليات، بنفس قدر معاناتها من الأزمة الاجتماعية. وهو ما وقع بمدينة القيروان لما تعرّضت طفلة صغيرة عليها حلي الى السّلب والرّمي في بئر من طرف امرأة، ومن الملاحظ أنّ بطلة هذه الحادثة التي جدّت في بداية القرن التاسع هـ و البرزلي شاهد عيان عليها، كانت معتبرة من " وجوه البلد "، وقام قاضي المدينة، أبو عبد الله الفاسي، بسجنها. لكنّها تمكّنت من الفرار الى قرية بني جرير، حيث تزوّجت. ثم عادت من جديد الى القيروان، ولم يقع التعرّض اليها رغم أعترافها بما أقترفت (5).

---

(1) **نفسه**، ص 220 ب.

(2) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 1175. البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 1237.

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 1241. لقد تعوّد أهل المدينة وقتذاك على وضع المال في خرطة في الجيب، أمّا البدو فأنّهم يضعون النّقود في خرقة ملفوفة في طرف العمامة أو البردة (البرزلي، ج III، ص 12 ب).

(4) البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 1241.

(5) البرزلي، ن.م.، ج IV، ص 1241. القلشاني، **شرح**، ج II، ص 125 ب. ابن ناجي، **شرح**، ج II، ص 178 ب. تنوّعت وسائل الرّدع للقطع والفساد :

– القتل : اعتمد طرقا متعدّدة، أهمّها قطع الرأس.

– السّجن : عادة ما يتمّ تقييد المسجون بالحديد. وقد تعدّدت السجون بافريقية، وكان أشهرها سجن المطبق بالمهدية.

– النفي : اختلف في معناه، فقد اعتبر أبو مهدي الغبريني انه يمكن الحديث عن النفي اذا ما وقع نقل المسجون الى مسافة خمسة أيّام من بلده، فما أكثر (مثل من تونس الى عنابة أو صفاقس)، فيما اشترط ابن ناجي التحوّل الى مكان خارج من عمالة سلطان تونس، أي في حدود البلاد، مثل تدلس، رافضًا أن يعتبر نفيا الانتقال من باجة إلى بنزرت.

ومجمل القول، تعدّدت الفتاوى التي كفّر فيها فقهاء افريقية والمغرب الأعراب خاصّة والبدو عامّة، ممّا أثار التساؤل عن جذور هذا الصّراع ومدى اتّصاله أو انقطاعه. فهل هو تعبير عن تخلّص البادية من هيمنة المدينة، ومحاولاتها فرض سيطرتها على المجال الحضري أم أنّه دلالة على رغبة المصر في بسط نفوذها كاملا على هذا المجال ؟

– أخذ التوتّر أشكالا متعدّدة : فسياسيًا، مثلت المدينة مقرّ الوالي أو العامل، الذي تنطلق منه الحملات العسكرية الموجّهة ضدّ القبائل لجمع الجباية أو لتهدينها.

واقتصاديا، اعتبرت الأمصار مكانا لتجميع الأموال المتأتية من التجارة الخارجية وجباية الاوطان، ممّا مكّنها من تدعيم سيطرتها على المستوى الاقتصادي والاجتماعي. وقد أخذ التنافس بين الطرفين أشكالا عديدة : حول توزيع الارض والماء، وفي السّوق.

ونظرا إلى أهميّة التجارة في المدينة، فانّ القبائل البدويّة تمكّنت أحيانا من تطويق الحصار عليها وذلك بسيطرتها على المسالك الأساسيّة. وهو ما يفسّر مختلف ردود الفعل الحضريّة ضدّ البدو.

– على أنّ التوتّر بين المجالين ليس معناه وجود صراع مستمرّ، اذ انّ فترات الانفراج فتحت المجال للتبادل السلعي والتّجاري، سواء أكان تبادلا نقديا أم مقايضة، وذلك نظرا إلى الوظائف العديدة التي تقوم بها المدينة : ففضلا عن توزيع البضاعة التجارية، المصنوعة محليا أو المستوردة، فانها مثّلت ملجأ للمزارعين البدو أثناء المجاعات.

– كما أنّ النزاع لم يقتصر على الأعراب وأهل المدن، بل أخذ وجوها متعدّدة : فكثيرا ما تدخّلت السلطة المخزنيّة الى جانب أهل المدن، فيما حاولت الزوايا الريفية حماية أهل القرى. وقد شمل مختلف هذه القوى الاجتماعية وهي : المجال الحضري والزراعي والبدوي والسلطان.

– كما أن تأكيد هذه المواجهة بين البدو والحضر لا يعني أنّ كلا من المجموعتين عرف الانسجام والتجانس، بل أخترقت كلّ طرف صراعات داخليّة، داخل القبيلة، وبين القبيلة والقرية، وداخل القرية، وبين القرية والمدينة، وداخل المدينة.

وفي الأخير، فان المدينة لم تكن مجرّد جسم طفيلي اكتفى باستغلال البادية، بل انها أدّت وظائف عديدة. غير أنّنا لا ننكر رغبة الهيمنة المتكرّرة على المجالين الزراعي والبدوي، رغم محاولات البدو التخلّص منها. وقد تجسّد هذا الصّراع على المستوى الايديولوجي والثقافي، وفي كتابات الفقهاء والمؤرخين.

7)– توبة الأعراب : ضعف العصبيّة وبداية الاندماج :

أ) النظريّة والواقع : إنّ التّوبة في مفهـومها التّاريخي تعني ضعف العصبـيّة القبلية وعدم فعاليتها في المجتمع المغربي ابتداء من العصر الموحدي ، بعد أن مني البدو بسلسلة من الهزائم العسكرية (في سطيف والقرن وتاجرا) .

ولئن تمكّن بـدو زنانة من تكوين دولتـي بني زيّان بالمغـرب الأوسط وبـنـي مـرين بالمغرب الاقـصى ، فانّ أعراب افريقـية وبدوها بصفـة عامّة (من عرب وبربر) عـجزوا ابتداء من ذلك الـتاريخ عن إنجاز الدولة العـصبـويّة، أو العضويّـة كما يسـمّيــهـا أحد الدّارسين (1) .

وتتنزّل في هذا الاطار من التطـوّر التّاريخي ركـون القبـائل الضـعـيفـة والعشـائر المتفرّقة الى الاستـقرار والدّعة، وهو ما وقع لأكثر من قبيل بافـريقية مثل الاثبج وبعض بطون حكيم والكعوب وغيرهم .

إن انتقالهم من الانتاج الى الاستقـرار وما يعني ذلك من الانتقال من قبائل نابذة، لا تنالها الاحكام الشرعية الى مجموعـات بدويّة غارمة، بدأت تعترف بالسلطة المخزنية، انّ هذا الأمر تجسّد على مستوى البنية الفـوقيّة في ظاهرة التّوبة. وقد كانت الزاوية الرّيفية الواسطة في هذه العملية التّثقافيّة.

ولئن كانت التوبة البدوية بسيطة في اجراءاتها العـمليّة، فانّها قد تحوّلت في أدبيات الفقهاء والعلماء الحضر الى مسألة شائكة ذات تفرّعات عديدة(2) .

---

(1)انظر : G. Labica, **Politique et Réligion chez Ibn Khaldoun**, Alger 1966.

(2) القلشاني ، **شرح الرسالة** ، ج II ، ص 137أ. البرزلي ، **جامع** ، ج II ، ص 38 ب . 139أ.

انطلق هؤلاء العلماء من تعريف فقهي للمصطلح ، فالتّوبة في " كتاب المقدّمات الممهّدات لابن رشد تصحّ على ثلاثة أقوال : – ترك المعني بالأمر ماهو عليه والقاء السّلاح، تصحّ توبته سواء أن أتى الحاكم طائعا أو لم يأت .

– ترك ماهو عليه والبقاء في موضعه، وهو أمر كاف لعدم إقامة حدّ الحرابـــة عليه .

– ترك ماهو عليه، والمجيء الى السّلطان حتّى يحكم عليه.

كما وقع الاختلاف فيما تسقط عنه التّوبة ، وتوجد أربعة أقوال :

– انّ التوبة لا تسقط عن صاحبها الاّ حدّ الحرابة، ويؤخذ بما سوى ذلك من حقوق اللّه والنّاس .

– انّها تسقط عنه حدّ الحرابة وحقوق اللّه، ويتبع بحقوق النّاس من مال و دم والحقّ لوليّ القتيل .

– تسقط عنه حـدّ الحرابة وكلّ حقوق النّاس وما أخـذ من الأموال، الاّ أن يوجد شيء من ذلك قائم بـنفسه لم يتلفه، أو أنّه قتل شخصا، فللوليّ مطالبته بالدّية .

– أنّ التّوبة تسقط عنه جميع حقّ اللّه والنّاس من دم ومال، الاّ ان يؤخذ شيء من ذلك قائم بيده بعينه.

امّا أبو جعفر الدّاودي (المتوفّى سنة 402هـ) فانّه استـحسن أن يبقي التّائب بعض ماله والاّ يتصدّق به كلّه، وذلك أسوة بأثر يقـول أنّ كعب بن مالك حين تاب أراد أن يتصـدّق بكل ماله، فنهاه الرّسول وقـال له :« أمسك عليك بعض مالـك فهو خـير لك »، ولما اسـتأذنه سعـد في أن يوصي بثلثي ماله، مـنعه ومازال به حـتى نزل الى النّصف فالثّلث ، وعلّل النبي ذلك بقوله :« انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم فقراء يتكفّفون النّاس »

وعمـوما انعـكست هذه الاختـلافات النظريّة في كـيفـيّة التـعامل مع التّـائب من " المحاربين " ، هل تؤخذ كلّ أمواله ويقع استصـفاؤها أم يؤخذ جزء منها، أم تترك له ويقع الاقتصار على توبته .

ففي الفترة الاولى لقدوم العرب وانتشارهم، اعتاد فقهاء القرن الخامس هـ/XI م، أن يطلبوا من الأعرابيّ التّائب تقويم جميع ما بيده ، وتصبح تلك القيمة ديْنا عليه، يخرج منه شيئا في الحال، ثم يواصل استخلاصه شيئا فشيئا (1) .

وابتداء من أواسط القرن الخامس هـ الى حدّ نهاية العصر الوسيط، أصبحت مسألة توبة الاعـراب مســألة ملحّـة طرحت أكثـر من مـرّة على بساط الـبحث، في ارتبـاط مع التحوّلات التي كانت تعصف بالمجتمع المغربي وقتذاك . ومن الأسئلة المطروحة في القرن الثامن هـ/XIV م :

– اذا تاب أحد من هؤلاء الأعـراب وبيده أمـلاك لا يعلم مالكها ولا ورثـته، لمن يكون هذا : للفقراء أو لبيت المال، وهل يجوز التمسّك بشـيء منها إن كان التائب فقيرا ؟

– عمّن تاب وبيده مال مغصوب وليس عنده غـيره، هل يأخذ منه ما يقتات به أم انّه يفرّط في معظم المال ، الاّ ما ستره وكفاه لقوت يومه ؟(2) .

والملاحظ أنّ الحلول المتشدّدة لم تكن نظريّة بحتة، انّما اكتسبـت صبغتها التطبيقية في القرن الثامن هـ/XIV م ، فقد كـان الفقيـه أبو عبد الله الرماح يتـرك للتائب بعض ماله، خشية تنفيره من التوبة. أمّا أبو الحسن علي العبيدلي المتوفّى سنة 748هـ، المتولّي لتوبة الاعراب بـوسط افريقية ، فان جـاء تائب ، أخرج عنه كلّ شـيء واستـصفى أمواله لانّ التوبة لا تصحّ في نظره الا على هذه الكيفيـة، ثم يقوم بتوزيع هذا المال على أصحابه الواحد بعـد الآخر ، وصولا الى التّائب الأخـير . ويلحق الضّيق التّـائب في بداية أمره ثم يصرف له معاشه من أموال التائبين بعـده. ومما له معناه أنّ العبيدلي كان يعيش من هذه الاموال، وهو ما اعتبره أبو الحسن المريني ، أكلا للمال المغصوب لأهل افريقية ، وخروجا عن الورع . وعلى كلّ ،فهي ممارسة مغايرة تماما لسلوك أحد العلماء السّابقين بالقيروان أبو القاسم الـسّيوري الذي كـان لا يأكل لحم الحيـوان ولا يلبس جلده، حتّى لا يلحـقه الضرر المعنوي من جرّاء التعامل مع البدو المحاربين (3).

ويبدو أنّ هذا الاختـلاف في السّلوك ناجم عن الجذور البدويّة للعبـيدلي، الذي كان قريبا من عـالم الاعراب أكـثـر من السّيـوري، وعن تطوّر الاندمـاج البدوي من القـرن الخامس هـ/XIم الى الثامن هـ / XIVم .

---

(1) الدّاودي ، **كتاب الأموال**، الرّباط ، ص 164–165–174 .

(2) البرزلي ، **ن.م** ،ج III ،ص 37ب، 41 ب (ذهب المازري الى تخلص المستتاب من معظم المال الاّ ما كفاه لقوت يومه) .

(3) البرزلي ، **جامع**، ج III، ص 41ب ، كذا في ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 121 . الابي ،**الاكمال**، ج IV ، ص 410 .

وعموما، اعتبر الفقهاء أن كلّ عمل مناوئ للمخزن احتاج الى التّوبة ، حتّى وإن كان عملا مبرّرا . فتصدّي أعراب افريقيّة لحملة أبي الحسن المريني سنة 749هـ/ 1348م كان عملا مشروعا لدى القبائل التي سلبت أملاكها وحرمت من ثرواتها ، غير أنّ الفقهاء اعتبروه حرابة، مقرّين أنّ المساهمين في هذا العمل لا تصحّ توبتهم ما لم يردّوا ما غنموه من الجيش المريني، وهو ما اعتبره البرزلي أمرا ممكنا فيما رأى ابن عرفة أنه مستعص إذ يستحيل عليهم ارجاع كلّ ما غنموه. وبالتالي فان باب التّوبة يكاد يكون مسدودا على هؤلاء البدو(1) .

ب) يعقوب الدهماني نموذجا:

إنّ الأمثلة الواردة في مصادرنا تخصّ أساسا وسط افريقيّة، ونواحي القيروان تحديدا، أيْ مجال القبائل الغارمة ، والقبائل شبه المستقلّة عن السّلطة المخزنيّة ، فيما تقلّ الأمثلة على ما يبدو في المجال الثالث: القبائل النابذة (مثل أولاد دبّاب والذواودة) والمجال الأوّل (القبائل المخزنية الخاضعة) .

وتجسّد ظاهرة التّوبة هذا التحوّل الاجتماعي والثّقافي ، اذ أصبحت تعني بالنّسبة إلى القبائل البدوية نهاية فترة المعارضة والتمرّد وبداية الاندماج في النظام الاجتماعي والاقتصادي والسّياسي والثّقافي .

وكان أبو يوسف يعقوب الدّهماني أنموذجا للفارس البدوي الذي تخلّى عن الحرابة والبادية وأستقرّ بمدينة القيروان ، فمن هو هذا الرّجل ؟

ولد بالبادية قرب قرية المسروقين بجهة القيروان نحو سنة 551هـ/ 1156م، وكان ينتمي الى بيوتات العرب، تعلّم الفروسيّة والحرب، والمبادئ الأولى للدراسة. وكان محبا لركوب الخيل وحسن اللباس (2)

وباعتباره معاصرًا للدّولة الموحديّة ، شارك في التصدّي لاحدى حملات النورمان على المهديّة نحو سنة 570هـ/ 1174م . وهناك التقى بأحد الصلحاء وهو أبو زكريا بن الاجباري، وكانت بداية النّقلة في حياته، وتفريطه في السّيف والانصراف الى التصوّف . ويبدو أنّ لمرضه ثلاث مرات متتالية في فترة الفروسيّة تأثيرًا واضحًا على هذا التحوّل (3) .

انتقل الى القيروان حيث أخذ الفقه عن أبي زكريا يحيى بن محمد بن عوانة وأبي عبد اللّه البسكري، ومنها رحل الى بجاية مع وفد من أهل افريقية التونسية (حملة العلم السّتّة) وهم أبو علي النفطي وعبد العزيز المهدوي وطاهر المزوغي وابن هناص وسالم

(1) ن.م، ج III ، ص 42 ب ، ج IV ، ص 240 ب . ذكر البرزلي في قوله " كان شيخنا الامام [ابن عرفة] ينقل عن بعض أشياخه أنّ كلّ من حضر من أعراب افريقية أخذ الأمير أبي الحسن المريني ،لا تقرّر له توبة لانه لا يقدر على جميع ما ضاع للجيش، ومن شرط التّوبة ردّ المظالم الى أهلها ، وهذا لا يستطيع ردّها "

(2) الدبّاغ ، **مناقب الدهماني**، ج I ، ص 2 ب .

(3) **مناقب** ، ج I ، ص 181.

التبّاسي ومحفوظ بن جعفر، واتّجهوا الى بجاية حيث التقوا بأبي مدين شعيب، وأخذوا عنه ، وذلك بعد سنة 570هـ .

وعلى اثر رجوعه من بجاية بين سنتي 575–585هـ ، ظلّ فترة من الزّمن مرابطا بساحل المهديّة والمنستير ، وخاصّة بأربطة هيبون وشقانص وزويلة، وشرع هناك في تأسيس زاوية .

وفي سنة 595هـ/ 1198م، تحوّل الى المشرق للحج، وأخذ في مصر عن عدّة شيوخ، ذكر من بينهم : أبا علي القرشي وأبا العباس القسطلاني وأبا عبد اللّه القرطبي وأبا العباس الجريري وأبا عبد اللّه الفخر الفارسي، وفي مكة التقى أبا محمد عبد الرزّاق المهدوي .

وقفل راجعا الى افريقية حيث انكب على تعلّم الحديث وأخذ من ابن حوط الله وأبي عمرو بن دحية الكلبي . وأقام بتونس مع أبي علي النفطي مدّة حرب بني غانية، بين سنتي 599هـ و603هـ/ 1202–1206م.

ويبدو أنّه خلال هذه الحقبة الأخيرة شرع في انشاء زاوية بالقيروان ، معيّنا أبا علي حسن اللّواتي متصرفا عليها (1) .

وإلى جانب صحبته لأبي علي النفطي والمراسلات العديدة بينهما ، فانه ارتبط بعلاقات حميمة مع أبي محمد عبد العزيز المهدوي عن طريق الرسائل ، وكذلك مع أم يحيى بالمنية من ناحية صفاقس (2) .

ورغم الرحلات العديدة ، فان طبائع البدو ظلّت راسخة فيه في مختلف فترات حياته: فعند اقامته بالمهدية، كان يرتدي البرنس ويتلثّم على هيئة الأعراب . وكذلك الشأن لما تحوّل إلى مصر، حيث " **كانت عليه أطمار بدوي يلبس جبّة وتارة عباءة** " . ولم تتغيّر سلوكيات الفارس التائب، حتى أن الفقيه أبا عبد اللّه القريشي بمصر خاطب أصحابه قائلا : « **هذا البدوي من الرجال** ». أما أصحابه بافريقية ، فانهم قالوا له كلّما أستحسنوا منه أمرا في المذاكرة : " **بقيت فيك عزّة العرب** " (3) .

وتتميّز الفترة التي عاصرها بكونها منعطفا تاريخيا هاما، اذ استطاع الموحدون كسر شوكة الأعراب واخضاعهم ونقل القبائل المعارضة قسرا الى المغرب الأقصى . وكانت قبيلة بني علي الرّياحية التي انتمى اليها فرع دهمان، من القبائل التي تضرّرت أكثر من غيرها، بعد فشل حركة رئيسها : محرز بن زياد الرّياحي، وموته في معركة القرن سنة 556هـ/ 1262م.

(1) **نفسه** ، ج I ، ص 14ب . يبدو أنّه عاد الى المشرق ثانية سنة 618هـ/ 1221م ثم مكث في آخر حياته بالقيروان، وكان قد فقد بصره أثناء شيخوخته . وقد تزوج أربع نساء أنجب منهن 10 ذكور و 4 بنات ، توفي في 10 محرّم 621 هـ .

(2) الدبّاغ، **مناقب** ، ج II، ص 105، 112، 117ب (عرفت رسائل الدهماني بكونها موجزة على عكس رسائل المهدوي).

(3) **نفسه** ، ج I ، ص 3ب، ج II ، ص 101ب ، 110ب ، 111ب .

ولئن مثّل مسعود بن زمام، شيخ الدّواودة، الجناح الرّياحي غير المستسلم، الذي واصل صولاته وجولاته مدّة نصف قرن من الزّمن، فانّ فروعا أخرى من رياح، وخصوصا دهمان تفرّقت في الاوطان وركنت الى الاستقرار بعد أن خضدت شوكتها.

وهكذا كان أبو يوسف يعقوب الدّهماني من الأوائل الذين وعوا أنّ الفتوّة والفروسيّة لم تعودا السّبيل الأنجع للارتقاء الاجتماعي، وأنّه ثمّة مسلك آخر أكثر تماشيا مع معطيات الظرفيّة: وهو مسلك التّوبة والاقبال على العلوم الدينيّة الرائجة وقتذاك في شكلها الصّوفي. وطبيعي أن يمثّل هذا التحوّل صدمة بالنّسبة إلى أفراد قبيلته كما حدّث بذلك الدّهماني (1).

إنّ التّوبة في مفهومها هذا هي تحوّل اجتماعي للبدو، ناجم عن افتقارهم وتضعضعهم بعد هجومات الموحدين المتتالية عليهم، حتى أنهم كلما أبصروا جيش المصامدة فرّوا منهم مذعورين (2). وهي أيضا شكلٌ من أشكال الهجرة من البادية التي أصبح القوت فيها نادرا الى المدينة.

قال الدّهماني: «كلفوني سنة بالحرث، فكنت أحرث لهم على فرسي، وكنت أصوم النّهار مع قلّة الغذاء» (3).

أمّا علاقته بالسلطة، فقد عرف عنه أنّه لا يتحبّب للولاة ولا للظلمة ولا يأتي مجالسهم، فيما سعى أرباب السلط ومن بينهم والي افريقية أبو العلاء إلى كسب ودّه بواسطة العطاءات (4).

على أنّ علاقته مع " العامة " تبدو وطيدة، حتى انّه كلّما زار رباط المنستير، ازدحم النّاس عليه. وكان يتصدّق عليهم بما عنده، ويقصد " الضعفاء المعدمين " فيسألهم عن أحوالهم ومعاشهم (5).

ومثل الدّهماني بداية حقبة جديدة في تاريخ البدو، فقد فتح باب الاندماج أمامهم، فتابت على يديه **«أمم كثيرة من الاعراب والبوادي، ونقلهم من اكتساب الحرام والاضرار بالنّاس الى ملازمة الطاعات والاشتغال بالعبادات»** (6).

---

(1) الدباغ، **مناقب الدّهماني**، ج II، ص 186أ: «كان قرابتي من الصّغر يتخيّلون في أنّي أكون لهم أميرا، فلمّا تبتُ أتوا اليّ بزويلة، فكنت أرفع العجين على رأسي الى الفرن، فاذا رآني أحد منهم هرب، وأستخفى عنّي، فقدّر الله بعد ذلك انّه ردّ الجميع اليّ محتاجين صاغرين». وذكر في رواية أخرى انّ أحد قرابته زاره، فرآه في حالة رثّة، فبكى وقال: " وأذلّ الفتيان بعدك يا يعقوب ".

(2) الدباغ، **مناقب الدهماني**، ج I، ص 136-ب (هروب حيّ من احياء العرب مذعورين (فيهم 60 دوارا) أمام تقدم جيش المصامدة، وتفرّقوا وهم يقولون المصامدة).

(3) **ن.م.**، ج II، ص 86 ب. (4) **ن.م.**، ج I، ص 21ب، 141- ج II، ص 93 ب.

(5) **ن.م.**، ج II، ص 87ب، 98 ب 125 ب. (6) **نفسه**، ص 125 ب.

ويكفي أن نستعرض عدد الرّاوين عنه من الاعراب حتّى نتبيّن أهميّة سيرورة الاندماج البدوي بافريقية، وهم على التّوالي:

1- أبو عيسى زيد الدّهماني
2- أبو يوسف يعقوب بن خليفة الدّهماني
3- أبو يوسف يعقوب بن أبي القاسم الزّعبي
4- أبو محمد بشر بن سهل الرّياحي
5- أبو زيد الشّريدي
6- زايدة الرّياحي
7- أبو موسى عمران الرّياحي
8- أبو محمد عبد المنعم الحكيمي
9- فارس بن جواد بن حكيم
10- أبو زكريا يحيى المازني (1)

على أنّ ذلك لا يعني ان علاقته كانت حسنة مع كلّ أهل البادية. فلقد ساءت مع البعض منهم، الذين قد يكونون رفضوا هذا التغيير في سلوكاته، وكان ان انزعج مرّة وتغيّر عند دخول بعض البدو عليه، ومعلوم أنّ أحد الاعراب أراد قتله، بتحريض من أهل قرية بالسّاحل (2).

وفي الجملة فان فاعليته كانت كبيرة في مجتمع البدو، إذ تولّى حلّ مشاكلهم ونزاعاتهم الدّاخلية، فقد جاءه مرّة ثائر بن جابر الحكيمي مشتكيا اليه ظلم أولاد جابر من بني حكيم، مخاطبا إيّاه بما يلي: **«كلّ من جنا جناية من العرب ينسبها الينا، وقد سجن من قبيلتنا خلق كثير في مواضع ولا أقدر على السكنى مع المذكورين أولاد جابر في هذه البلاد»** (3).

واذا كان هذا البدوي يعاني من صعوبة الاستقرار ومن حرابة أجواره، فان الآخر وفد عليه لاستشارته في مسألة شخصيّة تخصّ زواجه من امرأة ثانية (4).

---

(1) **نفسه**، ج I، ص 16أ، 37ب، 61، 17ب، 19ب، 121أ، 22ب، 127أ، 72، ج II، ص 90ب، 114أ.

(2) الدباغ، **مناقب**، ج I، ص 16 ب- 17أ. (3) **نفسه**، ج I، ص 52 ب.

(4) **نفسه**، ج I، ص 17ب-18ب. ومن الأخبار الأخرى الواردة في هذا الموضوع، قول الدبّاغ: «حدّثني أبو رياح فرج المسراتي قال: كنت مع الشيخ، فبينما أنا في حلاوة تلك الحالة، اذ قرع الباب قوم من أهل البادية، فلما دخلوا على الشيخ، فنزّلهم وجعل يسألهم عن كثير من أحوالهم، فضاق ذرعي بذلك، وتشوّش عليّ حالي، فلمّا خرجوا، قلت: يا سيدي هؤلاء وأمثالهم يكدرون الأوقات الصّافية ولا يفهمون شيئا من المعاني، فقال: يا ولدي، اتّساع الأمن رحمة للكافر من هؤلاء وأمثالهم أن يأمنوا النّاس غوائلهم، وقد كان الناس يخافون منهم، فصاروا الآن يؤذّنون ويصلّون ويطعمون الطعام ويحسنون الظن».

ولم يقتصر دور الدهماني على تغيير سلوكيات الأعراب ومعتقداتهم فقط ، وانّما شمل كذلك عددًا هامًا من قبائل البربر، من لواته وبلاد الفزّان. وحسبنا أن نذكر أن متصرّف الشيخ هو أبو حسن اللواتي (1) .

تلك هي بعض الصّور الدّالة على تطوّرهامّ في حياة أهل البادية وتراجع الحرابة وبداية الاستقرار والانصهار في المجتمع الافريقي .

ويتّضح أن هؤلاء ينتمون في الجملة الى القبائل العربيّة وسط افريقية: قبيلة رياح بفرعها دهمان وحكيم وزعب وشريد . هذا فضلا عن عدد كبير من البدو من أصول بربريّة ومن سكّان القرى، من ساحل المهدية (منزل معروف وهيبون وللّيانة ولمطة والمهدية) ومن الجزيرة (منزل الفلاحين والمزاتين، ونابل) وصفاقس وجبل كسرى والقيروان ولواتة ومسراتة والفزّان وغيرها . وهو أمر يدلّ على مدى استقطاب هذه الزّاوية للبدو ، والتحوّل الذي شمل بادية افريقية في ذلك العصر .

وهكذا أصبح على رأس قائمة من الأجيال البدويّة التي فرّطت في السّيف لفائدة القلم، نذكر منهم في القرن السابع هـ/ XIIIم :

1- أبو رحمة غيث الحكيمي : أقطعه المستنصر أراضي شاسعة ، واستقرّ بربض قرب القيروان .

2- أبو الزّين محمد بن ثغر الحبيبي : أصله من الأعراب، تاب على يد أبي يوسف الدّهماني، وتحسّنت وضعيته الاجتماعية فيما بعد. تحوّل الى الشرق للحجّ وتوفي بالقيروان .

3- عبد الرحمان بن كامل الزّعبي : صاحب عبد العزيز المهدوي ، وكان زاهدا توفي بالقيروان سنة 662 هـ/ 1263م .

4- أبو يوسف يعقوب بن خليفة الدّهماني : علّمه أبو يوسف يعقوب بن ثابت الدّهماني وصاهره . بقي بالمشرق تسعة سنوات ، توفّي سنة 669 هـ / 1270م.

5- توبة جماعية لخمسين فارسا على يد القديدي.

6- أبو السّرور ميمون بن زيد الكرفاح الوائلي : فارس بني وائل وأحد أبطال افريقية أثناء الحرب الصليبيّة الثامنة ، تمت توبته أثناء غارة قام بها في بلاد الجريد حيث التقى أحد صلحائها، وأقطعه المستنصر هناشير شاسعة بجهة القيروان .

وتجدّدت جذوة الاندماج البدوي في مطلع القرن الثامن هـ/ XIVم ، عن طريق مساهمة علماء المدينة مثل الرمّاح (المتوفّى سنة 749هـ/ 1348م) والشبيبي . ولئن كانت الصّفة الغالبة للأعراب المندمجين في القرن السّابع هـ ، هي الفروسيّة والمشاركة في التصدّي للعدوان المسيحي (نموذج الدّهماني والوائلي)، فانّ أعراب القرن الثامن هـ المندمجين لم تكن

(1) نفسه ، ج ا، ص 18 ب .

لهم مشاركة في هذه المعارك، انّما اقتصر دورهم على تهدئة البوادي وتأمين الطرقات والمسالك ومراقبة السّواحل .

1- فأبو عبد اللّه محمد بن شبل (النّصف الأوّل من الثامن هـ / XIV م)، كان بدوره سيف عمّه وفارس بني رياح، وقد اضطر الى التراجع عن توبته لتأديب بعض المتطاولين على عمّه . فالتّوبة اقتصرت عنده على الاندماج والتخلّي عن الفروسيّة .

2- أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن عيّاش العبيدلي : توفي سنة 748 هـ ،أخذ عن أبي عبد اللّه محمّد الرمّاح ، واقتصر على تعلّمه بالقيروان ولم يتحوّل إلى تونس. وكان العبيدلي ، البدوي نشأة، المتواضع علما ومعرفة، شأن الدّهماني قد استقرّ في آخر عمره بالقيروان، ولعب دورا خطيرا في توبة البوادي . " **وكان من اعتقاد الناس فيه تتوب البوادي على يديه، ولا يقبل توبتهم حتى يخرجوا ما عندهم من المظالم التي عليهم** " .

مما يأتي حجّة على الاندماج الجماعي للأعراب في النصف الأوّل من القرن الثامن هـ، بعد أن خضدت شوكة القبائل ، وعجزت عن تولّي السلطة عن طريق العصبيّة ، وبالتالي فقد انتقل العبيدلي من النّزاع الدّاخلي الى المرابطة للتصدّي للغزو الخارجي: «**فكان يخرج بأصحابه في الصّيف للمنستير ومعهم آلة الحرب ويمشي على المكامن** " .

3- أبو سعيد خلف اللّه بن اسماعيل الحكيمي : أخذ عن الرمّاح، وواصل دراسته بتونس عند ابن عبد السّلام، ثمّ تولّى قضاء تبرسق .

4- أبو يوسف يعقوب بن أبي القاسم الزّعبي : سكن بلاد العلوين، وتولّى قضاء الجماعة بتونس كان مسموع الكلام عند أعراب افريقية وغيرهم .

5- أبو محمّد عبد الكريم بن اسماعيل الأرنبي : اجتمع عنده عدد من الطلبة من البدو. وكان يذبّ عن أهل القيروان من الأعراب .

6- لعب الشّبيبي دورا فاعلا في اندماج الأعراب : فكان « **اذا تاب عربي من قطاع الطريق وحضر الميعاد، بالغ ذلك اليوم في الوعظ بما يليق به** » . وكان يستعمل الطّرق المرنة لاقناع المحاربين بالكفّ عن سلوكاتهم وتغييرها ، محاولا كسبهم وترويضهم . وقد عاب عليه السلطان خروجه للاعراب ومشاركته ايّاهم في الزراعة .

7- ورد أهل البوادي على أبي عبد اللّه محمد علي بن قائد الاسماعيلي للزّيارة والتّوبة .

8- تحوّل أحد الأعراب أبو القاسم بن ثعلب ، بعد توبته إلى متتبّع للمحاربين ، واجتمع مع عدد كبير لقتال المحاربين .

وفي نواحي مدينة تونس قام بعض المرابطين بنفس الدّور، ونقتصر على ذكر مثال

عبد الوهاب المزوغي، (القرن السّابع هـ/ XIII م)، الذي انتمى بدوره الى أصول بدوية (قبيلة مزوغة)، واستقرّ في بادية مدينة تونس بموضع يسمّى الحماري، حيث اشتغل بالزّراعة والبستنة. وقد خصّص بقيّة وقته لتعليم البدو، رغم احترازات العلماء، ونقدهم له، ونفور العامّة الحضر من ذلك (1).

(1) **مناقب** ، مخ 18555، ص 122ب وهذه الرواية تبيّن ذلك» كان الشيخ من حسن خلقه ورقة قلبه وسخاوة نفسه ووسع صدره انه كان يقرأ عليه بعض سكان الخيام. وقد كانت تضيق خواطرنا منهم من قفلان قلوبهم وقلة فهمهم والشيخ معهم كالوالدة الشفيقة مع ولدها..وكان بعض فقهاء الظاهر يؤذونه ويحسدونه..»

الرواة عن أبي يوسف يعقوب الدهماني

الاسم – اللقب– الكنية	إسم البلد أو القبيلة	المرجع
أبو عيسى زيد الدهماني	بنودهمان	الدباغ، ج1 ص 16أ
جابر الجندوبي	جندوبة	10ب، 19أ، 57ب
أبو محمد بشير بن سهل الرياحي	رياح	17 ب – 18أ
أبو زكريا يحيى المزاتي	مزاتة	18أ
أبو الحسن علي اللّواتي	لواتة– الفزان	18أ
أبو اسحاق اللياني	لليانة	16ب
يوسف المعروفي	منزل بني معروف	16ب
أبو رضوان الهيبوني	هيبون	17أ
أبو علي عمر القروي	القيروان	17ب، 50ب
أبو يوسف يعقوب الطيني	طينة	19أ
أبو علي غسان الكنائسي	الكنائس	19أ
ابو زيد الشرُيدي	الشريد	19ب، ج II، ص 90 ب
أبو زيد عبد الرحمان الماموني		19 ب
ابو محمد حجر		20 ب
ابو عثمان الفطناسي	فطناسة	20 ب
ابو محمد عبد المحسن النابلي	نابل	20 ب
ابو زكريا يحيى المازني	مازن	21أ
زايدة الرياحي	رياح	21أ
ابو محمد عبد السلام بن عبد الغالب		21أ
ابو العباس بن شيخ الرباط		21 ب، 124أ
ابو موسى عمران الرياحي	رياح	21 ب
ابو الرياح فرج المسراتي	مسراتة	24أ
ابو محمد عبد المنعم الحكيمي	حكيم	27أ
ابو العباس القسطلاني		27أ
ابو محمد عبد الباري الهيبوني	هيبون	31 ب، ج II، ص 192أ

الرواة عن أبي يوسف يعقوب الدهماني

الاسم – اللقب – الكنية	إسم البلد أو القبيلة	المرجع
علي بن يوسف القتادي	منزل المزاتين	29أ
أبو عثمان سعيد	كنيسة البرج	31 ب
أبو زكريا بن هناص	لطة	25 ب، 35أ
أبو عيسى زيد الدهماني	دهمان	29أ
أبو يوسف يعقوب الدهماني	دهمان	37 ب
أبو الحجاج المعروفي	منزل بني معروف	37 ب
أبو علي فضل الصفاقسي	صفاقس	37 ب
عبد الرحمان العجمي		37 ب
أبو عبد الله الينبلي	أنبولة؟	34 ب
سلامة بن أحمد الهيبوني	هيبون	35أ
أبو زكريا يحيى بن وتران		36 ب، 136 ب
أبو محمد سلطان القلالي		36 ب
أبو عبد الله محمد بن الحداد		36 ب
أبو علي القوري		41أ
ابو علي سالم	منزل الفلاحين	42 ب
ابو العباس الغماري	غمارة	114أ
أبو سعيد الفطناسي	فطناسة	42ب
أبو علي حسن اللمطي	لمطة	37أ
أبو علي الكسراوي	كسرى	37أ
أبو عبد الله بن أبي دلف		38أ
عطيّة البوزيدي (مؤذن)		38ب
أبو علي حسن اللواتي	لواتة	40أ
أبو العباس القردموسي (فقيه)	قصر الجم	50أ
عبد المنعم بن عبد الحكيم		52ب
أبو بكر سليمان المعروف بابن القابلة		57أ
أبو يوسف يعقوب بن أبي القاسم الزعبي	زعب	61
أبو محمد عبد الغفار المغراوي	مغراوة	63أ
أبو علي المزاتي	مزاتة	64أ
أبو العباس بن برهون المتطبب (645 هـ)		68أ
فارس بن جواد	حكيم	72أ
عبد الغالب المهدوي	المهدية	109ب
عبد المنعم الحكيمي	حكيم	114أ
عبد السلام الكماد		124أ

II -تنامي دور «العامّة» بالمدن :

يحتاج التطرّق إلى هذه القضية إلى الملاحظات المنهجية التالية :

– قراءة نقدية للمصادر التي غالبا ما طمست الحقيقة أو شوهتها، فتناست ذكر هذه الفئات أو تحدثت عنها بطريقة منحازة وانتقائيّة، وظل ابن خلدون، متفوقا في هذا الشأن على غيره من مؤرخي المغرب وقتذاك، فهو مثلا أقرب الى الموضوعية من ابن مرزوق الذي جاء مسنده كتابا في مناقب أبي الحسن المريني أكثر منه تأليفا تاريخيا .

– مسألة تحديد المصطلح : العامة هي متصور واسع وغير محدد تدقيقا، يضم فئات شعبية وأصنافا مختلفة، وهو يعرف عادة باللفظ المقابل له: الخاصة. فاذا كانت هذه الأخيرة تضم النخبة والمقربين إلى السلطان من أهل الخطط وأصحاب الجاه، فان العامة هي بقية الفئات الاجتماعية المحرومة من الثّروة والمعدومة النفوذ والجاه، وتتكون داخل المدن من الحرفيين وصغار التجار والعاملين في الزراعة والرقيق، وكذلك من العاطلين على العمل، على أن المؤلفات التي كتبتها أقلام قريبة من المتنفذين تتحدث عنهم بازدراء، متعمّدة استعمال مصطلحات نابئة، تضعهم في مقام "المهمشين" من الفئات الرثة، فهم الغوغاء لكثرتهم كالجراد، والأوباش لشدة اختلاطهم، وأوغاد القوم لحماقتهم وخفة عقولهم، والدّهماء لسوادهم وكثرتهم، والأشرار، وهم السفهاء وأهل الشطارة لخبثهم وشرّهم (1).

وليس غريبا حينئذ أن تكون هذه الفئات التي وصفت بكل رذيلة وفساد مصدرا للاضطرابات الاجتماعية والقلاقل والانتفاضات، التي أعتبرت بدورها فتنًا، (2) .وقد وصفت هذه الحرب الأهلية أحيانا أخرى بالثورة، وتميّزت فعالياتها بقيام هيعة، وهي الأصوات المفزعة والفاحشة التي تسمع في خضم هذا التحرك .

تلك هي بعض المصطلحات التي استعملتها مصادرنا، وهي تأتي حجة لمدى الضيم الذي تعرضت له فئات العامة، وتنكر مؤرخي المخزن لأعمالها، اذ سارعوا الى إدانتها ازلفا وتقربا، دون بحث جدي عن حقائق الأمور.

(1) انظر حول هذه المصطلحات : ابن منظور، **لسان العرب**. دائرة المعارف الاسلامية، مادتي فتنة وعامة.
(2) **قرآن**، سورة البقرة الآية 191 : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة" .

– تصنيف حركات العامة: إنّ سعينا لكشف اللثام عنها يفسّر هذه المحاولة التصنيفية التي تنطلق من المكان والزمان، ومن اختلاف الأسباب لقيامها، منها الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومنها الحركات الموجهة ضد الدّخلاء المحتلين، الخ... كما أن القوى المشاركة فيها تعتبر مؤشرا آخر على تمشي هذه الحركات، وكذلك الأمر بالنسبة الى تطور الأحداث وردود فعل القوى المتصارعة معها. ولعل هذه المعطيات متجمعة تخوّل لنا البحث في طبيعة هذه الحركات: لصالح من كانت، وما هو دورها التاريخي الفعلي وحجمها الحقيقي ونسقها وعلاقتها بالمجالين الحضري والبدوي؟

1) ردود فعل العامّة أثناء المجاعات:

أ) سنة 543هـ/ 1148م:

ارتبط تصدير افريقية للحبوب أو توريدها لها بالمعطيات الطبيعية المتقلبة وبالظرفيّة التاريخية العامة، فقد كانت أساسا مصدرة للقمح إلى صقلية قبل أواسط القرن الخامس هـ/XIم. لكنها أضحت موردة له على اثر اهمال للفلاحة، ومما يبيّن الحاجة الملحة لاستيراد الحبوب وخاصة زمن الشدة، هو عدم مساندة العامة لرغبة الفقهاء في مقاطعة النورمان عند استيلائهم على صقلية وطردهم للعرب منها سنة 484هـ/ 1091م (1).

على أن توسع النورمان في المتوسط لم يقف عند هذا الحد، بل سَيْطَرَ على شريط ساحلي يمتد من طرابلس إلى مشارف مدينة تونس، مدخلين الاضطراب الاجتماعي ناشرين الدمار في قطاعي الفلاحة والتجارة، عاملين على قطع المدن عن نواحيها. وهو أمر يفسّر استنفار مدن افريقية وأريافها وتأهبها للدفاع عن نفسها، و نظمت المدن التي تخشى انزالا بحريا مقاومة متعددة الأوجه، فقد "**أخذ أهل تونس في الاستعداد والأهبة والوقوف بجماعاتهم وقتا بعد وقت عند باب البحر بمحضر واليهم معد بن منصور**".

و رفضت العامة تصدير القمح إلى إحدى المدن الإيطاليّة في سنة مجاعة، و وقفت في وجه صنف من التجار المحتكرين الذين يقومون بمضاربات لتحقيق أرباح مشطة (2).

(1) انظر: H.R.Idris,**Les Zirides**,TII,p.666.
(2) انظر: ابن عذاري، **البيان المغرب**، بيروت 1948، ج1، ص 313-،314 . Idris,**op.cit**,TI,p.369,361

أما الدّور الثّاني من هذه الحركة، فانه تمثل في طرد الوالي الحمادي إلى بجاية، وبعد أن حل محلّه قائد من قواد صنهاجة مدة يسيرة انتهت بإقالته، تمكنت هذه الفئات لاول مرة من الاستحواذ على السّلطة، "**وبقي البلد في حكم العامّة**".

وبالتالي يمكن أن نتحدث بدون مجازفة عن ظهور حركات استقلالية بالمدن قادتها العامة المتحالفة مع العلماء في ظل هذا التفكك السياسي والاجتماعي. لكن هذه الحركات الجنينية أجهضت عند دخول الموحدين مدينة تونس عنوة (1).

ب) هل أدّى الجوع إلى ردود فعل العامّة؟

كثيرا ما نعثر في طيات المصنفات التاريخية على وصف مدقق للأوضاع المأساوية التي كان النّاس يعانون منها زمن الكوارث الطبيعية والمجاعات، ونورد فيما يلي بعض النماذج الخاصة بالقرنين السّابع والثامن هـ/XIII-XIVم.

ففي أواسط القرن السّابع حل بمدينة تونس جوع ناجم عن نقص في الانتاج الزراعي، وارتفاع مشط في أسعار الحبوب حتى بلغ القفيز من القمح 20 دينارا ذهبا ومن الشعير 10 دنانير، "**وأصاب الناس هول عظيم حتى صاروا يموتون في الأسواق والأزقة**". والملاحظ أن العبارة الأخيرة تكررت أكثر من مرة (2)، مما يوحي بأن الاسواق كانت المجال المدني الاخير الذي تلتجئ إليه جماعات الجائعين في بحث يائس عن الخبز.

ولم تكن الصوفية غائبة عن هذا المشهد، بل على العكس من ذلك عرفت حضورا مكثفا داخل الأسواق خاصة أن الكثير من هؤلاء الصوفيين كانوا حرفيين، من خيّاط وفرّان وتاجر وحطّاب وغيره. وقد حوتْ قدرًا هامًا من ردود فعل العامة زمن الأزمة، فساعدت على نشر الحلول الغيبية تارة، ورمت طورا فتات الخبز لهؤلاء الجائعين. وهذه شهادة حية جاءت على لسان أبي الحسن الشاذلي الذي تحدث قائلا: "**لما دخلت مدينة تونس وجدت فيها مجاعة شديدة ووجدت الناس يموتون في الأسواق، فاشتريت الخبز من باب المنارة وناولته الناس فتناهبوه، ثم أخرجت الدراهم فناولتها الخباز فوجدتها زائفة**"(3).

(1) راجع: المراكشي، **العجب**، 1978، ص 333.
(2) **مناقب**، رقم 18555، ص1ب، 15ب. (3) **مناقب أبي الحسن الشاذلي**، طبعة حجرية، ص 5.

ومن المعلوم أن هذه الأزمات الدورية تتعاقب حسب نسق متفاوت المدة، في ارتباط مع تطور الظروف المناخية خاصة، والظرفية التاريخية عامة. فبعد ست سنوات من الطاعون الجارف الذي شمل عديد البلدان المتوسطية، عاود شبح المجاعة وخيّم من جديد على مدينة تونس سنة 755هـ/ 1354م، وارتفع سعر الطعام مرّة أخرى بالمدينة حتى بلغ القفيز من القمح 11 دينارا ذهبا والشعير الى نصف ذلك (1).

واذا كانت المصادر لا تبخل علينا بالمعلومات المتعلقة بالكوارث، فانها قلما تتعرض إلى ردود فعل الفئات الشعبية، مما يجعلنا نعتقد أنها كانت ضعيفة. ففي سنة 862 هـ/ 1457م، ارتفعت أسعار الحبوب بتونس حتى بلغ قفيز القمح 4 دنانير ذهبا والشعير نصف ذلك، فشكى الناس قلة الطعام وغلاءه للسلطان، فأمر بأن يخرج من المخزن في كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرق على الفقراء بتونس بباب ينتجمي، فبدأ بتفريقها في ثالث ربيع الثاني ودام إلى رجب حتى "**كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه**" (2).

ونرجح أن الكوارث الطبيعية لم تؤد إلى رد فعل حقيقي للعامة، أما الأزمات الاقتصادية، فكثيرا ما تدحرجت إلى السفح، متحولة بذلك إلى اضطرابات اجتماعية. ولنا مثال في الرد على السكة المغشوشة التي ضربت سنة 660هـ/ 1262م، ذلك أن العملة الفضية عرفت تراجعا في قيمتها، تفسّره عوامل خارجية مرتبطة بتدنّي بطيء لقيمتها ابتداء من القرن XIIIم إلى حد القرن XVم بالمدن الأوروبية المحتاجة إلى الذهب الافريقي المتوفّر لها مقابل تصديرها للفضة إلى بلاد المغرب (3).

ومهما كانت الأسباب، فان هذه الوضعية أدّت إلى ضرب نقود نحاسية سميت الحندوس وذلك على غرار الفلوس بالمشرق. لكنها لم تسلم بدورها من الغش والتدليس. "**فضربها أهل الريب ناقصة عن الوزن وفشا فيها الفساد**"، وتدخلت السلطة السياسية من جديد لقطع هذا الأمر، منزلة بالمدلسين عقوبات صارمة، لكن بدون جدوى.

فقد أصرت العامة على التخلّص من هذه النقود النحاسية التي أحدثها السلطان المستنصر بالله الحفصي، "**وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقعت الفتنة**" (4). وفعلا حاول ابن عم السلطان أبو القاسم بن

(1) الزركشي، **تاريخ الدولتين**، تونس 1966، ص 95.

(2) **المصدر نفسه**، ص 150.

(3) فسّر ابن خلدون ظهور الدرهم الزيوف بافريقية وقتذاك وضرب الدرهم الجديد عوضا عن القديم، بمدى " غش" اليهود المتناولين لصرفها وصوغها. كذا في ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 658. انظر ايضا :
R.Brunschvig, **Les Hafsides,** T II, p.74.

(4) ابن خلدون، **نفس الاحالة**، ص 659. انظر أيضا: الزركشي، **تاريخ**، ص 38. ابن الشماع، **الأدلة**، تونس 1983، ص 67.

أبي زيد القيام عليه، مستغلا في ذلك الظرفية الاقتصادية. وهكذا أضيفت الى الصعوبات الاقتصادية تعقيدات سياسية وتوترات اجتماعية، مما جعل السلطة المخزنية تتراجع في قرارها وتقطع نقود الحندوس بعد ستة أشهر من ضربها. وبهذا تم القضاء على الحركة في مهدها، بعد أن التحق ابن أبي زيد بقبيلة رياح سنة 661هـ/ 1263م فارًا من المستنصر.

2) العامة في حركة ابن أبي عمارة:

تعتبر المصادر المؤرخة لهذا الحدث الراجع إلى نهاية القرن السابع هـ/ XIII م، متأخرة عنه بنحو قرن كامل، وهي الأخبار التي أوردها كل من ابن خلدون وابن الخطيب وابن قنفذ. أما مصادر النصف الثاني من التاسع هـ. مثل الأدلة لابن الشماع وتاريخ الزركشي فانها اقتصرت في الغالب على نقل الرّوايات السابقة.

وتتفق على إدانة الدعيّ، دون تتبع حقيقي لدور العامة في قيام هذه الحركة (1).

أ) جذورها :

– بودار الأزمة الاقتصادية: كثيرا ما تحكمت نزوات الطبيعة في التطورات الظرفية، فوافق التّناوب بين السّنوات العجاف وبين السنوات السّمان انتقالا من دورة مؤهلة لقيام الاضطرابات الاجتماعية إلى أخرى متميزة بالاستقرار الاجتماعي. فاذا كانت أيام الواثق (675–687هـ) "هادئة راضية،" فان حكم أبي اسحاق (679هـ – 681هـ) شهد حركة هددت كيان الحكم الحفصي، متزامنة مع استفحال ظاهرة الجوع في البلاد (2).

عرفت افريقية سنة 678هـ/ 1279م. نقصا في الانتاج الفلاحي، يفسر بالتجاء الناس إلى أكل القمح فريكا في ربيع السنة الموالية. لكن هذه الأخيرة لم تسلم من كارثة طبيعية حلت بها قبيل الحصاد، فأدّت إلى فساد الزرع، وإلى اتلاف الماشية معه (3). وفي السنة الموالية من هذا الحدث قامت حركة ابن أبي عمارة.

اذا كان الواثق قد أمر برفع المظالم وإحراق أزمة المؤدات، ومحا رسوما ووظائف كانت على الناس، فان أبا اسحاق ابراهيم اتّبع سياسة تميّزت بالاسراف زمن الشدة، "

(1) راجع : برنشفيك، **تاريخ الحفصيين**، ج ا، ص 84–89. (2) ابن الشماع، **ن.م.**، ص 136.

(3) الزركشي، **ن.م.**، ص 45.

فزاد في العوائد ليجد الرّاحة في لذاته بعد تقدم غزواته، وقلّت المجابي في أيّامه وكثر الاخراج والانفاق" (1).

وليس صدفة أن يتزامن ظهور هذه الحركة مع بداية حملة لجمع الضرائب، شملت وطن هوارة في غرب البلاد (2). وقد بادر ابن أبي عمارة عند دخوله مدينة تونس إلى رفع ضريبة الانزال عن السكان، وذكرت له معظم المصادر هذه "الخصلة"، باستثناء ابن خلدون وهو أمر له مغزاه لان جده أبا بكر بن الحسن بن خلدون كان وقتذاك صاحب الأشغال المشرف على الجباية، وقد قام ابن أبي عمارة بقتله (3).

ويبدو أن سياسة أبي اسحاق ابراهيم الاجتماعية كان لها دور فاعل في ازدياد التوتّر الاجتماعي داخل المدن الافريقيّة، اذ " **استولت العرب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم، وهو أوّل من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر** " (4). ولئن كان الصراع بين البدو والحضر لا يكاد يوجد في فترات الرّخاء الاقتصادي، فانه يطفو على السطح زمن المسغبة، عندما يجبر القبائل على ترك مقرها والانتقال إلى التلّ وتطويق المدن وما يعني ذلك من أضرار بالمزروعات والمغروسات.

على أن الأمر يبدو أكثر تعقيدا من ذلك، اذ أن مهادنة السلطان لهذه القبائل لا يعني تهدئتها، بل على العكس من ذلك استندت حركة ابن أبي عمارة على عصبية أحداها، وهي قبيلة أولاد دباب السليمية.

– التوسع القطلاني: إلى جانب الأوضاع الاقتصادية الداخلية، كان للتوسع القطلاني دور في ازدياد القطيعة بين السلطان والعامة، ذلك أن مجيء أبي اسحاق ابراهيم للحكم كان بدعم من الملك " بيار الثالث" ملك الأرقون، الذي سانده لافْتكاك السلطة من ابن أخيه الواثق، متطلعا من وراء ذلك إلى بسط نفوذه على البلاد وزيادة حجم العائدات التجارية. ولئن خيب أبو اسحاق هذه الآمال فيما بعد، فان ذلك لم يثن القطلانيين عن معاودة التدخل في شؤون افريقية سنة 679هـ/ 1280م، مساندة لقائد

(1) ابن القنفذ **ن.م.**، ص 139،136.
(2) ابن خلدون،**ن.م.**، ج VI ، ص 686. ابن الشماع ،**ن.م.**، ص 77.
(3) المصدر نفسه، جVI ، ص 692. اما عن ضريبة الانزال، أو النزول، فهو اداء يؤخذ على العقارات تلبية لحاجيات الجند النازل بالبلد، ويورد" دوزي" ان النزال أو الانزال تعني ضرورة ايواء الجند، اما النزيلة وجمعها نزائل، فهي المعونة التي توفرها الرعية للامير وجيشه اثناء تحركاته. انظر : Dozy,Supplément aux Dictionnaires Arabes,T II,p.661 وورد **في البيان المغرب**(ج2 الخاص بالاندلس) عبارة النزائل واستنزال. وفي **المسند** لابن مرزوق(ص 284،283) : " مما عظم به المصاب النزول المعهود في بلاد الاندلس وغيرها من العدوتين" ، والانزال في دور المعتبرين بعدوة الاندلس وهو ضرر عظيم " ومما رفعه عن أهل البوادي جملة لا تحصى كثرة كالخرص والبرنس والضيافة والانزال" ...
(4) ابن قنفذ ، **الفارسيّة**، ص 139. وكذا الزّركشي ، **المصدر السّابق**، ص 43.

قسنطينة الذي ثار على أبي اسحاق. وقد انتهت هذه المناورات باحتلال السواحل الافريقية وبالخصوص جزيرة جربة سنة 683هـ/ 1284م (1).

وفي الأخير فان اعتماد أبي اسحاق على القطلانيين في بداية أمره يعتبر خطأ قد أدّى إلى فتح الأبواب على مصراعيها لتغلغل النفوذ الاقتصادي والسياسي للأراقون، وقد أثار هذا الأمر سخط الشّعب وتذمره، فكان " **الناس على تزلزل لأجل سطوته وانقطاعه إلى شهوته** " (2).

– الاستبداد المخزني : واجه السّلطان التوترات الاجتماعية والصّراعات السياسية بالتخلص من خصومه فنكّل بهم وقتلهم الواحد تلو الآخر، حتى كثر أعداؤه، وشملوا التكتلات السّياسية في البلاط وخارجه . ففي صفر سنة 679هـ قام بقتل الواثق وأبنائه الثلاثة (الفضل والطاهر والطيب) بعد أن علم أنه اتصل بقائد النصارى الذي يمثل الحرس الشخصي للسلطان للتخلص منه. وكان للواثق بن المستنصر شعبية لدى شيوخ الموحدين والجند الذين ساندوا فيما بعد ابن أبي عمارة .(3)

وكانت المناورة والسّعاية القانون السائد في حياة البلاط المتميزة بتعدد التكتلات : شيوخ الموحّدين والأندلسيين، وأهل البيوتات من تونس والعلوج والأعراب . والظاهر أن السلطان فشل في التحكم في مختلف هذه الاطراف .

ب) **طبيعتها : عصبية قبليّة على رأسها حرفي، لكن بدون ايديولوجية** : ولد أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة بالمسيلة سنة 642هـ/ 1244م. ونشأ ببجاية . و ذكر ابن قنفذ أنه كان " **خامل النشأة كثير التطور** " ، أمّا ابن خلدون فاعتبره من " **بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة، ونشأ ببجاية وسيما محترفا بصناعة الخياطة**" (4). ومهما يكن من أمر فاننا نتسائل عن مدى فاعلية الحرفيين في المجتمع والسياسة(5).

(1) ابن قنفذ، **ن.م**، ص 138 . انظر أيضا : Brunschvig, **op, cit**, TI ,pp.74-77
(2) **المصدر نفسه** ، ص 140.،
(3) ابن خلدون ،ن.م، جVI، ص 682–684. ابن قنفذ،**ن.م.**، ص 138–139–141. الزركشي ،**ن.م**، ص43–،44. وفي جمادى الأولى من نفس السنة قبض على ابن الحببّر وهو من المقربين للواثق وصادر أمواله وأمتحنه وقتله. وفي ربيع الثاني كان دور أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس الأندلسي لانه كان " يبغض دولته ويتسبب في زوالها" . وفي نفس السّنة قبض على محمد بن أبي هلال الهنتاتي لانه كان يسعى للفتنة . وبهذا فقد حليفا سابقا له ببجاية التي ستكون نقطة انطلاق الحركة . وفي سنة 680هـ كانت نهاية عبد الرحمان بن ياسين المعروف بابن أبي الاعلام. وفي العشر الآخر من شوال 681هـ قتل أبا محمد عبد الوهاب الكلاعي المتهم في السعاية بابن سيد الناس واستخلص امواله وفي سنتي 679–680هـ تولى خطة الجماعة على التوالي : ابن الغماز وابن أبي الدّنيا وابن زيتون ثمّ ابن الغماز ثانية .
(4) انظر على التّوالي الصفحات : 47،144،692 من المصادر سابقا .
(5) راجع الفصل الخاص بالتنظيم الحرفي، انظر أيضا : Massignon, **Opera Minora**, T I,pp. 369-383
A.Hourani and S. M. Stern, **The Islamic city**, pp.25-63.
R.Brunschvig,**op.cit**.T II, p.150,202.

وتدلّ بعض المؤشرات على طبيعة حركة ابن أبي عمارة : فهو خياط، سارع بحذف الانزال عند دخوله تونس ووجد مساندة من قبل العامة بالأسواق، والتجأ في آخر أيامه إلى التستر في دار فرّان من أصل أندلسي. فالشعور بالانتماء الى صنف الحرفيين كان موجودا، لكن أغلب الحركات ظلت متجذرة في طبيعة العلاقة بين المدينة والريف. وبناء على ذلك فان هذه الحركة التي قادها حرفيّ لم تنطلق من داخل الأسوار، بل حرّكتها عصبية القبائل العربية.

– وذكر ابن خلدون أن ابن أبي عمارة كان يحدث نفسه بالملك منذ البداية (1). وحاول في المرة الأولى توخي الطريقة التقليدية للوصول إلى الحكم، فاختلط بعرب المعقل المنتشرين بصحراء سجلماسة، وادعى أنه الفاطمي المنتظر وانه يحيل المعدن إلى ذهب بالصناعة (2) على أن محاولة ابن أبي عمارة في السيطرة على احدى النقاط لتجارة العبور باءت بالفشل، فانتقل إلى منطقة طرفدارية أخرى: جهة طرابلس.

هنالك اعتمد على قبيلة بني دباب التي كانت لها مساهمة تذكر في حركة ابن غانية وقراقوش في نهاية القرن السادس هـ، و كان رئيسها مرغم بن صابر بن عسكر الدبابي القائد العسكري الذي جسد طموحات ابن أبي عمارة على أرض الواقع، وعلى حد تعبير الزركشي "**جمع عليه العرب**" (3).

هذه الحركة بدأت في 4 محرم سنة 681هـ. عندما التقى الفتى نصير بابن أبي عمارة، ولقنه الدور الذي يجب أن يقوم به لادعاء الانتساب إلى البيت الحفصي، باعتباره الفضل بن الواثق وتعتبر بيعة أولاد دباب له ومناصرته الحدث الفيصل الذي كان بمثابة البداية الحقيقيّة للحركة التي شرعت في محاصرة مدينة طرابلس، ولّما استعصت عليهم، تحول بنو دباب إلى ناحية المدينة، واستوفوا المجابي من زنزور وهوارة، ومن لماية وزواغة، وأخيرا من جبل نفوسة وغريان. ولم تتطلب هذه المرحلة الا بضعة أشهر (4).

على أن هذه الحركة لم تكتسب عصبية قوية الا بالتحاق قبيلة بني كعب بها، ومسارعة سائر المدن الاعتراف بسلطة ابن أبي عمارة. وما انفكت دائرة نفوذه تتسع في حين أن جيش أبي زكريا بن أبي اسحاق ابراهيم القادم من تونس تقلّص عدده، وما كاد

---

(1) ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 692.

(2) نفس المصدر والصحيفة، ابن الشماع، **الادلة**، ص 79. ويذكر الوزان (**ن.م.**، ج I، ص 214) ان الغرض الذي يجري وراءه الكيميائيين هو تزييف العملة. وذلك بمتابعة تجارب في هذا الغرض. اما ادعاء المهدوية فانه أمر معهود بدوره يدل على مدى عمق الازمة و درجة الاحباط، وقد تتحول الى تهمة الصقها ابن البراء قاضي افريقية بأبي الحسن الشاذلي، اذ قال للسّلطان : " ان ها هنا رجلا من أهل شاذلة يدعي الشرف وقد اجتمع عليه خلق كثير ويدعي انه الفاطمي ويشوش عليك بلادك" – **مناقب الشاذلي**، ص 10).

M.Kably, **Société , pouvoir et Réligion au Maroc à la fin moyen-âge**, pp.97-100

(3) الزركشي، **ن.م**، ص 45.

(4) ابن خلدون، **ن.م.**، ج VI، ص 690، ابن قنفذ، **ن.م.**، ص 141، الزركشي، **ن.م**، ص 45

يصل بلد قمودة حتى تسلل عنه الكثير وأجبر على اتباع طريق العودة. وتمكن ابن أبي عمارة من دخول وسط البلاد واخضاع المدن الساحلية والقيروان دون مقاومة حتى وصل مشارف تونس.

ج) مساندة العامة :

لم يتمكن أبو اسحاق من تعبئة جيش متماسك ولا من استقطاب القوى الاجتماعية والسّياسيّة حوله، بل أن طبقات الجنود وشيوخ الموحدين وعلى رأسهم كبير الدولة ابن ياسين التحق بابن أبي عمارة، ويفسر ابن خلدون هذا الأمر بكون أرباب الدولة بقوا أوفياء إلى أبناء المستنصر، ولم يتحمّسوا لحكم أبي اسحاق، وهو دخيل كان بالاندلس واستولى على الحكم قسرا، بعد أن شنّع بالواثق وأبنائه وقتلهم.

وبعد فرار أبي اسحاق في اتجاه قسنطينة، دخل ابن أبي عمارة تونس في 27 شوال 681هـ. وبويع بها. ومما يدلّ على مدى اهتمام العامة بهذه الحركة هو شدة ازدحامهم، حول باب منارة عند دخول ابن أبي عمارة، مساندة له (1).

وأبقى على المؤسسات الموحديّة التقليديّة، دون تغيير يذكر، فعيّن شيوخ الموحدين في المناصب العليا اذ قلد الوزارة لموسى بن ياسين والحجابة لأبي القاسم أحمد بن الشيخ والجباية لعبد الله بن مكي.

لكن من جهة أخرى نكّل بصاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون، ثم قبض على أهل البيت الحفصي واعتقلهم وهمّ بقتلهم واستأصل أموالهم، كما أمر بإزالة ضريبة الانزال، وبهدم الفندق الذي يباع فيه الخمر بباب البحر (2).

إن هذه المؤشرات تدل على مدى اقتران هذه الحركة بمصالح المجتمع الحضري وبالخصوص بفئة الحرفيين والعامة. ورغم اعتماده على عصبية البدو، فانّه أقدم منذ الايام الأولى لاستيلائه على الحكم بتونس على التشفي من الأعراب الذين دخلوا معه المدينة وأظهروا التعدّي على الناس (3).

ولم يختلف موقف العامة ببجاية عن نظيره بتونس، اذ ما أن علم الناس بهزيمة أمير بجاية أبي فارس بن أبي اسحاق في صفر سنة 682هـ. أمام جيش ابن أبي عمارة، حتى عمّ الاضطراب بالمدينة، وتنكر الناس لسلطة الأمير الحفصي أبي زكريا بن أبي اسحاق، ولم يتمكن الفقهاء من احتواء هذه الهبّة، حتى أن العامة رفضت الانصياع لكلام قاضي

---

(1) الزركشي، **ن.م**، ص 47.

(2) ابن خلدون، **ن.م.** ج VI، ص 693. ابن قنفذ، **ن.م**، ص 143 الزركشي، **ن.م.**، ص 47–48 ابن ناجي، **معالم**، ج VI، ص 93–96.

(3) الزركشي، **نفس المصدر والصحيفة**.

المدينة عبد المنعم بن عتيق الذي كان يدعو الناس للاعتراف بسلطة بني حفص، بل أنّها قتلت ابنه وقامت بترحيله بحرا، وقدّمت عليها محمد بن سرغين قائما بطاعة ابن أبي عمارة (1). أما الامير الحفصي أبو زكريا، فان العامة لاحقته عند هروبه، وقتلته، "**ثم رفع رأسه إلى تونس وطيف به على عصا في الاسواق والسفهاء يضحكون والنساء يولولنَ**" (2). ان هذا الأمر يدل على مدى تجاوب العامة مع ابن أبي عمارة، ولاشك أن سكان أهل بجاية – وهي المدينة التي نشأ فيها ابن أبي عمارة– لم تكن تخفى عليهم الهوية الحقيقة للرجل. فاذا كان الأمر كذلك، فلماذا فشلت اذن هذه الحركة وبصورة أخرى فما هي محدودية هذه الانتفاضة؟

يعزى السبب الأساسي الى فك الترابط مع البدو، اذ لم يمض أكثر من 25 يوما على دخوله تونس حتى سارع إلى التخلص من البدو، فأخذ أمراءهم وكانوا نحو 80 رجلا وأودعهم السجن. إنّ التنكر لأنصاره في السابق، والمحافظة على الأمر الواقع مع منح بعض الامتيازات للعامة بالمدينة، كان ايذانا بانفصال البدو عنه والسعي لمحاربته، بعد أن خيبت أمالهم فيه، وكشف عن خطة ترمي استئصال شأفتهم، اذ كلف أحد شيوخ الموحدين عبد الحق بن تافراجين بقيادة جيش، "**وأمره بقتل من ظفر به من العرب**" (3). ان هذه الممارسات تدلّ على مدى تذبذب الحركة، التي اعتمدت على البدو من جهة وأبقت على الشرعية السّابقة ولم تتمكن من تغيير جوهري في مستوى الهياكل الاجتماعية والسياسية من جهة ثانية.

والجدير بالملاحظة انه لم يغضب البدو فحسب، بل فئات أخرى من المجتمع الحضري بدأت تنفصل عنه تدريجيا. فقد أخرج نحو 350 من زناته من القصبة إلى السجن. وعندما سمع بتحرك الامير أبي حفص عمر، داخلته الظنة في أرباب دولته، فقبض على عمران بن ياسين شيخ دولته وأبي الحسن بن ياسين وابن وانودين وعلى الحسين بن عبد الرحمان رئيس زناتة وقتلهم واستصفى أموالهم (4). ولئن كنا لا نعلم الدوافع الحقيقة التي تفسر تصرفه، فاننا نشك في مدى موضوعية المصادر التي نعتته بشتى النعوت السيئة: فقد كان يقطع المنكر ويرتكبه، قتالا، ظالما خسيسا بخيلا فاجرا كذابا مخلفا للوعود (5).

(1) ابن خلدون،ن.م، ص 694 ابن قنفذ ،ن.م،ص 143 . الزركشي،ن.م، ص 49.
(2) كذا في الزركشي،ن.م.، ص 49.
(3) كذا في الزركشي،ن.م. ص 47 . ابن خلدون، ن.م.، ج VI، ص 695.
(4) انظر : ابن خلدون ، تاريخ ، ج6 ، ص 695 . الزركشي ، نفس المصدر ، ص 47 .
(5) كذا في ابن قنفذ، ن.م.، ص 144– 145 .

وإذا كنا لا نشك في مناصرته للعامّة، فان السياسة الصلبة التي اتبعها جعلت عديد القوى تناجزه العداء، من نصارى وحفصيين وبالخصوص الأعراب الذين ساعدوا أبا حفص عمر لاسترجاع سلطة بني حفص، وقامت بأمره قبيلة الكعوب حتى وصوله الحكم. وكانت نهاية ابن أبي عمارة –مثل بدايته – في منزل من منازل الحرفيين، و عندما أيقن بالهلاك، اختفى قرب الصفارين عند بعض السوقة، في بيت رجل فرّان من أصل اندلسي وهو أبو القاسم القرموني في 23 ربيع الاخر 683هـ.(1)، هنالك تمّ القاء القبض عليه، وقتل بعد التنكيل به .وانتهى هذا السيناريو، واعتبرته جل المصادر مغالطة، حتى قال ابن الخطيب : **غريبة من لعب الليالي ما خطرت لعاقل ببال**(2).

3) تنامي دور العامّة السّياسي في القرن الثامن هـ/ XIVم:

أ) حركات العامة بتونس: لم تكن الامارة خاضعة إلى رغبات فئات العامة طيلة العهد الوحدي وبداية حكم الحفصيين، على أن توالي الأزمات السياسية والاجتماعية ومانجرّ عنه من ضعف المخزن بتونس يفسران تنامي دور العامة في الحياة السياسية خلال القرن الثامن هـ/ XIVم. والأمثلة كثيرة تبرهن على ذلك وتبيّن طبيعة هذا التدخل ومدى فاعليته.

فعلى اثر موت السلطان أبي يحيى أبي بكر سنة 747هـ/ 1346م، تنازع إبْنَاهُ أبو حفص عمر وأبو العباس أحمد على تولّي الحكم، وقد كان للأوّل "**صاغية في قلوب الغوغاء من غشيانه أسمارهم وطروقه منازلهم**" فساندته في اقتحام المدينة على أخيه أبي العباس أحمد، وقامت معه متصدية لجيش منافسه، وقتل في هذا الحدث عدد من العرب الواصلين صحبة الأمير أبي العباس أحمد (3).

(1) انظر : ابن خلدون ، ن.م.، ج VI ، ص 695–696 . ابن قنفذ ، ن.م.،ص 145 . الزركشي،ن.م.، ص 50 ابن الشماع،ن.م.، ص 80.
(2) كذا في الزركشي ، تاريخ ، ص 47.
(3) ابن خلدون، ن.م ج VI ، ص 809–810. الزركشي ، ن.م. ، ص 81.

ولئن ترك العامة المجال مفتوحا أمام جيوش أبي الحسن المريني الزاحفة على افريقية سنة 748هـ/ 1347م، فان أصواتهم بدأت في الارتفاع لما بادر الأعراب بمحاربته وصده عن مدينة القيروان. وقتها أحاط " الغوغاء " بقصبة تونس التي التجأ إليها عسكر أبي الحسن المهزوم وذووه، " **واتخذوا الآلة للحصار وفرقوا الأموال في الرجال** " (1).

أما بقسنطينة، فان هزيمة أبي الحسن المريني كانت ذريعة لمحاولة العامة السيطرة على المدينة، " **فكثر الاضطراب وتجلبت السفاه من الغوغاء إلى ما بأيديهم** " . وقد ذهبت العامة إلى رفض اعادة الحكم الحفصي بالمدينة، ثائرة في وجه العمال، منتهبة أموالهم (2).

وفي سنة 750 هـ/ 1349م، عمت الانتفاضة مدن افريقية وبواديها ضد أبي الحسن المريني الذي أجبر على مغادرة البلاد بعد أن عقد لابنه الفضل على تونس. على أن " الغوغاء " أحاطت بالقصور ورمته بالحجارة، وأجبر على مغادرة المدينة واللحاق بأبيه(3). ذلك هو الدور الذي لعبته الفئات الحضرية للتخلص من حكم المرينيين.

ويتكرر تدخل العامة في تعيين أمير حفصي وعزل آخر سنة 772هـ/ 1370م. ومرة أخرى نلاحظ أن هذه الحركة تنطلق من البادية، اذ لحق شيخ أولاد بالليل منصور بن حمزة بأبي العباس أحمد ببجاية يستحثه على أخذ الملك بتونس، بعد أن سار أهل دولة الامير أبي البقاء خالد سيرة عسف . ولم يقم أهل مدينة تونس على أبي البقاء وبطانته الا بعد محاصرة أبي العباس أحمد للاسوار، وقد حققوا مبتغاهم في كسر شوكته والقبض عليه وعلى أعوانه. وأثناء هذه الفترة الحرجة التي تمّ فيها انتقال السلطة من أمير إلى آخر بحد السيف، " **انطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة لما كانوا يفعلون بالناس من اغتصاب أموالهم وتحاملهم عليهم، واضطرمت نار العيث في دورهم ومخلفهم، فلم تكد أن تنطفي** " (4).

إن سيناريو النهب والسّلب الذي تقوم به العامة في الفترات الانتقالية تكرر عديد

(1) كذا في ابن خلدون ، **ن.م**.، ص 819.
(2) ابن خلدون، **ن.م**،ص 821.
(3) **المصدر نفسه**، ص 825، الزركشي ،**ن.م**. ص 89، 98.
(4) الزركشي ،**ن.م**، ص 105.

المرات، ففي سنة 838هـ/ 1434م تمت مبايعة المنتصر وهو آنذاك بقسنطينة، ولما دخل تونس عنوة بعد أن أغلق شيخ الموحدين الباب دون انصاره، قامت " الغوغاء " بانتهاب ديار شيخ الموحدين وأتباعه (1).

والحقيقة ان دور العامة لم يقتصر على عزل أمير وتعيين آخر، انما شمل سير الحياة السياسية داخل مدينة تونس، وكان عامل تعديل لاستبداد السلطة المخزنية. ففي سنة 856هـ/ 1452م استغل العامة نزاعا بين القائد نبيل وحاكم باب المنارة المكحول للتخلص من حاكم الربض، وقتله ، على أن السلطان تمكن فيما بعد من القبض على الفعلة، واستئصال شأفتهم (2).

وهكذا يتجلى لنا من خلال هذه الأمثلة تنامي دور العامة السّياسي داخل مدينة تونس ابتداء من أواخر القرن السابع وخاصّة خلال القرن الثامن هـ، وذلك بتدخلها في تعيين السلطان وبيعته وردع الحكام المستبدين.

ب) نحو تأسيس سلطة مستقلة للعامة بمدينة بجاية : يختلف نموذج بجاية عن تونس باعتبارها مدينة نائية عن مركز السلطة تم فيها تركيز دعائم أكثر صلابة لحكم العامة . فقد فتح موت حاكم بجاية الأمير أبي زكريا سنة 747هـ/ 1346م عهدا من الاضطرابات الاجتماعية لما أظهر الأمير الجديد أبو حفص المعيّن من قبل أبيه السلطان أبي يحيى أبي بكر السطو والعسف. وكان ذلك كافيا لقيام " **هيعة تمالأ فيها الكافة على التوثّب بالامير القادم، فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بامارة ابن مولاهم** " أبي زكريا أبي عبد الله، رغم صغر سنه. و كان لهم ذلك بعد محاصرة القصبة وانتهابها، ولم يجد السلطان الحفصي بدًا من قبول الأمر الواقع والاعتراف بالوالي الجديد الذي اختارته العامة، وعينت له حاجبا المولى فارح. وبعث اليهم يسكنهم ويهدئهم (3).

ولئن لم تخرج هذه الحركة عن الشرعية التقليدية لحكم بني حفص، فان الأمر كان مغايرا سنة 761هـ/ 1359م، عندما ثارت " الغوغاء " بالعامل يحيى بن ميمون، ونصبت أبا محمد عبد الواحد بن محمد وزيرا للسلطان، في هذه الفترة برزت قيادة حضرية حقيقيّة تجسدت في ظهور خطة العريف، الذي كان بمثابة المنسق والمخطط لهذه الاحداث. فقد " **قام بأمر الرجل – وهو أبو محمد عبد الواحد – بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية وأوغادها، التف اليه الشرّار والدعار وأصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة** " (4). إن هذا الحدث يفسر مدى تحكم العامة في سلطة

(1) **المصدر نفسه**، ص 131 . تقول د.حياة ناصر الحجّي ، (**أحوال العامّة في حكم المماليك**، الكويت 1994،ص57) ان " النهب أصبح حقّا مشروعا يعطيه أصحاب السيادة للغوغاء والحرافيش لكسب رضائهم لقاء خدماتهم غير المحدودة في الانتقام من المتسلطين على صلاحيات السلطان الشرعي للدولة ".
(2) **ن.م**.، ص 146 . (3) **ن.م**.، ص 78.
(4) ابن خلدون، **تاريخ** ، ج VI ص 846 .

المدينة، وهو أمر يدعونا للتساؤل عن الصيغة التنظيمية لهذه الفئات وتركيبتها وأصنافها والدلالات المعنوية للكلمات الواردة في المصادر والخاصة بالفئات الشعبية ببجاية مثل الأوغاد والشرار والدعار والغوغاء وأهل الشطارة والرجولة الخ...

وقد استمرت سلطة العريف فاعلة بمدينة بجاية طيلة أربع سنوات، وفي سنة 765هـ/ 1460م حدث أن المجموعات الشعبية التي اختارت علي بن صالح عريفا عليها، سئمت عرافته لسبب ما فثارت عليه وانفضت من حوله، مفضلة الرجوع إلى الهياكل السياسية التقليدية المتمثلة في حكم بني حفص. وهكذا فان تنصيبها للأمير أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا يعتبر إيذانا بنهاية هذه التجربة الطريفة في الحكم" الديمقراطي" داخل مدينة بجاية، وتتبع الأمير لأصحابها واستصفاء أموالهم وقتلهم (1). وابتداء من تلك الفترة أصبح لزعيم البلد وقائد الاسطول محمد بن أبي مهدي تحكم في " **أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم**" (2). كيف وقع هذا التحول السلبي، هل رجعت العامة إلى قبول الشرعية الحفصية بمحض ارادتها، بعد أن خيبت تجربة العرافة أمالها، أم أن المناورة السياسية الحفصية كان لها دور فاعل في حصول هذا الانقلاب؟ ان طبيعة مصادرنا لا تمكننا من التدقيق في هذه المسائل، وكل ما نستطيع اثباته هو أن مدينة بجاية، تمكنت بحكم موقعها الجغرافي النائي عن تونس وتطور الاقتصاد السلعي بينها وبين المدن الاوروبية المتوسطية، من الارتقاء إلى نظام سياسي، شاركت في ارسائه الفئات الشعبية، لكن التجربة بقيت هشة لعدم تملك هذه الفئات النفوذ الاقتصادي والعسكري بالمدينة.

4) المجتمع المديني في مواجهة القوى الخارجية :

أ) جدلية العلاقة بين البادية والمدينة والتوتّرات الناجمة عنها: رأينا أن أهل البادية من الاعراب كان لهم قصب السبق في عديد الحركات السياسية مثل التصدي لحملة أبي الحسن المريني وللسياسة المستبدّة لبني حفص، وكثيرا ما كانت تحركاتهم منطلقا لانتفاضات العامة بالمدن. وفي ظل سيطرة العلاقات الاقطاعية في البادية وتأقطع المدينة لم تكن هذه الأخيرة قادرة دوما على بسط نفوذها على الريف المحيط بها بل على العكس من ذلك تمكنت القبائل البدوية من تطويق المدن الافريقية في العهد الحفصي، وقطعها عن بساتينها التي تعتبر المموّل الأساسي لها.

(1) ابن خلدون، **ن.م**، ج VI ص 854.
(2) **نفسه**، ج VI، ص 895

مما يفسر أن العلاقة بين الطّرفين لم تكن مجرد علاقة تعاون وانسجام، بل تسودها أحيانا التوترات، خاصّة في سنين المجاعة التي تحمل بدو السّباسب والجنوب على الانتقال إلى الشمال قريبا من أبواب مدينة تونس، وقد لا يستثنون الأراضي المزروعة والمغروسة بحثا عن الأماكن الرعوية. أما نزوح البدو في هذه الفترات الحرجة فانه أمر عسير اذ كثيرا ما كان مقيدا بقوانين حريصة على غلق أبواب المدينة في وجه الغرباء زمن المجاعة حفاظا على المخزون الغذائي الموجود (1).

هذه الاوضاع العسيرة تنعكس سلبيا على العلاقات بين البدو والحضر، فتنمو الضغائن بين الرعاة المنتجعين وأهل المدينة والارباض الذين يشتغل عدد منهم في الفلاحة زراعة وغراسة، ويشعرون بالغبن أمام تعديات البدو وعجز السلطة السياسية عن التصدي لهم، فتتحول الارباض والضواحي المحيطة بالمدينة والتي تقطنها نسبة عالية من المتضررين، إلى خزان للانتفاضات، ينفجر كلما اختنقت المدينة وفصل أهلها عن موارد رزقهم، سواء أكان هؤلاء من كبار الملاكين العقاريين الذين يتحصلون على الريع العقاري أم من المزارعين الصغار.

وعلى ضوء هذه الملاحظات، يمكن أن نضع ما أطلق عليها ابن خلدون "فتنة الكعوب" في اطارها، وما نجم عنها من ردود فعل للعامة بمدينة تونس. ومن الملاحظ أن الصراع الناجم عن انفصام عرى التضامن بين الطرفين، ليس طبقيا صرفا بقدر ماهو بين مجموعتين متباينتي المصالح وطرق العيش.

– *الاعراب وانتفاضات العامة بمدينة تونس بين سنتي 705–708هـ/ 1305–1308م*: تحولت قبيلة بني كعب من جهة طرابلس وسط افريقية في عهد أبي زكريا الحفصي، وكانت بمثابة العصبية لحركة ابن أبي عمارة سنة 679هـ، ثم قامت بأمر السلطان أبي حفص عمر حتى أضحت قبيلة مخزنية تحصلت على الاقطاعات وأخذت العوائد. واعتبارا لازدياد قوتها، توسعت في اتجاه الشمال فأصبحت على مشارف مدينة تونس « **وصار اضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنّات وانتهابهم للزرع**" (2). مما أدى إلى اختناق المدينة التي كادت أن تقطع عن ظهيرها المموّل لها. ويبدو أن الفئات الشعبية كانت الأكثر تضررا من هذا الوضع الذي أدى إلى غلاء في الأسعار.

(1) وردت مسائل عديدة تتناول هذا الأمر. انظر الفصل السّابق.
(2) كذا في ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 715.

المدينة، وهو أمر يدعونا للتساؤل عن الصيغة التنظيمية لهذه الفئات وتركيبتها وأصنافها والدلالات المعنوية للكلمات الواردة في المصادر والخاصة بالفئات الشعبية ببجاية مثل الأوغاد والشرار والدعار والغوغاء وأهل الشطارة والرجولة الخ...

وقد استمرت سلطة العريف فاعلة بمدينة بجاية طيلة أربع سنوات، وفي سنة 765هـ/ 1460م حدث أن المجموعات الشعبية التي اختارت علي بن صالح عريفا عليها، سئمت عرافته لسبب ما فثارت عليه وانفضت من حوله، مفضلة الرجوع إلى الهياكل السياسية التقليدية المتمثلة في حكم بني حفص. وهكذا فان تنصيبها للأمير أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا يعتبر إيذانا بنهاية هذه التجربة الطريفة في الحكم " الديمقراطي " داخل مدينة بجاية، وتتبع الأمير لأصحابها واستصفاء أموالهم وقتلهم (1). وابتداء من تلك الفترة أصبح لزعيم البلد وقائد الاسطول محمد بن أبي مهدي تحكم في " **أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم** " (2). كيف وقع هذا التحول السلبي، هل رجعت العامة إلى قبول الشرعية الحفصية بمحض ارادتها، بعد أن خيبت تجربة العرافة آمالها، أم أن المناورة السياسية الحفصية كان لها دور فاعل في حصول هذا الانقلاب؟ ان طبيعة مصادرنا لا تمكننا من التدقيق في هذه المسائل، وكل ما نستطيع اثباته هو أن مدينة بجاية، تمكنت بحكم موقعها الجغرافي النائي عن تونس وتطور الاقتصاد السلعي بينها وبين المدن الاوروبية المتوسطية، من الارتقاء إلى نظام سياسي، شاركت في ارسائه الفئات الشعبية، لكن التجربة بقيت هشة لعدم تملك هذه الفئات النفوذ الاقتصادي والعسكري بالمدينة.

4) المجتمع المديني في مواجهة القوى الخارجية :

أ) جدلية العلاقة بين البادية والمدينة والتوتّرات الناجمة عنها: رأينا أن أهل البادية من الاعراب كان لهم قصب السبق في عديد الحركات السياسية مثل التصدي لحملة أبي الحسن المريني وللسياسة المستبدّة لبني حفص، وكثيرا ما كانت تحركاتهم منطلقا لانتفاضات العامة بالمدن. وفي ظل سيطرة العلاقات الاقطاعية في البادية وتأقطع المدينة لم تكن هذه الأخيرة قادرة دوما على بسط نفوذها على الريف المحيط بها بل على العكس من ذلك تمكنت القبائل البدوية من تطويق المدن الافريقية في العهد الحفصي، وقطعها عن بساتينها التي تعتبر المموّل الأساسي لها.

(1) ابن خلدون، **ن.م**، ج VI ص 854.
(2) **نفسه**، ج VI، ص 895

مما يفسر أن العلاقة بين الطّرفين لم تكن مجرد علاقة تعاون وانسجام، بل تسودها احيانا التوترات، خاصّة في سنين المجاعة التي تحمل بدو السّباسب والجنوب على الانتقال إلى الشمال قريبا من أبواب مدينة تونس، وقد لا يستثنون الأراضي المزروعة والمغروسة بحثا عن الأماكن الرعوية. أما نزوح البدو في هذه الفترات الحرجة فانه أمر عسير اذ كثيرا ما كان مقيدا بقوانين حريصة على غلق أبواب المدينة في وجه الغرباء زمن المجاعة حفاظا على المخزون الغذائي الموجود (1).

هذه الاوضاع العسيرة تنعكس سلبيا على العلاقات بين البدو والحضر، فتنمو الضغائن بين الرعاة المنتجعين وأهل المدينة والارباض الذين يشتغل عدد منهم في الفلاحة زراعة وغراسة، ويشعرون بالغبن أمام تعديات البدو وعجز السلطة السياسية من التصدي لهم، فتتحول الارباض والضواحي المحيطة بالمدينة والتي تقطنها نسبة عالية من المتضررين، إلى خزان للانتفاضات، ينفجر كلما أختنقت المدينة وفصل أهلها عن موارد رزقهم، سواء أكان هؤلاء من كبار الملاكين العقاريين الذين يتحصلون على الريع العقاري أم من المزارعين الصغار.

وعلى ضوء هذه الملاحظات، يمكن أن نضع ما أطلق عليها ابن خلدون " فتنة الكعوب " في اطارها، وما نجم عنها من ردود فعل للعامة بمدينة تونس. ومن الملاحظ أن الصراع الناجم عن انفصام عرى التضامن بين الطرفين، ليس طبقيا صرفا بقدر ماهو بين مجموعتين متباينتي المصالح وطرق العيش.

- *الاعراب وانتفاضات العامة بمدينة تونس بين سنتي 705-708هـ/ 1305-1308م*: تحولت قبيلة بني كعب من جهة طرابلس وسط افريقية في عهد أبي زكريا الحفصي، وكانت بمثابة العصبية لحركة ابن أبي عمارة سنة 679هـ، ثم قامت بأمر السلطان أبي حفص عمر حتى أضحت قبيلة مخزنية تحصلت على الاقطاعات وأخذت العوائد. واعتبارا لازدياد قوتها، توسعت في اتجاه الشمال فأصبحت على مشارف مدينة تونس « **وصار اضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنّات وانتهابهم للزرع** " (2). مما أدى إلى اختناق المدينة التي كادت أن تقطع عن ظهيرها المموّل لها. ويبدو أن الفئات الشعبية كانت الأكثر تضررا من هذا الوضع الذي أدى إلى غلاء في الأسعار.

(1) وردت مسائل عديدة تتناول هذا الأمر. انظر الفصل السّابق.
(2) كذا في ابن خلدون، **تاريخ**، ج VI، ص 715.

على أنّ العلاقة بين هذه القوافل والبدو لم تكن دوما سيّئة كما يتّضح من كتب الرّحلة . فقد تحدّث العبدري عن علاقات تجاريّة في شكل مقايضة حصلت بين القافلة وأعراب برقة، وعن كرم بعض هذه المجموعات . كما ذكر البرزلي بعد أكثر من قرن، وتحديدا سنة 799–800 هـ، أثناء حجّه ، أنّ الوئام كان يسود أهل النّاجعة من الأعراب الذين اشتكوا الجوع والغلاء وركب الحجّاج الذين لم يتوانوا في مساعدتهم وتقديم العون لهم (1).

غير أنّ هذا السّفر كان مرهقا لبعد المسافة وإهمال للبنية الأساسيّة للطرقات والمنشآت المائية والمحطات الضروريّة لراحة القوافل، حتّى أنّ كثيرا من الفقهاء الحضر " تراخوا " في الذهاب الى الحجاز، وخاصّة بعد بلوغهم سنّ السّتين . كان بعضهم مثل أبي اسحاق بن عبد الرفيع ومحمد بن عبد السّلام الهواري (ت 749هـ) قد مات دون ذلك . وفضّل آخرون ، لم يقدروا على الحجّ ، تنويب من حجّ عنهم ، وهو ما أطلق عليه " شراء الحجّة " ، من ذلك ان ابن عرفة اشترى حجّة للسلطان أبي العباس أحمد عندما تحوّل الى المشرق سنة 792 هـ/ 1390م (2).

وقد اعتاد السلطان الحفصي تعيين مقدّم على ركب الحجّاج، وممّا يذكر أنّ السلطان أبا العباس أحمد قد عيّن سنة 792 هـ/ 1390م المقدّم محمد بن علي بن أبي هلال(3) .

واعتبارا لصعوبة الرحلة البريّة ، التجأ المغاربة الى ركوب البحر منذ مطلع القرن VI هـ/XII م الى الاسكندرية، غير أنّ الملاحة لم تكن بدورها ميسّرة لسببين :

– سيطرة المراكب الأوروبية على مراسي المتوسّط، والتجاء المسافرين في الغالب لركوبها وهو ما طرح قضيّة جواز ركوبها أم لا ، خصوصا أنّه حصل أن غدر ملاحوها بالمسافرين وأسّروهم .على أن ذلك لم يمنع من استعمالها من قبل بعض الفقهاء ، مثل ابن القباب .

– تعرّض هذه المراكب لعمليات القرصنة والغرق . فقد عانى كل من ابن جبير في القرن السّادس هـ/ XII م وعبد العزيز المهدوي (القرن السابع هـ) وابراهيم بن عبد الله النميري الاندلسي المعروف بابن الحاج (القرن الثامن هـ) من القطع البحري، ولم يخرجا من الأسر إلاّ بعد مشقّة وفدي .

---

(1) العبدري ، **رحلة** . خالد البلوي ، **رحلة** . البرزلي ، **جامع** ، ج ا ، ص 1143–ب ، 1146.

(2) الأبي ، **الاكمال** ، ج III ، ص 293، 443 .

Brunschvig,**Hafsides**,TI,p.204-205.S.Ghrab,**Ibn Arafa**,p.350-359.

(3) ابن حجر العسقلاني ، **أنباء الغمر**، ج ا ،ص 400 .

كما كانت هذه السّفن عرضة للغرق في اليمّ، وحسبنا هنا التذكير بما حصل لأسرة عبد الرحمان بن خلدون سنة 786هـ/ 1384م ، لمّا غرق المركب المقلّ لهم قرب ميناء الاسكندرية قبل وصوله، فأتلفت الهديّة المحمولة من سلطان تونس الى السّلطان المملوكي، وغرق الركّاب ، وكان من بينهم عائلة ابن خلدون ورسول مصر الذي توجّه لاحضارهم، ولم ينج سوى سفير افريقية وهو أبو عبد الله بن العباس، وولدا ابن خلدون محمد وعلي (1).

واعتبارا لهذه المعوقات، فقد كان السفر الى الشرق برّا أو بحرا ، مغامرة لا تعرف عواقبها ، خاصة في فترات الأزمة والجوع أو أثناء توتّر العلاقات مع المدن التجارية الاوروبية . ولا غرابة أن يقترن الحديث بالسّفر بمسألة المفقود في البحر أو الموت خارج الوطن وصعوبة اثباته لدى القاضي . وقد أخذ بعض الفقهاء موقفا مناهضا للتحوّل الى المشرق لعدم سلامة الطريق وذلك منذ أواسط القرن الخامس هـ/ XI م حتّى أنّ الفقيه اللّخمي أفتى بانّ النّاس القاصدين الحجّ في عصره هم من " العوام " الجاهلين للأحكام والتشريع (2).

وفعلا ظلّ السّفر الى المشرق مقترنا بأمن الطريق، حتى أنّ أهل المغرب تعوّدوا على القيام بالحجّ والعمرة في نفس الوقت لبعد المسافة وصعوبة الوصول الى هذه البلاد. على أنّ العلاقات الثقافيّة والاقتصاديّة بين المجالين ظلّت قائمة رغم هذه الصّعوبات ، وقد تجسّدت أحيانا في تحوّل الأمراء أنفسهم الى مصر، ووجود علاقات مباشرة. ففي 706 هـ/ 1306م، انتقل الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحياني إلى مصر، وقد استقرّ بها مدّة طويلة قبل الرّجوع الى تونس .

وفي أواسط ذلك القرن، ذكر ابن حجر أنّ بعض البربر الملازمين اللّثام التقى وهو في طريقه الى الحجّ بالسلطان المملوكي ، وقدّم له هديّة (3) .

والحقيقة أنّ صعوبات الرّحلة لم تكن مقتصرة على مدّة السّفر، انّما عنت كذلك الأماكن المخصّصة لنزول المسافرين . على أنّ العلماء كانوا أكثر حظّا من غيرهم في هذا الصّدد، اذ وجدت أحياء خاصّة بالمغاربة بالقاهرة (قرب جامع

---

(1) البرزلي ،**ن.م**، ج ا ، ص 145 ب ، ابن جبير ، **رحلة** . الفصل الخاص بترجمة عبد العزيز المهدوي.ابن الخطيب ، **الاحاطة** ، ج ا ، ص 341 . (أسر النميري سنة 768 قرب وهران ، وفدي بمبلغ كبير 7000 دينار) . ابن حجر العسقلاني ، **أنباء الغمر**، ج ا ، ص 291 .

(2) ابن عرفة ، **المختصر** ، جIV ، ص 178 ب . البرزلي ،**ن.م**.، ج ا ، ص 145 ب ، ج ا ، ص 292ب .

(3) الأبي ، **اكمال** ، ج ا ، ص 90 . ابن حجر ، **أنباء الغمر**، ج ا ، ص 494 .

الأزهر)، وعلاقات وطيدة بين علماء مصر وافريقية، حتى أن كثيرا من العلماء التجأوا الى سكنى المدارس والزّوايا بالقاهرة، وكان من بينهم البرزلي الذي سكن غرفة بمدرسة شيحون عند الذهاب وأخرى بالمدرسة المنتصريّة بالقصرين بالقاهرة عند العودة من الحجاز (1).

ودأب أهل المغرب على النزول عند بعض العلماء المصريين الذين ارتبطوا بعلاقات مميّزة مع المغاربة، بحكم جذورهم المغربيّة القديمة، نذكر من ذلك الفقيه علي بن اسماعيل بن علي الصّنهاجي التلكاتي الذي رحل اليه النّاس من بلاد المغرب في أواخر القرن VIII هـ/ XIVم (2).

وفي الجملة، فانّ التجارة المتوسطية طيلة هذه الحقبة قد يسّرت في فترات السّلم العلاقات الثقافيّة بين الأقطار العربيّة اذ كانت السّفن العربيّة والأوروبيّة تنتقل بين المجالين حاملة المسافرين والبضائع.

كما أنّ العلاقات السّياسيّة المتينة بين مماليك مصر والمصامدة بتونس كانت عاملا آخَرَ مساعدا على التّواصل الثقافي، ومما يذكر في هذا الصّدد المراسلات الحاصلة بين حكّام البلدين والتنسيق بينهما في شتى المسائل، من ذلك مراسلة سلطان تونس عند حلول أبي الحسن الشاذلي بمصر، وأخرى بعث بها سلطان المماليك أثناء الهجمة الصليبيّة على تونس سنة 669 هـ/ 1270م (3).

وكان لرحلة القاضي أبي القاسم بن زيتون في مناسبتين الى المشرق (سنة 648/ 1251 و656هـ/ 1258م)، أثرٌ بالغ في نشر أفكار الفخر الرّازي في المنطق والأصول، وعلى حدّ عبارة ابن خلدون، "**حذق في العقليات والنقليات، ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن**".

وفي البلاد الغربية، ارتحل في آخر هذا القرن أبو علي ناصر الدين المشدالي (ت.731هـ/ 1330م)، وأدرك تلامذة أبي عمرو بن الحاجي ودرس مع شهاب الدين القرافي في مجلس واحد، وحذق بدوره العلوم العقليّة والنقليّة (4).

وقد كان هذا التيار مباينا للتيّار التقليدي المتمسّك بمدرسة القيروان في الفقه،

---

(1) البرزلي، ن.م، مخ 4851، ج II، ص 112 ب. وكانت العلاقات الاقتصادية وطيدة بين افريقية ومصر: راجع S.D.Goitein, **Letters of Medieval Jewish Traders.**

ومما يذكر أنّ الصيّادين من أهل الاسكندرية كانوا يصلون في سفنهم الى جزر قرقنة وينزلون في القرن الثامن هـ/ XIVم، البرزلي، ن.م، ج II، ص 262 ب-1263.

(2) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 151 ب. نشا علي بن اسماعيل بأبيار، قرية بين القاهرة والاسكندرية، وأخذ عن أبي طاهر السّلفي، له عدّة تصانيف منها شرح التهذيب وشرح البرهان.

(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 151 ب. القلقشندي، **صبح الأعشى**.

(4) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 772-773. الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 97.

والذي مثّله وقتذاك قاضي الجماعة عبد الحميد بن أبي الدّنيا الطرابلسي (ت.680هـ/ 1286م)، الذي رحل بدوره الى المشرق مرّتين، الأولى سنة 624هـ/ 1226م والثانية 633هـ/ 1235م (1).

وبالتالي فقد توقّف كثير من العلماء المغاربة بمصر قبل أن يواصلوا رحلتهم الى الحجاز، وأخذوا عن كبار علمائها، متأثرين خاصّة بالفخر الرّازي و الشافعي عزالدين بن عبد السّلام (ت.660هـ/ 1262م) وخليل صاحب المختصر (ت.646/ 1249) وابن الحاجب (ت.776/ 1374) صاحب المختصر و الحنبلي ابن تيميّة. وقد أضحت الأفكار الواردة في مؤلفاتهم عنصرا هامًا أثّر في المدرسة المالكيّة بافريقية.

وهناك دارت نقاشات بين طرفين أو أكثر، من ذلك ما حصل بين أبي عبد الله محمد الدكّالي المغربي من جهة وابن عرفة والبرزلي من جهة ثانية أثناء تحوّلهم الى الحجّ (على التوالي سنتي 792 و 800هـ): فقد عارض الأوّل أخذ مرتّبات العلماء والأئمّة من الأحباس، داعيا الى مقاطعة إمامتهم الصّلاة، فيما سانده الطرف الثاني. وشنّع ابن عرفة على الدكالي هذا الرأي وحاول صدّه عنه، لكن دون جدوى (2).

وعلى أيّ حال، فقد أصبحت كثير من أفكار علماء المشرق معروفة لدى أهل افريقية عن طريق مصنّفات ابن عرفة والبرزلي والأبي وغيرهم من شيوخ المدرسة المالكيّة، وخاصّة أولئك العلماء الذين قاموا برحلة لم تقتصر على الحجّ والعبور بالدّيار المصريّة، انّما أستقرّوا بها مدّة طويلة للدّراسة، ونذكر من بينهم أبا زكريا البرقي المهدوي، وأبا يوسف يعقوب الدّهماني و أبا العبّاس أحمد التّيفاشي وابن راشد القفصي (3).

على أنّ الرّحلة الى المشرق لم تقتصر فقط على العلماء المتّجهين نحو طريق الحجاز أو الطلبة المتعطّشين للعلم رواية ودراية، انّما كانت ملاذًا للفارين بسبب الاختلاف الفكري أو للراغبين في الاستقرار هناك.

فقد التجأ أبو الحسن الشاذلي الى الخروج من مدينة تونس والتحوّل الى مصر، بعد أن ذكر القاضي ابن البراء أمره للسّلطان الذي طلب مناظرته. وانتهى

---

(1) مخلوف، **شجرة النور الزكيّة**، ص 192 (ترجمة رقم 695).

(2) أصبحت مسألة الدكالي مع ابن عرفة معروفة بافريقية. وقد نقل صدى هذا النزاع كل من: البرزلي، ن.م.، ج I، ص 179. ابن ناجي، **شرح**، ج I، ص 160. الرصّاع، **تحفة**، ص 181.

(3) نقتصر على ذكر هذه الامثلة لضيق المجال، غير أنّنا نعتقد أنّ العلاقات الثقافية بين المجالين هو موضوع يحتاج الى زيادة البحث والتمحيص. ابن فرحون، **الديباج**، ج II، ص 328-329.

ذلك بخروجه من البلاد والتجائه الى مصر التي استقرّ بها الى حد وفاته (656هـ/ 1258م)، لكن المخزن الحفصي بعث رسالة لسلطان المماليك في شأنه، وظلّت ذريّته بالقاهرة على طريقته الى حدّ القرن التاسع هـ/ XVم. وقد ذكر من بينهم الصّوفي: علي بن محمد بن وفاء أبو الحسن الشاذلي (759-807هـ/ 1357-1404م).

كما أختار ابن سبعين المرسي في أواسط القرن VII هـ/ XIIIم نفس الطريق، مفضّلا الهجرة الى مصر عن البقاء بعد أن تعرّض لنقد علماء تونس، الذين لم يقتصر رفضهم على التيّار الصّوفي المالكي والفلسفي في بدايته، انّما وقفوا كذلك موقف التحرّي من الافكار النيّرة لعبد الرحمان بن خلدون. وفي 15 شعبان 784/ 24 أكتوبر 1382 م ركب البحر في اتجاه الاسكندرية، متعلّلا بالحجّ، هاربا من المعاناة التي لقاها من ابن عرفة وأصحابه الذين أوغروا صدر الأمير الحفصي ضدّه (1).

ولئن كان صاحب كتاب المسند، محمد بن مرزوق، محظوظا أثناء حملة أبي الحسن المريني على افريقية، فانّه لم يتمكّن من الافلات من النكبة سنة 752 هـ على اثر موت السلطان، إذ وقع اعتقاله وأستصفاء أمواله في عهد السّلطان أبي سالم المريني، فأجبر على الهروب الى المشرق بحرا عام 764هـ/ 1362م. ثم عاد في السنة الموالية الى تونس، حيث اشتغل مدرسا بجامع السلطان (القصبة) الى حد سنة 771هـ/ 1369م (2).

وفي حالات أخرى، التجأ بعض الموظفين الى الرّحلة للفرار من الضغوط المتنوّعة. فقد ذكر أن أحد عدول تونس، وهو أبو عبد الله بن الفواد، تحوّل مرتين الى الشرق فرارا من العمل مع القاضي أبي عبد الله بن يعقوب، ولم يعد الى خطته بتونس الاّ بعد أنصراف القاضي عن العمل (3).

ومهما كانت طبيعة إقامة العلماء الافارقة بالمشرق، إقامة طويلة أو ظرفيّة أو مجرّد عبور الى الحجاز، فانّها قد أدّتْ الى ربط الصّلات مع نظرائهم بالشرق

(1) ابن حجر، أنباء الغمر، ج ا، ص 308. الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 237-238، ابن خلدون، **العبر**، جVII، ص1056، 1058.

Brunschvig,**op.cit**,T II,p.323-325

(2) ابن حجر، **انباء الغمر**، ج ا، ص 200.

Brunschvig,**op.cit**,T II,p.387

(3) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 171 ب.

الذين لم يكونوا بدورهم على جهل بمستجدات الأمور بالمغرب، حتّى أنّ قاضي الاسكندرية تمكّن من التعرّف على الفقيه المهدوي أبي زكريا البرقي، بمجردّ مثوله بين يديه للشّهادة وذكر اسمه. وذكر الأبيّ خبرا آخر مفاده أن العقاب الذي تعرّض له أحد لصوص الكتب بمدينة تونس شاع بسرعة بمدينة الاسكندرية في بداية القرن الثامن هـ/ XIV م. وعلاوة على ذلك، ألّف علماء مصر كتبا ومصنّفات عديدة حول بلاد المغرب استنادا الى الرواة المغاربة المقيمين أو العابرين البلاد، فقد أعتمد العمري في مسالك الأبصار على رواية محمد بن عبد الرحمان القرشي المعروف ابن القوبع (ت 638هـ/ 1240م)، فيما خصّص النويري في نهاية الأرب والقلقشندي في صبح الأعشى والمقريزي في مصنفاته العديدة وابن حجر في الدرر الكامنة والسخاوي في الضوء اللامع فصولا مطوّلة عن بلاد افريقية والمغرب، وذلك فضلا عن بعض المشارقة الذي فضّلوا زيارة البلاد والتحدّث عنها حديث شاهد عيان مثل ابن عبد الباسط (1).

ولا غرو أن يكون تطوّر النّسق الثقافي متشابها في البلدين. فقد تواصل تأثير المشرق قويا لدى ابن عرفة وتلامذته. وتميّزت الحقبة بالاهتمام بكتب الفروع والشّروحات والمختصرات مثل مختصر خليل ومختصر ابن حاجب فيما تضاءل الاجتهاد الفقهي. وانصرف كل من فقهاء المغرب ومصر، (مثل ابن تيميّة والبرزلي وغيره) الى محاربة البدع لدى الصّوفيّة (2).

ب) العلاقات الثقافية مع المغربين الاقصى والاوسط والاندلس:

أثّر التيّار المغربي الأندلسي في الفكر الافريقي، وقد تميّز أساسا بغلبة علوم اللّغة والفكر الصّوفي. ولئن لم يتمكن الأندلسيون من نشر الصّوفيّة بافريقيّة، ونخصّ بالذّكر منهم ابن سبعين، فانّ الافكار البسيطة التي دعا اليها الشاذلي وجدت قابليّة أكثر، وأدّت الى تكوين أنصار له، وهم الذين أطلق عليهم أصحاب الأربعين وشيوخ الشرف.

ولئن بدأ التحوّل الى المغرب الاقصى لطلب العلم منذ العهد الموحدي، فانّ زواياها أصبحت قبلة لصُلحاء إفريقية أثناء سياحتهم، نذكر من ذلك رحلة ابن قنفذ وأحمد بن عروس.

(1) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 151ب. الأبي، **الاكمال**، جIV، ص 439. ابن فرحون، **الديباج المذهب**، ج II، ص 323.

(2) البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 1266 (راجع فصل التصوّف).

وبديهي القول أن حملة أبي الحسن المريني على تونس (748هـ/ 1247م) كان لها بالغ التأثير على الحياة الثقافية بافريقية، نظرا إلى أهمّية عدد العلماء الذين رافقوه، وكان من بينهم شيخ العلوم العقلية محمد بن ابراهيم الآبلي والفقيه أبو عبد الله محمد بن سليمان السطّي وكاتب السلطان أبو محمد بن عبد المهين الحضرمي وأبو القاسم عبد الله بن يوسف المالقي وأبو العبّاس أحمد الزّواوي وأبو عبد الله محمد بن محمد الصبّاغ الذي كان مبرّزا في المعقول والمنقول والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور وأحمد بن شعيب (1).

وقد دأب السلطان المريني على عقد المنتديات الفكريّة بالقصبة بين علماء تونس والمغرب الأقصى ، وذلك فضلا عن الدّروس التي ألقاها هؤلاء للطلبة ، وكان من بينهم عبد الرحمان بن خلدون الذي تأثّر كثيرا بمحاضرات شيخه الآبلي (2).

كما ساهم علماء افريقيّة في الاجابة عن احدى القضايا المتعلّقة بتحبيس الأعراب الأرض على مدرسة مازونة بالمغرب الأوسط . وفضلا عن جواب العقباني ، وقع استفتاء كل من عمر القلشاني وأبي القاسم البرزلي في هذه المسألة.

ورغم التفكّك السّياسي لبلاد المغرب ، كثيرا ما ساهم علماء الأقطار الثلاثة في حلّ المسائل المستعصية دون الافتقاد الى الجرأة والمواجهة السّياسيّة (3).

وتظلّ رحلة أبي العبّاس أحمد بن قنفذ الصوفيّة التي حملته الى زيارة جنوب المغرب الاقصى وشماله وسواحله والالتقاء بمختلف الأعلام الممثلين لهذه الحركة خير مثال على هذه الوجهة التي اتخذها متصوّفة افريقيّة .

على أنّ العلماء قلّما انتقلوا الى المغرب الأقصى والأندلس بعد نهاية العهد الموحدي باستثناء ذوي الأصل الأندلسي، وذلك لأنّ مدينة تونس تحوّلت الى مركز استقطاب ، اذ انتقل اليها أغلب علماء الاندلس نظرا إلى الظروف السّياسيّة الملائمة من استقرار وعلاقات جالية غرب الاندلس مع أبي زكريا الحفصي .

وبالتالي ، أصبحت مركز اشعاع للمذهب المالكي، وكانت الأسئلة ترد على علمائها من الاندلس والمغرب الاقصى .ونذكر من ذلك أجوبة أبي اسحاق بن عبد

(1) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VII ، ص 836-848 .

(2) الابي ، **الاكمال** ، ج II ، ص 247 ، ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 137 ب . (كانت المراسلات ترد على السطّي من قضاة فاس ، بعد تولّي قضاء افريقية سنة 750هـ) .

(3) الونشريسي ، **المعيار** ، جVII ، ص 242 ، 248-257، 304 (عارض فقهاء فاس السلطان المريني أبي العباس احمد بن أبي سالم في تحبيس جنان على ضريح جدّه ، فأعتبر البجائي ان هذا العمل غير نافذ ، وان فعل الأمراء هو فعل مستغرقي الذمّة ، وبالتالي يستوجب اعادة الحبس الى بيت المال).

الرفيع و " المسائل الاندلسيّة" التي طرحها أهل الأندلس بغرناطة على ابن عرفة، ووردت عليه من تلمسان قضيّة تخصّ التصدّي للاعراب المحاربين، وقد أشرنا الى ردّه في الفصل السّابق (1). وكثيرا ما يحصل تشاور بين علماء تونس والأندلس في حل المسائل الصعبة ، مثل قضيّة نفقة المرأة التي بتّ فيها أحد علماء الحضرة، وهو الزركشي (2).

وفي القرن الموالي، وقعت مسألة تتعلق بوصيّة بمدينة قسنطينة، فبعث قاضيها مستفتيا القلشاني الذي أحالها بدوره على علماء مدينة تونس . ومما يذكر في هذا الصّدد المسائل الاندلسية التي أرسل بها ابن المواق من الاندلس الى الرصّاع يستفتيه فيها(3) .

ج) دور المسيحيّة :

ظلّت مكانة افريقية الثقافية هامّة خلال هذه الحقبة، ولم تكن مقتصرة على رحلات الأفارقة الى المشرق والمغرب، بل تحوّلت في كثير من الأحيان الى قطب جاذب للعلماء المسلمين وكذلك للنصارى الذين عقدت معهم حوارات عديدة .

وفضلا عن تأثيرات الحرب الصليبية الثامنة سنة 1270م، أقام رجل الكنسية الميورقي ريمون لول (Ramon Llull) خلال القرن XIIIم حوارا مع المسلمين بمدينة تونس التي تحوّل اليها لهذا الغرض . غير أنّ أحد رجال الدين من جزر البليار Anselmo Turmeda، الذي وفد على البلاد في القرن الثامن هـ/ XIVم اختار اعتناق الدين الاسلامي والدّفاع عنه في كتاب ألّفه للغرض على الدّخول في جدل مع المسلمين بالبلاد . وقد ازدادت هذه الحركة التبشيريّة تطورا في القرون اللاحقة .

وذكرت بعض المناظرات بين المسلمين والنّصارى في المشرق، من ذلك ما رواه طالب من توزر، أرتحل الى المشرق ثم رجع الى الجريد في القرن التاسع هـ/ XVم(4).

(1) البرزلي ، **ن.م.**، ج IV ، ص 399ب (وأشار في مكان آخر من تاليفه: 1277 الى مسائل وردت عليه من الاندلس ، ولعلها نفس النوازل) . الونشريسي، **المعيار**، ج VII ، ص364(أسئلة وردت على ابن عرفة من غرناطة)

(2) الغرناطي ، **مسائل** ، ص 1220 (لا ندري هل ان الزركشي المذكور هو صاحب كتاب التاريخ أم لا) .الزركشي ، **ن.م.**، ص 70 .

(3) القلشاني ، **ن.م.**، ج II ، ص 190 . مسائل أندلسية ، **مخطوط** د ك و . سعد غراب ، مسائل اندلسية بافريقية من القرنين VIII ، وIX هـ / XIVم وXV م ، **مجلة دراسات اندلسية** ، العدد ا ، ديسمبر 1988 ، ص 7- 31.

(4) الرصاع ، **تحفة الاخيار** ، ص 115 ب .قال : « حضرت سماعا بالمشرق وحضره والي البلدة وأميرها، وكان له نصراني يخدمه ، فقال له النّصراني انّي أريد أن أناظر رجلا من المسلمين في هذا الموكب العظيم، فان غلبني أعطيته 300 دينار وان غلبته أعطاني كذلك . وأنا ألتزم له أن غلبته دخل في ديني ، وان غلبني دخلت في دينه »

وعلى أيّ، فانّ تواجد الجالية التجارية والعلوج، وما تبع ذلك من بناء الكنائس في الرّبض وداخل الفنادق، كان له تأثير مباشر على تطوّر الافكار بافريقية (1).

واذا كانت التأثيرات الصوفيّة قد نجم عنها ظهور " البدع " التي حاربها أهل المالكية، فانّ عناصر التّأثير الأوروبيّة قد برزت في الحياة اليومية واللباس والغذاء وبعض الآلات المستعملة في الحرف والعادات والتقاليد.

فقد تبادلت بعض الأوساط الحضريّة الهدايا بمناسبة الأعياد المتأثّرة بالطقوس المسيحيّة واليهوديّة التي كانت تعقد بتونس في القرن الثامن هـ/ XIVم، ورأينا أنّ الحرفيين كانوا يقدّمون الهدايا بمناسبة هذه الأعياد. ولم يكن بعض العلماء على جهل بما يحصل في الضفّة الأخرى من المتوسّط اذ كانت لهم دراية على ما يبدو بالمبادئ الأوليّة لبعض اللغات اللاّتينيّة (2).

ومهما يكن من أمر، فانّ تعدّد التأثيرات الثقافية داخل المدن الكبرى لم يؤدّ الى تغييرات جذريّة في طبيعة ثقافة ذلك العصر التي هيمن عليها المذهب المالكي. وهو المذهب الملائم للهياكل البدوية أكثر من غيره حسب نظرية ابن خلدون.

2) المراكز الثقافية الحضريّة وطرق التحصيل :

أ) الكتاتيب :

تعدّدت الكتاتيب المخصّصة لتعليم الصّبيان في المدن والقرى، وقد ذكرنا البعض منها داخل مدينة تونس. وأحتوى الفصل الواحد على عدد متفاوت من التلامذة، لا يتجاوز الثلاثين بالقيروان في القرن السابع هـ/ XIIIم، أمّا اذا زاد عن هذا النّصاب، فغالبا ما يلتجئ المدرّس الى الاستعانة " بعريف " واحد أو أكثر، يقوم بتحفيظ الصّبيان، على أن يشرف المدرّس بنفسه على حسن سير هذه العمليّة. وقد أنتمى هؤلاء الصّبيان الى مختلف الفئات الاجتماعية، وخاصّة الشرائح العليا والوسطى من أبناء العلماء والتجّار، على أنّ الفقهاء والمؤدّبين أبدوا

(1) راجع : R.Brunschvig, **Hafsides**, T II, pp.430-471

G.Jehel,la **mediterraneé médievale**,p.106

الابي، الاكمال، ج V، ص 264 (ذكر موضع نزول الصليبيين بالمنصف بين تونس وقرطاجنة، وذكر أحد الافارقة المؤرخين للحملة وهو الأديب جمعة).

(2) البرزلي، **ن.م.**، مخ 4851، ج II، ص 149ب. الابي، **الاكمال**، ج III، ص 193، ابن عرفة، **المختصر**، ج II، ص 13 ب. ذكر البرزلي (ن.م.، ج I، ص 190) انه كانت لابن عرفة كتابة لبعض الأدوية بالالفاظ العجميّة.

احترازا في تدريس أبناء الأعراب بأعتبارهم محاربين و "**أولاد الظلمة وكتاب دواوين المكوس**"، ورأوا ضرورة تعليمهم القرآن دون الكتابة والحساب لأنّهما يؤدّيان الى ظلم النّاس (1).

ومما يذكر في هذا الصّدد أن بعض الفقهاء عابوا على أحد المشائخ الذي أخذ على نفسه تعليم الأعراب بناحية تونس، كما أستنكف الطّلبة الحضر من وجود بعض البدو معهم في المدرسة، ومن جهة أخرى فقد تحرّى الفقهاء في قبول «**أبناء الظّلمة وجباة المكوس**»، من ذلك أن أحد أبناء أسرة ابن خلدون المخزنيّة وجد صعوبة في قبوله بالمدرسة (2).

أمّا عن " بيداغوجيّة التدريس، فقد أعتمدت في المرحلة الأولى على كتابة القرآن على الألواح والحفظ. ومثّلت " الحذقة "، وهي حفظ القرآن كاملا، مرحلة هامّة من تعليم الصّبيان. وكان المؤدّب لا يأخذ أجرا من الاولياء الاّ بعد تجاوز هذه المرحلة في العهد الأغلبي، غير أنّه أصبح يتقاضى في العهد الحفصي أجرة شهريّة على كلّ صبيّ مبتدئ تتراوح بين درهم جديد ودرهمين في الشّهر، وترتفع بعد الحذقة الى درهمين، وقد تبلغ لدى أبناء الأعيان دينارًا الى دينارين (3).

وكان العنف الجسدي وسيلة مألوفة لدى المؤدب، إزاء من " **أتّصف من الصبيان باذاء أو لعب أو هروب من المكتب** ". وتفاوت الضرب خطورة على الأبناء الصّغار: فقد أفضى أحيانا الى إعاقة جزئية، مثلما حصل للصبيّ الذي ضربه فقيه القيروان أبو محمد الشبيبي، أو ذلك الذي ضرب على رأسه. وكان الضرب على أسفل الرجل (الفلقة) أمرا معروفا في عهد البرزلي.

أما اذا كان الخطأ المرتكب كبيرا، ومتعلّقا بالسّلوك الاخلاقي، فقد لجأ المعلمون الى وضع القيد في أرجلهم سواء في المكتب أو عند أبائهم، وكان أحد قضاة القيروان في القرن الثامن هـ/ XIV م، قد عاقب الصبيان المنحلّي الأخلاق بحلق رؤوسهم وإلباسهم خشن الثّياب وتأديبهم (4).

(1) البرزلي، **ن.م.**، مخ 4851، ج II، ص 151.

(2) **مناقب**، **مخ**، ص112ب، البرزلي، **ن.م.** ج II، ص 43ب.

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 1154، 148 ب.

(4) **ن.م.**، ج II، ص 150ب. ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 13 ب (ومما ورد فيه: الصّواب اعتبار حال الصّبيان، شاهدت غير واحد من معلّمينا الصّلحاء يضرب الصبيّ نحو العشرين، وأكثر. كما التجأ المعلمون الى الشتم والزّجر، وذلك حثّا على الدّرس).

وكانت لهؤلاء الصّبيان نشاطات اجتماعيّة خارج الدّرس ومشاركة في الأفراح والأتراح، وحضور مناسبات الختمة (حفظ القرآن) أو الاحتفاء باليوم السّابع للمولد الجديد أو الختان وغيره. وعادة ما يلبسون أثناء هذه المناسبات ما يليق من ثياب التجمل والتزيّن في الأعياد.

أما في أوقات فراغهم، فقد دأبوا على تعاطي أنواع عديدة من اللّعب، مثل التدرّب على السّباق بالخيل والابل والرمي بالسّهام، والنّرد والشطرنج، واللعب بالدوامات الخشبيّة (1).

ب) المساجد – الجامعة :

ظلّ جامع الزّيتونة بتونس في مرتبة ثانية بعد جامع عقبة بن نافع بالقيروان، ولم يستقطب الحركة الثقافية والعلميّة الا ابتداء من العهد الحفصي، بعد أن سقطت القيروان في طيّات الاهمال وتحوّلت تونس الى حاضرة افريقيّة. وقد تعدّى اشعاع الزّيتونة افريقيّة ليشمل كامل بلاد المغرب، فقدم اليه المتعطّشون الى المعرفة من كلّ صوب، وتخرّج منه أعلام عدّة منهم الغبريني من بجاية وابن عرفة من ورغمّة وابن خلدون، وغيرهم كثير، ولا نستثن من ذلك أعلام البربر من الاباضيّة مثل أبي العباس أحمد الشمّاخي، بعد أن بقوا فترة طويلة رافضين الأخذ عن المشائخ المالكيين.

ومثّلت المكتبة العربيّة العمود الفقري لكل حركة فكريّة في البلاد، مقترنة شديد الاقتران بالمؤسسات التّعليميّة. فكان جامع الزيتونة يضمّ في أروقته عددا كبيرا من المجلدات. وقد احتوت هذه المكتبة على 36 ألف سفر عهد أبي زكريا الأوّل، وتولّى أمرها عهدي المستنصر والواثق الفقيه أبو علي الحسن الهواري. غير أن رصيد المكتبة شهد إتلافا كبيرا اذ تراجع عدد الكتب الى عشرين ألفًا، ثم وصل الى ستة آلاف، وذلك نتيجة الاضطرابات التي عرفتها البلاد في أواخر القرن السابع هـ/ XIII م، وشتى العوامل التنظيميّة والطبيعيّة، وعلى حدّ عبارة ناظر المكتبة " **المطر وأيدي البشر** " (2).

---

(1) ابن عرفة، ا **المختصر**، ج IV، ص 15ب. البرزلي ،**ن.م.**، مخ 4851، ج II، ص 1151، 1153. القلشاني، **شرح**، ج II، ص 1211.

(2) التجاني، **رحلة**، ص 274، 276. ابن الشماع، **الأدلة**، ص 57.
كانت الكتب المستعملة تحلّى بالفضّة والذّهب وتحظى بقيمة كبيرة، حتّى أنّ احد اللصوص الذي استولى على بعض المجلدات من مدرسة الكتبيين قد تعرّض نحو سنة 700هـ الى العقاب (بقطع يده) : الأبيّ، **الاكمال**، ن.م.، ج IV، ص 439.

وهكذا بدأت المكتبة في الاندثار في بداية القرن الثامن، اذ فرّط ابن اللحياني في كتبها قبل انتقاله الى المشرق. وبعد نحو قرن من هذه الحادثة، نقل السّلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز عدّة كتب من خزانة القيروان الى جامع الزيتونة، الذي تعدّدت به المكتبات (1). وكانت أشهرها المكتبة العبدليّة التي أنشأها الأمير الحفصي أبو عبد الله محمّد بن الحسن سنة 1500م، وتمثّل حاليًا رصيدا هائلا من مخطوطات دار الكتب الوطنيّة بتونس. إنّ ثراء المكتبة العربيّة وتنوّعها هي التي انتجت عالما فذّا ذا فكر متقدّم وهو عبد الرحمان بن خلدون، كما انّ النّكسات التي أصابتها هي التي رمت بالعلم في غياهب الظّلام، وكانت أولاها استيلاء المغول على بغداد سنة 1256م، ونسفهم للكتب التي ضاع منها عدد كبير. ومثّلت هجومات النّورمان والاسبان والبرتغال على السّواحل المغربيّة وبالا على المكتبة المغربيّة، التي تضرّرت من قبل من التعصّب المذهبي.

وحصلت الكارثة في أواخر حكم الحفصيين المتواطئين مع المحتلّ، جاء في ابن أبي الضياف : " **وانتهى محمّد بن الحسن الى القصبة وشاطره قائد الصبنيول في الحكم، وعاث عسكره في البلاد، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة، واستباحوا ما به وبالمدارس العلميّة من الكتب، وألقوها في الطرقات يدوسها العساكر بخيولهم. وهذا هو السّبب في قلّة تآليف الفحول من هذا القطر، فانها ضاعت شذر مذر في هذه الواقعة** " (2).

وهكذا فانّ هذه الكوارث المتتالية أدّت الى اتلاف كثير من المصنّفات السّابقة للقرن السابع هـ/ الثالث عشر م والى ضياع معارف عند أهل المشرق والمغرب، وانحسار الثّقافة في ميادين معيّنة، وانقطاع عن التطوّر والخلق والابتكار، وتقوقع وانغلاق فكري.

ج) المدرسة :

المدرسة هي مؤسسة مستحدثة ظهرت بالمشرق العربي منذ نهاية القرن الرّابع الهجري، وأصبحت أكثر انتشارا في سوريا في العهد السلجوقي، خاضعة لاشراف السّلطة الرّسميّة. وانطلاقا من الشام، وصلت الى مصر عهد صلاح الدّين الأيّوبي، ثمّ افريقيّة في فترة حكم أبي زكريا الحفصي. وقد اقترن وجودها، كما أسلفنا الذكر، بالمدينة دون القرى والبوادي، الى حدّ أنّ الونشريسي عرّف المدينة بكونها مجالاً توجد به مدرسة.

---

(1) الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص 125.

(2) ابن أبي الصياف، **اتحاف أهل الزمان**، تونس 1969، ج II، ص 18–19.

وقد ارتبطت نشأتها بعدّة معطيات ، أهمّها :

– المعطى الايديولوجي المتمثّل في التصدّي للمذهب الشيعي في سوريا الشّيعيّة. أما في افريقية، فان أبا زكريا الحفصي قام بتأسيس المدرسة الشمّاعية بتونس للعمل على نشر المذهب الموحّدي .

– المعطى السّياسي: من الطبيعي أن تحرص المدرسة الشماعيّة على تكوين موظّفين متشبّعين بالمذهب الموحّدي ، لخدمة جهاز الدّولة. وقد تدخّلت السّلطة في نظام التدريس وتسيير المدارس التي تم بناؤها من قبل أمراء وأميرات وعلماء .غير أنّ الحفصيين أخفقوا في نشر المذهب الموحّدي عن طريق المدارس، لتغلغل المذهب المالكي في البلاد . وخلافا لرأي بعض الدّارسين ، فانّ المدرسة الشمّاعيّة التي بنيت عهد أبي زكريا الحفصيّ تعتبر أوّل مدرسة ، وقد تلتها مدارس أخرى مثل التوفيقيّة وغيرها، وذلك قبل إنشاء المدرسة المنتصريّة بطرابلس بين سنتي 655هـ–658هـ (1) .

– المعطى الاجتماعي : تتميّز المدرسة عن المسجد بكونها مؤسّسة تأوي الطّلبة والشّيوخ الغرباء وتوفّر لهم السكن والتّدريس في ظروف حسنة، لتوفّر الغرف والبيوت . وكثيرا ما أكتسبت هذه المؤسّسة صبغة خاصّة اذ انّ صاحبها تحكّم في تسييرها بنسبة كبيرة .

– المعطى الثّقافي : يتّضح ممّا سبق أنّ الثّقافة التي نشرتها المدارس هي ثقافة رسميّة أو شبه رسميّة ، اذ تتولّى السلطة اعطاء أجور المدرّسين ومنح الطّلبة. ورأى بعض علماء العصر في هذا الأمر صبغة هيمنة، تجلّت بوضوح في تحديد المخزن للمحتوى وللبرمجة، وفي أحتكار بعض الأسر مثل عائلتي ابن خلدون والتّجاني لخطّة التدريس بكيفيّة وراثيّة، وممّا يفسّر موقف بعض المعاصرين المناهضين لهذه المؤسّسة هو تكريسها للتقليد وغلق باب الاجتهاد ونشرها للجمود الفكري، حتى قال العبدري : **"انّما ذهب العلم ببنيان المدارس"** .

والحقيقة أن المدرسة ، شأنها شأن الزاوية ، جاءت لتقبر الجدل الفكري الذي أزدهر في القرون السابقة، وتعوّضه بتدريس الفقه والحديث واللّغة وغيرها من العلوم التقليديّة سواء كان ذلك في تونس أو في المغرب الأقصى، وإن وجد هناك

(1) محمد الباجي بن مامي،مدارس **مدينة تونس من العهد الحفصي الى العهد الحسيني** ، تونس 1981 (نسخة مرقونة) . محمد القبلي ، قضية المدارس المرينية ، مقال مستخرج من مؤلفه : " **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط** " ، الدار البيضاء 1987، ص 69 (أخطأ هذا الباحث عندما اعتبر أن المدرسة المنتصرية بطرابلس (655–658هـ) هي أوّل مدرسة بافريقيّة ، مقارنا بينها وبين مدرسة مراكش .انظر :

S.Ghrab,**op.cit**,pp.216-230.Brunschvig,**Hafsides** T II,pp.280-291.

تخصّص، إذ تميّزت فاس بتدريس علوم الفقه بينما كانت سبتة " بصرة علوم اللّسان" وتخصّصت تازا ومكناس بمواد اللّغة العربيّة، ومراكش بعلوم الرّياضيات (1).

د) مناهج التدريس :

اعتمدت مناهج التّدريس على التلاخيص والمختصرات والحواشي والشّروح التي اعتبرت ظاهرة مرتبطة بالجمود الثّقافي وانحسار الانتاج في شرح ما سبق . على أن هذا الرأي أحتاج في واقع الأمر الى تدقيق أكبر، ذلك أنّ الشّرح وشرح الشّرح هما ضرورة حتّمتها تطوّر معالم اللّغة العربيّة من الجاهليّة الى صدر الاسلام ، ومنه الى العصر الوسيط المتأخّر، اذ تباينت المصطلحات المستعملة من فترة الى أخرى ، وتعدّدت اللّغات المحكيّة متأثّرة في ذلك باللّغات السّابقة من بربريّة ولاتينيّة وفارسيّة. ممّا جعل الدّارس في حاجة ملحّة الى التعاليق على النّص الأصلي والشّروح الجديدة التي تبدو من هذه الوجهة مرتبطة بتطوّر اللسان العربي عبر العصور، وبالتّالي فهي بمثابة المعجم اللغوي الذي يصل بين حقبات الزّمن المتتالية .

وفي كلّ الأحوال فانّ المنهج الذي تلقى به الدّروس في مسجد المدرسة قد اتّسم بالضّحالة ، مركّزا على طريقة الاملاء والالقاء المشفوع بالشّرح، وقلّما التجأ مشائخ العلم الى النقاش والتّحليل. وهي ظاهرة شدّت انتباه ابن خلدون كما سنرى ، وأستمرّ العمل بهذه الطرق التّقليديّة مع العثمانيين.

على أنّ عقم المناهج لم يمنع من كون المدارس ظلّت نقاط اشعاع ثقافي، أستقطبت أعدادًا كبيرة من الطّلبة الوافدين عليها من القرى والبوادي الآهلة بالسكّان، مساهمة بذلك في تنشيط الحركة العلميّة . وطبيعي أن يكون دورها متغيّرا من مكان الى آخر، حسب مدى انتشار اللغة العربيّة فيها. ممّا يفسّر البون الشّاسع بين مدّة الدّراسة التي يقضّيها الطالب قبل الاجازة في تونس وفي المغرب الأقصى .

(1) انظر : المنوني ، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، الرباط 1979. وكتب بالخصوص حول مدارس مدينة فاس ما يلي : " تميّزت حاضرة فاس بمدارس بديعة ، أقدمها مدرسة الصفارين التي بناها أبو يوسف المريني سنة 1276م، وتلتها مدارس فاس الجديدة والأندلس والسبعين والعطارين والوادي ، خلال النصف الأول من الرابع عشر " .

وقد ذكر الونشريسي أنّ مدارس المغرب الأقصى كانت خاضعة لقوانين وتراتيب معيّنة، تحتّم على التلميذ أن يخرج منها اذا سكن فيها عشرة أعوام دون أن يبدي نجابة وتعلّما (1).

أما ابن خلدون، فانّه حدّثنا بدقّة عن الاختلاف بين المناهج التعليميّة في كلّ من تونس وفاس، وقال إن الاختلاف في مدّة التعليم بين البلدين مردّه مدى التّفاوت في تعرّبها، الذي كان في انحدار من الشرق الى الغرب. ممّا يفسّر المدّة الطويلة التي يقضّيها الطالب البربري في المغرب الأقصى لحذق اللسان العربي كتابة ونطقا (2). وهو أشبه ما يكون في ذلك بحالة الطالب العربي المعاصر الذي يتعلّم اللّغة الفرنسيّة أو الانقليزيّة، لكنّه يجد صعوبة في مستوى التّعبير والتخاطب. ويظل الرّصيد الثّقافي السّابق موثّرا في اللّغة المغربيّة المحكيّة، بدرجات متفاوتة من افريقيّة الى المغرب، قال ابن خلدون: « **أمّا افريقيّة والمغرب فخالطته العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل، فغلبت العجمة فيها على اللّسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة، والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه فهي عن اللّسان أبعد** » (3).

وكما أنّ لهجتهم تشوبها اللّكنة خاصّة في المناطق المعرّبة حديثا، فانّ اكتساب ملكة اللّغة العربية واتقانها ظل ناقصا، « **فأهل افريقيّة والمغرب لمّا كانوا أغرق في العجمة وأبعد عن اللّسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتّعليم** » (4).

---

(1) الونشريسي، **المعيار المعرب**، بيروت 1981، ج VII، ص 7، 262.

Kably, **Société, pouvoir et religion,** op.cit. pp.279-285.

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 431-432. وقال في هذا الصّدد: « وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التّعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتّصل سند التّعليم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم، وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللّسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلميّة، فهو الذي يقرّب شانها ويحصّل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرّف في العلم والتّعليم. ثمّ بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصّل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض وناظر أو علّم، وما أتاهم القصور الأ من قبل التّعليم وانقطاع سنده، والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدّة عنايتهم به، وظنّهم أنّه المقصود من الملكة العلميّة وليس كذلك وممّا يشهد بذلك في المغرب أنّ المدّة المعيّنة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين، وهذه المدّة بالمدارس على المتعارف هي أقلّ ما ياتي فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو الياس من تحصيلها، فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلّ الجودة في التّعليم خاصّة لا ممّا سوى ذلك ».

(3) ابن خلدون **المقدّمة**، ص 558-559.

(4) ن.م.، ص 565.

وفي تتبّعنا مناهج التدريس يستوجب استقصاء التفاوت الملحوظ بين المغرب الاقصى وافريقيّة، " **فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرّسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه. فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حدّ البلوغ الى الشبيبة ...وأما أهل افريقيّة فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها** " (1).

ويتّضح أنّ تقدّم المنهج التّعليمي في مدارس افريقيّة يفسّر بتعرّب شبه كلّي للبلاد، أمّا البلاد البربريّة بالمغربين الأوسط والأقصى، فانّها اكتفت بتعليم القرآن لمدّة طويلة، لتعثّر تلقين اللسان العربي في هذه الجهات.

غير أنّ الدّروس الملقاة في المدرسة احتاجت إلى موافقة المخزن، وقد أصبح أحيانا هذا التدخل سافرا، لما قام أبو زكريا الحفصي بطرد ابن الأبار من التدريس سنة 638هـ/ 1241م، لاعتماده على كتب غير مسموح بآستعمالها (2).

أمّا عن برنامج التدريس الخاص بالمستويات المتوسّطة، فيمكن أن نستشفّه من خلال يوم عمل للفقيه أبي محمد عبد اللّه الشبيبي بالقيروان في أواسط القرن الثامن هـ/ XIV م، حسبما روى ذلك ابن ناجي (3).

ويتّضح لنا أنّ هذا البرنامج المرهق قد انقسم الى ثلاثة حصص:

– الأولى خصّصها للعامّة، وآحتوت على حصّة صباحيّة فيها تلاوة القرآن وتفسيره والحديث والوعظ وحكايات الصلحاء والرقائق وكتب السّيرة، أما المسائية فقد خصّصت للإفتاء والتّجويد على مرحلتين: الأولى لطلبة المدينة بالمسجد والثاني للطلبة الغرباء بزاوية الجديدي.

– أما الحصة الثانية فقد تفرّغ فيها للطلبة المبتدئين، واحتوت على شروح لكتب الفروع (مثل رسالة ابن أبي زيد ومختصر ابن الحاجب وكتاب الجلاّب).

– وآقتصرت الثالثة على الطلبة الكبار، الذين آنصرفوا الى قراءة كتاب التهذيب للبرادعي.

---

(1) ابن خلدون، **المقدّمة**، ص 538.

(2) الزركشي، **تاريخ**، ص 28.

(3) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 207.

ومن الواضح أنّ هذه البرامج اقتصرت على بعض العلوم النقليّة، مغفلة العلوم العقليّة واللّغة والأدب . وقد أضحى هذا الأخير من المواضيع التي أهملها الفقهاء ، حتى أنّ ابن عرفة استنكف من رواية الأدب وخاصّة مقامات الحريري ، غير أنه أجاز في رواية الأبيّ إعراب الأشعار الستّة (المعلقات) .

على أنّ ذلك لم يمنع من تدريس بعض تلامذة المدرسة المازريّة مثل أبي محمد بن البراء (المتوفّى سنة 737هـ/ 1336م،) لهذه المقامات وغيرها من مواضيع الأدب بدويرة جامع الزيتونة المخصّصة لذلك. وقد عرف كثير من الأفارقة والاندلسيين بدراسة اللغة والأدب مثل أبي العباس أحمد اللّلياني وابراهيم بن محمد التجاني وأخوه أحمد، وابنه علي وابن الأبّار البلنسي (ت 658هـ) وأبو الحسن علي بن عصفور الحضرمي (ت 669هـ) وغيرهم كثيرون (1) .

غير أنّ الفقهاء أهملوا الى حدّ كبير دراسة اللّغة ، حتّى أنّ البعض منهم أصبح قاضيا أو مفتيا دون معرفة جيّدة باللّغة العربيّة ، كما شهد بذلك ابن عرفة : **« لا قراءة لهم في العربية فضلا عمّا سواها من أصول الفقه»** ، حتّى بلغ الجهل بأحد قضاة الانكحة والجماعة بتونس الى حدّ قوله : **« ما فتحتُ كتابا في العربية على أحد»** .وقد حصل الأمر نفسه بمدينة بجاية في بداية القرن VIIIهـ/ XIV م .

كما أقرّ كلّ من ابن عبد السلام وابن عرفة بأن بعض العلماء الجهلة تولّوا تدريس علم التفسير دون معرفة جيّدة لعلم العربيّة (2).

أمّا العلوم الأخرى ، مثل علم المنطق والحساب والنحو، فقد أجاز علماء المالكية تدريسها (3).

وبالتالي، هيمنت العلوم النقليّة في فترات الانغلاق، فإلى جانب تلاوة القرآن ، أعتاد المدرسون بمدينة تونس على البدء بقراءة التفسير ، فالحديث ، ثم الفقه . ولنا في حصص ابن عرفة نموذج عن هذه البرامج ، فقد كان يعقد "دولا" خمسة ، في التفسير والحديث والبقيّة يخصّصها لقراءة ورقتين من التهذيب

(1) التجاني ، **رحلة** ص، 9 ، 10، 190،371. ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 112 (ذكر ان بعض مشائخ الادب لجأوا الى ترك فراغات أمام الكلمات الفاحشة) . الأبي، **اكمال** ، ج II، ص 263.
(2) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1117.
(3) الابي ، **اكمال** ، ج II ، ص 63 .

(للبرادعي) كل يوم . وكان يوصي تلامذته بعدم الاكتفاء بالنقل، ومحاولة البحث في مجلس الدّرس عن اضافة ما ، وإلاّ فانّ ذلك يعدّ " تخسير للكاغذ " المستعمل ، حسب عبارته (1).

وعمومًا اعتمدت الدّراسة على الحفظ والتلقين أكثر من اعتمادها على التفكير والاستقراء ، حتى أنّ بعض المدرّسين اختزلوا النحو في متن الجزولية والأصول في متن ابن التلمساني والحديث في الأحكام الكبرى لعبد الحق وغيرها من المصنّفات والاجماع في كتاب الاجماع لابن القطان (2).

وحظي المدرّس بتقدير وٱحترام كبيرين ، فقد تعوّد الطلبة على القيام، اجلالا لشيخهم عند دخوله عليهم . وكان يلقي الدّرس جالسا على الأرض أو على كرسي . وقد دأب هؤلاء المدرّسون على استحسان الأعمال الطيبة وتعزير غير الجادّين وزجرهم لفظيا ، أو طردهم من الدّرس (3).

ومثّل جامع الزيتونة المؤسّسة التعلميّة العليا، التي تسابق اليها الطلبة والشيوخ، خاصّة خلال القرن السّابع هـ ، وبداية الثامن هـ، اذ تعدّدت بها حلقات الدّروس ، وأقبل المتعلّمون عليها حتى ضمّ خلال النصف الأوّل من القرن الثامن هـ/ XIVم ، يوم الجمعة نحو السبعين حلقة للفتيا، وان كانت قد تميّزت من بينها حلقة قاضي الجماعة ابن القدّاح .

على أنّ هذا التّقليد أنقرض بعد وقوع الطاعون الجارف، حسبما شهد بذلك البرزلي اذ قال :**« حدث هذا منذ أزيد من خمسين سنة ويقال إنهم في الدّيار المصريّة كذلك، والذي شاهدناه عام حجّة الفريضة يجلس رجل على كرسي ويقرأ والنّاس يستمعون»** (4).

وفضلا عن تعطيل الدّرس الناجم عن الطوارئ ، وخاصّة وقوع الطاعون ، كما فعل ذلك ابن عرفة ، فانّ المدرّسين بتونس أعتادوا على عدم العمل يومي الخميس

(1) البرزلي .ن.م.، ج IV ، ص 373ب ، 366ب . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 132ب. الأبي، **الاكمال** ، جIV، ص 345–347 ، ج VII ، ص 128 . تعوّد أهل تونس وقتذاك على الجلوس يوم الخميس لتلاوة القرآن . وكان يتلى بمصر منذ القرن السادس هـ/XIIم بالتّلحين، " على غرار طريقة الاعاجم في التمطيط " ، أما بتونس فقد أقيم الآذان في المدن فقط بطريقة التطريب التي لم يستنكرها العلماء. أما القرآن ، فقد دأب بعض علماء القرن الثامن هـ مثل أبي الحسن البطرني وابن عرفة والبرزلي على تكليف عدد من الطلبة بتلاوته . كما كانت هذه القراءة الجماعيّة متداولة بتونس أثناء المناسبات ، وهو ما يسمّى منذ تلك الفترة قراءة الحزب .
(2) الأبي ، **الاكمال** ، ج V، ص 16 .
(3) الأبي ، **الاكمال** ، ج II ، ص 247. البرزلي ،**ن.م.**، ج IV ، 318ب، ج II ، ص 150ب.
(4) البرزلي،**ن.م.، ج** II ، ص 1295.

والجمعة، بل أن بعضهم مثل أبي علي بن القدّاح أضاف اليها بمدرسة الشّماعين يوم الاثنين (1).

كما اعتاد الطلبة الرجوع الى أهلهم في فصل الصّيف وتعطيل الدّراسة. ويبدو أنّ هذا التوقيت كان معمولا به كذلك في المغرب الاقصى، فكان من عادة الشيوخ العمل شتاء، ولا يعطلون الاّ مدّة قصيرة في نهاية هذا الفصل ثم يستعيدون العمل بأكثر نشاط حتّى الصيف. على أنّ الاوضاع تردّت في نهاية القرن الثامن هـ/ XIVم، حتى اقتصرت مدّة التدريس على فترة لا تتجاوز خمسة أشهر في السّنة عام 796هـ/ 1393م، ثم تراجعت لدى بعض الشيوخ بفاس الى ثلاثة أشهر عام 876هـ/ 1471م(2).

ومثلت الاجازة الشهادة النهائية التي يتحصّل عليها الطالب من شيخه، في مادّة ما، وكانت تكتب وثيقة في ذلك تبدأ بالتصلية وذكر المادّة والطالب والشيخ المجيز(3).

وكان الاقبال كبيرا وقتذاك على خطتي الافتاء والقضاء، حتى أنّ البعض حاول الحصول عليها بأدنى جهد، ودون أن تكون له معرفة باللّغة، وهم الذين أطلق عليهم ابن عرفة " العلماء الجهلة " (4).

3) خاصّيات فئة العلماء :

أ) مكانة العلم والعلماء :

شكّل العلماء فئة اجتماعيّة مميّزة داخل المجال الحضري، يرفعهم إلى هذه المنزلة علمهم. على أنّ النّظرة الى العلم اختلفت من فئة الى أخرى، وزمان الى آخر.

فابن راشد القفصي تبرّم من جهل الفلاحين ببلاده وعدم تقديرهم للعلم. أمّا البرزلي، فقد لخّص نظرة أهل عصره للعلم والعلماء، مميّزا أهل السّياسة على أهل العلم، في قولته : **« ان القراءة والتّفقه والتشاغل بالعلوم أصل المذلّة والاذاية والاهانة والهموم، وان التشاغل بالدّفاتر والكتابة والدّراسة أصل التقيّة والتزهّد والرّئاسة والسّياسة »**(5). وشاركه معاصروه في هذه النّظرة

(1) الابي، **الاكمال**، ج III، ص 483. تخلّى ابن عرفة عن التّدريس بباب البحر عند وقوع الطاعون.

(2) الونشريسي، **المعيار**، ج VII، ص 353-352، 359.

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج II، ص 149ب. الابي، **الاكمال**، ج III، ص 96. وممّا يذكر حول أهميتها أن أحد الفقهاء من النصف الأول من القرن الثامن هـ/ XIV م، وهو الشامي الذي درس على البوذري، أمر بدفن إجازته معه عند وفاته. راجع حول هذا الموضوع، كتب البرامج: مثل، **برنامج الوادي- آشي**.

(4) ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 1117.

(5) البرزلي، **ن.م.**، مخ 4851، ج II، ص 195 ب.

المفرّقة بين العلم والجاه، فقد قرن القلشاني العلم بالمروءة والأخلاق الحسنة، مبيّنا فضل العلم ونظرة النّاس له ولأصحابه، فقال : **« ذو العلم أولى النّاس بالمروءة والأدب وصيانة الدّين ونزاهة النفس، ويحق على العالم أن يتواضع للّه في علمه ويحترس من نفسه الصّبر ويتوقّى الضّجر ويصفح عن زلّة جليسه ولا يؤاخذه بعثرته ». ثم أضاف قائلا : « وممّا ينبغي لطالب العلم أن يكون عارفا بزمانه مقبلا على شانه حافظا للسانه محتفظا من إخوانه، فلم يؤذ النّاس قديما. والمغرور من اغترّ بمدحهم، لكنّه يتلقّى الجفاء منهم برحب الصّدر وحسن الخلق ويقابل السّيّئة بالحسنة »**.

وقد أشاد فقيه باجة بقراءة الكتب ودراستها في بيت جاء فيه :

إذا ما أردت الأنس من غير وحشة   فلا تتخذنّ الاّ الكتاب نديما

وأورد نظما متأخّرا لأحد الشعراء يدلّ على مكانة العلماء وموقعهم في المنظومة الاجتماعية حيث ساد جاه السلطان ومال التّاجر، وممّا ورد في هذا النّظم :

لو صاحبنا الملوك تاهوا علينا   وأستخفوا جهلا بحق الجليس
أو صحبنا التجّار صرنا الى البؤس   وصرنا الى عداد الفلوس
فلزمنا البيوت نستعمل الحبر   ونقلي به وجوه الطروس
وقنعنا بما رزقنا فصرنا أمراء   على الملوك والرؤوس (1).

وبالتالي فانّ جاه العلم لم يكن دائما موازيا لجاه المال والسلطان، وهو ما يفسّر أن العلماء شكلوا فئة مختلفة عن سائر الفئات الأخرى الحضريّة من تجار وحرفيين ورجال السلطة. و كان الانتماء اليها واضحا في مستوى المظهر والسلوكيات والثروة والفكر. فقد كان لباسهم يميزهم عن سائر الفئات الاجتماعية الأخرى، ومثلما كان لباس الفوطة والعمامة اللطيفة دليلا الى الانتماء الى سلك الفقهاء بمصر، فانّ لباس جبّة الملف والفوطة والعمامة أصبح أمرا خاصّا بعلماء افريقية في العهد الحفصي (2).

على انّه لم يوجد لباس موحّد يرتديه كلّ العلماء نظرا إلى التفاوت الاجتماعي بينهم، واختلاف مراتبهم كما تدل عليه أجورهم التي تفاوتت من أجر المؤدّب البسيط (درهم في الشهر عن كلّ صبيّ، أي نحو 3 دنانير في الشهر)، الى أجر كبار القضاة والأئمة.

(1) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 1221-1222.

(2) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 173.

ب) أجرة العلماء :

اتّخذت شكلا عينيا تارة (الرّيع العقاري للاحـباس) ونقديا أخرى، فضلا عن الاتاوات الأخرى المتحصّل عليها في شكل هدايا وغيرها.

– الريع العقـاري المتأتّي من الأحـباس والاقطاعات : اعـتبر البـرزلي أن أخذ المرتّب من الحـبس أحلّ من أخذه مـن بيت المال، خاصّـة اذا لم يكن الغـالب عليهـا الحلال، لأنّ المتولّي لأمر الحبس هو طرف آخر غـير السّلطان، ويمكن استخلاصه من الحبس العامّ أو المبـهم المجهول مصرفه. وقد اَسـتدلّ البرزلي على ذلك بمرتّب القـاضي أبي علي بن قدّاح الذي أخـذه من قرى مـحبّسة على رقـاع " **لا يعرف مصرفها** " ، كما ذكّر لتبيان ذلك لمعارضيه الذين رفـضوا استعمال ما جهل سبيله من الحبس، بأن "**أراضي افريقية الغالب عليها عدم الملك** " . على أنّ بعض الفقهاء ومن بينهم أبو عبد الله الدكّالي عارض أخذ المرتّبـات من الأحباس ، بنوعيها . وهو ما أثار جدلا قويّا بينه وبين ابن عرفة والـبرزلي بالاسكندريّة . كما وقع الاختلاف حول صفة الرّيع النّاجم عن الحبس : هل هو بمثـابة الاجارة أم الاعانة ، وانقسمت الآراء الى إثنين :

– الرأي الأوّل تبنّاه الموثّقـون، والثانـي دافع عنه شيـوخ البرزلي : البـوذري وشيـخه: ابن عـرفة ، الذي أقـرّ بأنّ أحبـاس زمنه " **انّما هـي عطيّة لمن قـام بهذه الوظائف** " .وهو مـا يعني عمليـا استـثناء الأثرياء من الأئمّـة والمدرّسين من هذه الاعانة ، التي منحت بطريقتين مختلفـتين في شكل مرتّبات للشيوخ وأرزاق ومنح للطلبة (1).

والحقيقـة أنّ أخذ الأجرة والمرتّبات لعديد الموظّفين من الأحـباس أضحى أمرا شـائعا في المشـرق والمغـرب، بعد أن أصـبحت المؤسّـسـة المخزنيـة عاجـزة عن استخلاصه وتعذّر أخذه من بيت المال (2).

ومنحت في بعض الحالات في شكل مُـحاصّة للريع العقـاري بين المنتمين الى مؤسـسـة تعليمية أو دينية واحـدة، ويخوّل للمحبّس تعيين مـا يأخذه كلّ واحد من أهل المدرسة، من فقـيه وامام وطلبة ومؤذنين وخـدّام المدرسة ، لأنّ عدم البتّ في ذلك قد يؤدّي الى اَختلافـات في كيفيّة قسمـة هذا الرّيع . وعادة ما أعطت الأولويّة للطلبة على غيرهم لملازمتهم المدرسة كـامل الوقت ، فيما اَقتصر دور المدرّس على التواجد بها مدّة محدودة في النّهار، وطيلة أشهر الدّراسة .

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج I ، ص 19–20ب، 179. الرصاع ، **تحفة** ، ص 181. ابن ناجي، **شرح** ، ج I ، ص 160.
(2) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII، ص 387،386 .

على أنّ المدرّس حظي ببـعض الامـتيـازات الأخـرى، منها أنّ ريع الحـبس لا يسترجع منه أثناء المرض أو فترة التقاعد عن العـمل ، باعتباره إعانة ، وقد اَستدلّ البرزلي على ذلك بأخذ البـوذري مرتبه من مدرسة الكتبيـين أثناء مرضـه ، وكذلك ابن عرفة(1).

و شـملت الأجرة العـينيّة (أمـوال الحبس) عـدّة شرائح اجـتمـاعيّـة : الجند بالحصـون (الذين يتحـصّلون على براءات) و "أصحـاب الأعمـال" مثل القـباض والبـوّابين والأئمّة والمؤذنين والمدرّسين والنقـباء ، وتمثّلـت في مردود المحـصول الزراعي ، أمّا ما يتحصّل عليه الطلبة بالمدارس وشـيوخ الجامع وفقراء الزوايا فقد اعتبر إعانة (2).

– **العطاءات والجعائل:** مثّلت العطاءات والصّدقة موردا آخر للمشتغلين بالعلم بمختلف أصنافهم . فكثيرا ما كانت الصّدقة التي يقوم بها أحد العلماء قبيل الوفاة، موردا آخر للمدرسة أو المسجد أو الكتاب (3) .

كما كانت الهـدايا والجعائل مصدرا هاما لدى " فقـهاء البادية " الذين أخذوا " الجـعائل على الفـتوى " .ويبـدو أنّ هذا الأمر قـد حصل داخل المجـال الحضـري نفسـه ، بين البدوي والعالم، كمـا يبيّنه الخبر الذي أورده ابن الطوّاح ، ومـفاده أنّه شاهد الفقيه أبا علي عمر بن محمد بن علوان الهذلي الصقلّي يطلب من بدوي عسلا مقابل الحكم في قضيّة ، وهوما اَستنكره المؤلّف .

ويتّـضح من جواب ابن عـرفة عن مـسألة تخصّ الهـدايا التي تعطى للمفـتي تساهل الفقيه في هــذا الموضوع، اذ أجازها ان لم تكن هناك خصومة ، ومنعها اذا اقترنت بقـضيّة ، باعتبارها رشـوة، معترفا في الآن نفسـه بوجود الرّشاوي التي تمنح للعلماء وأرباب السلطة من قبل الرعيّة لرفع مظلمة (4) .

وعمد بعض القـضاة الى قبول الجعائل على الأحكام وأخـذ الرّشاوي ، وعادة ما توسّط كاتبه بين القاضـي والرّاشي . أمّا أبو علي بن القدّاح، فقد التجأ الى الحيل الفقهية للاستفادة من اشتراء أعشار الأعراب بأسعار زهيدة (5).

(1) الونشريسي ، **المعيار** ، ج VII ، ص 365 . البرزلي ،**ن.م.**، ج I ، ص 160 ب.
(2) البرزلي ، ن.م.، ج II ، ص 161 ب .
(3) أوصى ابن عرفة قبل مـوته بتصديق تركته ، غير انه اَختلف في كـيفيّة تنفيذ الوصيّة، والتّـصدّق بالتّركة التي ذكر فيها الكتّان والكتب. وعقد لهذا الغرض مـجلس للعلماء بحضور قاضي الجماعة البرزلي، والسلطان أبي فارس عبد العزيز للبتّ في هذه المسألة : البرزلي ، **ن.م.**، ج III ، ص 190ا.
(4) البرزلي ،**ن.م.**، ج I ، ص 20 ب . ابن الطواح ، **سبك المقال** ، ص 109 قال له « لو جبت لي العسل في لون هذه – يعني شملة كانت على كتفي – لكتبت لك الفتيا" . ابن عرفة ، **ن.م.**،ج IV، ص 1123.
(5) البرزلي ،**ن.م.**، ج III ، ص 58ب ، 75ب ، 1204 .

- الأجرة النقديّة :

لئن تنزّه بعض القضاة والفقهاء في العهد الأغلبي من أخذ أجرة على عملهم، فانّ الفقيه ابن عرفة وغيره من علماء العهد الحفصي رغبوا في إعطاء المرتبات للمدرسين والأئمة وسائر العلماء والطلبة ، وأستيفاء الأجر ، بعد أن تطوّرت المعاملات المالية والاقتصاد التجاري في حوض المتوسّط .

وبالتالي شملت الأجرة النقديّة عديد القطاعات الاجتماعيّة ، من علماء وشرفاء وبعض الصلحاء الذين تحصلوا من المخزن على مبلغ معيّن شهريّا .

وفي إطار هذا التطوّر ، أصبح الافتاء بدوره وظيفة يتقاضى عليها صاحبها أجرا منذ القرن الثامن هـ/ XIV م، وهو ما يفسّر اقبال الطلبة على هذا العمل . وقد أجاز البرزلي أخذ الاجارة على الفتوى من بيت المال، وأن تكون للمفتين مرتّبات من المخزن مثل المدرّسين ، وذلك بعد أن منع وقوع هذا الأمر فقهاء العهد الزّيري ، مثل اللّخمي والمازري .

وابتدأ هذا التطوّر منذ مطلع القرن الثامن هـ/ XIV م، اذ كان الفقيه أبو علي بن علوان يأخذ الأجر الخفيف على بعض فتاويه، وهو ما أكسب هذه الوظيفة صبغة رسميّة، مرتبطة بالمخزن (1).

وحصيلة القول، فان الامتيازات الماديّة التي تحصل عليها هذا الصّنف الاجتماعي تفسّر الى حدّ كبير انتماءهم إلى فئة ذات مصالح مشتركة مرتبطة الى حدّ كبير بالسّلطة المخزنية، ودائرة في فلكها .وتجسّد هذا الانتماء القويّ لهذه الفئة في عديد المظاهر الأخرى، مثل الحياة اليومية والمهنيّة .

ج) المميّزات الأخرى :

إنّ المتتبّع لمنازل العلماء بالمدينة يلحظ أنّ جلّهم سكن داخل المدينة العتيقة، قرب المسجد الجامع أو المدرسة التي درّس بها ، في أحياء ودروب مميّزة.

فقد قطن ابن عرفة قرب جامع الزيتونة ، بمنزل "محاط بالقرمود" ، وكان لشيخه البوذري منزل قبلي جامع التّوفيق ، أمّا أسرة ابن خلدون ، فانّها نزلت قبلة جامع الزيتونة (2).

وأرتبطت فيما بينها ومع سائر الفئات الحضريّة الأخرى المترفّهة (من تجار ورجال سياسة) بعلاقات مصاهرة، فقد تزوّج أحد شيوخ ابن عرفة ، وهو أبو محمد الاجمي بابنة قاضي الجماعة : أبي علي بن قدّاح . كما عقد عبد اللّه الترجمان قرانه على ابنة أحد الحرفيين بالأسواق .

---

(1) البرزلي ،**ن.م**، ج I ، ص 163 ب، ج II (مخ 4851) ، ص 158 ب .
(2) الابي ، **الاكمال** ، ج II ، ص 32 ، ج ، ص 402–403 ، ج VII ، ص 262 .

وفضلا عن اللّباس ، فقد تميّز سلوكهم بنمط خاصّ بالفئات الحضريّة الوسطى التي اقترنت مصالحها بالسّلطان أكثر من أي طرف . ولذا قلّما عرفت هذه الفئة بالجرأة في الاصداع بآرائها، لكنّها مع ذلك تميّزت عن بقيّة الفئات . فآتخذت موقفا سلبيا من أهل البادية، واحتقرت فقهاءهم وأعيانهم ، ودعت في حالات الى استئصال شأفة الأعراب ، كما شمل موقفهم مختلف الفئات الحضرية الأخرى ، فهضمت حقوق المزارع الخمّاس، وأحتقرت العامّة بالمدن التي أطلقت عليها شتى النّعوت النابئة، أمّا المرابطون ومشائخ الزّوايا فقد كانوا كذلك في صراع معهم في كثير من الأحيان (1).

وقد وجدت أحكام مسبّقة عديدة تمنع من تخطّى عتبة الأعراف المعمول بها واندماج العالمين، حتى أنّ أكل الفقهاء للطعام مع أهل البادية أعتبر فضيحة. ومرّة أخرى هذا البرزلي يتحدّث قائلا " :« **بلغني عن الشيخ الصّالح أبي عبد اللّه الرمّاح شيخ عصره في بلده أكل معه بعض أهل البادية طعاما، فجاوز العادة ، فخاف البدوي الفضيحة** » (2) .

وكان شعور العلماء بالانتماء الحضري قويا ، وهو ما أطلق عليه منذ تلك الحقبة البلدي ، نسبة الى البلد ، غير أنّ مصطلح البلدي لم يكن مقتصرا على الفئات الميسورة داخل المدينة . ومما يبيّن ذلك انّ ابن راشد تحدّث عن البلدي الموسر ، فيما آستثنى البرزلي الخاصّة ، مبيّنا ان البلدي كان مُعرَّضًا في عصره لتسلّط الخواص و " **ذوي الجهالات من الأمراء وأتباعهم** " ، وفي دائرة ضغوطاتهم حتى أنه عمد الى اكتراء الدّور والدّكاكين والأراضي من الخاصة بأسعار مرتفعة حتى يكون له الاعيان سندا في قضاء شؤونه. كما عمد الى تقديم الهدايا لأصحاب السّلطة من قضاة وعمّال وغيرهم ، وبالتالي فكثيرا ما وضع نفسه تحت حماية أحد الأعيان تأمينا لنفسه من مغبّة العسف الاجتماعي الذي كان متفشّيا (3).

وهكذا يتّضح أنّ هذه العلاقات الاجتماعية التي حيكت بين الأعيان والبلديين أخذت داخل المدينة صبغة "فيودالية" . ففي هذا الاطار ، ما هي مكانة العلماء داخل هذه المنظومة الاجتماعية .

تعوّد أهل مدينة تونس على عدم تولية إمامة جامع الزّيتونة لمن لا ينتسب الى الحضرة (4) .

---

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1180 . الترجمان ، **تحفة الاريب** ، ص12. راجع الفصول الخاصّة بصورة البدو والخماس وحركات العامة .
(2) البرزلي ،**ن.م.، ج III** ، ص 204 ب .
(3) البرزلي ،**ن.م**، مخ 4851 ، ج II ، ص 169 ب. ابن راشد، **الفائق** ، ج II ، ص 143.
(4) الغبريني ، **عنوان الدراية** ، ص 67. الزركشي ، **تاريخ** ، ص 67 .

كما اُقتصرت خطّة قاضي الجماعة في كثير من الأحيان على عنصر الحضر ، إذ كان جلّ القضاة من المدن الكبرى ، تونس والمهدية وصفاقس، وتوزر وقابس وطرابلس. وما نشير اليه في هذا الصّدد أنّه على إثر وفاة قاضي الجماعة أبي علي بن عبد الرّفيع سنة 766هـ/ 1364م، عقد مجلس السّلطان لتعيين قاض آخر، فذكر أهل المجلس أن قاضي الأنكحة هو المرشّح لهذا المنصب عادة، مقترحين بذلك ابن القطّان السّوسي. لكن السلطان أبا اسحاق ابراهيم رفض ذلك، مجيبا بجملة معبّرة عن عقليّة ذلك العصر : **" ما نأتي به من القرى حتى تكون تونس قد خلت ممّن يصلح "** وقدّم عوضا عنه ابن خلف اللّه النفطي (1).

على أن عمر بن عبد الرفيع الذي وصل إلى قضاء الأنكحة بطريقة ملتوية، قد تمكّن من تولّي قضاء الجماعة ، وذلك بتدخّل أحد الأعيان لدى أبي الحسن المريني، **" ووطّد ذلك بأنّه من بيوتات تونس "** (2).

وممّا لاشك فيه أنّ هذه الرؤية لم يتبنّاها كل العلماء ، وخاصة الوافدين على قاعدة البلاد من جهات أخرى ، غير أنّها كانت مترسّخة لدى العلماء من أهل البيوتات الحضريّة .

ويبدو أنّ النّزاع الحاصل بين قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع والقاضي ابن راشد البكري القفصي مردّه محاولة الأوّل المنتمي الى إحدى بيوتات تونس غلق الأبواب أمام منافسه، فقد **" ناوأه القاضي أبو اسحاق بن عبد الرفيع فلم يتركه يخرج رأسه طرفة عين حتى لقد منعه الجلوس للوعظ بجامع القصر الأعلى. فكان ابن راشد يقول : أتمنّى أن أجلس أنا وهو للمناظرة حتى يظهر الحق ومن هو المقدّم في العلم "** (3) .

---

(1) الغبريني ،ن.م.، ص 102 . الزركشي ،**ن.م**، ص 102 . كذا في ابن عرفة ، **المختصر**، ج IV، ص 115 ب.

(2) الزركشي ،**ن.م.**، ص 88 . البرزلي ،**ن.م.**، ج II، ص 1176 (ذكر أنّ خطّة قاضي الجماعة خصّصت لانتماء صاحبها الى بيوتات بتونس وخدمته للسلطان). Brunschvig,**Hafsides**,TII,p.117.

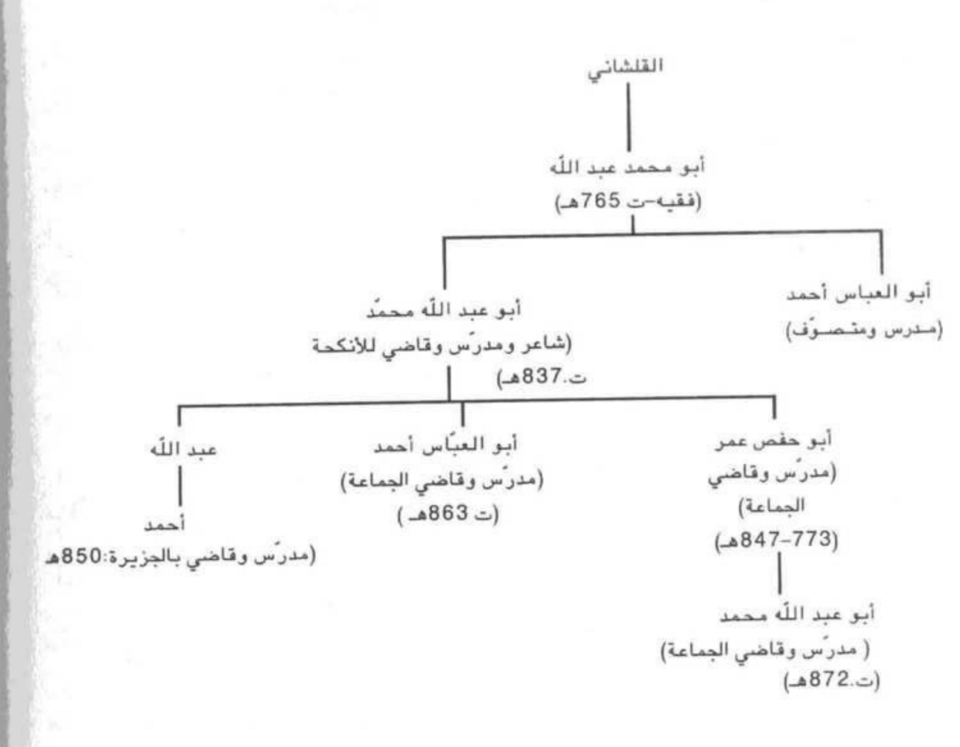
(3) الزركشي ، **ن.م.**، ص 73.

ولئن لم يسعف الحظّ ابن راشد ، فان بعض العلماء قد حظوا بقبول لدى الكتلة الحضريّة المؤثرة، وذلك بمداراتها وخدمة مصالحها، وتمكّن من تقلّد المناصب العليا، مثلما حصل لمحمّد بن عبد السلام الهواري . ففي سنة 734هـ/ 1336م، عقد مجلس السلطان أبي يحيى أبي بكر لتعيين قاضي الجماعة خلفا لأبي علي بن القدّاح. فاقترح بعضهم ابن عبد السلام الهواري. لكن بعض أكابر أهل المجلس **" وقف موقفا محترزا من ذلك، بدعوى أنه شديد الأمر. وقد دسّوا له أحد أجواره من الموحدين لاختباره ، فاظهر لينا وتعاونا مع المخزن في قوله : أنا أعرف العوائد وأمشّيها "** ، وهو ما مكّنه من تولّي هذه الخطّة الى حدّ وفاته سنة 749 هـ/ 1348 م (1) .

وهكذا وجدت كتلة حضريّة مؤثّرة في تقليد المناصب العلمية والقضائية العليا، وتكوّنت في العهد الحفصي من البيوتات التونسيّة والأندلسيّة الوافدة على البلاد وتجسّد هذا الحرص على مكانتها في تواصل الأسرة الواحدة في الوظائف المرتبطة بالعلم مدّة طويلة من الزّمن ، ويمكن أن نذكر مثالا على ذلك يخصّ أسرة علماء بباجة طيلة القرنين الثامن والتاسع هـ، وهي أسرة القلشاني :

---

(1) الزركشي، ن.م.، ص 71. كذا في ابن عرفة، **المختصر**، ج IV ، ص 115ب .



– **أبو محمد عبد اللّه القلشاني** : كان مجدًا في طلب العلم، توفّي بباجة في 10 شوال 765هـ .

– **أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه القلشاني** : والد مؤلف " شرح الرّسالة " . وكان حافظا للشعر وناظما له، اشتغل مدرّسا بمدرسة عنق الجمل بتونس . تولّى قضاء قسنطينة الى حدّ سنة 813هـ، ثم عيّن قاضي للأنكحة بين سنتي 813هـ و837هـ. توفّي سنة 837هـ.

– **أبو العباس أحمد بن عبد اللّه القلشاني** : شيخ متزهّد، أجهد نفسه في الدّراسة ، أخذ عن ابن عرفة، وكان يطمح لتولّي الامامة . عمل مدرّسا بباجة .

– **أبو العباس أحمد محمّد بن عبد اللّه القلشاني** : أخذ العلم عن عمّه بباجة ، ثم

تحوّل الى تونس حيث لازم دروس شيخه أبي مهدي عيسى الغبريني. تولّى قضاء قسنطينة، وهو المنصب الذي كان فيه أبوه الى حد وفاته بين سنتي :813هـ–839هـ، ثم التحق بالتدريس بالمدرسة الجديدة بمدينة تونس.

وفي سنة 846هـ، أمتحن و "**عمل له مجلس بالقصبة**" بسبب مقالة نسبت اليه، واعتقل مدّة شهرين ثم تولّى خطّة التدريس بمدرسة سوق الفلقة، وقضاء الجماعة الى حدّ سنة 858هـ، تاريخ عزله منه. وظلّ مدرّسا بالشماعيّة وخطيبا ومفتيا بجامع الزيتونة الى حدّ وفاته في سن تناهز 84 عام، سنة 863هـ/ 1459م.

من مؤلفاته: تحرير المقالة في شرح الرّسالة (انتهى منه 29صفر سنة 822هـ) وشرح مختصر ابن حاجب الفقهي.

– **أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه القلشاني** : كان مدرّسا بالمدرسة الجديدة بتونس، وهي المدرسة التي عمل فيها أبو العبّاس أحمد. تولّى قضاء الجزيرة سنة 850هـ.

– **أبو حفص عمر بن عبد اللّه القلشاني:** ولد بباجة 2 شوّال 773هـ، أخذ عن والده، ثم تحوّل الى تونس حيث أخذ عن أبي مهدي عيسى الغبريني ومحمّد بن مرزوق. تولّى قضاء الانكحة والتدريس بمدرسة عنق الجمل، بعد وفاة أبيه سنة 837هـ، وكانت له دراية بالطبّ. وفي سنة 841هـ، أصبح خطيبا بجامع الزيتونة، ثمّ عيّن قاضي الجماعة سنة 846هـ الى حدّ وفاته بالوباء سنة 847هـ.

– أبو عبد اللّه محمد بن أبي حفص عمر: تولّى مثل أبيه خطّة قضاء الجماعة والخطابة والفتيا بجامع التوفيق سنة 858هـ. وقد خلف بذلك عمّه أبي العبّاس أحمد في خطّة القضاء بعد عزله . توفّي بالوباء سنة 872 هـ (1) .

4) القاضي والأمير :

تمكّن الأمراء والخلفاء في كثير من الحقب من التحكّم في القضاء، وذلك بتعيين القاضي وعزله والتدخل في مهامه. ولئن تميّزت فترات التطوّر الحضاري بالفصل بين السّلطتين القضائية والسياسيّة، فانّ حقب الاستبداد السّياسي شهدت تقلّص دور القاضي الذي أصبح ظلاً للأمير وتابعا له .

(1) أبو العباس القلشاني، **شرح الرسالة**، ج II ، ص 156ب، 192ب، 1222، 1224–ب .
(وقد ذكر علماء آخرين من باجة من بينهم أبو العباس أحمد الوشكي، من أصل أندلسي حسبما يبدو من الاسم وأبو عبد اللّه بن عمران البسكري : **ن.م.**، ص 46ب، 147، 159، 193، 1108، 192ب). ابن مخلوف، **شجرة النور الزكيّة**.
حسن حسني عبد الوهّاب، **كتاب العمر**، ج I ، ص 789–792. ج II ، ص 412–414 .

ومثّل العلماء طيلة هذه الحقبة، قوّة اجتماعيّة مساندة للسّلطة المخزنيّة في الغالب، وان كانوا قد تمكّنوا في فترات معيّنة من تكوين كتلة مستقلة.

وعلى غرار ما عرف به علماء المالكيّة من عدم القول بالخروج على السلطان الجائر، فانّ أحد فقهاء العهد الحفصي الذي فضّل أن يترك اسمه مجهولا ، فرق بين صنْفَيْن من الأمراء:

– صنفَ وجبت طاعته ، وهم على التّوالي :

. من صار اليه الأمر برضَى النّاس، وقبلوه بعد له .

. من وصل الى الحكم بعد نزاع مسلح، لكنه أظهر فيما بعد عدله.

. من أخذ الأمر غلبة دون مشورة، وظهر منه **"الجور في الدّماء والاموال"** ، غير أنّ الأمر استقرّ له وأصبح النّاس آمنين من "الفتنة".

– صنف لا يجب طاعته : وهو من استغاث بالعدوّ ضدّ المسلمين مثلما ألتجأ المعتمد بن عباد الى النّصارى لمحاربة المرابطين.

وبالتالي ، فقد دعا العلماء إلى طاعة الأمير، ولو كان **" متغلّبًا مخالفًا"** ، حتّى لا يتعطّل السّير العادي للقضاء . على أنهم أبدوا أحترازا وحيدا وهو تواطُؤ السلطان مع العدو، وهو ما أطلق عليه البرزلي في موقع آخر من كتابه السّلطان الجائر، مستدلاً على ذلك بما آل اليه الوضع بجزيرة قوصرة في القرن الثامن هـ/ XIV م إذ أصبحت الجالية الاسلامية تحت سلطة الصلقيين النّصارى، التي أبقت على مؤسّساتها السّابقة، بما فيها القضاء والشهود ، غير أنّ قضاة مدينة تونس أصبحوا لا يثقون بأحكام هذا القاضي ولا في شهادة الشهود، لخضوعهم لسلطة النصارى (1).

وبديهي القول أنّ تولية الخطط القضائية خضعت لسلطة الأمير الحفصي ومجلسه، وخاصّة منها خطّتي قاضي الجماعة وقاضي الأنكحة . فقد روعي في تعيين قضاة هاتين الخطتين جذورهم الحضرية وولائهم للسلطة المخزنيّة .

و منحت الدّولة مرتبات لهؤلاء الموظفين التابعين لها بلغت 15 دينارا في الشهر لقاضي الجماعة سنة 766هـ/ 1364م، ولم تخرج خطّة الافتاء من دائرتها، إذ أصبحت ابتداء من القرن الثامن هـ/ XIV م وظيفة يتقاضى صاحبها أجرا من المخزن. وفي ظلّ هذا التطور بين السلطة والعلماء، سعى كثير منهم الى الحصول على مناصب القضاء، مستعملين في ذلك شتّى الطرق والتدخّلات (2).

---

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 1115–ب . البرزلي ،ن.م.، ج II ، ص 1176.

(2) العمري، **مسالك**، ص 96.البرزلي،ن.م.مخ.48519 ، ج II ، ص 179ب ، 187 ب ، وورد في الرصاع، (**تحفة الاخيار** ، ص 17ب) رأي أحد الصّلحاء في السّلطة ، وهو أبو عبد اللّه المزدوري الذي قال :« الواجب على كلّ أمير من أمراء هذه الأمّة أن يبذل النصيحة للخلق ويقرّبهم من الملك الحق ويعلّم جاهلهم ».

وفي المقابل ، فانّ الأمثلة التي تبيّن صلف المخزن إزاء القضاء كثيرة: فقد كاد ابن تافرجين أن ينكّل بابن عرفة وبأبي القاسم الغبريني اللذان طلبا رؤية إحدى الاميرات لكتابة عقد قرانها .

وقبل موت الأمير أبي يحيى بكر سنة 747هـ/ 1346م ، أوصى بالحكم لابنه أبي العبّاس أحمد الذي كان واليا بقفصة ، لكن الحاجب ابن تافراجين فضّل تعيين أخيه أبي حفص عمر. ولما أبدى قاضي الجماعة محمد بن عبد السّلام والفقيه الاجمي معارضتهما، التجأ الى الحيلة الفقهية، وجمع الناس لمبايعة أبي حفص عمر فيما انشغل الفقيهان بدفن السلطان الميت، وقد قبلا المبايعة ، معلّلين ذلك بكونهما أتّبعا جلّ النّاس في ذلك (1).

ويفهم ضمنيا من الاختلاف الحاصل بين الفقهاء حول مدى اتّساع سلطة القائد وأحتوائها لمسائل الأحكام عند شغور خطّة القضاء، وجود رغبة جامحة للعمّال لتوسيع نفوذهم على حساب القضاء. وقد فرّط أحيانا القضاة عن طواعية في بعض مهامهم لحاكم الفحص أو القايد، عند عجزهم عن التّصدّي للمحاربين من البدو. وبالتالي ، أستبدّ هؤلاء القوّاد دون القضاة بالحكم في كثير من النواحي النائية. وعموما أختلف العلماء حول الحكم بين النّاس عند غياب القاضي: فالبعض منهم أمضى أحكام ولاة الكور، والآخر مثل اللؤلؤي لم يجزها حتى يجعل له مع القيادة النظر في الأحكام(2).

وتدخّل السّلطان أحيانا لتعيين العدول وعزلهم ، وخاصّة أثناء المنعطفات التاريخيّة: فقد ألغى أبو الحسن المريني العمل بالشهود الذين قدّمهم ابن عبد السّلام، بأستثناء إمام جامع الزيتونة ، وطال توقيفهم الى أكثر من سنة، حتى بدأ السعي لردّهم الى خططهم، عن طريق الاتّصال بالقاضي المغربي أبي عبد اللّه السطّي. وقد أثمرت هذه الاتّصالات غير المباشرة مع السلطان وتمكّن ابن عبد السّلام من ردّ بعض العدول الى عملهم. هذا مثال على فاعليّة دور الواسطة في تسيير الدولاب القضائي وقتذاك من جهة وعلى حرص كلّ من السّلطان وقاضي الجماعة على كسب العدول وتبعيتهم له (3).

---

(1) البرزلي ، ن.م.، ج II ، ص 1179. الغرناطي ، **مسائل** ، ص 1250. الونشريسي، **المعيار**، ج X، ص 5–6.

(2) أمّا فيما يخصّ إمامة جامع الزيتونة، فقد تدخلت السّلطة في القرن الثامن هـ، في صياغة خطبة الجمعة واختيار الشواهد المناسبة من الآيات القرآنية . كما عملت ، ارضاء لاهل البلاد ، على تبديل خطباء الموحّدين في الجمعة للفظة المعصوم بالمعلوم، محتجين بان العصمة خاصّة بالأنبياء . الابي ، **الاكمال**، ج III ، ص 26 ، ج II ، ص 423 . ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 126 ب.

(3) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 152 ب .

وبديهي القول إنّ الانقسامات داخل صفوف الفقهاء المرتبطة بالانتماء الاثني (اندلسيون وأهل البلاد من أهل البيوتات والوافدين على المدينة) أو الفكري (علماء درسوا بالمشرق مثل ابن راشد وآخرون تلقّوا تعليمهم بافريقية) أو السّياسي ، قد ساعدت المخزن الحفصي على إحكام السّيطرة على هذه الفئة، والانحياز الى طرف دون الآخر.

ولقد اتّضح لنا من خلال المثال التالي توزّع العلماء بمدينة تونس الى صنفين : انصار السلطان من أهل البيوتات والأندلسيين وأصحاب الخطط العليا، وطرف ثان أقل تحمّسا لمناصرته.

ففي سنة 726هـ/ 1325م، حدث نزاع بين أبي عبد الله محمد بن يحيى بن عمر المعافري المعروف بابن الحباب (ت.749هـ) وابن البسطي نسبة إلى بسطة من الأندلس حول جنان بأحواز مدينة تونس. وقد كان في بداية الأمر ملكا لابن البسطي، ثمّ خرج من يديه وآل الى القائد ابن يعقوب، فشيّد به بناء رفيعا. ثمّ أصبح في مرحلة ثانية بيد ابن الحباب.

على أنّ وصول السلطان أبي يحيى أبي بكر الى الحكم غيّر الموازين من جديد : فقد أصبح ابن البسطي في " **عنفوان كامل تمكّنه من دولة السلطان أبي يحيى أبي بكر** "، وتمكّن من استرجاع الجنان ، بعد أن حكم قاضي الجماعة أبو اسحاق بن عبد الرفيع (ت.731هـ) لفائدته ، على أن يعوّض قيمة البناء.

لكن ابن الحباب طلب مراجعة الحكم سنة 736هـ/ 1335م، أثناء فترة قضاء محمد بن عبد السلام (734-749هـ)، فدعا السلطان أبو يحيى أبو بكر الى عقد مجلس موسّع للفقهاء للنظر في القضيّة ، فآجتمع " **كلّ من يطلق عليه اسم فقيه معتبر حقيقة أو مجازا** " بدويرة جامع الزيتونة، وترأس الاجتماع ابن عبد السّلام ، لكنّه اعتذر عن البتّ في المسألة، نظرا إلى طبيعة علاقته مع شيخه ابن الحباب ، اذ حصلت بينهما مناظرات . ولما أوكلت المهمّة لقاضي الانكحة، أبي محمد الأجمي، أمضى الحكم ولم يغيّره بحجّة عدالة القاضي ابن عبد الرفيع .

وهكذا خيّب أمل ابن الحباب، ومعه مجموعة من العلماء ،فيما برز تكتّل ثان من العلماء المقربين من السلطان، ضمّ بعض الاندلسيين (ابن البسطي) وأهل البيوتات (ابن عبد الرّفيع) والمقربين منهم، أبا محمد الاجمي الذي ارتبط بعلاقة مصاهرة مع قاضي الجماعة السابق، أبي علي بن القدّاح، ومحمد بن عبد السّلام الذي سعى منذ البداية الى خدمة المخزن الحفصي .أمّا التكتّل الأوّل ، فقد ضمّ الى جانب ابن الحباب ، ابن راشد القفصي الذي لم يتمكّن من ترسيخ أقدامه بمدينة تونس، للمعارضة الشديدة التي أبداها ابن عبد الرفيع إزاءه، وابن عرفة الذي كان

يثني على شيخه ابن الحباب وابن القطّان السّوسي الذي أراد تولية ابن عرفة قاضيا للجماعة، لكن السلطان رفض هذا الأمر (1).

وهكذا يتّضح أنّ السّلطان لم يتدخل فقط في تعيينه لأصحاب الخطط العلمية وعزله لهم، انّما كذلك في المناورة لمنح الثروة للبعض أو سحبها منهم .

على انّ بعض الفقهاء تمكّنوا من الوقوف في وجه الاستبْداد المخزني، ومن الإصدَاع برأيهم المخالف (2).

وكثيرا ما يقع التّداخل بين مهام القاضي والعامل، وهو ما يؤدّي أحيانا الى توتّرات بين الطرفين مثلما حصل ذلك عهد أبي فارس عبد العزيز ، لّما عمد عامل الحامّة الى حجز بضاعة التجار الوافدين من بلاد السّودان، وهو ما آستنكره العقباني، لانّ العادة بتّ القاضي في الاختلافات بين التجّار، لا العامل (3).

ولئن كان قاضي الجماعة قادرا في بعض الأحيان على عزل العامل، مثلما حصل بالنّسبة لعامل الجزيرة القبليّة ، فانّه فضّل أحيانًا أخرى التّفريط في مهامّه للعامل أو الخليفة، أو حاكم الفحص أثناء فترات الاضطراب الاجتماعي ، لعجزه عن الردع (4).

ومهما يكن من أمر، فانّ تعيين قاضي الجماعة وقاضي الانكحة خضع لسلطة المخزن .

– ***قاضي الجماعة*** : ارتبط تعيينه مباشرة بالسلطة السّياسيّة، رغم استقلاليته النسبيّة عنها في أخذ القرارات والافتاء. وكثيرا ما آنتمى الى البيوتات التونسيّة، أو الفقهاء الذين كانت لهم علاقات حسنة مع المخزن .

وقد جرت العادة أن يكون شبه الوكيل الذي تفوّض اليه الأحكام ، بما فيها الأحوال الشخصيّة التي يتولاّها قاضي الأنكحة ، كما آهتم بآختيار القضاة في الكور والنواحي والعدول أو الشهود، وذلك بعد موافقة السّلطان .

(1) ابن عرفة، **المختصر** ، ج IV ، ص 125ب. القلشاني، شرح، ج II ، ص 164ب(ذكر ابن البسيطي نسبة الى بسيط بشرق الاندلس، عوضا عن البسطي، نسبة الى بسطة) .
الزركشي ، **تاريخ**، ص 73،87(قال ابن الحباب عند موت ابن راشد سنة 737هـ، مشيرا الى ابن عبد السلام وابن هارون : " يكفي من فضله أنّه أوّل من شرح جامع الامهات لابن حاجب، ثم جاء هؤلاء السرّاق وأشار الى الجالسين خلفه، فعمد كل واحد الى شرح عليه واخذ من كلامه ما لولاه ما علم اين يمرّ ولا يجيء " . حول ترجمة ابن الحباب ، انظر: ابن مخلوف ، **شجرة النور الزكية** ، ص 209.
(2) البرزلي ،ن.م.، ج III ، ص 146.
(3) ن.م.، ج II ، ص 1187. المغيلي ، **الدرر المكنونة** ، ج II ، ص 11ب .
(4) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1150. البرزلي ،**ن.م.**، ج II ، ص 234 ب .

ولئن مارس مهامّه بالاستعانة بقاضيين آخرين في عهد الولاة، فانّه أصبح قادرا على تعيين قضاة نواب عنه في العهد الحفصي، وكانوا يستشيرونه فيما أشكل عنهم، وذلك بعد أن أتّسعت الخطة في المدن الكبرى (1).

–قاضي الانكحة : حرص السلطان على تعيينه للبتّ في مسائل النكاح والطلاق والورثة والوصيّة، وكلّ ما يتعلّق بالأحوال الشخصيّة والأسرة . وبالتالي ، فقد حدّد القضاة في النّواحي يوما خاصّا بشكاوي النّساء ، مستعينين في ذلك بأعوان من الشيوخ والعجائز ذوي الدّراية.

وتولّى قاضي الأنكحة خطّة قاضي الجماعة عند شغورها ، على أنّه من النّاحية القضائية ظلّ تابعا لقاضي الجماعة ، حتى أنه أعتبر "شبه عامل من عمّاله " (2).

أمّا من الناحية العمليّة فقد حصلت نزاعات بين الطرفين ، عندما أصرّ قاضي الانكحة على عدم الاذعان لرأى قاضي الجماعة. وهو ما وقع بتونس بين أبي اسحاق بن عبد الرّفيع قاضي الجماعة وابن عبد السلام قاضي الأنكحة، إذ حاول الأوّل اخضاع الثاني لرأيه ، لكن دون جدوى . وقد بتّ السّلطان في هذا الاختلاف بأن استقل كل واحد بالنظر في المهام المنوطة به (3) .

– قضاة الكور والنواحي : وافق التقسيم الاداري الى عمالات ، والترابي الى بلدان التقسيم القضائي، اذ عين قاض على كل بلد ، وأهمها : تونس وسوسة والمهديّة وصفاقس وقابس وباجة والقيروان والجريد وطرابلس وبلد العناب ، وقسنطينة وبجاية . وقد خضع تعيين القاضي بها الى سلطة قاضي الجماعة ، وكان عرضة للعزل والنّقلة، وفق إدارة قاضي الجماعة والسّلطة السّياسية، ولئن أبدى كثير من فقهاء العهد الاغلبي تحفّظا في قبول خطّة القضاء، فانّ الاقبال عليها أصبح كبيرا في العهد الحفصي، حتى وقع الالتجاء أحيانا الى الوساطات . وقبل كثير منهم النقلة من بلد الى آخر.

فقد تولّى كلّ من أبي اسحاق بن عبد الرفيع والبرزلي وابن ناجي القضاء في عديد المدن، وانتقلوا من واحدة الى أخرى. على أنّ بعض فقهاء القيروان فضّلوا

(1) البرزلي ، **ن.م**، ج II ، ص 1181–ب .
(2) البرزلي ،**ن.م**، ج II ، ص 1181. قال الأبي في هذا الصّدد : " انظر ما جرى العرف به بتونس بتقديم قاض للأنكحة وقاض لما سوى ذلك ويُسمّى قاضي الجماعة، فانّه جرى الأمر من قبل الأمراء أنّ نظر قاضي الجماعة عامّ حتى على قاضي الأنكحة وأنّه كالنّائب عن قاضي الجماعة " .
(3) الأبي ، **الاكمال** ، ج V ، ص 171 ، ج II ، ص 1219 (ذكر الأبيّ ان السلطان كاد أن ينكّل بقاضي الانكحة لما أراد مقابلة احدى الأميرات عند كتابة عقدها) .

البقاء بمدينتهم على مشقّة الانتقال، من ذلك أنّ قاضي الجماعة أبا اسحاق بن عبد الرّفيع عيّن أبا عبد الله محمد الرمّاح قاضيا على الحامّة، لكنّه أمتنع عن ذلك متلطّفا، وكتب رسما يشهد على نفسه بكونه لا يحسن أحكام القضاء ، فلم يعفه، ولم يتمكّن من الخروج من هذه الورطة الاّ بتدخّل بعض مشائخ الأعراب من الكعوب لدى السّلطان .

وأستعان قضاة الكور في تأدية مهامهم بأعوان عديدين، وكان من بينهم من كانت له معرفة بالوثائق والأحكام . وكان البعض من القضاة قد تخصّص في ميدان معيّن مثل الأحوال الشخصيّة (1).

ولئن اختلف الأمر من ناحية الى أخرى ، فانّ سلطة القضاة لم تتجاوز المدينة والقرى القريبة منها، التي لا تبعد أكثر من 40 ميلا، اذ جرت العادة أن يبتّ شيوخ القرى النائية في مسائل المعاملات وغيرها دون الالتجاء الى القاضي .

ولذا فضّل بعض الفقهاء السكن وسط الكورة التابعة لهم، كي يستطيعوا الاشراف على مختلف القرى والتجمّعات، من ذلك أن قاضي توزر في النّصف الثاني من القرن الثامن هـ/ XIV م نزل بطرف البلد باعتباره الوسط بالنّسبة الى الكور التي يتحاكم أهلها اليه (2).

وكانت خطة القضاء مرغوبا فيها في كثير من الأحيان ، حتى أنّ بعضهم سعى بكل الطرق الشرعية وغير الشرعية للحصول عليها، دونما مستوى مناسب إذ كانوا يبتّون في المسائل والنوازل من غير الاستناد الى مرجعيّة تشريعيّة مقتصرين على استقراء الأمر . وهو ما يفسّر التشكّيات الحاصلة، وقيام قاضي الجماعة بعزله إذا ما أتّضح انّه لا يصلح لتولّي هذه الخطة .

وقد لا تجدي أحيانا التدخّلات لفائدتهم أو قدمهم في المهنة وتوارثهم لها (**"لهم أصل في الخطة"**).وعادة ما يقع تجديد سلك القضاة كلما تغيّر قاضي الجماعة (3).

وأتبعت المراسلات بين قاضي الجماعة وقضاة الكور طريقة معهودة ، فكان قاضي الجماعة لا يسمّي القاضي المرسل اليه، مقتصرا على كتابة العلامة التالية في آخر خطابه " والسّلام على من يقف عليه ورحمة الله وبركاته " .

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 1119. البرزلي ،ن.م.، ج II ، ص 1190–ب 1264. الزركشي ،ن.م.، ص 70 (تولى أبو اسحاق بن عبد الرفيع قضاء تبرسق وقابس قبل أن يستقر بتونس) .
(2) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1122.
(3) **المصدر نفسه**، ص 128ب، ن.م.، مخ 4851، ص111ب (تدخل أبو الحسن البهلولي لدى ابن عبد السلام لفائدة أحد عدول القيروان، لكن بدون جدوى).

أمّا اذا حرّر الرّسالة كاتب عوضا عنه، اقتصر فيها على ذكر لفظ السّلام، وقد صار هذا الأمر تقليدا راسخا حتى ان ابن عبد الرّفيع رفَضَ الردّ على رسالة واردة عليه من قاضي الجماعة ببجاية، مبتورة من السّلام (1).

ولئن كان المعمول به في العموم هو قبول مراسلات القاضي بمجرّد التعرّف على خطّه ، فان أهل افريقية أصبحوا يشترطون شهادة شاهد على كتاب القاضي، مثلما هو الشأن في المشرق ، تحاشيا للتّزوير (2).

وتتضمّن المراسلات الأوامر التي تصدر لقضاة النّواحي وكذلك الولاّة ، والاجتهادات الخاصّة بالأحكام، لتطبيقها. ويبدو أنّ سلطة قاضي الجماعة قد اتّسعت حتى أنّه تمكّن أحيانا من عزل العمّال وتوليتهم ، مثلما حصل لأحد عمال الجزيرة القبليّة (3).

وكان قضاةُ الكور يبعثون بما استشكل لديهم الى قاضي الجماعة ، ولكن قد يبلغ الاستئناف والتعقيب في القضيّة والاستفتاء مراحل طويلة الى حدّ عقد مجلس السلطان. ونذكر من ذلك مسألة حصلت ببجاية تخصّ حضانة امرأة ، فبعث قاضيها الى قاضي الجماعة ابن عبد السلام الذي حكم بان لا حضانة لها. فرفعت أمرها الى السلطان أبي يحيى أبي بكر، الذي أمر بعقد مجلس الفقهاء بالقصبة ، لكن هؤلاء انقسموا الى قسمين : أفتى ابن عبد السّلام والأجمي قاضي الانكحة بانّ لا حضانة لها فيما ذهب ابن هارون وبعض أهل المجلس الى العكس . واستقرّ حكم السلطان على الرأي الثاني (4).

إنّ هذا المثال يعكس طبيعة السلطة القضائية ، وتراتبيتها من القاضي الى قاضي الجماعة الى مجلس الفقهاء الى السّلطان ، الذي كان له الرأي الأخير، ويبيّن مدى سلطة المخزن على القضاء كما يدل عليه الجدول المرافق .

أمّا معاملة قضاة المالكية للاباضية بجزيرة جربة فقد تميّزت بالمرونة ، لأنّ المجموعة السنيّة ظلّت ضئيلة بالجزيرة الى حدّ نهاية القرن الثامن هـ/ XIV م ، وبالتالي فقد التجأت المجموعات الإباضية في حل نزاعاتها الى نظام " العزّابة " ، ولم ترجع الى قضاة المالكيّة الاّ نادرا (5).

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1138.
(2) البرزلي ،ن.م.، باب القضاء (النصّ المحقق : ش ك ب ، ص 65-66) .
(3) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1279.
(4) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج ا ، ص 196 ب .
(5) البرزلي ، **نفس الاحالة** (اطلق على العزّابة لفظة المرابطين) .

– ***الموثّقون والعدول*** : تعدّدت الوثائق المكتوبة في المجتمع الحضري ، نذكر منها الوثائق على الدّيون والغرامة والقسمة والدّية وكنس البير والسّواقي وأجرة القسّام والدلالين وحارز الزرع والكرم وقسمة الشركات وعقود الزواج والطلاق والأحباس والبيع والشراء (1) . ويمكن اعتبار التوثيق عنصرا أخر يفصل بين المدينة حيث سادت الحضارة الكتابية والبادية التي هيمنت فيها المعاملات الشفويّة، وان كانت لا تخلو بدورها من بعض الوثائق مثل عقود الشراء والزواج وغيرها.

وبالتالي فقد ظهرت بالمدينة مهنة الموثق ، وتجسّدت في ظهور " صناعة توثيقية " ، وانتاج عدد هائل من المصنّفات التي تخصّ كتابة الوثائق والعقود، ولعلّ أهم تأليف في العهد الحفصي هو كتاب الفائق في أحكام الوثائق لابن راشد القفصي.

وبرزت هذه الصناعة بالأندلس منذ عصر الخلافة، حيث انتجت مؤلفات عديدة في التوثيق لكل من ابن العطار وابن أبي زمنين وغيره . وفي الفترة الأخيرة اشتهر قاضي الجماعة بغرناطة أبو القاسم بن سلمون بتأليف في التوثيق ، بعنوان " العقد المنظّم للحكّام ".

كما كان القاضي أحمد بن عمّار البلسني (ت.691هـ) الذي وفد على تونس من الأندلس " **مفتيا عارفا بالتّوثيق** " (2).

أمّا الصّنف الثاني من الموثقين، فقد درس بالمشرق ، وتعلّم هذه الصّناعة وفق الطريقة المشرقيّة ،وقد مثّل هذا التيّار ابن راشد القفصي .

وتميّز الصنف الثالث بالتوثيق حسب الطريقة الافريقية ، ومثّله أبو اسحاق بن عبد الرّفيع صاحب كتاب مفيد الحكام(3).

وكثيرا ما ارتبط وجود القضاة والعدول بالمجال الحضري، دون غيره ، حتّى أنّ القرى التي لا تبعد عن تونس أكثر من أربعين ميلاً وكان عدد سكّانها في حدود 500

(1) أبو اسحاق ابراهيم الغرناطي ، **مسائل** ، ص 1225.
(2) الزركشي، **تاريخ**، ص 53، 103 .
(3) الزركشي، **ن.م.**، ص 70، 73 .ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 171 ب .تميّز خلال النّصف الأوّل من القرن الثامن هـ/ XIVم ، أحد عدول تونس ومدرسي اللّغة العربية بها هو أبو عبد اللّه بن الفوّاد ، بمعرفته لفقه الوثيقة وكتابتها .

نسمة، لا يتوفّر لديها عدول، وهو ما يجعل مهمّة قاضي المدينة عسيرة، للشّهادة في عقود الأملاك والديون والمهور والنكاح التي يحرّرها . وبالتالي فقد ارتبطت هذه القرى بسلطة القاضي ، لكن هذا الأخير عاش منقطعا عن البادية المحيطة به (1).

وابتداء من القرن الثامن هـ/ XIVم، أصبحت خطّة الشهادة رسميّة، تابعة لجهاز الدّولة، وصار الشهود يتمتّعون بنفوذ واسع، حتّى اعتبرت شهاداتهم بمثابة اشهاد للسّلطان، لكونهم ممثلين للسلطة المركزية (2).

ورغم رفض بعض شيوخ البدو المستقرّين بالقيروان اشهاد عدول السلطان في النّصف الأوّل من القرن الثامن هـ، فانّ ذلك يعدّ نشازا ، وخروجا عن المألوف، اذ نلحظ انّهم حظوا بمكانة اجتماعيّة هامّة بمدينة تونس، حتّى ذكر أنّ بعضهم كان يتحصّل على مائة دينار يوميا ، لكنّه تحرّيا في أخذ المال ، اقتصر على أخذ دينار يوميا وترك الباقي، على أنّ تحديد أجرة الكتاب لم تكن أمرًا واضحًا، فقد يطلب أكثر مما يستحق ، أو يقصّر الزّبون في دفع أجرته (3) .

ويقع الالتجاء الى الاشهاد على الوثائق أو على إمضاء القاضي وهويّته. وبالتّالي فقد كان الشاهدان بمثابة المعينين للقاضي . وكثيرا ما طرحت مسألة إثبات خطّ القاضي وشهادة الشّاهدين العدلين. وقد استشار العدول قاضي الجماعة في صلوحيتها عندما تكون خطوط الوثائق مجهولة. وفي هذا الصّدد كان القاضي ابن عبد السّلام ، يرفض قبول الوثائق غير المعرّفة، باستثناء الخطوط المعروفة مثل خطوط الشلوبين وابن عصفور لكثرة تكرّرها في القرن السّابع هـ/ XIIIم، وهو ما يعني أن الوافدين من الاندلس من مرسى شلوبينة قد تخصّصوا في كتابة الوثائق والخط بافريقيّة على عهد ابن عبد السّلام، وكان خطّهم الأندلسي مختلفا عن الخط الافريقي.

وكثيرا ما طرحت مصداقيّة الوثيقة بعد مضي نصف قرن من إصدارها ، وموت الموثّق، فأصبحت الحاجة ماسّة الى التحقّق من الخط وصحّة نسبته الى القاضي والعدول. وقد يؤدّي الاختلاف في اثبات الوثيقة أو نفيها الى جدل بين القضاة، مثلما حصل بالنّسبة إلى وثيقة شفعة قديمة بالمهديّة ترجع الى نحو 760 هـ، وقد طرحت المسألة بعد 50 سنة، وعارض الحكم أحد علماء الأصول ، وبرز

(1) البرزلي ، **ن.م.**، ج I ، ص 1264.

(2) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج ، ص 1191.

(3) ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص121. الابي، **الاكمال**، ج V ، ص 250–251 . ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV ، ص 1180.

جدل بين الطرفين، وهو ما تجسّد في تأليف البرزلي لمقالة عنوانها : « **تثقيف مقالة أهل الفتوى وتعنيف أهل الجهالة والدّعوى** " .

ومن جهة أخرى، فان التّشكيك في مصداقيّة الشاهد أو القاضي تؤدّي الى عدم الاقتناع بصحّة الوثيقة وامكانية رفضها كما فعل أبو العبّاس بن حيدرة (1).

كما أنّ الوثيقة المبتورة لا توجد فيها بسلمة في الأوّل ولا حاشية في الأسفل باطلة. وقد استراب بعض القضاة المعاصرين للبرزلي من هذا النوع من الوثائق، ولم يقبلوها الاّ بعد التمحيص والتدقيق . ولم تكن وثيقة الوصيّة مقبولة دون جدل، خاصّة اذا أوصى الرّجل عند مرضه للبعض دون الآخر. ولذا فقد اشترط فيها الاّ تكون بكل المال حتى لا يتضرّر ، وحدّدها ابن عرفة في الثّلث، غير انّه تراجع عن ذلك قبيل موته ، وأوصى بكامل ثروته ، فرفض ذلك السلطان أبو فارس ، مطالبا بحقّ بيت المال في أخذ ما زاد عن الثّلث .

ومن جهة ثانية ، فانّ الوصيّة لا تقبل اذا نقصتها شهادة الشّهود والعدول ، اذ اعتبرت الشهادة ركنا أساسيا في نفاذ العقد وفاعليته، بعد وفاة صاحب الخط (2).

ومن المسائل الأخرى المرتبطة بالوثيقة ضياعها أو تلفها أثناء الكوارث الطبيعية أو البشرية ، وهو ما يؤدّي الى صعوبة اثبات الملكيّة ، أو ماجاء في رسم الوثيقة بصفة عامة (3).

وتعتبر الوفاة أثناء الرّحلة الى المشرق من الأمور التي يعسر على القاضي الشهادة فيها، وقد جرى العمل بتونس أنّ بعض الوثائق دون غيرها تحتاج الى الشهادة على الخط، وخصوصا الأحباس بحكم قدمها وتداولها من جيل الى آخر، حتى أصبحت تطرح فيها مسألة صحّة الوثيقة. أمّا غيرها من الوثائق مثل عقود الزّواج وغيرها من الحقوق ، فانه يمكن الشهادة فيها على خط دون معرفة بصاحبه (4).

وتبعا لذلك، فانّ الوثيقة قد تتعرّض الى التّزوير ، مثلما حصل لأبي عبد الله ابن الفوّاد، وهو أحد شهود الدّيوان ومن مشاهير عدول تونس في النّصف الأوّل من القرن الثامن هـ/ XIV م، فقد قدم عليه رجل بوثيقة فيها دين على آخر بمبلغ كبير، وشهادة العدل ابن الفوّاد. لكن هذا الأخير لم يذكر أنّه شهد على هذه الوثيقة،

(1) البرزلي ، **ن.م.**، ج II ، ص 1250. ابن عرفة ، **المختصر** ، ج IV، ص 1174.

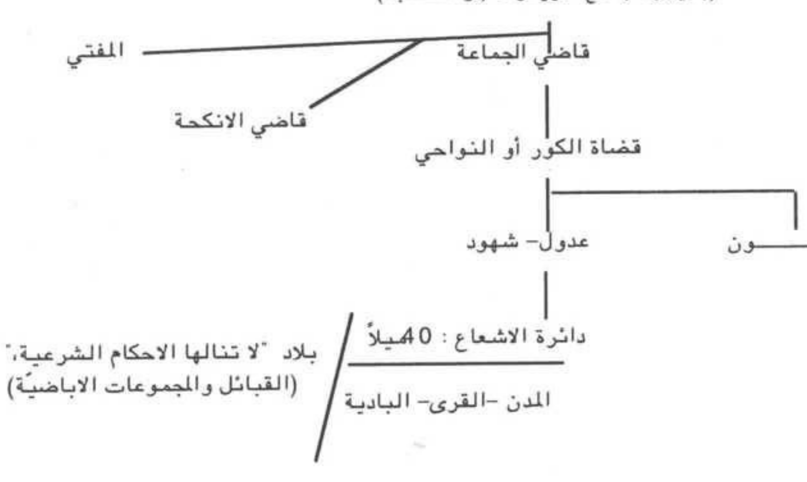
(2) البرزلي ، **ن.م.**، ج ، ص 115ب. 131 ب . ج II ، ص 133ب. القلشاني ، **شرح** ، ج II ، ص 190.

(3) **ن.م.**، ج II ، ص 1256 ، ج III ، ص 76ب ، 98 ب .

(4) المختصر ، **ن.م.**، ج IV ، ص 1175، 178ب .

وتحيّر في أمره خاصّة أنّ الخط طابق خطّه. وبعد أن قلّب الأمر على أوجهه، نظر اليها في ضوء الشّمس، فاتّضح له أنّ محلّ شهادته في الكاغذ ألصق الصاقا خفيّا بكاغذ ثان كتب فيه الدّين. وهي حيلة التجأ اليها الرّجل للحصول على المال، تبيّن طرق الغشّ الممكنة وقتذاك.

وفي الجملة فانّ خط الشهود والعدول من فترة الى أخرى وعمالة الى أخرى احتاج الى إثبات من قبل الشاهد نفسه اذا كان موجودا أو اثبات من قبل عدول أخرين اذا كان متوفيّا أو غائبا. على أنّ الشهادة على الخط لا تقبل الاّ من الفطن العارف بالخطوط وممارستها، دون أن يشترط فيها ادراكه لذلك الخطّ (1).



(1) ابن عرفة، **نفسه**، ج IV، ص171ب، 1174. (في رواية ثانية : ابن العوّاد).

II- التصوّف وظهور الزّوايا :

1- الرباط والمرابطون في العهد الحفصي :

لم تكن الرّباطات في بداية أمرها مجرّد منعزلات للزهاد والنسّاك، يتعبّدون ويتهجّدون فيها، إنّما كانت أولا حصونا ثغريّة لحراسة السّواحل وحماية الملاحة البحرية، مشكلة حلقات مترابطة من الاسكندرية الى طنجة، تزداد كثافة في المناطق الآهلة بالسكّان وذات الأهمية الاستراتيجيّة، مثل ساحل افريقية وجزيرة شريك وخليج تونس (1).

ورغم التطوّرات الحاصلة في نوعيّة المرابطين واندثار عدد كبير من الحصون، فانّ مراقبة الملاحة البحريّة على طول شواطئ البلاد وظيفة أساسيّة للحصون والرباطات والأبراج في أواخر العصر الوسيط، خاصّة بعد أن ازدادت حركة القرصنة تطوّرا. بل أنّ البعض منها شهد اعادة تعمير، مثلما رأينا ذلك، بنقطة وقصر زياد والحمامات ورفراف وغيرها، وذلك فضلا عن المحارس التي لا تتّسع الاّ لشخص واحد، والتي ذكرها التجاني قرب تَجُّفْت، بخليج قابس (2).

كما قامت هذه الحصون بدور إرشاد التجّار والمسافرين، ومما يذكر في هذا الصّدد أن أحد المراكب المتّجهة الى صقليّة أجبر على العودة والالتجاء الى حصن نكيلة وتسليم بضاعته الى قائد الحصن، بعد أن أشار له المرابطون بأنّ مراكب النّصارى قريبة من الموضع (3).

وأعتبارا لأهميّة الرباطات الدفاعيّة، فانّ التشريع لم يحبّذ سكنى الشيوخ الكبار غير القادرين على القيام بمهمّة الحراسة والعسس، التي تعتبر أساسيّة في الرّباط، فيما أجاز آشتغال المرابطين بالتجارة والزراعة وغيرها (4).

وتتّضح هذه الفاعليّة العسكريّة كذلك في تعريفات فقهاء العهد الحفصي للمرابطة. فالرّباط عند ابن عرفة هو موضع الحرس في الأوقات التي يتوقّع فيها العدو، والمرابطة هي سكنى هذا المكان بنيّة الحراسة وجلب الأهل اليه لهذا الغرض. أمّا الاستيطان العادي فهو لا يسمّى مرابطة، ولئن أقرّت مدرسة ابن عرفة المرابطة وما يتّصل بها من أعمال مثل رفع التكبير والذكر لإشعار العدوّ الذي يريد اقتحام الحصن بوجود عدد هام من المدافعين عنه الحذرين، فانّها شجبت سلوكيات المتصوّفة في اللباس الخشن الأسود والتطريب والتلحين والشطح، مفرقة بذلك بين مفهومي المرابطة والتصوّف الشعبي (5).

(1) أبو العرب، **طبقات**. المالكي، **رياض النفوس**. (2) التجاني، **رحلة**، ص 132.
(3) البرزلي، **ن.م.**، مخ 4851، ج II، ص 120 ب.
(4) الونشريسي، **ن.م.**، ج VII، ص 236.
(5) البرزلي، **ن.م.** ج I، ص 167 - 168 ب.

والمتتبّع للأحداث الحاصلة في السّواحل طيلة تلك الحقبة يلحظ أنّ الرّباطات رغم تفكّك وحدتها، حاولت أن تتصدّى للغارات البحريّة : ففي سنة 517 هـ/ 1123م تمكّن رباط الدّيماس من إلحاق هزيمة بالنورمان.

وفي نهاية القرن السادس وبداية السّابع هـ/ XIII م، ازدادت المرابطة بهيبون والمهديّة التي تعرّضت مرّات عديدة للغزو البحري، وفي سنة 701 هـ/ 1301م تعرّض قصر زياد لهجومات القراصنة القطلان، لكن أهله استبسلوا في حمايته إلخ...

وكنّا قد رأينا أمثلة عديدة حول اعادة التّعمير الحاصلة في القصور السّاحلية، ونشأة قرى حولها. وقد أصبحت هذه الحصون ملجأ للسكّان ومخزنا لمؤونتهم عند تفاقم الأخطار البحريّة، وذكرنا من ذلك حصون نقطة وقصر زياد والمحرس وغيرها (1).

غير أنّ المسار العام تمثّل في تفكّك الشبكة التقليديّة للأربطة والحصون، وفي تداعيها طيلة العهد الحفصي، والتفريط في نقاط الارتكاز المتقدّمة. وهو ما سهّل عمليات القرصنة والقطع والغارات البحريّة على السّواحل.

وممّا يذكر في هذا الصّدد أنّ جزيرة قوصرة تحوّلت في مطلع القرن التاسع هـ/ XV م الى قاعدة للاغارة على إفريقيّة، وأصبحت قاعدة " لأهل الحرب " من القراصنة الذين اتخذوا من جزيرة صقليّة مركزا لهم. وقد استشعر أهل افريقيّة بهذا التفوّق البحري للنصارى وبأنّ هذه الجزر أصبح ميؤوسا منها، حتّى أنّ البرزلي نصح بهجرة ما تبقّى من المسلمين بقوصرة وبهدم حصونها " **إذ لا يرجى مصيرها للمسلمين غالبا لاستيلاء النصارى على سائر جزائر البحر وقوّتهم** ".

وقياسا على ما قام به صلاح الدين الأيوبي من هدم سور عسقلان وبيت المقدس حتى لا تكون منعة للعدوّ، فقد أقرّ علماء إفريقية المبدأ القائل بأن كل حصن يلي بلاد العدوّ ويخاف عليه منهم، يهدم. ولذا هدمت خرائب قرطاجنة التي احتمى بها لويس التاسع بعد نهاية الحرب سنة 669 هـ/ 1270 م، وحاول البعض سحب هذا المبدأ على أسوار المهديّة لما تعدّدت الهجومات البحريّة عليها منذ مطلع القرن السّادس والى نهاية العهد الحفصي، وذلك بحجّة تحصّن العدو بها إذا ما

(1) راجع الفصل الأول الخاص بمفهوم القصر. الونشريسي، **ن.م**، ج VII، ص 233 (حصن لسكنى الصّالحين بقلّة، لم يبق فيه اليوم الا شخص واحد، بنى حوله دور، فصار حصنا لهم يمنعون فيه ما يخاف عليه من خزين ونحوه ويلتجؤون اليه عند الخوف من الاعراب ومن عدو الله).

تمكّن من أخذها، مما يعسر إخراجه، وعلى العكس من ذلك اذا وجد نفسه معزولا ومجردا من التّحصينات والاسوار (1).

وبالتّالي، فقد انحصرت المرابطة في الحصون والقصور السّاحليّة ذات العمران الكثيف، فيما أهملت أخرى وكادت أن تتحوّل الى خراب، ولم يتوان العلماء في الحثّ على المرابطة والتشجيع عليها (2).

إنّ هؤلاء المرابطين استشعروا وجود خطر مشترك من الاندلس الى ساحل بلاد الشام، فقد كان وقْع سقوط دمياط أثناء الحروب الصليبيّة قويّا لدى أحد المرابطين بساحل افريقيّة. وفي العهد الحفصي، كثيرا ما ترد إشارات فيها تحسّس المغاربة لما يحصل بالبلاد المصريّة، والعكس كذلك. أما قضيّة جلاء الاندلسيين، فقد كادت أن تكون معاناة مشتركة بين أهل الجزيرة والمغاربة، الذين هبّوا عديد المرّات لمحاولة وضع حدّ لهذا العدوان. وقد حاول سلاطين بني حفص بدورهم المساهمة في فكّ الحصار على بلنسيّة قبل سقوطها، وعلى غرناطة قبل حصول الكارثة سنة 1492م، فقد كان أبو فارس عبد العزيز يبعث بالمؤونة والبارود المخيّر وغيرها من أصناف الدّعم للأندلسيين.

وممّا يذكر في هذا الصّدد أن سينيّة ابن الابّار التي أنشدها أمام أبي زكريا الحفصي، ومطلعها:

أدرك بخيلك خيل اللّه أندلسا   إن السبيل الى منجاتها درسا

قد ظلّت عالقة في المخيال الشعبي طيلة القرون اللاّحقة، وبقي صيتها ذائعا في عهد ابن عرفة، الذي تولى تحليل بعض أبياتها مقرّا بأهميتها وبقيمة صاحبها، ناعتا إيّاه " **بالشيخ الفقيه المحدّث البارع** " (3).

وهكذا ظلّ مفهوم المرابطة حيّا، بل انه وقع تنشيطه في حقبة شهدت تطوّر القرصنة وازدياد الغزو البحري، ولم تعد مقتصرة على الحصون والرباطات والأبراج المنعزلة، مثل برج قمرت وجبل المنار حيث رابط أبو سعيد الباجي، انّما شمل كذلك العسّ في أسوار المدن مثل تونس والقيروان وسوسة، حيث انبرى بعض المتطوعين للقيام بهذا الأمر، وفي الحالات الحرجة، فرض على السكّان تداول العسّ (4).

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 163أ، قارن موقف البرزلي بموقف الونشريسي في الحث على الهجرة من الاندلس بعد سقوطها (ن.م.، ج II ص 119–135)

(2) القلشاني، **شرح**، ج II، ص 192أ (اعتبر أن الرباط في ثغور المسلمين وسدها وحياطتها أمر واجب).

(3) الترجمان، **تحفة الاريب**، ص 18، ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص IV ص 147أ.

(4) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 35 (حراسة الدكالي لسور سوسة)، الابي، **الاكمال**، ج II، ص 271 –280 (حراسة الخياطين لمرسى تونس من فوق جامع الزيتونة). **مناقب**، مخ 18555، ص 4ب (أبدى بعض الصلحاء موقفا متخاذلا، أثناء حصار الميورقي لمدينة تونس، فتولى صاحب الشرطة سجنه وجلده).

وحظيت بلاد السّاحل بأهميّة خاصّة، لموقعها الاستراتيجي وتعدّد الأربطة والحصون بها. ومنذ نهاية القرن السّادس هـ ومطلع السّابع هـ، تعوّد بعض شيوخ القيروان، مثل أبي يوسف الدّهماني على التردّد على رباطات شقانص والمنستير ولمطة وهيبون والمهديّة والمنية (قرب قصر زياد).

وفي النصف الأوّل من القرن الثامن هـ / XIVم، دأب العبيدلي على حراسة هذه السّواحل، فكان " **يخرج بأصحابه في الصيف للمنستير ومعهم آلة الحرب ويمشي على المكامن** " (1).

وقد رأينا أنّ هؤلاء الأعراب، مثل العبيدلي والدهماني، لعبوا دورا هاما في التصدّي للعدوان البحري ومقاومته.

غير أنّ هذا التّواصل لا يخفي علينا أزمة الرّباطات الحاصلة ابتداء من أواسط القرن السّادس هـ/ XII م، والمتمثّلة في اندثار العديد منها وإهمال أراضي الحمى بها، وعدم قيام كثير من المرابطين بالوظائف المخصّصة لهم، وصولا الى الانزلاق البطيء الحاصل من الرّباط الى الزّاوية، ويأتي رباط المنستير مثالا على هذا التطور.

2) أزمة الرباطات : مثال المنستير :

أحيطت هذه الأربطة منذ عهد مبكّر بأراضي الحمى التي استغلّها المرابطون وعاشوا منها مقابل أدائهم لوظيفتهم الأساسيّة وهي مراقبة السّواحل وحمايتها، غير أنّه ابتداء من القرن السادس هـ/ XII م، شهدت هذه المؤسسة تطوّرا في وظائفها وفي نوعيّة النّازلين بها، كما تبيّنه القضيّة المطروحة على الفقيه المازري.

فقد أصبح أغلب المرابطين ينحدرون من الفئات الاجتماعيّة الرثّة التي لا عائل لها، حتى أضحت المرابطة وسيلة لحلّ مشاكلهم الاجتماعيّة من سكن وغذاء، ومصدر عيش لهم إذ مكنتهم من التحصّل على مزرعة يستغلّونها مباشرة، وذلك فضلا عن الرّيع المتأتي من أرض السّبيل وأجرة عملهم على أنّ الحصول على هذه المزرعة اقترن بشروط عديدة ذات صلة بأحكام شركة المغارسة واحياء الارض، وأهمّها :

– أن يكون المرابط فقيرا، في حاجة الى معونة ماديّة، فيما يقتصر انتفاع الأثرياء من المرابطين على زراعة مبقلة وجلب الماء والحطب.

– أن يأخذ من ثمرتها ما يكفيه، ويصرف الباقي على الفقراء والمساكين بالحصن.

– أن يتولّى غراستها حتّى الاطعام، دون تملّك نهائي لها (2).

(1) ابن ناجي، **ن.م.**، IV، ص121.

(2) البرزلي، **ن.م.**، جIV، ص 121.

كما أوصى المازري بنزع ما تملّكه الأثرياء من الزياتين، ومنحه للفقراء من المرابطين اذا ما أحسنوا خدمة الغرس، مؤكدا على ملكية الحصن لهذه الاراضي، وحقّ الانتفاع للمرابطين.

وممّا لا شك فيه أنّ طرح هذه القضيّة وقتذاك ينبئ باعادة تعمير الحمى، وحركيّة جديدة ناجمة عن التجاء كثير من أهل البادية والمدن الدّاخلية الى الرباطات اثناء الاضطرابات، وبالتالي، فقد أحدثت جنّات عديدة حول المدينة منذ بداية القرن السّادس هـ / XII م.

غير أن الشروط التي وضعها لم تؤخذ بعين الاعتبار، ذلك أنّ عملية استصلاح الأرض وغراسة الزّيتون أسفرت عن نشأة فئة من المرابطين الأثرياء المتشبّثين بملكياتهم، والرّافضين التّفريط فيها، بعد مرور نحو ثلاثة قرون من الزّمن.

ولّما طرحت قضيّة الجنّات المحدثة بالمنستير على ابن عرفة، كان " **يقف على الجواب في أرض المنستير ومغارسها ومحرثها** ". واتّبعه في ذلك تلميذه البرزلي، معترفا بصعوبة الحلّ، قائلا : « **هذا السؤال من أصعب ما يتكلّم فيه المفتي لأنه طالت الأزمان بهم وهم فيه على غير المنهج الذي يقتضيه الفقه** » (1).

وبالتّالي، فقد اتّسعت ملكية المنستير، وامتدّت غابة الزيتون المحبّسة عليه الى أكثر من 5 كم غرب المدينة وجنوبها، وصولا الى الموضع المسمّى القرطين. غير أنّ هذا التّعمير شهد تراجعا بفعل الآفات والكوارث الطبيعيّة والبيئيّة والنّزاعات الدّاخلية. ففي بداية تولّي أبي فارس عبد العزيز الحكم، نشب نزاع بين عرب المدينة والمرابطين، بسبب رفض الطرف الأوّل تحبيس الأراضي والدور الواقعة بالبلد على الرّباط، وقد أدّى هذا النّزاع بين أهل المدينة والقصر الى انهزام الطرف الثاني ورحيل أهل الرباط عن القصر وتلاشي الغروس. على أنّ السلطان أبا فارس استغل هذه الظرفيّة لوضع يده على جانب من أملاك الرّباط، التي استعملها لترميم القصر وإعادة بنائه (2).

والحقيقة أنّ هذه التطوّرات الحاصلة بنظام الملكيّة في حمى الرباط خلال القرنين السّادس والثامن هـ لم تكن في منأى عن تطوّر الأوضاع الاجتماعيّة ومفهوم المرابطة.

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج ا، ص 56 ب – 157. الونشريسي، **المعيار**، جVII، ص 179

(2) البرزلي، **ن.م.**، ج ا، ص 58 ب. الزركشي، **تاريخ**، ص 116.

فمنذ القرن السّادس هـ/ XIIم، أضحت مخازن " القصر الكبير " بالمنستير مستودعات لحبوب المرابطين ، لمدّة فاقت أحيانا الشهرين، واقتصر البعض منهم على سكنى الرّباط، فيما تغيّب البقيّة عنه ، واستقروا بمنازل خارجه . وهي تصرّفات غير مقبولة في نظر المازري، لأنّه لا يصحّ خزن أكثر ممّا يحتاجه المرابط من المؤونة حتى لا يقع تحوّل المرابطة الى تجارة ، ولأنّه يتعيّن عليه التواجد بالمؤسّسة للقيام بدوره .

وفي الجملة، فقد أهملت شؤون القصر، حتى أصبح يفتقر الى إمام للمسجد ومسيّر حازم، ولم تعد حراسته سوى ذريعة لتملّك الأرض والسّكن أو ايداع الحبوب، وأخلّ الكثيرون بواجباتهم فأصبحوا يكتفون بالتّواجد لبضع ساعات داخل القصر لاخراج حاجة منه، ثم يبيتون خارجه بمنازلهم، فيبقى المعلم دون حراسة في الليل ، مع الملاحظة أنّ حراسة الرباط لا تقتصر على الأبراج والمنارة، انّما تستوجب الحضور المكثف في الّليل للدفاع عن المؤسّسة اذا ما داهمها خطر . وهكذا تحوّلت هذه العمليّة الى ملاذ للمتعطشين للثروة والبؤساء المهمّشين (1).

ويبدو أنّ هذه الوضعيّة استفحَلتْ طيلة القرن السادس هـ/ XII م، اذ أنّ رباط شقانص أصبح في آخر هذا القرن وكرا للفساد، حيث كان " **هناك شبّان يتعاطون ما يتعاطاه غيرهم من المفسدين من اللّهو** " ، فضلا عن قيامهم بسرقة بعض المراكب ، ممّا أثار ردّ فعل والي المهديّة الذي أمر بتأديبهم (2).

أمّا في العهد الحفصي، فقد أدّى وقوع الطاعون الجارف الى تضاؤل عدد المرابطين ، حتى أنّ الحصن صار عاجزا عن اقامة صلاة الجمعة لقلّة النّاس وعدم وجود علماء قادرين على الامامة، وأصبحت أغلب المساجد الموجودة داخله غير عامرة، بعد أن طرحت مسألة أولويّة المسجد الأعظم به. وحاول شيخ الرّباط وقتذاك تفادي هذه الوضعيّة، فمنع الصّلاة خارج المساجد وأمام الحصن ، اذا كانت المساجد غير عامرة.

ولئن تمكن من اعادة تحريك السواكن وجمع نحو مائة من المرابطين ،

---

(1) البرزلي ، **ن.م.**، ج I ، ص 55ب–156.

(2) الدبّاغ ، **مناقب الدّهماني** ، ج I ، ص 140. وقد حصل الشيء نفسه ببعض حصون المغرب الاقصى ، راجع : الونشريسي، **ن م.**، ج VII ، ص116 .

وتحبيس عديد الاراضي مثل هنشير بن منصور بالمهدية وأخرى بتوزر ، فانّ هذه الحقبة مثّلت منعطفا هامّا في تطوّر الرباطات : فقد تحوّل الرّباط الى زاوية وقائد الحصن الى شيخ زاوية رباط المنستير(1).

انّ هذا الانزلاق من الرّباط الى الزّاوية قد حصل في خضمّ أزمة القرن الثامن هـ/ XIVم، وأدّى الى تطوّر في المصطلح : فقد أصبح مفهوم أهل الرّباط والمرابطين يطلق على شيوخ الزّوايا والفقراء بها، أمّا المؤسّسة نفسها ، فقد تحوّلت الى زاوية ، وهو ما حصل بالقصر الكبير بالمنستير وبعديد الرباطات بجهة صفاقس (2).

وبالتّالي فقد عوّضت الزاوية التي نشأت منذ القرن VIIهـ/ XIII م ، الرّباط في وظائفه وهو ما يعني انتشار الفكر الصّوفي المالكي بين المرابطين معوضا بذلك زهد المالكيّة وتعبّدهم، فما هي الخصائص الأساسيّة للتصوّف وقتذاك ولثقافة الزّوايا ؟

3) التصوّف وظهور الزّوايا :

حدّد ابن مرزوق هذا المفهوم فقال : **«والظاهر أنّ الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدّة لارفاق الواردين واطعام المحتاج من القاصدين. وأمّا الرّبط على ما هو المصطلح عليه في المشرق، فلم أر في المغرب على سبيلها ونمطها الاّ رباط سيدي أبي محمد صالح والزّاوية المنسوبة لسيّدنا أبي زكريا يحيى بن عمر بسلا غربي الجامع الاعظم منها، ولم أر لهما ثالثا على نحوهما في ملازمة السكّان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر»** (3) .

ومن المعروف أنّ المتصوّفة تواجدوا بافريقية منذ العهد الزيري، ففي خبر أورده البرزلي، قام المعز بن باديس بتتبعهم وقتلهم . ويبدو أن هذه الجذور ظلت حيّة في العهد الحفصي (4) .

---

(1) راجع مقالنا : حول وثيقة في التاريخ الريفي: تحبيس هنشير بن منصور بالمهدية على رباط المنستير، **المجلة التاريخية المغربيّة** ، عدد 50 . ابن ناجي ، **معالم** ، جVI ، ص 173 (خديم قصر المنستير) .

وتوجد احباس أخرى على مساجد المنستير الى جانب أراضي السّبيل ، خصّصت غلّتها لوقيد المساجد الموجودة بقصر المنستير . انظر البرزلي ، **ن.م.** ، ج I ، ص 1120.

(2) راجع الفصل الأوّل : الفقرة الخاصة بالقصور.

(3) ابن مرزوق، **المسند** ، ص 413،411 . واُختلف في جذور تسمية الصّوفية، فمنهم من نسبها الى أهل الصّفّة أو الصفّ المقدّم بين يدي اللّه أو الصّفا أو الصّفوة ومنهم من ربطها بلباس الصّوف . وقد ظهرت لأوّل مرّة بالبصرة في القرن الثاني هـ، مع أصحاب الحسن البصري . البرزلي ، **ن.م.**، ج II ، ص 363 ب .

(4) فسّر المتصوّفة في العهد الحفصي هزيمة المعز بن باديس بمعركة حيدران بحجّة واهية تمثّلت في دعاء المتصوّف أبو الفضل بن الحسن من مصر على ابن باديس، على اثر قتله لأحد المتصوّفة بافريقيّة : البرزلي ،**ن.م.**، ج IV، ص 365 ب .

على أن الزّاوية ظهرت بالمغرب الاقصى في أواخر العصر المرابطي وبداية العهد الموحدي، ومنها انتشرت في افريقية، عبر موجتين أساسيتين : الأولى تمثّلت في تلامذة أبي مدين شعيب ومثّلها : أبو يوسف يعقوب الدّهماني وأبو علي النفطي والطاهر المزوغي ومحفوظ بن جعفر وابن هناص وسالم التباسي وعبد العزيز المهدوي، والثانية خصّت شيوخ الاربعين والشرف الذين أخذوا عن أبي الحسن الشاذلي الوافد على البلاد من المغرب الاقصى .

وهناك نشأت الزّوايا في وسط بربري : فقد اُعتبر أبو يعزى يلنّور بن عبد الله الذي نشأ بتاغية شمال تادلا من بين الأوائل الحاملين للفكر الصّوفي بالمغرب الاقصى . وكان لا يحسن اللّغة العربيّة، وممّا ورد في المصادر قوله " أشك أركاز الأندلسي " (تلف الرّجل الاندلسي ، يعني أبا مدين شعيب) . توفي سنة 572 هـ / 1176م..

وذكر ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير : **« سألتُ عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في الأراضي التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ، فوجدتها متعدّدة باعتبار تعدّد الأشياخ، وأقرب ما ترجع اليه ستّة »**، وهي على التوالي :

– الشعيبيون : وهم طائفة أبي شعيب أزمور، من أشياخ الشيخ أبي يعزى .

– الصنهاجيون : من طائفة بني أمغار من بلد تيطنفطر، من أصحاب أبي شعيب "أزمور"

– الماجريون : وهم طائفة أبي محمد صالح ، ومنهم الدكاليون، وتعتبر زوايا أبي محمد صالح الماجري المتوفى سنة 631 هـ/ 1234م، والتي عددها نحو ستّة وأربعين ، من أقدم الزوايا المغربية التي انتشرت في كامل البلاد .

– الحجّاج : نسبة الى الحج الى مكة .

– الحاحيون : ومنهم جملة من جبل درن ، وهم طائفة الشيخ الحاج أبي زكريا يحيى بن أبي عمرو الحاحي توفي بتيغزا من بلاد حاحة في آخر القرن VII هـ/ XIII م، اهتموا بالتهذيب والفرائض والحساب : **" وتغالي الجهلة من تلامذته في تعظيمه وتحقيقه وشدّة اقتدائهم بجزئياته وتغليظه وترقيقه وقوّة انقباضهم عمن خرج عنه في تغريبه وتشريقه »**.

– الغماتيون : طائفة الشيخ أبي زيد عبد الرّحمان الهزميري : دفن داخل فاس (ت 706هـ).

وقد حضر ابن قنفذ اجتماعا لهذه الطوائف سنة 769 هـ/ 1367 م، على ساحل المحيط شمال اقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد " تيطنفطر " (1) .

(1) ابن قنفذ ، **أنس الفقير** ، ص 63-66 .

وساعدت الرّباطات المنشئة سابقا على طول السّواحل على سرعة تقبّل هذه الحركة، وما أن جاء القرن الثالث عشر حتّى انتشر التصوّف في إفريقيّة ، وبرز مع أحد أعلامه الأوائل وهو أبو مدين شعيب بن الحسين، إشبيلي الأصل التقى بالمتصوّفين في مكّة، ثمّ استقرّ ببجاية حيث تفرّغ للعلم والتزهّد الى حدّ وفاته بتلمسان سنة 594 هـ/ 1198م .

وقبل موته بسنة، ولد أبو الحسن الشّاذلي في قبيلة غمارة . وبعد نشأته الأولى وتعلمّه، تحوّل الى تونس واستقر بقرية شاذلة . وسرعان ما حظي بقبول السّلطة الحفصيّة، رغم معارضة علماء الزّيتونة له، وتمكّن من تكوين حلقة من المريدين، ونذكر من ضمنهم الأربعين . وقد تركهم في مدينة تونس حين سافر الى المشرق (1).

وكانت قد برزت في تلك الفترة أسماء كثيرة من المتصوّفة الأفارقة منهم أبو سعيد خلف التميمي الباجي وعلي الحطّاب وعائشة المنوبيّة بمدينة تونس، وأبو علي النفطي بالجريد ، وأبو يوسف يعقوب الدّهماني بالقيروان وطاهر المزوغي بقصور السّاف إلخ...

تلك هي البداية التاريخيّة لحركة التصوّف المغربيّة التي أصبحت تهدّد المذهب المالكي ، الذي تصدّى لها محاولا إيقاف هذا المدّ خلال القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م، لكن الزوايا ما انفكّت تتعدّد طيلة تلك الحقبة المتميّزة بالانغلاق واستمرار الأزمة الاجتماعية والثقافية .

ومما زاد في تدعيم نفوذها خلال القرن التاسع هـ/ الخامس عشر م، هو حملها للواء المقاومة ضدّ الاسبان والبرتغال، في فترة احتدم فيها الصّراع بين الاثنين وخاصّة في المغرب الأقصى ، التي انتشرت فيها الحركة أكثر من غيرها .

وبديهي القول إنّ التيّار المغربي مثّل عاملا أساسيّا في عودة الصوفيّة الى افريقيّة وانتشار الزوايا. وفضلا عن دور أبي الحسن الشاذلي وأبي مدين شعيب بدأت تتسرّب الى افريقيّة عدّة فرق أخرى ، من ذلك :المذهب الزّكراوي بافريقيّة في أواسط القرن الثامن هـ/ XIV م وقد سمّي كذلك نسبة الى مؤسّسه أبي زكريا يحيى بن أبي عمر الحاحي . ولئن اختلفت المصادر في نسبه الصحيح ، فانّها اتّفقت على كون مقرّ الزّاوية بسلا ، فيما وجد ضريح أبي زكريا ببلاد حاحة. وقد انتمى أبو زكريا الى طريقة أبي مدين شعيب ، لكن هذه الفرقة الحاحيّة سرعان ماانقسمت الى ممارسات مختلفة بين الخاصّة والعامّة :

(1) **مناقب**، مخ 18441، ص 134.

– فالصّنف الأوّل مثله أبو العباس بن عاشر وحفيد أبي زكريا صاحبُ المذهب بسلا، وكان ابن قنفذ قد اجتمع بهما بناحية مراكش سنة 768 هـ/ 1366م .

– أمّا العامّة ، فقد نعتهم ابن مرزوق بكونهم " **جهلة رعاع لا يفقهون ولا يفهمون ، نقلت عنهم أمور لا ينكر صدورها منهم** " .والتالي ، فقد شجب العلماء عادات الزاويـة الزّكراوية وطقوسها في القرن الثامن هـ/ XIV م، وتعرّض المنتسبون اليها بافريقية الى التتبّع والمحنة، من ذلك ما حصل لأبي الربيع سليمان بن سالم النفوسي البربري المتوفّى سنة 766 هـ، ولصاحبه أبي حفص عمر بن بركات الكناني اللذين أتّهما بالانتماء الى المذهب الزكراوي ، "**خارجين عن اعتقاد أهل السنّة** " ، وأعلم أعداؤهما السلطة المركزية بهذا الأمر (1).

ولئن كنا لا ندري مدى صحّة ذلك، فالواضح أنّ الفرقة التي ظهرت بحاحة منذ نهاية القرن VII هـ/ XIII م، وذكرها ابن مرزوق سنة 748 هـ وابن قنفذ سنة 768 هـ قد عرفت صدى لها بافريقية في نفس تلك الحقبة. وهو ما يأتي دليلا على مدى سرعة انتقال الأفكار في البلاد المغربية .

على أنّ التأثيرات المشرقية لم تكن غائبة في هذا المجال، وان كانت أقلّ أهميّة على ما يبدو من التيّار المغربي– الاندلسي. فقد ذكر ابن تيميّة فرقة تميّزت بالزعق والكلام غير المفهوم، أثناء اجتماعهم للسّماع واستعمال حبّ القرنب وجوزة الطيب المفسدة للعقل، كما ذكرت القرندليّة وهم قوم لا يشتغلون بذكر أو عبادة، انما أقبلوا على الغناء والانشراح والأكل والخلاعة، وقد أقرّ البرزلي بوجود فرقة شبيهة بهم بافريقية في مطلع القرن التاسع هـ/ XV م، تسمّى العسكريّة ، شجب سلوكياتها كلّ من ابن عرفة والبرزلي (2) .

وثمّة صنف آخر أكثر اعتدالا وأتزانا ، يمثّله هؤلاء الذين " **يشار اليهم بالخير** " ، وقد تعوّدوا عند أجتماعهم على القراءة والذّكر والانشاد، ومدح النبي أو أحد الصّحابة أو أحد الاعلام البارزين. وقد دأبت مجالسهم في مختلف المدن على قراءة المواعظ والرّقائق والزّهد والسّير وكتب الجوزي والشّفا في الزّوايا والمساجد، ولم تخْلُ بعض هذه المجالس من النّساء اللاّتي أجتمعن في موضع خاص بهن يفصل بينه وبين مجلس الرجال ستارة . على أنّ العلماء أستنكروا ذلك

(1) ابن مرزوق ، **المسند** ، ص 252–253 ، 413. ابن قنفذ ، **أنس الفقير** ، ص 64–65 . ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ص 159.حليمة فرحات ، التاريخ والمناقب ، تأليف جماعي : **المناقب كمادة تاريخيّة** ، ص 60 .

(2) البرزلي ، **ن.م.**، ج II ، ص 1364. علّق ذلك بقوله « فيهم جهالات ينسبونها الى أوائلهم وزوايا يخلطون النّساء معهم، وقوم يأكلون ويشبعون ويقومون يردحون ويخوض بعضهم في بعض وربّما تكلّموا بما لا يفهم ». ونلاحظ تطابق الاسم مع فرقة العسكريّة الاباضيّة : ابن الصغير، تاريخ، ص 44 .

ورفضوه، كما أحترزوا من أغلب الممارسات الصّوفيّة، ولم يقبلوا منها الاّ ما تعلّق بالذكر وقراءة القرآن، مثلما كان يفعل المتقدمون من أهل القيروان بمسجد السّبت ومسجد الخميس. وقال البرزلي معلّقا على هذه الممارسة :« **رأيت كثيرا من أشياخنا ليست هي طريقتهم ولكنهم لا ينكرون من فعلها** » (1).

وهو ما يدعونا عرضا الى تصحيح خطإ شائع حول ظهور الطّرق الصوفيّة التي أرجعها الكثير من الدّارسين الى العهد الحديث، فكلّ من المصطلح والتنظيم الطرقي موجود منذ القرن الثامن بافريقية والمغرب الأقصى (2) .

والحقيقة أن الأزمة الهيكلية التي مرّ بها المجتمع المغربي الأندلسي وقتذاك ساعدت على أنتشار الصّوفية والطرقية بمختلف أصنافها ، بين سائر فئات المجتمع .

4) جدليّة العلماء والمتصوّفة :

صحيح أن فئات عديدة تعرّضت لها بالنّقد والتجريح ، ولم تُول احتراما للزوايا وشيوخهم ، وأهمها العلماء والبدو وبعض الفئات الشعبيّة في المدينة، غير أنّ " **الاقطاع الصّوفي** " تمكّن من ترسيخ أواصره في حاشية السلطان ولدى الفئات الحضريّة على حدّ سواء، نظرا إلى طبيعة الأزمة الهيكلية التي مرّ بها المغرب وقتذاك ، ولم يخرج عن دائرته كبار العلماء مثل ابن عرفة .

أمّا البرزلي ، فانّه تعوّد على قراءة الحزب الكبير وحزب البحر وحزب أبي طالب للشاذلي ، وهي الأحزاب التي جَعَل المتصوّفة يقرؤونها في أوقات معيّنة ، بل أنّه أضاف اليها أذكارا وأدعية أخرى (3) .

كما اعتبر البرزلي أبا الحسن الشاذلي من خيار الشيوخ ومن " **علماء المتصوفة وأهل الحقائق الباطنة من غير مراعاة للظاهر في بعض الأحوال الواردة عليه** ". وعدّه من العلماء الذين حازوا شرف الطريقتين العلمية والعمليّة ، وانتقل من علم الاحكام الى الطريقة التي أصبحت تنعت بالشاذلية (4).

وبالتالي فان العلاقة بين العلماء والمتصوّفة لم تعد تناقضيّة كما حصل في عهد الحلاّج الذي قتله الفقهاء، كما انّها لم تصبح متجانسة، انّما تميّزت بالاختلاف والتداخل في العهد الحفصي .

(1) **نفسه** ، ج II ، ص 1364، 1365، 1366.

(2) راجع : ابن قنفذ ، **أنس الفقير** ، ص 63–66. حول افريقية ، راجع الفصل اللاحق .

(3) القلشاني ، **شرح**، ج II ، ص 156ب . البرزلي ، **ن.م.**، IV ، ص 375 ب . فقد كان ابن عرفة يقول : " ما أدركت مبرزا الاّ شخصين : سيدي أبي الحسن المنتصر بتونس وسيدي أبي العباس بن عاشر بسلا " .

(4) البرزلي، **ن.م.**، ج IV،ص 1374 374 ب ، 375ب.

وفعلا تعدّدت تصنيفاتُ أهل العلم والمنتسبين الى الصلح والمرابطة .فقد قام أحد فقهاء العصر ، وهو أبو القاسم البرزلي ، بالتصنيف التالي :

– علماء الظاهر: وهم الفقهاء والقضاة والمفتون وغيرهم الذين أعتمدوا الكتاب والسنّة والمنطق في تفسيراتهم وفتاويهم . وكانت لهم مكانة اجتماعيّة كبيرة في المدن والبوادي ، نتيجة دورهم الاجتماعي والسّياسي وقوّة نفوذهم . وقد أخترقت شُهرتهم أحيانا الآفاق لتصل الى سائر البلاد الشرقيّة والمغربيّة–الاندلسية .

– علماء الباطن : وهم الصّلحاء والأولياء الذين أستمدّوا نفوذهم من تقواهم، لعدم تحمّلهم مهام ووظائف (من قضاء وافتاء وتدريس وأعمال مخزنية وغيرها) . ولئن وجدت رتبيّة داخلهم ، اقترنت بمدى شهرة كل واحد منهم، فالخمول هو الغالب عليهم في حياتهم، وان كان قد تحوّل الى شهرة بعد موتهم، اذ يقع تناقل أخبارهم بكثير من المبالغة ، فتظهر الكرامات ويختلط الواقع بالوهم. وتساءل البرزلي عن حقيقة الكرامة، وطرح القضيّة على شيخه ابن عرفة الذي توقّف عن الاجابة. وهو ما يأتي برهانا على وقوع العلماء تحت وطأة الخوارق (1).

وفي موقع آخر من كتابه ، صنّف البرزلي أهل التصوّف الى ثلاثة :

– قوم على مذهب السنّة مثل الغزالي وابن عربي وابن سبعين وأبو الحسن الشاذلي

– وآخرون على طريقة أهل الكلام .

– وصنف ثالث خرج الى طريق الفلسفة مثل من سلك مسلك رسائل اخوان الصّفا (2) .

وأورد ذكر رتبيّة ثانية للعلماء والمرابطين فرّقت بين :

– أصحاب الحديث : وهم الذين تعلّقوا بالحديث الذي أعتبر أساس الدّين .

– الفقهاء : عدّوا حكام الدين وأعلامه ووقع تفضيلهم على المحدّثين بما خصّوا به من الفهم والاستنباط في فقه الحديث وتدقيق النظر في ترتيب الأحكام وحدود الدّين وتمييز النّاسخ والمنسوخ والمطلق والمقيّد والمجمل، والخاصّ والعام، والمحكم والمتشابه إلخ...

– الصّوفية : اتّفقوا مع الطائفتين في عدّة جوانب من المعرفة، غير أنّهم خصّوا بمقامات وبعلوم الباطن . ولذا فقد عدّهم بعض العلماء مثل عزالدين بن عبد السلام

(1) البرزلي ،ن.م.، ج IV،ص 352 ب.
(2) ن.م.، ج IV ، ص 1252.

واتّبعه في ذلك البرزلي ،أفضل من علماء الاحكام والفقهاء لأن هؤلاء ينظرون الى الظاهر فقط فيما يطلب المتصوفة حقائق الأمور .

وثمّة رتبيّة عموديّة داخل المتصوفة أخذت بعين الاعتبار مسألة المعرفة الباطنيّة، ففرّقت بين : مريد طالب (صاحب وقت) ومتوسّط سائر (صاحب حال) ومُنْتَه واصل (صاحب يقين) (1).

وفي محاولة توفيقية بين العلماء والصلحاء ، قال أبو علي سالم القديدي ، صاحب الزاوية القديدية بالقيروان VII هـ/ XIII م . **« ليس بين المتصوفة وعلماء الظاهر مباينة اذ كل واحد منهم على طريقة »** (2) .

والواضح أن هذه التصنيفات المختلفة تخفي وراءها تباينًا بين تيارين ثقافيين : العلماء والمتصوفة ، ومدى تسرّب التيار الصّوفي الى صفوف العلماء "المحافظين" غير أن هؤلاء أنفسهم لم يفرّطوا في موقعهم ، وكثيرا ما شجبوا أعمال الشعوذة والوهم .

– محاربة العلماء لبدع المتصوفة والأولياء : غالبا ما وقف العلماء موقف المحترز من سلوكيات المتصوفة والمرابطين بالزّوايا، شاجبين البدع المنتشرة من سماع وغناء ورقص وكرامة ولباس المرقعة . ورغم اعتقاد البعض منهم في صحّة بعض الممارسات الوهميّة للمتصوّفة، فانهم أستنكروا البدع ولم يخرج البرزلي عن هذا الاجماع ، معتبرا ان ما يقوم به « ممن ينسب الى الرّباط في عصره فيه كثير من البدع » وهو ما جرّه الى تحديد مفهوم البدعة اعتمادا على رأي ابن تيميّة (القرن VII هـ/ XIII م) الذي كان من أشدّ أعداء الصوفيّة (3).

وأعتبرت مسألة السّماع محكًا لهذا النزاع بين العقل والوهم، الفقهاء والمتصوّفة . لكن العلماء لم يتمكّنوا من الوقوف موقفا موحدا تجاه التيّار الذي

(1) ذكر البرزلي من بين هذه المقامات التوجه والزهد والورع والصبر والرضى والتوكّل والمحبّة والخوف والرّجاء والمشاهدة والطمأنينة واليقين والقناعة والصّدق والاخلاص والشكر والذكر والفكر والمراقبة والاعتبار والوجد والتعظيم ، أما العلوم فهي تخصّ حقائق الاذكار وتجديد التّوحيد والعوارض والعوائق : البرزلي ، ن.م.، ج IV، ص 1363 . وذكر ابن تيمية انقسام الصوفية الى ثلاثة أصناف : صوفية الخفاف والارزاق والرّسوم وجاء تصنيف الصلحاء لأهل العلم مغايرا شيئا ما لتصنيف الفقهاء، اذ وضعوا في المرتبة الأولى الأولياء، وحسبما ذكر القرمبالي ، فانّه صنّف العلماء الى ثلاثة : الأولياء : وهم العالمون بالله وبأمر الله ، وبهذا حازوا معرفة الظاهر والعمل بما علموا.

– *الفقهاء* : وهم العلماء بأمر الله فقط .

– *المتصوّفة* : وهم العلماء بالله لا بأمر الله .

البرزلي، ن.م، ج IV، ص 355ب. 415ب.

(2) البرزلي، ن.م.، ج IV، ص 1374–374ب .

(3) البرزلي ، ن.م.، ج IV، ص 263 ب

أزداد أستفحالا باحتداد الازمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهيمنة "الاقطاع المرتجع" على شتى مظاهر الحياة. ولذا أختلفوا في مسألة السماع، فأعتبره البعض مباحا لكونه غذاء روحيًا، وشجبته الأغلبيّة، ورأت أنه في حكم المكروه أو المحظور(1).

وكان ابن تيميّة من أهم فقهاء السنّة الذين حاربوا السّماع، معتبرا أن الدين الاسلامي لم يشرّع للنّاس الاجتماع على غناء أبيات ملحّنة مع تصفيق بالايدي وضرب على الدف والمزمار، متخلّلا ذلك البكاء وغيره.

وقال الفقيه المصري عزالدين بن عبد السّلام (ت.660هـ/ 1262م)عن الانشاد والرّقص والبكاء والصّياح أنّه بدعة لا تصلح الاّ للنّساء وهي ظاهرة مستفحلة في عصره. فكان هؤلاء المتصوّفة " **يجتمعون في وقت، فينشد لهم منشدا أبياتا في المحبّة وغيرها، فمنهم من يتواجد ويرقص ومنهم من يصيح ويبكي ومنهم من يغشاه شبه الغيبة عن احساسه** " (2).

كما أستنكر فقهاء المغرب الاقصى هذه البدع، التي أصبحت تعقد ليلة المولد النبوي (3).

وفرّقوا بين طائفتين من المرابطين:

– طائفة مكوّنة من الجهلة التي تستحوذ على أموال الناس، وتمارس الغناء والرقص، موهمين الجهّال بأنّه تقرّب الى الله.

– وثانية أكثر خطورة، تقدح في الوظائف الشّرعيّة وتبيح المحرّمات، وهي من الكفّار (4).

---

(1) **ن.م.**، ج IV، ص 1359، محمد الشاذلي التونسي، **فرح الاسماع برخص السّماع**، تونس 1985.

(2) **نفسه**، ج I، ص 64 ب.

(3) وكان من بينهم الفقيه أبو عبد الله محمد الحفّار، الذي قال في هذا الشأن: « وطريقة الفقراء في هذه الاوقات شنيعة من شنع الدّين لان عهدهم في الاجتماع انّما هو الغناء والشطح .. وهم قوم جهلة لا يحسن أحدهم أحكام ما يجب عليه في يومه وليلته. وهم يكذبون في ذلك عليهم ليتوصّلوا الى النّاس بالباطل، فصار التحبيس عليهم ليقيموا بذلك طريقتهم تحبيسا على مالا يجوز تعاطيه ».

وذهب الى اكثر من ذلك، مكفّرًا هؤلاء المتصوّفة، داعيا الى التصدّي الى ممارساتهم وحيلهم، والى حلّ أحباس الزوايا، معتبرا أنه " حبس على منكر أعظم المنكرات بسبب أنّ فقراء الوقت الذين وقع التّحبيس عليهم لا سيّما من يقصد منهم للقرى والحصون التي غلب على أهلها الجهل، لا يزالون يزيّنون لهم طريقتهم التي هي مشتملة على اللّهو واللّعب وأكل أموال النّاس بالباطل ويقرّرون لهم أن تلك هي طريقة الاولياء والصّالحين، ولا يجدون هنالك من يغيّر عليهم ولا من يبيّن باطلهم .. فمن الواجب تخريب مجتمعاتهم وتعطيل أماكن لعبهم. وهذا إذا كانوا سالمي العقائد. أمّا إذا كان هنالك من هو مضلّ العقائد قائلا بالاباحة مسقطا للتكاليف الشرعيّة، وهذه صفة فاشية في كثير منهم، فهي الطامّة الكبرى " الونشريسي، المعيار، ج VII، ص 100، 144، 116.

(4) ن.م.، ج VII، ص 117.

وجاء موقف علماء افريقيّة بدوره متشابها مع المواقف السّابقة، إذ قال ابن عرفة في شأن الرّقص: « **الصّواب منعه، وان كان فيه للصّوفية شيء** »، وأفتى بمنع الغناء الذي فيه تحزين في المواسم الدّينيّة، وخصوصًا أثناء احتفالات المولد النبويّ التي عرفت منعرجا هاما على اثر قدوم أبي الحسن المريني الى تونس، حسبما روى ذلك بعض العلماء مثل ابن عبد السلام وابن عرفة وابن هارون والبطرني، حيث تمّ استعمال الشبّابة والطار في المولد (1).

وكانت هذه الحلقات تعقد بمسجد السّبت " بالقيروان حيث يلتقي " **عامّة فقهاء القيروان** " وزهّادها منذ القرن الثالث هـ/ IX م والى حدّ العهد الحفصي، فينشدون. وهو ما أنكره يحيى بن عمر ثم من بعده القابسي في العهد الزيري وصولا الى البرزلي.

أمّا بمدينة تونس، فقد خصّص مسجد الصفصافة للمتصوّفة فضلا عن عديد الزّوايا، ولعلّ أهمها زاوية القرنبالي (القرن VIII هـ/ XIV م)، الواقعة قرب مكان يدعى السّواري. وقد أشتهر بإنشاده، وبادّعائه التطبّب، فكانت النّساء تقبلن عليه للمداواة فيقوم بالرقي وغيره. ولما عيب عليه ذلك، اعترض بكون الطبيب النّصراني بتونس يتولّى مداواة النّساء دون حرج.

غير أنّ هذا الشيخ كانت له علاقات وطيدة مع بعض الفقهاء مثل البرزلي نفسه الذي دأب على زيارته تبرّكا وأبي الحسن البطرني الذي أثنى عليه، وأبي عبد الله الظريف الذي كانت له مقامات معه (2).

والحقيقة أن حلقات المتصوفة اقترنت بكثير من المشعوذين والمندسّين الذين يتظاهرون بالبكاء والانزعاج، " **لأغراض خبيثة في أنفسهم** "، وقد وجد البعض في هذا النحيب متنفّسا عن مشاكله الشخصيّة ومعاناته الخاصّة (3).

ومن الملاحظ ان ابن خلدون التجأ الى علم النفس لتحليل هذه الشّطحات الصّوفية، محاولا ايجاد الأعذار لأصحابها فقال: « **أمّا الالفاظ الموهمة التي يعبّرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فأعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحسّ** .. » (4).

---

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 64ب.

(2) البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 1355، 357ب (صنف البرزلي السماع الى ثلاث طبقات: مخاطبة الحق ومخاطبة احوالهم ومقاماتهم وأوقاتهم وطبقة فقراء مجرّدين لم تتلوّث قلوبهم بمحبّة الدّنيا).

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج VI، ص 354ب – 1355.

(4) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 881.

وعلى أيّ ، فقد تعرّض أغلب الفقهاء بالنقد للسماع والشطحات الصّوفية خاصّة بعد أن أصبحت مظهرا للشعوذة والتحيّل والتكدّي (1) .

وأمّا المسائل الأخرى التي وقع فيها الاختلاف بين العلماء وأهل الصوفيّة من مشائخ زاويا وغيرهم، فقد لخّصها ابن خلدون في المجاهدات والمقامات والكرامات والكشف (2).

فقد أستنكر ابن تيميّة كرامات الصّلحاء ودعاويهم للمكاشفة أو اللّوح المحفوظ وهو ما أطلق عليه الفلاسفة مثل ابن سينا النفس الفلكيّة التي تتصل بها نفوس البشر، أو العقل الفعّال في المنام واليقظة. وهي الفكرة التي تبنّاها كلّ من الغزالي وابن عربي وابن سبعين .

على ان ابن تيميّة شجب هذه الدّعاوي الباطلة، كما أنكر أحزاب أبي الحسن الشاذلي. أمّا البرزلي ، فانّه اعتبر ذلك إلحادا، شبيها بالحاد المشبهة الاسماعلية أو القرامطة الباطنيّة (3) .

والحقيقة ان موقف العلماء نفسه لا يخلو من التناقض في هذا الباب: فلئن تعرّض البرزلي للكرامات بالنقد في موقعين من تآليفه ، فانّه في فصل آخر فرّق بين الكرامة والسّحر الذي نعته بكونه افتراء نتيجة القيام بأمر غريب مثل صناعة الكيمياء ، وتخلّص الى اقرار صحّة الكرامة على غرار شيخه ابن عرفة (4).

وعلى خلاف ذلك ، تعرّض ابن خلدون بالنقد لمزاعم المتصوّفة في بلوغ القطب المقام الأعلى للمعرفة (5).

ويأتي الجدل الحاصل حول مفهوم العقل بين الفقيه أبي يعقوب الطري والمتصوّف أبي علي النفطي دليلا آخر على آختلاف المقاربة بين المنهجين : فمفهوم العقل عند المتصوّف هو مفهوم غيبي لا يستمدّ أصوله من العالم الحسّي المادي، وهو فيض إلاهي يدعو النفس الى فعل الخير، وبالتّالي فانّه لا يمكن ادراكه الاّ بمجاهدة النفس والمعاناة الصّوفية .

---

(1) ومما يذكر في باب نقد العلماء للغناء قدوم الشيخ أبي الحسن الزرقاني من الشرق على الولي حسن الزبيدي بتونس بزاويته، وكان المشرقي يحب الغناء ، فأضافه الزبيدي بمجلس سماع، ولمّا عيب عليه ذلك، التجأ الى الحيلة قائلا : " لا أدري أما أنا فختمت ختمة وهم يغنّون ولا أعرف ما كانوا يقولون " . الابي ، **الاكمال** ، جIII، ص 41

(2) ابن خلدون، **المقدمة** ، ص 880–881 .

(3) البرزلي ، **ن.م.**، ج IV ، ص 1251 . ودعا في موقع آخر من تآليفه (ج I، ص 76ب) الى هجرة هؤلاء الصلحاء المدعين لعلم الغيب والمتطببين الذين " يقولون نعلم ما في بطون النساء واين يموت ووقت نزول الغيث " .

(4) البرزلي ، **ن.م.**، ج IV، ص 263 ب (قال في هذا الصدد : " هكذا رأينا كرامات الاولياء أحياء وأموات ، فلا ينكرها الاّ مخذول فاسد الاعتقاد في أولياء الله، وخواص عباده نفعنا الله ببركاتهم وبحسن الاعتقاد في جنابهم ") .

(5) ابن خلدون، **ن.م**، ص 875 .

ومعلوم أنّ هذه المجاهدة أفضت الى سلوكات مميّزة للصّوفية تمثّلت في لباس الخرقة المرقّعة وتداولها من شيخ الى آخر ، إمعانا في الزّهد ومجاهدة النّفس (1).

وحصيلة القول، تمكّن هذا الفكر الصّوفي الذي انتشر في الزوايا، متّخذا أنماطا متعدّدة تقترن فيها الخوارق بالواقع من التسرّب الى عديد الفئات الاجتماعيّة ، ولم يسلم منه العلماء بما فيهم ابن خلدون وابن عرفة ، فالاوّل أنجز تأليفا خاصا بهذا الموضوع، أمّا الثاني فقد عرف عنه زيارة الصلحاء مثل علي الحطاب والصقلي ، وذلك أسوة بما كان يقوم به من قبله الفقيه ابن الخباز (2).

ومن نافلة القول أنّ الفكر الذي عشّش في الأزمة قد عاصر تراجع الاجتهاد وضمور دور العقل، حتى عجز العلماء ، رغم محاربتهم له ، على القضاء عليه .

ويتّضح لنا من جهة أخرى أنّ الصّوفية التي نشأت بالحواضر تسرّبت الى الزّوايا الريفيّة ، حتى انّه أضحى من العسير الحديث عن نسق ثقافي مميّز لكل مجال: فالمدينة احتوت المشتغلين في العلوم العقلية والنقليّة، والمتصوّفة على حدّ سواء ، فيما اقتصرت الباديّة على وجود الزوايا الرّيفية . وبالتّالي ، فلا مجال لفصل واضح بين علماء المدينة وزوايا البادية، لأنّ التداخل بين المجالين غالبٌ في

---

(1) ذكر ابن خلدون ان المتصوفة يزعمون ارتداء الخرقة أسوة بلباس علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب المخشوشن من الثياب. ومما يذكر انهّ ورد على تونس سنة 763 هـ من الدّيار المصرية الشيخ عبد الرحمان الاندلسي الذي التقى به البرزلي، وهو صاحب الشيخ أبي المحاسن يوسف العجمي. فأخذ منه الخرقة أبو عبد الله الجزيري في لباس المرقعة من الرأس الى القدمين وقلنسوّة . على أنّ المرقعة لم تكن وقتذاك حكرا على المتصوّفة اذ لبست لاغراض عديدة، إذ قال البرزلي " أنّه لا يلبسها في هذا الزّمان الاّ كلّ مدّع ليس معه حلية القوم الاّ القسوة " . فكانت تلبس في السّفر خوفا من اللصوص وقطاع الطرق، حتى انّ البرزلي نفسه ارتدى هذا اللباس. وآرتداها العوام للتّظاهر بكونهم من المتصوّفة وهم في الحقيقة غير ذلك ، وكذلك أصحاب المكوس ، حتى لا يستطيع أن يفلت منهم أحدا . راجع: البرزلي ،**ن.م.**، جIV ، ص 414 ب – 415 ب.
ومما يذكر في مقامات الظريف الخاصّة بمجاهدة النفس أنّ أحدهم سأله عندما كان بالشّام ،هل أنت الظريف : فأجابه:

ليس الظريف بكامل في ظرفه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا
فاذا تعفّف عن محارم ربّه فهناك ... دعوه الانام ظريفا

كذا في الجدميوي، **رفع الازار**، ص1127.

(2) الأبي، **الاكمال**، ج III ، ص 482 . وقد داب ابن الخباز منذ القرن السّابع هـ على زيارة الصّلحاء بساحل المهدية(ابن عرفة، **المختصر** ، ج IV، ص 155) . أما الابي (**الاكمال** ، جIII، ص 88) فقد اعتبر المكاشفة من أحوال الاولياء التي لا تنكر .

هذه الظاهرات الثقافية والاجتماعية ، وذلك خلافا لما دأب عليه أصحاب النظريّة الانقساميّة (1) .

ومما لا شك فيه أن هذه الزوايا عبّرت عن واقع متردّ إذْ تحوّلت في كثير من الأحيان الى مسكّن للتوترات الحاصلة في البادية، فكانت ملاذا للجناة و " مستغرقي الذمّة " والهاربين من تتبّعات أعوان المخزن من بين الاعراب . وكان بعض المرابطين يعلّل قبول الأعراب بالخوف من بطشهم ، لكن ابن عرفة الذي رفض هذه الذريعة نصحهم بالالتجاء الى الحواضر عند مداهمة المحاربين لهم (2).

وبالتالي ، فقد جسّدت هذه الزوايا علاقات شائكة بين البدو والحضر، وهو ما يتّضح جليا في مثال الزّوايا بوسط افريقية .

---

(1) تعدّدت الدّراسات المتعلقة بالمجتمعات القبلية التي قام بها علماء الاحاثة (الانتروبلوجيا) وعلماء الاجتماع في افريقيا وآسيا، وحاول فريق منهم تنميط هذه المجتمعات ونمذجتها، وصولا الى بناء معالم لنظرية معرفية مكتملة، وهي نظرية التجزئة . وفي مرحلة ثانية برزت هذه الرّؤية في دراسة المجتمعات المغربية، اذ قام " قلنار " بدراسة الصّلحاء في الاطلس، واعتنى " جاموس " بظاهرتي الشرف والبركة بالمغرب الاقصى في أواخر القرن التاسع عشر، كما درست " فلنسي " الفلاحين التونسيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. تنطلق نظرية " قلنار " من الاشكالية التالية: كيف تستطيع قبائل الأطلس المحافظة على النّظام دون وجود دولة ممركزة ؟ يعتقد أن الاجابة تكمن في الطبيعة الانقسامية للقبائل ودور العشائر الشّريفة في اقامة التّوازن الاجتماعي. وتعتبر أن المتصوّفة والشّرفاء يتخرّجون من القبيلة، فيما يتخرج العلماء من المدينة، وأن التّفرع الثّنائي بين المدينة والرّيف أمر بديهي . فهل معنى ذلك أن فاعليّة المرابطين ضعيفة داخل المجتمع الحضري، وأن المفارقة بين العالم والمتصوّف حقيقية؟

كما أخرجت هذه النظريّة الصّلحاء من التّركيبة الاجتماعيّة معتبرة ايّاهم عنصرا محايدا غير مندمج ضمن منظومة اقتصادية واجتماعية وسياسيّة معيّنة، اذ أن دورهم الأساسي هو المحافظة على نوع من التّوازن بين مختلف القوى الاجتماعيّة والتّحكيم والمصالحة بينها والسّهر على الأمن لغياب سلطة قبليّة قويّة قادرة على ذلك . على أن اعتبار المجتمع الانقسامي يتميّز بمراتب اجتماعيّة ضعيفة وان الصّلحاء لا ينتمون الى فئة معيّنة وانهم يمثّلون السّلم والحياد هو قول فيه نظر، والاّ كيف لنا أن نفهم دخولهم في صراعات اجتماعيّة وسياسيّة وانتماءهم الى تكتّلات ومشاركتهم في الحروب الخارجيّة والنّزاعات الدّاخلية.

انظر :

E.Gellner,The **Saints of Atlas**, Londres 1969.Ibid, **Arabs and Berbers**, Londres 1972

R.Jamous, **Honneur et Baraka**, Thèse de Doctorat 3eme Cycle, Paris 1977.

L.Valensi,**Fellahs Tunisiens**, Paris-La Haye, 1977.

A.Hammoudi, segmentarité, stratification sociale, pouvoir politique et sainteté, **Hesperis-Tamouda**,1974,Vol.XV,pp.147-180.

L.Ben Salem,Intérêt des analyses en terme de segmentarité... **Revue de l'Occ. Mus. et de la Medit**,1982-1,pp.113-135.

(2) البرزلي، **ن.م.**، ج IV، ص 179ب . الأبي ، **الاكمال** ، ج III ، ص 463 .

III- النّسق الثّقافي المشترك بين البادية والمدينة :

1) العلماء والمرابطون بناحية القيروان :

أ) نشأة الزوايا :

ما أن قدم الموحّدون الى افريقيّة في سنة الاخماس حتّى تصدّوا لمعارضة القبائل الهلاليّة، فحاولوا ترويضها واحتواءها بشتّى الطرق، وكانت مؤسّسة الزّاوية إحداها . وابتداء من تلك الفترة أصبحت ظاهرة الاستتابة تجسّد تاريخيًا هذا التّحوّل الاجتماعي والثّقافي، اذ أصبحت تعني، فضلا عن المفهوم التقليدي، نهاية فترة عصيان القبائل وبداية الاندماج في النّظام الاجتماعي والاقتصادي والسّياسي والثّقافي.

وكان أبو يوسف يعقوب الدّهماني أنموذجا للفارس البدويّ الذي تخلّى عن الحرب وأصبح شيخا لزاوية.

ومثّلت زاوية أبي علي سالم القديدي المتوفى سنة 697 هـ/ 1297م أنموذجا للزّاوية التي نشأت في قرية قديد السّاحليّة ، وخلافا للدّهماني فانّه لم يدرس بالقيروان وانّما تحوّل الى قلعة سدادة بالجريد ليتعلّم على شيخه أبي هلال السّدادي الذي حثّه على تأسيس زاوية بالسّاحل، لكنّه تخوّف من ذلك لكثرة الزوايا والطوائف . ثمّ تمكّن من انشائها وأصبح لها اشعاع في كافّة جهة السّاحل والقيروان وبلاد هوارة وقبائل الكعوب ودباب (1).

ويبدو أنّ أهميّة هذه المؤسّسة بالسّاحل اقترنت بازدياد خطر الهجومات البحريّة عليه حتّى أنّ هؤلاء الشيوخ تحوّلوا في كثير من الأحيان الى محاربين ، وفعلا قاد القديدي وأبو عمّار المعروفي العامّة في الحرب الصّليبيّة الثّامنة بقرطاجنّة، وهو أمر يأتي لينفي مزاعم أصحاب النّظريّة الانقساميّة في أنّ الصّلحاء يمثّلون السلم والحياد(2) .

أمّا بالجريد فقد تكوّن صنف آخر من الشيوخ المنقادين الى أبي علي النّفطي وقد سعوا الى نشر المذهب المالكي في هذه البلاد التي بقيت طويلا معقلا للمذهب الخارجي (3)، كما حاولوا ادماج هذه المنطقة في اطار النّظام المخزني، وفعلا فانّ

---

(1) ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 52 ، 106، 118 .

(2) **ن.م.**، ج IV ص 25 .

(3) انظر: الشماخي، **السير** ، تحقيق محمد حسن. ابن الشباط ، **صلة السمط**، مخ. بدار الكتب الوطنية. والثابت أن تسرب المالكية الى الجريد يرجع الى ما قبل القرن السادس هـ/XIIم.

سلاطين بني حفص احتاجوا الى خدماتهم حينما خرجت هذه الجهة عن سلطتهم في فترات حكم أبي يحيى أبي بكر (718-747هـ/ 1318-1346م) وأبي العبّاس أحمد (772-796هـ/ 1370-1393م) وأبي فارس عبد العزيز (796-837هـ/ 1393-1433م).

وهكذا تركّزت شبكة من الزّوايا بافريقيّة مترابطة فيما بينها سواء أكانت ريفيّة أم حضريّة، ونلحظ هنا أيضا أنّ تعدّد الزّوايا بالقيروان يأتي ليدحض حجّة القائلين بوجود مفارقة بين العلماء بالمدينة والصّلحاء بالرّيف، اذ انّ التّداخل بين الاثنين لا ريب فيه.

ب) الشيوخ المرابطون :

ما كان كلّ الشيوخ يملكون الأرض أو يقدرون على استغلالها في بداية أمرهم، بل أنّ الكثير منهم من الفئات الاجتماعيّة المفقّرة والرثّة العاجزة عن توفير ضروريات العيش .وبالتالي فانّ استغلالهم للأرض جاء نتيجة انخراطهم في المسار الصّوفي، ولئن كان لبعضهم علاقة مباشرة بالأرض، فان كبار المشائخ عاشوا من الرّيع العقاري.

– *المباشرون لعمل الأرض* : انتمى الكثير منهم الى الفئات المتوسّطة التي لا تمتلك أكثر من ماشية، ورغم وظيفتهم الدّينيّة، فقد بقوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالأرض (1).

وسواء شارك في العمل الزّراعي أو لم يشارك، فانّ هذا الصنف من المرابطين المزارعين لا يملك أكثر من ماشية من نوع البقر، أي نحو 12 هكتارًا، ويلتجئ الى سقي الحبوب سنين الجفاف (2).

(1) ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 163،243،178،44،2 . كان معاش أبي عبد الله بن سالم بن عوانة المتوفى سنة 632 هـ من الزّراعة والتّجارة، «كان شطر ما يحرثه يتصدّق به على الفقراء والشّطر الثّاني لنفقته ونفقة عياله». أمّا الرباوي فانّه كان يقوم بسقي زرعه سنين الجفاف ويسني على ثوره ولما اتلف زرعه من جراء برد أصابه تحوّل إلى أجير في البناء. ولم يكن ثمن الغلة لجنان صالح الصّدفي يتجاوز العشرة دنانير، وكان المدلجي أحد صلحاء بلد الشّقاف من عمل القيروان «يأكل من خدمته للفلاحة بالحرث والسّقي والسّني وغير ذلك»، وكذلك كان عبد الناظر الماطوسي، لكنه كان يعقد الشّركات الفلاحيّة مع صاحبه بالسّاحل.
(2) **ن.م.**، ج IV، ص 165،175،174 .

ومن نافلة القول انّ كثيرا من أصحاب السّواني التجأوا الى حفر آبار جديدة في العصر الوسيط المتأخّر أو الى اعادة استعمال النشآت المائيّة الأغلبيّة والفاطميّة (1)، على أنّ تقدير كلّ صنف من هذه الأصناف يحتاج الى عملتي تنقيب وسبر دقيقتين للآثار الرّيفيّة.

– *الاستغلال غير المباشر* : الشّركات الفلاحيّة : تعدّدت الشّركات الفلاحيّة وخصوصا شركة المزارعة وتنوّعت في مناطق السباسب التي قلّت فيها الأشجار المغروسة باندثار آخر غابات الزّيتون بالسّباسب العليا في القرن XII م، وبجهة قمّودة، تاركة المجال واسعا للأراضي البيضاء التي تستعمل لظعن القبائل وانتجاعها أو لزراعة الحبوب (2).

واذا كان شيخ الزّاوية يتولّى العمل الفلاحي بطريقة مباشرة أو عن طريق عقد الشّركات الفلاحيّة، فانّ الفقراء لا يمكن أن يكونوا خارجين عن هذه السّيرورة، بل نرجّح أنّ ازدياد عددهم كان مقترنا أساسا بحركة تعمير الأراضي واستصلاحها، وأنّهم كوّنوا شكلا من أشكال استغلال الأرض المنظّم القائم تحت حماية الزّاوية، شأنهم في ذلك شأن الخماسة.

– *الاقطاعات السّلطانية* : يعتبر شيوخ الزوايا من ضمن الفئات الاجتماعيّة المستفيدة من الاقطاعات السّلطانية، وكثيرا ما كان هؤلاء الصّلحاء من الأعراب الذين تابوا عن الحرابة وبدأوا في الاستقرار والاندماج في النّظام الاجتماعي والسّياسي والثّقافي، وفق أنموذج الزاوية . ولئن تحصّل البعض منهم على ثروات طائلة، باعتبارهم شيوخ زوايا، فانّهم بقوا مشدودين في الغالب الى أصولهم الاجتماعيّة الشّعبيّة المنحدرين منها (3).

وقد رأينا سابقًا مثالين يخصّان إقطاعات أبي رحمة غيث الحكيمي وميمون الوائلي . أمّا أبو عبد الله محمّد بن شبل (النّصف الأوّل من القرن الثّامن) فقد كان عمّه من شيوخ رياح النّازلين على بلد الحضرميين في الجنوب الغربي من القيروان، وكانت له " **بلاد وهناشير يأخذون أحكارها وأعشارها بأمر السّلطان** "، ورغم ذلك باشر العمل الفلاحي بنفسه وحرث بثوره الذي أودعه زمن

(1) انظر : Solignac, Recherches sur les installations hydrauliques.., **op.cit.**
(2) ابن ناجي، ن.م.، ج IV، ص 219،210 . ابن الشبّاط ، **صلة السمط**، ج IV ، ص 1109.
(3) ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 38، انظر الفصل المخصص لهذا الاقطاع في " وطن القيروان".

الجفاف عند الشّاوية بافريقيّة (أى منطقة الشّمال التّونسي)، كما أنّه لم يكن من صنف الصّلحاء المسالمين الذين تحدّث عنهم « قلنار» اذ اعتبر « سيف» عمّه يذبّ عنه في الأوقات الحرجة (1).

وخلاصة القول فانّ اقطاع هذه الأراضي ساعد على استقرار المجموعات البدويّة وتحوّلها تدريجيّا من الغزو وقطع الطّرق الى الاشتغال بالزّراعة. وقد منحت هذه الاقطاعات بطريقة أشبه ما تكون وراثيّة للحكيمي وابن شبل والوائلي وغيرهم ولأحفادهم فيما بعد، لا بصفتهم شيوخا فحسب، وانّما لأنّهم يمتلكون الرّئاسة في بني حكيم وبني رياح وبني وائل، ولهم نفوذ فعلي على المجموعات البدويّة التي بدأت في الاستقرار في ربض أولاد غيث الحكيمي حول القيروان وفي بلد الحضرمين في الجنوب الغربي من مدينة عقبة الخ...

– *أخذ المرابطين للاتاوات على الأرض*: نشأت زاوية أبي علي سالم القديدي في النصف الثّاني من القرن السّابع هـ/ XIIIم. في منزل قديد بالسّاحل وسط منطقة فلاحيّة. وكان أهل البادية يفدون عليها محمّلين بالهدايا حتّى أصبحت لأبي علي **« دنيا كبيرة الصّيت واسعة»** ممّا جعل أحد أصحابه يرتاب في أمره. وكانت هذه الوفود من البادية تدفع ما عليها من «فتوح»، للزّاوية مقابل الحماية الوهمية التي توفرها لها ضدّ الظلم والآفات والكوارث الطّبيعيّة، وعادة ما تناسب المواسم الزّراعيّة. وقد تستغلّ مواقيت بيع الماشية في الأسواق لاستخلاص هذه الإتاوات بواسطة الفقراء الموجودين في عديد الأسواق. وفعلا كانت هيمنة الزّاوية كبيرة في الأرياف والبوادي وعند الأعراب كما تدلّ عليه تركيبة الوفد الذي جاء زائرا القديدي وفيه نحو مائتي شخص ومن بينهم 23 فارسا.

ولم تقتصر ثروة القديدي على الأرض، إنّما شملت كذلك المواشي، اذ حمل معه عند حجّه سنة 680هـ / 1281م: 25 جملا لرفع الزّاد والركوب، ولمّا رجع تصدّق بجميع غنمه وكانت قدر ألف رأس وبجميع بقره، وكانت نحو الستّين وبأربعة من الخيل، هذا فضلا عمّا تبقى له من الماشية لاستعماله الخاصّ من حرث وغيره: كما أنّ عبد الله بن زياد القائم على أمور الزاوية تكوّنت له ثروة و**«حصل له ما لم يحصل لغيره»**(2).

(1) **ن.م**. ج VI، ص 118، 177، ذكرت بلد الحضرمين في موقع آخر (ص 209)، وفي ص 168 ورد ذكر بلد الضرمين، ويبدو أنه خطأ. وتوجد فيه ناحية وادي مرق الليل قرب بطمة وهنشير ضريسة، خربت بعد أواسط القرن الثامن هـ، حول هذا الاقطاع، راجع فصل وطن القيروان.

(2) **ن.م**.، ص 80، 83، 71، يبدو أن قديد بدأت في التلاشي في أواخر القرن السابع هـ/ XIIIم بعد أن رحل عنها شيخها الى القيروان، وأصبحت معرضة لهجومات البدو.

أمّا أبو يوسف يعقوب الزّعبي، فقد سكن العلويين بجهة القيروان. ورغم منحاه الصّوفي، كانت له دراية بالعلوم الشّرعيّة ويعدّ من تلامذة ابن عرفة. وبعد أن حجّ مع شيخه الشّبيبي سنة 757 هـ/ 1356م، تولّى قضاء القيروان نحو سنة 796هـ/ 1393م. وقضاء الانكحة بتونس سنة 802 هـ/ 1399م. وأخيرا قضاء الجماعة نحو سنة 815 هـ/ 1412م. ولعبت زاويته بالعلويين دورا هامّا في إخضاع الأعراب وتوبتهم، ويبدو أن ثروة « شيخ العلويين» متأتّية أساسا من دوره في حماية الأراضي القريبة من الزّاوية من تعدّي الأعراب، **« فكان يذبّ عن النّاس في زروعهم وغيرها، مسموع الكلام عند عرب افريقيّة وغيرها»** . ومن هنا فقد اعتبره الصّدفي قطب زمانه الذي يوجد في القرى لا في المدن، وهو أمر له مغزاه لانّ القرى في حاجة إلى الحماية من الآفات الأربعة المذكورة: الجفاف والجراد والبرد والعرب (وهذا لافت للانتباه لأنّ الصّدفي من أصل قروي).

والحقيقة أنّ تعدّيات الأعراب بل أن الصّراع أحيانا بين البدو والحضر يفسّر مثل هذه المواقف العدوانيّة تجاه البدو، سيّما أنّ الأرض أصبحت شبه مهملة لا تجد من يخدمها، وأنّ أصحابها أجبروا على دفع الاتاوات الثّقيلة للزّوايا عند حرثها. ومن الأمثلة على ذلك، أقدم رجلان على حرث أرض من هنشير الحلفاوين بالقيروان وخصّصا للزّعبي ثلث الانتاج طلبا للحماية من « ظلم» البدو. وفي ظلّ التّوتّرات الاجتماعيّة تمكن الزّعبي من توسيع ثروته حتّى أنّه في احدى السّنوات العجاف التي كانت تعرف « بكبار القفيز» لغلاء الطّعام، خصّص مطمورة تسع 300 قفيز أعطى منها لفقرائه ولبني دباب الذين جاؤوا من غرب طرابلس بحثا عن الطّعام، وكان يقصد اسلافهم « **حتّى لا يقع منهم غارة على القيروان ووطنها»** (1).

وتواصل الجاه والثّروة في هذا الفرع من زعب من بعده، ذلك أنّه قبل وفاته سلّم رئاسة مشيخة العلويين لابن أخيه عامر بن محمّد الزّعبي الذي تمكّن من تحصيل ثروة شاسعة أكثر ممّا اكتسبه عمّه حتّى أنّ البقر **« كانت عنده بالمئين»**، وله من أحد أصناف البقر مائتان (2).

وختاما فانّ تقسيم العمل بوسط افريقيّة لم يفرز في تلك المرحلة الفصل بين العمل الذّهني والعمل اليدوي، بين التّدريس والتّصوّف والاشتغال بالفلاحة

(1) ن.م، ص 166، 169.

(2) **ن.م**، ص 170 . وردت نسبة الزغبي في مصادر أخرى ، مثل الزركشي، **تاريخ**، ص 120، 125، 128 . راجع: سعد غراب، **ابن عرفة**، ص 560 .

وكسب الرّزق منها، وظلّت الأرض المصدر الاساسي للثّروة بالنسبة الى فئة الشيوخ المرابطين، وقد كانوا يستخلصون مردودها إمّا بمباشرتهم للعمل وبعقدهم للشّركات الفلاحيّة والخماسة، وبكراء اقطاعاتهم والتّحصّل على ريع عقاري، أو بحمايتهم لصغار المزارعين، وقد يأخذون أيضا إتاوات على المزارعين. واذا كانت بنيتها الاقتصادية مرتبطة بالانتاج الفلاحي، فانّنا لا نستغرب العلاقة الوثيقة بين ايديولوجيّة هذه الفئة والأرض، وبالتّالي المجموعات الحضريّة، وذلك رغم انبثاق الكثير من عناصرها من أصول بدويّة.

ج) المرابطون والسلطة :

– ردود الفعل : تصدّى المرابطون لبعض المظاهر الناجمة عن حرابة الأعراب وتعدّيهم أو عن صلف المخزن الحفصي. وفي كلتا الحالتين فان هذه الفئة كانت تدافع عن مصالح المجتمع الحضري، أو على الأقل عن جزء منه – وهو المرتبط بالارض وصغار التجار والحرفيين– ضد الانفصال والفوضى البدويين وتعديات شيوخ الموحدين(1). وهكذا حظوا بثقة نسبة كبيرة من الحضر لا لاعتقادهم في كراماتهم، وانما أساسا لكونهم، الى جانب العلماء والتجار، من الفئات ذات النّفوذ، ولعل هذا ما يفسر وجودها في علاقة تنافس مع المخزن. والأمثلة التي تدل على ذلك عديدة.

تميز موقف أبي يوسف يعقوب الدهماني بمقاطعة الوالي الموحدي اذ جاء على لسانه: «ما كتبت لأحد من الولاة سوادا على بياض». كما أنّه استنكر تعدّيات الوالي الذي عينه يحيى بن اسحاق الميورقي على القيروان أثناء ثورته على الموحّدين. أما الطاهر المزوغي، فقد أظهر كراهيته للخليفة الموحدي السعيد (2).

ويبدو أنّ ظاهرة الظّلم قد تفشت في بداية العهد الحفصي حتى فضّل البعض الاستسلام والركون الى الانعزال والانطواء والحلول الماورائية السلبية. فهذا الرباوي الزاهد «أقبل على الآخرة والعبادة ومجانبة السلطان وكان من الورعين الخاشعين». واختار طرف آخر التدخل لدى الولاة لحل المشاكل اليومية للحضر، مثل محمد بن سحنون الدكالي الذي حاول استعادة بضاعة افتكها حافظ سوسة الى صاحبها بدون جدوى (3).

---

(1) انظر، في الفقرة الخاصة بالزاوية الجديدية، علاقة الولي بالحرفيين.

(2) ابن ناجي، ن.م، ج III، ص 225، 214، راجع ايضا الفصل الاخير من كتابنا : **القبائل والارياف المغربية في العصر الوسيط**، تونس، 1986.

(3) ابن ناجي، **ن.م**، ج IV، ص 32،38

وفي هذا السياق تمكّن القديدي من ازالة بعض الوظائف التي كان يدفعها أهل القيروان للمخزن. وكان الصوف من أهم البضائع التي تسوّق الى المدن الايطالية لتصنيعها. وتماشيا مع تطور الاقتصاد السلعي جعل المخزن ضريبة على أصحاب الماشية الذين يحملون صوفهم للسوق: ربع درهم على كل جزة صوف، ويطلق على هذه الاتاوة فائد الصوف، وكان المنتجون يدفعونها على مضض. واذا ما صدقنا مصادرنا فإن أبا اسحاق ابراهيم المسراتي في أواخر القرن السابع هـ تسبب في قطعها بالنسبة الى النساء، وقد أزالها السلطان أبو فارس عبد العزيز فيما بعد بتمامها. والحقيقة أن هذه العملية تدل على مدى التباين بين المؤسّسة المخزنية التي تسعى الى الانتفاع من الاقتصاد السلعي وذلك بفرض جملة من الضرائب والاتاوات على المنتجين والتجار، وبين المشائخ المحافظين الذين يتمسكون بالعلاقات الانتاجية القائمة على تربية الماشية والزراعة (1).

وعموما فان العلاقة بين الولي والأمير، اختلفت متانة وقوة حسب التطور لميزان القوى الاجتماعية. ويمكن أن نتبين أنواعا عدة من نماذج الشيوخ في علاقتهم مع السلطة : البدوي «المتصلب»، الفقيه المتعاون سياسيا مع المخزن، وصولا الى النمط الثالث المتمثّل في الشكل العسكري لهذا التعاون أي في مدى انسجام الزاوية ومحلة السلطان.

– *البدوي «المتصلب» : أبو الحسن علي عبد الله بن عياش العبيدلي*: من أصل بدوي (من العرب). جاء القيروان كبيرا، فأخذ عن الرماح، ولم يكمل تعليمه بتونس، استقر بالقيروان وأصبحت له زاوية فيها نحو سبعين فقيرا، وحارة خاصة بهم تسمى حارة المرابطين، وكانت له مساهمة هامة في «توبة البوادي»، توفي سنة 748 هـ/ 1347م، وقد اشتهر بمواقفه الصارمة، ولما علم ان القضاة يأخذون مرتباتهم من القيّاد، قاطع أحدهم. وقد كان السلطان أبو يحيى أبو بكر (718-747هـ/ 1318-1346م.) وصل القيروان بمحلته ومعه القائد ابن حكيم، وذلك لتهدئة المنطقة، وأشار الفقيه الرماح على السلطان بزيارة العبيدلي،

---

(1) ابن ناجي، **ن.م**، ج IV، ص 93،70. وجاء في كتاب الحسن الوزان فائد الصوف كان بنسبة 2،5 ٪ أي 1/40 في بداية القرن XVIم. وهي نسبة موافقة للتشريع، وكانت تدفع في مدخل تونس والخروج منها. ويذكر برانشويك (ن.م.جII، ص 240) انه وقعت ازالتها في النصف الاول من القرن السابع هـ/XIIIم. انظر ايضا :

A.Amari, **Diplomi Arabi del real archivo fiorentino**, Florence 1863

L.Mas-Latrie, **Traités de paix et de commerce concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afri.sept.au moyen-âge**, Paris 1866.

نظرا إلى مـا يتمـتـع به من نفـوذ لدى الأعـراب، لكن هذا الأخيـر رفـض مـقابلتـه والتدخل لفائدة المخزن لحل المسألة سلميا(1).

ونراه يذهب الى أكثر من هذا، اذ قاطع المؤسسات المخـزنية من قضاء وغيره، فكان اذا تزوج أحـد من فقرائه لا يشـهد في العـقد الا أصـحاب الشيـخ، ولا يقبل العـدول المعينين من طرف المخـزن. ولما شق الأمر على القـاضي والعـدول، حاول الفقيه أبو الحسن علي العواني ارجاعه عن رأيه عبثا، وأصر على موقفه، ولم يقبل الحل الوسط والجمع بين عدول القاضي وخـواص اصحابه الا بعد لأي طويل (2). إن هذا الرفض لاحدى مـقومات المخـزن يدل على مدى نفـوذ صنف المشائخ ذوي الأصول البـدوية، الذين كانت لهم دعامـة اجتماعـية كامنة في القـبيلة. ولئن ظلّت القبيلة متمسكة بشيخها المسـتقر بالمدينة، فان هذا الأخير بقي وفيا لسلوكيات أهل البادية، فقد قـاطع العبيدلي الفقيه الورفلي لما تولّى القضـاء بالقيروان الى أن أقام الحق على نائب القائد، ممـا تسبّب في نشوب نزاع بين القـاضي والقائد الذي أعلم السلطان وقائد الأعنة محمد بن عبـد الحكيم بالأمر. لكن ميزان القوى لم يكن دائما لصالح الـقائد وأعوانه، اذ كـان العبـيدلي والقاضي مـحاطين بأنصـار كـثـيرين. وبالتالي فضل قائد الاعنة ارضاء العبيدلي والتخلص مـن القائد (3).

وامتد نفوذه الى ابن السلطان أبي يحـيى أبي بكر المسمى عجون، الذي وصل الى القيروان، فتخوف الناس من اقامـته في المدينة، وبطلب من العبيدلي تحول الى

---

(1) ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 56. حول العبيـدلي، انظر: سعد غراب، **ابن عرفة** (أطروحة بالفرنسية)، ص 633.

(2) ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 122-133.

(3) **ن.م.**، ج IV، ص 125-126. لنا أمثلة عديدة عن طبيعة العلاقة بين القضاة ورجال المخزن: فقد خرج القاضي القلال من تبرسق لانه « وجد خواصها الموحدين في رأسهم فساد، فيعارضونه في تنفيذه الاحكام الشرعية». وكان قاضي الجماعة ابن عبد السلام عاجزا عن التـدخل قرب السلطان، وانتهت الحادثة بتحول القاضي الى الحامة، لكنه انصرف عنهـا أيضا، لان « أهلها برابر وفي رؤوسـهم فساد وقلة أدب» (ص146). وقـد جرى لصاحبـه القاضي خلف الله الحكيمي نفس الشيء بتبـرسق، وهو دليل على تواصل الصراع بين الطرفين (ص147). وتكرر هذا المثال بالقيروان، فقـد كان قاضيها هو أبو الحسن الشـريف العواني، وكان يجتمع عنده أعيان المدينة وخـواصها من قايد وشهود وعدول وأمناء وغيرهم، ولما تولّى في زمانه أحد كبـار الموحدين أبو القاسم بن يغيث قيادة القيروان، أظهر العدل مؤقـتا الى أن كتب فيه القاضي تقـريرا بحسن سيرته الى السلطان، ثم ازداد «ظلمـه»، خاصة عند تولي ابن تافراجين السلطة الفعلية في عهد السلطان الصغير ابي اسحاق ابراهيم، أي سنة 750هـ. وانتقم من أهل القيروان، بعد أن تصدوا لحليف ابن تافراجين: أبي الحسن المريني، وثاروا في وجـهه («عيطوا عليه»). ولم يعزل هذا القائد الا عند وصول السلطان أبي اسـحاق ابراهيم الى القيروان مع شـيـخ العرب خالد بن حـمزة الليلي، هروبا من السلطان أبي عنان المريني الذي كان بقسنطينة، ومرة أخرى ثار العامة في وجه القائد (ص150-152).

بعض قرى السـاحل (1). ولئن كانت هذه المـارسات تتنزل في اطار تقـوية نفوذ الزّوايا في المدن المغربية، فانها لم تكن متناقضة هيكليا مع السلطة المخزنية اذ عمل الصلحـاء على تهـدئة البوادي (2) . ثـم لا ننسى أن هذه المواقف كـانت محـدودة الفعالية لانـه يوجد صنف آخر من العلماء والفقهـاء الذين كانوا قريبين من السلطة وممثلين لها .

- *المتعـاونون مع المخزن : أبو محمـد عبـد الله البلوي الشبـيبي* : كان فقـيها حضريا، من تلامذة ابن عرفة ومحـمّد بن عبد السلام. رفض خطة القضاء وتولى التدريس بالـزاوية. وكان برنامج الدّروس يغلب عليـه المذهب المالكي، لكنه لا يخلو من مسـحة صوفيـة ، وهو أمر لم يتمكن ابن عرفـة نفسه من التـخلص منها، لكن الشبـيبي كان يسـتنكر سلوك الصلحاء الجـهلة وممارساتهم، وقد ألف كـتابا في ذلك(3).

وأمـا عن عـلاقـة هذا الفـقـيـه بالسّـلطان أبي العـبـاس أحـمـد (747-751هـ/ 1346-1350م) فقد كـانت حسنة إذ التقى معـه في خلوة في أول سفر قام به الى قفصة، وعرض عليه العطاء (ربع دينار ثم رفعه الى نصف دينار يوميا) وفيما بعد القضاء، لكنه رفضهـما، وفضل الزراعة. وقد لامه السلطان على تعميره الأرض واشتراكه في الفلح مع الأعراب . ويفـهم من جواب الشبيبي أن ذلك يدخل في اطار حماية الناس من الأعراب. وعلى كل فان الفقـيه أبدى بهذه المناسبة تعاونا مع السلطان اذ بعث برسـائل الى مشائخ الجـريد يدعوهم فيـها الى طاعة الأمـير. وفي المقـابل، فـقـد كانت له حـظوة لدى السلطان **« فكان الشـبـيـبي كل مـا يقع بالقيروان من أمر مخزني ويكتب فيه يأتي جواب السلطان بما يطلب منه»** (4).

ورغم هذا الجـاه الذي اكتسـبه، فـان ذلك لم يمنعه مـن التعرض لـلمحنة عـهد السلطان أبي اسحاق ابراهيم (751-770هـ/ 1350-1369م) لما تعاطف مع رجل رفض دفع فائد الصوف. وتتضح هنا محدودية مكانة العلماء عند المخزن (5).

---

(1) **ن.م.**، ج IV، ص 125. (حاول العبيدلي تنظيم حركة مقاومة لأبي الحسن المريني عند دخوله القيروان، وأراد أن يخطب في الناس ويحرضهم ضده، لكن قـوة الفقهاء الحضر المثلة في الرماح تتدخل لـتهدئة الموقف وتلطيفه، ومنع الاصطدام).

(2) **ن.م.**، ج IV، ص 137.

(3) **ن.م.**، ج IV، ص 205. انظر ايضا :

R.Brunschvig, **op.cit**.T II,p.337

S.Ghrab,**Ibn Arafa**,op.cit.p.625-647

(4) ابن ناجي،**ن.م.**، ج IV، ص 216-217.

(5) **ن.م.**، ج IV، ص 220،222.

وعموما فان للفقيه الشبيبي علاقات متميزة مع السلطة والاعراب، وعلى حدّ قول ابن ناجي « **يقضي حوائج الناس من السلطان والقواد والعرب**» (1).

وبالتالي فقد لعب الشبيبي دور الواسطة بين عدة فعاليات اجتماعية، وهو الأنموذج الذي يحبذه المنهج الانقسامي في تناوله للصلحاء، لكن الحقيقة أن موقعه الاجتماعي هو المفسر لموقفه المتوسط بين البدو والحضر والسّلطة.

– *الزاوية الجديدية ومحلة السلطان* : تمكن أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز السبائي الجديدي من تكوين زاوية بالقيروان رغم أنها « **مملوءة بالزّوايا**». ورغم مخالطته « **لسفلة الناس**» و « **أطفال السوق**» ، فانه استطاع توسيع زاويته ، وتعلّم فيها فقهاء البادية ووصلها الناس للدراسة من أماكن عدّة ، وكان له نحو مائة فقير، وقد ظهرت مع هذه الزاوية الطريقة المنظمة. فما هو اذن دورها السياسي ؟

لئن لم يتمكن الفقيه الشبيبي من حماية العائذ به في منزله، ولم يستطع الشنيشي اطلاق مظلوم، فان الزاوية الجديدية تحوّلت الى ملاذ للفارين ، فكان كل من وصلها وعليه طلب مخزني لا يتعرض له القواد ، ولو كان هاربا من السجن. ولما حاول القائد اختراق ذلك، جاء جواب السّلطان أبي فارس عبد العزيز ليؤكد هذه الحصانة :« **من قرب من الزاوية لا يتعرض له**» (2).

وهكذا أصبح الدور الحمائي للزاوية المتحالفة مع السّلطة أمرا مشروعا، وشمل الى جانب الزاوية الجديدية زوايا أخرى بالمناطق الساحلية، أنشأها تلاميذه، فكان عبد العزيز بن عياش في زاويته بطبلبة « **يضيف محلة السلطان وعربها ، وكل ما يكتب للسلطان تقضى فيه الحاجة، ويهرب اليها قواد السلطان وشيوخ العرب** » (3).

وابتداء من أواخر القرن الثامن هـ/ XIVم، تفطنت السلطة لمدى فاعلية هذه المؤسّسة للتحكم في مختلف القوى الاجتماعيّة المتصارعة، فتوخّت عهد أبي فارس عبد العزيز سياسة طرقية مناصرة للزوايا وأصحابها، واتبعه في ذلك القوّاد. فقدّم لهم منحا وهبات تسمى العادة، تقدر بعشرة دنانير في السنة ، وكان السلطان يقصد لزيارة اليزليتني ويعطيه المال الكثير. وقد أصبح لهذه المؤسّسة نفوذ سياسي مواز لقوّتها الاقتصادية ، ناهيك أن القائم بأمر الزاوية الجديدية بعد موت شيخها، عبيد الغرياني، تدخل في اختيار البيّار قاضيا على جربة ثم قابس، كما أقر عزل كاتب الديوان بباب القيروان من طرف القايد (4).

وفي المقابل فان هذه الزوايا كانت عبارة عن محطات هامة لمحلة السلطان،

(1) **ن.م.**، ج IV، ص 157،237 . يبدو ان بعض الخلط تسرّب الى رواية ابن ناجي، اذ ان ابن عبد الرفيع توفي سنة 733هـ ، أي قبل تولي السلطان أبي اسحاق ابراهيم الحكم (751–770هـ) . حول المذهب الزكراوي، راجع كذلك ابن مرزوق ، **المسند** .

(2) **ابن ناجي**، ن.م.، ج IV ،ص 238،183 .

(3) **ن.م.**، ج IV ، ص 240. انظر وصف هذه الزاوية في مقالنا ، وثيقة في التاريخ الرّيفي ...نفس الاحالة.

(4) **ن.م.**، ج IV ،ص 171.

وهو في طريقه الى قفصة والجريد ، فقد وردت على زاوية الشيخ يعقوب الزعبي ببلد العلوين "**محلة السلطان أبي فارس عبد العزيز بعربها في بقية اليوم، ونزلوا بجواره فاكلوا وانصرفوا**" . ولا نبالغ اذا قلنا انها تحولت أحيانا الى مراكز يأوي إليها الأمير ومحلته كي يأخذ نصيبا من الرّاحة ، قبل مواصلة الطريق، وربما قام هناك بتعبئة إضافية (1).

وكما بيّنا فان الزّاوية لم تكن طرفا محايدا وسلميّا، وانما تفاعلت مع الصراعات الاجتماعية المختلفة، ولذا لا غرابة في الحديث عن الزاوية الحصن أو عن تحوّل الصلحاء الى فرسان ومقاتلين، عند المرابطة والتصدي للعدو الخارجي، وكذلك في خضم النزاعات الداخلية.

وهذا مثال على ذلك : في أواخر القرن السابع هـ. دخل الشيخ أبو زيد عبد الرحمان في نزاع مع أهل بلدته الاجم ، « **وتغير مع أهل البلاد**» حتى أجبر على الرحيل، وما أن علم الصلحاء بمحنته حتى هبوا لنجدته ومؤازرته ، ووصل اليه نحو مائتي شيخ وفقير منهم أبو يوسف الدهماني وغيث الحكيمي وسالم القديدي وأبو اسحاق ابراهيم بن عبد السلام المسراتي والمرابط ادريس الدرباسي الخ... وقد احتوى هذا الوفد على عدد هام من الفرسان (ثلاثة وعشرين)، وهذا ما يبرز الجانب شبه العسكري لهذه المؤسسة التي كانت حريصة على حماية المنتمين اليها من فقراء وشيوخ، مغذية بذلك عقلية فئويّة منغلقة، تسعى الى حماية مصالحها بكل الطرق المتداولة: التّحالفات المختلفة والالتجاء الى تعبئة الانصار، وخاصّة الدعاية المكثفة للمشائخ وترويج الوهم.

وفي كل الاحوال فان فعاليات هذه الفئة ومواقفها مرتبطة بموقعها من الانتاج، ومن الاقتصاد السلعي الذي بدأ في التطور خلال هذه الفترة ، ولم تكن خارجة عنها حتى في أقصى الحالات عند تلذذها بالحرمان والفاقة والجوع واستكانتها للأمر الواقع، لأن هذا الموقف السلبيّ هو وليد أزمة .

(1) **ن.م.**، ج IV ، ص 245–262 .

كما أن الجانب السياسي يعني بالنسبة الى الشيوخ المساهمة في شتى الصراعات الداخلية والخارجية السلمية والعسكرية، بين السلطة والمجتمع، الريف والمدينة...فدور الحياد والتحكيم غير واضح بقدر المواقف المنحازة لحماية مصالحهم، ومصالح الفئات المتحالفة معهم داخل المجتمع الحضري.

2) العلماء والمرابطون بالمهديّة وناحيتها :

إن محاولة تصنيف العلماء بمدينة المهدية وناحيتها في مطلع القرن السابع هـ/XIIIم، يفضي الى التفرقة بين ثلاثة نماذج اجتماعية وثقافية :

– الأول : الفقهاء المالكيون (مثل ابن البراء واللبياني)، الثاني : فقهاء من الأوساط الحضرية أنتموا الى التصوف المالكي (عبد العزيز المهدوي)، الثالث : شيوخ من الزّاوية الريفية (الطاهر المزوغي وعبد الناظر الملولي)(1).

أ) الأنموذج الأول : علماء المالكية :

– أبو العباس أحمد بن عثمان اللبياني ، فقيها وشاعرا : نسبة إلى قرية لليانة قرب المهدية، أخذ عن فقهاء تتلمذوا بدورهم على الامام المازري . وهذا التّسلسل يبيّن ذلك :



(1) يقوم أصحاب النظرية التجزيئية بتنميط آخر للعلماء ، فيعتبرون أن المتصوفة والشرفاء يتخرجون من القبيلة فيما يتخرج العلماء من المدينة ، وان التفرع الثنائي بين المدينة والريف أمر بديهي. على أن الوقائع التاريخية ببلاد المغرب تثبت ان فاعلية الصلحاء كانت هامة داخل المجتمع الحضري.

(2) عثرنا على قبرية لفرد من أسرة أبي يحيى زكريا بن الحدّاد بقرية منزل الفارسي غرب المهدية، وهو عبد الحق بن عبد الرحمان بن عبد الحق بن الحدّاد توفي سنة 700 هـ . انظر : ابن مخلوف، **شجرة النور الزكية**، ص 144، 169، 170، 208 . ابن عرفة، **المختصر**، ج IV، ص 151ب، 155أ، 208 .

نستنتج من هذا الجدول أن الطريقة الفقهية المازرية بالمهدية تواصلت خلال القرنين السادس والسابع هـ رغم اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية بالبلاد، وظهر بالخصوص جيل من العلماء الذين أخذوا عن أبي زكريا البرقي في أواسط القرن السادس وبداية السابع هـ وقد برز عدد هام منهم في الافتاء والقضاء.

أما اللبياني فانه أشتهر بالفقه والأدب، ووضع تقييدا على المدونة . ثم تهافت على الخطط المخزنية حتى بلغ أقصاها ، لكنه انتهى نهاية درامية بعد أن أمر المستنصر بالقبض عليه وسجنه . ولم يكن أحمد اللبياني ليكتفي بخطة صاحب ديوان البحر، وكانت له علاقات تجارية مع تجار جنوة وصقلية ومرسيلية .

وقد ذكر الزركشي أن اللبياني عزم على الخروج على السّلطان في المهدية التي يبدو أنها مازالت آنذاك تطمح الى استرجاع مكانتها كحاضرة افريقية ، وقد عرفت المدينة قبل هذا التاريخ حركة عبد الكريم الرجراجي، وأصبحت عهد أبي زكريا والمستنصر منفى للمناوئين (1).

على أن صاحب خطة الانشاء والعلامة أحمد الغساني أمر المستنصر بالقبض على اللبياني ليرضي به " الخاصة والعامة " ، وبمصادرة ثروته الطائلة التي قيل إنّها بلغت نحو ثلاثمائة ألف دينار وحملت الى دار السكة. ولم يتمكن من الهروب الى صقلية وعذّب حتى الموت سنة 659 هـ/ 1241م. (2).

– أبو القاسم بن علي بن عبد العزيز بن البراء التنوخي المهدوي : ولد بالمهدية في حدود الثمانين وخمسمائة ، وتوفي بها سنة 677هـ/ 1278م ،وهو إمام وفقيه مشارك في أنواع العلوم، أخذ عن مشائخ بلده ثم رحل الى المشرق سنة 622هـ/ 1225م، حيث تابع دروسا بالحجاز والقاهرة والاسكندرية وألّف برنامجا في الشيوخ الذين أخذ عنهم، وبالخصوص جعفر الهمداني وأحمد السلفي.

(1) يبدو أنّه حاول القيام على بني حفص اذ كان يقول وهو المعروف بنظم الشعر :

في أم رأسي حديث لسامع ليس يذكر
فان تطاول عمري وساعد الجد يظهر
ارى جموعا صحاحا ومذهبي أن تكسر

اورد الزركشي (**تاريخ الدولتين** ، ص 25) سجن المطبق بالمهدية الذي حبس به شيوخ مرداس والذواودة سنة 628 هـ، ولعله يوافق الحارة التي تقع قرب زويلة والمسمّاة حاليا طابق الكلب .

(2) راجع حول اللبياني : التجاني ، **رحلة** ، تونس 1981، ص 371. الزركشي، **ن.م.**، ص36–37. ابن مخلوف ، ن.م.، ص 189 . ح-ح. عبد الوهاب، **مجمل تاريخ الادب التونسي**، تونس بدون تاريخ ، ص 195 .

وفي سنة 657 هـ/ 1258م، تولّى قضاء الجماعة بتونس خلفا لعبد الرحمان الشاطبي، وبعد سنتين عوض بأبي موسى عمران بن معمر الطرابلسي (1).

ومثّل ابن البراء أنموذج الفقيه المالكي الرافض لكل بدعة، ولعل في ذلك تواصلاً لتقاليد المازري. وقد تميّز في هذا الشأن بموقفه المناوئ لأبي الحسن الشاذلي اذ حرض السلطان على طرده من تونس (2).

وعند رحيله إلى مصر كتب لابن البراء قائلا " **تراني أوسع لك مدينة تونس** "، لكن القاضي أبى الاّ أن يتتبعه وهو في الاسكندرية، فبعث لواليها عقدا بالشهادة يقول فيه " **ان هذا الواصل اليكم شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل في بلادكم** "، فاعتقل هناك ثم أطلق سراحه.

وفي الحقيقة لم يكن ذلك مجرد نزاع بين الرجلين، إنّما مثّل منعرجا حاسما في تاريخ الفكر العربي عموما والمغربي خصوصا، وأرّخ بصفة جلية لنمو التيار الصوفي في البلاد، ولم يكن رحيل الشاذلي نهاية لهذا التيار الصّوفي الذي تمكن في وقت وجيز من الانتعاش ومن كسب أنصار بتونس، نذكر من بينهم جماعة الأربعين، وبالساحل أبو علي السماط بالمهدية وأبو محمد عبد الله المزدوري (3).

هذا الأنموذج الأول من العلماء كان متأثرا بالتقاليد التي ترسّخت مع المازري في الفقه. وقد تمّ معهم انتقال المالكيّة من المهديّة الى تونس .لكنّه شمل الى جانب الفقهاء، أدباء وشعراء عديدون، وكانوا في علاقة وطيدة مع المشرق. وقد بقي النّفس الأدبي في هذه المدرسة المازريّة حتّى القرن الثامن، فحفيد أبي القاسم بن البراء ظل يروي مقامات الحريري، بدويرة جامع الزيتونة، نقلا عن جدّه، فيما كان بعض الفقهاء المتزمّتين يستنكف من هذا الأدب.

---

(1) ذكر التجاني في شأنه ما يلي: " وكفى المهدية فخرا بعالميها وصالحيها أبا القاسم بن البراء وأبا عبد الله بن الخباز.. " ثم أضاف في شأنه: " انتهت اليه بالحضرة رئاسة العلم ورئاسة القرب من السلطان. انظر نفس المصادر المذكورة: التجاني، **رحلة**، ص 367-368. الزركشي، **تاريخ**، ص 35، 43. ابن مخلوف، **شجرة النّور الزكيّة**، ص 191.

(2) انظر: **مناقب**، مخطوط رقم 18441. **مناقب أبي الحسن الشاذلي**، ص 8. وتروي لنا كتب المناقب هذه الحادثة بشيء من الدقة، فبعد أن قدم أبو الحسن علي من غمارة بالمغرب الاقصى، استقر بشاذلة جنوب غربي تونس، ثم انتقل الى مدينة تونس في مرحلة ثانية، فتواطأ ضده الفقهاء " وعملوا فيه رقا ورفعوه لابن البراء انه سبّ أهل العلم والحديث ". وكان ابن البراء اذ ذاك قاضي الجماعة، فوشى به للسلطان قائلا: « ان ها هنا رجلا من أهل شاذلة سراق الحمير يدعي الشرف وقد اجتمع عليه خلق كثير، ويدعي انه فاطمي ويشوش بلادك ". **فقاموا** بامتحانه وجمعوا لذلك الفقهاء بالقصبة، بحضور السلطان، فأبدى معرفة بعلم الباطن حتى قال السلطان لابن البراء: « هذا رجل من أكابر الأولياء وما لك به طاقة ». وقد كان أخو السلطان أبو عبد الله اللحياني مناصرا لأبي الحسن علي الذي التجأ اليه خوفا من بطش السلطان وابن البراء. ولكنه أجبر في آخر الأمر على بيع منزله قرب مسجد البلاط بتونس والتحوّل الى مصر متظاهرا بنية الحج.

(3) **المصدر نفسه**، ص 12، 110.

ب) الأنموذج الثاني : صلحاء المدينة :

أصبحت هذه الجهة التي كانت جزءا من المزاق القديم، مجالا للقبائل البدوية، وأزداد تهميشها بانتقال مركز الحكم من القيروان فالمهدية الى تونس في أواسط القرن السادس هـ/ XIIم. وفي هذه الظرفية ظهرت حركة نهضة نسبية بالجهة في مطلع القرن السابع هـ/ XIIIم، مرتبطة الى حد بعيد باعادة استغلال الأرض المهملة، ملتجئة في ذلك الى النفوذ الوهمي للشيوخ المتصوّفة لحمايتهم من تعديات القبائل وحرابتها ومن هجومات القراصنة الأوروبيين.

وهكذا اقترنت أهميّة الزّاوية الساحلية بالموقع الاستراتيجي لها وبازدياد خطر الهجومات البحرية حتى أن هؤلاء المشائخ تحولوا في كثير من الأحيان الى محاربين أو مرابطين في الثغور الساحلية (1).

وبالتالي تركزت شبكة من الزوايا بوسط افريقية مترابطة فيما بينها منذ نهاية القرن السادس هـ وبداية السّابع هـ (2). فالمهدية كانت حلقة هامة في هذا المجال، وقد برز منها:

– أبو محمد عبد العزيز المهدوي: نشأ بالمهدية، وكان في بداية أمره أميّا، وبعد أن تعلّم القرآن، تحول الى المنستير للمرابطة في قصر ابن الجعد وأنقطع للعبادة فيه حتى الافراط، فتبرأ منه إمام جامع المهدية أبو القاسم بن زمر قائلا: " **ان مات عبد العزيز لا يصلى عليه لانه قاتل نفسه** ".

وتبدأ المرحلة الثانية من حياته مع تحوله الى بجاية للأخذ من الشيخ الأندلسي أبي مدين شعيب، وكان مع ستة من أصحابه، وهم: الطاهر المزوغي الذي أستوطن قصور الساف وأبن هناص ن لمطة وأبو يوسف يعقوب الدهماني من ناحية القيروان وسالم التباسي من المهرين ومحفوظ بن جعفر من ناحية بنزرت وأبو علي النفطي من الجريد، وقد كان هؤلاء من الأوائل الذين نشروا التصوّف بافريقيّة.

واذا كان أصحابه قد أكتفوا بالأخذ من متصوف الاندلس، فان عبد العزيز قام برحلة الى الشرق طلبا للعلم، وأستقر به المطاف بمصر. ولما أراد الرجوع، ركب البحر من الاسكندرية في اتجاه افريقية، فتعرض الجفن للقطع ووقع أسره وحمله الى مدينة مسينة بصقلية، فأرسل من هناك رسالة الى إمام قنا بالصعيد المصري يخبره فيها بحاله، وجاء فيها بالخصوص ما يدل على حنينه للوطن ورغبته في الخلاص من الأسر.

---

(1) من الأمثلة على ذلك، ما ذكره ابن ناجي (ج IV، ص 25) من أن سالم القديدي وأبا عمار المعروفي قادا المجموعات المقاتلة في الحرب الصليبية الثامنة بقرطاجنة، وهو أمر يأتي لينفي دعاوي أصحاب النظرية الانقسامية الذين يذهبون الى أن الصلحاء يمثّلون السلم والحياد.

(2) ابن ناجي، **ن.م.**، ج III، ص 52.

ويبدو أن هذه الحقبة الثانية المتميزة بالرحلة قد أثّرت فيه أيّما تأثير انعكس على هندامه وسلوكه اذ أصبح شيخا عليه لباس حسن " **حاله حال الملوك من الثياب المركب الحسن والمسك وما أشبهه** " (1) .

أما المرحلة الثالثة من حياته، فقد تميّزت بالاستقرار بضاحية تونس الشمالية، وبكثرة مراسلاته وزياراته لاصحابه، مثل أبي علي النفطي وأبي يوسف الدهماني. ووقف أبو زيد عبد الرحمان بن الدباغ على رسائل أبي محمد عبد العزيز لأبي يوسف . " فكانت بطاقات كبارا ويرسل الشيخ له بطاقات صغارا، فكان كلام شيخنا أبي يوسف تنبيها مختصرا مستوعبا لجوامع الكلم، وجواب الشيخ أبي محمد عن الكلمة بكلام كثير وعلوم ومعارف" (2) . ووقع بينهما لقاء بالمهدية وزويلة ، ولم يزل بينهما التراسل والتوادد حتى الآخر. كما تذكر كتب المناقب علاقات عبد العزيز القوية بصلحاء مدينة تونس، منهم أبو هلال عياد الزيات (توفي سنة 650هـ) وعبد السلام الكماد الذي وقع معه في الأسر وأبو عمران موسي الغفاري، وبالخصوص أبو سعيد الباجي المرابط بجبل المنار (3). ويبدو أن أمره اشتهر بمدينة تونس حتى أصبحت له زاوية كبيرة بها عدد هام من الفقراء في خدمته، وإمام بمسجدها (4). واستقر على ساحل البحر قرب جبل المنار مثل أبي سعيد الباجي، لأنّ الزوايا الساحلية ورثت وظيفة الرباطات في مراقبة الثغور الساحلية، حماية لها من القرصنة والقطع .

ومن جهة أخرى فان مراسلاته لم تنقطع مع شيخه أبي مدين شعيب بن حسن (ت 594هـ/ 1198 م) وهي نماذج من الفكر الصوفي الذي انتشر وقتذاك (5) .

---

(1) ممّا جاء في رسالته :

فان كتابي اليكم كتبته بلدة   مسيني وقلبي لكم تبع
وما قدر الرحمان كان وحسبنا رضى   يقتضي رضوانه بالذي صنع
...وقد يسر الرحمان أمر جميعنا   ولمّ من الشمل المشتت ما انفرع
ونحن بحمد الله نأمل أرضنا   وكل له قلب الى الأهل قد نزع

ابن الطواح ، **سبك المقال لفك العقال** ، تحقيق عبد الواحد الزغلامي، شهادة كفاءة في البحث، تونس 1978 ، ص7-17.

(2) **مناقب الدهماني** ، مخطوط ، ج II ،ص 104.

(3) **مناقب** ، مخطوط رقم 12544 ، ص 152. وفي مخطوط رقم 18555 ، توفي أبو هلال سنة 665 هـ.

(4) انظر : **مناقب أبي سعيد الباجي**، مخ. ، ص 27 .

(5) وهذه أمثلة على ذلك : رسالة بعثها الى أبي مدين ، ذات لغة متوغلة في الصوفية ختمها بشعر يحيّي به شيخه، وقال بالخصوص:

سلام على شمس الانام وبدره   ومجلي غياهب الدياجي بفجره...
شعيب ولي الله سر عباده   أبو مدين مغنى الانام وفخره

ونلمس في رسالة أخرى شوقا ولهفة حارتين لرؤية شيخه، اذ قال في مطلعها :

أراك كم أبغي أراك   وكيف ومهجتي أبدا تراكا

ابن الطواح ، **ن.م.**، ص 15 .

ويتضح من خلال جواب أبي مدين أن هذه المراسلات بين الشيخين كانت شبه منتظمة، وأنها كانت تصل مع المراكب البحرية الرابطة بين تونس وبجاية، وأن الشيخ أبا مدين كان على علم بتطور وضعية عبد العزيز وبتدعيم مكانته بافريقية (1) .

ج) الأنموذج الثالث : الزّوايا الريفية :

– *زاوية الطاهر المزوغي بقصور الساف* : ذكر مقديش أن " **أصله من عرب مزوغة بافريقية** " (2) . أخذ بدوره عن أبي مدين شعيب بن الحسن صحبة عبد العزيز المهدوي ، وكان أصغرهم سنا (3) .

واستقر في بداية أمره بتونس ثم انتقل الى البادية وانتهى به المقام الى قصور الساف حيث توفي سنة 646 هـ/ 1248م. وقد ذكر أبو علي السماط الذي أخذ عنه أنه انتهى من العمر الى سبعين سنة، بينما ذكر مقديش أنه توفي في سن الثمانين(4).

ويتضح من الرواية الواردة في كتب المناقب معاداته للخليفة الموحدي السعيد الذي مات في غزوة تلمسان سنة 641 هـ/ 1243م(5)، ولاشك أن ذلك يعني موالاته للحركة الاستقلاليّة لبني حفص ابتداء من سنة 625 هـ/ 1228م .

كان يزور أبا يوسف الدهماني عندما كان مقيما بالمهدية، بقرية هيبون . لكنّه فضّل الاستقرار بنواحي المهديّة، والاجتماع بهيبون وغيرها من القصور السّاحليّة المجاورة. ويبدو أن المزوغي كان أقل شأنا من صاحبيه أبي يوسف وعبد العزيز، اذ كان يقر لهما بغزارة العلم (6). ثم انه لما انتصب للتدريس ببلدته، لم يجد اقبالا على دروسه ولا رغبة فيها ، حتى أنه عبّر عن هذه الفشل بقوله: " ما لي منكم تلميذ ولا أنتم معي الا على اختياركم، لا على ما أريده منكم ولا فيكم من أتاني بحقيقة متمكنة "... (7) .

---

(1) خاطبه بما يلي : " تقول فيسمع منك ، وتأمر فينفّذ أمرك ، فيالها نعمة ، فاحترز من النعمة أشد من احترازك من المصيبة " المصدر نفسه، ص 15-17.

(2)مقديش ، **ن.م.** ، ج II ، ص 1125. **مناقب**، مخطوط رقم 18441 ، ص 44/ 88 .

(3) ابن الطواح ، **ن.م.** ، ص 9 .

(4) مخ. رقم 18441 ، ص 44/ 88 . مقديش، **نفس المصدر والصحيفة** .

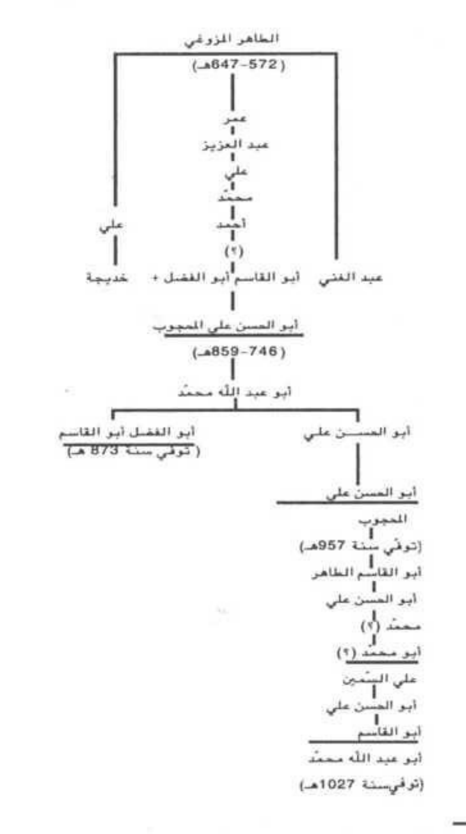
(5) نفس المخطوط ونفس الصحيفة .

(6) الدبّاغ، **مناقب الدهماني** ، ص 16.

(7) **ن.م.**، ج II ، ص 61 ب.

والظاهر أن مواقفه تميزت بالتشدّد، اذ كان لا يقبل بسهولة التّوبة ويشترط في صاحبها المثالية التامة، ويعترف أن هذا الأمر صعب وأن " **ماله تلميذ بحقيقة**" (1). وعموما فان هذه السلوكية المثالية تتجلى في أكثر من خبر، وهي كافية للدلالة على مدى انحسار الحركة الصوفية في مجموعات محدودة في بداية ظهورها في أواخر القرن السادس هـ/ الثاني عشر م . وهي حركة تغلب فيها الثابت على المتحول، حتى انّه تكوّنت أسر بقيت متوارثة لهذا الأمر طيلة قرون عديدة، من القرن السادس هـ الى نهاية العصر الحديث. وتمثل شجرة أنساب أبناء الطاهر المزوغي مثالا على ذلك ، وقد توصّلنا الى اقامتها اعتمادا على المصادر المكتوبة، وبالخصوص كتاب مقديش وبعض وثائق الحبس وعلى القبريات الثلاثة التي عثرنا عليها، وهي مؤرخة على التوالي أعوام : 859هـ، 873هـ، 1027 هـ، وتكوّنت من عشرين طبقة ، من القرن السابع هـ الى الحادي عشر هـ.

شجرة أنساب أبناء الطاهر المزوغي



(1) ن.م.، ج II ، ص 164، 1103.

ان هذا التواصل له أكثر من دلالة اجتماعية ، فهو يأتي حجة على وجود أسر صوفية شبه ثابتة، مرتبطة بمؤسسة الزاوية ، وحريصة على المحافظة على امتيازاتها وعدم التفريط فيها بسهولة، شأنها في ذلك شأن بقية القوى الاقطاعية الأخرى، ولنا مثال آخر بملول .

– *زاوية أبي محمد عبد الناظر بملول* : ورد ذكر أبي محمد عبد الناظر الحميري في كتاب معالم الايمان ، وقد كان معاصرا لغفيرة الساحل أم سلامة (ت سنة 670هـ/ 1271م) ولابنها سالم القديدي (ت سنة 697 هـ/ 1297م) الذي تدخل لحل نزاع نشب بين القريتين المتجاورتين : عروة وملول. أما حفيده أبو النور أبو الضياء ، فانه عاصر أبا البقاء عياش وابنه عبد العزيز بطبلبة وتوفي في عهد الصدفي ، أي قبل سنة 772 هـ/ 1370م (1). وقد مكنتنا القبريات الثلاثة التي عثرنا عليها بملول من تتبع هذه العائلة طيلة أربعة أجيال:

أبو محمد عبد الناظر الحميري (563 هـ–673 هـ)
أبو عبد الله محمد (ت 720 هـ)
أبو النور أبو الضياء (ت قبل 772 هـ)
سالم (ت 800 هـ) (2) .

وفي الختام ، تتميز فئة العلماء بالمدينة بعدة خصائص: فهي ليست متجانسة أفقيا اذ تتنوع داخلها الأصناف، من فقهاء ومحدثين وشعراء وأدباء وصلحاء مالكين وصلحاء شعبيين شبه أميين الخ.. ولا عموديا، فالمرجعية الاقتصادية تبيّن التفاوت الكبير بين الثروات الطائلة للبعض منهم (الللياني مثلا) والحياة المتقشفة لجلّهم، والعلاقات الانتاجية مختلفة بين من يأخذ الاتاوات على التجارة أو يتقاضى مرتّبات حكومية من جهة ، وبين من يعيش من استغلال الأرض بطريقة غير مباشرة بالنسبة للشيوخ الذين يعقدون الشركات ويشغلون الخماسة، أو يستغلون مباشرة الأرض وهم صغار الشيوخ ، والفقراء المعدمين .

ولئن عرفت هذه الفئة اتساعا في هرمها من الأسفل ، بظهور صنف الشيوخ المرابطين ، فان ممارسات هؤلاء كانت في الغالب طوبائية ومسكنة لردع الظلم وحماية الحضر واطعام الجائعين.. وساهمتْ في نشر ثقافة رديئة ، ولم تتمكن من تقديم الحلول الناجعة لمخاض عسير وطويل عرفتهُ بلاد المغرب، لأنّ هذه

(1) ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 88، 172، 177 .
(2) ذكر في مخطوط رقم 18555 فقيه آخر من ملول : الفقيه المكرم أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي زيان الملولي، وقد أستوطن القيروان . راجع أيضًا : الجزء الأوّل (ملول).

الثقافة الغيبية كانت وليدة منحدر ثقافي وعشّشت في الأزمة، وكانت دائما مشدودة الى الماضي، متغذّية في ذلك بالاحباط وشتى التوترات الاجتماعية، وبالتالي فانها لم تفض الى فكر خلاق، وان كانت قد قامت بعدة أدوار اجتماعية وسياسية عسكرية.

IV-ثقافة الأعراب الشفويّة :

1- المعتقد لدى البدو :

ليس نادرا قيام البدو بمحاصرة المزارعين، وإخافة المرابطين السّاكنين في القرى ، وتهديدهم اذا لم يعطوهم ما يقتاتون به ، دونما مراعاة لمكانتهم في المجتمع(1).

قال ابن ناجي متحدّثا عن معاملة البدو للصّلحاء بوطن القيروان : « **يأتي المحاربون لبعض المرابطين السّاكنين في القرى ، فيطلبونهم فيما يأكلونه وما تعلف به بهائمهم ، ثمّ يغيرون على النّاس بعد أنصرافهم من عندهم . واذا لم يفعل ذلك هؤلاء المرابطين ، فانّ المحاربين يغيرون على ماشيتهم ويفسدون زروعهم** "..(2) .

وكما كان البدو يستخفّون بالمرابطين ، فانهم لم يكونوا يعيرون وزنا كبيرا لعلماء المدينة ومؤسساتها الدّينية . وحادثة هدّاج الكعبي بجامع الزّيتونة شهيرة في هذا الصّدد : فقد دخل المسجد الجامع بخفيّه سنة 705هـ/ 1305م ، ولمّا نهاه النّاس عن ذلك، أجابهم بأنه دخل بها مجلس السلطان (3) .

ولم تكن النّزلة وهي المكان الذي يحطّ فيه البدو رحالهم مجالا ملائما لأداء الصّلاة الجماعيّة ، كما أنّ ثقافة البادية لا تساعد على وجود أئمّة من بينهم (4) .

وفي أواسط القرن العاشر هـ / XVI ، زار عرفة الشّابي قبيلة الطرود بالصّحراء، "**فوجدهم يفطرون رمضان وليس لهم من الاسلام الا الاسم**" ، فأخذ في ارشادهم (5) .

ولنا رواية أخرى ترجع الى هذا العصر، وتدلّ على سلوكيّة التمرّد عند انحباس المطر عنهم ، اذ قال أحد البدو :« **ربّ العباد.. مالها ومالك / قد كنت تسقينا فما بدالك ...** » (6).

---

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج I ، ص 1114.

(2) ابن ناجي ، **شرح الرسالة** ، ج II ، ص 209 ب .

(3) الزركشي ، **تاريخ** ، ص 56 . الأبيّ ، **الاكمال** . ج II ، ص 251 . ج III ، ص 28 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 715 . الونشريسي ، **المعيار** ،ج I، ص1، 6،22.

(4) البرزلي ، **نوازل** ، ج I ، ص 64ب ، 110 ب – 111أ الونشريسي ، **المعيار** ، ج VI ، ص 332 (حول تقديم أهل البادية الامام واقتطاع السّدس من أرض محبسة على المسجد لاعطائها مرتب للامام ...).

(5) علي الشابي ، **عرفة الشابي** ، الدار العربية للكتاب ، 1982 ، ص 77 . سعد غراب ، موقف الفقهاء والمغاربة من المجموعة الريفيّة، **اعمال المؤتمر الثالث لتاريخ المغرب وحضارته**، وهران 1983 ، ص 84 .

(6) البرزلي ، **جامع مسائل الاحكام** . انظر سعد غراب ، موقف الفقهاء المغاربة ، الاحالة السابقة .

وبالتالي تميّز البدو بقلّة الحرص على ممارسة الطقوس الدّينيّة ، وبوجود خطط خاصّة بهم ، من ذلك الفريض والكاهن .

فالأوّل هو بمثابة المفتي الذي يرجعون الى أحكامه ، وقد كان للمحاميد فريضٌ ، لا يرجع في أحكامه الى شيء من حكم الشرع ، حسب عبارة التجاني . وكان لهم كاهن من العرب، أسود اللّون، ادّعوا صدقه ورووا عنه حكايات عديدة، وشعرا يتكهّن فيه بالمستقبل ، لكن أحد علماء المدينة، وهو صاحب الرّحلة ، اعتبر الأمر هراء لا طائل من ورائه (1).

كما بدأ الصلحاء وأصحاب الزّوايا يتسرّبون الى البدو ، في موازاة لعملية استتابتهم . وكان قاسم بن مرا من الأمثلة الأولى التي ذكرت في هذا الصّدد (2) .

فقد أنتمى الى قبيلة الكعوب، بوسط افريقيّة ، وأخذ من شيخه أبي يعقوب الدّهماني(ت. 621هـ/ 1224م). وعند رجوعه الى أهله، استنكر حرابتهم وقطعهم للطرقات، وضعف معتقدهم. وتمكّن من جمع العوام حوله ، ومن تكوين مجموعة للمرابطين أطلقوا على أنفسهم تسمية الجنّادة. وبدأو في قتل المحاربين وتأمين الطّرقات . لكن مشائخ البدو الكعوب رفضوا هذه الحركة بآعتبارها خروج عن الجماعة والسّلطة، ووشوا به للسلطان أبي حفص عمر. وبعد مقتله، خلفه ابنه رافع الذي لقي نفس المصير سنة 706هـ/ 1306م، لكن هذه المرّة تحرّكت قبيلة أبي الليل المناصرة له، مطالبة بثأره من الفرع الثاني : أولاده مهلهل.

وفي نفس تلك الحقبة، ظهرت حركة ثانية مشابهة ببلاد الزّاب، تزعّمها سعادة الرّياحي، الذي أخذ المبادئ الأولى للتعليم بتازا، ثمّ عاد "محتسبا" ، فوجد أتباعًا كثيرين من مشائخ بني هلال وعامتهم أصبحوا يعرفون بالسنيّة . وقاموا مرابطين لمحاربة قطاع الطرق واللّصوص ، وأستطاعت هذه الحركة أن تسيطر على مقاطعة الزّاب ومهاجمة مدينة بسكرة انطلاقا من الزّاوية التي بناها بطولقة، وبعد مقتل سعادة سنة 705هـ/ 1305م، تحوّل أنصاره الى الصّحراء محاولين الثأر لصاحبهم، وإحياء " السنّة " ، لكن دون جدوى (3).

---

(1) التجاني ، **رحلة** ، ص 188، 189، 197 .
(2) ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 160–162 .
(3) ابن خلدون، **تاريخ** ، ج VI، ص 81–85 .
M.Brett, Arabs, Berbers and Holymen in Southern Ifriqiya, **C.T.** n°117-118, 1980, pp.533-560.
Brunschvig, **Hafsides**, TII ,p.333, 334.
راجع المعطيات الأخرى حول الزاوية الريفيّة في الفصل الأول، الجزء الخاص بجنوب شرق افريقيّة، وفي الفصل الخاصّ بتوبة الأعراب .

وهكذا نلحظ أن المرابطة دخلت في كلتا الحالتين في مجابهة مع الحرابة البدويّة، وبالتالي مع النّمط التّقليدي لحياة القبيلة، بعد أن حاولت تغيير هياكلها، كما دخلت في تنافس مع المخزن لأنّها عملت على تعويضها في مستوى الجباية والأمن . وهو ما يفسّر فشلها .

2) القيـــم الأخـــرى :

أ) كيفيّة التّعامل مع الطبيعة :

أولى البدو عناية فائقة بالنجوم التي قادتهم في حلهم وترحالهم ، حتّى خصّص لها حيز هام في تراثهم ، ومما يذكر في تقاليدهم ما يتعلق بظهور نجم سهيل، الذي كان مبدأ ظهوره في بلاد افريقية عند الفجر في السابع من شهر سبتمبر .

ومن أساطير العرب القديمة أن سهيلا والضبّ كانا مكّاسين على تجّار البر والبحر، فمسخهما اللّه عقوبة لهما ، وجعل أحدهما نجما في السّماء والآخر حيوانا في الارض . كما يزعمون أنّ الابل تستدبره ساعة طلوعه، فتولّي وجوهها عنه وانّه يسبّب موتها، ووقوع الوباء فيها . ويبدو أنّ معتقدات أعراب افريقية كانت على عكس ذلك، فطلوعه عندهم هو أمان للابل المغشوشة من الموت ، وقالوا : **"فما لم يمت بالغش قبل طلوعه ، لا يموت بعده"** .

وكانت العرب عند طلوعه تفصل الحوران من أمّهاتها ، ويقال أنّ ذلك سبب كراهة الابل لسهيل . ولهذا قال ساجعهم : **« اذا طلع سهيل ، برد اللّيل، وخيف السّيل وأمتنع القيل »** : بمعنى أنه بداية لفصل الخريف المقترن بالبرد والمطر، وأفول الصّيف وقيضه .

ومن أمثلة الأعراب الأخرى : **« إذا طلعت الجبهة ، تحانت الولهة ، وتنازعت السّفهة وقلّت في الأرض الرّفهة »** : بمعنى عند طلوع هذا النجم ، تحنّ الابل الى أبنائها، وتكثر نزاعات العامّة وغاراتهم بعد أن ينقطع اللّبن عنهم، وتتولّى الابل ارضاع ابنائها ، وتقلّ الحبوب في فصل الخريف، وبالتالي الرّفاهة(1).

وقد أبرز المثل الأوّل فترة انتقالية بين جفاف الصيف وحرارته وبرودة الشّتاء وسيوله ، وذلك عن طريق استغلال حركة النّجوم (علم الفلك) لتفسير الظواهر الطبيعية من فصول وأحوال الطقس الخ... وتتضح من خلال هذه الصّورة العلاقة التكاملية بين الارض والسّماء ، فالعالم كلّه مغلق في ذاته، ليس بين الجزء

---

(1) التجاني ، **رحلة**، ص 59–64 . ومازال البدو بجنوب شرقي افريقية يقولون : " نوّ سهيل / جابك من اللّيل . ونو المرزم / جاءه متحزّم . (وهي من نجوم المطر) .

السّفلي منه والعلوي انفصال ، وهذا يتساوق مع الرؤية الفلسفية للكون في كتب الفلاسفة الاسلاميين (ابن سينا والتوحيدي) : عدم الفصل بين العالمين ، تفسير السياسة بهذه العلاقة بين العالم السفلي والعالم الفوقي.

على أنّ ذلك، ليس نتاج رؤية فلسفية متكاملة كما هو وارد عند المفكرين ، انّما هو وليد الملاحظة الدّقيقة للتحوّلات الطبيعية ، حتى أنه أصبح قادرا على استكناه أغوارها وكشف أسرارها. فشدّة ارتباطه بالطبيعة وانصهاره فيها قرّبه الى كنهها، وجعله يدرك عمقها وحقيقتها ادراكا حسيّا ووجدانيا، لا عن رويّة وتفكير علمي.

أما المثل الثاني ، فهو يعني أنّ السفهاء تكثر الإحن بينهم عندما يسوء حالهم الاقتصادي في فصل الخريف، حيث تقلّ موارد العيش ، فيجف الضّرع الا عن أحماله، ولا يبقى من مخزون الحبوب الاّ فضلة ، لا يستقيم بها العيش .

فالبدوي يؤرّخ لنمط عيشه وعلاقته بالأرض والسّوائم والفصول بهذه الأمثال الضاربة جذورها في واقعها الماديّ ، وبالتالي فان المثل هو صوت القبائل البدويّة .

ب) الفروسيّة :

شكّلت القيم لدى البدو من شرف و مروءة وشجاعة و كرم وفروسيّة المُثل العليا للقبائل البدويّة، وأعتبرت الفروسيّة القيمة الأولى لها.

وبالتالي ارتكزت دعوة الموحدين على "**جهاد الكفّار والمارقين** "على فروسية الأعراب منذ فترة عبد المؤمن الذي استعدّ لمحاربة ابن مردنيش سنة 557هـ/ 1162 م بجيش قوامه 14000 فارس بدوي حسب البيذق . وقد أورد ابن الأثير خطبة لعبد المؤمن حثّ فيها شيوخ بني رياح للمشاركة معه في الحرب بالاندلس لتعبئة 10000 فارسا (1) .

كما دعا أبو يعقوب يوسف الأعراب للمشاركة في حرب الأندلس ، من خلال قصيدة نظمها ابن طفيل للغرض سنة 586 هـ/ 1190، واستعمل الناصر عند موقعة العقاب الشعر لتحريض فرسان البدو (2) .

وأثناء الحرب الصليبيّة الثامنة سنة 668/ 1270م، برز بعض فرسان حكيم وكعب في المعركة، مثل ميمون بن كرفاح الوائلي الذي أقطعه السلطان أراضي شاسعة جزاء له(3) .

---

(1) **رسائل موحدية** ، رسالة عدد XXVI ، ص 152–154 . ابن الأثير، **الكامل** ، ج IX ، ص 245/ 590 .

(2) راجع الفصل : حركات البدو بجنوب افريقيّة (579–630هـ) .

(3) راجع اقطاع ميمون بن كرفاح (فصل اقطاع الاراضي) .

ومنذ العهد الموحدي ، اعتبر الفارس العربي له مقدرة قتالية أكثر من المصامدة. ولم يستغن أيّ خليفة موحدي ، ولا حفصي من بعدهم عن هذه القبائل في الحرب ، حسبما أشار الى ذلك ابن خلدون والحسن الوزان ومارمول . فقد كانوا أحسن فرسان في مملكة فاس وتونس ، وأصبحت منذ ذلك العهد عبارات "خيل العرب " وفرسان العرب " ذات مدلول هام " (1) .

وظلّت خطة العرب التقليدية المعروفة منذ الجاهلية ، والمتمثّلة في الكر والفرّ، مستعملة من طرف هذه القبائل ، وهي خطّة لا تلائم المناطق الجبلية الوعرة(2).

وفي الجملة ، فانّ فروسيّة الأعراب أصبحت مضرب الأمثال ، سواء في المبارزة الفرديّة أوالمعارك على الخيل والالتحام مع العدو أو في محاصرة الاسوار (3) .

وتعوّد البدو على حضور النّساء، عند المعركة لحثّهم على الاستبسال في القتال، وهي عادة جاهلية ، تواصلت في الاسلام الأول . ومن الأمثلة على ذلك ما وقع أثناء حملة الناصر على افريقية، وفي معركة جبل نفوسة (4) .

3) بعض المظاهر من ثقافتهم :

أ) اللّسان البدوي :

تميّز اللّسان البدوي بفصاحته وابتعاده عن الحوشي من الكلام والمصطلحات الأعجميّة التي كثر استعمالها في المدن السّاحليّة ، وقد ظلّت لغة البدو محافظة على الفصيح من اللّغة العربيّة .

وفي هذا الصدد ، ذكر العبدري أنّ عرب برقة (الهيت) من أفصح العرب ، وأكثر فصاحة من عرب الحجاز، لأنّه لم يكثر ورود النّاس عليهم ، فلم يختلط كلامهم بغيره ، فبقوا على عروبتهم لم يفسد من كلامهم الاّ القليل ، ولغتهم لا تخلو من الاعراب ، وقد ذكرت أمثلة تبيّن الخصائص التالية في قواعد الاعراب:

– نصب المفعول به وإثباته ، وليس في بلاد المغرب حضري أو بدوي يفعل ذلك، ومن الأمثلة على ذلك : **«قال لهم أطفال : يا حجّاج معكم شيء تبيعونَهْ، باثبات النّون وسكون الهاء للوقف» .**

---

(1) ابن خلدون : **المقدمة** ، الفصل 18 . الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II ، ص78–81. مارمول ، **افريقيا** ج III ، ص 19–61.

(2) ابن خلدون ، **المقدمة** ، ص 335 .

(3) ابن الاثير ، **الكامل** ، ج XI ، ص 390 ، ابن صاحب الصلاة ، **المن بالامامة**، ص 373 .

(4) راجع مشاركة نساء عرب القيروان اثناء موقعتي القرن والأصنام: الرقيق ، **تاريخ** ، ص 120. ابن عذاري ، **البيان** ، ج III ، ص 246 ، 255 . ابن خلدون ، **تاريخ** ، ج VI ، ص 28 ، 376 .

« وقال إعرابي لامرأة : والله ما تذوقينَهْ ، فأتى بضـمير المخاطبة على وجهها وأثبتَ النّون وسكّن الهـاء» .

– اثبـات الصيـغة الصـرفيّـة الأنسب لأداء المعنى المقصـود وتصحـيح النّطق ، مثال :

« وسمع بدوي شـخصا من القـافلة يقول : من يكري زاملة . فـقال له: اعندك الزّاملة . فقال : نعم . قال : فلا تقل من يكري وقل من يستكري .

« وقال أحـد الحجّاج : في هذا الماء رائحـة الحَبَل ، وحرّك البـاء على عادة أهل المغرب ، يعني الرّشاء المستقى به، فسمعه أعرابي ، فـاصلحه وقال له : الحبْل ولا تقل الحبل» .

– وتتميّز لهجتهم باستعمال الألفاظ النّادرة ، على سجيّتهم ، مثال :

«قال أحد الأعراب للعبدري : يا سيدي تدعني أظهر يعني أخرج . وقال أحدهم : إذا ظهرتم في الغابة ، فخذ صوب كذا، بمعنى اذا خرجتم منها» .

« وسمع صبيًا ينادي في الرّكب : أحجّاج من يشـتري الصّفيف ؟ فلم يفـهمه أحد ، باستثناء العبدري ، حتى أبرز لحم ظبي مقدّد . والصفيف بمعنى القديد» .

« وقال أحدهم : مـاء غرّ (بمعنى غير مـعين) وهو لفظ استعمله أبو عـبيد في غريبه»

« وقال أخر ، وقد ازدحم النّاس في مضيق ، تنحّوا عن الدّرب» (1).

ومن الفـصيح في لغـة الأعراب ، ما ذكـره التجـاني على لسانهم : قـال الولد لأبيه: **" يا أبت أين يروحوا بنا . فقـال : الى حيث رحنا بآبائهم** . وقد جرى بينهم فـــي بوغـرارة قولهم : **" أمـرأ باقل ترعى الابل به في تلك الأرض "** ، والباقل عندهم هو اسم مـرعى من النّبات مـخصـوص ، ولغة أطلق على كل مـوضـع أنبت البقل (2) .

ووردت في النّصوص عدّة صيغ بدويّة على لســان الأعراب ، من ذلك ما قاله الدّهمانـي مخاطبا جماعة من المزارعين ، مـستفسرا عن أحد أصحابه : أبو الحسن علـي : « واين علي ؟! » كما جـاء على لسان المتـصرّف على أبي يوسف بن يعقوب الدّهمانـــي ، في لغـة شعبيّة : **« يقول لك سيـــدي هـات تلك الدّراهم كلّها وعددها كذا وكذا "** (3) .

---

(1) العبدري ، **رحلة** ، ص 88–89 . ومازال فعل ظهر مستعملا بهذا المعنى في الجنوب التّونسي.

(2) التجاني ، **رحلة** ، ص 110، 132 .

(3) **مناقب الدّهماني** ، ج 1 ، ص 21 ب ، 122.

وبالتالي ، تمثّل صـــفاء اللسان البدوي في الاستعـمالات النّحوية والتركيبيّة الفصيحة ، لأنّ البدوي لم تداخل لهـجته عجمة أو رطانة . وهذا يوحي أن بدو هذه المنطقة خلّص لم يمتزجوا بنمط عيش آخر . وبديهي القول أنّ حركة جمع اللّغة منذ القـرن الثاني هـ ، تركّـزت على استـعـمالات البـدو ، لأنّهم بقـوا محـافظين على الفصيح في التّركيب والمعنى . فالبدو معين لاينضب ومرجع لعلماء اللغة والانساب لتصحيح مـسار اللّسان العربي وإثباته. ممّا أبرز دورهـم الحضــاري ، فهم ليسوا مجرّد جفاة متعجرفين ، ولا قطاع طرق محاربين .

ب) السيرة الـهلالية :مثّلت السـيرة الهلالية ملحـمة قبائل البـدو التي تجاوز أنتشارها المجـال القبلي والحضري كي تشمل سائر البـلاد العربيّة وبعض البلدان الاسلاميـة الأخرى. فهذه " الالياذة" الخالدة جـاءت مفعمة بالقيم الانسـانية مثل الكرم والشجـاعة والمروءة والصّبـر والمغامرة وغـيرها، وهو ما يفـسّر استـمرار تداولها طيلة قرون عـديدة من الزمن ، باعتبارها تلبّي رغبـات كل هذه الأجيال في المدينة والرّيف، فضلا عن الجماليّة الفنيّة التي تميّزت بها .

وممّا يأتي دليلا على أهميتها أنّ عبد الرحمن بن خلدون نفسه لم يستطع غضّ النّظر عن هذه الظاهرة الهـامّة التي خصّت عصـره، وهي رواية السّيرة الهـلاليّة، وذلك رغم استنكـاف خاصّة الحـضر من روايتهـا . وقد أفرد لهـا حيـزا هامّا من مقدّمته.

وذكر أشرافهم بدءا بحسن بن سرحان، رئيس دريد، وذياب بن غانم من بني ثور وزيد بن زيدان من الضحّـاك وغيرهم كـثير، حسـبما ورد في أشعـار البدو ، وهي أشعـار ذات رويّ (الحرف الأخير من القـافية) شبـيه بما هو معروف حـاليا بالبادية.

كـما أورد حكاية الجـازية الهـلاليّة والشّـريف بن هاشم، مـعـتبـرا إيّاها من الرّوايات التي يتداولونها حول كيفيّة دخولهم البلاد، مع كثير من الوضـع والمزاعم ، مشيـرا الى أهميّة الشّعر فـيها، المطبوع والمنتحل والمصنـوع، وهو نظم ابتعد عن قواعد النحو وان كان قد حافظ على جانب الفصيح والبليغ في اللغة. وممّا له مغزاه أنّ ابن خلدون لم يذهب مذهب **" الخاصّـة من أهل العلم بالمدن "** الذين آستـنكفوا من رواية هذه الاشـعار، وزهدوا فيـها بناء على الخلـل النحوي الموجود بـها، ولم يعتبر مثلهم أنّ النّحو والاعراب هما أصل البـلاغة، وهو موقف متقدّم ينمّ عن سعة اطّلاع ورؤية شاملة للثقافة الشّعبية غير متقوقعة في " الثقافة العالمة " .

وبالتالي ، فـرغم الاحتراز الذي أبداه في صحّـة الكثير منها، فـانّه أورد ذكر بعض الأشعار وقبائلهم مفـصّلة ، وكان على اتّصال قويّ بمشائخ الأعراب، وذلك

خلافا للفقهاء الذين وقفوا موقف المتحرّي من التّعامل معهم. بل انّه ارتبط مع البعض منهم بعلاقات صداقة، وكان يورد عبارات من نوع: " **أخبرني من أثق به من الهلاليين** " (1).

واذا نظرنا إلى هذه السّيرة من داخل عالم الأعراب، فانّنا نلحظ شدّة تشبّثهم بها، وتداولهم على روايتها، وتقديمهم لها حتى «**يكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم**».

وممّا يبيّن ذلك أنّ بعض أعلامهم المغاربة من القرن الثامن هـ/ XIVم، سعى الى البحث عن صحّة هذه الجذور ومعرفة بلاد الشريف بن هاشم، مدّعيا أنّه عثر عليها بأرض نجد، بالجزيرة العربيّة (2).

على أنّ هذا المجال الثّقافي، رغم تحرّيات فئة الخاصّة بالمدن، تمكّن من اقتحام أبواب المدن والتسرّب الى مختلف الفئات الاجتماعيّة، التي وجدت فيه ملحمة تروي القيم والأخلاق البدويّة، فاستهوتها وتداولتها في مجالسها.

ج) **الشعر**: خصّص ابن خلدون فصلا في المقدّمة لأشعار العرب في عهده، مبيّنا أنّ هذا الشعر الذي ينظمونه يلحنون فيه ألحانا بسيطة ويتغنّون به، ويتضمّن نوع "مغصّن" على أربعة أجزاء، يخالف آخرها البقية، ويلتزمون القافية الرّابعة في كلّ بيت، أشبه ما يكون بالمربّع والمخمّس. واعتبر صاحب المقدمة أنّ لهؤلاء البدو بلاغة فائقة في نظم الشعر، وفيهم الفحول من الشعراء.

أمّا رؤية الخاصّة من العلماء بالمدن لهذه الثقافة الشعبيّة، فهي لا تخلو من الاحتقار والتهجين رافضة الاختلاف في اللّسان وغياب الإعراب في الشّعر. وقلنا ان ابن خلدون قد تعامل عالم الاجتماع الذي لا يستنكف من ثقافة ما، وتعرّض لأنصار الثقافة العالمة اللذين دعوا الى نسق واحد للشعر والبلاغة موضّحا «**انّما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الموجود فيه، سواء كان الرفع دالا على الفاعل، والنّصب دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدلّ على ذلك قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه**»(3).

وبالتالي فقد أورد قصيدا أولا جاء على لسان الشريف بن هاشم الذي يذكر الجازية بنت سرحان، مطلعها:

(1) ابن خلدون، **المقدّمة**، ص 41،35.
(2) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 40–41.
(3) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 1126. راجع الجزء الأوّل: الفصل المخصّص لوادران.

قال الشريــــف بن هاشــم علـي   ترى كبدي حرّى شكت من زفيرها
وباتت دموع العين ذارفات لشانـها   شبيــه دوّار السوانـــي يديــرها

وقصيدا ثانيا في رثاء أمير زناتة أبي سعدى خليفة، على وجه التهكّم، وممّا ورد في هذا القصيد في تحديد مكان مقتله، بوادران (قرب المزّونة) قوله:

أيا سائلي على قبر الزّناتي خليفــة   خذ النّعت منّي لا تكون هبيــل
تــراه يعالــي وادران وفوقـــه   من الرّبط عيساوي بناه طويــل

وتناولت قصائد أخرى الجانب الوثائقي الخاصّ بالتّغريبة الهلاليّة وتغلّبهم على زناتة، وممّا ورد حول الرّحلة:

وأمرت قومي بالرّحيل وبكّروا   وقــووا وشـدّاد الحـوايا حميلــها
قعدنا سبعة أيّام محبوس نجعنا   والبـدو مـا تـرفع محمـــود يقيلها
نظل على حـداب الثنايا تــوازي   يظل الجري فوق النّضا ونصيلها (1)

ومن القصائد المطوّلة الوارد ذكرها ما نظمها سلطان بن مظفّر بن يحيى، من الدواودة، لمّا اعتقله أبي زكريا الأوّل بسجن المهديّة، وممّا ورد فيها حول أسياد بني هلال:

وتلقى سراة بني هلال بــن عامر   يزيــــل الصّدا والغلّ عني سلامها
بهم تضرب الأمثال شرقا ومغربا   اذا قاتلــوا قوما سريــع انهزامها

ومن الواضح أنّ اللّغة المعتمدة تقترب كثيرا من الفصيح في اللّغة العربيّة، ويبدو أنّ أمثالا قديمة وأشعار المعلّقات ظلّت راسخة في مخيالهم، وهذا البيت الذي نورده جاء مطابق المعنى لبيت عنترة بن شدّاد، واذا نزلت بدار ذلّ فارحل/...، اذ قال:

اذا ريت ناس يغلقو عنك بابهم   ظهور المطايا يفتح اللّه باب (2)

ويصبح الشعر الرّاجع الى القرن الثامن هـ/ XIVم، أكثر قربا من شعر

(1) ن.م.، 1126–1129.
(2) ن.م.، ص 1130، 1132.

البادية المغربية حاليا، كما يتضح من القصيدة ذات الطابع السّياسي التي أنشدها أحد الكعوب ومطلعها :

يقول بلا جـهل فـتى الجـود خالـد　　مقالـة قـوّال وقـال صـواب ...
وحزنا حمى وطـن بترشيش بعـدما　　نفقـنا عليـه سبـقا ورقـاب ...
..وان ما وطا ترشيـش يضياق وسعها　　عليـه ويمشـي بالفزوع لزاب ...
حرام على ابن تافراكين ما مـــضـى　　من الـودّ الاّ مـا بدّل بحـراب (1)

وتشير قصيدة أخرى ، تستعـمل العدّ، كتبت بعد الطاعون الجارف الى الجوع في البيت التالي : متى كان يوم القحط يا أمير أبو علي　يلقـى سعايا صايريـن قدّام(2)

وأوردت مصادر أخـرى قصائد بدويّة أخرى، في شتّى الأغـراض الشعريّة ، وأهمّها:

–القصيدة الروائية : أورد مقديش قصيـدة نسبت الى ابرهيم بن يعقوب، في أواسط القرن الثامن هـ/ XIVم، وكان مطلعها :

واذا بقـفـل محـدور أخـذ ثنيّة　　واحد يبيـــع وذا يحـــبّ شراه

وقد وردت هذه المقطوعـة في قالب قصّة ملحـمـية بطلها العبـيدلي الذي أسند اليه قلب مجرى الأحداث ، فـبعد أن أغير على القافلة وأستسلم أصـحابها وتعقّدت السيرة القصصـيّة، يتدخّل العبيدلي . واذا بالمسار الملحـي يتحوّل من الانصباب على فعل الاغارة وتعنيف رؤساء القافلة إلى مسلك روحاني ينوب فيه الغفران عن السّطو . وهكذا يأخذنا الشاعر من النصّ الملحمي عبر مقاطع النصّ الاولى الى عالم الخوارق ليؤكد زيف الواقع الحسّي وسرعة احتواء البدوي . فما جبل عليه من حدّة وشدّة ونزعة معاداة للآخر سـرعان ما تليّنه كلمة الوعظ، حتى إن وردت في إطار أسطورة . وهنا تبرز سلطة اللاّ منظور في تشكيل عالم البدوي الفكري .

– المـــدح : مثّلت الفروسـيّة والشجاعة والكرم والمجد القيـم الأساسيّة التي تغنّى بها البدو في قصائدهم . نذكر من ذلك مـدح الشاعر التّراب السوسي لجبارة بن كامل الرّياحي في قصيد أصبح يردّده الأعراب، ومطلعه :

(1) ن.م.، 1133، 1135 .
(2) ن.م.، ص 1136 .

سلّم علـــى ذي سلـــم　　مغنى الهـوى المستغنـــم
وقـــف بها مسـائـــلا　　عـــن ساكـــن والخيـــم
وجه الأمير بن الأميـــر　　الأكـــرم بـــن الأكـــرم
جـبارة بـــن كامـــل　　سيـــف النّدى والكـــرم
الفـــارس الـــذي إذا　　أســـرج كـــلّ شيظـــم

– الحنين الى الوطن : لما تملّك عبد المؤمن بن علي افريقـية في سنة الأخماس، انتقل أبو ساكن عـامر بن جامع من قابس الى الشـام، وهناك كتب في باب الحنين الى الأوطان قصيدا مطلعها :

يا جار طرفي غير هاجـــع　　والدّمع من عينيّ هامـــع (1)

وهكذا كـانت القصـيدة البـدويّة في بنيـتهـا صورة لحـياة البـدوي في حلّه وترحاله، اذ كانت العلاقة جدليّة بين هيكل القصيدة ونمط العيش الرحّلي، فكلاهما لا يعرف السّكون ولا يستسلم الى الرّتابة، وهذا ما يفسّر فترات الذّروة التي تليها نزول فصعود من جـديد ، وبالتالي فلم يكن المسار خطيّا، لأنّ القصـيدة تتقلّب من حالـة الى أخرى ، من القـوّة الى الضّعف، ومن الاضطراب الى الالـتحام الـى حدّ الانصهار ، ومن عالم المادّة الى عالم الخيال والأسطورة .

(1) مقديش، **نزهة الانظار**، ج II، ص 314–315. التجاني، **رحلة**، ص 43–52، 100–101، 102. الاصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، ج III ، ص 686.

I- المرأة في المدينة والبادية :

1) صورة المرأة في المؤلفات الحفصيّة :

سادت في هذه الحقبة التاريخيّة العلاقات "البطريركيّة" الأبويّة بين الرّجل والمرأة، التي كانت خاضعة لسلطة الزّوج، وملبيّة مختلف رغباته.

ولم تكن أحاديّة الزّواج مطبّقة من الجانبين إذ تمكّن الأغنياء والأعيان من الرّجال من امتلاك عدد من النّساء: أربعة بطريقة شرعيّة فضلا عن الاماء والرّقيق. وقد مثّلت مؤسّستا النخاسة والقرصنة مصدرًا هاما للتحصّل على هذا الصّنف من النّساء، وقد كان السّلطان الحفصي أوّل من خصّه هذا الأمر، إذ أحيط بعدد من العلجيات والوصيفات.

وبالتالي فانّ " الزواج بالشراء أو بالخطف " مثّل صنفا آخر يضاف الى الزّواج الشرعي، وهو ما يفسّر السّلطة المطلقة للرّجل، ويبدو لنا أنّ هذا الأمر كان أكثر وضوحا بالمدينة منه في البادية ، حيث استمرّ وجود بعض الظاهرات البدائيّة التي تبدو فيها المرأة متحرّرة وذات مركز هام . ولا غرو فقد كانت الملكية الخاصّة أكثر تطوّرا بمدن افريقيّة، في ظلّ سيطرة الاقتصاد السلعي، فيما سادت بالبادية عديد المظاهر المرتبطة بالملكيّة المشتركة(1).

وعلى أيّ ، فانّ هذا الاطار التاريخي العام يفسّر الى حدّ كبير صورة المرأة الحضريّة–خاصّة– في المؤلفات الحفصيّة .

أ– الموقف السّائد لدى الفقهاء والأمراء:

سيطرت جملة من القيم الاخلاقيّة التي كان الرّجل يحبّذها في المرأة مثل صيانة النفس وعدم التبرّج والخضوع لأوامر الزوج وطلب الاذن عند الخروج، إلخ.. وكانت ظاهرة الغيرة لدى الرّجل ملفتة للانتباه، اذ فرض على زوجته لباسا معيّنا وتصرّفا خاصا. أمّا المعايير الجسديّة، فانّها تمثّلت أساسا في بكارة العروس. ولئن كانت جواري هشام بن عبد الملك رشيقات القدود، فانّ السلطان

(1) حول تطور الأسرة ووضعية المرأة عبر التاريخ، راجع : انجلس، **أصل العائلة والملكية الخاصّة والدولة**، الفصل الثاني.

الحفصي وأصحاب الجاه، بما فيهم الفقهاء، فضلوا النّساء المكتنزات. وقد قدّمت كتب الطبّ وصفات دقيقة للتسمين يكثر فيها ذكر السكريات والنشويات (1).

وتميّزت هذه الحقبة بكثرة المصنّفات التي كرّست نظرة المتعة للمرأة :

ويعتبر أحمد التيفاشي (580هـ/ 1184م –651هـ/ 1253م) أوّل من كتب في هذا الباب في العهد الحفصي ، وله تآليف عديدة أشهرها : نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب(2).

– وكان لقاضي الأنكحة ابن علوان (المتوفّى سنة 710هـ/ 1310م) تأليف في هذا الموضوع.

– وسار على منواله تلميذه أبو عبد الله محمد التجاني الذي صنّف سنة 702هـ/ 1302م كتابا سمّاه تحفة العروس ونزهة النّفوس (3).

– وفي القرن التاسع هـ/ XV م، نشط هذا النّوع من الكتب من جديد، لكن بطريقة مبتذلة : ففي عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز، وبطلب من وزيره محمد عوانة الزواوي، ألف الشيخ محمد النفزاوي كتاب : " الرّوض العاطر في نزهة الخاطر" وكتب الجدميوي: رفع الازار. كما خصّصت كتب الطب حيّزًا هاما لهذا المجال، كيف لا وهي معدّة خصيصا للأمراء والسلاطين (4) .

ويبدو لنا أنّ ازدهار هذا الصّنف من التآليف ارتبط في الجملة بعوامل مختلفة:

(1) ابن راشد ،**ن.م.**، ج ا ، ص 72ب ، 183 . البرزلي، **ن.م.**، مخ 4811، ج اا ، ص 1248. التجاني ، **تحفة العروس**، ص 148،103. قدّم الطبيب المغازلي (**تحفة القادم**، ص 75ب–184) وصفة للتسمين تتمثّل في طبخ الارز المغسول بالحليب وتحليته بالسكّر والمواضبة على أكل البشماط من السّميد الصافي والجبن الرطب والهريسة واللّوز والفستق والسكّر. ونصح باطعام الجواري الدّجاج المشوي . انظر كذلك حول موضوع التسّمين : البرزلي،**ن.م.** ،ج ا ، ص 1210. التجاني، **تحفة العروس**، ص 192. وقد سأل البرزلي شيخه ابن عرفة عن هذا الموضوع ، فأجاب : " ما يؤدّي الى الضّرر بالجسم والترغيم عليه فلا يجوز وما زاد على الشّبع مما لا يؤدّي الى هذا، فالصّواب جوازه لانّه من كمال المتعة وهي جائزة. " وأجاب مرّة أخرى" كثرة شحم المرأة لا خير فيه" . حلولو، **المسائل المختصرة**، ص 240 .

ويبدو أنّ عادة التسمين بربرية، اذ ذكرت لأوّل مرّة بسجلماسة في القرون الاولى، حيث اقبلت النّساء على اكل الحرذون للتسمين : البكري ، **مسالك** ، ص 148.

(2) التيفاشي، **نزهة الألباب** ،تحقيق جمال جمعة ، قبرص 1992 . وقد ترجم الكتاب الى الفرنسيّة عديد المرّات .

(3) التجاني ، **تحفة العروس**. القاهرة 1987 .

(4) نذكر من بين كتب الطب كتاب المغازلي، **تحفة القادم** الذي ألف لأبي فارس عبد العزيز ، وقد اهتم فيه بتسمين المرأة وتقوية الغريزة الجنسيّة لدى الرّجل متعرّضا لذكر بعض النّباتات، البعض منها يوجد ببجاية مثل الأرطم كما تناول مسائل حمل المرأة وتسهيل الولادة والأشياء المانعة للحمل، موضحا ذلك بقوله :« انّما ذكرت هذه الادوية لضرورة ذكرها وهي أنّ النّساء من تدعو الضرورة اليه امّا لسفر أو لحلف يمين أو طلاقة قبليّة أو تكون لا أصل لها أو سيّئة المعاشرة أو غير موثوق بها في التّربية أو رداءة في أصلها، فيكره الولد منها أو تكون صغيرة بحيث لا تحمل الوصيّ ولا تطيق الولد : المغازلي ، **تحفة القادم** ، ص 75ب – 184.

– تأثيرات التجار والحرفيين النصارى النازلين بالمدن الافريقية، وكذلك العلوج والرّقيق.

– تحرّر المذهب الموحّدي المقترن بتقاليد وأعراف المصامدة.

– أنواع البغاء السّائدة في أوساط البلاط السلطاني.

– وجود تقاليد شعبيّة متداولة شفويا في رواية هذه الأخبار، خاصّة في مناطق الواحات، حيث تتواجد الإماء السودانيات وتختلط التقاليد المحليّة بتقاليد أهل السّودان.

– الانتماء الاجتماعي للمؤلفين: ارتباطهم بالسّلطان أو بوظيفة لها علاقة بالموضوع، فقد تولّى ابن علوان قضاء الانكحة بمدينة تونس، فيما انشغل التجاني بهذا الأمر بحكم تأثّره بشيخه.

وعلى أيّ، فانّ هذا الموقف من المرأة لا يخصّ الاّ صنف من الأعيان والمرتبطين بهم. وعلى خلاف ذلك، وقف الفقهاء المالكيّة موقفا محافظا في الجملة. وعبّروا عن موقفهم من المرأة بمصطلحات سائدة مثل التجميل والمتعة والفساد وغيرها. فقد شهد ابن راشد " **بفساد الرّجال في هذا الزّمان** " وكذلك النّساء، اللاّتي أعتبرهن ابن عرفة والغرناطي " **محمولات على السفه** ".

وأضاف البرزلي في هذا الباب ان أهل هذا العصر تقاصروا عن " **حال من مضى تقاصرا لا يخفى على عاقل** " (1).

ولئن عبّر هذا الرأي عن واقع متردّ، فقد فتح الباب لزيادة إحكام الطوق على المرأة الحضريّة ومنعها من ممارسة حقوقها في التعليم والخروج. وأفتى ابن عرفة بمنع خروج النساء لمجالس العلم والذكر والوعظ، وإن كن منعزلات عن الرّجال " **لأنّ طيبهنّ يحرّك القلوب** " على حدّ قوله. وفسّر الأبّي الطّيب بكونه اظهار الزينة والاشتمال بالملاحف والأكسية المليحة، بل ذهب من بعده الى منعهن من الخروج للصلاة بحجّة انّهن يخرجن للنزهة، خاصّة اذا كانت المرأة جميلة " **تسرع اليها العيون** ". وكان قاضي الانكحة الأجمي قد رأى بتونس إمرأة على هذه الحال بالشارع، فأرسل الى زوجها متوعّدا (2).

---

(1) ابن راشد، **ن.م.**، ج I، ص 2' ب. البرزلي، **ن.م.**، ج I، ص 1283. الغرناطي، **أسئلة للقضاة**، ص 1220.

(2) الابي، **الاكمال**، ج II، ص 87–188، ج III، ص 37.

ب) وجه الصّورة الحقيقي:

تميّزت المرأة الحضريّة، وخاصّة التّونسية آنذاك بأناقة في اللّباس وحرص على الاعتناء بمظهرها. وقد كان لتطوّر العلاقات التجاريّة المتوسطيّة ووجود خيّاطين جنويين بمدينة تونس دور في انتشار بعض الطرق المستجدة في تفصيل الثياب، وما ذكره الأبيّ حول لباس ذي أكمام واسعة مرتبط بهذا الأمر (1).

كما أستعملت عدّة عقاقير ومستحضرات وحشائش للتّجميل: مثل الكحل للعين والسّواك للأسنان والحنّاء للشّعر والطيب للرّائحة. وحرصت على اقتناء الأواني الرفيعة مثل المكاحل والموارد المصنوعة من الفضّة وقوارير الطيب وغيرها (2).

ولم يخصّ هذا التطوّر الهندام والوجه، انّما شمل كذلك تسريحه الشّعر، اذ تعوّدت النّساء التونسيات على صناعة خيوط الحرير أو الصّوف لتزيين شعورهن، أطلق عليه الزّروف التي تبدو طريقة متداولة لتصفيف الشّعر (3).

ولا غرو فانّ الغالب على المرأة الحضريّة بافريقيّة هو المستوى الحضاري الرّاقي الذي بلغته، رغم الانغلاق والجهل الذي عانت منه طويلا. وهذا الجدميوي يقول: «**التونسيات أعذب النّساء منطقا وأكثرهن كلاما وأكثرهنّ مودّة وأحسنهنّ أخلاقا**».

وأضاف الوزّان: «**أن السيدات التونسيات يرتدين لباسا حسنا ويتأنقن في زينتهن ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما يفعلن الفاسيات، يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى سفساري على عصابة عريضة جدا يعصبن بها جباههن. لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن، حتى أنّ العطارين هم دائما أخر من يغلقون دكاكينهم** " (4).

على أنّ المرأة الحضريّة لم تكن فقط زوجة أنيقة أو مربية للأولاد وطبّاخة لا تكلّ، بل أنّها شاركت في الانتاج الحرفي، وقد عرفت خاصّة بغزل الصّوف وحياكته، ولم يكن أهل البيوتات في منأى عن هذا العمل. فزوجات الفقيه القيرواني الشبيبي الاربعة وجاريته يقضين وقتا طويلا وراء النّول (5).

أما المنتميات الى فئات العامّة فقد انكببن على غزل ما يقتنيه الرّجل من الصّوف، لغرض تسويقه في سوق الغزل. وحسب عبارة ابن عرفة فان " **النساء أجمع يغزلن** "، وهو ما يتوافق مع شهادة الوزّان في مهارة التونسيات في

---

(1) الابي، **الاكمال**، ج V، ص 411. ج VII، ص 224.

(2) التجاني، **تحفة العروس**، ص 122، 125. (3) الابي، **الاكمال**، ج V، ص 406.

(4) الجدميوي، **رفع الازار**، ص 97ب. الوزان، **ن.م.**، ج II، ص 78. وقد اقتدت نساء النصارى بمدينة تونس بهذا اللباس، فكنّ يتلحّفن كالمسلمات.

(5) ابن ناجي، **معالم**، ج IV، ص 209، 218، 203–226. كما ذكر ابن ناجي (ص86) أن سالم القديدي من مشائخ القرن السابع هـ، له أربع نساء.

غزل الصّوف(1).

وتعوّدت الكادحات على التعاون في انجاز هذا العمل، فكن يجتمعن في منزل واحد للعمل على أن يقع ذلك بالتداول ، وهو مـا يسمّى " دولة النّساء؛ وتخصّصت البعض منهن في هذا العمل، فأجرت نفسها لغزل الصّوف مناصفة (2).

وفي تلك الحقبة، أصبح المغزل المسمّى القرنوز عنوانا لشقاء الكادحات في عمل الصّوف، كما تبيّنه الأهازيج التي يردّدها التجار لبيعه، قائلين : " **من يشتري بقاطعه ما يتعب أصابعه** " (3).

وبالتالي فانّ صورة المرأة الجاثمة وراء المنسج تباينت مع تلك الجاثمة وراء الخوان وأمام المرآة. ويظلّ القاسم المشترك بينهن : مدى تأثير العلاقات التجاريّة المتوسطيّة على عمل الصّوف أو الاهتمام بالمظهر واقتناء اللوازم لذلك من ثياب ملف وأدوات زينة وغيرها.

2) الأسرة الحضريّة :

أ) بناؤها :

غالبا ما أرتبط الزواج بالانتماء الاجتماعي للطرفين : الرّجل والمرأة، والأوضاع الاقتصادية للأسرتين المتصاهرتين. ومثّلت مصاريفه عبئا ثقيلا على فئات العامّة مثلما تبيّنه أمثالهم العديدة في هذا الباب، حتّى أنّ بعضهم فضّل صرف النظر عنه . أمّا الاعيان، فقد عاش بعضهم حياة التّرف الجنسي، غير مقتصرين على زواج واحد، إذ تعدّدت عندهم الزوجات وتسرّوا بالاماء العلجيات والسودانيات .

ومثّل الصّداق العقد الملزم للطرفين بالواجبات والحقوق. ويتولّى العدول كتابته وفق المنوال التالي: « **هذا ما أصدق فلان بن فلان زوجة فلانة بنت فلان أصدقها صداقا جملته نقدا وكاليا كذا وكذا دينارا ذهبا أميريّة الضرب، النّقد من ذلك كذا وكذا دينار** » .

واعتبرت الهدايا التي يقدّمها الزّوج مهرا للفتاة . وهو مبلغ اختلف من فئة الى أخرى ، متراوحا بين بضعة دنانير ومئات منها، بل قل آلافا بالنسبة إلى الأميرات. وكان يدفع نقدا وعينا في شكل رقيق وحبوب وزيت وتمر، البعض منه

(1) ابن عرفة ، **المختصر** ، ج III ، ص 169. الوزان ، **وصف افريقيا** ، ج II ، ص 145 .
(2) ابن عرفة ، **ن.م.**، ج IV، ص 3ب ، الدباغ ، **مناقب الدهماني** ، ج II ، ص 115 ب .
(3) البرزلي ، **ن.م.**، ج II ، ص 170.

قبل البناء والبقيّة بعده . على أنّ المرأة الافريقيّة تعوّدت على عدم المطالبة بمهرها بعد الزواج، مالم يحدث فراق الطرفين أو موت الزّوج (1) .

أمّا أسرة العروس – وخصوصا الأب – فانّه يتعيّن عليه تجهيز ابنته وتحضير شوارها، بقيمة لا تقلّ عن مبلغ المهر (2).

وبديهي القول أنّ هذه الحسابات الماليّة الموثّقة لم تكن نهايتها سعيدة دوما، مجسّدة بذلك جانبا هاما من العلاقات داخل الأسر الحضريّة وحقيقتها. وتتجلّى التعقيدات المرتبطة بدفع المهر والشوار في هذا المثال : بلغ مهر الابنة البكر 100 دينار ذهبا، يدفع العريس 20 دينارا عند كتابة العقد و 20 مهرا مؤجلا الى أجل معلوم والبقيّة تستخلص عند البناء . وعلى عادة أهل البلاد، يخصّص هذا المبلغ لشراء الحلي، على أن يتولّى أب العروس تجهيز الأثاث بما قيمته 50 دينارا . وفعلا بادر الأب بشراء أسرّة وفرش وكسوة بقيمة 30 دينارا ، لكنه رفض الانصياع للعرف الجاري وشراء الحلي. وهو ما أدّى الى نزاع وتقاض بين الطرفين (3) .

ويظلّ المهر مشكلة عالقة بين الاسرتين ، بعد موت الزوج ، خاصّة اذا تمنّع أهله من استخلاص القسط المتبقّي منه للزوجة، أو أختلفوا في صرف العملة الوارد ذكرها في العقد (4) .

وفي الجملة فانّ المهر والشوار عبّرا بصدق عن المستوى الاجتماعي للأسر المتصاهرة وطبيعة ملكيتها ودخلها، وهو ما يفسّر اختلافها من فئة اجتماعية الى أخرى، ومن الجنوب الى الشمال ، وقد حدّد ابن عرفة المبلغ الأدنى للمهر بسبعة دراهم جديدة تونسيّة . وفي نفس ذلك القرن، بلغ مهر عروس بمدينة تونس 300 دينار–درهم سكيّة ، أي ما يعادل 30–40 دينارا. وزيادة على ذلك ، فغالبا ما تولّى الزوج دفع أجرة العدل المحرّر للصداق والماشطة كاسية الحلي، أمّا بقيّة المصاريف المترتّبة عن وليمة العرس مثل الحدوة وهي ركوب الهودج والمغنيّة وضاربة الدف وسائر المغنين والعازفين ، فانّ الزّوج لم يكن ملزما بدفعها مالم

(1) ابن راشد ، **الفائق**، ج I ، ص 9ب، 158. ابن عرفة ، **المختصر** ، ج II، ص 127.
(2) انظر : Brunschvig, les **Hafsides**, T II, p.172
(3) البرزلي،**ن.م.**، ج I ، ص 1231.
(4) **ن.م.**، ج I ، ص 1229 (اوضح في هذا الصّدد : " في اصطلاح الناس اليوم أن البيع اذا وقع بعشرة دراهم مطلقة فهي عبارة عن ثمانية دراهم حدوديّة فضيّة) .

يشترطها أهل العروس (1).

أمّا في بلاد الواحات، فقد جرت العـادة بقفصة في القرن الثامن هـ/ XIVم تقديم الزوج لعـروسه عند كـتابة العـقد هديّة عينيّـة على قدر حـاله، فيـها الزيت والقمح والسكّر وغيـر ذلك لتحضير الوليمـة. وعند الزفاف، يحمل الحناء والطيب والعصفـر لتجميل العروس، ومصـوغا (من الفضّة في الغالب) ونقـودا فـضيّة. كـما يتولّى دفع أجرة الجلـود (2).

وممّا يلاحظ أنّ البـعض كان يعـقد على البنـات الصغـار اللاتي لم يبلغن سنّ التاسعـة، مثلما حصل بتوزر، ويحـدّد المهر الذي يؤخذ في شكل نقود فـضيّة في الصداق، على الاّ يطالب بها الأب الاّ عند البناء أو موت الزوج (3).

وبديهي القـول انّ الأميـرات حظين بمهر كـبـير بلغ آلاف الدّنانيـر الذهبيّـة، وعوملن مـعاملة خـاصّة أثناء مـراسيم الزواج. وممّا يذكر في هـذا الصّدد أن ابن تافراجين كاد أن ينكّل بابن عرفة وأبي القاسم الغبريني لما طلبا من إحدى الأميرات الكشف عن وجـهـها عند كـتابة العـقد، وقـد علّق شـيخ الموحدين على هذا الأمـر مستنكرا بقوله " **تجعلها مثل بنات القصابين**" (4).

أمّـا الشّوار الذي تقـدّمه أسـرة العروس، فـقد اختـلف باختـلاف العلاقـات الانتاجـيّة : ففي قفـصة قدّمت قـواديس الماء هديّة العروس، وفي تيغـورت تعوّد السكّان على تقديم عـقارات . أمّا في بقيّة المدن الكبـرى، فقد احتوى شـوار الفئات الوسطى على الغـفارة والحـشو والـقمـيص والسّراويلات، فـضلا عن وصـيفـة للخدمة. ولم يتمكّن أحـد الفقهاء من الإفلات من هذه التقـاليد . وثمّة حالات نادرة، تشطّ فيهـا مطالب الزوج، من ذلك ما كان يحصل بالمهـديّة من اشتراط الزوج على الأب توفير المسكن له (5).

ب) مظاهر التفكك الأسري :

---

(1) البرزلي ،**ن.م.**، ج ا، ص 1209، 229 ب . ابن عرفة ، **المختصر**، ج اا، ص 38 ب. حلولو ،**المسائل المختصرة**، ص238.

(2) ابن راشد ، **الفائق** ، ج ا ، ص 72ب ، 183 . وقد يكون الشرط أحيانا مشطا اذا لم يكن الاب يرغب في الزوج، من ذلك الشرط المذكور بصفاقس في القرن التاسع هـ/XV م، 100 دينار ومصوغ على جاري العادة (ذكر منه خرصان وزبيبتان)و 15 شاة وبعيرا بجحفته: مقديش، **نزهة** ،ج اا، ص333.

(3) البرزلي، **ن.م.**، ج ا ، ص 1229.

(4) أبو عبد الله محمد بن القاسم الغرناطي ، **أسئلة للقضاة والمفتين** ، ص 1250.

(5) ابن راشد، **الفائق** ، ج ا ، ص 191. ابن عرفة، المختصر ، ج اا ، ص 38 ب . البرزلي ، ن.م.، ج ا ، ص 1216، 1236. الأبي ، **الاكمـال**، ج VII، ص 224 . الوزان ، **وصف افـريقـيـا** ، ج اا ، ص 135 . الونشـريسـي، **المعيار**، ج ااا ، ص 325 .

– مكاحل ومراود مصنوعة من فضّة	الأبي، الاكمال،ج V، ص 367-368
– مكحلة فضّة	الأبي،ن.م،ج VII، ص 224
– خرصان وزبيبتان	مقديش، نزهة، ج II، ص 333
– خلخال فضّة	ابن راشد، الفائق ،جI ، ص 72 ب، 183أ
– زيت وقمح وسكر	ابن راشد، الفائق ،جI ، ص 72 ب، 183أ
– حنّاء وطيب وعصفر	ابن راشد، الفائق ،جI ، ص 72 ب، 183أ
– الغفارة والحشو والقميص والسّراويلات	البرزلي،ن.م، ج I، ص 229أ الونشريسي،ن.م،ج III، ص 325
– وصيفة	البرزلي،ن.م، ج I، ص 236أ
– البسط (الحيطي)	الأبي،ن.م، جV ، ص 370
– لحف ومخاد من حرير	ن.م.، ج V، ص 370
– عقارات	الوزان،ن.م، جIII ، ص 135
– قواديس ماء	ابن راشد، الفائق، ج I، ص 191أ

ويحرّر في ذلـك وثيقة جـاء فيـها: « **يشهـد من يوقّع اسمه عـقيب هذا الرّسم من الشهـداء بمعرفـة الزوجين فلان وفـلانة المعرفـة التامـة، وأن فلانًا المذكـور مؤذ لزوجته فـلانة ومضرّ بها في نفـسها أو في مالها أو فـيهما ومسـيء اليها وتكرّر بالاضرار عليها من غير ذنب يستوجب به ذلك** » (1).

على أنّ البعض تمكّن من الافلات من هذا الشرط، عن طريق الحيلة الفقهيّة من ذلك ما وقع للبـرزلي لمّا عزم على الانتقـال من القيروان الى تونس، وأبت زوجـته الرّحيل معه الاّ بشرط : وهو أن يجعل بيدها حقّ الطلاق اذا تزوّج عليها. فالتجأ الى الحيلة، وأودع عند شيخه أبي محمد الشبـيبي وصديقه أبي عبد اللّه الفاسي وثيقة استرعاء يتنصّل فيها من هذا الالتزام ، باعتبار أنّ الرّحيل الى تونس مأمون. وبعد أن شهد على هذا العقد الاثنان ، أثبتـه عند ابن عرفة بعبارة في الأسفل، وهـي " **أنّ الاسترعاء المذكور عامل حسب ما نصّ عليه المتقدمون والمتأخرون** " . وهكذا تمكن من الزواج ثانية، ولم تستطع زوجـته الأولى من تنفيذ الحكم عليه، رغم امـتلاكها

---

(1) البرزلي، **ن.م.**، ج ا ، ص 1136. ابن راشد ،**ن.م.**، ج ا ، ص 111أ (اعفـاء الموثقين كتابة الشروط في نفس عـقد الزواج، على أن عدول العصر الحفصي خصّصوا لهذه الشروط عقدا ثانيا) .

الاسترعاء المذكور عامل حسب ما نصّ عليه المتقدمون والمتأخرون " . وهكذا تمكن من الزواج ثانية، ولم تستطع زوجته الأولى من تنفيذ الحكم عليه، رغم امتلاكها للوثيقة التي ذكر فيها الشرط . وكان البرزلي يتبجّح بنجاحه في هذه الحيلة(1).

وعموما فانّ هذا الشّرط الذي تميّز به العقد القيرواني، ونجده كذلك في بعض العقود الاندلسيّة ، يأتي حجّة على مدى حرص المرأة على تدعيم الزّواج الأحادي، فيما ينزع المحافظون آنذاك الى صيغة بالية من الزواج متمثّلة في تعدّد الزّوجات.

وفي حالات أخرى ، تمكّنت المرأة من تطليق زوجها ، بواسطة الحيلة التي تلتجئ اليها، من ذلك تلك المرأة التونسية التي تذمّرت من زوجها الأندلسي الذي أساء عشرتها، فنصحها الفقيه ابن علوان بالادّعاء عليه بكونه مريضا (2) .

وطالبت عند الطلاق بالنفقة، وبديهي القول أنّها اختلفت قيمتها حسب الانتماء الاجتماعي ومن المدينة الى البادية . وقد حرص الفقهاء على التدقيق في ذكر عناصر النفقة.

ذكر ابن الحاج نفقة زوجة رجل ثريّ ، وهي حبلى ، وجاء فيها :

– نفقة شهريّة للغذاء فيها ربع دقيق وثمن وحمل حطب و 15 درهم .

– كراء منزل وخادم – لباس للمرأة : قميص وسراويل ومقنّع وخف وشادكة محشوة بربعين من الصّوف وملحفة ومرفقة ترفع من صوف . –كسوة للرّضيع : محشوّ وفرو وغفيرة (أو طاق خزّ) وقميصان وزوجا أقراق وزوج موق وجوربان في كل سنة وكسوة النّوم (شويدكة وأربعة لفائف من صوف ومن كتّان) وحرام ومحشو وقرق وقميص وجريربات (3) .

وقد آستنكر فقهاء ذلك العصر استعادة الزوجة بعد الطلاق ثلاثا، واستباحتها بعقد رجل عليها دون الدخول، بآعتباره انّه يفتح باب " الفساد " حسب عبارة البرزلي(4).

وكانت معاناة النّساء من الرّقيق أكثر : فكثيرا ما كنّ عرضة للمرض

---

(1) **ن.م.**، ج II ، ص 1141. طرحت مسألة مشابهة في العهد الزيري تخصّ آشتراط امرأة على زوجها عدم الخروج من سوسة الى القيروان، انظر : الونشريسي، **المعيار** ، ج III ، ص 159.

(2) البرزلي ، **ن.م.**، ج I ، ص 237 ب . التجأت المرأة في العصر الوسيط أحيانا الى الاجهاض وآستعمال الأدوية لمنع الحمل : الونشريسي، **المعيار** ، ج III، ص 370.

(3) **ن.م.**، ج I ، ص 1271، 268ب .

(4) **ن.م.**، ج I ، ص 282 ب– 1283. من مظاهر الانغلاق المجتمعي إن شيخا قيروانيا جاءته إمرأة لتسلّم عليه ، " فاشار بكمّه عليها قبل ان تصله وقال لها انصرفي ونهرها (ابن ناجي، **ن.م.**، ج IV، ص 56) .

والموت(1)، وللمعاملات الجائرة في خدمة المنازل. مما ألجأ الكثير منهنّ الى الهروب والتشرّد والالتجاء الى الزّوايا ، من ذلك تلك الأمة التي هربت من سيدها مدة طويلة قبل أن يتم العثور عليها، وذلك في القرن التاسع (2). وقد يلتجئ السيّد الى إلصاق تهم بالأمة لاسترداها، مثلما حصل في المثال التالي : **« هربت للزاوية العروسيّة جارية من جواري بعض كبار قواد الدولة الحفصيّة العثمانيّة ، فسعى في اخراجها بكل وجه يمكن ووجّه اليها يحاسنها ويجاملها ، فآمتنعت . فلما رأى امتناعها وتأخرها عن العود اليه والرّجوع الى رضاه، وجّه لاخراجها مملوكا من الطواشيّة . فجاء الى الشيخ ومعه خدمة ، وقال إنّ هذه الجارية سرقت لنا من الدّار بعض ما يعزّ علينا، فخلّوا سبيلها لنستخلص منها ما أخذته ، فأبت الجارية ولجأت الى الشيخ »** (3) .

وهكذا فقد مثّل الفرار والتشرّد مخرجا للجواري والاماء اللاتي عملن في المنازل والقصور، ممّا يفسّر الى حدّ كبير انتشار الفساد داخل المدن الكبرى .

والحقيقة أنّ ظاهرات الفساد التي انتشرت في ذلك المجتمع لم تكن سوى تعبير عن الأزمة المجتمعيّة، وعمق الهوة الفاصلة بين الجنسين، حتّى حاول كلّ طرف الانطواء على ذاته : فلقد وجدت المرأة في الحمام متنفّسا، وفي السّوق ذريعة للنّزهة ، فيما عسر عليها التعلّم .

واجمالا فانّ العلاقة بين الطرفين تميّزت بخاصيّة أساسيّة : وهي سيطرة الرّجل في ظلّ المجتمعات الأبويّة . وقد انعكست هذه الصّورة على مسألة الشّرف من الأم التي آتفق أغلب الفقهاء ، ومن بينهم ابن عبد الرّفيع وابن عبد السلام، على عدم قبولها، حتى لا تقع منافسة الشرفاء الأصليين الذين حرصوا على الحفاظ على نقاوة النّسب (4).

لكن ذلك لم يمنع من وجود ظاهرات تحرّر مقترنة بتطوّر الاقتصاد السّلعي داخل المدن أو ممارسات بدائية تعتبر من رواسب الماضي السّحيق، وهي الممارسات التي تجسّدت أكثر في البادية .

3) المرأة بالبادية :

---

(1) انظر مثلا : **مناقب بن عروس** ، ص 477 ، 508 (من ذلك الامة السمراء التي اشرفت على الموت حتى ملّ صاحبها من معاناتها، وذلك الغلام الحسن الذي مات مرضا) .

(2) **نفسه** ، ص 495 .

(3) **مناقب بن عروس** ، ص 441 .

(4) حول مسألة الشرف ، راجع ، ابن قنفذ ، **تحفة الوارد** (مخطوط) .

أ) الـــــزواج :

حاول الفقهاء بسط نفوذهم على البادية النائية بواسطة التشريعات التي تقضي بتحريم الزواج دون عدول وشهود ، على أنّ كتابة العقود لم تكن أمرا منتشرا في كلّ الأوساط الاجتماعيّة ، وخاصة بالبادية حيث تعوّدت بعض الجهات على عقد القران " **بالقصعة أو الجفنة** " ، ومعناه وليمة يدعى اليها النّاس، ويتمّ أثناءها عقد الزّواج شفويا . وكان عقد القران يتمّ عند أهل جربة دون حضور الشهود (1).

ولم يجدَ بدا بعض الفقهاء من قبول هذا العرف الجاري ، وان أبدوا احترازات لعدم حضور العدول . وهو موقف يندرج ضمن الاختلاف بين الصيغ الشفويّة التي دأب عليها أهل البادية والعامّة ، والتشريعات المكتوبة عند الحضر، وبالتالي فقد كان للخط قدسيته كما أشار الى ذلك الفقيه أبو عمرو الاشبيلي في قوله : " **إنّ العامّة اذا رأوا خطوطنا يتهيّبونها ولا يركبون باطلا** " (2) .

كما تعوّدت أكثر البوادي في العهد الحفصي على عدم تحديد الصّداق، وغاية ما في الأمر أن الزوج يدفع الى أهل العروس مبلغا ماليا لتحضير مأدبة الزّفاف ، ويطلق عليها : المأكلة ، كما يتولّى تجهيز العروس حسبما جرت عليه العادة .

وقد علّل المازري عدم تحديد المهر لدى البدو بكونه معروف وثابت ، وبهذا فانّهم لا يشهدون بذلك عند كتابة العقد، انّما عند الابتناء . ولخّص البرزلي ذلك في قوله : " **نكاح بادية افريقية في زماننا يخطبها على أن يكسوها ويدخل بها** " . وقد تكون هديّة الزّواج باهضة الثمن، مثلما يحصل ببعض القرى حيث يقدّم الزوج نصف أملاكه أوبعضها للعروس ، وفي حالات أخرى يقدّم أهل البادية هدايا الى جانب الصداق (3).

ومثلما رأينا في الزّواج ، غلب على الطلاق الصّبغة الشفويّة. و حسبما ذكر ذلك ابن عرفة، وقع بمجرّد النيّة وقرار الزّوج دون الالتجاء الى التّوثيق، ومما دأب عليه أهل البادية ممارسة بعض الطقوس كأن يعمد الزّوج الى حفر شيء من الأرض ، ثم تتولّى المرأة دفنه، وهي دلالة على وضع حدّ للعلاقة بين الطرفين(4).

---

(1) البرزلي ، **ن.م.**، ج I ، ص 283 ب ، 214 ب .

(2) **ن.م.**، ج I ، ص 1284

(3) الغرناطي، **مسائل**، ص 1212 ، 220 ب . البرزلي ، **ن.م.** ، ج I ، ص 231 حلولو، **المسائل المختصرة** ، ص 248، 249، 260، 269 .

(4) ابن عرفة ، **مختصر** ، ج II ، ص 185.

كما أنّ استرجاع المطلّقة مقتصر على رغبة الطرفين التي تجسّدها إشارة خفيّة أو لفظة ذكيّة ، يفهمها البدوي بسرعة سجيّته (1) .

وبديهي القول انّ هذه المجتمعات القبليّة عرفت زواج الأقارب . وكانت لابنة العم وابنة الخالة مكانة مميّزة عندهم، كما عرفت تعدّد الزوجات ، اذ جمع بعض شيوخ القبائل أربع نساء ، كل واحدة من مكان مختلف والتجأ العامّة في الأرياف الى الجمع بين زوجات عديدات في منزل واحد، وهو أمر غير معهود في المجال الحضري(2) .

والتجأت المرأة البدويّة الى الفرار من بيت الزّوجيّة اذا استعصت عشرتها مع زوجها لأمر أو لآخر ، ويبدو أنّ الجبال تعرّضت أكثر من غيرها لهذه الظاهرة، لكثافتها السكنيّة ووجود تقاليد بالية ففي تلول البلاد الغربيّة أشار الوزان الى هروب النساء الى جهات أخرى، حيث تكون لهن علاقة مع رجال آخرين، ممّا أحدث نزاعات بين القبائل والمجموعات (3).

وفي القرن الثامن هـ/ XIV م ، فرّت إحدى نساء جبل وسلات الى القيروان للاشتكاء بزوجها الى القاضي . وبما أنّ الغالب على أهل الجبل هو عدم الاذعان للسلطة المخزنيّة والاحتماء بهذه البلاد التي " **لا تنالها الاحكام الشرعيّة** " ، فضّلت المرأة الاستقرار بالمدينة خوفا من قتل زوجها لها، وقام القاضي بتزويجها ثانية. وقد حصل الشيء نفسه لامرأة خرجت من جبل نفوسة كي تستقر بصفاقس (4).

وفي سنة 809 هـ/ 1406م ، هربت امرأة من جبل معروف ، شمال القيروان بمرحلة الى مدينة عقبة . ولما ألتحق بها زوجها وهو قريبها، تحوّلت الى تونس حيث شكت أمرها الى السّلطان الحفصي الذي ترك لها الخيار بين الرجوع الى زوجها والطلاق . لكنّ شيخ العرب ، أبا الحرب صولة بن خالد، تدخل لضمان الزوج، فرجعت عندها الى زوجها، وحسنت العشرة بين القرينين . على أنّ نهاية هروب الزّوجة ليست دائما نهاية سعيدة ، من ذلك أن المرأة التي فرّت من بني جرير الى القيروان، التحق بها زوجها فمكّنه القاضي ابن فندار منها، وأسترجعها 798، كي يضع حدّا لحياتها في الطريق (5) .

---

(1) الجدميوي، **رفع الازار**، ص 1109. ومما ذكر هذا الصّدد ، ما رواه أحد شيوخ الأعراب للجدميوي وهو قاسم بن منصور بن حمزة من أولاد أبي اللّيل ، قال : " تزوّج والدي إمرأة طرفيّة من صحارينا على ابنة عمّه وانضاف لبيتها. فكبرت ابنة عمّه نفسها عنه ..[وعند حصول بعض المصاعب ، سألته ابنة عمّه مستنكرة] : " اين الناقة الصّهباء الخوّراة " في إشارة خفيّة الى المرأة التي تزوّجها ، استهزاء منها . وفهم الزّوج هذه التورية، فطلّق المرأة الغريبة ورجع من جديد الى ابنة عمّه.

(2) الغرناطي ،**ن.م.**، ص 1206، 1220.

(3) الوزان، **وصف افريقيا** ، ج II ، ص103.

(4) البرزلي ،**ن.م.**، ج I ، ص 1277 . كذا في الونشريسي ،**ن.م.** ج III ، ص 294 .

(5) البرزلي ،**ن.م.**، ج I ، ص 261 ب، 277 –1278 (ذكر البرزلي ان هذه الحادثة وقعت قبل تاليف كتابه بسنة واحدة، بمعنى انه ألفه سنة 810 هـ) .

والحقيقة أنّ هذه المسائل كلها طرحت على ابن عرفة في القرن الثامن هـ / XIV م، ولذا رأينا اثبات هذه النازلة الهامّة في استقصاء علاقة البادية بالمدينة من الزاوية الاجتماعية (1).

وبالتالي، فانّ حالات الفرار انتهت بطرق مختلفة: استرجاع الزوجة أو القتل أو التشرّد والاستقرار بالمدينة. وهو ما يفسّر تضخّم عدد المتشرّدات، بدون ولي أو زوج بالمدن الكبرى، وهنّ في الغالب من الطارئات على المدينة من القرى والبوادي، فرارا من الزوج أو الأسرة، حتى صرن لغزا لدى الفضوليين (2) واتبعت طريقة أخرى في فرار المرأة في العهد الحفصي، أطلق عليها أهل العرف " الحشمة ": وهو ما يناسب مهر البغيّ الوارد ذكره في الحديث النبوي، وتتمثّل في هروب الزوجة مع رجل ثان، وعند العثور عليهما، يمكن

---

(1) وسئل ابن عرفة: عن قضية وهي جبل وسلات على نحو البريدين من القيروان، وتارة تكون الطريق فيه مأمونة وتارة مخوفة فتصل المرأة فارّة من الجبل إلى المدينة من زوجها تشكو إضراره، وتريد خصامه وتخشى على نفسها إن عادت إليه بعد الفرار القتل، فيتكرر شكواها للحاكم، فيكتب لمن يزعج الغريم المذكور من الجبل للمدينة بعد الواجب في ذلك، فمنهم من يصل في بعض الأوقات، والغالب في أكثر الأوقات عدم الوصول، فيصل جواب من بعث إليه بإزعاج الغريم بخط غير معروف ولفظ غير محصل، لأنه تارة يذكر أن الغريم تعصّب أو فرّ، وتارة يرجى في إزعاجه وبعثه، وهذا الجواب أيضا يكون في بعض الأوقات، وفي بعضها يتعذر الجواب، فتقيم المرأة على ذلك. فإذا طال أمرها فتريد أن تقطع عن زوجها بعدم النفقة، وتقيم بيّنة أن بعلها امتنع بالجبل المذكور، أو تعسّر حضوره لمجلس الشرع، وتثبت بقية فصول موجب القطع لعدم النفقة، فهل تمكن من القيام بذلك وإثباته والحال كما وصف، مع إنها كانت ساكنة معه بالجبل المذكور، وهي الفارّة عنه، لكن تشكو الضرر وتخشى على نفسها بعد الفرار ما ذكر، أم لا تمكن من ذلك؟ وكيف لو زادت بينتها أن بعلها قصد الضرر. وتصل أيضا المرأة الغريبة من الجبل المذكور إلى المدينة المذكورة فتريد التزويج، ووليها بالجبل المذكور، وليست من ذوات القدر ولا تلحق بالسوداء والمسكينة، فهل للحاكم أن يزوجها إذا ثبت عنده خلوها من زوج وموانعه من غير كتب إلى وليها؟ أم لا بد من الكتب إلى وليها؟ جوابكم في المسألتين وما تعلق بهما مشروحا والسلام.

فأجاب: حاصل زوج هذه الفارّة أنه بمحل لا تناله الأحكام الشرعية، وأن كونه به اختياري، وجلبه منه لمحل الأحكام الشرعية متعذّر غالبًا، فهو حينئذ غالبًا عنها لم يترك ما ينفق عليها منه، أو حاضر لدّ عن الانفاق وعجز عن أخذه منه كرها، وأياما كان، فللزوجة القيام بموجب التطليق للضرر الموجب...

وأما مسألة الولي فلا بد من الكتب والاعذار إليه والتلوّم إن أمكن دون عسر وضرر طويل، وإلا تسقط وزوّجها القاضي بموجب ذلك والله أعلم. وحكى ابن رشد أن الخوف يصيّر القريب بعيدا، وحكى ابن سهل فيه خلافا، وكذا بلاد الخوف والفتنة فيها كذلك قيل. والذي استقريته من أحوال قرى القيروان حين كنتُ مقيما بها أنها لا تنالها الاحكام الشرعيّة، فارى أن لا تمكن الفارّة من زوجها من الخروج بها إلى القرى، أو إلى الجبل الذي حولها، نحو جبل وسلات، وبلاد هوارة. وقد وقع شيء من هذا هربت امرأة من بني جرير قرية من قرى القيروان على نحو تسعة أميال، فمكّنها القاضي من زوجها وقريبها وكان إذ ذاك ابن فندار، بعد أن خوّفهم عقاب الله وعذابه، فخرجا بها فقتلاها بالطريق. وكذا وقع في هذا العام الفارط الذي هو عام تسعة وثمانمائة، امرأة هربت من معروف جبل على مسيرة مرحلة من القيروان إليها، فتسبّب زوجها في إخراجها حتى بلغت تونس، بأمر أمير المؤمنين نصره الله، ومكنها من الشرع، وكان رأيي أنها لا تمكّن منه بوجه إلا أن تشاء، فضمّنها على ما سمعت شيخ العرب أبو حرب صولة بن خالد، فخرجت معه وذكر لي زوجها بعد ذلك أنه حسنت العشرة بينهما وهي قريبته. وأما قرى تونس فمنها ما هو ناء عن الأحكام الشرعية بسبب عاملها أو عريفها، فحكمه ما تقدم، ومنها ما تناله الأحكام فحكمه كالحواضر والله أعلم». خلط الونشريسي بين جواب ابن عرفة وتعليق البرزلي على المسألة الذي يبتدئ من " والذي استقريته " الى نهاية النصّ " ، لأنه اعتمد على جامع مسائل الاحكام للبرزلي الذي أورد هذه المسألة. وفي التحقيق بعض الاخطاء تخصّ المواقع والاعلام قمنا باصلاحها (جرير، وابن فندار ومعروف) : البرزلي، نفس الاحالة السابقة.

(2) البرزلي، ن.م.، ص 216.

للزّوج أن يستعيد زوجته، على أن يدفع له الثاني " **مالاً عمّا أصاب منها يسمّونه حشمة** " (1).

ومجمل القول، فانّ البادية سيطرت عليها جملة من القيم والتقاليد المعتمدة أساسا على العرف الجاري والمعاملات الشفويّة، لكنّها اختلفت من السهل الى الجبل، ومن البربر الى الأعراب.

ب) الحياة اليوميّة :

تبدو المرأة البدويّة أحيانا أكثر تحرّرا من الحضريّة: فهي تختلط بالرّجال وتتولّى عمليّات البيع والشراء ببادية برقة. كما أنّها تخرج الى الطريق العام مكشوفة الرأس، وتساهم في العمل الزّراعي بمختلف مراحله (حصاد وجني وتربية الماشية)، وتتولّى غزل الصّوف ونسيجه ثيابا لأسرتها وتقوم بصناعة بيوت الشّعر (2).

ويبدو أنّ بعض الأعرابيات كن شغوفات بالصّيد حسبما يرويه لنا الجدميوي في ذلك الخبر الذي يبيّن السّليقة التي جبلت عليها البدوية، من ذكاء وفطنة (3). على أنّ هذه المرأة ظلّت مهضومة الحقّ في بعض الجوانب. فقد امتنع كثير من أهل البادية (وخاصة من القرى البربرية) من اعطاء المرأة قسطها في الارث، وأشارت المصادر الى هذا الأمر أكثر من مرّة، ومما قال الغرناطي أن نساء البادية " **لا يطلبن ميراثهن من أقاربهن ولا يطلبن الغلّة خوفا من قطع رحمها. فان طلبن، قطعن رحمهن وجفاهن ويصرن بذلك كالمقهورات** " (4).

وكانت هذه العادة منتشرة في كامل بلاد المغرب. لكن الأمر اختلف في المدينة، حيث تمكّنت المرأة في الغالب من أخذ قسطها من الميراث، حتى لو أدّى الأمر الى تعقّد المسألة ومرورها بمتاهات قانونيّة صعبة، ومعلوم انّ فقهاء المدينة تحرّوا من رسوم أهل البادية ولم يأخذوا بما جاء فيها " **لقلة المعرفة وضعف**

---

(1) الشماع، **رسالة**، ص 199 ب.

(2) العبدري، **رحلة**، ص 86–87. المغيلي، **نوازل مزونة**، ج II، ص 121، 110، 11 ب. 133.

(3) الجدميري، **رفع الازار**، ص 109 ب: «ومنه ما حدّثني به الحاج سعيد بن جبارة أحد أصحاب الرّكب العلي أعزّه الله ونحن بالمحلّة المظفرة بظاهر بلد قفصة. قال: كنّا بسوق التجّار بها جلوسا وخطرت علينا أعرابيات تقود احداهن كلبا جارحا، وهي أصغرهن سنّا وأكبرهن حسنا. فقال لها إحدانا استجلابا بالكلام: يا اعرابيّة الكلب للبيع. فانحرفت لصاحباتها وقالت لهن: تعالين، سوق الكلاب هنا ليس لنا علم به. فانصرفنا ضاحكات وبقينا خجلين ".

(4) الغرناطي، **ن.م.**، ص 1210، 1212. المغيلي، **نوازل**، ج II، ص 24ب (أن عادة نساء البادية الا يطلبن ميراثهنّ)، ص 55ب (عن أناس كانوا يمنعون نساءهم من الارث واشتهر ذلك عنهم خلف عن سلف).

الدين " (1).

وفي الجملة، فان مجتمع الرّعاة والبادية عرف بدوره الزواج الأحادي ، لكنّه بصورة أكثر بدائية ، ودون أن يطغى عليه زواج المنفعة والحسابات الدّقيقة، اذ على العكس من ذلك هيمنت العلاقات الأسريّة والقبليّة، وبالتّالي انتشر الزواج بين أبناء العمّ (2) .

وسادت في بعض الأحيان علاقات أموميّة بالبادية ، فكانت للمرأة مكانة داخل المجتمع، ومثلما لعبت الكاهنة دورا فاعلا في القرن الأوّل وزينب النّفزاوية في قيام دولة المرابطين، فانّ بعض نساء القرى كان لهن شأن في العهد الحفصي، نذكر من بينهن مريم أم يحيى بمنية الساحل حيث يجتمع بعض المشائخ المرابطين في بداية القرن السابع هـ/ XIII م، وزينب أم سلامة، (ت 670هـ) من منزل قديد التي ساهمت في حلّ النزاعات داخل القرى حتى سميت غفيرة السّاحل(3).

وأخيرا فانّ هذا الاختلاف بين المدينة والبادية في بناء الأسرة يعبّر عن مفارقة في العلاقات الاقتصادية السائدة في المجالين ، أي تباين بين مجتمع الرعاة والمزارعين والمجال الحضري حيث ساد اقتصاد تجاري " طفيلي " في ظلّ العلاقات " الاقطاعيّة " .

(1) البرزلي ، ن.م.، مخ 4851 ، ج II ، ص 249ب. الونشريسي ، **المعيار** ، ج III ، ص 99 .
(2) راجع : P. Guichard, **Structures**, p 74.
بوتشيش، **المغرب والاندلس في عصر المرابطين** ، ص 25 .
(3) الدباغ، **مناقب الدهماني**، ج I ، ص 133 39 ب . ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV ، ص 86–87 .

II- الحياة اليوميّة :

1– مائدة الحضر وغذاء البدو:

اعتقد العرب القدامى أنّ للغذاء علاقة مباشرة بالطّبع والسلوك ، ولذا ربطوا بين الغذاء المميّز لكل شعب وطبعه، مقدّمين لنا صورة حيّة عن نظرة العرب الى بقية الشعوب (1) .

ولئن افتقر هذا الأمر إلى أساس علمي، فان للغذاء دور كبير في تشكل الجسم ونشاطه ، والقدرة على العمل والحياة . وقد كانت السّمة المميّزة للحضارة الاسلامية هي الاعتدال في الغذاء. على أنّ هذه المجتمعات الوسيطية عرفت ظاهرتي الجوع والتخمة في الآن نفسه، الجوع لدى العامة، وخاصة في البادية، والتّخمة عند الفئات الميسورة من الحضر ، التي كانت ترى في الاكتناز لحما مقياسا للجمال (2) .

ومن الواضح أن موائد أهل الحواضر الكبيرة والمتنوعة لا نجد ما يضاهيها عند أهل البادية ، الذين يقتصرون في الغالب على وجبة متقشفة وبسيطة من الطعام.

أ) خبز أهل الحضر :

تعوّد الحضر على ادّخار القوت نظرًا إلى تقلّبات الطّبيعة وما ينجم عنها من جفاف، وإلى الاضطرابات الاجتماعية . وقد كان ابن زيتون (القرن السّابع هـ) يقول إنّ ادّخار قوت عامين بتونس جائز " **لفساد أعرابها وعدم أمن المطر بها** " .وقد تعددت أصناف الأطعمة والأشربة بالمدن الكبرى ، وخاصة بمدينة تونس .

– الغذاء العادي : اقترنت نوعيّة الخبز بالصنف الاجتماعي ، فالجيد المصنوع بالسميد هو غذاء الخاصة، والرديء المعمول من الفتات المختلط المسمى بالدقاق، أو الخبز الأسمر غير النقي الذي يطلق عليه التسمية الفارسية الخشكار، هو بدون شك طعام الفئات الشعبية (3).

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج I ، ص 1158. ابن ناجي ، **شرح** ، ج II ، ص 1117. وقد تجسدت هذه الصورة في مقولة اوردها القرافي، وتداولتها المصادر الحفصية، مع بعض الاضافات ، وهي التالية : " يقال أن أربعا أكلت أربعا، فأفادتها أربعا : أكلت العرب لحوم الابل، فأفادتها الحقد، وأكلت السودان القرود، فأفادتها الرقص، وأكلت الفرنج الخنازير ، فأفادتهم عدم الغيرة، وأكلت التّرك الخيل، فأفادتهم القساوة " واضيف اليها في العصر الحفصي جملتين حول أكل المغاربة والمصريين.
(2) ابن المناصف ، **تنبيه الحكام في الاحكام**، ص 19ب. ونسيك، **المعجم المفهرس للحديث النبوي**.
(3) البرزلي، **جامع**، ج II، ص 163 ب. الأبي، **الاكمال**، ج I، ص 381، ج IV، ص 225 .

والحقيقة أن قائمة أصناف الخبز أكثر تنوعا وتعدّدا بالحاضرة تونس، اذ تتضمن:

– الفطائر : وهي رغائف رقيقة تطبخ في التنور، وتسمى في بعض جهات افريقية والمغرب الاقصى : الجرادق.

– الكنافة : رغائف رقيقة تطبخ ثم تيبس ثم يعمل فيها الأفاويه والعسل

– البشماط : كعك غير محشو ، يسمى بالمغرب الاقصى القراجل أو القراشل.

كما توجد عدة أكلات أخرى ، مشتقة من الحبوب ، منها :

– المطنفسة : عجين خفيف يعمل أقراصا صغارا يطبخ على مقلاة.

– الاسفنج : شبيه بالمطنفسة.

– المسمنة : مكونة من خبز وسمن.

– الزلابية : عجين رقيق يقلى ثم يشحر بالسكر.

–المجبّنة : من مآكل الأندلس، وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين، ثم يعجن السميد عجنا محكما حتى يصير في قوام عجين الزلابية ، ثم تبسط منها قطعة بلطافة ويوضع عليها الجبن المدعوك ، ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها، ثم يبسط قليلا ، ويلقى بعدها في الطاجين ، فيقلى بالزيت ، وبعد أن يرفع يرش عليه السكر المدقوق ويسيرا من الكمون.

– الدشيش : أو الجشيش، يقع طحن الحبوب طحنا غير مبالغ فيه، ثم يطبخ.

– الهريسة : هي هريسة القمح التي تطبخ بلحم أو بدون لحم، وهي المسمّاة كذلك البرغل.

– الكسكسي ، المسمى أيضا الطعام : وهو الغذاء الاكثر انتشارا وشيوعا ببلاد المغرب.

هذه بعض الأصناف من الطعام التي كانت تعمل بمدينة تونس في العهد الحفصي، وهي تأتي دليلا على تنوع الطبيخ في المائدة التونسية، واعتماده على مادة أساسية وهي القمح، وغذاء أساسي وهو الخبز، الذي كان متداولا بنوعيه : الكبير والصغير، وكان يحسب في عداد النقود التي يتعامل بها، شأنها في ذلك شأن الدراهم، فتقع مقايضته بأسواق مدينة تونس باللحم والزيت والفلفل والزعفران وغيره(1).

– اللحم : طعام المواسم والولائم والضيافات : مما لا شك فيه أن اللحم هو أكلة يومية لدى الفئات العليا وحتى المتوسطة، أو تكاد أن تكون كذلك ، لكن يقتصر

---

(1) القباب، **شرح مسائل البيوع لابن جماعة**، ص13–16. ابن عبد الباسط، **رحلة** ، ص 21.

استعماله على المواسم والمناسبات لدى فئات العامّة. وفي كل الأحوال ، اكتسى أكله طابعا احتفاليا وجماعيا لدى أغلب الشرائح الاجتماعية، وخاصة في الأعياد والأفراح والأتراح.

وتعود أهل افريقية في فترتنا هذه على تجهيز أطعمة فاخرة بمناسبة الأعراس والولائم والأعياد، وتصنع بالمناسبة حلويات عديدة، تقدم للمدعوين.

والمناسبات التي تعقد فيها الولائم عديدة، حتى أنّ الطعام المعدّ في كل واحدة خصّ باسم (1).

وتعتبر الذبائح القاسم المشترك لكل هذه الأطعمة ، التي كانت تحضّر لأغراض أخرى، في بعض الأحيان، منها التفاخر أو الامتنان ، أو التقرب لأصحاب الجاه، و " **أهل الفضل والهيئات** ".

وكان لحم الضان أو المعز أو غيرهما يطبخ بالبصل والثوم والملح والكرنب والكركب (2).

وفي الجملة تنوّع الطبيخ في المواسم والضيافات ، وحسب الفئات الاجتماعية داخل المجال الحضري.

ب) مادبة الأعيان :

إنّ المتأمّل في الطبيخ الخاص بالأعيان والأمراء يتبيّن مظاهر الاسراف، فضلا عن تنوّعه وتعدّد تأثيراته المحليّة والخارجيّة. كما تميّز بآختلافه حسب الفصول والمواضع (في القصر أو السّفر) ، وبمراعاته لحفظ الصحّة.

وقد كتبت في العهد الحفصي التآليف الخاصّة بذلك : فالطبيب أبو العباس أحمد الصقلي ألّف مصنّفا أهداه للسلطان أبي فارس عبد العزيز وسمّاه حفظ الصحّة أو الطبّ الشريف.

وأضاف تلميذه أبو العبّاس أحمد بن أحمد الخميري الشهير بالمغازلي مصنّفا ثانيا سمّاه : تحفة القادم، وذلك بطلب من الأمير الحفصي أبي يحيى زكريا بن أبي العبّاس أحمد، من أحفاد أبي فارس عبد العزيز ، بين سنتي 893–899 هـ/ 1487–1493م.

---

(1) البرزلي ، **جامع** ، ج III، 204 ب– 1205. القلشاني ، **شرح**، ج II ، ص 143. وهي على التوالي : الحذيّا: وفي البرزلي الحدى ، وهو هدية البشارة، ويطلق على طعام الولادة .– العقيقة : الذبيحة التي تذبح للمولود اليوم السابع، عند حلق شعره .– العذار ، وفي البرزلي الاعذار : وهي طعام الختان ، ويطلق عليه أيضا العتيرة، التي كانت في الجاهلية ذبيحة تعد للالهة .– الوليمة : طعام الاملاك أو العرس .– الوكيرة : طعام يعمل عند الفراغ من البنيان .– النقيعة : طعام يصنع للقادم من السفر .– الوصيمة : طعام عند المصيبة . – العقيرة : ذبح الشاة في شهر رجب ، وهي عادة جاهلية ينذر الرجل اذا بلغت غنمه كذا، يذبح منها واحدة .– المأدبة : طعام يتخذ للضيافة.

(2) القلشاني، **نفس المصدر** والصحيفة، ابن عرفة، **المختصر**، ج III ، ص 66 ب.

واحتوت هذه المصنّفات على مادّة متنوّعة مرتبطة بالمائدة " الارستقراطيّة "، وقد رأينا أنّ نثبت أهم ما ورد فيها لرسم صورة أدقّ عن طبيعة هذا الغذاء واحتوائه على كميّة كبيرة من الحريرات والمنشطات التي اختلفت من فصل الى آخر.

– ففي فصل الربيع، نصح بالتزام الأغذية الخفيفة المعتدلة مثل خبز الحنطة المحكم الصّنعة من يومه ولحم الدّجاج وصغار المعز ولحم البقر الصغار والبيض المطبوخ بالأبازير مثل النعناع والكمون والكرويا وسويق الشّعير.

ويُشمّ العود والعنبر والمسك والمصطكا والزعفران وتُشرب المسهلات مثل الصّبر الطيب وحبّة الحلاوة وغيرها.

– أمّا في فصل الصّيف، فانّ الأشربة المستعملة هي شراب اسكنجبين والورد و البنفسج و التّمر الهندي والخيار. ويتغذّى بلحم الطيور وبالبطون من الحيوان، مع استعمال الخلّ أو ماء اللّيم أو ماء النرنج أو حماض الاترنج. كما يؤكل الحوت الصغير الكثير القشور اما مطبوخا بخل أو مقليٌّ بزيت محمّض بخلّ وزعفران.

وتُشمّ الرياحين والآس والنيلوفر والورد والبنفسج.

ويكثر من أكل الخيار المقشّر والقثا وعيون البقر، و العدس بعد زوال قشره. وأضاف المغازلي: القرع والرجلة والملوخية والاجاص والتوت العربي والبطيخ والدلاع، ناصحا شرب الماء المبرّد بالثلج، على الاّ يقع خلطه كما يفعل أهل المشرق، انّما يتبرّد بالثلج من الخارج ولا يشرب في بواقيل الجلد الضيّقة الأفواه أو في المصّاصة.

– وفي فصل الخريف، يستعمل من الطعام والشراب ما غلبت عليه الحرارة والرّطوبة كالسّمن الممزوج بالعسل وشرب الألبان واللحم. ويجتنب الخبز الفطير ولا يؤكل من الفواكه الاّ ما نضج كالتين والعنب، وأحسنها التين الابيض والعنب الابيض الرقيق.

– وفي الشتاء، يصلح فيه من الأغذية القطاني اذا انزع قشرها، وتطبخ بالابازير، ويستحسن أكل لحم الجدي المطبوخ بالثوم والكمون.

ويشمّ فيه الطيب الحارّ كالمسك والعنبر ودخّان العود والرّياحين الحارّة والنرجس والسّوس والياسمين(1).

(1) احمد الصقلي، **حفظ الصّحة**، مخ 18316، ص 1 ب– 40 ب. **شرح أرجوزة ابن سينا في الطب**، مخ 6855، ص 130– 114 ب. أبو العبّاس احمد المغازلي، **تحفة القادم**، مخ 18509، ص 20 ب –163. انظر كذلك: أبو مروان بن زهر، **كتاب الأغذية**، المجلس الأعلى للبحوث العلميّة، مدريد 1992. ص 121–136.

ومجمل القول، فانّ هذه المائدة تنوّعت حسب الفصول والمكان (مقيم أو في السّفر)، وأحتوت على كثير من الابازير والحلويات والمنشّطات، ولا غرو في ذلك فقد كان الهاجس مزدوجا لهذه التآليف: حفظ الصحّة من جهة وتلبية رغبات هذه الفئة من جهة ثانية، وخاصّة تقوية الباه لدى الرّجال والسمنة والاكتناز لدى النّساء (1).

وإذا اعتمدت وصفة الرجال أساسا على الفواكه والخضر والأبازير والنباتات مثل الارطم الذي أشتهر بوادي بجاية، فان أكل النشويات والحلويات ساعد على السّمنة حسب هذه النّصوص.

ومجمل القول فإنّ غذاء هذه الفئات العليا لم يقتصر على الحاجي، انّما اعتمد كثيرا على الكماليات حتّى بلغ حدّ التّخمة، فيما تميّز غذاء أهل البادية بالبساطة في الغالب.

ج) غذاء المزارعين والبدو:

تميّزت الوجبة البدويّة في مكوّناتها بالبساطة، إذ أعتمدت في أساسها على التّمر واللّبن والنشويّات من خبز وسويق وطعام (كسكسي). ولئن تعوّد بعض البدو على أستعمال الابازير، فانّ الغالب هو الاقتصار على الطبيخ البسيط أو بعض الفواكه والغلال.

ودأب البدو على صناعة الخبز في التنور محلّيا، وقد تعدّدت تسمياته في المصادر: رغيف – خبز – جرادق – فطير– خبز شعير– الخ. وغالبا ما مثّل العنصر الأساسي في الغذاء، الى جانب طعام ثان.

فالخبز قد يؤكل وحده، أو مع التّمر والعنب والزيتون والعسل. وعندما يقع الالتجاء الى الطبيخ الذي أقترن باللّحم، فانّه لا يستعمل الصّفر والابازير الكثيرة، خلافا لما يحصل في المدن، حتّى أنّ أحد الشيوخ المنتسبين الى منزل قديد بالسّاحل لما قدّم له بالمهدية طعام مكوّن من " الخبز واللحم المطبوخ بالصّفر" رفض الأكل منه.

(1) **المصدر نفسه**، ص 75 ب، 184. مثّل العنصر الأوّل مظهرا للرجولة، والثاني للجمال لدى النّساء، حتّى انّ المغازلي خصّص حيّزًا هاما لهذا الامر، جاءت تحت عنوان: الادوية البائية وتسمين النّساء.

حول المائدة الحضرية، انظر كذلك: مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والاندلس في عصر الموحدين، نشر ميرندا، **مجلة معهد الدراسات الاسلامية**، مجلد 9–610، 1961، 1962. ابن رزين التجيبي، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، بيروت 1984.

– ويأتي الطعام (أو الكسكسي) في المرتبة الثانية انتشارا في القرى والبوادي(1).

وأقترن في العموم بالبروتينات : من سمك ودجاج ولحم ضان وغيره . وبالتّالي فكثيرا ما كان الكسكسي لدى البدو طعام المناسبات والضّيافة ، من ذلك ما حدث ببادية القيروان في القرن السّابع هـ/XIIIم حيث قام أحد شيوخ الأعراب ، وهو ميمون بن كرفاح الوائلي ، بتحضير وليمة لشيوخ القيروان والسّاحل ، فذبح 16 رأسا من البقر وغنما كثيرة وأنفق 70 دينار – دراهم في الخضر والتّوابل، وكان لحم الشّياه يوضع كاملا على قصعة الطعام (وهو المسمّى عند البدو المسلان) . غير أنّ ذلك لا يعدو أن يكون مناسبة نادرة خاصّة بأعيان البدو .

ومثّلت الثّرائد وبعض الأصناف الأخرى من الطبخ أكلات مميّزة لأهل القرى والبدو . وممّا أشتهر بقرى السّاحل والقيروان وتونس وغيرها هو ثريد الشعير ، المسمّى البازين . وكان يطبخ أحيانا باللّحم ، كما أستعملت الثردة من القمح مع البقول والبيض والزبد .

وعرفت القرى طبخ "البركوكش بالمصلي الغنمي" ، وطباق الفول الأخضر المنقوع في الخلّ والزّيت والرفيس (وهو عبارة عن دقيق مقليّ يخلط بالتّمر والعسل) والسّويق والاسفنج ، الذي يؤكل بطرق شتّى (بالعسل أو السّمن) . وممّا يذكر في هذا الصّدد أن أحد المشائخ جرت عادته أن يعمل قصعة رفيس أثناء المناسبات بالزّبد والعسل والتّمر والدقيق (2).

(1) انظر على التوالي : ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV، ص 43، 101، 102، 172، 181، 227، 228.

(2) انظر : ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، 43.5، 60، 63، 70، 80، 101، 102، 108، 115، 171، 172، 175، 177، 181، 227 229 . **مناقب**، مخ 12544، ص 53ب، 154، 156، 157. م **مناقب الشاذلي**، ص 112. **مناقب الجلاز**، ص 14. 7 ب . **مناقب الباجي**، ص 20 . **مناقب** مخ 18555، ص 1117، 176 ، 1180، 188 ب .

واعتمد أهل البادية في غذائهم على كثير من النّباتات والحشائش ، وذلك فضلا عن الصّيد والقنص الذي مثّل موردا هاما للغذاء (1).

على أنّ استعمال السّمك في الغذاء لم يعرف انتشارا كبيرا في أواسط المجتمع الافريقي، وخاصّة بالبادية، التي أنصرفت الى الصّيد البري والانتاج الزراعي، فيما أنتشر أكثر بالمدن الكبرى، إذ ذكر بمدينة تونس سوق الحواتين الذي أحتوى على 300 دكّان (2).

(1) كان أعيان الحضر يمارسون هذه الهواية للترويح عن النفس والتّسلية، بما فيهم السلطان الذي كان يقضّي وقتا طويلا في الصّيد ببحيرة إشكل (ناحية بنزرت) وكذلك عمّال المخزن حتى أنّ أحدهم كان مولعا بصيد الخنزير، وتعرّض أحد العمّال بالجزيرة القبليّة لغضب القاضي ابن عبد الرفيع والعزل لشدّة هوايته بالصّيد . على أنّ أنصراف أهل القرى والبادية الى الصّيد يعتبر جزءا لا يتجزّأ من حياتهم اليوميّة . وممّا يذكر في هذا الخصوص ، انتقال الصيّادين الى جزر الجامور (أو جبل الجوامر) وهي جزر زمبرة القريبة من الوطن القبلي حيث تكثر الحيوانات البريّة من ماعز وغيره . كما اقبل الصيّادون على صيد الطيور، رغم أحترازات الفقهاء حول عدم صيدها وقت فراخها . وقد تعدّدت طرق صيده، منها الحبالات والفخّ الذي يعمل من أعواد وينصب عند عيون الماء. كما استعملت آلة أخرى أطلق عليها الملطم، وهي " عصى طويلة بطرفها لوح كالآلة التي يرمى بها الخبز في بيت النّار ويجعل في ذلك اللّوح مسامير بين أحادها بعض بعْد ، "ويصاد بها الطّير المسمّى بالتّرد، في الليل مستعملين في ذلك المشاعيل والوقود للاضاءة ، وتتمثّل في ضرب الطائر بالملطم وهو نائم على الشجرة، فيسقط ويتداركه الصيّاد بالذّبح .وكثيرا ما ذكرت كلاب الصّيد لدى البدو والأعراب ، حتّى أنّ الفتيات كن ينتقلن مرفقات بالكلاب الجارحة . ونظرا إلى امتداد المجالات التي غطتها الغابات، فانّ صيد الحيوانات البريّة مثل الخنزير والغزال والأسد يعد أمرا عاديا ببلاد افريقية .

الابي، **الاكمال** ، جV ، ص 272 . الجدميوي، **رفع الازار** ، ص 109ب . البرزلي ، **جامع** ، ج I ، ص 167 ب . ابن ناجي ، **شرح** ، ج II ، ص 112 ب . 1119، 1138.

(2) شمل الصّيد البحري البحيرات والأودية وسواحل البحر المتوسّط، على أنّ بعض المواقع القريبة من مدينة تونس وذات السّمك الوفير ظلّت ملكا للمخزن. من ذلك أنّ الصيادين منعوا من ممارسة مهنتهم ببحيرة بنزرت، بعد أن اكراها المخزن لقوم على أن يصطادوا الحوت بالجرافة وغيرها ويبيعونه الى مدينة تونس، بعد أن يتحصّل المخزن على نسبة معيّنة من الانتاج .

وتعرّضت مناطق أخرى لسيطرة البلدان المتوسطيّة ، ففضلا عن اكتراء الجنويين سواحل طبرقة والقل وعنابة لصيد المرجان ، فانّ جزيرة قوصرة أصبحت خاضعة لصقلية ، رغم بقاء الجالية الاسلامية بها الى حدّ القرن التاسع هـ/XVم ، حيث ذكر البرزلي وجود قاض وعدول لهذه الجالية . لكن هيمنة الصقليين عليها جعل منها حدا بحريا فاصلا بين افريقية وسائر البلاد المتوسّطية، ولا يمكن لسفنها أن تتجاوزه . وفي حالات أخرى ، توغّل الصيّادون في السّواحل الافريقيّة، من ذلك أنّ صيّادي الاسكندريّة كانوا يصلون في سفنهم الى جزيرة قرقنة في القرن التاسع هـ/ XVم .

ولا شكّ أنّ هذه المؤشّرات تدلّ على تراجع الصيد البحري في تلك الحقبة التي كثرت فيها حركة القرصنة، وأصبحت تهدّد الملاحين في أملاكهم وأنفسهم . وقد تركت لنا وثائق الارشيف أمثلة كثيرة عن هذه العمليات التي شملت القطع على السّفن التجاريّة وسفن الصيّد، حتى عسر على الصيّادين ممارسة نشاطهم وهو ما يفسّر بدوره تراجع صناعة السّفن ، وممّا يذكر في هذا الصّدد انّ الصيّادين كانوا يعمدون الى العمل في سفينة واحدة، مستعملين خمسة شباك أو أكثر، ويتمّ تقاسم الانتاج حسب حصّة كلّ واحد ، والتجاوا أحيانا أخرى الى اكتراء السفن أو الشباك للعمل (مقابل النصف) ، انظر :

البرزلي ،ن.م.، مخ 4851 ، ج II ، ص 114 ب ،187ب،262ب،1312.

Doumerc, **Tunis et Venise** (Thèse dactylographiée)

F.Iroko, les marchands Venitiens et le commerce des cauris entre le XIII-XVeme, **Africa**, Année XII, n°3, septembre 1990, pp.480-484.

Alarcon,**Documentos**.....p.259-260

وهكذا فان غذاء أهل البادية ظلّ مفتقرا الى بعض المواد، مثل الخضر والأبازير والبروتينات، ممّا جعلها عرضة أكثر لسوء التغذية والجوع والموت مبكّرا . على أنّ طبيعة نشاط المزارعين والبدو يفسّر الى حدّ كبير محافظتهم على نقاوة الجسم وصحّته. وهذا المغازلي يتحدّث عن مدى تأثير الغذاء وطبيعة العمل على صحّة كلّ فئة، فيقول : « **وكلّما كانت الرياضة أقوى كان الانهضام أسرع وأجود ويشهد لصحّة الابدان بالرّياضة ما نشاهده عيانا من صحّة أبدان الفلاّحين في قطرنا والمرتاضين وحسن ألوانهم،ونظافة أبشارهم ورونق وجوههم واكتناز لحومهم وطيب نكهتهم وسلامتهم من الأمراض بالكليّة مع عدم توقيهم من الأغذية الفاسدة وكثرة استعمالهم لها وما يزيد ذلك الاّ صلاحا . وأقوى رياضة من هؤلاء وأدومهم عليها الجيش المظفر والعسكر المنتصر. أما الدعة والراحة المتطاولة ، فلا خير فيها ولا في كثرتها ، لانها تولّد الأمراض المزمنة . ويشهد بصحّة هذا القول ما نشاهده في بلدنا من حال أهل الدّعة مثل تجار الربع المستظلّين بالسّتائر المقصورين على دورهم وحوانيتهم ، انّك تراهم صفر الوجوه نحال الجسوم بطيئين الحركة ضعفاء القوّة أشبه النّاس بالمساجين ، ويتأكد لك علم ذلك عند خروجهم للقاء المسافرين من الجيش المظفر المرتاضين بالسّفر، فتراهم حسان البشرة صباح الوجوه وافرين القوّة مكتنزين اللحم حسان الأخلاق بخلاف أهل البلد الغير مرتاضين** »(1).

2)– لباس الحرير والملف ولباس الصّوف :

أ) لباس الحضر :

ورد في كتاب حفظ الصحّة للطبيب أحمد الصقلي المتوفّى سنة 820 هـ / 1417م الذي ألّف لأبي فارس عبد العزيز أنّ اللّباس الحضري يختلف من فصل إلى آخر :

– ففي الربيع، يلبس رقيق الصّوف المبطّن بالملف .
– وفي الصّيف ، يفضّل لباس الكتّان، خصوصا الصغير منه .
– أمّا في الخريف فانه يلبس الطّروحات الملوّنة .
– وفي الشتاء ، يستعمل الملف المبطّن والأفرية .

(1) المغازلي ، **تحفة القادم** ، ص 112– 14 ب .

أمّا ما يجعل على الرأس ، ففي زمن الشتاء ، يستعمل الخزّ والقطن والصّوف . وفي الصّيف، يلبس خاصّة الكتّان ، وإذا احتاج الرأس الى قلنسوة، وكانت ضيّقة، وقع ثقبها (1) .

والحقيقة أنّ هذه المعطيات لم تكن مجرّد أمر نظريّ ، إذْ تعوّد السكّان الحضر على تغيير اللّباس من فصل الى آخر، كما أشار إلى ذلك البرزلي ، عند حديثه عن لباس المرأة في القرن الرابع هـ/X م، إذ قال : ومنها ما يلبس في الحرّ أو البرد، مثل الجبّة والقميص والخمار والمقنّعة ، وكذا الفراش للنّوم كاللّحاف المحشو والكسا والملحفة . وقد ظلّت اللحاف المزدانة بالحرير والطنافس رائجة لدى الحضر عهد الحفصيين (2) .

على أنّ اللّباس خضع بدوره لتطوّر الحقب التاريخيّة ، وتغيّر الأزياء . ويبدو أنّ نساء مدينة تونس في القرن الثّامن هـ / XIVم قد بلغن درجة من الأناقة في الهندام جعلت الفقهاء ينظرون الى لباسهن بتحفّظ. وهذا أحد علماء ذلك العصر يقول : **"ما عليه نساء اليوم من لبسهن وخروجهن متلحّفات بالأكسية والملاحف الحسنة، وربّما كان الكساء رقيقا يظهر منه الاكمام التي يظهر منها بعض جسدها اذا رفعت يدها** (3) .

وأوضح المؤلف في فصل ثان أنّ عرض الكمّ أحدثته النّساء في أوّل المائة الثّامنة هـ / XIV م، وانّ هذه الطريقة في اللباس انتشرت حتّى في أوساط بنات العلماء (4) .

وذكر الأبيّ في مطلع القرن التاسع هـ /XV م أنّ ما يميّز لباس السيّد هو الملف، ولباس المملوك هو ثوب من نسيج الحائك، ولم تقتصر المفارقة على نوعيّة الثّوب، انّما كذلك ارتبطت بكيفيّة الهندام .

فلباس الحرام (أو التحريمة) اختلفت من الخاصّة الى العامّة : فقد اتّبع الخاصّة بافريقيّة لباس الحرام حسب " **الطريقة المغربيّة** " . وكان ابن عرفة يقول في هذا الصّدد : " **التحريمة التي خصّ بها الفقهاء في المغرب المسمّاة بلام ألِف ، ومعنى رفع يده اليسرى على منكبه الأيسر رفع طرف الاحرام من جهة اليسار على المنكب الأيسر كما في المغرب** " . وكانت هذه الطريقة مختلفة عن " تحريمة عوام الناس " بافريقية (5) .

(1) احمد بن عبد السلام الصقلي ، **حفظ الصحّة** ، مخ 18316 ، ص 141.
(2) لبرزلي، **نفسه** ، ج I، ص 1271. ابن عرفة ، **المختصر** ، ج II، ص 13. القلشاني ، شرح ، ج II، ص206ب
(3) الابي ، **الاكمال** ، ج VII، ص 224 .
(4) **نفسه** ، ج V، ص 411 . (5) الابي نفسه، ج III، ص 44 . ابن ناجي ، **معالم** ، ج IV، ص 153،57 .

كما عرف فقهاء مدينة تونس وغيرها من المدن الافريقية بلباس مميّز : وهو ارتداء العمامة وجعل رداء (أو فوطة) عليها، حسب الطريقة المنتشرة في مصر. وطرحت هذه المسألة على الفقيه عزالدّين بن عبد السّلام من قبل بعض المحافظين الذين أنكروا مثل هذا اللباس. والى ذلك ذهب الفقيه أبو عبد الله الدكّالي الذي أنكر هذا اللباس على فقهاء افريقيّة (1) .

ولئن عرف المتصوّفة بلباس الصّوف الخشن الأسود والمرقّعة التي أنكرها الفقهاء عليهم، فانّ هذا الصّنف الأخير قد تميّز بأناقته : فلباس العمامة اللّطيفة هو عنوان للشهرة وللانتماء إلى سلك العلماء في كلّ من مصر وافريقيّة ، فيما عرفت الفئات الشعبيّة بلباس العمامة المزمّلة (2).

وفي الجملة ، فانّ العلماء كانوا يأخذون بالقاعدة القائلة : " **ألبس من اللباس ما يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند السّفهاء** " (3) .

وانفرد أهل الذمّة بلباس خاصّ بهم، وألوان مميّزة مثل اللّباس المزعفر (الأصفر) والأحمر . فقد فرض على اليهود عهد المستنصر الشّكلة الصّفراء . غير أنّهم لم يكونوا مقيّدين بزيّ مميّز لهم ، الا في فترات معيّنة ، مثل النصف الثاني من القرن الثامن هـ / XIVم (4).

أما يهود القرى بجنوب افريقيّة ، فقد كان لباسهم مطابقا للباس البربر، حتّى أنّه يصعب التّفرقة بين الاثنين، حسب شهادة البرزلي (5) .

كما جاء زيّ النّصارى مميّزا في كلّ من المشرق والمغرب : فكان القبط يلبسون العمائم الزّرق فيما لبس السّامريّة العمائم الحمر، أمّا أهل الذمّة بتونس ، فقد تحدّث عنهم البرزلي قائلا : « **والعادة عندنا أن نساء النّصارى يستترن كالمسلمات غالبا من غير علامة، ومنهن من يلتزم زيّ النصارى، واليهوديّات لهن علامة المشي بالقرق أو حافية، وعلامة الذكور من اليهود الشكلة الصّفراء فوق الاحرام ، لا تحته ، فانه قد يشكل اذا أعطى بظهره. وأمّا النّصارى ، فلهم زيّ على رؤوسهم يلزمونه، وقد كان بعضهم تزيّى على رأسه بزيّ المسلمين ، فألزمهم السلطان زواله ويتزيّى بزيّهم لقضيّة وقعت يطول جلبها** » (6) .

---

(1) البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 87 ب .   (2) البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 168 ب . ج II، ص 173.

(3) البرزلي ، **نفسه** ، ج I، ص 268ب، 1414.ورد في احدى المسائل ذكر عدد ملابس النساء والصبيان الحضر : فكانت امرأة عند الحمل تلبس قميصا وسراويل ومقنّعا وخفا وشادكة محشوة بالصّوف وملحفة ومرفقة من صوف . أما كسوة الصبي ، فهي محشو وفرو وغفيرة أو طويف خزّ (قميص صغير)، وقميص وزوج اقراق وزوج موق وجوربان وكسوة النّوم (كساء شويذكة ولفائف من صوف وكتّان وحرام ومحشو) .

(4) **نفسه** ، ج IV، ص 419ب . (5) **نفسه** ، ج I، ص 171 ب .

(6) **نفسه** ، ج I، ص 171ب ، سبق البرزلي أن أشار أن هؤلاء النصارى استقروا بمدينة تونس في العهد الحفصي وكانت لهم حارة خاصّة بهم (الربط) بباب منارة .

وبالتالي ، فانّ الفوارق في اللباس الحضري متعدّدة الأوجه: فهي مختلفة حسب الفصول والفئات الاجتماعية والدّيانات . غير أنّ هذه الاختلافات ، باستثناء التباين الاجتماعي في اللباس ، تبدو طفيفة ، وقد كان الأمر كذلك بالنّسبة للباس البدو بافريقية .

ب)لباس المزارعين والبدو : تعوّدت نساء البادية على الخروج مكشوفات، لابسات الكسى والحنابل . وكن قد اشتهرن بعمل الصّوف ، غزلا ونسيجا. ولبسن ببرقة البرقع على وجوههن، وان كن قد اختلطن بالرجال للبيع والشراء مكشوفات الرأس(1) .

أمّا الرجال، فقد ارتدوا بوسط افريقيّة البرنس (أو البرنوس)، فيما لبس الفارس العمامة والنّقاب، وتميّز العريس باللباس الأبيض (2).

أما الصلحاء والعلماء من بينهم ، فقد تركت لنا المصادر بعض الصّور الجزئيّة للباسهم: فأبو هلال السدادي " **كانت عليه جبّة حاكة بيضاء وعلى رأسه فويطة وقلنسوة تحتها ، وعلى أكتافه فوطة أخرى** " . ولبس يعقوب الزّعبي الذي تولّى قضاء تونس سنة 815 هـ ثوبا وجبّة خضراء واحراما . أما عبد الحميد الشنيشي فكان يلبس جبة بيضاء جربيّة وعمامة واحرام صوف (3) .

وارتدى الاطفال الشملة والكبار الأحرام ، فضلا عن الفروة والعباءة، والمدوس والسبّاط والشّاشية (4). وكانت تنسج للرّعاة جبّة الصّوف الوسط البيوتي بناحية قفصة (5) .

وفي الجملة، غلب الصّوف على لباس أهل البادية من النساء والرّجال ، وانتشرت خاصّة الأرديّة الصوفية والجبة والبرنس والاحرام من الصّوف . ومعلوم أنّ هذه الملابس كلّها معروفة لدى الحضر (6).

وبالتالي ، فانّ ما يفرّق اللباس في عالمي البدو والحضر هو طريقة اللّباس ونوعيّة القماش وجودته . وظلت المدينة مقصورة على انتاج اللّباس ، كليا أوجزئيا،

---

(1) المغيلي، **الدرر المكنونة في نوازل مزونة**، ج II، ص 110، 121، 11ب ، 133. العبدري ، **رحلة** ، ص 86-87 .

(2) ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 213، 218 .

(3) نفسه، ج IV، ص 51، 152، 167، 185.

(4) **نفسه** ، ج IV، ص 213، 218، 232، 214.

(5) ابن راشد، **الفائق**، ج IV، ص 12.

(6) الابي، **الاكمال**، ج I، ص 214-215. ابن ناجي، **معالم** ، ج IV، ص 152 .كانت من عادة أهل الحضر لبس البرنس على العاتق وجرّه خيلاء أحيانا .

وحتى عندما أكتفت البادية بانتاجها المحلّي للمنسوجات ، فانّها احتاجت الى المدينة لاقتناء وسائل الانتاج (مثل المغزل والنّول أو مواد الصّباغة المستوردة) . كما ظلّت متفوّقة في مستوى انتشار نوعيّة الهندام وتطوّره ، وان كانت البادية قد أثّرت بدورها في بعض الأحيان .

وفي الأخير ، أرتبط اللّباس شديد الارتباط بالحرف الحضريّة التي أزدهرت بالمدن مثل النسيج والصباغة ، على أنّ السّوق المغربيّة عامة والافريقيّة خاصّة تمّ إغراقها بعديد البضائع الأوروبيّة وخاصة الجنويّة التي كانت تقايض في القل بالشمع والجلود وفي سكيكدة بالقمح وفي عنابة بالقمح والزّبد والمرجان (1) .

وأنتشرت هذه البضاعة الأوروبيّة في المدن السّاحلية خاصّة ، أمّا البلاد الدّاخليّة فانّها لم تتمكّن من التّسرب اليها حسب شهادة الوزان، مكتفية بالملابس المنتجة محليا في تونس والمدن الداخليّة مثل القيروان وقفصة وقسنطينة وتوزر وغيرها (2) .

(1) الوزان ، **نفسه** ، ج II، ص 62،55،54 .

(2) **نفسه**، ج II، ص 91 .

- خاتمــــــــة :

اتّضح لنا أنّ هذه الحقبة عرفت بدورها تطوّرًا اجتماعيا وثقافيا هامًا، لكنه ظلّ منحصرًا داخل المدن ولم يفض الى نشأة نمط ثقافي واجتماعي موحد بالبلاد، وذلك نتيجة العوائق العديدة التي حدّت من تطوّره، منها ما هو خارجي مرتبط بتطوّر العلاقات في المتوسّط ومنها ما هو داخلي. وقد تمثّل هذا الأخير في أزمة هيكليّة شملت المجتمع المغربي.

وقد لخّص ابن خلدون أزمة المجتمع المغربي، وما آلت اليه من صراعات اجتماعيّة وجمود فكري في قولة شهيرة : "الظلم مؤذن بخراب العمران" . ومثّلت السّخرة – أو أغتصاب ثمرة العمل –ومصادرة الأموال والغصب الشكل المتطوّر للظلم " الاقطاعي " الذي مارسه كلّ من " أهل القدرة والسلطان " ومشائخ البدو والزّوايا .

وكانت نتائجه وخيمة على المجتمع المغربي عامّة والافريقي خاصّة : فقد نجم عنه كساد النشاط الاقتصادي في المدينة والباديـة، وتراجع الانتاج والتبادل، وانحسار العمران وضعف الدولة .

واتّضح لنا من التّحليل السّابق أنّ أزمة البادية الهيكليّة انعكست على المدينة في مستوى نقص الانتاج والضغط البدوي المتواصل على المدينة والتّضخم السكّاني داخل الأسوار وما نجم عنه من انتفاضات .

ولم تكن الظاهرات الثقافيّة سوى وجه آخر لهذه الأزمة إذ أصبح "للاقطاع الصوفي" مكانة هامّة داخل المدن والأرياف على حدّ سواء، وتمكّن من التغلغل داخل النجوع المرتحلة، وفي القصور الأميريّة . وفشل العلماء بمختلف تياراتهم في اجتثاث تلك الظاهرة التي ولدت في رحم الأزمة واستشرت داخلها .

الخاتمة العامّة

بنية المجتمع الافريقي والمغربي : بين التجزئة والصياغة غير المكتملة :

لا غرو أن النظرة التي ركزت على العوامل الداخلية ليست قادرة على تفسير التطورات الجذرية الحاصلة في المدينة والبادية المغربية عامة والافريقية خاصة ، وأن القضية ليست مقترنة بالبدو الهلاليين بقدر ما ارتبطت بالتطوّرات الاقتصادية والاجتماعية الحاصلة في العالم ، وتحديدا البحر المتوسط .

وقد تفاعلت هذه التطورات الداخلية والخارجية لتؤدّي الى صياغة مجتمع يتنازعه عاملا الاختلاف والاندماج بين المجالات الثلاثة : البدوي والزراعي والمديني . وتجسّد ذلك في المستويات التالية :

اولا : على المستوى الاقتصادي :

– هيمنة *اقتصاد سلعي هش* ، تميز بالخصائص التالية :

– أهمية العلاقات النقدية في التجارة الداخلية والخارجية (أهمية عائدات التجارة الخارجية) ، وهو ما يفسر أن المدينة تمكنت من التواصل دون حاجة قوية للبادية ،أثناء فترات الأزمة .

– تحكم بذور الرأسمالية الناشئة بالمدن التجارية الأوروبية في نقل البضائع وتنظيم المبادلات غير المتكافئة بين المجالين : تصدير مدن افريقية والمغرب للمواد الأوّلية (الصوف والجلود والزيت والتمور) مقابل إغراق السوق بمصنوعات جنوة والبندقية من القماش وغيره .

– نشأة فئات مستفيدة من هذا التوازن الاقتصادي المفقود من التجّار والوسطاء والفكاكين و العاملين في ديوان البحر (المشرف والتراجمة ..)وأرباب السلطان. وفي المقابل ، تضرر البادية التي تعرضت الى نزيف للمواد الأولية . وقد اضطلعت المدينة بدور الواسطة بين البادية و الرأسمال التجاري والصناعي الأجنبي .

وكان لهذا الاقتصاد السّلعي التابع تأثيره المباشر على الهياكل الاقتصادية بالبادية ، وذلك فضلا عن العوامل الداخلية المتمثّلة أساسا في جباية مجحفة سلّطت على المجال الزراعي ، وفي تواصل اقتصاد الغزو للقبائل المحاربة التي أستنزفت قوة الفلاّح وأدّت الى تفريطه في الأرض.

– *تطور لنظام الملكية العقارية في اتجاه التاقطع* : تجسّد ذلك في العلاقات الانتاجية التالية :

– تحكم المخزن الحفصي في تنظيم الملكية وتوزيعها في المجالين الحضري والزراعي ، فيما سيطرت القبائل البدوية على المجالات الرعوية ، وتمكنت من الحصول على جزء من الريع العقاري عن طريق دورها في جباية الأوطان، وهو ما حدّ من هيمنة المدينة على البادية .

– نشأة علاقات تبعية لصغار المزارعين تجاه الملاك العقاريين ، تمثّلت في دفع الريع العقاري لهم مقابل كراء الأرض أو في طلب حماية الأعيان المحليين أو السلطان للحرث والحصاد ، مقابل إعطاء نسبة بلغت ثلث الانتاج ببادية القيروان، وفي أعمال السخرة التي قدموها ،وخاصة في استفحال ظاهرة المزارع الذي فقد حريته الاقتصادية (بدون أرض ووسائل إنتاج) وأصبح تابعا للمالك العقاري وهو الخمّاس.

و تفسر ظاهرة الخماسة بتفقير المزارعين وبنضوب مصادر الرقيق ، المتأتين الى حد القرن الرابع هـ من بلاد الصقالبة والسودان ، بعد أن أصبحت أعداد هامة منهم تحول الى أوروبا تجارة .

– هيمنة الملكيات الكبرى (ضياع وهناشير) التي كانت بحوزة أعيان المدن ومشائخ الزوايا ومشائخ البدو ، عن طريق التملّك والحبس والاقطاع ، فيما تجمّعت الملكيات المتوسطة والصغرى في المجال المحيط بالمدن والقرى.

– الصبغة الطبيعية للاقتصاد الرعوي بالبادية ، الذي استند الى الرّعاة بالأراضي غير المستغلة والخماسة وصغار المزارعين بالهناشير . وقد مثّلت الأجرة العينية القاسم المشترك بين الخماس والراعي . ونظرا إلى طبيعة الهياكل الزراعيةالمتجمدة و تطور بطيء للتقنيات ، عجزت البادية عن توفير الغذاء لأهلها ، وعرفت ظاهرات الفقر والنزوح والوهن الديموغرافي في فترات الأزمة .

وأنعكس ذلك على طبيعة المجال الزراعي ، فظهرت مساحات شاسعة غير مزروعة فيما تضخّمت المدن بالبطالين وأستفحلت الآفات الاجتماعية من جوع وموت جماعي (أوبئة) واضطرابات . وهكذا أصبحت البادية عالة على المدينة في غذائها، مما يفسّر أزدياد تبعية المدن للتجارة المتوسطية .

ويتضح أن هذه الاوضاع قد استوفت الشرطين الأولين من جملة الأربعة التي ذكرناها في المقدّمة للحديث عن الاقطاع ، وهي : هيمنة الضيعات الكبرى ووجود علاقة تبعية للمزارعين وتفكك سياسي وأرستقراطية عسكرية .

ثانيا– على المستوى الاجتماعي والسياسي :

– *محدودية فاعلية النبالة العسكرية* : هيمن المخزن على أهم قطاعات الاقتصاد داخل المدينة : الحرف والتجارة والزراعة . وفي الريف ، تجلت هيمنته في استخلاص الريع العقاري ، من كراء الأرض (أرض الجزاء) وجباية الأوطان

عن طريق مؤسّسة المحلة العسكرية التي أمّنت في المقابل عملية الزراعة للفلاحين ، لكنها عجزت عن ترسيخ بنية زراعية متينة ، مثلما كان الأمر في العصر الأغلبي.

ولا غرو فقد ظهرت أرستقراطية عسكرية فاعلة منذ العهد الموحدي ، من أصول مختلفة ، شيوخ الموحدين والعلوج و شيوخ الأعراب والاندلسيين ، وحظيت بقسط وافر من الاقطاعات السلطانية ، واستخلاص الريع العقاري من الفلاحين .

على أن فاعلية التجارة البحرية أدّت الى بروز فئات حضرية محظوظة وتشكل فئات تجارية وحرفية بالمدن ذات تنظيم متطور . و قد تزايدت سلطتها سياسيا ، على حساب الشيوخ التقليديين . و لعب عنصر الأندلسيين وأهل البيوتات دورا هاما في هذا التطو رالاجتماعي ، إذ توفرت فيهم إطارات علمية وتجارية وحرفية وسياسية ليست لها أرتباطات بالقبائل البدوية أو الملكية العقارية الهامة.

– *التفكك السياسي في فترات الضعف* : ظلت سيطرة المخزن الحفصي على المجال الرّعوي *والمدن الطرفية ضعيفة ، إذ تمكنت القبائل البدوية في كثير من الاحيان من الخروج عن طاعته مكونة بذلك البلاد التي لا تنالها الاحكام الشرعية . كما أستطاعت المدن الطرفية بالتلول (قسنطينة وبجاية) وبالواحات (ببسكرة وطرابلس وقابس و قفصة والجريد) أن تنفرد بامارات مستقلة عن المركز ، نتيجة قيامها بدور الوسيط مع مدن التلول أو مع البلاد المتوسطية في التجارة الصحراوية .

وهو ما يعني الوصول الى مرحلة التفكك السياسي في فترات ضعف السلطة، وانتهاء الحقبة بازدياد ظاهرة الانقسام وبروز "الاقطاع الصوفي" المتمثل في الزاوية الشابية .

وهكذا فان التفكك السياسي كان ظاهرة بارزة خاصة في فترات الضعف، كما أن النبالة العسكرية لم تتمكن من الانفراد بالحكم أو السيطرة على كل المجالات الاقتصادية ، سواء داخل المدينة أو بالبادية ، إذ تعرضت لردود فعل الفئات الحضرية وأهل البدو في الآن نفسه .

وهو ما يفسّر عدم استيفاء كل الشروط الخاصة بالاقطاع حسب كلود كاهان، ولكن أغلبها عرفته البلاد في فترات الضعف ، وهو ما يعني نزوعها إلى التأقطع في فترات الضعف ، وعجزها عن إقامة إقتصاد سلعي متوازن .

أن هذه المعطيات تفسّر مدى التباين بين المجالات الثلاثة : الحضري والريفي والقبلي ، وضعف الانسجام بينها ، وما يعني ذلك من ظهور مدينة متطورة نسبيا ، لكنها عاجزة عن السيطرة على كافة الناحية المحيطة بها ، وريف متخلف عرف الازمة بكل مظاهرها . وقد نجم عن ذلك بروز مظاهر التوتر بينها ، التي تصل

أحيانا الى النزاع ، وتكفير المدينة للبادية .

ثالثا : على المستوى العمراني والثقافي :

– *صياغة الخريطة الحضرية في العهد الحفصي: الثابت والمتحول في المجالات الثلاثة* : أقرّ ابن خلدون أن المدينة تنشأ من رحم الريف، وهو ما توصلت اليه نظريات المعرفة الحديثة ، وما يعني حتما مدى الجدلية بين المجالين ومراجعة النظرة التي تعزو التطوّر المديني الى التجارة فقط أو تلك التي تذهب الى هيمنة العلاقات التناقضية بين الطرفين .

ومما يبين ذلك أن جغرافية العمران في العهد الحفصي قد أقترنت بالمشهد الزراعي : فالمناطق التي سيطرت فيها زراعة « متخلفة» قائمة على الرعي والحراثة تضاءل فيها العمران ، وأضمحلت فيها المدن والقرى ، لعدم الحاجة الى يد عاملة كبيرة ، وكانت أكثر عرضة للجوع والهجرة .أما المجالات التي عرفت البستنة وغراسة الأشجار ، من زيتون ونخيل وغيرها ، فقد شهدت إعادة تعمير وبناء للقرى والمدن ، وذلك انطلاقا من نموذجين مرتبطين بالأوضاع الامنية وهما القصر والزاوية.

ولذا تركّز العمران بالسواحل فيما تراجع الاسكان والتعمير بدواخل البلاد .

وفي الجملة ، فان الجغرافية التاريخية لافريقية عصرذاك قد تميّزت بتراجع العمران الحضري ، وتركيزه في المدن الكبرى مثل تونس وبجاية ، فيما تمكّنت البنية القبلية من أن تغزو مجالات حضرية عديدة ، خاصة على إثر الأزمات الدورية التي أدت الى أندثار عديد القرى . وهو ما يقلّل من شأن العامل البدوي ، خاصة أن عددا كبيرا من هذه القبائل قد أنتهى به الأمر الى الاستقرار والاندماج .

– *مدى التناغم بين العوالم الثقافية الثلاثة* : رأينا أن المدرسة والزاوية وميعاد القبائل هي الحلقات الثلاث لانتشار الثقافة في ذلك العصر . على أن العوالم الثلاثة: الحضري والقروي والبدوي لم تظهر بها تجزئة ثقافية بين الشفوي والكتابي أو بين هذه المؤسسات الثلاثة ، أذ نعثر على بدو بالمدارس والزوايا يتعلمون ، وثقافة بدوية داخل المجال الحضري ، ومؤسّسة مشتركة بين هذه المجالات و هي الزاوية .

غير أنه لا يغيب علينا في تصور لهذه الخريطة الثقافية نقطة الاشعاع وهي المدينة ، التي حاولت تارة إدماج البدو (توبة الأعراب) وذهبت إلى عكس ذلك تارة أخرى.

والحقيقة أن الاختلافات لم تكن فقط بين المدينة والقبيلة ، إنما أيضا

داخل المجال الحضري حيث أفرز التطور الاقتصادي ظهور فئات اجتماعية ذات ثقافة متطورة وفكر أكثر تفتحا من ثقافة الفقهاء المحافظين ، وقد كان ابن خلدون وليد هذا التطور .

لكن هل نجح هذا التيار الفكري في فرض نفسه على التيارات المحافظة وعلى ظاهرة التصوف التي اكتسحت في خط مواز للأزمة المجتمع أفقيا وعموديا، وهل تمكّن من التغلب على الاستبداد السلطاني والركود الحضاري ، أو بالأحرى لماذا عجز علماء المدينة عن خلق أنموذج توفيقي بين المدينة وباديتها ، يتجه الى الادماج عوضا عن الرفض والتكفير والانغلاق ؟

لا شك أن الأمر تجاوز العامل الثقافي ، وكان شاملا للهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وكما أن الاقتصاد السلعي ظل هشا ، وأزمة البادية هيكلية ، والتوترات غالبة على العلاقة بين المجالين ، فان هذا البريق الفكري لم يتواصل.

*** نوقش هذا البحث برحاب كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس في 28 جوان 1995 . وشارك في اللجنة الأساتذة: محمد الطالبي رئيسا وهشام جعيط مشرفا وتوفيق البشروش ومنيرة شابوطو مقرّرين، والمرحوم سعد غراب وراضي دغفوس عضوين. وقد توّج بنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ بملاحظة مشرّف جدًا..**

قائمة المصادر والمراجع (1)

المخطوطات (2)

- البرزلي (أبو القاسم) ، جامع مسائل الأحكام ، 4851 – 5371 – 5372 – 5429 – 5430 .
- أحمد بن بكر (أبو العباس) ، كتاب أصول الأرضين ، جربة (المكتبة البارونيّة).
- البوسعيدي (أبو عبد الله) ، اختصار جامع مسائل الأحكام . 34 .
- تخطيط مدن ولايات سوسة والمنستير والمهدية . 18669 .
- الجدميويّ ، رفع الأزار على محاسن الجوار . 18730 .
- الجزيري (أبو الحسن علي) ، كتاب في التوثيق 539 .
- ابن جماعة ، شرح مسائل البيوع للقباب . 17938 .
- الجودي (محمّد) ، تاريخ قضاة القيروان . 645 .
- ابن أبي حجلة ، دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة . 18574 .
- ابن الخطيب (لسان الدين) ، منظومة في الطب الاندلسي. 13595 .
- الخلوف (أحمد بن أبي القاسم) ، ديوان . 1850 – 5644 – 13429 – 18769 .
- ابن الدباغ (أبوزيد عبدالرحمان) ، الأسرار الجليّة في المناقب الدّهمانيّة . 17944 .
- ابن رشيد (محمّد) ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة (الاسكوريال) ، 1737
- الرصاع (محمد) ، الأجوبة التونسيّة على الأسئلة الغرناطية . 19646 .
تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين . 1811 .
تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار 13348 .
- الرياحي (ت 1850) ، الخلاف بين بدر المغربي والشبيبي والغبريني . 17902 .
- زروق ، رسالة في ذكر من ظهر في هذه الأزمنة بحوادث لم تسمع من قبل 17966 .
- ابن أبي زيد (أبو محمد) ، النوادر والزيادات 5728 – 5729 – 5730 – 5731 .
- ابن سحنون (محمد) ، كتاب الأجوبة . 18668 .
- ابن سلمون (ابو القاسم) ، كتاب العقد المنظم للأحكام في ما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام. 20049 .
- مسائل ونوازل في الفقه المالكي . 5056 .
- السيوطي (جلال الدين) ، شرح الصدور في شرح حال الموتى والقبور . 4762 .
- ابن الشباط (محمد) ، صلة السمط ، ج ا رقم 5605 ، ج اا رقم 18564 / 18565 / 18590 . ج ااا 5606 .
- شروح وصية محمد الظريف . 15456 .
- الشماع (أبو العباس أحمد) ، كتاب مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في رد القول باباحة اغرام ذوي الجنايات . الاسكوريال.
- الصقلي (أحمد) ، - شرح أرجوزة ابن سينا ، 6855
- حفظ الصحة ، مخ 18316 .

---

1) اقتصرنا على ذكر أهم الوثائق التي اعتمدناها ونحيل القارئ على الدراسة للنظر في بقية المصادر والمراجع وخاصة المقالات .

2) لم يرد ذكر مصدر المخطوط إذا كان موجودا بدار الكتب الوطنيّة بتونس واكتفينا بذكر رقمه .

- الطب الفارسي ، 6249 .
- الصقلي (أبو عبدالله محمد بن محمد) المختصر الفارسي 10865 .
- ابن راشد القفصي (محمد) الفائق في معرفة الأحكام والوثائق ، 6150 – 6151 – 6152 – 6153 – 6154 – 6117 .
- الرصاع (محمد) ، تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار وعلى آله الأبرار . 18173 .
- شرح الرصاع على وصية الشيخ الظريف 15546 .
- ابن عبد الرفيع ، مجموعة مسائل فقهية . 445 .
- ابن عبد الباسط ، الروض الباسم ، مخطوط الفاتيكان ، 729 .
- الكواش (صالح) (ت 1172 هـ) ، تاريخ الدولة الحفصية 338 .
- ابن عرفة (محمّد) ، المختصر الفقهي . 4 أجزاء : ا – 10844 / اا – 10845 / III ، 20009 / IV ، 6224 .
- ابن عقيبة ، اغتنام الفرصة لمحادثة عالم قفصة . 15085 .
- في الغراسة 13812 .
- الغرناطي ، أسئلة صالحة للقضاة والمفتين .
- كتاب الفلاحة . 8096 .
- القلشاني (أحمد) ، شرح الرسالة ج ا : 6836 ، ج اا : 6837 .
- مجموع فيه رسالة ابن عربي الى عبد العزيز المهدوي . 3788 .
- مجموع ، موضوع الخماس فقهيا (ص 106 – 111) 17935 .
- مجموع به 28 رسالة ، (المغارسة و الاستنزال) 187 .
- مجموع فيه وصية أبي زكريا الحفصي . 14997 .
- مجهول ، تاريخ عروج رايس وأخيه خير الدين بمدينة الجزائر، 213,
- مجهول ، رسالة في استيلاء النصارى على جربة . 15348
- الخميري المغازلي (أحمد) ، تحفة القادم (في الطب) . 18509 .
- المغيلي (محمد بن عبد الكريم) ، رسالة في استخدام أهل الذمة . 7623
- المغيلي المازوني ، الدرر المكنونة في نوازل مزونة ، 2 ج ، ميكروفيلم.
- مناقب محمد الزّلاج . ,18420
- مناقب أبي الحسن الشاذلي . 17945 .
- مناقب عائشة المنوبية . 18221 – 1972 .
- أبو الحسن علي الهواري، مناقب أولياء مدينة تونس ، 12544 – 18441 – 18555 .
- نور الأرماش في مناقب القشاش . 16408 .
- ابن ناجي ، شرح الرسالة لابن أبي زيد 18753 .

المصادر المطبوعة

- ابن الأبار (أبو عبدالله محمد)
- المقتضب من كتاب تحفة القادم ، بيروت 1983 .
- درر السمط في خبر السبط ، بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، 1987, .
- الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، 1985 .
- ديوان ، تحقيق عبد السلام هراس ، تونس 1985 .
- الأبي (أبو عبد الله محمّد) ، إكمال إكمال المعلم ، طبعة حجرية ، القاهرة ,1910 .
- ابن الأثير (أبو الحسن علي) ، الكامل في التاريخ . دار الفكر ، بيروت 1978 .
- ابن الأحمر (أبو الوليد) أسماعيل ، بيوتات فاس الكبرا ، الرباط 1972 .
ثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، تحقيق محمد رضوان الداية . بيروت 1967 .

- التجيبي السبتي (القاسم بن يوسف) ، برنامج ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس 1981 .
- رحلة ، تحقيق ابراهيم شبوح ، القاهرة .
- الادريسي (محمد) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر الحاج صادق ، الجزائر 1983
- ابن الأزرق (محمد) ، بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، تونس 1977 .
- البادسي (عبد الحق) ، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ، الرباط 1982
- البرادي (أبو القاسم) ، الجواهر المنتقاة ، ط . حجرية 1302 هـ .
- ابن بطوطة ، رحلة ، دار الكتاب اللبناني ، د. ت .
- البكري (أبو عبيد) ، المسالك والممالك ، طبعة ديسلان ، الجزائر ، 1857 .
- البلوي (خالد بن عيسى) ، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، المملكة المغربية . د. ت.
- التجاني (عبدالله) ، الرحلة ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1981 .
- تحفة العروس ونزهة النفوس ، القاهرة ، د. ت.
- الترجمان (عبدالله) ، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ، تحقيق د. الطاهر المعموري ، تونس د . ت .
- التنبكتي (أحمد بابا) ، تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ، تحقيق سعيد سامي ، الرباط ، معهد الدراسات الافريقية ، 1992 .
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، طرابلس 1989 .
- التنسي (محمد) ، نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق م. بوعياد ، الجزائر 1985 .
- التيفاشي (أبو العباس أحمد) ، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب ، تحقيق جمال جمعة ، لندن - قبرص 1992 .
- الجزنائي (علي) ، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور الرباط 1991 .
- ابن الحاج (النميري) ، فيض العباب ، تحقيق بن شقرون . دار الغرب الاسلامي ، 1987 .
- ابن حجر (أحمد العسقلاني) ، الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة ، تحقيق محمد سعيد جاد الحق ، القاهرة 1966 .
- حازم القرطاجني (أبو الحسن) ، قصائد ومقتطفات ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس 1972 .
- ابن حزم (أبو محمد علي) ، جمهرة أنساب العرب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1983 .
- حلولو (أبو العباس أحمد) ، المسائل المختصرة من كتاب البرزلي ، طرابلس 1991 .
- الحميري (محمد بن عبد المنعم) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1984 .
- ابن الخطيب (لسان الدين)
- الاحاطة في أخبار غرناطة ، 3 أجزاء ، تحقيق عبد الله عنان ، القاهرة 1955 .
- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية ، بيروت 1980 .
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، احسان عباس ، بيروت 1963 .
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية 1983 .
- مثلا الطريقة في ذم الوثيقة ، الرباط 1973 .
- ابن خلدون (عبدالرحمان) ، كتاب العبر ، 7 أجزاء ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1983 .
- ابن خلدون (يحي) ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر 1980 .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ، وفيات الأعيان وأنباء

أبناء الزمان ، 8 أجزاء ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت
ابن الخوجة (محمد) ، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد ، بيروت (دار الغرب الاسلامي) 1985 .
- الداودي (أبو جعفر) . كتاب الأموال ، الرباط ، د. ت .
- ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم القيرواني) ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق وتعليق محمود شمام ، المكتبة العتيقة ، الطبعة الثانية 1967 .
- الدرجيني (أبو العباس أحمد) ، طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق ابراهيم طلاي ، الجزائر 1974 .
- الذهبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان) ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ، 1963 .
- الراشدي (عمر بن علي) ، ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب أحمد بن عروس ، تونس 1885 .
- ابن الرامي (أبو عبدالله محمد) ، الاعلان في أحكام البنيان ، مجلة الفقه المالكي ، الرباط 1982 .
- تحقيق فريد بن سليمان (شهادة التعمّق في البحث) ، تونس 1990
- ابن رزين التجيبي ، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان ، تحقيق محمد بن شقرون ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1984 .
- ابن رحال الهمذاني (أبو علي الحسن) ، كشف القناع عن تضمين الصناع ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس 1986 .
- رسائل موحدية ، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط 1941 .
- ابن رشيد الفهري (محمد) ، ملء العيبة (تونس عند الورود) ، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة ، تونس 1982 .
- ابن رشيق (حسن) ، أنموذج الزمان ، تحقيق بشير البكوش والعروسي المطوي ، تونس - الجزائر ، 1986 .
- الرصاع (أبو عبد الله محمد الأنصاري) ، فهرست ، تحقيق وتعليق محمد العنابي ، المكتبة العتيقة ، تونس 1967 .
- شرح الرصاع على حدود ابن عرفة ، الرباط ، 1992 .
- ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ، صلة الصلة ، 5 أجزاء ، تحقيق عبد السلام الهراس و سعيد اعرب ، المملكة المغربية 93 - 1995 .
- ابن أبي زرع (علي) ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ المغرب ومدينة فاس ، الرباط (دار المنصور) 1972 .
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط 1972 .
- الزركشي (أبو عبدالله محمد) ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، تونس 1966 .
- الزهري (أبو عبد الله محمد) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حاج صادق ، بورسعيد ، د. ت.
- ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحي) ، التشوف الى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، الرباط 1984 .
- الوزير السراج (محمّد) ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس 1970 .
- ابن سعيد (أبو الحسن علي) - المغرب في حلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، مصر 1964 .
- كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، الجزائر 1982 .
- السقطي (أبو عبد الله محمد) ، في آداب الحسبة ، تحقيق حسن الزين ، بيروت 1987 .
- السكوني (أبو علي عمر) ، عيون المناظرات ، تحقيق سعد غراب ، تونس 1976 .
- التونسي (محمد الشاذلي) ، فرح الأسماع برخص السماع ، تونس 1985 .
- الشماخي (أبو العباس أحمد) ، كتاب السير ، تحقيق محمد حسن (نسخة مرقونة) تونس 1979 ، نشر جزء منه (تونس 1995).

- ابن الشماع (أبو عبدالله محمد)، *الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية* ، تحقيق الطاهر المعموري ، تونس 1984 .
- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك) ، *المن بالامامة* ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت 1964 .
- الصنهاجي (أبو بكر بن علي) ، *أخبار المهدي بن تومرت* ، الجزائر 1974 .
- ابن الطواح (عبد الواحد) ، *سبك المقال لفك العقال* ، تحقيق عبد الواحد الزغلامي (شهادة الكفاءة في البحث) ، تونس 1978 .
- العبدري الحاحي (أبو عبدالله محمد بن محمد) ، *رحلة العبدري* ، تحقيق محمد الفاسي ، الرباط ، 1968
- ابن عبدون ، *رسالة في القضاء والحسبة* ، نشر ليفي بروفنسال ، المجلة الآسيوية 1934 .
- ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1983 .
- الجزء الموحدي : تحقيق الكتاني وزنيبر وابن تاويت وزمامة ، الدار البيضاء 1985 .
- العزفي(أبو العباس) ، *دعامة اليقين في زعامة المتقين* ، تحقيق أحمد التوفيق ، الرباط .
- ابن العطار (محمد بن أحمد) ، *كتاب الوثائق والسجلات* ، مدريد 1983 .
- العقباني ، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق علي الشنوفي B.E.O. XIX, 1965.
- العمري (أحمد بن يحي بن فضل الله) ، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار* ، تحقيق د. مصطفى ابو ضيف أحمد الدار البيضاء 1988.
- القاضي عياض السبتي ، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك* ، (8أجزاء) المملكة المغربية ، د. ت.
- الغرناطي (أبو القاسم أحمد) ، *رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة* ، القاهرة 1344 هـ.
- الغرناطي (محمد بن عاصم) ، *جنة الرضا* ، تحقيق صلاح جرار ، عمان 1989
- ابن غازي العثماني (محمد) ، *الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون* ، الرباط 1988 .
- الغبريني (أبو العباس) ، *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية* ، بيروت ، 1979 .
- ابن القاضي (أبو العباس أحمد) ، *جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس* ، طبعة حجرية ، فاس ، د . ت.
- *درة الحجال في أسماء الرجال* ، نشر علوش ، الرباط 1936
- القبتوري (خلف) ، *رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي* ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، الرباط ، 1979 .
- ابن فرحون (ابراهيم) ، *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب* ، القاهرة (دار التراث) 1972 .
- ابن القطان المراكشي (حسن بن علي) ، *نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان* ، تحقيق محمود علي مكي ، دار الغرب الاسلامي 1990 .
- القلصادي الأندلسي (أبو الحسن علي) ، *رحلة* ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس 1978 .
- القلقشندي (أبو العباس أحمد) ، *صبح الأعشى في صناعة الانشاء* . القاهرة 1963 .
- *نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب* ، تحقيق الأبياري ، القاهرة ، بيروت 1991 .
- ابن قنفذ (أبو العباس أحمد الخطيب) ، *أنس الفقير وعز الحقير* ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط 1965 .
- *الفارسية* ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي، تونس ، الدار التونسية للنشر 1968 .
- *كتاب الوفيات* ، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1980 .
- كعت (محمود) ، *تاريخ الفتاش* ، باريس 1964 .
- اللبيدي الحضرمي (أبو القاسم) ، *مناقب الجبنياني* ، تحقيق هادي روجي ادريس ، 1962 .
- مارمول (كاربخال) ، *افريقيا* ، 3 أجزاء، ترجمة أحمد التوفيق وأحمد بن جلون ، الرباط (الجمعية المغربية للتاليف) ، 1984 .
- المجيلدي (أحمد سعيد) ، *التيسير في أحكام التسعير* ، تحقيق موسى لقبال ، الجزائر 1981 .
- ابن محاسن (يحي) ، *المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية* ، تحقيق محمد عدنان البخيت. دار

الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1984 .
- ابن مخلوف (محمّد) ، *شجرة النور الزكية* . دار الفكر ، بيروت ، د. ت .
- المراكشي (عبد الواحد) ، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب* ، القاهرة 1949 .
- المراكشي (محمد بن عبد الملك) ، *الذيل والتكملة* 4 ، 5 ، 6 ، تح احسان عبّاس ، بيروت ، د. ت . 1 ، 2 ، 8 ، تح محمد بن شريفة ، بيروت ، الرباط (1984) .
- ابن مرزوق التلمساني (محمد) ، *المسند الصحيح الحسن في مآثر محاسن مولانا أبي الحسن* ، تحقيق د. ماريا خيسوس فيقيرا ، الجزائر 1981 .
- مقديش (محمود) ، *نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار* ، تح الزواري ومحفوظ ، بيروت . دار الغرب الاسلامي، 1988 .
- المقري (أحمد) ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق ابن تاويت وسعيد اعراب (5 أجزاء) الرباط ، د. ت .
- *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب* ، 8 أجزاء ، بيروت ، دار صادر ، 1968 .
- مؤلف مجهول، *كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار* ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء 1985 .
- مؤلف مجهول ، *الحلل الموشية* ، تحقيق د. سهيل زكار ، والأستاذ عبدالقادر زمامة ، الدار البيضاء ، 1979 .
- مؤلف مجهول ، *كتاب الطبيخ* ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد 1961 .
- مؤلف مجهول ، *مفاخر البربر* ، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط 1934 .
- مؤلف مجهول ، نبذة العصر في *أخبار ملوك بني نصر* ، تحقيق ألفريد البستاني ، تطوان 1940 .
- المقريزي ، البيان والاعراب ، القاهرة ، د. ت .
- المغيلي (محمد بن عبد الكريم) ، *أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي* ، تحقيق عبد القادر زبادية ، الجزائر 1974 .
- ابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم) ، *معالم الايمان في معرفة أهل القيروان* ، 4 أجزاء ، تونس 1990

الناصري (أحمد بن خالد) ، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى* ، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري ، الدار البيضاء 1955 .
- النويري (شهاب الدين أحمد) ، *نهاية الأرب* ، ج XXIV ، تحقيق حسين نصّار، القاهرة 1983 .
- وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع ، مدريد 1961 .
- الوادي آشي (محمد بن جابر) ، برنامج ، تحقيق محمد محفوظ، بيروت 1980 .
- الوزان (الحسن) ، *وصف افريقيا* ، تحقيق محمد الأخضر ومحمد حجي ، الرباط 1982 .
- الونشريسي (أحمد بن يحي) ، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب* ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1981 .
- ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، ليبزيغ ، 1873 .
- أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) ، *كتاب الخراج* ، بيروت 1990 .

المراجع

- باتسييفا (س) ، *العمران البشري في مقدمة ابن خلدون* ، القاهرة 1986 .
- أبو ضيف أحمد (مصطفى) ، *أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين* ، الدار البيضاء ، 1982 .
- بوتشيش (ابراهيم القادري) ، *أثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي في منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة* (250 هـ / 316 م) الرباط ، (منشورات عكاظ) 1992 .
- الجابري (محمد عابد) ، *العصبية والدولة* ، الرباط ، 1982 .
- جدلة (ابراهيم) ، *المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي* (شهادة تعمق في البحث) ، تونس 1989 .
- العودي (رجا) ، ديوان النقائش الاسلاميّة في العهد الحفصي (شهادة كفاءة في البحث) ، تونس 1988 .

- جعيط (هشام) ، *الكوفة ، نشأة المدينة العربية الاسلامية* ، الكويت 1986 .
- نـظرة ابن خلدون للمدينة ومشكلة التمدين ، *الحياة الثقافيّة* ، 1980 ، ص 234 – 239 .
- الجنحاني (الحـبيب) ، *دراسات في التـاريخ الاقتصـادي والاجتمـاعي للمغـرب الاسلامي* ، بيروت 1986
- الجيدي (عمر بن عبد الكريم) ، *العرف والعمل في المذهب المالكي* ، المغرب والامارات ، 1984 .
- الحجي (حياة ناصر) ، *أحوال العامة في حكم المماليك : دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية* ، الكويت 1984 .
- حجي (محمد) ، *الزاوية الدلائية* ، الرباط . د . ت.
- حسن (محمد) *القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط* ، دار الرياح الأربع للنشر ، تونس 1986
- قبيلة نفوسة ، *مجلة كلية الآداب بالرباط* ، 1983 .
- وثيقة في التاريخ الريفي ، تحبيس هنشيـر بن منصور بالمهدية على رباط المنستير ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 50 ، 1986 .
- فروع جديدة من شجرة أنساب الحفصيين ، الكراسات التونسية ، 1982 .
- الخميري (الطاهر) ، *الأمثال العامية التونسية* ، الدار التونسية للنشر، تونس 1981 .
- دندش (عصمت) ، *دور المرابطين في نشر الاسلام في غـرب افريقيا* ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1988 .
- الدوري (عبدالعزيز) ، مقدمة *في التاريخ الاقتصادي* ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، مارس 1982 .
- رزوق (محمد) ، *الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين* 16 و17 ، الدار البيضاء 1989 .
- روسي (ايتوري) ، *طـرابلس تحت حكم الاسـبان وفرسـان مالطا* ، ترجمـة وتقديم خليـفة محمد التليسي ، طرابلس 1985 .
السعداوي (أحمد)، الآفات والكوارث الطبيعية بالمغرب الوسيط (IX-V هـ/ XV-XI م)، شهادة كفاءة في البحث، تونس 1987 .
- سعيد (محمد) ، *القبائل الهلالية والسليميّة وعـلاقتها بالدولة الحفصيّة* ، شهادة كفاءة في البحث ، تونس 1987 .
- سعيدان (عمر) ، *علائق الحفصيين ببلاط أراغون في عهد جاكمو الثاني* ، سوسة 1985 .
- *سيرة بني هلال* ، أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية ، تونس 1990 .
- الشابي (علي) ، *أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية* ، الدار التونسية للنشر، 1979 .
- *عرفة الشابي* ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، 1982 .
- ابن شقرون (محمد بن أحمد) *مظاهر الثقافة المغربية* ، الدار البيضاء 1982 .
- شيخة (جمعة)، ثورة الميورقيين بإفريقية، الكراسات التونسية، عدد 117، 118، 1981، ص 91– 122 .
- الشيخلي (صباح) ، الهلاليون في المغرب ، *المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية* ، عدد 70 / 71 ، 1982 .
- الطالبي (محمد) ، *الدولة الأغلبية* ، دار الغرب الاسلامي ، 1985 .
- دراسات في تاريخ افريقية وحضارتها ، تونس 1982
- الطاهري (أحمد) ، *عامة قرطبة في عهد الخلافة* ، الرباط (منشورات عكاظ) ، 1989 .
- الطويلي (أحمد) ، *الحياة الأدبيّة بتونس في العهد الحفصي* . دكتورا (مرقونة) تونس 1985
- القبلي (محمد) ، *مراجعات حول المجتمع والثّقافة بالمغرب الوسيط* ، الدار البيضاء ، 1987
- قيقة (عبد الرحمان) ، من اقاصيص بني هلال ، تونس الدار التونسية للنشر ، 1987 .
- عبد الوهاب (حـسن حسني) ، *كتاب الـعمر* ، تحقيق البشـير البكوش والعروسي المطوي ، جزءان ، تونس 1992 .
- *ورقات في الحضارة العربية بافريقية التونسية* ، مكتبة المنار، تونس 1972 .
- العلام (عزالدين) ، *السلطة والسياسة في الأدب السلطاني* ، الدار البيضاء ، 1991 .
- عنان (عبد الله) ، *تاريخ دولة الاسلام في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين* ، بيروت . 1968 .
- عياد (محمود) ، *جوانب من الحياة الاجتماعيّة في المغرب الأوسط* ، الجزائر 1982 .

- غراب (سعد) ، كتب الفتوى وقيمتها الاجتماعية ، *حوليات الجامعة التونسية* ، عدد 16 ، 1978 .
- كاهان (كلود) ، *تاريخ الشعوب الاسلامية* ، بيروت 1983 .
- لابدوس (ايرا) ، *المدن الاسلامية في عهد المماليك* ، بيروت 1987 .
- ليفي بروفنسال ، *مؤرخو الشرفاء*، تعريب عبد القادر الخلادي ، مطبوعات دار المغرب الرباط ، 1977
- لي تورنو (روجي) ، حركة *الموحدين في المغرب* ، تونس ، الدار العربية ، للكتاب 1982 .
- ابن مامي (محمد الباجي) ، *مدارس مدينة تونس في العهدين الحفصي والمرادي* ، شهادة التعمق في البحث ، تونس 1980 .
- مردك بك (خليل) ، *كتاب الأعرابيات* ، دمشق ، 1964 .
- المرزوقي (محمد) ، *قابس جنّة الدنيا* ، القاهرة 1962 .
- مزين (محمد)، *فاس وباديتها* (1549 – 1634) جزءان ، الرباط 1986 .
- المطوي (محمد العروسي) ، السلطنة الحفصية : *تاريخهـا السياسي ودورها في المغرب الاسلامي*، بيروت ، دار الغرب الاسلامي 1986 .
- المكيب (نجم الدين عالب) ، مدينة *طرابلس عبر التاريخ* ، الدار العربية للكتاب 1978 - ابن منظور ، *لسان العرب* ، دار المعارف ، القاهرة ، دون تاريخ .
- المنوني (محمد) ، بحث عن مجموع رسائل ديوانية نادرة ، دعوة الحقّ: عدد 7 ، 1989 ص 218 .
- حضارة الموحدين ، الدار البيضاء ، 1989 .
- المصادر العربية لتاريخ المغرب ، الرباط (جامعة محمد الخامس) 1989 .
- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ، الرباط ، 1979 .
- موسى (عزالدين احمد) ، *النشاط الاقتصادي في الغرب الاسلامي* ، بيروت 1983 .
- مؤنس (حسين) ، *فتوى الونشريسي ، أسنى المتاجر* ... ، صحيفة المعهـد المصري للدراسات الاسلامية 1957 ، عدد 5 .
- نصار (ناصيف) ، *الفكر الواقعي عند ابن خلدون* ، بيروت ، دار الطليعة 1965 .
- ندوات :
- *أدب الرحلة* ، مكناس 1993 .
- *الانتربولوجيا والتاريخ* ، الدار البيضاء 1988 .
- *التاريخ وأدب المناقب* ، الرباط ، 1988 .
- *تجارة القوافـل ودورها الحضاري* ، المنظمة العربـية للتربية ، بغداد ، 1984 . التـراث المغربي الأندلسي ، الدار البيضاء 1991 .
- *تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي* ، الرباط، 1988 .
- *المدينة في تاريخ المغرب العربي* ، الدار البيضاء 1988
- *مسالة المدنية والمدينة العربية* ، مجلة الفكر العربي ، اكتوبر / نوفمبر 1982 .

Bibliographie

Agilar Sebastien,V, Aportacion de Los Arabes Nomades a la organisacion militar del ejercito Almohade, *Al-Qantara*, XIV, 1993, pp. 394-415 .

Alarcon, *Documentos Arabes del Archivo de la corona de Aragon*, Madrid, 1940 .

Al- De Premare, *Maghreb et Andalousie au XIV e s.* , Lyon 1981 .

Almagro, A ., La Torre de Romilla, una torre Nazari en la Vega de Granada, *Al-Qantara*, Vol. XII, 1991, Fasc. 1, pp. 225-250 .

Amari .M, *Diplomi Arabi del Archivio Fiorentino*, Firenze, Le Monnier, 1863.
Biblioteca Arabo - Sicula (3 fasc + 1 vol. pour appendices) .

Arribas Palan, M., Une lettre de Martin d'Aragon à Abu Faris de Tunis *Ibla*, 1955, n. 71, pp.349-356 .

Atlas Archéologique de la Tunisie, édit. Babelon, Cagnat, Reinach, Paris 1893 .

Ayyub, A., Sirat Bani Hilal, A propos de quelques manuscrits conservés à Berlin Ouest, *Revue d'Histoire Magrebine*, n°33-34, 1984 .

Attié Attié, B., L'origine d'Al Filaha ar -Rumiya et du pseudo-Qustus, *Hespéris-Tamuda*, 1972 .

A . Babaker, *Les Rélations entre le Tchad et l'Ifriqiya*, D.R. A .,
Tunis 1992 .

Baker . A, Wadran, a key to an enigma, *Arabica*, 1984, Fasc. 2, T XXX.

Bazzana, A ., *Habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne Orientale*, Madrid 1992 .

Bédoucha. J, Système hydraulique et société dans une oasis Tunisienne, *Etudes Rurales*, 1976, n. 62, Janv. -Fév. 1976 .

Bel . A, *La réligion musulmane en Berbérie*, Paris 1938 .
- *Sidi Bou Medyen et son maître Ed-Daqqaq à Fès*, Paris 1884

Ben Cheneb, M., La Farisiyya ou les débuts de la dynastie Hafside, *Hespéris* 1928,pp. 23-37 .

Benito Patron,R ., Les manuscrits agricoles Arabes de la Bibliothèque nationale de Paris, *Hespéris -Tamuda*, 1969 .

Berardi, La médina de Tunis, *Architecture d'Aujourd'hui,* n°. 153, 1971 .

Berque, J., *Etudes d'Histoire Maghrébine,* Paris 1940 .
-Les Hilaliens répentis ou l'Algérie rurale au XV s. , *Annales ESC*, n.°5, sept. -oct.1970 .
- *L'Intérieur du Maghreb*, XV-XIX, Paris 1978 .
- En lisant les nawazils Mazouna , *Studia Islamica* , T II, 1970 .
- Le monde méditerranéen, retour à Mazouna, *Annales E.S.C*, 1970-1974 .
-Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut Atlas occidental, *Annales ESC*, 1953 .
- Du nouveau sur les Bani Hilal , *Studia Islamica*, T XXXVI,

1972 .

Bolens . L, *Agronomes Andalus du moyen-âge*, Paris 1978 .
- Pain quotidien et pain de disette dans l'Espagne Musulmane, *Annales E SC*, n°3-4, mai-août 1980, pp. 462-470 .

Bono . S, Documenti inedite rari sulla storia della Tunisia neglianni 1573-1574, *Studi Maghrebini*, I, 1966, pp. 91-101 .
- *Tunisi et La Golette negli anni 1573-1574* .

Bourin Derruau . M, *Temps d'équilibres, temps de ruptures* , Paris 1992 .

Braudel .F ., *Ecrits sur l'histoire* , Paris 1969 .

Brett, M., Arabs, Berbers and holymen in Southern Ifriqiya, *C. T.*, n°117-118, 1981, pp. 533 et Suivantes .
- Sijil Al- Mustansir, *Actes du 1er congrès d'Histoire du Maghreb*, Tunis 1975, p. 101et suivantes.

Brunschvig . R, *La Berbérie Orientale sous les Hafsides*, 2 T, Alger- Paris 1940 .
- *Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au XVeme s.* : Adorne et Ibn Abdel Bassit, Paris 1936 .
- *Etudes d'Islamologie*, 2 T, Paris 1971 .
-Mesures et capacités dans la Tunisie médiévale, *R .A.*, 3-4 Trim., TII, 1935,pp. 36-96 .
- Nuba- Nubiya, *R .T .*, 1935, pp. 149 -157 .
- Ibn As-Shamma', *AIEO*, Alger 1934-1935, pp. 193-232 .

Cahen, C., L'évolution de l'Iqta' , *Annales ESC* ., 1953, pp. 25-52 .
- Pour Une Histoire de l'agriculture, *JESHO*, XIV /I, April 1971.
- Mouvements populaires et Autonomie Urbaine, *Arabica*, 1958, n°. 5, pp. 225-250, 1959, n°. 6, pp. 25-56,, 233-265 .
- Quelques mots sur les Hilaliens, *JESHO*, vol. XI, mars 1961, p. 131 et suivantes .
- Reflexions sur l'usage du mot féodalité, *JESHO*, III, pp. 4-20, 1959.
- Reflexions sur le waqf ancien, *Studia Islamica* 1961, n°. 14 .

Carpentier , Autour de la peste noire (XIV s), *Annales ESC*, 1962.

Carrere, *Barcelone, Centre économique* , Paris 1972 .

Cara Baroja, Norias, azudas, acenas, *Revista de Dialectologia y Tradiciones Populares*, X, pp. 29 - 160 .

Chalmetta. P., *El Senor del Zoco en Espana*, Madrid 1973 .

Cambuzat, P, L *L'évolution des cités du Tell en Ifrikiya du VII au XI s.*, Alger 1972 .

Carmen, Romero Funes, *Emigrados Andalusies Al Norte de Africa y Oriente Medio*, (Siglo VIII-XV), Thesis, Direc. Molina, Granada, 1988-89 .

Cartographie Archéologique et Historique , Paris, Institut Pédagogique National, Paris1970 .

Chastagnol, Citadins et grands nomades dans l'histoire de l'islam, *S . I.*, XXXIX, 1969.

Colin, La noria Marocaine et les machines hydrauliques dans le monde Arabe, *Hespéris* 1932, pp. 22-61 .

Colloque : *La cité dans l'histoire du Maghreb,* Casablanca 1990 .

Coloquio : La Cuidad Hispanico, siglo XIII al XVI, Septiembre 1981, *Revue Hispana*, n°162, Madrid 1986 .
Cressier,P., *Les châteaux ruraux d'al-Andalus*, Madrid 1988 .
Cuoq, *Recueils des sources Arabes concernant l'Afrique Occidentale du VIIIème au XVI s.* , Paris 1975 .
Cusa, S ., I *Diplomi Greci ed Arabi di Sicilia*, Palermo 1868 .
Daoulatli, A ., *Tunis sous les Hafsides*, Tunis 1976 .
Day, J, Prix agricoles en méditerranée à la fin du XIVème s, *Annales ESC*, Juillet-Août 1961 .
De Epalza, La dualidad campello - fahs en el - espacio agricole de Al-Andalus, *Sharq Al-Andalus*, n°9, 1987 .
Etudes sur les moriscos Andalous en Tunisie , Madrid -Tunis1973 .
De Mondoza, Documents inédits sur l'Histoire del'occuption Espagnole en Afrique, *Revue Africaine*, 1877, pp. 219 et suivantes.
De Planhol,X., Les Fondements géo. de l'Histoire de l'Islam, Paris 1968 .
De Premare, Documents Inédits, *Revue Africaine*, 1875, n°19.
Dermenghem. E, *Le culte des saints dans l'Islam Maghrébin*, Paris 1982
Despois, J, *La Tunisie Orientale, Le Sahel et la Basse Steppe*, Paris 1955 .
Le Djebel Ousselat, les Ousseltiya et les Kooub, *C .T.* , n 28, VI Tr. 1959 .
Devisse, J . Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en rélation avec la méditerranée, *Revue d'Histoire Economique et sociale,* 1972 , n° 1, pp. 42-73.
Dhina, A., *Le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abu Hammou Moussa et d'Abou Tachfin* , Alger, s. d.
Les Etats de l'Occident Musulman au XIII, XIV, XV s., Alger 1984 .
Diehl, *L'Afrique Byzantine*, Paris 1896 .
Dolores Rodriguez Gomez, M, *El Islam en la costa Granadina*, Granada 1993 .
R . Dozy, *Le Calendrier de Cordoue* , Leiden 1961 .
Dufourcq, *L'Espagne Catalane et le Maghrib au XIII et XIV s.*, Paris 1966 .
Berbérie et Ibérie Médiévale : Un problème de rupture, *Revue Historique*, T CXL, 1968, pp. 293-324 .
Les Catalans, la méditerranée, la Sicile, *Annales ESC*, 1968, 1120-1123.
Chrétiens et Musulmans durant les derniers siècles du moyen -âge : *Congresso International d'historia mediterranea*, I, Actas 1980, pp. 207.
Les Rélations de la péninsule Ibérique et de l'Afrique du Nord au XIV siècle, *Annuari de Estudios medievales*, VII, pp. 39-65 .
La vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous domination Arabe, Paris 1978 .
Documents Inédits sur la politique Ifrikiyenne de la Couronne d'Aragon, Barcelone 1954 .
Fahd, Le Calendrier des Travaux agricoles d'aprés Al Filaha An-Nabatiyya, *Héspéris* 1960 .
Conduite d'une exploitation agricole d'aprés L'agriculture Nabatéenne, *Héspéris -Tamuda* 1972 .
Ferhat,H, *Le Maghreb au XII et XIII s. : Les siècles de la foi*, Edit. Wallada, Casablanca 1992 .

Friedmann, *Villes et campagnes, Civilisations urbaines et civilisations rurales*, Paris 1953 .
Garcin, J. C ., Le système militaire Mamluk et le blocage de la société Musulmane médiévale, *Annales Islamologiques*, T XXIV, Le Caire 1988, pp. 94-110 .
Gardet,L., *La cité Musulmane*, Paris 1958 .
Gastan, A., *La conquête de Tunis en 1535 racontée par deux écrivains Franco-Courtois*, Besançon 1891 .
Gautier, F, *Le passé de l'Afrique du Nord*, Paris 1952 .
Ghrab, S., *Ibn Arafa et le Malikisme en Ifrikya au VIII / XIV eme s.*, Tunis 1992 .
Gellner, E., *Arabs and Berbers from tribu to nation in North Africa*, London 1973 .
Saints of Atlas, Londres 1969 .
Guichard, P., Le peuplement de la région de Valence.. *Mélanges de la Casa de Velazquez*, 5, pp. 103-158 .
Structures Orientales et occidentales dans l'Espagne Musulmane, Paris 1977 .
Le problème de l'existence de structures de type féodal dans la société d'Al-Andalus, *Structures Féodales et Féodalisme dans l'Occident Méditerranéen*, Rome 1968 .
L'eau dans le monde Musulman médiéval, *L'Homme et l'eau en méditerranée et au Proche Orient*, Lyon, pp. 117-124 .
Les Musulmans de Valence et la reconquête, XI- XIII s., Damas, 1991.
Goitein, S, D *A Mediterranean Society*, University of California Press, 1967 .
Letters of medieval Jewish Traders, Prinston University Press, 1973.
Studies In Islamic History and Institutions , Leiden , Brill, 1968
Artisans en méditerranée Orientale, *Annales ESC*, 1964, n. XIX, septembre.
Golvin, L., *Essai sur l'Architecture réligieuse Musulmane*, T IV, Paris 1979 .
Heers, J., *Gênes au XV s.*,Paris 1966 .
Le Clan familial, PUF, Paris 1974
Gênes et l'Afrique du Nord vers 1450, *Annuario di Estudio Medievale*, 1991, n°233-245 .
Le sahara et le commerce medit. à la fin du moyen-âge, I.E.O, T XVI, 1958, pp. 247-258 .
Hocquet, *Le sel et le pouvoir de l'an 1000 jusqu'à 1789*, Paris 1984
Le sel et la fortune de Venise, 2 T., Lille, 1978-79 .
Hourani ,A. H. and Stern, S. M ., *The Islamic city*, Oxford 1970 .
Ibn Al-Abbar, Politic I Escriptor Arab valentcia , *Actes del Congres Internacional Ibn Al-Abbar i el seu temps*, Onda, Valencia 1990.
Ibn Awwam, *Le Livre de l'Agriculture*, Traduit par Clément -Mullet, Edit. Bouslama, Tunis 1977 .
Jaït, H., Al-kufa naissance d'une cité Islamique, Paris, Maisonneuve 1990.
Jehel,G, *La méditerranée médiévale* , de 350-1450, Paris 1992 .
Les Génois en méditerranée Occidentale, Fin XI- début XIV s., Paris 1992 .
Idris, H. R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides*, Paris 1962 .
Le mariage en Occident Musulman d'après un choix de Fetwas médiévales extraites du Mi'yar d'Al-Wansharisi, *Studia Islamica*, T II, p.1970.

Kably, M., *Société, pouvoir et Réligion au Maroc à la fin du moyen- âge*, Paris 1986 .
Variations Islamistes et Idendité du Maroc médiéval, Paris 1989.
Khawam,R., *Les Délices du coeur, Ahmed Tifashi*, Paris 1989.
Khelifa, A., Le port de Hunayn au moyen-âge, *115 Congrés Nat. des sociétés Savantes*, Avignon 1990, pp. 379-392 .
Kolendo, J., *Le Colonat en Afrique sous le Haut Empire*, Paris 1976.
Kotula, T., Un Témoignage d'Al-Bakri et le problème de la Ratio Privata Sévérienne en Tripolitaine, *Antiquités Africaines*, TXXII, 1986.
Laroui, A., *Hitoire du Maghreb*, Essai de synthèse, Paris 1970 .
Lanfreducci et Bosio, Costa e discorsi di Barbaria, *R .A* ., 1925 .
Lefebre, *Du Rural à l'Urbain*, Paris 1970.
Le Goff,J., *Faire L'Histoire*, 3 T,Paris 1974 .
Levi -Provençal, *Lettres Almohades*, Rabat 1992 .
Les Historiens des Chorfas (XIV -XX s.), Paris 1922
Lewicki,T., A propos d'une liste de tribus Berbères, *F. O.*,1959.
Etudes Maghrébines Soudanaises, Varsovie 1976 .
Lezine,A., *Deux villes d'Ifriqiya*, Tunis -Paris, 1971 .
Lombard, M., *Les Textiles dans le monde Musulman*, Paris 1978 .
Lopez, R. S. et Raymond, I.W., *Medieval Trade in the mediterranean world*, New york - London 1961 .
Lopez-Morillas, C., *Los Berberes Zanata en la Historia y la Leyenda*, Al-Andalus 1977 .
Lopez de la Plaza, *Al-Andalus : mujeres, sociedad y religion*,Malaga 1992 .
Louis,A., *La Tunisie du Sud : Ksars et villages de crêtes*, Paris 1975 .
Mahjoubi, A., De la fin de l'antiquité au haut moyen-âge, *Congrés National des Sociétés Savantes*, Montpellier 1985 .
Malowist,M,Quelques Observations sur le commerce de l'or dans le Soudan Occidental aiu moyen-âge, *Annales ESC*, 1970-72 .
Malpica Cuello,A., *El Cultivo de la cana de azucar en la costa Granadina*, Granada 1988.
G. Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XI au XIV s.*, Constantine -Paris 1913.
Martinez-Montavez, Dos Descripciones de la cuidad Al momento de la empresa (1535), *Revista de la Universidad de Madrid* , 1970, Vol. XIX, Novembre 1973.
Mas- Latrie, *Relations et Commerce de l'Afrique Sept. le au moyen-âge*, Paris 1866.
Traités de paix et de commerce .., Paris 1865.
Masia de Ros, *Historia General de la pirateria*, Barcelona 1959.
Masqueray, E., *Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie* , Paris 1983, 374p.
Mauny, *Tableau géo.que de l'Ouest Africain au moyen-âge*, Dakar 1961 .
Les Siècles Obscurs de l'Afrique Noire, Paris 1970.
Melis, F, La Lana della Espagna mediteranea et della Barbaria Occidentali ni sicoli XIV-XV, *Mercaderes Italianos en Espana*, Seville 1976 .
Menjot, D., *Murcie au Bas mouyen-âge*, Thèse d'Etat (Dactylographiée), Nice 1991 .

Mirot, Le siège de Mahdia en 1390, *Revue des Etudes Islamiques*, Paris 1932 .
Molina,Luis, *Una descripcion anonima de Al-Andalus* (Dhikr Bilad Al-Andalus), Madrid 1983 .
Molina Lopez, E., *Murcie y El Levante Espanol en el siglo XIII* , Granada 1978 .
Dos importantes privilegios a los emigrados Andalusies en El norte de Africa en El siglo XIII, *Cuadernos de Historia del Islam*, n°9, Granada,pp. 5-26 .
Mollat, *Les pauvres au moyen-âge*, Paris 1978 .
Monchicourt, *Etudes Kairouanaises : Kairouan et les Chabbia*, Tunis 1939 .
Essai Bibliographique sur les plans imprimés de Tripoli, Djerba et Tunis, R.A., 1925, 4 Trim.,pp.387 et suites .
Montagne, R., *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc*, Paris 1930 .
Mumford, L., *La cité à travers l'Histoire*, Paris 1964 .
Ould Cheikh, *Eléments d'Histoire de la Mauritanie*, Nouakchott, 1988.
Oumlil, A., *L'histoire et son discours*, Casablanca 1982 .
Pegolotti,B., *La practica della mercatura*, edit. A. Evans, Cambridge 1936 .
Pellisier, *Description de la Régence de Tunis*, Tunis 1980 .
Penet, P., *L'Hydraulique agricole dans la T unisie méridionale*, Tunis 1913 .
Pistarino, G., *Notai Genovesi In Oltremare Atti Rogati A Tunisi Da Pietro Battifoglio* (1288-1289), Genova 1986 .
Pirenne, H., *Les villes au moyen-âge*, Bruxelles 1939 .
Poliak, A., Les Révoltes populaires, *Abstracta Islamica*, Ve série, 1932-34.
Poncet, J. Le mythe de la catastrophe Hilalienne, *Annales ESC*, 1968, pp. 1101-1105 .
Powers, D. S., Fatwas as sources for legal and social history, *Al-Qantara*, vol. XI, Fasc. 2, Madrid 1990 .
La Primaudaie, Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique, *R. A.*, 1875,-1879 .
Pringle, *The Defense of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest*, Oxford 1981 .
Raymond, A., Les Rapports villes-campagnes, *Terroirs et Sociétés au Maghreb et au Moyen* - Orient, Lyon 1987 .
Rectenwald, G., *Le contrat de Khemmasset dans l'Afrique du Nord*, Paris 1912 .
Relaciones de La Peninsula Ibérica con El Maghreb, Ed. Garcia-Arenal, 1988, Consejo Superior de Investigaciones Scientificas, 1988
Rodriguez, M., *La Intervencion de los Benimerinos*, Madrid CSIS , 1992, .
Romano, R., A propos du commerce du blé dans la méditerranée des XIV et XV s., *Hommage à L. Febre*, T II, Paris 1953 .
Roncayollo, M., Géographie des villages désertés, *Annales ESC*, 1970-1972
Rosenberger,B., et Triki,H., Famines et Epidémies au Maroc aux XVI et XVII s., *Hespéris -Tamuda*, 1973 .
Salama, P., *Les voies Romaines d'Afrique*, Alger 1951 .
Sebag,P., *Une Rélation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574*,Tunis 1971 .
Sebastien, Aguilar, Aportacion de los Arabes nomades a la organisacion militar del

ejercito Almohade, *Al-Qantara*, XIV, 1993, pp. 393-441 .
Serjeant, R. B., *The Islamic city*, Unesco 1980 .
Shatzmiller M ., *L'historiographie Mérinide*, Brill 1982 .
Islam de campagne et Islam de ville, *Studia Islamica*, LI,1980, n°. 51 .
Solignac, Recherches sur les Installations hydrauliques deKairouan et des Steppes Tunisiennes du VII au XI s., *Annales IEO*, 1952, T X, Alger .
Travaux Hydrauliques Hafsides de Tunis, *2ème Congrés de la Fédération des Sociétés Savantes d'Afr. du Nord,* 1936 .
S. Soucek, *Tunisia in Kitab -I- Bahriye By Piri-Reis*, Culumbia 1970 .
Soyous, *Le Commerce des Européens à Tunis*, Paris 1929.
Talbi, M., Droit et économie en Ifriqiya au III-IV s., *Etudes d'Histoire Ifriqiyenne*, pp. 185-231.
Thébert, Y et Biget, L., *L'Afrique après la disparition de la cité classique : Cohérence et rupture dans l'histoire Maghrébine,* Rome 1970.
Bulla Régia, *Encycopédie Berbère*, Aix 1989.
De la cité Antique, *C.T.* , Avril 1986, pp. 31-46.
Tissot, *Géographie comparée de la province Romaine d'Afrique*, 2 T, Paris 1884.
Torras Balbas, Extension y demografia, *Cuidades*, TI pp. 93-104.
Touati, H., En relisant les nawazil Mazouna, *Studia Islamica*, LXIX, 1989.
Approche sémiologique et historique d'un document hagiographique Algérien, *Annales ESC*, sept-octobre, 1989, n°5, pp. 1205-1228.
Le Tourneau, Un personnage important du mouvement Almahade : Abu Hafs Umar Al-Inti, *Atti di Congresso Intle di Studi Nord-Africani*, Cagliari, 1965, pp. 83-112.
Urvoy, D, Structures du monde des Ulémas à Bougie au VII/XIII, *S.I.,* n°43, 1976, pp. 87-104, 12, 1978.
Vallvé, J. La emigracion Andalusi Al Magreb en el Siglo XIII, *Relaciones de la Peninsula Iberica con El Magreb*, Madrid 1992.
Verlinden, C, La grande peste de 1348 en Espagne, *Revue Belge de philologie et d'Histoire*, 1938.
Vanacker, C., Géographie économique de l'Afrique du Nord, *Annales ESC*, 1973.
Lagardère, *Campagnes et paysans d'Al-Andalus*, Paris 1993.
Villar, P. *Or et monnaie dans l'Histoire*, Paris 1974.
Von Sivers, P., Back to nature : the agrarian foundations of society according to Ibn Khaldoun, *Arabica* T XXVII, fasc. I.
Wiet, G., Le traité des famines de Maqrizi, *JESHO*, n°5, 1962, pp.1-90.
Zanon, J. *Topografia de Cordoba Almohade a traves de las Fuentes Arabes*, Madrid 1989.
Zbiss, S.M., *Les Inscriptions de Gorjani*, Tunis 1970.

Liste des Abréviations

Annales ESC	Annales, Economies, Societés, Civilisations
A. A. T.	Atlas Archéologique de Tunisie
A. I. E. O.	Annales de l'Institut d'Etudes Orientales
C. S. I. S.	Consejo Superior de Investigaciones Scientificas
C. T.	Cahiers de Tunisie
D. R. A.	Diplôme de Recherches Approfondies
E. I.	Encyclopédie de l'Islam
J. A. H.	Journal of African History
J. E. S. H. O.	Journal of Economic and Social History of the Orient
R. A.	Revue Africaine
R. E. I.	Revue des Etudes Islamiques
R. H.	Revue Historique
R. O. M. M.	Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerraneé
R. T.	Revue Tunisienne
R. T. S. S.	Revue Tunisienne des Sciences Sociales
R. O.	Rocznick Orientalistyczny
S. I.	Studia Islamica

فهرس الأعلام والشّعوب والقبائل

الجميعات : 131، 132 .
ابن الجلاب: 711 .
الجليزي ،أبو القاسم : 186 ، 583، 598 .
الجناوني: 20.
الجندوبي، جابر : 204 .
الجندوبي، يعقوب بن سعيد : 205
الجندوبي، أبو يوسف : 205 .
الجواري: 140، 144، 145، 147، 283- 286.
الجواوية : 146 ، 284 .
الجيّاني ، أبو الحسن علي : 214 .132،
جيرالدو : 548 .
جيستينيان : 206 .
الجيطالي : 20 .

ح

أولاد الحاج: 134 .
ابن الحاج الغرناطي: 575، 577، 695، 793.
ابن الحاجي أبو عمرو: 697
الحاجي أبو زكريا: 742، 743
ابن الحاجب: 646، 698، 700، 711
الحامّي ،أبو جعفر أحمد بن خيران : 421 .
ابن الحباب: 330، 341، 342. 590، 726
ابن الحبير: 586 .
ابن حبيب : 423 .
الحبيبي أبو الزين: 668
الحبيبي عبد الله بن سلامة: 631
الحبيبي ، محمد: 159، 185، 213 .
الحجاج بن يوسف : 88 .
الحجّاجي ، أبو محمّد عبدالله: 213 .
ابن حجر العسقلاني: 606، 609، 696، 700
بنو حجري: 130 -134 ، 159 ، 221 . 650، 651، 657
أبو حرب صولة بن خالد : 645 .
بنو حركات : 209 .
الحريري: 712 .
بنو حريز: 145 .
ابن حزم : 20 ، 142 .
الحسن الحفصي: 256
حسن بن ثعلب : 41 .
حسن بن علي : 30 .
آل حسين: 131 ، 132 .
بني أبي الحسين: 533. 586 .
الحصري : 27 .
بنو حصن: 113، 125، 132 .
بنوحصين: 104 .
الحضرمي ابن عبد المهيمن : 701 .
الحطاب، علي: 186، 190، 468، 633، 743 .
أبو حفص عمر: 116، 118، 151، 210، 271، 326، 520 ، 682، 683، 685، 687، 725.

775.
الحفصيون: 7، 8، 17، 49، 53، 69، 73، 77، 97، 107، 109، 110، 114، 117-119، 126، 148، 152، 155، 156، 163، 168، 197، 306- 308، 326، 337، 400، 538، 544، 581، 588، 689، 595، 737، 754.
ابن حكيم (القائد): 760 .
أولاد حكيم: 88، 113، 116، 119، 121، 122، 125- 132، 136، 192، 205، 213-215، 226، 231، 245، 257، 327- 332، 650، 662، 668، 689، 777.
الحكيم ، علي بن يوسف : 22 .
ابن حكيم، فارس بن جواد: 667
ابن حكيم، محمد بن علي اللّخمي: 178 ، 182 .
الحكيمي،أبو رحمة غيث : 213، 225، 227، 230، 326، 330، 332. 630، 653، 667- 669، 756، 764.
الحكيمي ، أبو الزّين محمد بن غيث: 330 .
الحكيمي ، أبو سعيد خلف الله : 213 .
الحماديون : 39، 40، 45، 215، 320 .
أبو حمارة : 109 .
الحمارنة : 138، 144 .
بنو حمزة : 104، 327، 328 .
أبو حمّو موسى: 105 .
الحموي ياقوت : 234 .
الحميري: 234، 247، 389 .
الحميري أبو الحسن بن أبي مروان: 580
الحميري، سالم بن أبي النّور : 252، 253
الحميري، أبو محمّد عبد الناظر : 252 ، 254
ابن حوط الله: 665
ابن حيدرة، أبو العباس: 733 .

خ

ابن خاتمة، الأندلسي: 606 .
ابن الخباز: 595، 751 .
بنو خراسان: 159، 217 .
الخرجة : 144 .
الخروف : 24 .
ابن الخطاب، عمر : 89، 97، 304، 319 .
ابن الخطيب : 19، 24، 60، 93، 107، 505، 515، 575، 606، 677.
الخلاسي، أبو محمد: 581 .
ابن خلدون(عبدالرحمان): 14 ، 18، 24، 28، 30، 51، 76، 89-97، 112، 114، 120-126، 131، 134، 139- 142، 154، 168، 179، 209، 233، 308، 326، 336، 339، 341، 349، 401، 449، 409 ، 461، 467، 486، 497 -501، 509، 529، 574، 578، 584 -591، 601، 609، 612، 619، 627، 640، 652، 652، 658،

673، 677- 683، 687، 693، 696، 697، 699، 702، 704، 706- 708، 710، 718، 749، 750، 751، 778، 780، 813، 818، 819.
محمد بن خلدون الأندلسي: 116، 584، 587، 591 .
ابن خلدون، الحسن بن محمد: 584، 678، 681 .
يحي بن خلدون : 18
بنو خلاف : 333 .
بنو الخلط: 30، 39، 131 .
خليل : 698، 700 .
الخميري المغازلي، أبو العباس أحمد: 649 .
ابن الخير: 398 .

د

داود (النبي) : 201 .
الداودي: 307، 319
الداودي، أبو زيّان : 159 .
بنو دبّاب: 44، 47، 51، 67، 108، 109، 138، 144-148، 273، 274، 281، 282، 327، 629، 650، 654، 664، 679، 753،
ابن دبّاب ، عبدالله: 296 .
الدبابي، مرغم بن صابر: 679
الدبّاغ : 64 ، 218 ، 504، 769 .
ابن الدباغ الحاجب: 688 .
ابن أبي دبوس: 483، 688 .
ابن دحية الكلبي : 665 .
الدرباسي ادريس: 764 .
بنو درجين: 34 .
الدّرجيني: 20، 290، 292، 390 .
درغوث باشا : 244، 257 .
دريد: 98، 99، 101، 110، 159، 205، 780 .
الدّريدي ،حسن بن سرحان : 39، 99 ، 780 .
دفركا ، عصمت: 504 .
دكّالة: 214 .
الدكالي، أبو عبد الله: 698، 716، 759، 809 .
الدكّالي، أبو مروان بن عبد الملك : 214
دلاّج : 115 ، 116، 132، 137، 159، 201 .
الدلائي الأندلسي: 290 .
بنو دمر: 138، 142، 143، 171 .
دهمان: 107، 134، 213، 214، 223، 227، 229 ، 229 260 ، 285 ، 668 .
الدّهماني، أبو القاسم : 159 .
الدهماني، أبو عيسى: 667 .
الدّهماني، أبو يوسف : 126، 213، 237، 255 ، 261، 544، 653، 664- 670، 691، 698، 738، 740، 742، 743، 753، 759، 764، 768- 773، 775، 779.
الدّهوس: 104 .
الدّواودة: 47، 51، 52، 91، 101، 102، 107- 112، 141، 325 - 329 ، 664، 782 .

دوريا، فيليب: 692 .
الدّيلم: 135
ابن أبي دينار : 18، 161، 256 . 611 .

ذ

الذّوادي، ابراهيم بن يعقوب: 134
ذياب: 28، 105، 640 .

ر

أولاد راجح : 101 .
ابن راشد القفصي: 21، 205 ، 342، 345، 355، 357، 387، 398 ، 404، 406، 409، 412، 418، 445، 481 ، 483، 517، 519، 525، 595، 604، 690، 698، 714، 719، 720، 731 .
ابن الرّامي: 71، 80، 164، 167، 170، 171، 495، 513، 599 .
الرّباوي ، أبو محمّد: 215 ، 759 .
الرّبعي ، عبد الرحيم : 334 ، 504 .
رجار الثّاني : 270 .
ابن أبي الرجال: 34 .
الرجراجي، محمّد بن عبد الكريم: 48، 50 766 .
ابن رستم، عبد الوهاب : 294 .
الرّسول: 85 ، 304، 314، 319، 350، 512، 638.
ابن رشد: 330 ، 351، 369، 420، 516، 519، 542 ، 641 .
ابن رشيد: 581
ابن رشيق : 27 ،
الرّصاع: 18، 22، 180 . 606- 609، 703 .
الرصفيّة ، خدّوج : 265 .
الرقادي، أبو يعقوب: 549 .
الرقي ، أبو بكر: 264 .
الرقي ، أبو عبدالله محمّد : 294 .
الرقي ، أبو الفرج نسيم بن سليمان : 264
الرمّاح، أبو عبدالله محمد: 88، 423، 425 645، 663، 668، 669، 719، 729، 760 .
الرّميمي ،محمد: 179 ، 591 .
روجار الثّاني: 270 .
روجي دي لوريا : 238، 275 .
مكسيم رودنسون : 12 .
الرّوم: 8 ، 295، 307، 403 .
رياح: 30، 39 - 45، 47 - 54، 98 - 114، 126، 134، 136، 159، 187، 197، 201 ، 214، 221، 227، 260، 325، 648، 668، 669، 677، 777 .
الرياحي جبارة: 783، 784 .
الرّياحي،أبو سرحان مسعود بن سلطان: 44، 46 .
الرياحي، محرز بن زياد: 665، 639 .

ك

ل

م

فهرس الأماكن والبلدان

ج

ح

خ

د

ذ

ر

فهرس الخرائط والجداول والوثائق

الفهرس العام

تصويب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
تتداخلت	تداخلت	5	3
ساهمت	ساهم	5	3
تخلو	لا تخلو	6	1
أنه	إنّه	8	1
السلمي	السليمي	51	21
انظمام	انضمام	135	8
م/	/ 1394 م	135	18
افريقه	افريقية	135	26
إننا	أننا	138	9
XXI	XI	139	17
أبو يعقوب	يعقوب	147	8
افريقة	افريقية	155	17
الزغبية	الزعبية	159	13
الزغبي	الزعبي	159	13
المولاتلي	الدولاتلي	185	
أتاوة	إتاوة	201	14
عباد القلاعي	عياد الكلاعي	208	6
أن	إن	241	7
ممتدا	وكان ممتدا	245	5
صبح... للهو	أصبح ...للهو	246	6
أحدى	إحدى	250	هامش (1)
شؤرن	شؤون	256	11
تعقد	كانت تعقد	258	11
نفيشة	تقيشة	259	هامش (2)
السلمية	السليمية	293	11
نزاع	نزاعا	293	21
1186/582	1187/583	313	2
1188/584	1187/583	313	12
المناقضة	المناصفة	317	14
محراث	محرث	321/22	27/7
أبو يعقوب	يعقوب	348	23
يعطى	يعطي	419	14
مقاطع	مقاطعا	430	22
أن	غير أنه	430	6
عددا كبيرا	عدد كبير	432	2
المح	الملح	473	1
المدنية	بالمدينة	552	2
المدنية	المدينة	552	15

لم نثبت في هذا الجدول الأخطاء التي تسربت في رسم الهمزة، ويتعين تعويض الهمزة القطعية بوصلية في الكلمات مثل انظر (27، 47، 82، 91، 416، 551) الانتشار (38، 50)، الانتجاع (196) الاستقرار (337) الخ...

تم طبع هذا الكتاب في شهر جوان 1999
بشركة «أوربيس للطباعة» - قصر سعيد
الهاتف : 701 547 - الفاكس : 235 546

عرفت هذه الحقبة تطوّرا اقتصاديا واجتماعيا هامّا، لكنّه ظلّ منحصرا داخل المدن ولم يفض إلى الانتقال الى مرحلة اقتصاديّة أخرى، وإلى نشأة نمط اجتماعي وثقافي متجانس وموحّد بالبلاد، وذلك نتيجة عوائق، منها ما هو خارجي مرتبط بتطوّر العلاقات في البحر المتوسّط، ومنها ما هو داخلي. وقد لخّص ابن خلدون أزمة المجتمع المغربي في قولته الشّهيرة: «الظلم مؤذن بخراب العمران»، وفعلا، مثّلت السّخرة - أو اغتصاب ثمرة العمل- ومصادرة الأموال الشّكل المتطوّر للظلم الاجتماعي. وانعكست أزمة البادية الهيكليّة على المدينة، فتراجع الانتاج والتبادل وانحسر العمران. ولم تكن الظاهرات الثقافيّة سوى وجه آخر لتلك الأزمة...

صورة الغلاف : دينار حفصي (ضرب عهد أبي حفص عمر)
غابة زيتون ومنشآت مائية ببلاد السّاحل

ISBN : 9973-922-48-4